

معارج التفكر ودقائق التدبر

تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

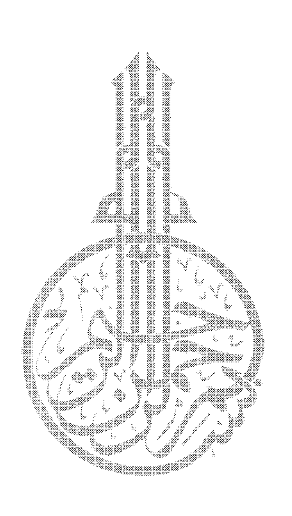
المجلد الحادي عشر

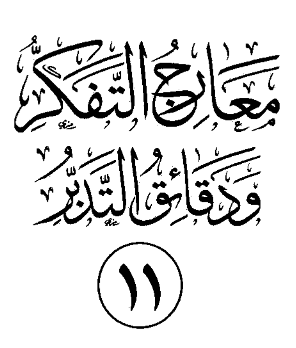
تفسير السور التالية:

الحجر/٥٤ والأنعام/٥٥ والصافات/٥٦ ولقمان/٥٧

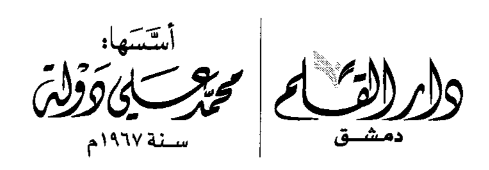
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق





معارج التفكر
ودقائق التدبر
١١



الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

سورة الحِجْر

١٥ مصحف ٥٤ نزول

وهي مكيّة كُلُّها

وقيل إلَّا الآية (٨٧) فمَدَنِية

وسُمّيت سورة «الحجر» لانفرادها
بذكر لفظة الحِجْر فيها وهي أرضُ ثمود



(١)

نص السورة ومَا فيها مِن فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾

---

١ ـ • سَكتَ أبو جعفر على الحروف الثلاثة من: (الٓر) سَكْتَةً لطيفة من دون تنفس.

٢ ـ • قرأ نَافع، وعاصم، وأبو جعفر: **[رُبَمَا]** بفتح الباء دُونَ تَشْدِيد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة **[رُبَّمَا]** بتشديد الباء مفتوحة.

٣ ـ • قرأ أبو عمرو، ورَوْح: **[وَيُلْهِهِمِ الأَمَلُ]** بِكَسْرِ هاء الضمير وَميم الجمع وصْلاً.
وقرأها حَمْزَة، والكسائي، ورُويس، وخلف: **[وَيُلْهِهُمُ الأَمَلُ]** بضمِّهِمَا وصْلاً.
وقرأها بَاقي القرّاء العشرة بِكَسْر الْهَاءِ وضمّ الميم وصلاً.
أمَّا عند الوقف فرُوَيْس وحْدَهُ بِضَمِّ الهاء وسكُونِ الميم، والباقون بكَسْرِ الهَاءِ وسكون الميم.

٨ ـ • قرأ شُعْبَة: **[مَا تُنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ]**. وقرأها حفصٌ، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[مَا نُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ]**. وقرأها الْبَزّي: **[مَآ تَّنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ]** بتشديد التاء مع المدّ المشبع.

=

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

= وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَة: [مَا تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ].
وبَيْنَ هذه القراءات تكامُلٌ، والمؤدّىٰ واحد.

١٥ ـ • قرأ ٱبْنُ كثير: [سُكِرَتْ] بكسر الكاف دون تَشْدِيد.
وقرأها باقي القرّاءَ [سُكِّرَتْ] بِكَسْرِ الكاف مع التشديد.

٢٢ ـ • قرأ حمزة وخلف: [الرِّيحَ] بالإفراد.
وقرأها بَاقي القراء العشرة: [الرِّيَاحَ] بالجمع.
وبين القراءتَيْن تكامل في أداء المعنى المراد.

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ

٤٠ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، ويعقوب: [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْر اللام.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**الْمُخْلَصِينَ**] بفتح اللّام.

وبين القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فكري.

٤١ ـ • قرأ يعقوب: [**عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ**] وقرأها باقي القراء العشرة: [**عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ**].

وبَيْنَ القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ

٤٤ ـ • قرأ شُعْبَةُ: [جُزُءٌ] بضم الزّاي.
وقرأها أبو جَعْفَر: [جُزٌّ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [جُزْءٌ].

٤٥ ـ • قرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وشعبة، وحمزة، والكسائي: [وَعِيُونٍ] بكسر العين.
وقرأها الباقون: [وَعُيُونٍ] بضم العين.

٤٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [نَبِّيْ] وكذلك حمزة وهشام في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [نَبِّئْ] بالهمزة المحققة.

٤٩ ـ • فتح ياء المتكلِّم نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، من [عِبَادِيَ] ومِنْ [أَنِّيَ أَنَا]: [عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا].
وقرأهما باقي القراء العشرة بالإسْكَان. [عِبَادِي أَنِّي أَنَا].

٥٣ ـ • قرأ حَمْزَة: [إِنَّا نَبْشُرُكَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [إِنَّا نُبَشِّرُكَ].
والقراءتان لغتان عربيَّتان.

٥٤ ـ • قرأ نافع: [تُبشِّرُونِ].
وقرأها ابنُ كثير: [تُبَشِّرُونِّ] مع المدّ المشبع في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [تُبَشِّرُونَ] بفتح النون. ومؤدّى القراءات واحد.

بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾

---

٥٦ ـ • قرأ أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[يَقْنِطُ]** بكَسْرِ النون.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[يَقْنَطُ]** بفَتْحِ النون.
والقراءتان لغتان عَربيَّتان.

٥٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[لَمنْجُوهُمْ]** مِنْ فعل «أَنْجى».
وقرأها باقي القراء العشرة: **[لَمُنَجُّوهُمْ]** من فعل «نَجَّىٰ».
وهما لغتان عربيَّتان متكافئتان.

٦٠ ـ • قرأ شعبة: **[قَدَرْنَا]** وقرأها باقي القرّاء العشرة **[قَدَّرْنا]**. وهما لغتان عَربِيَّتان بمعنى تَحْدِيد مقادير عناصِرِ الأشياء.

٦٥ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: **[فَاسْرِ]** من فعل: «سَرَى». وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَأَسْرِ]** من فعل: «أَسْرَىٰ». وهما لغتان عربيَّتان.

٦٨ و٦٩ ـ • أثبت ياء المتكلّم في: **[فَلَا تَفْضَحُونِي]** وفي: **[وَلَا تُخْزُونِي]** يعقوب في الوصل والوقف.
وحَذَفها باقي القراء العشرة في الوصل والوقف أيضاً: **[فَلَا تَفْضَحُونِ]** و**[وَلَا تُخْزُونِ]**.

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ

٧١ ـ • فتح ياء المتكلم من: [بَنَاتِيَ إِنْ] نافع، وأبو جَعْفَرُ. وأسْكَنَها باقي القراء العشرة.

٨٢ ـ • قرأ ورْش، وأبو عَمْرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [بُيُوتاً] بضم الباء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [بِيُوتاً] بكَسْر الباء.

والقراءتان لغتان عربيتان.

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

٨٩ ـ • فتح ياء المتكلّم من: [إِنِّيَ أَنَا] نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر. وأسْكَنَها باقي القراء العشرة.

٩٤ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، ورُوَيس، وخلف بإشمام الصاد زاياً في [فَاصْدَعْ]. وقرأها باقي القراء العشرة بالصَّادِ الخالصة.

٩٥ ـ • قرأ أبو جعفر: [الْمُسْتَهْزِين] بحذف الهمزة. وقرأها باقي القراء العشرة: [المستهزِئين] بإثبات الهمزة.

(٢)
موضوع سورة (الحِجْر)

يَدُور موضُوع هذه السورة حول مُتَابعة معالجة مشركي مكّة، ولا سيما أئمتُهم وكُبَراؤهم المعانِدُون، حول قضيّتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ هُما:

الأولَىٰ: تكْذيبهُم رَسُولَ رَبِّهم محمّداً ﷺ، وما يَلْزَمُ عن هٰذا التكذيب من تصرُّفات.

الثّانية: تكذِيبُهمْ بالقرآن الّذي يُبَلِّغُهم الرَّسُول ﷺ آياتِ نُجُومِهِ المُنَزَّلات، ويُبَيِّنُ لهم أنَّهُ ذِكْرٌ للنَّاسِ أَجْمَعِين من رَبِّ العالمين.

وهٰذِه المُعَالَجَةُ تُوجِّهُ الْعِنَايَةَ للطَّوْر الّذِي وصَلُوا إِلَيْهِ إبَّانَ نُزُولِ هٰذِه

السورة، وللموقِفِ العناديّ الكُفْرِيِّ الْإجْرَامِيِّ الْمُتَفَاقِمِ الَّذِي كَانُوا عليه.

ويَدُور موضوع السورة أيضاً حَوْلَ مُتَابعَةِ تَرْبِيَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِرَسُولِهِ ويُلْحَقُ بِهِ الدُّعَاةُ إِلَىٰ اللهِ مِن أمَّتِهِ ﷺ، ثُمَّ سائر المؤمنين.

ومن لوازم تكذِيبهم العنادي الْوَقِح ما يلي:

(١) إعلانُهُمْ تكذيب الرسُول بما يُنْذِرُهم بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ المُؤَجَّلِ إلى يوم القيامة، والمُعَجَّلِ في الدنيا، الأمْرِ الَّذِي جعَلَهُمْ يطْلُبُونَ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّحَدِّي أَنْ يُنْزِلَ اللهُ عَلَيْهِمُ العَذَابَ المُعَجَّل، وهو ما جاء بيانُهُ في الآية (٩٢) من سورة (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾.

مُسْقِطين مِنْ تَصَوّرِهِم أنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ يُمْهِلُهُمْ ويُمْلي لَهُمْ، لِيَمْنَحهم أطْوَلَ مُدَّةٍ يُرَاجِعُونَ فيها اختِيَارَاتِهم، ورَغْبَةً في أنْ يُؤْمِنَ ويُسْلِمَ من لَدَيهم اسْتِعْدادٌ مَا لأنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا مِنْ عَامَّتِهِم وخاصَّتِهم طَلَباً للنجاة والفوز العظيم.

(٢) مُواجَهَتُهُم الصَّرِيحة للرَّسُولِ ﷺ بِشَتِيمة يُكَذِّبُ مضمونَها الواقِعُ الَّذِي صَارَ مَشْهُوداً للجميع، إذْ قَالُوا له، كما جاء في السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾.

وغَرَضُهُمْ مِنْ هـٰذِه الشتِيمَةِ التي وَاجهُوهُ بِهَا، أَنْ يُغْضِبُوهُ غَضباً يُنْزِلُ بِهِ عِلَّةً تمْنَعُهُ مِنْ مُتَابَعَةِ تَأْدِيَةِ رِسَالَةِ رَبِّهِ.

(٣) مُطالبتُهُمْ لَهُ بتخْصِيصٍ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بالملائِكَةِ إنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِين، أي: فإذا لَمْ تَأْتِنا بالْمَلاَئِكَةِ فأنْتَ كَاذِبٌ مِنَ الكاذِبين.

وَتأْتِي البيانَات والمُعَالَجاتُ الرَّبَّانِيَّةُ في السُّورَةِ مُلاَئِمَةً لهَذَا الطَّوْرِ العِنَادِيِّ الإجْرَامِيِّ الْوَقِح، المُتَصَلِّبِ على الباطِلِ الْبَيِّنِ الْبُطْلان.

وتَأْتِي تَرْبِيَةُ اللهِ وَوَصَايَاهُ في السُّورَةِ لِرَسُولِهِ، ولحَمَلةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، ولِسَائِرِ المؤمنينَ، مُلَائِمَةً لهذا الطَّوْرِ الذي وَصَلَ إِلَيْهِ مَلأُ مُشْرِكِي مَكَّة.

(٣)
دُرُوسُ سُورَةِ (الحِجْر)

يمكن تقسيم سورة (الحِجْر) إلى سبعة دُروس، وهي ما يلي:

الدَّرْس الأوّلُ: الآيات من (١ ـ ١٥).

وفي هـٰذا الدَّرس مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ أئِمَّة الكُفْرِ في مكَّةَ وَأتْبَاعِهم إبَّانَ تَنْزِيل هـٰذِه السُّورَة، تُجاهَ تَكْذِيبِهِمْ بالْقُرْآنِ، وتَكْذِيبهم الرَّسُول محمّداً ﷺ، وتُجاهَ حَضِّهِم إيَّاهُ عَلَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بالملائكة، حَتَّىٰ يُصَدِّقُوهُ فِي نُبُوَّتِه وَرِسَالَتِهِ وبَلاغاتِهِ عَنْ رَبِّه، وَتُجاهَ حَضِّهِم إيَّاهُ عَلَى أنْ يأتِيَهُمْ بالمَلَائِكَةِ حَتَّى يُصَدِّقُوهُ فِي نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِه وَبَلَاغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ، وتُجاهَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِمَا يُنْذِرهم بِهِ من إهلاكٍ مُمَاثِلٍ لإهْلاك اللهِ كُفَّارَ القُرُونِ السّالفة، وبِمَا بَلَّغَهُمْ إيَّاهُ مِنْ أَنَّ القرآنَ ذِكْرٌ للْعَالَمِينَ كُلِّ العالِمينَ حَتَّىٰ آخِرِ وُجُودِ النَّاسِ على الأرض، مُتَوَهِّمِين أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُهْمَلَ ويُنْسَىٰ بَعْدَ وَفَاةِ محمَّد والمهْتَمِّينَ بِهِ مِن الّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، ثُمَّ لَا يَتَهَيَّأُ لَهُ الحِفْظ الدَّائمُ حتَّىٰ آخِرِ حَيَاةِ الناس في الأرض.

وفِيهِ بَيَانُ مَكَابَرتِهم وعِنَادِهِمْ وجُحودِهِمُ الحقَّ الجليَّ، وإصرارِهم على الْبَاطِلِ، ولَوْ أجْرَىٰ اللهُ لَهُمْ آيَةً خارِقَةً تَجْعَلُهُمْ يَعْرُجُونَ فِي السَّماءِ وَيُشَاهِدُونَ مِن آيات اللهِ فيها ما يُشَاهِدُون، إِذْ يَزْعمونَ أَنَّ أَبْصَارَهُمْ حِينَئِذٍ مَحْجُوبَةٌ لَا تَرَىٰ أَشْيَاءَ مِنْ واقِعٍ تُشَاهِدُه الأبْصار حَقًّا، وَيَزْعُمُونَ عَقِبَ هـٰذَا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ قَدْ أَثَّر فِيهم سِحْرُ الرَّسُول فَجعَلَهُمْ يرَوْنَ أَنَّهُمْ يَعْرُجونَ فِي السَّمَاء، وَيُشَاهِدُون فيها مَا يُشَاهِدُونَ، إمْعَاناً مِنْهُمْ في المكابَرَةِ والْعِنَاد.

الدّرْس الثاني: الآيات من (١٦ ـ ٢٥).

وفي هَـٰذَا الدَّرْسِ عَرْضُ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِه، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ طائِفَةٍ مِن صِفَاتِهِ الجليلةِ الهادِيَةِ إلى تَوْحِيد اللهِ فِي رُبوبِيَّتِهِ، وتوحِيدِهِ في إلَهيَّتِهِ، وأَنَّهُ هُو الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ، وأنَّهُ هو الْعَلِيمُ بالسّابِقين من النَّاس في القرونِ الْخَوَالي، والْعَلِيمُ باللَّاحِقين، وَأَنَّهُ بِحِكْمَتِهِ خَلقَهُمْ لِيَبْلُوَهُمْ، ثُمّ لِيُجَازيهم يوْمَ الدّين عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا باخْتِيَاراتِهِم في الحياة الدُّنيا مِنْ خيرٍ أو شرّ.

الدَّرس الثالث: الآيات من (٢٦ ـ ٤٤).

وفي هَـٰذَا الدَّرْس عَرْضُ لَقَطاتٍ مِنْ قصَّة خَلْقِ آدم وما رافَقَهَا من أحْدَاث، وَفيها دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ الإنسان مَخْلُوقٌ لِيُوضَعَ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، الذي يَسْتَلْزِمُ في حكمة الله الحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذَ الجزاءِ يوم الدّين.

الدّرْس الرابع: الآيات من (٤٥ ـ ٥٠).

وفي هَـٰذَا الدَّرْس بيانُ لَقَطاتٍ من جَزَاءِ المُتَّقين يوْمَ الدين، مع بيان أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الغفورُ الرَّحيم، وأنَّ عَذَابَهُ هو العذابُ الأليم. ولا يَبْعُد أنْ يكون هذا الدرس من توابع الدّرْس الثالث.

الدرس الخامس: الآيات من (٥١ ـ ٧٧).

وفي هَـٰذَا الدَّرْس عَرْضُ لَقَطاتِ مِنْ قِصَّةِ إبراهيم عليه السَّلام، وقصَّة لوط عليه السَّلام مَعَ قومِه، وما أَنْزَلَ اللهُ بقومِه من تَعْذِيب وإهْلاك شامِلَيْنِ، ليَعْتَبِر بهما المعَالَجُونَ المكابِرُونَ المعانِدُونَ.

الدرس السادس: الآيات من (٧٨ ـ ٨٤).

وفي هَـٰذَا الدَّرْسِ عَرضٌ مُوجَزٌ لإهْلَاكِ أصْحَاب الْأَيْكَةِ قَوْم الرسُولِ

شُعَيْب عليه السَّلام، لِيَعْتبرَ به المعَالَجُونَ، ولأصحاب الحِجْرِ قَوْم الرَّسُول صالح عليه السَّلام، وهم قَبِيلَةُ «ثمود».

الدَّرسُ السابع: الآيات من (٨٥ ـ ٩٩) آخر السورة.

وفي هَـٰذَا الدَّرْس تَرْبِيَةٌ بوصَايا للرَّسُولِ محمد ﷺ، وفيه طَمْأَنَةٌ لَهُ وَتَسْلِيَةٌ، وَتَكْليف لَهُ بأنْ يُسبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ ويكونَ مع السَّاجِدِين، وبأنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ بِمَحَابِّهِ الشَّامِلَةِ لقيامِهِ بوظائفِ رِسَالَتِهِ حتَّىٰ يأتِيَهُ يَقِينُ الموت.

❁ ❁ ❁

(٤)
التدبّر التحليلي للدَّرس الأوّل من دُرُوس سورة (الحِجْر) الآيات من (١ ـ ١٥)

قال الله عزَّ وجلَّ:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾.

القراءات:

(١) • سكَتَ أبو جعفر على الحروف الثلاثة من: (الٓر) سكْتَةً لطيفَةً مِنْ دُونَ تَنَفُّس.

(٢) • قرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر: **[رُبَمَا]** بِفَتْحِ الباء دون تَشْدِيد. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[رُبَّمَا]** بِتَشْدِيد الباء مفْتُوحة.

(٣) • قرأ أبو عمْرو، ورَوْح: **[وَيُلْهِهِم الْأَمَلُ]** بكَسْرِ هاء الضميرِ وميم الجمع وصْلاً.

وقرأها حمْزة، والكسائي، ورُوَيْس، وخلف: **[وَيُلْهِهُمُ الْأَمَلُ]** بضَمِّهما وصْلاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِ الهاء وضمّ الميم وصلاً **[وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ]**.

أما عند الوقف فقرأ رُوَيْس وحْدَهُ بضَمّ هاء الضمير وسكون الميم، وقرأها الباقون بكسْرِ الهاء وسكون الميم وهي وُجُوهٌ من النُّطْق عَرَبيَّة.

(٨) • قرأ شعبة: **[مَا تُنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ]** بالمبني لما لم يُسَمَّ فَاعلُه، و«الملائكة» نائبُ فاعل.

وقَرأها حفْصٌ، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: **[مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ]** بالمبني للمعْلُوم، و«الملائكة» مفعول به، والفاعل المتكلم العظيم جلّ جلاله.

وقرأها البزّي: **[مآ تَّنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ]** بِتَشْدِيد التَاءِ مع المدّ المشبع، أصْلُها: «ما تَتنَزَلُ» أدْغمت التاء بالتاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مَا تَنَزَّلُ الملَائِكَةُ]** بحذف إحدى تاءَي «تتَنَزَّلُ».

وكُلُّها وُجُوهُ عَربية، وبَيْنَ المبني للمعلوم، والمبني لما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ تَكَامُلٌ في الأداء البياني، فالملائكة يُنَزِّلُهَا اللهُ، وهِيَ تُنَزَّلُ، وهِي تَتَنزَّل طاعةً لأمر الله.

(١٥) • قرأ ابْن كثير: [سُكِرَتْ] بِكَسْرِ الْكَاف دُونَ تَشْدِيد، أي: سُدَّتْ فَحُجِبتْ عَنْ الرُّؤيَةِ الحقّ.

وقرأها باقِي القرّاء العشرة: [سُكِّرَتْ] بِكَسْرِ الكافِ مع التشديد، أي: سُدَّتْ سَدّاً شدِيداً.

ودلَّت القراءتان على أنّ بَعْضَهُمْ يَقُولُونَ: «سُكِرَتْ» وآخرون يقُولون: «سُكِّرَتْ» بِحَسَبِ اختلافِهم في نسبة جُحُودِهم.

تمهيد:

بدأ هَـٰذَا الدَّرس بالتَّنْويهِ بِمَجْدِ القرآنِ الدَّالِّ على صِدْق مبلّغِهِ عَنْ رَبّه، رسُولِ اللهِ محمّد ﷺ، توطئَةً لِمُعَالَجَةِ الْكافِرين المكذّبين للرَّسُول، والمُكذّبينِ بالقرآن أنَّهُ تَنْزِيلٌ من رَبّ العالمينِ.

وجاء فيه تَوْصِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ بأنْ يَذَرَ الْكَافِرينَ المعانِدِينَ المُصِرِّينَ عَلَىٰ الْجُحُود، بَعْد أَنْ وَصَلُوا إلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤوسٍ مَعَها من أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ بِإرَادَاتِهِم الْحُرَّة، فَقَدْ بَلَّغَهُمُ الرَّسُولُ، وَبَيَّنَ لَهُمْ، وَأطْمَعَهُمْ وأنْذَرَهُمْ، وَقَدَّم لَهُمْ كُلَّ وَسَائِلِ الإقْنَاعِ المُمْكِنَةِ وكُلَّ أسَالِيب الترغِيب والتَّرْهيب، فلَمْ يَسْتَجِبُوا مع إدْرَاكِهِمْ أنَّ القرآن حَقٌّ، وأنَّ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ صَادِقٌ فيما يَدْعُوهُمْ إليه.

وجاء فيه بَيَانُ مُوَاجَهَتِهِمُ الْوَقِحَةِ للرَّسُولِ بأنَّهُ لَمَجْنُون، ومطالَبَتُهُمْ لَهُ بَتَحْضِيضٍ أَنْ يَأتِيَهُمْ بِالْمَلَائِكَةِ.

وجاء فيه الإجابَةُ عَلَىٰ مَقُولَةٍ مَطْوِيَّةٍ قَالَهَا أئِمَّةُ الكُفْرِ وَالْجُحود فِي

مَكَّة، مُفَادُهَا: أَنَّ مُحمّداً يَزْعُمُ أَنَّ القرآن الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْنَا هو ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ حَتَّىٰ آخِرِ أَجْيَالِ النَّاسِ في الأَرْضِ، فَهَلْ هُوَ يَمْلِكُ إِذَا مَاتَ أَنْ يَحْفَظَ هَـٰذَا القرآن مِنْ بَعْدِهِ، دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ للضَّيَاعِ، أو النِّسْيَانِ، أو التغيير والتّبدِيل، فَأَجَابَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ مُنْزِلُ القرآنِ عَلَى هَـٰذَا التَّشْكِيكِ بِقَوْلِهِ في هَـٰذَا الدَّرْس:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

أي: إِنَّ مُنَزِّلَهُ الأَزَلِيَّ الأَبَدِيَّ هُو الَّذِي جَعَلَهُ ذِكراً للْعَالَمِينَ جَمِيعاً، وهو الَّذِي تَكَفَّلَ بِحِفْظِهِ، وقَدْ تَحَقَّقَ هَـٰذَا مُنْذُ زَمَنِ تَنْزِيلِهِ، حَتَّىٰ يَوْمِنَا هَذا، وسَيَبْقَىٰ مُتَحَقِّقاً كَمَا وَعَدَ الله جلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ المُجْرِمُونَ المُعانِدُون الْمُصِرُّونَ علَى الباطل.

وَجاء في هَـٰذَا الدَّرْسِ مُعالجَةٌ للمُعَانِدِينَ بالْوَعِيد، مع ضَرْب المثَلِ بالمُهْلَكِينَ السَّابقين مِنْ كُفَّارِ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَمْثَالِهِم، الَّذِينَ واجهُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ وَمَا جَاءوهُمْ بِهِ عَنْهُ، بالكُفْرِ والاستهزاء.

وجاء فيه بَيَانُ أَنَّ أئِمَّةَ الكُفْرِ المُكابِرِينَ المُعَانِدِين في مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، قَدْ بَلَغُوا حَضِيضَ الكفر العناديّ الإجرامِيّ، فلَوْ فَتَحَ اللهُ لَهُمْ مِنْ آياتِهِ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ، وَجَعَلَ لَهُمْ مِعْرَاجاً فَظَلُّوا طَوَال نهارِهم يَعْرُجُونَ فِيهِ، وهُمْ يَشْهَدُونَ في عُرُوجِهِمْ آيَاتِ الله، لَقَالُوا: إِنَّمَا سُدَّتْ أَبْصَارُنَا، فَنَحْنُ لَا نَرَىٰ إِلَّا أوهَاماً وخيالَاتٍ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُون.

التّدبّر التحليلي:

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾.
- ﴿الٓرۚ﴾: هَـٰذِهِ مِنَ الْحُرُوفِ المقَطَّعَةِ الَّتِي بَدَأَ اللهُ بِها بعْضَ

السُّوَر، وقَدْ سَبَقَ بَيَانُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِهَا فِي تَدَبُّرِ أَوَّلِ سُورَةِ (القلم/ ٤ نزول).

• ﴿... تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾:

جاءت الإشارة إلى آياتِ القرآن باسم الإشارة في: ﴿تِلْكَ﴾ الموضوعة للمشارة إِلَيْها البعيدة مع قُرْبها، لِغَرَضِ الدَّلاَلَةِ على ارْتفاعِ مَكَانَتِها فِي بلاغَتِهَا، وفي المعاني السَّامِيَة الَّتِي اشْتَمَلَتْ عليها دَلاَلاَتُ جُمَلِها، وارْتفاعُ مكانتها يَدُلُّ علَىٰ أَنَّهَا تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، وأنَّ كُلَّ مَنْ سِوَىٰ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِها، وهو ما جاء مُصَرَّحاً بِهِ فِي نُصُوصٍ أخرى.

وسُمِّيَتْ أجْزَاءُ السُّورَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بفَاصِلاتِها «آيَات» لأنّ فيها عَلامَاتٍ دالَّاتٍ علىٰ كَوْنِهَا مُنَزَّلَاتٍ من عند الله، ولَيْسَتْ مِنْ كلام إِنْسٍ وَلَا جِنٍّ وَلَا غَيْرِهِمَا مِنْ خَلْقِ الله.

الآيـة: فـي الـلُّغَةِ هي الْعَلَامَةُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ شَيءٍ ما، مُدْرَكٍ بالحواسّ أو غير مُدْرَكٍ بها، كالفكْرِيَّاتِ والْوِجْدَانِيَّات.

وأُطْلِقَ عَلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ على مُحَمَّدٍ مِنْ بيانٍ كَلَامِيّ لَفْظُ «الكتاب» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ وُجُوبِ تَدْوِينِهِ بالكِتَابَةِ، وجَعْلِهِ بَيْنَ النَّاسِ كِتَاباً مُحَرَّراً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، مَحْمِيًّا مِنَ التَّحْرِيف والتغيير بالزّيادة، أو النقص، أو التَّبْدِيل، و«ال» في لفظ «الكتاب» للكمال.

وأُطْلِقَ عَلَيْهِ لَفْظُ «قُرْآنٍ» و«الْقُرآن» للدّلَالَةِ عَلَىٰ وُجُوبِ ضَبْطِهِ، قِرَاءَةً لِمَا كُتِبَ مِنْهُ مُنْضَبِطاً، وللدَّلَالَةِ عَلَىٰ أنّه يجبُ أَنْ تَكُونَ تِلَاوَةُ المحْفُوظِ مِنْهُ مَطَابِقَةً لِقَرَاءَةِ مَا كُتِبَ في الصُّحُفِ مِنْهُ.

لفظ «قُرآن» مصدر لفعل «قَرَأَ». يقال لغة: «قَرَأَ الكِتَاب، يَقْرَؤه، قِرَاءَةً، وقُرْآناً» أي: تَتَبَّعَ كَلِمَاتِهِ نَظراً وَنَطَقَ بها.

وشاعَ في الاسْتِعْمَالِ إطْلاقُ قِراءَةِ القرآنِ على تِلَاوَةِ المحفوظ مِنْهُ، ولَوْ لَمْ يُصَاحِبْ ذَلِكَ تَتبُّعُ المكْتُوبِ مِنْهُ في الصُّحُف.

وَجَاءَ فِي الآيَةِ عَطْفُ ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ على ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ باعْتِبَارِ اخْتِلَافِ الْوَصْفِ.

• ﴿مُّبِينٍ﴾: أي: جَلِيٌّ وَاضِح مِنْ فِعْلِ «أَبَانَ» اللّازم. ومُبِينٍ للمعارِفِ، والْعُلُومِ، والحقَائِقِ، والتكالِيف، الَّتِي شَاءَ الله إعْلَامَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ مَعْرِفَتَها، للإيمان بها، وطَاعَةِ أوامر اللهِ وَنَواهِيهِ فيها، مِنْ فعل «أبَانَ» المُتعدّي.

يقال لغةً: «أَبَانَ الشيْءُ» أي: وَضَحَ وظهر، فهو «مُبين» ويقال: «أبان نورُ المِصْباحِ جُدْرَانَ الْغُرْفَةِ» أي: أظْهَرها وَأَوْضَحها.

جاء تَصْدِيرُ السُّورَةِ بِهَـٰذِهِ الآيَةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ قَضِيَّتَيْن:

القضيَّة الأولى: أنَّ القرآنَ كَلَامُ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

القضيَّة الثانيّة: أنَّ مُحَمَّدَ بن عبد اللهِ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ حَقًّا وصِدْقاً، إذْ لا يَسْتَطِيعُ إنْسٌ وَلَا جِنٌّ أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرآن.

وَقَدْ كَفَرَ كُبَراءُ مُشْرِكي مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ بهاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْنِ كُفْراً عِنَادِيًّا جُحودِيًّا، مَعَ وُضُوح الْحَقِّ لهم، وجَاءَتْ مُعَالَجَتَهُمْ وَتوصِيَةُ الرسُولِ ﷺ بِشَأْنِهِمْ مُلَاحَظاً فيهما كُفْرُهُمْ بِهَاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْن معانِدِينَ مُكَابِرين جَاحِدِين.

وَقْد جَاء في الْقُرآنِ تَصْدِيرُ بَعْضِ السُّور بما يُشْبِهُ هَـٰذِهِ الآيَة:

(١) ففي أوّل سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول) قال الله تعالى:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾.

(٢) وفي أوّل سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول) قَالَ الله تَعَالَىٰ:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾.

(٣) وفي أول سورة القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) قال اللهُ تعالَىٰ:

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾.

(٤) وفي أول سورة (يونس/١٠ مصحف/٥١ نزول) قال الله تعالَى.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾.

(٥) وفي أول سورة (يوسف/١٢ مصحف/٥٣ نزول) قال الله تعالَى.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾.

(٦) وفي أول سورة (الْحِجْر/١٥ مصحف/٥٤ نزول) الَّتي بدأتُ تَدَبُّرَهَا قال الله تعالَى.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾.

(٧) وفي أول سورة (لقمان/٣١ مصحف/٥٧ نزول):

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾.

ونُدْرِكُ مِنْ هَـٰذِهِ التَّصْدِيراتِ أَنَّ السُّوَرَ الَّتِي صُدِّرَتْ بِهَا تَتَضَمَّنُ بَيَانَاتٍ تَتَعَلَّقُ بالقرآنِ الكِتاب الْمُبِينِ الْحَكِيم.

- قول اللهِ تَعالَىٰ:
- ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾:

«رُبَما» بتَخْفيف الباء وتَشْديدِها، هي «رُبَّ» وهي حَرْفُ جَرٍّ لَا يَجُرُّ إلَّا النَّكرة، وقد لَحِقَتْهَا هُنَا «مَا» الزَّائِدَة فَكَفَّتْهَا عَن الْعَمل، والغالِبُ على «رُبَّ» المكْفُوفَةِ بـ «ما» عن العمل أَنْ تَدْخُلَ على فعْل ماضٍ، وقد تَدخل

على فِعْلٍ مُضارِعٍ تنزيلاً لَهُ مَنْزِلَةَ الماضِي للإشْعَارِ بأنَّهُ سَيَتَحَقَّقُ وُقُوعُهُ. ومعناها التكْثِير هنا:

• ﴿يَوَدُّ﴾: أي: يَرْغَبُ بِشِدَّةٍ وقُوَّةٍ.

• ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: هُمُ الْمَعْنِيُّونَ بالمعَالَجَةِ فِي السُّورَةِ إبَّانَ التَّنْزِيل، وهُمْ أئِمَّةُ الكُفْرِ الْعِنَادِيّ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ باطِلِهِم، وتَكذِيب الرَّسُولِ، وجُحُودِهِم القرآنِ الّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْهِم بَلَاغاً عن اللهِ العزيز الحكيم، مع اسْتِيقَانِ نُفُوسِهِمْ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ ولَيْسَ كلامَ إنْسٍ ولا جنّ.

فالمعْنَىٰ: سَيأْتِي زَمَنٌ لَيْسَ بالْبَعِيد يَكْثُرُ فِيهِ أَنْ يَوَدَّ هَـٰؤُلاءِ الْكَافِرُونَ المعانِدُونَ المصِرُّون على بَاطِلِهِمْ، لَوْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ الزَّمَنِ مُسْلِمِينَ مِنْ أتباعِ مُحَمَّدٍ المناصِرِينَ لِدَعْوَتِه، إذْ يُحَقِّقُ اللهُ لِرَسُولِهِ ولأَتْبَاعِهِ الْمُسْلِمِينَ النَّصْرَ الْمُؤَزَّرَ عَلَىٰ كُبَرَاءِ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَغَيْرِهِم.

وَقَدْ حَقَّقَ اللهُ عزَّ وجلَّ هَـٰذَا النَّصْرَ العظيم في غَزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، وتَمَنَّىٰ كَثِيرٌ مِن الْمَعْنِيِّين بالبيانِ يَوْمَئِذٍ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا مُسْلِمِين، لِيَحْمُوا أنفسهم مِن الهزِيمَة الشَّنِيعَةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ بِهِمْ، وقُتِلَ فيها معظم أَئِمَّتِهِم وصَنَادِيدِهِمْ، وأُسِرَ عَدَدٌ كَثِيرٌ مِنْهم.

أَمَّا تَمَنِّيهِم عِنْدَ الموْتِ، أَوْ بَعْدَهُ، أَوْ بَعْدَ الْبَعْث، وعلى أَبْوَابِ جَهَنَّم، أو بَعدَ دُخُولِهِمْ فِيها، لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، فهَذَا أَمْرٌ مَقْطُوعٌ بِهِ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِم، وقَدْ جَاءَتْ بِهِ نُصُوصٌ قرآنِيَّةٌ صَرِيحَة، وهَـٰذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الآيَةَ هُنَا الْمَبْدُوءَة بعبارَة: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ يُقْصَدُ بِهَا مَا تَحَقَّق وُقُوعُهُ في الْمَعارِكِ الَّتِي انْتَصَرَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ الكافِرِين، وظَفِرُوا بالْغَنَائِمِ الوفِيرةِ، ولهَـٰذَا اخْتِيرَ في الآيَةِ عِبارة: ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾. أَمَّا بَعْدَ الموْتِ فإنَّهُمْ يتَمَنَّوْنَ جَمِيعاً لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِين، إذ الْمُسْلِمُونَ قَدْ يَدْخَلُ فِيهِم الَّذِينَ أسْلَمُوا وَلَمَّا يَدْخُل الإيمانُ فِي قُلُوبِهِمْ، والمنافِقُون الَّذِينَ أَعْلَنُوا إسْلَامَهُمْ وهُمْ كافِرُون.

ولا يَخْفَىٰ مَا في هذه الآية من إلْماحٍ يُشْعِرُ بوَعْدٍ فِيهِ طمأنَةٌ لِلْمُسْلِمين بِالنَّصْرِ عَلَىٰ الكافِرين، وفيه إنْذارٌ لِلْكَافِرين بأنَّهم سَيُغْلَبُون وسَيَوَدُّ كَثِيرٌ مِنْهُم لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ، حَتَّىٰ يَظْفَرُوا مَعَهُمْ بالنَّصر، ولا يكونُوا هُمُ المهْزُومِينَ المغْلُوبِين.

• قول اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُوله فِي وصِيَّةٍ تَرْبَوِيَّة تتعَلَّقُ بهؤلَاء الأئمة المعانِدِينَ:

• ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾:

أي: وَبِمَا أَنَّ هٰؤُلَاءِ الْمُكَابِرِينَ الْمُعَانِدِين قد أَصَرُّوا عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، وصَارَتِ اسْتِجَابَتُهُمْ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ بِإرَادَاتِهِم الحُرَّةِ مَيْؤُوساً مِنْها، فَنُوصِيكَ بأَنْ تَتْرُكَهُمْ مُوَجِّهاً هَمَّكَ وَهِمَّتَكَ لِدَعْوَةِ غَيْرِهِم مِن الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إلَىٰ دَرَكَةِ الْيَأْسِ مِنْ اسْتِجَابَتِهِمْ، وَلَا تُضِعْ جَهْدَكَ وَوَقْتَكَ بهؤلَاءِ وَهُمْ غَيْرُ مَطْمُوعٍ في اسْتِجَابَتِهِمْ.

فإذا تَرَكْتَهُمْ فَإنَّهُمْ يَأْكلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَام، ويَتَمَتَّعُونَ بِمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيَا كَمَا تَتَمَتَّعُ الْأَنْعَامُ وَالْبَهائِمُ الْعَجْمَاوات، وإنَّهُمْ يُلْهِيهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِم أَنْ يَعْمَلُوهُ لِنَجَاتِهِمْ وَفَوْزِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمُ، الْأَمَلُ الَّذِي لَا يَتَحَقَّقُ لَهُمْ مِنْهُ شيءٌ، إذْ يَجِدُونَ أَنَّهُمْ قَدْ خَسِرُوا رَأْسَ مَالِهِمْ كُلَّهُ، وخَسِرُوا نُفُوسَهُمْ، وَقَذَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِاختِيَارَاتِهِمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ بَعْدَ أَنْ يَجِدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي دَارِ العذاب، يَذُوقون الْحَرِيقَ، أَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ، وَكَانُوا ظَالِمِينَ لِنُفُوسِهِمْ بِمَا قَدَّمُوا لآخِرَتِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ.

• ﴿ذَرْهُمْ﴾: أي: اتْرُكْهُم، أَمَاتَ العربُ مَاضِيَ هذا الفِعْل ومَصْدَرهُ، ولم يُبْقُوا مِنْهُ إلَّا المضارِعَ والْأَمْرَ مِنْه.

• ﴿وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾: أي: ويَنْتَفِعُوا بِمَتَاعَاتِ الحياة الدّنيا. **المتاعُ**: كُلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ والفناء يأتي عَلَيْهِ فِي الدنيا.

• ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾: أي: ويَشْغَلُهُمْ فيَسْتَهْلِكُ أوقاتَهُمْ وَطاقاتِهِمُ الْأَمَلُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ واقعٌ مَطْمُوعٌ فِيهِ، بَلْ هُوَ أَوْهَامٌ وَتَصَوُّرَاتٌ ذِهْنِيَّةٌ ضَائِعاتٌ.

قول اللهِ تعالَىٰ:

• ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾:

تَدُلُّ هَاتَانِ الآيَتَانِ عَلَىٰ أَنَّ المعْنِيِّينَ بِالْبَيَانِ، قَدْ طَالَبُوا الرَّسُولَ بأنْ يُحَقِّقَ اللهُ مَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ، مِنْ إهْلاكٍ مُمَاثِلٍ لإهْلاكِ كُفَّار القرونِ السَّالِفَة، وهُمْ لَا يَقْصِدُونَ في الحقِيقَةِ أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ، ولَكِنْ يُعْلِنُونَ بهٰذَا أَنَّ الرَّسُولَ محمّداً غَيْرُ صَادِقٍ فِي إنْذَارِهِ لَهُمْ، مُغْتَرِّينَ بِإِمْهَالِ اللهِ لَهُمْ.

فأَبَانَ اللهُ لَهُمْ أَنَّ مَقَادِيرَهُ ذَوَاتُ آجَالٍ، وأنَّ هٰذِهِ الآجَالَ مُحَدَّدَةٌ، وَمَكْتُوبَةٌ مُدَوَّنَةٌ، وَمَعْلُومَةٌ دواماً، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ تَسْبِقُ أجلَهَا المقدَّرَ لَهَا، في أيّ شيءٍ تَمَّ بِهِ قَضَاءُ رَبِّها، وَمَا مِنْ أُمَّةٍ تَمْلِكُ تَأْخِيرَ أجلِهَا المقدَّرِ لَهَا، فِي أيّ شَيءٍ تَمَّ بِهِ قضاءُ رَبِّها.

• ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾: أي: إلَّا قُدِّر وقُضِيَ لإهْلاكِهَا أَجلٌ، ولَهَا فِي ذَلِكَ كِتَابٌ مَعْلُومٌ لله.

ومِنْ ذَلِكَ تَعْجِيلُ عِقَابِ مسْتَحِقّي الْعِقَاب عَنْ أَجَلِهِ المقدّر المقْضِي له، أو تَأْخِيرُه، وتَعْجِيلُ إهْلَاك مُسْتَحِقّي الإهْلَاكِ أو تَأْخِيرُه، عَنْ أَجَلِهِ المقَدَّرِ المقْضِيّ له.

فالمعنى: وَمَا أَهْلَكْنا مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ كَافِرِينَ كَانُوا يَسْتَحِقُّونَ التَّعْذِيبَ والإهْلَاكَ، إلَّا في أَجَلِهِم الْمُقَدَّرِ الْمَقْضِيّ لِتَعْذِيبِهِمْ وإهْلَاكِهِم، وهٰذَا الأَجَلُ مُدَوَّنٌ فِي كِتَابٍ، وَمَعْلُومٌ للهِ عزَّ وجلَّ، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ مِنْهَا سَبَقَ تَعْذِيبُها وإهْلَاكُهَا الْأَجَلَ الْمُقَدَّرَ لَهَا، وَمَا مِنْ أُمَّةٍ مِنْها تَأَخَّرَ تَعْذِيبُهَا

وإهْلَاكُهَا عَنِ الأَجَلِ المقدَّرِ المقضيِّ لَها. وكَذَلِكَ الْحَالُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى المُسْتَقْبَل، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ يَسْبِقُ مُسْتَقْبلاً تَعْذِيبُها وإهْلَاكُهَا الأَجَلَ المقدَّرَ المقْضِيَّ لها، أُسْنِدَ السَّبْقُ لِلْأُمَّةِ وَالْمُرَادُ سَبْقُ تَعْذِيبها وإهْلَاكها. ومَا مِنْ أُمَّةٍ تَسْتَطِيعُ بِكُلِّ وَسَائِلِها أَنْ تَسْتَأْخِرَ تَعْذِيبهَا وَإِهْلَاكَها، عَنِ الأَجَلِ الْمُقَدَّرِ المقْضِيِّ لها.

الأَجَل: يأتي في اللُّغَةِ للدَّلالَةِ علَىٰ ثَلاثَةِ مَعَانٍ:

(١) غايَة الوقْت المحَدَّدِ لشَيْءٍ ما، أو المأذونِ بِهِ لشيءٍ ما.

(٢) الوقْت المحدّد أو المناسب لحصُولِ شيءٍ ما وابْتداء زَمَانه.

(٣) المدَّة المحدَّدَة لشَيْءٍ ما، والمحصورة بَيْنَ أوَّلٍ وآخِرٍ.

﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ أي: وَمَا يَسْتَطِيعُونَ تَأْخِيرَ أَجَلِ تَعْذِيبِهِمْ وَإِهْلَاكِهِم. يُقَالُ لغةً: «اسْتَأْخَرَ» أي: «تَأَخَّرَ».

وأرى: أَنَّ السِّينَ والتَّاء للدَّلَالَةِ عَلَىٰ عَمَلِ أمْرٍ مَا فِيه تَأْخِيرُ أَجَلهم، وهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ التَّأْخِيرَ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ يحاولُونَ اسْتِخْدَامَها، لأَنَّ مَقَادِيرَ اللهِ وَأَقْضِيَتَهُ نَافِذَةٌ فِي أَوْقَاتِها حَتْماً، دُونَ تَعْجِيلٍ أَوْ تَأْجِيل، فلا رَادَّ لقضاءِ اللهِ وَحُكْمِهِ في أيِّ أَمْر مِن الأُمُور، لَا بالسَّبْقِ ولا بالتَّأْخِيرِ عن أَجْلِهِ، ولا بالتغيير والتَّبْديلِ في شَيْءٍ مِنه.

قول اللهِ تعالَىٰ:

• ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾:

سبق في نجوم التنزيل بيانُ أنَّ القرآنَ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، أي: لِكُلِّ الْعَالَمِينَ حَتَّىٰ آخِر مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ فِي الحياة الدُّنيا، مُنْذُ تَنْزِيلِ القرآن، فيجب عليهم أن يؤمِنُوا به ويَتَفَهَّمُوا معانِيه، ويَضَعُوا مَا هُو مطلوبٌ منهم فيه في ذاكراتهم ويَتذكَّرُوه عند كل مناسبة داعية للتذكُّرِ.

(١) فجاء في آخر سورة (القلم/٦٨ مصحف/٤ نزول) قول الله عزَّ وجلَّ بشأن القرآن.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

(٢) وَجَاء في أواخِرِ سُورَة (التكوير/٨١ مصحف/٧ نزول) قول الله عزَّ وجلَّ بشأنِ القرآن أيضاً:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

(٣) وجاء في آخِرِ سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) قول الله عزَّ وجلَّ بِشأنِه أيضاً:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾﴾.

(٤) وَجَاءَ في سورة (يُوسف/١٢ مصحف/٥٣ نزول) قول الله عزَّ وجلَّ بِشَأْنِهِ خطاباً لرَسُوله:

• ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

فَكَبُرَ عَلَىٰ كُبَرَاءِ مُشْرِكي مَكَّةَ أَنَّ يَكُونَ الْقُرْآنُ ذِكراً لِكُلِّ الْعَالَمِين، وَأَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ رَسُولاً للنَّاسِ أَجْمَعِينَ في عَصْرِهِ وَبَعْدَهُ حَتَّىٰ قيامِ السَّاعَة، فواجَهُوهُ بالشتمية قَائِلِينَ لَهُ:

﴿. . . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾:

أي: أَلَمْ يَكْفِكَ أَنْ تَكُونَ رَسُولاً لِأَهْلِ الحجاز وأَنْ يَكُونَ كِتَابُكَ ذِكْراً لَهم؟!. أَلَمْ يَكْفِكَ أَنْ تَكُونَ رَسُولاً للْعَرَبِ؟!. أَلَمْ يَكْفِكَ أن تَكُونَ رَسُولاً لِأَهْلِ عَصْرِكَ في بلاد الدُّنيا، وأَنْ يَكُونَ كِتَابُكَ ذِكْراً لَهُم؟!

مَا هَـٰذِهِ الدَّعْوَىٰ الْعَرِيضَةِ الَّتِي تَزْعُمُ فِيها أَنَّكَ رَسُولٌ للعالَمِينَ، كُلّ الْعَالَمِينَ، وأَنَّ كِتَابَكَ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، كُلِّ الْعَالَمِين، إنَّ هَـٰذِهِ الدَّعْوَىٰ لَا يَدَّعِيهَا إِلَّا مَجْنُونٌ، فالرُّسُلُ مِنْ قَبْلِكَ لَمْ يَدَّعُوهَا.

هَلَّا تَأْتِينَا بالْمَلَائِكَةِ يَشْهَدُونَ لَكَ بِأَنَّكَ صَادِقٌ فيما تَدَّعِيهِ، إِنْ كُنْتَ حَقًّا مِن الصَّادِقِين. دلَّت على هَـٰذَا مَقُولَتُهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾.

﴿لَّوْ مَا﴾ حَرْفُ تَحْضِيضٍ، مثل «هَلَّا» ومِثْلُهُمَا «لَوْلَا».

فمن الظّاهر أنّ مقالَتَهُمْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ لَا تَتَضَمنُ اعْتَرافاً مِنْهُمْ بأنّ مَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنْ قرآنٍ هو مُنَزَّلٌ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ العالَمِين، وَهُوَ ذِكْرٌ للعالَمِين، بَل هُمْ يُرَدِّدُون على سَبِيلِ الاسْتهزاء مَا جَاءَ فِي بَيانَاتِهِ لَهُمْ مِنْ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِن رَبّ العالَمِينَ، وَذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِمْ لَهُ بَعْدَها: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ مُؤكِّدِينَ بـ «إنَّ، والجملة الاسْمِيَّة، واللَّام المزحْلقَة».

■ فَرَدَّ اللهُ عَلَىٰ قولهم له: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾ بقولِهِ تَعَالَى:

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾.

أي: لَدَيْكُمْ مِنَ الآياتِ والْبَرَاهِينِ مَا يَكْفِي لإقْنَاعِكُمْ بأَنَّ محمّداً رَسُولُ رَبِّكُمْ حقًّا وَصِدْقاً، وأَنْتُمْ مُسْتَيْقِنُونَ فِي نُفُوسِكُمْ مِنْ صِدْقِهِ وَصِدْقِ مَا يُبَلِّغُكُمْ عَنْ رَبِّه، فَمُطالَبَتُكُمْ إِيَّاهُ بأَنْ يَأْتِيكُمْ بِالْمَلَائِكَة أَمْرٌ بَاطِلٌ ليس لَهُ وَجْهُ حقٍّ، واللهُ رَبُّكُمْ لا يُنَزِّلُ الملائِكَةَ مِنْ مَوَاقِعِهَا فِي السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ إِلَّا تَنْزِيلاً مُتَّصِفاً بِالْحَقِّ الَّذِي يَقْتَضِي الأَمْرُ الحَكِيمُ تَنْزِيلَها، وإذْ كَان طَلَبُكُمْ أَمْراً باطِلاً فاللهُ لا يُنَزِّلُهَا وَلَا يَأْتِي بِهَا إليكم، فأبان الله عزَّ وجلَّ ذَلِكَ بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

● ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾: أي: وإنْ أَنْزَلْنَا الملائِكَةَ اسْتِجَابَةً لِطَلَبِهِمْ، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا وهو الذي سَيَكُونُ مِنْهُمْ، إذْ طَلَبُهُمْ طَلَبُ الْمُتَعَنِّتِ، لَا طَلَبُ الْبَاحِثِ عَنْ دَلِيلٍ يُقْنِعُهُ بِصِدْقِ الرّسول، فإِنَّ رَبَّهُمْ سَيُعَذِّبُهُمْ حِينَئِذٍ

فَوْراً ويُهْلِكُهُمْ، وَلَا يُمْهِلُهُمْ ولَا يُؤَخِّرُ أجَلَ إهْلَاكِهِمْ، وَيَكُونُ حَالُهُمْ كحال كُفَّارِ ثَمُودَ قَوْمِ الرَّسُولِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلام، إذْ طَلَبُوا آيَةَ النَّاقَةِ فَلَمَّا آتاهُمُ اللهُ آيَةَ النَاقَةِ أصَرُّوا على كُفْرِهم.

• ﴿إِذَا﴾ يَرَى النَّحْوِيُّونَ أنَّها لَا تَدُلُّ عَلَىٰ معنى إذا افْتَقَرَ مَا قَبْلَهَا إلَىٰ مَا بَعْدَهَا. وأرَىٰ أنَّها بِمَعْنَىٰ «حِينَئِذٍ» بالنَّظر إلَىٰ جُمْلَةِ المعنى.

• ﴿مُّنظَرِينَ﴾: أي: مُمْهَلِينَ مُؤَخَّرِينَ.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾:

دلَّت هَـٰذِهِ الآيَةُ أخْذاً مِنْ إيحاءات الآيَةِ السَّادسةِ، أنَّ المعْنِيّينَ بالبيانِ قَالُوا لِلرَّسُولِ محمّدٍ ﷺ: أنْتَ تَزْعُمُ أنَّ هَـٰذَا القرآنَ الَّذِي تَتْلُوهُ هُوَ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ حَتَّىٰ آخِرِ إنْسَانٍ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، فهَلْ أنْتَ ضَامِنٌ بَعْد مَوْتِكَ، أنْ يَبْقَىٰ هَـٰذَا القرآنُ مَحْفُوظاً مِنَ النِّسْيَانِ والتَّغْيير والتَّبْدِيلِ والتَّحْرِيفِ، ما دَامَ فِي الْأَرْضِ بَشَرٌ، مَهْمَا تَتابَعَتِ الأجْيَالُ وَتَوالَتِ الْقُرُونُ وَالْأَحْقَاب؟! وَمَا هِي وَسِيلَتُكَ لِحِفْظِهِ وأنْتَ بَيْنَ الموتَىٰ؟!

فَرَدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَيْهِمْ بِهَـٰذِهِ الْآيَةِ مُتَحَدّثاً بضمير المتكلم العظيم:

أي: لَيْسَ مُحَمَّدٌ هو الَّذِي جاء بالْقُرآنِ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّىٰ يَحْفَظَهُ فِي النَّاسِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَانْقِطَاعِ عَمَلِهِ فيهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ لا غَيرُنا ﴿نَزَّلْنَا﴾ هَـٰذَا الْكِتَابَ الَّذِي جعَلْنَاهُ ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ لِلْعَالَمِين حَتَّىٰ آخِرِ مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ فِيهِمْ، وَكَلَّفْنَاهُمْ أنْ يَكُونَ لَهُمْ ذِكْراً ﴿وَإِنَّآ﴾ فِي الْوُجُودِ أزَلاً بِلَا بِدَايَةٍ وَأبَداً بِلَا نِهَايَةٍ ﴿لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ المتكَفِّلونَ بِحِفْظِهِ، والضَّامِنُونَ لَه.

إنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لمَّا اخْتَارَ أنْ يَكُونَ هَـٰذَا الدِّينُ

خَاتِمَةَ رِسَالَاتِهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِين، جَعَلَ رَسُولَهُ مُحَمّداً خَاتَمَ الأنبياء والْمُرْسَلِينَ، وجَعَلَ كِتَابَهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ خَاتِمَةَ كُتُبِهِ للنَّاسِ أَجْمَعِين، وإِذْ كَانَ هَـٰذَا الكتاب آخِرَ كُتُبِهِ للنَّاسِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ السَّامِيَةِ أَنْ يَحْفَظَهُ مِن النِّسيان والتَّغْيير والتَّحْرِيف والتَّبْديل والزِّيَادَةِ والنَّقْصِ، فَتَدَخَّلَ قَضَاؤُهُ وَقَدَرُه بِتَهْيِئَةِ وَسَائِلِ حِفْظِهِ بَيْنَ النَّاسِ، ولو عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِ عبادِهِ المؤمنين، ولَمْ يَفْعَلْ مِثْلَ هَـٰذَا الحِفْظِ في النَّاسِ لِكُتُبِهِ السَّابِقَةِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَجْعَلَهَا ذِكْراً لِلنَّاسِ أَجْمَعِين، حَتَّىٰ آخِرِ أَجْيَالِ النَّاسِ في الْأَرْض.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُوله:

● ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾:

● ﴿شِيَعِ﴾: جَمْعُ «شِيعَة» وهم القوم أو الجماعَةُ مِن الناسِ الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ أَمْرٍ ما ـ وكُلُّ قَوْمٍ أَوْ جَماعَةٍ لَهُمْ أَمْرٌ واحِدٌ هُمْ متَّفقون عليه، أَوْ لَهُمْ مَذْهَبٌ وَاحِدٌ يَسِيرُونَ عَلَيْهِ، أَوْ لَهُمْ طَرِيقَةٌ واحِدَةٌ يَتَّبِعُونَها، ولو لم يُنَاصِرْ بَعْضُهُمْ بعضاً، ولَوْ لَمْ يكونُوا فِي زَمَنٍ واحِدٍ.

والمرادُ بعِبَارَة: ﴿شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جَمَاعَاتُ الكُفْرِ والشِّرْكِ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللهُ لَهُمْ رُسُلاً مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ، فاسْتَهْزَؤُوا بهم.

في هٰاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ محمّد ﷺ، في مُقَابِلِ مَا لَقِيَهُ مِن اسْتِهْزَاءِ كُبَرَاءِ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، إذْ كَبُرَ في نُفُوسِهِمْ أَنْ يَكُونَ رَسُولاً لِكُلِّ الْعَالَمِينَ، وأَنْ يَكُونَ كِتَابُهُ الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ ذِكْراً لِكُلِّ العالَمِينَ حَتَّىٰ آخِرِ أجيال الناسِ في الأرْضِ.

فأبانَ اللهُ لَهُ أَنَّهُ مَا مِنْ رَسُولٍ مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا كَانَ كُفَّارُ قَوْمِهِ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَبِدَعْوَتِهِ، فَهَـٰذَا هُوَ سُلُوكُ كُفَّارِ النَّاسِ جَمِيعاً مَع رُسُلِ رَبِّهِمْ.

قول اللهِ تعالَىٰ:

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾:

﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾: أي: نُدْخِلُه. **السُّلُوكُ فِي شَيْءٍ**: هُو الدُّخُول فيه.

وقَدْ ظَهَرَ لي أنَّ الضَّمِيرَ فِي نَسْلُكُه يَعُودُ عَلَىٰ «رسُول» مِن آيَةِ ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾.

فالْمَعْنَىٰ: مِثْل ذَلِكَ الدُّخُولِ الَّذِي دَخَلَهُ كُلُّ رَسُولٍ سابقٍ فِي قُلُوبِ مُجْرِمِي قَوْمِهِ، فقَابَلُوا عِلْمَهُمْ بِدَعْوَتِهِ وَبَلاغاتِهِ بالكُفْرِ والتَّكْذِيب والجُحُودِ والاسْتِهزاء، نَسْلُكُ رَسُولَنَا الْخَاتِمَ فِي قُلُوبِ سَائِرِ المُجْرِمين، فَيُكَذِّبُونَهُ ويَكْفُرُونَ بِهِ ويَجْحَدُونَ نُبُوّتَهُ وَرِسَالَتَهُ، وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ مَهْمَا قَدَّمَ لَهُمْ مِنْ آيَاتِ صِدْقِهِ.

﴿... وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾: أي: وقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم فِي مُجْرِمِي الأَوَّلين، وهِي سُنَّتُهُ فِي تَعْذِيبِهم وإهْلاكِهِمْ، وَسُنَّتُهُ فِي نُصْرَةِ رُسُلِهِ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، وفي تَنْجِيَتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ والْهَلَاكِ الْعَامّ الشَّامِلِ الَّذِي أَنْزَلَهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ بالْمُجْرمين.

وفي هَـٰذَا تَسْلِيَةٌ وَطَمْأَنَةٌ وَوَعْدٌ بالنَّصْرِ والتَّأْييد للرَّسُولِ ﷺ، ولِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فسُنَّةُ اللهِ الّتِي خَلَتْ في الأوّلين سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ لِأَنَّها مُطابِقَةٌ لاختيارِهِ الحكيم، فمَا أجْرَاهُ ـ جلَّ جلَالُهُ ـ فِي الأوّلين، يُجْرِي نَظِيرَهُ في الآخِرين. وَلَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً، ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِهِ تَحْوِيلاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المعنيّينَ بالْبَيَانِ وهُمْ كُبراءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ المكابِرُونَ الجاحِدُون المعاندون:

• ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾:

• ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي: بَاباً مِنْ أَبْوَابِ مَعَارِجِ الْعُروجِ في السماء، آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ الخوارق، لتشْهَدَ للرَّسول بأنَّهُ رَسُولُ رَبِّ العالَمِينَ حَقًّا وَصِدْقاً.

• ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾: أي: فَصَارُوا يَعْرُجُونَ فِيهِ طَوَال نَهَارِهِم عَلَىٰ تَوَالِي الدَّقَائِقِ والآنَاء. «لَا يُقَال: ظَلَّ يَفْعَلُ كَذا» إلَّا كانَ يَفْعَلُهُ فِي النَّهار. واختِيرَ فِعْلُ «ظَلَّ» هُنَا للدَّلَالَةِ عَلَىٰ وضوح مُشَاهَدَتِهِمْ لِعُرُوجِهِمْ، ولِمَا يَمُرُّونَ بِهِ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي حَالَةِ الْعُرُوجِ، لِأَنَّ النَّهارَ كاشِفٌ بِضَوْئِهِ للأشْياء.

الْعُرُوجُ: الارتِفَاعُ والصُّعُود.

• ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ و[**سُكِرَتْ**] في القراءة الْأُخْرَىٰ. أي: إنَّما سُدَّتْ فَحُجِبَتْ عَنْ رُؤْيَةِ الْأَشْيَاء، أَوْ حُجِبَتْ بِرُؤْيَةِ صُوَرٍ وَخَيَالَاتٍ لَا حَقِيقَةَ لها، إذْ هِي مِنْ أَوْهَامِ مُخَيِّلَاتِنَا.

• ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾: أي: بَلْ مَا نَرَاهُ مِنْ عُرُوج، ومَا نَرَاهُ مِنْ أشْيَاءَ عَجِيبَةٍ عَظِيمَةٍ فِيهِ هُوَ أَثَرٌ مِن آثارِ السِّحْر الَّذي سَحَرَنَا بِهِ مُحمَّد، وَلَيْسَ آيَةً حَقِيقِيَّةً خَارِقَةً مُعْجِزَةً تَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ الله حَقًّا وَصِدْقاً، وبأَنَّ مَا يَتْلُوهُ عَلَيْنَا كَلامٌ مُنَزَّلٌ مِن لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فالْمَعَنىٰ: إنَّ هؤلَاءِ المعنيِّين بالْبَيَانِ قَوْمٌ مُتَعَنِّتُونَ مُكَابِرونَ، يُعَانِدُونَ الْحَقَّ الَّذِي هُمْ مُسْتَيْقِنُونَ فِي نُفُوسِهِم بأنَّهُ حَقٌّ، ويُطَالِبُونَ بِالْآياتِ الْخَوارِقِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمُجَادَلَةِ بالْبَاطِلِ، وَلَوْ اسْتَجَبْنَا لمطالِبِهِمْ فَخَرَقْنَا سُنَّةً مِنْ سُنَنِنَا الكَوْنِيَّةِ، لَمَا آمَنُوا، ولَزَعَمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا شَيْئاً، فإنْ أُلْزِمُوا بِشُهُودِ الْخَارِقِ العظيم قَالُوا: هَـٰذَا مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ السِّحْرِ فَنَحْنُ مَسْحُورُون، ولَيْسَ لِمَا نَشْهَدُهُ حَقِيقَةٌ فِي الْوَاقِع.

ومِنْ أَمْثِلَةِ ذلِك: لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ باباً مِنْ أبواب مَعَارِج العروج في

السّماءِ، آيَةً مِنْ آياتِنا الْخارِقَاتِ لِسُنَّتِنا فِي كَوْنِنا، لِنَشْهَدَ لِرَسُولنا مُحَمَّدٍ بأنَّه نَبِيُّنا وَرَسُولُنا حَقًّا وَصِدْقاً، فَظَلُّوا طَوالَ نَهارِهِمْ فِيهِ يَعْرُجُونَ، ويُشاهِدُونَ مِنْ آياتِنا فِي السَّماءِ ما يُشاهِدُونَ مِنْ عَجائِبِ خَلْقِنا، لَقَالُوا مُعانِدِينَ مُكَذِّبِينَ أَبْصَارَهُمْ فِيما شَهِدَتْ: لَمْ نَشْهَدْ شَيْئاً، وَمَا حَصَلَ لَنا إلّا أَنَّ أَبْصارَنَا قَدْ سُدَّتْ فَحُجِبَتْ عَنْ رُؤْيَةِ الْأَشْياء، وحِينَ تَبْهَرُهُمُ المشاهِدُ الْمُدْهِشَةُ يَسْتَدْرِكُونَ فَيَقُولُونَ: بَلْ نَحْنُ مَسْحُورُونَ، فَمَا نُشاهِدُهُ هُوَ أَخْيِلَةٌ إيهَامِيَّةٌ تَحْدُثُ لِلْأَبْصَارِ مِنْ أَثَرِ السِّحْر.

إذن: فَلا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ مِنَ الاسْتِجَابَةِ لِطَلَبِهِمُ الآياتِ الخارِقَاتِ المعجزَاتِ، وإجرَاؤنَا لِهَـٰذِهِ الآياتِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ هَؤُلاءِ عَمَلٌ باطِلٌ، لا نَفْعَلُهُ بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَتِنَا فِي اختِيَارَاتِنَا لِتَصارِيفِ الْأُمُورِ فِي كَوْنِنَا الَّذي أَتْقَنَّا فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأوّل مِن دُرُوس سورة (الحِجْر).

والْحَمْدُ للهِ عَلىٰ مَدَدِهِ ومَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبر التحليلي للدّرْس الثاني من دُرُوس سورة (الحِجْر) الآيات من (١٦ ـ ٢٥)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ

بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

القراءات:

(٢٢) • قَرَأَ حَمْزَةُ، وَخَلَفْ [**الرِّيحَ**] بالإفراد.

وقَرَأَهَا بَاقِي القرّاء العشرة [**الرِّيَاحَ**] بالجمْع.

وبيْن القراءتين تكامُلٌ في أدَاء المعنىٰ المراد، إذْ يُرْسِلُ اللهُ عزَّ وجلَّ أحْيَاناً الرِّيحَ ذَاتَ أَجْزَاءٍ لَوَاقِحَ، ويُرْسِلُ الرِّيَاحَ أحْيَاناً أخْرَىٰ لَوَاقِح، فالرِّياحُ أنْواعٌ مُخْتَلِفَة، وليْسَتْ نوعاً واحداً.

تمهيد:

في هَـٰذَا الدَّرْس عَرْضٌ لِطَائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الهادِيَةِ إلَىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وَاحِدٌ في رُبُوبيَّتِهِ، وواحِدٌ فِي إلَهِيَّتِهِ، مَعَ بيان شُمُولِ عِلْمِهِ كُلَّ شيءٍ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ فِي قضائِهِ وقَدَرِه.

التّدَبُّر التّحليلي:

■ قول اللهِ تعالَىٰ:

• ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾:

• ﴿بُرُوجًا﴾: أصل معنى البروج في اللّغة القصور العالية المشرفة الظَّاهِرَةُ المتطاولَةُ في السّماء، ويقال لغة: «بَرَجَ الشَّيْءُ يَبْرُجُ بُرُوجاً» أي: ارتفَعَ وَظَهَر. ويقال: «تبَرَّجَتِ السَّمَاءُ» أي: ازَّيَّنَتْ بالكواكب.

وأُطْلِقَت البروج على مَنَازِلِ الكواكِبِ والنُّجُوم السَّيّارة.

وأطْلَقَ الْعَربُ كَلِمَةَ «بُروج» على مواقع أو منازل في السَّماءِ تخيَّلُوا

أنَّها مَنَازِلُ للشمس، وجَعَلُوها اثْنَيْ عَشَرَ مَوْقِعاً، بِعَدَدِ شُهُور السَّنَةِ الشَّمْسِيَّة، إذْ تَعُودُ في نهايَةِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ تُرَىٰ الشَّمْسُ في الموقِع الأَوَّلِ الذي رصَدُوه في أَوَّلِها، وأطْلَقُوا على المسافَةِ الَّتِي تُخَالُ الشَّمْسُ قَدِ اجْتازَتْهَا فِي السَّنَةِ «دائِرَةَ الْبُرُوج» والْحَقِيقَةُ أنَّ ذَلِكَ نَاتِجٌ عَنْ حَرَكَةِ الْأَرْضِ لَا عَنْ سَيْرِ الشَّمْس عَلَى دَائِرَةٍ ذَاتِ مَواقِعَ سَمَّوْهَا الْبُرُوج.

وسَمَّوا هَـٰذِهِ الْبُرُوج كَمَا يلي على الترتيب بدْءاً مِنْ بُرْجِ أوَّلِ فصل الرَّبيع.

(١) الحمل (٢) الثور (٣) الجوْزاء (٤) السَّرَطان (٥) الأسَد (٦) السُّنْبُلَة (٧) الميزان (٨) العقرب (٩) القوس (١٠) الْجَدْي (١١) الدَّلْو (١٢) الحوت.

أطْلَقُوا هَـٰذِهِ الأَسْمَاء أخْذاً مِنَ الصُّورَة الَّتِي ظَهَرَتْ لَهُمْ عند الرَّصْدِ، مِنْ مجتمع النجوم في السَّماء عند تَحْدِيد كلّ بُرْجٍ من هذه البروج.

• ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾: أي: شِهَابٌ ظاهِرٌ تَراه الأبصار. **الشِّهَاب**: هو الشُّعْلَةُ السَّاطِعَةُ من النَّار. ويُطْلَقُ عَلَىٰ النجم الْمُضيء اللّامع.

ويُطْلَقُ على جِرْمٍ سماويّ يَسْبح في الفضاء فإذَا دَخَلَ في جَوِّ الْأَرْضِ انْجَذَبَ إِلَيْهَا فاشْتَعَل وصار بعد ذلِكَ رَماداً.

• ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾: يَدُلُّنَا اللهُ عزَّ وجلَّ بِهَـٰذِهِ العبارة، على أنّ مِنْ آيَاتِهِ الدَّالّات عَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِهِ، وجَلِيلِ حِكْمَتِهِ وَإِتْقَانِهِ لصُنْعِهِ فِي كَوْنِه، وَوَحْدَتِهِ فِي رُبُوبيَّته، أَنَّهُ أَتْقَنَ حَرَكَةَ الْأَرْضِ في مُقَابِلِ مَوَاقِعِ النُّجُومِ في السَّمَاء، إتْقَاناً بَدِيعاً عَجِيباً، يَتَمَكَّنُ بِهِ النَّاسُ فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْدِيد مَنَازِلَ في السَّمَاءِ تَظْهَرُ فِيهَا الشَّمْسُ، ويَعْرِفُونَ بِها بَدْءَ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ وَنِهَايَتِها، وَأقْسَامَ شُهُورِهَا وَفُصُولِهَا الْأَرْبَعة.

هَـٰذَا الإتقانُ العجيب لَا يَكُونُ إلَّا مِمَّنْ لَهُ الرُّبُوبيَّةُ وحْدَهُ في الكَوْنِ كلّه، وهو العليم الحكيم المتقِنُ الْقَدِيرُ على مَا يَشاء.

أي: وَمَنْ لَهُ هَـٰذِهِ الصِّفَاتُ العظيمات الْجَلِيلات، لَا يُمْكِنُ عَقْلاً أَنْ يَخْلُقَ النَّاسَ بِصِفَاتِهِمْ الَّتِي اخْتَارَ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُمْ عَبَثاً، دُونَ أَنْ يضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، ويَبْعَثَ لَهُمْ رُسُلاً، وَيُنْزِلَ لِهِدَايَتِهِمْ كُتُباً، ويُكَلِّفَهُمْ تَكالِيفَ حَكِيمةً تُلَائِمُ مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْه، ويُتْبِعَ ذَلِكَ بالحسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، عَلَىٰ مَا اخْتَارُوا وَقَدَّمُوا فِي رِحْلَة امْتِحَانِهم.

ويُؤكد الله الجملة بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ للتَنْبيه على مضمُون الدلالاتِ.

• ﴿. . . وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾: **التَّزْيِينُ**: التَّحْسِينُ والتَّجْمِيلُ.

وهذا التَّزْيِينُ ظاهِرٌ لِكُلِّ ذِي نَظَرٍ يَرَىٰ بِهِ السَّمَاء.

أَمَّا التَّزيينُ بِالنُّجُومِ فَمِنَ المعْلُوم عِلْمِيًّا أنَّ نُجُومَ السَّمَاءِ الموزّعَةَ في مَجَرَّتِنا، وَفي المجرَّاتِ فَوْقَها، لَا تَظْهَرُ زِينَتُها لِأَعْيُنِ النَّاظرينَ فِي الْأَرْضِ، إلَّا بوسَاطَةِ الْخصَائِص الَّتي خَلَقَهَا اللهُ عزَّ وجلَّ فِي الغِلَافِ الْغَازِي حَوْلَ الْأَرْضِ، ولولاه لَمْ تكُنْ زِينَةً للناظِرِين.

وهَـٰذَا التَّزْيِينُ مِنْ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ الَّتِي رُوعيَ فيها إِمْتَاعُ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ، لدَىٰ سَبْحِ أبْصَارِهِمْ في أَبْعَادِ السَّمَاءِ، إذْ يُشَاهِدُونَ الطُّيُورَ، والسُّحُبَ، والزُّرْقَةَ الهادئة، والنُّجومَ البَدِيعَةِ الْمُوزَّعَة فِي السَّمَاءِ بالْمِلْيَارَاتِ.

• ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾:

الشَّيْطَانُ: اسْمُ جنْسٍ يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ مُتَمَرِّدٍ مُفْسِدٍ، مِنَ الجنّ والإنْس، وإبْلِيسُ إمَامُ كُلّ الشَّيَاطِين ورَئِيسُهُمْ، والَّذِينَ كانوا يسترقون السَمْعَ من الشياطين هم من شياطين الجِنِّ.

الرَّجِيم: المَلْعُونُ المطرُود، والْأَصْلُ فِيهِ أَنَّ المطْرُودَ يُرْجَمُ بالحجارة، أي: يُرْمَىٰ بها.

﴿ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾: أَي: اتَّخذَ مَا يَستَطِيعُ مِنْ وَسِيلَةٍ لِيَسْرِقَ الأَقْوالَ بِسَمْعِهِ. وكانَ الشَّيَاطِين يَسْتَرِقُونَ بِمَسَامِعِهِمْ مَا تَتَحَادَثُ بِهِ الْمَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ، أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِم مِنْ أَوَامِرَ وَأَنْبَاء، فَمُنِعُوا مِنْ ذَلِك بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالشُّهُب، كما سَبَقَ إِيْضَاحُهُ لَدَىٰ تَدبُّرِ سُورَةِ (الْجِنّ/ ٤٠ نزول).

﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾: أي: فَتبِعَهُ بِسُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ، فقَتَلَهُ، أَوْ مَسَّهُ بِحَرِيقٍ وَأَنْزَلَ بِهِ ضُرّاً.

جاءَ هَٰذَا البيانُ إضَافَةً ذَاتَ فَائِدَةٍ جَلِيلَةٍ، دَالَّةٍ عَلَىٰ عِنَايَةِ اللهِ الخاصَةِ بهذا الدّينِ الّذِي تَكفَّلَ اللهُ لَهُ بِحِفْظِ كِتَابِهِ، وعِصْمَةِ رَسُولِهِ مِنَ النَّاسِ.

لقد حفظ اللهُ عزَّ وجلَّ السَّمَاءَ بَدْءاً مِنْ نِهَايَاتِ الغلاف الغازي، الذي جَعَلَه مُحِيطاً بالأَرْضِ، من كُلِّ شَيْطانٍ مَرْجُوم مَطْرُودٍ، فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَرِقَ السَّمْعَ مِن مَلاَئِكَةِ السَّمَاءِ، لَدَىٰ تَبْلِيغِهِمْ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ لِمَلاَئِكَةِ الأَرْضِ، لِيَقُومَ هَٰذَا الشَّيْطَانُ بِتَبلِيغِهِ لِوَلِيِّهِ الشَّيْطَانِ مِنَ الإِنْس.

وحِينَ يَسْتَرِقُ بَعْضُهُمْ بالتَّصَنُّتِ مَا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَسْمَعَهُ، إِذْ يَخْطَفُ شَيْئاً مِمَّا يُقَالُ بِحِيلَتِهِ وَسُرْعَتِهِ، فإنَّ شِهَاباً مُبيناً واضحاً يَتَّبعُهُ بِسُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، فَيُحْرِقُهُ فَيُمِيتُهُ، أَوْ يُعَطِّلُ أجْهِزَتَهُ، فيَجْعَلُهُ غَيْر قَادِرٍ عَلَىٰ نَقْلِ مَا اخْتَطَفَهُ، وغَيْرَ قَادِرٍ عَلَىٰ تَبْلِيغِهِ، أَوْ يَجْعَلُهُ يَتقَلَّبُ فِي عَذَابٍ أليم[1].

■ قول الله تَعَالَىٰ:

● ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾:

في هَٰذِهِ الآيَةِ مُتَابَعَةٌ لِعَرْضِ بَعْضِ آياتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، وفيها ثلاثُ قَضَايا:

الْقَضِيَّةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾: أي:

---

(١) بقيَّة هذا الموضوع مَوجودةٌ في تَدبُّرِ سُورَةِ (الجنّ/ ٤٠ نزول).

جَعَلْنَاهَا ذَاتَ امْتِدَادٍ فِي بُعْدَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ مِنْها، كَتَمَدُّدِ السِّقَاءِ، وهُوَ ظَرْفُ الْمَاءِ المتَّخَذِ منَ الْجِلْد، وهو ما يُسَمَّىٰ بالْقِرْبَة.

ويُقَالُ لُغَةً: تَمَدَّدَ الرَّجُل، أَيْ: تَمَطَّىٰ وَتَطَاوَلَ.

وأَصْلُ المدِّ في اللُّغَةِ: الْجَذْبُ.

وقَدْ يكونُ المرادُ بِمَدِّ الأَرْضِ مَدَّها بالخيراتِ، والمعادن، ومواد الْخِصْب، والعناصِرِ النَّافِعة للعباد. تقول لُغة: «مَدَدْتُ الأرْضَ مَدّاً» إذا زِدْتَ فيها تُرَاباً أو سَمَاداً مِنْ غَيْرِها، ليكُونَ أعْمَرَ لَها، وأكثَرَ رَيعاً لزَرْعِها.

ويقال للرِّمَالِ والسَّمَادِ: مِدَادُ الأَرْضِ.

وفهم المدّ على معْنَيْيهِ المشهودَيْن هو من التدبُّر الأمثل.

هَـٰذِهِ الآيَةُ مِنْ آيات اللهِ في الأرض، مِنْ مَظَاهِرِ عِنَايَةِ اللهِ بالناس عليها، رِزْقاً لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ، وَنَفْعاً وخيراً عظيماً.

القضيّة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾:

أي: وأَلْقَيْنَا فِي الأَرْضِ جِبالاً رَوَاسِيَ ثَوابِتَ رَوَاسِخَ تُثَبِّتُ قِشْرَتَها، حَتَّىٰ لَا تَمِيدَ، أيْ: حَتَّىٰ لَا تَتَحَرَّكَ وَتضطرب بِسَبَبِ الضغط الغازي الذي في داخِلها.

يُقَالُ لغة: «رَسَا الشَّيْءُ يَرْسُو رَسْواً ورُسُوّاً» أي: ثَبَتَ، ويُقَال: «رَسَا الْجَبَلُ» أي: ثَبَتَ أَصْلُهُ فِي بَاطِنِ الأَرْضِ.

كلمة «رواسي» هي في الأصْلِ صفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوف، هي الجبال، ولِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهَا صِفَةً للجبال اسْتُغْنِيَ عَنْ ذِكْرِ الموصوف، ونُزِّلَتِ الصِّفَةُ مَنْزِلَتَهُ فِي أَصْلِ الدَّلَالَةِ، مع زِيَادَةِ مَعْنَىٰ الرُّسوخ والثبوت.

ولعلّ في كَوْن الجبالِ مُلْقَاةً إلْقَاءً إشَارَةً إِلَىٰ أَنَّ الأَرْضَ كَانَتْ مُمَدَّدَةً

كالسِّقَاءِ، ثُمَّ حَصَلَتْ فيها تَفَجُّرَاتٌ بُرْكانِيَّة، نَجَمَ عَنْهَا تَرامِي حُمَم بُرْكانِيَّةٍ في الْجَوّ، وأُلْقِيَتْ هَـٰذِهِ الْحُمَمُ فِي الفجوات الَّتِي أَحْدَثَتْها الْبَرَاكِينُ العظمَىٰ، فكانَتِ الجبالُ الرَّواسي.

وقَدْ تَكَرَّرَ التَّنْبيهُ في القرآن على امْتِنَانِ اللهِ عَلَى عبادِهِ بالجبال الرَّواسي في (١١) نصّاً سَبَقَ عَرْضُهَا مَعَ شيءٍ من التدبّر، لَدَىٰ تَدَبُّرِ سورة (ق/ ٣٤ نزول)[١].

القضية الثالثة: دَلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾: أي: وأنبتْنَا فِي الْأَرْضِ نَبَاتاً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ذي مِقْدَارٍ قابِلٍ لِأَنْ يُوزَنَ، فالصِّفَةُ الجامِعَةُ لنَبَاتَاتِ الْأَرْضِ كُلِّهَا، مَا كانَ مِنْها غِذَاءً، وما كَانَ مِنْهَا دواءً، وَمَا كَانَ مِنْهَا صالحاً للصِّنَاعات الْمُخْتَلِفَاتِ، حَتَّىٰ مَا تَحْتَوي مِن الغازَاتِ والرَّوائِحِ الطيّبَةِ والكَرِيهَةِ، أَنَّهَا ذَوَاتُ مَقَادِيرَ قَابِلَةٍ لِأَنْ تُوزَنَ بمَوازِينَ.

وفي هَـٰذَا الْبَيَانِ مِفْتَاحٌ يَهْدِي عُلَمَاءَ الْبَحْثِ الْعِلْمِيّ لِصِنَاعَةِ الموازِينِ الدَّقِيقَةِ، التّي تَزِنَ كُلَّ شيءٍ تُنْبِتُهُ الأرْضُ، أَوْ يَخْرُجُ مِنْ نَبَاتِها، حَتَّىٰ مَقَادِيرَ الغازَاتِ والرَّوائِحِ والطَّاقَاتِ، مَهْمَا قَلَّتْ.

وهَـٰذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ الإتْقَانِيَّة فِي كَوْنِهِ، الدَّالَّاتِ على طائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَليلَاتِ العظيمات.

قول اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً للنّاس:

- ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾:

﴿مَعَٰيِشَ﴾: جمع «مَعِيشَة» وهي ما يُعَاش به. قال الأزهري: «يَحْتَمِلُ أَنْ يكونَ «مَعَايش» مَا يَعِيشُونَ بِهِ، ويحتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْوُصْلَةَ إلى مَا يَعِيشُونَ بِهِ». **الْعَيْشُ:** الحياة.

(١) انظر الصفحات من (٥١ ـ ٥٦) من المجلّد الثالث من هذا الكتاب.

فمن مِنَنِ اللهِ وَنِعَمِهِ عَلَىٰ النَّاسِ أنَّهُ قَدْ جَعَلَ لَهُمْ فِي الأرْضِ ما يَعِيشُونَ به فيها، من مختلِفِ الأجناسِ، والأنواعِ، والأصْنَافِ، بحَسَبِ اختلاف الحاجات.

﴿... وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَنْ تُحِبُّونَ أَنْ يَكُونُوا لَكُمْ، مَمْلُوكِينَ، أَوْ تَابِعِينَ، مِنْ أَوْلَادٍ أَوْ أزْواجٍ أو خَدَم تجبُ عَلَيْكُمُ النَّفَقَةُ عَلَيْهِم، إلَّا أَنَّكُمْ لَسْتُمْ لَهُمْ بِرَازِقِينَ، بَلْ نَحْنُ الَّذِينَ نَرْزُقُهُمْ، مَارّاً هَـٰذَا الرِّزْقُ عَنْ طَرِيقِكُمْ، فَلَا تَتَصَوَّرُوا أَنَّكُمْ بإنْفَاقِكُمْ عَلَيْهِم مَعَايِشَهُمْ تَرْزُقُونَهُمْ، إِنَّنَا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ، وَنَرْزُقُهُمْ عَنْ طَرِيقِكُمْ، لِنَمْتَحِنَكُمْ فِيما آتَيْنَاكُمْ، مِمَّنْ تُحِبُّونَ أَنْ يَكُونُوا لَكُمْ، ومِمَّا تُحِبُّونَ مِنْ أَمْوَالٍ هِيَ وَسَائِلُ لِلْمَعَايش.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

● ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾:

خزائن: جمع «خِزَانَة» وهي مَكَانُ الْخَزْنِ للحِفْظِ.

أي: وَمَا مِنْ شيءٍ في الكَوْنِ كُلِّهِ قَابلٍ لِأَنْ يُوضَعَ في خِزَانَةٍ مَا، إلَّا هُوَ مِلْكٌ للهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ وعِنْدَ اللهِ وَتَحْتَ سُلْطَانِهِ خَزَائِنُهُ الْمُوَزَّعَةُ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ، أَجْنَاساً، وأنْواعاً، وأصْنَافاً، وأفْرَاداً، ومِنْهَا الْقُوَىٰ المَخْزُونَةُ في الأشياء كالكهرباء.

وَهُوَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ الَّذِي يُنَزِّلُ مِنْ أَفْرَادِ الأشياء، أَوْ أَصْنَافِهَا، أَوْ أَنْوَاعِهَا، أو أَجْنَاسِها، للنَّاسِ وَلِسَائِرِ الأَحْيَاءِ مِنْ خَلْقِه، مَا تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَمْنَحَهُمْ إِيَّاهُ، وَلَا يَكُونُ تَنْزِيلُه لِأَيِّ شيءٍ جُزَافاً، دُونَ تَقْدِيرٍ حَكِيم، إِنَّهُ لَا يُنَزِّلُ شَيْئاً مَا مِنْ خَزَائِنِهِ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ لَهُ، ضِمْنَ تَصَارِيفِهِ الحَكِيمَةِ، الَّتِي هي آثارُ قَدَرِهِ وَقَضَائِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، صَغِيراً كَانَ أَمْ كَبِيراً، جَلِيلاً كَانَ أَمْ حَقِيراً.

وكُلُّ مَا يُخْرِجُهُ اللهُ مِنْ خَزَائِنِهِ فِي تَصَارِيفِهِ المخْتَلِفَةِ خَيْراً كَانَ أَمْ شرّاً هُوَ تَنْزِيلٌ، ولَوْ كَانَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، لأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْمَقَامِ الْعَلِيِّ الأعْلَىٰ، وكُلُّ تَصَارِيفِهِ في خَلْقِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْهُ، إِذِ الأَمْرُ أَمْرُهُ، والْخَلْقُ خَلْقُه.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

الإرْسَال: هُوَ التوجيهُ لأدَاءِ رِسَالَةٍ مَا بتُؤَدَةٍ وَتَرَفُّقٍ وحِكْمَة، فإرسَالُ الرِّياح يتَضَمَّنُ أداءَ وَظِيفَةٍ مَا مِنْ الْوَظَائِفِ الكَوْنِية.

الرِّيَاح: جمع «الرِّيح» وهو الهواء إذا تَحرَّكَ، و«الرِّيحُ» اسم جنْسٍ، وقد جاء بالإفراد في قراءة حمزة، وخلف، وهو يعمُّ أنواع الرِّياح، فالقراءتان متكافئتان، وهما مِنَ التّنويع في البيان، أو متكامِلَتان إذا حَمَلْنا الجمْعَ على الأنواع.

لَوَاقِح: جمْعُ «لَاقِح» وهي: حامِلَةُ اللّقَاح الَّذِي يَدْخُلُ في الشَّيْءِ فيكُونُ لَهُ أَثَرُ إِخْصَابٍ فِي الْأَحْيَاءِ والنَّبَاتَاتِ، وأثَرُ تكاثفٍ لبخارِ الماء الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّحَاب مطراً أَوْ ثَلْجاً أَوْ بَرَداً.

وفي كوْنِ الرِّياحِ لَوَاقِحَ للسُّحُب إذْ يَتَسَبَّبُ تَلْقِيحهَا لَهَا فِي إِنْزَالِ الأمْطَارِ، نَجِدُ لَدَىٰ عُلَمَاءِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيّ للظَّاهرات الكونيّة مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ الرِّيَاحَ تَحْمِلُ إِلَىٰ بُخار الماء في السُّحُبِ جُسَيْمَاتٍ صَغِيرَاتٍ تُسَمَّىٰ «نَوَيَاتِ التَّكَاثف» وتَتأَلَّفُ هذه النَّوَيَاتِ من الغبار، وأمْلَاح البحار، وبعض الموادِّ الكيمائيّة المُنبعثة مِنَ المصانع وعوادِمِ السَّيَّارات، وعنْد تكاثُفِ بخار الماء تَنْطَلِقُ حرارةٌ تَجعَلُ السُّحُبَ سَاخِنَةً، ويُسَاعِدُ هَـٰذَا التَّسخينُ علىٰ رَفْعِ السُّحبِ إِلَىٰ الْأَعْلَىٰ، وبهذا تَصِيرُ أَكْثَرَ بُرُودَةً، وقَدْ فُسِّرَ تَكَوُّنُ قَطَراتِ

الأمْطار في مِثْلِ هَـٰذِهِ السُّحُب بنظَرِيّة الانْدِماج ونظرِيَّة البلُّورَاتِ الثلجيَّة[١].

ويُسَمَّىٰ الْهَوَاءُ حوْلَ الأرضِ الغلاف الغازِيّ، ويبقَىٰ حول الأرض بفِعْلِ جَاذِبيَّتِها له، وهو يتألّف من (٧٨٪) من «غاز النّيتْرُوجِين» و«٢١٪» من «غاز الأكسجين» و«١٪» من «غاز الأرْجون وغيره من الغازات». ويخْتَلِطُ بهذا الغلاف الغازي ممّا ليس منه ذَرَّاتٌ من بخار الماء الّذي يتبخَّرُ مِنَ المحيطات والْبُحَيْرَات والأنْهار ومن التربة الرَّطْبَة ومن النباتات، وكُلِّ مَاءٍ يجفُّ مِنَ الأشياء على الأرض.

ويحملُ هذا الغِلَافُ الغازيّ «الْهَبَاءَ الْجَوِّيَّ» وهو جسيمات صُلْبَة صَغِيرَةٌ جدًّا لَا تُرَىٰ بالأعينِ، إلّا في مَكان مظلم نَفَذَتْ إلَيْهِ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ مِنْ كَوَّةٍ مثلاً فَيُرَى بَعْضُه يتطايرُ في الهواء.

وهذا الغلاف الغازيّ، وما يَخْتَلِطُ بِهِ مِنْ بُخارِ الماء، وما يَحْمِلُهُ مِنْ دَقائق الْجُسَيْماتِ الصُّلْبَةِ، ذُو وَظَائِفَ مُتَعَدِّدَةٍ للحياة، باستثناء الملَوِّثَات الَّتِي يُضِيفها النّاسُ إلى الجوّ، وهَـٰذِهِ الملوّثات تُضِرُّ بصِحَّةِ الإنسان وتُؤْذِي النباتات والحيواناتِ وتُدَمِّر مواد البناء[٢].

ومن هذه الملوّثات عوادم السّيّارات، وما يَنْبَعِث في الجوّ من المصانِع والحرائق وغيرها.

وهذا التلوُّثُ مِنَ الْفَسَادِ الّذِي ظَهَرَ في البرّ والبحْرِ والجوّ بما كَسَبَتْ أيْدي الناس، وأشَدُّه ضَرَراً آثارُ التَّفْجيرَاتِ الذّرِّيَّة، والأشِعَّةُ الذّرّيَّة، وما تَخلِفُهُ أسْلِحَةُ الدَّمَارِ الشَّامل.

وجاءت عِبَارَة ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ بَعْدَ بيان إرْسَالِ الرِّياحِ لَوَاقِحَ

---

(١) انظر الموسوعة العربيّة العالمية، المجلد (٢٣) صفحة (٤١٧): أسباب سقوط المطر (الطبعة الثانية).

(٢) انظر المرجع السابق المجلد (٢٦) صفحة (٢١٧ ـ ٢١٨).

بحرف «الفاء» الدّالّة على الترتيب مع التعقيب، للدَّلالَة على أَنَّ الرِّياحَ بما تَحْمِلُ مِنْ جُسَيْمَاتٍ صُلْبَةٍ صَغِيرَةٍ جدًّا، تكونُ بِمَثابَةِ التَّلْقِيح لبُخَارِ الماء في السَّحَابِ بوسَاطَةِ الجسيمات، إذْ تَتَكَوَّنُ حَوْلَهَا حَبَّاتُ المطَرِ أو الثَّلْجِ أو الْبَرَدِ، وعَقِبَ ذَلِكَ يَنْزِلُ الماء من السماء، وكُلُّ ذَلِكَ بتَدْبِيرِ اللهِ الحكِيمِ وفِعْلِهِ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه، وأحَاطَ بكُلِّ شيءٍ عِلْماً.

• ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: يخاطِبُ اللهُ النَّاسَ بضَمِيرِ المتكلِّم العظيم، ويُبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ هُو الّذِي أسْقَاهُمُ الْمَاءَ الْحُلُو الْعَذْبَ السائغ للشَّاربينَ بتَدْبِيراتِه الحكيمَاتِ، إذْ جَعَلَ الْبُخَارَ يَتَصاعَدُ في الْجَوِّ بفِعْلِ الحَرَارةِ الَّتِي تُمِدُّ بها أشِعَّةُ الشَّمس، ويتَكَوَّنُ سُحُباً، وأَرْسَلَ الرِّيَاحَ حَامِلَاتٍ لِجُسَيمَاتِ اللَّقَاح، فاجْتَمَعَتْ حَوْلَهَا حَبَّاتُ المطَرِ أو الثلج أو الْبَرَدِ، فثَقُلَتْ بالتَّكاثُفِ، فقَوِيَتْ جاذبِيَّةُ الْأَرَضِ عَلَىٰ اجْتِذَابِها إلَيْها، فَنَزَلَتْ مَاءً عَذْباً سَائِغاً للشَّارِبِينَ والشَّارِبَات، مِنَ الْإنْسَانِ والحيوَانِ والنَّبات، وجَرَتْ بِهِ السُّيُول والأنْهَار، واخْتُزِنَ الكَثِيرُ مِنْهُ في باطِنِ الأرضِ وَتَجَوْيفاتها.

• ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾: أي: وخَزَنَّاهُ فِي مَخَازِنَ فِي باطِنَ الْأَرْضِ وتجاوِيفِها، وجَعَلْنَا بَيْنَهُ وبَيْنَ الماء الْمَالِحِ حَاجزاً حتَّىٰ لَا يخْتَلِطَ بِهِ، وَجَعَلْنَاهُ يَنْبَعُ مِنَ الْعُيُونِ ويَجْرِي سَوْاقِيَ وأنْهَاراً، وَمَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الناسُ بخازِنِينَ لَهُ فِي مَخَازِنِهِ من الأرض، بل نَحْنُ سَلَكْنَاهُ في مَسَالِكِهِ إلى مَخَازِنِهِ، وحَفِظْنَاهُ فيها، ونُخْرِجُ مِنْهُ لِمَنَافِعِكُمْ عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِنَا في ابْتِلَائِكُمْ فِي ظُرُوفِ الْحَياةِ الدُّنيا، بَسْطاً أَوْ قَبْضاً.

■ قول اللهِ تَعَالى يتحدَّث بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: وَإنَّا لَنَحْنُ لَا أَحَدٌ غَيْرُنَا في الْوُجُودِ كُلِّهِ نُحْيِي مَنْ نَشَاءُ وَمَا نَشَاءُ أَنْ نَجْعَلَهُ ذَا حَيَاةٍ، ونُمِيتُ مَنْ نَشَاءُ وَمَا نَشَاءُ أَنْ نُمِيتَهُ مِنَ الأحْيَاءِ.

أَمَّا الْقَتِيلُ مِنْ قِبَلِ ذِي إرادَةٍ بِقَتْلِهِ فإنْ كَانَ أَجَلُ حَيَاتِهِ قَدِ انْتَهىٰ، مَكَّنَ اللهُ مُرِيدَ قَتْلِهِ مِنِ اتِّخَاذِ الأسْبَابِ الْقَاتِلَةِ، ثُمَّ لَا يَكُونُ مَوْتُهُ إلَّا بإمَاتَةِ اللهِ لَهُ، وإذَا كَانَ الْقَاتِلُ مُعْتَدِياً ظَالماً عَاقَبَه اللهُ على اتِّخَاذِهِ أسْبَابَ الْقَتْلِ، لِأَنَّهُ اتَّخَذَهَا بإرَادَتِهِ الحرَّةِ، وأرَادَ حُرًّا مُخْتَاراً أنْ يَكُونَ قَاتِلاً ظُلْماً وَعُدْواناً لِحَاجَةٍ فِي نَفْسِهِ.

وإنَّا لَنَحْنُ نُمَلِّكُ ذَا الحياةِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ فِي حَيَاتِهِ، أَوْ مَا لَهُ بِهِ حاجَةٌ أَوْ رَغْبَةٌ، فإذَا أمَتْنَاهُ لَمْ تَبْقَ لَهُ مِلْكِيَّةٌ لِشَيْءٍ، وَعِنْدئذٍ يَظْهَرُ أَنَّ اللهَ هو المالِكُ لِمَا كَانَ يَمْلِك الْعَبْدُ مِنْ مُمْتَلَكَاتٍ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ، وَلَمَّا كَانَ مآلُ أمْلاكِ الْمَوْتَىٰ إلَىٰ اللهِ، وَهُوَ يُوَزِّعُها على بَعْضِ الأحْيَاءِ بِحِكْمَتِهِ، أطْلَقَ على نَفْسِهِ وَصْفَ «الوارِثِ» إذِ الْوَارِثُ هُوَ الَّذِي لَهُ حَقٌّ في امْتِلَاكِ مِقْدَارٍ مَا مِنْ مَالِ مُوَرِّثِهِ. واللهُ عزَّ وجلَّ هُو المالِكَ لِكُلِّ شيْءٍ بَدْءاً، وَوَسَطاً وَخِتَاماً، وهو المالِكُ لذَوَاتِ الْمَالِكِين.

الإحياء: يَكُونُ بِتَزْويج الأرْواح للنفوس التي لم تكن لها حياة.

الإمَاتَة: تكونُ بِفَصْلِ الأرْواحِ عَن النفوس الحيَّة.

وكِلَاهُمَا مِنْ أفْعَالِ الله وَحْدَهُ فِي كَوْنِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ.

جاء هذا البيان في هَـٰذِهِ الآية مؤكَّداً بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللّام المزحلقة» ومَقْصُوراً بِتَعْريف طَرَفي الإسْنَادِ، وهما اسم «إنَّ» أي: «نَا» وخَبَرُهَا أي: «نَحْنُ» وكذلِكَ في جُمْلَةِ: «ونَحْنُ الْوارثون».

قول الله عزَّ وجلَّ يتحدَّثُ بِضَمِير المتكلّم العظيم أيضاً:

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

المسْتَقْدِمُونَ: هُمُ الّذِينَ تَقَدَّموا إلَىٰ الْمَوْتِ قَبْلَ الْمُخَاطَبِين.

المسْتَأْخِرُونَ: هُمُ الَّذِين لَمْ يَمُوتُوا بَعْدُ سَوَاءٌ أَكَانُوا في الْحَيَاة، أمْ

لَمْ يَأْتُوا إلى ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا بَعْدُ، وَسَيأْتُونَ إِلَيْهَا بِمقْتَضَىٰ تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ السَّابِقِ لِجَمِيعِ النَّاسِ إلى آخِرِ حَيَاةِ النَّاسِ في الْأَرْضِ.

ويُؤَكِّدُ اللهُ عزَّ وجلَّ بعبارة: ﴿وَلَقَدْ﴾ أنَّ عِلْمَهُ شَامِلٌ للّذِينَ عَاشُوا الحياة الدُّنيا وَتَقَدَّمُوا إِلَىٰ الآخِرَةِ بالمْوتِ، وللّذِينَ هُمْ يَعِيشُونَ فِي ظُرُوفها ولِلَّذِينَ سَيَعِيشُونَ فيها وبَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ الموتُ طَوْراً مِنْ أطْوارِ وُجُودِهِمْ، الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ بَعْدَهُ الْبَعْثُ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذِ الجَزاء.

وعِلْمُهُ تَعَالَىٰ شَامِلٌ لِذَوَاتِهِمْ وأعْمَالِهِمْ واخْتِيَارَاتِهِم فِي رِحْلَةِ الحياةِ الدُّنيا حَيَاة الابْتِلَاء.

اسْتَقْدَم: بِمَعْنَىٰ «تَقَدَّم» **واسْتَأْخَرَ:** بِمَعْنَىٰ «تَأَخَّرَ». السِّينُ والتَّاءُ فيهما لتوكيد تَحقُّقِ الوصْفِ بالتَّقدُّمِ والتَّأَخُّر، مَعَ مَا فِي الصِّيغَةِ مِن وقْعٍ حَسَنٍ على السَّمْعِ.

والفِعْلُ فيهما فيه معْنَىٰ المطاوعة الْجَبْرِيَّةِ، أي: قَدَّمَهُمُ الخالِقُ البارئ فاسْتَقْدَمُوا، وأَخَّرَهُمُ الْخَالِقُ الْبَارِئ فاسْتَأْخَرُوا.

وجاء البيانُ في هَـٰذِهِ الآيَةِ تَوْطِئَةً للبيان الآتي عن الآخِرَة في الآيَةِ التَّالِيَةِ، وَمَا جاء قَبْلَها كَانَ تَوْطِئَةً للبيانِ فيها، يَظْهَرُ هذا بالتَّأَمُّل، فآياتُ هَـٰذَا الدَّرْسِ السَّابِقَاتِ قَدَّمَتِ الدَّلِيل على وَحْدَانِيَّة اللهِ عزَّ وجلَّ في رُبُوبِيَّتِهِ، الَّتِي يَلْزَمُ عَنْهَا وَحْدَانِيَّتُهُ في إلَهِيَّتِهِ، وَيَلْزَمُ عَنْهُمَا أنَّ اللهَ قَدِيرٌ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، لَمْ يَخْلُقِ النَّاسَ في هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا عَبَثاً، وإنَّمَا خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وَيَلْزَمُ عقلاً عن الابْتِلَاءِ وُجُودُ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ يَكُونُ فيها الحِسَابُ وفَصْلُ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذُ الجزاء.

- قول اللهِ عزَّ وجلَّ خِطَاباً لِلرَّسُولِ ولِكُلِّ صَالِحٍ للخطاب:

- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾:

خُتِمَ هَـٰذَا الدَّرْسُ بِهَـٰذِهِ الآيَةِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَىٰ الغايَةِ مِنْ خَلْقِ الإنْسَانِ في الحياة الدُّنيا، وهي محاسَبَتُهُ على مَا قَدّم في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدنيا من خَيْرٍ أوْ شَرٍّ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، وَتَنْفِيذُ مُجَازَاتِهِ يَوْمَ الدِّينِ.

واخْتِيرَ مِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الدِّينِ حَدَثُ حَشْرِ الْخَلائِقِ في المَحْشَرِ، وهُوَ يَسْتَلْزِمُ فِكْراً الأحْدَاثَ الَّتِي تَكُونُ قَبْلَهُ والّتِي جاء بيانُهَا في مَوَاضِعَ أُخْرَىٰ مِنَ القرآن، ويَسْتَلْزِمُ فِكْراً الأَحْدَاثَ الَّتِي تكونُ بَعْدَهُ، والَّتِي جَاءَ بَيَانُها في مَوَاضِعَ أُخْرَىٰ مِن القرآن المجيد.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ يَتَضَمَّنُ دَلِيلاً على يَوْمِ الدِّينِ يَوْمِ الجزاء الأكْبَرِ وَمَا يَجْرِي فِيهِ، مِن حساب وفصل قضاء وجزاء، إذِ الحكيم لَا يَخْلُقُ الناسَ بصِفَاتِهم الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا دُونَ أنْ يكون قَدْ أَعَدَّ فِي خُطَّةِ التكوين ذلك.

وذِكْر وَصْفِ أَنَّهُ تَعَالَى: ﴿عَلِيمٌ﴾ يَدُلُّ على أنَّ أحكَامَهُ بِعِبَادِهِ يَوْمَ الدِّين تَكُونُ دَائِرَةً حَوْلَ الْعَدْلِ والْفَضْلِ، ولا تَكُونَ جُزَافاً غَيْرَ مَبْنِيَّةٍ عَلَىٰ عِلْمٍ شامل.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرْس الثاني من دُرُوس سورة (الحجر).

والحمدُ لله على مَدَدِهِ وتَوفِيقه ومعونته وفتحه.



(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الحِجْر)
الآيات من (٢٦ ـ ٤٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

القراءات:

(٤٠) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْنُ عامِر، ويَعْقوب: [**المخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللّام. وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: [**المخْلَصِينَ**] بفتح اللّام.

وبين القراءتَيْنِ تَكامُلٌ فِكْرِي، أي: هم أخْلَصُوا للهِ عباداتِهِمْ فجعَلَهُمْ اللهُ مِنَ المُخْلَصِينَ عِنْدَهِ.

(٤١) • قرأ يَعْقُوب: [**هَـٰذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ**] أي: هو في أعْلَىٰ مَنْزِلَةٍ، وهُو مُسْتَقِيمٌ.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: [**هَـٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ**] أي: هَـٰذَا صراطٌ عَلَيَّ بَيَانُهُ، وَعَلَيَّ المكافَأَةُ على الالْتِزَامِ بِسُلُوكِهِ، وهو مُسْتَقِيمٌ.

فَبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاءِ المعْنَىٰ المراد.

(٤٤) • قرأ شُعْبَة: [**جُزُءٌ**]. وقرأها أَبُو جَعْفَر: [**جُزٌّ**] وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ [**جُزْءٌ**].

وهَـٰذِهِ القراءات لُغَاتٌ عَرَبِيَّة للكلمة.

تمهيد:

هذا الدّرس موصولٌ بخَطّ المُعَالَجِينَ في السُّورَةِ، وهم أئِمَّةُ المُشركين في مَكَّة وأتباعُهُم المتأثِّرون بهم، وهذه الصّلةُ تَتَّضِحُ مِنْ خلال عَرْض قِصّةِ خلْق آدم، ورَفْضِ إبْليس أن يَسْجُدَ له طاعةً لِربِّه جاحِداً إلٰهيّتَه.

وفي هٰذَا الدرسِ بَيَانُ لقطاتٍ مِنْ قِصَّةِ خَلْقِ الإنسان الأوَّلِ أبينا آدم عليه السَّلام، وهٰذَا النَّصُّ واحِدٌ مِنْ سِتَّة نُصُوصٍ مُطَوَّلَةٍ جَاءَتْ في سِتِّ سُورٍ مِن القرآن المجيد، عَدَا مُتَفَرِّقاتٍ قَصِيرات. وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هٰذِهِ النصوص السّتّة مع بعض المتفرّقَاتِ في دِرَاسَةٍ تَكَامُلِيَّة، في الملحقِ الرابع مِنْ مَلَاحِق تَدَبُّر سُورة (ص/٣٨ نزول) في المجلّد الثالث[1]، ولِذَا فإنّي أَقْتَصِرُ هُنَا على تَدَبُّرِ فِقرَاتِ هذا النَّصِّ دُونَ تَوجِيهِ الْعِنَايَةِ للتكامُلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النُّصُوصِ الأُخْرَىٰ.

التّدَبّر التحليلي:

■ قَوْلُ الله تَعَالَىٰ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ أَحَدِ الأطْوَارِ الَّتِي خَلَق اللهُ بِهَا جَسَدَ آدَمَ، الإنْسَانِ الْأَوَّلِ الَّذِي اشتَقَّ اللهُ مِنْهُ زَوْجَتَهُ حَوَّاء، وَبَعْدَ ذَلِكَ جَعَلَ كُلَّ النَّاسِ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِما، ونَسْلاً لَهُمَا.

الصَّلْصَال: الطِّينُ اليابِسُ الَّذِي إذَا نُقِرَ بِشَيْءٍ أَعْطَىٰ صَوْتاً فِيهِ تَرْجِيع.

---

(١) انظر الصفحات من (٦٦٨ ـ ٧٢٩) من المجلّد الثالث «قصة خَلْقِ آدم وما رَافقه من أحداث».

الْحَمَأ: الطِّين الأسْوَدُ الْمُنْتِن.

المسْنُونُ: المصْقُولُ المُمَلَّسُ.

في هَـٰذَا الطَّوْر كانَتْ قَدْ تَحوَّلَتْ طِينَةُ جَسَدِ آدم عليه السَّلام بخَلْقِ اللهِ ـ جلَّ جلالُه ـ فَصَارَتْ حَمأً مَسْنُوناً، ثُمَّ جَفَّتْ فَصَارَتْ صَلْصَالاً. واقْتَصَرَ النَّصُّ هُنَا عَلَى بَيَانِ هَـٰذَا الطَّوْر، وهُوَ واحِدٌ مِن أطْوَارٍ كثِيرَةٍ، أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآن بَعْضاً مِنْها، وفِيها دَلالَةٌ باللُّزُوم الْفِكْرِيّ على مَا يَهْتَدِي الْفِكْرُ أو البحثُ الْعِلْميُّ إلَيْهِ، وإذْ خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ آدَمَ مِنْ طِينٍ فذُرِّيَّاتُهُ كَذَلِكَ، لأنَّهُمْ مِنْ نَسْلِهِ.

• ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾:

الْجَانُّ: هُوَ أَبُو الجنّ، وإبْلِيسُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ.

نَار السَّمُوم: هِيَ النَّارُ الَّتِي تُحْدِثُهَا الرِّيحُ الحارَّة.

فأبَانَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ أنَّ اللهَ قَدْ خَلَقَ أجْسَادَ الْجِنِّ مِنْ نارِ السَّمُوم، إذْ خَلَقَ أَبَاهُمُ الْأَوَّلَ مِنْ نَارِ السَّمُوم، فَذُرِّيَّاتُهُ كذلِكَ لِأَنَّهُمْ مِنْ نَسْلِهِ.

وَأبانَتْ أنَّ الْجَانَّ وَبَعْضَ ذُرِّيَّاتِهِ مَخْلُوقُونَ مِنْ قَبْلِ الإنسانِ الأوَّل آدَمَ علَيْهِ السَّلام.

■ قول الله تَعَالى خطاباً للرَّسُولِ ﷺ فَلِكُلِّ صَالِحٍ للخطاب بأسْلُوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتَلَقِّي مَا نَقُصُّ عَلَيْك مِنْ أَحْدَاث تَتَعَلَّقُ بخَلْق الإنْسَانِ الأوَّلِ، الَّتِي جرَتْ فِي وقْتِ أَطْوَارِ خَلْقه، ومنها ما يلي:

قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ، والْمُرَادُ الْمَلأُ الأَعْلَىٰ مِنَ الملائكة، أخذاً من دَلَالَة الآية (٦٩) مِنْ سُورَة (صٓ/٣٨ نزول): إِنِّي سَأَخْلُقُ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، وَكَانَ مُنْدَسّاً فِيهِمْ إبْلِيسُ الّذِي هُوَ مِنَ الجنّ وَلَيْسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، مُتَسَتِّراً بأعْمَالِ المنَافِقِينَ، مُبْتَغِياً الْعُلُوَّ في صُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ بِعَوَامِلِ مَا نَفْسِهِ من كِبْرٍ وعُجْبٍ بالنَّفْسِ، وأغْرَاهُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُلَبِّسَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَة بِعِبَادَاتِهِ للتَّشَابُهِ الْجَسَدِيّ القابِلِ للتَّشَكُّلِ كالْمَلَائِكَة.

• ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أي: فإذَا أتْمَمْتُ تَقْوِيمَهُ وَتَعْدِيلَ خَلْقِهِ، حتَّىٰ صَارَ سَوِيًّا مُكْتَمِلاً لِلْغَايَةِ المخْلُوقِ لها، وهِيَ الصُّورَةُ الْبَشَرِيَّةُ الْكَامِلة.

يُقَالُ لُغة: «سَوَّى فُلَانٌ الشَّيْءَ»: أي: قَوَّمَهُ وَعَدَلَ بَيْنَ أجْزَائِهِ فَجَعَلَهُ سَوِيًّا، ويُقَالُ لِلْغُلَامِ إذَا تَمَّ شَبابُهُ: قد اسْتَوَىٰ.

• ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾: أي: وَنفَخْتُ فِيهِ رُوحاً مِنْ جِنْسِ الرُّوحِ الَّذِي هُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِي، وَمِلْكٌ مِنْ مِلْكِي.

إضافَةُ الرُّوحِ إلَىٰ يَاء المتكلّم الواحِدِ الأحَدِ هِي عَلَىٰ مَعْنَىٰ الْمِلْكِ، إذ كُلُّ مَا خَلَقَ هُوَ مِلْكُهُ، وَنَظِيرُهُ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ و﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ و﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾.

الرُّوح: خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، يَكُونُ وُجُودُه بأمْرِ التكْوينِ المبَاشِر، دُونَ وِسَاطَةِ أَسْبَابٍ مِنْ مَخْلُوقٍ سَابِقٍ له، فإذَا نُفِخَتْ ذَرَّةٌ مِنْهُ في شَيْءٍ صَارَ حَيًّا وَفْقَ التكْوينِ الّذي خُلِقَ له.

• ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: الوقُوعُ والسُّقُوط والْخُرُور، يُرَادُ بها سُرْعَةُ الهُبُوطِ والنزُولِ، حتَّىٰ يكُونُوا سَاجِدِينَ.

وهـذا السُّجُودُ هُوَ طَاعَةٌ لِأَمْرِ اللهِ، وتَكْرِيمٌ وَتَوْقِيرٌ لآدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَكْفِيرٌ عمَّا كَانُوا كَتَمُوهُ مِنْ أَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ هَـٰذَا المخْلُوقِ

الجَدِيدِ، حِينَ أخْبَرَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّ هذا المخْلُوقَ الْبَشَر، سَتَكُونُ لَهُ ذُرِّيَّةٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُونَ الدِّماء، وقالُوا في نُفُوسِهِمْ: مَا الدَّاعِي لِخَلْقِهِ.

السُّجُود: هو الخضوعُ والانْحِنَاء والتَّطَامُن، وغايَتُهُ وَضْعُ الجبهة عَلَىٰ الْأَرْض. والسُّجُودُ في الاصْطِلَاحِ الشَّرْعِي يكُونُ بِوَضْعِ السَّاجِدِ للهِ جَبْهَتَهُ عَلَىٰ الْأَرْضِ، مَعَ الكَفَّيْنِ، والرُّكْبَتَيْنِ والْقَدَمَيْن، لِقَوْلِ الرَّسُول ﷺ:

«أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أعْظُمٍ».

وأَبَانَ كَيْفِيَّتَهُ بِسُجُودٍ قَلَّدَهُ أصْحَابُهُ فِيه، وَتَوَارَثَهُ بَعْدَ ذلِكَ الْمُسْلِمُونَ تَقْليداً عَمَلِيًّا، وبياناً قولياً.

﴿سَٰجِدِينَ﴾: مَنْصُوبٌ عَلَىٰ أَنَّهُ حال.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: إنَّ الْمَلَائِكَةَ المأمُورِينَ بالسُّجُودِ لآدَم قَدْ سَجَدُوا كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ، فَلَمْ يتخلَّفْ مِنْهُمْ أحَدٌ، وَسَجَدُوا فِي وَقْتٍ واحِدٍ، إلَّا أَنَّ إبْلِيسَ الَّذِي كَانَ مُنْدَساً بَيْنَهُمْ، وَقَدْ وَجَّهَ اللهُ له الأمْرَ بالسُّجُودِ لآدَمَ مَعَهُمْ، باعْتِبَارِهِ مُنْدَساً فِيهِمْ، ويَعْتَبِرُ نَفْسَهُ وَاحِداً مِنْهُمْ، أَبَىٰ أَنْ يَسْجُدَ لآدَمَ طَاعَةً لِأَمْرِ الله لَهُ، واسْتَكْبَرَ أَنْ يَكُونَ سَاجِداً مَعَ السَّاجِدِينَ من مَلَائِكَةِ الملأ الأعلى.

دَلَّتْ: ﴿كُلُّهُمْ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يتخلَّفْ عَن السُجودِ منهم أَحَدٌ. وَدَلَّتْ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ على سُجودهُمْ في وقت واحد على رأي الزمخشري.

ودَلَّتْ عِبَارة: ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ،

وأَنَّهُ كَانَ مَأْمُوراً بِأَنْ يَسْجُدَ مَعَهُمْ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِهِمْ، وَظاهِرٌ أَنَّهُ أَبَىٰ أَنْ يَسْجُدَ اسْتِكْباراً، واخْتارَ أَنْ يَعْصِيَ رَبَّهُ فيما أَمَرَهُ بِهِ، وانْفَرَدَ وَحْدَهُ بِعَدَمِ السُّجُودِ، رافضاً أن يكون ساجداً مَعَ المأمُورِينَ مِن الْمَلَائِكَةِ بالسُّجُودِ، إذا اعْتَبَرَ نَفْسَهُ نِفَاقاً واحداً مِنْهُمْ.

■ قول اللهِ تَعالى:

● ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيات بيانُ خُلَاصَةِ الجلْسَةِ الأولَىٰ مِنْ جَلْسَاتِ محاكَمَةِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لإبْلِيسَ عَلىٰ رَفْضِهِ طَاعَةَ أَمْرِ رَبِّهِ بالسُّجُودِ لآدَم.

● ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾: أي: قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لإبْلِيسَ مُتَرَفِّقاً بِمُسَاءَلَتِهِ، ومُخَاطِباً لَهُ باسْمِهِ المعروف بِهِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ، والْمَعْرُوفِ بِهِ بَيْنَ الجِنّ: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾: أيْ: أيُّ عُذْرٍ لَكَ حَمَلَكَ عَلىٰ أنْ لَا تَكُونَ سَاجداً مَعَ السَّاجِدِينَ مِنْ مَلَائِكَةِ الملأ الْأَعْلَىٰ، وقَدْ تَسَلَّلْتَ فِي صُفُوفِ الملائِكَةِ مُتَرَقِّياً، حَتَّىٰ اعْتَبَرْتَ نَفْسَكَ واحِداً مِنْهُمْ، حَرِيصاً عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِنَ الْفَضْلِ والمنزلَةِ الرَّفِيعَةِ عِنْدِي مِثْلُ ما لَهُمْ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عُنْصُرُكَ من الملائِكَةِ المخْلُوقِينَ مِنْ نُورٍ، بَلْ أنْتَ مِنَ الجنِّ المخْلُوقِينَ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَيْضاً أَنَّ الأَمْرَ بالسُّجُودِ لآدَمَ مُوَجَّهٌ مِنْ رَبِّكَ لَكَ كَمَا هُوَ مُوَجَّهٌ لِلْمَلَائِكَة، نظراً إِلَىٰ أَنَّكَ اعْتَبَرْتَ نَفْسَكَ وَاحِداً مِنْهُم.

فَلَمْ يُخْفِ إبْلِيسُ فِي جَوابِهِ احْتِقَارَهُ لآدَمَ، نَاظِراً إلى أَحَدِ أَطْوَارِ خَلْقِ جَسَدِهِ، وإلَىٰ كَوْنِهِ بَشَراً.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾:

فأبَانَ إبْلِيسُ أنَّ آدمَ بَشَرٌ شَبِيهٌ بأجْسَادِ حَيَوَانَاتِ الأرض، فِي عَدَمِ قُدْرَتِهِ على اخْتِرَاقِ الأجْوَاءِ الْعُلْيَا، والوصُولِ إلىٰ السَّمَاوَاتِ، كالْمَلائِكَةِ وَبَعْضِ الجنِّ، وذَكَرَ الْمَرْحلَة الأَخِيرَة مِنْ أطْوَارِ خَلْقِ جَسَدِه، وهِيَ مَرْحَلَةُ: ﴿صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

هذا الرَّدُّ مِنْ إبْلِيسَ يُعَبِّرُ عَنِ اسْتِكْبَارِهِ. وتَرَفُّعِهِ واسْتِنْكَافِهِ عَنْ أنْ يَسْجُدَ لِمَنْ يَعْتَبِرُهُ دُونَهُ فِي الْخَلْق، ويُعَبِّرُ عَنْ شَكِّهِ فِي حِكْمَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فِي تَوْجِيهِ الْأَمْرِ بالسُّجُودِ لآدَم، واعْتِرَاضِهِ عَلَيْهِ، ويُعَبِّرُ عَن جُحُودِهِ لإلَٰهِيَّةِ اللهِ الرَّبِّ.

إنَّ إبْلِيسَ لَمْ يَذْكُرْ لِنَفْسِهِ عُذْراً حَقِيقِيًّا، بَلْ أَجَابَ بِمَا يَكْشِفُ عَنْ كِبْرِهِ وَوَقَاحَتِهِ فِي مُخَاطَبَةِ رَبِّه.

فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ إصْدَارِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ بالإخْرَاجِ مِنْ مَنَازِلِ المَلأِ الْأَعْلَىٰ مِنَ المَلَائِكَة، وبالرَّجْمِ للطَّرْدِ والإبْعَادِ، مَعَ صَبِّ اللَّعْنَة عَلَيهِ، فجاء في النّص:

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾:

رَجِيم: أي: مَرْجُوم بالحجارة ونَحْوِها، والمراد الطَّرْدُ مِن منازل الملأ الأعلى.

أي: وفي يَوْمِ الدِّين يَجْرِي حِسَابُكَ عَلَىٰ كُفْرِكَ بإلَٰهِيَّةِ رَبِّكَ لَكَ، ويَجْرِي إصْدَارُ الحكْم عَلَيْكَ بِمَا تَسْتَحِقُّ مِنْ عَذَابٍ.

■ فَوَضَعَ إبْلِيسُ فِي نَفْسِهِ خُطَّةَ إغْوَاءِ بَنِي آدم.

• ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: قَالَ إبْليسُ مُعْتَرِفاً للهِ عزَّ وجلَّ بِرُبُوبيَّتِهِ: رَبِّ بما أنَّكَ حَكَمْتَ عَلَيَّ بالْإِخْرَاجِ والرَّجْمِ واللَّعْنَةِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّين، فَأَمْهِلْنِي حَيًّا إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، وقَدْ كَانَ يَوْمُ الْبَعْثِ للحِسَاب، وفَصْلِ القضاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاءِ، مَعْلُوماً لِلْجِنِّ والْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ آدم، لأنّ الجنَّ مَخْلُوقُونَ مُمْتَحَنِينَ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنْيا قَبْلَ الإنسِ، ويَعْلَمُونَ أَنَّ الجزاء يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ مِنْه، ومن اللَّوازِمِ الَّتِي تُدْرَكُ بالْعَقْلِ أَنَّ الجَزَاءَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقاً بالْحِسَابِ وبِفَصْلِ القضاء.

■ فأَعْطَىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ إِبْلِيسَ بَعْضَ طَلَبِهِ، ووعَدَهُ بِأَنْ يُنْظِرَهُ إِلَىٰ سَاعَةِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وإِمَاتَةِ كُلِّ ذِي حَيَاةٍ فِيها، وجَعَلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مِنَ المنْظَرِينَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْوَقْتِ المعلوم لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، لا إلى يومِ الْبَعْث.

● ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: قَالَ اللهُ لَه: بَعْضُ مَا طَلَبْتَهُ مُجابٌ، فَإِنَّكَ مِنَ الأحْيَاءِ المنْظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الوَقْتِ الْمَعْلُوم، كَجِبْرِيلَ، وإِسْرَافِيل، وميكَائِيل.

■ ولمَّا اسْتَوْثَقَ إِبْلِيسُ مِنْ إمْهَالِ اللهِ لَهُ فِي الحياة الْأُولى إِلَىٰ ساعَةِ إِنْهاءِ ظُرُوفِها، أَعْلَنَ عَزْمَهُ عَلَىٰ أَنْ يَعْمَلَ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ وَسَائِلِ إِغْوَاءٍ وَإِغْرَاءٍ وَتَزْيينٍ، لإِغْوَاءِ آدَمَ وَمَنْ يُخْرِجُ اللهُ مِنْهُ مِنْ نَسْلٍ حَتَّىٰ قِيامِ السَّاعَةِ، إِلَّا مَنْ كَانَ مُخْلِصاً أَوْ مُخْلَصاً للهِ.

● ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

قُرِئ: [**الْمُخْلَصِين**] بِفَتْحِ اللَّام، أي: الَّذِينَ تَسْتَخْلِصُهُمْ وَتَصْطَفِيهِمْ، فَتَعْصِمُهُمْ مِنَ الْغَوَايَةِ، بِسَبَبِ مَا فَطَرْتَهُمْ عَلَيْهِ مِن الكمالِ، لِتُؤَهِّلَهُمْ لِلنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، أو للنُّبُوَّةِ فَقَط.

وقُرِئ: [**المخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللام، أي: الَّذِينَ يُخْلِصُونَ لَكَ الإيمانَ والْعَمَلَ، فأنْتَ تَحْمِيهِمْ مِنَ الْغَوَايَةِ بِسَبَبِ إخلاصِهِم لَكَ.

- ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: أي: فَبِسَبَبِ مَا حَكَمْتَ عَليَّ بِهِ مِنَ الْغَوَايَة.

- ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: لَأُحَسِّنَنَّ لَهُمْ مَتَاعَاتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا تَزْيِيناً أُدَلِّيهِمْ بِه إلَىٰ مَعْصِيَتِكَ وَمُخَالَفَةِ أَوَامِرِكَ وَنَوَاهِيكَ، حَتَّىٰ دَرَكَةِ الكُفْرِ بإلٰهِيَتِكَ وَرُبُوبِيَّتِكَ.

- ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي: وَلَأُوقِعَنَّهُمْ فِي الْغَوَايَةِ، وهِيَ الإمْعَانُ فِي الضَّلَالِ والْبُعْدِ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ والْهُدَىٰ، أَجْمَعِينَ.

- ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ و ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ بِكَسْرِ اللّام. فَهؤُلَاءِ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُغْوِيَهُمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ وفي قراءة يَعْقُوب: [**صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ**].

أي: قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لإبليسَ اللّعِين: إنّي قَدَّرْتُ وَقَضَيْتُ لِمَنْ أَضَعُهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، صِرَاطاً اعْتِقَادِيًّا وعَمَلِيًّا آمُرُهُمْ أَنْ يَسْلُكُوهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَهذَا المشار إِلَيْهِ المطويُّ هو صِرَاطٌ عَلِيٌّ رَفِيعٌ عَلَىٰ قِمَّةٍ، ودُونَهُ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ الشِّمَالِ سُبُلُ الضَّلَالَةِ والْغَوَايَة، وَهِيَ مُنْحَدِرَةٌ إِلَىٰ أَوْحَالِ الْعَذَابِ، وَمُوصِلَةٌ مَنْ تَابَعَ سُلُوكَهَا إِلى عذاب جَهَنَّم خَالِداً فِيهَا مُخَلَّداً. وهَـٰذَا الصِّرَاطُ عَلَيَّ بَيانُهُ لكُلِّ الَّذِينَ أَضَعُهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، فِيمَا أُنْزِلُ عَلَىٰ رُسُلِي، وهُو صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ على قِمَّة.

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ لإبْلِيسَ: إنَّ عِبَادِي الَّذِينَ هُمْ خَلْقِي وَمِلْكِي لَا أجْعَلُ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً تُؤَثِّرُ عَلَيْهِمْ بِهِ، تَأْثِيراً جَبْرِيًّا تُلْغِي بِهِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّةَ، فَهُمْ مَحْمِيُّونَ مِنْكَ ومِنْ جُنُودِكَ بِحِمَايَتِي لَهُمْ، إلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ بإرَادَاتِهِم الحرَّةِ غَيْرِ المجْبُورَة، فَهؤُلَاءِ لَا أَتَوَلَّىٰ حِمَايَتَهُمْ مِنْكَ وَمِنْ جُنُودِكَ، وَإنَّ جَهَنَّمَ لِمَوْعِدُ هٰؤلَاءِ الْغَاوِينَ الكافِرِينَ يَجْتَمِعُونَ فِيه وَيَذُوقُونَ الْعَذَابَ فِيهِ أجْمَعِينَ.

﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾: أي: لَهِيَ الْمَكَانُ الْمَوْعُودُونَ بالعذاب فِيهِ أَجْمَعِينَ.

ووَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ جَهَنَّمَ بأنَّ لَهَا سَبْعَةَ أبْوابٍ، بِحَسَبِ أنواع الجرائِم الْعُظْمَى الَّتِي كانَ الْغَاوُونَ قَدِ ارْتَكَبُوهَا فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، فَلِكُلِّ باب مِنْ أبْوابِ جَهَنَّمَ جُزْءٌ مِنْهُمْ مَقْسُومٌ لَهُ، وَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهُمْ يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ المخَصَّصِ لَهُ مِنْ أَبْوابِها السَّبْعَة.

ولم يُصَرِّح اللهُ عزَّ وجلَّ لإبْلِيسَ فِي هَـٰذِهِ الْجَلْسَةِ مِنْ جَلَسَاتِ محاكَمَتِهِ بأنَّهُ سَيَكُونُ في جهَنَّمَ مَعَ الغاوِينَ، إلَّا أنَّهُ قَدْ يُفْهَمُ من النَّصِّ باللُّزُوم الْعَقْلِيِّ، وَقَدْ جَاءَ التَّصْرِيحُ بِهِ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ:

جَهَنَّم: اسْمٌ عَلَمٌ مِنْ أسْمَاءِ دَار الْعَذَابِ الَّتِي أعْتَدَهَا اللهُ لِيُعَذِّبَ فِيهَا الكافِرِينَ المُجْرِمِينَ والْعُصَاةَ يَوْمَ الدِّين. ولفظ «جَهَنَّمَ» مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ للعَلَمِيَّةِ والتَّأْنِيثِ.

ويُقَالُ لِلْقَعْرِ الْبَعِيدِ: «جَهَنَّمَ». ويُقَالُ: «بِئْرٌ جَهَنَّم» أي: بَعِيدَة الْقَعْرِ.

وبهذا تَمَّ تدبُّر الدَّرسِ الثالث من دُروس سورة (الحِجْر).

والحمدُ لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوفِيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع من دُروس سورة (الحِجْر)
الآيات من (٤٥ ـ ٥٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾:

القراءات:

(٤٥) • قرأ ٱبْنُ كثير، وٱبْنُ ذَكْوَان، وشُعْبَة، وحَمْزة، والكِسَائي: [**وَعِيُونٍ**] بِكَسْرِ الْعَيْن.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَة: [**وَعُيُونٍ**] بِضَمّ الْعَيْن.

القراءتَانِ لُغَتَانِ عَربيتان.

(٤٩) • قرأ أبُو جَعْفر: [**نَبِّي**] بالياء السَّاكِنَةِ بَدَلَ الهمزة الساكنة في الْوَقْفِ والوصْل، وَكَذَلِكَ حَمْزَةُ وَهِشَام في الوقف فَقَطْ.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَة: [**نَبِّئْ**] بالْهَمْزَةِ السَّاكِنَة في الوصل والوقف.

(٤٩) • فَتَحَ ياء المتكلم مِنْ: [**عِبَادِيَ**] وَمِنْ: [**أَنّيَ أَنَا**] في عبارة: [**عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا**]. نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر.

وقرأهُمَا باقي القرّاء العشرة بالإسْكَان.

فَتْحُ يَاءِ المتكلّم وإسْكَانُها لُغَتَانِ عَربيَّتَان.

تَمْهيد:

جاء البيان في هذا الدَّرْسِ بشَأْنِ ثَوابِ المتقينَ يوم الدِّين في جَنَّاتِ النعيم، في مُقَابِلِ مَا جاءَ مِنْ جَزَاء الغاوِينَ في عذَاب جهَنَّم، الَّذِي عَرَضَ الدَرْسُ الثالثُ لَقْطَةً مُوجَزَةً مِنْه. وفي هذا الدَّرْسِ لَقَطاتٌ مِنْ أحْوَال أهْل الجنة، وتوجيه للرَّسُولِ، فلِكُلِّ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ بِأَنْ يُبَشِّرَ بأَنَّ اللهَ غفورٌ رَحِيمٌ وأنّ عَذَابَهُ هو العذابُ الأليم.

التّدبّر التحليلي:

■ قول اللهِ تعالَىٰ:

• ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾: أي: إنَّ الَّذينَ اتَّقوا الْخُلُود في عَذَابِ جهَنَّم، بالإيمان الصّحِيح وعَمَلٍ صَالِحٍ يَدُلُّ عليه، فَمَنْ هُمْ أعْلَىٰ دَرجَةً أَوْ أَعْلى مَرْتَبَةً، يَكُونُونَ يَوْمَ الدِّين فِي جَنَّاتٍ وعُيُون.

﴿جَنَّٰتٍ﴾: جَمْعُ جَنَّة، وهِي مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أشجار وثمار وزُرُوعٍ وأنْهَارٍ وقُصُور وتوابِعِها، مع كُلّ ما تَشْتَهِيه الأنْفُسُ وتَلَذُّ الأَعْيُن.

وجاء لفظ «جَنّاتٍ» مجموعاً لأنَّ دَار النعيم يَوْم الدِّينِ فِيها جِنَانٌ مُتَعَدِّدَةٌ باعْتِبَار أقْسَامِها، ويَجْمَعُها جميعاً اسْمُ «جَنَّة» باعْتِبَارِ أَنَّهَا كُلَّها بِمَثَابَةِ دَارٍ للنعِيم، كَشَأنِ دَارِ الحياة الدُّنيا بِكُلِّ مَا فِيها.

﴿وَعُيُونٍ﴾: أي: وَعُيونٍ تَجرِي أَنْهاراً عُظْمَىٰ وَدُونَ ذَلِك، وَجَاء بيانُ أنْهار الجنَّة بأنَّهَا مِنْ مَاءٍ كامِلِ الْعُذُوبَةِ والصَّفاء، وعَسَلٍ مصفًّى يَجْري، ولَبَنٍ يَجْرِي لَا يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ كامِلِ الصِّفَاتِ، وَخَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبِينَ لَا يَسْكَرُ الشّارِبُونَ مِنها.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾: عِبَارَةٌ مُقْتَطَعَةٌ مِمَّا سَيَجْرِي مِن

اسْتِقْبَالٍ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ عِنْدَ دُخُولِها، إِذْ تَقُولُ الملائِكَةُ لَهُمْ: ادْخُلُوهَا مَصْحُوبِينَ بَسَلَام تَحِيَّةٍ تَكْرِيميَّةٍ لَكُمْ، وَحَالَةَ كَوْنِكُمْ آمِنِينَ دَوَاماً بَعْدَ دُخُولِهَا مِنْ كُلِّ مَا يُخَافُ مِنْهُ، حَتَّىٰ النَّقْصِ مِنْ بَعْضِ مَا تُحِبُّونَ مِنْ لَذّاتٍ ونَعِيمٍ مُتَجَدِّدٍ لَا يَنْقَطِعُ، وَلَا تَنْفَدُ وَسَائِلُهُ أَبَداً بلا نهايَةٍ.

■ قول الله تَعَالَىٰ بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿وَنَزَعْنَا﴾: **النَّزْعُ**: جَذْبُ الشَّيْءِ واقْتِلَاعُهُ مِنْ مَكَانِهِ، فإنْ كَانَ لَهُ جُذُورٌ مُتَغَلْغِلَة، فَنَزْعُهُ اقْتِلَاعُهُ مِنْ جُذُوره.

﴿مِّنْ غِلٍّ﴾: الْغِلُّ كُلُّ مَا يَدْخُلُ في الصُّدُورِ مِنْ عَدَاوَةٍ، وَضِغْنٍ، وحِقْدٍ، وحَسَدٍ، وغِشٍّ، ونحو ذلك. ومَادَّةُ الكَلِمَةِ تَدُورُ حَوْلَ الدُّخُولِ في الْأَشْيَاءِ مِنْ مَادِّيَّاتٍ وَمَعْنَوِيَّات.

• ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾: أي: ونَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ حَالَة كَوْنِهِمْ إِخْوَاناً مُتآخِينَ مُتَوَادِّينَ مُتَحَابِّينَ في الْجَنَّةِ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، وَيَتَذَاكَرُونَ وَيَتَحَادَثُونَ بِمَا يَسُرُّهُمْ وَيَزِيدُ مِنْ نَعِيمِهِمْ.

التقابُل: هُوَ مُوَاجَهَةُ الْوُجُوهِ لِلْوُجُوه، بخِلَاف التَّدَابُر.

• ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: أي: لَا يُلَامِسُ أَجْهِزَةَ الإحْسَاسِ فِيهم تَعَبٌ ما، لِأَنَّهُمْ لَا يَكْدَحُونَ فِيها لِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَطَالِبِهِمْ، بَلْ تَأْتِيهِمْ عَفْواً صَفْواً، وَمَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُوىً يُحَقِّقُونَ بِهِ لَذَّاتِهِمْ وأنواعَ نَعِيمِهِمُ المتَجَدِّدِ بِلَا انْقِطَاع.

النَّصَبُ: التَّعَبُ النَّاشِئُ عَنْ بَذْلِ الطَّاقَاتِ حَتَّىٰ الْجَهْد.

• ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾: أي: وأَهْلُ الجنَّةِ في الْجَنَّة يَكُونُون خَالِدِينَ فيها أبداً، فَلَا يُخْرَجُونَ مِنْها أبداً.

جَاءَ التَّعْبِيرُ هُنَا بِعَدَمِ الإِخْرَاجِ مِن الجنَّةِ كِنَايَةً عَنِ الْخُلُودِ الأَبَدِيِّ فِيها.

■ قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى دين اللهِ الحقِّ مِنْ أُمَّتِه:

• ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾:

هاتان الآيتان ملائمتَانِ لِمَا جاءَ قَبْلَهُمَا مِنْ وَعيدٍ بِعَذَابِ جَهَنَّمَ فِي آخِرِ الدَّرْسِ الثالث، وتبشيرٍ للمُتَّقِينَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ في آياتِ الدَّرْسِ الرَّابِعِ قَبْلَهُمَا.

وَجَاءَا بِأُسْلُوبِ تَكْلِيفِ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ بالإِنْبَاءِ بِمَا جَاءَ فِيهما، وهو أنَّ اللهَ هُو وَحْدَهُ الْغَفُورُ لِكُلِّ الذُّنُوبِ الرَّحِيمُ بِعِبَادِه، وأنَّ عَذَابَهُ هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ، لِتَعْلِيمِهِ أُسْلُوباً مِنْ أَسَالِيبِ الدَّعْوَةِ، وهُوَ الأُسْلُوبُ الْقَائِمُ عَلَىٰ الإِطْمَاعِ بِغُفْرَانِ اللهِ لِذُنُوب مَنِ اسْتَغْفَرَهُ وَتَابَ إِلَيْهِ وبأنَّهُ رَحِيمٌ به، المقرُون بالتَّحْذِيرِ مِنْ عَذَابِ اللهِ الَّذِي لَا يُوجَدُ أَشَدُّ مِنْهُ إِيلَاماً، حَتَّىٰ لَا يَيْأَسَ المذْنِبُونَ مِنْ مَغْفِرَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَا يَسْتَهِينُوا بِعَذَابِهِ الأَلِيم، فَيَتَمَادَوْا فِي مَعَاصِيهِمْ وَانْحِرَافِهِمْ عَنْ صِرَاط اللهِ المستقيم.

نَبِّئْ: أي: أَخْبِرْ وأَعْلِمْ، ويُسْتَعْمَلُ النَّبأُ كثيراً في الخبر ذي الخطَر والشأنِ البارز.

الْغَفُور: صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل «غافِر» وهو السّاتِرُ للمعاصِي والذُّنوب، ومِمَّا يُدْرَكُ عَقْلاً أنّ سَتْرَ الذُّنُوبِ يَجُرُّ وراءَهُ عَدَمَ المؤاخَذَةِ عَلَيْها، وفي العبارة توكيدٌ وقَصْر.

الرَّحِيم: صِيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل «راحِم» ووصْفُ اللهِ بهذا الْوَصْفِ مَعَ قَصْرِهِ عليه يَدُلُّ على أنَّه لَا يُوجَدُ ذو رَحْمَةٍ تُعادِلُ أو تُقارِبُ رَحْمَتُهُ رَحْمَةَ اللهِ بعباده.

وفي كلٍّ مِنَ الآيَتَيْن توكيد بـ «أنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ وضَمِير الْفَصْلِ) وقَصْرٌ بِتَعْرِيف طَرَفَي الإسْنادِ: «أَنَا الْغَفُور الرَّحيم» و«هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيم».

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الرابع من دُرُوس سورة (الحجر).
والحمدُ لله على معونَتِه ومَدَدِهِ وتَوفِيقه وفَتْحِه.



(٨)
التدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الحِجْر)
الآيات من (٥١ ـ ٧٧)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

القراءات:

(٥٣) • قرأ حمزة: **[إِنَّا نَبْشُرُكَ]** مِنْ فِعْل: «بَشَرَهُ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إِنَّا نُبَشِّرُكَ]** من فعل: «بَشَّرَهُ». والقراءتان لغتان عَرَبيّتان.

(٥٤) • قرأ نَافِع: **[تُبَشِّرُونِ]**. وقرأها ابن كثير: **[تُبَشِّرُونِّ]** بِتَشْدِيدِ النون، مع المدّ المشبع في الوصْلِ والوقف، أصلها تُبَشِّرُونَنِي وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: **[تُبَشِّرُونَ]** بِفَتْحِ النون.

كَسْرُ النون مُشَدَّدَةُ وغَيْرَ مُشَدَّدَةٍ هو على تقدير يَاء المتكلّم المحذوفة إيجازاً لفظِيًّا.

(٥٦) • قرأ أبو عمرو، والكِسَائيّ، ويعقوبُ، وخَلَف: **[يَقْنِطُ]** بِكَسْرِ النُّون.

وقرأها بَاقِي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[يَقْنَطُ]** بفَتْح النُّون.

والقراءتَانِ لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ.

(٥٩) • قرأ حَمْزَة، والكِسَائي، ويَعْقُوبُ، وخَلَفٌ: **[لَمُنْجُوهُمْ]** مِنْ فِعْل «أَنْجَىٰ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَمُنَجُّوهُمْ]** مِنْ فعل: «نَجَّىٰ».

والقراءتان لغتان عَرَبيَّتَان مُتَكافِئتان، فالمهموز أخو المضعَّف.

(٦٠) • قرأ شُعْبة: **[قَدَرْنَا]**. وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: **[قَدَّرْنَا]**. والقراءتان لغتان عَربيّتان.

(٦٥) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جَعْفَر: [**فَاسْرِ**] مِنْ فعل: «سَرَىٰ».

وقرأها بَاقِي القرّاءِ العشَرَةِ: [**فَأَسْرِ**] مِنْ فِعْلِ: «أَسْرَىٰ».

والقراءتان لغتان عَرَبيّتان لمعنى واحد، وهُو السَّفَرُ ليلاً.

(٦٨ و٦٩) • أثْبَتَ يَاءَ المتكلّم في: [**فَلَا تَفْضَحُونِي**] وفي: [**وَلَا تُخْزُونِي**] يَعْقُوبُ في الوصْلِ والْوَقف.

وَحَذَفَهَا بَاقِي القرّاء العشرة في الوصْل والوقف أيضاً: [**فَلَا تَفْضَحُونِ**] و[**وَلَا تُخْزُونِ**] وهي مع الحذف ملاحظَةٌ ذِهْناً.

(٧١) • فتح ياء المتكلّم مِنْ: [**بَنَاتِي إِنْ**] نَافع، وأبو جَعْفر. وأسْكَنها بَاقِي الْقُرّاء العشرة.

تمهيد:

في هذا الدَّرْس يُكَلّف اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يُنَبِّئَ المعالَجين فِي السُّورة مِنْ مُشْرِكي مكَّة، نَبأَ الْمَلَائِكَةَ الّذِينَ جَاءُوا إلى إبراهِيمَ أوّلاً فَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ هُوَ إسْحَاقُ عليه السَّلام مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الْعَجُوزِ الْعَقِيم، وأَخْبَرُوه بأنّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَرْسَلَهُمْ لإهْلَاكِ قَوْمِ لُوط.

والْغَرَضُ مِنْ إِنْبَاءِ الرَّسُول محمَّد ﷺ قَوْمَهُ بِهَـٰذِهِ الْقِصَّةِ، تَحْذِيرُهُمْ مِنْ عِقَابٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ يَنْزِلُ بِهِمْ، فيُهْلِكُهُمْ بِهِ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا شَامِلاً كَمَا أهْلَكَ اللهُ قَوْمَ لُوطٍ، ولا يُشْتَرَطُ أَنْ تكُونَ وَسِيلَةُ الإهْلَاكِ مُمَاثِلَةً لِلْوَسِيلَةِ الّتِي أَهْلَكَ اللهُ بِهَا قَوْمَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام.

فهذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ مَوْضُوعِيًّا بالدُّرُوسِ السَّابِقَةِ لَهُ في السُّورَة.

وَمَا جَاءَ في هَـٰذَا الدَّرْسِ قَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُه تَدَبُّراً تَكَامُلِيًّا، مع سَائِرِ النُّصُوصِ المتعلّقَة بِلُوطٍ عليه السَّلَام وقومِهِ في الملْحَقِ الخامس مِنْ

مَلَاحِقِ تَدَبُّر سورَة (الأعراف/ ٣٩ نزول)[1]. ولِذَا فإنّي أقْتَصِرُ هُنَا على تَدَبُّر فِقَراتِ هَـٰذَا النَّصّ، دُونَ تَوْجِيه العنايَةِ للتكامُلِ بيْنَهُ وبَيْنَ سَائِرِ النُّصُوص حول هذا الموضوع.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ يُكَلّفُ رَسُولَهُ أنْ يُنَبِّئ مُشْرِكي مَكَّة المتَعَنِّتين:

• ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾:

أي: وَأخْبِرْهُمْ يا مُحَمَّدُ النَّبَأَ الَّذِي نَقُصُّهُ عَلَيْكَ، الصَّادِرَ عنْ قِصَّةِ ضَيْفِ إبراهيم عليه السلام، وقَدْ كَانُوا رُسُلاً مِنَ المَلَائِكَةِ، جاءُوا إِلَيْهِ عَلَىٰ صُوَرِ بَشَرٍ حِسَانٍ.

الضَّيْفُ: الّذي يَنْزِلُ عِنْدَ غَيْرِهِ «يَسْتَوِي فِيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ، والمفرد والمثنّىٰ والجمع» ويُجْمَعُ على: «أَضْيَافٍ، وضُيُوفٍ، وضِيَاف، وَضِيفان».

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾:

أي: ونَبِّئْهُمْ عَنْ قِصَّةِ ضَيْف إبْرَاهِيمَ الكائِنَةِ وَقْت دُخُولِهِمْ عَلَيْه فَقَالُوا له: سَلَاماً. ﴿إِذْ﴾ ظرفيّة بمَعْنَىٰ «حين».

وجاءَ في غير هَـٰذَا النَّصّ أنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

• ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾: أي إنَّا مِنْكُمْ خَائِفُونَ، يُقَالُ لُغَةً: «وجِلَ، يَوْجَلُ، وَجلاً، وَمَوْجَلاً»: أي: خَافَ وفَزِعَ، وذَلِكَ لأنهم لم يأْكُلوا من طعامِهِ الذي قرَّبَهُ إليهم.

---

(١) انظر الملحق الخامس «دراسة تكامليَّة للنصوص بشأن لوط عليه السلام وقومه في القرآن المجيد» في الصفحات من (٢٧٩ ـ ٣٥١) من المجلّد الخامس.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾:

أَيْ: قَالَ الرُّسُلُ مِنَ الملائِكَةِ لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُمْ ضَيْفٌ من الْبَشَرِ، لَا تَخَفْ مِنَّا، إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَام عَلِيم سَيَأْتِيك مِنْ زَوْجِكَ «سَارَة» فَنَحْنُ مَلَائِكَةٌ رُسُلٌ مُرْسَلُونَ مِنْ رَبّك، لِنُقَدِّمَ لَكَ هَـٰذِهِ الْبِشَارَة.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾:

الاستفهام في: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ فِيه مَعْنَىٰ التَّعَجُّبِ مِنْ أَمْرِ هَـٰذِهِ البِشَارَة.

• ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: أي: أَبَشَّرْتُمُوني مع أنْ مَسَّنِي الكِبَرُ والشَّيْخُوخَةُ المضْعِفَةُ عَادَة عن الإنْجَابِ. «علىٰ» هنا بمعنى «مع».

«أَنْ» مَصْدَرِيَّة تُؤَوّل مع ما بَعْدَها بِمَصْدَر، أي: مع مَسِّ الكِبَرِ لي.

المعنى: أَبَشَّرْتُمُوني وقد صَارَ بَيْنِي وبَيْنَ الكِبَرِ تَماسٌّ، ولَمْ يَقُلْ عليه السَّلام: أصابَنِي الكِبَرُ، أَوْ نَزَلَ بِي الكِبَرُ، لِيَكُونَ صادقاً فِي عِبارَتِه، إِذْ مَا زَالَتْ لَدَيْهِ قُوَّةٌ وَقُدْرَةٌ على الإنجاب، فقد تَزَوّج بَعْدَ «سَارَة» امرأةً اسْمُها «قطورة» وأنجب مِنْها سِتَّ بنين.

ويظهر أنّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام لَمْ يُرِدْ أَنْ يَجْرَحَ مَشَاعِرَ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الواقِفَة مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تَتَسَمَّعُ الْحِوار، بأنَّ السَّبَبَ فِي عَدَمِ الإنجاب هُوَ مِنْها لا مِنْهُ، فَهُوَ مَا زَالَ قَادِراً على الإنجاب ضِمْنَ نظام الأَسْبَابِ الرَّبَّانِيَّة المعْرُوفَة، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وسَكَتَ عَنِ الْعِلَّةِ الموجودَةِ لَدَىٰ زَوْجَتِهِ «سَارَة» العَجُوز العقيم، فقَدْ كَانَتْ طَوالَ مَا قَبْلَ سِنِّ الْيَأْسِ عَقِيماً، ثُمَّ شَاخَتْ وصَارَتْ عَجُوزاً.

ورُبما وَقَعَ في ظَنِّ إبراهيم عليه السّلام، أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سيأْمُرُهُ بأنْ يَتَزوَّجَ امْرَأَةً ذَاتَ اسْتِعْدَادٍ للإنجاب، ومِثْلُ هَـٰذَا الظّنِّ وقع في نَفْسِ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الواقفة من وراء حجابٍ تتسَمَّعُ الحوارِ.

• ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟ أي: فَبِأَيِّ سَبَبٍ لَدَيَّ أَمْلِكُهُ يَكُونُ مِنْ آثَارِه أَنْ أُنْجِبَ وَلَداً فأنْتُمْ تُبَشِّرُونَنِي به.

لقد كانَ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلاَمُ مُلْتَزِماً بأَنْظِمَةِ اللهِ السببيَّةِ في كُلِّ مَا يَخُصُّه، ومُتَأَدِّباً مع رَبِّهِ بِشَأْنِها، غَيْرَ حَرِيصٍ على أنْ يَسْأَلَ اللهَ عزَّ وجلَّ خَرْقَها مِنْ أَجْلِ وَلَدٍ يَأْتِيه مِنْ «سَارَة» زوجته.

• ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: بَشَّرْنَاك بخَبَرٍ عَنِ اللهِ مُتَّصِفٍ بالْحَقِّ الَّذِي سَيَتَحَقَّقُ حَتْماً، فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِين الْيَائِسِينَ.

الْقُنُوطُ: هو في اللُّغَة الْيَأْس.

لم يجيبُوه عَنِ السَّبَبِ، وإنَّما أجابُوهُ على ظَاهِرِ عبارَتِه، لَا عَلَىٰ مُرَادِهِ مِنها.

• ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾؟:

استفهامٌ يُريدُ به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْيَ قُنُوطِهِ، أي: لَا أَحَدَ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إلَّا الضَّالُّونَ الجاهِلُونَ بِقُدْرَةِ اللهِ عَلَىٰ مَا يَشَاء، فأنَا لَمْ أَشْعُرْ بالْقُنُوط، ولَمْ يخْطُر على بَالِي حَتَّىٰ تَنْهَوْنِي عَنْه، وأشْعَرَهُمْ بِهَـٰذَا أَنَّهُ كَانَ يَسْأَلُهُمْ عَنِ السَّبَبِ فقط، حِينَ قَالَ لهم: ﴿... فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟.

وجاءت تتمّات في نُصُوصٍ أخْرَىٰ ذَكَرْتُها في الملحق الخامس من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) وهو «دراسَةٌ تكامُلِيَّة للنصوص بشأنِ لوطٍ عليه السَّلام وقومه».

▪ وأحَسَّ إبراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنَ الرُّسُلِ الملائِكَةِ عِنْدَهُ، حَرَكَاتٍ أَوْ تَهَامُساً دَلَّهُ عَلَىٰ أَنَّهُمْ فِي عَجلَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَأَنَّ لَدَيْهِمْ أَمْراً خَطِيراً يُرِيدُونَ تَنْفِيذَ أَمْرِ اللهِ لَهُمْ فِيهِ، وقد يكُونُ قَدْ فَهِمْ مِنْ بَعْضِ عباراتِهم شيئاً، فسألهم:

• ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾؟: أي: فَمَا أَمْرُكُمْ وَمَا شَأْنُكُمْ الَّذِي تَتَخاطَبُونَ فيه.

الْخَطْب: هُو في اللُّغَةِ الْأَمْرُ والشَّأْنُ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ المخاطَبَة.

• ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨﴾: أي: فَهُمْ بسَبَبِ كَوْنِهِمْ قَدْ بَلَغُوا حَضِيضَ الإجْرَامِ يَسْتَحِقُّونَ الْإِهْلَاكَ الشَّامِل واسْتَثْنَوْا آلَ لُوطٍ، فقالُوا:

• ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩﴾: أي: إِلَّا لُوطاً وَآلَهُ، فإنَّنَا لَا نُهْلِكُهُمْ بَلْ نُنَجِّيهِمْ أَجْمَعِينَ مِن الْهَلاك والْعَذَاب الذي نُنْزِلُهُ بِقَوْمِهِ الْمُجْرِمين.

وقَدْ يَكُونُ هَـٰذَا الاستثناء بَيَاناً قُرْآنِيًّا صَادِراً عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويُؤَيِّدُ هَـٰذَا الْفَهْمَ قَوْل الله بَعْدَهُ:

• ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝٦٠﴾ وفي القراءة الأخْرَىٰ: [**قَدَرْنَا**]: أي: بِسَبَبِ كَوْنها كافِرَة، وكَانَ هَوَاهَا مَعَ قومِها في فواحِشِهم، لَا مَعَ زَوْجِهَا لوط عليه السلام.

والمعنى: قَدَّرْنَا وَقَضَيْنَا أَنْ تَكُونَ امرأتُهُ مِنَ الغابِرِينَ الْمُهْلَكِين مع قومها.

تَقْدِيرُ مَقَادِيرِ الأشياء سَابِقٌ لقضاء الله بِها، ثُمَّ يَكُونُ التنفيذُ عَلَىٰ وفْقِ التَّقْدِير والقضاء.

هذا بيانٌ صادِرٌ عن الله ـ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه ـ إذِ التقديرُ لَا يكون من الرُّسُل من الملائكة، بَلْ هم أدواتُ تنفيذٍ لِقَدَرِ اللهِ وَقضائه.

﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: كلمة «**الغابر**» تأتي في اللُّغَةِ بِمَعْنَيْين:

الأول: الماكِثُ الّذِي لَا يَتحوَّل.

الثاني: الذاهِبُ الماضِي الّذي لم يَبْقَ لَهُ وجُود.

وكلا هـٰذَيْنِ المعنَيَيْنِ ينطبقَانِ على امْرأة لوط عليه السلام، فَقَدْ جَعَلَهَا اللهُ تَمْكُثُ فِي أَرْضِ قَوْمِها، بإهْلَاكِها قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنها وَتُفَارِقَ حُدُودَها، وأهْلَكَهَا اللهُ مَع قَوْمِها فَذَهَبَتْ مَعَ الذاهبين منهم بالإهْلَاكِ الرَّبَّانِي، ومَضَتْ مَعَ الماضِين، ولَمْ يَبْقَ لَهَا فِي أَرْضِهَا وُجُودٌ حَيٌّ.

وهَـٰذَا من اسْتِعْمالِ اللَّفْظِ في مَعْنَيَيْه، وهو مَذْهَبُ جُمهور علماء أصُولِ الفقه، وَتَشْهَدُ لَهُ نُصُوصٌ قرآنِيَّةٌ مُتَعَدّدة، وهو مظهر من مظاهر الإيجازِ في القرآن المجيد.

قول الله تَعالَىٰ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

دَلَّ هَـٰذَا البيان على أنَّ الرُّسُلَ مِنَ الملائِكَةِ الَّذِين جَاءُوا عَلَىٰ صُوَرِ شَبَابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ، مَرُّوا بآلِ لُوطٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْه، وَعَنْ طَرِيقِهِمْ طَلَبُوا مُوَاجَهتَهُ، فأذِنَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنْ يَدْخُلوا إِلَيْه، وَعَصَىٰ بذلِكَ أَوَامِرَ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ، إِذْ سَبَقَ أَنْ عَزَلُوهُ عَزْلاً اجْتِمَاعِيًّا، وَنَهَوْهُ عَنْ أَنْ يَلْقَىٰ أَحَداً مِن العالَمين.

لقد عزَّ عَلَيْهِ أَنْ يَرْفُضَ اسْتِقْبَال ضُيُوفٍ مِنْ غَيْرِ قَوْمِهِ نَزَلُوا بِسَاحَتِه، وطَلَبُوا الاجْتِمَاعَ به.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ وَتَفحَّصَ وُجُوهَهُمْ وَأَلْبِسَتَهُمْ لم يَعْرِفْ مِنْ أيّ قَوْمٍ

هُمْ، فَقَال لهم: ﴿... إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: أي: إنَّكُمْ مَجْهُولُونَ بالنِّسْبَةِ إِلَيَّ، لَا أعْرِفُ أشْخَاصَكُمْ وَلَا أَعْرِفُ مِنْ أَيِّ قَوْمٍ أَنْتُمْ.

ورأىٰ أَنَّهُمْ شُبَّانٌ مُرْدٌ حِسَانٌ، وأَدْرَكَ أَنَّ قَوْمَهُ لا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا قَدْ عَلِمُوا بِمَقْدَمِهِمْ إليه، فتَعَاظَمَ لَدَيْهِ تَصَوُّرُ مَا سَيَحْدُثُ لَهُ مِن مُصِيبَةٍ مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِ، الَّذِينَ سَيَأْتُونَ إِلَيْهِ طَالِبِينَ مِنْهُ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنْ مُمَارَسَةِ الفاحِشَةِ في هؤلَاءِ الشُّبَّان، كعَادَتِهِمْ مع كُلّ غَرِيب شَابٍّ ذِي وَسَامَةٍ، فَسَاءَه مَقْدَمُهُمْ إليه، ونُزُولُهُمْ ضُيُوفاً عِنْدَه.

■ لَكِنْ طَوَىٰ هَـٰذَا النَّصُّ أحْدَاثاً جَرَتْ بَيْنَ لُوطٍ وَقَوْمِهِ، واقتصَرَ عَلَىٰ بَيَانِ مَا يَلِي جَوَاباً عَلَىٰ سُؤالِهِ لَهُمْ مُسْتَوْثِقاً مِنْ أَنَّهُمْ رُسُلُ رَبِّهِ حَقًّا وصِدْقاً، وأَنَّهُمْ جَاءُوا لتَعْذِيب قومِهِ وإهْلَاكِهِمْ.

• ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: جِئْنَاكَ بِتَعْذِيبِ قَوْمِكِ وإهْلَاكِهِم، وهُو الْأَمْرُ الَّذِي كانُوا يَشُكُّونَ فِيه حِينَما كُنْتَ تُنْذِرُهُمْ وَتُحَذِّرُهُمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ لَهُمْ، وإهْلَاكٍ شَامِلٍ يَعُمُّ كُلَّ قُرَاهُمْ وَكُلَّ أَحْيَائهم.

﴿يَمْتَرُونَ﴾: أي: يَشُكُّونَ ويُجادِلُون مُكَذِّبين.

■ وقالُوا لَهُ أيضاً:

﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ شَدِيدَ الْقَلَقِ خائِفاً مِنْ مُصِيبَةٍ تَحُلُّ بِهِ مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ فُجُورِهم وَمَجَانَتِهِمْ وَوَقَاحَتِهِم، وإقْبَالِهِمْ لِقَضاءِ أَوْطَارِهِمْ بِعُنْفٍ وإكْرَاهٍ وظُلْمٍ وَعُدْوانٍ، فكانَتْ حَالَتُهُ النَّفْسِيَّة مُحْتَاجَةً لِهَذَا البيان المؤكد.

فالمعنى: وأتَيْنَاكَ بالنَّبأ الْحَقِّ، وإنَّا لصَادِقُون في كُلِّ مَا نَقُول لَكَ.

■ وبَعْدَ أَنْ هَدَّؤُوا قَلَقَهُ، وَسَكَّنُوا خوْفَه، وجَّهُوا لَهُ تَعْلِيماتِ الرَّحِيلِ عَنْ أرْضِ قَوْمِهِ، قائِلِينَ لَه:

• ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: فَسِرْ بأهْلِكَ لَيْلاً، مُبْتَعِداً بِهِمْ عَن أَرْضِ سَدُوم. يُقَالُ لغة: «سَرَىٰ اللَّيْلَ، وسَرَىٰ بِهِ» أي: قَطعَهُ بالسَّيْر. ويُقال: «سَرَىٰ بِفُلَانٍ لَيْلاً، وأسْرَىٰ به» أي: جَعَلَهُ يَسِيرُ بِهِ.

• ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: أي: بِطَائِفَةٍ مِن اللَّيْلِ تَكْفِي لاجتيازِكُم الْأَرْض الَّتِي سَيَنْزِلُ عَلَيْها عَذَابُ اللهِ، وَوَسَائِلُ إِهْلَاكِه لِأَهْلِ سَدُوم.

القِطْعَ مِنَ اللَّيْل: الطَّائِفَةُ مِنه.

• ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾: أي: وامْشِ أنْتَ وَرَاءَ أَهْلِكَ لِتَسُوقَهُمْ، وَلَا تَمْشِ أمَامَهُمْ.

• ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: أي: وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أحَدٌ لِيَنْظُرَ مَا سَيَحُلُّ بِأَرْضِ سَدُوم.

وَلَمْ يَأْتِ في هَـٰذَا النَّصّ استثناءُ امْرَأتِهِ اكْتِفَاءً بِمَا جَاءَ في نَصِّ سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول) السَّابقِ نزولاً.

• ﴿... وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾: تَدُلُّ هَـٰذِهِ العبارة على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قَدْ خَصَّصَ لَهُمْ دَلِيلاً من الملائكة يَدُلُّهُمْ فيأْمُرُهُمْ بأنْ يَسِيرُوا في الطُّرُقَات، وإلَىٰ الجهاتِ الَّتِي يُعَيِّنُها لَهُم.

الفِعْل في: ﴿تُؤْمَرُونَ﴾ بصيغةِ المضارع يَدُلُّ على أنَّ آمراً سَيُوجِّهُ لَهُمُ الْأَمْرَ بالسَّيْرِ في الطُّرُقَاتِ، وإلَىٰ الجهات آناً فآنا.

■ قول الله تَعالَىٰ:

• ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦)﴾:

• ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾: أي: وأمْضَيْنَا وأنْهَيْنَا إِلَىٰ لُوطٍ عَنْ طَرِيق الْوَحْي إِلَيْه، وهَـٰذَا بيانٌ مِنَ اللهِ تبارَكَ وتَعالَىٰ.

• ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾: أي: ذَلِكَ الْأَمْرَ الْجَلِيلَ العظيمَ المهُولَ الْخَطِير.

«ذَلِكَ» مفعولٌ بِه لفِعْل «قَضَيْنا». «الأمْرَ» بَدَلٌ من «ذَلِكَ» أو عَطْفُ بَيان.

جاء في هَـٰذِهِ العبارة اسْتِعْمالُ اسْمِ الإشَارَة المَوْضوع للبعيد، للدَّلالَةِ عَلَىٰ أنّ الْأَمْرَ الْعظيم الْفَظِيعَ الَّذي كَانَ مستبعداً جدًّا، قَدْ تَمَّ بِهِ القضاء الرَّبَّانيّ، وصَارَ حَقِيقَةً وَشِيكَةَ الْوُقوع.

• ﴿... أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾: هَـٰذِهِ العبارةُ بَدَلٌ مِنْ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ لتفسِيره، وَرَفْعِ إِبْهامِهِ الَّذِي جاءَ بأسْلُوبٍ فِيهِ تَهْويلٌ وَتَعْظِيمٌ. وهو بَدَلُ كُلٍّ مِنْ كُلٍّ.

دابِرُ الشَّيْء: أي: تَابِعُهُ وآخِرُه.

والمراد باسم الإشارَةِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قَوْمُ لُوطٍ، وكُلُّ مَا يَتْبَعُهُمْ من أَحْيَاءٍ وأشياء.

• ﴿مَقْطُوعٌ﴾ أي: مقْطُوعٌ بالإهْلَاكِ والتَّتْبير والتَّفْتِيت، فَهُوَ مَقْطُوعٌ عَن البقاء في الْوُجُودِ بأوْصَافِهِ وَأشكالِهِ وَهَيْئَاتِهِ مِنْ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

جاء الاكْتِفَاءُ بالتَّعْبِيرِ بالْقَطع، والمرادُ الْقَطْعُ عَنِ الْوُجود في ظُرُوف الحياة الدُّنيا.

أصْلُ الْقَطع: الْبَتْرُ لفَصْلِ الشَّيْءِ عَمَّا هُوَ مَوْصُولٌ بِهِ، فَقَطْعُ الحيِّ عن الحياة يكُونُ بإهْلَاكِهِ وإِمَاتَتِه، وقَطْعُ الأبْنِيَةِ والْقُرَىٰ يكُونُ بتدْمِيرِها وَإِزالَة كُلِّ أثَرٍ لَهَا، وَقَطْعُ الشيءِ عَنِ الْوُجُودِ يَكُونُ بإعْدَامِه.

• ﴿مُصْبِحِينَ﴾: أي: حَالَة كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ فِي وَقْتِ الصَّبَاح. يقال لغة: «أَصْبَحَ فَلَانٌ» أي: دَخَلَ فِي وَقْتِ الصَّبَاح، وهُوَ أوَّلُ النَّهار عنْدَ الصُّبْح.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيات بيانٌ مُوجزٌ لِمَا كَانَ يَتَخَوَّفُ مِنْهُ لُوطٌ عليه السَّلام، إذا عَلِمَ قَوْمُه باسْتِضَافَتِهِ في دَارِهِ لشُبَّانٍ مُرْدٍ حِسَان.

• ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أرَىٰ أنَّ المرادَ بأهْلِ الْمَدِينَةِ كُبْرَاؤُهَا وَأصْحَابُ الأمْرِ المطاعِ فيها، ومَعَهُمْ أتباعُهُمْ وأَنْصارُهم.

• ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: أي: يَتَجَدَّدُ لَدَيْهِمْ الْفَرَحُ والسُّرُور والابْتِهاجُ بِوُجُودِ شُبَّانٍ مُرْدٍ حِسَانٍ غُرَبَاء في دار لوط، ويُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِهَـٰذِهِ الْغَنِيمَةِ السَّهْلَةِ، سَعْياً لِلَّذَةِ الشَّاذَّةِ الْفَاجِرَة، ولَعَلَّ الحادِثَةَ تَكُون سَبباً للتَّخَلُّصِ مِنْ لُوطٍ وأَهْلِهِ، إذْ كَانُوا قَدْ نَهَوْهُ عَنْ أنْ يَلْتَقِيَ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ.

يقالُ لغة: «اسْتَبْشَرَ» أي: فَرِحَ وسُرَّ. ويقال لغةً: «اسْتَبْشَرَ فُلَانٌ فُلاناً» أي: بَشَّرَهُ بما يُفْرِحُهُ وَيَسُرُّه.

• ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: وَلَمَّا وَصَلَ أَهْلُ المدينَةِ إلَىٰ دَارِهِ واجْتَمَعُوا حَوْلَهَا، وَألَحُّوا عَلَيْهِ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِهِ، وأخَذُوا يُرَاوِدُونَهُ عَنْ ضُيُوفه، فاستَعْصَمَ عَلَيْهِ السَّلام، وأبَىٰ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِن ضُيوفِهِ، وَقَالَ لَهُمْ: إنَّ هَـٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلا

تَفْضَحُونِي بَيْنَ النَّاسَ، إذْ يُشَاعُ بَيْنَ النَّاسِ في الحواضِرِ والْبَوَادِي أنَّ «لوطاً» مَكَّنَ كُبَرَاءَ فُسَّاقِ سَدُوم من فِعْلِ الفاحِشَةِ في ضُيُوفِه المرْدِ الْحِسَان.

وقال لهم: اتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِي بَيْنَ النَّاس، أي: وَلَا تُوقِعُونِي في الذُّلِّ والْهَوَانِ، وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَرَفي وَطَهَارَتي وَمَكَانَتِي في نُفُوسِ كُلِّ الْأَقْوَامِ مِنْ حَوْلِكُمْ.

• ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾: أي: ألَمْ نَعْزِلْكَ؟ أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنْ أَنْ تَلْتَقِي أَحَداً مِنَ النَّاسِ، من قَوْمِنَا أَمْ مِنَ الْغُرباء؟ فَكَيْفَ تَسْتَقْبِلُ فِي دَارِكَ ضُيُوفاً غُرَبَاء؟ الاستفهام إنكاريٌّ توبيخي.

اتَّخَذُوا هَٰذَا ذَرِيعَةً لإخْرَاجِهِ، أَوْ تَوْطِئَةً لإخْرَاجِهِ مِنْ أَرْضِهِمْ، بِسَبَبِ مَعْصِيَتِهِ لِأَوَامِرِهِمْ وَنَوَاهِيهِم، بَعْدَ أَنْ عَزَلُوهُ عَزْلاً اجْتِمَاعِيًّا.

• ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾:

إنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ وَجدَ نَفْسَهُ مُحْرَجاً، وَعَاجِزاً عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ، وغَيْرَ مُسْتَعِدٍّ لِأَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِهِ، وَكَانَ يَعْلَمُ مِنْ عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْتَدُونَ عَلَىٰ نِسَاءٍ لَا حَقَّ لَهُمْ بِمُعَاشَرَتِهِنَّ إلَّا عَنْ طَرِيق الزَّواج، حِفَاظاً عَلَىٰ أنْسَابِهِمْ، أَرَادَ أَنْ يُحْرِجَهُمْ بِعَرْضِ بَنَاتِهِ عَلَيْهِمْ، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا ذلِكَ، وَلَوْ فَعَلُوا لافْتَضَحُوا وَسَقَطُوا مِنْ أَعْيُنِ قَوْمِهِمْ وَنِسَائِهِم، وَلَفَجَرَتْ نِسَاؤُهُمْ نِكَايَةً بِهِمْ.

لَكِنَّ عَادَةَ إتْيَانِ الذُّكُورِ لَمْ تَكُنْ تُثِيرُ غَيْرَةَ نِسَائِهِمْ إثَارَةً كبيرَة، وكانَتْ فِي نَظَرِهِمْ جَمِيعاً بِمَثَابَةِ الأمُور العادِيَّة، كالطَّعَامِ والشراب، وقَضَاءِ الحَاجَات الطبيعيَّة، واللَّهْوِ واللَّعِب، ونَحْوِ ذَلِكَ.

ودَلَّتْ عبارة: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ باسْتِخْدَام حَرْفِ الشرْطِ «إنْ» علَىٰ أَنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ كانَ عَلَىٰ عِلْمٍ بأنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا عَرْضَه، لِأَنَّ حَرْفَ

الشَّرْط «إنْ» يُقْصَدُ اسْتِعْمَالُهُ فِي الأمْرِ المشْكُوكِ فِيه، أَوْ فِيما لَا يُنْتَظَرُ وُقُوعه، باستثناء حالَاتِ الشَّرْطِ العامّ.

فأعْرَضُوا عَنْ عَرْضه، وقالُوا لَهُ مَا جاء بيانُهُ فِي سُورَة (هود/ ٥٢ نزول):

﴿... لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

■ قول اللهِ تعالى خطاباً لِرَسُوله ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ مُتَلَقٍّ مِنْ بَعْدِه:

• ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

﴿لَعَمْرُكَ﴾: قَسَمٌ بالْعُمْر. **العَمْرُ، والْعُمُرُ، والْعُمْرُ**: الحياة. وفي الْقَسَم يُسْتَعْمَلُ بفَتْحِ الْعَيْن لَا غير.

اللَّام لَامُ القسم «عَمْرُك» مُبْتَدأٌ مُضَافٌ إلى ضمير المخاطب، والخَبَرُ محْذُوفٌ تقدِيرُهُ: «قَسَمِي» أو «يَمِينِي» وهو لازم الحذف.

والمقْسَمُ عَلَيْه جُمْلَةُ: «إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ».

السَّكْرَةُ: الْمَرَّةُ من السُّكْرِ، وهُوَ غَيْبُوبَةُ الْعَقْلِ بسَبَبِ الشَّرابِ المسْكِر، أو الْغَضَبِ، أو الشَّهْوَةِ الْعَارِمَةِ الطَّاغِيَةِ، أَوْ نَحْو ذَلِكَ.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أيْ: يَتَحَيَّرُونَ وَيَتَرَدَّدُون مُنْطَمِسي الْبَصَائِرِ. **الْعَمَهُ في البصيرة**: كالْعَمَىٰ فِي الْبَصَر.

فأبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّ قَوْمَ لُوطٍ عليه السَّلام كانُوا سَاعَتَئِذٍ غائِبِي الْعَقْلِ كالسُّكَارَىٰ، مُنْطَمِسي البصائِرِ عُمْيَ الْقُلُوب.

فكان تَعْذِيبهُمْ وإهْلَاكُهُمْ أَمْراً حَكِيماً لتَخْلِيص المجتَمع الْبَشَرِيّ مِنْ شُرُورِهم.

■ قول الله تَعالَىٰ:

• ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

جاء في هَٰذِهِ الآياتِ بَيَانٌ يَتعَلَّقُ بإهْلَاكِ قَوْم لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام، وأنَّ فِي آثارِ دِيَارِهِم الْمُدَمَّرَةِ آياتٍ لأولي الألْبَابِ، ولِلَّذِينَ لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يُؤْمِنُوا.

• ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾: أي: فَأَخَذَتْ أَرْوَاحَهُمْ من الحياةِ الدُّنيا صَيْحَةٌ صَوْتِيَّةٌ عُظْمَى بَعْدَ إشْرَاقِ الشَّمسْ.

وَكَانَ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ رِجْزَ عَذَابٍ عِنْدَ الصُّبْحِ قَبْلَ إمَاتَتِهِمْ، واسْتَقَرَّ فِيهم، حَتَّىٰ جَاءتْهُم الصَّيْحَةُ الْمُهْلِكَةُ الْمُمِيتَةُ بَعْدَ شُرُوق الشَّمْس، أخذاً مِنْ دَلَالَاتِ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

• ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: فَقَلَبْنَا أَرْضَهُمْ، فَجَعَلْنَا عَالِيها سَافِلَها، وَسَافِلَهَا عَالِيْها، وأَمْطَرْنَا مَطَراً مِنْ حِجَارَةٍ عَلَيْهِمْ، وَهَٰذِهِ الحجارَةُ مِنْ سَجِّيل، أي: أَصْلُها طِينٌ تَحجَّر، وَرُبَّمَا كَانَ للنَّارِ أَثَرٌ في جَعْلِهِ مُتَحَجِّراً.

يَتحدَّثُ الرَّبُّ بضمير المتكلّم العظيم لإرْهابِ الكافِرين المعانِدِينَ المتَمَادِينَ في غيّهم، جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه.

• ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: أي: إنَّ فِي ذَلِكَ العِقَابِ الباقِيَةِ آثارُهُ في أَرْضِهِمْ، وهِي أَرْضُ الْبَحْرِ الميّتِ، لآياتٍ مُتَعدِّدَاتٍ لِلْمُتَفَكِّرينَ بِتَعَمُّقٍ، اسْتِدْلَالاً بِسِمَاتِ الأشياء ذواتِ الدَّلالَاتِ على

الأحْدَاث، أو على مَا وَرَاءَهَا مِنْ خَفَايا. **الآياتُ**: العلامَاتُ الدَّالَّاتُ على أشياء غير ظاهرات.

التَّوَسُّمُ: هو النَّظَرُ الفِكْرِيُّ بِتَعمُّقٍ فِي سِمَاتِ الْأَشْيَاءِ وَصِفَاتِها، لِمَعْرِفَةِ دَلَالَاتِها. قَالَ أَبُو عُبَيْدَة: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: أي: لِلْمُتَبَصِّرين. وقالَ ثَعْلب: الواسِمُ النَّاظِرُ إِلَيْكَ مِنْ قَرْنِكَ إِلَىٰ قَدَمِكَ.

• ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾: أي: وإنَّ قُرَىٰ قَوْم لُوطٍ عليه السَّلام، الَّتِي غَمَرَهَا الْبَحْرُ الميّتُ لِبَطَرِيقٍ واضِحٍ مُقِيم ثَابِتٍ غَيْرِ مُتَغَيِّر، يُشَاهِدُ مَوَاقِعَها مَنْ يَزُورُ أَرْض سَدُوم، أَوْ يَصِلُ إِلى البحْرِ المَيِّتِ ويُشَاهِدُه.

• ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾: أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الْحَدَثِ العظيم، الَّذِي جَرَىٰ لِقَوْمِ لُوطٍ ولِقُرَاهم، لآيَةً مِنْ آياتِ اللهِ الجزَائِيَّةِ الْعِقَابِيَّة، وهِي دَالَّةٌ عَلَىٰ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي عِبادِهِ الْمُجْرِمين. هذه الآيَةُ يَنْتَفِعُ بِدَلَالَتِها الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لأَنْ يُؤْمِنُوا.

اسم الفاعِل فِي عبارة: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بِقُوَّةِ الفِعْلِ المضارع يَصْلُحُ لأَنْ يَقَعَ على الحالِ وعلى الاسْتِقْبَال بِحَسَبِ الْوَضْعِ اللُّغَوِي.

يُلَاحَظُ أنَّ الْجُمَلَ في الآيات: «٧٥ و٧٦ و٧٧» مؤكَّدَاتٌ بِـ «إنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ واللَّام المزحْلَقَة لِلْخَبَر» لأنَّ معظم المتَلَقِّين يَغْفُلُون عَنْ التَّبَصُّر بمضامِينها، فهم بحاجَةٍ إلى التوكيد المشَدَّد، لِتَحْرِيضِ أفْكَارِهِمْ عَلَىٰ دِقَّةِ التَّأَمُّلِ وحُسْنِ التبصُّر.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر آيات الدَّرْس الخامس من دُرُوس سورة (الحجر).

والحمدُ لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوفِيقِهِ وفَتْحِه.

❋ ❋ ❋

(٩)
التدبّر التحليلي للدّرس السادس من دُروس سورة (الحِجْر) الآيات من (٧٨ ـ ٨٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

القراءات:

(٨٢) • قرأ وَرْشٌ، وأبُو عَمْرو، وحفْصٌ، وأَبُو جَعْفر، ويَعْقُوب: ﴿بُيُوتًا﴾ بِضَمِّ الباء.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ ﴿بِيُوتاً﴾ بِكَسْرِ الباء.

والقراءتان لُغَتَان عَرَبِيَّتان.

تمهيد:

في هَـٰذَا الدَّرْس عَرْضٌ مُوجَزٌ جدًّا لإِهْلَاكِ أصْحَابِ الْأَيْكَة، قَوْمِ الرَّسُول شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَام، رَغْبَةً في أَنْ يَعْتَبِرَ بِهِ الْمُعَالَجُونَ، ولإِهْلَاكِ أصْحَابِ الحِجْر، وهم «ثمود» قَوْمُ الرَّسُول صالح عليه السلام، رَغْبَةً أيضاً في أنْ يَعْتَبِرَ بِه الْمُعَالَجُونَ.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿٧٩﴾﴾:

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾: هم مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلام، وقَدَ سَبَقَ في سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول) التعريفُ بِهِم.

الْأَيْكَة: الشجر الكثيف الكثير الملْتف، وقد كان لهؤلاء الْقَوْم غيضَةٌ ذَاتُ شَجَرِ كَثيفٍ كثير مُلْتَفٍّ، عُرِفُوا بها، فاشْتَهَرُوا بأنَّهم أصْحَابُ الْأَيْكَة.

• ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾:

«إنْ» هي المخَفَّفة مِنَ الثَّقِيلَةِ، وهي هُنَا مُهْمَلَةٌ عَن الْعَمَل. فصار مَعْنَاهَا مُشَابهاً لمعنى «قد». واللَّام الدَّاخِلَةُ علَىٰ «ظالِمِينَ» هي اللَّام الفارقة بين المُخَفَّفَةِ من الثقيلة وبَيْن «إِنْ» النَّافِية، وتُفِيدُ التوكيد.

﴿لَظَٰلِمِينَ﴾: أي: لَظَالَمِينَ بكُفْرِهِمْ وجرائِمهم الكبرىٰ غير الكُفر، فالمرادُ بالظُّلْمِ هُنَا الْكُفْرُ الإرادِيُّ العِنَادِيُّ وَلوازِمُهُ فِي السُّلُوك، وبِسَبَبِ ظُلْمِهِم الشّنيع اسْتَحَقُّوا التَّعْذِيب والْإِهلاك.

• ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ ...﴾: **الانتقام**: المعاقبة على الذَّنْب.

يتحدّث اللهُ جلَّ جلالُهُ بضمير المتكلّم العظيم، أيْ: فَعَاقَبْنَاهُمْ علَىٰ ظُلْمِهِمُ الشَّدِيدِ الشَّنِيعِ بالتَّعْذِيبِ والإهلاك.

• ﴿... وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ٧٩﴾: وَإِنَّ الْأيْكَةَ الَّتِي كَانَ أَصْحَابُهَا قَوْمَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلام، وإِنَّ أَصْحَابَهَا الْمُهْلَكِينَ، لَتُوجَدُ آثارهم فِي طَرِيقٍ واضحٍ، ويظهر أَنَّ مَكَانَ قَرْيَتِهِمْ قَدْ كَانَ مُغَايراً لمكان غَيْضَتِهِمْ.

لفظ: «إِمَامٍ» يُطْلَقُ عَلَىٰ الطَّرِيق لأَنَّهُ يُؤْتَمُّ بِهِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ الغايَةِ المقصودَةِ، وهذا الطَّرِيقُ يَمُرُّ بِجَانِبِ غَيْضَتِهِمْ وبجانب قَرْيَتِهِم، فَهُما يُشَاهَدَانِ بِجَانِب طَرِيقٍ مُبين، وقد كَانَتْ هذه الآثار ظاهِرَةً إِبَّانَ تَنْزِيلِ القرآنِ، يَعْرِفُهَا السَّالِكُونَ إلى مِصْرَ، والعائِدُونَ مِنها إلى مَوَاطِنِهِمْ.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيات بيانٌ مُوجَزٌ جَدّاً لإهْلَاكِ كُفَّارِ ثَمود قوم النبيّ الرَّسُول صالح عَلَيْه السلام، مَعَ تَعْرِيفٍ مُوجزٍ جدًّا بِهِمْ، وإِلْمَاحٍ مُوجَزٍ لسَبَبِ إهْلَاكِهم، وهُو إعراضُهُمْ عَنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ، وعَدَمُ استِجابَتِهم لِدَعْوَةِ رَسُولِهِ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلام.

والغرضُ تَحْذِيرُ الكَفَرَةِ الْمُعَانِدِينَ الَّذِين تُعَالِجُهُمْ سُورَةُ الحِجْرِ ببَيَانَاتِها[١].

• ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

الحِجْر: أَرْضٌ بيْن المدِينَةِ والشَّام، تُعْرَفُ باسم «وادِي الْقُرَىٰ» وتَقَعُ على الطَّرِيقِ مِنْ خيبر إلىٰ تَبُوك، وفيها بقايا مِنْ آثار «ثَمُودٍ» ويُطْلَقُ عَلَيْها الآن: «مَدَائِنُ صالح».

جاء هذا البيان مُؤَكَّداً بـ [**لَقَدْ**]: وَيَرَى الْمُعْرِبُونَ أَنَّ اللَّام واقعةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِي، و«قَدْ» حَرْفُ تَحْقِيق.

أفادَ هَـٰذَا الْبَيَانُ أَنَّ ثموداً كَذَّبُوا الْمُرْسَلِين، وقد ظَهَرَ لِي أنّ لفظ «المرْسَلِين» يُرَاد بِهِ أَنَّهُمْ كذَّبوا عَدَداً مِنَ المرسَلين بَعَثَهُمُ اللهُ إليهم، وأَنَّ آخِرَهُمْ صالحُ عَلَيْهِ السَّلام، وهو الّذِي حَصَلَ إهْلاكُهُمْ فِي آخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ فِيهم.

وتَكْذِيبُ ثَمُودَ «لصالح» وَمَنْ سَبَقَهُ من رُسُلِ الله، كان تَكْذِيباً لِنُبُّواتِهِمْ

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق سورة (النمل/٤٨ نزول) وهو «دراسة تكامليّة للنصوص بشأن صالح عليه السلام وقومه ثمود».

ورِسَالاَتِهِم، وتَكْذِيباً لِمَا جاؤُوا بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ مِنْ بيانَاتٍ دِينيَّة، وآياتٍ إعجازيَّة.

• ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾:

يتحدثُ رَبُّنَا بضَمِير المتكلّم العظيم، للإشعار بعِظَمِ الآيات الَّتِي آتاها ثموداً. وهي الآياتُ الإعجازيَّة والبيانيَّة، فالإعجازية قَدْ كانت لإثْبَاتِ صِدْقِ الرُّسُل في نُبُوَّتِهِمْ ورِسالاَتِهم، والْبَيَانِيَّة لِتَعْرِيفهِمْ بِوَاجباتِهِمْ تُجَاهَ رَبِّهم عَقِيدَةً وسُلُوكاً في ابْتِلائِهِمْ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا.

﴿فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: أي: فاسْتَقَر مِنْ أَمْرِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِ رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ أَنَّهُمْ أعْرَضُوا عَنْ آياتِنا الإعجازِيَّة والبيانيَّةِ فَلَمْ يَكْتَرِثُوا لها وَلَمْ يَعْبَؤُوا بها، ولَمْ يَعْمَلُوا بما تَقْتَضِيهِ مِنْهُم.

الإعْرَاض: مَنْزِلَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقْبَالِ والإدْبار، وأصل الإعراض إعطاء الجانب، فعَارِضَا الإنسان صَفْحَتَا خَدَّيه.

والمراد: أَنَّهُمْ لم يَسْتَجِيبُوا لدَعْوَةِ رُسُلِ رَبِّهم، وَأَدْنَىٰ مَا كَانَ مِنْ بَعْضِهم الْإِعْرَاضُ، وأَشَدُّ مِنْهُ الإدْبَارُ والتولِّي الَّذي كَانَ مِنْ عُتَاتِهم، وَكَانَ الْإِعْرَاضُ كَافِياً لِإِهْلاَكِهِمْ جَمِيعاً، ثُمَّ يُجَازَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَة بِحَسَبِ جَرَائِمِهِم.

• ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾: أي: وكانُوا أهْلَ حَضَارَةٍ عِمْرَانيَّة، بِحَسَبِ مُسْتَوَىٰ أَهْلِ أَزْمَانِهِمْ، وبَلَغَ من أمْرِهِمْ فِي الْعِمْرَانِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً لِيَسْكُنُوها آمِنِينَ، مِنْ غَارَاتِ الْمُغِيرِينَ، ومِنْ حَوادث السُّيُولِ ونحوها.

في العبارة حَذْفٌ مِن السَّهْل إدْرَاكُهُ، تَقْدِيرُه: ﴿يَنْحِتُونَ﴾ مَسَاكِنَ في ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ لِيَسْكُنُوهَا ﴿ءَامِنِينَ﴾.

• ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣﴾: أي: فأخذت أرواحهم من أجسادهم الصَّيْحَةُ الصَّوْتِيَّةُ الْعَظِيمَةُ المهْلِكَةُ حالَةَ كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ فِي الصَّبَاح، والمرادُ أنَّ الصَّيْحَةِ كانت سبباً فِي أخْذِ أرواحهم.

يُقَالُ لغة: «أصْبَحَ الرَّجل» أي: دَخَلَ في الصَّبَاحِ، وهو أوَّل النهار.

• ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾: أي: فَمَا كَفَاهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ وإهْلَاكهُ لَهُمْ، مَا كَانُوا يَكْسِبُون فِي حَيَواتِهِمْ مِنْ وَسَائِلِ قُوَّةٍ وَدِفَاعٍ وَأَمْنٍ، لِأَنَّ مَا يُقَدِّرُهُ اللهُ وَيَقْضِيهِ نَافِذٌ حَتْماً، وَلَا يَصْرِفُهُ شيءٌ مَا في الوُجُودِ كُلِّه، إِنَّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون، بِيَدِه مَفَاتِيحُ كلِّ شيءٍ، وهو الْعَلِيم الحَكِيم الخبيرُ القديرُ عَلَىٰ مَا يَشَاءَ، لَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا حَاجِزَ دُونَ تَنْفِيذِ قَضَائِه.

ضُمِّنَ فعلُ «أغْنَىٰ» بمَعْنَىٰ «كَفَىٰ» مَعْنَىٰ فِعْلِ «صَرَفَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحرف الجرّ «عَنْ» فأغْنَىٰ الفِعْلُ عَنْ فِعْلَيْن، وَأغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن، وهذا من الْإيجازِ الْبَدِيع في القرآنِ المجيد.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس السادس من دُرُوس سورة (الحجر).

والحمدُ لله على مَدَدِهِ ومَعُونَتِهِ وتَوفِيقِهِ وفَتْحِهِ.



(١٠)
التدبّر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (الحِجْر) الآيات من (٨٥ ـ ٩٩) آخر السورة

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا

تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾».

القراءات:

(٨٩) • فَتَحَ يَاءَ المتكلّم مِنْ: [**إِنّيَ أَنَا**] نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَهَا باقي الْقُرَّاءِ العشرة.

(٩٤) • قرأ حمزة، والكِسَائِي، ورُوَيس، وخلف بإشْمَام الصاد زاياً في [**فاصْدَعْ**]. وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ بالصّاد الخالصة.

(٩٥) • قرأ أَبُو جعفر: [**المستَهْزِينَ**] بحذف الهمزة.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: [**المستَهْزِئينَ**] بإثبات الهمزة على الأصل.

تمهيد:

في هَـٰذَا الدَّرْس توجيهٌ تَرْبَوِيٌّ لِلرَّسُول ﷺ، يتَعَلَّقُ بِمَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّة، وَبِبَعْضِ مَا هو مطلوبٌ مِنْه فيها، وَيُلْحَقُ بالرَّسُولِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ من أُمَّتِهِ.

والوصايا الرَّبَّانِيَّة الَّتِي اشْتَمَلَ عليها هَـٰذَا الدرس الْمُوَجَّهَةُ للرّسول ﷺ فلكل حَمَلَةِ رِسالته من أمتّه تِسْعُ وَصَايا:

الوصيّة الأولى: أَنْ يصْفَحَ الصَّفْحَ الجميل.

الوصيـة الثانيـة: أن لا يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إلى مَا مَتَّعَ اللهُ بِهِ أَصْنَافاً مِنَ النَّاسِ.

الوصية الثالثة: أنْ لَا يَحْزَنَ عَلَىٰ الّذِينَ اختاروا لِأَنْفُسِهم الكُفْرَ، الذي يَنْتَهِي بِهِمْ إلى العذابِ الأبَدِيّ في الجحيم.

الوصيّة الرَّابعة: أنْ يَخْفِضَ جناحَهُ للمؤمنين تأنيساً لهم ورحْمَةً بهم، وتواضعاً مُؤَلّفاً لقلوبهم.

الوصية الخامسة: أن يقول للمعانِدِينَ: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: بعذاب الله.

الوصِيَّةُ السَّادسة: أنْ يَصْدَعَ بِمَا يُؤْمَرُ أَنْ يُبَلِّغَهُ للنَّاسِ تِباعاً، دُونَ تَوَانٍ وَلَا تَقْصِير.

الوصيّة السّابعة: أَنْ يُعْرِضَ عَنِ المشْرِكِين المعانِدِين المصِرّينَ على شركهم، ويهْتَمَ بِدَعْوَة الّذِين لم يَصِلُوا إلى دَرَكَة اليأسِ من استجابتهم لدعْوَة الحق الرّبَّانِيَّة.

الوصِيَّةُ الثامِنة: أَنْ يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّهِ وَيَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ لَهُ.

الوصِيَّةُ التَّاسِعَةُ: أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ بِكُلِّ مَا أَمَرَهُ أَنْ يَعْبُدَهُ به، وَلَا سِيمَا قِيامُهُ بوظائِفِ رِسالَتِهِ التَّبْليغِيَّة والدَّعوية، حتىٰ يأتِيَهُ الْيَقِينُ وهُوَ الموْتُ الَّذِي تَنْتَهِي بِهِ حَيَاتُهُ.

وفي أَثْنَاءِ هَـٰذِهِ الْوَصَايَا النَّفِيسَةِ لحامِلِ رِسالَة الدَّعْوَةِ إلى رَبِّهِ، جَاءَتْ بيانَات رَبَّانِيَّةٌ ملائمات لَهَا تَعْقِيباً، أو تمهيداً.

هَـٰذِهِ الوصايا قد جاء في السورة مَا يقتضي توجيهها للرسول ﷺ، فقد كان موقف أئمّة المشركين إبَّانَ نُزُول سورة (الحِجْر) مُواجَهَتُهُمْ للرسول بأذِيَّتَيْنِ كُبْرَيَيْن:

الأذيَّةُ الأولى: شَتِيمَتُهم لَهُ بوَقَاحَةٍ بأَنَّهُ لَمَجْنون، وغَرضُهُمْ صَدُّ جماهِيرِهم عَنِ الاسْتِماع إلَيْه وعن اتّباعه، مع تَصوُّرِهِمْ أَنَّ هَـٰذِهِ الشتِيمَة قَدْ

تَجْعَل محمّداً يُخَفِّفُ مِن نَشَاطِهِ في دَعْوَتِهِ، بِمَا يَنْزِلُ بِه مِن حُزْنٍ وغَضَبٍ، فقد جاء في أوائل السُّورَةِ بيانُ هَٰذَا في قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾.

لقد وصَلُوا في الوقاحَةِ إلى دَرَكَةِ مُواجهة الرَّسُول بالشتيمة، مؤكِّدِينَ فيها أَنَّهُ لَمَجنُون، بالمؤكدات: «إِنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحْلَقة».

الأذِيَّة الثّانية: الاسْتِهزاء بِهِ عَلَناً فِي المحَافِلِ والمجامِع العامَّة، بُغْيَة صَدِّه عن دَعْوَتِهِمْ إلى دِينِ الله الحق، وعن دَعْوَةِ جماهِيرِهِم الَّذِينَ يَتَأَثَّرُونَ بِهِمْ، أو بُغْيَةَ اسْتثارَةِ غَضَبِهِ إزْعَاجاً وإيلاماً، وَرُبَّما قَابَلَ شَتَائِمَهُمْ بِمِثْلِهَا، فَتَكُونُ هَٰذِهِ المقابَلَةُ بِمَثابَةِ الشَّاهِدِ على صِحَّةِ اتِّهامِهِمْ لَهُ بِالجنُون، وَرُبَّما كَانَ التَّشَاتُمُ مِفْتَاحاً لِصِراعٍ جَسَدِيّ، هُمْ فِيه حِينَئِذٍ أَكْثَرُ قُدْرَةً عَلَيْهِ، وأَكْثَرُ أَنْصَاراً.

مع مَا فِي الاسْتِهْزَاءِ من صَدِّ جَمَاهِيرِهِمْ عَنِ الاسْتِماع إِلَيْهِ وعن اتِّباعِه، لِمَا فِي الاسْتِهْزَاءِ العامّ مِنْ إيحاءٍ خبيثٍ في نُفُوسِ الجماهِير، يُشْعِرُهُمْ بِأَنَّ مَنْ يُوَجَّهُ الاسْتِهْزَاءُ ضِدَّهُ جَدِيرٌ بِأَنْ يُسْتَهْزَأَ بِهِ.

فَقَدْ جَاءَ في أوائِلِ السُّورَةِ بَيَانُ اسْتِهْزَائِهِم هَٰذَا في قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾:

أي: فاسْتِهْزَاءُ هؤلاء بِكَ لَهُ نَظَائِرُ في كُفَّارِ الأوَّلين بِرُسُلِ رَبّهِم، فاصْبِرْ كما صَبَرُوا، وَلَا تَكْتَرِث لاسْتِهْزَائِهِمْ ولا تَعْبَأْ بِهِ.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ بِضَمِير المتَكَلِّم العظيم المنَزَّهِ عن العبث والفعل الباطل:

• ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾:

أي: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَمَا خَلَقْنَا النَّاسَ في الْأَرْضِ وسَخَّرْنَا لَهُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ عَبَثاً، بَلْ خَلَقْنَا كُلَّ ذَلِكَ مُتَّصِفاً بِالْحَقِّ الَّذِي لَا بَاطِلَ فِيه ولا عَبَث، وهُوَ أَنْ نَجْعَل الحياة الدُّنيا مَرْحَلَةً لامْتِحانِ الَّذِينَ نَضَعُهُمْ فيها موضِعَ الامْتِحَانِ، مِنَ الْإِنْسِ والجنّ، وكُلُّ مُمْتَحَنٍ في هَـٰذِهِ المرحَلة نُؤْتيهِ بِحِكْمَتِنَا مَا يُلائِمُ امْتِحانَهُ بِحَسَبِ الفِطْرَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي فَطَرنَاهُ عليها.

وَإِنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يَكُونُ بَعْدَهَا يَوْمُ الدِّين لآتِيَةٌ حَتْماً، إذْ نَبْعَثُ الموتَىٰ للحياة الأُخرىٰ، الَّتِي يكونُ فيها الحسابُ، وفَصْلُ القضاء، وتنفِيذُ الجزاء، بالنعيم المقيم، أو بالعذاب الأليم.

واعْلَمْ أنَّ رِحْلَةَ الحياة الدُّنيا رِحْلَةٌ قَصِيرَةٌ جدًّا فِي جَنْبِ الآخِرَة، فإذَا أُوذِيتَ فِي اللهِ وأَنْتَ تُؤَدِّي وَظَائِفَ رِسَالَةِ رَبِّكَ، فَلَا تَحْزَنْ وَلَا تُقَابِلِ الْأَذِيَّةَ بِمِثْلِهَا، بَلِ اصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيل، وهذه هي الوصية الأولى.

الصَّفْحُ الجميلُ: يكونُ بالإعْرَاضِ عَنْ مُقَابَلَةِ مَنْ يُؤْذِيكَ بِمِثْلِ أَذِيَّتِهِ، وعَدَمِ الاشتِغَالِ بِدَفْعِ أذَاهُ عَنْكَ، فإعْرَاضُكَ عَنْهُ يُحْبِطُ أذِيَّتَهُ عن أَنْ تكونَ لها آثَارٌ ضَارَّةٌ لَكَ أو لِدَعْوَتِكَ.

أَصْلُ الصَّفْحِ في اللُّغَةِ: الْجَنْبُ، فَصَفْحُ كُلِّ شَيْءٍ جانِبُهُ. ويُقالُ: صَفَحَ فُلَانٌ عَنِ المذْنِبِ، أي: أَعْرَضَ عَنْ ذَنْبِهِ، فلَمْ يُؤَاخِذْهُ عَلَيْهِ، ولم يُقَابِلْهُ بِمِثْلِهِ، وهذا المعنىٰ مأخُوذٌ من أنَّهُ أَعْطَاهُ جانِبَهُ مُعْرِضاً عَنْهُ، غَيْرَ مُوَاجِهٍ لَهُ بِالْعِقَاب.

والجمالُ في هَـٰذَا الصَّفح يَكُونُ بإبْقَاءِ الْوَجْهِ طَلْقاً سَمْحاً لَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ علاماتُ الْغَضَب أو الغيظ والكراهِيَة، وبإبقاء الكَلَام عادِيًّا لَا تَظْهَرُ فِيهِ أماراتُ الاضطراب، أو الإلماحات المُسْتَخْفَيات، ويكونُ أيْضاً بِعَدَمِ شَغْلِ الْقَلْبِ بِرَغَبَاتِ الانتقام.

■ قول الله تَعالَىٰ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

• ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾: في هَـٰذِهِ الآيَةِ تَمْهِيدٌ لما سَيُوصِي اللهُ بِهِ رَسُولَهُ بَعْدَه، وهُو يَتَعَلَّقُ بِبَيَانِ كمالِ صِفَاتِه.

أي: إنَّ رَبَّكَ الَّذي يُمِدُّكَ دَوَاماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبيَّتِهِ، وقد اصْطَفَاكَ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَة، وهُوَ يَحْمِيكَ ويَرْعَاكَ، هُوَ الْخَلَّاقُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَوَاتٍ وَصِفَاتٍ وأحْوَالٍ وَتَصارِيف. وهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيء، والْعَلِيمُ بِمَا فَطَرَ عَلَيْهِ عِبادَهُ، والْعَلِيمُ بِمَا يُلائِمُ كُلَّ فَرْدٍ مِنْهُمْ مِنْ عَطَاءٍ وَمَنْع، ومِنْ نَصْرٍ وخذْلان، إلَىٰ غَيْر ذلِكَ مِنْ مُتَنَاقِضَاتٍ ومُتَضَادَّاتٍ ومُخْتَلِفَات، فهو حَكِيمٌ فيما يَخْلُق.

الْخَلَّاق: صِيغَة مُبَالَغَةٍ لاسم الفاعل: «خالِق» أي: هو خالِقُ كُلَّ ذَاتٍ وَكُلَّ حَدَثٍ، حتَّىٰ مَا يَفْعَلُهُ الْعِبَادُ بإراداتِهِمُ الحرَّة، دُونَ إلْغَاءِ إرَادَاتِهِم الحرَّةِ الَّتي هِيَ مَنَاطُ ابتلائِهِمْ في ظُرُوفِ الحياة الدنيا، إذْ مَا يُرِيدُونَهُ جَازِمِينَ يَخْلُقُهُ لهم، ما لم يُعَارِضْ ما سَبَقَ في قضَائه وقدَرِه.

العليم: صيغَةُ مُبالَغَةٍ لاسم الفاعل «عالم» أي: هو الْمُحِيطُ بكُلِّ شيءٍ عِلْماً جلّ جَلَالُهُ وتبارَكَتْ أسْمَاؤُهُ وصِفَاتِه:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾:

وفي هَـٰذِهِ الآيَةِ تَمْهِيدٌ آخَرُ يَتَعَلَّقُ بِبَيَان بَعْضِ مَا امْتَنَّ اللهُ بِهِ على رَسُولِهِ باصطفائِهِ بالنبوَّةِ وبالرسالة الخاتمة، وبإنْزَالِ نَفَائِسَ مِنَ الْقُرْآن المجيدِ عَلَيْهِ، ممَّا لَمْ يُؤْتِهِ غَيْرَهُ مِن عِبَادِهِ حتى أولي الْعَزْمِ من الرُّسل.

الْمَثَانِي: جَمْع «مَثْنَاة». وهي الطيَّةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي تُثْنَى، من قولهم: «ثَنَىٰ الشَّيْءَ يَثْنِيهِ» أي: رَدَّ بَعْضَهُ علىٰ بَعْضٍ، فالقُمَاشُ الّذِي يُثْنَىٰ بَعْضَهُ على بَعْضٍ بِصِفَة مُتَوَالِيَةٍ تُسَمَّىٰ طَيَّاتُهُ «مَثَانِيَ».

وقَدْ وَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ القرآن كُلَّهُ بأنَّه «مَثَاني» فقال تعالى في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: ومَنْ يَحكم اللهُ عَلَيْهِ بالضَّلَالِ لِأَنَّهُ ضَلَّ بإِرَادَتِهِ الْحُرَّة، فَمَا لَهُ مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُ لَهُ بالْهِدَايَة، إِنِ الحكْمُ إلَّا للهِ.

وقد ذَكَرَ أَهْلُ التأويلِ وُجُوهاً مُتَعَدِّدَةً لِتَفْسِير كَوْنِ القرآن مَثَانِي، وهِيَ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ مَا فِي لفظ «مَثَانِي» مِنْ مَعْنَىٰ التكرير، كتَكْرِير آياتِ سُورَةِ «الْفَاتِحَةِ» في رَكَعَاتِ الصَّلَوات.

والَّذِي ظَهَرَ لي بَعْدَ النَّظَرِ الطَّوِيل في تَدَبُّرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، أَنّ المرادَ بوصْفِ القرآن بِأَنَّهُ مَثَانِي أَنَّ لَهُ سُطُوحاً ظَاهِرَةً، وهِيَ مَا يُدْرَكُ مِنَ الْكَلِمَاتِ المقْرُوءَاتِ فِي ظَهْرِ كُلِّ مَثْنَاة مِنْه، وأَنَّ فِيهِ مَطْوِيَاتٍ فِي بَاطِنِ الثَّنْيَاتِ هِي مَحْذُوفَاتٌ لَفْظاً، ويمكن إدْرَاكُهَا ذِهْناً، عَنْ طَرِيقِ اللَّوازِمِ الْفِكْرِية، أوِ الدَّلالَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، كحرف جرّ، أو حرف عَطْفٍ، أو تَعْدِيَةِ الفِعْلِ لِغَيْرِ مَا يَتَعَدَّىٰ به لُغَةً، إلى غير ذَلِكَ من أُمُورٍ كثيرة تَعْتَمِدُ عَلَيْهَا المحاذيف، كالعطف على محذوف بما يُسَمَّىٰ الفاء الفصيحة، وقَدْ رَأَيْتُ

أَنَّ كُلَّ حُرُوف الْعَطْفِ قَدْ تَعْطِفُ فِي القرآن على محذوفٍ مطويّ، وكَمَلْءِ فراغَاتِ الْقِصَصِ الْقُرْآنِيَّةِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، إذْ تَبْدُو في الظَّاهِرِ أَنَّها مُكَرَّراتٌ، وهِيَ فِي الحقيقةِ مُتكامِلاتٌ فيما بينها، يَتَدَاخَلُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، فَيُكَمِّلُ بَعْضُهَا الظَّاهِرُ هُنَا الْبَعْضَ المطْوِيَّ في مَثَانِي النّصِّ أَو النُّصُوص الْأُخْرَى، وكالحذْف من الأوائل لِدَلَالَةِ مَا فِي الأواخِرِ، والْحَذْفِ من الأواخِرِ لِدَلَالَةِ مَا فِي الْأَوَائِلِ من النصّ. وكُلُّ ذَلِكَ من الإعْجَازِ الإيجازِيّ فِي الْقُرْآن المجيد.

وأفْضَلُ تَعْبِيرٍ عَنْ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ فِي القرآنِ المجِيدِ أَنْ يُوصَفَ بأَنَّهُ مَثَانِي، فَهُو كِتَابٌ مُتَشَابِهٌ فِي الْحُسْن والْكَمَالِ، وَمَثَانِي تَظْهَرُ فِي السُّطُوح المقْرُوءَةِ من مثَانِيهِ جُمَلٌ وَكَلِمَات، وتُوجَدُ مَطْوِيَاتٌ داخِلَ المثانِي تُسْتَخْرَجُ بالتَّأَمُّلِ الدَّقِيقِ، وبالاسْتِنْبَاطِ الْعَمِيق، ضِمْنَ ضَوابِطِ الفِكْرِ، وَقواعِدِ الاسْتِعمال اللُّغَوِيّ وأماراتِه، إمَّا عَنْ طَرِيق الحقيقة، أو عَنْ طَرِيق المجاز.

وأفْضَلُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ مَثَانِي مَا جَاءَ في سُورَة(الفاتِحَةِ) إذْ هِي جَامِعَةٌ لكلّيّاتٍ كُبْرَىٰ، هِيَ بمَثَابَةِ عُنْوَانَاتٍ عَامَّاتٍ للدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لعباده، الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوهم فِي ظُرُوف الحياة الدُّنيا، ولِتَارِيخِهِمْ تُجَاهَهُ مُنْذُ أَوَّلِ نَشَأْتِهِمْ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَة، وقَدْ أَبَنْتُ هَـٰذَا لَدَىٰ تَدَبُّر سُورَةِ (الفاتِحَة) في المجلّد الأول مِنْ هَـٰذَا الكتاب.

وقَدْ صَحَّ عَنِ الرَّسُولِ محمّدٍ ﷺ أنَّ «الْفَاتِحَة» هِيَ السَّبْعُ المثانِي وهِي القرآنُ الْعَظِيمُ، فَلا عُدُول عَنْ هذا الَّذِي صَحَّ عن الرَّسُول.

روى البخاريّ، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، مِنْ حَدِيث سَعِيدِ بْن المعَلَّىٰ، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قَال له:

«لَأُعَلِّمَنَّكَ أعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أنْ تَخرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ».

قال: فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، قُلْتُ: يا

رَسُولَ اللهِ، إنَّكَ قُلْتَ: لَأُعَلِّمَنَّكَ أعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ، قال: «نَعَمْ. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، والقرآنُ الْعَظِيمُ الّذِي أُوتِيتُهُ».

فالفاتِحَةُ هِي سَبْعُ آياتٍ مِنَ الْمَثَانِي الْقُرْآنِيَّة، إذ القرآنُ كُلُّهُ مَثَانِي، وهِي الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَى رسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ، فَلَمْ يَنْزِلْ في التوراة، ولَا فِي الإنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُور، ولَا فِي القرآن مِثْلُها، وَقَدْ صَحَّ هَـٰذَا أيْضاً عَنِ النبيّ ﷺ.

■ قول الله تَعَالَىٰ لرسوله ﷺ في الوصيَّة الثانية:

• ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ... ﴿٨٨﴾﴾:

جاء في هَـٰذِهِ العبارة بَيَانُ الْوَصِيَّةِ الثّانِيَةِ مِنْ وَصَايَا اللهِ جلَّ جلالُهُ لِرَسُوله.

أي: لَا تَنْظُرْ نَظَرَ تَشَهٍ إلَىٰ مَا أمْدَدْنَا بِهِ أصْنَافاً مِن المشركين وسائِرِ الكافِرِينَ مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا لامْتِحَانِهِمْ واخْتِبَارِهِمْ بِها، فاختبَارُهُمْ بِهَا هُوَ الملائِمُ لِمَا فَطَرْتُ نُفُوسَهُمْ عَلَيْه.

أَزْوَاجاً مِنْهُمْ: أي: أصْنَافاً مِنَ النَّاسِ وَلَوْ كَانُوا كَافِرين. يُطْلَقُ في اللّغَة لفظ «الزَّوْج» على الصِّنْفِ مِنْ كُلِّ شيءٍ.

وجاء التعبير بِمَدِّ الْعَيْنِ بَدَلَ النظَرِ، لبيان أنَّ نَظَرَ التَّشَهِّي والطَّلَبِ يَخْتَلِفُ عن النظر العادِيِّ العابر. فنظر التَّشَهِّي يَقْتَرِنُ بدَوَافِعَ تَمْتَدُّ آثارُها مِنْ دَاخِلِ النَّفْس، وَسَائِرَةً عَلَىٰ خُطُوطِ الْأَشِعَّةِ الواصِلَةِ إلَىٰ النظر، لتَتَنَاوَلَ المشْتَهَىٰ وَتَمْتَلِكَهُ، حَتَّىٰ كَأنَّ الْعَيْنَيْنِ يَدَانِ مُمْتَدَّتَانِ تَبْتَغِيَانِ أَخْذَ ما اشْتَهَتْهُ النَّفْسُ، لِتَسْتَوْلِيَ عليه وتَمْتلِكَهُ.

وفي هَـٰذَا معنَىٰ الاعتراض على حكمة الله في عطائه ومنعه، وفي

التوسعة على بعض عباده، والتضييقِ على آخَرِينَ مِنْهم، لِيَبْلُو كُلًّا مِنْهُمْ بما يُلَائِمُ فِطْرَتَهُ الَّتِي فَطَرَهُ عَلَيْها.

﴿مَتَّعْنَا بِهِۦ﴾: أي: جعَلْنَا مَنْ آتَيْنَاهُ سَعَةً مِنْ مَتاعِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، يَنْتَفِعُ به انْتِفاعاً مُؤَقَّتاً صائراً إلى الزَّوال.

المتاع: مَا يُنْتَفَعُ بِهِ ومَصِيرُهُ إلى الزوال والفناء.

وجاء في سُورَة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في آيَةٍ مَدَنيَّةٍ مَضْمُومَةٍ إلى سورة مكيَّة قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ والمقصود كُلُّ حَامِلٍ لرِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلى اللهِ من أُمَّتِهِ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ شَرْحُ هَـٰذِهِ الآيَةِ لَدَىٰ تَدَبُّر سُورَةِ (طه/ ٤٥ نزول).

■ قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ في الوصيَّة الثالثة:

• ﴿... وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ...﴾: أي: وَلَا تَحْزَنَ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ المكابرينَ المعانِدِين بِسَبَبِ تَعْرِيضِهِمْ أَنْفُسَهُمْ لعذاب جهنَّمَ خالِدِينَ فيها.

فقد كان الرَّسُول ﷺ شَدِيدَ الشَّفَقَةِ علىٰ قَوْمِهِ، ولا سيما عَشِيرَتُه الأقربُون، شَدِيدَ الرَّحْمَةِ بِهِمْ، حَرِيصاً علىٰ أنْ يُؤْمِنُوا لِيَنْجُو مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْم الدِّين، ولِيَظْفَرُوا بالسَّعَادَةِ الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النعيم.

فإصْرَارُهُمْ عَلَىٰ ما هُمْ فِيه من شِرْكٍ وَكُفْرٍ برسَالَته، وبما جاء بِهِ عَنْ رَبِّه، فِي مُقَابِلِ شَفَقَتِهِ عَلَيْهم، ورَحْمَتِهِ بِهِمْ، أَمْرٌ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحْزِنَهُ، لِأَنَّ مَنْ يُحْرَمُ ممّا هو شَدِيدُ الحِرْص عليه يَحْزَنُ لِفَواته، بِمُقْتَضىٰ طبيعَتِهِ الْبَشَرِيَّة، وهَـٰذَا الحُزْنُ يُؤَثِّرُ على نَفْسِه، وَقَدْ يُثَبِّطُ مِنْ نَشَاطِهِ فِي مَجَالِ تَأْدِيَةِ رِسَالَتِه المأْمُورِ بِأَنْ يَبْذُلَ فيها قُصَارَىٰ ما يَمْلِكُ مِنْ جَهْدٍ وَمُجَاهَدَةٍ لتوصِيلها للناس.

فالحُزنُ يشْغَلُ الْحَزِينَ عن القيامِ بالْأَعْمَالِ الجهادِيَّة الَّتِي تَتَطَلَّبُ الرَّجَاء والتَّفَاؤُل.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ إرادة اللهِ الحكيمَةَ قَدْ قَضَتْ بأَنْ يَضَعَ النَّاسَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وأَنَّ عَلَىٰ كُلِّ مُمْتَحَنٍ مُكلّفٍ أَنْ يَخْتَار بنَفْسِهِ مَصِيرَه، بَعْدَ البيانِ الكافِي له.

فَمَن اخْتَارَ لِنَفْسِهِ طَرِيق جهنّمَ وَهُو كامل الأَهْلِيَّةِ الفِكْرِيَّة والإرَادِيَّة، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْزَنَ أَحَدٌ من أجْلِهِ، إنَّهُ إذا لَمْ يَشْفَقْ هو على نَفْسه، وهِيَ أَحَبُّ شيءٍ إِلَيْه، أَفَيَسْتَحِقُّ أَنْ يَحْزَنَ أَحَدٌ مِنْ أَجْلِهِ؟!

■ قول الله تَعَالَىٰ لرسوله في الوصية الرابعة:

- ﴿... وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

أي: تواضِعْ للْمُؤْمِنين، وأَحِطْهُمْ بالحَنانِ والرَّحْمَةِ والرِّعاية والحِفظ. وقَدْ جاء في هذه العبارة استعارة خفض الجناح للدّلَالَة على هَـٰذِهِ الْأُمور، أخذاً من حَركة الطائِر حينَما يخفض جَنَاحَهُ تواضُعاً لطائِرٍ آخر، وحينما يَخْفِضُ جناحَهُ لِيُحِيطَ فِراخَهُ الصِّغَارَ ويَضُمَّها إلى دِفْءِ صَدْرِه ويُجَلِّلَها بريشه، رحْمَةً بها، وحَنَاناً عليها، ورعايةً وحمايةً وحِفْظاً.

ومثل هَـٰذَا التعبير يُسَمَّىٰ عنْدَ البلاغيّين اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً، إذْ حُذِف المُستعارُ الذي هو في الأَصْلِ مشَبَّهٌ بِهِ، وهو الطَّائر، واسْتُخْدِمَ في اللّفظ بَعْضُ لوازمه.

■ قول الله تَعَالَىٰ لرسُولِهِ فِي الوصية الخامسة:

- ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْمُعَانِدِينَ المصِرّينَ عَلَىٰ باطِلِهِمْ، الّذِينَ بلَغُوا دَرَكَة الميؤُوس من استجابتهم لِدَعْوَةِ الحقّ، عَنْ طَرِيق إراداتِهِمْ ذَوَاتِ

الْحُرِّيَّة فيما تُرِيدُ وتَخْتَارُ، إنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِين، أي: وصَلَتْ رسالَتِي مَعَكُم إلى غايَةِ فِقَراتها وهي إنْذارِكُمْ بعَذَاب اللهِ الخالِدِ في جَهَنّمَ يَوْمَ الدِّين، مع ما قَدْ يُنْزِل بِكُمْ مِنْ عَذَابٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدُّنيا قَدْ يأتي مَعَهُ أَوْ عَقِبَه إهلاكُكُمْ، إذا اقتضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ.

الإنْذار: الإخْبَارُ بمَكْرُوهٍ قَادِم.

الْمُبِين: أي: الْمُوضِحُ لَكُمْ مَا أُنْذِرُكُمْ بِهِ بجَلاءٍ، لا عَنْ طَرِيق الرُّمُوزِ والإشارات والإلْمَحاتِ الخِفيَّات.

وقَدْ جاءت العبارة بهَـٰذِهِ الوصِيَّةِ تَحْمِلُ إعلاناً مُؤَكَّداً بِشدَّةٍ بالمؤكّدات: «إن ـ الجملة الاسميّة ـ ضمير الفصل ـ تعريف طَرَفي الاسْناد».

■ قول الله تَعالَىٰ تَعْقيباً علىٰ الوصيَّةِ الخامسة:

● ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآياتِ بَيانٌ لسُنَّةِ اللهِ فِي إنْذارِ الكافِرينَ السَّابِقِينَ واللَّاحقين، ومِنْهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا أو يُؤْمِنُون بِبَعْضِ كِتَابِ الله المنَزَّل لَهُمْ ويَكْفُرُونَ بِبَعْض، فَيُجَزِّئُونَ كِتَابَ الله، فَيُثْبِتُونَ مِنْهُ مَا يُوافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، ويَحْذفُونَ أَوْ يُخْفُونَ مِنْهُ مَا لَا يُوافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الكِتَابِ الْيَهُودُ والنصارَىٰ، فيما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ مِنْ كتاب، وقَدْ سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ هَـٰؤُلَاءِ الْمُجَزِّئِينَ الْكَافِرينَ بِعَذَابٍ خَالِدٍ في جهَنَّم يَوْمَ الدِّين، وقَدْ سَبَقَ بيانُ أَنَّ عُتَاةُ مُشْركي مَكَّة وَأَئِمَّةُ الْكُفْرِ فِيهِمْ، قَدْ طَالَبُوا الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بأنْ يَأْتِي بِقُرآنٍ غَيْرِ هَـٰذَا الْقُرْآن، أَوْ يُبَدِّلَ مَا لَا يُوافِقُ أَهْوَاءَهُمْ وَعَقَائِدَهُمْ وَتَقَالِيدَهُمْ مِنْهُ، وهَـٰذِهِ تَجزئَة مُمَاثِلَةٌ لِمَا فَعَلَ أَهْلُ الكِتَابِ فِيما أَنْزَلَ الله إِلَيْهِم في التوراة والإِنْجيل، فالإِنْذارُ الَّذي سَبَقَ أَنْ وَجَّهَهُ اللهُ

لِأُولَئِكَ الْمُجَزِّئِينَ، يُوَجِّهُ اللهُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ إِنْذَاراً مُمَاثِلاً لِأَئِمَةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ، ولِكُلِّ أَمْثَالِهِمْ وأَشْبَاهِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِ مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ في الحياة الدُّنيا.

وفي بَيَانِ مَطْلَبِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّةَ من الرَّسُولِ ﷺ، أَنْ يُبَدِّلَ مِنَ القرآنِ مَا لَا يُوَافِقُ أَهْواءهم، قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (يونس/ ٥١ نزول):

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾:

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هَـٰذِهِ الآيَةِ لَدَىٰ تَدَبُّر سُورَةِ (يونس/ ٥١ نزول). ويَظْهَرُ أَنَّ أَئِمَّةَ مُشْرِكِي مكَّةَ ما زَالُوا إِبَّانَ نُزُول سُورَةِ (الحجْر/ ٥٤ نزول) يُطَالِبُون الرَّسُول بأَنْ يُبَدِّل مَا لا يُوافِقُ هَـوَاهُـم مِنَ القرآن، ويَأْتِي بما يُوافِقُ هَوَاهُمْ، وَهَـٰذَا من التجزئةِ فِي كِتَابِ اللهِ، وهو يُشَابِهُ مَا فعل اليهود والنَّصَارَىٰ في كتاب رَبِّهم، فاسْتَحَقَّ مُشْرِكُو مَكَّةَ أَنْ يُنْذَرُوا بِعَذَاب اللهِ يَوْمَ الدِّينِ كَمَا أُنْذِرَ المجزِّئُونَ من اليهود والنَّصَارَىٰ لِكِتَابِ رَبِّهم.

وبَعْدَ هَـٰذَا البيان يُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ بوضوح فقراتِ هَـٰذِهِ الآياتِ التَّعْقِيبيَّة لِلْوصِيَّة الخامِسة.

• ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾: **المقْتَسِمُونَ**: هُمُ المتعمِّدونَ المتكلِّفُونَ تَقْسِيمَ الشَّيْء وتَجْزِئتِهِ. والْمُرَادُ بِهِمْ أهل الكِتَابِ من الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ، الَّذِينَ آمَنُوا ببعض كِتَابِ رَبِّهم وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ عَلَىٰ وفق أهوائهم، فحَذَفُوا مِنْهُ مَا لَا يُوَافِقُ أهواءَهُمْ أَو أَخْفَوهُ، ونَشَرُوا مَا وافق أهواءَهم.

• ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾: أي: جَعَلُوا كتابَ رَبِّهِمْ قِطعاً

وأجْزَاءً، فأثْبَتُوا مِنْهُ ما وافق أهواءهم، وحَذَفوا أَوْ أَخْفَوْا مَا لَمْ يُوافِقْ أهواءَهم.

عِضِين: جَمْعُ «عِضَة» وهِيَ القِطْعَة، جُمِعَ جَمْعَ المذكّر السَّالِم لُغَةً على خِلَاف القياس.

والمعنى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِأَئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ المعانِدِينَ بالْبَاطل: إنّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ لَكُمْ أُنْذِرُكُمْ بعَذَابِ اللهِ رَبِّكُمْ يَوْمَ الدِّين فِي نارِ جَهَنَّمَ إنْذَاراً مُمَاثِلاً لِمَا أَنْزَلَ مِنْ إنْذَارٍ عَلَىٰ المقْتَسِمِينَ، من الْيَهُودِ والنصارى، الَّذِينَ جَزَّؤُوا كِتَابَهُ فَقَبِلُوا مِنْهُ مَا وَافَقَ أَهْوَاءَهُمْ، وحَذَفُوا أَوْ أَخْفَوْا منهُ مَا خَالَفَ أهواءَهم.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ في مَوْقف الحسابِ يَوم القِيامَةِ.

﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾: في الحياة الدُّنيا، وبَعْدَ سُؤَالِهِم ومُحَاسَبَتِهِمْ نَقْضِي بَيْنَهُمْ بِالْعَدْلِ، ثُمَّ نَأْمُرُ بِتَنفِيذِ أحكامِنَا فيهم، عذاباً في جَهَنَّمَ خالِدِينَ فيها، وهَٰذَا يُفْهَمُ باللّزُومِ الفكري.

يَسْتَوِي في هذا المقتَسِمُونَ من أَهْلِ الكِتَابِ، والمقْتَسِمُونَ بَعْدَ بِعْثَتِكَ، فَسُنَّتُنَا فِي عِبَادِنا واحدة.

أطْلِقَ عَلَىٰ مَا أُنزِلَ على أهل الكتاب لفظ «الْقُرآن» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كَلَّفَهُمْ أَنْ يَكْتُبُوه حمايَةً لَهُ وحِفْظاً، وأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَقْرَؤُوهُ ليتدَبَّروا مَعَانِيَه مِنَ النّصّ المكتوب.

الخطابُ مُوجَّهُ للرَّسُولِ ﷺ ويُرَادُ بِهِ إسماع المعنِّيين بالمعالَجَةِ بأسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِر.

- قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ في الْوَصِيَّة السَّادِسة:

- ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ...﴾:

أي: فارْفَعْ صَوْتَكَ يَا مُحَمَّدُ بما تُؤْمَرُ بِتبلِيغِهِ مُتَابعاً لِمَا نُنَزِّل عَلَيْكَ، وأعْلِنْهُ إعْلَاناً عَامًّا، وَلَا تَقْتَصِرْ عَلَىٰ الدَّعْوَةِ الإفرادِيَّةِ في آذان الْمَدْعُوِّين.

في الصَّدْع معنَىٰ تَوجِيهِ الدَّعْوَةِ الصَّرِيحَةِ الْعَلَنِيَّةِ بِقُوَّةٍ تَجْعَلُ النُّفُوسَ المتحجِّرَة المتَصَلِّبَة تَنْصَدِعُ، كَمَا تَنْصَدِعُ الأواني الزُّجاجيَّةُ، أو كما تَنْصَدِعُ الْحِجَارَةُ فَتَتَشَقَّقُ مُتَأَثِرَةً بِقُوَّةِ مَا يصْطَدِمُ بها، لَكِنَّها تَبْقَىٰ مُتَمَاسِكَةَ الاتِّصَالِ فَلَا تَنْكَسِر.

والصَّدْعُ بهَـٰذَا المعَنَىٰ كِنَايَةٌ عَنْ قُوَّةِ الْجهْرِ بالْبَيان الْمَقرونِ بالْحُجَّةِ المؤثِّرَةِ فِي النفوس والْقُلُوبِ.

الصَّدْع: هُو في اللُّغَةِ أَصْلُهُ الشَّقُّ فِي الشَّيْءِ الصُّلْبِ، كالصَّخْرِ، والزُّجاج، والأرض، ويأتِي الصَّدْعُ بمَعْنَىٰ الْجَهْرِ والإعْلَانِ.

■ قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ في الوصِيَّةِ السَّابِعَةِ:

• ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾:

أي: وأعْطِ عَارِضَكَ لِلْمُشْرِكينَ المعانِدِينَ المكابِرِين المصرّينَ على بَاطِلِهم، الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَىٰ دَرَكَةِ اليأْسِ مِن استجابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، واكْتَشَفْتَ هذا فِيهِمْ بَعْدَ مُعَالَجَاتٍ كثيراتٍ طَوَالَ سِنِي دَعْوَتِكَ مُنْذُ بِعْثَتِك حَتَّىٰ نُزُول سُورَةِ (الحِجْر/ ٥٤ نزول) وَوَجِّهْ عِنَايَتَكَ لآخَرِينَ غَيْرِ مَيْؤُوسٍ من اسْتِجَابَتِهِمْ.

■ وقد اتْبَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ هَـٰذِهِ الْوَصِيَّةَ بِمِنَّةٍ امْتَنَّ بها عَلَيْهِ، فقال تَعَالَىٰ لَه:

• ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

جاء عند مُحَمَّدِ بن إسْحَاق فيما ذَكَرَ ابنُ كثير، أَنَّ عُظَمَاءَ المُسْتَهزِئين بالرَّسُولِ ﷺ خَمْسَةُ نَفَر، وكانُوا ذَوِي أَسْنَانٍ وشَرَفٍ فِي قَوْمِهِم، وهم:

(١) ـ «الأَسْوَدُ بْنُ أَبِي زَمَعَة» وهُو مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّىٰ بن قُصَيّ.

رُوِيَ أنَّ الرَّسُولَ ﷺ دَعَا عَلَيْهِ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُ مِنْ أذَاهُ واسْتِهْزَائِه، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعْمِ بَصَرَهُ، وأَثْكِلْهُ وَلَدَهُ».

(٢) ـ «الأَسْوَدُ بْنُ عَبْد يَغُوث» مِنْ بَنِي زُهْرَة.

(٣) ـ «الوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة» مِنْ بَنِي مَخْزوم، وكَانَ رَأسَ المسْتَهزِئين، وهو الّذي جَمَعَهُمْ.

(٤) ـ «الْعَاصُ بْنُ وَائل» مِنْ بَنِي سَهْم.

(٥) ـ «الْحَارِثُ بْنُ الطُّلَاطِلَة» مِنْ خُزَاعَة. ورُوِيَ أَنَّهُ «الْحَارِثُ بْنُ قَيْس» وأَنَّهُ عَيْطَلَة، أَوْ عَيْطل.

رَوَىٰ ابْنُ إِسْحاق، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْر، أَوْ غَيْرِهِ من العلماء، أَنَّ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَتَىٰ رَسُولَ الله ﷺ وهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقَامَ وَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ جَنْبِهِ:

• فَمَرَّ به الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوث فأشَارَ إِلَىٰ بَطْنِهِ فَاسْتَسْقَىٰ[1] بَطْنُه، فمَات مِنْهُ.

• ومَرَّ به «الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَة» فَأَشَارَ إلى أَثَرِ جِرَاحٍ بأسْفَلِ كَعْبِ رِجْلِهِ، وَكَانَ أصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِسَنَتَيْن، وهُو يَجُرُّ إزارَه، وذَلِكَ أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ مِنْ خُزَاعَةَ يَرِيشُ نَبْلاً لَهُ[2]، فَتَعَلَّقَ سَهْمٌ مِنْ نَبْلِهِ بإزارِهِ، فَخَدَشَ رِجْلَهُ ذَلِكَ الْخَدْشَ، ولَيْسَ بِشَيْءٍ، فانْتَقَضَ بِهِ فَقَتَلَهُ.

• ومَرَّ بِهِ «الْعَاصُ بْنُ وَائل» فَأَشَارَ إِلَىٰ أَخْمصِ قَدَمِهِ، فَخَرَجَ على حِمَارٍ لَهُ يُرِيدُ الطَّائف، فَرَبَضَ (أي: الحِمَارُ) عَلَىٰ شِبْرِقَةٍ، فَدَخَلَتْ في أَخْمَصِ قَدَمِهِ (أي: العاص) فقتَلَهُ[3].

---

(١) يقال لغة: «سَقَىٰ بَطْنُهُ، واسْتَسْقَىٰ، وأسْقاهُ الله» إذا اجْتَمَعَ فيه ماءٌ أصْفر، وهو مَرَضٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الأطِبَّاءِ بداء الاسْتِسْقاء.

(٢) يَرِيش نَبْلاً له: أي: يَضَعُ لَهُ الرّيشَ.

(٣) **الرُّبوض** للدّواب كالْبُروكِ للإبل. **والشِّبْرِق**: نَبْتٌ حِجازِيٌّ يُؤْكَلُ ولَهُ شَوْك، وَإِذَا يَبِسَ سُمِّيَ: «**الضَّرِيعَ**».

ومَرَّ بِهِ «الْحَارِثُ بْنُ الطُّلَاطِلَة» فأشَارَ إلَىٰ رَأْسِهِ فامْتَخَطَ قَيْحاً فقتله. انتهى.

فَكَفَىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ هٰؤلَاءِ المُسْتَهْزِئِينَ الكِبَارَ مِنْ قَوْمِهِ بَعَاهَاتٍ خَاصَّةٍ أهْلَكَهُمْ بها، وامْتَنَّ عَلَىٰ رَسُولِهِ بِذَلِكَ، إذْ كانوا يُزْعِجُونَهُ وَيُحْزِنُونَهُ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنِ اسْتِهْزَاءَاتِهِمْ ذَوَاتِ الْأَثَرِ الصَّادّ عَنْهُ وَعَنْ دَعْوَتِهِ، على أنَّ كثيراً من المشركين ما زَالُوا يَسْتَهْزِئُونَ به.

وأَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ كُفْرَهم الشِّرْكيَّ بأنَّهُمْ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلَٰهاً آخر، افْتِرَاءً عَلَيْهِ، وضَلَالاً مُبيناً، وتَوَعَدَهُمْ بِمَا سَوْف يُلَاقُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ، مِنْ عَذَابٍ أَلِيم جَزَاءَ كُفْرِهِمْ واسْتِهْزَائِهِمْ بِرَسُوله، في نار جَهَنَّم، بقَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ صِدْقَ إنْذَارَاتِ الرَّسُول لهم.

■ قَوْلُ اللهِ تعالى لِرَسُولِهِ في الوصيَّة الثامِنَة مَعَ التَّوْطِئَةِ لَها:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ بعِبَارَةِ ﴿لَقَدْ﴾ مع مخاطَبَتِهِ لَهُ بِضَمِير المتكلّم الْعَظِيم، أنَّه جَلَّ جَلَالُهُ وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، يَعْلَمُ حَتَّى مَا يَحْدُثُ في صُدُورِ عبادِه مِن انْقِبَاضٍ نَفْسِيٍّ وَضِيقٍ بأيّ سَبَبٍ من الْأَسْبَابِ، ومِنْهَا مَا يَقُولُ النَّاسُ من مُزْعِجَاتٍ وأقوالٍ غَيْرِ مُسْتَحبَّاتٍ في نفْسٍ مِنْ قِيلَتْ فيه، لمَا فِيها مِنْ غَمْزٍ أو لَمْزٍ أَوْ تَجْرِيح.

فأوصَىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ بوَصِيَّة فيها دَوَاءٌ دِينيٌّ يَشْتَمِلُ على أَمْرَيْن:

الأَمْرُ الأول: أن يُسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبّه، أي: أنْ يُرَدِّدَ في ذِكْره لِرَبِّهِ عبارة: «سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِه» وهي اختصارٌ لعبارة: أُسَبِّحُ سُبْحانَ اللهِ، وأَحْمَدُ اللهَ بِحَمْدِهِ لِنَفْسِه: أي: أَنَا لَا أسْتَطِيعَ أنْ أسْتَوْفِيَ حَقَّ اللهِ مِنَ التَّسْبِيحِ، وأَنَا مَهْمَا حَمِدْتُ اللهَ فَلَا أَسْتَطِيعُ أن أُحْصِيَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ بِمَا يَسْتَحِقُّ، فأسَبِّحُ سُبْحَانَ اللهِ لِنَفْسِهِ، وأحْمَدُهُ بما أَثْنَىٰ بِهِ على نَفْسِهِ.

تَسْبِيحُ اللهِ: هو تَنْزِيهُ اللهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وعظيم سُلْطانه.

والْحَمْدُ للهِ: هو الثناء على اللهِ بِصِفَاتِ كماله، على وفْقِ المحامِدِ الَّتِي يَحْمَدُ اللهُ بها ذَاته وَصِفَاتِهِ على مَا يَعْلَمُ مِنْ كمالَاتِه.

الأمر الثاني: أَنْ يَكُونَ سَاجِداً لِرَبِّهِ، مِنْ فِئَةِ السَّاجِدِينَ الْكَامِلِينَ، المؤدِّينَ غايَةَ الْخُضُوعِ والذُّلِ لَهُ، والتَّضَرُّعِ فِي دُعَائِهِ له.

(ال) في لفظ ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ للكمال.

إِنَّه باسْتِعْمَال هذا الدّواءِ التَّعَبُّدِيّ للهِ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ يَشْرَحُ اللهُ لَهُ صَدْرَه، ويَصْرِفُ عَنْهُ مَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ مِنْ ضِيقٍ، بِسَبَبِ إيذَاءَاتِ الكَفَرَةِ المشْرِكين له.

قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ فِي الوصِيَّةِ التاسِعَة:

- ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾:

أي: وَتَابِعْ عِبَادَتَك لِرَبِّكَ، ومِنْهَا قِيَامُكَ بِوَظَائِفِ رِسَالَتِكَ الَّتِي حَمَّلَكَ رَبُّكَ أَعْبَاءَهَا واصْطَفَاكَ لَهَا مِنْ دُونِ سَائِرِ خَلْقِهِ، حَتَّىٰ آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ عُمْرِكَ في هَٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

فأنت مُكَلَّفٌ أَنْ تَسْتَمِرَّ في عبادَتِكَ لِرَبِّكَ بِمُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ وأَصْنَافِ العباداتِ المطْلُوبَةِ مِنْكَ، ومِنْهَا أَنْ تَسْتَمِرَّ في أداء وظَائِفِ رِسَالَتِكَ تَبْلِيغاً وتعليماً وتَرْبِيَةً ونُصْحاً وإرْشاداً، وأمراً بالمعروف ونهياً عَنِ المنكر، وقِيَادَة حَكِيمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾: أي: حتَّى يأتِيكَ الموت الذي لَا يَشُكُّ فيه شَاكٌّ من عُقَلاء الأَحْيَاء.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر سورة (الحجر/ ٥٤ نزول).

والحمدُ لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوفِيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١١)

ملحق: حَوْلَ مستخرجات بلاغيَّة من سورة (الحجر/٥٤ نزول)

تَشتَمِلُ هذه السُّورَةُ عَلَىٰ رَوَائِعَ بَلاغيَّة كثيرة، وأكْتَفِي باسْتِخْرَاج ما يلي منها:

أولاً: مِنَ الكِنَايَاتِ في السُّورَة:

(١) قول الله تعالَىٰ بِشَأْنِ أهْلِ الجنَّةِ فِي الجنَّة:

• ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

في هذ الآية كِنَايَتان:

الأولَىٰ: في عبارة ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: أي: هُمْ لا يَكْدَحُونَ لِكَسْبِ أرْزاقِهِمْ وَمَا يَشْتَهُونَ، بَلْ يَأْتِيهِمْ مَا يَطْلُبُونَ مِنْها عَفْواً صَفْواً.

الثانية: في عبارة ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾. أي: هم خَالِدُونَ مُنَعَّمُونَ بِنَعِيمهَا أبداً بِلَا نِهَايَة.

(٢) قول الله تعَالَىٰ حِكَايَةً لِمَقَالَةِ الرُّسُلِ مِن الملائكة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلام:

• ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: هُمْ مُرْسَلُونَ إلى إهْلَاكِ قَوْم مُجْرِمِينَ وَتَعْذِيبهم، ففِي وصْفِهِمْ لِقَوْم لُوطٍ عَلَيْه السَّلامُ بأنَّهُمْ قَوْمٌ مُجْرِمُون، مَعَ قَرِينَةِ إرْسَالِهِمْ مِنَ اللهِ لَهُمْ، كِنَايَةٌ عَنْ أنَّهُمْ يَحْمِلُونَ رِسَالَةَ تَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ لَهم.

ثانياً: مِنَ الإيجاز بالحذف في السّورة:

قولُ اللهِ تَعالى في وصْف «ثمود» قوم النبيَّ الرسول صالح عليه السلام:

• ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ﴾ صُخُوراً ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ ويَتَّخِذُون مِنْهَا مَسَاكِنَ لِيَسْكُنُوها ﴿ءَامِنِينَ﴾.

ثالثاً: مِنَ التَّضْمِين في السورة:

قول الله تَعَالَىٰ بشَأْنِ إهْلَاكِ ثمود قوم صالح عليه السَّلام:

• ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: فَمَا كَفَاهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ لهم وإهْلَاكَهُ لهم، ما كانوا يَكْسِبُونَ مِنْ وَسَائل قُوَّةٍ وَدِفَاعٍ وأمْن.

ضُمِّنَ فِعْل «أغْنَىٰ» مَعْنَىٰ فِعل «صَرَفَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحَرْفِ الجرِّ «عَنْ» فَأَغْنَىٰ الفِعْلُ عَنْ فِعْلَيْن، وأَغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن.

رابعاً: من استِعْمَال اللَّفْظِ في مَعْنَيَيْه فأكْثَر:

(١) قَوْل اللهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ استِثْنَاءِ امْرَأَةِ لُوطٍ من النَّاجِين من أهله:

• ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

الغابر: الماكِثُ الّذِي لَا يُغَادِر. والذّاهِبُ الماضِي الَّذِي لم يَبْقَ لَهُ وَجُود.

هذان المعنيان يَنْطَبِقَانِ عَلَىٰ امْرأة لُوطٍ عليه السلام، فهي لم تَسْتَطِعْ مغادَرَةَ أَرْضِ الْقَوْمِ مَعَ زَوْجِها وابْنَتَيْها، ولَمْ يَبْقَ لَهَا وُجُودٌ حَيٌّ في الأرض، بَلْ هَلَكَتْ مَعَ الهالِكِين، وذَهَبَتْ من الحياة الدُّنيا مع الذاهبين.

(٢) وقول اللهِ تَعَالَىٰ في وصْف قوم لوطٍ إذْ جاءُوا إلى دَارِهِ حينَ عَلِمُوا باسْتِضَافَتِهِ شُبَّاناً مُرْداً حِسَاناً، وهُمْ في الحقيقة رُسُلُ إهْلَاكِهِمْ مِن الملائكة، يَبْتَغُونَ الفاحِشَة فِيهم:

• ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: يَفْرَحُون بما سَيُصِيبُونَ مِنِ استِمتَاعٍ يُحِبُّونَه، ويُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بعضاً بما يُفْرِحُهُمْ.

يُقَال لغة: «اسْتَبْشَرَ» أي: فَرِحَ وسُرَّ. ويقال: «اسْتَبْشَرَ فُلَانُ فُلَاناً» أي: بَشَّرَهُ بِمَا يُفْرِحُهُ وَيَسُرُّه.

خامساً: مِنَ القصر في السورة ما يلي:

(١) قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصْرُ إهْلَاكِ كُلِّ قَرْيَةٍ أُهْلِكَت عَلَىٰ كَوْنِ إهْلَاكِها مُسَجَّلاً فِي كِتَابٍ مَعْلُومٍ قَبْلَ إهْلَاكِها.

وهو قَصْرٌ إضافِيٌّ مِنْ قَصْرِ موصُوفٍ علىٰ صِفَةٍ، أَيْ بالإضافَةِ إلَىٰ كَوْنِ إهْلَاكِها الحاصِلِ عَمَلاً مُرْتَجلاً غيْرَ مَسْبُوقٍ بِتَقْدِيرٍ وقَضَاءٍ وتَسْجِيلٍ في كتاب.

وأداة الْقَصْرِ فيها النفي والاستثناء.

(٢) وقولُ الله تَعَالَىٰ بشأن كُفَّارِ الأوَّلين:

• ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصْرُ كُفَّارِ الأوّلينَ على صِفَةِ اسْتِهْزَائِهِمْ بِرُسُلِ رَبِّهِمْ.

وهُو قَصْرٌ إضَافِي من قَصْرِ مَوْصُوفٍ على صِفَة، أي: بالإضافَةِ إلى كونِهِمْ لَا يَسْتَهْزِئُونَ بِرُسُلِ رَبّهم.

وأداةُ الْقَصْرِ فيها النَّفْيُ الاستثناء.

(٣) وقول الله تعالَىٰ:

• ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصْران: قَصْرُ الإحياء والإماتة على الله عزَّ وجلَّ. وقَصْرُ وِرَاثَةِ كُلِّ شَيْءٍ على الله عزَّ وجلَّ، بِمَعْنَىٰ ظُهُورِ ملكِيَّةِ اللهِ لكلِّ شَيْءٍ في الأكوان، لأنَّ الله إذا أمَاتَ كلَّ الأحياء ظَهَرَ انْفِرَادُه في المُلْكِ، وسَقَطَتِ المِلْكِيَّاتُ الصُّوريّة الَّتي كان قَدْ مَنَحها لعباده.

وهو في الجملَتَيْنِ قَصْرٌ حقيقي، من قَصْر صفةٍ على موصوف.

وأداة القصر فيهما تَعْرِيف طَرَفَي الإسناد.

(٤) قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً لِرَسُوله:

• ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ قصران:

الأول: قَصْرُ صِفَتَي الْغفُورِ الرَّحِيمِ علَىٰ اللهِ، فَلَا يَتَّصِفُ بكمالِ هاتَيْنِ الصفتين إلّا اللهُ وحده.

وهو قَصْرٌ حقيقي من قَصْرِ الصِّفَةِ على الموصوف.

الثاني: قصر صِفَةِ الْعَذَاب الأَلِيم الْبَالِغ غايَةَ الإِيلامِ على عَذَاب الله جلّ جلالُهُ وعظُمَتْ قُدْرَته.

وهو قَصْرٌ حقيقي من قَصْر الصِّفَة على الموصوف.

وأداة القصر فيهما تعريف طَرَفي الإسْنَاد.

(٥) قول الله تعالى بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴿٥٨﴾﴾:

في هذا البيان قَصْرُ خَلْقِ اللهِ السموات والأرض وما بَيْنَهما على

كوْنِهِ مُتَّصفاً بالْحَقِّ، لرَدّ فِكْرَةِ العبث التي هي باطلٌ لَا يَكُونُ مِن الله جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

وهو قَصْرٌ إضَافي لِدَفْعِ تَصَوُّرَاتِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالجزاء الرَّبَّاني، ولا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّين.

وأداة القصر فيه النفيُ والاسْتِثناء.

(٦) وقَوْلُ الله تعَالَىٰ:

• ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾:

في هذه الآية قَصْرُ صِفَتَي الْخَلَّاق العليم على اللهِ تبارك وتعالى.

وهو قَصْرٌ حَقِيقيٌّ مِنْ قَصْر صِفَةٍ على مَوْصُوف.

وأداة القصر فيه تَعْريف طَرَفَي الإسناد.

(٧) وقول الله تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُوله:

• ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ قَصْرُ كَوْنِ الرَّسُولِ بالنِّسْبَةِ إلى المصرِّين عَلَىٰ كُفْرِهم وعِنَادِهِمْ، عَلَىٰ أَنَّهُ النَّذِيرُ المبين لهم.

وهُوَ قَصْرٌ إضَافِي، أي: بالإضَافَةِ إلى ما يُؤَدِّي لِهَؤُلَاءِ مِنْ وظائِفِ رِسَالَته. وهو من قَصْرِ مَوْصُوفٍ على صِفَة.

وأَدَاةُ الْقَصْرِ فِيه تَعْريف طَرَفَي الإسْناد.

سادساً: مِن الإشارةِ إلَىٰ الْقَرِيب باسْمِ الإشارة الموضوعِ للبعيدِ لدواعٍ بلاغيّةٍ، في السورة:

(١) قول الله تعالى:

• ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾:

جاءَتْ الإشَارَةُ إلَىٰ آياتِ القرآن الْقَريبَةِ المتْلُوَّةِ باسم الإشارة في ﴿تِلْكَ﴾ الموضوع للْبَعِيدِ، للدَّلالَةَ على ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهَا وَعُلُوِّ شأنها، بلاغة وَمَضَامِينَ فِكْرِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ وتَرْبَوِيَّةٍ وغيرهما.

(٢) وقول الله عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ قَوْمِ لُوطٍ وإخْبَارِه بأنَّ إهلاكهم صار أمْراً مَقْضِيًّا لَا بُدَّ من تَنْفِيذِه:

- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

جاءَتِ الإشَارَةُ إلَىٰ أَمْرِ إهْلَاكِهم القريب الْوُقُوع باسم الإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، للدَّلَالَةِ علَىٰ أَنَّ الْأَمْرَ الْعَظِيم الْفَظِيعَ الَّذِي كان مُسْتَبْعداً جدًّا، قَدْ تَمَّ بِهِ القضاءُ الرَّبَّانِيُّ وصَارَ حَقِيقَةً وَشِيكَةَ الوقوع.

سابعاً: من التوكِيد بالمؤكّداتِ في السُّورَةِ لِوجُود الداعِي إليه:

أُوردُ هُنَا النُّصُوص الَّتِي اسْتَخْرَجْتَها دُونَ بيانٍ وتَحْلِيل، إذْ قَدْ سَبَقَ فِي المسْتَخْرَجَات البلاغِيَّةِ مِنَ السُّوَرِ الَّتِي سَبَقَ تَدَبُّرُها أَمْثِلَةٌ كَثِيرَةٌ يُمْكِنُ القياسُ عليها بسُهُولَةٍ وَيُسْر.

(١) قول الله تَعَالَىٰ:

- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

(٢) وقول الله تعالى:

- ﴿... وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ ... ﴿٨٥﴾﴾.

(٣) وقول الله تعالى:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾:

(٤) وقول الله تَعَالَىٰ لِرَسُوله:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾:

(٥) وقول الله تعالى:

- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾:

(٦) وقول اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُوله:

- ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾:

(٧) وقول الله تعالى له أيضاً:

- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾:

وبهذا تَمَّ هَـٰذَا الملحق والحمد لله على معونته وتوفيقه ومَدَدِهِ وفتحه.



سورة الأنعام

٦ مصحف ٥٥ نزول

وهي سورة مكيَّة كلّها

في أصح الأقوال

وعدد آياتها ١٦٥

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى

---

٤ ـ • قرأ ورْش، والسوسي، وأبو جعفر: [**وَمَا تَاتِيهِمْ**] بإبدال الهمزة ألفاً، وكسْر الهاء.
وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأ يعقوب: [**وَمَا تَأْتِيهُمْ**] بالهمزة دون إبدال وبضمّ الهاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَمَا تَأْتِيهِمْ**] بالهمزة وكَسْرِ الهاء.

٦ ـ • قرأ السّوسي، وأبو جعفر: [**وَأَنْشَانَا**] بإبدال الهمزة بعد الشين ألفاً.
وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَأَنْشَأْنَا**] بالهمزة دون إبدال.

قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ

٧ - • قرأ يَعْقوب: [**بِأَيْدِيهُمْ**] بضمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**بِأَيْدِيهِمْ**] بكسر هاء الضمير.

١٠ - • قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: [**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ**] بكسر دال «لقد» في الوصل، وبالهمزة.

وقرأها أبو جعفر: [**وَلَقَدُ اسْتُهْزِيَ**] بضم الدال، وإبدال الهمزة ياءً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ**] بضَمِّ الدال وبالهمزة.

١٤ - • فتح نافع، وأبو جعفر ياء المتكلّم من [**إِنِّي أُمِرْتُ**]. وأسْكَنها باقي القرّاء العشرة.

١٥ - • فتح نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، يَاءَ المتكلّم من: [**إِنِّيَ أَخَافُ**]. وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ

---

١٦ ـ • قرأ شُعْبَة، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخَلَف: [مَنْ يَصْرِفْ] بالفعل المبني للمعلوم، أي: مَنْ يَصْرِفِ اللهُ عنه.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَة: [مَنْ يُصْرَفْ] بالفعل المبني لمَا لم يُسَمَّ فَاعِلُه.

وبينَ الْقِراءَتَيْن تكامُلٌ فِي الأداء البياني.

١٩ ـ • قرأ ابن كثير: [الْقُرَانُ] بحذف الهمزة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الْقُرْءَانُ] بإثبات الهمزة.

٢٢ ـ • قرأ يَعْقُوب: [وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ] بالْيَاءِ في الفعلين، أي: يَحشرُهم الله.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ] بالنون في الفعلين، والفاعل ضمير المتكلّم العظيم.

وبين القراءتين تفنُّنٌ بياني.

تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ

٢٣ - • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وشعبة، وأبو جعفر، وخلَف: **[ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ]** بتاء المضارعة، وبنصب «فِتنَة».

وقرأها ابن كثير، وابْنُ عامر، وحفص: **[ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ]** بتاء المضارعة، وبرفع «فتنة».

وقرأها باقي القراء العشرة: **[ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتَهُمْ]** بياء المضارعة، وبنصْبِ «فتنة» وهي وجوه عربيّة جائِزة، ومتكافئة من جهة المعنى.

٢٣ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[وَاللهِ رَبَّنَا]** أي: يا رَبَّنا، وقرأها باقي القراء العشرة: **[واللهِ رَبِّنا]** بالجرّ.

٢٧ - • قرأ حفصٌ، وحمزة، ويعْقُوب: **[وَلَا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا ونَكُونَ]** بنَصْبِ الفِعْلَيْن.

وقرأها ابْنُ عامر: **[وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ]** برفع الفِعْل الأوّل ونصب الفعل التالي.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: برَفْع الفِعْلَيْن.

بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ

٣٢ ـ • قرأ ابْن عامر: [**وَلَدَارُ الْآخِرَةِ**] أي: وَلَدَار الْحياةِ الآخرة.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَلَلدَّارُ الْأَخِرَةُ**] على أن «الآخرة» وصف للدّار.
وبين القراءتين تفنُّنٌ في البيان، والمؤدّىٰ واحد.

٣٢ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**] بتاء المخاطبين. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**] بياء الغائبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٣٣ ـ • قرأ نافع: [**لَيُحْزِنُكَ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**لَيَحْزُنُكَ**]. أحزنَهُ وحزنَهُ لغتان عربيتان.

٣٣ ـ • قرأ نافع، والكسائي: [**لَا يُكْذِبُونَكَ**] من فعل: «أَكْذَبَهُ».
وقرأها باقي القراء العشرة: [**لَا يُكَذِّبُونَكَ**] من فعل: «كَذَّبَهُ».
والقراءتان متكافئتان، فالهمز أخو التضعيف.

وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن

٣٦ ـ • قرأ يعقوب: [**يَرْجِعُونَ**] بالبناء للمعلوم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**يُرْجَعُونَ**] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.
وبين القراءتين تكامل، أي: يُرجِعُهُمُ الله فَيَرْجِعُونَ مُطاوِعين بالجبر.

٣٧ ـ • قرأ ابن كثير: [**يُنْزِلَ**] من فعل: «أنزل».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**يُنَزِّلُ**] مِنْ فعل: «نَزَّلَ».
والقراءتان متكافئتان، لأنَّ الهمز أخو التضعيف.

٣٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [**وَمَنْ يَشَا يَجْعَلْهُ**] بإبدال الهمزة ألفاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ**] بالهمزة الساكنة.

٣٩ ـ • أشَمَّ صَادَ [**صِرَاطٍ**] صَوْتَ الزاي قنبل، ورُوَيس، وخلَفٌ عن حمزة.
وقرأها باقي القراء العشرة: صاداً خالصة.

٤٢ و٤٣ ـ • قرأ أبو جعفر، والسُّوسي: [**بِالْبَاسَآءِ**] و[**بَاسُنَا**] بإبدال الهمزة ألفاً فيهما. وهذا الإبدال من اللهجات العربية.
وقرأهما باقي القرّاءِ العشرة: [**بِالْبَأْسَآءِ**] و[**بَأْسُنَا**] بالهمزة على الأصل.

قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾
فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ
غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ
يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ
جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ
ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ
ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ
إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا
تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ

---

٤٤ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعْفَر، ورُوَيس: [فَتَّحْنَا] بتَشْدِيد التاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَتَحْنَا] بتخفيف التاء.
وبين القراءتَيْن تكامل في أداء المعنى المراد، وهما يَدُلَّان علىٰ أنّ بَعْض الأقوام يَفْتَحَ الله لَهُمْ فَتْحاً عاديًّا، وأنَّ آخرين يُفَتِّحُ لَهُمْ أبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ بتوسِعَةٍ زائدة على الفتح المعتاد، بِحَسَبِ ما تقتضيه حكْمَتُه السَّنِيَّة.
٤٦ ـ • أشم الصاد صوت الزاي في: [يَصْدِفُونَ] حمزة، والكسائي، وخلف، ورُويس. وقرأها باقي القرّاء العشرة: بالصّاد الخالصة.

لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

٥٢ - • قرأ ابن عامر: [**بِالْغُدْوَةِ**] وقرأها باقي القراء العَشرة: [**بالْغَدَاةِ**].
الْغُدْوَةُ، والْغَدَاةُ لغتان عربيّتان لمعنىً واحد، وهو ما بين الفجر وطُلُوع الشمس.

٥٤ - • قرأ نَافِع، وأبو جَعْفر، بفتح همزة: [**أَنَّهُ مَنْ**] وكَسْرِ همزة: [**فَإِنَّهُ**].
وقرأهُمَا ابن عامر، وعاصم، ويَعْقُوب، بفتح الهمزتين.
وقرأهُمَا باقي القراء العشرة، بِكَسْرِ الهمزتين.
وهي وجوه جائزة عَرَبيًّا.

٥٥ - • قرأ نافع، وأبو جعفر: [**وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ**] بنصب «سبيل».
وقرأهما شعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**وَلِيَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِين**] بياء المضارعة وبرفع «سبيل».
وقَرَأَهُمَا باقي القرّاء العشرة: [**وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ**] بتاء المضارعة وبرفع «سَبِيلُ».

ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ

---

٥٧ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وعاصم، وأبو جعفر: **[يَقُصُّ الْحَقَّ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَقْضِ الْحَقَّ]**.
وبين القراءتَيْن تكاملٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

٦١ ـ • قرأ حمزة: **[توَفَّاهُ]** مع الإمالة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[توفّتْهُ]**. وهما وجهان عربيان جائزان.

٦١ ـ • قرأ أبو عمرو: **[رُسْلُنَا]** بإسكان السّين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[رُسُلُنَا]** بضم السّين.
وهما لغتان عَرَبيّتان.

٦٣ ـ • قرأ يعقوب: **[قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ]** من فعل «أنْجَىٰ». =

وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ]** من فِعل: «نَجَّىٰ».
والقراءتان متكافئتان.

٦٣ ـ • قرأ شعبة: **[وخِفْيَةً]** بكسر الخاء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وخُفْيَةً]** بضمّ الخاء.
«خِفْيَة وخُفْيَة» لغتان عربيتان.

٦٣ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[لَئِنْ أَنْجَانا]**.
قرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَئِنْ أَنْجَيْتَنا]**.
وبين القراءتان تكامل، إذْ بعض الناس يخاطِبُونَ رَبَّهم بهذا، وآخَرون يقولون: لَئِنْ أنجانا.

٦٤ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن ذكوان، ويَعْقُوب: **[قُل اللهُ يُنْجِيكُمْ]** من فعل «أَنْجَىٰ» المهموز.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ]** من فعل «نَجَّىٰ» المضعف.

٦٥ ـ • قرأ السّوسي، وأبو جعفر: **[بَاسَ]** بإبدال الهمزة ألفاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[بَأْسَ]** بالهمزة الساكنة.

٦٥ ـ • قرأ أبو عمرو، وابن ذكوان، وعاصم، وحمزة بكَسْر تَنْوين: **[بَعْضٍ انْظُر]** في الوصل.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: بضم تَنْوين: **[بَعْضٌ انْظُرْ]** في الوصل.

٦٨ ـ • قرأ ابن عامر: **[يُنَسِّيَنَّكَ]** من فعل «نَسَّىٰ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يُنْسِيَنَّكَ]** من فعل «أنسىٰ» والقراءتان متكافئتان.

بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ

٧١ - ● قرأ حمزة: [اسْتَهْوَاهُ] مع الإمالة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [اسْتَهْوَتْهُ].
وهما وجهان عربيان جائزان.

٧٤ - ● قرأ يعقوب: [ءَازَرُ] بالضم على أنه علم مُنَادَىٰ. =

مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: [ءَازَرَ] بالفتح على أنه بدلٌ أو عطف بيان مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف.

٧٤ ـ • فتح نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر يَاء المتكلم في: [إِنِّيَ أَرَاكَ].

وأسكَنها باقي القرّاء العشرة.

٧٩ ـ • فتح نافع، وابْنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر ياء المتكلم من: [وَجْهِيَ لِلَّذِي].

وأسكنها باقي القرّاء العشرة.

٨٠ ـ • قرأ نافع، وابنُ عامر، بخُلْفٍ عن هشام، وأبو جعفر: [أَتُحَاجُونِي] بكسر النون دُون تَشديد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: بالتشْدِيد: [أَتُحَاجُّونِّي] أصلها «أتُحَاجُّونَنِي». وهو الوجه الثاني لابن عامر برواية هشام.

٨٠ ـ • أثبت ياء المتكلّم في: [وَقَدْ هَدَانِي] يعقوب في الوصل والوقف. وأثبتها أبو عمْرو، وأبو جعفر في الوصل فقط.

ولم يُثْبِتْها باقي القرّاء العشرة، وهي مُلَاحَظَةٌ ذهْناً دَلَّتْ عليها الكسْرَة على النون.

إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ

---

٨١ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، ويعقُوب: **[مَا لَمْ يُنْزِلْ]** من فعل: «أَنْزَلَ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مَا لَمْ يُنَزِّلْ]** من فعل: «نَزَّلَ».
والقراءتان متكافئتان، فالهَمزُ أخو التضعيف.

٨٣ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[دَرجَاتٍ مَنْ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[دَرَجَاتِ مَنْ]** على الإضافة.
القراءتان مِنَ التفنُّنِ في التعبير.

٨٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[وَزَكَرِيَّا]**.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[وزكرياءَ]** بإثبات الهمزة.
وهما نُطْقَان مستعملان لهذا الاسم.

٨٦ ـ • قَرَأ حمزة، والكِسَائي، وخلف: **[وَاللَّيْسَعَ]**. =

وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ

= وقرأهُ باقي القرّاء العشرة: [والْيَسَعَ].

وهما نطقان لهذا الاسم.

٨٧ - • قرأ قُنْبُل، ورُويس: [سِرَاطٍ] بالسّين. وقرأها خلف عن حمزة بالإشمام.

وقرأها الباقون بالصّاد: [صِرَاطٍ].

٨٩ - • قرأ نافع: [وَالنُّبُوءَةَ]. وقرأها باقي القراء العشرة: [والنُّبُوَّةَ].

٩٠ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وعاصم، وأبو جعفر: [اقْتَدِهْ] بإثبات هاء السَّكْت في الوصل والوقف. وكذلك قرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف، وابن عامر في الوقف فقط.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [اقْتَدِ] في الوصل.

وقرأها هشام: [اقْتَدِهِ] في الوصل بكَسْرةٍ للهاء دُون إشباع لمدّ الهاء.

وقرأها ابنُ ذَكوان مثل هشام في الوصل مع إشباع كسْرَةِ الهاء.

٩١ - • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو: [يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَها وَيُخْفُونَ] بياء المضارعة الّتي تُسْتعمل للغائبين.

وقرأها باقي القراء العشرة: بتاء المخاطبين: [تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ].

أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

٩٢ ـ • قرأ شعبة: [وَلِيُنْذِرَ] بياء الغائب.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلِتُنْذِرَ] بتاء المخاطب. وهو الرسول ﷺ.

وبَيْنَ القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٩٣ ـ • قرأ يعقوب: [أَيْدِيهُمْ] بضمّ هاء الضمير، وهو لغة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: بكَسْرِ هاء الضمير.

٩٤ ـ • قرأ نافع، وحفْص، والكسائي، وأبو جعفر: [تقطَّعَ بَيْنَكُمْ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تقطَّعَ بَيْنُكُمْ].

ومؤدّىٰ القراءتين واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

٩٥ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر، وشعبة: [الْمَيْتِ] بإسكان الياء في الموضِعَيْن.

وقرأهما باقي القرّاء العشرة: [الْمَيِّتِ] بِتَشْدِيد الياء المكسورة. =

فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ

٩٥ ـ • قرأ ورش، والسوسي، وأبو جعفر، [**تُوفَكُونَ**] بإبدال الهمزة واواً مَدِّيَّة، وهو من اللهجات العربية.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**تُؤْفَكُونَ**].

٩٦ ـ • قَرَأ عاصم، وحمزة، والكسائيُّ، وخلف: [**وَجَعَلَ اللَّيلَ**] بالفعل الماضي: ونصب «الليل».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَجَاعِلُ اللَّيْلِ**] باسم الفاعل وجرّ اللّيل.

٩٨ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ورَوْح: [**فَمُسْتَقِرٌّ**] بِكَسْرِ القاف، اسم فاعل من «استقرّ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**فَمُسْتَقَرٌّ**] اسم مكان.

٩٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [**إِلَىٰ ثُمُرِهِ**]. وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**إِلَىٰ ثَمَرِهِ**]: «ثُمر» و«ثَمر» جَمْعُ «ثَمَرَة» فالمعنى واحد.

١٠٠ ـ • قرأ نافع، وأبو جَعْفَر: [**وَخَرَّقُوا**] بِتَشْدِيدِ الرَّاء، أي: بالغوا بالافتراء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَخَرَقُوا**] براء مفتوحة دُون تَشْدِيد.
=

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ

= والقراءتان تُعبِّرانِ عَن حَالَيْنِ لِفَريقَيْنِ من الكافرين المفتَرين علىٰ الله.

١٠٥ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو: [**دَارَسْتَ**].

وقرأ ابن عامر، ويعقوب: [**دَرَسَتْ**].

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**دَرَسْتَ**].

١٠٨ ـ • قَرَأَ يَعقُوبُ: [**عُدُوّاً**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**عَدْواً**].

١٠٩ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [**وَمَا يُشْعِرْكُمْ**] بجزم الرَّاء. وله وجْهُ آخر عن الدُّوري، وهو اختلاسُ ضمَّة الراء. =

إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَمَا يُشْعِرُكُمْ] بالرَّفع.

١٠٩ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، ويعقوب، وخلف، وهو وجه لشعبة: [إِنَّهَا إذا] بِكَسْرِ همزة «إِنَّ» وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَنَّهَا إِذَا] بفتح همزة «أَنَّ» وهو الوجه الثاني لشعبة.

١٠٩ ـ •قرأ ابن عامر، وحمزة: [لا تُؤْمِنُونَ] بتاء المخاطبين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: بياء الغائبين: [لَا يُؤْمِنُون].
وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في الأداء البياني.

١١١ ـ • قرأ أبو عمْرو: [إِلَيْهِمِ الْمَلَائِكَةَ] بكسر هاء الضمير وميم الجمع.
وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوبُ. وخلَف: [إِلَيْهُمُ الْمَلَائِكَةَ] بضمّ هاء الضمير وميم الجمع.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: بكَسْرِ هاء الضمير وضمّ ميم الجمع: [إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ] وكُلُّها لغاتٌ عربية.

١١١ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [قِبَلاً].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [قُبُلاً].
القراءتان لغتان بمعنى المقابَلَة والمواجهة والمعاينة.

١١٢ ـ • قرأ نافع: [لِكُلِّ نَبِيءٍ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لِكُلِّ نَبِيٍّ].

مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ

١١٤ ـ • قرأ ابن عامر، وحفص: [**مُنَزَّلٌ**] بفتح النون وتشديد الزاي المفتوحة، من فعل: «نَزَّل».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**مُنْزَلٌ**] مِنَ فعل: «أنْزَل».

١١٥ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ**] بالإفراد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: بالجمع: [**وَتَمَّتْ كَلِماتُ**].
والمعنى فيهما واحد، لأنّ المفْرَدَ المضافَ إلَىٰ المعرفة بحكْم الجمع.

١١٩ ـ • قرأ نافع، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ**].
وقرأ شعبة، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَا حُرِّمَ**].
وقرأها باقي القرّاء العشرة [**وقَدْ فُصِّلَ لَكُم مَا حُرِّمَ**].
ومؤدّىٰ هذه القراءات واحد، وهي من التفنُّن في التعبير.

١١٩ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلَف: [**لَيُضِلُّونَ**] أي: ليُضِلُّونَ غيرَهُمْ.
وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**لَيَضِلُّونَ**].
وبين القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في أداء المعنى المراد، أي: هُمْ يَضِلُّونَ عَنْ صِرَاطِ الحقّ بأهوائهم، ويُضِلُّونَ غيْرَهم.

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا

١٢٢ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب: **[أَوَ مَنْ كَانَ مَيِّتاً]** بتشديدِ الياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً]** بإسكان الياء. «مَيْت» و«مَيِّت» لغتان بمعنىً واحد.

١٢٤ ـ • قرأ ابن كثير، وحفص: **[يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ]** بالإفراد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالجمع: **[يجْعَلُ رِسالَاتِهِ]**.
والمعنىٰ فيهما واحد، لأنّ المفرد المضاف إلى المعرفة بحكم الجمع.
ويُضَاف إلى هذا أنَّ بَعْضَ رُسُلِ اللهِ أنْزَل اللهُ عَلَيْهِم رِسَالَةً وَاحِدَةً دُفْعَةً واحِدَة، وأنَّ آخرين أنزل الله عَلَيْهِمْ رِسَالَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ نَجْماً بَعْدَ نَجْمٍ، مثل مُوسَىٰ عليه السَّلام.

١٢٥ ـ • قرأ ابن كثير: **[ضَيْقاً]**.

=

يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: [ضَيِّقاً]. ومؤدّى القراءتين واحد.

١٢٥ ـ • قرأ نافع، وشعبة، وأبو جعفر: [حَرِجاً] بكسر الراء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [حَرَجاً] بفتح الراء.
ومؤدّى القراءتين واحد.
«حَرِج» صفة مشبَّهة باسم الفاعل.
«حَرَج» مصدر وُصِفَ به علىٰ سبيل المبالغة.

١٢٥ ـ • قرأ ابْنُ كثير: [يَصْعَدُ] وقرأها شعبة: [يَصَّاعَدُ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَصَّعَّدُ]. أصْلُها «يَتَصَعَّدُ».
في قراءتي «يَصَّاعَد» و«يَصَّعَّدُ» معنى التكلُّف، فبينهما وبيْنَ «يَصْعَدُ» تكامل رُوعي فيه أحوال النَّاس في حَالَاتِ صُعُودِهم.

١٢٦ ـ • قرأ قُنْبُل، ورُوَيس: [سِرَاطُ] بالسين. وقرأها خَلَفٌ عن حمزة بالإشمام.
وقرأها باقي القراء العشرة بالصاد الخالصة: [صِرَاطُ].

١٢٨ ـ • قرأ حفص، ورَوْح: [وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ] بياء المضارعة، أي يحْشُرُهم الله.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ] بضمير المتكلّم العظيم.
ومؤدّى القراءتَيْنِ واحد.

يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا

١٣٢ ـ • قرأ ابن عامر: [عَمَّا تَعْمَلُونَ] بتاء المخاطبين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَمَّا يَعْمَلُونَ] بضمير الغائبين. وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

١٣٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [إِنْ يَشَا] بإبدال الهمزة ألِفاً في: «يَشا».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [إِنْ يَشَأْ] بالهمزة.

١٣٥ ـ • قرأ شعبة: [عَلَى مَكَانَاتِهِمْ] بالجمع.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإفراد: [عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ].

١٣٥ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [مَنْ يَكُونُ] بالياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مَنْ تَكُونُ]. بالتاء.

١٣٦ ـ • قرأ الكسائي: [بِزُعْمِهِمْ]. وقرأها باقي القراء العشرة: [بَزَعْمِهِمْ] وهما لغتان.

يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً

١٣٧ ـ • قرأ ابْنُ عَامر: [**وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ**].

وفي قراءة ابن عامر إثباتُ وَجْهٍ عَرَبيٍّ جائز. والمؤدّىٰ في القراءتَيْنِ واحد.

قراءةُ ابْنِ عامرٍ فيها الفصل بَيْنَ المضاف: «قَتْلُ» والمضاف إلَيْهِ «شُرَكَائِهِمْ» بِمَفْعُولِ «قَتْل» وهو «أَوْلَادَهُمْ» أي: زُيِّنَ لِكَثِيرٍ من المشْرِكينَ أنْ يَقْتُلَ شُرَكَاؤهُمْ أَوْلَادَهُمْ، إمَّا بَتَسْلِيمهِمْ إلى سَدَنَةِ الأصْنامِ لِقَتْلِهِمْ، وإمَّا بِقَبُولِ حُكْمِهِمْ فِي أَنْ يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ.

١٣٨ ـ • قرأ الكسائي: [**بزُعْمِهِمْ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**بزَعْمِهِمْ**]. وهما لُغتان عربيّتان.

١٣٨ و١٣٩ ـ • قرأ يعقوب: [**سَيَجْزِيهُمْ**] بضم هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**سَيَجْزِيهِمْ**] بكسر هاء الضمير.

١٣٩ ـ • قرأ ابن عامر: [**وإنْ تَكُنْ مَيْتَةٌ**]. وأبو جعفر: [**مَيِّتَةٌ**]. وشُعْبَة: [**مَيْتَةً**] مع التاء في «تَكُنْ».

=

فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ

= وقرأ ابن كثير: [وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةٌ]. وباقي القراء العشرة: [مَيْتَةٌ] مع الياء في «يكن».

١٤٠ ـ ● قرأ ابن كثير، وابن عامر: [الَّذِينَ قَتَّلُوا] بتَشْدِيد التاء. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الّذِينَ قَتَلُوا] بتخفيف التاء.

رُوعي بالتشديد الذين أكثروا القتل، وبالتخفيف الذين كان مِنْهُم قَتْلٌ ما.

١٤١ ـ ● قرأ نَافع، وابْن كثير، [أُكْلُهُ]. وقرأها باقي القراء العشرة: [أُكُلُهُ] «الأُكُلُ» و«الأُكْلُ» لغتان بمعنى الثمر.

١٤١ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [مِنْ ثُمُرِهِ] بضم الثاء والميم. وقرأها باقي القراء العشرة: [مِنْ ثَمَرِه] بفتح الثاء والميم. وهما لغتان عربيتان جمع «ثَمَرَة».

١٤١ ـ ● قرأ أبو عَمْرو، وابن عامر، وعاصِم، ويعقوب [حَصَادِهِ] بفتح الحاء وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [حِصَادِه] بكسر الحاء وهما لغتان عربيتان.

١٤٢ ـ ● قرأ نافع، والبزّي، وأبو عَمْرو، وشعبة، وحمزة، وخلف: [خُطْوَاتِ] بإسكان الطاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [خُطُوَاتِ] بضم الطاء. وهما لغتان عربيتان.

عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ

١٤٣ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: [الضَّانِ] بإبدال الهمزة ألفاً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الضَّأْنِ] بالهمزة على الأصل.

١٤٣ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر: [الْمَعَزِ] بفتح العين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الْمَعْزِ] بإسكان العين.
وهما لغتان عرَبيتان.

١٤٣ ـ • قرأ أبو جعفر: [نَبُّوني].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [نَبِّئُوني].

١٤٥ ـ • قرأ ابْنُ عامر: [إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَيْتَةٌ]. وقرأها أبو جعفر: [إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَيِّتَةٌ].
وقرأها ابن كثير، وحمزة: [إِلَّا أَنْ تَكونَ مَيْتَةً].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً].

١٤٥ ـ • قرأ أبو عمْرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: [فَمَنِ اضْطُرَّ].
وقرأها أبو جعفر: [فَمَنُ اضْطِرَّ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَمَنُ اضْطُرَّ].
وهي لغاتٌ عربيّة.

هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ

١٤٧ و١٤٨ ـ • قرأ السوسي، وأبو جعفر: [بَاسُهُ] و[بَاسَنَا] بإبدال الهمزة فيهما ألفاً.

وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأهما باقي القرّاء العشرة: [بَأْسُهُ] وَ [بَأْسَنَا] بالهمزة على الأصل دون إبدال.

مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

---

١٥٢ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [تَذَكَّرُونَ] بتخفيف الذال.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تَذَّكَّرُونَ] بتشديد الذال، أصلها: «تتذكَّرونَ».

١٥٣ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [وَإِنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي] بكسر همزة «إِنَّ»
ولخلف عن حمزة إشْمَامُ الصاد صوت الزاي.
وقرأها ابن عامر: [وَأَنْ هَـٰذَا صِرَاطِيَ مُسْتَقِيماً] بفتح ياء المتكلم في الوصل، وبـ «أنْ».
وقرأها رَوح: [وَأَنْ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً].
وقرأها قنبل: [وَأَنَّ هَـٰذَا سِرَاطِي مُسْتَقِيماً] بالسين بدل الصاد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً].

١٥٣ ـ • قرأ البزّي: [فتَّفرَّقَ] بتشديد التاء، أصلها «فتَتَفرَّقَ» وقرأها بَاقِي القراء العشرة: [فَتَفَرَّقَ] بحذف إحدى التاءين.

أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

---

١٥٧ ـ • قرأ حَمْزة، والكسائي، وخَلف، ورُويس: [يَصْدِفُونَ] بإشْمَام الصّادِ زاياً في الموضعين. وقرأها باقي القراء العشرة بالصاد الخالصة.

١٥٨ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ].

وقرأ وَرْش، والسوسي، وأبو جعفر: [إِلَّا أَنْ تَاتِيَهُمْ] بالتاء وإبدال الهمزة ألفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ] بالتاء، وبالهمزة دون إبدال.

١٥٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [فَارَقُوا] من المفارقة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَرَّقُوا] من التفريق.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

١٦٠ ـ • قرأ يعقوب: [فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالُهَا] وقرأها باقي القراء العشرة: [فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا]. والمؤدّى واحد، وهما من التفنن في التعبير.

١٦١ ـ • فتح ياء المتكلم من: [رَبِّي إِلَىٰ] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر وأسكنها الباقون.

=

مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

١٦١ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، ويعقوب: [دِيناً قَيِّماً].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [دِيناً قِيَماً].
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

١٦١ ـ • قرأ هشام: [إبراهَامَ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [إِبْرَاهِيمَ].

١٦٢ ـ • قرأ قَالُون، وأبو جَعْفر: [ومَحْيَايْ] بإسْكان الياء الثانيةِ وصْلاً ووقفاً وحينئذٍ تَمُدَّان مدًّا مشبعاً لأجل السَّاكنين، وهو وجهٌ لورش.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَمَحْيَايَ] وهو الوجْهُ الثاني لورش، ولا مَدَّ حينئذٍ.

١٦٣ ـ • أثبت ألف «أنا» مِنْ [وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ] في الوصل نافع، وأبو جعفر.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف الألف وصلاً.
ولا خلاف عندهم في إثباتها في الوقف.

(٢)
مما جاء في السُّنَّة بشأن سورة (الأنعام)

سورة (الأنعام) ذَاتُ عِنَايَةٍ جَلِيلَةٍ مِنَ العليم العلَّام، فَقَدْ صَحِبَتْ نُزُولَها مَوَاكِبُ مِنَ الملائكة، يَجْأَرُونَ بتسبيح اللهِ وتَحْمِيدِهِ، في زَجَلٍ تَطْرِيبي، وقَدْ جاء بيانُ عنايَةِ اللهِ بها في أحاديث عن النبيّ ﷺ، منها الصحيح، ومنها دونَ ذلِكَ:

(١) رَوىٰ الحاكم في «مستَدْرِكِهِ» بسَندِهِ عن جابر قال: لمَّا نزلَتْ سُورَة (الأنعام) سبَّحَ رَسُول الله ﷺ ثُمَّ قال:

«لَقَدْ شَيَّعَ هَـٰذِهِ السُّورَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَا سَدَّ الْأُفق».

ثم قال الحاكم: صَحِيحٌ علىٰ شَرْطِ مسلم.

(٢) وروىٰ أبو بكر بن مَرْدَوَيْهِ بسنَدِه عن أنس بن مالك قال: قال رَسُولُ الله ﷺ:

«نَزَلَتْ سورة (الأنعام) مَعَهَا مَوْكِبٌ مِنَ الملائكة سدَّ ما بَيْنَ الخافِقَيْن[1]، لهم زَجَلٌ[2] بالتَّسْبِيحِ، والْأَرْضُ بِهِمْ تَرْتَجُّ».

ورَسُول اللهِ يقول: «سبحان الله العظيمِ، سُبْحانَ اللهِ الْعَظِيم».

(٣) وروىٰ ابْن مَرْدَوَيْهِ عَنِ الطبراني، بسَنَدِهِ عن ٱبْن عُمَر، قالَ: قال رسُول الله ﷺ:

«نَزَلَتْ سُورَة (الأنعام) جُمْلَةً واحِدَةً، وشَيَّعَهَا سَبْعُونَ أَلْفاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لهم زَجَلٌ بالتَّسْبِيحِ والتَّحْمِيدِ».

(٤) ورَوَىٰ الطبرانيّ بسَنَدِهِ عن ابن عباس قال: «نَزَلَتِ الْأَنْعَامُ بمكَّةَ لَيْلاً جُمْلَةً وَاحِدَةً حَوْلَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْأَرُونَ حَوْلَهَا بالتَّسْبِيحِ».

(٣)
موضوع سورة (الأنعام)

يدُور موضوعُ شجرة سورة (الأنعام) حول معالَجَةِ الَّذِينَ لم يَسْتَجِيبُوا لدَعْوَة الحقِّ الرَّبَّانِيَّة إِبَّانَ تَنْزِيلِ السورة.

---

(١) **الخافِقَان**: أُفقُ المشْرِقِ والمغْرِبِ.
(٢) **الزَّجَل**: رَفع الصَّوْتِ بِتَطْرِيب.

ولِهَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ سَاقَانِ مُمْتَدَّانِ مِنْ جَذْرِها حَتَّىٰ رَأسِهَا، وقَدِ الْتَفَّ كُلٌّ مِنْهُمَا علىٰ الآخر، وتَفَرَّعَتْ فُرُوعُها وَأفْنَانُهَا وأوراقها وثمراتُها الظّاهِرَةُ مِنْ مَنْطُوقِ ألْفَاظِها مِنَ الملْتَفِّ الظَّاهِرِ من هَـٰذَيْنِ السَّاقَيْن.

السَّاقُ الأول: تَفَرَّعَتْ مِنْهُ بَيَانَاتٌ دَعَوِيَّاتٌ مُبَاشِرَاتٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ، كاشفاتٌ لحقائق عَقَدِيَّة وسُلُوكِيّة، وجَدَلِيَّاتٌ للكافِرينَ، ومواعظُ تَرْغيبيَّة وتَرْهيبيَّة مُوَجَّهَاتٌ مباشرة لهم، بحَسَبِ الطَّوْرِ الذي هم علَيْهِ إبَّانَ تنزيلِ السُّورَة، مع تَوصِياتٍ تَرْبَوِيَّةٍ من اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، مُلائماتٍ للطَّوْرِ الَّذِي كانَ عَلَيْهِ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا بَعْدُ لِدَعْوَتِه، ومُعَالَجَاتٍ لِما فِي نَفْسِهِ في ذَلِكَ الطَّوْر، ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ كُلُّ حَامِلٍ لِرِسَالَتِهِ من أمَّتِه، ثُمَّ سَائِرُ المؤمنين المُسْلِمين، ولكلٍّ مِنْهُمْ مَا يُلَائِمُ أحوالَهُ مِنْها.

السَّاق الثاني: تفرَّعَتْ مِنْهُ تعليماتٌ دَعَوِيَّاتٌ عَقَدِيَّاتٌ وسُلوكيات، وتعليمات جَدَلِيَّاتٌ حَكِيمَاتٌ، يُكَلِّفُ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ أَنْ يَقُوم بها ضِمْنَ وظائِفِ رِسالَتِه، مع وصايا تَرْبويَّة يُوصِي اللهُ عزَّ وجلَّ بها رسولَهُ محمّداً ﷺ، ويُلْحَقُ به فيها كُلُّ حاملٍ لرسالته من أُمَّتِه، ثمَّ سائِرُ المؤمنين المسلمين، ولكُلٍّ مِنْهُمْ ما يُلائم أحواله منها.

ومَا جاء في هذه السُّورَة مِنْ كُلِّ ما سبَقَ، ونَظِيرُه ما جاء في سائر سُوَرِ القرآن، عِلْمٌ يُسْتَفادُ مِنْهُ حتَّىٰ آخر مُسْتَفِيدٍ من الأحياء في رِحْلَة الحَياةِ الدُّنيا.

(٤)
دروس سورة (الأنعام)

أخذاً من طيَّاتِ سَاقَيْ هَـٰذِهِ السُّورَةِ وفُرُوعها استطعت أَنْ أُقَسِّمَ هَـٰذِهِ السورة إلى (٣٣) درساً، وهي:

الدرس الأول: الآيات من (١ ـ ١٠) وهي من فروع الساق الأول.

ويتضمن ما يلي:

• الثناء على الله ببيان أنَّ الحَمْدَ كُلَّهُ لَهُ، مع التذكير ببعض مظاهر خلقه في كونه، وشُمُولِ عِلْمِهِ كُلَّ شَيْءٍ.

• الحديث عَنْ أئِمَّةِ الكفر والشرك في مكَّة إبَّانَ التنزيل، وعن عنادِهم للحقّ، مع وَعِيدِهم وتذكيرهِمْ بالْمُهْلَكِينَ قَبْلَهُم من أُمَمِ الكُفْرِ والْعِناد، الذين كذّبوا رُسُلَ رَبّهم، واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَقَاومُوا دعوة الحق الربَّانِيَّة.

• خطابٌ من اللهِ لرسُولِهِ بأنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْ تَلْبِيَةِ مَطَالِبِ هؤلاءِ المعانِدِينَ المُصِرِّينَ عَلَىٰ باطلهم، بشأن إلْحَاحِهِمْ علَىٰ طَلَب آيَاتٍ خوارِقَ عَلَىٰ مَا يَشْتَهُون، لِأَنَّهُمْ مُتَعَنِّتُونَ يَعْرِفُونَ الحقَّ وَيَجْحَدُونه.

• بيانُ طَلَب هؤلاء المُعَانِدِين أَنْ يُنْزِلَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَلَكاً يُبَلِّغُهُمْ عن اللهِ، ويَشْهَدُ للرَّسُولِ بالصِّدْقِ، مع بيان أنَّ الْحِكْمَةَ تقتضي عَدَمَ الاستجابَةِ لَهُمْ في طَلَبِهِم.

• تسْلِيَةُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، للضِّيقِ الّذِي حصَلَ في صَدْرِهِ، مِن وَخَزَاتِ اسْتِهْزَاءِ بَعْضِ كُبَرَاء كُفَّارِ قومه به.

الدَّرس الثاني: الآيتان (١١ و١٢) وهما من فُرُوعِ السَّاقِ الثاني.

ويتضمَّنُ فِقَرَةَ توجيهٍ تَعْلِيمِيّ دَعَوِيّ للرَّسُولِ ﷺ، فَلِكُلّ دَاعٍ إلى اللهِ من أمّته.

وفيها بيانُ بَعْضِ ما يَنْبَغِي أَنْ يُحَدِّثَ المشركين به، ويُحَاوِرَهُمْ بِشَأْنِهِ جدالاً بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

الدَّرس الثالث: الآية (١٣) وهي من فروع الساق الأول.

وفيها بيانٌ تكميليٌّ رَبَّانِيٌّ مُبَاشِرٌ موصولٌ فكريًّا بِبَعْضِ ما جاء في الدرس الثاني، يُبَيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها مِلْكِيَّتَهُ لِكُلِّ مَا يُرَىٰ أَنَّهُ قَدْ سَكَنَ في اللَّيلِ والنهار، أَيْ: في كُلِّ الأزْمان، ويُبَيِّنُ فيها أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ السَّمِيعُ لكُلِّ صَوْت، الْعَلِيم بِكُلِّ شيء.

الدَّرْس الرابع: الآيات من (١٤ ـ ١٦) وهي من فروع الساق الثاني.

وفِيهِ فِقَرَةُ تَعْلِيم جِدَالِيٍّ حَكِيمٍ، وتَعْلِيم دَعويٍّ من اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِه، كي يُوَجِّهَهُما لمشْرِكي قَوْمِه.

الدرس الخامس: الآيتان (١٧ و١٨) وهما من فروع الساق الأول.

وفِيهِ فِقْرةُ بيانٍ علاجِيٍّ رَبَّانيٍّ مباشر، مَوصول بالدَّرس الأول، يُخَاطِبُ الله عزَّ وجلَّ فِيهِ كُلَّ صَالِحٍ مُؤَهَّل للخطاب، يُبَيِّنُ اللهُ فيه سُلْطَانَهُ عَلَىٰ كُلِّ التَّصَارِيفِ في كَوْنِهِ، ضَارِّهَا وَنَافِعِهَا، خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، عَلَىٰ وفْقِ حِكْمَتِهِ، وأَنَّهُ هُو القاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ الخبيرُ بهم.

الدرس السادس: الآية (١٩) وهي من فروع السَّاق الثاني.

وفيه فِقَرَةُ تَعْلِيمٍ جداليّ ودَعَوِيّ مِن اللهِ لرسوله، حول نبوة الرَّسُول، وحَوْلَ شِرْكِ المشْرِكِينَ وآلِهَتِهِمْ.

الدرس السابع: الآيات من (٢٠ ـ ٣٩) وهي من فروع السَّاق الأول.

وفيه بَيَانٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ بشأنِ نُبُوَّةِ الرَّسُول محمد ﷺ ورِسَالَتِهِ، وإنذارٌ مِنْهُ للمُفترين على الله وللمُكذِّبين بآياته، ولقطةٌ من مَشْهَدِ الحشر يوْمَ الدِّين، وتعجيبٌ من أمْرِ الكافِرينَ، ووَصْفٌ لِحَال بَعْضِهِمْ حين يسْتَمِعُونَ لدَعْوَة الرسُول وبياناته.

وفيه لقطةٌ أخْرى من مشاهِدِ يوْمِ الدِّين وتمنِّيهم الرَّجعة لحياة

الامتحان، وبعدها بيانُ عقيدتهم في البعث، فلقطَةٌ أخْرَىٰ مِنْ مشاهِدِ يوم الدين، وتعليقٌ عليها.

وفيه بَيَانٌ عن الحياة الدُّنيا مع المقارَنَةِ بَيْنَها وبيْنَ الآخِرَةِ وما فيها.

وفيه تسْلِيَةٌ للرَّسُولِ بشأن تَكْذِيبِ كُفَّارِ قَوْمِهِ له، وتوجيه له وتَرْبِيَةٌ، وبيانُ حقائِقَ تَكْوينِيَّة هي لوَازِمُ لِحُرِّيَّاتِ الناسِ في اخْتِيَارَاتِهم الإراديّة فِي حَيَاةِ الابتلاء.

الدَّرس الثامِن: الآيتان (٤٠ و٤١) وهما من فروع السَّاق الثاني. وفيه وَمْضَةُ تَعْلِيمٍ جِدَاليّ دَعَوِيّ من اللهِ لرَسُوله.

الدَّرْس التاسع: الآيـاتُ من (٤٢ ـ ٤٥) وهي من فروع السَّاق الأول.

وفيه بَيَانٌ من اللهِ لرسُوله بشَأْن كُفَّارِ الأُمَم السَّابقة، وكَيْفَ أخَذَهُمْ بالبأسَاءِ والضَرَّاء رَغْبَةً في أَنْ يَتَضَرَّعُوا، لكنَّهم لم يفْعَلُوا، ففتح اللهُ لهم أبواب كُلِّ شيءٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ أخَذَهُمْ بالتعذِيب والإهلاك بغْتَةً واسْتَأْصَلَهُم بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كانُوا ظالِمِينَ.

الدرس العاشر: الآيتَان: (٤٦ و٤٧) وهما من فروع الساق الثاني.

وفيه فِقَرَةُ تعليم عِلَاجيٍّ بالإنْذَارِ بسَلْب الأَسْمَاعِ والأبْصَار، والختم على القلوب، أو بالعذاب والإهلاك.

الدرس الحادي عشر: الآيتان (٤٨ و٤٩) وهما من فروع الساق الأول. وفيه فقرة بيانٍ رَبَّانِيٍّ عِلَاجِيٍّ بالترغيب والترهيب.

الدرس الثاني عشر: الآيَات من (٥٠ ـ ٥٨) وهي من فروع الساق الثاني.

وفيه تعليمٌ دَعَوِيٌّ من اللهِ لرسوله، وتربيةٌ له بأنْ لَا يَطْرُد المؤمنين

المسْلِمِين مَهْمَا كانَتْ أحوالُهم الاجتماعيَّة مُتَدَنِيَةً، اسْتِجَابَةً لِكُبَرَاءِ قَوْمِهِ وطَمعاً في أَنْ يُؤْمِنُوا به ويَتَّبِعُوهُ، فإذا طَرَدَهُمْ كان من الظالمين، مع بيان حِكْمَةِ الله في هذا التَّعْلِيم التربوي.

وفيه تَعْلِيمُ أسَالِيبَ تَرْبَوِيَّةٍ يُعامل بها الرَّسُولُ المؤمنين، وعناصِرَ دَعَوِيَّة يُوجِّهُهَا للمشْرِكينَ.

الدّرس الثالث عشر: الآيات من (٥٩ ـ ٦٢) وهي من فروع السَّاق الأول.

وفيه بيانٌ رَبَّاني مُبَاشِرٌ حَوْل إحاطَةِ عِلْمِ اللهِ بِكُلِّ شيء، وقد خَاطَبَ الناس بأَنَّهُ هو الّذِي يتوفاهم بالنوم، ثُمَّ يَبْعَثُهم من نومِهِمْ، وأنَّهُ هو الذي يُمِيتُ الناسَ ويبعثهم يوم القيامة، للحِسَابِ، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، بسلطان قَهْرِهِ، وبأَنَّهُ هُوَ الّذِي يُرْسِلُ عليهم ملائكَةً حفظة، مع مُتَمِّمَاتٍ لهذا البيان.

الدرس الرابع عشر: الآيات من (٦٣ ـ ٦٦) وهو من فروع الساق الثاني.

وفيه تَعْلِيمُ حوارٍ جَدَلِيٍّ لانْتِزَاعِ اعْتِراف المشركين بأنَّ اللهَ وحْدَهُ هو الذي يُجِيبُ دُعَاءَ المضطرّ إذا دَعاه ويكشف السّوء، وبأنه هو القادِرُ على أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بما يَشَاءُ مِنْ صُنُوف العقاب، ولإعْلَامِهِمْ بأنَّ الرسُول لَا يَسْتَطِيعُ أنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ مِنْ عِقَاب اللهِ شيئاً إِذَا قَضَىٰ اللهُ مُعَاقَبَتَهُمْ، لأنَّهُ لَيْسَ وَكِيلاً عَلَيْهِم.

الدرس الخامس عشر: الآيات من (٦٧ ـ ٧٠) وهي من فروع السَّاق الأوّل.

وفيه بيان مُبَاشِرٌ من الله بأنَّ لِكُلِّ نبأٍ مُسْتَقَرًّا، وأَمْرٌ بالإعْرَاضِ عن الّذِين يَنَالُونَ من آياتِ الله بِما لَمْ يأْذَنْ بِهِ اللهُ من طَعْنٍ وتجريح، مع متمّمات لهذا البيان.

الدرس السادس عشر: الآيات من (٧١ ـ ٧٣) وهي من فروع الساق الثاني.

وفيه تعليم حِوارٍ دَعَوِيٍّ حَوْلَ تَوْحِيدِ الله في رُبوبيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ، والأَمْرِ بإقَامَةِ الصَّلَاةِ، وتقوى الله مع التذكير بيوم الدين، ومع بيان قضايا عَقَدَية.

الدرس السابع عشر: الآيات من (٧٤ ـ ٨٢) وهي من فُروع السَّاق الأول وفيه عرضُ لقطات من دَعْوَةِ إبراهيم عليه السلام الجدَليّة لِقَوْمِه، وهي تَتَضَمَّنُ جدالاً لكُلِّ المشركين بأسْلُوب التَّعْرِيضِ لا بأسلوب المواجهة المباشرة، وتعليماً جداليًّا للرَّسُول وللدُّعاةِ إلى الله من أمّته.

الدرس الثامن عشر: الآيات من (٨٣ ـ ٩٠) وهي من فروع السَّاق الأوّل أيضاً، وفيه بيانٌ من الله عزَّ وجلَّ في الثناء على إبراهيم عليه السّلام وما آتاه من حُجَجٍ دَوَامغ وبراهين قواطع، وثناءٌ على طائفة من الرُّسُل عليهم السلام مع بيان أنّ الله آتاهم الكتاب والْحُكْمَ وَالنُّبُوَّة وإضافاتٌ في الأثناء ملائمات.

وختامٌ بتوجيه للرَّسُولِ ﷺ أنْ يقتدي بهم وأنْ يقول للمعْرِضِينَ عن دَعْوَتِهِ: لا أسألُكُمْ على تَعْلِيمِكُمْ كِتَاب رَبِّكُمْ أجراً، فهو ليس لكم وحْدَكُمْ إنْ هو إلَّا ذِكرٌ للعالَمِين جَمِيعاً من الإنْسِ والجنّ.

هذا الدرس كان من المقبُول اعتبارُهُ تابعاً للدَّرْسِ السابع عشر، إلَّا أَنَّنِي آثرتُ اعتباره درساً مُنْفصلاً لئلا يطول الدرس السابع عشر، ولأنّ مضمونه منَفصل عن جَدَليّات إبراهيم لقومه.

الدرس التاسع عشر: الآية (٩١) وهي من فروع السَّاق الثاني.

وفيه تعليمٌ جَدَليٌّ للرسول يُجادل به اليهود المنكرينَ إنْزال كِتَابٍ رَبَّانيّ على محمّد، وهُمْ يَزْعَمُونَ بتَعميمٍ كاذبٍ قائِلين: ما أنزل اللهُ على بَشَرٍ مِنْ شيء.

الدرس العشرون: الآيات من (٩٢ ـ ٩٤) وهي من فروع السَّاق الأول.

وفيه بيان رَبَّانِي مُبَاشِر بشَأْنِ الْقُرْآنِ والرَّسُولِ محمّد ﷺ، وَبِشأْنِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ على الله كَذِباً، أو يَزْعُمُونَ اتِّصَالَهُمْ بالوحْي، وفيهِ وَعِيد للظَّالِمِينَ.

الدرس الحادي والعشرون: الآيات من (٩٥ ـ ٩٩) وهي من فروع السّاق الأول أيضاً. وفيه عَرْضُ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كوْنِهِ الدَّالَّةِ على رُبوبيته فإلهيَّتِهِ.

الدرس الثاني والعشرون: الآيات من (١٠٠ ـ ١٠٣) وهي من فروع السّاق الأول أيضاً. وفيه عرض بعض عقائد المشركين من وثنِّيين، وأهلِ كتاب يَزْعُمُونَ أن لله ولداً، مع تعقيبٍ حَكيمٍ.

الدرس الثالث والعشرون: الآية (١٠٤) وهي من فروع السّاق الثاني.

وفيه تعليم من اللهِ لِرَسُوله بَيَاناً دَعَوِيًّا يقولُهُ لِقَوْمه.

الدرس الرابع والعشرون: الآيات من (١٠٥ ـ ١١٧) وهي من فروع السَّاقين.

وفيه بيانٌ مباشِرٌ لِلرَّسُولِ ﷺ فِيه تَعْلِيمٌ وتَرْبِيةٌ وومْضَةٌ دَعَوِيَّةٌ يَقُولُهَا لِطَالِبي الآيات الخوارق من قومه.

وفيه بيانٌ لِكُلِّ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، وَيَدْخُلُ الرَّسُولُ في عُمُومهم، بِشَأْنِ عَدَدٍ مِنَ القضايا ذَوَاتِ الشَّأْنِ في المفهومات الدِّينيَّةِ حَوْلَ الناسِ، وسُنَّةِ اللهِ فِي كونِه، وأسَالِيبِ الدَّعْوَةِ إلى الحقِّ الرَّبَّانِيِّ، وتوابعَ مَوْصُولَةٍ بها.

الدرس الخامس والعشرون: الآيات من (١١٨ ـ ١٢١) وهي من فروع السّاق الأول.

وفيه بيانٌ للمؤمنين حَوْلَ أَحْكام بَعْضِ مَا يُؤْكلُ مِن اللّحوم، على خلاف أحكام الجاهليّة فيها.

الدرس السادس والعشرون: الآياتُ من (١٢٢ ـ ١٢٥) وهي من فروع السّاق الأول أيضاً. وفيه بيان عن الإيمان والكُفْر مَع الْمُقَارَنَةِ بينهما، وحْولَ الكافِرِينَ المُعَاندين المُصِرِّينَ على عِنَادهم ومَكْرِهم وتَعَنُّتِهِم، وحَوْلَ سُنَّةِ اللهِ في طَبِيعَةِ النفس الإنسانية وسُلُوكِهَا الدَّاخِلِيّ.

الدرس السابع والعشرون: الآيات من (١٢٦ ـ ١٣٤) وهي من فروع السّاق الأول أيضاً.

وفيه بيانٌ عن ثواب مُتَّبِعي صِرَاطِ اللهِ المُستقيم يَوْمَ الدّين، وفيه عَرْضُ مَشْهَدٍ من مَشاهِدِ مُحَاسَبَةِ الكافرين مِنَ الإنس والجنِّ يوم الدِّين، وبيانٌ عَنْ سُنَّةِ اللهِ في إهْلَاكِ أهْلِ الْقُرَىٰ الظَّالِمَةِ، وبيانٌ عَنْ جَزَاءِ اللهِ يوم الدِّين القائم على نظام التفاضُل في الدّرَجَاتِ بحَسَب الأعمال التي قَدَّمَها الناسُ في رِحْلَةِ امْتِحَانهم. وبيَانٌ عن صِفَتيْنَ من صفَاته، وهما أنه الغنيُّ ذو الرَّحْمَة.

مع إنْذَارِ الكافِرينِ بأَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزينَ، فإنْ يَشَأْ يُذْهِبْهُمْ ويَأْتِ بِغَيْرِهِم، ومع التوكِيدِ بأنَّ مَا يُوعَدُونَ مِنْ جَزاءٍ آتٍ لَا مَحَالَة.

الدرس الثامن والعشرون: الآية (١٣٥) وهي من فروع السّاق الثاني.

وفيه تعليمٌ دَعَويٌّ من اللهِ عزَّ وجلَّ لرسوله، بِشأن أواخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ المُتعلِّقَةِ بالكافرين المُعانِدِينَ المصرّين على كُفْرِهِم ومُقَاوَمَتِهِمْ لدَعْوَتِهِ.

الدرس التاسع والعشرون: الآيات من (١٣٦ ـ ١٤٠) وهي من فروع الساق الأوّل.

وفيه بَعْضُ تفصيلٍ لأحْكَامِ الجاهِلِيَّة في المآكِل من الحرْث والأنعام افتراءً على اللهِ، وكيْفَ زَيَّنَ لَهُمْ شياطِينُهُمْ قَتْلَ أوْلادِهم، مع خِتامٍ بِبيانِ خَسَارَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِم يَوْمَ الدِّين.

الدرس الثلاثون: الآيات من (١٤١ ـ ١٤٧) وهي من فروع الساق الأول أيضاً.

وفيه بيانُ أحْكَامِ اللهِ في ما أنعم به على عباده ممَّا تُنْبِتُ الأرض، وفي الذي أنعم به عليهم من الأنعام، مع تَحْذِيرِهِمْ من اتّباع خُطُواتِ الشيطان في ذَلِكَ وفي غيره.

وفيه تَكْلِيفُ الله رسُولَهُ أَنْ يُبَيِّنَ للنَّاسِ ما أُوحِي إِلَيْهِ بِشَأْنِ المطاعم من أحكام، ومَا يقولُهُ لَهُمْ إِنْ كَذَّبَهُ الكافِرُونَ مِنْ إِنْذَارٍ بعقابه.

الدرس الحادي والثلاثون: الآيات من (١٤٨ ـ ١٥٣) وهي من فروع السّاق الثاني.

وفيه تعليم من الله لِرَسُولِهِ فِقَرَاتٍ جداليّة يُجَادِلُ بها المشرِكِين، وفِقَرَاتٍ دَعَوِيَّة يُبيِّنُ فيها طائِفَةً مِنْ أحكام اللهِ وشرائِعِهِ.

مع خِتَام بِبيانِ أنَّ هذا صِرَاطُ اللهِ المسْتَقِيم، وأنَّهُ يَجِبُ عليهم أنْ يَتَّبِعُوهُ، وَلَا يَتّبِعُوا السُّبُلَ الَّتِي تَتَفَرَّقُ بهم عن سبيله.

الدرس الثاني والثلاثون: الآيات من (١٥٤ ـ ١٦٠) وهي من فروع السَّاق الأول.

وفيه بيانٌ دَعَوِيٌّ مُبَاشِرٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ للأمَّةِ العربية، مع إنذارٍ بعواقب وخيمة إذا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ رَبِهم.

وفيه بَيَانٌ لِلرَّسُول بشَأْنِ الكافِرين الذين فَرَّقُوا دِينهم وكانُوا شِيَعاً، يُبَيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ لَهُ فِيه انفصالَهُ التَّامَّ عَنْهُمْ فِي كُلِّ شيء، وأنَّ عليه أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ.

الدرس الثالث والثلاثون: الآيات من (١٦١ ـ ١٦٥) آخر السورة، وهي من فروع السَّاقِ الثاني.

وفيه تكليفٌ للرَّسُول أنْ يُعْلِنَ لقومِهِ كُبْريَاتِ كليَّاتِ الدِّينَ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ عقيدة وسلوكاً، ويَلْتَزِمُ الْعَمَلَ بِهِ فِي حياته، وأَنَّهُ أوّل المُسْلمين المطيعين للهِ في أَحْكَامِ دِينِهِ، وأَنَّهُ لَيْسَ مَسْؤُولاً عَنْ كُفْر مَنْ يَكْفُرُ منهم، وأنَّ مَرْجِعَهُمْ إلى اللهِ الذي سَوْفَ يُجَازِيهم على مَا كَسَبُوا في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدنيا، الّتي خَلَقَهُمْ فيها، ورفع بعضهم فوقَ بعض دَرَجات، لِيَبْلُوَهُمْ في ما آتاهم.

وبهذا تَنْتَهِي سُورَةُ (الأنْعَامِ) العجيبَة.

❀ ❀ ❀

(٥)
التدبّر التحليلي للدّرْس الأول من دُروس سورة (الأنعام)
الآيات من (١ ـ ١٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:



• ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا

مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ مَّكَّنَّـٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾:

القراءات:

(٤) • قرأ ورشٌ، والسُّوسي، وأبو جعفر: **[وَمَا تَاتِيهِمْ]** بإبدالِ الهمزة ألفاً، وكَسْرِ الهاء. وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها يعقوب: **[وَمَا تَأْتِيَهُمْ]** بالهمزة دُون إبدال، وبضم الهاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَمَا تَأْتِيهِمْ]** بالهمزة وكسر الهاء.

(٦) • قرأ السوسي، وأبو جعفر: **[وَأَنْشَانَا]** بإبدال الهمزة بعد الشين ألفاً.

وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَأَنْشَأْنَا]** بالهمزة دون إبدال.

(٧) • قرأ يعقوب: **[بِأَيْدِيهُمْ]** بضَمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[بِأَيْدِيهِمْ]** بِكَسْرِ هاء الضمير.

(١٠) • قرأ أبو عَمْرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: **[وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ]** بِكَسْرِ الدال في الوصل، وبالهمزة.

وقرأها أبو جعفر: [**وَلَقَدُ اسْتُهْزِيَ**] بضمّ الدّال وإبدال الهمزة ياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَلقدُ اسْتُهْزِئَ**] بضم الدال وبالهمزة.

تمهيد:

في هذا الدَّرْس ثناءٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ بكمال الحمد له، مع التنبيه على بعض آياتِهِ في كونه، توطِئَةً لِلْحَدِيثِ عَنِ الكَفَرَةِ المعانِدِين الْمُصِرِّين على باطِلِهِمْ إبَّانَ التَّنْزِيل، والطَّوْرِ الَّذِي كانُوا عَلَيْهِ بَعْدَ مَسِيرَةِ الرَّسُول الدَّعَوِيَّةِ فِيهِمْ مُنْذُ بِعْثَتِهِ حَتَّىٰ نُزُولِ سُورة (الأنعام).

- فقد كَذَّبُوا بالحقِّ الرَّبانِي تَكْذِيباً عنادِيًّا، لا يُجْدِي مَعَهُمْ فيه أَنْ يُنْزِلَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنَ السَّمَاءِ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ يَلمَسُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيَقْرَؤُونه.

- وكَرَّرُوا مُطَالَبَتَهُمْ بِإِنْزَالِ مَلَكٍ على الرَّسُولِ يَشْهَدُ لَهُ بأَنَّهُ نَبيُّ اللهِ ورسُولُهُ حَقًّا، وهو صادقٌ فيما يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ.

- وَتَابَعَ كَثِيرٌ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ سِيَاسَةَ الاسْتِهْزَاءِ بالرَّسُولِ لِصَدِّ النّاس عَنْهُ، مع أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كَفَىٰ رَسُولَهُ كُبَراء المسْتَهْزِئين كما جاء بيانه فِي أواخِرِ سُورَةِ (الحِجْرِ/ ٥٤).

فَجَاءَ فِي هَـٰذَا الدَّرْسِ بيانٌ رَبَّانِيٌّ يَتَعَلَّقُ بمواقِفِ مُشْرِكِي مَكَّةَ فِي هَـٰذَا الطَّوْرِ الَّذِي كانوا عليه إِبَّانَ نُزُولِ سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول).

وجاء فيه وفي عُموم السُّورة حوارٌ وجِدالٌ وإنْذَار للمشركين، وعِلَاجٌ وَتَرْبِيَةٌ وتَسْلِيَةٌ للرَّسول، وعلاجٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمين.

وآياتُ هذا الدَّرْس مِنْ فروع السَّاق الأوّل من ساقَي شجرة السُّورَة الملتف بَعْضهما على بعض باختيارٍ رَبَّانِيٍّ بَدِيع.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾:

• ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: كُلُّ مَا يُعْلَمُ مِنْ ثَنَاءٍ حَسَنٍ على مُتّصِفٍ بجميلٍ مَا، هو للهِ عزَّ وجلَّ بالاستِحْقَاقِ الذَّاتِيّ، لِأَنَّهُ مُتَّصِفٌ بكُلِّ صِفَاتِ الكمال، ومُنَزَّهٌ عَنْ كُل صفاتِ النّقْص.

• ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أيْ: ومِنْ آثَارِ صِفَاتِهِ الَّتِي اسْتَغْرَقَتْ كُلَّ الْحَمْدِ والثَّنَاءِ بالْجَمِيل، أَنَّهُ خَلَقَ بِالإبْداع عَلَىٰ غير مِثالٍ سَبَقَ السَّمَاوَاتِ بكُلِّ ما فيها، والْأَرْضَ بِكُلِّ عَناصِرِها، وبِكُلِّ مَا فِيها وعَلَيْها، من مَادّيّاتٍ وغَيْرِ مَادِّيَّات.

وممَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ تَحْلِيلَ عَناصِرِ إبْدَاعِ اللهِ في خَلْقِهِ السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ، وإِتْقَانِهِ صُنْعَهُمَا، لَا تَكْفِي لِتَدْوِينِهِ مِلْيَارَاتُ أسْطوَانَاتِ التَّسجِيلِ بالكُومْبيُوتر، وهَٰذَا الخلْقُ الْبَدِيعُ العجيبُ المُتْقَنُ بُرهَانٌ عَلَىٰ رُبوبيَّةِ اللهِ المُتَّصِف بكلّ صِفات الكمال والمنزَّه عَنْ كُلّ صِفَاتِ النقص، وعلى وَحْدَانِيّتِهِ في رُبُوبيّتِهِ، الَّتي تَسْتَلْزِمُ عَقْلاً وَحْدَانِيَّتَهُ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، ولا في إِلَٰهِيَّتِهِ.

• ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾: أيْ: ومِنْ حِكْمَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ، وشَمَلَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْء، أَنَّهُ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ هِي الأَصْل في الأَكْوَان، وخَلَقَ المخْلُوقَاتِ المضيئَاتِ الَّتِي تَكْشِفُ بأنوارِهَا الكائِنَاتِ المظْلِمَاتِ.

ولا يَخْفَىٰ مَا فِي وُجُودِ الظُّلُمَاتِ والنُّور في الكَوْنِ من حِكَمٍ عَظِيمَةٍ، وَمَنَافِعَ جَلِيلَة.

ولعَلَّ في جَمْعِ «الظُّلُمَاتِ» إشارَةً إلى أنواعها القائِمَة على انْعِدَام النُّور منها، أمَّا «النُّورُ» فهُوَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله بَثَّهُ في المضيئات، وشَرَفُهُ مِنْ شَرَفِ نُورِ الله، فالله نُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْض.

وفي بيان أنَّ الظلماتِ والنُّورَ مِن جَعْلِ اللهِ في كَوْنِه إشارةٌ إلَىٰ فسادِ مَذْهَبِ المجوس، الّذِينَ يَعْبُدُونَ الظُّلْمَةَ والنُّورَ إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ.

• ﴿... ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ وُضُوح الرُّؤْيَةِ الفكريَّة بِبَراهِينِها الكَوْنِيَّة المشهُودَة، الدَّالَّة عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَا يُسَاوِيه ولا يَعْدِلُهُ شيءٌ في الوجودِ كُلِّه، في أيِّ صِفَةٍ من صفاتِهِ جَلَّ جلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه، يَجْعَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا آلِهَتَهُم مُعَادِلَةً مُسَاوِيَةً للهِ عزَّ وجلَّ، تَسْتَحِقُّ فِي تَصَوُّرِهِم الباطل أنْ تُعْبَدَ مِنْ دُونِ الله.

يَعْدِلُونَ: أي: يُسَوُّونَ. فيجْعَلُونَ خَلْقاً من خَلْقِ اللهِ لا يَضُرُّ ولَا يَنْفَعُ، ولا حَوْلَ لَهُ ولا قُوَّة إلَّا بالله، أو أسماءً لَا حَقيقة لَهَا إلَّا في أوْهامِهِمْ، أَشْيَاءَ مُسَاوِيةً مُعَادِلَةً لِمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَات والأرض، وجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنور.

هذا مِنْهُمْ ظُلْمُ عَظِيمٌ شنيعٌ لِلْحَقِّ، وعُدْوانٌ على حقِّ اللهِ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، في رُبُوبيَّتِهِ ووحْدَانِيَّتِهَا، وفي إلهيَّتِهِ ووحْدَانِيَّتِها، وهو من عجيب الأمر الذي لا يَصْدُرُ عن ذِي عقل ورُشدٍ.

وفي هَـٰذِهِ الآية إيذانٌ بأنّ السّورَة الّتِي افتتحها اللهُ عزَّ وجلَّ بهَـٰذِهِ الآية، سَيَكُونُ فِيها مُعَالجةٌ للمشرِكين بما تَقْتَضِيهِ حِكْمَةُ الرَّبّ الحكيم من إقناع، ومَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ، وجدالٍ بالَّتِي هي أحسن.

■ قول الله تَعَالَىٰ خطاباً للمشركين بِهِ عَلَىٰ سَبيلِ الالْتفات:

• ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ۝٢﴾:

في هَـٰذِهِ الآية بَيَانٌ عُنْوانِيٌّ مُوجَزٌ لِأَرْبَعِ قضايا:

الْقَضِيَّةُ الأُولَىٰ: دلَّ عَلَيْها قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي: من مَاءٍ وتُرَابٍ علىٰ اختلافِ عَنَاصِرِهِ مِنَ الأَرْضِ.

أَمَّا خَلْقُ جَسَدِ آدَمَ من طين، فَقَدْ جَاءَت بشأنِهِ بيانَاتٌ قُرْآنِيَّةٌ كَثِيرَةٌ، وهو من الأمُور المبَيَّنَةِ في كُلِّ مَا أَنزلَ اللهُ من كُتُب، وعلى لسَان كلِّ المرسَلِينَ والأنبياء، مُنْذُ عَهْدِ آدم عليهم السلام، فلا يجحَدُهَا جاحِدٌ، والتذكيرُ بها يُرَادُ بِهِ الدَّلاَلَةَ علَىٰ عَظَمَةِ صِفَاتِ الخالق البَارئ المصَوّر ذِي الأسْمَاء الحسنىٰ، الذي هو على مَا يشاء قَدِير، وهو الواحِدُ في رُبُوبِيّتِهِ لكُلِّ ما سِوَاهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

وأمَّا خَلْقُ زَوْجِهِ وَذُرِّيَّاتِهِمَا فَهُمْ مَخْلُوقُونَ أيضاً من طينٍ تَبَعاً له، ويُضَافُ إلى هَـٰذِهِ التَّبَعِيَّة، أَنَّ جَسَدَ كلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَخْلُوقٌ مِنْ طِينٍ تَحوَّلَ بِخَلْقِ اللهِ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ إلَىٰ غِذَاءٍ، فَدِمَاءٍ، فَنُطَفٍ، فَأَجِنَّةٍ، وَكَانَ نَمَاؤُهَا وَبَقَاؤُهَا مُسْتَمِدّاً من الْغِذَاءِ الّذِي هُوَ طِينٌ مُتَحوِّلٌ، إذا حُلِّلَتْ عَنَاصِرُه، وعُزِلَ بعْضُها عَنْ بَعْضٍ عَادَ تُرَاباً وَمَاءً، والطِّينُ مَرْحَلَةٌ من مَرَاحِلِ التَّكْوِينِ التَّطوِيري.

فعِبَارَة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ عِبَارَةٌ منطبقَةٌ عَلَىٰ الْوَاقِعِ دَوَاماً، مُنْذُ النَّشْأَةِ الأُولَىٰ للنَّاسِ، وحَتَّىٰ آخِرِ مَخْلُوقٍ مِنهم.

القضيَّة الثَّانية: دلَّ عَلَيْها قَوْل اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاً﴾: أَيْ: ثُمَّ أَنْهَىٰ بالمْوتِ أَجَلاً كَانَ قَدَّرَهُ وَأَمْضَاهُ لحياةِ كُلِّ إنْسَانٍ سَبقَتْ لَهُ حياةٌ في هَـٰذِهِ الدُّنيا، وَهَـٰذَا الأَجلُ كَانَ مُعَيَّناً مَعْلُوماً للرَّبِّ الْخَالِقِ، ويتحقَّقُ فيكُم نظيرُ مَا سَبَقَ للّذِين مَاتُوا مِنْ قَبْلِكُمْ، وكذلِكَ فِيمَنْ سَيخْلُقُ مِنَ النَّاسِ من بَعْدِكُمْ، إلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَة، فَسُنَّةُ اللهِ في خَلْقِ النَّاسِ واحِدَة.

وجاء الْعَطْفُ بـ «ثُمَّ» للدَّلاَلَة علَىٰ مُدَّةِ أَجلِ حَياةِ كُلِّ إنْسَانٍ في هَـٰذِهِ الحياة الدُّنْيَا، حَيَاةِ الامْتِحان.

فعل: «قَضَى الشَّيءَ» هو في اللُّغَة بِمْعَنىٰ: أمْضَاه، وأنْهَاهُ، وأتَمَّهُ، قَوْلاً كَانَ، أو فِعْلاً، أو إرادَةً، أو غَيْرَ ذَلِكَ.

الْقَضِيَّة الثالِثَة: دلَّ عَليها قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾:

أي: وأجَلٌ مَوْصُوفٌ بأنَّهُ مُحَدَّدٌ مُعَيَّنٌ مُسَمًّى بزَمَنِهِ، ضِمن خَطِّ الزَّمَنِ الْمُمْتَدِّ مُنْذُ بَدْءِ الخلْقِ إلَىٰ مَا لَا نِهَايَةَ له، هُوَ عِنْدَ الرَّبِّ جلَّ جلالُهُ عِلْماً وتَسْجيلاً في كِتَابٍ، وَوَصْفُ أجَلٍ بأنَّهُ مُسَمَّىٰ يُفيدُ تعمِيم كُلِّ أجَلٍ قَدَّرَهُ الله وقَضَاهُ.

فلُكلِّ أَجلٍ لِأَمْرٍ ما، تَقْدِيرٌ وقضاءٌ وتعيينٌ باسْمِ الزَّمَن، ولِكُلِّ أَجَلٍ إحَاطَةٌ بِعِلْمِ اللهِ دَواماً، ولِكُلِّ أَجلٍ كِتَابٌ هُو مُسَجَّلٌ فيه.

يُطْلَقُ الأجَلُ عَلَىٰ زَمَنِ الفِعل، أوْ مُدَّةِ بقاء الشَّيْءِ، أوْ زَمَنِ الإنهاء.

القضيَّة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله تَعَالَىٰ خطاباً للمشركين: ﴿... ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾؟:

﴿تَمْتَرُونَ﴾: أي: تَشُكُّونَ وتجادِلُون.

أي: مَعَ ظُهور حَقَائِقِ القضايَا الثَّلاثِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُها في الآيَةِ، كَيْفَ صَحَّ في أَذْهَانِكُمْ واسْتَقَامَ فِي عُقُولِكُمْ، أَنْ تَجْعَلُوا لِرَبِّكُمُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْخَلْقِ، وَلَا مُسَاوِيَ لَهُ فِي شيءٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، شَرِيكاً مِنْ دُونِه أوْ شُرَكَاء، تَعْبُدُونَهُمْ، وَتَدْعُونَهُمْ، وَتَرْجُونَ إعَانَتَهُمْ لَكُمْ إعَانَاتٍ من عَالم الغيْبِ، وهم لا يَمْلِكُونَ لأنْفُسِهِمْ وَلَا لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الرُّبوبيَّةِ شيءٌ وَلَا من الإلَهِيَّةِ شَيءٌ.

إنَّ هَـٰذَا الانْحِطَاطَ السَّحِيقَ لَا يَفْعَلُهُ ذُو فِكْرٍ سَلِيمٍ خَالٍ من الأهواءِ، والتقالِيدِ العمياء.

■ قول الله تَعَالَىٰ يُتَابِعُ خِطَابَ المشْرِكِين بِحَقَائِقَ هَادِيَةٍ لِكُلِّ ذي عَقْلَ وَرُشْد:

• ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾:

أي: والرَّبُّ الخالقُ المتَّصِفُ بِكُلِّ صِفَاتِ الكَمَالِ، المنَزَّهُ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ النقصان، المتفرِّدُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وإلٰهِيَّتِهِ، هو اللهُ في السَّمَاوَات، وفي الْأَرْضِ، يَعْلَمُ سِرَّكُمْ، ويَعْلَمُ جَهْرَكُمْ، ويَعْلَمُ كُلَّ مَا تكْسِبُونَ بإرَادَاتِكُمُ الحرَّةِ مِنْ مكتَسَبَاتٍ ظاهِرَةٍ وَبَاطِنَةٍ، حتَّىٰ مَا تَكْسِبُونَ فِي نُفُوسِكُمْ مِنْ عَقَائِدَ وَنِيَّاتٍ وغَيْرِها مِنْ مكْتَسَبَاتِ النفوس.

السِّرُّ: ما يكْتُمُهُ الإنْسَانُ ويُخْفِيهِ.

الْجَهْرُ: مَا يُعلِنُهُ الإنسانُ ويُبْدِيهِ. يقالُ لغة: «جَهَرَ فُلَانٌ بكلامه» أي: رَفع به صَوْتَهُ، ويقال: «جَهَرَ الشَّيْءُ يَجْهَرُ جَهْراً» أي: عَلَنَ وظَهَرَ.

• ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾: أي: ويَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ. **الكَسْبُ**: العمل، وهو يَعُمُّ العَمَل الْجَسَدِيَّ، والفِكْرِيَّ، والنَّفْسِيَّ.

جُمِعَتِ السَّمَاوَاتُ لِتَعَدُّدِها، وأفرِدَتِ الأرْضُ لأنَّهَا أَرْضٌ واحِدَة، وَيُرَادُ بكَلِمة «الأرضينَ» في بعض الأحاديث النبويَّة طبَقَاتٌ مِن الأرض.

▪ قول الله تَعَالَىٰ مُتَحدّثاً عَنْ عُتَاة المشْرِكِينَ وأَئِمَّتِهِمْ بِضَمِير الغائبين التفاتاً عنهم إلى خطاب الرَّسُول والمؤمنين:

• ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾.

أي: وَمَا تَأْتِي هٰؤلَاءِ الْعُتَاة المصِرِّينَ عَلَىٰ مَا هُمْ فِيه مِنْ بَاطِلٍ، آيَةٌ مَا مِنْ آياتِ رَبِّهِمُ الْبَيَانِيَّةِ أَوِ الخوارقِ، إلَّا أَعْرَضُوا عَنْها، ولَمْ يَعْبَؤُوا بها، وإذا كان فيها أنباءٌ عَنِ البعث وعذاب اللهِ يومَ الدِّين اسْتَهْزَؤوا بها. بدليل ما جاء في آخر الآية (٥) التالية:

﴿كَانُوا۟﴾ كانَ هنا مُسْتَعْمَلَةٌ بمثابَةِ الفعل المضارع، وَهٰذَا أَحدُ

اسْتِعْمَالَاتها، ولو كان لفظها مَاضِياً، فهي تُسْتَعْمَلُ بمثابَةِ الفعل الماضي، وتُسْتَعْمَلُ بمَعْنَىٰ الصَّيْرُورَة، وبمعنى الحال، وبمَعْنَىٰ الاستقبال، وبمعنىٰ اتصال الزَّمَانِ من غَيْر انقطاع، والقرائِنُ كَوَاشِفُ للمراد بها، وقَدْ تَأتِي زائدة للتوكيد.

الإعْرَاض: حَالَةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقْبَالِ والإدْبَار، وهذه الحالة كافِيَةٌ لوصفهم بالكفر، ومَنْ أَدْبَرَ مِنْهُم كانَ أشدَّ كُفْراً وعِنَاداً، وأخَسَّ دَرَكَةً في جهنَّم.

ويَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ هَـٰذَا هو وَصْفُهُمُ المسْتَقْبَلِيُّ، أنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا بالْحَقِّ الرَّبَّانِي حِينَ جَاءَهُمْ علىٰ لِسَانِ رَسُولِ رَبِّهم وَعَلِمُوا أَنَّهُ حَقٌّ، وَرَفَضُوا الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِمْ وَتَقَالِيدِهِم الْعَمْيَاءِ.

فالفاء في: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾ سَبَبيَّة، أي: فبسَبَبِ تَكْذِيبهم العنادِي السَّابِقِ مِنْهم الَّذِي لَا دَاعِيَ لَهُ مُطْلقاً إلَّا رَفْضُ الحقّ اتباعاً للْهوىٰ، فإنَّهُمْ سَيُعْرِضُونَ عن كُلِّ آيَةٍ تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَاتِ رَبِّهم، فواقِعُهُمُ النفْسِيُّ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إلَّا الإعْرَاضُ أَوْ مَا هو أَشَدُّ مِنْه.

لفظ «مِنْ» في عبارة ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أُدْخِلَتْ عَلَىٰ الفاعل لِتَوْكِيد عُمُوم النفي لكُلِّ الآياتِ البيانيَّة أو الإعجازيَّة.

• ﴿. . . فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾: أي: فَسَوْف يَأْتِيهِمْ يَوْمَ الدِّينَ تَحْقِيقُ الْأَنْبَاءِ الَّتِي كَانُوا فِي الدُّنيا يَسْتَهْزِئونَ بها، حِينَ كانُوا يَسْمَعُونَ آياتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ، وفيها أنباءٌ عن الْبَعْثِ وعَذَابِ اللهِ في جَهَنَّم يَوْمَ الدِّين، ومَا يُلاقُونَهُ من أهوال في الحشْرِ والسَّوْقِ إلىٰ دَارِ العذاب.

■ قول الله تَعَالَىٰ خطاباً للرَّسُول وللمؤمنين، مُتَحَدِّثاً بضَمِيرِ المتكلّم العظيم الجبّار:

• ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾:

• ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾: أي: أَلَمْ يَعْلَمُوا من أَخْبَارِ المهْلَكِينَ مِنْ كُفَّارِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ، أعْدَاداً كَثِيرَةً أَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِم وَتكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وَرَفْضِهِم الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ؟!

أَلَمْ يَرَوْا بأَعينهم آثَارَ كَثِيرٍ مِنْ هَـٰؤلَاءِ المهْلَكِينَ السَّابقين؟!.

الاسْتِفْهامُ اسْتِفْهَامٌ تَعْجِيبيٌّ مِنْ أمْرِهِمْ، وَمِنْ مَبْلَغ انْحِرَافِهِم الإجْرَامِيّ، وسُقُوطِهِمْ في أَوْحَالِ الْحَمَاقَةِ والْجَهَالَةِ واتّباعِ الْهَوَىٰ، على خِلَاف مَا يَقْتَضِيه الرَّأْيُ السَّدِيدُ، والْعَقْلُ السَّلِيم.

﴿كَمْ﴾ هُنَا خَبَرِيَّةٌ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ مَعْمُولِ أَوْ مَعْمُولَي الفِعل في: ﴿يَرَوْا﴾ و«كم» اسْمٌ مُبْهَمٌ يَحْتَاجُ تفسيراً بالتمييز، وهي تَدُلُّ على عَدَدٍ ما كثير.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾: يُطْلَقُ الْقَرْنُ ويُرَادُ بِهِ من النَّاسِ أَهْلُ زَمَانٍ واحدٍ، والْعِبَارَةُ هذه تَمْييزٌ لإبْهَامِ «كَمْ».

• ﴿... مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ...﴾:

التَّمكِينُ فِي الشيء: هو الإقدار على التصرُّفِ فِيهِ الموصِلِ إلى تحقيق المطلوب منه، مع التَّثْبيتِ في مكانِهِ، والْقُدْرَةِ على التَّحرُّكِ فِيهِ بِحُرِّيَّة. وأَصْلُهُ مأخُوذٌ مِنَ الْمَكَانِ والثَّبَاتِ فِيهِ، فالتَّمْكِينُ في المكان إقدارٌ عليه وعلى الثباتِ فيه، مع مَنْح حُرِّيَّة التَّصرُّفِ فيه.

والخطابُ فِي: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ هو على سَبِيل الالتفات إلى خطاب المشركين، بَعْدَ الالْتِفَاتِ عَنْ خِطَابِهِمْ في الآيتين (٤) و(٥) وجُزْءِ من الآية (٦) أَوْ هُوَ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وعُمُومِ العربِ إبَّانَ التنزيلِ بغْيَة

التَّعْجيب مِنْ أَحْوالِ المكابِرين المعانِدِين من مُشْرِكِي أَهْلِ مكَّة، وهَـٰذَا هو الأَجْدَرُ بالفهم فيما أرَى.

ومِنَ الَّذِينَ كانُوا مُمَكَّنِينَ في الْأَرْضِ أكْثَرَ مِنْ تَمْكِينِ الْعَرَب إبَّانَ التنزيل، وأَهْلَكَهُم اللهُ إهلاكاً جماعيًّا بِذُنُوبِهم، فِرْعَوْنُ وملَؤُهُ وجُنُودُهُمْ، وقَوْمُ عادٍ، وقَوْمُ ثَمُود مِنْ قَبْلُ.

● ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾: أي: وأطْلَقْنَا لهم مَاءَ السَّحابِ يَنْزِلُ عَلَىٰ أَرْضِهِمْ غَيْثاً كثيراً غَزِيراً نافعاً، في أوقاتِ الحاجة. يأتي الإرسال بمعنى الإطلاق.

ذُكِرَ لَفْظُ «السَّمَاءِ» والمرادُ مَاءُ السَّمَاءِ بمعنى السَّحَاب. **مِدْراراً**: أي: كثيراً غَزِيراً، يقالُ لغة: «سَحَابٌ مِدْرَارٌ» أي: كثيرُ السَّحّ.

حِينَ يَكُونُ الْمَاءُ بُخَاراً مُمْتَدًّا فِي السَّحَابِ يَكُونُ حَبِيساً مُقَيّداً في الجوّ، فإذا شَاءَ اللهُ إنْزَالَهُ أطْلَقَهُ مِنْ قُيُودِهِ بِوَسِيلَةِ اللِّقَاحِ بِمَا تَحْمِلُ الرِّيَاحُ مِنْ جُسَيماتٍ صَغِيرَاتٍ، كما سَبَقَ بَيَانُهُ لَدَىٰ تَدَبُّرِ الآيَةِ (٢٢) من سُورَة (الحِجْر/ ٥٤ نزول).

● ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾: أَيْ: وأَجْرَينا لَهُمُ المِيَاهَ الْعَذْبَةَ فِي الْأَنْهَارِ بَعْدَ إنْزَالِهَا مِنَ السَّمَاء، فَهِي تَجْرِي في مجارِيها مِنَ الأَرْضِ، وهَـٰذِهِ المجاري تَقَعُ بالطَّبْعِ تحت مُسْتَوىٰ سُطُوحِ الأَرْض الكائِنَةِ في شَوَاطِئِهَا الَّتِي يَسْكُنُونَهَا وَيَبْنونَ عليها مَسَاكِنَهُمْ، فَهِيَ تَجْرِي بهذا المعنىٰ من تَحْتِهِمْ، لَا مِنْ فَوْقِهِمْ وَلَا مُحَاذِيَةً لمسْتَوَىٰ ارْتِفَاعِهِم إذَا كانُوا عَلَىٰ سَطْحِ الْأَرْضِ لَا في أنْفَاقٍ مِنْها.

● ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: فَأَهْلَكْناهمْ بِسَبَبِ ذُنُوبهم العظْمَىٰ إذْ كَفَرُوا بآيَاتِ رَبِّهم، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، وقَاوَمُوا دَعَوَاتِهِمْ، وَكَانَ إهْلَاكُهُمْ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا، بِخَوَارِقَ دَالَّاتٍ عَلَىٰ الْقَصْدِ مِنْ إهلاكِهِمْ عِقَاباً، لِيَتَّعِظ به أولُوا الأَلْبَاب.

• ﴿. . . وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾: أي: وأنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِ كُلِّ قَرْنٍ مِنْ قُرُونِ المهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، قَرْناً آخَرِينَ وُضِعُوا في الحياة الدُّنْيَا مَوْضع الامْتِحَانِ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ سِنَّ التكْلِيفِ والمسْؤُولِيَّةِ والْجَزَاء.

الإنْشاء: هُوَ الإحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتَّكَامُلِ المتَدرّج غالباً، ومَعْلُومٌ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الْخَلْقِ للْأَحْيَاءِ والنباتَاتِ وسَائِرِ الْأَكْوَانِ، تَسِيرُ عَلَىٰ وفْقِ الْإحْدَاثِ والإيجَادِ المصْحُوبِ بالتَّكَامُلِ المتَدرِّج شَيْئاً، فَشَيْئاً، أمَّا الْخَلْقُ دُفْعَةً واحِدَةً فيكونُ بخارقٍ إعجازِيٍّ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ المخالِفَاتِ لِسُنَّتِه، لِأَمْرٍ مَا اقتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ، جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَخْلُق الْأَكْوانَ كُلَّها دُفْعَةً واحِدَةً لَفَعَلَ بأمْرِ التَّكْوين: «كُنْ».

■ قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ الْعِنَادِيِّ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِم، بضَمِير المتكلّم العظيم:

• ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾:

• ﴿كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾: أي: كِتَاباً مِنْ لَدُنَّا كالقرآن، مَكْتُوباً فِي قِرْطاسٍ أي: في صَحِيفَةٍ صَالِحَةٍ لِلْكِتَابَةِ عَلَيْها.

القِرْطَاس: مُثَلَّث القاف، هو في اللُّغَةِ الصَّحِيفَةُ، يُكْتَبُ فيها.

• ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾: أي: فَرَأَوْهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَلَمَسُوهُ بأيْدِيهم، جاء التصريح بِلَمْسِ الْأَيْدِي، لِأَنَّ الْأَعْيُنَ قَدْ تَرَىٰ عَنْ طَرِيقِ السِّحْرِ مَا لَيْسَ لَهُ وُجُودٌ في الحقيقة، كما فَعَلَ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ إذْ سَحَرُوا أعْيَن الناس، ولكِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْحَرُوا مِنْهُمْ حَاسَّةَ اللَّمْس.

• ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: أي: لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْراً عِنَادِيًّا وإصراراً على بَاطِلِهم اتباعاً لِأَهْوَائهم، مَعَ عِلْمِهِمْ بالحقّ.

• ﴿... إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾: أي: مَا هَـٰذَا الكِتَابُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فِي قِرْطَاسٍ، إِلَّا عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِ السِّحْرِ الظَّاهِرَة المبينَةِ بأنَّها سِحْرٌ، وَلَيْسَ هُوَ كِتَاباً رَبَّانِيًّا، فَنَحْنُ لَا نُؤْمِنُ بِهِ، وَلَا نُصَدِّقُ مُحمّداً فِي ادِّعَاءِ أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُه. **مُبِينٌ**: أي: ظاهِرٌ واضِحٌ.

تَدُلُّ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَمْرَين:

الأَمْرُ الأوّل: تَيْئِيسُ الرَّسُول مِنَ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، ولَوْ جاءَهُمْ بما يَطْلُبُونَ مِنْ آيَاتٍ خَوَارِق مَا زَالُوا يُلِحُّونَ بِطَلَبِهَا عَلَىٰ سَبِيلَ التَّشَهِّي والتَّعَنُّت.

الأَمْرُ الثاني: إعْلَامُ المعنيِّينَ بِعِبَارَة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بأنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ عِنَادٍ وَمُكَابَرَةٍ وإصْرَارٍ عَلَىٰ الباطِلِ، وأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إِلَىٰ أدِلَّةٍ تُقْنِعُهُمْ بِصِدْقِ نُبُوَّةِ ورِسَالَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَصِدْق مَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، فالاسْتِجَابَةُ لِطَلَبِهِمْ الآياتِ الخوارِقَ عَبَثٌ لَا يَفْعَلُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ.

■ قول الله تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْ بَعْضِ مَطَالِبِ الَّذِينَ كَفَرُوا العنادِيَّة التَّعَنُّتِيَّة:

• ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾:

دلَّ هَـٰذَا البيانُ على أنَّ المعنيّين به، ما زَالُوا يُرَدِّدُونَ طَلَب إنْزَالِ مَلَكٍ مِنَ السَّمَاءِ، عَلَىٰ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لِيَتَّخِذُوا مِنْ عَدَم إنْزَالِ مَلَكٍ عَلَيْهِ تَعِلَّةً لِعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الحقّ.

فَقَدْ سَبَقَ أَنْ طَلَبُوا هَـٰذَا الطلب قَبْلَ نُزولِ سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) فأبان الله عزَّ وجلَّ طلبهم هَـٰذَا في الآية (٧) منها وطلبوا أيضاً إنزال الملائكة عليهم كما جاء في الآية (٢١) منها.

وكَرَّرُوا طَلَبَهُمْ هَـٰذَا قبل نزول سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) فأَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ طلبهم هذا وعلَّمَ رَسُولَهُ ما يَرُدُّ بِهِ عليهم في الآية (٩٥) مِنها.

وكَرَّرُوا طَلَبَهُمْ هذا قبل نزول سورة (هود/ ٥٢ نزول) فأَنْزَلَ اللهُ فيها تَعْلِيماً تَرْبويًّا لِرَسُولِهِ، يُبَيِّنُ لَهُ فِيهِ وظيفَتَهُ الإنذارِيَّةَ بالنِّسْبَةِ إلىٰ هؤلَاءِ المكابِرين المصِرِّينَ على باطلهم.

وكَرَّرُوا طَلَبَهُمْ هذا قبل نزول سورة (الحجر/ ٥٤ نزول) مسبوقاً بشتِيمَتِهِم للرَّسُولِ بأنَّهُ لمجنُون، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بما يُومِئُ إلىٰ أنَّهُمْ مُكَابِرُونَ، فلو أنّ اللهَ أنزلَ إلَيْهِم مَلَائِكَةً لَمْ يُؤْمِنُوا، ولاسْتَمَرُّوا علىٰ كُفْرِهم وعِنَادِهِمْ ومُقَاوَمَتِهِمْ لدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانيَّة، وهو ما جاء في الآيتين (٧ و٨) منها.

وأخيراً كَرَّرُوا طَلَبَهُمْ هَـٰذَا قَبْلَ نزول سُورَةِ (الأنعام/ ٥٥ نزول) فأَنْزَلَ الآيتينِ (٨ و٩) منها وأجَابَهُمْ بِمَا يُقْنِعُ طُلَّابَ الحق، وأنْزَلَ في الآية (١١١) مِنْها مَا يَكْشِفُ بصَراحَةٍ شَديدَةٍ لَا بأسْلُوبٍ إيمائي مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة، ولَوْ أنْزَلَ اللهُ لَهُمُ الملائكَةَ الَّتِي يَطْلُبُونَ إنزالَها، ولَوْ جَعَلَ الموتَىٰ تُكَلِّمُهُم، ولَوْ حَشَر عَلَيْهِمْ كُلَّ غَيْبِيٍّ فشَاهَدُوهُ.

وقد سبَقَ تَدَبُّرُ النُّصُوصِ الَّتِي جاءَتْ في سُور (الفرقان، والإسراء، وهُودٍ، والحِجْر) في مَوَاضِعِها مِن سُوَرِها.

وفيما يلي تَدَبُّر مَا جاء في سورة (الأنعام) الجاري تَدَبُّرُها.

● ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ . . .﴾: أي: وقَالَ أئِمَّةُ الكُفْرِ المشركون الْمُعَانِدُونَ المكابِرُون المصِرُّونَ على بَاطِلِهِم: هلَّا أنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ مَلَكٌ نُشَاهِدُهُ ويُخَاطِبُنَا، وَيَشْهَدُ لَهُ بأَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، ويُبَيِّنُ لَنَا مَطْلُوبات اللهِ مِنَّا، إنَّ عَدَمَ إنْزَالِ مَلَكٍ عَلَيْهِ دَليلٌ عَلَىٰ أنَّهُ غَيْرُ صادقٍ فِي نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِه، وفي بَلَاغَاتِهِ عَنْ رَبِّه.

فَرَدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَيْهِمْ بإجَابَتَيْنِ في قوله تعالى:

• ﴿... وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾:

أي: إنَّهُمْ فِي طَلَبِهِمْ إنْزَالَ مَلَكٍ مُتَعَنِّتُونَ، غَيْرُ صَادِقِينَ في ادِّعَاءِ أَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ إِذَا أَنْزَلَ اللهُ مَلَكاً كَما طَلَبُوا، إِذْ هُمْ مُكَابِرُونَ يَعْلَمُونَ صِدْقَ الرَّسُولِ وَيَجْحَدُونَه، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً عَلَىٰ وفْقِ طَلَبِهِمْ، فَلَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ إلَّا الْعِنَادُ والإصْرَارُ عَلَىٰ الكُفْر، وحينَئِذٍ يكونُ مِنَ الحكْمَةِ إنْهَاءُ مُدَّةِ إمْهَالِهِمْ فِي امْتِحَانِهِمْ، وَإِنْزَالُ العذابِ فِيهِمْ وإهْلَاكُهُمْ كَمَا حَصَلَ لثَمُودَ قَوْمِ النَّبِيِّ الرَّسُولِ صالِحٍ عليه السَّلام.

وبهذا أَرَىٰ أَنَّ الواو العاطفة في ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ يُمْكِنُ اسْتِنْبَاطُهُ بِالتَّأَمُّلِ الفِكري، فقَد صَحَّ عِنْدِي أَنَّ كُلَّ حُرُوفِ الْعَطْفِ قَدْ تَكُونَ فَصِيحَةً كَمَا قَالَ النَّحْوِيُّونَ والمفسِّرُونَ في الفاء.

• ﴿لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: أي: لَأُنْهِيَ أَمْرُ إمْهَالِهِم فِي امْتِحَانِهِمْ، ولَقُضِيَ فِيهم بالعذاب والإهْلَاكِ الشَّامل.

• ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ إصْدَارِ الْقَرَارِ بِتَعْذِيبِهِمْ وإهْلَاكِهِم، لَا يُؤَخَّرُ تَنْفِيذُ مَا تَمَّ بِهِ القضاءُ فَهُمْ لَا يُمْهَلُونَ.

الإنظار: الإمْهَالُ والتَّأْخِير.

هَٰذِهِ هي الإجَابَةُ الأُولَىٰ، دَلَّ عليها قولُ اللهِ تعالى: ﴿... وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

أما الإجابَةُ الثَّانِيَةُ فَقد دَلَّ عليها قول اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾:

اللَّبْسُ: خَلْطُ أمْرٍ بأمْرٍ، أو شيءٍ بشيءٍ، أو فِكْرَةٍ بِفِكْرَةٍ، وهذا

اللَّبْسُ ينجُمُ عَنْهُ جَهْلُ كُلٍّ مِنَ المخْتَلِطَيْن، أوْ جَهْلُ أَحَدِهِمَا، وَتَوَهُّمُ أَنَّهُ مِثْلُ المختلِطِ به، ومِنْهُ لَبْسُ الْحَقِّ بالباطل، للإيهام بأنَّ الباطل حقٌّ.

يقال لغة: «لَبِسَ فُلَانٌ عَلَىٰ فُلَانٍ الْأَمْرَ، يَلْبِسُهُ، لَبْساً» أي: خَلَطَهُ به لِكَيْ يُضَلِّلَهُ فَلَا يَعْرِف حَقِيقَته.

وهذا اللَّبْسُ مِنَ وَسَائِلِ المُضَلِّلينَ، الَّذِينَ يَعْتَمِدُونَ فِي تَضْلِيلَاتِهِم عَلَىٰ المغالَطاتِ والإيهَامَاتِ الكاذِبَات.

أي: ولَوْ جَعَلْنَا الرَّسُولَ الَّذِي نُرْسِلُهُ إِلَيْهِمْ مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكَة، لاقْتَضَىٰ وَضْعُهُمُ الَّذِي فُطِرُوا عَلَيْهِ، أَنْ نَجْعَلَهُ مُتَشَكِّلاً بِصُورَةِ رَجُلٍ من النَّاسِ، لأنَّ فِطَرَهُمْ لَا تُمَكِّنُهُمْ مِنْ رُؤْيَةِ الملائِكَةِ علَىٰ حَقِيقَةِ أَكْوَانِهَا النُّورَانِيَّة، مَا لَمْ تَتَشَكَّلْ بالْأَشْكَالِ الْجِسْمَانِيَّةِ، وأكْمَلُ مَا تَتَشَكَّلُ بِهِ صُورَةُ رَجُلٍ مِنَ الناس، لَا صُورة طَيْرٍ أَوْ دَابَّةٍ مِنْ دَوَابِّ الْأَرْضِ، وحِينَئِذٍ يَلْتَبِسُ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، ويَقُولُونَ: هَـٰذَا بَشَرٌ وَلَيْسَ مَلَكاً، وَتَعُودُ مُشْكِلَتُهُمْ إِلَىٰ نُقْطَةِ بدايَتِها.

إِذَنْ فَلَا فَائِدَةَ من الاسْتِجَابَةِ لِطَلَبِهِمْ على فَرْضِ صِدْقِهِمْ بِأَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ إِذَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مَلَكٌ.

إِنَّهُمْ في طَلَبِهِمْ يَلْبِسُونَ، فَيَخْلِطُونَ ظَاهِرَ اسْتِعْدَادِهِمْ لِأَنْ يُؤْمِنُوا إِذَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مَلَكٌ، بِحَقِيقَةِ إِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ الكُفْرِ جُحُوداً وعِنَاداً واتِّبَاعاً لِلْأَهْوَاءِ.

ولَوْ أَرْسَلَ اللهُ لَهُمْ مَلَكاً رَسُولاً عَلَىٰ شَكْلِ رَجُلٍ مِنَ النَّاسِ، لَلَبَسَ عَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا يَلْبِسُونَ، ولَيْسَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ أَنْ يَلْبِسَ عَلَىٰ عِبَادِهِ تَزْيِيفاً وَتَضْلِيلاً، أَوْ يَعْمَلَ عَمَلاً عَبَثاً لَا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ مِنْه.

■ قول الله تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ مُسَلِّياً، وَمُطْمْئِناً بِأَنَّه سَيَنْصُرُهُ، وَيَهْزِمُ ويُخْزِي مُكَذِّبيه:

• ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: لَا تَهْتَمَّ يا مُحَمَّدُ وَلَا تَحْزَنْ مِنْ أَجْلِ اسْتِهزَاءِ مُكَذِّبِيكَ مِنْ قَوْمِكَ فيما تُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ، فَلَقَدْ سَبَقَ فِي تاريخ الْأُمَمِ أَنَّ رُسُلاً كثيرينَ مِنْ قَبْلِكَ، قَد اسْتَهْزَأَتْ أَقْوَامُهُمْ بِمَا أَنْذَرُوهُمْ بِهِ، فَنَزَلَ بالمسْتَهْزِئين السّاخِرين ضِمْنَ سُنَّةِ رَبِّكَ ـ وَأَصَابَهُمْ وأحَاطَ بهم العذابُ والْهَلَاكُ الَّذِي كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئون، وَسُنَّةُ رَبِّكَ لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحويل.

يقال لغة: «حَاقَ بِهِ الأَمْرُ» أي: أَصَابَه وأَحَاطَ بِهِ، ولَزِمَهُ وَوَجَبَ عليه. «حَاق، يَحِيقُ، حَيْقاً، وحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً».

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأول من دُرُوس سورة (الأنعام).
والحمد لله على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.



(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُروس سورة (الأنعام) الآيتان (١١ و١٢)

قال الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾:

تمهيد:

آيتا هذا الدّرْس من فروع السَّاقِ الثاني من ساقَي السورة، وفي هذا الدّرس فِقَرَةُ تَوجيهٍ تعليميٍّ دَعَوِيّ للرّسول ﷺ، فلكُلِّ داعٍ إِلَىٰ دين الله

الحقِّ مِن أمَّتِهِ. وفيه بيانُ بعضِ ما ينبغي أَنْ يُحَدِّثَ المشركين به، ويحاوِرَهُمْ بِشَأْنِهِ جِدَالاً بالَّتِي هِيَ أَحْسَن.

التّدبّر التّحْليليّ:

مكذِّبُو الرَّسُولِ ﷺ في نُبُوَّتِهِ ورسالَتِهِ وَبَلَاغاتِهِ عن رَبِّهِ، سَبَقَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بِعِقَابٍ قَدْ يُنْزِلُهُ اللهُ بِهِم إذا تَمَادَوْا فِي كُفْرِهِمْ وَأَصَرُّوا عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ في الحياة الدُّنيا، فَيُهْلِكُهُمْ بِهِ، فلَمْ يَعْبَؤُوا بهذا الإنْذَار، بل اسْتَهْزَؤوا بِهِ وَسَخِرُوا مِنه، فَكَانَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يُرْشِدَهُمْ إِلَىٰ مُشَاهَدَةِ دَلِيلٍ مَادِّيٍّ مِنْ آثَارِ المُهْلَكِينَ المُكَذِّبين السَّابِقين لِرُسُلِ رَبِّهِم، وهي آثارٌ بَاقِيَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَاكِنِ كُفَّارِ الْقُرُونِ الماضِيَة، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ مُعَلِّماً مَا يَقُولُهُ لهم، لِيَحُثَّهُمْ عَلَىٰ السَّيْرِ في الأرْضِ حتَّىٰ يَصِلُوا إلَىٰ آثار المهلَكِين السَّابِقين، لِيَنظُرُوا بأعْيُنِهِمْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مُكَذِّبِي رُسُلِ رَبِّهِم السَّابِقِين:

- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾:

إنَّ مُشَاهَدَةَ آثارِ المهْلَكِين مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ تَحْتَاجُ سَيْراً في الْأَرْضِ، أي: في جَوِّ الْأَرْضِ الملْحَقِ بِها، وهو بمثابَةِ جُزْءٍ مِنها، فالْمَشْيُ فيه مشيٌ في الْأَرْضِ.

وجاء العطف بحرْفِ الْعَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالِّ علَىٰ التراخي في ﴿ثُمَّ انظُرُوا﴾ لحكْمَتَيْن:

الْأُولَىٰ: أَنَّ الآثَارَ قَدْ تَكُونُ بَعِيدَةً عَنْ المدْعُوِّينَ للسَّيْرِ فِي الأرْضِ، كالآثار الفرعَوْنية، وآثار قَوْمِ لُوطٍ، وآثار قَوْم صالح، فَلا يَنْطَبِقُ عليها العطف بالفاء، بل العطف بـ «ثُمَّ» لتدلَّ على بُعْدِ المسافة، والمراد بالنظر نظر الأعين.

الثانية: أَنَّ مِنَ آثار المهْلَكِينَ السَّابِقين مَا هو مَدْفُون في بَاطِنِ

الْأَرْضِ، وكَشْفُهُ يَتَطَلَّبُ تَنْقِيباً وَحَفرِيَّاتٍ يقُومُ بِها الباحِثُونَ عن الآثار، وهَـٰذَا يَحْتَاج أزْمَاناً يُلَائمُها التعبيرُ بـ «ثُمَّ».

﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾: أي: عَاقِبَةُ تكْذِيب المكَذِّبين، الَّذِينَ كذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهم، وكذَّبُوهُمْ بِمَا بَلَّغُوهُمْ عَنْهُ، فكَانُوا بِذَلِكَ كافِرِينَ كُفْراً عِنادِيًّا، فاسْتَحَقُّوا عِقَابَ اللهِ وَعذابَه، فَعَذَّبَهُمْ وأهْلَكَهُمْ إهْلَاكاً جماعيًّا، وَدَمَّرَ مُنْشَآتِهِمْ فِي دِيارِهم.

عاقبة عَمَل العامل: الْجَزَاءُ الَّذِي يكُونُ بَعْدَهُ، ويأتي عَقِبه، ولَوْ بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيّ.

■ وفي مُنَاظَرَةِ المشْرِكِينَ بِشَأْنِ شِرْكِهِمْ فِي رُبُوبيَّةِ اللهِ أَوْ فِي إلَـٰهِيَّتِهِ، أَعْطَىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إلى دينِ اللهِ الحقِّ من أُمَّتِهِ، تَعْلِيماً يَتَضَمَّنُ الْخُطْوَةَ الأولَىٰ لبَدْءِ المناظَرَةِ الَّتِي يُرادُ بها الإقْنَاعُ بالحقّ، وهَـٰذِهِ الخطوة تَسْتَدْعِي مَا وَرَاءَهَا مِنْ خُطُواتٍ تَتَّصِلُ بِها فِكْرِيًّا، فقال اللهُ له:

● ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ . . .﴾؟:

إنّ السُّؤال عمَّنْ يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، يَسْتَلْزِمُ الْبَحْثَ في الْخَالِقِ البارئ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه.

وإذَا ادَّعَىٰ المشركُونَ أَنَّ شُرَكَاءَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونها مِنْ دُونِ اللهِ تَمْلِكُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرض، أَوْ شَيْئاً ممَّا فيهما، فَلَنْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَأْتُوا بِدَلِيلٍ يُثْبِتُ أَنَّها خَلَقَتْ شيئاً فيهما، حَتَّىٰ تَكُونَ مَالِكَةً لَهُ.

وَبالْعَجْزِ عَنِ الإتيانِ بالدَّلِيل، يَكُونُ ادِّعَاءُ رُبُوبِيَّتِها لِشَيْءٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وامتِلَاكها لَهُ ادّعَاءً سَاقطاً لَا دَلِيل عليه، وإذا سَقَطَتْ رُبُوبيَّتُها سَقَطَتْ إلَهِيَّتُها باللُّزُوم الْعَقْلِيّ، لِأَنَّ الإلَهِيَّة حَقُّ الرُّبُوبِيَّة.

وبما أَنَّ المشْرِكِينَ يُؤْمِنُونَ باللهِ الرَّبِّ خَالِقاً مَالِكاً لِمَا خَلَقَ، فَعَلَىٰ مُنَاظِرِهِمْ أَنْ يَنْتَزِعَ عَنْ طَرِيق طَرْحِ الْأَسْئِلَةِ الإلْزَامِيَّةِ، اعْتِرَافَهُمْ بأَنَّ اللهَ

خَالِقُ كُلِّ شيْءٍ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَرَبُّ كُلِّ شَيْء فيهما، فإذا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ لَزِمَهُمْ عَقْلاً بأَنْ يَعْتَرِفُوا بِمِلْكِيَّةِ اللهِ لِكُلِّ مَا في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ.

ولمَّا كَانَ مِنْ بَدَهِيَّاتِ الْعُقُولِ أَنَّ المالِكَ هُوَ الَّذِي لَهُ حَقُّ التَّصَرُّفِ فيما يَمْلِكُ، لَزِمَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بأَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ غَيْرُ اللهِ يَتَصَرَّفُ في مِلْكِ اللهِ إلَّا بِمَا أَذِنَ هُوَ به.

وَقَدْ جَاءَتِ الْبَيَانَاتُ عَنِ اللهِ بأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ حَقَّ التَّصَرُّفِ في كَوْنِهِ، إلَّا ضِمْنَ حُدُودِ الأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي تَسْتَوِي فيها الْخَلَائِقُ جَمِيعاً بِحَسَبِ الطَّاقَاتِ الممنوحَةِ لَهُمْ، أَوْ ضِمْنَ حُدُود الآياتِ الخوارِقِ الَّتِي يُؤَيِّدُ اللهُ بِها رُسُله بإذْنٍ مِنْهُ، وأَوَامِرَ يَأْمُرُهم بها، وَمَعَ ذَلِكَ يكُونُ الفِعْلُ فِعْلَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

وحِينَ يُقِرُّ الْمُنَاظَرُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، بأَنَّ مَا فِي السَّمَاوَات والأَرْضِ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ وَمِلْكٌ مِنْ مِلْكِهِ، فَعَلَىٰ المناظِرِ المؤمِنِ أَنْ يُعْلِنَ هَـٰذِهِ الحقيقة ويُثَبِّتَها، دَلَّ عَلَى هَـٰذَا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ في الآية له:

﴿قُل لِّلَّهِ﴾: أي: أَعْلِنْ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةَ وأَثْبِتْهَا.

وبَعْدَ إثْبَاتِ هَـٰذِهِ الْحَقِيقَةِ وَلَوَازِمِهَا، يَنْبَغِي للدَّاعِي إلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ أَنْ يُتَابِعَ دَعْوَتَهُ لِلْمُشْرِكِينَ للدُّخُولِ في الإسْلام، فَجَاء فِي التَّعْلِيمِ التَّوجِيهُ لِعَرْضِ ثَلَاثَةِ بَيَانَاتٍ دَعَوية:

البيان الأوّل: التَّبْشِيرُ بِرَحْمَةِ اللهِ الواسعة، وقَبُولِهِ توبَةَ التائبين من سَوابِق كُفْرِيَّاتِهِم، دَلَّ عليه قول الله تعالَىٰ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجب الله على نَفْسِهِ الرَّحْمَة وكَتَبَ هَـٰذَا في اللَّوحِ المحفوظ، ومِنْ رَحْمَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنَّ مَنْ كَانَ كافراً ومُرْتكباً مِنَ الآثام كبائِرَ كثيرةً، ثُمَّ آمَنَ وأَسْلَمَ طَائِعاً مُخْتَاراً قَبْلَ أَنْ يُلامِسَ عَتَبَةَ الموت، فإنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ، ويَغْفِرُ خَطَايَاهُ، فالإسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ من الذُّنُوب.

وهذا من اللهِ إطماعٌ عظيم بوَعْدٍ كريم للكَفَرَةِ المجرمين بأنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِموا.

البيان الثاني: التذكير بيوْمِ الدِّينِ بَعْدَ البعْثِ من الموت، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء، وأنَّ ذَلِكَ حَقٌّ لَا شَكَّ فيه، دَلَّ عليه قول الله تعالى في التعليم: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: أأكّدُ لَكُمْ بالقسم: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ فاللّامُ واقِعةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيّ، أي: لِيَجْمَعَنَّكُمْ بَعْدَ الْبعْثِ ولِيَسُوقَنَّكُمْ، إلَىٰ مَوْقِف الحساب وفَضْلِ القضاء.

الجمع والسَّوقُ جاء التعبير عنهما في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ بالحشْرِ، فالحشْرُ في اللُّغَةِ هو الْجَمْعُ والسَّوقُ.

وفي العبارة هُنَا حَذْفٌ يَكْشِفُهُ مَا جاء في نُصُوصٍ أخرى: فالمعنى مع إبراز المحاذيف: ليجمَعَنَّكُمْ مَسُوقِينَ إلى مَوْقِفِ الحساب وفَصل القضاء يَوْمَ القيامَة، وكُلُّ ذَلِكَ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ بِهِ بيانَاتٍ كثيراتٍ، وبلَّغَهُ رُسُل اللهِ لِأَقْوَامِهِم.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: لَا شَكَّ فيه، **فالرَّيْبُ**: هو الشّك، ونفي الشَّكِّ يُفِيدُ يَقِينَ صِدْقِ الخبر.

البيانُ الثالث: التحذيرُ الشَّدِيدُ مِنْ خُسْرَانِ الْأَنْفُسِ كُلِّها لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا يَجِبُ الإيمان به في دِينِ اللهِ لعبادِهِ، دَلَّ عَلَيْهِ قول الله في التعليم: ﴿... ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾: أي: الَّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ أَنْفُسِهِمْ بِرُكُوبِهِمْ مَرْكَبَةَ أَهْوَائِهِم وشَهَواتِهِم وحُبِّهِمْ للعاجلة الفانِيَةِ، وتَرْكِهِمْ لِلآخِرَة، فَهي تَجْري بِهِمْ حَتْماً إلَىٰ عَذَابٍ خَالِدٍ فِي نَار جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِين، لَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا يَدْفَعُهُمْ إلَىٰ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ مهما دَفَعَتْهم الحجج، وَوُجِّهَتْ لهم الموعِظُ والإنْذَارات، فعرَّضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه.

قُصِدَ باسْم الموَصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ رَائِحَةُ مَعْنَىٰ الشرط، فجاءَتِ الفاء في جملة الخبر كأنها جواب الشرط.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني.

والحمد لله على معونَتِهِ ومَدَدِهِ وتوفيقِه وفَتْحِهِ.



(٧)
التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (الأنعام)
الآية (١٣)

قال الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾:

تمهيد:

هَـٰذِهِ الآية من فروع السَّاق الأوّل من سَاقَيْ شَجَرَة موضوعِ السورة، وفيها بيانٌ تَكميليٌّ رَبَّانيٌّ مُبَاشِرٌ مَوْصُولٌ فِكْرِيًّا بِبَعْضِ مَا جاء في الدرس الثاني، يُبَيّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها مِلْكِيَّتَهُ لكُلِّ مَا يُرَىٰ أَنَّهُ سَاكِنٌ فِي اللَّيْلِ والنَّهارِ، وأَنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا يُسْمَع، والْعَلِيمُ بِكُلِّ مَا يُعْلَم، كَما أنَّ لَهُ كُلَّ مَا تَحرَّكَ وهُوَ ما جاءَ بَيانُهُ مِنْ أَنَّ اللهَ مالِكُ كُلِّ شيءٍ في السَّمَاواتِ والأرض، وجاء هنا النصّ علىٰ السَّاكِنِ لدفعِ توهُّمِ أنّ السَّاكِنَاتِ خارجات عن مِلْكِ الله.

السُّكُونُ والْحَرَكَة:

دراسَةُ الْأَشْيَاءِ الْمَادِيَّةِ فِي الكَوْنِ دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ دائِمُ الحرَكَةِ، من نَوَاةِ الذَّرَّةِ وألكترونَاتِهَا حَتَّىٰ أعْظَمِ الْمَجَرَّاتِ.

وأَنَّ مَا يَبْدُو أَنَّهُ ساكِنٌ فِي الْكَوْنِ فَإِنَّ سُكُونَهُ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ، أي: هُوَ مُتَحَرِّكٌ في ذَاتِهِ، ويُرَىٰ أَنَّهُ سَاكِنٌ في الظَّاهِرِ، أو بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ حَرَكَةِ غَيْرِهِ فِي خِدَاعٍ بَصَرِيّ يُرَىٰ أَنَّهُ ساكِن.

ومِنَ السُّكُونِ النِّسْبِيّ أَنْ يَتَوَقَّفَ الكائِنُ الحيُّ عَنِ الْحَرَكَةِ بأعضائِهِ لِينَالَ مَا يَطْلُبُهُ من دُنياه، فَيلْجَأَ إِلَىٰ الرَّاحَةِ والنَّوْم، ومِنْهُ المَوْتُ الَّذِي تَتَوَقَّفُ بِهِ حَرَكَةُ الحياة، دُونَ أَنْ تَتَوَقَّفَ ذَرَّاتُ جَسَدِ المَيِّتِ عن حركاتِها الَّتِي هِيَ مِنْ جِنْسِ حَرَكاتِ ذَرَّاتِ المادِّيَّاتِ غَيْرِ الحيَّةِ.

ويَدُلُّ عَلَىٰ هَـٰذَا السُّكُونِ النِّسْبِيّ قَيْدُ ﴿فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ لِأَنَّ جَمِيعَ الكائِنَاتِ الْحَيَّةِ في الأرْضِ، تَحْتَاجُ إلى سُكُونٍ نِسْبِيٍّ لِتَأْخُذَ نَصِيبَها مِنَ الرَّاحَةِ اللَّازِمَةِ لِحَيَاتِها، ومِنْهَا مَا يَسْكُنُ لَيلاً، ومِنْهَا مَا يَسْكُنُ نهاراً.

وهَـٰذِهِ جَمِيعُها مِلْكٌ للهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ ولَوْ كَانَتْ مِنَ الْأَحْيَاء الصُغْرَىٰ الَّتِي لَا تُرَىٰ بأبصار الناس، كالأحياء المجهريَّة.

وبما أَنَّهَا مِلْكُهُ تبارَكَ وَتَعالَىٰ فَهُو يَرْعَىٰ أقْواتَها لِحَيواتِها، ويُهَيِّئُ لَهَا مَطَالِبَهَا على وفْقِ حِكْمَتِهِ، وهو الذي أحْيَاها وهو الذي يُمِيتُها، وهو السَّمِيع لأصواتها، وهو العليم بكل أحْوالِهَا الظَّاهِرَةِ والباطِنَة.

وهُنَا يَتَّسِعُ إدْراكُنَا مَعَ العلُوم المعَاصِرَةِ، ليشْمَلَ المِكْرُوبات والفَيْرُوسَاتِ، ومَا يُمْكِنُ أَنْ يُكْتَشَفَ ممَّا هُو أصْغَرُ مِنَ الفيروسات.

كُلُّ ذَلِكَ هُوَ مَخْلُوقٌ للهِ وَمَمْلُوكٌ له، وهُوَ جَلَّ جَلالُهُ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِ والمتَصَرِّفُ فِيهِ، إيجاداً وإعْدَاماً، ورِزْقاً وتَسْيِيراً وحَيَاةً وَمَوْتاً، وحَرَكَةً وسُكُوناً، ونفعاً وضَرًّا، وغير ذلك.

ولَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ يَكُونَ في عالَم الغَيْبِ عَنّا أَشَيْاءُ هِيَ مَخْلُوقَةٌ للهِ وَمَمْلُوكَةٌ لَهُ، وهي ذَاتُ سُكُونٍ تَام، ونَحْنُ لَا نَعْلَمُهَا، ولا نَعْلَمُ تَأْثِيراتٍ لها فِينا بقضاءِ اللهِ وَقَدَرِه، فكثِيرٌ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ لَمْ يُهَيِّئِ اللهُ لَنا وَسَائِلَ إِدْرَاكِها وَلَا الْعِلْم بها.

أَمَّا الأكْوانُ الَّتِي أعْطَانَا اللهُ عزَّ وجلَّ وَسَائِلَ الْعِلْم بها، فقَدَ دَلَّتْنا وَسَائِلُ المعرفةِ الإنْسانِيَّةِ عَلَىٰ أَنَّها دَائِمَةُ الْحَرَكَةِ، وأنَّ مَا يَسْكُنُ مِنْهَا فَهُوَ

ذُو بُطْءٍ نِسْبِيٍّ فِي حَرَكَتِهِ الْكُلِّيَّةِ، لا في حَرَكَاتِ خلاياهُ وذَرَّاته. والله أعلم.

وبهذا أُتِمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثالث من دُرُوس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتَوْفِيقه وفتحه.



(٨)
التدبّر التحليلي للدّرْس الرابع من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٤ ـ ١٦)

قال الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾:

القراءات:

(١٤) • فتح ياء المتكلم من: **[إِنِّيَ أُمِرْتُ]** نَافع، وأبو جعفر.

وأسْكَنَهَا بَاقي القراء العشرة.

(١٥) • فتح ياء المتكلم مِنْ: **[إِنِّيَ أَخَافُ]** نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

(١٦) • قرأ شعبة، وحَمْزَةُ، والكِسَائي، ويَعقوب، وخَلَف: **[مَنْ يَصْرِفْ]** بالبناء للمعلوم، أي: مَنْ يَصْرِف رَبِّي عَنه العذاب.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مَنْ يُصْرَفْ]** بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

ومؤدَّىٰ القراءتين واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

تمهيد:

آيَاتُ هذا الدَّرْس مِنْ فروع السَّاق الثَّاني من سَاقَيْ شجرة موضُوع السّورة، وفيها فِقَرَةُ تَعْلِيم جداليّ، وتعليم دَعَويٍّ من الله عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ، كَيْ يُوَجِّهَهُما لمشْرِكي قَوْمِهِ، وعلَىٰ كُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ وإلى دِينِهِ الْحَق أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْهَا في دَعْوَته، وفي مُجَادلاته.

التّدبّر التحليلي:

مِنْ حكْمَةِ المناظر الداعي إلى اللهِ ودِينِهِ الحقِّ، أنْ يُقَدِّمَ بُرْهَانَهُ الّذي اهتَدَىٰ بِهِ إلَى الإيمان باللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، رَبًّا لا يُشَارِكُهُ في رُبُوبيّتِهِ أحَد، وإلَهاً مَعْبُوداً لَا يُشَارِكُهُ في إلَهيّتِهِ أحد.

هَـٰذِهِ هي القاعِدَةُ الأَسَاسُ في الفكْرِ الدينيِّ الحقِّ كُلّه، وعليها تبنَىٰ جَمِيعُ أَبْنِيَةِ الدِّينِ، وتَعْلِيمَاتِهِ، وشرائِعِهِ، وأحكامه.

فجاء في التعليم، قول الله تَبَارَكَ وتعالى:

• ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ . . . ﴿١٤﴾﴾.

عَرْضٌ بأسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبِيِّ الإنكاري، أي: أيَصِحُّ ويجوزُ لِي عَقْلاً فِي مُحَاكَمَاتِ الْعَقْلِ السَّلِيم، أَنْ أَتَّخِذَ وَلِيًّا مَعْبُوداً لِي وهو مخلُوقٌ مِثْلِي مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ الكَثِيرَةِ، فاللهُ هُوَ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وكُلُّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللهِ هُوَ جُزْءٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ والأرض الَّتِي فَطَرَهَا اللهُ؟؟.

كيْفَ يَسْتَقِيمُ لي أَنْ أتْرُكَ الفاطِر، وأعْبُدَ المفْطُور، أَوْ أَنْ أَجْعَلَ المفْطُورَ شَرِيكاً لِلْفَاطِرِ في إلَهِيَّتِهِ، وهُوَ لَا يَمْلِكُ مِنَ الرُّبُوبيَّةِ شيئاً؟؟.

قُدِّمَ الْمَعْمُولُ، وسُلِّط عَلَيْهِ الاستفهام في عبارة: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ فَأصْلُ تَرْتيب العبارة: «أأتّخِذُ وَلِيًّا غَيْرَ الله» للْبَدْءِ بالإِشْعَارِ، بِمَنَاطِ الاسْتِنْكَارِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ اللهِ مُتَّخذاً مَعْبُوداً، وَلَيْسَ الاستنكار مُوَجّهاً لاتخاذِ الْوَلِيّ المعبود.

فعْلُ «اتَّخَذَ» يَنْصِبُ مفْعُولَيْنِ، مثل فعل «جَعَلَ» وفي صِيغَة «اتَّخذَ» معنَىٰ التصَنُّعِ والتَّكَلُّف، ويُحْمَل هنا على ما هُو منافٍ لموازينِ العقل بالقرائن.

﴿وَلِيًّا﴾: **الْوَلِيُّ**: يأتي في اللُّغَةِ للدَّلاَلَةِ عَلَىٰ معانٍ عَدِيدَة، مِنها الرَّبّ، والمعبودُ، والسّيدُ، والنَّصير، والمُلائم هُنَا: الإلَه الْمَعْبود.

﴿فَاطِرِ﴾: **الفاطر**: هو الخالِقُ عَلَىٰ نِظامِ الْفَطْرِ مِنَ الْعُمْقِ إلى الظَّاهِر، وجاء التعبير في القرآن بعبارَة «الْفَلْق» ومَعْنَاهُمَا: «الشَّقُّ».

ودَلَّتْ الظَّاهرات الكونيَّة والنصوص القرآنيّة على أنّ خَلْقَ اللهِ لِكَوْنِهِ قَائمٌ على نظام الْفَطْرِ والْفَلْق، لِأَنَّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ مِنْ كُلِّ شيءٍ هي الْعَدَم، واللهُ جلَّ جلالُهُ، وعَظُمَ سُلْطانه، وبَهَرَتْ قُدْرَتُهُ، هو الْمُوَجِدُ من الْعَدَمِ، لَا رَبَّ غَيْرُه، ولا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سواه.

ولَمَّا كان من الحَاجَاتِ الدائماتِ للنَّاسِ ولسائر الأحياء سُكّانِ الأرْضِ، أنْ يَطْعَمُوا طَعَاماً لإمْدَادِ حيواتِهِمْ بالغِذَاءِ إلى آجالِهِم المحددةِ بقضاء اللهِ وَقَدَرِهِ، وَكَان طَعَامُهُمْ لَا يَتَحقَّقُ إلَّا بِخَلْقِ اللهِ، فيما دَبَّرَ لَهُمْ مِنْ وَسَائِلَ وأَسْبَاب، وَلَمَّا كَانَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ صَمَداً يُطْعِمُ مَخْلُوقَاتِهِ، وهُوَ لَا يُطْعَمُ، ولَا يَحْتَاجُ لِمَنْ يُطعِمُهُ، عَلَىٰ خِلَافِ آلِهَةِ المشركين، كَانَ مِنْ حِكْمَةِ الدَّاعِي إلَىٰ عبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَنْ يُبَيِّنَ هَـٰذِهِ الصِّفَة من صِفَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهِيَ أَنَّهُ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، وَيَلْزَمُ عَنْ كَوْنِهِ لَا يُطْعَمُ أَنَّهُ لَا يَطْعَمُ، لِأَنَّهُ لَوِ احْتَاجَ طَعَاماً لَكَانَ مُطْعَماً مِنْ مَادَّةِ الشَّيْءِ الَّذِي هُوَ طَعَامُهُ.

وبهَـٰذَا الْعَرْضِ يُعْرِبُ المؤمِنُ عَنْ دَلِيلِهِ الْعَقْلِيِّ، الَّذِي اهْتَدَىٰ بِهِ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ في رُبُوبِيّتِهِ، وتَوْحِيدِهِ في إِلَهِيَّتِهِ.

وقد يَهْتَدِي بهذا الأُسْلُوبِ الَّذِي لَا يُبَاشِرُ بِهِ الدَّاعِي جِدالاً مَعَ المدْعُوّ، بَعْضُ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ تَحَمُّلاً جَدَلِيًّا يَكُونُونَ فِيه مَهْزُومِين فِكْرِيًّا فِي نِهَايَةِ جَوْلَاتِ المجادَلَةِ والمناظَرَة.

ولِدَفْعِ شُكُوكِ الناسِ في الدُّعَاةِ، وأَنَّهُمْ قَدْ يَدْعُونَ النَّاسَ إلى مَا لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَلْتَزِمُوا بِهِ مِنْ تَكَالِيفَ، جَاءَ في التعليم الرَّبَّانِيِّ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿... قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾:

أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ: إنِّي أُمِرْتُ بالْوَحْيِ مِنْ رَبِّي أَنْ أكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ لَهُ في هَـٰذِهِ الْأُمَّةِ، مُطِيعاً لِأَوَامِرِهِ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُنِي بِهِ، وَتَارِكاً لِكُلِّ مَا يَنْهَانِي عَنْهُ، فَأَنَا بإسْلَامِي لِرَبِّي قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ لِسَائِرِ المسْلِمِينَ مِنْ أمَّتِي.

وقُلْ يَا مُحَمَّدُ قَالَ لِي رَبِّي وحْياً: لَا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين، فَنَهَانِي رَبِّي عَنِ الشِّرْكِ كُلِّه، كما أمَرَنِي أن أبلِّغَكُمْ نَهْيَهُ لِي عَنِ الشِّرْكِ كُلّه، وأَمَرَنِي أن أنْهَاكُمْ عَنِ الشِّرْكِ كلّه.

فأَنَا أَوَّلُ المأمُورين بالإسْلَام، وأوَّلُ المنهيّينَ عن الشّرك، فأَنَا أَوَّلُ المسلمين، وأوَّلُ الموحِّدِينَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِين، أُومِنُ بأَنَّهُ لَا رَبَّ في الوجود غيره، ولا إلَهَ يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَدَ فِي الوجود سواه.

الإسلام: هو الانقيادُ والطَّاعَةُ لِلْأَوامِرِ والنَّواهِي، يقال لغة: «أَسْلَمَ، يُسْلِمُ، إسْلَاماً» أي: انْقَادَ مُطِيعاً مُسْتَسْلِماً، لَا عَاصِياً ولَا مُعْتَرِضاً.

ولهذا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوَّلَ الْعَامِلِينَ بأحْكَام شَرِيعَةِ اللهِ لِعِبَادِهِ، في كُلِّ أُمُورِهِ، في الْأَفْعَالِ، والْأَقْوَالِ، والتُّرُوْكِ، وسائِرِ أَنْوَاعِ السُّلُوكِ الظَّاهِرِ والْبَاطِنِ، في الجوارح وفي داخِلِ النفس.

ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾:

الأسْوَة: القُدْوَة، وهُوَ مَنْ يُتَأَسَّىٰ ويُقْتَدَىٰ به.

ولـمَّا كَانَ الرَّسُولُ غَيْرَ مُعْفًى مِنَ المؤاخَذَةِ والْعَذَابِ بِسَبَبِ كَوْنِهِ رَسُولاً، فيمَا لَوْ عَصَىٰ رَبَّهُ، جاء في التعليم الرَّبَّانِي له قَوْلُ اللهِ لَهُ:

• ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ: أَنَا مِثْلُكُمْ عُرْضَةٌ لِعَذَابِ رَبِّي إنْ عَصَيْتُهُ فخالَفْتُ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، فأنَا أخَافُ إنْ عَصَيْتُهُ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، هُوَ عَذَابُ يَوْمِ الدِّين، بَعْدَ البعْثِ للحياة الأخرى.

وأقُولُ لَكُمْ أيضاً نَاصِحاً وَمُبيّناً: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ عَذَابُ اللهِ في ذَلِكَ الْيَوْمِ العظيم فَقَدْ رَحِمَهُ رَبُّهُ بالْمغْفِرَةِ لِذُنُوبِهِ، لأنَّ كُلَّ بَنِي آدَمَ خطَّاؤون، وَخَيْرَ الخطَّائِينَ التَّوَّابُونَ المستغْفِرُونَ.

وَذَلِكَ الْأَمْرُ الرَّفِيعُ الشَّأْنِ، وَهُوَ صَرْفُ الْعَذَاب عَنِ المذنبِينَ يَوْمَ الدِّينِ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ الواضِحُ الْجَلِيّ، الذي يَسْتَلْزِمُ الظَّفَرَ بجنَّات النعيم.

الْفَوْز: النَّجاةُ من الشّرّ، وحصولُ الرِّبح، يقال لغة: «فَازَ، يَفُوزُ، فَوْزاً، وَمَفَازاً، وَمَفَازَةً» أي: نَجا مِنَ الشرّ، ورَبحَ.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الرابع من دُرُوس سورة (الأنعام).

والحمدُ لله على مَعُونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتْحه.

❋ ❋ ❋

(٩)
التدبّر التحليلي للدّرس الخامس من دُروس سورة (الأنعام)
الآيتان: (١٧ و١٨)

قال الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾:

تمهيد:

آيتا هذا الدرس من فروع السّاقِ الأوّل من سَاقَيْ شجرةِ موضوع السورة، وفيهما فِقَرَةُ عِلاجٍ رَبَّانِيٍّ مباشر، يُخاطب اللهُ عزَّ وجلَّ بِهِ كُلَّ صالحٍ مُؤَهَّلٍ للخطاب، ويُبَيِّنُ فيه سُلْطانَهُ علَىٰ كلِّ التصارِيفِ في كَوْنِهِ، ضَارِّهَا وَنَافِعِها، خَيْرِها وشَرِّها، علىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ، وَيُبَيِّن فيه أَنَّهُ الْقَاهِرُ عَلَىٰ عِبَادِهِ، يُجْرِي تَصَارِيفَهُ الحكيمةَ فِيهِمْ بالْجَبْرِ، وأَنَّهُ الحكِيمُ في أَفْعَالِهِ، الخبيرُ بِعِبَادِهِ وبكُلِّ شيء، جَلَّ جَلَالُهُ وعظُمَ سُلْطانه.

التّدَبّر التحليلي:

المسُّ: وُصُولُ سَطْحِ شَيْءٍ ما إلى سَطْحِ شيءٍ آخر، دونَ الدُّخولِ فِي شيءٍ ما هُوَ تَحْتَ السَّطْح، ويَنْجُمُ عَنْهُ أَخَفُّ دَرَجاتِ الإِحْسَاسِ أو التأثير، وأُطْلِقَ الْأَخَفُّ وهو المَسُّ هُنَا في النّصّ، لِيُفْهَمَ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ مِنْ بَابٍ أَوْلَىٰ.

الضُّرُّ: سُوءُ الحالِ في الْبَدَنِ، أو المالِ، أو الأهل، أو الْوَلَدَ، ونحو ذلك.

ومن سوء الحال شِدَّةُ الحاجَةِ إِلَىٰ الْقُوتِ، ويُطْلِقُ عليها الناسُ لفْظَةَ شرٍّ ولَوْ كانت في حقيقةِ الْأَمْرِ خيراً.

الْخير: يُرَادُ بِهِ هُنَا مَا تُحِبُّهُ النُّفُوسُ، ويَرَىٰ فيهِ الناس نَفْعاً وحُسْناً ولَذَّةً مِنْ مَتَاعِ الحياة الدّنيا، ولَوْ كان جَالِباً لآلَامٍ وأضرارٍ حَقِيقِيَّةٍ غيرِ مَنْظورَةٍ، أو غَير مُدْرَكَةٍ، أو في المستقبل، فهي في الحقيقة شَرٌّ.

• ولمَّا كَانَ المشْرِكون يَعْتَقِدُونَ أَنَّ آلِهَتَهُم الَّتِي يَعْبُدُونَها من دُون الله تَنْفَعُ وَتَضُرُّ، ومِنْ نَفْعِهَا أَنَّهَا تَكْشِفُ الضُّرَّ إذَا نَزَلَ بعابِديها، وتَمْنَعُ الْخَيْرَ عَنِ المؤْمِنينَ الْمَوَحِّدِينَ الكافِرِينَ بها، كَان مِن الحِكْمَةِ فِي مُعَالَجَتِهِمْ بِالْبَيَانِ الرَّبَّانِيِّ أَنْ يُخَاطِبَ اللهُ عزَّ وجلَّ كُلَّ صَالِحٍ لِلخِطَاب بِقَوْلِهِ:

• ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾:

أي: وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ المتَصَرّفُ بِعِبَادِهِ عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ في دُنْيَا الابْتِلَاءِ، مَسًّا خَفِيفاً بِشَيْءٍ تَكْرَهُهُ وَتَرَاهُ ضُرًّا، فَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ في الكَوْن يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْشِفَهُ عَنْكَ إلَّا بإذْنِهِ وَتَمْكِينِهِ، وتقديره وقَضَائه، فَكَيْفَ لَوْ كَانَ إصَابَةً دَاخِلَةً إلَىٰ الْعُمْقِ؟!

كَشْفُ الضُّرِّ والسُّوءِ: إزالَتُه: **وأَصْلُ الكشْف**: رفع الغطاء عن الشَّيْء.

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بما تُحِبُّ من الدُّنيا، وتراهُ خَيْراً لَكَ، فَلَا مُزِيلَ لَهُ إلَّا هُوَ، فكَيْفَ لَوْ كَانَ إصَابَةً دَاخِلَةً إلى الْعُمْق؟!

طُوِي في العبارة الثانية جَوَاب الشّرْطِ «إنْ» لدَلَالَةِ العبارة الأولىٰ عَلَيْه، وأفصَحتْ عَنْ هذا المطويّ الفاء في ﴿فَهُوَ﴾.

ودَلَّت عبارة: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: علَىٰ أَنَّ الله جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لَا يُعْجِزُهُ إيجادُ شيءٍ يُريدُ إيجاده، ولا إعْدَامُ شيءٍ يُرِيدُ إعْدَامَهُ، ولَا التَّصَرُّفُ بشَيْءٍ من الذَّواتِ أو الصِّفَاتِ يُرِيدُ فِيهِ مُرَاداً مَا، إِنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُون.

قَدِير: صيغةُ مبالغة لاسم الفاعل «قادِر» ـ أي: هو مُتَّصِفٌ بالْقُدْرَةِ الْكَامِلَة الَّتِي يَخْلُقُ بِها مَا يَشَاءُ، ويَفْعَلُ بها ما يُرِيد، ولَا شَكَّ أَنَّ كُلَّ مُرَادَاتِ اللهِ حَكِيمة.

• ولِدَفْعِ تَوَهُّم أَنَّ بَعْضَ عِبَادِ اللهِ الَّذِينَ هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، لَهُمْ قُدْرَاتٌ مَحْدُوْداتٌ عَلَىٰ التصرُّفِ بشيْءٍ ما فِي الوجود على غَيْرِ مُرَادِ اللهِ وبغَيْرِ إِذْنِهِ، الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ يُسَوِّغُ للمشْرِكِينَ أَنْ يَتَعَلَّقُوا بِهِمْ، ويَلْتَمِسُوا عِنْدَهُمْ جَلْبَ نَفْعٍ أَوْ دَفْعَ ضُرٍّ، كانَ من الحِكْمَة في الْبَيَانِ الرَّبَّانِي المباشر، أَنْ يَقُولَ اللهُ عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾:

﴿ٱلْقَاهِرُ﴾: الآخِذُ الْغَالِبُ الْعَلِيُّ مِنْ غَيْرِ رِضَا المقْهُورِ المغْلُوبِ، فَفِي الْقَهْرِ مَعْنَىٰ الْجَبْرِ. **والْقَهَّارُ**: الغالِبُ المجْبِرُ على ما يريد، وهو من أسماءِ اللهِ الحسنى.

أي: واللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُجْرِي تَصارِيفَهُ الْجَبْرِيَّةَ بِعبادِهِ كُلِّهِمْ دُونَ اسْتِثْنَاءٍ، بالْقَهْرِ والْغَلَبَةِ المستَعْلِيَةِ على كُلِّ فَرْدٍ مِنْهم، فَلَا يُمَكِّنُ أحداً ذَا مَشيئَةٍ حُرَّةٍ مِنْ تَصرُّفٍ بِمَشيئَتِهِ وبِمَا وَهَبَهُ اللهُ من قُدْرَة، أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، وَمَنْ أَرَادَ شَيْئاً من ذلِكَ نَزَعَ اللهُ مِنْهُ التَّمْكِينَ بالْقَهْرِ والْجَبْرِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُحقِّقَ مُرَاده، فاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عباده، لا يُشارِكُهُ في قَهْرِهِ أحد.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾: أي: وهو تَبارَكَ وتَعالَىٰ الحكِيمُ في كلِّ تَصارِيفِهِ فِي كَوْنه، ومِنْها تَصارِيفُه بِعِبَادِه. الْخَبِيرُ بِعِبَادِهِ وبما يُلائِمُ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ.

الحكيم: هو الذي يضَعُ الأشياءَ فِي مواضعِها، ويختارُ أفضلَ الأشياءِ وأَتْقَنها وأحْسَنَهَا فِي الْأُمُورِ المختَلِفَةِ، لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النتائج،

حكيم: بمعنى مُحْكم، على وزْنِ مُفْعِل، من أحْكَمَ الشيء بمعنى أتْقَنَهُ وأحْسَنَهُ ووضع كلّ شيءٍ فيه في موضعه.

الخبير: هو العَليمُ بالْأَمْرِ أو بالشيءِ عَنْ تَجْرِبَةٍ وَمُمَارَسَة.

وقد دَلَّ تعريف طرفَيِ الإسناد على القصر في كِلَا الْجُمْلَتَيْنِ.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الخامس من دُرُوس سورة (الأنعام).

والحمدُ لله على معونته ومَدَدِهِ وتَوفِيقه وفتحه.



(١٠)
التدبّر التحليلي للدّرس السادس من دُروس سورة (الأنعام)
الآية (١٩)

قال الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾:

القراءات:

قرأ ابْنُ كثير: [**الْقُرَانُ**] بِحَذْفِ الهمزة، وكذلِكَ قرأها حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**الْقُرْءَانُ**].

تمهيد:

آيَةُ هَـٰذَا الدَّرْسِ مِنْ فُرُوع السَّاقِ الثاني من ساقَي شجرة مَوضوع السورة، وفيها فِقَرَةُ تَعْلِيم جَدَلِيٍّ وَدَعَوِيّ مُوجَّهٍ من اللهِ لِرَسُوله، حَوْلَ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ ﷺ، وحَوْلَ شِرْكِ المشرِكينَ وآلِهَتِهِم الباطلة.

التّدبّر التحليلي:

قول اللهِ تَعالى:

- ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾؟ أي: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ في حِوَارٍ عَقْلِيٍّ هَادِئٍ: أَيُّ شَيْءٍ شَهَادَتُهُ في نُفُوسِكُمْ هي أَكْبَرُ شَهَادَةٍ في الْوُجُودِ كُلِّهِ، تُرِيدُونَ أَنْ يَشْهَدَ لِي بأنّي نَبِيُّ اللهِ ورسُولُهُ، وَأَنِّي صَادِقٌ فيما أُبلِّغُ عنه؟؟

هذا السُّؤَالُ هُوَ مِفْتَاحُ الْحِوارِ، والْخُطْوَةُ الأُولَىٰ مِنْ خُطُوَاتِهِ، ومن شأْنِ هذا السُّؤَالِ أَنْ يُلْجِئَ المنَاظَرَ الرَّشيدَ إلى أَنْ يَقُولَ: اللهُ أَكْبَرُ شَهَادَةً مِنْ كُلِّ شَهِيدٍ.

أُطْلِقَ لَفْظُ شيءٍ، لإعْطَاءِ المسؤول حُرِّيَّةَ اخْتِيار مَا يرَىٰ أَنَّهُ صَالِحٌ لِأَنَّ يُقَدِّمَ شَهَادَةً، مِنْ حَيٍّ يَشْهَدُ، أَوْ حَقِيقَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَشْهَدُ.

ونَظِيرُ هَـٰذَا قولُ الله تَعَالى في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول):

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

هَـٰذَا الإِطْلَاقُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ لِلْمُنَاظِرِ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ، أَنْ يَتْرُكَ لِلْمُنَاظَرِ مجَالَ التَّفْكِيرِ مَفْتُوحاً، وَلَوْ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُدْخِلَ فِي تَقْدِيراتِهِ الاحْتِمَالِيَّةِ كُلَّ شَيْءٍ يَخْطُرُ في بالِهِ، من أحياء أو حَقَائِقَ عقليّة، ولَيْسَ لِمُعْتَرِضٍ حَقٌّ فِي أَنْ يَقُولَ: لَا يَصِحُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَىٰ اللهِ لفظ، «شيء» لأنَّهُ لَيْسَ مِنْ أسماء اللهِ الحسْنَىٰ، فاللهُ عزَّ وجلَّ يُعَلِّمُنَا هَـٰذَا الأُسْلُوبَ في المنَاظَرَاتِ والمحاورات.

لفظ «شَيْء» من الأجناسِ الْعُلْيَا العامَّة، يُطْلَقُ عَلَىٰ مَا يُمْكِنُ لِلْفِكْرِ أَنْ يُدْرِكه.

فإِذَا قَالَ مَنْ وُجِّهَ لَهُمُ السُّؤَالُ: اللهُ أَكْبَرُ شَهَادَةً مِن شَهَادَةِ كُلِّ

شَهيد، وهُمْ يُنْكِرُونَ نُبُوَّة مُحَمَّدٍ وَرِسَالَتِه، فالْحِكْمَةُ الْحِوارِيَّة تقتضي أَنْ يَقول الرَّسُولُ لَهُمْ مَا جاء في التعليم، وهُوَ قَول الله تَعالى:

• ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾: أي: وقَدْ شَهِدَ لي عَنْ طَرِيقِ الآيَةِ الْبُرْهَانِيَّة الَّتِي شَقَّ لِي بِهَا الْقَمَرَ، وشَهِدَ لِي عَنْ طَرِيق الآيَةِ القرآنية الْمُعْجِزَةِ، وقَدْ تَحَدَّاكُمْ بِأَنْ تَأْتُوا بمثْلِ عَشْرِ سُوَرٍ مِنه، أَوْ بِمِثْلِ سُورَةٍ ذَاتِ طُولٍ يُسَاوِي عَشْرَ سُوَرٍ مِنْ قِصَارِ السُّور، فَعَجَزْتُم فَكَانَ هَـٰذَا شَهَادَةً مِنْهُ بأَنَّهُ اصطفاني نبيًّا وَرَسُولاً، لِأُبَلِّغَ عَنْهُ مَا أَرْسَلَنِي به.

أَلَا تكفيكُمْ هَـٰذِهِ الشهادةُ مِنَ الله؟! أَلَا يكفِيكُمْ أَنْ يَكُونَ اللهُ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ؟!

لفظ «بَيْن» ظَرْفٌ بمَعْنَىٰ التَّشْرِيكِ، وهو يضاف إلى أَكْثَرَ مِنْ واحد، وإذا أُضِيفَ إلى واحِدٍ عُطِفَ عليْه بالْوَاو، ويَجِبُ تَكْرِيرُهَا مع المضْمَرِ، كمَا جاءَ في الآية هنا.

فإذا وَجَدَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الْحُجَّةَ قَدْ لَزِمَتْهُمْ، وجَّهَ دَعْوَتَهُ لَهُمْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِمَا جَاءَ فِي القرآنِ مِنْ بَيَانَات.

فإذا وَجَدَ أَنَّهُمْ مُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِيَّاتِهِم وَجَّهَ لَهُمْ مَا جَاءَ بيانُهُ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ التعليميَّة قَائلاً:

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ . . . ﴿١٩﴾﴾:

الإنْذارُ بعقاب الله وَعذَابِهِ يأتي إلماحاً أَوْ غَيْرَ مُشَدَّدٍ مَعَ أوائِلِ الدَّعْوَةِ إلىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، ويَأْتِي بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ مع أَوَاخِرِ الدَّعوَةِ، ويَأْتِي فِقرَةً خِتامِيَّةً تُوَجَّهُ للمكابِرِينَ المعانِدِين المصِرِّينَ علىٰ باطِلِهِمْ، الَّذِينَ لَمْ تُجْدِ فيهِمْ وسائِلُ الإقْناع والهداية للَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، ووسائلُ الترغيب والترهيب بالموعِظَةِ الحسَنَةِ، ووسَائِلُ الجِدَالِ بالَّتِي هِي أحسن.

ويُشْعِرُ هذا الْبَيَانُ بأنَّ المعالَجِينَ قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكة المكابَرَةِ والعِنَاد والإصْرار على الباطل، ولهذا جاءَ فِيهِ التوجيه للإنْذَارِ بالقرآن، أي: بما جاءَ في القرآن مِنْ إنْذَارَاتٍ بأنْواعِ عِقَابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنيا، كما حَصَلَ لكُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابقة، وبعَذَابٍ مُؤَجَّلٍ إلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، يكُونُ في نار جَهَنَّمَ خالِدِينَ فيها أبداً بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِحَقِّ رَبِّهِمْ عليهم، وبِحَسَبِ جَرَائِمهم الَّتِي اكْتَسَبُوها في حياة الابْتِلَاءِ، ضِمْنَ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

وَجاء عَطْفُ ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ على ضَمِير المخاطَبِينَ المعالَجِين، أي: ولِأُنْذِرَ بما جاءَ في القرآن من إنْذَارَاتِ عقابٍ وَعَذَابٍ، مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتِي، وَبَلَغَهُ مَا جَاءَ فِي القرآنِ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ الخاتِمِ لِرِسَالَاتِ اللهِ للنَّاس.

حُذِفَتْ مَعْمُولَاتُ فِعْل «بَلَغَ» لإمْكانِ إدْراكها بالقرائن.

وبَعْدَ هَـٰذَا الْعِلَاجِ الْحِوَارِيِّ الدَّعَوِيّ، وَجَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ لمناظَرتِهِمْ بشَأْنِ شِرْكِهِمْ وَشُرَكَائِهم، فجاء في التعليم في آية هذا الدَّرْسِ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ:

• ﴿... أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾:

في هذا البيان ثلاث فِقرات تَعْلِيميَّة:

الفِقَرَةُ الْأُولى: تتضَمَّنَ تَعْلِيمَ الرَّسُول ﷺ أَنْ يَطْرَحَ على المشركين المعالَجِينَ السُّؤالَ التَّالِي: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ﴾: أي: هَلْ لَديكُمْ مُشاهدَةٌ حِسِّيَّةٌ، أو بُرْهَانٌ عَقْلِيٌّ يَسْمَحُ لَكُمْ بِأَنْ تَشْهَدُوا شَهَادَةَ صِدْقٍ، بأنَّ مَعَ اللهِ في الْوُجُودِ أَرْبَاباً يُشَارِكُونَ اللهَ في الْخَلْقِ، حَتَّىٰ يَسْتَحِقُّوا بِرُبُوبِيَّاتِهِم أَنْ يَكُونُوا مَعَ اللهِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ مَعَهُ بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِهِم لَكُمْ؟؟

سُؤالٌ لَا يَجِدُ مَعه المشْرِكُونَ مَا يَصْطَنِعُونَ من حُجَّةٍ مَهْمَا كَانُوا

أَذْكِيَاءَ فُطَناء، يُثْبِتُونَ بِهَا أَنَّ مَعَ اللهِ أَرْبَاباً تَسْتَحِقُّ أَنْ تكون آلِهة، فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَهرَّبُوا مِنَ الإجابَةِ عَلَىٰ السُّؤَال، إِلَّا أقوالاً غَوْغائِيَّةً زُخْرُفيَّة، ومُغَالَطَاتٍ كاذِبَاتٍ إبهامِيَّات.

عِنْدَئِذٍ يأتي دَوْرُ إعْلَانِ الفِقَرَةِ الثانية:

الفِقَرَةُ الثانية: قول الله تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ في التعليم: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُۚ﴾ أي: إنْ كَذَبْتُمْ فَشهدْتُم بالباطِلِ دُونَ بُرهَانٍ تُقَدِّمُونَهُ، فإنّي لَا أَشْهدُ، بَلْ أُعْلِنُ مُخَالَفَتِي لَكُمْ بِكُلِّ قُوَّة.

وعِنْدَئِذٍ يَأْتِي دَوْرُ إعْلَانِ الْفِقَرَةِ الثالِثَة، وهي فِقَرَةُ إعْلَانِ الإيمان بأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وإعْلَانِ الْبَرَاءَةِ مِمَّا يُشْرِكُ المشْرِكُونَ.

الفقرة الثالثة: قولُ اللهِ تعالَىٰ لرسُوله في التعليم: ﴿... قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾: أي: مَا المعبودُ الحقُّ إِلَّا إِلَٰهٌ واحِدٌ هُوَ اللهُ رَبُّ كُلِّ مَا سِوَاهُ مِنْ كائِنَاتٍ، وَأُأَكِّدُ لَكُمْ بصَراحَةٍ وقُوَّةٍ أَنَّنِي بَرِيءٌ مِنْ عِبَادَةِ كُلِّ مَا تَجْعَلُونَهُ شَرِيكاً للهِ فِي رُبُوبِيّتِهِ أَوْ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ كائناً مَنْ كان، وكائناً مَا كان.

بَرِيءٌ: أي: مُبْتَعِدٌ ومُتَجافٍ عَنِ الشِّرْكِ وعَمَّا تُشْرِكُونَ، وخالِصٌ من رِجْس الشِّرْكِ ورِجْس الشياطين الدَّاعِينَ إلى الشّرك.

وبهذَا الإعْلانِ الإيمانيّ المقطوع به تنتهي جَوْلَةُ هذا الْحِوار.

في عبارة ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قَصْرٌ حَقِيقي بأداة القصر إنما، وهو من قصر صفة على موصوف، وفي عبارة: ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ توكيد بِـ «إن ـ والجملة الاسمية».

وبهذا تمّ تدبّر الدرس السادس من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١١)
التدبّر التحليلي للدّرْس السابع من دُروس سورة (الأنعام)
الآيات من (٢٠ ـ ٣٩)

قال الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ

يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾:

القراءات:

(٢٢) • قرأ يعقوب: [**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ**] بالياء في الفعلين، أي: يَحْشُرُهُمُ اللهُ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ**] بالنّون في الفعلين، والفاعل ضمير المتكلّم العظيم.

وبيّنَ القراءتَيْنِ تفنُّنٌ بياني.

(٢٣) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وشعبة، وأبو جعفر، وخلف: [**ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ**] بتاء المضارعة، وبالنصب في [**فِتْنَتَهُمْ**].

وقرأها ابن كثير، وابن عامر، وحفص: [**ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ**] بتاء المضارعة، وبالرفع في [**فِتْنَتُهُمْ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتَهُمْ**] بياء المضارعة، وبالنصب في: [**فِتْنَتَهُمْ**].

وهذه القراءات وجوه عربية جائزة ومتكافئة من جهة المعنى.

(٢٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**واللهِ رَبَّنَا**]: أي: يَا رَبَّنَا.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**واللهِ رَبِّنَا**] بالجرّ على البدلية.

(٢٧) • قرأ حفص، وحمزة، ويعقوب: [**وَلَا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ**] بنصْب الفعلين.

وقرأها ابن عامر: [وَلَا نُكَذِّبُ بآياتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ] برفع الفعل الأول، ونَصْبِ الفِعْلِ الثاني.

وقرأها باقي القرّاء العشرة [وَلَا نُكَذِّبُ بآياتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ] برفع الفِعْلَيْنِ.

وهذه القراءات وجوهٌ عَرَبِيَّةٌ جائزة.

(٣٢) • قرأ ابْن عامر: [وَلَدَارُ الْآخِرَةِ] أي: وَلَدَارُ الحياة الآخرة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ] على أنّ «الآخِرة» وصْفٌ للدار.

وبين القراءتين تَفَنُّنٌ في البيان، والمؤدّىٰ واحد.

(٣٢) • قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [أَفَلَا تَعْقِلُونَ] بتاء المخاطَبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أَفَلَا يَعْقِلُونَ] بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البيانيّ.

(٣٣) • قرأ نافع: [لَيُحْزِنُكَ] مِنْ فِعل «أَحْزَنَهُ» وهي لغة تميم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة [لَيَحْزُنُكَ] من فعل «حَزَنَهُ» وهي لغة قُرَيش.

(٣٣) • قرأ نافع، والكسائي: [لَا يُكْذِبُونَكَ] من فعل «أَكْذَبَهُ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [لَا يُكَذِّبُونَكَ] من فعل «كَذَّبَهُ».

والقراءتان متكافئتان، فالهمز أخو التضعيف.

(٣٦) • قرأ يعقوب: [يَرْجِعُونَ] بالبناء للمعلوم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [يُرْجَعُونَ] بالبناء لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءتيْنِ تكامل، أي: يُرْجعُهم الله، فهُمْ يَرْجِعُونَ مطاوعين بالجبر.

(٣٧) • قرأ ابن كثير: [**يُنْزِلَ**] من فعل: «أَنْزَلَ».

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَة: [**يُنَزِّلَ**] من فعل: «نَزَّلَ».

والقراءتان متكافئتان، لأنّ الهمز أخو التضعيف.

(٣٩) • قرأ أبو جعفر: [**وَمَنْ يَشا يَجْعَلْهُ**] بإبدال الهمزة ألفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ**] بالهمزة الساكنة دون إبدال.

(٣٩) • أشَمَّ صَادَ [**صِرَاطٍ**] صَوْتَ الزَّاي قنبل، ورُويس، وخلف عن حمزة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة صاداً خالصة.

تمهيد:

آيات هذا الدرس السابع من فروع السّاق الأول من ساقَيْ شجرة موضوع السّورة. وفيه بيان مِن الله عزَّ وجلَّ بشأنِ نُبُوَّةِ الرسولِ محمّد ﷺ ورِسَالتِه، وفيه تَحْذِيرٌ منْهُ للمُفْتَرِينَ عَلَىٰ اللهِ وللمُكَذِّبين بآياته، وفيه لقْطَةٌ مِنْ مَشْهَدِ الحشْرِ يوم الدِّين، ولَقْطَةٌ من مَشْهَدِ سُؤالِ المشركين عَنْ شركائهم، وفيه تعجيب من أَمْرِ الكافرين كَيْفَ يَضِيعُ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْتَرُونَهُ في الحياة الدّنيا.

وفيه وصف لحال بعض الكافرين في الدنيا، وما بلغوه من انطماس بصائرهم بسبب عنادهم واتباعهم أهواءهم.

وفيه لقطة أُخْرَى من مشاهد يوم الدِّين، وتَمَنِّي الكافِرين الرَّجْعَةَ إلى

الحياة الدُّنيا حَيَاة الامْتِحان ليكونُوا مِنْ أَهْلِ الإيمان والطاعَةِ لِرَبّهم.

وفيه بيانُ إنْكارِ الكافِرِينَ الْبَعْثَ بَعْدَ الموتِ.

وفيه لقطة ثالثة مِنْ مَشَاهِدِ الكافرينَ يَوْمَ الدِّينِ، حينَ يُوقَفُونَ على مَوْقِفِ حِسَاب رَبّهم لهم.

وفيه بيان عن الحياة الدُّنيا مُقَارَنَةً بالآخِرَةِ وَمَا فيها.

وفيه تَسْلِيَةٌ للرَّسُول ﷺ بشأْنِ تَكْذِيب كُفَّارِ قومه له، وتوجيهٌ له وتربية، وبيانُ حَقَائِقَ تكوينيَّة هي لَوازم لحرّيَّاتِ الناس في اخْتِيَارَاتهم الإرادية في حياة الابتلاء.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يُبَيّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ في هَٰذِهِ الآيَةِ لِمُشْرِكِي الْعَرَب أَنَّ الَّذِينَ آتاهُمُ الكتابَ، وهُم عُلماء الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ، يَعْرِفُونَ أَنَّ مُحَمَّداً نَبيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ وأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبياءِ والْمُرْسَلِينَ، مِنَ الْبَشَائِرِ المذكُورَةِ في كُتُبِهِمْ، الَّتِي تُبَشِّرُ بِهِ، وفِيهَا بَيَانُ صِفَاتِهِ، وَمَكَان ظُهُورِهِ، وأُلُوفِ الْأَطْهَارِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ وَيَنْصُرُونَهُ، ويَنْشُرُونَ دَعْوَته، ويَحْمِلُونَ رِسَالَتَهُ، وجاءَ فِي الإنْجيلِ ذِكْرُ اسْمِهِ، ونجدُ هَٰذَا صَرِيحاً فِي الإنجيلِ المنْسُوبِ إِلَىٰ «بَرْنَابَا».

وجاء في سورة (الصّف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول) أنَّ عيسىٰ عليه السَّلام أبَانَ لبني إسْرَائِيلَ أَنَّهُ مُبَشِّرٌ بِرَسُولٍ سيأْتِي من بَعْدِهِ اسْمُهُ أحمد، قال اللهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ

مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

ومَعْرِفَةُ عُلَمَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ بأنَّ محمَّداً هو الرَّسُولُ المبشَّرُ بِهِ في كُتُبِهِمْ، مَعْرِفَةٌ جَلِيَّةٌ واضِحَةٌ تُشْبِهُ مَعْرِفَتَهُمْ بأَبْنَائِهِمْ، لِوُضُوحِ التَّطَابُقِ بَيْنَ الْبَشَائِرِ المذكُورَةِ في كُتُبِهِمْ وَبَيْنَ وَاقِعِ حَالِ صِفَاتِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ الذَّاتِيَّة، وصِفَاتِ مَكَانِ بِعْثَتِهِ، وَصِفَاتِ الرِّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي يُبَلِّغُهَا للنَّاسِ، مَعَ مَا آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ آياتٍ بيّنَاتٍ خَوارقَ.

قوله تعالى:

• ﴿... ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: الَّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ أَنْفُسِهِمْ باتِّباعِهِم أهْوَاءَهُم وشَهَوَاتِهِم، وحُبِّهِمْ للعاجِلَةِ الفانية، وتَرْكِهِمْ للآخِرَة، فَعَرَّضُوهَا للعذاب الخالِدِ يَوْمَ الدِّين في نارِ جهنَّمَ، لَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا يَدْفَعُهُمْ للإيمان بِرسُول اللهِ مُحَمَّد ﷺ، وتَصْدِيقِهِ فيما جاء به عَنْ رَبِّهِ، فهم لَا يُؤْمِنُونَ.

تَضَمَّن المبتدأ وهو اسْمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ معنى الشرط أَوْ رَائِحَةَ الشرط، فجاءت الفاء في خبره: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾؟!:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؟: استفهامٌ يُرَادُ بِهِ إِثْبَاتُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَشَدُّ ظُلْماً مِنْ فَرِيقَيْن:

الفريق الأوّل: «مَنِ افترى علىٰ اللهِ كَذِباً» أي: اخْتَلَقَ واصطَنَعَ الكَذِبَ على اللهِ عَنْ عَمْد، كأنْ يقُولَ عَنْ كَلامٍ: هَـٰذَا كَلامُ اللهِ، وهُوَ لَيْسَ بكَلامِ اللهِ.

الفريق الثّاني: «مَنْ كَذَّبَ بآيَاتِ الله» مع إقامَةِ الحجَّةِ عَلَيْهِ بأنَّها آياتُ الله، كأنْ يُكَذِّبَ بالْقُرْآنِ المجيد أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْد الله، وقد صَحَّ عِنْدَهُ واسْتَيْقَنَتْ نَفْسُهُ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ جلّ جلالُهُ.

فجَمَعَ هَـٰذا الْبَيَانُ بيْنَ مَنْ يَدَّعي النبوَّةَ وهُو كاذِب، وبيْنَ مَنْ يُكَذِّبُ النَّبِيَّ وهُوَ مُؤَيَّدٌ مِنَ اللهِ بالآيات الخوارق، وهذا مِنْ تمام الْعَدْلِ في الْحِوَارِ وفي البيان الاحْتِجَاجِيِّ علَىٰ مُكَذِّبي الرَّسُول، بأنَّ كلا الْفَرِيقَين قد بَلَغَا حضيض الظلم.

﴿... إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾: أي: إِنَّـهُ لَا يَـظْـفَـرُ وَلَا يَـفُـوزُ عِنْدَ الله الظَّالِمُونَ، والمرَادُ بالظَّالِمينَ هُنَا الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْر.

الفلاح: النَّجاةُ والفوْزُ والظفر، **وأصْلُ الْفَلَاح**: الْبَقَاءُ في النَّعِيمِ والخَيْر.

قالَ الأزْهَرِي: وإنَّما قيل لِأَهْل الجنَّةِ مُفْلِحُونَ لِفَوْزِهِمْ بِبَقَاءِ الْأَبَد.

■ قول الله تَعَالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ فِي حِسَابِ المشركين:

• ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

• ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: أَيْ: وَضَعْ في ذَاكِـرَتِـكَ أَيُّـهَا الـمـتَـلَـقِّـي الرَّشِيدُ، مَا نَعْرِضُ عَلَيْكَ مِنْ مَشْهَدٍ سَوْفَ يكُونُ يَوْمَ القيامَةِ، إِذْ نَحْشُرُ الْخَلَائِقَ جَمِيعاً، يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمِير المتكلّم العظيم.

• ﴿... ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

أيْ: ثُمَّ في آخِرِ أحْدَاثٍ تَكُونُ بَعْدَ الْحَشْر، مِنْهَا فَرْزُ أَهْلِ الإيمان

عَن أَهْلِ الكُفْرِ، وَمُهْلَةُ انْتِظَارٍ قَبْلَ إقَامَةِ محكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِية، تَجْرِي مُسَاءَلَةُ المشْرِكِينَ، لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وفَصْلِ القَضَاءِ بِشأْنِهِمْ.

الحشْرُ: الْجَمْعُ والسَّوْقُ.

عِنْدَئِذٍ يقولُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لِلَّذِينَ كَانُوا قَدْ أشْرَكُوا باللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً، في الحياة الدُّنيا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أَنَّهُمْ شُرَكَائِي، فِي رُبُوبِيَّتِي، أَوْ فِي إلَهِيَّتِي؟؟. أَحْضِرُوهُمْ إنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ إحْضَارِهِمْ قادِرين.

﴿تَزْعُمُونَ﴾: أي: تفترونَهُمْ كاذِبين. يأْتِي الزَّعْمُ لُغَةً بمعنَىٰ الظّن، وبمعْنَىٰ الشَّكِّ والارْتِياب، وبمعنىٰ الكذِب، وَهَٰذَا المعنَىٰ هو الملائم هنا. وقَدْ يُرَادُ بالنِّسْبَةِ إلى بعضِ المشْرِكِينَ أَنَّهُمْ كانُوا يَظُنُّونَ إلَهِيَّةَ شركائِهِم ظَنًّا ضَعِيفاً، فاكْتَفَوْا بالظَّنِّ الضعيفِ اتّباعاً لأهْوَائِهم، وتَرَكُوا الْحُجَجَ الْقَوِيَّة البرهانِيَّةَ الَّتِي تُثْبِتُ أَنَّهُ لَا إلَهَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

- ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

جاء في القراءات ﴿تَكُن﴾ بالتأنيث، مُرَاعاة للّفظ في ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ وجاءَ فيها ﴿يَكُن﴾ بالتَّذْكِير، لِأَنَّ لفظ «فِتْنَة» مجازي التأنيث، يجوز تَذكير الفعل وتأنيثهُ معه.

وَجَاء في القراءات نَصْبُ ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ وَرَفْعُهَا. أمَّا النَّصْبُ فَعَلَىٰ اعتبار لفظ «فِتْنَة» خَبَرَ فعل: ﴿تَكُن﴾ واسْمُها المصدر المؤوّل مِنْ ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وأمَّا الرَّفْعُ فَعَلَىٰ اعتبار لفظ «فِتنة» هو اسم فعل: ﴿تَكُن﴾ وأَنَّ الْمَصْدَر المؤوّل هو الخبر.

وجاء في القراءات: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ بِجرّ ربّنَا، على أَنَّهُ وَصْف لاسْمِ الجلالَة، أو بدل منه:

وجاء فيها نَصْبُ ﴿رَبَّنَا﴾ عَلَىٰ أَنَّهُ مُنَادَىٰ بحذف حَرْف النّداء.

﴿فِتْنَتُهُمْ﴾: تُطْلَقُ الفِتْنَةِ وَيُرَادَ بها الْعِقَابُ والْعَذَابَ، وأرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا هُو المرادُ هُنَا، واللهُ أعْلَمُ.

فالمعْنَىٰ: ثُمَّ بَعْدَ الْحَشْرِ وَسُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ شُرَكَائِهِم الَّذِينَ كانُوا فِي حياةِ الابتلاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ للهِ، عُذِّبُوا عَذَاباً خاصًّا قَبْلَ أَخْذِهِمْ وَإِلْقَائِهِمْ فِي جَهَنَّم دَارِ عَذَابِهِمُ الخالد، لِأَنَّهُمْ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ إِذْ قَالُوا: «وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» لَكِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَكْشِفُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ، إِذْ يَخْتِمُ اللهُ عَلَىٰ أفْوَاهِهِمْ ويُنْطِقُ أَيْدِيَهُمْ وَأرْجُلَهُمْ وَجُلُودَهُمْ، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِم بأَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِينَ، إِضَافَةً إِلَىٰ صُحُفِ أعْمَالِهِم الَّتِي تَكْشِفُ بالصَّوْتِ والصُّورَةِ وَحَرَكَاتِ الْقُلُوب والنُّفُوسِ وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ عَقَائِدَ وَنيَّاتٍ وَخَوَاطِر.

وبَعْدَ أَنْ يُدَانُوا بِكَذِبِهِمْ فِي مَوْقِفِ سُؤَالِهِمْ وحِسَابِهِم يُعَاقَبُونَ عَلَىٰ هَـٰذَا الكَذِبِ، وبهذا تكونُ فِتْنَتُهُمْ الَّتِي سَبَّبَهَا لَهُمْ كَذِبُهُم في سُؤَالِ رَبِّهِمْ لهم عَنْ شُرَكائِهِم.

• ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: انْظُر أَيُّهَا المتَلَقِّي لِنَبَأِ هَـٰؤلَاءِ المشركين، إِذْ يُنْكِرُونَ فِي مَوْقِفِ حِسَابِهِمْ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِمْ، أَنَّهُمْ كانُوا مُشْرِكِينَ في الحياة الدُّنيا، ويَحْلِفُونَ بِاللهِ أَنَّهُمْ مَا كانوا في الحياة الدُّنيا مُشْرِكِينَ، مُتَوَهِّمِينَ أنَّ الأيْمانَ الكاذِبَةَ تُنْجِيهِمْ مِنْ جَرِيمَةِ الشِّرْكِ باللهِ، الّتِي كانت جَرِيمَتَهُمُ الكُبْرَىٰ في الحياةِ الدُّنيا، ويَغْفُلُونَ عَنْ أنَّ اللهَ عَلِيمٌ بما في قُلُوبِهِمْ، فَعَرَّضُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابٍ أليم عَلَىٰ أيْمَانِهِمُ الفَاجِرَةِ، قَبْلَ إِلْقَائِهِمْ في جَهَنَّمَ لِينَالُوا الْعَذابَ الدَّائِمَ الْخَالِدَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِيَّاتِهِم، وجرائِمِهِمُ الأخرىٰ الَّتِي قَدَّمُوهَا فِي الحياة الدُّنيا.

لفظ ﴿كَيْفَ﴾ تَرَجَّحَ لَدَيَّ أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ لِفِعْلِ: ﴿انْظُرْ﴾ مَسْلُوباً مِنْها معنَىٰ الاسْتِفْهَام، وباقٍ فيها معنىٰ الوصْفِ الكَيْفِيّ.

وجاءَ في التعْبير: ﴿كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ مع عِلْمِهِمْ بأَنَّهُمْ كَانُوا مُشْرِكِين، لِأَنَّ كَذِبَهُمْ لَا يَكُونُ عَلَىٰ اللهِ، فاللهُ كاشِفٌ سَرَائِرَهم، عَلِيم بِكُلِّ مَا يُخْفُونَ فِي نُفُوسِهم. ويُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ إعْلَانَهُمُ الْجَمَاعِيَّ هُوَ مِنْ قَبِيلِ كَذِبِ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ، فكُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُخْفِي عَنِ الآخَرِينَ بِيَمِينِهِ أَنَّهُ كَانَ مُشْرِكاً، طَمَعاً في أَنْ يَتَجاوَزَ اللهُ عَنْهُ وَيَغْفِرَ لَهُ سَوابِقَ شِرْكِهِ، واللهُ أَعْلَم. أو كَذَبُوا جَانِينَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ، وهُوَ على تَقْدِيرِ مُضافٍ مَحْذُوف.

● ﴿... وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: وضَاعَ مُبْتَعِداً عَنْهُمْ ابْتِعَاداً لَا يَسْتَطِيعُونَ اجتِيَازَ مَسَافَتِهِ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ على رَبِّهِمْ مِنْ شُرَكَاءَ، وَمَا يفْتَرُونَهُ مِنْ ضَلَالَاتٍ يَزْعُمُونَ أنها مِن الدِّينِ وَهِيَ لَيْسَتْ مِنْ دِينِ اللهِ في شيءٍ.

﴿يَفْتَرُونَ﴾: أي: يختلِقُونَ وَيَصْطَنِعُونَ ادّعاءاتٍ هُمْ فيها كاذبون.

■ قول اللهِ تَعالَىٰ مُخاطِباً رَسُولَهُ بِشَأْنِ طَائِفَةٍ مِنَ المشركين، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، وقُلُوبُهُمْ مُنْصَرِفَةٌ عَمَّا يَقُولُهُ لهم، أَوْ يَتْلُوهُ عَلَيْهِمُ انْصِرَافاً كُلّيًّا، وَهٰذَا انْتِقَالٌ مِنْ مَشْهَدٍ من مَشَاهِدِ الآخِرَةِ إِلَىٰ بَيَانِ أحداثٍ هي من أحْدَاثِ الدُّنيا:

● ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

● ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: أي: وبعْضُ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ يا مُحَمَّدُ فيما يَظْهَرُ مِنْ أَحْوالهم، لَكِنَّهُمْ عازِمُونَ ابْتِدَاءً

عَلى رَفْضِ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَمَا تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِن آيَاتِ القرآنِ الْمَجِيدِ المنزَّلِ عَلَيْكَ، فَهُمْ بمُقْتَضَىٰ نِظَامِ خَلْقِ اللهِ للنُّفُوسِ الإنْسَانِيَّةِ مَحْجُوبُونَ عَنْ إدْرَاكِ مَعْنَىٰ مَا يَصِلُ إلى آذَانِهِمْ مِنْ أقوالِكَ، وإِذَا أَدْرَكُوا مَعَانِي سَطْحِيَّةً فإنّهم مَحْجُوبُونَ عَنْ فِقْهِ مَا تَقُول فِقْهاً يُدْرِكُونَ به حَقَائِقَ الْمَعَانِي حَتَّىٰ تُؤَثِّرَ فيهم.

• ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أيْ: وَجَعَلْنا بِمُقْتَضَىٰ نِظَامِ التكْوينِ الْعَامّ لِكُلِّ النفوس الإنْسَانِيَّةِ، عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وهي مراكِزُ الْفَهْمِ في نُفُوسِهِمْ، حُجُباً كَثِيفَةً وأَغْطِيَةً مَانِعَةً لَهُمْ مِنْ أنْ يَفْقَهُوهُ.

﴿أَكِنَّةً﴾: جَمْعُ «كِنٍّ» وهو البيْتُ، وكلُّ ما يقي ويَسْتُر، **والأكِنَّةُ**: الأغْطِيَةُ السَّاتِرَةُ الحاجِبَةُ.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: أي: حُجباً مَانِعَةً لَهُمْ مِنْ أَنْ يَفْقَهُوهُ، بِسَبَبِ رَفْضِهِمُ الإِصْغَاءَ لِمَا يَسْمَعُونَهُ، ورَفْضِهِم الانتفاع به ابْتداءً.

الفقه: في اللُّغَةِ هو الْفَهْمُ والْفِطنة، واسْتُعْمِلَ للدلالة على العِلْمِ بِبَواطِنِ الأُمُور وخَفَايَاهَا ودقَائِقِها، وعلى البَحْثِ عَنْها للتوصل إلى مَعْرِفَتِها، فهو بهذا أَخَصُّ مِنْ مُطْلَقِ الْعِلم.

إنّ مِنْ سُنَّةِ اللهِ ونِظَامِهِ التَّكْوِينيّ لِلنُّفُوسِ الإِنْسَانِيَّةِ، أَنَّ مَنْ حَجَبَ نَفْسَهُ بِحُجُبٍ مِنَ الرَّفْضِ لِلْحَقِّ المخالِفِ لأَهْوَاءِ النُّفُوسِ وَشَهَوَاتِهَا، لَمْ يَكُنْ لَدَىٰ قَلْبِهِ اسْتِعْدَادٌ لِفَهْمِ الأَقْوَالِ الَّتِي تَسْمَعُهَا أُذُنَاه فَهماً صَحِيحاً، يُدْرِكُ بِهِ دَلاَلاَتِها الكاشفاتِ لِمَا وَرَاءَ الظَّواهِرِ اللَّفْظِيَّةِ مِنْ مَعَانٍ عَمِيقَةٍ أَوْ دَقِيقَةٍ، ولَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَهَا لَعَرَفَ الحقَّ، ومَيَّزَهُ عن البَاطِلِ، ولَعَرَفَ أَنَّ من الْخَيْرِ الْعَظِيمِ لَهُ أَنْ يَنْبذَ الباطِلَ الَّذِي يتَمَّسَكُ به، وأَنْ يَسْتَمْسِكَ بالْحَقِّ الَّذِي يَرْفُضُه.

• ﴿... وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ...﴾: أي: وَجَعَلْنَا في آذانِهِمْ صَمَماً،

أو ثِقَلاً شَدِيداً في السَّمْعِ قَرِيباً مِنَ الصَّمَمِ، وَهَـٰذَا يَكُون بحَسَبِ نِظَام اللهِ التكْوِيني، في الأحْوَالِ الَّتِي يَكُونُ الإنْسَانُ فِيها شَدِيدَ الرَّفْضِ ابْتِدَاءً للدَّعْوَةِ البيانيَّةِ الَّتِي تُوَجَّهُ له، فَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ حَاضِراً غَيْرَ سَامِعٍ كالْمُنَافِقِين شَدِيدي النِّفَاقِ، وإمَّا أَنْ يَكُونَ حَاضِراً يَسْمَعُ سَمْعاً قَلِيلاً بَعْضَ مَا يُوَجَّهُ لَهُ مِنْ بيان.

والْقِسْمُ الثَّالِثُ أَنْ يَسْمَعَ الْأَقْوَال ويَفْهَمَ سُطُوحَ دَلاَلاَتِها، لَكِنَّهُ مَحْجُوبٌ عَن فِقْهِها، وإِدْرَاكِ دَقَائِقِ دَلاَلاَتِهَا.

وسَبَبُ كُلِّ ذَلِكَ رَفْضُ دَعْوَةِ الْحَقِّ ابْتِدَاءً، وتَخْتَلِفُ أَحْوَالُ الأفرادِ بِحَسَبِ مَقَادِيرِ شِدَّةِ الرَّفْضِ.

• ﴿... وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ...﴾: أي: وإنْ يَرَ هَـٰؤُلَاءِ الرَّافِضُونَ لِدَعْوَة الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ ابْتِدَاءً، المعانِدُونَ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ الْكُفْرِ والتَّمَسُّكِ بِشْرِكِيَّاتِهِم وتقالِيدِهِم الباطِلَة، كُلَّ آيَةٍ خَارِقَةٍ يُطَالِبُونَ بإجْرائِهَا كَيْ يُؤْمِنُوا، فَإِنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، لأَنَّ عَدَمَ إيمانِهِم اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ الْحَقِّ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُقْتَنِعِينَ بِأَنَّ مَا يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ إِلَيْهِ حَقٌّ، بَلْ لِأَنَّهُمْ رَافِضُونَ قَبولَ الْحَقِّ ابْتِدَاءً، وإجْرَاءُ الآيَاتِ الْخَوَارِقِ لَا يَزِيدُ في قَنَاعَتِهِمْ شَيْئاً، فَتَلْبِيَةُ طَلَبِهِمْ لَهَا عَبَثٌ لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ الرَّبِّ الْحَكِيم أَنْ يَفْعَلَهُ، وهُوَ الْعَلِيمُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَكُلِّ جوانبِ نُفُوسِهِم، الْخَبِيرُ بِكُلِّ أحْوَالِهِم الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، حتَّىٰ أَحَادِيثِ نُفُوسِهِم الَّتِي لا يَنْطِقُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ.

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هُنَا ابْتِدَائِيَّة دَاخِلَةٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿إِذَا جَآءُوكَ﴾ وحتَّىٰ الابْتِدَائِية لَيْسَ فيها معنىٰ الغايَة، بل الجملة بَعْدَهَا مُسْتَأْنَفَة.

﴿يُجَـٰدِلُونَكَ﴾ جملةٌ حَالِيَّة، أي: حتى إذا جاؤوكَ يا مُحمَّدُ مجادِلِينَ، وكانُوا قَد اسْتَمَعُوا إِلَيْكَ آياتٍ مِنَ القرآن، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْقَهُوا معانِيَ ما تَلَوْتَه

عَلَيْهِم، لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ كانَتْ مَحْجُوبَةً عَنْ فِقْهِها بِسَبَبِ رَفْضِهِم ابْتِدَاءً الاسْتِجابَةَ لِدَعْوَتِكَ.

﴿... يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾: هذا البيان جَوابُ ﴿إِذَا﴾ الشَّرْطِيَّة.

أي: إِنَّهُمْ إِذَا جَاؤوك يَبْتَغُونَ مُجَادَلَتَكَ، وكانُوا محجوبين عَنْ فِقْهِ مَا سَبَقَ أَنِ اسْتَمَعُوهُ مِنْكَ مِنْ كتابِ رَبِّكَ القرآن، يَقُولُونَ في عباراتِهِم الْجَدَلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ انْطِمَاسِ بَصَائِرِهِمْ عَنْ فَهْمِ مَا كانُوا قَدِ اسْتَمَعُوه مِنْ قَبْلُ، وعَنْ فَهْمِ ما يَسْتَمِعُونَ إليه مِنْكَ بَعْدَ مَجِيئِهِمْ للمجادلَة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الَّذِي تَتْلُوهُ عَلَيْنا إِلَّا مَكْتُوبَاتُ الْأَوَّلِينَ، أَوْ قِصَصُ وأحاديثُ الأوَّلين الخرافيَّة.

هذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ حينَما اسْتَمَعُوا إِلَىٰ الرَّسُول، وهُوَ يَتْلُو عَلَيْهِمْ شيئاً مِنَ الْقُرآنِ سَابقاً، انْصَرَفُوا عَنْ مَكَانِ تِلَاوَةِ الرسُول له، وتَشَاوَرُوا فيما بَيْنَهُمْ بِشَأْنِ المقالَةِ الَّتِي يَقُولُونَهَا لِلطَّعْنِ في الْقُرْآنِ، فاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَقُولُوا: مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِين. وإِذْ أَعْجَبَهُمْ هَـٰذَا الْقَوْلُ الْجَدَلِيُّ جَاؤوا إِلَىٰ الرسول ﷺ مَرَّةً أُخْرَىٰ، ليقُولُوا لَهُ هَـٰذَا الْقَوْلَ، بَعْدَ أَنْ يَسْتَمِعُوا إِلَىٰ تِلَاوَتِهِ القرآن.

ولَا يَخْفَىٰ مَا فِي هَـٰذِهِ المواجهة مِنْ وَقَاحَةٍ وَمكابَرَةٍ بالباطل، ورغْبَةٍ في صَدِّ جَمَاهِيرِهِمْ عن التأثُّرِ بالْقُرْآن.

وقَدْ سَبَقَ أَنْ قَالُوا هَـٰذِهِ المقالَة قبل نُزُول سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول).

أَسَاطِير: تَأْتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَيَيْن:

- فتَأْتِي بِمَعْنَىٰ: أباطِيلَ، وأحاديثَ لَا نظامَ لها، واحِدَتُها. إِسْطَارٌ، وإِسْطَارَةٌ، وأُسْطُورَةٌ، وأُسْطُورٌ.

• وتأْتِي بِمَعْنَىٰ: مَكْتُوبَاتِ الْأَوَّلِينَ، ومَسْطُوراتهم، قال أَبو عبيدة: جُمِعَ «سَطْرٌ» على «أَسْطُرٍ» ثُمَّ جُمِعَ «أَسْطُر» على «أَسَاطير». أي فأساطير جَمْعُ جَمْعٍ.

ويظْهَرُ أَنَّ المعْنِيِّينَ بالْحَدِيث من الكافِرِين، يَقْصِدُون تَرْويجَ كُلٍّ مِنْ مَعْنَىٰ الأباطيل، ومَعْنَىٰ المكتوبات. فما في القرآن مِنْ قِصَصِ الْأَوَّلِينَ هِيَ مِنْ أباطِيلِ الْأَوَّلِينَ، وَمَا في القرآن من معارف فِكْرِيَّةٍ، هي مِنْ مَكْتُوبات الْأَوَّلين، أي: مأْخُوذَةٌ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الكتاب.

■ قول الله تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ صِفَاتِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرك إبَّانَ التنزيل:

• ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

الضمير في ﴿عَنْهُ﴾ يَعُودُ بالنَّظَرِ إلَىٰ ما جاء في الآية السابقة (٢٥) إلىٰ الْقُرْآن، مع احْتِمَالِ أَنْ يَكُون إلَىٰ الرَّسُولِ أيضاً ﷺ.

فالمعْنَىٰ: وَهٰؤُلَاءِ المعْنِيُّونَ بالْبَيَانِ، يَنْهَوْنَ جَمَاهِيرَهُمْ وكُلَّ مَنْ يَسْتَمِعُ إلى أَقْوَالِهِمْ، عَنِ اسْتِمَاعِ مَا يُتْلَىٰ مِنَ الْقُرآنِ، وعَنِ الإيمانِ بأنَّهُ كلامٌ مُنَزَّلٌ مِن عِنْدَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، وهُمْ يَنْأَوْنَ مُبْتَعِدِينَ عَنْ مُتَابِعَةِ اسْتِمَاعِ آياتِ الْقُرْآن وعَنِ الإيمان به.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾: أي: يَبْتَعِدُونَ، يقال لغة: «نَأَىٰ فُلَانٌ عَنْ كَذَا، يَنْأَىٰ، نَأْياً» أي: ابْتَعَدَ عَنْه. بيْن «يَنْهَوْنَ» و«ينأون» جناسٌ شبيهٌ بالتام، ويُسَمَّىٰ «المضارع»[1].

وهُمْ أيْضاً يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ اسْتِمَاعِ بَيَانَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، وعن الإيمان بِهِ نَبِيًّا وَرَسُولاً، ويَنْأَوْنَ مُبْتَعِدِينَ عَنْ مُتَابَعَةِ اسْتِماع بياناته، وعن الإيمان بِهِ نبيًّا وَرَسُولاً.

---

(١) انظر «الجناس» في كتاب «البلاغة العربيّة» للمؤلف.

وهُمْ بِكُلٍّ مِنَ النَّهْيِ الَّذِي يُوَجِّهُونَهُ لِلنَّاسِ، والنَّأْيِ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ، لَا يَجْلُبُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الْبَقَاءَ في سُلْطَانِهِمْ وسِيَادَتِهِمْ في قومِهِمْ، بَلْ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْهَلَاكِ الْعِقَابِيِّ في الْحَيَاةِ الدُّنيا، قَبْلَ مُجَازَاتِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ بعَذَابٍ خالِدٍ في الجحيم، وإذَا قَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ أَنْ يُهْلِكَ في الحياة الدُّنيا بَعْضَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الْحَقِّ مِنْ أَهْلِ مَكَّة، فإنَّهُ سَيَخُصُّ هَـٰؤُلَاءِ الْأَئِمَّةَ الضَّالِينَ الْمُضلِّينَ بالإهْلَاك، وَلَا يَكُونُ نَهْيُهُمْ وَنَأْيُهُمْ سَبَباً فِي إهْلَاكِ غَيْرِهِمْ، بَلْ سَيَقْتَصِرُ الإهْلَاكُ الْعِقَابِيُّ عَلَيْهِمْ، فَهُمْ بِعَمَلِهِم الإجْرَامِيِّ لَا يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وهُمْ مَا يَشْعُرُونَ حِينَ إهْلَاكِهِمْ أَنَّ إهْلَاكَهُمُ اقْتَصَرَ عَلَيْهِمْ، وَهَـٰذَا مَا حَصَلَ فِعْلاً بَعْدَ ذَلِكَ، وَظَهَرَ جَلِيًّا فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، فَقَدْ أُهْلِكَ فِيهَا أَئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ، وحَمَىٰ اللهُ مَنْ فِي قُلُوبِهِمْ خَيْرٌ مَا مِنَ الإهْلَاكِ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ دَخَلَ في الإسْلَامِ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ مَنْ كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ خَيْرٌ مَا، حَتَّىٰ أبو سُفْيَانَ الَّذِي كَانَ مِنْ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ قَبْلَ الْفَتْح.

وَلِهَـٰذَا قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، بِشَأْنِ الْأَسْرَىٰ الَّذِينَ أُسِرُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ في غَزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، في سورة (الْأَنْفَال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

فَتَكَامَلَتِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ المتعَلِّقَةُ بدَلَالَةِ قول اللهِ تَعالَىٰ فِي سورة (الأنعام/ ٥٥) الَّتِي يَجْرِي تَدَبُّرها: ﴿... وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

«إنْ» حَرْفُ نَفْيٍ بمعْنَىٰ «ما».

■ وَيَنْتَقِلُ الدَّرْسُ بعدَ بَيَانِ طَائِفَةٍ مِنْ جَرائِمِ أئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزيل، إلَىٰ عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِد أحْوالِهِمْ يَوْمَ القِيامَة، وَقَدْ سَبَقَ في الآيَاتِ من (٢٢ ـ ٢٤) عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنَ المشَاهِدِ المتعلّقَةِ بِهم، وهُوَ مَشْهَدٌ مُنْتَزَعٌ مِنْ مَوْقِفِ سُؤَالِهِمْ وَمُحَاسَبَتِهِمْ، أَمَّا المشْهَدُ التَّالِي فَهُوَ مُنْتَزَعٌ مِنْ أَحْدَاثِ إيقافِهِمْ عَلَىٰ أبْوَابِ النَّارِ يَوْمَ القيامَة، بَعْدَ مُحَاسَبَتِهِمْ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِمْ، فيقولُ اللهُ تَعالَىٰ:

● ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

سَبَقَ في الملْحَق الثَامِنِ مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) دِرَاسَةٌ تَدَبُّرِيَّةٌ تَكامُلِيَّةٌ، للنُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ المتَعَلِّقَةِ بِرَغْبَةِ الكافِرِ يَوْمَ الدِّين، أَنْ يَقْضِيَ اللهُ لَهُ باسْتِئْنَافِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ حَتَّىٰ تَمَنِّيهِ أَنْ يَكُونَ تُراباً، وهِيَ عَشْرَةُ نُصُوصٍ تُعَبِّرُ عَنْ عَشَرَةِ مَوَاقِفَ سَوْفَ تَكُونُ يَوْم الدِّين، لَا عَنْ مَوْقِفٍ واحِدٍ.

وَهَـٰذَا الَّذِي جَاءَ في سُورَةِ (الأنعام/ ٥٥ نزول) هُوَ الْمَوْقِفُ الْخَامِسُ مِنْ مَوَاقِفِهِم[1].

جَاءَ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيَانُ تَمَنِّيهِمْ حينَما يُوقَفُونَ عِنْدَ أَبْوَابِ النَّارِ تَمْهيداً لِكَبْكَبَتِهِمْ فِي هَاوِيتها.

إِنَّهُمْ يُنَادُونَ مُتَمَنِّينَ أَنْ يُرَدُّوا إِلَىٰ حَيَاةِ الامْتِحَانِ، وأَنْ لَا يُكَذِّبُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ، وأَنْ يَكُونُوا مِنَ المؤمنين.

---

(١) انظر هذا المحلق في المجلّد الخامس من هذا الكتاب، في الصّفَحات من (٤٨٨ ـ ٥١٤).

إِنَّهُمْ في هَـٰذَا الموقف يَقْتَصِرُونَ عَلَىٰ إعْلَانِ تَمَنِّيهِمْ بأسْلُوبِ النِّدَاءِ. دُونَ أَنْ يَدْعُوا رَبَّهُمْ أَنْ يُحَقِّقَ لَهُمْ أُمْنِيَّتَهُمْ، إِذْ سَبَقَ أَنْ سَأَلُوهُ رَدَّهمْ إلى حَيَاةِ الامْتِحَانِ عِنْدَ الموْتِ، وفي مَوْقف الحساب، فَلَمْ يَسْتَجِبِ الله لهم، وهذا النِّدَاءُ يُعْلِنُونَ فِيهِ نَدَمَهُمْ وَحَسْرَتَهُمْ.

• ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

أي: وَلَوْ تَرَىٰ أَيُّهَا الرائي أيًّا كُنْتَ، أئِمَّةَ الكُفْرِ والشِّرْكِ الضَّالِّينَ المضلِّين، حِينَ وُقِفُوا عِنْدَ أَبْوابِ النَّار، قُبَيْلَ إِلْقَائِهِمْ في هَاوِيَتِها، لِيَسْتَقِرُّوا فِي مَوَاقِع عَذَابِهِم الْخَالِدِ دَاخِلَهَا.

اسْتُعْمِلَ الفِعْلُ الماضِي في ﴿وُقِفُوا۟﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ مسْتَقْبلاً يَوْمَ الدِّين، فَكَأَنَّهُ أَمْرٌ قَدْ وَقَعَ فِعْلاً.

والفعل في: ﴿وُقِفُوا۟﴾ فِعْلٌ مَاضٍ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، والمعْنَىٰ: وَقَفَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْمَأْمُورُونَ بِسَوْقِهِمْ وَحَشْرِهِمْ عِنْدَ أبْواب دَارِ عَذَابِهِم، بأمْرِ رَبِّهِمُ الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ وَالْحُكْمُ.

يُقَالُ لُغَةً: «وَقَفَ فُلَانٌ فُلَاناً يَقِفُهُ، وَقْفاً» أي: جَعَلَهُ يَقِف. ويقالُ: «وَقَفَهُ عَلَىٰ الْأَمْرِ» أي: أَطْلَعَهُ عَلَيْه.

﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أي: عَلَىٰ الْمَكانِ المشْرِفِ عَلَىٰ هَاوِيَةِ النَّار، وهَـٰذَا يَكُونُ عِنْدَ أبوابها.

وبِهَـٰذَا الْوُقُوفِ يَشْهَدُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِمْ بِالْخُلُودِ فيها مَوَاقِعَهُمْ فِي داخِلِها، حَيْثُ تَكُونُ مَصايِرُهُمُ الْأَبَدِيَّة.

وجواب ﴿لَوْ﴾ مَحْذُوفٌ مُقَدَّرٌ، يُفَسِّرُهُ مَا جَاء في تَتِمَّةِ الآيَة:

• ﴿... فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: لَوْ تَرى حِينَ يُوقَفُونَ علىٰ النَّارِ لَرَأَيْتَهُمْ يُنَادُونَ: ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ ...﴾ إِلَىٰ آخِر الآية.

• ﴿يَٰلَيْتَنَا﴾: عِبارَةُ تَمَنٍّ وَتَحَسُّرٍ وَنَدَمٍ وَتَفَجُّعٍ، لِأَنَّ مَا يَتَمَنَّونَهُ مِمَّا هُوَ بَعِيدٌ جِدًّا، أَوْ هُوَ مِنْ وَرَاءِ حُدُودِ الممكِنَاتِ.

• ﴿نُرَدُّ﴾: أي: نُرْجَعُ إِلَىٰ مِثْلِ حَيَاةِ الامْتِحَانِ الَّتِي سَلَفَتْ فِي أَزْمَانِ الحياةِ الدُّنيا.

﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: بِنَصْبِ فعل: ﴿نُكَذِّبَ﴾ في قراءة حفص، وحمزة ويعقوب، وبنصب فعل: ﴿وَنَكُونَ﴾ المعْطُوفِ عليه.

وبِرَفْعِ الفِعْلَيْن في قراءة جُمْهُور القرّاءِ العشرة. وقرأ ابْنُ عامرٍ برَفْعِ الفعل الأوّل، وبِنَصْبِ الفِعْل الثّاني.

فالنَّصْبُ هُوَ بأَنْ مُضْمَرَةً بَعْدَ الواو، أي: وأَنْ لا نُكَذِّبَ. وَنكُونَ. وهذا تابعٌ للتَّمَنِّي.

والرَّفْعُ على الاسْتِئْنَافِ، أي: وَنَحْنُ إِذَا أُعِدْنَا إِلَىٰ حياةِ الامْتِحَانِ فإِنَّنَا لَا نُكَذِّبُ بآياتِ رَبِّنَا. وَسَنَكُونُ مِنْ المؤمِنِينَ، وهذا عَهْدٌ مِنْهُمْ يُقَدِّمُونه. وهُمْ بِهِ كاذِبُونَ.

وقراءة ابْنِ عامر برَفْع الفعل الأوّل وَنَصْب الفِعْل الثَّاني، فرفع الْأَوّلِ عَلَىٰ الاستئناف، ونَصْبُ الثاني على تقدير «أَنْ» بَعْدَ الواو، والمعنى: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ ونَحْنُ لَا نُكَذِّبُ بآياتِ رَبِّنا وَيَا لَيْتَنَا أَنْ نَكُونَ مِنَ المؤمنين.

• ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ . . .﴾:

﴿بَلْ﴾ هنا: حَرْف إضْرابِ انْتِقَالِي، أي: بَلْ بَدَا لَهُمْ أَنْ يُعْلِنُوا عَلَىٰ رُؤُوسِ الأشْهَادِ نَدَمَهُمْ وحَسْرَتَهُمْ، بَعْدَ أَنْ عَايَنُوا بأَبْصارِهِم، وهُمْ وَاقِفُونَ مُشْرِفُونَ عَلَىٰ هَاوِيَةِ جهَنّم، وعِنْدَ أبوابها، مَواقِعَهُمْ فيها، فاشْتَدَّ ذُعْرُهم وَخَوْفُهم، ولعَلَّ فِي هَـٰذَا الإعْلَانِ بأَصْوَاتِهِمُ العالِيَةِ الجهيرَة اسْتِجْدَاءً لِلْعَطْفِ عَلَيْهم، والرَّحْمَةِ بِهِمْ، وكانت لواعج النَّدَمِ والتَّحَسُّرِ والاسْتِجْدَاءِ

أُمُوراً يُخْفُونَها فِي مَوَاقِفِهِمُ السَّابِقَةِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ مِنْ أَجْدَاثِهِم، واسْتَمَرُّوا فِي إخفائِها فيما بَيْنَهُمْ، أَوْ فِي صُدُورِهِمْ، حَتَّىٰ عَايَنُوا بأَبْصَارِهِم مَصايِرَهُمْ، وهُمْ عِنْدَ أَبْوَاب جهَنَّمَ خَائِفُونَ مَذْعُورُون، لَا يَمْلِكُون مَهْرباً وَلَا مَفَراً.

ولم يَتَنَبَّهِ المَفسِّرُونَ إلىٰ هَذَا المعنى، فكانَتْ لَهُمْ آراءٌ مُتَكَلَّفَةٌ فيما أرَى، ولا يَحْتَمِلُ النَّصُّ الدَّلَالَةَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْها.

• ﴿... وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: وَلَوْ رُدُّوا إلَىٰ حَيَاةِ الامْتِحَانِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، لَعَادُوا لِمِثْلِ الأمْرِ الَّذِي كانُوا عَلَيْهِ في الحياة الدُّنيا، وهُوَ الكُفْرُ والتَّكْذِيبُ بآيَاتِ اللهِ، والعِصْيَان لِرَبِّهِم بارْتِكَابِ الجرائم، وهو الأمْرُ الَّذِي كانُوا قَدْ نُهُوا عنه.

والسَّبَبُ في هذا أنَّ إعَادَة الامْتِحَانِ تستَلْزِمُ مَسْحَ كُلِّ مَشَاهِدِ الآخِرَةِ مِنْ ذَاكِرَاتِهِمْ، فَإذَا أُعِيدُوا إلَىٰ ظُرُوفِ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ مُمَاثِلَةٍ لِحَيَاةِ الامْتِحَانِ الْأُولَىٰ، كانَتْ نُفُوسُهُمْ عَلَىٰ مِثْلِ الْحَالِ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهَا فِي أزْمَانِ الامْتِحَانِ الْأَوَّلِ لَمْ يَتَغَيَّرْ فِيها شَيْءٌ، فَخَرِيطَةُ نُفُوسِهِمْ تَبْقَىٰ مِثْلَ مَا كانت عَلَيْهِ في الحياة الدُّنيا، ولهذا فَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَعُودُوا إلَىٰ مِثْلِ سِيرَتِهِم الْأُوْلى حَتْماً بَعْدَ أَنْ مُسِحَتْ مِنْ ذَاكِرَاتِهِمْ مَشَاهِدُ يَوْمِ الدِّين.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾: أي: لكاذِبُونَ فِي ادِّعَائِهِمْ أَنَّهُمْ إذَا أعِيدُوا إلَىٰ حَيَاةِ الامْتِحَانِ، فَسَيَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، باعْتِبَارِ أَنَّ وَاقِعَ حَالِهِمْ سَيَكُونُ عَلَىٰ نَقِيضِ هذا.

وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ كاذِبُونَ في التَّعْبِيرِ عَنْ مَشاعِرِهم الدَّاخِلِيَّةِ، لَدَىٰ تَقْدِيم وُعُودِهِمْ بأَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ ويَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، إذْ هِيَ مَشَاعِرُ قَدْ عَبَّرُوا عَنْهَا بِصِدْقٍ وَهُمْ عِنْدَ أبواب جهَنَّمَ، لَكِنَّهَا لَا تُطَابِقُ وَاقِعَ حَالِهِمْ حِينَمَا يُعَادُونَ إلى الامْتِحَانِ مَرَّةً أخْرَىٰ، وَتَكُونُ صَفَحَاتِ ذَاكِرَاتِهِمْ بَيْضَاءَ لَيْسَ فِيهَا مِمَّا شَهِدُوا منْ أحداث وَوَقَائِعِ يَوْمِ الدِّينِ شيءٌ، ويكُونُونَ مِثْلَمَا كَانُوا فِي رِحْلَةِ الامْتحانِ الْأُولَى.

■ وعَلَىٰ طَرِيقَةِ التَّنَقُّل بَيْنَ عَرْضِ مَشَاهِدَ مِنَ الحياةِ الأُخْرَىٰ يَوْمَ الدِّينِ، وَعَرضِ لقَطَاتٍ مِنْ وَاقِعِ حَالِ المعْنِيِّينَ بالبيان في الحياة الدُّنيا، بِفَنِّيَّةٍ بَيَانِيَّةٍ عجِيبَة، يَقُول اللهُ عزَّ وجلَّ مُبَيّناً عَقِيدَتَهُمْ في البَعْثِ وَيَوْمِ الدِّين:

• ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

عَبَّرَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَنْ مَقَالَةِ المعْنِيِّين بالْبَيَانِ بِشَأْنِ الْبَعْثِ والحياةِ الأخْرى، وكُفْرِهِمْ بِهِما، وَهي مَقَالَةٌ تُعبِّرُ عَنْ أَوْهَام كُلِّ الكَافرين، الَّتِي صَارَتْ لَدَيْهِمْ عَقِيدَةً مُوجِّهَةً لسُلُوكِهم فِي الحياة الدُّنيا، فَجعَلَتْهُمْ يُكَذِّبُونَ رُسُلَ رَبِّهِمْ، ويُكَذِّبُونَ بآيَاتِهِ، وهِيَ أَنَّ الحَياةَ مُقْتَصِرَةٌ عَلَىٰ الحياة الدُّنيا فقط، ولَا تُوجَدُ حَيَاةٌ أُخْرَىٰ بَعْدَهَا فَلَا بَعْثَ، وَلَا حَشْرَ، وَلا حِسَابَ، ولَا فَصْلَ قضاءٍ رَبَّانِيّ، وَلَا جزاء.

«إِنْ» هُنَا حَرْفُ نفي بمعنى «ما» النافِية. «هِيَ» ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَىٰ مُلَاحَظٍ ذِهْناً، وهو «حَياتُنَا» وهَـٰذَا الملاحَظُ في الذِّهْنِ مُفَسَّرٌ بما جاءَ بعد «إلا» أي: ما الحياة كلها التي هي لنا في الوجود كُلِّه إلا حياتنا الدنيا هَـٰذِهِ الَّتِي نَحْيَاهَا، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثينَ لِحيَاةٍ أُخْرَىٰ يَكُونُ فيها الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتَنْفِيذُ الجزَاء.

■ وبَعْدَ هَـٰذِهِ اللَّقْطَةِ البيانِيَّةِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ عَقِيدَة أَهْلِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في الْبَعْثِ، وهُمْ في الحياة الدُّنيا، يَنْتَقِلُ الدَّرْسُ إِلَىٰ عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ وُقُوفِهِمْ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِم يَسْأَلُهُمْ وَيُحَاسِبُهُمْ لِيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بِشَأْنِهِمْ، على طَرِيقَةِ التَّنَقُّلِ بَيْنَ دُنْيَا الابْتِلَاءِ، وآخِرَةِ الجزاء، فَيَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: ولو تَرَىٰ أَيُّهَا الرَّائِي المؤهَّلُ لِأَنْ تَرَىٰ أيًا كُنْتَ، المكَذِّبِينَ بالْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّينِ وَأحداثِ يَوْمِ الدِّين، الَّتِي جاءَ بِهَا عَنِ اللهِ الخَبَرُ

اليقين، حِينَ وُقِفَ هَٰؤلَاءِ عَلَىٰ مَوْقِفِ مُحاكَمَةِ رَبِّهم لهم، لَرَأَيْتَ ذِلَّتَهُمْ واعْتِرَافَهُمْ بأَنَّ مَا كانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ في الدُّنيا حَقٌّ، ولرأيْتَ حَلفَهُمْ بِرَبِّهِمْ عَلَىٰ أَنَّهُ حَقٌّ، ولَرَأيْتَ الْحُكْمَ عليهم بأَنْ يَذُوقُوا العذابَ الأَبَدِيَّ في جَهَنَّمَ، بِسَبَبِ مَا كَانوا يَكْفُرُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحانهم.

جوابُ حَرْف الشرط «لَوْ» الذي جاء في صَدْرِ الآيةِ اسْتَخْرَجْتُهُ مِنْ طَيِّ مَثْنَاةٍ مِنْ مَثَانِيها، ودَلَّ عَلَيْهِ مَا جاء في سائر الآيَةِ.

وحُذِفَت أيْضاً عبارة: «مَوْقِفِ مُحاكَمَةِ» بَيْن [**عَلَىٰ**] و[**رَبِّهِمْ**].

وهذان الحذفان المدْرَكان ذهْناً من الإيجاز المعهود في القرآن المجيد.

وجاء التعبيرُ بالفعل الماضي ﴿وُقِفُواْ﴾ كالذي جاء في الآية (٢٧) ويقالُ هُنَا نظير الذي جاء في التدبُّر هناك.

• ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾؟: أي: قَالَ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظم سُلْطَانُهُ ـ لِلَّذِينَ كانُوا كَافِرِينَ فِي الحياة الدُّنيا، مُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّين، وبأَحْدَاثِ يَوْم الدِّين الّتِي جاءَهُمْ بِهَا الْخَبَرُ اليقينُ، على لِسَانِ رَسُول رَبّهم الصادق الأَمين، أَلَيْسَ هَٰذَا الذي كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ به، وتُكَذِّبُونَ به رَسُولَ رَبِّكُمْ بأمْرٍ وَاقِعٍ حَقٍّ لَا رَيْبَ فِيه؟؟

الباء في ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾ مَزِيدَةٌ لِلتَّوكِيد، أي: أَلَيْسَ هَٰذَا حَقًّا مُؤَكّداً.

• ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾: أي: بَلَىٰ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَكَّدُوا اعْترافَهُمْ بالْقَسَمِ بِرَبِّهِمْ: ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾ تَذَلُّلاً واسْتِعْطَافاً.

لفظ «بَلَىٰ» حَرْفُ جواب، ويَخْتَصُّ بالنَّفْي، ويُفِيدُ إبْطَالَهُ، وَإبْطَالُ النَّفْي هُنَا مَعْنَاهُ إثْبَاتُ أَنَّ هَٰذَا الّذِي يُشَاهِدُونَهُ يَوْمَ الدِّينِ حَقٌّ، وفي هذا الاعْتِرَافِ حُكْمٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بأَنَّهُمْ كانُوا في الحياة الدُّنيا كافِرينَ بالْحَقِّ الّذِي جاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّهِمْ بَلاغاً عَنْه.

• ﴿... قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: ﴿قَالَ﴾ اللهُ عزَّ وجلَّ لَهُمْ: لَقَدْ حَكَمْنَا عَلَيْكُمْ بالْخُلُودِ في عذاب النار حُكْماً عَادلاً، عَلَىٰ وَفْقِ بَيَانَاتِنَا الَّتِي بَلَّغَكُمْ إيَّاهَا رُسُلُنَا، وأنْزَلْنَاهَا إِلَيْكُمْ ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا﴾ أَيْ: بِسَبَبِ مَا ﴿كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ جُحُوداً واسْتِكْبَاراً واتّباعاً لِلْأَهْوَاء.

الفاء في ﴿فَذُوقُواْ﴾ فَصِيحةٌ عَطَفَتْ على مَحْذُوفٍ يَسْهُلُ عَلَىٰ المتدبّر إدْراكُ مَعْنَاهُ.

على الْمُتَدَبِّر أَنْ يَلْحَظَ مَا فِي مَثَانِي هَـٰذِهِ العبارة مِنْ مَطْوِيَّاتٍ مَحْذُوفَاتٍ من مَنْطُوقِ اللَّفظ، ولَيْسَ من الصَّعْبِ علىٰ المتدبّرِ اسْتِخْرَاجُ مَعَانِيها كَما سَبَقَ بَيانُه.

▪ وَيَنْتَقِلُ الدَّرْسُ إلى بَيانٍ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ نُصْحٍ غير مُبَاشِرٍ لِكُلِّ مَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ، لِئَلَّا يَقَعَ بِمِثْلِ الَّذِي وَقَعَ وَيَقَعُ بِهِ الكافِرُونَ المكذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين، وبحقائِقِ الدِّينِ الَّذِي بَلَّغَهُ رُسُلُ الله الصادقون، فقال الله عزَّ وجلَّ فيه:

• ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

وقُرِئ: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ عَلَىٰ الإضافة، وهي من التَّفَنُّنِ في التعبير.

وقُرئ: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بضمير الغائبين، وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني، إحْدَاهُمَا بالخطاب، والأُخْرَىٰ بِالْحَدِيثِ عَنْهُمْ لغيرهم.

• ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾: أي: قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وكُلَّ

شيءٍ لَهُمْ، إذِ اختارُوا لِأَنْفُسِهِمْ سُلُوكَ الطَّرِيقِ الموصِلِ حَتْماً إلى الْخُلُودِ في عَذَابِ النَّارِ، بِكُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ بِيَوْمِ الدِّين.

والمرادُ: ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ لِقَاؤُهُ لسُؤَالِهِمْ عَمَّا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، ولمُحَاسَبَتِهِمْ، وَلِلْحُكْم عَلَيْهِم، والْأَمْرِ بِنْفِيذِ جزائِهِم، بَعْدَ بَعْثِهِمْ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ، وهَـٰذَا أَمْرٌ كَانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ وهُمْ في حَيَاةِ الامْتِحَانِ.

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾: «حتَّىٰ» هُنَا حَرْفُ ابتداءٍ لَا عَمَلَ لَهُ، وَلَيْسَ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ الغايَة.

﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: يُمْكِنُ حَمْلُ لفظِ «السَّاعَةِ» هُنَا على ساعَةِ مَوْتِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنم، وعَلَىٰ سَاعَةِ إِنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وعَلَىٰ سَاعَةِ الْبَعْثِ للحياة الْأُخْرَىٰ مِن الأجْدَاث.

﴿بَغۡتَةً﴾: أي: فَجْأَةً فَهِيَ بَاغِتَةٌ لَهُمْ. ولفظ «بَغْتَة» هُنَا مَصْدَرٌ في مَوْضِعِ الحال، أي: جاءتهم الساعَةُ مُبَاغِتَةً لهم.

﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾: فِعْل: «قَالُوا» جواب الشَّرْطِ في: ﴿إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

• ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ عِبَارَةُ نِدَاءِ حَسْرَةٍ وَنَدَمٍ، يَقُولُهَا كُلُّ واحدٍ مِنْهُمْ.

وهي تُعَبِّرُ عَنِ النَّدَمِ والتَّحَسُّرِ والتَّفَجُّع. وَحَرْفُ النّداء «يا» يَدُلُّ عَلَىٰ شِدَّةِ انْدِفَاعِ مَشَاعِرِهِمْ لِإيصَالِ تَحَسُّرِهِمْ لِمَنْ يُمْكِنُ أَنْ يَرْحَمَهُمْ وَيَعْطِفَ عَلَيْهِم.

• ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾: أي: عَلَىٰ مَا قَصَّرْنَا وَضَيَّعْنَا وَتَرَكْنَا فِي الحياة الدُّنيا، مِمَّا هُوَ سَبَبُ نَجاتِنَا وَسَعَادَتِنَا الأَبَدِيَّة يَوْم الدين.

يقال لغة: «فَرَّطَ الشيْءَ» و«فَرَّط فِيه» أي: قَصَّرَ فيه وضَيَّعَهُ حَتَّىٰ فَاتَ.

• ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾: أي: والحالُ أنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أحْمَالَهُمُ الثقِيلَةَ مِنَ المعاصِي والذُّنُوب والآثَام والجرائِم الكُبرَىٰ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ، كما تَحْمِلُ الْبِغَالُ والْحَمِيرُ الأَحْمَالَ الثقِيلَة على ظُهُورِهَا.

الْوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثقيل، وأُطْلِقَ عَلَىٰ الذَّنْبِ تَشبيهاً للذَّنبِ بالْحِمْلِ الذي تَحْمِلُهُ الدَّابَةُ مِنْ أَشْيَاءَ ثَقِيلَةٍ، كَالْأَحْطَابِ والأَحْجَارِ. وجَمْعُ الْوِزْرِ «الْأَوْزار».

والمعنى: ونُفُوسُهُمْ تَشْعُرُ بِثِقَلِ مَا قَدَّمَتْ مِنْ مَعَاصٍ، وذُنُوبٍ وجَرائِمَ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا، وهُمْ يَترَقَّبُونَ مُحاكَمَةَ اللهِ لَهُمْ، كَمَا يَشْعُرُ حَامِلُ الْحِمْلِ الثَّقِيلِ بِثِقَلِ الْحِمْلِ عَلَيْه.

واخْتِيرَتْ عبارَةُ: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ للدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ أشْبَاهُ الدَّوابِ الّتِي تَحْمِلُ الأَحْمَالَ عَلَىٰ ظُهُورِها، وَقَدْ كانُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيا مِثْلَ الْأَنْعَامِ وأضَلَّ سَبيلاً.

• ﴿... أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾: **«أَلَا»** أداةُ استفتاحٍ وتَنْبِيهٍ وَتَحْقِيق. **«سَاءَ»** فعْلٌ يُقَالُ في إنْشاء الذَّمِّ على سَبِيلِ المبالغة مثل: «بِئْسَ».

«مَا يَزِرُونَ»: أي: مَا يَحْمِلُونَ مِنْ آثَام وذُنوبٍ وجرائم. يقال لغة: «وَزَرَ، يَزِرُ، وِزْراً، وِزرَةً» أي: حَمَلَ مَا يُثْقِلُ ظَهْرَهُ مِنْ أَحْمَالٍ ثقيلَة.

■ قول الله تَعالَىٰ:

• ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾: أيْ: وَمَا الْعَمَلُ لِتَحْقِيق مَا يَطْلُبُ جميعُ النّاس من الحياة الدُّنيا إلَّا لَعِبٌ ولَهْوٌ، ونؤكِّدُ لَكُمْ أنَّ الْعَمَلَ لتحقيق السَّعَادَة في دَار النعيم، التي هي الدّارُ الآخِرَة العظيمة، خيْرٌ للَّذِينَ يُطِيعُونَ أَوَامِرَ اللهِ ونواهِيَه، ويتقُونَ العقابَ على معصيته.

• ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ استفهامٌ يُرادُ بِهِ الحَثُّ عَلَىٰ الْعَقْلِ، بِمَعْنَىٰ العقلِ العلميّ وبمَعْنَى الْعَقْلِ الإرادِيّ.

جاء في القرآن المجيد وصْفُ الْعَمَلِ لتحقيق مَتَاعَاتِ الناس من الحياة الدُّنيا في أرْبَعَة نُصُوصٍ، هَـٰذَا أَوَّلُهَا بِحَسَبِ تَرْتِيب النُّزُل، وفيه قَصْرُ هَـٰذِهِ المتاعَاتِ عَلَىٰ اللّعِبِ واللَّهْو، بِتَقْدِيم اللّعِب عَلَىٰ اللَّهْو.

■ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ بَعْدَهُ في سورة (الْعَنْكَبُوتِ/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قولَهُ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾: وقُرِئَ بإسْكانِ الهاء من ﴿لَهْيَ﴾.

﴿لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾: أي: لَهِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ، الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُسَمَّىٰ حَياةً خَالِيَةً مِنَ الْمُنَغِّصَاتِ والْأَكْدَارِ والْمَوْتِ، والمرادُ حَيَاةُ المؤمنين المتَّقين فيها. ولفظ «الحيوان» مَصْدَرٌ لِفِعْل «حَيِيَ». يُقَالُ لُغَةً: «حَيِيَ، يَحْيَا، حَيَاةً، وحَيَواناً».

ولو كَانَ الناسُ يَعْلَمُونَ الحقيقةَ، لَعَلِمُوا أَنَّ الحيَاةَ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ هِي الحياة الحقيقيَّة الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهَا لَفْظُ «الحياة» الكامِلَةِ بالنِّسْبَةِ إلى الْخَلَائِق.

وجاء في هَـٰذَا النصّ تَقْدِيمُ اللَّهْوِ عَلَىٰ اللَّعِب، مَع الْحَصْرِ كالنَّصِّ السابق.

■ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (الْحَدِيد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) خِطاباً للنَّاس:

• ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ

حُطَٰمًاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾:

وقرأ شُعْبة: ﴿ورُضْوانٌ﴾ بِضَمّ الراء، وهي لُغَةٌ.

فجاء في هذا النّصّ تَقْدِيمُ اللّعِبِ علَىٰ اللّهْوِ، وإضافة الزّينَةِ، والتّفاخُرِ، والتّكاثُر، مع الْحَصْر.

وجاء في هَٰذَا النّصِّ تَشْبِيهُ الحياةِ الدُّنيا بِفَصْلٍ من الْفُصُولِ الزِّراعيَّة، إذْ يَبْدَأُ بِالْغَيْثِ، ويكُونُ في أَوَاسِطِهِ نَبَاتاً مُعْجباً للزّارِعين، ثُمَّ يعرُضُ لَهُ التنكِيسُ، فَيَيْبَسُ وَيَصْفَرُّ، ثُمَّ يَتَحطَّمُ وَيَتَكَسَّرُ، ثُمَّ يَضْمَحِلُّ وَيَعُودُ تُراباً.

أمَّا الآخِرَةُ فالنَّاسُ فِيها عَلَىٰ أحْوالٍ ثَلاثَة بِحَسَبِ أقْسَامِهِمْ وما قَدَّمُوا.

(١) فالكافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ خَالِدٌ في دار العذاب النَّار، على دَرَكاتِهِمْ.

(٢) والمؤمِنُونَ لَهُمْ مغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ، ولَوْ بَعْدَ أَنْ يَنالَ مَنْ يُعَذَّبُ مِنْهُمْ مِقْداراً مِن الْعَذَابِ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ وآثَامِهِ، إِذَا لَمْ تَشْمَله رَحْمَةُ اللهِ بالمغْفِرَةِ شُمُولاً كامِلاً، وهؤلَاءِ يَكُونُونَ مِنْ أهل مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، لَا يَرْتقون إلى مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، فَمَرْتَبَةِ الإحسان.

(٣) وَالْأَبْرارُ والْمُحْسِنُونَ، وهُمُ الَّذِينَ ارْتَقَوْا بأعْمالِهِمُ الصَّالِحَةِ فَوْقَ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ، وَسَابَقُوا إِلَىٰ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، فَدَرَجاتِ مَرْتَبة الإحْسَان، لَهُمْ مِنَ اللهِ رِضْوَان، أي: ثوابٌ عَظِيمٌ يُنَاسِبُ رِضَاهُ عَنْ مَسِيرَتِهِم في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ عَبْرَ الحياة الدُّنيا، وَيَكُونُونَ فِي جَنَّات النَّعِيم بِحَسَبِ دَرَجَاتِهِمُ الَّتِي يَتفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِهَا، بِسَبَبِ صَالِحَاتِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

المتاع: ما يُنْتَفَعُ به مُؤَقَّتاً ومَصِيرُهُ إلَىٰ الفناء.

الْغُرُور: مَصْدَرُ فِعْل «غَرَّهُ» بمَعْنَىٰ خَدَعَهُ وأَطْمَعهُ بالْبَاطِل.

يقال لغة: «غَرَّهُ، يَغُرُّهُ، غَرّاً، وَغُرُوراً، وغِرَّةً» أي: خَدَعَهُ وأَطْمعهُ بِالْبَاطِلِ.

فَمَنِ اسْتَحْوذَ عَلَيْهِ الْغُرُورُ دَاخِلَ نَفْسِهِ، أَعْطَىٰ كُلَّ نَفْسِهِ لِمَتَاعِ الحياة الدُّنْيَا، فكَانَتِ الدُّنْيَا هِيَ المسَيْطِرَةُ عَلَيْهِ، عَنْ طَرِيقِ غُرُورِهِ وانْخِدَاعِهِ وَطَمعهِ الَّذِي لَا يُحَقِّقُ لَهُ السَّعَادَةَ الحقيقيَّة، فالدُّنيا مَتَاعُ غُرُوره.

أمّا المؤمِنُونَ المتَّقُونَ فَيَأْخُذُونَ مِنَ مَتَاعِ الدُّنْيَا ما أحَلَّهُ اللهُ وأذِنَ بِهِ، عَنْ طَرِيقِ طَاعَتِهِمْ لِربِّهِمْ، ومَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَةِ الدُّنيا، دُونَ أَنْ تَخْدَعَهُمْ بِزِينَاتِها.

■ فأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ (مُحَمَّدٍ/٤٧ مصحف/ ٩٥) في مَعْرِضِ الحديثِ عَنِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قَرِيبٌ من النفاق الخالص، مُعَالَجَةً لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ وَنفوسِهِمْ:

● ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾:

فجاء في هَـٰذَا النصّ تقديم اللَّعِبِ علَىٰ اللَّهوِ، وجاء فِيهِ الاقتصارُ عَلَيْهما مَعَ الْحَصْر.

ويجب تَدبُّرُ هَـٰذِهِ النُّصُوصِ الْأَرْبَعَةِ تَدبُّراً تَكامُلِيًّا:

اللَّعِبُ: هُوَ في اللُّغَةِ ضِدُّ الجدّ. يُقَالُ لغة: «لَعِبَ، يَلْعَبُ، لَعِباً، ولَعْباً». ويُقَالُ لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلاً لَا يَجْلُبُ لَهُ نَفْعاً: إِنَّمَا أَنْتَ لَاعِب.

ولَدَىٰ مُرَاقَبَةِ أَعْمَالِ النَّاسِ في الحياة الدُّنيا، وطَاقَاتِهِمُ الَّتِي يَبْذُلُونَهَا نَرَىٰ أَنَّهَا تُصَنَّفُ فِي قِسْمِ اللَّعِبِ، لَا فِي قِسْمِ الْجِدِّ النَّافِعِ حَتَّىٰ لمصالِحِ الحياة الدُّنيا.

إنَّ مِئَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ النَّاس يُضِيعُونَ أَوقَاتَهُمْ وَطَاقَاتِهِمْ، فِي مُشَاهَدَاتِ مُبَارَيَاتٍ رِيَاضِيَّةٍ قَدْ تَسْتَفِيدُ مِنْها أجْسَادُ بَعْضِ اللّاعِبِينَ، وهُمْ عَدَدٌ قَلِيلٌ جدّاً بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ المُشَاهِدِين.

وَإِذَا أحْصَيْنَا الْأَوْقَاتَ والطَّاقَاتِ الَّتِي تُنْفَقُ فِي ألْعَابِ الْوَرَقِ، وقِطَعِ النَّرْدِ، وَمَا يُسَمَّىٰ بالزَّهْرِ والطَّاولَةِ وأَشْبَاهِهَا، وَجَدْنَاهَا أَكْثَرَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُكْتَسَبُ بِها الْأَرْزَاقُ وَمَصَالِحُ الْعَيْشِ فِي الحياة الدُّنيا، وهَـٰذِهِ تُصَنَّفُ فِي قِسْمِ اللَّعِبِ.

فاللّعِبُ فِي الْحَياةِ الدُّنيا يَسْتَهْلِكُ مِنَ النَّاسِ أَكْثَرَ أزْمَانِ حَيَواتِ مُعْظَمِهِمْ، ولِهَـٰذَا جَاءَ في نُصُوصٍ ثَلَاثَة مِنَ النُّصُوصِ الْأَرْبَعَةِ تَقْدِيم اللَّعِبِ عَلَىٰ اللَّهْوِ.

اللَّهْو: هو كُلُّ عَمَلٍ أَوْ أَمْرٍ قَلِيلِ الْجَدْوَىٰ يَشْغَلُ وَيُلْهِي عَمَّا هُوَ الْأَحَقُّ وَالْأَجْدَرُ بتَوْجِيهِ الْجَهْدِ والْعَمَلِ لَهُ.

يقال لُغَةً: «لَهَىٰ، يَلْهُو، لَهْواً». ويُقالُ: «الْتَهَىٰ، يَلْتَهِي، الْتِهَاءً».

ويُقَالُ: «أَلْهَاهُ، يُلْهِيهِ، إِلْهَاءً». أي: شَغَلَهُ. **والتَّلَهِّي**: التَّشَاغُلُ عَنِ الشيْءِ بِغَيْرِهِ.

فَمَنْ أنْفَقَ وَقْتَهُ وَبَذَلَ طَاقَاتِهِ فِي أَعْمَالٍ رِبْحُها قليلٌ ضئيلٌ، وكَانَ باسْتِطَاعَتِهِ أنْ يَعْمَلَ في الوقْتِ نَفْسِهِ وفي الطَّاقَاتِ نَفْسِهَا أعْمَالاً أُخْرَىٰ ذَاتَ ربْحٍ وَفِيرٍ وَمَكْسُوبٍ كثير، وهَـٰذِهِ الْأَعْمَالُ مُتَيَسِّرَةٌ لَهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَخْتَرِ القِيَامَ بِها، لِأنّ مَا اخْتَارَهُ مِنَ الأعْمَالِ وافَقَ هَوَاه، يَقُول الْعُقَلَاءُ بِشَأْنِهِ: إِنَّهُ يَلْهُو؛ إذْ يَشْغَلُ نَفْسَهُ بأعْمَالٍ قَلِيلَةِ الْجَدْوَىٰ لأنَّها تُوَافِقُ هواه، ويَتْرُكُ أَعْمَالاً مَيْسُورَةً لَهُ ذَاتَ جَدْوَىٰ عَظِيمَةٍ جَسِيمَةٍ، ورِبْحٍ وَفِير، لِأَنَّهُ لَا يَهْوَاهَا.

دُعِيَ عَالِمٌ فيزيَائِيٌّ لِيَكُونَ مُوَظَّفاً في مَعْمَلٍ تَعْتَمِدُ صِنَاعَتُهُ على عِلْم

الفيزيَاءِ، براتِبٍ شَهْرِيٍّ يُعَادِلُ سِتّين دِيناراً ذَهبيًّا، وَكَانَ يَهْوَىٰ نَظْمَ الشِّعْرِ، فَرَفَضَ الْوَظِيفَةَ ذَاتَ الرّاتِب الشَّهْرِيّ العظيم، لِيَنْظِمَ قصائِدَ الشِّعْرِ الّتِي إنْ جَرَّتْ رِبحاً، فَلَا يَصِلُ المكْسُوبُ بها إلَىٰ ثَلاثِ دَنانِيرَ ذَهَبِيَّة في الشَّهْر. أفَلا يُقَالُ بِشَأْنِهِ: إنَّهُ يَلْهُو بِنَظْم الشَّعْر، ويُضِيعُ عَلَىٰ نَفْسِهِ عَمَلاً هُوَ مَدْعُوٌّ إلَيْهِ، وَقَادِرٌ عَلَيْه، يَأْخُذُ عَلَيه رَاتِباً شَهْرِيًّا قَدْرُه سِتُونَ دِيناراً ذَهَبِيًّا.

هُنَا يَظْهَرُ لَنَا أَنَّ أَعْمَالَ أَكْثَرِ النَّاسِ لِتَحْصِيلِ مَكْسُوبَاتٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيا، زَائِدَاتٍ عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَحَاجَاتِ أُسَرِهِمْ وَمَنْ هُمْ مَسْؤُولُونَ عن الْإنفاقِ عَلَيْهِم، هِيَ مِنْ قَبِيلِ اللَّهْوِ، لِأَنَّهَا تَشْغَلُهُمْ عَنْ أعْمَالٍ ذَوَاتِ أَجْرٍ عَظِيمٍ خَالِدٍ في آخِرَتِهِمْ، لَا يُعَادِلُ كُلُّ مَا يَجْمَعُونَهُ مِنَ الدُّنيا ذَرَّةً مِنْ ذَهَبٍ أوْ شِبْهِ ذَهَبٍ، فِي مُقَابِلِ جَبَلٍ عظيمٍ مِنْ ذَهَبٍ خالِصٍ من الشّوائب.

فالحياة الدُّنيا مُعْظَمُ أعْمَالِ النَّاسِ فيها لِتَحْصِيلِ مَتَاعَاتِهِمْ مِنْها لَعِبٌ وَلَهْو، وبَعْضُهُمْ ذُو جَدٍّ زائِدٍ لِتَحْصِيلِ وجَمْعِ مَكْسُوبَاتٍ مِنْ أموَالِ الدُّنيا، فتكُونَ أعْمَالُهُمْ مِنْ قَبِيلِ اللَّهْوِ أَكْثَرَ مِنَ اللَّعِبِ.

وهؤلَاء يُنَاسِبُ حَالَهُمْ أنْ يقال بشأنِهِمْ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ... ﴿٦٤﴾﴾ وهو ما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) بتَقْدِيم اللَّهْوِ عَلَىٰ اللّعِب.

وبعْضُ النَّاسِ تَزيدُ غَايَاتُ كَدْحِهِمْ لِتَحْقِيقِ مَطَالِبِهِمْ مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيا، فيكْدَحُونَ للاستمتَاع بالزينة، أو للتفَاخُرِ على غيرهم، أو للتكَاثُرِ في الأموال والأولاد.

- فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ شَغُوفاً بِزِينَاتِ الحياة الدُّنَيا، فَيَكْدَحُ لتَزْيينِ نَفْسِهِ، وأَهْلِهِ، وخَدَمِهِ، وجُنْدِهِ، وَدوَابِّهِ، وَمَرَاكِبِهِ، وَقَصْرِهِ، وَمَا يَمْتَلِكُ مِنْ مُنْشَآتٍ وَمُؤَسَّسَاتٍ، بزينَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ مِن زيناتِ الحياة الدُّنيا.

الزّينة: كُلُّ مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ مِنْ ذِي منظرٍ ومَظْهرٍ جميل.

• ومِنْهُمْ مَنْ يكُونُ شَغُوفاً بِما يَجْعَلُهُ بَيْنَ النَّاسِ أكْبَرَ وَأعْظَمَ مِنْ غيْرِه، بِحَسَبِ مَهْنَتِهِ ومستَوىٰ شَرِيحَتِهِ الاجْتِمَاعِيّة. فالْمَلِكُ يُحِبُّ أَنْ يكون أعْظَمَ الْمُلُوك. والتَّاجِرُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أعْظَمَ التُّجَّارِ وشَيْخَهُمْ. والأسْتَاذُ يُحِبُّ أَنْ يَكُون أعْظَمَ الْأَسَاتِذَةِ وَأكْبَرهُمْ لَقَباً. والمرأةُ تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ أَجْمَلَ النِّسَاءِ وأَرْفَعهُنَّ حَسَباً وَنَسَباً. والْقَوِيُّ فِي جِسْمِهِ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ بَطَلَ الْأَبطال. والصَّانِعُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أَمْهَرَ الصُّنَّاعِ فِي مَهْنَتِهِ وأسْتَاذَهُمْ وإمَامَهم. والْخَطِيبُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أخْطَب الْخُطَباء. والشَّاعِرُ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ أشْعَرَ الشُّعَرَاء.

وَيَتَنَافَسُ النَّاسُ في مضامِيرِهِمْ لِينَالُوا السَّبْقَ كُلَّهُ أَوْ دَرَجاتٍ مِنْهُ، وَهٰذَا مِنَ التَّفَاخُرِ بَيْنَ بَعْضِ النَّاسِ، ولَيْسَ سِمَةً لِكُلِّ النَّاس.

الْفَخْر: تَباهِي الإنْسَانِ بما لَهُ وبِمَا لِقَوْمِهِ مِنْ محاسِنَ.

والتَّفَاخُرُ: هُوَ التَّعَاظُمُ والتَّكَبُّرُ، والتَّبَاهِي بالتَّفَوُّقِ في المحَاسِنِ وأنْوَاعِ الفضل.

• ومِنْهُمْ مَنْ يَشْتَدُّ شَغَفُهُ بأَنْ يَكُونَ أكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ أمْوَالاً وأَوْلَاداً، فَيَكْدَحُ كَدْحاً شدِيداً لِيُحَقِّقَ لِنَفْسِهِ هٰذِهِ الكَثْرَةَ.

وهذه لَيْسَتْ سِمَةً لِكُلِّ النَّاسِ، بَلْ تَكُونُ سِمَةً لِبَعْضِهِمْ.

ومُرَاعَاةً لِأَحْوَالِ هٰؤُلاءِ الأقْسَامِ مِنَ النَّاس جاء في آية سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول) إضافَةُ الزينَةِ، والتَّفَاخُرِ، والتَّكَاثُرِ، إلَىٰ اللَّعِبِ، واللَّهْوِ. أمَّا النُّصُوص الثّلاثَةُ الْأُخْرَىٰ فاقْتَصَرَتْ عَلَىٰ ذِكْرِ اللَّعِبِ واللَّهْو، لِأَنَّهُمَا الأمْرَانِ اللَّذَانِ يَشْتَرِكُ النَّاسُ فِي كَدْحِهِمْ بِهِمَا.

وبهذا التَّدَبُّرِ التكامُلِيِّ فَهِمْنَا سِرَّ اخْتِلَافِ النُّصُوصِ حَوْلَ هٰذَا الموضوع.

أَمَّا أعْمَالُ التَّقْوَىٰ والْبِرِّ والإحْسَانِ الَّتِي تُرْضِي الرَّحْمٰن، فَغَايَتُهَا تَحْقِيقُ السَّعَادَةِ فِي الْأُخْرَىٰ، وَلَا تُحْسَبُ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَكْدَحُ الإنْسَانُ فِيهَا لِدُنْيَاهُ، بَلْ لِأُخْرَاه.

■ ويَنْتَقِلُ الدَّرْسُ إلَىٰ مُعَالَجَةِ نَفْسِ الرَّسُولِ ﷺ في هَـٰذَا الطَّوْرِ مِنْ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ لِقَوْمِهِ فِي مَكَّة إبَّانَ نُزُول سورة (الأنعام) فيقولُ اللهُ تَعالى خِطَاباً له:

• ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

وفي قِرَاءَة يعقوب: [يَرْجِعُونَ] بالبناء للمَعْلُوم، وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، أي: يُرْجِعُهُمُ اللهُ لِلْحِسَابِ والْجَزَاءِ يَوْم القيامة، فَيَرْجِعُونَ مُطَاوِعِين بالْجَبْر.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَاتُ عَلَىٰ أَنَّ كُبَرَاءَ مُشْرِكِي مكَّة المُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، كانُوا قَدْ زَادُوا مِنْ أَقْوَالِهِم الَّتِي يُرَدِّدُونَهَا بِوُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ، وفِيهَا اتِّهَامٌ للرَّسُولِ بِأَنَّهُ مُفْتَرٍ كَذَّابٌ فِيمَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ في القرآن وفي البيانَاتِ الأُخْرَىٰ، وزَادُوا فِي إيذائِهِمْ لَهُ، وأَنَّ ذَلِكَ كانَ يَحْزُنُه كُلَّمَا بَلَغَتْهُ اتِّهَامَاتُهُمْ لَهُ بالكَذِب، وَكُلَّمَا بَلَغَتْهُ إيذاءَاتُهُمْ له.

ودَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُتَابِعُونَ مُطَالَبَتَهُ بالآيَاتِ الْخَوارِقِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِهِ، وهُمْ كَاذِبُونَ، فَلَوْ أَنَّ اللهَ أَجْرَىٰ لهم مَا يَطْلُبُونَ مِنْ آياتٍ لَمْ يُؤْمِنُوا فاللّٰهُ عَلِيمٌ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ.

ودَلَّتْ عَلى أنّ نَفْسَ الرَّسُولِ كَانَتْ تَتَشَوَّفُ لإنزالِ بعض الآيات استجابةً لإلْحَاحَاتهم.

وقد عَالَجَ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ رَسُولَهُ فِي هَـٰذِهِ الآيَاتِ بِمُعَالَجَاتٍ إقْنَاعِيَّةٍ وَتَرْبَوِيَّةٍ ثَمَانٍ:

المعالَجَةُ الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَول اللهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

• ﴿قَدْ﴾ هُنَا للتَّحْقِيقِ وَلَوْ دَخَلَتْ على المضارع، وفي التحقيقِ مَعْنَىٰ التوكيد.

• ﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾: أي: الَّذي يَقُولُهُ أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة، مُكَذِّبينَ لَكَ في أنَّكَ نَبيُّ اللهِ ورسُولُهُ، وفي أنَّ مَا تَتْلُو عليهم مِنْ آياتِ القرآنِ كَلامٌ مُنَزَّلٌ عَلَيْكَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

• ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾: أي: فإنَّهُمْ في حَقِيقَةِ الأَمْرِ لا يُكَذِّبُونَكَ صَادِقِينَ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ، لاستيقانِهِمْ بِأَنَّكَ صَادِقٌ فِيمَا تُبَلِّغُ عَنْ رَبِّكَ، وَهُمْ يُخْفُونَ هَـٰذَا الاسْتِيقَانَ في أنْفُسِهِمْ.

• ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾: وُضِعَ الاسْمُ الظَّاهِر وهُوَ لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِبَيَانِ اتِّصَافِهِمْ بالظُّلْمِ الشَّنِيعِ، ومِنْهُ جُحُودُهُمْ بآياتِ اللهِ مَعَ عِلْمِهِمْ بأنَّهَا آياتٌ مُنَزَّلاتٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

الْجُحُود: إنْكَارُ الحقِّ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ حَقٌّ. يقال لغة: «جَحَدَ الأمْرَ، وَجَحَدَ بِالْأَمْرِ، يَجْحَدُ، جَحْداً، وجُحُوداً»: أي: أنْكَرهُ وهو عَالِمٌ بِأَنَّهُ حَقٌّ. ويقال: «جَحَدَهُ حَقَّهُ، وجَحَدَهُ بِحَقِّهِ».

الظَّالِمُ: المتجاوزُ لِحُدُودِ الْحَقّ، الّذِي يُعَرِّضُ نَفْسَهُ للعقاب على تجاوُزِه.

فالمعْنَىٰ: لَا تَحْزَنْ يَا مُحَمَّدُ مِنْ أَجْلِ أَقْوَالِهِمُ الَّتِي يُكَذِّبُونَكَ بها، ويُؤْذُونَكَ بِها، فَإِنَّهُمْ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ لَا يُكَذِّبُونَكَ، وإِنَّهُمْ في حقيقةِ نُفُوسِهِمْ مُسْتَيْقِنُونَ بِأَنَّ مَا تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ من قرآنٍ هُوَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يُنْكِرُونَهَا جُحوداً، لَا شَكًّا فِي أَنَّهَا حَقٌّ وَصِدْق، فَلَا تَعْبَأْ بِهِمْ وَلَا تَهْتَمَّ لِأَقْوَالِهِمْ، إِنَّهُمْ سَاقِطُونَ في أوحالِ الْجُحُودِ، ولَيْسُوا بِشاكِّين.

المعالَجَةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ... ﴿٣٤﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ﴾: اللَّامُ وَاقِعَةٌ في جواب قَسَم مَنْوِيٍّ. و«قَدْ» حَرْف تحقيق وفيه معْنَىٰ التوكِيد، لتخفيف الحالَةِ النَّفْسِيَّة لَدَىٰ الرَّسُول ﷺ.

أيْ: وَأُأَكِّدُ لَكَ تَوْكِيداً مُشَدَّداً يَا مُحَمَّدُ، أَنَّ رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ كُذِّبُوا وأُوذُوا وَهُمْ يُؤدُّونَ في أُمَمِهِمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، فَصَبَرُوا عَلَىٰ تَكْذِيبِ أُمَمِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ لَهُمْ، واسْتَمَرُّوا صَابِرِينَ حَتَّىٰ أتَاهُمْ نَصْرُنَا.

فَاصْبرْ كَمَا صَبَرُوا، وَتَحَمَّلِ الْأَذَىٰ كَمَا تَحَمَّلُوا، حَتَّىٰ يأتِيكَ ويَأتِي الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ نَصْرُنا، وفي هذا وَعْدٌ ضِمْنِيٌّ لَهُ بالنَّصْرِ، بأسْلُوبِ حِكَايَةِ اللهِ نَصْرَهُ لِلرُّسُلِ السَّابقين، وهو من الكناياتِ النَّفِيسَةِ.

المعالجة الثالِثَة: دلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي: وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ الَّتِي تَمَّ بِهَا تَقْدِيرُهُ وَقَضَاؤُهُ السَّابقان. ومِنْ تَقديرِهِ وَقَضَائِهِ اللَّذَيْنِ قَالَ بِهِمَا كَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا مُبَدِّلَ لها ما يلي:

(١) أَنَّ كُلَّ مَوْضُوعٍ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضعَ الامْتِحَانِ هو حُرُّ الإرادَةِ في اختياراتِهِ، ضِمْنَ مَجَالَاتِ ابْتِلَائِهِ، فلا يَسْلُبُ اللهُ النَّاسَ حُرِّيَاتِهِمْ ويَجْعَلُهُمْ مَجْبُورين.

(٢) أَنَّ اللهَ لَا يُجْرِي خوارِقَ آياتِهِ الإعجازِيَّة، على خِلَافِ سُنَنِهِ

التَّكْوِينيَّةِ، إِذَا كَانَ إِجْرَاؤهَا عَبثاً، ومِنْ إِنْزَالِهَا عَبثاً إِنْزَالُهَا لِقَوْمٍ لَا يَنْقُصُهُمُ الاسْتِيقَانُ بالْحَقِّ، إذ هُمْ مُسْتَيقِنُونَ في نفوسِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ جاحِدُونَ، فَلَو آتَاهُمُ اللهُ مَا طَلَبُوا مِنْ آياتٍ لَمْ يُؤْمِنُوا، ولَقَالُوا: إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ مَسْحُورُون.

(٣) أَنَّ اللهَ لَا يُعَجِّلُ عِقَابَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدعَوَةِ رُسُلِهِ، بَلْ يُمْهِلُهُمْ حَتَّىٰ آخِرِ زَمَنٍ، يُمْكِنُ أَنْ يَتَرَاجَعَ فِيهِ إِنْسَانٌ مَا عَنْ عِنَادِهِ، وإِصْرَارِهِ عَلَىٰ الْبَاطِلِ، تَراجُعاً باختِيَارِهِ الْحرِّ، وهُوَ مَا زَالَ في ظُرُوفِ حَيَاةِ الابتلاء. ظروفِ وجُوب الإيمان بالْغَيْب، لَمْ يَشْهَدْ مَشَاهِدَ من الْغَيْبِ، ولا آياتٍ عُظْمَىٰ هِي مِثْلُ مَشَاهِدِ عَالَمِ الْغَيْبِ كَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبها وظهُور الدابَّةِ الَّتِي تكلم الناس.

فَتَعْجِيلُ العقابِ قَبْلَ وَقْتِهِ الحكيم، مخالِفٌ لِكَلِمَاتِهِ التَّامَاتِ الَّتي لا مُبَدِّلَ لها، وَلَوْ أَحْزَنَ الكافِرُونَ رُسُلَهُ بِتَكْذيبِهِمْ وإِيذَاءاتِهِمْ لَهُمْ.

(٤) أَنَّ رُسُلَ اللهِ مَوْضُوعُونَ أَيْضاً فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ عَلَىٰ مَقَادِيرِهم، فَمِنْ ظُرُوفِ الحيَاةِ الدُّنيا أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جَعَلَ بَعْضَ النَّاسِ فِتْنَةً لِبعْضٍ، لِيَبْلُوَ مَنْ يَصْبِرُ، وَمَنْ يَضْجَرُ وَلَا يَصْبِرُ، ولِيَجْزِيَ كُلًّا بِحَسَبِهِ.

المعالَجَة الرَّابِعَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾: ﴿وَلَقَدْ﴾ هُنَا كَسَابِقَتِهَا في الآيَة: ﴿مِن﴾ للتبعيض.

أي: وَلَقَدْ جَاءَكَ فِي بَيَانَاتِنَا السَّابِقَاتِ بَعْضُ نبأِ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ كَذَّبَتْهُمْ أَمَمُهُمْ، أَو كذَّبَهُمُ الْمَلأُ مِنْ أممِهِمْ وَأَئِمَّتُهُمْ وَقَادَتُهُمْ وآذَوْهُمْ.

فَلَيْسَ مَا جرَىٰ لَكَ يَا مُحمَّدُ مِنْ قَوْمِكَ عَلَىٰ خِلافِ مَا جَرَىٰ للرُّسُلِ السَّابِقِينَ مِنْ أُمَمِهِمْ وَأَقْوَامِهِمْ.

إِنَّ مِنْ لَوَازِمِ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ في النَّاسِ الَّتِي مُنِحَتْ لَهُمْ لابْتِلَائِهِمْ في

ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا، أَنْ يُوجَدَ فِيهِمْ مُؤْمِنُونَ وَكَافِرُونَ، وأَنْ يُكَذِّبَ الكافِرُونَ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وأَنْ يُوجَدَ في الكافِرِينَ مَنْ يُعَادُون الرُّسُلَ وَيُؤْذُونَهُمْ، وقَدْ يَهُمُّونَ بِقَتْلِهِمْ، وقَدْ يَقْتُلُونَ بَعْضَ أَنْبِيَائِهِمْ إِذَا لَمْ يَعْصِمْهُمُ اللهُ مِنْهُمْ.

المعالَجَةُ الْخَامِسَة: دلَّ عَلَيْها قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ . . . ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ الْهَمُّ والْحُزْنُ بِسَبَبِ إِعْرَاضِ مَنْ تَحْرِصُ على إيمانِهِمْ وإسلامِهِم، وبسبب عَدَمِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِكَ، فَثَقُلَ عَلَىٰ مَا لَدَيكَ مِنْ احْتِمَالٍ وَصَبْر، وأَرَدْتَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ خَارِقَةٍ مُعْجِزَةٍ، تَلْبِيَةً لطلبَاتِهِم الْمُلِحَّةِ، وظَانًّا أَنَّكَ إِنْ جِئْتَهُمْ بآيَةٍ عَلَىٰ وفْقِ طَلَبِهِم سَيَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَتِكَ، فاصْنَعْ مَا تَسْتَطِيعُ صُنْعَهُ.

وأَبَانَ اللهُ لِرَسُولِهِ عَجْزَهُ عَنْ أن يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ خَارِقَةٍ مُعْجِزَةٍ، لِيُسْمِعَ الْكَافِرِينَ أَنَّ مَا أَجْرَاهُ لَهُ مِنْ آيَةِ انْشِقَاقِ الْقَمَر، والإِسْرَاءِ إلى بيتِ المقدِس وَعَوْدَتِهِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَوَصْفِهِ لِبَيْتِ المقْدِس كأَنَّهُ فِيهِ يُشَاهِدُه، لَمْ يَكن مِنْهُ، وإِنَّمَا أَجْرَاهُ اللهُ لَهُ بِخَلْقِهِ، لإِقْنَاعِهِمْ بِصِدْقِ نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ.

وَجَاءَ هذا التَّعْجِيزُ بِأُسْلُوب: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ أي: فافْعَلْ ولَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ خَارِقَةٍ، لأَنَّ الآيَاتِ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يُجْرِيها إِلَّا وَفْقَ حِكْمَتِهِ، فالإِتْيَانُ بِهَا عَلَىٰ خِلَافِ الْحِكْمَةِ عَبَثٌ تَعَالَىٰ الرَّبُّ عَنْهُ، وَجَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُهُ.

﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾: أي: أَنْ تَطْلُبَ بِعَمَلِكَ وصُنْعِك.

المعالَجَةُ السَّادِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿. . . وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: ولَوْ شَاءَ اللهُ جَمَعَ النَّاسِ كُلِّهِمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ إيماناً وإسلاماً، لَسَلَبهُمْ إرادَاتِهِمُ الْحُرَّةَ، ولجعَلهُمْ مَجْبُورِينَ، وحينئذٍ يَكُونُون مَهْدِيِّينَ بالْجَبْرِ، لَكِنَّ اللهَ لَمْ يَشَأْ هَـٰذَا، بَلْ شَاءَ أَنْ يَمْتَحِنَهُمْ عَنْ طَرِيقِ اختيارهم الْحُرِّ، فَجَبْرُهُمْ عَلَىٰ الإيمَانِ يَتَنَافَىٰ مَعَ تَخْييرِهِمْ لابْتِلَائِهِمْ، إِنَّهُ لَا يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ الممتَحَنُ المبْتَلَىٰ مَجْبُوراً، وَلَا يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ الْمَجْبُورُ مُمْتَحَناً، هَـٰذَا تَنَاقُضٌ، وحِكْمَةُ اللهِ في الْخَلْقِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَنَاقَضَ، لَا فِي الْأَشْيَاءِ وَلَا فِي لوازمِهَا الْعَقْلِيَّة.

فَمَنْ تَصَوَّرَ أَنَّ إِرَادَةَ اللهِ يَصِحُّ أَنْ تَتَدَخَّلَ لِجَعْلِ إِنْسَانٍ مَوْضُوعِ مَوْضِعَ امْتِحَانِ إِرَادَتِهِ، مَجْبُوراً عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مَهْدِيًّا مُؤْمِناً مُسْلِماً، فَهُوَ جَاهِلٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ، لَا يُدْرِكُ اسْتِحَالَةَ المتناقِضَات.

- **الْمُمْتَحَنُ الْمُبْتَلَىٰ**: هُو حُرُّ الإرَادَةِ في اخْتِيَارَاتِهِ الَّتِي يَخْلُقُهَا اللهُ لَهُ.

- **الْمَجْبُورُ**: لَا تَكُونُ لَهُ إِرَادَةٌ حُرَّةٌ تَخْتَارُ.

- **لَا يَكُونُ** المخْلُوقُ الواحِدُ، في الزَّمَنِ الواحِدِ، حُرَّ الإرادَةِ ومَجْبُوراً فِيمَا هو فيه حُرُّ الإرَادَة، هذا تَنَاقُضٌ، وَلَا تَتَعَلَّقُ إِرَادَةُ اللهِ بإيجادِ النقيضَيْنِ مَعاً في الشَّيْءِ الواحد، والزَّمَن الواحد.

ولَيْسَ من حِكْمَةِ اللهِ أَنْ يُكَلِّفَ الْمَجْبُورَ بأمْرٍ هُوَ مَجْبُورٌ عَلَىٰ نَقِيضِهِ، وقَدْ أَبَانَ اللهُ هَـٰذَا فِي نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾.

المعالجة السَّابعةُ: دلَّ عليها قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ﴾: أي: لَا يَسْتَجِيبُ لِدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّةِ، إِلَّا الَّذِين لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ لِأَنْ يَسْمَعُوا سَمَاعاً واعِياً، واصِلاً إِلَىٰ مَدَارِكِهِمْ الَّتِي تَفْهَمُ مَا يَصِلُ إِلَيْهَا مِنْ بيانَاتٍ فَهْماً تَدَبُّرياً، أَمَّا الَّذِينَ هُمْ رَافِضُونَ ابْتِداءً أَنْ يَسْمَعُوا اتّباعاً

لِأَهْوَائِهِمْ، فإنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، فَهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الحقّ.

إنَّ مِنْ شُرُوطِ الاسْتِجَابَةِ للدَّعْوَةِ حُصُولَ سَمَاعِ بَيَانَاتها، ومِنْ شروط سَمَاعِ بيَانَاتِ الدَّعْوَةِ عَدَم إقَامَةِ الْحُجُبِ بيْنَهَا وبَيْنَ النَّفْسِ الْمُدْرِكة، ومِن أَسْبَابِ إقَامَةِ هذه الحُجُبِ الرَّفْضُ ابْتِدَاءً.

وَهَـٰؤلَاءِ الَّذِينَ يَحْزُنُكَ تَكْذِيبُهُمْ وإيذَاءاتُهُمْ، لَا يَسْمَعُونَ سَمَاعاً واصِلاً إلى مَدَارِكِهِمُ الّتِي تَفْهَمُ وَتَعِي وتَتَدَبَّر، وقَدْ عَالَجْتَهُمْ طَوِيلاً فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا، فَلَا تَطْمَعْ باسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِكِ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة، وَرَبُّكَ لَا يُجْبِرُهُمْ لَانَّهُمْ فِي حياةِ الابتلاء، فَلا يَسْلُبُهُمْ إرَادَاتِهِمُ الحرَّة، ليَكُونُوا مُسْتَجِيبِينَ بالْجَبْر.

المعالَجة الثامِنَة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾: أَيْ وَمِنْ هَـٰؤلَاءِ الأئِمَةِ فِي الكُفْرِ والشِّرْكِ مَنْ هُمْ مَوْتَىٰ الْقُلُوبِ، فَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ فَاقِدِي السَّمْعِ، وسَيَسْتَمِرُّونَ عَلَىٰ مَا هُمْ عَليْهِ حَتَّىٰ يَمُوتُوا وتَنْتَهِيَ مُدَّةُ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وبَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ الَّتِي يَكُونُونَ فيها مَوتَىٰ قَدِ انْفَصَلَتْ أَرْوَاحُهُمْ عَنْ نُفُوسهم، يَبْعَثُهُمُ اللهُ إلَىٰ الحياة الأخرى، مَعَ سائِرِ الْأَحْيَاءِ، ثُمَّ بَعْدَ حَشْرِهِمْ، وَفَرْزِهِمْ بِحَسَبِ زُمَرِهِمْ مُؤْمِنِينَ وكافِرِين، يَتَقَدَّم كُلُّ إمَامِ الزُّمْرَةَ التَّابِعَةَ لَهُ، يُسَاقُونَ إلَىٰ مَحْكَمَةِ الْعَدْل الرَّبَّانِيَّة، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وبَعْدَ فَصْلِ القضاء يأمُرُ اللهُ بِتَنفيذِ جزَاءِ كُلِّ مَنْ كَانَ في الحياة الدُّنيا مَوْضُوعاً مَوْضِع الامْتِحَانِ بِحَسَبِ مَا قَضَىٰ اللهُ بشَأْنِهِ.

■ وبَعْدَ هَـٰذِهِ المعالَجَاتِ الثمان، أبان الله عزَّ وجلَّ أَنَّ أَبْرَزَ مَطَالِبِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ مراحِلِ الدَّعْوَةِ المَكيَّة مُطَالَبَتُهُمُ التحضيضيَّة بأَنْ يُنَزِّلَ اللهُ عَلَيْهِ آيَةً خَارِقَةً مِنَ الآياتِ الْمُعْجزَاتِ، فقال اللهُ تَعالى:

• ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿لَوْلَآ﴾: هُنَا بمعنَىٰ «هَلَّا» أداةٌ مِنْ أَدوَاتِ التحضيض أي: وَقَالَ أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ إبَّانَ نُزُولِ سُورَة (الأنعام/ ٥٥ نزول): هَلَّا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ آيَةٌ مِنَ الآيَاتِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ طَلَبْنَاهَا مِنْهُ، حَتَّىٰ نَسْتَيْقِنَ بِأَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ حَقًّا وَصِدْقاً.

وبما أنَّ هَـٰذَا الطَّلَبَ قَدْ سَبقَتْ مُعَالَجَتُهُ بالبياناتِ الكافِياتِ، المقْنِعَاتِ لِمَنْ يُرِيدُ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ والاقْتِنَاعَ بِهِ، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ الاقْتِصَارُ فِي الرَّدِّ التَّعْلِيمِيّ عَلَىٰ قَوْلِ اللهِ لِرَسُولِه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ خَارِقةً مِمَّا تَطْلُبُونَ ومِنْ غَيْرِ ما تَطْلُبُون.

وَأَبَانَ اللهُ لِرَسُولِهِ وَلِكُلِّ مُتَلَقٍّ للبَيَانِ فقالَ تَعالَى: ﴿... وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَرْفُضُونَ ابْتِدَاءً أَنْ يَعْلَمُوا مَهْمَا أُبِينَ لَهُمْ الحقُّ بِبَيَانَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

وبهذا يَظْهَرُ أَنَّ طَلَبَهُمْ فِي هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ تَكْرِيرٌ لِمَا سَبَقَ أَنْ طَلَبُوهُ، وأَنْزَلَ اللهُ فِي بَيَانَاتِهِ أَنَّ طَلَبَهُمُ الآياتِ هُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّشَهِّي، والرَّغْبَةِ فِي مُشَاهَدَةِ الْخَوَارِقِ، ولَوْ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَجْرَىٰ لَهُمْ كُلَّ آيَةٍ يَطْلُبُونَهَا فإنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُون، إِذْ لَا يَنْقُصُهُمُ الاقْتِنَاعُ والاسْتِيقانُ بِصِدْقِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ورِسَالَتِهِ، وبأَنَّ القرآن كَلَامُ اللهِ حَقّاً وَصِدْقاً، فَهُمْ مُسْتَيْقِنُونَ، وَلَكِنَّهُمْ جَاحِدُونَ.

■ وَبَعْدَ الْبَيَانَاتِ السَّابِقَاتِ وَبِمناسَبَةِ الحديثِ عَنِ الْبَعْثِ لِيَوْمِ القيامَةِ، أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّ الْبَعْثَ إلى الحياة الْأُخْرَىٰ لَا يَقْتَصِرُ على الإِنْسِ والْجِنِّ والْمَلَائِكَة، بَلْ يَشْمَلُ كُلَّ دَوَابِّ الْأَرْضِ وطُيُورِها فَهِيَ أُمَمٌ أَمْثَالُ الناس، وسَوْفَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ وإِلَيْهِ يُحْشَرُونَ، فقال الله تعالى:

• ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾:

• ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: **الدَّابَّةُ**: اسْمٌ لِمَا يَدِبُّ على الأرْضِ مِنَ الحيوان. يُقَالُ لغةً: دَبَّ، يَدِبُّ، دَبًّا، وَدَبِيباً» أي: مَشَىٰ علَىٰ تُؤَدَةٍ رُوَيداً رُوَيْداً، وكُلُّ مَاشٍ عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنْ ذِي حَيَاةٍ دَابَّةٌ، وَدَبِيبٌ، وَيُجْمَعُ عَلَىٰ «دَوَابّ».

ولفظ «مِنْ» جارٌ مَزِيدٌ لتوكيد عُمُومِ النفي.

ولفظ «الْأَرْض» أُطْلِقَ عَلَىٰ هَـٰذَا الكَوْكَبِ الّذِي نَسْكُنُهُ، وَمَا حَوْلَهُ مِنَ الغِلَافِ الغازِي التَّابعِ لَهُ، ولهذا اسْتُعْمِلَ حَرْفُ «فِي» الدَّالِّ عَلَىٰ الظَّرْفِيَّة المكَانِيَّةِ.

• ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾: أي: بِجَنَاحَيْهِ اللَّذَيْنِ هُمَا عِمَادُ طَيَرَانِهِ فَأَكْثَر، إذْ يُوجَدُ في الطَّائِرَاتِ مِن الحَشَرَاتِ الَّتي هِي أَحْيَاءُ مِن خلق الله مَا لَهُ أَكْثَرُ مِنْ جَنَاحَيْنِ، لَكِنَّ الطَّيَرَانَ عِمَادُهُ الْأَكْبَرُ جَنَاحَانِ.

وذِكْرُ عِبَارَةِ: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ قَيْدٌ لَازِمٌ، لأنَّ أشْيَاءَ كَثِيرَةً تَطِيرُ طَيَراناً حِسّيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا لَيْسَتْ مِنْ صِنْفِ الْأَحْيَاءِ الَّتِي تَطِيرُ بِجَنَاحَيْن لها.

فالدُّخَانُ يَطِيرُ فِي جَوِّ الأرض، وَلَا يَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ لَهُ، وبُخَارُ الْماء يَطِيرُ مُرْتَفِعاً في جَوّ الأرْضِ، وهو لَا يَطِيرُ بجَنَاحَيْنِ لَهُ. وأوْرَاقٌ وأشياءُ خَفِيفَةٌ تَحْمِلُهَا الرِّياحُ العاصِفَةُ تَطِيرُ مُرْتَفعَةً فِي جَوِّ الْأَرْضِ، وهِيَ لَا تَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ لَها، والطَّائِرَاتُ الَّتِي هِيَ مِنْ صُنْعِ الإنْسَانِ تَطِيرُ في جَوِّ الْأَرْضِ بِقُوَّةِ الدَّفْعِ الحرَارِيّ، لَا بِحركةِ الجناحَيْنِ، وقَدْ تَكُونُ الْأَجْنِحَةُ مِنْ شُرُوط تَوَازُنِ مَسِيرِهَا في جَوِّ الْأَرْضِ، لَكِنْ لَا يَكُونُ طَيَرَانُهَا بِهَا.

وأطْلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَىٰ عَمَلِ الإنْسَانِ لفظ «طَائِر» عَلَىٰ مَعْنَىٰ انْطِلَاقِهِ مِنْهُ مُرْتَفِعاً، وَهُوَ لَا يَطِيرُ بِجناحَيْنِ له.

فَمِنْ دِقَّةِ الْأَدَاءِ الْبَيَانِي ذِكْرُ عِبَارَةِ: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ مَعَ مَا فِيها مِنْ جَمَالٍ لَفْظِيٍّ يَتَلَقَّاهُ السَّمْعُ بارْتِيَاحٍ وعُذُوبَة.

• ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾: أي: إلَّا أُمَمٌ أشْبَاهُكُمْ، ذَوُو حَياةٍ، وخَرَائِط نَفْسِيَّة، وَنُظُم حَياةٍ، وَمَدَارِكَ عَلَىٰ مَقَادِيرِها.

الأُمَّة: تُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَجْمُوعَةٍ مِنَ النَّاسِ أو مِنَ الأحْيَاءِ الأخرىٰ، تَجْمَعُها صِفَاتٌ، أَوْ خَصَائِصُ، أَوْ رَوَابِطُ مُتَمَيِّزَة.

الناسُ كلُّهُمْ أُمَّة. والْعَرَبُ أمَّة. والْفُرْسُ أُمَّة. والتُّرْكُ أُمَّة. وكُلُّ قبيلَةٍ أمَّة. والْيَهُودُ المتَّفِقُونَ عَلَىٰ عَقِيدَةٍ واحِدَةٍ أُمَّة. والنَّصَارَىٰ المتفقُون على عقيدة واحِدَةٍ أُمَّة، وهكذا.

والنَّمْلُ أُمَّة. والنَّحلُ أمَّة. والصُّقُورُ أُمَّة، والنُّسُورُ أُمَّة. والإبلُ أمَّة. والْخَيْلُ أمَّة. والبقرُ أُمَّة. والجرادُ أُمَّة. وهكذا.

ولكُلِّ أُمَّةٍ مِنْ هَـٰذِهِ الأمَم إدْرَاكَاتٌ عَلَىٰ مَقَادِيرِهَا. أَعْلَاهَا إدْرَاكَاتُ النَّاس، فَخَصَّهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالتكاليفِ الاعْتِقَادِية والعمليَّة. بَعْدَ أَنْ وَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وَكَذَلِكَ الجنّ.

وَتَتَنَازَلُ إدْرَاكَاتُ سَائِرِ الْأَحْيَاءِ في الْأَرْضِ، وقَدْ ضَبَطَ اللهُ سُلُوكَهَا بِغَرَائِزَ تَسِيرُ عَلَىٰ خُطُوطِها، وجَعَلَهَا تُدْرِكُ مَعْنَىٰ الظُّلْم بَيْنَ أنْواعِهَا، وَتُدْرِكُ مَعْنَىٰ الْعِقَابِ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْهَا مِنْ ظُلْم، وهَـٰذَا الإِدْرَاكِ الْفِطْرِيّ، يُلَائِمُهُ مِنْ قَانُونِ الْعَدْلِ الرَّبَّانيّ، أَنْ يُعَاقَبَ الظَّالِمُ مِنْهَا بِمِثْلِ مَا ظَلَمَ، وَلَا يُعْتَبَرُ مِنَ الظُّلْم مَا هُوَ مِنْ فِطَرِ الْغَرَائِز الَّتِي فَطَرَ اللهُ الْبَهَائِمَ عَليها، فَلَا يُعَاقَبُ الْأَسَدُ إذا افْتَرَسَ فَرِيسَتَهُ لِيَأْكُلَها، لِأَنَّ هَـٰذَا مِنْ مُقْتَضَىٰ غَرِيزَتِهِ الَّتِي لَا تُعْتَبَرُ مُمَارَسَتُهُ لَها ظُلْماً، لَكِنْ يُعَاقَبُ الثَّوْرُ ذَا الْقُرُون إِذَا اعْتَدَىٰ عَلَىٰ ثَوْرٍ آخَرَ لَا قُرُونَ لَهُ فَنَطَحَهُ، وكذلِكَ الشَّاةُ ذَاتُ القرون إِذَا نَطَحَت الشَّاة الَّتِي لَا قُرُونَ لَهَا ظُلْماً وَعُدْواناً.

هَـٰذَا مُقْتَضَىٰ كَمَالِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِي، ولِهَـٰذَا كانَ مِنَ الحكمة بَعْثُ أُمَمِ الْحَيَوَاناتِ كُلِّهَا إلى يوْمِ القيامَةِ وحَشْرُهَا، لإقَامَةِ الْعَدْلِ بيْنَهَا، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ

مَوْضُوعَةً في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ والتكليف، وَهَـٰذَا مَا أَثْبَتَتْهُ البياناتُ النَّبَوِيَّةُ، وَدَلَائِلُ بَعْضُ النُّصُوصِ القرآنِيَّة، ثم يُقَالُ لِهَـٰذِهِ الأَمَمِ كُونِي تراباً، ويقول الكافر حينئذٍ: يا ليتني كُنْتُ تُرَاباً، كالحيوانات التي ماتَتْ وصارت تراباً.

ولهَـٰذَا كانَ من الْحِكْمَةِ تَسْجِيلُ أعْمالِ أحْيَاءِ الأرْضِ الترابِيَّةِ كُلّها، في كتاب لا يُغادِرُ صغيرة وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أحْصَاهَا، وَدَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في الآية:

• ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾: أي: مَا ضَيَّعْنَا فِي كِتَابِ تَسْجِيلِ أَعْمَالِ الْأَحْيَاءِ كُلِّهَا شَيْئاً، وَمَا نَقَصْنَا مِنْهَا شيئاً.

التَّفْرِيطُ: التَّضْييعُ والتَّقْصِيرُ.

لفظ «مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ زِيدَ في المفْعُول بِهِ لتوكيد عُمُوم النفي.

واقْتَضَتِ الحكْمَةُ البيانيَّةُ إثباتَ حَشْرِ كُلِّ أُمَمِ الدَّوابِّ والطَّيْرِ، فقَالَ تعَالَى في آخِرِ الْآيَةَ: ﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: أي: لإقَامَةِ كَمَالِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيّ بَيْنَهَا، وجِيءَ بضمير الجمع الْخَاصِّ بذَوِي الْعِلْمِ من الأحياء، مُرَاعَاةً لِوَضِعَها مَوْضِعَ مَنْ يحاسَبُ ويُجازَىٰ، إِذْ حُشرَتْ لإقَامَةِ الْعَدْلِ بَيْنَها، وينْتَهِي بذلِكَ الْغَرَضُ مِنْ حَشْرِها، فيُقالُ لَهَا: كوني تُرَاباً، فتَموتُ وتكُونُ تراباً. **الحشر**: الْجَمْعُ والسَّوْق.

روىٰ مسلم، والإمام أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي، عن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لِتُؤدُّونَ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيامَة، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ من الشاة الْقَرْنَاءِ تَنْطَحُها».

يُقَادُ: أيْ: يُقْتَصّ. **الْجَلْحَاء**: الَّتِي لا قرون لها.

■ وخَتَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ هَـٰذَا الدَّرْسَ السّابِعَ، بآيَةٍ هِيَ بِمَثَابَةِ الْقُفْلِ

الذي يَرْبِطُ الآيَةَ الْأَخِيرَةَ مِنْهُ بالآيَةِ الْأُولَىٰ مِنْهُ لِلْمُلاءَمَةِ بَيْنَهُمَا:

فالآيَةُ الأولَىٰ مِنْهُ جاءَ فيها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

والآيَة الأخِيرَةُ قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ فِيها:

• ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾:

• ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: والَّذِين كَذَّبُوا بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا التَّكوينِيَّة، وبما تَدُلُّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا الإعْجَازِيَّة، وكَذَّبُوا رُسُلَنَا بِمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِنَا الْبَيَانِيَّة كآيَاتِ القرآن المجيد.

• ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: أي: هُمْ كَالصُّمِّ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ مَا يَهْدِيهِمْ إِلَىٰ الْحَقِّ، وكالْبُكْمِ الَّذِينَ لَا يَنْطِقُونَ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَرِفُونَ بالْحَقِّ وَلَا يُعْلِنُونَه، وَهُمْ مُقِيمُونَ فِي الظُّلَمَاتِ كالْعُمْي، لَا يَرَوْنَ أَنْوَارَ الْحَقِّ الرَّبَّانِيّ، وظُلُماتُهُمْ هِيَ ظُلماتُ أَهْوَائِهِمْ، وشَهَوَاتِهِمْ، وتَقَالِيدِهِمْ الْبَاطِلَةِ، وأَوْهَامِهِمُ الفاسِدَة، وسُتُورِ مُضَلِّلِيهم عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم بِزَخَارِفِ الأقوال الخادِعَة، مِنْ شَيَاطِينِ الإنْس والجنّ.

• ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾: أي: مَنْ يَشَإِ اللهُ الْحُكْمَ عَلَيْهِ بالضَّلَالِ لِأَنَّهُ قَدْ ضَلَّ بِرَفْضِهِ الإيمانَ بِالحقِّ، والإسْلَامَ للهِ فِي حَيَاتِهِ، يَحْكُمْ عَلَيْهِ بالضَّلَالِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ لَا يَشَاءُ الْحُكْمَ بالضَّلَالِ إلَّا عَلَىٰ مَنْ كَانَ ضَالًّا.

ومَنْ يَشإِ اللهُ تَيْسِيرَ سُبُلِ الضَّلَالِ لَهُ، لِأَنَّهُ كَفَرَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بالْحَقِّ، يَسَّرَ لَهُ ذَلِكَ، فَلَمْ يُقِمْ لَهُ العقبات، لِأَنَّهُ فِي حَيَاةِ الامْتِحَان، فَلَا بُدَّ مِنْ تَمْكِينِهِ لتحقيق اخْتِيَارَاتِهِ.

• ﴿... وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾: أي: وَمَنْ يَشَأِ اللهُ الْحُكْمَ له بالهداية وأَنَّهُ سَار فِي حَياتِهِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، لِأَنَّهُ قَد اهْتَدَىٰ بالإيمان بالحقّ وبالإسلام للهِ في حياته، يَحْكُم لَهُ بِالْهِدَايَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ لَا يَحْكُمُ بالهداية إِلَّا لِمَنْ كانَ مُهْتَدِياً بإرادته.

ومَنْ يَشأِ اللهُ لَهُ تَيْسِيرَ السُّلُوكِ على صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، لِأَنَّهُ آمَنَ باللهِ وأَسْلَمَ لَهُ قِيادَهُ، يَسَّرَ لَهُ سُلُوكَه، فأَعَانَهُ بالتوفِيقِ، وأَمَدَّهُ بالتسديد، لِتَحْقِيقِ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ، وجَعَلَهُ يَسِيرُ عَلَى صِرَاطٍ مستقيم.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس السابع من دُرُوس سورة (الأنعام).
والحمد لله على معونته وَمَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١٢)
التدبّر التحليلي للدّرْس الثامن من دُروس سورة (الأنعام)
الآيتان: (٤٠ و٤١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾:

تَمْهيد.

هذا الدّرْسُ مِنْ فُروع السَّاقِ الثَّاني مِنْ سَاقَيْ شَجَرَةِ موضُوع السّورة، وفِيهِ وَمْضَةُ تَعْلِيمٍ جَدَلِيٍّ وَدَعَوِيٍّ مِنَ الله عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ.

التّدَبّر التحليلي:

أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلى اللهِ مِن أُمَّتِهِ لِمَنْ تُعالِجُ

إقْنَاعَهُمْ بِتَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إلَهِيَّتِهِ: أخْبِرُونِي بَعْدَ أنْ تَتَفَكَّرُوا تفكُّراً سَلِيماً، يُوصِلُكُمْ إلَىٰ رُؤْيَةٍ فِكْرِيَّةٍ وَتَجْرِيبِيَّةٍ صَحِيحَةٍ لَا زَيْفَ فيها وَلَا بَاطِلَ، إنْ أتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ، كَسَيْلٍ عَظِيمٍ قَادِمْ، أو رِيَاحٍ عَاصِفَةٍ أَوْ قَاصِفَةٍ مُدَمِّرَة، أَوْ بَرَاكِينَ تَتَفَجَّرُ بِقَذَائِفَ مِنْ صَخْرٍ أذَابَتْهُ النَّارُ، فَأَخَذَ يَسِيلُ نحوكُمْ فِي كُلِّ اتِّجَاه، أَوْ بَرَدٍ عَظِيمٍ يَنْزِلُ عَلَيْكُمْ رَاجِماً مِنَ السَّمَاءِ كالْحِجَارَة، أو أَتَتْكُمْ مُقَدِّمَاتُ سَاعَةِ مَوْتِكُمْ وأيْقَنْتُمْ أنَّكُمْ مَيِّتُونَ لَا مَحالَة، أو مُقَدِّمَاتُ السَّاعَةِ الَّتِي يَنْتَهِي بِهَا نِظَامُ الحياة الدُّنيا، أغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ لِيَكْشِفَ عَنْكُم مَا اقْتَرَبَ مِنْكُمْ أَوْ نَزَلَ؟! أَخْبِرُونِي بالْحَقِّ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين.

إنَّكُمْ حِينَئِذٍ تَنْسَوْنَ تَارِكينَ شُرَكَاءَكُمْ فَلَا تَدْعُونَهُمْ، وَلَا يَحْضُرُ في أذْهَانِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ غَيْرُ اللهِ عزَّ وجلَّ تَدْعُونَهُ، وَتَسْتَغِيثُونَ به، لِأَنَّهُ قد اسْتَقَرَّ في عُمْقِ قُلُوبِكُمْ أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ عَنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ إلَّا اللهُ رَبّكُمْ، وهَـٰذَا الْمُسْتَقَرُّ تَجْذِبُهُ إلَىٰ سَاحَةِ التَّصَوُّرِ الْحَاضِرِ الْمُرعِبَاتُ المُخِيفَاتُ خَوْفاً شَدِيداً، الَّتِي تُمْسَحُ عِنْدَهَا تَصَوُّرَاتُ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، فإذَا كُنْتُمْ تَنْسَوْنَ آلِهَتَكُمْ عِنْدَ المَخَاوِفِ الشَّدِيدَةِ فَلَا تَدْعُونَهَا، أفَلَيْسَ مِنَ الواجِبِ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْبِذُوهَا دَوَاماً، فَلَا تَعْبُدُوا إلَّا اللهَ رَبَّكُمْ، الَّذِي هُوَ واحِدٌ أَحَدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَوَاحِدٌ أَحَدٌ فِي إلَهِيَّتِهِ.

إنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذَا دَعَاه وَيَكْشِفُ السُّوء، وهَـٰذَا مِنَ الْأَدِلَّةِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا الرَّبُّ لِعِبادِهِ، عَلَىٰ أَنَّهُ هو الواحِدُ الأحَدُ في رُبوبيّتِهِ لِكَوْنه.

• ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾: استفهامٌ يُرادُ بِهِ انْتِزاعُ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّ الرَّبَّ القادِرَ عَلَىٰ كَشْفِ السُّوء هو اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إذْنْ فَهُوَ الإلَٰهُ الواحِدُ الْأَحَدُ لا شريكَ له.

في هَـٰذِهِ الصِّيغَة نَجِدُ تَاءَ خِطَابِ المفْرَد المُذَكَّر، وَكافَ الخطابِ، وهُمَا ضَمِيران، والميم الَّتِي هِيَ عَلَامَة الجمع.

وقَدْ نظَر النحاة في هذا التعبير الّذِي هُوَ من الصِّيغ المستَعْمَلَةِ عِنْدَ الْعَرَب. فقَال الْبَصْرِيُّونَ: الكافُ والميم للخطاب، وهما حَرْفَانِ لَا حَظَّ لهما في الإِعْراب. وقالَ الكِسَائِي والْفَرَّاءُ وَغَيْرُهُما: الْكَافُ والْمِيمُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ بِوُقُوعِ الرُّؤيَةِ عَلَيْهِمَا، وَالمعْنَىٰ: أَرَأَيْتُمُ أنْفُسَكُمْ. قال الزَّمَخْشَرِي في الكَشَّافِ: إِنَّهُ لَا مَحَلَّ للضمير الثاني (أي: الكاف) مِنَ الإعْرَابِ، فَرَجَّحَ رَأيَ الْبَصْرِيين.

وَأَرَىٰ أَنَّ المعْنَىٰ: «أَرَأَيْتُمْ أَنْفُسَكُمْ» ولمَّا قُدِّمَتْ كافُ الخطابِ عَلَى مِيم الْجَمْعِ، فَتَحَ الْعَرَبِيُّ التَّاءَ لئلَّا تَلْتَبِسَ بِتَاءِ المتكلِّم، فَهِيَ تَاءُ المخاطَبِينَ مَعَ لَفْظِ «كُمْ» فَمِيمُ الْجَمْعِ كافِيَة للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أنَّ المخاطَبِينَ جماعَة.

أمَّا عِبَارَة: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ الّتي جاءت في الآية (٦٢) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) فلا إشْكالَ فيها، والمعنى فيها. أرأيت نَفْسَك.

• ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: أرَىٰ حَمْل لفظة «السَّاعَةِ» هُنَا عَلَىٰ قُرْب سَاعَةِ مَوْتِ كُلّ وَاحِدٍ مِنَ الْمخَاطَبِينَ، مَعَ أَهْوَالِ إنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا كُلِّها.

• ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: أخْبِرُونِي بالحقيقَة الَّتِي تَكُونُونَ عليها، حينئذٍ إنْ كُنْتُمْ صادقين.

• ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾: أي: فإذَا قَالُوا: «نَدْعُو آلِهَتَنَا» كَانَ على الدَّاعِي إلىٰ اللهِ أنْ يَرُدَّ عليهم بقَوْلِهِ: لَا تَكْذِبوا، بَلْ تَخُصُّونَ اللهَ وَحْدَهُ بالدُّعَاء لعِلْمِكُمْ بأَنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغِيثُكُمْ وَلَا تُنْجِيكُمْ، بَلِ الَّذِي يُغِيثُكُمْ وَيُنْجِيكُمْ إِنْ شَاءَ والْقَادِرُ عَلَى إغَاثَتِكُمْ وإنْجَائِكُمْ رَبُّكُمُ الخالِقُ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ والأَرْض.

• ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾: أَيْ: فَيُزِيلُ مَا تَدْعُونَهُ إلىٰ كَشْفِهِ عَنْكُمْ إنْ شَاءَ سبحانه، وَمَشيئَتُهُ لَا تُفارِقُ حِكْمَتَهُ دواماً.

الكَشْف: يأتي بمَعْنَىٰ رَفع الغطاءِ عَنِ الشيء، وبمعنَىٰ الإزالَة.

• ﴿... وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾: أي: وَتَتْرُكُونَ آلِهَتَكُمُ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا شُرَكَاءَ للهِ في إِلَٰهِيَّتِهِ.

أصل مَعْنَىٰ «النِّسْيَانِ» التَّركُ، ويُطْلَقُ عَلَىٰ مَسْحِ الشيء مِنَ الذَّاكِرَةِ، لِأَنَّ تَرْكَ الشَّيْءِ مُدَّةً طَوِيلَةً يَمْسَحُهُ مِنَ الذَّاكِرَةِ في كثير من الأحيان.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثامن من دُرُوس سورة (الأنعام).

والحمدُ للهِ على مَدَدِهِ ومَعُونَتِهِ وَتَوفِيقِهِ وفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(١٣)
التدبّر التحليلي للدّرْس التاسع من دُروس سورة (الأنعام)
الآيات من (٤٢ ـ ٤٥)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

القراءات:

(٤٢ و٤٣) • قرأ أبو جَعْفر، والسُّوسي: [**بِالْبَاسَاءِ**] و[**بَاسُنَا**] بإبْدَالِ الْهَمْزَةِ ألفاً فيهما.

وقرأهما باقي القراء العشرة: [**بالبأساء**] و[**بأسنا**] بالهمزة.

(٤٤) • قرأ ابْنُ عَامر، وأبو جَعْفَر، ورُوَيس: **[فَتَّحْنَا]** بتَشْدِيدِ التَّاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[فَتَحْنَا]** بِتَخْفِيفِ التاء.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فَهُمَا يَدُلَّان عَلَىٰ أَنَّ بَعْضَ الْأَقوام يَفْتَحُ اللهُ لَهُمْ فَتْحاً عاديّاً، وأَنَّ آخرينَ يُفَتِّحُ اللهُ لَهُم أبْوابَ كُلّ شيءٍ بتَوْسِعَةٍ زائِدَةٍ على الْفَتْحِ المعتاد، بحَسَبِ مَا تقتضيه حِكْمَتُهُ السَّنِيَّة.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْسِ التاسع من فروع السَّاقِ الْأَوَّلُ مِنْ سَاقَيْ شَجَرَة موضوع السُّورة، وفيها بَيَانٌ مِن اللهِ لرسُوله ﷺ مع إسْمَاعِ كُلِّ صالح للخطاب، بِشأْنِ كُفَّارِ الأُمَم السَّالفة، وكَيْفَ أخَذَهم ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ بالبأسَاء والضَّرَّاء رغْبَةً في أَنْ يَتَضرَّعُوا، لكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا، فَفَتَحَ عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحيَاةِ الدُّنيا بحَسَبِ تَطَوُّرِهِم الحضاري، ثُمَّ أَخَذَهُمْ بالتعْذِيب والإهْلَاكِ بَغْتَةً، واسْتَأْصَلَهُمْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كانوا ظالِمين ظُلْماً كبيراً تَقْتَضِي الحكمة الرَّبَّانِيَّةُ اسْتِئْصَالهم.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ آيَاتِ هَـٰذَا الدَّرْس تَدبُّراً تَكَامُلِيًّا مَعَ نَصٍّ آخَرَ من سُورَةِ (الْأَعْرَاف/ ٣٩ نزول) في الملْحَقِ السَّابع من ملاحِقِ تَدَبُّر سورة (الأعراف) لَدَىٰ شَرْح السُّنَّةِ السَّابِعَةِ مِنْ سُنَنِ اللهِ في الأمَمِ حَتَّىٰ اسْتِحْقَاقِهَا الْإِهْلَاكَ الشَّامِل(١).

التّدبّر التحليلي:

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾: الواو عاطفة، وهُوَ مِن عَطْفِ

---

(١) انظر المجلّد الخامس من هذا الكتاب، الصفحات من (٤٥٧ ـ ٤٦١). «شَرحُ السُّنَّة السَّابعة».

جُمْلَةِ بَيَانٍ عَلَىٰ بيانٍ سابق، «لَقَدْ» اللّامُ واقِعَةٌ في جَواب قَسَمٍ مَنْوِي، فهي للتوكيد. و«قَدْ» للتحقيق، وهو يتضَمَّنُ التوكيد.

أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَكَذَّبُوهُمْ وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِم.

يَتَحَدَّثُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ بضَميرِ المتكلّم العظيم.

• ﴿... فَأَخَذْنَاهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أَصْلُ الْأَخذِ الْقَبْضُ على الشيء، وبالتوسُّعِ في المعْنَىٰ صَارَ يُطْلَقُ عَلَىٰ حِيَازَةِ الشَّيْء والحصُول عَلَيْهِ وَلَوْ دُونَ قَبْضٍ له، ثُمَّ صَارَ يُطْلَقُ الأَخْذُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ مَا يُؤْخَذُ لَهُ الشيْءُ، مِمَّا يَسُرُّ أَوْ مِمَّا يَسُوءُ.

الْبَأْسَاء: الجُوعُ، والمشقة، والْفَقْرُ، وضنْكُ العيش، والْحَرْب.

الضَّرَّاء: الشَّدَّة، وكُلُّ حَالَةٍ تَضُرُّ في الأَمْوَالِ أو في الْأَنْفُس.

والْغَرَضُ مِنْ هَـٰذَا الأخْذِ تَذْكِيرُهُمْ بِربِّهِمْ، لِيَدْعُوهُ مُتضَرِّعِينَ إِلَيْهِ، تَائِبين مُسْتَغْفِرين، سائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ ما نَزَلَ بِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُون.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أَنْ يَتَذَكَّرُوا رَبَّهُمْ، فَيَدْعُوهُ مُتضَرِّعِينَ له، مُعْتَرِفِينَ بِذُنُوبِهِمْ، سَائِلِينَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِم.

أو لِنَجْعَلَهُمْ فِي مَوْقِفٍ من شأنِهِ أَنْ يَدْفَعَهُمْ ـ إِذَا كَانَ لَدَيْهِمْ رُشْدٌ مَا ـ إِلَىٰ أَنْ يَتَذَلَّلُوا لِرَبِّهِمْ، ويَخْضَعُوا لَهُ تَائِبين، سائِلِينَ أَنْ يَرْفَعْ ويُزِيلَ عَنْهُم مَا نَزَلَ بِهِم، فإذا اسْتَجابَ لِدُعَائِهِم كَانَ ذَلِكَ مُذَكِّراً لَهُمْ دواماً بِرَبِّهِمْ، وَمُنْذِراً لَهُمْ بِنُزُولِ العذاب والإهْلَاكِ الشَّامِلَين، فإذَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ هَـٰذِهِ المقدّماتِ اسْتَحقُّوا التَّعْذِيب والإهْلَاكَ الشَّامِلَيْن.

«لَعَلَّ» أَصْلُ مَعْنَاها اللُّغَوِي التَّرَجّي والتوقُّع، ولمَّا كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلِيماً بما كان وبما هو كائِنٌ وبما سَيكُون، كان من الْفَهْمِ السَّدِيد اعتبار

كلمة «لعَلَّ» دالّةً عَلَىٰ مَعْنَىٰ الرَّغْبَةِ، فاللهُ يَرْضَىٰ لعبادِهِ الإيمان والطَّاعة وحُسْنَ الدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ، أو على لازمٍ آخرَ كَجَعْلِهِمْ في مَوْقِفٍ يَجِدُونَ فِيه مَا يَدْفَعُهُمْ للتَّضَرُّع.

التَّضَرُّعُ: التذَلُّلُ والخضوع، مأْخُوذٌ مِنْ خُضُوعِ وَلَدِ الْبَهِيمَةِ الرَّضِيعِ لِيَمْتَصَّ حَلِيبَ أُمِّهِ مِنْ ضَرْعِها.

• ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾: أي: فَهَلَّا تَضرَّعُوا حِينَ جاءَهُمْ عَذَابُنَا التَّأْدِيبيُّ الْجُزْئِيُّ، الْمُنْذِرُ بالْعَذَابِ والإهْلاكِ الشَّامِلَيْنِ الْمُسْتَأْصِلَيْن.

الْبَأْسُ: الْعَذَابُ الشَّدِيد. ويُطْلَقُ عَلَىٰ الشّدَّةِ في الْحَرْب.

• ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: أَيْ: وَلَكِنْ لَمْ يَتَضَرَّعُوا، ولم يَتُوبُوا، ولَمْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ، بَلْ قَستْ قُلُوبُهُمْ، فَلَمْ تلِنْ لِمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذابٍ تَأْدِيبِيٍّ إنْذارِيٍّ.

• ﴿... وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وحَسَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ إبليسُ وَجُنُودُهُ مِن الجنّ والإنْس مَا كانوا يَعْمَلُونَ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ ولوازِمِهَا فِي السُّلُوك، وهِيَ الَّتِي اقتضَتْ أنْ يُنْزِلَ اللهُ بِهِم المصائِبَ وأنواعاً من البأْسَاءِ والضَّرَّاء، وأقْنَعَهُمْ بالتَّزيينَ الزُّخْرفِيّ بأنَّ ما نَزلَ بِهِمْ هُوَ مِنْ تَقلُّبَاتِ الدَّهرِ، الّتي تَحْدُثُ بِصُورةٍ طبيعيَّةٍ خالِيَةٍ مِنْ قَصْدٍ رَبَّانِيٍّ للتَّربيَةِ والْجَزاءِ.

• ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾: أي: فَلَمَّا تَرَكُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ بِمُذَكِّرٍ مِنَ البأسَاءِ والضَّرَّاء، وَمَا كَانُوا قَدْ ذُكِّرُوا بِهِ مِنْ قِبَلِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، أَوْ مِنْ قِبَلِ الدُّعَاةِ مِنْ أتباعِ الرُّسُلِ، تَذكيراً بَيَانيًّا بالنُّصْحِ والإرْشَادِ والموعِظَةِ الْحَسَنَةِ والإقْنَاع بالحقّ، وَلَمْ يكْترِثُوا لِكُلِّ ذَلِكَ وَلَمْ يَعْبَؤُوا به.

• ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾: أي: وَسَّعْنَا لَهُمْ فِي الحياة الدُّنْيَا الْأَرْزَاقَ، وَيَسَّرْنَا لَهُمُ الْمَسَالِكَ لِنَيْلِ مَا يَشْتَهُونَ مِنْ مَتَاعِ الحياة

الدُّنيا، مِنْ كُلِّ شيءٍ تَتعلَّقُ بِهِ نُفوسُهُمْ، بِحَسَبِ مَا تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ فِي تَطَوُّرِهِم الْحَضَارِي.

شُبِّهَ تَيْسِيرُ الْمَسَالِكِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ مَا يَشْتَهُونَ بِفَتْحِ الأبواب، فاسْتُعِيرَ التَّعْبِيرُ: «بفَتْحِ الْأَبْوابِ» للدَّلَالَةِ على ذَلِكَ.

وفي التعبير بفَتْحِ الأبْواب مَعْنَىٰ أَنَّ خَزَائِنَ اللهِ مَوْجُودَةٌ دواماً في كَوْنِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، ويَفْتَحُ اللهُ لِعِبَادِهِ مِنْ أَبْوَابِها بحَسَبِ حِكْمَتِهِ، في رِحْلَةِ ابْتِلَائِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤﴾:

«حتَّىٰ» ابْتِدَائِيَّة، وهي حَرْفٌ تَبْتَدِىءُ بَعْدَهُ الْجُمَلُ الاسْمِيَّةِ والفِعلِيَّة.

- ﴿فَرِحُواْ﴾: هنا، بمعْنَىٰ بَطِرُوا واسْتَكْبَرُوا، وتَفَاخَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وتَعالَوْا عَلَىٰ النَّاس، فَطَغَوْا وبَغَوْا.

- ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾: أَيْ: قَبَضْنَا عَلَيْهِمْ قَبْضَ تَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ باسْتِئْصَالٍ مُبَاغِتِينَ لَهُمْ. **الْبَغْتَةُ**: المفَاجَأَة.

- ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾: أي: فإذَا هُمْ سَاكِتُونَ، يَائِسُونَ، نَادِمُونَ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شيءٍ. يُقَالُ لُغَةً: أَبْلَسَ الرَّجُلُ، أي: قُطِعَ بِهِ، وسَكَتَ، ونَدِمَ. وَيُقَال: «أَبْلَسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ» أي: يَئِسَ.

والمعنى: حَتَّىٰ إذا بَطِرُوا واسْتَكْبَرُوا وطَغَوْا وَبَغَوْا بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ أبواب مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، أَخَذَهُمُ اللهُ بالعذاب والإهْلَاكِ الشَّامِلَيْنِ، بِصُورَةٍ مُفَاجِئَةٍ غَيْرِ مُرْتَقَبَة، فإذا هُمْ ساكِتُونَ، يَائِسُونَ، نَادِمُونَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئاً يَقِيهِمْ شَيْئاً من عَذابِ اللهِ، ونَوازِلِ الْإِهْلَاكِ الشَّامل.

- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾: أي: فَأُهْلِكُوا جميعاً، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ تَابِعٌ يَتْبَعُهُمْ. وُضِعَ الاسم الظَّاهر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مَوْضِعَ الضَّمير

لبيان سَبَبِ إهْلَاكِهِمْ بَعْدَ تَعْذِيبِهِمْ، وهُوَ ظُلْمُهُمُ الْعَظِيمُ من دَرَكَةٍ تَقْتَضِي إهلاكهم باسْتِئْصَال.

الدَّابِرُ: التابع، وهُوَ مِنْ كُلِّ شيءٍ آخِرُهُ، وقَطْعُ الدَّابِرِ كِنَايَةٌ عَنِ الاسْتِئْصَالِ التَّامّ.

● ﴿... وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾: أيْ: وَكُلُّ الثَّنَاءِ عَلَىٰ مَا هُوَ في عِلْمِ الله، مُوَجَّهٌ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (= كُلّ مَا سَوَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ) الَّذِي خَلَّصَ المجتَمَعَ الْبَشَرِيَّ مِنْ قَوْمٍ ظَالِمِينَ، بَلَغُوا دَرَكَةَ الْيَأْسِ مِنْ أَنْ يَصْلُحُوا عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِم الحرَّة، في حياة الابتلاء والاختبار في ظُرُوفِ هَٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

إنَّ إهْلَاكَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ صَارُوا بُؤْرَةَ فَسَادٍ وإفْسَادٍ في الأرض، وَطُغْيَانٍ وَبَغْيٍ وَعُدْوانٍ، نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ تَنْتَزِعُ مِنْ قُلُوبِ أُولِي الأَلْبَابِ الْحَمْدَ والثَّنَاءَ مِنْ دَرَجَةٍ قُصْوَىٰ، عَلَىٰ رَبِّ الْعِبَادِ الَّذِي رَحِمَهُم فَخَلَّصَهُمْ مِنْ وَبَاءٍ لَا سَبِيلَ إلى الْخَلَاصِ مِنْهُ إلَّا بالاستِئْصَالِ التَّامّ، حَتَّىٰ لَا تَبْقَى مِنْهُمْ جُرْثُومَةٌ تَنْشُرُ شرّاً في دُنيا الناس.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس التاسِع مِنْ دُرُوسِ سُورَةِ (الأنعام).

والحَمْدُ لله على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِه، وَتوفيقِهِ وفَتْحِهِ.



(١٤)
التدبّر التحليلي للدّرس العاشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيتان من (٤٦ و٤٧)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

القراءات:

(٤٦) • أشَمَّ حمزة، والكسائيّ، وخَلَف، ورُوَيْس، الصَّادَ صَوْت الزاي في: [**يَصْدِفُونَ**].

وقرأها باقي القراء العشرة بالصَّادِ الخالِصَة.

تمهيد:

آيتا هَـٰذَا الدَّرسِ مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الثاني مِنْ سَاقَيْ شجرَةِ موضوع السُّورَة، وفيهما فِقرَةُ تَعْلِيم أَسْلُوبٍ عِلَاجِيٍّ بالإنْذَارِ بِسَلْبِ الْأَسْمَاعِ والْأَبْصَارِ والْخَتْمِ عَلَىٰ الْقُلُوبِ، أو بالْعَذَابِ والإهْلَاكِ.

التّدبُّر التحليليّ:

• ﴿**قُلْ أَرَءَيْتُمْ** ...﴾: أيْ: قُلْ - يا مُحَمَّدُ ويا كُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ - لِلْمُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ باطِلِهِمْ: تَفَكَّرُوا وَتَدَبَّرُوا، لِتَرَوْا رُؤيَةً فِكْرِيَّة صَحِيحَةً سَلِيمَة، فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ، ثُمَّ أَخْبِرُوني.

• ﴿... **إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ** ... ﴿٤٦﴾﴾:

ممَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ التفكِيرُ السَّلِيمُ، أَنَّ أجلَّ أداوتِ الْمَعْرِفَةِ الَّتي فَضَّلَ اللهُ بِهَا الإنْسَانَ، وَجَعَلَ بِسَبَبِهَا الملائكَةَ تَسْجُدُ لآدَمَ سُجُودَ احْترامٍ طَاعَةً لِأَمْرِ اللهِ ما يلي:

(١) **السَّمْعُ**: باعْتِبَارِه أدَاةَ تَوْصِيلِ البيانَاتِ القَوْلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَثِيرٍ من المعارف والعلوم.

(٢) **الْبَصَرُ**: باعْتِبَارِه أدَاةَ تَوْصِيلِ الْمَرْئِيَّاتِ في الكَوْن، الَّتِي جعَلَهَا اللهُ آيَاتٍ دَالَّاتٍ على كثيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ وأَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، وَدَالَّاتٍ عَلَىٰ مَعَارِفَ وعُلُومٍ كثيرةٍ تَهْدِي الْأَبْصَارُ إِلَىٰ إِدْرَاكِهَا بِجِهَازِ الإِدْرَاكِ الدَّاخِلِيِّ في الإنسان.

(٣) **الْقَلْبُ**: باعْتِبَارِهِ جِهَازَ إِدْرَاكِ الْمَعَارِفِ والْعُلُومِ، واسْتِنْبَاطِ كثيرٍ مِنَ الْحقَائِقِ، بما وَهَبَهُ اللهُ مِنْ قُدْراتِ تَحْلِيلٍ وَتَرْكِيبٍ واسْتِنْتَاج، وبما وهبه من مقاييس.

والسَّمْعُ أداةٌ تُوصِلُ إِلَيْهِ المسْمُوعَاتِ لِيَعْقِلَهَا، ويُحَلِّلَ فِيهَا ويُرَكِّبَ وَيَسْتَنْبط. والْبَصَرُ أَدَاةُ تُوصِلُ إِلَيْهِ الْمَرْئِيَّاتِ لِيَعْقِلَهَا، وَلِيُحَلِّلَ فيها وَيُرَكِّبَ وَيَسْتَنْبِطَ.

فالْقَلْبُ هُوَ جِهَازُ الإِدْرَاكِ الْعِلْمِي، والْعَقْلِ الْعِلْمِيّ، والتّفَكُّر، والقياسِ والاسْتِنْبَاطِ، إِلَىٰ سَائِرِ الأعْمَالِ الْعِلْمِيَّة الَّتِي فَضَّلَ اللهُ بها الإِنْسَان.

وبما أَنّ الرَّبَّ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، هو واهِبُ السَّمْعِ والْبَصَرِ والْقَلْبِ العاقِلِ المفكِّرِ للإِنْسَانِ، فَهُو الْقَادِرُ إِنْ شَاءَ عَلَىٰ سَلْبِهِ هَـٰذِهِ الْأَجْهِزَةَ الْجَلِيلَةَ، وهُو القادِرُ عَلَىٰ جَعْلِهِ مَحْرُوماً مِنْها، وحينَئذٍ تَكُونُ الْبَهَائِمُ أفْضَلَ مِنْهُ، ولَنْ يُوجَدَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ غَيْرُ اللهِ أَحَدٌ يَرُدُّ لَهُ مَا أَخَذَ اللهُ مِنْهُ.

ورَغْبَةً فِي إِيقاظ المشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ وبَعْثِهِمْ مِنْ سُبَاتِهِمْ، عَلَّمَ اللهُ الدَّاعِيَ إِلَىٰ رَبِّهِ الواحِدِ الْأَحَدِ، هَزَّ كِيَانِهِمْ باحْتِمَالِ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ رَبُّهُمْ بِسَبَبِ إِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ، فَيَسْلَبَهُمْ وَيَأْخُذَ مِنْهُمْ أَجلَّ مَا تَمْتَازُ بِهِ إِنْسَانِيَّتُهُمْ، وهِيَ أَدَوَاتُ سَمْعِهِمْ وإِبْصَارِهِمْ، وجِهَازُ الْعِلْمِ والْمَعْرِفَةِ فِي دَاخِلِ كِيَانهم، فَيَجْعَلَهُمْ أَحْقَرَ مِنَ الْبَهَائِم وأخَسَّ. وعِنْدَئِذٍ لَا يَجِدُونَ إِلَهاً غَيْرَ اللهِ يَلْجَؤُونَ إِلَيْهِ لِيَرُدَّ لَهُمْ سَمْعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ وقُلُوبَهُمُ الدَّرَّاكَةَ الواعِيَةَ المفكِّرَةَ، إِنْ بَقِيَ لَدَيْهِمْ جِهازٌ صَالِحٌ للتفكير والْفَهْم.

جاء التعبير عن سَلْب السَّمْع والأبْصَارِ بالْأَخْذ، أي: أَخْذِ قُدْرَةِ الأسْمَاع على السَّمْعِ، وأَخْذِ قُدْرَةِ الْأَبْصَارِ على الْبَصَر.

وجاءَ التَّعْبِير عَنْ سَلْبِ قُدْرَاتِ مَرَاكِزِ الْإِدْرَاكِ والْفَهْمِ والتفكِير والْعَقْلِ في داخِلِ النُّفُوسِ، بالْخَتْمِ عَلَىٰ الْقُلُوب.

أَصْلُ الْخَتْمِ عَلَىٰ الشيْءِ: سَدُّ مَا يُنْفَذُ إِلَيْهِ سَدًّا مانعاً، يقال لغة: «خَتَمَ عَلَىٰ الإنَاءِ يَخْتِمُ خَتْماً»: أي: سَدَّ فُوَّهَتَهُ بِطِينٍ، أو شَمْعٍ، أو نَحْوِهما، حتَّىٰ لَا يَدْخُلَ إلى المخْتُومِ عَلَيْهِ شيْءٌ، وَلَا يَخْرُجَ مِنْهُ شيءٌ.

وكذلِكَ يُقَال: «خَتَمَ على باب البيْتِ» أي: أغْلَقَ الباب، وأقْفَلَهُ، وضَرَبَ علَىٰ الْقُفْل الطينَ أو الشَّمْعَ، وخَتَمَ عَلَيْه بخَاتَم مَنْقُوش، للدّلالَةِ على المنع التام. وكان السُّلْطان أو القاضي إذا أرَادَ مَنْعَ الدُّخُولِ إلَىٰ بَيْتٍ، أمَرَ بِسَدِّ المَنافِذ إلَيْهِ، وبإغْلَاقِ بَابِهِ، وَوَضْعِ الْقُفْلِ المحْكَم عليه، وجَعْلِ قَبْضَةِ الطِّين الخاصّ أو الشَّمْعِ عَلَيْهِ، والْخَتْم عَلَيْهِ بالخاتَم المنْقُوشِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ المَنْعِ التَّامِّ مِنْ فَتْحِهِ، فَمَنْ فَتَحَهُ كانَ عِقَابُهُ مُشَدَّداً.

فجاء التعبيرُ عَنْ إحَاطَةِ الْقُلُوبِ بما يَمْنَعُ قُدْرَاتِها عَنِ اسْتقبالِ أيِّ إدْرَاكٍ مِنْ خارِجِها، وَعَنْ تَصْدِيرِ أيِّ فَهْم سَلِيمٍ مِنْ دَاخِلِها، بالْخَتْمِ عَلَيْها، وهذا يَكُونُ بَعْدَ تَغْلِيفِهَا تَغْلِيفاً كَامِلاً بِحَواجِبَ وسُتُور.

ومَعْلُومٌ أَنَّ المرادَ بهذا الْخَتْمِ حَجْبُ قُدْرَاتِ مَرَاكِزِ الإدْرَاكِ والفهم في داخِلِ النُّفُوسِ حَجْباً شَاملاً، مانِعاً من الاسْتِيراد ومن التَّصْدِير.

• ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾؟ أي: مَنْ إلَٰهٌ مِمَّن تَعْبُدُونَ، أو مِمَّنْ يَعْبُدُ سَائِرُ المشركينَ، أو كانُوا يَعْبُدُونَ، غَيْرُ اللهِ الخالِقِ الرَّبِّ الْعَلِيم الحكيم الْقَدِيرِ على مَا يَشَاءُ، يَأْتِيكُمْ بِمَا أخَذَ اللهُ مِنْ أسْمَاعِكُمْ وأَبْصَارِكُمْ وقُلُوبكُمْ.

الجواب: لَا أحَدَ غَيْرُ اللهِ يُعِيدُ للمخْلُوقِ مَا أخَذَ الخالِقُ مِنْهُ.

• ﴿... ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: انْظُرْ أَيُّهَا المتَلَقِّي المتفَكِّر، كَيْفَ نُنَوِّعُ آياتِنا البيانِيَّة، ونَعْرِضُهَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَة، وبأسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ، رَغْبَةً فِي اقْتِنَاعِ سَالِكي مَسالِكِ الضَّلَالِ، بِصِراط الحقِّ المستقيم، ورَغْبَةً في أَنْ يَسْلُكُوهُ لِيَفُوزُوا بجنَّاتِ النَعيم يوْمَ الدِّينِ.

ونُتَابعُ هَـٰذَا التَّنْوِيعَ آناً فَآناً طَوَالَ مُدَّةِ امْتِحَانِهِمْ، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ يُعْرِضُون، وَلَا يَعْبَؤُونَ بما نُبَيِّنُ لَهُمْ، ونَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ عظِيم.

التَّصْرِيفُ: هو التَّغْييرُ في الأعْمالِ، وفي الأشْيَاءِ، وفي الاتّجاهات، وفي الأسَالِيبِ، وَفِي وُجُوهِ الكَلَامِ، رغْبَةً فِي تَحْقِيقِ المقاصِدِ، أو في اسْتِجَابَةِ ذَوِي الإرادات الحرَّةِ لِدَعْوَةِ الحقّ، إذا كان التصريف لإقناعهم.

يَصْدِفُون: أي: يُعْرِضُونَ مُنْصَرِفينَ، فلا يَكْتَرِثُونَ ولا يَعْبَؤُون بما يُنْصَحُونَ به، ولا بما يُوَجَّهُ لَهُمْ مِنْ بيان.

وفي هَـٰذَا تَعْجِيبٌ مِنْ أَمْرِهِمْ، وتَلْوِيمٌ لَهُمْ بأُسْلُوب الْحَديث عَنْهُمْ، لا بِأُسْلُوبِ مُوَاجَهَتِهِمْ بالخطاب.

وجاءَ لَفْظُ «السَّمْعِ» مُفْرَداً في الآيَةِ، ولَفْظُ «الْأَبْصَارِ» مجموعاً، وأرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا مِنْ قبيل الإيجازِ الاكْتِفائي، وأصْلُ الكلام: «قَلْ أرأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَسْمَاعَكُم، وَبَصَرَكُمْ وأَبْصَارَكم» والمرادُ بالسَّمْعِ: الْقُدْرَةُ عَلَىٰ إدْراكِ المسْمُوعَاتِ، وبالْأَسْمَاعِ: الأجْهِزَةُ الَّتِي يَحْصُل السَّمْعُ بها. والمرادُ بالْبَصْرِ: الْقُدْرَةُ على إدْرَاكِ المرْئيَّاتِ، وبالْأَبْصارِ: الْأَجْهِزَةُ الَّتِي يَحْصُلُ بِها الإِبْصَار.

• ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾:

بَغْتَةً: أي: فَجأَةً بِدُونِ تَوَقُّعٍ سَابِق، وبِدُون مُقَدِّمَاتٍ واضحاتٍ أو إعْلان.

أَوْ جَهْرَةً: أي: ظَاهِراً غَيْرَ مُسْتَتِرٍ وَلَا مَحْجُوبٍ، بَلْ مَسْبُوقاً بإعلام، أو بِمُقَدَّمَاتٍ ذَوَاتِ دَلَالَاتٍ واضِحَاتٍ على أَنَّهُ عَذابٌ آتٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

جَاءَتْ مُقَابَلَةُ الْبَغْتَةِ بالْجَهْرَةِ، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ المرادَ بالْبَغْتَةِ المفاجَأَةُ المقْتَرِنَةُ بالْخُفْيَة، وهَـٰذِهِ الْخُفْيَة تُقَابِلُهَا الْجَهْرَة.

وجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ مَا جاء في الآية السابقة (٤٦) وتَقْدِيرُهُ: مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَصْرِفُ عَنْكُم عَذَابَ اللهِ؟!

- ﴿... هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟!

أي: هَلْ يُهْلَكُ إِهْلَاكاً جَمَاعِيًّا عَامًّا شَامِلاً، إلّا الْقَوْمُ الظالِمُونَ ظُلْماً شَنِيعاً مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ المقْتَرِنِ بقبائحَ وَجَرَائِمَ سُلُوكيّة، أَخْذاً مِنْ دَلَالَات نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

والمرادُ بالاستفهام في هَـٰذِهِ العبارة النفْيُ، أي: لَا يُهْلَكُ بمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللهِ في عباده إهْلَاكاً جماعيًّا شاملاً إلَّا الْقَوْمُ الظالمون.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرس العاشر من دُروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتَوْفيقه وفتحه.



(١٥)
التدبر التحليلي للدّرْس الحادي عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيتان: (٤٨ و٤٩)

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

تمهيد:

آيتا هَـٰذَا الدّرس مِن فروع السَّاقِ الأول من ساقَي شجرة موضوع السُّورَة، وفيهما بيانٌ رَبَّانِيٌّ عِلَاجِيٌّ مُبَاشِرٌ لِلْمَدْعُوِّين إِلَى دينِ اللهِ الحقّ، والْعِلَاجُ فيهما يَعْتَمِدُ عَلَىٰ المَوْعِظَةِ الحَسَنة بالترغيب والترهيب.

التّدبُّر التحليلي:

قول الله تعالىٰ خِطَاباً لكُلِّ مُتَلَقٍّ صَالِحٍ للخطاب بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم، ومبيّناً سُنَّةً من سُننه في عباده المكلفين:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ...﴾:

التَّبْشِيرُ: الوعْدُ بِعَاقِبَةٍ حَسَنَةٍ يَطْمَعُ في الظَّفَرِ بها الموعُودُ بها.

الإنْذَارُ: الْوَعِيدُ بعاقِبَةٍ سيِّئَةٍ يَحْذَرُها الموعُودُ بها، ويَكْرَهُ أنْ تَحِلَّ به.

وكُلٌّ مِنَ التَّبْشِيرِ والإنْذَارِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الموضوع مَوْضِعَ الامتحَانِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقاً بِبيانَاتٍ بشأْنِ التكالِيفِ المطْلُوبَةِ مِنْهُ في امْتِحَانِهِ.

وقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ التكالِيفَ الدِّينِيَّةَ: جُذُورٌ اعْتِقَادِيَّةٌ إيمانِيَّةٌ، وفُرُوعٌ سُلُوكِيَّةٌ نَفْسِيَّةٌ وجَسَدِيَّة، تُبَيِّنُهَا الْأَوامِرُ والنواهِي الموجَّهَةُ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ المبلِّغِ عَنْ رَبّ العالَمِينَ.

فَمَنْ آمَنَ وأَسْلَمَ وأطَاعَ، كَانَ مِن المبَشَّرِينَ بالعاقِبَةِ الحسنة، وبالثواب الجزيل، المبَيَّنِ تَفْصِيلاً في نصوصٍ كثيرة من القرآن المجيد.

ومَنْ كَفَرَ وَكَذَّبَ رسُولَ رَبِّهِ، وبما جاء بِهِ رَسُولُ رَبِّهِ، كانَ مِنَ الْمُنْذَرِين بالعاقِبَةِ السّيئة، وبالجزاءِ بعذابٍ أَلِيم جاء تفصِيلُهُ في نُصُوصٍ كثيرة من القرآنِ المجيد.

• ﴿... فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: فَمَنْ آمَنَ إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، بما أَوْجَبَ اللهُ الإيمانَ بِهِ في الدِّينِ الّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لعباده، وَأتَىٰ بما هُوَ عَمَلٌ صالحٌ نافِعٌ، وَتَرَكَ مَا هُوَ فَاسِدٌ أو مُفْسِدٌ، في سُلُوكِهِ النَّفْسِيّ، وفي سُلُوكه الْجَسَدِيّ، وأَصْلَحَ مِنْ نفسه وسُلُوكِهِ الفاسِدَ.

يُقال لغة: «أَصْلَحَ فُلَانٌ» أي: أَتَىٰ بِمَا هو صالحٌ. ويُقَالَ: «أَصْلَحَ فُلَانٌ الشَّيْءَ» أي: أَزَالَ فَسَادَه.

فَلَا خَوْفٌ يَخَافُونَهُ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين، لِأَنَّهُمْ آمِنُونَ بِتَأْمِينِ اللهِ لَهُمْ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ علَىٰ شَيءٍ فَاتَهُمْ بِسَبَبِ الْتِزَامِهِمْ بطاعَةِ رَبِّهِمْ في أوامِرِهِ ونواهِيهِ، وإصْلاحِهِمْ أعْمالَهُمْ، وإصْلاحِهِمُ الفسادَ الَّذِي كانُوا فِيهِ قَبْلَ الإيمانِ والإسلام.

رُوعِيَ في لفظ «مَنْ» معْنَىٰ الجمع، فجاء عَوْدُ الضمير عليه بالجمع في: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: والَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا الإعجازية والْبَيَانِيَّةِ المنَزَّلَةِ، فَلَمْ يَعْمَلُوا بِها، فَخَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ أوَامِرِنا ونَواهِينا فَاسِقِينَ، يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي أَنْذَرْنَاهُمْ بِهِ يَوْمَ الدِّين، بسَبَبِ مَا كانُوا فِي حَيَاةِ امْتِحَانِهِمْ في الدُّنْيَا يَفْسُقُونَ.

الْفِسْقُ: الْعِصْيَانُ، والخروجُ عَنْ صِرَاطِ الحقّ، وهو مصْطَلَحٌ إسْلَاميّ لم يكن مَعْرُوفاً عند العرب بهذا المعنى. ولكنهم يقولون إذا خَرَجَتِ الرُّطَبَةُ من قِشْرَتِها: فَسَقَتِ الرُّطَبَةِ. ومعْلُومٌ أنَّها بخروجها تَفْسُدُ.

واسْتُعْمِلَ المسُّ مُرَاعَاةً لِحَالِ أقِلِّ الفاسِقِينَ فِسْقاً مِن الكافِرين، أمَّا كبار المجرمين فيدخل العذابُ إلى أعماقهم.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الحادي عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني عشر مِنْ دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٥٠ ـ ٥٨)

قال الله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

القراءات:

(٥٢) • قرأ ابن عَامِر [**بالْغُدْوَةِ**]. وقرأها باقي القراء العشرة: [**بِالْغَدَاة**]. الْغُدْوَةُ، والْغَدَاة، لغتان عَرَبيتان لمعنًى واحِدٍ، وهو ما بَيْنَ الفجر وطُلوعِ الشمس.

(٥٤) • قرأ نافع، وأبو جعفر بفتح همزة: [**أَنَّهُ مَنْ**] وكَسْرِ همزة: [**فَإِنَّهُ**] وقرأهما ابْنُ عامر، وعاصم، ويعقوب بفتح الهمزتَيْن.

وقرأهُما باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِ الهمزتين.

وهي وُجُوهُ عَرَبِيَّة جَائِزَة.

(٥٥) • قرأ نافع وأبو جَعْفر: **[وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ]** بِنَصْبِ لفظه «سَبِيلَ» أي: يَا أيُّها المتَلَقِّي المستَجِيب.

وقرأهما شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلف: **[وَلِيَستَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمين]** بياء المضارعة، وبرَفع لفظة «سَبِيل».

وقرأهما باقي القرّاء العشرة: **[وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمينَ]** بتَاءِ المضارعة، وبِرَفْعِ لفظه: «سبيل».

(٥٧) • قرأ نافع وابن كثير، وعاصِم، وأبو جعفر: **[يَقُصُّ الْحَقَّ]**: أي: يَتَتَبَّعُهُ.

وقرأهَا بَاقي القرّاء العشرة: **[يَقْضِ الْحَقَّ]** من القضاء.

وبين القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداء المعنَى المراد.

تمهيد:

آيات هَـٰذَا الدَّرس مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الثاني مِنْ سَاقِي شَجَرَةِ مَوْضُوع السُّورة.

وفي هَـٰذِهِ الآيَاتِ تَعْلِيمٌ دَعَوِيٌّ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، ويُلْحَقُ بِهِ حَمْلَةُ رِسَالَتِهِ من أُمَّتِه، يَسْتَفِيدُونَ بالتفكّر مَا يُلائِمُ أحْوَالَهُمُ الدَّعَوِيَّة من دَلَالاتها.

وفيها تَرْبِيَةٌ للرَّسُول ﷺ فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِه، أَنْ لَا يَطْرُدَ المؤمِنِينَ المُسلمين، مَهْمَا كانت أحوالُهُم الاجْتِماعيَّةُ مُتَدَنِيَّة، اسْتِجَابَةً لِكُبَرَاء قَوْمِهِ وَطَمعاً فِي أَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا ويَعْمَلُوا صالحاً، فإذَا طَرَدَهُمْ

كَانَ مِنَ الظَّالمين، مع بيان حِكْمَةِ اللهِ فِي هَـٰذَا التَّعْلِيم التَّرْبَوي.

وفيها تَعليم أسَالِيبَ تَرْبويَّة يُعَامِلُ بِهَا حَامِلُ الرِّسالة المؤمنين. وفيها عناصِرُ دَعَوِيَّةٌ يُوَجِّهُهَا لِلْمُشْرِكين.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِه في تَعْلِيمٍ دَعَوِيٍّ:

• ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

كَرَّرَ أئِمَّةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ مُطَالَبَتَهُمْ لَهُ بأنْ يأتِيَهُم بآياتٍ خَوارِقَ، فعلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ ﷺ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَيْهِمْ بِشَأْنِ هَـٰذِهِ المطالِب، وتَصَوُّرَاتِهِم الفاسِدَاتِ حَوْلَ طَبيعَةِ رَسُولِ رَبِّ العالَمِين.

إنَّ طَبيعَةَ الرَّسُولِ لَا تَتَجاوَزُ حُدُودَ إنْسَانٍ عَبْدٍ من عبادِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ اصْطَفَاهُ اللهُ لِيُبَلِّغَ عَنْهُ مَا يُوحِي بِهِ إلَيْه، ويُجْرِي اللهُ لَهُ بِحِكْمَتِهِ بَعْضَ الآيات الخوارِقِ لِيَشْهَدَ لَهُ بها أَنَّهُ صَادِقٌ أمين إذْ يَقُولُ للنَّاسِ: إِنِّي نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ لِأُبَلِّغَكُمْ مَا يُوحِي بِهِ اللهُ إليَّ.

فَمِنَ الرَّدِّ الحكِيم والإعْلَامِ بِحَقِيقَةِ الرَّسُولِ، أنْ يَقُولَ لَهُمْ:

١ ـ أَنَا لا أدَّعي لَكُمْ أَنَّ اللهَ أعْطَانِي مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ، حَتَّىٰ تُطَالِبُوني بأَنْ آتي بِكَنْزٍ ذَهَبِيٍّ وَأُوزِّعَ عَلَيْكُمْ مِنْه.

٢ ـ أَنَا لَا أدّعِي لَكُمْ أَنَّ اللهَ أعْطَانِي عِلْمَ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، حَتَىٰ تُطَالِبُوني بإعْلَامِكُمْ بِغَيْبِيَّاتٍ لَمْ يُعْلِمْنِي بها.

٣ ـ أَنَا لَا أَدَّعِي لَكُمْ أَنَّني مَلَكٌ مِنَ الملائِكَةِ، حتَّىٰ تُطَالِبُوني بأنْ أَرْقَىٰ في السَّمَاءِ كالملَائِكَة.

إِنَّ حُدُودَ رِسَالَتِي مَقْصُورَةٌ عَلَىٰ أَنِّي أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إليَّ، فإنِ اسْتَجَبْتُم فَآمَنْتُمْ بِي نَبِيًّا وَرَسُولاً، أُبَلِّغُكُمْ مَا يَأْمُرُنِي رَبِّي أَنْ أُبَلِّغَكُمْ إيَّاه، فَهُوَ لخيرِكُمْ وسَعَادَتِكُمْ، وإِنْ لَمْ تَسْتَجِيبوا فَقد أَنْذَرْتُكُمْ بالخُلودِ في عذاب النار يَوْمَ الدِّين، مع احْتِمَالِ أنْ يُعَذِّبَكم في الدُّنيا ويُهْلِكَكُم إذا اقتضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ.

فَلَا تُطَالِبُوني بِشَيْءٍ هُو خَارِجٌ عَنْ حُدُودِ رِسَالَتِي، فأَنَا لَا أقولُ لَكُمْ إلَّا أَنَّ رِسَالَتِي مَقْصُورَةٌ عَلَىٰ أَنِّي اتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إليّ.

وَمَا عَلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَه محمّداً ﷺ في هذه الآية سَبَقَ أن قَالَهُ نوح لِقَومِهِ، كما جاء بيانُهُ في الآيات من (٢٩ ـ ٣١) من سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول).

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ . . .﴾: أي: مَا قُلْتُ لَكُمْ سابقاً، ولَا أَقُولُ لكم في الحال ولا في الاستقبال: عِنْدِي خَزَائِنُ اللهُ فَأَنَا أُخْرِجُ مِنْها مَا أشَاءُ وأَحْبِسُ مَا أشاء، إِنَّ خَزَائِنَ اللهِ عند اللهِ، وبِيَدِهِ مَفَاتِيحُها، فَهُو يَتَصَرَّفُ بِها عَلَىٰ مَشِيئَتِهِ، ضِمْنَ مَجَارِي حِكْمَتِه.

الخزائن: جمع «خزانة» وهي المكان الذي يحفظ به الشيء، أو يُوضَعُ فيه بَعِيداً عَنِ الأنظار.

- ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾: أي: وَمَا قُلْتُ ولَا أقولُ لَكُمْ: إنِّي أعْلَمُ كُلَّ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ والأرضِ، فهذا العِلْمُ مِنْ خَصَائِصِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

«ال» في «الغيب» هُنَا للاسْتِغْراق.

- ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾: أي: وما قُلْتُ ولَا أَقُول لكُم: إنِّي مَلَكٌ أَرْتَقِي في السَّمَاءِ كما تَرْتَقِي الملائكة، حتَّىٰ تُطَالِبُوني بأَنْ أَرْقَىٰ في السَّماء.

• ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾: أي: مَا اتَّبعُ في أقوالِي وفي أفعالِي إلَّا مَا يُوحىٰ إِلَيَّ مِن رَبِّي، فِرِسَالَتِي مَقْصُورَةٌ عَلَىٰ هذا.

• ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

أي: قُلْ لهم يا مُحَمَّدُ: إِنَّكُم تَبْنُونَ مَطَالِبَكُمْ عَلَىٰ جَهْلٍ بِحَقِيقَةِ الرَّسُولِ وَوَظِيفَتِهِ، فَتتَصَوَّرُونَ أنَّ لَهُ بَعْضَ قُدْراتِ الرَّبِّ فِي كَوْنِهِ، وَهَٰذَا الْجَهْلُ يُشْبِهُ الْعَمَىٰ، فاعْرِفُوا الحقيقَةَ الَّتِي أَبَنْتُهَا لَكُمْ بِشَأْنِ رِسَالَتِي، وَتَفَكَّرُوا تَفَكُّراً سَلِيماً، لِتَكُونُوا أَهْلَ بَصِيرَةٍ تُدْرِكُ الحقائق.

وإِنِّي أقول لَكُمْ بأسْلُوبِ الاستفهام: هَلْ يَسْتَوِي الْجَاهِلُ الَّذِي يُشْبِهُ الْأَعْمَىٰ، والْعَالِمُ الَّذِي يُشْبِهُ الْبَصِيرِ؟!

أفَلَا تَتَفَكَّرُونَ فِي حَقِيقَةِ مَفْهُوم كَلِمَة «النبيّ» ومَفْهُوم كَلِمَةِ «الرَّسُولِ» الذي يتَلَقَّىٰ وَحْياً مِنْ رَبِّهِ وَيَتَّبِعُهُ تَبْلِيغاً أَوْ عَمَلاً، تَفَكَّرُوا، وَكُفُّوا عَنِ التصرُّفَاتِ الَّتِي لَا يَفْعَلُها إِلَّا الجاهِلُونَ الَّذِينَ يُشْبِهُونَ العميان.

الاستفهام الأوّل فيه معنى تَلْويمهم وتأنيبهم على جَهْلِهِمْ. والاستفهام الثّاني فيهِ مَعْنَىٰ حثِّهِمْ على التفكُّر السليم لإدْراك الحقيقة، إنْ كَانُوا جاهِلِينَ حقًّا، غَيْرَ مُرَاوِغِينَ وَلَا مُجَادِلِينَ بالْبَاطِلِ.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ﷺ في مُتَابَعَةِ التَّعْلِيم الدَّعَوِيّ:

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾:

أي: وَأَنْذِرْ بِمَا جَاءَ في القرآنِ مِن إِنْذَارَاتٍ بالْعِقَابِ الرَّبَّانِيّ، المؤجَّلِ والمعَجَّلِ، الَّذِينَ تَجِدُ أَنَّهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يُبْعَثُوا يَوْمَ القِيَامَةِ، ويُجْمَعُوا وَيُسَاقُوا إِلَىٰ مَحْكَمَةِ رَبِّهِمْ، لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وَفَصْلِ الْقَضَاء بِشَأْنِهِمْ، عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا، حَالَةَ كَوْنِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ

مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ يَتَوَلَّاهُمْ فَيَحْمِيهِمْ مِن عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَلَيْس لَهُمْ شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَه، لأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الحياة الدُّنيا كافِرِين.

وارْجُ حِينَ تُنْذِرُهُمْ أَنْ يَتَّقُوا بالإيمان والإسْلَام عِقَابَ رَبِّهِم، لِيَكُونَ إنْذَارُكَ حَارّاً مُقْتَرِناً بِرَجَاءِ أَمْرٍ مَطْمُوعٍ فِيهِ.

ونَحْنُ نَرْغَبُ وَنُحِبُّ لَهُمْ أَنْ يَتَّقُوا لِيَفُوزوا يَوْمَ الدِّين بالنّعيم المقيم الخالِدِ في دار السَّلام.

الإنْذار: الإعْلَامُ بِمَا هُوَ مخُوفٌ مِنْهُ.

الْحَشْرُ: الْجَمْعُ والسَّوْق، والمرادُ بِهِ هُنَا: الحشْرُ يَوْمَ القِيامة بَعْدَ الْبَعْثِ إلى الحياة الأخرى.

الْوَلِيّ: المراد بِهِ هُنَا الناصِرُ الَّذِي يَتَصَوَّرُ المشركون أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ فَيْحمِيهِمْ مِنْ عَذَاب رَبّهم.

الشفيع: المرادُ به الذي يَتَصَوَّرُ المشْرِكُونَ أَنَّهُ يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم، فَيَرْفَعُ اللهُ بِشَفاعَتِهِ عَنْهُمْ قَضَاءَه بِتَعْذِيبِهِمْ، أَوْ تَنْفِيذَ مُجازَاتِهِمْ بالعذاب.

لَعَلَّ: أَصْلُ مَعْنَاهَا الترَّجِّي، وتَحْتَمِلُ هُنَا دَلَالَتَيْن:

الأولى: أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ في حَالَةِ رَجَاءِ أَنْ يَتَّقُوا، لِيَكُونَ إنْذَارُهُ لَهُمْ أكْثَر تَأْثِيراً.

الثانية: أَنَّ اللهَ يَرْغَبُ وَيُحِبُّ أَنْ يَتَّقُوا لِيَفُوزوا يَوْمَ الدّين، لأَنَّ معنَىٰ الرَّجاء لَا يَلِيقُ بِمَنْ هُوَ بِكُلِّ شيءٍ عليم، فَيُحْمَلُ عَلَىٰ لَازِمِ الرَّجَاء، وهو الرغْبَةُ والْحُبُّ.

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً تَعْلِيمَاتِهِ لِرَسُولِهِ وَيُلْحِقُ بِهِ كُلُّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِه:

● ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ

مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

رَوىٰ مسلمٌ عن سَعْدِ بْنِ أَبي وَقَّاصٍ قال: كُنَّا مَعَ النبيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفرٍ، فَقالَ المشركُون لِلنَّبِيِّ: أَطْرُدْ هَؤلَاء لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قال: وَكُنْتُ أَنَا وَٱبْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيلٍ، وبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهما.

فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ الله ﷺ ما شَاءَ اللهُ أن يَقَعَ، فَحَدَّثَ نَفْسَه، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالىٰ:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ...﴾.

قال الواحدي: هم: صُهَيْب، وعمَّارُ بن يَاسِر، والمِقْداد بن الأسود، وخَبَّابُ بْنُ الْأَرَتِّ، إضافةً إلَىٰ سَعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ، وابْنِ مَسْعُود.

لكِنَّ سَعْداً ذَكَرَ بِلَالاً، وَرَجُلاً مِنْ هُذَيل.

ورَوىٰ البيهقيُّ أَنَّ رُؤسَاءَ قُرَيشٍ قالُوا لِرَسُولِ الله ﷺ: لَوْ طَرَدْتَ هَٰؤُلَاءِ الْأَعْبُدَ، وأَرْوَاحَ جِبَابِهِم[1]، جَلَسْنَا إِلَيْكَ، وحادثناكَ. فقال ﷺ:

«مَا أَنَا بِطَارِدِ المؤمِنِينَ».

قالُوا: فَأَقِمْهُمْ عَنَّا إذَا جِئْنَا، فإذَا قُمْنَا فَأَقْعِدْهُمْ مَعَكَ إنْ شِئْتَ.

فقال: «نَعَمْ» طَمَعاً في إيمانِهِمْ، فأَنْزَلَ اللهُ هَٰذِهِ الآيَةِ.

وجاء عنْدَ ابْنِ إسْحَاقَ: أنَّ الَّذِينَ طَلَبَ كُبَرَاءُ المشركين من الرَّسُولِ ﷺ طَرْدَهُمْ، هم الْمُسْتَضْعَفُونَ مِنَ المؤمنين: «خَبَّابُ بْنُ الأرَتّ،

(١) أي: وَرَائِحَاتِ جِبَابِهِم (جَمْع: جُبَّة) وهي ثوبٌ سَابِغ، واسع الكمَّيْن، مَشْقُوق الْمُقَدَّمِ يُلْبَسُ فوقَ الثياب.

وَعَمَّارُ بْنُ يَاسر، وأبو فُكَيْهَةُ يَسَارُ مَوْلَىٰ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ مُحَرِّثٍ، وصُهَيْبٌ، وأشباهُهُمْ، وأنَّ قَرْيشاً قالوا: «أهَـٰؤلَاءِ الَّذِينَ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا».

أقول: الحادثَةُ وَقعَتْ، وكانَتْ سَبَبَ نُزُولِ الآيَةِ، ولَيْسَ مِنَ الْمُهِمِّ مَعْرِفَةُ كُلِّ أَسْمَاءِ المُسْتَضْعَفِينَ المَعنِّيينَ بالطَّرْدِ، وقَدْ سَبَقَ كُبَراءَ قُرَيْشٍ بِمِثْلِ هَـٰذَا مَلأُ قَوْمِ نُوح، فقد جاء بشَأْنِهِمْ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قول اللهِ تَعَالَىٰ حكاية للحوار بَيْنَهُمْ وبينَ نوح عليه السلام:

- ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾:

وجاء بشَأْنِهِمْ أيْضاً قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

- ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾:

لَقَدْ تَشابَهَتْ قُلُوبُ مَلأ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَام، مع قُلُوب أَئِمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ فِي مَكَّة.

- ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾: **الطَّرْدُ**: إِبْعَادُ الْمَطْرُودِ مَعَ اسْتِهَانَةٍ بِهِ واسْتِخْفَافٍ له.

- ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾: أي: الَّذينَ يعْبُدُونَ رَبَّهُمْ. أصْلُ الدُّعاء في اللُّغَةِ: النداء، ويأْتي بمَعْنَىٰ الرَّغْبَةِ إلى اللهِ والطَّلَب مِنْهُ لِأُمُور الدُّنيا

والْآخِرَة. ويأتي الدُّعَاءُ بِمَعْنَى مُطْلَقِ الْعِبَادَة، وهَـٰذَا الْمَعْنَىٰ هُوَ الْمُلَائِمُ هُنَا.

• ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ **الغَدَاةُ**: مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ وطُلُوعِ الشَّمْسِ.

والْعَشِيّ: الراجِحُ أَنَّهُ الْوَقْتُ مِنَ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمسِ.

وهَـٰذَانِ الْوَقْتَانِ قَدْ جَاءَ فِي النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ تَفْضِيلُ الذِّكْرِ والتَّسْبيحِ فِيهما، زِيَادَةً عَلَىٰ إِقامَةِ الصَّلَوات المفْرُوضَةِ في أَوْقَاتِها، وَعَلَىٰ قيام اللَّيل.

ولا أَرَىٰ دَاعِياً لِفَهْمِ أَنَّ المرادَ بالْغَدَاةِ والْعَشِيِّ كُلُّ سَاعَاتِ اللَّيْلِ والنَّهار، بَلْ هُمَا زَمَنَانِ مَعْرُوفَانِ لُغَةً، وعبادَةُ اللهِ بالذِّكْرِ والتَّسْبيحِ فِيهما عَلَامَةٌ دَالَّةٌ عَلَىٰ اجْتِهَادِ الْعَابِدِ، وَمُلَازَمَتِهِ للعِبادةِ فِي الْأَوْقَاتِ المفَضَّلَةِ عِنْدَ اللهِ لِذِكْرِهِ وتَسْبِيحِهِ.

• ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: أي: يُرِيدُون رِضَا ذَاتِهِ ونَفْسِهِ عَنْهُمْ، يُطْلَقُ الْوَجْهُ وَيُرَادُ بِهِ الذَّاتُ كُلُّها، وهَـٰذَا هو المرادُ هُنَا، وأَصْلُ الْوَجْهِ من الإنسانِ لغةً: مَا يُواجِهُكَ مِنَ الرَّأسِ وفيه الْعَيْنَانِ والْفَمُّ، وكُلُّ مَا يُقْبِلُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، ويُطْلَقُ الْوَجْهُ عَلَىٰ الْقَصْدِ، وعَلَىٰ الْجِهَةِ والناحِيَةِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إطْلَاقَاتٍ، والقرائِن تَدُلُّ عَلى المراد.

• ﴿... مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

الحسَابُ: بَعْدَ السؤال، من مُقَدِّمَاتِ فَصْلِ القضاء في محكمة العدْلِ والفضل الرَّبَّانِيَّة يَوْمَ القيامة، ويأتِي الجزاءُ تَطْبيقاً لِمَا يَتِمُّ بِهِ قَضَاءُ اللهِ في أحكامِهِ عَلَىٰ العِبَادِ الَّتِي قَدَّمُوهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدنيا.

وأرَىٰ أَنَّ الْحِسَابَ أُطْلِقَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ لِيَدُلَّ عَلَىٰ مَعْنَاهُ، وَعَلَىٰ مَا قَبْلَهُ مِنْ مُقْتَضِيَاتٍ لَهُ، مُنْذُ وُضِعَ النَّاسُ مَوْضِعَ الامْتحانِ في الحياة الدُّنيا،

ولِيَدُلَّ عَلَىٰ مَا يَتْبَعُهُ مِنْ فَصْلِ قَضَاءٍ وَتَنْفِيذِ جزاء بالثواب أو بالعقاب.

ومن المعلُومِ فِي المفْهُومَاتِ الدِّينِيَّةِ، أَنَّ كُلَّ إنْسَانٍ مَوْضوع مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا، مَسْؤُولٌ عَنْ أعْمَالِهِ فقط وعن آثار أَعْمَالِهِ. وهُوَ يُحَاسَبُ يَوْمَ الدِّينِ عَلَىٰ أعْمَالِهِ فقط حَسَنِهَا وسَيِّئِهَا وعَنْ آثار أَعْمَالِهِ، ولَوْ كانَ نبيًّا ولَوْ كَانَ رَسُولاً، فَهُوَ لَا يُحَاسَبُ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ غَيْرُهُ مِنْ أَعْمالٍ حَسَنِهَا وسَيِّئِها، فَلَا يُثَابُ عَلَىٰ عَمَلِ غَيْرِهِ الصَّالِحِ، ما لَمْ يَكُنْ لَهُ تَأْثِيرٌ ما فِيهِ بِعَمَلِهِ، كتَعْلِيم ونُصْحٍ وإرْشَادٍ وَتَرْبِيَةٍ، وَلَا يُعَاقَبُ عَلَىٰ عَمَلِ غَيْرِهِ السَّيِّئِ، مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ تَأْثِيرٌ مَا فِيهِ بِعَمَلِهِ، كإغْوَاءٍ وإغْرَاءٍ وَتَضْلِيلٍ ونَحوِ ذلك.

إنَّ مَسْؤُولِيَّة الْعِبَادِ عِنْدَ اللهِ مَسْؤُولِيَّةٌ شخْصِيَّة، وَلَيْسَتْ جَمَاعِيَّة حتَّىٰ بَيْنَ خَلِيلَيْنِ وحَبِيبَيْن، وبَيْنَ زَوْجٍ وَزَوْجَتِهِ، وبَيْنَ أَب وابْنِهِ أو ابْنَتِهِ، فَلَا تُؤْجَرُ نَفْسٌ أَجْرَ نَفْسٍ أخْرَىٰ، ولَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، ولَا يَحْمِلُ رَسُولٌ مِنْ خَطَايَا أُمَّتِهِ شَيْئاً.

ومِنْ مُقْتَضَىٰ هَـٰذِهِ المسْؤُولِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ، أَنْ تَكُونَ لِكُلِّ إنْسَانٍ مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ في هَـٰذِهِ الحياةِ الدُّنيا حُرِّيَةُ اختِيَارِ مَا يَشَاءِ من الأمُور المتَضادَّةِ الَّتِي هُوَ مُمْتَحَنٌ فها، وعُنْوانُ ذلِكَ: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ».

فَمِنْ حَقِّ هَـٰذَا الْإنْسَانِ أنْ لَا يُكْرَهَ عَلَىٰ الْإيمانِ إذَا اخْتَارَ هُوَ لِنَفْسِهِ الكُفْرَ، وَوَاجِبُ حَمَلَةِ رِسَالَةِ اللهِ بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ تَقْتَصِرُ عَلَىٰ التبليغ، والبيان والشَّرحِ، والإقناع بوسَائِلِهِ، والترغيب في ثواب اللهِ عزَّ وجلَّ، والتَّرهِيب من عقاب اللهِ عزَّ وجلَّ، ومِنْ حَقِّهِ أَن تُتْرَكَ لَهُ حُرِّيةُ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَعْتَقِدُ أَنَّهَا تَتَّفِقُ مَعَ مَا يُؤْمِنُ به.

ومِنْ حَقِّ كُلِّ إنْسَانٍ أَنْ لَا يُكْرَهَ عَلَىٰ الكُفْرِ بِرَبِّه وَبِمَا جَاءَ عَنْهُ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُوله، إذَا اخْتَارَ هُوَ لِنَفْسِهِ الْإيمانَ، ومِنْ حَقِّهِ أَنْ تُتْرَكَ لَهُ في

المجتَمَعَ الْبَشَرِيّ حُرِّيَّةُ مُمَارَسَتِهِ للعبادَاتِ الدِّينيَّة، دُونَ أَنْ يُمْنَعَ مِنْهَا أَوْ يُحْجَبَ عَنْها.

بَعْدَ هَـٰذِهِ الْمُقَدَّمَةِ يُمْكِنُ فَهْمُ قول اللهِ تَعَالَىٰ لرَسُولِهِ ﷺ بشأْنِ الَّذِينَ طَلَبَ أئمَّةُ الشِّرْكِ مِنْهُ طَرْدَهُمْ عَنْ مَجالِسِهِ، إطْمَاعاً لَهُ بأنْ يَحْضُرُوا هُمْ مَجَالِسَهُ الدّعَوِيَّة، ويَسْتَمِعُوا لِأَقْوَالِهِ وتِلَاواته:

• ﴿... مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ مَسْؤولٌ وَحْدَهُ عِنْدَ اللهِ عَنْ أَعْمَالِهِ واختياراته في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، وهُوَ وَحْدَهُ يُحَاسَبُ ويُجَازَىٰ عَلَيْها، وأنْتَ يَا مُحَمَّدُ مَسْؤُولٌ وَحْدَكَ عِنْدَ رَبِّكَ، عَنْ أعْمَالِكَ واخْتِيَارَاتِك الّتِي اخْتَرْتَها في الحياة الدُّنيا، وتُجَازَىٰ عَلَيْهَا يَوْمَ الدِّين.

ومِنْ مُقْتَضَىٰ هَـٰذِهِ المسؤوليّة الشَّخْصِيَّة أَنْ يَكُونَ الإنْسَانُ المبتَلَىٰ المُكَلَّفُ حُرّاً فِي مُمَارَسَةِ مَا يُرِيدُ بِهِ وَجْهَ رَبِّهِ، ويَبْتَغِي بِهِ رضوانَهُ وَثَوَابَهُ الْعَظِيمَ يَوْمَ الدِّين، وأَنْ لَا يُحْرَمَ مِنْ حُضُورِ مجالِس الْعِلْم والْخَيْرِ والْعِبَادة، إبْعَاداً أَو طَرْداً، لانْحِطَاطِ طَبَقَتِهِ الاجْتِمَاعِيّة، أوْ لَأَنَّ ذَوِي الكِبْر في المجتَمَع يَكْرَهُونَ حُضُورَهُ مَعَهُمْ اسْتِكْبَاراً عَلَيْهِ واسْتِهَانَةً بِهِ. لَكِنْ قَدْ يُطْلَبُ مِنْهُ أَنْ لَا يَكُونَ فِي جَسَدِهِ أو ثَوْبِهِ مَا يُنَفِّرُ مِنْ قَذَارَاتٍ.

فَمَنْ طَرَدَ هَـٰؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ الفُقَراءَ عن مَجَالِسِ الْعِلْمِ النافِع، والخيرِ والعبادَةِ العامَّة، الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُتَاحَ حُضُورُهَا لكلِّ راغِبٍ فِيهِ مِنْ كُلِّ طبقاتِ المجتمع، على اختلاف مِهَنِهِمْ، للانتفاع بها، والاسْتِزادة مِنَ الخير، فَهُوَ ظَالِمٌ لِحَقِّهِمْ الَّذِي مَنَحَهُ الرَّبُّ لهم، بِمُقْتَضَىٰ كَوْنِهِمْ مُمْتَحَنِينَ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وبِمُقْتَضَىٰ كَوْنِهِمْ مَسْؤُولِينَ مَسْؤُولِيَّةً شَخْصِيَّةً عَمَّا يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أعْمَال.

إِنَّ الْحُرِّيَّةَ الشَّخْصِيَّة في مُمَارَسَةِ الأعْمَالِ الدِّينِيَّةِ، وفي حُضُورِ مَجَالِسِ الْعِلْمِ والْخيرِ والْعِبَادَة العامَّة، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَصُونَةً لِكُلِّ إنْسَانٍ ذي إرادةٍ حُرَّة، مَوْضوعٍ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، مِنْ أَدْنَىٰ النَّاسِ فِي مُجْتَمَعِهِ، حَتَّىٰ الْقَائِدِ الأعْلَىٰ، وَحَتَّىٰ النبيِّ والرَّسُولِ، فَلَا يَصِحُّ عقلاً لأحَدٍ الْعُدُوانُ عَلَيْها.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

● ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

أي: وَكَذَلِكَ الامْتِحَانِ الَّذِي امْتَحَنَّا فِيهِ بَعْضَ النَّاسِ بِبَعْضٍ، إذِ امْتَحَنَّا الْأَغْنِيَاءَ بالْفُقَرَاءِ، والْفُقَرَاءَ بالأغْنِيَاء، وامْتَحَنَّا الْأَقْوِيَاءَ بِالضُّعَفَاءِ، وَبِالْعَكْسِ، وامْتَحَنَّا الْحِسَانَ بِغَيْرِ الْحِسَانِ وبالعكْسِ، وامْتَحَنَّا كُلَّ إنْسَانٍ بِمَنْ يَتَعَامل مَعَهُ في عَلاقَةٍ مَالِيَّةٍ أو اجْتِمَاعِيَّة، قَرِيباً كَانَ أَمْ بَعِيداً، حاكِمين أَمْ محْكُومِين، امْتَحَنَّا كُبَرَاءَ مُشْرِكي مَكَّةَ بِضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، لِكَشْفِ كِبْرِهِمْ الصَّادِّ لَهُمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، الَّتِي فِيها نجاتُهُمْ مِنَ الْخُلُودِ فِي عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّينِ، وَفَوْزُهم بالْخُلُودِ فِي جَنَّاتِ النعيم، وكِبْرُهُمْ هَـٰذَا دَفعهُمْ بِحَمَاقَةٍ لِيَقُولُوا مُحْتَقِرِينَ مُزْدَرِينَ ضُعَفَاءَ المؤمِنِينَ، أَهَـٰؤُلَاءِ الْعَبِيدُ والضُّعَفَاءُ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا، فَوَعَدَهُمْ بالثَّوَابِ الْجَزِيلِ والْأَجْرِ العظيم، وفَضَّلَهُمْ عَلَيْنَا، كَمَا يَتْلُو محمَّدٌ في الآيات الَّتِي يَقُولُ: إِنَّهَا تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالمين.

● ﴿فَتَنَّا﴾ أي: امْتَحَنَّا وَبَلَوْنَا، وَهَـٰذَا المعْنَىٰ هُو الملائِمُ هُنَا من معاني الفتنة.

وَرَدَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَىٰ مَقُولَتِهِمْ هَـٰذِهِ بِقَوْلِهِ:

● ﴿... أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾؟!: أي: إنَّ اللهَ مَنَّ عَلَىٰ

فُقَرَاءِ المؤمِنِينَ وَضُعَفَائِهِمْ، الَّذِينَ يَحْتَقِرُهُمْ وَيَزْدَرِيهِمْ كُبَرَاءُ الْمُشْرِكِين، بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ شَاكِرِينَ لَهُ بالإيمانِ والإسْلَامِ والطَّاعَة، أَمَّا الْمُسْتَكْبِرُونَ فَلَمْ يُؤْمِنُوا وَلَمْ يُسْلِمُوا وَلَمْ يُطِيعُوا، فَكَانُوا بِرَبِّهِم كافِرِينَ، فَلَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ رَبِّهِم التَّكْرِيمَ وَلَا الْوَعْدَ الكَرِيم، بَلْ يَسْتَحِقُّونَ الإهَانَةَ والْإِذْلَالَ والْوَعِيدَ بالْعَذَابِ الأَلِيم.

قابَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ اسْتِفْهَامَهُمُ الازْدِرائِيَّ بِضُعَفَاءِ المؤمِنِينَ وفُقَرائِهِمْ، باسْتِفْهَام تَعْجِيبِيٍّ مِنْ بَالِغِ جَهْلِهِمْ بِسَامِي حِكْمَتِهِ، وَإِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِكُلِّ شيء، وَدَلَّ بِهَـٰذَا عَلَىٰ أَنَّ مِنَنَهُ عَلَىٰ عِبَادِه بالتَّكْرِيم، وبِالْوَعْدِ الْكَرِيم، خَاصَّةٌ بالشَّاكِرِين، ولَا يَنَالُ مِنْها الكافِرون، وَجَاء فِي نُصُوصٍ أخرى مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ التَّفْضِيلَ فِي التكْرِيم عِنْدَ الله يَتَنَاسَبُ مَعَ ارْتِقَاءِ الشَّاكِرِينَ في دَرَجَاتِ التَّقْوىٰ، فالْبِرِّ، فالإحْسَان.

الباءُ في ﴿بِأَعۡلَمَ﴾ مَزِيدَةٌ فِي خَبَرِ «لَيْسَ» للتوكيد.

وجواب هَـٰذَا السُّؤَال في العبارة: بَلَىٰ، اللهُ أَعْلَمُ بالشَّاكِرِينَ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْم، لِأَنَّهُ مُحِيطٌ عِلْماً بِكُلِّ مَا فِي نُفُوسِهِمْ وَقُلُوبِهِم وأعمالهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ أَسْلُوباً تَعْلِيمِيًّا يُوَجِّهُهُ لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ رَبِّهِمْ، بِشَأْنِ مَا قَدْ يَعْمَلُونَهُ مِنْ مَعَاصٍ، وفِيهِ إطْمَاعٌ لَهُمْ بأنَّ اللهَ يَغْفِرُ لَهُمْ ويَرْحَمُهُمْ، إذَا تَابُوا وَأَصْلَحُوا:

• ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾﴾:

أي: وَإِذَا جاءَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَيُلْحَقُ بِهِ كُلُ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآيَاتِنَا المَنَزَّلَاتِ في القرآن، وأَحْسَسْتَ أَنَّهُمْ مُذْنِبُونَ خائِفُونَ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ فَحَيِّهِمْ بتَحِيَّةِ الإسْلام ﴿فَقُلۡ﴾ لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾.

أي: أَنْتُمْ برحْمَةِ اللهِ وَغُفْرَانِهِ سَالمونَ مِنْ عَذَابِهِ إِذَا تُبْتُمْ وَرَجَعْتُمْ إلى طَاعَةِ رَبِكُمْ، وأصْلَحْتُمْ سُلُوكَكُمْ.

• ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾: أي: فَرضَ وأوْجَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَرْحَمَ عِبَادَهُ المذْنِبينَ، وَكَتَبَ ذَلِكَ في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظ، كَمَا حَرَّمَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الظُّلْمَ وكَتَبَهُ، وهُوَ مَا جَاءَ بيانُهُ فِي حَدِيثٍ قُدْسِيّ.

وَمَضْمُونُ هَٰذِهِ الرَّحْمَةِ الَّتِي كَتَبَهَا رَبُّكُم عَلَىٰ نَفْسِهِ:

• ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أَيْ: أَنَّ الشَّأْنَ ذا الْخَطَر، مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ أَيُّهَا المؤمِنُونَ بآيَاتِ رَبِّكُمْ سُوءاً عَصَيْتُمْ بِهِ أَوَامِرَهُ أَوْ نَوَاهِيَهُ، بدَافِعٍ مِنْ جَهَالَةٍ غَلَتْ مَرَاجِلُهَا فِي نُفُوسِكُمْ.

السُّوءُ: في اللُّغَةِ كُلُّ مَا يَقْبُحُ، ويُرَادُ بِهِ هُنَا الذَّنْبُ، فَهُوَ مِمَّا يَقْبُحُ أَنْ يَرْتَكِبَهُ المؤمِنُ المسْلِمُ.

الْجَهَالَةُ: حَالَةُ انْدِفَاعِ النَّفْسِ لِتَحْقِيقِ شَهْوَةٍ مِنَ شَهَوَاتِها، أَوْ مَطْلُوبٍ مِنْ مطالِبها، وفيها مَعْصِيَةٌ للهِ عزَّ وجلَّ.

أَصْلُ الْجَهْلِ والجهالَةِ مَأْخوذٌ مِنْ «جَهِلَتِ الْقِدْرُ، تَجْهَلُ، جَهْلاً، وجَهَالَةً» أي: اشْتَدَّ غَلَيَانُها، وهُو ضِدَّ تَحَلَّمَتْ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الشَّهْوَة الْقَوِيَّةَ فِي النَّفْسِ، والْهَوَىٰ الجامِحَ، لَهُمَا فِيها غَلَيَانٌ حَارٌّ يُشْبِهُ غَلَيَانَ مَا فِي الْقُدُور إذَا أُوقِدَتِ النارُ تَحْتَها.

• ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

• ﴿تَابَ﴾: أي: رَجَعَ إِلَىٰ طَاعَةِ رَبِّهِ مُسْتَغْفِراً نادِماً عَلَىٰ مَا فَعَلَ.

• ﴿وَأَصْلَحَ﴾: أي: وَعَمِلَ صَالحاً، وَأَصْلَحَ أَحْوَالَ نَفْسِهِ الَّتِي مَسَّهَا الْفَسَادُ بالمعْصِيَة.

وجاءَ التعْبِيرُ بِحَرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ» لإِعْطَاءِ المؤمِنِ الْعَاصِي مُهْلَةً لِتَوْبَتِهِ، دُونَ اشْتِرَاطِ الْفَورِيَّةِ عَقِبَ الْمَعْصِية.

• ﴿... فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٤﴾: أي: فإنَّ اللهَ يَرْحَمُهُ فَيَغْفِرُ لَهُ وَيَصْفَحُ عَنْهُ، لأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

غَفُورٌ: كَثِيرُ الْغُفْرانِ وعظيمهُ.

رَحِيم: عَظِيمُ الرَّحمَةِ وواسِعُها.

■ قول اللهِ عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٥٥﴾:

أي: ومِثْلَ ذَلِكَ التَّفْصِيل الَّذِي فصَّلْنَاهُ في الآيَاتِ السَّابِقَاتِ تُفَصِّلُ الآيَاتِ في سُوَرِ القرآنِ، ونُجُوم التَّنْزِيلِ الَّتِي نُنْزِلُهَا، لِيَسْتبِينَ وَيَظْهَرَ وَيَتَّضِحَ صِرَاطُ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِم، وَلِتَسْتَبِين وتَظْهَرَ وَتَتَّضِحَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ، الَّذِينَ سَوْفَ يَكُونُونَ خالِدِينَ فِي عَذَابِ النَّارِ، وبهَٰذِهِ الاسْتبانَة تَنْقَطِعُ أَعْذَارُهم.

تفصيلُ الأشياء: تمييز بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ لإبراز حُدُودِ كُلٍّ مِنها، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْمَعْرِفَةَ الصَّحِيحَةَ مِنْ شَرْطِهَا تَمْيِيزُ حُدُود عَنَاصِرها.

والتفصيل: التَّبيين، وكَشْفُ حُدُودِ الأجزاء المتلاصِقَةِ في الظَّاهر، بإظهارِ مَا بَيْنَها من انفصالٍ ولَوْ لم يَكُنْ مَرْئِيًّا، لتمييز بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ في الإدْراكِ الْفِكْرِي.

وِلِتَسْتَبِينَ: أي: ولِتَظْهَرَ وَلِتَتَّضِحَ، مِنْ فِعْلِ «اسْتَبَانَ» اللّازم، وهذا المعنى يناسِبُ قِرَاءة رفع «سَبيلُ».

وبمعنى «لِيَسْتَوْضِحَ، ولِيَعْرِف» من فعل «اسْتَبَانَ» المتَعَدِّي، وهذا المعنى يُنَاسِبُ قراءة نَصْب «سَبِيلَ».

فبين القراءتين تكامُلُ فِي أداءِ المعْنَىٰ المراد.

وأَرَىٰ أَنَّ الواو في: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَى مَحْذُوف، وهُوَ مَا ذَكَرْتُهُ في البيان التَّدَبُّرِيّ عَقِبَ ذِكْرِ الآيَة.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فِقَرَاتٍ دَعَوِيَّةً وحِوَارِيَّةً لِأئِمّةِ المشْرِكِينَ المعنيّينَ بالْعِلَاج.

● ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

وفي القراءة الأخرى: [**يَقْضِ الْحَقَّ**] مِنْ فِعْلِ «قَضَىٰ يَقْضِي».

■ عَلَىٰ الرَّسُولِ وَعَلَىٰ كُلِّ دَاعٍ إلى دِينِ اللهِ الحقِّ، أَنْ يُعْلِنَ لِمَنْ يَدْعُوهُمْ أَنَّهُ مَنْهِيٌّ مِنْ قِبَلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَنْ أَنْ يَعْبُدَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، وَأَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ إِذَا حَاوَلُوا اسْتِنْزَالَهُ إِلَىٰ عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ، لِيَعْبُدُوا إِلَهَهُ رَبَّ الْعَالَمِين: إِنِّي نُهِيتُ عَنْ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ، فإذا عَبَدْتُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَكُونُ قَدْ ضَلَلْتُ حِينَئِذٍ، ومَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، وَبِهَـٰذَا أُعَرِّضُ نَفْسِي إِلَىٰ مَا أُنْذِرُكُمْ بِهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ خَالِدٍ، في دار العذاب النار يَوْمَ الدِّين. فَلَا تَطْمَعُوا فِي اسْتِنْزَالِي إِلَىٰ شِرْكِيَّاتِكُمْ، لِأَنَّنِي لَنْ أَسْتَجِيبَ لَكُمْ، وَلَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَكُمْ، إِنَّكُمْ لا تَمْلِكُونَ فِي شِرْكِيَّاتِكُمْ حَقًّا حَتَّىٰ أَتّبِعَكُمْ فِيهِ، إِنَّمَا تَتْبِعُونَ أَهْوَاءَكُم الْمُضِلَّةَ لَكُم.

هَـٰذَا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآيَة (٥٦) مِنْ هَـٰذَا التَّعْلِيم:

● ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّد ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقِّ مِنْ أُمَّتِهِ: يَا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، إِنِّي نُهِيتُ مِنْ قِبَلِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي لاَ رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ عَنْ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ (أي: تَعْبُدُونَ) مِنْ دُونِ اللهِ. حَذْفُ الجار قبل «أنْ» قِياسٌ مُطّرِد.

قُلْ يا مُحَمَّد ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أمَّتِهِ: يا أيُّهَا المشْرِكُونَ، لَا أتَّبعُ أهْوَاءَكُمْ المضِلَّةَ.

إنّي إنْ عَبَدْتُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وإنِ اتَّبَعْتُ أهْوَاءَكُمْ، أكُونُ قَدْ ضَلَلْتُ إذاً، وَمَا أنا مِنَ المهْتَدِينَ، وأسْتَحِقُّ حِينَئِذٍ عِقَابَ الضَّالِّينَ ضلَالاً مِنْ دَرَكَةِ الْكُفْرِ باللهِ رَبِّ العالمين.

عبارة: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ جواب شَرْطٍ مَطْوِيٍّ بَيْنَ المثَاني هُوَ وأدَاةُ الشَّرْط، تَقْدِيرُهُ: «إنْ عَبَدْتُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ واتَّبَعْتُ أهْوَاءَكُمْ» إذَنْ قَدْ ضَلَلْتُ وَمَا أنا مِنَ الْمُهْتَدِين. وقُدِّمَ «قَدْ ضَلَلْتُ» عَلَىٰ «إذَنْ» للتَّنْبِيهِ ابْتِداءً عَلَىٰ المحْذُورِ مِنْه، وهُوَ الضَّلَالُ المؤكَّدُ المحقّق، المؤدِّي إلى الخلود في عذاب اللهِ يَوْمَ الدِّين.

■ وَعَلَىٰ حَامِلِ الرِّسَالَة الدَّاعِي إلى دِينِ اللهِ الحقِّ أنْ يُعْلِنَ لِلَّذِينَ لم يَستَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، أَنَّهُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ بُرْهَانِيَّةٍ مِنْ رَبِّهِ بِأَنَّ مَا يَدْعُوهُمْ إلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِهَـٰذَا الْحَقِّ الَّذِي أقَامَ لَهُمْ عَلَيْهِ الْبَرَاهِينَ اتّباعاً لِأَهْوَائِهِم، والْتِزاماً بالْبَاطِلِ الّذِي هُمْ عَلَيه، فجاء في البيان التعليميّ:

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ... ﴿٥٧﴾﴾:

البيّنَةُ: الواضحة الجلية، وهي صفة موصوف محذوف.

أي: قل لِلّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِكَ: إنَّ مَا أدْعُوكُمْ إلَيْهِ هُوَ حَقٌّ مِنْ رَبّكُمْ، وَإنّي أمْلِكُ مِلْكَ تَمكُّنٍ واسْتِعْلَاء، بَيّنَةً بُرْهَانِيَّةً مِنْ رَبِّي تُثْبِتُ أنَّ مَا أدْعُوكُمْ إلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ والصِّدْق. وأنْتَمْ كَذَّبْتُمْ بِهِ دُونَ أنْ تَمْلِكُوا دَلِيلاً مَا تُعْذَرُونَ بِهِ فِي تَكْذِيبكُمْ عِنْدَ رَبِّكُم، فَاعْلَمُوا أنَّ عَذَابَ اللهِ سَيَحُلُّ بِكُمْ لَا مَحَالَةَ، تَحْقيقاً لِمَا أنْذَرَكُمْ بِهِ في آياتِ كِتَابِهِ المجيد. وقد سبق في سورة (هود/ ٥٢ نزول) بيان أن نوحاً وصالحاً وشعيباً قالُوا لأقوامهم نظير هَـٰذِهِ العبارة.

■ أمَّا مَا يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ مِنْ إنْزَالِ وَسَائِلِ التَّعْذِيبِ والإهْلَاكِ عَلَيْهِمْ، وهُو مَا جَاء بيانُهُ في الآية (٩٢) من سورة (الإسْرَاء/١٧ مصحف/٥٠ نزول).

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴿٩٢﴾﴾: وَقَدْ سَبَق تَدَبُّرُها. فَقَدْ جَاءَ في البيانِ التَّعْليميّ بِشَأْنِهِ قَوْلُهُ تَعالى:

﴿... مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

• ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾: أي وقل لهم: لَيْسَ عِنْدِي فِيمَا مَلَّكَنِي اللهُ مِنْ قُدْرَاتٍ، الْقُدْرَةُ عَلَىٰ إنْزَالِ الْعَذَابِ الَّذي سَبَقَ أَنْ أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ بَلاغاً عَنْ رَبِّي، فَأَنْتُمْ تَسْتَعْجِلونَني بِأَنْ أُنْزِلَ عَليكُمْ كِسفاً مُهْلِكَةً لَكُمْ مِن السَّمَاءِ عَلَىٰ سَبيلِ التَّحَدِّي، مَعَ أَنِّي لَمْ يَسْبِقْ لِي أن قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا الَّذِي سَأُعَاقِبُكُمْ بالْعَذَابِ المُهْلِكِ، إذَا أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ كُفْرِكُمْ وارتَكَابِكُمْ لِجَرَائِمِكُمْ، إِنَّمَا بَلَّغْتُكُمْ إِنْذَارَاتِ اللهِ لَكُمْ، واللهُ لا يُجْرِي إِنْذاراتِهِ إِلَّا في آجَالِهَا الحكيمَة.

فَمُطَالَبَتُكُمْ لي بِتَعْجِيلِ مَا أَنْذَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِهِ، مَرْفوضَةٌ فِي مَوَازِينِ الْعُقُول، ومَقَايِيسِها الصَّحِيحَة السَّلِيمَة.

• ﴿... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾: أي: وقُلْ لَهُمْ: مَا الْحُكْمُ في الكَوْنِ كُلِّهِ إيجاداً وإعْداماً، وتحويلاً وَتبديلاً، أو فعلاً لأمْرٍ ما، أَوْ إذْناً بِفعْل أَمْرٍ ما، إلَّا للهِ وَحْدَه.

المرادُ بالْحُكْم هُنَا الْقَضاءُ المسْبُوقُ بِتَقْدِيرِ الْمَقَادِيرِ كُلّها، ومِنْهُ إِنْزالُ الْعَذَابِ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، وحُكْمُ اللهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مُتَّصِفٌ بِكَمَالِ الْحِكْمَةِ، فَعِلْمُ اللهِ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، واخْتِيَارُ اللهِ لَا يَكُونُ إلَّا مُطَابقاً

لِأَفْضَلِ الاحْتِمَالَاتِ وَأَحْسَنِها، لِأَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ:

﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ [يَقْضِ الْحَقَّ]:

• فالمعْنَىٰ على القراءة الأُولَىٰ: أنَّ اللهَ تبارك وتعالَىٰ يَتَتَبَّعُ الْحَقَّ تَتَبُّعاً مَصْحُوباً بِعِلْمِهِ الْمُحِيط بكُلِّ الأشياء والأجزاء صِغَارِهَا وكِبَارِها، فإذَا عَلِمَ سُبْحانَه أَنَّ الإمْهَالَ هُو الْأَحْكَمُ أَمْهَلَ، وحِينَ يَعْلَمُ أَنَّ إِنْزَالَ الْعَذَاب الْعِقَابِيِّ الْمُهْلِكِ هو الأحْكَمُ أَنْزل، ولا يَسْتَطِيعُ العبادُ أنْ يُحِيطُوا بما يُحِيطُ بِهِ عِلْمُ الله، فَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُون اختيارَ مَا هو الأحْكم، والْوَاجِبُ علىٰ العباد التَّسْلِيمُ للهِ في اختياراته.

• والمعنىٰ على القراءة الثَّانِية: أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقْضِي الْحَقَّ في كُلِّ أَمْرٍ يقْضيه، بَعْدَ أَنْ يَخْتَارَهُ بِحِكْمَتِه.

يُقَال لغة: «قَضَىٰ اللهُ الشَّيْءَ»: أي: أمْضَىٰ حُكْمَهُ بِتَنْفِيذه عَلَىٰ وَفْقِ المقادير الَّتِي أحْكَمَ تَقْدِيرهَا لِكُلِّ جُزْءٍ فيه ذاتاً وصِفَةً.

ويُقال: [قَضَاهُ]: أي: أنْهَىٰ تَنْفِيذَهُ عَمَلِيًّا.

فَبَيْنِ القراءتَيْنِ تكَامُلٌ في تَأْدِيَةِ المعْنَىٰ المراد، أي: يَتَتَبَّعُ الحقَّ الَّذِي يَكُونُ اخْتِيَارُهُ هُوَ الْأَحْكَم، فَيُنْهِيهِ بِقَضَائِهِ الْمُبْرَمِ حُكْماً، ثُمَّ يُنَفِّذُهُ في أجَلِهِ، فَيُنْهِي تَنْفِيذَهُ عَمَلِيًّا.

• ﴿... وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾: أي: وهو جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ خَيْرُ الحاكمين وخَيْرُ الْقَاضِين.

يقال لُغَةً: «فَصَلَ الْقَاضِي أو الْحَاكِمُ الأَمْر» أي: قَضَاهُ، وأَبْرَمَهُ وبَتَّهُ.

• ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: قُلْ لهم يا مُحَمَّدُ، لَوْ أَنَّ رَبِّي مَلَّكَنِي الْقُدْرَةَ عَلَىٰ إنْزَالِ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ مِنْ عَذَابٍ وَإِهْلَاكٍ عَلَيْكُمْ، وأَعْطَانِي التَّفْوِيضَ بِذَلِكَ، لَاخْتَرْتُ أَنْ أُلَبِّيَ طَلَبَكُمْ، بَعْدَ أَنْ نَفِدَ صَبْرِي عَلَيْكُمْ، ولَأَنْزَلْتُ عَلَيْكُمُ الْعَذَابَ الْمُهْلِكَ، رَغْبَةً في الْخَلَاصِ مِنْ شُرُورِكُمْ، وَمِنْ صَدِّ أَتْبَاعِكُمْ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم.

وَلَكِنَّ اللهَ لَمْ يُعْطِنِي هَـٰذِهِ الْقُدْرَةَ، وَلَمْ يَمْنَحْنِي التَّفْوِيضَ باخْتِيَارِ تَعْذِيبِكُمْ وإِهْلَاكِكُمْ؛ لِأَنِّي لَا أَعْلَمُ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ بَلَغُوا مِنْكُمْ فِي ظُلْمِهِم الشَّنِيعِ إِلَىٰ دَرَكَةِ اسْتِحْقَاقِ التَّعْذِيب والإهلاك الْمُعَجَّلِ دُونَ إِمْهَالٍ.

فَالْأَمْرُ يجب أَنْ يكُونَ مَتْروكاً للهِ، واللهُ أَعْلَمُ بالظَّالِمين من كل عليم.

وبهذا انتهى تدبر الدرس الثاني عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١٧)
التدبر التحليلي للدَّرْس الثالث عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٥٩ ـ ٦٢)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ

تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾:

القراءات:

(٦١) • قرأ حَمْزَة: **[تَوَفَّاهُ]** مع الإمَالَة.

وقرأهَا بَاقِي القُرَّاءِ العشرة: **[تَوَفَّتْهُ]**.

والقراءتان وجهان عَرَبيان جائزان.

(٦١) • قرأ أبو عُمْرو: **[رُسْلُنَا]** بإسْكَانِ السِّين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[رُسُلُنَا]** بضمّ السّين. وهما لغتان عَربيتان.

تمهيد:

آياتُ هذا الدَّرْس مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الْأَوَّلِ مِنْ سَاقَيْ شجرة مَوضُوع السّورة، وفيه بَيَانٌ رَبَّانِيٌّ مُبَاشِرٌ حَوْلَ إحَاطَةِ عِلْم اللهِ بِكُلِّ شَيء، وقَدْ خَاطَبَ اللهُ فيه النَّاسَ بأَنَّهُ هو الّذِي يتوفَّاهُمْ بالنَّوْم، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ مِنْ نَوْمِهِم، وأَنَّهُ هُوَ الّذِي يُمِيتُ النَّاسَ ويَبْعَثُهُمْ يَوْمَ القيامة، للحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، بسُلْطَانِ قَهْرِهِ، وبأَنَّهُ هو الذي يُرْسِلُ عَلَيْهِمْ مَلائِكَةً حفَظَةً، مع تَتِمَّاتِ مُلَائِمات.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾:

«مَفَاتِح» و«مَفَاتِيح»: جمعٌ مُفردُهُ «مِفْتح» و«مِفْتَاح» وهو آلَةٌ يُفْتَحُ بها مُغْلَقٌ مَا، من مكانٍ مُخَصَّصٍ للإقْفَالِ والفتح.

ومِفْتَاح كُلِّ شيءٍ بِحَسَبِهِ، حتَّىٰ المعاني الْمُغْلَقَةُ لَهَا مَفَاتِيحُ، إذَا فُتِحَتْ بِهَا أقْفَالُ أَبْوَابِهَا، وفُتِحَتْ أبْوابُها عُرِفَتْ.

وجَرَىٰ تَعْمِيمُ لَفْظِ «المِفْتَاح» ولفظ «الْبَابِ» في الاسْتِعْمَالِ مِنَ المادِّيَاتِ إلَىٰ المعنَوياتِ.

وَمَفَاتِحُ الْغَيْبِ، هِيَ مَا يُتَوصَّلُ بِهِ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ حَقَائِقَ هِي من عَالَمِ الْغَيْبِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الْخَلائِق، قَبْلَ فَتْحِ مَغَالِيقِه.

أمْثِلة للمفاتيح المعنوية:

(١) توصَّل الأطباء إلى معْرِفَةِ حَالَةِ القَلْب بالنسبة إلى انتظام ضَرباته أو عَدَمِها، بآلَة رسْمِ أَثَر ضَرَباتِ القَلْب.

هذا مِفْتاحٌ يمكن عَنْ طَرِيقِه مَعْرِفَةُ حَالَةِ القَلْبِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ هَـٰذِهِ الجُزْئِيَّةِ مِنْ جُزْئِيَّاتِ المعْرَفِةِ.

(٢) توصَّلَ عُلَمَاءُ الأرْصَادِ الجَوِّيَّةِ إلى مَعْرِفَةِ بَعْضِ أحوال الطَّقْس القادِمَةِ خِلَالَ يَوْمٍ أو أكْثَرَ مَعْرِفَةً ظَنِّيَّةً، عن طَرِيق أجْهِزَةٍ خاصَّة.

هذا الَّذِي تَوَصَّلَ إِلَيْهِ عُلَمَاءُ الأرْصَادِ يُمْكِنُ أَنْ نَعْتَبِرَهُ مِفْتَاحَ هَـٰذِهِ المعْرِفَةِ لِهَـٰذِهِ الْجُزْئِيَّةِ مِنْ جُزْئِيَّاتِ المعرفة.

(٣) النَّظَرِيَّةُ «النِّسْبِيَّةُ» الَّتِي اكْتَشَفَهَا «أَنِشْتَاين» كَانَتْ مِفْتَاحاً فَتَحَ اللهُ بِهِ أبْواباً لِمَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلوم.

(٤) الطَّاقَةُ الكهرُبَائِيَّة صَارَتْ بَعْدَ اكْتِشَافِها مِفْتَاحاً للتَّوصُّلِ إِلَىٰ كثير من المعارف الَّتِي كانَتْ فِي عالَمِ الْغَيْبِ، ومِنْهَا الأَلِكْتُرونيات.

(٥) اللُّوغرِتْمَاتِ مِفْتَاحٌ للتَّوَصُّلِ إلَىٰ مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ من الأرْقَامِ الكبِيرة، في الحساباتِ الرِّيَاضِيَّةِ الْعَالِيَةِ الْمُعقَّدَةِ الصَّعْبَةِ.

وهكذَا إلَىٰ أمْثِلَةٍ كَثِيرَةٍ هِيَ مَفَاتِيحُ مَعْنَوِيَّةٌ فِكْرِيَّةٌ لِعُلُوم هِيَ مِنْ عَالَم الْغَيْبِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ النَّاسِ، وبَعْدَ هَـٰذَا يُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ قول الله تعالى في الآيَةِ:

• ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ... ﴿٥٩﴾﴾: أي: وعِنْدَ اللهِ وَحْدَهُ جَمِيعُ مَفَاتِحِ كُلِّ الْغَيْب، وهَـٰذِهِ المفاتِحُ لَا يَعْلَمُهَا إلَّا هو جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانَهُ، فَلَا يَعْلَمُها عِلْماً مُسْتَغْرِقاً لِكُلِّ أَفْرَادِها رَسُولٌ مُفَضَّلٌ، ولَا مَلَكٌ مُقَرَبٌ مَكِينٌ لَدَيْه.

ومَعْلُومٌ أَنَّ نَفْيَ عِلْم كُلِّ الأَفْرَادِ لَا يَسْتَلْزِمُ وَلَا يَقْتَضِي نَفْيَ عِلْمِ بَعْضِها، فهَـٰذَا مِنْ سَلْبِ الْعُمُومِ لَا مِنْ عُمُومِ السَّلْب.

استفيد القصر من تقديم «عِنْدَهُ» على المبتدأ «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ». أي: وعِنْدَهُ وَحْدَهُ مِلْكُهَا، وامْتِلَاكُ الْفَتْحِ بِها، ولَا يَعْلَمُها كُلَّهَا إلَّا هُو. ويُفْهَمُ مِنْ هَـٰذَا أَنَّهُ سبحانَهُ وتَعَالَىٰ إِنْ شَاءَ سَخَّرَ بَعْضَ هَـٰذِهِ المفاتِيحِ لِبَعضِ عباده، فيتَوَصَّلُونَ بِهَا إلى مَعْرِفَةِ بَعْضِ الْغَيْبِ الّذي لَا يُحِيطُ بِهِ كُلِّهِ إلَّا اللهُ تبارَكَ وتَعَالَىٰ.

﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾: جملَة حَالِيَّة لـ ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾.

• ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: أي: وهو تبارَكَ وَتَعَالَىٰ يَعْلَمُ بالتَّفْصِيلِ الدَّقِيقِ كُلَ مَا فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ مِنْ أشياء وأحياء، حتَّىٰ بواطنَ الذّراتِ، وأصْغَرَ كُلِّ صَغِيرٍ مِنَ الأحْيَاءِ، وَأجزاءَ ذَاتِهِ مِنْ مَادِّيٍّ ومَعْنوِي، مَوْصُوفٍ وصِفَاتٍ.

• ﴿... وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: وَمَا كَائِنَةٌ تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَجَرٍ، إِلَّا يَعْلَمُهَا مُنْذُ بَدْءِ تَكْوِينها حَتَّىٰ إِسْقَاطِهَا فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ الخالِقُ المتابعُ لِلْخَلْقِ بَدْءاً مِنْ أُولَىٰ مَرَاحِلِ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ آخِرِ مَرْحَلَةٍ من مراحل وجودِهِ.

جاءَ ذِكْرُ سُقُوطِ وَرَقَةٍ مِنْ أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ، عُنْوَاناً دَالًّا عَلَىٰ مَاقَبْلَهُ، وعَلَىٰ ما بَعْدَهُ، فَكُلُّ طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ كُلِّ مَخْلُوقٍ للهِ هُوَ مَعْلُومٌ لَهُ ـ جلَّ جلالُهُ ـ عِلْمَاً شَامِلاً، وسُقُوطُ الْوَرَقَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ جُزْئِيَّةٌ يَسِيرَةٌ مِنْ جُزْئِيَّاتِ أَطْوَارِها، فإذا كَانَ عِلْمُهُ مُحِيطاً بهَـٰذِهِ الجزئِيَّةِ الْيَسِيرَة فَهُوَ مُحِيطٌ بِمَا سِوَاهَا مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ.

وَمَا كائِنَةٌ مِنْ حَبَّةٍ خَلَقَهَا اللهُ، مَوْجُودَةٍ فِي ظُلْمَاتِ الأرض، وَمَا كَائِنٌ مِنْ رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ، مَهْمَا كانَ صَغِيراً أَمْ كَبِيراً، إِلَّا هُوَ مَعْلُومٌ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمُسَجَّلٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، هو اللَّوْحُ المحْفُوظُ، إِذْ كُلُّ مَا هُوَ قَابِلٌ لِأَنْ يُعْلَمَ مِمَّا كَانَ، وَمِمَّا هُو كائِنٌ، ومِمَّا سَيَكُونُ، هُوَ مُسَجَّلٌ فِيهِ، بالدِّقَةِ التَّامَّةِ الَّتِي اخْتَارَ تَسْجِيلَ الْعِلْمِ بِها.

وقَدْ ألهم اللهُ النَّاسَ اكْتِشَافَ تَسْجِيلِ الْعُلُومِ الكثيرة ألكتُرونيًّا في شرَائِحَ صغيرة جدًّا، وهذا يُقَرِّبُ للناسِ تَصَوُّرَ اللَّوْحِ المحفوظ.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: مَادَّةُ: «تَوَفَّىٰ، يَتَوَفَّىٰ» تَدُور في اللُّغَةِ حَوْلَ معنَىٰ اسْتِيفَاءِ المِقْدار المحَدَّد، ويَحْصُلُ التَّوَفِّي بِبُلُوغ غَايَةِ أفرادِ الشيْءِ المُقَدَّرةِ، أو أجْزَائِهِ المقدَّرَة. ومِنْهُ تَوَفِّي أجْزَاءِ الزَّمَنِ المقَدَّرِ أجَلاً للكائِنِ الْحَيّ.

وقد جعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ هَـٰذَا الفِعْلَ في كتابِهِ للدَّلاَلَةِ عَلى معنًى كُلِّي ذي نَوْعَيْن:

النوع الأول: الْفَصْلُ الْكُلّيّ بَيْنَ الرُّوحِ، والنَّفْسِ الَّتِي هِيَ طَبْعَةُ الكائِنِ الحيّ وخَرِيطَةُ تَكْوِينه، وهَـٰذَا يكون بالموتَ.

النوع الثاني: الْفَصْلُ الْجُزْئِيُّ بَيْنَ الرُّوحِ والنَّفْس، وهَـٰذَا يَكُونُ بالنوْم.

فقال اللهُ عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

• ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

نَفْهَمُ مِنْ هَـٰذِهِ الآيَةِ أَنَّ النَّوْمَ وَالْمَوْتَ ظَاهِرَتَانِ لِلْفَصْلِ بَيْنَ الرُّوحِ الْمُمِدَّةِ بالحياة، وبَيْنَ النَّفْسِ الَّتِي تَجْتَمِعُ فيها صِفَاتُ وخَصَائِصُ الكائِنِ القابِلِ لِلْحَيَاةِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضائِهِ.

فإذا كان الْفَصْلُ فَصْلاً كُلّيًّا حَدَثَ الموتُ، فَذاقَتْ النَّفْسُ الموتَ، وإِذَا كان الفَصْل فصلاً جُزْئِيًّا، مقتَصِراً علَىٰ سَلْبِ الْحَرَكَةِ الإراديَّةِ، حَدَثَ النَّوْم.

فالمعنى الذي نَفْهَمُه مِنْ قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ واللهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ لَيْلاً، بالْفَصْلِ الْجُزْئِيّ بَيْنَ أَرْوَاحِكُمْ ونُفُوسِكُمْ الَّذِي يَكُونُ بِهِ نَوْمُكُمْ، طَوال رِحْلَةِ امْتِحانِكُمْ في الحياة الدنيا.

وجَاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ للدّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّ النَّوْمَ الطَّويلَ باللَّيْلِ هُوَ الأَكْثَرُ مُلاءَمَةً لِنِظَامِ حَيَاةِ النَّاسِ، والأَكْثَرُ رَاحَةً لِأَجْسَادِهِمْ وتَكْوِينِها الْفِطْرِيّ، ولَيْسَ قَيْداً لِحُصُولِ النَّوْمِ فيه، فالنَّوْمُ كُلُّهُ سَواءٌ أَكَانَ بِاللَّيْلِ أَمْ بِالنَّهارِ هُوَ مِنْ أَفْعَالِ اللهِ بعِبادِهِ.

• ﴿... وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ...﴾: أي: ويَعْلَمُ ما كَسَبْتُمْ

بِالنَّهَارِ السَّابِقِ لِلَّيْلِ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِهِ، طَوال رِحْلَةِ امتحانكم في الحياة الدنيا.

جرَىٰ في الاسْتِعْمَال اللُّغَوِي فِعْلُ «جَرَحَ» ومُشتَقَّاتُهُ بِمَعْنَىٰ: «كَسَبَ» كَسْباً جَسَدِيًّا أو نَفْسِيًّا. **والجارِحَةُ**: الْعُضْوُ الْعَامِلُ من أعْضَاءِ الْجَسَدِ، كالْيَدِ والرِّجل، والجمعُ: «الجَوارِحُ». وأصْلُ الاسْتِعْمَالِ مأخُوذٌ مِنْ كَوْنِ الْعُضْوِ جَارحاً، أيْ: شَاقًّا شقًّا فِي بَدَنٍ مَا. والمشْقُوقُ بَدَنُهُ يُقَالُ له: «جَرِيح». ومَا يَصِيدُ مِنَ الطَّيْرِ والسِّبَاعِ والْكِلَابِ يُسَمَّىٰ «جَارِحاً» والْجَمْعُ «جَوَارِح».

وجاءَتْ عِبَارَةُ: ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْكَسْبَ الْأَفْضَلَ هُوَ مَا كَانَ بالنَّهَارِ، ليكونَ اللَّيْلُ للرَّاحَةِ والسُّكُون، وهُوَ الموافِقُ الملائِمُ لِنِظَامِ حياة النَّاسِ، ومَا فَطَرَ اللهُ أجْسَادَهُمْ عَلَيْه.

• ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ نَوْم يَطُولُ أَوْ يَقْصُرُ يَبْعَثُكُمْ مِنْ نَوْمِكُمْ وأفْضَلُهُ مَا يكونُ في النَّهارِ الَّذِي يَبْدَأُ مَعَ طُلُوعِ الْفَجْرِ، بإِعَادَةِ الاتِّصَالِ التَّامّ بَيْنَ الرُّوحِ والنَّفْسِ، إذْ كَانَ بَيْنَهما انْفِصَالٌ جُزْئِيٌّ في حَالَةِ النَّوْمِ كَمَا سَبَقَ بيانُهُ في الْفَرْقِ بَيْنَ الموْتِ والنَّوْمِ.

وهكذا دَوَالَيْكُمْ تَسْتَمِرُّ ظَاهِرَتَا تَوَفِّيكُمْ وَبَعْثِكُمْ مِنْ نَوْمِكم طَوالَ رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ في الحياة الدُّنيا.

• ﴿... لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ...﴾: أي: لِيُنْهَىٰ أَجَلٌ مَعْلُومٌ مَسَمَّىٰ بِوَحَدَاتِهِ الزَّمَنِيَّةِ، حَتَّىٰ آخِرِ وَحْدَةٍ مِنْهُ الَّتي يَكُونُ بَعْدَهَا مَوْتُكُمْ.

المرَادُ بِالْأَجَلِ هُنَا مُدَّةُ حَيَاةِ كُلِّ إنْسَانٍ مُحَدَّدَةٍ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ.

• ﴿... ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ...﴾: أيْ: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ الَّتِي تَكُونُ فِيهِ أجْسَادُكُمْ تُرَاباً كَمَا كانَتْ قَبْلَ خَلْقِكُمْ، يَبْعَثُكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ مَوْتِكُمْ، فَيُنْبِتُ أَجْسَادَكُمْ، وَيَرُدُّ أَرْوَاحَكُمْ إلَىٰ نُفُوسِكُمْ، ويُرْجِعُكُمْ إلَىٰ الحياة مَرَّةً

أُخْرَىٰ، لِتُحْشَرُوا إِلَىٰ جِهَةِ مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ والْفَضْلِ التي يُقِيمُهَا لَكُمْ.

• ﴿... ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾: أيْ: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ تَكُونُونَ فِيها فِي مَوْقِفِ الحشْرِ، يُقِيمُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُم فِي مَحْكَمَتِهِ حِسَابَهُ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ بِشَأْنِهِ، لِيَكُونَ جَزَاؤُه بَعْدَ ذَلِكَ بالْعَدْلِ أو بالْفَضْلِ عَلَىٰ وَفْقِ قضائِهِ جلّ جلاله.

جَاء التَّعْبِيرُ عَنِ الْحِسَابِ وَفَصْلِ القِضَاءِ، بِذِكْرِ بَعْضِ مَا يَجْري فِي المحاكَمة الرَّبَّانِية، وهُو إِخْبَارُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ العباد بِمَا كَانَ يَعْمَلُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنيا حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، وهَـٰذَا من الكِنَايَاتِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ نَظَائِرُهَا فِي القرآن الْمَجِيد، إذْ يُذْكَرُ بَعْضُ عَنَاصِرِ الْحَدَثِ، أَوْ بَعْضُ أجْزَائِهِ، لِيَدُلَّ عَلَىٰ سَائِرِ الْعناصِرِ أو الْأَجْزَاء.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾:

• ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ ...﴾: أي: واللهُ هُوَ وَحْدَهُ لا غَيْره. الْقَاهِرُ الْغَالِبُ بالْجَبْرِ في الْوُجُودِ كُلِّهِ لِمَا وَلِمَنْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُ مَجْبُوراً بالْقَهْرِ والْغَلَبَةِ عَلَىٰ أَمْرٍ مَا، كَالْإِمَاتَةِ والْإِحْياء، وكُلِّ مَا يَكُونُ الْكَائِنُ الْحَيُّ مَجْبُوراً فيه.

الْقَهْرُ: هُو في اللُّغَةِ الأخْذُ مِنْ فَوْق، **والمقْهُورُ**: هو المأخُوذُ مِنْ غَيْرِ رِضَاه، فَفِي الْقَهْرِ مَعْنَىٰ الْجَبْرِ الّذِي يَكُونُ مَعَهُ الْمَجْبُورُ مَسْلُوبَ الإِرَادَةِ، فيَجْرِي فِيهِ مُرادُ اللهِ راغِباً أَوْ كَارِهاً.

• ﴿... فَوْقَ عِبَادِهِۦ ...﴾: أي: للهِ الْفَوْقِيَّةُ الدَّائِمَةُ إذْ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ وَمَنْ سِوَاهُ دُونَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ. وعِبَادُ اللهِ

هُمُ المملُوكُونَ لَهُ بِمَقْتَضَىٰ خَلْقِهِ لَهُمْ، وَرُبُوبِيّتِهِ لَهُمْ دَاوماً، ويَدْخُلُ فِي عُمُومِ عِبَادِ اللهِ الْمَلائِكَةُ والإنْسُ والْجِنّ.

وجاء بيانُ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ مُنَاسِباً لِمَا جَاءَ قَبْلَهُ مِنْ بَيَانِ التَّوَفّي بالنَّوْمِ أَوْ بِالْمَوْتِ، والْبَعْثِ بالإيقَاظِ أو بالإحْيَاءِ يَوْمَ القيامَةِ.

• ﴿... وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً ...﴾: أي: وَيُرْسِلُ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مَلائِكَةً حَفَظَةً.

حَفَظَة: جمع «**حَافِظ**» وهُو الحارِسُ المراقِبُ القائِمُ بوظَائِفِ الحراسَةِ المأمُور بِها مِنْ قِبَلِ مَنْ جَعَلَهُ حَارِساً.

والْمَلائِكَةُ الْحَفَظَةُ: مِنْهُمْ مَنْ يُرَاقِبُونَ أعْمَالَ الْعِبَادِ وَيُسَجِّلُونَهَا في صُحُفِ أعمالِهِمْ، لِعَرْضِهَا عَلَيْهِمْ يَوْمَ الدِّين، ولا سِيمَا عند الحساب. ومِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُونَ النَّاسَ مِنَ الْمَخَاطِرِ والمؤذِيَاتِ الكثيراتِ في الكَوْن، إلَّا مَا فِيه مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ قَضَاءٌ وَقَدَرٌ، وهَـٰذَا من ضِمْنِ الْأَنْظِمَةِ السَّبَبيَّةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ في كونِهِ.

والْجُمْلَةُ تُصْلُحُ للدَّلالَةِ عَلَىٰ المعْنَيَيْن، وَإِنْ كانت عبارَةُ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ مُلائِمَةً لِمَعْنَىٰ مُرَاقَبَةِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ الْمُمْتحَنِينَ وتَسْجِيلِهَا، أمَّا معنَىٰ الحِفْظِ مِنَ الْمَخَاطِرِ الَّذِي تُوحِي الآيَةُ بأنَّهُ مُرادٌ أيْضاً، فَنُقَدِّرُ في العِبَارَةِ ما يُلائِمُهُ، فنقول: وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ وَلَكُمْ حَفَظَة. أَوْ: وَيُرْسِلُ مَلائِكَةً تُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ بِمُرَاقَبَتِكُمْ وَتَسْجِيلِ أعْمَالِكُمْ، وبحمايَتِكُمْ وحِفْظِكُمْ مِن الْمَخَاطِرِ والمؤذِيات المنْبَثَّة فِي حَيَاةِ الابْتِلاء.

• ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: ويَسْتَمِرُّ إرْسَالُ الحفظة عَلَىٰ كُلِّ واحِدٍ مِنْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ حَتَّىٰ وَقْتِ مَجِيءِ تَنْفِيذِ إمَاتَتِهِ في أَجلِهِ، حينئَذٍ تَتوَفَّاهُ رُسُلُنا الملائكَةُ الْمَأْمُورَة

بِفَصْلِ رُوحِهِ عَنْ نَفْسِهِ فَصْلاً كُلِّيًّا، وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ بواجِبٍ أَوْجَبْنَاهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَحْدَاثِ إِمَاتَتِهِ، والأَحْدَاثِ المرافِقَةِ لإِمَاتَتِهِ، فَلا يُقَصِّرُونَ بأَدَاءِ أَمْرٍ واجِبٍ ولَا يُضَيِّعُونه.

التَّفْرِيط: التقصِيرُ والتضييعُ.

والرُّسُلُ المكلَّفُونَ إمَاتَةَ النَّاسِ مِنَ الْمَلَائِكَة هُمْ غَيْرُ الحفظة.

وجاء في سُورَةِ (السَّجْدَة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

فَدَلَّ ظَاهِرُ الْآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ وَاحِدٌ، ولَكِنْ يُمكِنُ حَمْلُ لفظ «مَلَكُ الْمَوْتِ» عَلَىٰ فَرِيقٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ هَـٰذِهِ الْوَظِيفَة، وقَدْ جاء في أَكْثَرَ مِنْ آيَة إِطْلَاقُ لَفْظِ «مَلَكٍ» عَلَىٰ فَرِيقٍ مِنْ الملائكة، كإِطْلَاقِ المفرد النَّكِرَة علىٰ الجنْس، وعَلَىٰ هَـٰذَا فالمَعْنَىٰ مُطابقٌ لمَعْنَىٰ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وعَودُ الضمير عليه بالإفراد رُوعِي فيه لفظه المفرد.

ورُوِيَ عن ٱبْنِ عباسٍ أنَّ لِمَلَكِ الموْتِ أعْوَاناً، ولم يَرِدْ فِي بَيَانٍ نَبوِيٍّ أَنَّ اسْمَهُ: «عزرائيل».

﴿وُكِّلَ بِكُمْ﴾: أي: كُلِّفَ بِقَبْضِ أَرْوَاحِكُمْ، فالمراد بالتوكيل هنا التكليف.

- ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ البرزَخ تُبْعَثُونَ إلى الحياة مَرَّةً أُخْرَىٰ، لِتُلاقُوا حِسَابَ رَبِّكُمْ، وفَصْلَ قَضَائِهِ، وتَنْفِيذ جزائه.

- ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ الْبَعْثِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الأخْرَىٰ يَوْمَ القيامَة، يُرَدُّ المبْعُوثون الّذِينَ كانُوا في الحياة الدُّنيا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، إِلَىٰ مُلَاقَاةِ اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ.

• ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾: أي: رَبِّهم الَّذي خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوَهُمْ، ووَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَان، وَشَمَلَهُمْ طَوَالَ وُجُودِهِمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

• ﴿ٱلْحَقِّ﴾: أي: الثابتِ الذي لَا شَكَّ فِيهِ، وهذا اللَّفْظُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، وهُو يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ اللهَ ثَابِتٌ لَا شَكَّ فِي ذاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ، فالبراهين الحقُّ دَالَّةٌ عَلَىٰ أَزَلِيَّتِهِ وأَبَدِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إلَهِيَّتِهِ.

• ﴿أَلَا﴾: أَدَاةُ اسْتِفْتَاحٍ، وتَنْبِيهٍ، وتَحْقِيق.

• ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾: أي: لَهُ القضاء في كُلِّ شيءٍ، ومِنْهُ فَصْلُ الْقَضَاءِ يَوْمَ الدِّين بَيْنَ الْعِبَادِ الذينَ كَانُوا في الحياة الدُّنيا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَان.

• ﴿... وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾: لمَّا كَانَ الْحُكْمُ عَلَىٰ العِبَادِ يَوْمَ الدِّينِ يَقْتَضِي أنْ يَكُونَ مَسْبُوقاً بِمُحَاسَبَتِهِمْ عَلَىٰ أعْمَالِهم، ولمَّا كَانَ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ قد يَتوهَّمُونَ أَنَّ مُحَاسَبَةَ النَّاسِ الَّذِينَ وُجِدُوا مِنْ عَهْدِ آدم حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ تَحْتَاجُ أَزْمَاناً طَوِيلَةً جدًّا، فَمَنْ تَأَخَّرَ مِنْهُمْ حِسابُهُ طَالَ دُونَ نُظَرائِهِ انْتِظَاره، كَانَ من المناسِبِ أَنْ يَصِفَ اللهُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ. فَهُوَ إِذَا شَاء حَاسَبَ عِبَادَهُ جَمِيعاً في سَاعَةٍ واحِدَة، كَمَا هُوَ مُهَيْمِنٌ بِرُبُوبِيَّتِهِ عَلَىٰ كُلِّ ذَرَّةٍ فِي كَونِهِ عَلَىٰ تَوَالِي أَصْغَرِ الوَحَدَات الزَّمَنِيَّة تَسْيِيراً وَتَصْرِيفاً وإِمْدَاداً وغير ذلك.

وبهذا تَمَّ تدبُّر الدرس الثالث عشر من دُرُوس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١٨)

التدبّر التحليليّ للدّرْس الرابع عشر من دُروس سورة (الأنعام)
الآيات من (٦٣ ـ ٦٦)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾.

القراءات:

(٦٣) • قرأ يعقوب: **[قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ]** مِنْ فعل: «أَنْجَىٰ يُنْجِي».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ]** من فعل: «نَجَّىٰ يُنَجِّي».

والقراءتَان متكافئتان، فالمهموز أخو المُضَعَّف.

(٦٣) • قرأ شُعْبَة: **[وَخِفْيَةً]** بِكَسْرِ الخاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَخُفْيَةً]** بِضَمِّ الخاء.

«خِفْيَة، وخُفْيَة» لُغتان عَرَبيَّتانِ.

(٦٣) • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخَلَفٌ: **[لَئِنْ أَنْجَانَا]**.

وَقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا]**.

وبين القراءتين تَكامل. إذْ بَعْض النَّاسِ يُخَاطِبُونَ رَبَّهم بهذا، وآخَرُونَ يقولُون: **[لَئِنْ أنجانا]**.

(٦٤) • قرأ نافع، وٱبنُ كثير، وأبو عَمْرو وابْنُ ذكوان، ويعقوب: **[قُلِ اللهُ يُنْجِيكُمْ]** من فعل: «أَنْجَىٰ، يُنْجِي».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ] من فعل: «نَجَّىٰ، يُنَجِّي». والقراءتان متكافِئتَان.

(٦٥) • قرأ السُّوسِي، وأبو جعفر: [بَاسَ] بإبْدَال الهمزة ألفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بَأْسَ] بالهمزة الساكنة.

(٦٥) • قرأ أبو عَمْرو، وٱبْنُ ذكْوان، وعاصم، وحمزة بِكَسْر تنوين: [بَعْضٍ أنْظُر] في الوصل.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِضَمّ تنوينِ: [بَعْضٌ ٱنْظُرْ] في الوصل.

تمهيد:

آيات هذا الدَّرْس من فروع السَّاقِ الثاني من ساقَي شَجَرَةِ موضوع السُّورَة.

وفيها تَعْلِيمُ حِوَارٍ جَدَلِيّ، لانْتِزَاعِ اعْتِرَافِ المشْرِكين بأنَّ اللهَ هو وَحْدَهُ الَّذِي يجيب دُعَاءَ المُضْطر إذا دَعَاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ.

وَبأنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ وَحْدَهُ عَلَىٰ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ بِمَا يَشَاءُ من صُنُوفِ عِقَاب، ولإعْلَامِهِمْ بأنَّ الرَّسُولَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُمْ مِنْ عِقَابِ اللهِ شيئاً، إذا قَضَىٰ اللهُ أَنْ يُعَاقِبَهُمْ، لِأَنَّهُ لَيْسَ وَكِيلاً عَلَيْهِمْ.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالىٰ لِرَسُولِهِ مُعَلِّماً فِقَرَةً حِوَارِيَّةً للْمشركين، ويُلْحَقُ بالرَّسُول كُلُّ حَمَلَةِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

• ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، لإقَامَةِ الحجَّةِ عَلَيْهِمْ بِدَلِيلٍ تَجْرِيبِيٍّ، ولانْتِزَاعِ اعْترافِهِمْ بالحقِّ:

مَنِ الَّذِي يُنَجِّيكُمْ مِنَ المخاوفِ الَّتِي تُحِيطُ بِكُمْ في ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ؟!.

إِنَّكُمْ لَا تَجِدُونَ حِينَئِذٍ إِلَّا اللهَ رَبَّكُمْ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً، قائِلِينَ: نُقْسِمُ لَئِنْ أَنْجَانَا رَبُّنَا. مِنْ هَـٰذِهِ الْكُرْبَةِ العظيمَةِ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ لَهُ، بالإيمان بأَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ الواحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ له فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وبأَنَّهُ هُوَ الإِلَـٰهُ الواحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ له في إلَـٰهِيَّتِهِ، وبأَعْمَال تُعَبِّرُ عَنْ صِدْقِ إيمانِنَا، وعَنْ صِدْقِ إسْلَامِنَا له. وبحسب القراءة الأخرى: رَبَّنَا نقسم لئن أَنْجَيْتَنَا من هذه...

يُنَجِّيكُم ويُنْجِيكُم: أيْ: يُخَلِّصُكُمْ، ويَكْشِفُ عَنْكُمْ كُرْبَتَكُمْ.

• ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾: أي: مِن كُرُبَاتٍ تُحِيطُ بِكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ. دَعَا إِلَىٰ إبْرَازِ هَـٰذِهِ المطْوِيَّاتِ في النَّصّ أَنَّ الظُّلُمَاتِ وَحْدَهَا لَا تُحْدِثُ الْكُرُبَاتِ الْعُظْمَىٰ مِنَ الْمُرْهِبَاتِ المخِيفَاتِ، مَا لَمْ تَكُنْ فيها هَـٰذِهِ الْمُرْهِبَاتُ المخيفاتُ.

• ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: أي: تَسْأَلُونَهُ حَالَةَ كَوْنِكُمْ مُتَضَرِّعِينَ لَهُ، وَفِي خَفَاءٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، لِيَكُونَ دُعَاؤُكُمْ أَرْجَىٰ لاسْتِجَابَتِهِ.

التَّضَرُّعُ: التَّذَلُّلُ والخضوع، مأخُوذٌ مِنْ خُضُوعِ وَلَدِ الْبَهِيمَة، لِيَمْتَصَّ حَلِيبَ أُمِّهِ مِنْ ضَرْعِها.

والْخُفْيَةُ: مَصْدَرُ: «خَفِيَ الشَّيْءُ، يَخْفَىٰ، خَفَاءً، وَخُفْيَةً، وخِفْيَةً، فَهُوَ خَفِيٌّ، وخافٍ» أي: اسْتَتَرَ فَلَمْ يَظْهَرْ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ سُؤَالَ اللهِ مِنْ عُمْقِ الْقُلُوبِ في الخفاء أَرْجَىٰ لاسْتِجَابَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهَـٰذَا مِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ في الدُّعَاء. أَمَّا الْجَهْرُ بالدُّعاء فَفِيه رائِحَةُ سُوءِ الظَّنِّ باللهِ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَىٰ.

• ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: اللَّامُ في «لَئِنْ» واقِعَةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ.

﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾: أي: مِنْ هَـٰذِهِ الْكُرُبَاتِ الَّتِي نَحْنُ فِيها.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: جَوَابُ الشَّرْطِ في: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾. والمرادُ بالشُّكْرِ هُنَا الإيمانُ الصَّحِيحُ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ وإلَهِيَّتِهِ اللَّتَيْنِ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي كُلٍّ مِنْهما، مع أَعْمَالٍ خَالِصَةٍ للهِ تُعَبِّرُ عَنْ صِحَّةِ الإيمانِ وصِدْقِهِ.

أَصْلُ مَعْنَىٰ الشُّكْر: مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ الْحَسَنِ بِمَا يُرْضِي الْعَامِل، واللهُ يُرْضِيهِ مِنْ عباده في مُقَابِلِ إنْعَامَاتِهِ عَلَيْهِم، أَنْ يُؤْمِنُوا به إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، وَيَحْمَدُوهُ، ويُعَبِّرُوا عَنْ صِدْقِ إيمانِهِمْ بأَعْمَالٍ أَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ فيها، وبِتَرْكِ أعْمَالٍ نَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ فيها.

■ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ في مُتَابَعَةِ التَّعْلِيمِ السَّابقِ:

• ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ سَواءٌ اعْتَرَفُوا أَمْ لَمْ يَعْتَرِفُوا: اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْ هَـٰذِهِ الْكُرُبَاتِ الَّتِي قد تُحِيطُ بِكُمُ مَخَاوِفُهَا ومُرْهِبَاتُها، إذا دَعَوْتُمُوهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، ثُمَّ أَنْتُمْ بَعْدَ أَنْ يُنْجِيكُمْ وتَجِدُونَ أَنَّكُمْ آمِنُونَ مِنَ المخَاوِفِ الَّتِي كانَتْ قَدْ أَحَاطَتْ بِكُمْ، تَعُودُونَ إِلَىٰ شِرْكِيَّاتِكُمْ، وَتَنْسَوْنَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ أَقْسَمْتُمْ لِرَبِّكُمْ بِأَنْ تَكُونُوا شَاكِرِينَ لَهُ، فَلَا تُشْرِكُوا بِرُبُوبِيَّتِهِ وَلَا بِإِلَهِيَّتِهِ شَيْئاً.

الكَرْب: الْغَمُّ الشَّدِيدُ الَّذِي يَأْخُذُ بالنَّفْسِ، كأَنَّ حَبْلاً ضَاغِطاً شُدَّ عليها. أَصْلُ اللّفظِ مَأْخُوذٌ مِنْ كَرْبِ الحبْلِ، وهُو فَتْلُهُ، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْفَتْلَ يَجْعَلُ الْأَجْزَاءَ تَتَضَاغَطُ فَتَؤْلِمَ ذَا الحِسِّ إذَا كَانَ الْفَتْلُ فِي جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ، أَوْ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ.

▪ قَولُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ مُعَلِّماً فِقَرَةً دَعَوِيَّةً يَشْرَحُهَا لِلْمُعَالَجِينَ من أَهْلِ الكُفر، ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ كُلُّ حَمَلَةِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، والغرضُ منها الإنذارُ والتحذيرُ بأُسْلُوبِ الإخبار.

• ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: قُلْ للمعالَجِينَ مِنْ أهْلِ الشِّرْكِ والكُفْر. اللهُ عزَّ وجلَّ وحْدَهُ هُوَ القادِرُ عَلَىٰ أَنْ يُعَاقِبَكُمْ عَلَىٰ شِرْكِكُم وكُفْرِكُمْ، وجَرَائِمِكُمْ، فَيَبْعَثَ عَلَيْكُمْ وَسَائِلَ عَذَابٍ لَكُمْ، لَكِنَّهُ يُمْهِلُكُمْ رَغْبَةً فِي أَنْ تَسْتَغْفِرُوهُ وَتَتُوبُوا إِلَيْهِ، وَتُؤْمِنُوا إيماناً صَحِيحاً، وتَعْمَلُوا عَمَلاً صَالحاً، فَيَجْعَلَكُمْ مِنَ النَّاجِينَ مِنْ عَذَاب النار يوم الدِّين، ومِنَ الفائِزِينَ فِي جَنَّاتِ النعيم.

وَوَسَائِلُ الْعَذَاب هذه:

• قَدْ تَأْتِيكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ، كَمَا أَمْطَرَ عَلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ حِجَارَةً مِنْ سَجِّيل.

• وقَدْ تَأْتِيكُمْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ كَبُرْكَانَاتٍ يُفَجِّرُهَا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ، فَتَذُوقُونَ بِهَا عَذَاباً شَدِيداً، ويُهْلِكُكُمْ بِها.

• وَقَدْ يَجْعَلُكُمْ شِيَعاً مُتَعَادِيَةً مُتَقَاتِلَةً، قَدْ اخْتَلَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وبِذَلِكَ يَذُوقُ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، فَكُلُّ شِيعَةٍ مِنْكُمْ تَذُوق بأْساً مِنَ الشِّيعَةِ المضادَّةِ الْمُعَادِيَةِ لها.

الْبَعْثُ: الإرْسَالُ لِتَأْدِيَةِ مَطْلُوبٍ مَا لِلْبَاعِث.

• ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في هَـٰذَا التعبير معْنَىٰ التَّسْلِيطِ عُقُوبَةً وانْتِقَاماً.

• ﴿... عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ...﴾: أي: وَسَائِلَ

تَعْذِيبٍ لَكُمْ، تُصَبُّ عَلَيْكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ، أَوْ تُفَجَّرُ عَلَيْكُمْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ.

- ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ...﴾:

- ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾: أي: يَخْلِطَكُمْ. **اللَّبْسُ**: خَلْطُ شيءٍ بشيء، أَوْ أَمْرٍ بأمْر.

- ﴿شِيَعًا﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِكُمْ شِيَعاً مُتَضَادَّة، مُتَعَادِيَّةً، مُتَقَاتِلَة. الواحِدَة: «**شِيعَة**» وهي الجماعَة من الناس الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ أمْرٍ ما، والْغَالِبُ في الشيعَةِ أَنْ يُنَاصِرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فيما اجْتَمَعُوا عَلَيْه، ويُعَادُوا مُخَالِفِيهم.

الْبَأْسُ: الْعَذَابُ الشديدُ، والشِّدَّةُ في الحرْب.

إنَّ ظَاهِرَةَ الشِّيَعِ الْبَشَرِيَّة، الَّتِي تَتَقَاتَلُ فِيما بَيْنَهَا، وَيَذُوقُ بَعْضُ المتقاتِلِينَ فيها بأْسَ بَعْضٍ، ظَاهِرَةٌ مُتَكَرِّرَةٍ في التَّاريخ الإنْسَانِيِّ، وهي من وَسَائِلِ الْعُقُوبَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلْخَارِجِينَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم. ومِنْ أمْثِلَتِهَا الْحُرُوبُ بَيْنَ الشُّعُوب والأقْوامِ والدُّول، والْحُرُوبُ الْأَهْلِيَّة ذُواتُ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ للأفرادِ والْأُسَرِ والجماعات.

فَلَيْسَتْ كُلُّ عُقُوبَاتِ اللهِ عَوَاصِفَ وقَوَاصِفَ وَفَيَاضَانَاتٍ وزَلَازِلَ وَبَرَاكِين، بَلْ مِنْ عُقُوبَاتِ اللهِ أَيْضاً إغْرَاءُ بَعْضِ النَّاسِ للتَّسَلُّطِ عَلَىٰ بَعْضٍ، بالْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّة، تَعْذِيباً، وإذْلالاً، وسَلْباً وَنَهْباً، وقَتْلاً. وَلَوْ أَنَّهُمُ الْتَزَمُوا صِرَاطَ اللهِ المسْتَقِيمَ مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، لَعَاشُوا في الحياة الدُّنْيَا آمِنِينَ، ولَدَخَلُوا في السِّلْمِ كافَّة.

- ﴿... انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾: أي: انْظُرْ أيُّهَا النَّاظِرُ المتَفَكِّرُ كَيْفَ نُنَوِّعُ آيَاتِنَا الْبَيَانِيَّة، إقْنَاعاً بالْحَقِّ، ومُجَادَلَةً بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، وَحِوَاراً هَادِياً، وَتَرْغِيباً وَتَرْهِيباً، رَغْبَةً مِنَّا فِي أَنْ يَفْقَهُوا تعالِيم

دِينِنَا الَّذِي اصْطَفَيْنَاهُ لِعِبَادِنا، وَيَفْقَهُوا الْغَايَةَ مِنْ خَلْقِهِمْ، وَوَاجِبَهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا، والدَّارَ الآخِرَة الْمُعَدَّةَ لِمُحَاسَبَتِهِمْ، وفَصْلِ القضاء بَيْنَهُمْ، وتَنْفِيذِ الجزاء.

التَّصْرِيف: التنويعُ، واتخاذُ مُخْتَلِفِ الوجوه الممكنة لِقَطْعِ أعْذَارِ المتَعَلِّلِينَ بالتَّعِلَّات، الَّتِي يَتَخِذُونَها مَعَاذِيرَ لِسَتْرِ بَاطِلِهِم، ومجافاتِهِمْ لِلْحَقِّ والخير والْهُدَىٰ.

الفِقْهُ: يُسْتَعْمَلُ الفقه للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الْعِلْم بِحَقَائِق الأمُور وبواطنها، وخَفَايَاها ودَقَائِقها، والْبَحْثِ عَنْهَا للتَّوصُّل إلى مَعْرِفَتِها.

ومعْلُومٌ أَنَّ مَنْ اسْتَطاعَ أَنْ يَفْقَهَ حَقَائِقَ دِينِ اللهِ لعبادِه، كَان أَقْرَبَ للاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ، والْتِزَامِ صِرَاطِهِ المستقيم.

■ وقال اللهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ مُعَلِّماً:

• ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: وَكَذَّبَ بالْقُرْآنِ، وَبِمَا جَاءَ في القرآنِ مِنْ إنْذَارٍ بِعَذَابِ اللهِ المعجَّلِ والْمُؤَجَّلِ، قَوْمُكَ يا مُحَمَّدُ، وهُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ وكَثِيرٌ مِنْ عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ، الَّذِينَ تَحْرِصُ عَلَىٰ إيمَانِهِمْ، وتَحْزَنُ عَلَيْهِمْ، والْحَالُ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ.

وبِمَا أَنَّهُمْ مُسْتَيْقِنُونَ بِأَنَّهُ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ بآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ، فَقَدْ يَخْطُرُ فِي بَالِ بَعْضِهِمْ، أَنَّ الرَّسُولَ مُحمّداً سَيَدْرَأُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ، لِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ، بِدَافِعِ عَاطِفَةِ الْقَرَابَةِ والنَّسَبِ، فَجَاءَ فِي التَّعْلِيم: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾: أي: فَأنَا لَا أَقِيكُمْ وَلَا أَحْمِيكُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ، الَّذِي تَسْتَحِقُّونَهُ بِشِرْكِكُمْ وكُفْرِكُمْ، وجَرَائِمِكُمْ الَّتِي هِيَ مِنْ لَوَازِم الشِّرْكِ والكُفْرِ فِي السُّلُوكِ، لأنَّنِي لَسْتُ وَكِيلاً عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّي مَا يَأْمُرُنِي بِتَبلِيغِهِ، وأَنْتُمْ ذَوُو إرَادَاتٍ حُرَّةٍ مُخْتَارَةٍ، مَوْضُوعُونَ فِي

الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاء، ولَسْتُمْ كَقَطِيع أَغْنَام تُساقُونَ مِنْ قِبَلِ رَاعِيكُمْ الوكيلِ عَلَيْكُمْ، والمسؤُولِ عنْ حِمَايَتِكُمْ وَطَعَامِكُمْ وشَرَابِكُمْ وحِمَايَتِكُمْ مِمَّا يَضُرُّكُمْ وَيُؤْذِيكُمْ، إنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ نَفْسِهِ مَسْؤُولِيَّةً شخصِيَّة، فَلَا أَحْمِيكُمْ وَلَا أُجْبِرُكُمْ.

وبهذا انتهى تدبُّر الدرس الرابع عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.



(١٩)

التدبر التحليلي للدَّرس الخامس عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٦٧ - ٧٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

القراءات:

(٦٨) • قرأ ابْن عامِر: [يُنَسِّيَنَّكَ] مِنْ فِعْل: «نَسَّىٰ يُنَسِّي» المضَعَّف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة [يُنْسِيَنَّكَ] من فعل: «أَنْسَىٰ يُنْسِي» المهموز.

والقراءتانِ مُتكافِئَتَانِ، فالمضَعَّفُ أَخُو الْمَهْموز.

تَمْهيد:

آيَاتُ هَـٰذَا الدَّرْس مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الأوَّل مِنْ سَاقَي شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة.

وفيها بيان مُبَاشِرٌ مِنَ الله عزَّ وجلَّ بشأنِ ما يلي:

(١) لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ.

(٢) يأمُرُ اللهُ عزَّ وجلَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ بأسْلُوب خِطاب الرَّسول بأنْ يُعْرِضَ عن الّذِينَ يَنَالُونَ مِنْ آياتِ اللهِ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ تبارَكَ وتعالى من طَعْنٍ وتجريح، مع مُتَمِّمَاتٍ لهذا البيان.

(٣) الأمْر بِتَرْكِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً.

(٤) التَّذْكِيرُ بِمَا جَاءَ في القرآن مِنْ إنْذاراتٍ بِعَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدّين.

التّدبُّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

النَّبَأُ: الْخَبَرُ ذُو الشَّأْنِ والْخَطَر.

مُسْتَقَرٌّ: هَـٰذِهِ الصيغةِ تأتي اسْمَ زَمَان، واسْمَ مَكَانٍ، ومَصْدَراً مِيمِيًّا. ومَعْنَىٰ الاسْتِقْرَار: التَّحَقُّقُ والثُّبُوت. وأرَىٰ مِنْ حُسْنِ التدبُّرِ حَمْلَ لَفْظِ «مُسْتَقَرّ» عَلَىٰ هَـٰذِهِ المعاني الثَّلاثَة. وسوابقُ هَـٰذِهِ الآية تُشْعِرُ بأنَّ الأَنْبَاءَ هِيَ أَنْبَاءُ الْجَزاءِ الرَّبَّانِيِّ يَوْمَ الدّين.

فالمعْنَىٰ: لِكُلِّ نَبَأٍ جَاءَ الإخْبَارُ بِهِ في القرآنِ، مِنَ الأَنْبَاءِ المستَقْبَلِيَّةِ، ثُبُوتٌ وتحَقُّقٌ في زَمَانٍ وَمَكَانٍ مَعْلُومَيْنِ مُحَدَّدَيْنِ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ أَيُّهَا المكَذِّبُونَ بِهَـٰذِهِ الأَنْبَاءِ حِينَما تُشَاهِدُونَ تَحَقُّقَهَا فِي الواقِعِ الَّذِي سَوْفَ يَكُونُ لَا مَحَالَةَ.

■ قول الله تَعالَىٰ خِطاباً لِكُلِّ مُسْلِمٍ بأُسْلُوبِ خِطابِ الرَّسُول ﷺ:

● ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾:

﴿يَخُوضُونَ﴾: أَصْلُ الخَوْضِ المَشْيُ فِي الْمَاءِ وتَحْرِيكُهُ، وَهَٰذِهِ حَرَكَةٌ تَجْعَلُ الطِّينَ والمُتَرَسِّبَاتِ في أسْفَلِ المَاءِ تَخْتَلِطُ فِيهِ، فَيَصِيرُ عَكِراً كَدِراً، والمطلوبُ في الماء لاستعمال الناس أنْ يكون صافياً.

ومن التوسُّع في اللُّغَةِ استعمال الخوض بمعنَىٰ اللَّبْسِ في الأمْر، وبمعنى التَّلَبُّسِ فيه، والتصرُّفِ فيه.

ويُقَال: خاضَ الشَّيءَ بالشَّيْءِ، أي: خَلَطَهُ به. والخوض من الكلام ما فيه الكذبُ والباطل.

واسْتُعْمِلَ التَّخَوُّضُ في مال اللهِ، بمعنى التَّصَرُّفِ فيه بما لا يرضاه الله.

ومعنى: ﴿يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: أي: يَطْعَنُونَ فيها، ويَسْخَرُونَ مِنهَا، ويَسْتَهْزِئُونَ بِها، مُعْلِنِينَ كُفْرَهُمْ بها.

فالمعْنَىٰ الّذي نَفْهَمُهُ مِنْ هَٰذِهِ الآيَةِ، أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُخاطِبُ كُلَّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ إفْرَادِيًا، بأُسْلُوبِ خِطَابِ الرَّسُولِ باعْتِبَارِهِ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُسْلِمِينَ، ومَضْمُونُ الْخِطَابِ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ مُسْلِمٍ، إِذَا رَأَى في مَجْلِسِهِ أو سَمِعَ قَوْماً يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللهِ وَيَسْتَهْزِئونَ بِهَا، أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمْ وَلَا يَجْلِسَ مَعَهُمْ، وَلَوْ مِنْ أَجْلِ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، حَتَّىٰ يَخوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِ الْحَدِيثِ الَّذِي كَانُوا يَخُوضُونَ فِيه كُفْراً بآيَاتِ اللهِ واسْتِهْزَاءً بِها. وَإِذَا وَجَدَ نَفْسَهُ أَنَّ الشَّيْطَانَ أنْسَاهُ الْإِعْرَاضَ عَنْهُمْ فَلَمْ يُدِرْ وَجْهَهُ وَلَمْ يُعْلِنْ كَرَاهِيَتَهُ لِحَدِيثِهِمْ بِصُورَةٍ عَمَلِيَّةٍ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَقْعُدَ بَعْدَ التَّذَكُّرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللهِ وَيَسْتَهْزِئُونَ بها.

الإعْرَاض: هُوَ إعْطَاءُ الْعَارِض وهُوَ الجانِبُ، إعْلَاناً عَن الانْصِرَافِ النَّفْسِيِّ والكرَاهِيَةِ، وهو وَسَطٌ بَيْنَ الإقْبَالِ والإدْبَارِ.

الذِّكْرَىٰ: اسْمُ بِمَعْنَىٰ التَّذْكِيرِ، وبِمَعْنَىٰ التَّذَكُّر. والملائِمُ هُنَا المعْنَىٰ الثاني، وهُوَ التَّذَكُّرُ المقابِلُ للنِسْيَان.

ووصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ الَّذِينَ يَخُوضُونَ في آياتِهِ بأنَّهُمْ قَوْمٌ ظَالِمُونَ، أي: هُمْ ظَالِمُونَ ظُلْماً كَبِيراً مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ الإجْرَامِيِّ الشَّنِيع.

وقَدْ جاء في الْعَهْدِ المَدَنِيِّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نُزُول) إحالَةٌ عَلَىٰ مَا جَاءَ في هَـٰذِهِ الآيةِ، حِينَ ارْتَكَبَ بَعْضُ المسْلِمِينَ ظاهراً وأكْثَرُهُمْ مِنَ المنافِقِينَ، مَعْصِيَةَ الْجُلُوسِ مع الكافِرِينَ مِنْ يَهود أو مشركين والاسْتِمَاعِ إلَىٰ كُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللهِ القرآنيَّة، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

دَلَّتْ عِبَارَةُ: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ عَلَىٰ المرادِ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ الْمُحَالِ عَلَيْه فِي سورة (الْأَنْعَام/ ٥٥ نزول) المكية: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ فالمراد بالخوض بالآيات: الكُفْر والاستهزاءُ بها.

ودَلَّتْ هَـٰذِهِ الْإِحَالَةُ على أنَّ خِطَابَ الرَّسُولِ فِي سُورَةِ (الأنعام) هُو خِطَابٌ لِكُلِّ مُسْلِم، ونَقِيسُ عَلَىٰ هَـٰذَا النصِّ كلَّ خِطَابَاتِ الرَّسُول ما لَمْ تَكُنْ مِنْ خَصَائِصِه صَلَواتُ اللهِ عَلَيه.

ودَلَّ النصُّ في سُورَةِ (النساء/ ٩٢ نزول) على المطويِّ في نصِّ (الأنْعَام/ ٥٥ نزول).

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾: أي: وإذَا كُنْتَ قَاعِداً مع كَافِرِينَ، ورأَيْتَهُمْ يَتَحَادَثُونَ وسَمِعْتَهُمْ يَخُوضُونَ فِي آياتنا كُفْراً بِها واسْتِهْزَاءً بها.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أَرَىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ تَتَحدَّثُ عَنِ الْوَجْهِ الثالِثِ مِنْ الْوُجوه المحْتَمَلَةِ المتْرُوكَةِ لاختيارَات المؤمِنِينَ المسلمين، الّذِينَ يَسْمَعُونَ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بها، فِي مَجْلِسٍ ما:

الْوَجْهُ الأَوَّل: الإعراض الصَّرِيحُ الدَّالُّ عَلَىٰ الكَرَاهِيَةِ والاستنكار. وهذا أخَفُّ أَحْوَالِ الإنْكار.

الْوَجْهُ الثّاني: الانْسِحَابُ مِنَ المجْلِسِ بِمُفَارَقَتِهِ، مع الْإشعار بِسَبَبِ المْفارقة.

الْوَجْهُ الثالث: الْمُعَارَضَةُ الصَّرِيحَةُ لِأَقْوَالِهِمْ وَخَوْضِهِمْ بالباطل، ومجاهَدَتُهُمْ دِفاعاً عن الحقِّ الرَّبَّاني، وهَـٰذَا مِنَ الجهاد في سبيل الله، وهذا الْوَجْهُ هُو أشَدُّ الْوُجُوه وأعْلاهَا مَنْزِلَةً عِنْدَ اللهِ.

وَبَيَاناً لِهَـٰذَا الْوَجْه جاءَتْ هَـٰذِهِ الآيةُ (٦٩) فيما أرَىٰ.

فالمَعْنَىٰ: ومَا عَلَىٰ الَّذِينَ يتَّقُونَ التَّأَثُّر بِخَوْضِهِمْ، ويَتَّقُونَ التُّهَمَةَ بالرِّضَا عَنْ كُفْرِهِمْ واسْتِهْزَائِهِمْ بآيَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ ـ بأَسْلُوبِ المُشَارَكَة الصّامِتَة، فيقُومُونَ بمجاهَدَتهِمْ بياناً لِلْحَقِّ، ودِفَاعاً عَنْ آياتِ اللهِ، ما عَلَيْهِمْ من عقوبَات الخائِضِينَ مِنْ شيء، لِأَنَّهُمْ أعْلَنُوا دِفَاعَهُمْ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَزَادُوا بِدِفَاعِهِمْ ثَبَاتاً عَلَىٰ التَّمَسُّكِ بآيَاتِ اللهِ، ولو أن مُجَاهَدَتُهم البَيَانِيَّةُ للكافِرِينَ الْوَقِحِينَ، الَّذِينَ يَخُوضُونَ في آياتِ اللهِ، قَدْ لَا

تُجْدِي في رَدْعِهِمْ عَمَّا يَخُوضُونَ فيه، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ تذكيراً لَهُمْ بِمَا أَعْتَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ للكافِرِينَ المسْتَهْزِئِينَ بآيَاتِهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّين، مَعَ احْتِمَالِ تَعْذِيبِهِمْ وإهْلاَكِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، مَقْرُوناً هذا التَّذْكِيرُ بِرَجَاءِ أَنْ يَتَّقُوا عذابَ رَبِّهِمْ فَيَكُفُّوا عَنْ خَوْضِهِمْ فِي آيَاتِهِ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ فهذا الرَّجَاء يُعْطِي نَفْسَ مُجَاهِدِهِمْ قُوَّةً وَحِكْمَةً في اخْتِيارِ الْأُسْلُوبِ الملائِمِ لإقناعهم، وتَرْغيبهم وتَرْهِيبِهِمْ.

أُطْلِقَتْ عبارة ﴿حِسَابِهِم﴾ الَّتِي هي فِقرَة مِنْ مُقَدِّمَاتِ عِقَابهم يوْمَ الدّين، لتَدِلَّ بأسْلُوبٍ كِنَائِيٍّ عَلَىٰ عِقَابِهم.

ولفْظُ «مِنْ» في: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ زِيدَت لتوكيد عُموم النفي في صَدْر الآية.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً للرَّسُولِ فَلِكُلِّ مُسْلِمٍ بأُسْلُوب الخطاب الإفرادي:

• ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

سَبَقَ في الملحق الرابع من ملاحِق تدبُّر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) دراسَة تكامُلِيَّة للنصوص القرآنية، المتعلّقة بالَّذِينَ اتَّخَذُوا الدّين لَهْواً ولَعِباً، وغَرَّتْهُمُ الحياة الدُّنيا[١].

اللَّعِبُ: هُو ضِدُّ الجدِّ، ويُقال لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلاً لَا يَجْلُبُ لَهُ نَفْعاً: إنَّمَا أنْتَ تَلْعَب.

---

(١) انظر هذا الملحق في المجلد الخامس في الصفحات من (٢٢٤ ـ ٢٧٩).

اللَّهْوُ: هو الاشْتِغَالُ بِشَيْءٍ ذي فَائِدَةٍ قَلِيلَةٍ، صَارِفٍ عَمَّا يَجِبُ تَوْجِيهُ الْجَهْدِ والْعَمَلِ لَهُ، إذْ هُوَ ذُو قيمَةٍ وفَائِدَةٍ عَظِيمَتَيْنِ جَلِيلَتَيْن، كالاشتِغَالِ بما يَكْتَسِبُ بِهِ الْعَامِلُ فَلْساً واحداً، ويَصْرِفُهُ عَمَّا يَكْتَسِبُ بِهِ دَنَانِيرَ كثيرة وَفِيرَةً، وكالاشْتِغَالِ بِمَا يَجْلُبُ به الْعَامِلُ مَتاعاً ضَئِيلاً لِنَفْسِهِ مِنْ مَتَاعَات الْحَيَاةِ الدُّنيا، وَيَصْرِفُهُ عَمَّا يَرْتَفِعُ بِهِ دَرَجَاتٍ في جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين، أو يَصْرِفُهُ عَنْ دُخُولِ الجنَّة، ويَجْعَلُهُ مِنْ أصْحَابِ النَّار.

● ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾: أي: وَدَعِ الَّذِينَ خَدَعَتْهُمْ مَتَاعَاتُ الحياةِ الدُّنيا وزِينَاتُها، فَحَسِبُوا أَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ في وُجُودِهِم، وحَسِبُوا أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ هَـٰذِهِ الحياة حَيَاةٌ أُخْرَىٰ، يَكُونُ فيها الحِسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتَنْفِيذُ الجزاء، وَوَصَلُوا إِلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ وهُمْ فيها مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، عَنْ طَرِيق إراداتِهِم الحرَّة.

فَلَا تَعْبَأْ بِهَـٰؤُلَاءِ، وَلَا تَكْتَرِثْ لَهُمْ، وَلَا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِمُجَاهَدَتِهِمْ، لِتَحْوِيلِهِمْ مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإيمان، فَهُمْ مَاضُونَ هَائِمُونَ فِي غَيِّهِمْ، مُسْتَغْرِقُونَ فِي مَتاعَاتِ الحياة الدُّنيا الَّتِي غَرَّتْهُمْ بِزِيناتِها. فَمَلَكَتْ حَوَاسَّهُمُ الظَّاهِرَة، وَمَلَكَتْ نُفُوسَهُمْ وقُلُوبَهُمْ.

إِنَّ تَضْيِيعَ وَقْتِكَ بِهَـٰؤُلَاءِ مِنَ الْعَبَث، فَذَرْهُمْ، وابْذُلْ طَاقَاتِكَ بِمُجَاهَدَةِ غَيْرِهِمْ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ مِثْلِ هَـٰذِهِ الدَّرَكَة.

● ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾: أي: وَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ وَبِمَا جَاءَ فِيهِ، مَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْهُ وهُوَ فيها.

● ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: مُحَذِّراً بِتَذْكِيرِكَ بالقرآنِ وبما جاء فيه، مِنْ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ مَا، كَانَتْ في الحياة الدُّنيا مُمْتَحَنَةً مُكَلَّفَة، بِمَا كَسَبَتْ مِنْ مَسَاخِطِ اللهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهَا في الحياة الدُّنيا.

ضُمِّنُ فِعْلُ: ﴿وَذَكِّرْ﴾ مَعْنَىٰ فِعْلِ: «حَذِّرْ» أو «أَنْذِرْ».

الإبْسالُ في اللُّغَةِ: جَعْلُ الشيْءِ مَرْهُوناً مَحْبُوساً، ومَعْلُومٌ أنَّ جهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ سِجْنُ المعَذَّبِينَ فيها. **والإِبْسَالُ:** الإسْلَام لِلْعَذَاب أو لِلْهَلَاك. يُقَالُ لغة: «أَبْسَلَ السُّلْطَانُ الْمُجْرِمَ» أيْ: رَهَنَهُ وسَجَنَه. ويقال: «أَبْسَلَهُ لِلْهَلَكَةِ» أي: أَسْلَمَهُ لها.

فالمعنى: وَذَكِّرْ مُحَذِّراً مُنْذِراً بالْقُرْآنِ وَبِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَاتُ التحذير والإنْذَارِ والترهيب مِنْ بيانات، مِنْ أَنْ تُسْلَمَ نَفْسٌ ممتَحَنَةٌ مُكَلَّفَةٌ في الحياة الدُّنيا، للعذاب يَوْمَ القِيامَة، بِسَبَبِ مَا كَانَتْ قَدْ كَسَبَتْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهَا مِنْ كُفْرٍ وَجَرائِمَ وآثَامٍ، يُعَاقِبُ عَلَيْهَا رَبُّ العالَمِين.

• لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفيعٌ أي: حَالَةَ كَوْنِ النَّفْسِ الكاسِبَةِ لِلجرائِمِ والآثَامِ لَيْسَ لها مِنْ دُونِ اللهِ يَوْمَ القيامَةِ وَلِيٌّ يَنْصُرُهَا وَيَحْمِيهَا مِنْ عَذَابِهِ، وَلَيْسَ لَهَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهَا عِنْدَه، إذْ لَا يَشْفَعُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ عِنْدَهُ إلَّا بإذْنِه، وهُو ـ جَلَّ جلالُهُ ـ لَا يَقْبَلُ شَفَاعَةَ أَحَدٍ لِمنْ كَانَ كافراً بِهِ في رِحْلَةِ امْتِحانه.

الْوَلي: يَدُلُّ في اللُّغَةِ عَلَىٰ مَعَانٍ كثيرة، والملائِمُ مِنها هُنَا معنَىٰ «النّصير».

• ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾: أي: وَإِنْ تُقَدِّم النَّفْسُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهَا بالْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، أَيَّةَ فِدْيَةٍ تَرَاهَا مُعَادِلَةً مُكَافِئَةً لآثَامِهَا، لَا تُقْبَلْ مِنْها، وَلَا تُؤْخَذْ مِنها.

يُقَالُ لُغةً: «عَدَلَ الْمِيزَانَ» أي: سَوَّىٰ بَيْنَ كِفَّتَيْه. ويقالُ: «عَدَلَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ» أي: سَوَّاهُ به، وجَعَلَهُ مِثْلَهُ قَائِماً مَقَامَهُ.

والعَدْلُ: الفِدَاء.

ضُمِّنَ فِعْلُ: ﴿تَعْدِلْ﴾ مَعْنِي فِعْل: «تُقَدِّمْ» فصار المعنى: وإِنْ تُقَدِّم النفسُ الآثِمَةُ المحكومُ عليها بالْعَذَابِ كُلَّ فِدَاءِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ أَوْ نَوْعٍ تَرَاهُ

مُسَاوِياً لآثَامِها الَّتِي اكْتَسَبَتْهَا فِي حَيَاةِ الابْتِلاء، لَا يُقْبَلْ مِنها ولَا يُؤْخَذْ مِنْها.

على أنَّ هَـٰذَا الاحْتِمَالَ لَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُهُ: إذْ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ ما يَوْمَ الدِّينِ إلَّا مَا قَدَّمَتْ مِنْ عَمَلٍ في الحياة الدُّنيا حَيَاةِ الابتلاء، وَقَدْ جِيءَ بِهَـٰذَا الْبَيَانِ لِقَطْعِ تَوَهُّمَاتِ بَعْضِ أَهْلِ الجرائم، بأَنَّهُمْ سَوْفَ يَفْتَدُونَ أَنْفُسَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ بِبَعْضِ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ فِي الحياة الدُّنيا، نَظِيرَ اعْتِقَادِ بَعْضِ الْفَرَاعِنَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَجْعَلُونَ فِي مَدَافِنِهِمْ ذَهَباً وَمُمْتَلَكَاتٍ مِنْ أَمْوَالِ الحياة الدُّنيا، لِيَنْتَفِعُوا بِها إِذَا بُعِثُوا إلى الحياة مَرَّةً أُخْرَىٰ، مُتوهِّمِينَ أَنَّ الحياة الْأُخْرَىٰ ذَاتُ ظُرُوفٍ مُمَاثِلَةٍ للحياة الأولى. هذا إِنْ صَحَّتْ أَنْبَاءُ الْبَعْثِ والحياة الأخرى، مع الْعِلْم بِأَنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً ولَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنيا، لا يُؤْمِنُونَ بِيَوْم الدِّينِ وَلَا بِالْجَزَاء الرَّبَّانِي.

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾: أي: أُولَـٰئِكَ الْكَفَرَةُ الْبُعَدَاءُ الْمُنْحَطُّونَ في اتِّجَاهِ الدَّرْك الأَسْفَل، هُمُ الَّذِينَ حُبِسُوا مُعَذَّبِينَ فِي دار الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ بِمَا كَسَبُوا مِنْ جَرَائِمَ فِي الْحَياةِ الدُّنيا.

• ﴿... لَهُمۡ شَرَابٌ مِّنۡ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾:

أي: هذا يكُونَ لَهُمْ وَهُمْ فِي جهَنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ، الَّتِي يَخْلُدُ فيها الْكافِرُون.

• ﴿شَرَابٌ مِّنۡ حَمِيمٍ﴾: أي: شرابٌ مِنْ مَاءٍ حَارٍ شَدِيدِ الحرارة.

• ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾: أي: وعِقَابٌ مُؤْلِمٌ لَهُمْ إيلاماً شدِيداً.

• ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾: أيْ: بِسَبَبِ كُفْرِهم الَّذِي اكْتَسَبُوهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا.

وبهذا تَمَّ تدبُّر الدرس الخامس عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٢٠)

التدبر التحليلي للدَّرْس السَّادِس عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٧١ ـ ٧٣)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

القراءات:

(٧١) • قرأ حَمْزَة: [**اسْتَهْوَاهُ**] مع الإمَالَة.

وقرأها بَاقِي القرّاء العشرة: [**اسْتَهْوَتْهُ**].

والْقِرَاءَتَانِ وَجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جَائِزَان، فالفاعل جَمْعٌ يجوزُ معه تَذْكير الْفِعْلِ وَتَأْنِيثُه.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْس مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الثّانِي من ساقَيْ شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة. وفيها تَعْلِيمُ حِوَارٍ دَعَوِيٍّ حَوْلَ تَوحِيد اللهِ عزَّ وجلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَٰهِيَّتِهِ، مَعَ الأمْرِ بإقَامَةِ الصَّلَاةِ، والأمْرِ بِتَقْوَىٰ الله، والتَّذْكِيرِ بأنَّ النَاسَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الدِّينِ إِلَيْهِ جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وفيها بَيَانُ أنَّ اللهَ هُو الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرض بالْحَق، ولَمْ يَخْلُقْهُما لَعِباً وَلَا عَبَثاً، وبما أنَّهُ خالِقُهما فَهُو مالِكُهما، ومَالِكُ كُلِّ شيءٍ

فيهما وكُلِّ ذِي حياة فيهما فالملائِكَةُ، والإنْسُ، والجنُّ عبيدُه. جَلَّ جَلَالُه وَعَظُمَ سُلْطَانه.

وخَلْقُ السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ بِالْحَقِّ، يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ النَّاسُ قَدْ خُلِقُوا بِصِفَاتِهِمْ الَّتِي اختارَهَا الخالِقُ لَهُمْ للابْتِلَاءِ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، والابْتِلَاءُ يَسْتَلْزِمُ عَقلاً الْحِسَابَ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ وَتَنْفِيذَ الجزاء، وبما أَنَّ هَـٰذَا اللّازمَ الْعقْلِيَّ الْحَكِيمَ غَيْرُ مَوْجُودٍ في ظُرُوف الحياة الدُّنيا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ الْحَكِيمُ قَدْ قَدَّرَ وَقَضَىٰ حَيَاةً أُخْرَىٰ ذَاتَ ظُرُوفٍ غَيْرِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وفي تِلْكَ الحياة يَتَحَقَّقُ الحسابُ وفَصْلُ القضاء والجزاء، فجاء في آيَاتِ هذا الدَّرْسِ بَيَانٌ موجزٌ سَرِيعٌ عَنْ يَوْمَ القيامَةِ، وعَنْ مِلْكِ اللهِ لِكُلِّ شيءٍ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ لِبَعْثِ الموتَىٰ إِلَىٰ الْحَياةِ الْأُخْرَىٰ.

وخَتَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ هَـٰذَا الدَّرْسَ ببيانِ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ وأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ، ذوَاتِ ارْتِبَاطٍ فِكْرِيٍّ بِمَضْمُونِ هَـٰذَا الدَّرس.

التّدبُّر التحليلي:

■ قولِ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِرَسُوله فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِن أُمَّتِه:

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

تَدُلُّ الآية (٧١) عَلَىٰ أَنَّ المشْرِكِينَ قَدْ تَوَجَّهَ دُعَاةٌ مِنْهُمْ لِدَعْوَةِ طَائِفَةٍ مِن المسْلِمِينَ لِعِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ، الَّتِي اتَّخَذُوها مِنْ دُونِ اللهِ افتراءً عَلَىٰ الله، وَجَعَلُوا يزَيِّنُونَ عِبادَتَها بأَنَّهَا آلِهَةُ آبَائِهِمْ وأجْدَادِهِمْ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْد والتجارِبِ الطَّوِيلَة، فَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَعْلِيمُ الْمُسْلِمِينَ ولَا سِيَّمَا الدُّعَاةُ إلى اللهِ مِنْهُمْ حِواراً جَدَلِيًّا عقْلِيًّا قَائِماً عَلَىٰ دَلِيلٍ بُرْهَانِيٍّ تَجْرِيبيّ. وَقَدْ جاء في روايات أسباب النزول ما يؤيّد هذا الفهم.

• [**أَنَدْعُو**]: أي: أَنَعْبُدُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الدُّعَاءَ بِمَعْنَىٰ السُّؤَالِ والطَّلَبِ لِدَفْعِ ضُرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ هُو مِنَ العبادة. وقَدْ تَكَرَّرَ في القرآنِ استعمالُ فعل «دَعَا، يَدْعُو» بِمَعْنَىٰ: العِبَادَة.

والاسْتفهامُ هُنَا اسْتِفْهَامُ تَعَجُّبٍ واسْتِنكارٍ مَقْرُونَيْنِ بِبَيَانٍ بُرْهَانِي، وهُوَ أَنَّ آلِهَتكُمُ الَّتِي تَدْعُونَنَا لِعِبادَتِها لَا تَنْفَعُنَا بِشَيْءٍ إِذَا عَبَدْنَاها، وَلَا تَضُرُّنَا بِشَيْءٍ إِذَا تَرَكْنَا عِبادَتَها، فَهَلْ مِنَ الْعَقْلِ والرُّشْدِ أَنْ نَعْبُدَها، وَهَـٰذَا حَالُها.

يُضَافُ إِلَىٰ هَـٰذَا أَنَّنَا إِذَا عَبَدْنَاهَا حَلَّ بِنَا ضَرَرٌ عَظِيمٌ، إِذْ نُرَدُّ بِهِ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا خائِبِينَ خاسِرِين، مُنْذَرِينَ بِعَذَابٍ خالِدٍ فِي الجحيم مِنْ قِبَلِ اللهِ رَبِّ الْعَالمين، بَعْدَ أَنْ سَلَكْنَا الصِّراطَ المستقيم الموصِلَ لنا إِلَىٰ جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّينِ، حِينَ هَدَانَا اللهُ عَن طَرِيقِ دَعْوَةِ رَسُولِهِ بَلَاغاً عَنْهُ، وهَدَانَا بِبَيَانَاتِ آيَاتِ كتابه.

• ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾: **الْعَقِبُ**: عظْمُ مُؤَخَّرِ الْقَدَمِ، وهو أَكْبَرُ عِظامها. وآخرُ كُلِّ شيء. **والرَّدُّ**: المنْعُ، والصَّرْف، والإرْجاع. ويُقالُ: «رَدَّ فُلَانٌ فُلَاناً عَلَىٰ عَقِبِهِ» أي: دفعَهُ لِيَنْقَلِبَ رَأْسُهُ إِلَىٰ جِهَةِ عَقِبه. ويقال: «ارْتَدَّ عَلَىٰ عَقِبِهِ» أي: ارْتَدَّ مُنْقَلِباً عَلَىٰ عَقِبِهِ، وراجعاً إِلَىٰ خَيْبَةٍ بَعْدَ أَنْ كَانَ سَائِراً إلى مَا يَرْجُو مِنْهُ نَفْعاً وَخيراً. وقد تَكَرَّرَ في القرآن مِثْلُ هذا التعبير: ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ـ ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ـ ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ ـ ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾. ويَظْهَرُ لي أنَّ صِيغَة هَـٰذِهِ العبارَاتِ وأَمْثَالِها صَارَتْ بِمَثَابَةِ المثَلِ الدَّالّ عَلَىٰ الانْقِلَابِ من الحال الحسَنَةِ إلى الحال السَّيِّئَة، ومِنَ الخير إِلَىٰ الشّرّ، ومن الارتقاء إِلَىٰ الانْتِكاس، ومِنَ الصَّلاح إِلَىٰ الفساد. فَرَدُّ الرَّأسِ عَلى الْعَقِب انْتِكَاسٌ قَدْ يَكُونُ مُهْلِكاً، وقَدْ يَكُونُ مُسْقِطاً فِي هَاوِيَةٍ سَحِيقَة، إِلَىٰ شَرٍّ وَعَذَابٍ أَليم.

• ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾: أي: بَعْدَ وَقْتِ هِدَايَةِ اللهِ لَنَا دَعْوَةً عَنْ طَرِيقِ رَسُولِهِ، وبآيَاتِ كِتَابِهِ الْمُبِينِ، وتَوْفِيقاً بتَحْبِيبِ الإيمان لَنَا وتَزْيِينِهِ فِي قُلُوبِنَا، وبِشَرْحِ صُدُورِنَا للإِسْلَامِ وتَطْبِيقَاتِهِ فِي السُّلُوك.

ودَلَّ الفِعْلُ في: ﴿وَنُرَدُّ﴾ بالْبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، على أَنَّهُمْ يُشْعِرُونَ الدُّعَاةَ إِلَىٰ الشِّرْك، بِأَنَّهُمْ إِنْ اسْتَجَابُوا لَهُمْ مَكَنُّوهُمْ مِنْ أَنْ يَرُدُّوهُمْ عَلَىٰ أعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ هَاوِينَ إِلَىٰ الْحَضِيضِ والعذاب الأَلِيم. ويَقُولُونَ لَهُم كَمَا أَبَانَ اللهُ في الآيَةِ، وَنَكُونُ باسْتِجَابَتِنَا لِشِرْكِكُمْ وَعِبَادَةِ آلِهَتِكُمْ كما يلي:

• ﴿... كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ... ﴿٧١﴾﴾:

• ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: أيْ: اسْتَمَالَتْهُ شَياطِينُ الإِنْسِ والجِنِّ بِزُخْرُفِ أَقْوالِها، عَنْ طَرِيقِ تَهْيِيجِ أَهْوَائِهِ وَإِمْتَاعِهَا بِمَا تَسْتَلِذُّهُ، وَغَايَةُ اسْتِهْوَائِهَا لَهُ إِسْقَاطُهُ فِي عَذَابٍ أَلِيمٍ وشَقَاءٍ أَبَدِيٍّ لَا خَلاصَ لَهُ مِنْهُ.

وباسْتِهْوَائِهِ مِنْ جِهَاتِ أَهْوَائِهِ المخْتَلِفَةِ الْمتَعَدِّدة السُّبُلِ يَسِيرُ في الأَرْضِ حَيْرَانَ، أَيَسِيرُ في سَبِيلِ طَلَبِ المال؟ أَمْ فِي طَلَبِ الْحُكْمِ والسُّلْطان؟ أَمْ في إِمْتَاعِ جَسَدِهِ بالشَّهَوَاتِ؟. أَيَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ هَـٰؤُلَاءِ المشركون؟ أم يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ المجوس؟ أم يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ الصَّابِئَة؟. أَمْ يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ النَّصارى؟.

إِنَّ الأَهْوَاء تَتَجَاذَبُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِلَىٰ سُبُلِها، وهِيَ جَمِيعاً مُتَفَرِّقَةٌ مُجَافِيَةٌ لِصِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم.

ولَهُ أَصْحَابٌ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ كَانَ مَعَهُمْ على صِرَاطِ اللهِ المستقيم، قَبْلَ أَنْ تَسْتَهْوِيَهُ الشَّيَاطِينُ إِلَىٰ مَسالِكِها، مُخْرِجَةً لَهُ عَنْ صِرَاطِ اللهِ وَمُبْعِدَةً لَهُ عَنْهُ، يَقُولُونَ لَهُ نَاصِحِينَ مُرْشِدِينَ دَاعِينَ إِيَّاهُ إِلَىٰ الْهُدَى: ائْتِنَا، واتْرُك

سُبُلَ الضَّلَالَة، وَلَا تَغْتَرَّ بِدِعَايَاتِ الشَّيَاطِينِ وَزُخْرُفِ أقوالهم.

ونَفْهَمُ مِنْ هَـٰذَا المثَلِ تَكْلِيفَ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ أنْ يَرْعَوْا مَنْ يَنْحَرِفُ مِنْهُمْ عَنْ صِرَاطِ اللهِ بالدَّعْوَةِ والنُّصْحِ والإرْشادِ والتَّحْبيب بالْعَوْدَةِ إلَىٰ صِرَاطِ الْهُدَىٰ والنَّجاةِ والْفوزِ العظيم، وبكلِّ مَا هو حكيمٌ من الْوَسَائِل.

• ﴿... قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾:

خطابٌ مُوجَّهٌ للرَّسُولِ فَلِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ بأسْلُوبِ الخطابِ الإفرادي، بأَنْ يَقُولَ للكافِرِينَ، وَلَا سِيمَا الدُّعَاةُ إلَىٰ الكُفْرِ مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ: إنَّ هُدَىٰ اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ، بأسْلُوب الْحصْرِ بِتَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْنادِ، وَتَقْوِيَتِهِ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ، أي: لَا يُوجَدُ هُدىً حَقٌّ صَحِيحٌ صَادِقٌ إلَّا هُدَىٰ اللهِ وَمَا تَطَابَقَ مَعَهُ، وَكُلُّ دَعْوَةٍ مُضَادَّةٍ لِهُدَىٰ اللهِ دَعْوَةٌ بَاطِلَةٌ، مَهْمَا طُلِيَتْ بالأَصْبَاغِ الْخَادِعَةِ، وَمَهْمَا زُيِّنَتْ بِزُخْرُفٍ مِنَ الْقَوْلِ. وبأَنْ يَقُولَ لَهُمْ أيضاً بَعْدَ الْقَوْلِ الأَوَّلِ: وأُمِرْنَا بأوَامِرِ التكالِيفِ الدِّينِيَّةِ المخْتَلِفَةِ الشَّامِلَةِ لِأَوَامِرِ الأَفْعَالِ، ولِأَوَامِرِ التُّروكِ، لِأَجْلِ أَنْ نُسْلِمَ قِيادَةَ حَرَكَةِ حَيَاتِنَا النَّفْسِيَّةِ والْجَسَدِيَّةِ لِرَبِّنَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْمُهَيْمِنِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ جَمِيعِ العالَمِينَ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، الشّامِلَةِ للعطاء والمنْع، والضُّرِ والنَّفْع، والإحياء والابتلاء، والْبَعْثِ والْجزَاء، وبهذا الإسْلَامِ نُحَقِّقُ وَاجِبَاتِ عُبُودِيَّتِنَا لِرَبِّنَا الّذي لَا إِلَهَ بِحَقٍّ سِوَاه.

فَنَحْنُ نُجاهِدُ نفوسَنَا لِنُحَقِّقَ عُبُودِيَّتِنَا لَهُ، كَيْ نَنَالَ رِضْوانَهُ والفوز بالدَّرجاتِ فِي جَنَاتِ النعيم.

• ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

أي: وَبَعْدَ أَنْ أَعْلَنَّا لَكُمْ مَا اخْتَرْنَاهُ لِنُفُوسِنَا، نَدْعُوكُمْ إلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إلَهِيَّتِهِ، فإذا اسْتَجَبْتُمْ لِدَعْوتِنا، أَمَرْنَاكُمْ بأنْ

أَسْلِمُوا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ كَمَا أَسْلَمْنَا طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ، وبِأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ كَمَا أَمَرَ اللهُ، فَإقَامَةُ الصَّلَاةِ هِيَ الْوَاجِبُ الْعَمَلِيُّ المتكَرِّرُ يَوْمِيًّا بَعْدَ إعْلَانِ الدُّخُولِ فِي دِينِ الإسلام.

والمرادُ بإقَامَةِ الصَّلاةِ المداوَمَةُ عَلَىٰ أدائِهَا في أَوْقَاتِها، وأَدَاؤُهَا علىٰ الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ المطوب فِيهَا، فإقَامَةُ الشيء تكُونُ بِجَعْلِهِ مُسْتَقِيماً، وبالْمُدَاوَمَةِ والْمُوَاظَبَةِ عَلَيْهِ، وَتَوْفِيَتِهِ حَقَّهُ لَدَىٰ أَدَائِهِ.

وإِذَا أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وأَحْسَسْتُمْ بِلَذَّةِ عِبَادَةِ رَبِّكُمْ والصِّلَةِ بِهِ، نَقُولُ لَكُم: اتَّقُوا عَذَابَ مَعْصِيَتِهِ فِي كُلِّ شُؤُونِ حَيَاتِكُمْ، في حَرَكَاتِكُمْ وَسَكَنَاتِكُمْ، وَنُؤَكِّدُ لَكُمْ أَنَّهُ سَوْفَ يَجْزِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ مَا تُقَدِّمُونَ مِنْ مَكْسُوبَاتٍ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَنُؤَكِّدُ لَكُمْ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ يَوْمَ الدِّينِ، لِيُحَاسِبَكُمْ وَيَفْصِلَ الْقَضَاءَ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لِيَجْزِيكُمْ عَلَىٰ وَفْقِ قَضَائِهِ لَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِسَعَادَةِ نَفْسِهِ سَعَىٰ، ومَنْ أَسَاءَ فَعَلَىٰ نَفْسِهِ جَنَىٰ.

مَا جَاءَ في هَـٰذَا التَّدبُّرِ مِنَ الْمَعَانِي الّتي لم يَدُلَّ عَلَيْهَا النَّصُّ بِمَنْطُوقِهِ، مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ المثَانِي الْمَطْوِيَّةِ بهِ، واللهُ أَعْلَم، وَقَدْ دَلَّنِي عَلَيْهَا أَنَّ الدَّرْسَ دَرْسُ تَعْلِيمٍ جَدَلِيٍّ دَعَوِيّ، فَهُوَ ذُو لوازِمَ فِكْرِيَّةٍ تَحْتَاجُ اسْتِخْرَاجاً وَتَقْدِيرات، وَمَا جَاءَ في عِبَارَاتِ النَّصِّ مُخْتَزَلَاتٌ ذَوَاتُ رَوَابِطَ فِكْرِيَّة، يُفْسِدُهَا التَّقَيُّدُ بالشَّكْلِيَّاتِ النحويّة، دون مُلَاحَظَةٍ للمطويَّاتِ في المثاني.

■ ويُتَابِعُ حَامِلُ الرِّسَالَةِ بَيانَهُ الدَّعوِيَّ الَّذِي جَاءَ إيجازُهُ فِي الآيَةِ (٧٣) التالية المشْتَمِلَةِ عَلَىٰ تَوْجِيهٍ تَعْلِيميٍّ دَعَوِي:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآية عُنْوانات خَمْس قضايا، هِي من عَنَاصر القاعدة الإيمانيّة في دِين الإسْلام الّذِي اصْطَفاهُ الله عزَّ وجلَّ لعبادِه الممتحنين المكلّفِين في حياة الامتحانِ في الدُّنيا، وهي تابعةٌ للتَّوْجيه التَّعْلِيميّ الدَّعَوِيّ الَّذِي جَاءَ في الآيتَيْنِ السَّابِقَتَيْن مِنْ هَـٰذَا الدَّرْس.

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾:

أي: رَبُّ الْعَالَمِين هو الّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ، وهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بالحقّ.

هَـٰذِهِ القضيَّةُ تَتَضَمَّنُ بِلَوَازِمِهَا العقليّة دليلاً على يَوْم القيامة للحساب وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، الَّذِي ذُكِرَ مِنْهُ الحشْرُ في الآية السَّابقة.

فعلى حامل الرسالة أنْ يَشْرَح هذا الدليل مستفيداً ممَّا سَبَقَ أن أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ نزول) وهو قول الله تعالى فيها:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

فَفِي هَـٰذَا الْقَوْلِ بيانُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مَا خَلَقَ السَّمَاءَ والْأَرْضَ وما بَيْنَهما باطلاً.

وفي الآية الَّتِي نتدَبَّرُها من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) أبَانَ التعليمُ الرَّبَّانيُّ أنَّ اللهَ هُو الّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والْأَرض بالْحَقّ.

الحق والباطل:

قبل شرح الدّليل الذي تَضَمَّنَتْهُ هَـٰذِهِ القضية الأولى يَحْسُنُ تقديم بيانٍ تحليليٍّ للحقّ والباطِلِ وَوُجُوهِهِما.

تعريف الحقِّ والباطل لغة: قال أهل اللُّغَة: الحقُّ هو الْأَمْرُ الثابِتُ الّذِي لَا شَكَّ فِيهِ المطابقُ للواقِعُ. وضِدُّه الباطِلُ، وهو الأمْرُ المخالِفُ للواقع.

وقَدْ جاء في القرآن المجيد اسْتِعْمَال الحقّ والباطل للدَّلَالَةِ على عِدَّةِ وجُوهِ تَرْجِعُ لَدَىٰ التحقيق بِتَعَمُّقٍ فِكْرِيٍّ إلى المعنى اللُّغَوِيّ لهما.

الوجه الأول: كلُّ أَمْرٍ ثَابِتٍ لَا شَكَّ فيه هو حقٌّ، وعلى هَـٰذَا فاللهُ حقٌّ، وهو الحقُّ الأزلِيُّ الْأَبَدِيُّ الْعَلِيُّ الْأَعلى.

وكُلُّ أَمْرٍ غَيْرِ ثَابتٍ مِنْ ذَاتٍ أَوْ صِفَةٍ أَو فِكْرَةٍ هو باطلٌ، وعلى هَـٰذَا فَوُجُودُ أو ادّعاءُ وجُودِ شَرِيكٍ للهِ في أزلِيَّتِهِ وأَبَدِيَّتِهِ، أَوْ في رُبُوبِيّتِهِ، أَوْ في إلَهِيَّتِهِ، بَاطِلٌ لَا شَكَّ في بُطْلَانه.

الوجه الثاني: كُلُّ خَبَرٍ عَنْ قَضِيَّةٍ مَا مُطَابِقٍ لما هُو ثابتٌ في الواقع، أو في الفكْرِ بِالْبُرْهَانِ العقلي، هو خَبَرٌ حَقٌّ.

وضِدُّه الباطل، فكلُّ خَبَرٍ عَنْ قَضِيَّةٍ ما، وهذا الخبر غير مطابقٍ لِمَا هُو ثَابِتٌ في الواقع، أو في الفكر بالْبُرْهَان الْعَقْلِيّ، هو خَبَرٌ باطل.

الوجه الثالث: كُلُّ حُكْمٍ مُطَابقٍ لِمَا يَقْتَضِيهِ الحقّ، هو حُكْمٌ حَقٌّ. وضِدُّه الباطل، فكُلُّ حُكْمٍ مُضَادٍ لِمَا يَقْتَضِيه الحقُّ، هو حُكْمٌ بَاطِلٌ.

أمثلة:

(١) يَقْتَضِي الحقُّ إصدار حُكْمٍ بإدانَةِ الجاني، فالْحُكْمُ بِتَبْرِئَتِهِ باطل.

(٢) يقتضي الحقُّ تَبْرِئَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ إرادة السُّوءِ بِزَوْجَةِ عَزِيزِ مصر، فالْحُكْمُ بإدانَتِهِ بَاطِل.

(٣) يَقْتَضِي الحقُّ بأن هَـٰذَا الشَّكْلَ △ ذا الزوايا الثلاث مُثَلَّثٌ، فالحكم بأنَّهُ مُرَبَّعٌ أَوْ مستطيل حُكْمٌ باطل.

الوجْهُ الرابع: كُلُّ عَمَلٍ لَا يُحَقِّقُ نَتِيجَةً مَقْبُولَةً لَدَىٰ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ هو عَبَثٌ، وهُو عَمَلٌ بَاطل، لِأَنَ فِيهِ تَبْدِيداً وإِضَاعَةَ للطاقَةِ الثابِتَةِ في الواقِع، دُون بَدِيلٍ لَهُ ثَبَاتٌ يَقْصِدُهُ أُولُو الألباب.

وضِدُّه عَمَلٌ حَقٌّ، وهو بَذْلُ الطَّاقَةِ الثَّابِتَةِ في الواقع، لتحقيقِ بَدِيلٍ يَقْصِدُ الْعُقَلاءُ أولُوا الألْبَاب تَحْقِيقَه.

فالْحَرْثُ فِي الْبَحْرِ لإنْباتِ الزَّرْعِ عَمَلٌ بَاطِلٌ، والحرثُ في أَرْضٍ خِصْبَةٍ لِإنْبَاتِ زَرْعٍ مُفيدٍ للأَحْيَاءِ عَمَلٌ حَقٌّ.

وإجراءُ امْتِحانٍ لِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الطَّلَبَةِ، دُونَ تَقْويمِ أَوْرَاقِ امْتِحَانِهِمْ بالدَّرَجَاتِ الَّتِي تَسْتَحِقُّها، عَمَلٌ بَاطل.

وإجْراءُ مُصَارَعَةٍ بَيْنَ حيوانٍ وحيوانٍ آخر لمجرَّدِ الاستمتاع بحركاتِهما، مع مَا فيها مِنْ إيذائِهما أو إيْذَاءِ أَحَدِهما، عَمَلٌ بَاطل.

الوجْه الخامس: اخْتِيَارُ نظامٍ لمجتَمَعٍ بَشَرِيٍّ يُفْضِي تَطْبِيقُهُ إلى انْتِشَارِ الفوضَىٰ والفسادِ في ذَلِكَ المجتمع، اخْتيارٌ باطلٌ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مطابِقٍ لِمَا هُو ثابتٌ عَقْلاً أَنَّهُ نِظَامٌ نَافِعٌ ومُفِيدٌ وصالح لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَسِيرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ المجتَمَعُ مِنْ نِظَام.

وضِدُّه اختيارٌ حَقٌّ لِأَنَّ تَطْبِيقَهُ يُفْضِي إلى مَا هو نافع ومفيد وصالح للمجتمع.

وهكذا إلى وُجوهٍ كثيرة.

بَعْدَ هَـٰذِهِ المقدمة نَسْتَطِيع أن نفهم معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾:

أي: والَّذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ هو الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ خَلْقاً مُتَّصِفاً بأَنَّهُ حَقٌّ. فَكُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ ذَوَاتِ الأَشْيَاءِ وصِفَاتِها في

السَّمَاوَاتِ وَفي الْأَرْضِ هُوَ حَقٌّ ثابِت، ولَا شيءَ ممَّا خَلَقَ اللهُ فِي كَوْنِهِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ. وكُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ في كَوْنِهِ آياتٌ دَالَّاتٌ على ذاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهَـٰذَا حَقٌّ. وَمَا خَلَقَ الإنْسَ والْجِنَّ بِصِفَاتِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْها، إلَّا لِيَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحان فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، ثُمَّ لِيَجْزِيَهُمْ عَلَىٰ وَفْق أَعْمَالِهِم، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَره، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَال ذَرَّةٍ شَرّاً يَره، وَهَـٰذا الجزاء يكونُ يَوْمَ القيامَةِ بَعْدَ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ، والْخَلْقُ لِتَحْقِيقِ هَـٰذِهِ الْغَايَةِ العظيمة خَلْقٌ مُتَّصِفٌ بالْحَقِّ، ولَوْلَا تحقيقُ هَـٰذِهِ الْغَايَةِ السَّامِية لكان خَلْقُ الإنْسِ والْجِنِّ عَمَلاً بَاطلاً.

هل تَقْبَلُ العقولُ السَّلِيمَةُ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ الإنْسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيم، ويُسَخِّرَ لَهُ مَا فِي الْأَرْضِ والسَّمَاء، فَهُوَ يَتَصَرَّفُ بالْأَشْيَاءِ ضِمْنَ قَوَانِينِها وأَنْظِمَتِهَا باخْتِيَارِه الحرّ، وهَـٰذَا التَّصَرُّفُ يَنْجُمُ عَنْهُ ظَالِمٌ وَمَظْلُوم، وذُو غنيً ومَحْرُوم، ومُسِيءٌ ومُحْسِنٌ، وَكَافِرٌ ومُؤْمِنٌ، وتَقِيٌّ وَمُجْرِمٌ، ثُمَّ لا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ حِسَابٌ، وَلَا فَصْلُ قَضَاءٍ، وَلَا جزاءٌ؟؟!

إِنَّه تَمْكِينٌ لِذَوِي الْقُوَّةِ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْبَاطِلُ هو العزيزَ الْفَائِقَ، وأن يكُونَ الحقُّ هُو الذَّلِيلَ الزَّاهِق، وهَـٰذَا عِنْدَ ذوي العقول السَّلِيمةِ عَمَلٌ بَاطِلٌ، وكُلُّ مَا يُؤَدِّي إلى باطلٍ فَهُو باطلٌ.

إذا كانت الغايَةُ من الخَلْقِ هذا الأمْرَ البَاطِل، فإنَّ الخَلْقَ نَفْسَهُ عَمَلٌ باطلٌ، يُفْضِي إلىٰ تَمْكِينِ الْبَاطِلِ مِنْ إزْهَاقِ الحق.

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا حِسَابٌ، ولا فَصْلُ قضاءٍ، ولَا تَنْفِيذُ جزاءٍ، لَزِمَهُ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّ اللهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وعَظُمَتْ حِكْمَتُهُ، قَدْ خَلَقَ هَـٰذَا الْخَلْقَ بَاطلاً وعَبَثاً، وَهَـٰذَا جُحُودٌ لِكَمَالِ صِفَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وَهُو مِنَ الكُفْرِ باللهِ. وإنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَـٰذَا مَا قَدرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِنَّهُمْ بهذا الزَّعْمِ لَيْسَ لَهُمْ إلَّا الْأَوْهَامُ الَّتِي هِيَ أَضْعَفُ الظُّنُونِ السَّاقِطَةِ

بالْبَدَاهَة، وهِيَ أَوْهَامٌ زَيَّنَتْهَا لَهُمْ رَغَبَاتُهُمُ الفاجِرَاتُ بالتَّحَرُّرِ مِنْ قُيُودِ الحقِّ والْخَيْرِ والْفَضِيلَةِ، اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمُ الْعَمْياء[1].

القضيّة الثانية: دَل عَلَيْها قول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ﴾:

جاء في الْعِبَارَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّة تَغْيِيرُ في أسْلُوب البيان، وهو على مَنْهَجِ الْقُرْآنِ المُخالِفِ لِأَسَاليبِ النَّاسِ الَّتِي يَتَّبِعُونَ فيها النَّمَطِيَّة المتماثِلَة، والَّذِينَ لَا يَضَعُونَ فِي تَصوُّرِهِمْ هَـٰذَا المَنْهَجَ الْقُرْآنِيَّ الْقَائِمَ على التغيير في الْأُسْلُوبِ قَدْ لَا يُحْسِنُونَ تَدَبُّرَ فقَرَاتِهِ وجُمَلِهِ وآيَاته.

كانَت النَّمَطِيَّةُ المُتَمَاثِلَةُ يتَبَادَرُ فيها أَنْ يُقال: هُو الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضَ بالْحَقِّ في أحْدَاثِ يَوْم الْحَيَاةِ الدُّنيا، وسَوْفَ يَخْلُقُ فِي أحْدَاثِ الْيَوْمِ الآخِرِ كُلَّ مَا قَدَّرَ وَقَضَىٰ أَنْ يَخْلُقَهُ بالْحَقِّ أَيْضاً، فَقَوْلُهُ الْحَقُّ دَواماً.

وإيثَاراً لِلتَّنْوِيعِ في الأُسْلُوبِ، مع اخْتِيَارِ الْأَجْمَعِ للمَعَانِي، والأخْصَرِ في العبارة، قال اللهُ تَعالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ﴾: أي: وَقَوْلُهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ بَاطِلٌ أيْضاً، يَوْمَ يَقُولُ في أحْدَاثِ الحياة الآخِرَة، الْمُعَدَّة فِي خُطَّةِ التكوينِ لِلْحِساب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ وتنفيذِ الْجَزاءِ، لِكُلِّ شَيْءٍ تَمَّ بِهِ قَضَاؤُهُ: كُنْ فَهُوَ يَكُونُ بِمُقْتَضَىٰ أَمْرِ التَّكْوِين، وأَمْرُ التَّكْوِينِ لَيْسَ كَأَمْرِ التَّكْلِيفِ، إِذْ هُوَ يُوَجَّهُ للأشياء الْمَعْدُومَةِ الذَّواتِ أو الصِّفَاتِ وَالموْضوعَةِ بالقضَاءِ والْقَدَرِ فِي خُطَّةِ التَّكْوين، فَتُوجَدُ بالْأَمْرِ، كَمَا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ (يس/ ٤١ نزول) فالْمُرَادُ للهِ مَعْلُومٌ لَهُ بِكُلِّ عَنَاصِرِ ذَاتِهِ وَصِفاته،

---

(١) انظر تتمّة هذا البحث في تدبّر الآيتين (٢٧ و٢٨) من سورة (ص/٣٨ نزول) المجلد الثالث. الصفحات من (٥٤٥ ـ ٥٥١).

وخَلْقُهُ يَكُونُ بأَمْرِ التَّكْوِين، كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ بالْجَبْر، وهَـٰذَا مِنْ خَصَائِصِ أَفْعَالِ الرَّبّ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

القضيَّة الثالثة: دلَّ عليها قول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾:

الصُّور: مَخْلوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللهِ كَهَيْئَةِ الْقَرْنِ، إحْدَىٰ جِهَتَيْهِ فُتْحَةٌ دَائِرِيَّةٌ ضَيِّقَة، والأُخْرَىٰ فُتْحَةٌ واسِعَةٌ جدّاً، وباطِنُهُ فَارِغٌ يُمْكِنُ أَنْ يُنْفَخَ فيه، فَيُصْدِرُ صَوْتاً بِحَسب خَصَائِصِ تَكْوِينه.

والملَكُ المكلَّفُ أَنْ يَنْفُخَ فِيه هُو إسْرَافيل عَلَيْهِ السَّلام.

وقَدْ جاء في القرآن المجيد عشرةُ نُصُوصٍ فيها حَديث عَنِ النَّفْخِ في الصُّور، وهي فيما يظْهَرُ تَدُور حَوْلَ نَفْخَتَيْن:

النَّفخة الأولى: تَكُونُ بِها إمَاتَةُ مَنْ في السَّمَاوَاتِ وَمَنْ في الأرضِ إلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، وَيَظْهَر أَنَّ كُلَّ مَا فِي الكَوْنِ مِنْ أَحْيَاءٍ تَمُوتُ أيضاً. ويَدْخُلُ فِيمن اسْتَثْنَاهُمُ نَصُّ سورة (الزّمر/٥٩ نزول) في الآية (٦٨) إسْرَافيل، وجبريل، ومَلَكُ الموت عليهم السَّلام، ثم يقبض الله أرْواحَهُمْ.

النَّفخة الثانية: يَكُونُ بها بَعْثُ المَوْتَىٰ لِيَوْم الدين.

وفي حَديثٍ مُطَوَّل عَنِ الصُّور عنْدَ الطَّبَراني في كتابه «المطَوَّلات» نَقَلَهُ ابْنُ كثير، وأشَارَ إلىٰ أنَّهُ بِجُمْلَتِهِ لَا يُحْتَجُّ به، وقَد جَاء فيه ذِكْرُ نَفْخَةٍ ثَالثَةٍ هِيَ نَفْخَةُ الْفَزَع، وأَنَّهَا تَكُونُ هِي النَّفخة الأولى، وبَعْدَهَا نَفْخَة الإمَاتة، ثُمَّ تَكُونُ النَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ نفخة إحياء يَوْمَ الْبَعْث. واللهُ أَعْلم.

وسبق في تدَبُّر الآية (٥١) من سورة (يس/٤١ نزول) مَزِيدُ بيان عن الصُّورِ، وقَدْ جَاءَتْ في القرآن تَسْمِيَتُه أَيْضاً باسْم النَّاقور.

القضيَّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ

﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِۚ﴾ أي: وَقل يا حامِلَ الرِّسَالَةِ فِي بيانك الدَّعَوِيّ: اللهُ هو عالم الغيب والشهادة.

الْغَيْبُ: كُلُّ مَا هُو مَحْجُوبٌ عَنْ مَخْلُوقٍ مَا مِنْ مَخْلوقاتِ اللهِ في كَوْنه،وهُو يخْتَلِفُ مِنْ مَخْلُوقٍ لآخَرِ، فما هُو غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إلى بَعْضِ المخلوقات هُوَ مَشْهُودٌ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ بَعْضِهِمُ الآخر، وتُوجَدُ في الأكْوَانِ غُيُوبٌ عَنْ كُلّ مَخْلُوقَاتِ اللهِ لَا يَعْلَمُها إِلَّا اللهُ.

أصْلُ لَفْظِ «الْغَيْبِ» مَصْدَرُ «غَابَ» وأطْلِقَ عَلَىٰ كُلّ غائب.

الشَّهادَة: كُلُّ مَا يُدْرِكُ بالحِسّ، وأصل لفظ «الشهادة» مَصْدَرُ «شَهِدَ الشيْءَ» أي: عايَنَهُ وأَدْرَكَهُ بِحِسِّهِ، وأُطْلِقَ عَلَىٰ كُلُّ مَشْهُودٍ يُدْرَكُ بالْحِسِّ.

وقَدْ دَلَّتْ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عَالِمٌ بكُلّ مَا هُوَ غيبٌ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَخْلُوقَاتِهِ، وَعَالِمٌ بِكُلِّ مَا هو مَشْهُودٌ لمخْلُوقَاته.

وبيانُ هَـٰذِهِ الْقَضِيَةِ مِنْ عَنَاصِرِ القاعدة الإيمانيّة يُلائِمُ سَوَابِقَ البيان عن الحشر وَيَوْمِ الدِّينِ، الَّذِي أعَدَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في خُطَّةِ الْخَلْقِ لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذ الجزاء.

القضيّة الخامسة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿... وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: وقُلْ يا حَامِلَ الرِّسالَةِ في بيانِكَ الدَّعَوِيّ: واللهُ هُوَ الحكيم الخبير.

الحكيم: هُوَ الَّذِي يَضَعُ الْأَشياءَ في مَوَاضِعِها، وَيَخْتَارُ أفْضَلَ الْأَشياء وأَتْقَنَهَا وَأحْسَنَهَا في الأمُور المختَلِفَة لِمَا يُعْطِي أحْسَنَ النتائج.

ولفظ «الحكيم» اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، ومِنْ حِكْمَتِهِ جَلَّ جلالُهُ أنْ لَا يَخْلُقَ النَّاسَ عَبَثاً، أَو لَعِباً، فَهُوِ يَتَنَافَىٰ مَعَ كَوْنِهِ عزَّ وجلَّ حَكِيماً.

الخبير: هو في اللُّغَةِ العالِمُ بِالْأَمْرِ أو الشيْء عَنْ تَجْرِبَةٍ ومُمَارَسَة.

ولفظ «الخبير» اسمٌ مِن أسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، وذِكْرُ هَـٰذَا الاسْمِ يُلَائِمُ كَوْنَ النَّاسِ مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في الْحَياة الدُّنيا، لِمُحَاسَبَتِهِمْ يَوْمَ الدِّين، وفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم.

وبهذا تَمَّ تدبر الدرس السّادِس عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٢١)
التدبر التحليلي للدّرْس السَّابِع عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٧٤ ـ ٨٢)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

القراءات:

(٧٤) • قرأ يعقوبُ: [**ءازَرُ**] بالضمّ على أَنَّه عَلَمٌ مُنَادَىٰ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**ءازَرَ**] بالفتح على أنه بدلٌ أو عطف بيان مجرور بالفتحة لأنَّه ممنوع من الصرف.

(٧٤) • فتح نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر يَاءَ المتكلّم في: [**إِنِّيَ أَرَاكَ**]. وأسْكَنَهَا باقي القرّاءُ العشرة.

(٧٩) • فتح نافع، وابْنُ عامر، وحفْص، وأبو جعفر ياء المتكلم في: [**وَجْهِيَ لِلَّذِي**].

وأسكنها باقي القرّاء العشرة.

(٨٠) • قرأ نافع، وابْنُ عامر بخُلْفٍ عَنْ هِشام وأبُو جعفر: [**أَتُحَاجُونِي**] بكسر النون دُون تَشْدِيد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالتَّشْدِيد: [**أَتُحَاجُّونِّي**] أصْلُهَا: «أَتُحَاجُّونَنِي» وهو الوجه الثاني لابن عامر برواية هشام.

(٨٠) • أثبت يَاء المتكلَّم في: [**وَقَدْ هَدَانِي**] يعقوبُ في الوصْلِ والوقف. وأثبتها أبو عمرو وأبو جَعْفَر في الوصل فقط.

ولم يُثْبِتْهَا باقِي القرّاء العشرة، وهي مُلَاحظَةٌ ذِهْناً تَدُلُّ عَلَيْهَا الكَسْرَة على النون.

(٨١) • قرأ ابْنُ كثير، وأبُو عمرو، ويَعْقُوبُ: [**مَا لَمْ يُنْزِلْ**] مِنْ فِعْل: «أَنْزَلَ».

وقرأها باقي الْقُرّاء العشرة: [**مَا لَمْ يُنَزِّلْ**] مِنْ فعل: «نَزَّلَ».

• والقراءتان متكافِئَتَان، فالمهْمُوزُ أخو المضعَّف.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْسِ مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الْأَوَّلِ مِنْ سَاقَيْ شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة، وفيها عَرْضُ لقطاتٍ مِنْ دَعْوَةِ إبراهيم عَلَيْه السلام الجدليّة لِقَوْمه، وهي في الحقيقة تتضَمَّنُ جدالاً لِكُلّ المشركين بأسْلُوب التَّعْرِيض، لا بأُسْلُوبِ المواجهة المباشرة.

وتتضَمَّنُ أيْضاً تعليماً جداليًّا للرسُولِ ﷺ، وللدُّعَاةِ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِه.

والمتأمِّلُ في جَدَلِيَّات إبراهيم عليه السَّلامُ لِقَوْمِهِ يُدْرِكُ مَا فيها مِنْ براعَةِ أسْلُوبٍ، وَقُوَّةِ حُجَّةٍ، وإعْلَانٍ صَرِيحٍ عَمَّا يُؤْمِنُ به، وإلْزَامٍ لَهُمْ بالحقّ.

قوم إبراهيم عليه السلام مِنَ الصَّابِئِين:

جاء عِنْدَ مُؤرّخِي أدْيَانِ الأمم، أَنَّ قَوْم إبراهيم عليه السلام كانُوا مِنَ الصَّابِئِينَ الَّذِينَ كانُوا يَتَوَهَّمُون أنَّ بعض الكواكب والنجوم لَهَا تأثيرُ رُبُوبيّةٍ في أحداثِ الأرض، فَيَتَّخِذُونَ أصْنَاماً عَلَىٰ هيئَاتٍ يتخَيَّلُونَهَا لها، ويَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ اللهِ، ولِهَـٰذَا كانَتْ دَعْوَةُ إبراهيمَ الجدلِيَّةُ ترتكزُ على إبطال رُبوبيَّةِ وإلَٰهِيَّةِ النُّجُومِ والكواكب، وبَيَانِ سُقُوطِ عبادَةِ الأصْنَامِ سقوطاً فِكْرِيًّا فَاحِشاً مَرْفُوضاً لَدَىٰ كُلّ أهْلِ الْعَقْلِ والرُّشد، وسَارَ في مُحَاجَّتِهِ لَهُمْ عَلَىٰ مَقَادِيرِ مَا يَفْهَمُونَ، وعلى مَقَادِير مَا لَدَيْهِمْ مِنْ مَوَازِينَ عَقْلِيَّةٍ مَقْبُولَةٍ لَدَيهم.

فَدَعَا أَبَاهُ إِلَىٰ نَبْذِ شِرْكِهِ الْقَائِم عَلَىٰ عِبَادِهِ الْأَصْنَام، وَوجَّهُ لَهُ اسْتِنْكَارَهُ الشَّدِيدَ في هَـٰذِهِ الدَّعْوَة، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ تَلَطَّفَ بِهِ فِي دَعْوَةٍ سَابِقَةٍ جَاءَ بِيَانُهَا في الآيات من (٤١ ـ ٤٨) من سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُها.

وَتَدَرَّجَ مَعَ قَوْمِهِ في إسْقَاطِ رُبُوبِيَّةِ أَيِّ كَوْكَبٍ أَوْ نَجْمٍ في السّماء، وإسْقَاطِ إلَهِيَّتِهِ، وهُو يَتَحدَّثُ مَعَهُمْ بَاحِثاً عَنْ الرَّبِّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَعْبُدَهُ في كَوَاكِبِ السَّمَاءِ وَنُجُومِهَا، وبَعْدَ أَنْ أدْرَكَ عَدَمَ صَلاحِيَّةِ أَيِّ كَوْكَبٍ أَوْ نَجْمٍ لِأَنْ يَكُونَ هُوَ الرَّبَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، أَعْلَنَ إيمانَهُ بِالْفَاطِرِ الْغَيْبِيِّ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَلَا تُحِسُّ بذاتِهِ الْحَواسُّ، الَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والْأَرْضَ، والَّذِي لَا يُشَارِكُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ شَيْءٌ، فَلَا يُشَارِكُهُ في إلهِيَّتِهِ شَيءٌ، وأعْلَنَ انْعِطَافَهُ عَنِ اعْوِجَاجِ قَوْمِهِ عَنِ الحقّ، وَبِذَلك يَسْتَقِيمُ عَلَىٰ صراط الله، وأَعْلَنَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ المشْرِكِينَ.

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ فيما تَوصَّلَ إِلَيْهِ مِنْ إيمانٍ بالحقّ الذي أَعْلَنَهُ لهم، وخَوَّفُوهُ مِنَ الضَّرَرِ الَّذِي سَتُنْزِلُهُ بِهِ آلِهَتُهُمُ الَّتِي أعْلَنَ كُفْرَهُ بها، فقَالَ لهم: أَتُحَاجُّونَنِي بِبَاطِلِكُمْ في اللهِ الحقِّ الَّذِي هَدَانِي بالدّليل البرهانيّ الَّذِي لَا رَبَّ في الْوُجُودِ غَيْرُه، فلا إلَه في الوجود سواه، فأنَا مُسْتَمْسِكٌ بِمَا هَدَانِي إِلَيْهِ اللهُ.

وَلَا أَعْبَأُ لِمَا تُخَوِّفُونَنِي مِنْهُ، إذْ تَرَوْنَ أَنَّ آلِهَتَكُمْ سَتُنْزِلُ بِي ضُرّاً، لِأَنَّنِي كَفَرْتُ بأَنَّ لَهَا مُشَارَكَةً للهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ في إلَهِيَّتِهِ، وَإنَّنِي عَلَىٰ يَقِينٍ بأَنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئاً لَمْ يَشَأْهُ اللهُ، فَالْأَمْرُ فِي كُلِّ الكوْنِ أَمْرُهُ، والسُّلْطَانُ سُلْطَانُهُ.

وَتَعَجَّبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ تَخْوِيفِهِمْ لَهُ مِمَّا لَا يُخَافُ مِنْهُ، ومن عَدَمِ خَوْفِهِمْ هُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَقَدْ أَشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً، وقال لهم: فأيُّ الْفَرِيقَيْنِ أحَقُّ بالأَمْنِ؟ وشَرحَ لَهُمْ بِأَنَّ الْأَمْنَ إنَّمَا يَسْتَحِقُّهُ الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ رَبِّهِمْ، ولم يَخْلِطُوا إيمَانَهُمْ بِشِرْكٍ به، وأبانَ لَهُمْ أَنَّ هٰؤلَاءِ هُمُ المهْتَدُون.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تعالَىٰ:

● ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٧٤﴾:

ءازرَ: ظَاهِرُ الآيَةِ أنَّ اسْمَ أَبِي إبْرَهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام لفظ «آزَرَ» ويَبْدُو أَنَّهُ كَانَ هُوَ المعْرُوف عِنْدَ الْعَرب، وَجَاءَ في كُتُب الْإِسْرَائِيلِيّين أَنَّ اسْمَ أَبِيهِ «تَارَح».

وَأَقْرَبُ احْتِمَالَاتِ الْجَمْعِ أَنَّ أَصْلَ اسْمِهِ: «تَارَح» ولُقِّبَ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَفْظِ «ءَازَر» ولَمَّا دَعَا إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَاهُ بما جَاءَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ، كَانَ اللَّفْظُ المشْهُورُ بِهِ بَيْنَ عَشِيرَتِهِ هو لفظ «ءَازَر» فاخْتَارَ اللهُ ذِكْرَهُ بِذَلك، ويُؤَيِّدُ هَـٰذَا الْفَهْمُ قراءة يَعْقُوبَ: «ءَازَرُ» بِضَمِّ الرَّاء، على أَنَّهُ مُنَادَىٰ مُفردٌ عَلَمٌ.

ولا دَلِيلَ عَلَىٰ أَنَّ أَبَا الرَّسُولِ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ كَافراً، لَكِنْ كَرَّمَ الرُّسُلَ فيمَا يَظْهَرُ عَنْ أَنْ يَكُونُوا أَبْنَاءَ سِفَاح.

والاسْتِفْهَامُ في قَوْلِ إبْرَاهِيم عَليه السَّلَامُ لأبِيهِ: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؟! اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ فِيهِ شِدَّةٌ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بِدَايَةِ دَعْوَتِهِ لِأَبيهِ، بَلْ سَبَقَتْهُ دَعْوَةٌ مُشْبَعَةٌ بالتَّلَطُّفِ والتَّحَبُّبِ وخَفْضِ الجناح، جاء بيانُها في سورة (مريم/ ٤٤ نزول) في الآيات من (٤١ ـ ٤٨).

أصْنَام: جمع «صَنَم» وَهو تمثَالُ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ خَشَبٍ، أو مَعْدِنٍ، أو نحو ذلك، علَى صُورَةِ إنسانٍ، أَوْ حَيوانٍ، أو مَا يَتَوَهَّمُ المشْرِكُونَ أَنَّهُ صُورَةُ مَا يُؤَلِّهُونَ مِنْ نُجومٍ وَكواكب، أو مَلَائِكَةٍ أو جِنّ، أَوْ غَيْرِ ذلِكَ.

فالمعنى: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقّي لآيَاتِ الْقُرآنِ المجيد، ما

أبَانَهُ إبراهِيمُ لِأَبيه، إذْ قَالَ له: أتَصْنَعُ أصْنَاماً بِيَدَيْكَ مُتَّخِذاً إيَاهَا آلِهَةً تَعْبُدُهَا أَنْتَ وَقَوْمُكَ مِنْ دُونِ الله، وتَجْعَلُونَهَا شُرَكَاءَ للهِ فِي إِلَهِيَّتِهِ؟!!

إنَّ هَـٰذَا الْأَمْرُ مُسْتَنْكَرٌ جِدًّا، وَمُنَافٍ لموازينِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ مِنَ الْخَلَلِ، المجافِيَةِ لِمزَالِقِ الزَّلَل.

إنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ المشرِكِينَ عُبَّادَ الْأَوْثَانِ تَائِهِينَ في ضَلَالٍ وضَياع مُبِينٍ وَاضِحٍ، لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ صحيح، ونَظَرٍ سليم.

الضَّلَال هُنَا: الضَّيَاعُ في المتاهَات، والمهالِك، والأعْمَالِ الْبَاطِلَة، وهُوَ يُوصِلُ الضَّالِّين إلى الْخُلُودِ في عذاب النار يوْمَ القيامة، لِأَنَّهُ ضَلَالٌ مِنْ دَرَكَةِ الكُفر.

مُبين: اسم فاعل من فعل: «أَبَانَ» اللّازم بمعَنَىٰ ظَهَرَ واتَّضَحَ.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

مَلْكُوت: صِيغَةٌ مِنَ الْمِلْكِ، وهي مَصْدَرٌ للدَّلَالَةِ على التَّعْظِيم والتفخيم، **والْمِلْكُ:** يَسْتَلْزِم السُّلْطَانَ والْعِزَّةَ والْقُدْرَةَ عَلَىٰ التَّصرُّفِ الكامل، ولصاحِبِهِ الْأَمْرُ والنَّهْيُ. وجاء على هَـٰذِهِ الصيغَة أَلْفاظ، مِنْها: رَهَبُوت، من الرَّهْبة. ورَحَمُوت، من الرَّحْمة. ورَغَبُوت، من الرغبة. وجَبَرُوت من الْجَبْر. وفِيها معنَىٰ كَمَالِ مَا تَدُلُّ عَلَيْه. ولا يُقَاسُ عليها.

الْمُوقِنُ: الْعَالِمُ بالشَّيْءِ عِلْماً لَا شَكَّ فِيهِ، وأدْنَىٰ مَرَاتِبِهِ ما اعْتَمَدَ عَلَىٰ أدِلَّةٍ نَظَرِيَّةٍ، أو خَبَرِيَّةٍ صَادِقَةٍ لَا يَعْتَرِيها شَكٌّ.

فالمعنى: وَكَذَلِكَ الْفَهْم الَّذِي فَهَّمْنَاهُ إبْرَاهِيمَ بِشَأْنِ بُطْلَانِ عبادَة الْأَصْنَام، وَأَنَّ عَابِدِيها في ضَلَالٍ مُبِينٍ، كُنَّا نُرِي بِتَتَابُعٍ مُتَجَدِّدٍ إبراهيمَ مِلْكَنَا الْعَظِيمَ لِكُلِّ عَنَاصِرِ وأجْزَاءِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وسُلْطَانَنَا وعِزَّتَنا

وَقُدْرَتَنا عَلَىٰ التَّصرُّفِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فيهما، لِيَكُونَ ذَا حُجَجٍ بُرْهَانِيَّة، يُثْبِتُ بِهَا أَنَّهُ لَا رُبُوبِيَّةَ في الكَوْنِ إلَّا لَنَا، وَلَا إِلٰهِيَّةَ فِي الكَوْنِ بحقٍّ إلَّا لَنَا، وَلِيَكُونَ هُوَ فِي ذَاتِهِ مِنَ الْمُوقِنِينَ بِذَلِكَ، العالِمِينَ عِلْماً لَا يُخَالِطُهُ وَلَا يَمَسُّهُ شَكٌّ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَـٰذِهِ الإرَاءَةَ لإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ كَانَتْ إِرَاءَةً فِكْرِيَّةً عِلْمِيَّةً نَظَرِيَّةً، وَلَيْسَتْ إرَاءَةً بَصرِيَّة، وهَـٰذِهِ الإراءَةُ الْعِلْمِيَّة كَشَفَتْ له أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الكَوْنِ خَاضِعٌ لِمِلْكِ اللهِ وسُلْطَانِهِ وَعِزَّتِهِ وَجَبَرُوته ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فلا رُبوبيَّةَ لِشَيْءٍ في الْكَوْنِ إلَّا للهِ، وَلَا إِلٰهِيَّةَ لِشَيْءٍ في الْكَوْنِ إلَّا للهِ.

تَدرُّج إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام لإِبطَالِ عِبادَةِ الكَوَاكِبِ والنجومِ في دَعْوَتِهِ:

■ قول الله تَعالى مُحدِّثاً عَنْ أَسْلُوبِ إِبْرَاهِيمَ في دعوته:

• ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾:

• ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾: أي: فَحِينَما أظْلَمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اللَّيْل. «جَنَّ اللَّيْلُ يَجُنُّ، جَنًّا، وجِنًّا» أي: أَظْلَم.

• ﴿رَءَا كَوْكَبًاۖ﴾: يَظْهرُ أَنَّهُ رَأَىٰ كَوْكَباً يَعْتَقِدُ قَوْمُهُ أَنَّ لَهُ رُبُوبِيَّةً مَا، فَيَعْبُدُونَهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَيَتَّخِذُونَ لَهُ صُورَةً مِنَ الأَوْثَانِ يَعْبُدُونها.

• ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾: أي: قَالَ عَلَىٰ سَبِيلِ الطَّرْحِ الاحْتِمَالِي، لَا عَلَىٰ سَبِيلِ الاعْتِقَادِ الجازِم: هذا خَالِقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَرَبُّهُمَا، فَهُوَ رَبِّي المهَيْمِنُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَيَّ وَعَلَىٰ سَائِرِ الكَوْن، فإذَا ثَبَتَتْ رُبُوبِيَّتُه، وَجَبَتْ عَلَيَّ عِبادَتُه.

• ﴿... فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾: أي: فَحِينَما غَابَ النَّجْمُ الَّذِي طَرَحَ احْتِمَالَ كَوْنِهِ رَبًّا، قَالَ: لَا أُحِبُّ اتِّخَاذَ رَبٍّ هُوَ مِنَ

الْآفِلِينَ، الَّذِينَ يَظْهَرُونَ وَيَغِيبُونَ، ولَا أُحِبُّ عِبَادَةَ أَحَدٍ مِنْهم.

ذَكَرَهُمْ بِجَمْعِ الْعُقَلَاءِ، مُرَاعَاةً لِاعْتِقَادِ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، بأَنَّ آلِهَتَهُمْ أَرْبَابٌ عَالِمَةٌ حَيَّةٌ، تَتَصَرَّفُ بِأَحْدَاثٍ مَا في النّاس، وفي سَائِرِ الْأَحْدَاثِ في الْأَرْضِ.

يُقَالُ لغة: «أَفَلَ النَّجم، يَأْفِلُ، أَفْلاً، وأُفُولاً» أي: غابَ، فهو «آفِلٌ».

قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَلِيلاً عَلَىٰ عَدَم صِحَّةِ كَوْنِ شَيْءٍ مَا رَبًّا، أَنْ يَتَعَرَّضَ بَعْدَ ظُهُورِهِ ومُشَاهَدَتِهِ لِلْأُفُول، وإِذَا لَم تَكُنْ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ فَلَا تَكُونُ لَهُ إِلَهِيَّةٌ بِوَجْهٍ مِنَ الوجُوهِ، إِلَّا أَنْ يَأمُرَ الرَّبُّ الحقُّ بِعِبَادَتِهِ، وَهَٰذَا لَمْ يَكُنْ في رِسَالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ صَحِيحَةٍ.

وأَفْهَمُ من اسْتِدلال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام أَنَّه يقولُ لِقَوْمِهِ: إِنَّ مَنْ يَحْضُرُ فَيُرَىٰ ويَغِيبُ فَلَا يُرَىٰ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ حُضُورُهُ وغيابُهُ بإِرَادَتِه، وإِمَّا أَنْ يَكُونَا بِغَيْرِ إِرَادَتِه.

فإِذَا كَانَا بِإِرَادَتِهِ، فَهُوَ إِنَّمَا يَحْضُرُ لِيُصَرِّفَ أَحْوَالَ مَرْبُوبِيهِ ذَوِي الحاجَةِ الدَّائِمَةِ لِرُبُوبِيَّتِهِ، لَكِنَّهُ إِذَا غَابَ لَمْ يَكُنْ لِمَرْبُوبِيهِ حَظٌّ مِنْ تَصَارِيف رُبُوبِيَّتِهِ، فَيَفْسُدُ بِذَلِكَ نِظَامُ الْخَلْق. فَدَلَّ هَٰذَا عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي يَغِيبُ بَعْدَ حُضُورٍ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ رَبًّا، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ إِلَهاً مَعْبُوداً، وَلِهذَا فَأَنَا لَا أُحِبُّ أَنْ أَتَّخِذَ لِنَفْسِي رَبًّا إِلَهاً لَا يَصْلُحُ لِلرُّبُوبِيَّةِ وَلَا لِلْإِلَهِيَّة.

وَإِذَا كَانَ حُضُورُهُ وغِيَابِهِ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ فَهُوَ بِالْبَدَاهَةِ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ رَبًّا وَلَا إِلَهاً، وَهَٰذَا هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ نِظَامُ الكَوَاكِبِ والنُّجُوم فِي السَّمَاءِ، إِنَّها جَمِيعاً تَحْضُرُ وَتَغِيبُ بِغَيْرِ إرادَتها، فَهِيَ مَرْبُوبَةٌ لِرَبٍّ واحِدٍ يَخْضَعُ لِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ كُلُّ مَوْجُودٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْض.

هَٰذَا الدَّلِيلُ نَفْسُه اسْتَخْدَمَهُ إبراهيم عَلَيْه السَّلام مع قَوْمِهِ، حِينَ انْتَقَلَ

بِهِمْ إِلَىٰ رُؤْيَةِ الْقَمَرِ الْبَازِغِ، فَرُؤْيَةِ الشَّمْسِ البازغة، لِأَنَّهُم كانُوا يَعْبُدُونَهُما، مُعْتَقِدِينَ أَنَّ لَهُمَا رُبُوبِيَّةً ذَاتَ تَأْثِيرٍ في النَّاسِ وفي الأرض.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾:

الْبَازِغ: الَّذي بَدَأ طُلُوعُه، يُقَالُ لغة: «بَزَغَ الْقَمَرُ، وَبَزَغَتِ الشَّمْسُ» أيْ: بَدأ طُلُوعُهما.

• ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أيْ: فحِينَما غَابَ الْقَمر، قَالَ مِثْلَما قَالَ حينما غابَ الكَوْكَبُ الَّذِي رَآهُ في لَيْلَةٍ سَابِقَةٍ، وأَتْبَعَ هَٰذَا بِقَوْلِهِ: لَئِنْ لَمْ يَهْدِني رَبِّي إلَىٰ الحقيقَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ أُؤمِنَ بها، لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ الضَّائِعِينَ عَنْ إِدْرَاكِ الحَقِّ بِشَأْنِ الرَّبِّ الَّذِي يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُؤمِنَ بِهِ، وأَنْ أَعْبُدَهُ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ أَحداً وَلَا شيئاً، وهو عَلَيْهِ السَّلامُ يُرِيهِمْ أسْلُوبَ التدرُّجِ في مُتابعةِ الإستدلال.

• ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾: أي: فَحِينَما غَابَتِ الشَّمْسُ أَعْلَمَ قَوْمَهُ بأَنَّ كُلَّ مَعْبُودَاتِهِمْ مِنَ الْكَوَاكِب والنُّجُوم ومِنْها الْقَمَرُ والشَّمْسُ، لَا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ رَبًّا وَلَا إِلَهاً، وقَالَ لَهُمْ: يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَهُمْ شُرَكَاءَ للهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ.

وأعْلَنَ لَهُمْ إيمَانَهُ بِفَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وَتَوَجُّه وَجْهِهِ لِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَه، فَقَالَ لَهُمْ مَا جَاءَ بَيَانُهُ في الآية التالية:

■ قول الله تَعَالَىٰ حِكَايَةً لِمَا أَعْلَنَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السّلام لِقَوْمِهِ:

• ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

أي: أُؤَكِّدُ لَكُمْ أَنِّي جَعَلْتُ وَجْهِي فِي إِيمَانِي وعِبَادَتِي للهِ الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ كُلَّهَا وَفَطَرَ الأَرْضَ، حَالَةَ كَوْنِي مَائِلاً عَنْ كُلِّ انْحِرَافَاتِ المشْرِكِينَ، إلى الالْتِزَام بِصِرَاطِ الحقِّ الْمُسْتَقِيم الْقَائِمِ عَلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ، وأقولُ لَكُمْ: مَا أَنَا مِنَ المشْرِكِينَ.

﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: أي: أَوْجَدَهُمَا وَخَلَقَهُمَا عَلَىٰ نِظَام الْفَطْرِ والشَّقّ والْفَلْقِ، لِأَنَّ نُقْطَةَ الْعُمْقِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ هِيَ الْعَدَم. واللهُ هُوَ الخالِقُ الموجِدُ مِنَ الْعَدَم بأَمْرِ التَّكْوِين.

الحنِيفُ: في اللُّغَةِ هو المائل، ولمَّا كَانَتِ الأدْيَانُ مُعْظَمُها بَاطِلَةً، كَانَ المَيْلُ عَنْها جَمِيعاً استقامَةً عَلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، ذي الصراط المستقيم، إذْ كُلُّ الأدْيانِ والمِلَلِ الباطِلَةِ مَائِلَاتٌ إلى جهاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ، وهي مَائِلَاتٌ السَّاحَاتِ اللَّوَاتِي لَيْسَتْ عَلَىٰ صِراطِ اللهِ المستقيم، فالميْلُ عَنْهَا جَمِيعاً لَا يَكُونُ إلَّا بِالاسْتِقَامَةِ على صراط اللهِ إيماناً وَعَمَلاً، وسلوكاً ظاهراً وباطناً.

وبَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومِهِ إيمانَهُ باللهِ رَبِّهِ رَبِّ العالمين، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِه، جَعَلَ قَوْمُهُ الَّذِينَ حَضَرُوا مَرَاحِلَ بَحْثِهِ، الَّتِي تَوَصَّلَ بِهَا إِلَىٰ إِبْطَالِ أَرْبَابِ قَوْمِهِ وَآلِهَتِهِمْ، وَإيمانِهِ بالَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ الرَّبِّ غَيْرِ المنْظُورِ في الْأَكْوَانِ، وَإِعلانِهِ تَوْجِيهَ وَجْهِهِ لَهُ فِي إيمانِهِ وإسْلَامِهِ وعبادته، بَدَأَ الْمُجَادِلُونَ مِنْ قَوْمِهِ يُجَادِلُونَهُ وَيُحَاجُّونَهُ رَغْبَةً فِي إِثْبَاتِ صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا مَا جَاءَ في الآيات الباقيات من هذا الدَّرْس، وهي من (٨٠ ـ ٨٢).

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَحَاجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ ... ﴿٨٠﴾﴾:

الْمُحَاجَّة: المجادلَة، يُقَالُ لغة: «حَاجَّهُ، يُحَاجُّهُ، مُحَاجَّةً، وحِجَاجاً» أي: جَادَلَهُ.

فقال لهم إبراهيم عليه السَّلامُ: أَتُحَاجُّونِّي في اللهِ الَّذِي تُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ بِهِ، ولكِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ به سُلْطاناً، وَقَدْ هَدَانِي بالدَّلِيلِ الْبُرْهَانِي إِلَىٰ أَنَّهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا في إِلَهِيَّتِهِ؟!!

إِنَّ مُحَاجَّتَكُمْ لَا تَعْتَمِدُ عَلَىٰ أدِلَّةٍ صَحِيحَةٍ مَقْبُولَةٍ في مَوازِينِ الْعَقْلِ السَّلِيمِ.

فَلَجَؤُوا إِلَىٰ تَخْوِيفِهِ مِنْ آلِهَتِهِمْ أَنْ يُنْزِلُوا بِهِ ضُرّاً، فَقَالَ لهم:

• ﴿... وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾:

أي: ومَهْمَا خَوَّفْتُمُونِي بِضُرٍّ يأتِينِي مِنْ آلِهَتِكُمْ، الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ للهِ فِي رُبُوبيَّتِهِ وَفِي إِلَهِيَّتِهِ، فَإِنَّنِي لا أخَافُ أَنْ يَأْتِيَنِي ضُرٌّ أَوْ أَذىً مِنْ جِهَتِهَا، إِنَّهُ لا يَأْتِينِي ضُرٌّ وَلَا أذىً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبِّي شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، وَمَشِيئَتُهُ لا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، وَحِكْمَتُهُ يَخْتَارُ بها مِنَ الاحْتِمالَاتِ مَا هُوَ الأَحْكَمُ، وَقَدْ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شيءٍ عِلْماً فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ أمْرٌ.

• ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: أفَلَا يُؤَثِّرُ فِيكُمْ هٰذَا التذكِيرُ لَكُم بِالْحَقِّ الْمَوْجُودِ في أعْمَاقِ قُلُوبِكُمْ عَنِ اللهِ رَبِّكُمْ، فَيَدْفَعكُمْ إِلَىٰ نَبْذِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ شِرْكٍ، وَإِلَىٰ الْبُعْدِ عَنْ كُلِّ مُجَادَلَةٍ بالْبَاطِلِ، ويُحَرِّضكُمْ عَلَىٰ الإِيمَانِ باللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ لَا ضَارَّ في الْوُجُودِ وَلَا نَافِعَ إِلَّا هُوَ.

وَبَعْدَ أَنْ وَصَلَ إِبْراهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام مَعَ مُجَادِلِيهِ مِنْ قَوْمِهِ إِلَىٰ هَٰذِهِ المحَطَّةِ مِنَ المناظَرَةِ الإِقْنَاعِيَّة، قالَ لَهُمْ مُتعَجِّباً مِنْ تَخْوِيفهم لَهُ مِنْ ضُرٍّ

يأْتِيهِ مِنْ آلِهَتِهِم الْبَاطِلَةِ، مَعَ عَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ الَّذِي أشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً، وَقَدْ أَعْتَدَ لِمَنْ يُشْرِكُ بِهِ خُلوداً فِي عَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّين:

• ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ... ﴿٨١﴾﴾:

أي: وَفي أيَّةِ حَالَةٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَخَافُ ضُرّاً أَوْ أذىً يَأْتِينِي مِنْ قِبَلِ أَرْبَابٍ وآلِهَةٍ جَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ للهِ زُوراً وكَذِباً، وَهِي لَا حَقِيقَةَ لَهَا، وَأَنْتُمْ لَا تَخَافُونَ عَذَابَ اللهِ رَبِّكُمْ الَّذِي جَعَلْتُمْ لَهُ شُرَكَاءَ، دُونَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْكُمْ حُجَّةً تَحْتَجُّونَ بِها عِنْدَه، حِينَما يُحَاسِبُكُمْ عَلَىٰ مَا قَدَّمْتُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانِكُمْ.

وَبَعْدَ هَـٰذَا الاستفهامِ التعجُّبِيِّ مِنْ أَمْرِهِمْ، قَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿... فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: أخْبِرُونِي يَا قَوْم: أيُّ الْفَرِيقَيْن، أَنَا أَمْ أَنْتُمْ، أَكْثَرُ اسْتِحْقَاقاً لِلظَّفَرِ بالْأَمْنِ، إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ من الأحقُّ بالأمْنِ، أوْ كُنْتُمْ حَرِيصِينَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمُوا الْحقَّ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ بَاطِلِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ مُنْغَمِسُونَ فِيه.

وَأَخِيراً أَبَانَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ أنَّ الَّذِينَ لَهُمُ الْأَمْنُ بِفَضْلِ اللهِ رَبِّهِمْ، هُمُ الْمُهْتَدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَخْلِطُوا إيمانَهُمْ بِشِرْكٍ، فقالَ لَهُمْ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

• ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً باللهِ رَبِّهم ذَاتاً وصِفَاتٍ.

• ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾: أي: ولم يَخْلِطُوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ من دَرَكَةِ الكُفرِ، كالشِّرْكِ باللهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ فِي إلَهِيَّتِهِ، إذ الشِّرْكُ ظُلْمٌ عظيم، أَوْ مِنْ دَرَكَةِ الكَبائِرِ مِنَ الْإثم كَالْقَتْلِ بِغَيْرِ حَقّ.

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أَيْ: أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ رَفِيعُوا المَكَانَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ.
- ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾: أي: يَحْصُلُ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ الأَمْنُ مِنْ مَخَاوِفِ عَذَابِ النَّارِ، بِتَسْلِيمِ اللهِ لَهُمْ، وحِفْظِهِمْ ورِعَايَتِهِمْ وَمَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِم، وَزَحْزَحَتِهِمْ عَنْ النَّار. وإِدْخَالِهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيم.
- ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾: أي: وأُولَئِكَ هُمْ مُهْتَدُونَ، مَحْكُومٌ لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وتَنْتَهِي بهذا مَرْحَلَةٌ مِنْ مَرَاحِلِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ الدَّعَوِيَّةِ الجِدالِّيةِ لِأَبيهِ وَقَوْمِهِ.

وبهذا انتهى تدبر الدرس السابع عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.



(٢٢)
التدبر التحليلي للدَّرس الثامن عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٨٣ ـ ٩٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

القراءات:

(٨٣) • قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائِيّ، ويعقوبُ، وخَلَفٌ: [**دَرَجَاتٍ مَنْ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**دَرَجَاتِ مَنْ**] عَلَىٰ الإضافة، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ في التعبير.

(٨٥) • قرأ حفصٌ، وحَمْزَةُ، والكِسَائي، وخلَف: [**وَزَكَرِيَّا**].

وقرأهُ باقي القرّاء العشرة: [**وَزَكَرِيَّاءَ**].

(٨٦) • قرأ حمزَةُ، والكِسَائيُّ، وخَلَف: [**واللَّيْسَع**].

وقرأه باقي القراء العشرة: [والْيَسَعْ].

وهما نُطْقَانِ لهذا الاسم.

(٨٧) • قرأ قُنبل، ورُوَيس: [**سِرَاطٍ**] بالسين.

وقرأها خَلَف عن حمزة بالإشْمَام.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالصَّادِ الخالصة: [**صِرَاطٍ**].

(٨٩) • قرأ نافع: [**والنُّبُوءَةَ**]. وقرأها باقي القراء العشرة: [**والنُّبُوَّةَ**] وهُمَا نُطْقَانِ عَربيان للكلمة.

(٩٠) • قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وعاصم، وأبو جعفر: [**اقْتَدِهْ**] بإثبات هَاء السَّكْت في الْوَصْلِ والوقف، وكذلِكَ قرأها حَمْزَةُ، والكِسَائِي، ويعقوب، وخلف، وابْنُ عَامِرٍ في الوقف فقط.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخَلَف: [**اقْتَدِ**] في الوصل.

وقرأها هِشَامُ: [اقْتَدِهِ] في الوصل بكسرةٍ للهاء، دون إشباعٍ لمدّ الهاء.

وقرأها ابن ذَكْوَان مثل هشام في الوصْل مع إشباعِ كَسْرَةِ الهاء.

تَمْهيد:

آيات هذا الدَّرْسِ من فُرُوع السَّاق الأوّل من سَاقَيْ شَجَرَة مَوْضُوع السُّورَة أيضاً، وفيها بيانٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الثناء على إبراهيم عليه السَّلام، ومَا آتاهُ مِنْ حُجَجٍ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي نَفْي الشِّرْكِ وإثباتِ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ.

وفيها ثناءٌ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مع بيانِ أَنَّ اللهَ تَعَالى آتاهُمُ الكِتَابَ والْحُكْمَ والنُّبُوَّة، ومع إضافاتٍ مُلائمات في الأثناء.

وفيها خِتَامٌ بتَوْجِيهٍ للرَّسُولِ محمّد ﷺ أَنْ يَقْتَدِيَ بهم، وأَنْ يَقُولَ لِلْمُعْرِضِينَ عَنْ دَعْوَتِهِ: لَا أَسْأَلُكُمْ على تَعْلِيمِكُمْ كِتابَ رَبِّكُمْ أجراً، فَهُوَ لَيْسَ لَكُمْ وَحْدَكُمْ، إنْ هُو إلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ جَمِيعاً مِنَ الإنْسِ والجنّ.

هذا الدَّرس قَدْ كانَ مِنَ المقْبُول اعْتِبَارُهُ تَابعاً للدَّرْسِ السابع عشر، إلَّا أنِّي آثَرْتُ اعْتِبَارَه دَرْساً مُنْفَصِلاً، لئلا يطولَ الدّرْسُ السَّابع عشر، وَلِأَنَّ مَضْمُونَ هَـٰذِهِ مُنْفَصِلٌ عَنْ جَدَلِيَّاتِ إبراهيم عليه السَّلامُ وَدَعْوَتِهِ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ:

● ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾:

أي: وتِلْك الْحُجَّةُ الَّتِي دَعَا بِهَا إبراهيمُ أَبَاهُ وقَوْمَهُ، وظَهَرَ بِهَا عَلَىٰ قَوْمِهِ وَعَلَىٰ حُجَجِهِم الَّتِي جَادَلُوهُ بِها ظُهُورَ الغالِبِ المنتصر، وَلَوْ عَانَدُوا وأَصَرُّوا عَلَىٰ بَاطِلِهِم، هِيَ حُجَّتُنَا أَلْهَمْنَاهُ أَنْ يَحْتَجَّ بها، وفَهَّمْنَاهُ مَوَازِينَها الْفِكْرِيَّة، وطَرَائِقَ الاحْتِجَاجِ بها.

وفِي قَيْدِ: ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ إشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهَا فِي حُدُودِ مَعَارِفِ قَوْمِهِ، وَمَا كَانَ لَدَيْهِمْ مِنْ عِلْمٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَفَادَ مِنْهُ للاحْتِجَاجِ بِهِ عَلَيْهِم.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: أي: نَرْفَعُ بِحُكْمِنَا الْمَبْنِيِّ عَلَىٰ عِلْمِنَا الشَّامِلِ، بِعِبَادِنَا وَمُكْتَسَبَاتِهِم الإِرَادِيَّاتِ الْفَاضِلَات، دَرَجَاتٍ مُلَائِمَاتٍ لِوَاقِعِ حَالِ ارْتِفاعِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُم، وَمَشيئَتُنَا لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَنَا.

وفِي القراءة الأُخْرَىٰ: [**نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ**]: أي: نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ رَفْعَ دَرَجَاتِه، في الدنيا وفي الآخرة وَمَشِيئَتُنَا لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَنَا، فَمَنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ بِفَضْلِنَا أَنْ نَرْفَعَ دَرَجَاتِهِ إلى مُسْتَوىً مَا، رَفَعْنَا دَرَجَاتِهِ على وَفْقِ مُقْتَضَيَاتِ حِكْمَتِنَا.

فَمُؤَدَّىٰ الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِدٌ، وهُمَا مِنَ التَّفَنُّنِ في التعبير.

• ﴿... إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾: أي: إنَّ رَبَّكَ أَيُّهَا المتلَقِّي حَكِيمٌ فِي عطائِهِ وَمَنْعِهِ لِعِبادِهِ، عَلِيمٌ بِهِمْ عِلْماً شامِلاً، فهو يَخْتَارُ بِمَشِيئَتِهِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُه، ومِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ رَفَعَ إِبْرَاهِيمَ دَرَجاتٍ عِلْمِيَّة، وَدَرَجَاتٍ في إِقَامَةِ الْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ، بِحَسَبِ مُقْتَضَىٰ حَالِ قومه ومُسْتَواهم المعْرِفيّ.

■ قول الله تَعالَىٰ:

• ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾:

جاء في هَـٰذِهِ الآيَاتِ ذِكْرُ (١٧) نَبِيًّا رَسُولاً، كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، وأُوجِزُ الْحَدِيثَ عَنْهُمْ فيما يلي:

(١) إسْحَاق عليه السَّلام:

هو إسْحَاقُ بْنُ إبراهيم عليهما السَّلام، ومعناه بالعِبْرِية «يَضْحَك» وأمُّه «سَارَة» وَلَمَّا وُلِدَ كان أَبُوه قَدْ بلَغَ مِن العمر (١٠٠) سنة، وكانت أمُّهُ قَدْ بَلَغَتْ مِن العمر (٩٠) سنة، وقد كانت عاقراً فَبَشَّرَهُمَا اللهُ به، وأصْلَحها فَجعَلَها قابِلَةً لِلْحَمْلِ بِهِ وهي عَجُوزٌ عَقِيم.

وَيَتَرَجَّحُ أَنَّهُ كان رَسُولاً في أَرْضِ الكنْعَانِيّين «بلاد الشام في فلسطين»، وعَاش إسحاقُ عَلَيْهِ السَّلام (١٨٠) سنة، ومات في أَرْض الكنْعَانِيّين، ودُفِنَ في الْخَلِيل «حَبْرُون» في المغارة الّتي دُفِنَ فيها أَبُوه إبراهيم عَلَيْهما السّلام.

(٢) يَعْقُوبُ عليه السلام (وهو إسرائيل):

هو يَعْقوب بْنُ إسْحَاقَ بْنِ إبراهيم عليهم السّلام. ومعنى لفظ «يعقوب» بالْعِبْرِيَّة: «يَعْقُبُ ـ يُمْسِكُ الْعَقِب ـ يَحُلُّ مَحَلَّ».

أُمُّه «رِفْقة» بنْت «بتُوئِيل» بْنِ نَاحُور (أخي إبراهيم عليه السَّلام) بن «آزر = تَارَح».

وسَمَّاه الله عزَّ وجلَّ بعد ذلك «إسرائيل» ومعناه بالعبرية «يُجَاهِدُ مَعَ اللهِ». وهو أَبُو الأسْبَاط الاثْنَي عشر، وإلَيْهِ يُنْسَبُ شَعْبُ بَنِي إسْرَائيل.

ذكر المؤرّخون أَنَّهُ وُلِدَ في مَهْجَرِ الأسْرَةِ الإبْراهِيميَّة في أَرْض الكَنْعَانيين «فِلِسْطِين»، وشَبَّ في كَنَفِ أبيهِ إسْحَاق، ثُمَّ سَافَرَ إلى خاله «لابان بْن بَتُوئيل بن نَاحور» المقيم في «فدان آرام» من أَرْض بابل، وأقام عنده.

وكان عُمره حين توفَّاهُ الله في مصر (١٤٧) سنة، وكان قد أوْصَىٰ يعقوب ابْنَه يوسُفَ أنْ يَدْفِنَهُ مع أبيه إسحاق، ففعل يوسُفُ ذَلِكَ، وسَارَ بِهِ إلى الشَّام، ودَفَنَهُ عِنْدَ أبِيهِ في المغارة بِحَبْرُون «مَدِينَة الْخَلِيل».

وقَدْ وَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هَـٰذَا النصّ الّذِي نتدبَّرُه إبراهيمَ وإسْحَاق ويَعْقُوبَ عَلَيْهِمُ السَّلام بقَوْلِهِ: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾: أي: كُلَّ واحِدٍ من هَـٰؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ هَدَيْنا.

«كُلًّا» حُذِفَ المضافُ إلَيْهِ، وعُوِّضَ عَنْهُ التَّنوِينُ الذي يُسَمَّىٰ تَنْوِينَ الْعِوَض. وهو مَفْعولٌ بِهِ مُقَدَّمٌ على فِعْلِ «هَدَيْنَا» وهذا التَّقْدِيمُ يُفِيد تَخْصِيصَهُمْ بِنَوْعٍ من الْهِدَايَةِ، امتازُوا بِهِ عَنْ غيرهم، ومِنْهُ الاصْطفَاءُ بِالنُّبُوَّة، وتَعْلِيمُهُمْ عُلُوماً دِينيَّةً، وعُلوماً هَادِيَةً إلى صِراطِ السَّعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ والْأُخْرَوِيَّةِ، لأنَّهُمْ مؤهَّلُونَ لِهذا الاصْطفاء.

(٣) نوح عليه السلام:

يذكر النَّسَّابون أنه: «نُوحٌ عليه السَّلام» بن لامل، بن مَتُوشَالح، بن «إدريس = أخْنُوخ عَلَيْه السلام» بن يارد، بن مَهْلَائيل، بن أَنُوش، بن «شِيث عليه السلام» بن «آدم عَلَيْهِ السلام» أبي البشر. واللهُ أعلم.

أرسَلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى قَوْمٍ فَسَد حَالُهُمْ، ونَسُوا أُصُول شَرِيعَةِ الله الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَىٰ رُسُلِهِ السَّابقين، وصَارُوا يَعْبُدُونَ الأوْثَان، وَأبان القرآن الكريم أنَّهُم اتَّخذُوا خَمْسَة أَوثانٍ يُعَظِّمُونَهَا ويَعْبُدونها هي: «وَدّ ـ سُواع ـ يَغُوث ـ يَعُوق ـ نَسْر».

وقد أَفْرَدْتُ كِتَاباً لِتَدَبُّر النُّصُوصِ القرآنيَّة الواردة بِشَأْنِ نوح وقَوْمِهِ في القرآن، بعنوان: «نوحٌ عليه السَّلام وقومه في القرآن المجيد» وظَهَرَ لِي أَنَّهَا مُتَكامِلَةٌ فيما بَيْنَها.

وجاء ذِكْرُ نوحٍ عليه السَّلام في هَـٰذَا النَّصِّ الذي نَتَدَبَّرُهُ بِقَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾: أي: وَكُلًّا مِنْ إبراهيمَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ هَدَينَا، وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ في تَارِيخِ الْأُمَم.

(٤) دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلام:

لفظ «داوود» اسم عِبْرِي معناه «مَحْبُوب». وذكَر الإسرائيليون نَسَبَهُ على الوجه التالي: «داود بن «يَسِّي = إيشا» بن عَوْبِيد، بن «بوعز = أفْصَان» بن سلمون، بن نَحْشُون، بن عَمِّينَا دَاب، بن إرَام، بن حَصْرون، بن فَارص، بنْ يَهُوذا، بن «يَعْقُوب = إسرائيل» عليه السَّلام.

وداود عليه السَّلام من الرُّسُل الَّذِين أرْسَلَهُمُ اللهُ إلى بني إسرائيل، وقد آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ والنبوَّة، وآتاهُ الزَّبُورَ كتاباً مُنَزَّلاً فيه أدْعِيَةٌ وابتهالَات.

وسبق في الملحق الثالث من ملاحق تدبّر سورة (ص/٣٨ نزول) تَدبُّر بقيةِ مَا جَاءَ في القرآن عن داود عليه السلام بنَظْرَة تكامُلِيَّة، مع ما جاء في السُّورَةِ مِنْ قِصَّتِهِ.

(٥) سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلام:

هو ابْنُ داوُد عليهما السلام، وقد آتاه اللهُ النُّبُوَّةَ والرِّسالَةَ والملْك مِثْلَ أبيه داود.

وسبق في سورة (ص/٣٨ نزول) تَدَبُّر مَا جَاء من قِصَّتِهِ فيها أَمَّا تَدَبُّرُ كُلِّ مَا جَاء في القرآن ممَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ عليه السَّلام، تَدَبُّراً تكامُلِيًّا فَيَتَطَلَّبُ دِرَاسَةً خَاصَّةً فِي مُلْحَقٍ أسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنِي عليه مُسْتَقبلاً.

(٦) أيُّوب عليه السَّلام:

كان أيُّوبُ عليه السَّلام رَجلاً من الرُّوم، ويتَّصِلُ نَسَبُهُ بعيص بن

إسْحَاق بن إبراهيم عليه السَّلام، وعيص هو أخو «يعقوب = إسرائيل» عليه السَّلام.

وأيوب عليه السَّلام كان نبيًّا ورسُولاً، فقد ذكره اللهُ عزَّ وجلَّ في عداد مجموعةٍ من الرَّسُلِ عليهم السلام.

وقد سبق لدى تَدَبُّر مَا جَاء من قِصَّتِهِ في سورة (ص/ ٣٨ نزول) في الآيات من (٤١ ـ ٤٤) بيانٌ كافٍ عمَّا جاء بشَأْنِهِ في القرآن الكريم، وعند المؤرّخين[١].

(٧) يوسُف عليه السَّلام:

قال رسولُ الله ﷺ بشَأْنه:

«الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الكرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إسْحَاقَ بْنِ إبْرَاهِيم».

وقد ذكَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في عدادِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ، عَلَيْهِم السّلام.

وسَبَقَ لَدَى تدبُّر سُورَةِ (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) بيانٌ كافٍ عنه.

(٨ و٩) مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام:

هما ابْنا عمران (عِمْرامْ بالْعِبْرِية) بْن قَاهَت (قَاهان) بن لاوي، بن يَعْقُوب، بن إسْحاق، ابْنِ إبراهيم خليل الرحْمٰن، على رُسُلِ اللهِ السّلام.

وقد سبق ذِكْرٌ لموسَىٰ وهَارُونَ وبيانات مُفَصَّلَاتٌ في عدة سُور، ومِنْها سورَة (طه/ ٤٥ نزول).

---

(١) انظر الصفحات من (٥٧٦ ـ ٥٨٦) من المجلد الثالث من هذا الكتاب.

وموسَىٰ عليه السَّلام من كِبَارِ أُولي العزم من الرُّسل.

وَجاء في النَّصِّ الذي نَتَدَبَّرُهُ من سورة (الأنعام) عَقِبَ ذِكْرِ دَاوُد، وسُلَيْمَانَ، وأَيُّوبَ، ويُوسُفَ، ومُوسَىٰ، وَهَارُونَ، قول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿... وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٤﴾: وَأَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا التعْقِيب يَنْسَحِبُ أيْضاً على الرُّسُلِ الّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ في هذا الدَّرس، وهم: إبراهيم، وإسْحَاقُ، ويعقُوبُ، ونُوح، ويَشْمَلُ أَيْضاً كُلَّ الْمُرْسَلِينَ، فهم جَمِيعاً مُحْسِنُونَ من أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَان.

فالمعنى: وَمِثْلَ ذَلِكَ الجزَاءِ الَّذِي مَنَنَّا بِهِ على هَـٰؤُلَاءِ المذْكُورِينَ من الرُّسُلِ، نَجْزِي سَائِرَ المحْسِنين، فَهَـٰذَا مِنْ سُنَنِ اللهِ في عباده.

وَلَمْ يُحَدَّدْ في النَّصِّ نَوْعُ الجزَاءِ، وَلَكِنْ قَدْ يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ فيه بِشَأْنِ إِبْرَاهِيمَ عليه السَّلام: ﴿... نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٣﴾: وَرَفْعُ الدَّرَجاتِ يَشْمَلُ كُلَّ عَطاءٍ فِيهِ تَفْضِيلٌ.

(١٠ و١١) زَكَرِيَّا ويَحْيَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلام:

سَبَقَ الحديثُ عَنْ زَكَرِيَّا وابْنِهِ يَحْيَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلام لَدَىٰ تَدَبُّرِ أَوَائِلِ سورة (مَرْيم/ ٤٤ نزول).

وهُمَا نبيَّان رَسُولَان من رُسُلِ بَنِي إِسْرَائِيل، وقد ذكرهما اللهُ عزَّ وجلَّ في عِدَادِ مَجْمُوعَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِم السلام، ولم يَذْكُرِ المؤرِّخُونَ لَهُمَا نَسَباً مُتَّصِلاً مَوْثُوقاً به، وَكَانَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلام ممَّن لَهُمْ شَرِكَةٌ في خِدْمَةِ الْهَيْكَل.

(١٢) عيسىٰ ابن مَرْيم عليه السلام:

هو آخر رُسُل بَنِي إسرائيل، وقد ذَكَرَهُ الله في عِدَادِ مجموعة الرسُل الَّذين قَصَّ عَلَيْنَا لَقَطَاتٍ مِنْ قَصَصِهِم عليهم السلام.

وقد سبق تَدَبُّر مَا جَاءَ عَنْهُ وَعَنْ أُمِّهِ في سورة (مريم/ ٤٤ نزول) في الآيات من (١٦ ـ ٣٧).

واسْمُه عند النصارى: «يَسُوَع» وهو اللّفظ العربي للاسم العِبْرِي «يَشُوع» ومعناه «يَهْوَه مخلّص» ولَقَبُه: «الْمَسِيح».

هو عيسى ابْنُ مريم ابنة عِمْران، ويتَّصِلُ نَسَبُ عمران بداود عليه السلام، فهو من سبط (يهوذا).

ودراسة كلّ مَا جاء في القرآن المجيد بشأن عيسىٰ عليه السَّلام يحتاج بَحْثاً مُسْتَقِلًّا، أَرْجُو أَنْ يُوَفِّقَنِي اللهُ لِذَلِكَ في تَدَبُّرٍ تكامُلِيّ.

(١٣) إلْياس عليه السَّلام:

ذَكَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ضِمْنَ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الْأَنْبياء والمرسَلِينَ. ولَمْ يتَّفق المؤرِّخون على نَسَبٍ منضبط له، وذكر الطبريُّ له النّسبَ التّالي: «هو إلياس بن يَاسِين بن فنحاص بن العيزار بن هارون» فهو على هذا من ذُرِّيَّة هارون عليه السلام، فهو من بني إسرائيل.

ويُسَمَّىٰ عِنْدَ الإسرائيليّين: «إِيلِيَّا» وهو اسم عِبْرِيّ معْنَاه: «إِلَهِي يَهْوَه» واسْمُهُ في اليونانية والعربيَّة «إلْيَاس» وله عند الإسرائيليّين عِدَّة أخبار.

وجاء في النّصِّ الّذِي نَتَدَبَّره عَقِبَ ذِكْرِ «زَكَرِيَّا، وَيَحْيَىٰ، وَعِيسَىٰ، وإلْيَاس» قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿... كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٨﴾﴾: وأَرَىٰ أَنَّ هَٰذَا التَّعْقِيبَ يَنْسَحِبُ أيضاً على كُلِّ الرُّسُلِ الّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ فِي هَٰذَا الدَّرْس، فَهُمْ مُحْسِنُونَ، والْمُحْسِنُونَ كُلُّهُمْ صَالِحُون.

(١٤) إِسْمَاعِيلُ عليه السَّلام:

هو ابْن إبراهيم عليهما السَّلام من قَرِينَته «هاجر» المصرية الَّتي أهداها فرعون مِصْر لزوجة إبراهيم «سَارَة» بَعْدَ أَنْ حَمَاهَا اللهُ منه بدعاء

إبراهيم عليه السلام، ثم أَهْدَتْهَا لَهُ فأنجب منها «إسماعيل» حين كان عمره (٨٦) سنة.

ومعنى «إسماعيل» بالعبرية «يَسْمَعُ الله» وجاء عند أبي البقاء أنّ معناه «مُطِيع اللهِ».

ويترجّح أنّ اللهُ عزَّ وجلَّ بَعَثَهُ رَسُولاً إلى القبائِلِ العربيَّةِ الَّتِي عاشَ عليه السَّلام في وَسطها، وذكر الْمُؤرخون أنَّ اللهَ أرْسَلَهُ إلَىٰ قبائِلِ الْيَمَنِ وإلى العماليق.

وقد قَصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآن جوانب من حَيَاتِهِ، مِنْهَا قِصَّةُ أَمْرِ اللهِ لأبِيهِ بأنْ يَذْبَحَهُ، فاسْتَجَابَا، وحِينَ بَاشَرَ بِذَبْحِهِ فَدَاهُ اللهُ بِذِبْحٍ عَظِيم، ومِنْهَا مُشَارَكَتُهُ لِأَبِيهِ إبْرَاهِيمَ عليهما السَّلام في رَفْعِ القواعِدِ من البيت.

(١٥) الْيَسَع = اللَّيْسَع عَلَيْه السلام:

واسْمُهُ عند الإسْرَائِيلِيِّين «أَلِيشَع» ومَعْنَاهُ بالْعِبْرَانيّة: «اللهُ خَلاص». وهو ابْنُ «شَافَاط» من سِبْط «يَسَّاكر» فهو من بني إسرائيل.

أقام في «آبل مَحولَة» في وَادِي الْأُرْدن، آمَن بالرَّسُول «إِلْيَاس = إيلِيًّا» واتَّبَعَهُ، وصَاحَبَهُ مُدَّة حَيَاتِهِ في الأرض، ثُمّ أرْسَلَهُ اللهُ من بَعْدِه في بني إسرائيل، فَدَعَاهُمْ إلى نَبْذِ عبادة الأصنام، وإلَىٰ الاسْتِمْسَاكِ بِعِبَادَةِ اللهِ وحْدَهُ، كما كان يَفْعَلُ «إلياس» عليهما السلام.

وذكر الإسرائِيلِيُّون عِدَّة خوارق عادات أَجْرَاها اللهُ له.

(١٦) يونس بن متَّىٰ عليه السَّلام:

اسْمُهُ عِنْدَ الإسرائيليّين «يُونَان» بن أَمِنَايَ، من سِبْط «زَبُولون» أَحَدِ أَوْلاد «يعقوب = إسرائيل» عليه السَّلام. وكَان مِنْ أَهَالِي «جت حافر» عَلَىٰ بُعْدِ ثَلاثَةِ أمْيَالٍ مِنَ النَّاصِرة. وعند المؤرخين العرب أَنَّ نسبه يتصل بِبَنْيَامِين.

أَرْسَلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إِلَىٰ أَهْلِ «نِينَوىٰ» وهي مدينة كبيرَةٌ كانت تَقَعُ علىٰ نَهْرِ دَجْلَةَ أَوْ قَرِيباً مِنْه، تُجاه مَدِينَةِ الموصل من أَرْأشور (في القِسْمِ الشَّمَالِي من العِرَاق الحديث) وكان عَدَدُ سُكَّانِها مائة أَلْفٍ أو يَزِيدُون.

قالُوا: وَكَانَتْ «نِينَوىٰ» عَاصِمَةَ الإِمْبَرَاطُورية الْأَشْورية.

قال المؤرخون: وكان لِأَهل «نينوىٰ» صَنَمٌ يَعْبُدونَه اسْمُه «عَشْتَار».

ويُوجَدُ سِفْرٌ عِنْدَ أَهْلِ الكِتَابِ بعنوان «يونان» من ثلاث صفحات ونِصْف، فيه قِصَّةُ إلقائه في الْبَحْر والْتِقَام الحوت له، لكِنْ فِيه أَنَّهُ عَصَىٰ ابْتداءً أَنْ يَذْهَبَ إِلَىٰ أَهْل «نينوى» كما أَمَرَهُ الرَّب، وأراد أَنْ يَهْرُبَ إِلَىٰ «تَرْشيش» من وَجْهِ الرَّب، وَهَـٰذَا مُخَالِفٌ لِمَا جَاءَ في القرآنِ عنه. ويظهر أَنَّ كاتِبَ السِّفْرِ كَتَبَهُ مِنَ الرِّوَايَاتِ الشَّائِعَةِ الْمُحَرَّفَةِ في زَمَانِه.

والقرآن هو الْمُهَيْمن المطابق للْحَقّ.

والَّذي يظهر أَنَّ رسالَتَهُ عَلَيْه السلام كانت خلال القرن الثامن قبل مِيلاد المسيح عيسَىٰ عَلَيْهِ السلام.

(١٧) لُوط عَلَيْه السلام:

هو لوط بن هارون بن تارَح «= آزر» بن ناحور، فهو ابْنُ أخِي إبراهيم عليه السَّلام، آمَنَ بِهِ وهَاجَرَ مَعَهُ من العراق، ثُمَّ أَرْسَلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى أَهْلِ «سَدُوم» وكانَتْ لَهُمْ خَمْسُ قُرىٰ، هي: «صَبْغَةُ ـ عَمْرَة ـ أَدْما ـ صَبُويم ـ بَالِع» وقَدْ قَلَبَ اللهُ بِلَادَهُمْ، وجَعَلَ عَالِيهَا سَافِلَها، فَهِي الآن في قاعِ الْبَحْرِ الميّت من أَرْضِ الشام.

وقد سبقت الدّراسة التَّكامُلِيَّة للنُّصُوصِ القرآنية الواردة في القرآن كُلِّهِ بِشَأْنِ لوط وقومه، في الملْحَقِ الخامس من مَلاحِقِ تَدَبّر سورة (الأَعْرَاف/ ٣٩ نزول)[١] مع ذِكْرِ جوانب مِنْ تاريخه.

---

(١) انظر الصفحات من (٢٧٩ ـ ٣٥١) من المجلد الخامس من هذا الكتاب.

وجاء في النّصّ الذي نَتَدَبَّرُهُ مِنْ سُورة (الأنعام) عَقِبَ ذِكْرِ: «إسْماعيل، والْيَسع، وَيُونُس، ولُوط» قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿... وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٦﴾: أي: وَكُلًّا فَضَّلْنا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ، إذْ وَجَدْنَاهُم مُسْتَحِقّينَ لهذا التفضيل، وهَٰذَا التفضيلُ يَنْسَحِبُ عَلَىٰ كُلِّ الرُّسُلِ الَّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ في هذا الدَّرْس، وعَلَىٰ سَائِرِ الرُّسُلِ إذْ هُمْ جَمِيعاً مُفَضَّلُون على العَالَمِين من غير المرسَلِين، فَقَدِ اصْطَفَاهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَة.

ولِحِكْمَةٍ مَا ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الرُّسُلَ السَّبْعَةَ عَشَرَ الَّذِينَ سَبَقَ الحديث عَنْهُمْ في هَٰذَا الدَّرْسِ مُقَسَّمِينَ إلَىٰ ثَلَاثَةِ أقْسَام، وَوَصَفَ الْقِسْمَ الأوَّلَ بأنَّهُمْ مَهْدِيُّونَ، وأنَّهُمْ مُحْسِنُون، ووصَفَ الْقِسْمَ الثاني بأنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَوَصَفَ الْقِسْمَ الثَّالِثَ بِأَنَّهُ فَضَّلَهُمْ عَلَىٰ العالَمين، مَعَ أَنَّنَا نُدْرِكُ ذِهْناً أَنَّهُمْ جَمِيعاً مُتصِفُونَ بِكُلِّ هَٰذِهِ الصِّفَاتِ، وكذَلِكَ سَائِرُ الْمُرْسَلِين.

وأقول: إنَّ هَٰذَا التَّقْسِيمَ دَعَتْ إلَيْهِ فَنِّيَّةُ تَجْزِئَةِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي يُرَادُ ذِكْرُهَا عَلَىٰ التَّوَالِي، مَعَ تَوْزِيعِ الصِّفَاتِ عَلَىٰ الأَقْسَام، التي يَشْتَرِكُون فِيها جَمِيعاً، لِيُتْرَكَ لِذِهْنِ المتدبِّر إدْرَاكُ تَعْمِيمها عَلَىٰ الْجَمِيعِ قِيَاساً، وهذا أَحَدُ أسَالِيبِ الْقُرآنِ الْفَنِّيَّةِ الجميلة.

■ قول اللهِ تعالى يتحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم:

● ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧﴾:

أي: وَبَعْضُ آبَاءِ مَنْ ذَكَرْنَا آنِفاً مِنَ الرُّسُلِ، وبَعْضُ ذُرِّيَاتِهِمْ وَبَعْضُ إخْوَانِهِمْ، كَانُوا مُحْسِنِينَ، وَكَانُوا مِنَ الصَّالِحِينَ، وَوَجَدْنَاهم ذوي فَضْلٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ فَجعَلْنَاهُم نَبِيِّينَ ومُرْسَلِين، وَهَدَيْنَاهم إلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، بما أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ شَرَائِعَ وَأَحْكَامٍ، وَكَلَّفْنَاهُمْ أَنْ يُبَلِّغُوهَا لِأُمَمِهِمْ وَأَقْوَامِهِمْ.

ويَشْمَلُ هَـٰذَا الْبَيَانُ مَنْ لَمْ يَقْصُصِ اللهُ في القرآن على رَسُولِهِ وَعَلَىٰ أُمَّتِهِ مِنَ الرُّسُل، وأوضَحَ اللهُ هَـٰذَا المعنى وأكَّدَهُ بِقَولِهِ لِرَسُوله في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ... ﴿٧٨﴾﴾:

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾:

ذَلِكَ الْهُدَىٰ الْعَظِيمُ الَّذِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الرِّسَالاتُ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا عَلَىٰ رُسُلِنَا، والْهَادِيَة إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، هُو هُدَىٰ اللهِ، واللهُ يَهْدي إلَىٰ الحقّ وَإِلَى صراط مُسْتَقِيمٍ يُوصِلُ إلى السَّعَادَةِ الخالدة.

وهذا الْهُدَىٰ يَهْدِي به اللهُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِه، إذْ يَصْطَفِيهِمْ فَيَجْعَلُهُمْ رُسُلاً يَتَلَقَوْنَ عَنْهُ هُداهُ، ويُبَلِّغُونَهُ إلَىٰ أُمَمِهِمْ وأقوامِهم كَمَا تَلَقَّوْهُ، واللهُ إنّما يَصْطَفِيهِمْ بِحِكْمَتِهِ لِعِلْمِهِ بأَنَّهُمْ أَهْلٌ لِهَـٰذَا الاصطفاء.

وَلَوْ أشْرَكَ هَـٰؤُلَاءِ المصطَفوْنَ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ لَأَبْطَلَ اللهُ مُسْقِطاً عَن صَحَائِفِهِمْ سَوَابِقَ أعْمَالِهِمْ الصَّالِحَةِ الَّتِي كانُوا يَعْمِلُونَهَا، وَلَسَلَبَهُمْ مَا فَضَّلَهُمْ بِهِ، واصْطَفَاهُمْ لِتَبْلِيغ رِسَالَاتِهِ، ولَعَاقَبَهُمْ على شِرْكهم. لَكِنَّهُمْ مَا أَشْرَكُوا، بَلْ كَانُوا جَمِيعاً مُؤَهَّلِينَ لِمَا اجْتَبَاهُمْ اللهُ لَهُ.

حَبِطَ الْعَمَل: أي: بَطَلَ فَلَمْ يُحقِّق الْغَايَةَ مِنه.

■ قَول اللهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الرُّسُل في هَـٰذَا الدَّرْس:

• ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: أُولَئِكَ الرُّسُلُ الَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمْ آنِفاً، رَفِيعُوا المكانَةِ، الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكتابَ والْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ وبَعَثْنَاهُمْ رُسُلاً إلى أُمَمِهِمْ، حَامِلِينَ رِسَالَاتِنَا للنَّاسِ، قَدْ بَلَّغُوا أقْوَامَهُمْ وأُمَمَهُمْ نَظِيرَ الرِّسَالَةِ الَّتِي أَرْسَلْنَاكَ بِهَا للنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

الكتاب: لفظٌ يَشْمَلُ النُّصوصَ الدِّينيَّةِ التعليميَّة والتكليفيَّة الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ علىٰ رُسُلِهِ.

الْحُكْم: فِقْه الأمور، ومَعْرِفَةُ الحقِّ والْبَاطِلِ وحُدُودِهما، ومَعْرِفَةُ الخير والشرّ وحُدُودِهما، والحسَنِ والسَّيِّئِ وحُدُودِهما، والْجَمِيلِ والْقَبِيحِ وحُدُودِهما. وبناءً على فِقْهِ الأمور يُصْدِرُ مَنْ أُوْتِيَ الْحُكْمَ أحْكَامَهُ الْعِلْمِيَّةِ وأحْكامَهُ القضائية.

النُّبُوة: هي اصطفاء اللهِ عَبْداً مِنْ عبادِه بِإنْبَائِهِ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْي مَا يَتَعَلَّقُ بالدِّين الَّذي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبادِه، وغير ذَلِكَ مِمَّا تَقتضيه حِكْمَتُه.

- ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَآءِ﴾: أي: فإنْ يَكْفُرْ بِرِسَالَتِكَ يا مُحَمَّدُ كُبَرَاءُ قَوْمِكَ فِي مَكَّة، الَّذِينَ تَرْغَبُ فِي أَنْ يَحْمِلُوا رِسَالَتَكَ ويَكُونُوا وَكَلاءَكَ في تَبْلِيغها للنَّاس، لأنَّهُمْ أهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ الأقْرَبُون.

- ﴿... فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾: أي: فَقَدْ وَكَّلْنَا عَنْكَ بِتَبْلِيغِها للنَّاسِ قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ، بَلْ هُمْ مُؤْمِنُونَ مُسْلِمُونَ دُعَاةٌ إِلَىٰ اللهِ وَإِلىٰ صِرَاطِهِ المسْتَقِيم، وهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وأَسْلَمُوا مِنْ أصْحَاب مُحَمّد، وَالَّذِينَ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ سَيُؤْمِنُونَ ويَسْلِمُونَ، ويَقُومُونَ بِتَبْلِيغ رِسَالَةِ الرَّسُول محمّد ﷺ إلى النَّاسِ أجْمَعِينَ عَبْرَ تاريخ النَّاسِ المسْتَقْبَلِيّ.

دلَّنِي على هذا اسْتِعْمَالُ فِعْل: ﴿وَكَّلْنَا﴾ مع قول الله عزَّ وجلَّ لِرَسُوله: في سُورَة (الإسراء/ ٥٠ نزول): ﴿... وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾:

فهَٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ عبارة ﴿وَكَّلْنَا﴾ يرادُ بِهَا التوكيلُ عَنِ الرَّسُولِ بِتَبْلِيغِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ رِسَالَتُهُ للنَّاس. واللهُ أعْلَم.

قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُوله:

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

اقْتَدِه: أي: تأَسَّ واتَّبعْ، والهاء هي هاء السَّكْت.

أي: أُولَٰئِكَ الرُّسُلُ الَّذِينَ ذَكَرْنَا آنِفاً أَسْمَاءَهُمْ والَّذِينَ لَمْ نَذْكُرْ بالتفْصِيلِ أَسْمَاءَهُمْ بَلْ أَجْمَلْنَاهُمْ بعِبَارَة: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْۖ﴾ هُمُ الَّذِينَ هَدَيْنَاهُمْ فَحَكَمْنَا لَهُم بالْهِدَايَةِ المثْلَىٰ بَعْدَ أَنْ وَجَدْنَاهُمْ بالتَّجْرِبَةِ مَهْدِيِّينَ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِ، لِأَنَّهُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لَكَ.

ومِنْ عَناصر اهتدائِكَ بهم أَنْ تَقُولَ لِقَوْمِكَ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ مَا أَقُومُ بِهِ مِنْ أَجْلِ نجاتِكُمْ وَسَعَادَتِكُمْ وتَبْلِيغكُمْ دِينَ رَبِّكُمْ وكِتَابَهُ أجْراً ما.

﴿... إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾: أي: مَا الّذي جئتُكُم بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ إلَّا تَذْكِيرٌ لجميع العَالَمِينَ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَحْدَكُمْ، فإنْ آمَنْتُمْ وَأَسْلَمْتُمْ فَهُو لخيركم، وَإِنْ كَفَرْتُمْ فَقَدْ أَعْتَدَ رَبُّكُمْ لَكُمْ عذاباً أَلِيماً في الجحيم يَوْمَ الدين.

ذِكْرَىٰ: اسم بمعنى التَّذْكِير، وبمَعْنَىٰ التَّذَكُّر، وبمعنى الوسيلة الَّتِي يُتَذَكَّرُ بها، أَمَّا التَّذْكِير فَمَطْلُوبٌ مِنْ حَمَلَةِ رِسالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحق، وأَمَّا التَّذَكُّر فَهُو مَطْلُوبٌ مِنْ كُلِّ مَنْ عَلِمَ مِنْ دِينِ اللهِ وكِتَابِهِ شيئاً، وأَمَّا التَّذْكِرَةُ فالمطلوبُ بشَأْنِها أَنْ يَتَّخِذَهَا كُلُّ مَنْ تَلَقَّىٰ الْقُرْآن وسَائِرَ بيانات الرَّسُولِ ﷺ، بِمَثَابَةِ بِطَاقَةِ تَذْكِيرٍ تُذَكِّرُهُ بِمَطْلُوبِ اللهِ مِنْه فِعلاً أَوْ تَرْكاً.

وهَلْ يَدُلُّ أمْرُ اللهِ رَسُولَهُ بِأَنْ يَقْتَدِيَ بالرُّسْلِ مِنْ قَبْلِهِ على أنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا مِنَ الرُّسُلِ هُو شَرْعٌ لنا؟

أقول: ظاهِرُ النَّصّ يَدُلُّ عَلَىٰ تَكْلِيفِ الرَّسُولِ أَنْ يَقْتَدِي بالرُّسُلِ من قبله في مجال الدَّعْوَةِ، فيَصْبِرَ كَمَا صَبَرُوا، ويَتَبَرَّأَ مِنْ المصلَحَةِ الشخصية لدى قومه كما تَبَرَّؤوا، ونحو ذلك.

وأمّا بالنسبة إلىٰ أحْكام التكاليفِ الشرعِيَّةِ فأرْجَحُ أقوال الْفُقَهاء فِيما أَرَىٰ أَنَّ شرع من قبْلَنَا شَرْعٌ لنا مَا لم يَأتِ في شَرْعِنَا مَا يُخَالِفُ شَرْعَ من قبْلَنَا، واللهُ أعلم.

وبهذا انتهى تدبُّر الدرس الثامن عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.



(٢٣)
التدبر التحليلي للدّرْس التاسع عشر من دُروس سورة (الأنعام) الآية (٩١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

القراءات:

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [**يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَها وَيُخْفُونَ**] بياء الغائبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَها وتُخْفُونَ**] بتاء المخاطبين.

تمهيد:

هذا الدرس من فروع السَّاق الثاني من سَاقي شجرة موضوع السّورة.

وتَدُلُّ القراءَتَانِ على أَنَّ بَعْضَ كُبَرَاء مُشْرِكِي مَكَّة المعانِدِينَ، سَمِعُوا مِنْ بَعْضِ الكَذَّابِينَ المضِلّين مِنْ أَحْبَارِ اليهود قولَهُمْ: مَا أَنْزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، فَرَدَّدُوا مَقَالَتَهُمْ.

فخاطَبَ اللهُ رَسُولَهُ بأَنْ يَقُول لمشركي مَكَّةَ بِحَسَبِ قراءَةِ ابْن كثير وأبي عَمْرو قائلاً لَهُ: [**قُلْ مَنْ أَنزلَ الكِتَابَ الَّذي جاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدىً للنَّاسِ يَجْعَلونَه قَرَاطِيسَ تبدُونَهَا وتخفونَ كَثِيراً**]: أي: يجعله اليهود.

وخاطَبَهُ بأَنْ يَقُولَ لليهود بحَسَبِ قراءَة جمهور القراء قائلاً له:

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾: أي: وتخفونَ كثيراً مِنْها لئَلّا تكُونَ حُجَّةً عَلَيْكُمْ، وقد جاء في أسْبَاب النزول ذِكْرُ اليهودي «فنحاص» واليهودي «مَالِك بن الصيف» وأنّهما مِمَّنْ قال هذه المقالَة، أو أوحَىٰ بها إلَىٰ بعض مُشْرِكي مكة.

التّدَبّر التحليلي:

• ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ...﴾: أي: وما قَدَرُوا اللهَ حق قدره حِينَ قَالُوا هَـٰذَا القول.

يُقالُ لغة: «قَدَرَ الشَّيْءَ» أي: بَيَّنَ مِقْدَارَه، أَوْ عَلِمَ مِقْدَارَه، ومَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ عَلِمَ مِقْدَارَ الْعَظِيمِ الكَبِيرِ عَظَّمَهُ وَكَبَّرَهُ، علَىٰ مِقْدَارِ عِلْمِهِ بِعَظَمَتِهِ وَكِبَرِه.

فالَّذِينَ قَالُوا: مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شيءٍ، سَواءٌ أكانُوا مِنَ الْعَرَب أَمْ مِنَ الْيَهُودِ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه، فَهُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ يَقَعُونَ فِي كَبِيرَتَيْن مُكَفِّرَتين:

الكبيرَةُ الأولىٰ: اتّهامُ الرَّبِّ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ بالْعَجْزِ عَنْ إنْزَالِ كُتُبٍ أَوْ صُحُفٍ وآيَاتٍ بَيَانِيَّةٍ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنَ الْبَشَرِ، وهُو الّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ سَائِرَ خَلْقِهِ مِنَ الْعَدَم، وهو على مَا يشاءُ قدير.

الكبيرةُ الثانية: الاسْتِهَانَةُ بعِقَابِ اللهِ على تَكْذِيب رُسُلِهِ فيما يُبَلِّغُونَ عَنْ رَبِّهِمْ، وهُمْ مُؤَيَّدُونَ مِنْهُ بالمعْجِزَاتِ الباهرات.

ولَوْ أَنَّهُمْ قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِه لَعَلِمُوا أَنَّه قَدِيرٌ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، ولَعَلِمُوا أَنَّه يُعَاقِبُ مَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ الصَّادِقين بالْخُلُودِ فِي عَذَاب النَّارِ يَوْمَ الدِّين لِأَنَّهُمْ كافِرُونَ كُفْراً عِنادِيًّا لَا عُذْرَ لَهُمْ فيه.

• ﴿... قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾:

كَانَ كُفَّارُ قُرَيشٍ يَعْتَقِدُونَ بِأَنَّ التَّوْرَاةَ كِتَابٌ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَمِنَ الْحِكْمَةِ فِي المناظَرَةِ انْتِزَاعُ اعْترافِهِمْ بأَنَّ اللهَ هُو الَّذِي أَنْزَلَهُ، أَوْ إفْحَامُهُمْ بذلِك، وهـٰذَا يَنْقُضُ ادّعَاءَهُمْ في مَقُولَتِهِمْ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

نوراً: أي: عِلْماً بيّناً واضحاً كوُضُوح النور. **هدًى:** أي: هَادِياً إلى الحقِّ وصراطِ السَّعَادَة.

أَمَّا شياطِينُ الْيَهُودِ الّذِينَ أَوْحَوْا لَهُمْ بِهـٰذِهِ الْمَقُولَةِ الافتِرَائِيَّة، فإنَّهُمْ يُعْلِنُونَ إيمانَهُمْ بالتوراة، فالْحُجَّةُ دَامِغَةٌ لَهُمْ وناقِضَةٌ لِمقُولَتِهِمْ بداهَة، ولَا يَجِدُونَ مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ افْتِرَاءَهُم.

وتُلَائِمُهُمْ قراءة جُمْهُورِ الْقُرَّاءِ العشرة: [**تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا**

وَتُخْفُونَ كَثِيراً] بأسْلُوبِ الخطاب، أي: تَجْعَلُونَ كِتَابَ التوراة مَكْتُوباً فِي قراطِيسَ مُتَفَرِّقَة، تُبْدُونَ بَعْضِهَا بِحَسَبِ أَهْوَائِكُمْ، وتُخْفُونَ كثيراً مِنْهَا بِحَسَبِ أَهْوَائِكُمْ.

قَراطِيس: جمع «قرطاس» وهو الصحيفَةُ يُكْتَبُ فيها.

أمّا قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ، وأَبي عَمْرو: **[يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يَبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيراً]** حَدِيثاً عَنِ الْيَهُودِ الْغَائِبين، فَهِيَ تُلَائِمُ أَصْحَابَ المقالَةِ الافترائِيَّة مِنْ مُشْرِكي مَكَّة، الَّذِينَ تَأَثَّرُوا بِمَا أَوْحَىٰ لَهُمْ بَعْضُ الْيَهُود.

• ﴿... وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ....﴾ أي: وَعُلِّمْتُمْ عَنْ طَرِيقِ ما أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ مَا لَمْ تَعْلَمُوا قَبْلَ إِنْزَالِهِ أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَمَا بالُكُمْ تَجْحَدُونَ عِلْماً عَلَّمَكُمُوهُ رَبُّكُمْ بِمَا أَنْزَلَ وَحْياً لِرَسُوله، رَغْبَةً في إِنْكَارِ نُبُوَّةِ وَرِسَالَةِ رَسُولِ رَبِّكُمْ، وتَهَرُّباً مِنَ الإيمان بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ، ومِن الْعَمَلِ بأحْكَامِهِ.

وبَعْدَ أَنِ انْتَهَىٰ بيانُ الْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ الَّتِي عَلَّمَهَا اللهُ رَسُولَهُ، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّته، قَالَ الله عزَّ وجلَّ لَهُ:

• ﴿... قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾: أي: إِذَا سَكَتُوا مُفْحَمِينَ، فَلَمْ يُجِيبوا على سُؤَالِكَ لَهُمْ: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾؟! فَقُلْ أَنْتَ مُقَرِّراً الجواب الْحَقَّ: اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ، وهَـٰذَا يَنْقُضُ افْتِرَاءَكُمْ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

ثم بَعْدَ انْفِضَاضِ مَجْلِسِ المناظَرَةِ، إِذَا رَأَيْتَهُمْ مُصِرِّينَ على باطِلِهِمْ وافْتِرَاءَاتِهِم السَّاقِطَاتِ الْمَرْفُوضَاتِ عِنْدَ كُلِّ ذِي فِكْرٍ سَلِيم، فَذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ، ولَا تَعْبَأْ بِعَبَثِهِمْ وَلَا تَهْتَمَّ لَهُ، فَسَتَسْقُطُ مَقَالَاتُهُمْ الافترائِيَّة، ولَا يَقْبَلُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الرأْي، أو أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشد.

﴿ذَرْهُمْ﴾: أي: دَعْهُمْ واتْرُكْهُمْ.

﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾: أَصْلُ الْخَوْض: المشْيُ في الماء وتَحْرِيكُهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ مَعَاني التضليل، والطَّعْنِ، والسُّخْرِية، والاسْتِهْزَاءِ بآيَات الله والكُفْرِ بها، وفي الأَقْوالِ الكاذِبَةِ الباطلة.

﴿يَلْعَبُونَ﴾: أي: يُضِيعُونَ أوقَاتَهُمْ فيما لَا خَيْر فيه، **اللَّعِبُ**: ضِدُّ الْجِدّ، والكَفَرَةُ يُضيعُونَ رَأسْمَالِهِمْ: أعْمَارَهُمْ وطَاقَاتِهِمْ في أعْمَالٍ باطِلَةٍ لَا خَيْرَ فيها، ثُمَّ يُلَاقُونَ مَصِيرَهُمْ عَذَاباً في جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها وبِئْسَ المصير.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس التاسع عشر من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.



(٢٤)
التدبر التحليلي للدَّرْس العشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (٩٢ ـ ٩٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

القراءات:

(٩٢) • قرأ شعبة: [وَلِيُنْذِرَ] بياء الغائب.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلِتُنْذِرَ] بتاء المخاطب، وهو الرسول ﷺ وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

(٩٣) • قرأ يعقُوب: [أَيْدِيهُمْ] بضَمّ هاء الضمير، وهو لغة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بكَسْر هاء الضمير.

(٩٤) • قرأ نَافع، وحفص، والكسائي، وأبو جعفر: [تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تقَطَّعَ بَيْنُكُمْ].

ومؤدّى القراءتَيْن واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

تمهيد:

آيات هذا الدرس من فروع السَّاق الأوّل من ساقي شجرة موضوع السورة، وفيها بيانٌ رَبَّانِيٌّ مُبَاشرٌ بِشَأْنِ القرآن والرَّسُول مُحمَّدٍ ﷺ، وبِشَأْنِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ علىٰ اللهِ كَذِباً، أَوْ يَزْعُمون اتّصَالَهُمْ بالْوحْي، مصحوب بوعيد للظَّالمين.

التّدَبّر التحليلي:

قول الله تعالى خطاباً لِرَسُوله محمد ﷺ فلكُلِّ مُتَلَّقٍ له:

• ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

مِنَ الحِكْمَةِ فِي الْبَيَانِ بَعْدَ الحديثِ عَنِ التوْرَاةِ فِي الدَّرْسِ السَّابق، جاء في هَـٰذِهِ الآيَةِ الْحَدِيثُ عَنِ الْقُرْآنِ مَعْطُوفاً عَلَيْه، أي: وَهَـٰذَا الْقُرْآنُ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ كَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَىٰ، وإذْ أفْحَمَتْكُمُ الحجَّةُ الناقضة لادّعَائِكُمْ فاعْلَمُوا أنّ هذا القرآن كتابٌ:

﴿مُبَارَكٌ﴾: أي: ذو بَرَكَة. **والْبَرَكَةُ**: هي النَّمَاءُ والزِّيادة في الحِسّيَّاتِ، وفِي الْمَعْنويَّات، ورُوِيَ عَنِ ابن عبَّاسٍ: أنَّ الْبَرَكَةَ الكَثْرَة مِنْ كُلّ خير.

ويقال لغة: بارَكَ اللهُ الشيءَ، وبَارَك فيه، وبَارَكَ عَلَيْهِ، أي: وضَعَ فيه البَرَكَة.

ومعنَىٰ كَوْنِ القرآنِ مُبَارَكاً أنَّهُ لَا تَنْضَبُ فُيُوضُ مَعَانِيه، وأَنَّهُ ذُو خَيْرَاتٍ كثيراتٍ جدّاً، فِكْرِيَّة، ونَفْسِيَّةٍ، وشفائية، وغير ذَلِك[١].

• ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي: وَهَـٰذَا القرآنُ مُبارَكٌ وَمُصَدِّقُ الَّذِي أُنْزِلَ قَبْلَهُ مِنْ كُتُبٍ رَبَّانِيَّة وَمِنْهَا التوراةُ والزَّبُور والإنجيل.

تَعْبِيرُ: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ السَّبْقِ الزَّمَنِيِّ هُنَا، وفي كثيرٍ مِنَ النُّصُوص، أمَّا المتأَخِّرُ في الزَّمَنِ فيُقَالُ بِشَأْنِهِ: «مِنْ خَلْفِهِ» لأنَّ المستَقْبَلَ غَيْرَ مَشْهُودٍ للناس.

وتَصْدِيقُ القرآن لِمَا أُنْزِلَ قَبْلَهُ مِنْ كُتُبٍ رَبَّانِيَّة، هو الإعْلَامُ بأنَّهَا حَقٌّ وَصِدْقٌ مُنَزَّلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، بالنَّظَرِ إلى أُصُولِهَا الصَّحِيحَةِ، ولَيْسَ مُصَدِّقاً لِمَا حَرَّفَ النَّاسُ مِنْها.

• ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أي: ولتُنْذِرَ يَا مُحَمَّدُ بِمَا جاء في الْقُرْآنِ مِنْ إِنْذَارَاتٍ مَنْ يَسْكُنُ أُمَّ الْقُرَىٰ (= مَكّة المكرمة) المكَلَّفِينَ وَمَنْ هُمْ سَاكِنُونَ حَوْلَهَا امْتِدَاداً مَعَ الْأَرْضِ حَتَّىٰ آخِرِ سَاكِنٍ فيها. فَيَشْمَلُ مَنْ حَوْلَ مَكَّةَ المكَرَّمَة النَّاسَ جَمِيعاً.

وَتَكْلِيفُ الرَّسُولِ هَـٰذَا الإِنْذَارَ هُوَ تَكْلِيفٌ لِكُلِّ مُؤَهَّلٍ مِنْ أُمَّتِهِ أنْ

---

(١) انظر الملحق الثاني من ملحقي تدبر سورة (ق/ ٣٤ نزول) حول «الوصف بالبركة في القرآن المجيد» الصفحات من (١٤٥ ـ ١٦٧) من المجلد الثالث من هذا الكتاب.

يَحْمِلَ رِسَالَتَهُ للنَّاس، أَوْ بَعْضاً مِنْهَا عَلَىٰ مِقْدَارِ أَهْلِيَّتِهِ، فالْوَظِيفَةُ الْأُولَىٰ للمُؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً أَنَّهُمْ أُمَّةُ دَعْوَة، مُكَلَّفُونَ أَنْ يُبَلِّغُوا النَّاسَ مَا تَبَلَّغُوهُ مِن الرَّسُول ﷺ، ولَا سِيمَا كِتابُ الله الْقُرْآن المجيد، وسمّيَتْ أُمَّ القرى لأنَّهَا أَوَّلُ مَا سُكِنَ مِنْ الأَرْضِ، وفيها أوَّلُ بيت وُضع للناس لعبادة الله:

وجاء في القراءة الأُخْرى: [**وَلِيُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَها**] بياء المضارعة:

أي: وَلِيُنْذِرَ الرَّسُولُ وَحَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ. ولِيُنْذِرَ القرآن بما فِيهِ من إنذارات أَهْلَ أُمِّ الْقُرَىٰ ومَنْ حَوْلَها.

فَبَيْنَ القراءتَيْن تكامُلٌ فِي أَداء المعْنَىٰ المراد.

● ﴿. . . وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالْحَياةِ الآخِرَةِ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ الْبَعْث، ويُؤْمِنُونَ بِمَا فِيها مِنْ حِسَابٍ، وَفَصْلِ قَضَاءٍ، وتَنْفِيذِ جَزَاءٍ، بِدَارِ الْعَذَابِ النَّارِ، وبِدَارِ النَّعِيم الْجَنَّةِ، تَأَثُّراً بِبَرَاهِينِ الْعَقْلِ، وصَادِقِ الأخْبَار عَنِ الْمُرْسَلِينَ المؤيَّدِينَ بالْمُعْجَزاتِ الباهراتِ من اللهِ رَبّ العالمين، يَدْفَعُهُمْ الْخَوْفُ مِنْ عَذَابِ اللهِ خالِدِينَ في الجحيم، ويَدْفَعُهُم الطَّمَعُ في الْخُلُودِ بالنَّعِيم المقيم، إِلَىٰ الإيمانِ بالْقُرآنِ وبما جَاءَ فيه، وَإِلَىٰ المحافَظَةِ علَىٰ الصَّلَواتِ المفْرُوضَة، مُسْلِمِينَ للهِ عَابِدِينَ.

المحافظة على الصَّلَاةِ: القيامُ بأدائِها في أَوْقَاتِها، مُسْتَوْفِيَةَ الشروط والأرْكانِ والواجبات.

هذا البيانُ عَنِ الصَّلاةِ يَتعلَّقُ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ المفروضة، إذْ سَبَقَ في سُورَةِ (الإسراء/ ٥٠ نزول) بيانُ فَرْضِيَّتِها وَعَدَدِهَا، لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِالرَّسُولِ ﷺ مِنَ المسْجِدِ الحرامِ إلى المسْجِدِ الأَقْصَىٰ.

والصَّلَوَاتُ المفْرُوضَةُ أوّلُ الأرْكَان الّتِي تَمَّ تَحْدِيدُ عَدَدِهَا وأَوْقَاتِهَا من أرْكَان الإسلام الْعَمَلِيَّةِ الْخَمْس، وَثَانِي الْأَرْكَانِ بَعْدَ رُكْنِ إعْلَان الشَّهَادَتَيْنِ وهما: أشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا الله، وأشْهَدُ أَنَّ مُحَمّداً رَسُولُ الله.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

● ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

هَـٰذِهِ الآية تُعَالِجُ ثلاثَ قضايا كُفْرِيَّةٍ هي مِنْ أظْلَم الظُّلْم:

القضية الأولَىٰ: الْافْتراءُ عَلَى الله بادّعَاء أَنَّ اللهَ قَالَ كَذَا، أَوْ حَكَمَ بِكَذا، أَوْ أَنْزَلَ كَذَا، وهو لم يقلْ ولَمْ يَحْكُمْ وَلَمْ يُنْزِلْ ما ادّعاهُ المفتري.

الْقَضِيَّةُ الثانية: أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا، أَنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيْهِ شيئاً مَا مَعَ أَنَّ اللهَ لَمْ يُوحِ إِلَيْهِ مَا ادَّعَاه.

الْقَضِيَّة الثالِثَةَ: أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ مَا: أَنَا سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي كِتابِهِ على مُحَمَّدٍ مِنْ آيَاتٍ، لِيُوهِمَ بِأَنَّ مَا يُبَلِّغُهُ مُحَمَّدٌ عَنْ رَبِّهِ وَضْعٌ بَشَرِيٌّ، ولَيْسَ مُنَزَّلاً مِن عِنْدِ الله، فمُحَمَّدٌ لَيسَ رَسُولاً من رُسُلِ الله.

● ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ اسْتِفْهَامٌ يُرادُ بِهِ نَفْيُ وُجُودِ الأكْثَرِ ظُلْماً، أي: ولَـٰكِنْ قَدْ يُشَارِكُ هَـٰؤُلَاءِ فِي دَرَكَةِ الظُّلْم ظالِمُونَ آخَرُونَ، فَدَلَّ هَـٰذَا عَلَىٰ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ مع ظالِمِينَ آخَرِينَ لَا يُوجَدُ أظْلَمُ مِنْهُم، ومِنْ شُرَكَاءِ هَؤُلَاءِ فِي دَرَكَةِ الظُّلْم مُكَذِّبوا الرُّسُلِ الصَّادِقين، وَجَاحِدُوا رُبُوبِيَّةِ اللهِ وإِلَهِيَّتِهِ، والمكذّبون بيَوْمِ الدّين.

وقَدْ أَبَانَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ لَقْطَةً مِنْ لَقَطاتِ عَذَابِهِمْ فقال اللهُ تعالى:

• ﴿... وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ...﴾:

غَمَرَات: جَمْعُ «**غَمْرَة**» وهِيَ الشِّدَّة. وغَمَرَاتُ الْمَوْتِ شَدَائِدُهُ وَمَكارِهُهُ الغامِرَة الْمُحِيطَةُ كإحَاطَةِ الماءِ الكثير بالغريقِ فيه. **فالْغَمْرَة**: تَأْتِي بِمَعْنَىٰ الْماءِ الكثير الغامِر.

أي: وَلَوْ رَأَيْتَ أيُّهَا الرَّائِي أَيًّا كُنْتَ إِذِ الظَّالِمُونَ غارِقُونَ فِي شَدَائِدِ الْمَوْتِ وَمَكَارِهِهِ لَرَأَيْتَ أمْراً مَهُولاً مُرْعِباً («لو» هَـٰذِهِ إذا ولِيَها مضارع أُوِّل بالمضِيِّ). وجواب «لو» مطويٌّ من السَّهْلِ إدْراكُه.

﴿... وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ...﴾: أي: والحالُ أَنَّ الملائِكَة بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ لِتَعْذِيبِهِمْ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأَدْبارَهُم، وَهُو مَا أَكْمَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ بَيَانَهُ بِشَأْنِ الْكَافِرِين في قولِهِ في سُورَةِ (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾:

ونَظِيرُه بشأن المنافقين في قوله تعالى فِي سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول): ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

أُطْلِقَ «بَسْطُ الْأَيْدِي» على معْنَىٰ بَسْطِهَا بالمكْرُوه، ونظيرُه في القرآن (إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ـ ويَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ ـ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي).

وتقول الملائكة لهم:

• ﴿... أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ...﴾: أي: أَخْرِجوا أنْفُسَكُمْ مِمَّا تُحَاوِلُ الاحْتِمَاءَ بِهِ فِي أَجْسَادِكُمْ خَوْفاً مِنْ نَزْعِ أَرْوَاحِكُمْ مِنْهَا، فَنَزْعُ أَرْوَاحِكُمْ بِشِدَّةٍ أَمْرٌ لَا تَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ، ولا الاخْتِبَاءَ مِنْهُ.

وتقول الملائكة لهم:

• ﴿... ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

الْهُونِ: الْخِزْيُ والذِّلَّة. **وَعَذَابُ الْهُونِ**: هو الْعَذَابُ المخْتَصُّ بالْخِزْي والذِّلَّةِ. وهو نَوْعُ عَذَابٍ شَدِيدٍ يَكُونُ لِمَنْ قَضَىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ بأَنْ يَكُونُوا مُعَذَّبِين أَذِلَّاءَ خَزَايَا.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ كاذِبِينَ علىٰ اللهِ غَيْرَ الْحَقّ، ضُمّن الفعل في ﴿تَقُولُونَ﴾ مَعْنَىٰ الفِعْل في «تَكْذِبُون» فَعُدِّيَ تَعْدِيتَهُ بحَرْفِ الجرّ «عَلَىٰ». يقال لغة: «كَذَبَ فُلانٌ عَلَىٰ فُلَانٍ» أي: أخبر عَنْهُ بما لَمْ يَكُنْ فيه، أو بما لَمْ يَقُلْه.

• ﴿... وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾: أي: وبِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ فِي حياة الابْتِلَاءِ تَسْتَكْبِرُونَ فِي نُفُوسِكُمْ، مُمْتَنِعِينَ عن امْتِثالِ أوامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ، في سُلُوكِكُمُ النَّفْسِيِّ والظَّاهِر، إيماناً وعملاً.

جاءت تَعْدِيةُ الْفِعْلِ فِي: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ بحَرْف الجرِّ «عَنْ» لِتَضْمِينِهِ معنى الفعل في «تَمْتَنِعُونَ» فأغْنَتِ الْجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن وهذا من إيجازات القرآن الْبَدِيعَة المتكرِّرَة.

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُحَدِّثُ عَنْ لَقْطَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْم الدِّين إِذْ يَقِفُ هَٰؤُلاءِ الظَّالِمُونَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِمْ فِي مَحْكَمَةِ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ، فيقُولُ لهم:

• ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

أي: لَقَدْ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ، وَحَقَّقْنَا مَا كُنَّا أَنْبَأْنَاكُمْ بِهِ، وظَهَرَ

أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بالْحَقِّ الَّذِي جاءَكُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِكُمُ الَّذِي أيَّدْنَاهُ بالمعجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَأَنْزَلْنَا بِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فِي كِتَابِنَا الْمُعْجِزِ النَاطِقِ بالْحَقّ.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا بَعْدَ بَعْثِكُمْ لِمُلَاقَاتِ أحْدَاثِ يَوْمِ الجزاء الأكْبَر فُرَادَىٰ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يَنْصُرَ أحداً، أَوْ يَسْتَنْصِرَ بِأَحَدٍ، وَهَـٰذَا مَا كُنْتُمْ تُنْكِرُونه في حَيَاةِ الابتلاءِ.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ كَمَا خَلَقْنَاكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَقَدْ كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهَـٰذِهِ الحقيقة الَّتِي سَبَقَ أَنْ ذَكَرْنَاهَا لَكُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا، بما أَنْزَلْنَا فِي آيات كِتَابِنَا.

﴿فُرَٰدَىٰ﴾: جمع «فَرْدَان» وهو الْفَرْد.

• ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾: أي: وتَرَكْتُمْ مَا تفضَّلْنَا بِهِ عَلَيْكُمْ عَطَاءً مِنْ لَدُنَّا وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ في الحياة الدُّنيا، غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ تَجْلُبُوا مَعَكُمْ مِنْهُ شيئاً، مالاً، أَوْ قُصُوراً، أَوْ جُيُوشاً وأنْصاراً.

يقال لغة: «خَوَّلَ اللهُ عَبْدَهُ نِعْمَةً ما» أي: أَعْطَاهُ إيَّاهَا مُتَفَضّلاً.

• ﴿... وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ...﴾: أي: وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ آلِهَتَكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّكُمْ، زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ للهِ فِي أَنْفُسِكُمْ باسْتِحْقَاقِ إِلَهِيَّتِهِمْ لَكُمْ، وكُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُم شُفَعَاءُ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ، فَأَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ هَـٰؤُلَاء؟ هَلْ يَمْلِكُونَ أَنْ يَشْفَعُوا لَكُمْ؟ إِنَّهُمْ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ شيئاً، وهَـٰذَا خاصٌّ بِالَّذِينَ كانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ زاعِمِينَ أنهُمْ سَيكُونُونَ شُفَعَاءَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِم.

• ﴿... لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ...﴾ أيْ: لقدْ تَقَطَّعَ الْوَاصِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ آلِهَتِكُمْ مِنْ أَسْبَاب، فَلَا أَنْتُمُ الْيَوْمَ تَعْبُدُونَهُمْ، وَلَاهُمْ يَمْلِكُونَ أَنْ يَشْفَعُوا لَكُمْ إِذَا كَانَ لَهُمْ وُجُودٌ في الْوَاقِعِ والحقيقة.

وَجَاءَ في القِرَاءَة الأُخْرَىٰ:

• ﴿... لَقَد تَقَطَّعَ بينُكم ...﴾: بِضَمِّ النُّون، أي: لَقَدْ تَقَطَّعَ الْبَيْنُ نَفْسُهُ الواصِلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ شُرَكَائِكُمْ، فَصَارَ هَـٰذَا الْبَيْنُ الَّذِي كُنْتُمْ عَلَىٰ طَرَفٍ مِنْهُ، وكانَتْ آلِهَتُكُمْ عَلَىٰ طَرَفٍ آخَرَ مِنْهُ مُتَقَطّعاً سَاقِطاً، لَا وُجُودَ لَهُ بِسَبَبِ تَقَطُّعِهِ.

الْبَيْنُ: يُطلق في اللّغة على الصِّلَةِ والمودّة، وعلى القرابة.

• ﴿... وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾: أي: وَضاعَ مُبْتَعِداً عَنْكُمْ بُعْداً سَحِيقاً مَا كُنْتُمْ تَزْعُمونَ بِشَأْنِ شُرَكَائِكُم، وبِشَأْنِ سَائِرِ عَقَائِدِكُمُ الْبَاطِلَات، فَلَا تَجِدُونَ شيئاً مِنْهَا أمْراً حَقًّا وَوَاقعاً، بَلْ تَجِدُونَ نَقَائِضَهَا فِي الْوَاقِعِ المشْهُودِ، أَوْ في الْوَاقع المشْهُودِ الآثار.

وبهذا انتهى تدبر الدرس العشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.



(٢٥)
التدبر التحليلي للدّرس الحادي والعشرين
من دُروس سورة (الأنعام)
الآيات من (٩٥ ـ ٩٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن

نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

القراءات:

(٩٥) • قرأ ٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْنُ عَامر، وشُعبة. **[الْمَيْتِ]** بإسْكَانِ الياء في المَوْضِعَيْن.

وقرأهُمَا باقي القرّاء العشرة: **[الْمَيِّتِ]** بِتَشْدِيد الياء المكْسُورَة.

(٩٥) • قرأ وَرْشٌ، والسُّوسي، وأبو جعفر: **[تُوفَكُونَ]** بإبدال الهمزة واواً مَدِّيَّة، وهو من اللَّهجاتِ العربيَّة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[تُؤْفَكُونَ]**.

(٩٦) • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[وَجَعَلَ اللَّيْلَ]** بالفعل الماضي ونصب اللّيل.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَجَاعِلُ اللَّيْلِ]** باسم الفاعل وجرّ اللَّيل.

(٩٨) • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، ورَوْح: **[فَمُسْتَقِرٌّ]** بِكَسْرِ القاف، اسم فاعل من فعل «استقرّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَمُسْتَقَرٌّ]** اسم مكان.

(٩٩) • قَرأ حمزة، والكِسَائي، وخلَف: **[إِلَىٰ ثُمُرِه]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إِلَىٰ ثَمَرِهِ]**.

«ثُمُر» و«ثَمَر» جَمْعُ «ثَمَرة» فالمعنى واحد.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدرس مَوصُولَةٌ بالسَّاقِ الأوَّل أيضاً مِنْ سَاقي شجرة مَوْضوع السُّورَة، وفِيهَا بَيَانُ بَعْضِ آيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّة، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ رُبُوبيَّةِ اللهِ لِكَوْنِهِ، وأَنَّهُ لَا شريكَ لَهُ فيها، ويَلْزَمُ عَقْلاً عَنْ تَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبيَّتِهِ تَوْحِيدُهُ في إلَهِيَّتِهِ، فهو الرَّبُّ الواحِدُ الْأَحَدُ، والإلَهُ الواحِدُ الْأَحَدُ، الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إلَهيته.

التّدبّر التحليلي:

في هَـٰذَا الدَّرْس تَنْبيهٌ عَلَىٰ ثَمَانٍ مِنَ الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ، مِنْ آيَاتِ اللهِ فِيمَا خَلَقَ دَاخِلَ هَـٰذَا الكَوْنِ مِمَّا هُوَ مَشْهُودٌ للنَّاس.

الآية الكونيّة الأولىٰ: آيَةُ فَلْقِ الْحَبِّ والنَّوَىٰ، دلَّ عليها قول اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ... ﴿٩٥﴾﴾:

فَلْقُ الشَّيْء: شَقُّهُ، وإظْهَارُ مَا في باطِنِهِ.

الْحَبّ: اسْمُ جنْسٍ جَمْعِيٍّ، واحِدُهُ «حَبَّة» والحبُّ هُو مَا يَكُونُ في السُّنْبُلِ والْأَكْمَام، كالقمحْ والشَّعِير، ويطلق على البزور، ومعلوم أنّ الحُبُوبَ والبزور تُلْقَىٰ في التراب، وتُسْقَىٰ بالماء، فَتَنْفَلِقُ وتَخْرُج منها الزُّرُوع والأشجار.

النَّوَىٰ: عَجَم الثّمراتِ، الواحِدَة «نَوَاة» كنَوَاةِ التَّمْرَةِ، ونَوَاةِ الزَّيْتُونَة، وَكالنَّوَىٰ دَاخِلَ الزَّبِيبَة، ونحو ذلك.

إِنَّ مِنْ آياتِ خَلْقِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَفْلِقُ الْحَبَّ والنَّوَىٰ، فَيُخْرِجُ مِنْهُمَا جُذُوراً تَمْتَصُّ مَا يُلَائِمُ الطَّبْعَةَ الَّتِي فَطَرَهَا عليها، من عناصِرِ الأرْضِ مَعَ الْمَاء، وَيَنْبُتُ مِنْهَا نَبَاتٌ يَتَصَاعَدُ حَتَّىٰ يكُون زُرُوعاً وأَشْجَاراً، تَخْرُجُ مِنْهَا ثَمَرَاتٌ بِحَسَبِ الْخُطَّةِ الْمُقَدَّرَةِ المقضِيَّةِ لِكُلِّ صِنْفٍ وَنَوْعٍ وَجِنْسٍ مِنْها.

وهَـٰذِهِ ظاهِرَةٌ مُتَكَرِّرَةٌ، مَشْهُودَةٌ لِكُلِّ مَنْ يُشَاهِدُ نَباتَاتِ الْأَرْضِ، وَتنامِيها، مُنْذُ بَذْرِ بُزُورِهَا، حَتَّىٰ تكَامُلِها على وَفْقِ مَا قُدِّرَ وَقُضِيَ لَها.

هَلْ يَفْعَلُ هَـٰذَا أَحَدٌ في الوُجُود غَيْرُ اللهِ؟ وهَلْ يُتَابِعُ أَطْوَارَ النَّبَاتِ مُنْذُ فَلْقِ حَبِّهِ أَوْ نَوَاه حَتَّىٰ اكْتِمَالِهِ، أَحَدٌ غَيْرُ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْعَلِيم الحكيم الرَّحِيم جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه؟؟.

إِنَّهُ لَا رَبَّ غَيْرُ اللهِ، فَلا إِلَـهَ إِلَّا هو، تبارَك اسْمُهُ، وَتَنَزَّهَتْ ذَاتُهُ وَصِفَاتُه.

الآية الكونيّة الثانية: آيَةُ إِخْرَاجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَإِخْرَاجِ الميّتِ من الحيّ، دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿... **يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ** ... ﴿٩٥﴾﴾:

عَلِمْنَا فِي تَدَبُّرٍ سَابِقٍ أَنَّ الْحَيَاةَ في شيْءٍ مَا بِحَسَبِ خُطَّةِ اللهِ التَّكْوِينِيَّة، تَكُونُ بِنَفْخِ نَسَمَةِ الرُّوح الَّتِي هِيَ مِنْ أَمْرِ اللهِ التّكوينيِّ مُبَاشَرَةً، في جَسَدٍ لَا حَيَاةَ فِيهِ، وَقَدْ أَحْكَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ خَلْقَهُ، فَجَعَلَ لِكُلِّ ما قَدَّرَ لَهُ احْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ حَيًّا طَبْعَةً خاصَّةً رَسَمَ فيها خَرِيطَةَ حَيَاتِهِ، نَماءً، وَحَرَكَةً، وصِفَاتٍ جَسَدِيَّةً وغيْرَ جَسَدِية، هي نَفْسُه.

فإذا تَمَّ نَفْخُ الرُّوحِ في النَّفْسِ ظَهرَتِ الحَياةُ في الْجَسَدِ على وفْقِ خَرِيطَة النفس.

واللهُ عزَّ وجلَّ قَدِيرٌ بِأَمْرِ التكوينِ الواحِدِ، أَنْ يَجْعَلَ في المادَّةِ الْجَسَدِيَّة طَبْعَةً، هِيَ نَفْسُ الْكَائِنِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهُ حَيًّا، وأَنْ يَنْفخ فيها نَسَمَةَ الحياة، فتكونَ كَائِناً حَيًّا، كَمَا أَخْرَجَ نَاقَةَ صَالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن الصَّخْرَة، وكما أَخْرَج الحيَّةَ مِنْ عَصَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَخْرَجَ ذَاتَ الْعَصَا من الحيَّةِ بَعْدَ أَنْ لَقِفَتْ مَا أَفكَهُ سَحَرَةُ فِرْعَوْن.

فَمِنْ عَظيم قُدْرَةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ ذَاتِ الميِّتِ،

فَيَجْعَلُ الميّتَ حَيًّا بِنَفْخِ الرُّوح الَّتِي هِيَ نَسَمَةُ الحياة فيه، ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ ذَاتِ الْحَيّ، فَيَجْعَلُ الْحَيَّ مَيّتاً بِنَزْعِ نَسَمَةِ الحياةِ مِنْهُ وَهِيَ الرُّوح.

هَـٰذَا المعنَىٰ لَمْ يَخْطُرْ في بالِ أَهْلِ التَّفْسِير، إِذْ تَشَبَّثُوا بِإِخْرَاجِ كائنٍ حَيٍّ مِنْ كَائِنٍ آخر مَيّتٍ، فَقَلَّتْ عِنْدَهُمُ الْأَمْثِلَة، مَع أَنَّهُ يُقَالُ: «أَخْرَجْتُ مِنْ طُلَّابٍ جَهلَةٍ عُلَمَاءَ، أي: بالتَّعْلِيم ـ وأخْرَجْتُ مِنْ قِنْطَارِ حَدِيدٍ سيَّارَةً آلِيَّة، أي: عَنْ طَرِيق الصُّنْع ـ وأخْرَجَتْ مِنْ كِيسِ قَمْحٍ أَلْفَ رَغِيف، أي: بالطَّحْنِ والْعَجْنِ والْخَبْز» إلى غَيْرِ ذلِك من أمْثِلَة.

فالإحياء يكونُ بإدْخَالِ الرُّوحِ في النفس، والإمَاتَةُ تَكُونُ بِفَصْلِ الرُّوح عَنِ النفس، وَكُلَاهُمَا مِنْ أَفْعَالِ رُبُوبيَّة الرَّبّ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه، ولَا أَحَد في الوجُودِ غَيْرُ الرَّبِّ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ يَخْلُقُ حَيًّا مِنْ مَادَّةٍ مَيّتَةٍ لَا حَيَاةَ فيها. واتخاذُ الأَسْبَابِ الَّتِي يُحْيِي اللهُ بِهَا وَيُمِيتُ، لَا يَقْتَضِي عَقْلاً وَلَا وَاقِعاً أَنَّ مُتَّخِذَ الْأَسْبَابِ هُوَ الَّذِي أحْيَا وَأَمَات.

واسْتِخْدامُ اسْم الْفَاعل «مُخْرِج» في مُقَابِلِ الفعل المضارع «يُخرج» مِنَ التفَنُّنِ في التعبير، لأنَّ اسْمَ الْفَاعِلِ يَدُلُّ عَلَىٰ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ المضارع مِنَ الْحَالِ والاستقبال والتَّجدُّدِ، هَـٰذَا مَا ظَهَرَ لي في نُصُوصِ القرآن المجيد الكثيرة.

ومُحَاوَلَات استخراج حِكَمٍ بَلاغيَّةٍ مِنْ هَـٰذَا يُفْضِي إلى ادِّعَاءَات وتكلُّفَاتٍ لا دَاعِيَ لها.

وبَعْدَ التَّنْبيهِ على هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ الكَوْنِيَّتَين قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ خِطَاباً لِلْمُشْرِكِين: ﴿... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥﴾: أي: ذَلِكُم العظيم الْجَلِيلُ، الْعَلِيمُ الحكيم الْقَدِيرُ، الَّذِي تَدُلُّ عَلَىٰ صِفَاتِ رَبُوبِيَّتِهِ آيَتا فَلْقِ الحبِّ والنَّوىٰ، وإِخْرَاجِ الحيّ من الميّتِ والميّتِ من الحيّ، هُوَ اللهُ الَّذِي لَا رَبَّ غَيْرُهُ، فلا إِلَهَ سِوَاه، فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ هَـٰذَا الحقِّ الْجَلِيِّ ذِي

الأدلَّةِ الكَوْنِيَّة الدَّامِغَة، لِمُعْتَقَدَاتٍ بَاطِلَاتٍ تَجْعلُكُمْ تَتَّخِذُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِهِ، لَا تَجْلُبُ لَكُمْ نَفْعاً وَلَا تَدْفعُ عَنْكُمْ ضُرّاً.

«**أَنَّىٰ**» اسْتِفْهَامِيَّةٌ بِمَعْنَىٰ: «كَيْفَ» هُنَا.

«**تُؤْفَكُونَ**» أي تُصْرَفُونَ، يقال لغة: «أفَكَهُ، يَأْفِكُهُ» أي صَرَفَهُ.

والاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ بِمَعْنَىٰ التَّلْويمِ والتَّثْرِيب على انْصِرَافِهِمْ عن الحقِّ إلى الباطِلِ الوَاضِحِ الْبُطْلان.

الآية الكونيّة الثالِثَة: آيةُ فَلْقِ الإصْباح، دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ... ﴿٩٦﴾﴾:

الإصْباح: أَوَّلُ النَّهَارِ عِنْد الْفَجر، **وفَلْقُهُ:** جَعْلُهُ يَنْشَقُّ ظَاهراً بَعْدَ لَيْلٍ مُظْلِم.

إنَّ جَعْلَ الإصْباحِ كأنَّ آخِرَ اللَّيْلِ يَنْفَلِقُ عَنْهُ، فَيَمْتَدُّ شَيْئاً شيئاً حَتَّىٰ يَمْتَدَّ ضِيَاءُ الشَّمْسِ على الأرضِ، إنَّمَا يَتِمُّ يَوْماً فَيَوْماً بِتَقْدِيرٍ حَكِيمٍ، وقُدْرَةٍ ضَابِطَةٍ لِحَرَكَةِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسَها باتِّجاهِ الشَّمْسِ، دُونَ أَنْ تَخْتَلِفَ طَوَالَ مَلَايينِ الأحْقَاب، وهَـٰذَا التقديرُ الحكيمُ مع الْقُدْرَة الضّابِطَةِ لِحَرَكَةِ الأرْضِ لَا تَكُونُ إلَّا مِنَ الرَّبِّ الواحِدِ الأحَدِ، الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبوبِيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ في إلَهِيَّتِهِ.

الآية الكونيّة الرَّابعة: آيةُ جَعْلِ اللَّيْلِ سَكَناً، دلَّ عَلَيْهَا قوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾: وجاءت العبارة في القراءة الأخرى: [**وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَناً**] وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد، فَقِرَاءَةُ «**جَعَلَ**» أبَانَتْ مَا فَعَلَ اللهُ في الماضي، وقراءَةُ «**جَاعِلُ**» أَبَانَتْ مَا يَفْعَلُ اللهُ في الحالِ والاسْتِقْبَالِ لِأَنَّ اسْمَ الفاعِلِ بقُوَّةِ الفِعْلِ المضارع.

أي: وَجَعَلَ ويَجْعَلُ اللَّيْلَ زَمَاناً تَسْكُنُ إلَيْهِ نُفُوسُ النَّاسِ، وتَجِدُ فِيهِ

رَاحَةً وَأُنساً وَطُمَأْنِينَةً، وبِسُكُونِ النُّفُوس إِلَىٰ اللَّيْلِ يَأْتِي النَّوْمُ مُرِيحاً طَيِّباً مُؤَدِّياً لِوَظَائِفِهِ الطبيعيَّة، ومِنْها إعَادَةُ الطَّاقَةِ إلى الْجِسْمِ، ولا سيما إعادَتُها إِلَى الدِّمَاغِ، وإِلَىٰ الجِهَازِ العَصَبيّ، وقَدْ يُسَاعِدُ النَّوْمُ عَلَىٰ بناء الْبُرُوتين، واسْتِعَادَةِ تَحَكُّم الدِّمَاغ والجهاز الْعَصَبي في الْعَضَلَاتِ والْغُدَد وأَجْهِزَة الْجِسْمِ الأخرى، وقَدْ يكُونُ للنَّوْمِ تأثيرٌ في الْحِفَاظِ على أَوْجُهِ النَّشَاطِ الْعَقْلي، والنَّفْسِي، وَمَا زَالَ الْعُلَمَاءُ الكَوْنِيُّونَ يَبْحَثُونَ فِي ظَاهِرَةِ النَّوْم بِوَسَائِلِهم الْكَاشفة، ولَعَلَّهُمُ الآن في أوَائِلِ طَرِيق الْبَحْثِ الْعِلْمِيّ بِالنِّسْبَةِ إلى هَـٰذِهِ الظَّاهِرَة.

الآيَةُ الكونيَّةُ الخامِسَة: آيَةُ جَعْلِ الشَّمْسِ والْقَمَرِ حُسْبَاناً، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الآية قول اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ عَطْفَاً عَلىٰ: «وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً».

الْحُسْبَان: مَصْدَرٌ كالْحِسَاب، ونظيره في المصْدَرِية: الغفران، والشُّكْرَان. يقال لغة: «حَسَبَ الْمَالَ ونحْوَهُ، يَحْسُبُهُ، حِسَاباً، وَحُسْباناً» أي: عدَّهُ، وأحْصَاهُ، وقَدَّره.

أي: وَمِنْ آيَاتِ اللهِ الكونية أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ جَعَلَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ مُقَدَّرَيْنِ في ذَواتهما وفي حَرَكَتَيْهِمَا ومَحْسُوبَيْن حِسَاباً بالِغَ الدِّقَّةِ والإتقان، فَجَعَلَ للشمْسِ مع مَجْمُوعَتِها مَسِيراً في مَجَرَّتها، وجَعَلَ الْقَمَر جرْماً لَا ضِيَاء فيه، وجَعَلَهُ يَدُورُ حَوْلَ الأرض، إذْ يَعْكِسُ عَلَيْها نوراً نَاتجاً عَنِ انْصِبَابِ ضَوْءِ الشَّمْسِ عَلَيهِ، فالْوَجْهُ المواجِهُ للشَّمْسِ مِنْهُ في دورته الشَّهْرِيَّة حول الأرض يُعْطِي من النور بمقدار مَا يَرَىٰ سُكَّانُ الأرضِ مِنْ هذا الْوَجْهِ، وبهذا تَظْهَرُ الأَهِلَّةُ التَّكامليَّة حتَّىٰ يَصِيرَ الْقَمَرُ بَدْراً في مُنْتَصَفِ الشَّهر، ثُمَّ تَظْهَرُ الأهِلَّةُ التَّنَاقُصِيَّةُ حَتَّىٰ لَيْلَةِ الْمَحَاقِ، الَّتِي لَا يَرَىٰ فِيهَا سُكَّانُ الأَرْضِ شَيْئاً مِنْ وجْهِ الْقَمَرِ المواجِهِ للشّمس، ويَكُونُ الْقَمَرُ بَيْنَ الشَّمْسِ والأَرْضِ تَمَاماً.

ويَدُور الْقَمَرُ حَوْلَ الأرْضِ فِي مَدَارِ بَيْضِيٍّ.

هذا التقدير الحسابيُّ البالِغُ الدِّقَّة، مع القدرة الضَّابطَةِ للحركات في الأفْلَاك لَا يُمْكِنُ أَنْ تكونَ إلَّا مِن الرَّبِّ الواحِدِ الأحَدِ، الّذي لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إلَهِيَّتِهِ.

وجاء في النصّ تَعْقِيباً عَلَىٰ التَّنْبِيه على الآيَاتِ الكونيَّة الثالَثةِ والرَّابعَةِ والخامِسَة قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿. . . ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾:

أي: ذَلِكَ الأَمْرُ الْعَظِيمُ، الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ تَقْدِيرَ عَنَاصِرِهِ وإيجادَهَا بإتْقَانٍ، وَبقَاءَهَا بِدَوَامٍ، أَحَدٌ في الوجودِ، إلَّا الرَّبُّ الَّذِي مِنْ صِفَاتِهِ أَنَّهُ الْعَزِيزُ، الْعَلِيم.

والمشار إلَيْهِ بعبارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ فَلْقُ الإصْبَاحِ، وَجَعْلُ اللَّيْلِ سَكَناً بالْمَوَاءَمةِ الحكِيمَةِ بَيْنَ اللَّيْلِ وطَبَائِع النَّاسِ، وَجَعْلُ مَقَادِير الشَّمْسِ والْقَمَرِ وَصِفَاتِهِمَا وَحَرَكَاتِهِمَا، مع المواءمَةِ بينهما وبَيْنَ الأرْضِ وسُكَّانِها.

الْعَزِيزُ: أي: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ قُوَّةٍ مُنَافِسَةٍ، أَوْ مُعَارِضَةٍ، أو مُقَاوِمَة، الْكَامِلُ في عِزَّتِهِ.

الْعَلِيم: أي: الْكَامِلُ فِي عِلْمِهِ، وهو الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

الآية الكونيَّةُ السّادِسَة: آيَةُ جَعْلِ النَّجُومِ في السَّمَاءِ ذَاتَ مَواضِعَ وحَرَكَاتٍ تَهْدِي النَّاسَ ليلاً في طُرُقَاتِهِمْ، لِبُلُوغِ أمَاكِنَ كانُوا يَضِلُّونَ عَنْهَا لَولَا هِدَايَةُ النُّجوم لَهُمْ، ومن الْبَدَهِيِّ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ السَّيْطَرَةَ عَلَىٰ النُّجُومِ في السَّمَاوَاتِ وَجَعْلَهَا هَادِيَةً للنَّاسِ حِينَما يَسِيرُونَ في طُرقَاتِهِمْ بَرّاً، وحينَمَا يَرْكَبُونَ مَرَاكِبَهُمْ بَحْراً وَيُوجِّهُونَها لِلْبِلَادِ الَّتِي يَبْغُونَ الْوُصُولَ إليها إلَّا رَبُّ الْعَالَمِين.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الآيَـةِ قـول اللهِ تـعـالَـىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ. . . ﴿٩٧﴾﴾:

أي: واللهُ هُوَ وَحدَه الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بِتَقْدِيره الحكِيم، وقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ، النُّجُومَ الْهَادِيَةَ لَكُم في ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ، بِمَوَاضِعَها وَحَرَكَاتِها، عِنَايَةً بِكُمْ لِتَهْتَدُوا مُسْتَخْدِمينَ مَا وَهَبَكُمْ من قُدْرَاتٍ فِكْرِيَّةٍ وَحسِّيَّة. وجاء التعبير: ﴿فِى ظُلُمَٰتِ﴾ للدَّلَالَة على أنَّ الظُّلُمَات ذواتُ نِسَبٍ، ما بَيْنَ أشدِّهَا وأَضْعَفِهَا، وإضافة الظلمات إلى البر والبحر لأدنىٰ ملابسة، أو على تقدير «في».

وأَتْبَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ التَّنْبيه على هَـٰذِهِ الآية مِنْ آيَاتِه الكوْنِيَّة في هذا الدَّرسِ بقوله: ﴿... قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧﴾:

التَّفْصِيل: التَّبيين وكَشْفُ حُدود الأجزاء المتَلاصِقَةِ في الظَّاهِرِ، بإظْهَارِ مَا بَيْنَهَا مِن انْفِصَالٍ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَرْئِيًّا، لِتَمْييز بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ في الإدْرَاكِ الفكريّ.

وقَدْ فَصَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةَ فِي الْخَلْقِ، وَذَكَرَهَا مُفَصَّلَةً في البيانِ الْقُرآنِيّ، للتَّنْبِيهِ عَلَيْها وَاحِدَةً فَوَاحِدَة، وفي هَـٰذَا حِصَارٌ فِكْرِيٌّ بِذِكْرِ الآيَاتِ لَقَوْمٍ لَدَيْهِم الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَعْلمُوا الحقائِقَ المتعلِّقَةَ بِصِفَاتِ الرَّبِّ ذَاتِ الآثارِ في كَوْنِهِ تباعاً، فَكُلَّمَا نُبِّهُوا عَلَىٰ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّةِ تَفَكَّرُوا فيها، وأدْرَكُوا أَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَىٰ طَائِفَةٍ جَلِيلَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ ومع تَتَابُع هَـٰذِهِ الإدْرَاكَاتِ تَنْجَلِي الْمَعْرِفَة، وَترْسَخُ، وتكُونُ لَهَا جُذُورٌ في أعْمَاقِ الْقَلْب، فَمَنِ اسْتَطَاعَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَضْبطَ بإِرَادَتِهِ الْقَوِيَّةِ أَهْوَاءَهُ وشَهَواتِهِ، ويَنْبذَ تَقَالِيدَهُ الْبَاطِلَةَ، واتِّبَاعَهُ الْأَعْمَىٰ، كانَ مِنْ أَهْلِ الإيمانِ والإسْلَامِ لَا مَحَالَة.

اسْتُعْمِلَ الْفِعْلُ المضَارِعُ بعبارَة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ للدَّلَالَة على أَنَّهُمْ يُتَابِعُون تَعَلُّمَ مَا يُنَبَّهُونَ عَلَيْهِ آناً فآناً، عَنْ طَرِيقِ إدْرَاكِ مَا يُوَجَّهُونَ لَهُ، والتَّفَكُّرِ فيه بأَنَاةٍ وَتَحْلِيلٍ وَنَظَرٍ في الظَّوَاهِرِ وأَسْبَابِها.

وقد تكرَّرَ في الْقُرْآنِ الْمَجيد بَيَانُ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ قَدْ فَصَّلَ الآيَاتِ بِمُنَاسَبَاتٍ مختَلِفَاتٍ، نظراً إِلَىٰ قِيمَةِ التَفْصِيلِ فِي إِيْضَاح الْمَعَارِفِ وَتَرْسِيخِهَا في النُّفُوسِ الإِنْسَانِيَّة.

الآيَةُ الكونيَّةُ السَّابِعَةُ: آيَةُ إِنْشَاءِ اللهِ النَّاسَ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ، وَتَسَلْسُلِ الذَّرَارِي تَنَاسُلاً مِنْ ظُهُورِ الآبَاءِ إلى أَرْحَام الأمَّهَات، فَخُرُوجاً إِلَىٰ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، وَهِيَ آيَةٌ عَجِيبَةٌ ذَاتُ عَنَاصِرَ مُدْهِشَةٍ تُذْهِلُ عُقُولَ مَنْ يُدْرِكُونَ أجْزَاءَهَا بِتَفْصِيل، ويَفْقَهُونَ بفَهْم عَمِيقٍ عَظَمَةَ صِفَاتِ الرَّبِّ الخالِقِ المتْقِنِ لَها، والمتابع خَلْقَهَا مَع كُلِّ طَوْرٍ صَغِيرٍ مِنْ أَطْوَارِها، في تَوَالِي أَصْغَرِ الوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الآيَةِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ . . . ﴿٩٨﴾﴾:

الإنْشاء: الإِحْدَاثُ المصْحُوب بالتكامُل المتدرّجِ غالباً.

- ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: هي نَفْسُ آدم أبي الْبَشَرِ عليه السلام.

﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ وفِي القراءة الأخْرَىٰ: [فَمُسْتَقِرٌّ]: **المسْتَقَرُّ** بِفَتْحِ الْقَاف، هو المكان الّذِي يَكُونَ فيه الاسْتِقْرَارُ، أَي: القرارُ والثبوت. **والمُسْتَقِرُّ** بِكَسْرِ القاف هو اسْمُ فَاعِلٍ من فِعْلِ «اسْتَقَرَّ» بمعنَىٰ تَمَكَّنَ في مكانه وسَكن.

إنَّ الفِعْلَ في ﴿أَنشَأَكُم﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ أطْوَارٍ في الْخَلْقِ الإنْشَائِيِّ، ولمَّا كَانَ إِنْشَاءُ كُلِّ إِنْسَانٍ يَمُرُّ في أَطْوَارٍ، وهَـٰذِهِ الأَطْوَارُ قَدْ يكُونُ فِيهَا مُتَنَقِّلاً في أَمْكِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَعَدِّدَة، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُصَاحِبَهُ عِنَايَةٌ مِنَ اللهِ، تَجْعَلُهُ مُسْتَقِرًّا غَيْرَ مُضطَّرِبٍ ولَا قَلِقٍ فِي المُسْتَقَرِّ الَّذِي نَقَلَهُ اللهُ إِلَيْه، وهَـٰذَا المُسْتَقَرُّ هُوَ مُسْتَوْدَعٌ فِيهِ حَتَّىٰ يَحِينَ وَقْتُ نَقْلِهِ مِنْهُ إِلَىٰ مُسْتَقَرٍّ آخر، ضِمْنَ الأَطْوَارِ الَّتِي يَمُرُّ بِها، وَهَكَذَا يَتَنَقَّلُ إِنْشَاءُ الإِنْسَانِ فِي ظُهُورِ الآبَاءِ وبُطُونِ

الْأُمَّهَاتِ، مُسْتَقِرّاً فِي مُسْتَقَرَّاتٍ يُثَبِّتُهُ اللهُ بها، وَهَـٰذِهِ المسْتَقَرَّاتُ هِيَ مُسْتَوْدَعَاتٌ يَكُونُ وَدِيعَةً فِيها مُدَّة اسْتِيدَاعِهِ حَتَّىٰ يَحِينَ وَقْتُ نَقْلِهِ إِلَىٰ مُسْتَودَعٍ آخَرَ يَكُونُ فِيه مُسْتَقِرًّا أَيْضاً فَهُوَ مُسْتَقَرٌّ له.

هَـٰذَا مَا تَرَجَّحَ لَدَيَّ مِنْ فَهْمٍ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: [فَمُسْتَقِرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ].

إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَبَانَ أَنَّهُ خَلَقَ النَّاسَ جَمِيعاً مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ نَفْسُ آدم، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَها، فحينَما كانَتْ مصَغَّرَاتُ أفراد الناس في ظَهْرِ آدم، كانَتْ مُسْتَقِرَّةً بِعِنَايَةِ اللهِ فِي مُسْتَقَرٍّ، وكانَتْ فِيهِ مُسْتَوْدَعَةً قَبْلَ أَنْ تَنْتَقِلَ عَنِ طَرِيق التناسُلِ إلى مُسْتَقرٍ آخرَ هُوَ مُسْتَوْدَعٌ أيضاً.

قال الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ﴿٦﴾﴾.

فدَلَّ الترتيب المتراخِي بحرْفِ الْعَطْفِ «ثُمَّ» عَلَىٰ مُدَّةٍ كَانَتْ فيها نَوَيَاتُ مُصَغَّرَاتِ النَّاسِ في ظَهْرِ آدم عَلَيْهِ السَّلاَمُ مُسْتَقِرَّةً ثابِتَةً فِي مُسْتَقَرٍّ هِيَ فيه وَدِيعَةٌ تَنْتَظِرُ نَقْلَهَا إِلَىٰ مُسْتَقَرٍّ آخرَ في طَوْرٍ آخَرَ.

وأَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّهُ يُقِرُّ في الأَرْحَامِ مَا يَشَاءُ، فَقَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿... وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ... ﴿٥﴾﴾:

فَدَلَّ هَـٰذَا النَّصُّ عَلَىٰ أنَّ اللهَ يُقِرُّ (أي: يُثَبِّتُ) في الأَرْحَام مِنَ الْأَجِنَّةِ مَا يَشَاءُ، فهَـٰذِهِ الْأَرْحَامُ مُسْتَقَرَّاتٌ لِلْأَجِنَّةِ فِي الطَّوْرِ الَّتِي تَكُونُ فيها، وهِيَ أَيْضاً مُسْتودَعَاتٌ حَتَّىٰ يَحِينَ خُرُوجُ الأَجِنَّة مِنها.

وَقَال اللهُ تَعَالَىٰ في سورة (المرسَلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣)﴾:

فَدَلَّ هَـٰذَا النَّصُّ عَلَىٰ أَنَّ رَحِمَ الْأُمِّ قَرَارٌ مَكِينٌ، أي: مَكَانُ اسْتِقْرَارٍ وثُبُوتٍ مُلَائِمٍ لِنُمُوِّ الْجَنِينِ وثَبَاتِهِ حَتَّىٰ وِلَادَتِهِ.

وأَتْبَعَ اللهُ عزَّ وجلَّ التَّنْبِيهَ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الآيَةِ السَّابعَة مِنْ آيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّة بقوله تعالى: ﴿... قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)﴾:

سَبَقَ تَدَبُّرُ شَبِيهِ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ في الآيَةِ السَّابِقَة، لَكِنْ جاء في هَـٰذِهِ الآيَـةِ عِـبَـارَة ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ وَفـي الآيـة الـسَّـابِـقَـةِ. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. والسَّبَبُ في هَـٰذَا التنويع فِي التَّعْبِير أنَّ إِدْراكَ مَا جاء في الآيَةِ السَّابعة يَتَطَلَّبُ فِقْهاً، وهو أخصُّ من مُطْلَقِ الْعِلْم.

الفِقْه: يسْتَعْملُ للدَّلَالَةِ على العلم ببواطن الأمور وخَفَايَاهَا ودَقائِقِها.

- ﴿يَفْقَهُونَ﴾: أيْ: يُتَابِعُونَ الْبَحْثَ فِي بواطن الأمُور وخَفَايَاهَا ودَقَائِقِهَا، بُغْيَةَ الْوُصُولِ إلى كمال الحقيقَةِ أَوْ أَكْثَرِ مِقْدَارٍ مُسْتَطَاعٍ مِنْها.

فالمعنى: واللهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَفْقَ خُطَّةِ الإِنْشَاءِ المتَدَرِّج، إشْتِقَاقاً مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ هِيَ نَفْسُ آدَمَ، فَتَنَقَّلْتُم في أَطْوَارٍ كُلُّ طَوْرٍ لَكُمْ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ حَتَّىٰ خَرَجْتُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ، لِتَعِيشُوا في حَيَاةِ الابْتِلَاء، فَكَانَتِ الْأَرْضُ لَكُمْ مُسْتَقَرّاً وَمُسْتَوْدَعاً حَتَّىٰ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ فيها، فَكَانَ لأَجْسادِكم في باطِنِ الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ حَتَّىٰ سَاعَةِ القِيامَةِ، فَكَانَ لَكُمْ في أَرْضِ الْمَحْشَرِ مُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ، فَمَنْ قَضَىٰ اللهُ لَهُ بالْخُلُودِ فِي الْجَنَّةِ، فالجَنَّةُ لَهُ هِيَ دَارُ القرار، ومَنْ قَضَىٰ اللهُ عليه بالْخُلُودِ في دَارِ الْعَذَابِ فَهِيَ مُسْتَقَرُّه الْأَبَدِيّ، ومَنْ قَضَىٰ اللهُ بأنْ يَدْخُلَهَا مُؤَقَّتاً لِينَالَ نَصِيبَهُ مِنَ العذاب، فهِي لَهُ مُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ ثُمَّ يُخْرِجُهُ اللهُ مِنْهَا لِتَكُونَ لَهُ الجَنَّةُ دَار الْقَرَار الأبدِي.

ويَفْقَهُ هَـٰذِهِ الحقيقةَ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ الاسْتِعْدَادُ لمتابَعَةِ الْبَحْثِ في بواطِنِ الْأُمُورِ وخَفَايَاهَا وَدَقَائِقِها.

الآية الكونيّة الثامِنَة: آيَةُ إِنْبَاتِ أنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ، دَلَّ على هذه الآيَةُ الكَوْنِيَّةِ العجيبة، قول الله عزَّ وجلَّ في الآيَةِ الأخِيرَةِ مِنْ هَـٰذَا الدَّرْسِ:

﴿**وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾**﴾:

﴿**وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...**﴾: أي: واللهُ هُو وحْدَهُ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ (أي: مِنَ السَّحاب) مَاءً، فَلَفْظُ السَّمَاءِ يُطْلَقُ لُغَةً عَلَىٰ كُلِّ مَا عَلا فأظَلَّ، والسَّحَابُ قد عَلا وأظلَّ.

وقَدْ دَلَّتْ هَـٰذِهِ الْعِبارَةُ عَلَىٰ أنَّ الْماءَ الصَّالِحَ لإنْباتِ النَّباتَاتِ هُو ما نَزَلَ مِنَ السُّحُبِ مَطَراً، أَوْ بَرَداً، أَوْ ثَلْجاً، فَسَقَىٰ الأرْضَ مُبَاشَرة، أو جَرَىٰ أَنْهراً، أوْ دَخَلَ فِي مَداخِلَ مِنَ الْأَرْضِ، وَتَجَمَّعَ في جَوْفِهَا، وتفجَّرَ أَوْ نبَعَ عُيُوناً، أو حُفِرَتْ إِلَيْهِ آبار لاسْتِخْرَاجِهِ مِنْها.

وتعَلَّمَ النَّاسُ مِنْ تبَخُّرِ مِياهِ الْبِحَارِ وتَجَمُّعِها سُحُباً، ونُزُولِها بَعْدَ ذَلِكَ مِياهاً حُلْوَةً صَالِحَةً لِشُرْبِ الناس والدَّوَابِّ وصالحةً للإنْبَاتِ، طَرِيقَةَ تَحْلِيَةِ المياهِ المالِحَةِ، للانتفاع بها في هَـٰذِهِ الأغْرَاض.

● ﴿**... فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ...**﴾: الْتَفَتَ الْبَيَانُ مِنْ الحديث بضمِير الغائب، إلى الْحَدِيثِ بِضَمِير المتكلِّم الْعَظِيم، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، لِأَنَّ إِخْرَاجَ النَّبَاتِ مِنْ آياتِ اللهِ العظْمَىٰ في كَوْنه، فَيُلائِمُهُ أنْ يَقُول اللهُ بِشَأْنِهِ: ﴿**فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ**﴾.

أي: فَأَخْرَجْنا بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِنا الْعُظْمَىٰ بالماءِ الَّذِي أَنْزَلْنَاهُ مِن السَّماءِ

فَاخْتَلَطَ بِتُرَابِ الْأَرْضِ، نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ جعَلْنَا فِيه طَبيعَةَ النُّمُوُّ النَّبَاتِي، من حَبٍّ ونَوَىٰ، وبُزُورٍ وجُذُور، إذا كان مُجَاوِراً أَوْ مُلْتصقاً بِتُرَابٍ مُبَلَّلٍ، مَعَ تَحَقُّقِ شُرُوط أُخْرَىٰ جَعَلْنَاهَا شُروطاً للنبات.

العُمُوم فِي عِبَارَةِ: ﴿... نَبَاتَ **كُلِّ شَيْءٍ** ...﴾ يُخَصِّصُه الْوَاقِعُ بِكُلِّ شيءٍ لَهُ طَبِيعَةُ النُّمُوِّ النَّبَاتِي.

• ﴿... **فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا** ...﴾: أي: فأخْرَجْنَا مِنَ النبَاتِ زَرْعاً ناعماً رَطْباً أخْضَر.

الْخَضِرُ: الزَّرْع الناعم الْغَضُّ الرَّطْبُ الْأَخْضر، يقال لغة: «خَضِرَ الزَّرْعُ» أي: نَعِمَ وَاخْضَرَّ فَهُو «خَضِرٌ، وأخْضَر».

وهَـٰذِهِ ظاهِرَةٌ مَشْهُودَة في نباتاتِ الأرض.

• ﴿... **نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا** ...﴾: أيْ: حَالَةَ كَوْنِنَا نُخْرِجُ مِنَ الخَضِرِ بِخَلْقٍ بَعْدهُ خَلْقٌ حَبًّا يَرْكَبُ بَعْضُهُ بعضاً، على مَعْنَىٰ: مُتَلاصِقاً يَعْلُو بَعْضُهُ بَعضاً، كَسَنَابِلِ الْقَمْح والشَّعِير، وغيرِهما. شُبِّهَ هَـٰذَا التلاصُقُ مَعَ عُلُوِّ بَعْضِهِ عَلَىٰ بَعْضٍ بِأَشْيَاءَ مُتَعَدِّدَةٍ ذَوَاتِ حَرَكَاتٍ إرَادِيَّةٍ، فَبَعْضُهَا يَرْكَبُ بَعْضاً بارْتِقَاءٍ، فَتَكُونُ بِمَجْمُوعِها مُتَرَاكِبَة، أي: رَاكِبَةٌ غَيْرَهَا، وَمَرْكُوبَةٌ مِنْ غَيْرِها.

• ﴿... **وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ** ...﴾:

طَلْعُ النَّخْل: غلافٌ يُشْبِهُ الكُوز، يَنْفَتِحُ عَنْ حَبٍّ مَنْضُود، فيه مادَّة إخصاب النّخلَةِ. ويُطْلَقُ على كلِّ مَا يَطْلُعُ في الشَّجرِ مِنْ ثَمرٍ تَوَسُّعاً.

قِنْوان: جَمْعُ «قِنْو» وهو الْعِذْقُ الّذِي يكُونُ ثَمرُ النَّخْلِ نَابِتاً مِنْهُ، ومُتَعَلّقاً بِه.

أي: وَيَخْرُجُ مِنَ النَّخْلِ بِخَلْقِنَا مِنْ طَلْعِهَا قِنوانٌ ثَمرَاتُها مُنَضَّدَاتٌ

مُدَلَّيَاتٌ، قَرِيباتُ التَّنَاوُلِ دَانِيَاتٌ، حِينَ تَكُون نَخْلَاتُها قَصِيرات، وَلَيْسَتْ صَعْبَةَ التَّناوُل حِينَ تكونُ نَخلاتُها شَامِخَات.

﴿... وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ...﴾: أي: ونُخرِجُ أيضاً جنَّاتٍ مِن أعْنَاب.

جَنَّات: جمع «جَنَّة» وهي مَا يَحْتَوِي على أشجار وثمارٍ وزُروع وأنْهارٍ.

أعْنَاب: جَمْعُ «عِنَب» وهُو ثَمَرُ الكَرْمِ وهُو طَرِيّ.

أي: ونُخْرِجُ جَنَّاتٍ مِنْ أَشْجَارِ أعْنَاب. وفي بيان هَٰذَا ذِكْرٌ لِبَعْضِ آيَاتِ اللهِ في الإنْبَاتِ، مَعَ الامْتِنَانِ عَلَىٰ النَّاسِ بِهَٰذِهِ الثَّمَرَةِ المباركَةِ النافِعَةِ غِذاءً ودَواءً.

- ﴿... وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ...﴾:

- ﴿مُشْتَبِهًا﴾: اسم فاعل من فِعْل «اشْتَبَهُ» بمعنَىٰ «اخْتَلَطَ» يُقال لغة: «اشْتَبَهَ الْأَمْرُ على فُلانٍ» أي: اخْتَلَطَ في تَصَوُّرِهِ بِغَيْرِهِ، لِكَثْرَةِ عَنَاصِرِ التَّمَاثُلِ بَيْنَهُمَا حَتَّىٰ كأنَّهُمَا مُتَمَاثِلَانِ تَمَاثُلاً تَطَابُقِيًّا.

وتُؤَكِّدُ الملاحظة أنَّ الْأَشْجَارَ والثَّمَرَاتِ مِنْ صِنْفٍ واحِدٍ لَا يَتَحقَّقُ فيها التَّمَاثُلُ التَّطَابُقِيُّ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ اخْتَارَ بِصِفَاتِ رُبُوبِيتِهِ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ فِي كَوْنِهِ طَبْعَةً خَاصَّةً بِهِ، فَجَعَلَ لِكُلِّ شَجَرَةٍ مَعَ وَحَدَاتِ نَوْعِها طَبْعَةً خَاصَّةً بِها، وَجَعَلَ لِكُلِّ وَرَقَةٍ وثَمَرَةٍ مِنْ شَجَرَةٍ واحِدَةٍ طَبْعَةً خاصَّةً بها، فالتَّمَاثُلُ المنْظُورُ فيها هُوَ مِنَ الاشتِبَاه، لَا مِنَ التَّمَاثُلِ التَّطَابِقِيّ.

لِهَٰذَا كانَ مِنَ الدِّقَّةِ في الْبَيَانِ الرَّبَّانِي، أَنْ يُعَبَّرَ عَمَّا يَرَاهُ النَّاسُ مُتَمَاثِلاً بعِبَارَةِ: «مُشْتَبِه» أي: يَظُنَّ الرَّاؤون من النّاسِ أَنَّهُ مُتَمَاثِلٌ تَمَاثُلاً تَطابُقِيًّا، مَعَ أَنَّهُ في حَقِيقَتِهِ مُتقَارِبٌ في الصِّفَاتِ تَقَارُباً يَقَعُ فِيهِ الاشتِبَاهُ،

وهُوَ الاختلاطُ الَّذي يَنْعَدِمُ فيه التمييز بين المختلفات.

﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾: أي: وغَيْرَ مُتقَارِب الصّفَاتِ، فَلَا يَلْتَبِسُ على الناظِر الافتراق في الصفات، بَلْ يَسْتَطِيعُ التَّمْييز بَيْنَ الصِفَاتِ المختلفات في الأفراد بِسُهُولَةٍ وَيُسْر.

يُقَال لغة: «تَشَابَهَ الشَّيْئَانِ، فَهُمَا مُتَشَابِهَانِ» أي: أشْبَهَ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخَرَ حَتَّىٰ الْتَبَسَا.

واخْتِيرَ التَّفْرِيقُ اللَّفْظِيُّ بَيْنَ التعْبِيرين: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ للتنويع، والدَّلَالَةِ عَلى أنَّ الاشْتِبَاهُ كالتَّشَابه، لأنَّ الاشتباه من طَرَفٍ يلزم عنه عقلاً التشابهُ مِن الطرفين، واختير في التعبير تأخير لفظ «مُتَشابه» لأنَّهُ ألْيَقُ بالوَقْفِ عَلَيْهِ إذا حَصَلَ الوَقْف، لما فِيهِ من الألِف المدِّيَّةِ قَبْلَ آخِرَيْهِ، ثُمَّ جاء التعبير في الآية (١٤١): ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾ لِأن إدْراك تشابه الطرفينِ أَسْرَعُ إلى الذّهن.

والمعنى: وأخْرجْنا بِالْمَاءِ مُخْتَلِطاً بتُرَاب الْأَرْضِ أشْجَارَ الزَّيتُونِ وأَشْجَارَ الرُّمَّانِ وثمَارَهُمَا. حُذِفَ المضافُ وَأنيب المضافُ إِلَيْهِ مَنابه.

واخْتِيرَ ذِكْرُ هَـٰذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الْأَشجار لِمَا لَهُمَا مِنْ قِيَم نَفْعِيَّةٍ للنَّاسِ غِذَاءً، وفَاكِهَةً وَدَوَاءً، وعِنْدَ عُلَمَاءِ النَّبَاتَاتِ والتَّغْذِيَةِ، وَعُلَمَاءِ التَّدَاوِي بِالنَّبَاتَاتِ بُحوثٌ مُطَوَّلَةٌ لمن أَرَادَ مَعْرِفَةَ الفوائِدِ النَّفْعِيَّةِ لِهذَيْنِ النوعَيْن.

- ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ﴾:

الْيَنْعُ: مَصْدَرُ «يَنَعَ الثَّمرُ، يَيْنَعُ، يَنْعاً، ويُنْعاً، ويُنُوعاً» أي: نَضِجَ وَطَابَ، وحَانَ وَقْتُ قِطَافِهِ لِلْأَكْلِ مِنه.

ويقال لغة: «أَثْمَرَ الشَّجَرُ» أيْ: ظَهَرَ ثَمَرُه.

في هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ دَعْوَةٌ مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ للنَّاس، أَنْ يَنْظُرُوا إلَىٰ

ثَمرِ النَّبَاتِ إِذَا أَثْمَرَ نَظَرَاتِ تَفَكّرٍ في بَدِيعِ صُنْعِهِ في خَلْقِهِ للنَّبَاتِ مُتَنَقِّلاً في أَطْوَارٍ، وَإِلَىٰ عِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، إِذْ خَلَقَ لَهُمْ مَا فِيهِ غِذَاؤُهُمْ، وَفاكِهَتُهُمْ، وَدَوَاؤُهُمْ، وَأَنْوَاعُ مَتَاعٍ لَهُمْ فِي الحياة الدُّنيا، ومِنْهَا الاسْتِمْتَاعُ الْجَمَالِي فيما يُخْرِجُ من نباتات.

• ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

أَرَىٰ أَنَّ اسم الإشارة في: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يُشَارُ بِهِ إِلَىٰ مَا نَبَّهَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَيْهِ مِن آياتِهِ الْكَوْنِيَّةِ الثَّمانِ في هَـٰذَا الدَّرْسِ.

واسْتُخْدِمَ اسْمُ الْإِشَارَةِ الَّذِي يُشَارُ بِهِ إلى المشَارِ إِلَيْهِ الْبَعِيد، للدَّلَالَةِ على عِظَمِ هَـٰذِهِ الآياتِ الكَوْنِيَّةِ، وارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِها.

﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لَعَلَامَاتٍ جَلِيَّاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ حَقَائِقَ عِلْمِيَّةٍ، هَادِيَةٍ إِلَىٰ صِفَاتٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِكَوْنِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وسَمَتْ عِنَايَتُهُ بِعِبَادِهِ ـ فَمَنْ لَدَيْهِم الاسْتِعْدَادُ الإرَادِيُّ، الضَّابِطُ لأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، والنَّابِذُ للتقالِيدِ الباطِلَةِ، والاتِّبَاعِ الْأَعْمَىٰ، آمَنُوا بأَنَّ اللهَ هُوَ الْوَاحِدُ في رُبُوبِيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، فَهُوَ الْوَاحِدُ في إِلَٰهِيَّتِهِ لِعِبَادِهِ، وَآمَنُوا بالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا فِيهِ مِنْ جزاء بالثواب وبالْعِقَاب، وآمَنُوا بِرَسُولِهِ وبما بَلَّغَهُمْ إيّاه عَنْ رَبِّهِ، فأَسْلَمُوا وعَبَّرُوا عَنْ إيمانِهم الصَّادِقِ وإسْلَامِهِمْ لِرَبِّهِم، بأَعْمَالٍ صَالِحةٍ تُرْضِيهِ، لِيَفُوزُوا بالْخُلُودِ يَوْمَ الدِّينِ بِجَنَّاتِ النَّعِيم.

فِعْلُ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ اسْتُعْمِلَ هُنَا بِمَعْنَىٰ الاسْتِقْبَال، أي: لِقَوْمٍ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً، فَيَخْرُجُ الَّذِينَ لَيْسُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْبَؤُونَ بِهَـٰذِهِ الآيَاتِ وَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيها، فَهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بها.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدرس الحادي والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❊ ❊ ❊

(٢٦)
التدبّر التحليليّ للدّرْس الثاني والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٠٠ ـ ١٠٣)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

القراءات:

(١٠٠) ● قرأ نافع، وأبو جَعْفر: **[وَخَرَّقُوا]** بِتَشْدِيدِ الراء، أي: بالَغُوا بالافتراء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَخَرَقُوا]** براء مَفْتُوحَةٍ دُونَ تَشْدِيد.

والقراءتان تُعبِّرَانِ عَنْ فَرِيقَيْنِ من الكافرين: أَحَدُهُمَا بالَغَ بالافتراء على الله، والآخَرُ لَمْ يُبالِغْ بذلِك.

تمْهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْس مِنْ فُرُوع السَّاقِ الأوّل أيْضاً مِنْ سَاقَيْ شَجَرَةِ مَوْضُوع السُّورَة.

وفيها عَرْضُ بَعْضِ عَقَائِدِ المشْرِكين من وَثَنِيِّينَ وأَهْلِ كِتَابٍ يَزْعُمُونَ أَنَّ للهِ وَلَداً، مَعَ تَعْقِيبٍ حَكِيمٍ مُلائِم فيه بَيَانُ الحقِّ الرَّبَّانِي، وأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ في الكَوْنِ كُلِّه، فَلَا وَلَدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ له تُنْجِبُ لَهُ وَلَداً، لأنَّهُ مُنَزَّهٌ عن ذلك.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

السُّورَةُ تُعَالِجُ ضَلاَلاَتِ الْمُشْرِكِين في مَكَّةَ وَمَا حَوْلَها، وَقَدْ تُدْمِجُ فيها ضَلاَلاَتٍ مُشَابِهَاتٍ مِنْ ضَلاَلاَتِ الْيَهُودِ والنصارىٰ والْمَجُوس وغَيْرِهِمْ، تَمْهِيداً لإبْطَالِ ضَلاَلاَتِ كُلِّ الْكَافِرِينَ، فِي نجوم التنزيلِ الَّتِي كانَ يَتَتَابَعُ تَنْزِيلُها، واسْتَمَرَّ حَتَّىٰ أَوَاخِرِ التَّنْزِيلِ الْمَدَنِيّ.

وَذَكَرَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ ضَلاَلَتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ مِنْ الضَلاَلاَتِ المكَفِّرَاتِ المتعلِّقَاتِ بذاتِ اللهِ وَصِفَاته.

الضَّلاَلَةُ الأُولى: اتِّخَاذُ المشْرِكِينَ الْجِنَّ شُرَكَاءَ للهِ فِي إلَهِيَّتِهِ، دَلَّ عَلى هَـٰذِهِ الضَّلاَلَةِ المَكَفِّرَةِ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾: أي: فَعبُدُوا الْجِنَّ مِنْ دُونِ اللهِ، وهَؤُلاَءِ الْجِنُّ الَّذِينَ عَبدُوهُمْ هُمْ مِنَ الشَّيَاطِينَ، لَا مِنَ الْجِنِّ المؤْمِنِينَ، وَعِبَادَتُهُمْ لَهُمْ كانَتْ بِطَاعَتِهِمْ فيما كانُوا يَأْمُرُونَهُمْ به، وفيما كانوا يَنْهَوْنَهُمْ عَنْهُ، وعِبَادَةُ المشْرِكِينَ الأوثَانَ قَدْ كانَتْ طَاعَةً مِنْهُمْ لِبَعْضِ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ الشَّيَاطِين، وتَحْرِيمُ المشْرِكِينَ لِبَعْضِ مَا أَحَلَّ اللهُ، قَدْ كانَ طاعَةً مِنْهُمْ لِبَعْضِ مَا نَهَاهُم عنه الشياطين.

وتَدُلُّ عَلَىٰ هَـٰذَا نُصُوصٌ قرآنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، مِنْهَا النُّصُوصُ التالية:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يسٓ/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول): بِشَأْنِ يَوْمِ الحساب:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾: **الشيطان**: اسم جنسٍ يشمل إبْلِيسَ وجنوده.

(٢) قوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

إن الشَّيَاطِينَ مِنَ الْجِنِّ يَكْذِبُونَ عَلَىٰ قُرَنَائِهِمْ من الإنْس، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: إِنَّهُمْ مَلَائِكَة، فَيُمَجِّدُونَهُم عَلَىٰ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ، ويُطِيعُونَهُمْ فيما يُمْلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهِي، فيها شِرْكِيَّاتٌ وكُفْرِيَّات وَمَعَاصِي للهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

(٣) قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

الضَّلَالَةُ الثانِية: الافتراءُ عَلَىٰ اللهِ بِأَنَّ لَهُ بَنِينَ وَبَنَات.

دَلَّ على هَٰذِهِ الضَّلَالَة قول اللهِ تَعَالَىٰ في الآية: ﴿... **وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ** ... ﴿١٠٠﴾﴾.

• ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾: أي: وخَلَقَهُمُ اللهُ رَبُّهُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم، وأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِنِعَمٍ كثيرَةٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَهَا، وبقاؤهم في الوجود بنِعَمِهِ.

• ﴿وَخَرَقُوا۟﴾: أي: وافْتَرُوا واخْتَلَقُوا كذِباً.

• ﴿لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ أي: واخْتَلَقُوا للهِ بَنِينَ وَبَنَاتٍ كَذِباً، زاعِمِينَ أَنَّ للهِ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، ومِنْهَا زَعْمُهُمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ.

• ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: أي: واخْتَلَقُوا كَذِباً اخْتِلَاقاً غَيْرَ مُقْتَرِنٍ وَلَا مُؤَيَّدٍ وَلا مَصْحُوبٍ بأيِّ عِلْمٍ يَدُلُّ دَلَالَةً وَهْمِيَّةً عَلَىٰ أَنَّ للهِ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، إِنَّمَا هُوَ مَحْضُ افتراء على اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعظم سُلْطَانِهِ، ولعلّ بعض المشركين قد تأثَّروا بِبَعْضِ أَهْلِ الكِتَابِ فادَّعَوْا أَنَّ للهِ ابْناً أو بنين:

وقد أَبَانَ الله عزَّ وجلَّ تَنَزُّهَهُ وَتَعَالِيَهُ عن أنْ يَكُونَ الجِنُّ أَوْ بَعْضٌ مِنْهُمْ شُرَكَاءَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أو في إِلَهِيَّتِهِ، وعن أَنْ يكُونَ لَهُ أولادٌ بَنُونَ أَوْ بَنَات، فقال تَعالَى: ﴿... سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

• ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾: أي: تَنْزِيهاً وَتَقْدِيساً لَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفَ بِهِ، مِنْ صِفَاتٍ لَا تَلِيقُ بأَزَلِيَّتِهِ وَأَبَدِيَّتِهِ وكَمَالَاتِهِ وَتَبَرُّئِهِ مِنَ الاحْتِيَاجِ لِشَيْءٍ، إذْ لَهُ الكمالُ المطْلَقُ في ذَاتِهِ وفِي كُلِّ صِفَاتِهِ.

«سُبْحان» هو في مَوْضع المصْدَر، والأَصْلُ فِيه: أُسَبِّحُ اللهَ تَسْبِيحاً، أي: أُنَزِّهُهُ تَنْزِيهاً. وهو اسْمٌ عَلَمٌ لمعْنَىٰ الْبَرَاءَةِ والتَّنْزِيهِ، وفِيهِ زِيادَةُ الألِفِ والنّونِ، فهو لهذا لَا يُنَوَّنُ لأنّه ممنوعٌ من الصرف.

• ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾: أيْ: وَتَسَامَىٰ تَسَامِياً مُطْلقاً بَعِيداً عَنْ صِفَاتِ الحادِثات كُلِّها.

• ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾: أيْ: تَنَزَّهَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُهُ هَـٰؤُلَاءِ المفْتَرُونَ الّذِينَ جَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ مِنَ الجِنّ، والّذِينَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْم.

بين: «خَلَقَ» و«خَرَقَ» من عِبَارَةِ: ﴿وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟﴾ جِنَاسٌ ناقص، مع التقارُب في النُّطْق بَيْن اللّام والرَّاء، فهو شبيه بالجناس التام.

■ قول الله تَعالَىٰ:

• ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾:

﴿بَدِيعُ﴾ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ بِمَعْنَىٰ «مُبْدِع» أيْ: مُوجِدٌ مُحْدِثٌ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ.

يقال لُغةً: «بَدَعَهُ، يَبْدَعُهُ، بَدْعاً» أي: أَنْشَأَهُ عَلى غَيْرِ مِثَالٍ سابق، فهو «بَدِيعٌ» يُقال لاسم الفاعل ولاسم المفعول.

• ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ أي: اللهُ مُوجِدُ ومُحْدِثُ السَّماوَاتِ والأَرْضِ وَمَا فِيهما عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، إِذْ أَبْدَعَ كُلَّ مَا فِيهما عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَابقٍ لَهُمَا، فالسَّمَاوَات والأَرْضُ وَجَمِيعُ مَا فِيهِمَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِبْدَاعٌ مِنْ إِبْدَاعِه.

• ﴿... أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ...﴾؟:

«أَنىٰ» تأْتِي بمعنى «كَيْفَ» وتَأْتِي بمَعْنَىٰ «مِنْ أَيْن» وكلا المعنَيَيْنِ هُنَا صَالِحَان، وهي اسْتِفْهَامِيَّة.

فالمعْنَىٰ: كيف يَكُونُ لَهُ ولدٌ، ومِنْ أَيْنَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ قَبْلَ خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا فِيهِما، ولا بَعْدَ خَلْقِهِ لَهُمَا صَاحِبَةٌ، لِأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ حَاجَتِهِ لِصَاحِبَةٍ تَكُونُ زَوْجَةً لَهُ؟؟

إِنَّه اللهُ الأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد.

في هَٰذَا بيانُ بُطْلَانِ مَقَالَاتِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ اللهَ أَنْجَبَ وَلَداً، عَلىٰ مَا يَعْهَدُونَ مِنَ التَّنَاسُلِ عَنْ طَرِيقِ الزَّوْجَاتِ، ومن هَٰذَا تَوَهُّمُ بَعْضِهِمْ أَنَّ اللهَ تزَوَّجَ نِسَاءً مِنْ سَرَواتِ الجنِّ فَوَلَدْنَ لَهُ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً.

والَّذِينَ كانوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الملائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ هم قُرِيش، وجُهَيْنَةَ، وبنو سَلِمَة، وخُزَاعة، وبَنُو مُلَيْح.

• ﴿... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ...﴾: أي: واللهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ في الْوُجُودِ سِوَاه، فَكَيْفَ يَكُونُ شَيْءٌ هُوَ خَلقَهُ وَلَداً لَهُ مُشْتَقًّا مِنه؟ هَٰذَا سَاقِطٌ بَدَاهَةً، فالمخْلُوقُ للخالِقِ لَا يَكُونُ وَلَداً لَهُ، والْوَلَدُ لِوَالِدٍ لَا يَكُونُ مَخْلُوقاً له، بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ لِخَالِقٍ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

• ﴿... وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾: أيْ: واللهُ عَلِيمٌ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً شَامِلاً مُحِيطاً بِكُلِّ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ فيه، فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ

ولَا في إلَهِيَّته، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بَنِينَ لَهُ وَلَا بنات، فَهُو جَلَّ جَلَالُهُ يُخْبِرُ بِالْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ، وَلَوْ كان يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ شَرِيكاً مَا، أَوْ ولَداً ما لَأَخْبَرَ بِذَلِكَ ولَمْ يَكْتُمْهُ وَلَمْ يُبْطِلِ ادِّعَاءَ مُدَّعِيهِ.

■ قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾:

يُخَاطِبُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهذا المعْنِيِّين بِالمعالَجَةِ، ويُلْحَقُ بِهِمْ كُلُّ الْمَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابتلاء.

• ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ...﴾: أي: ذَلِكُم العظيم الْجَلِيلُ الْمُنَزَّهُ عَنِ الشريكِ والوَلَدِ والصَّاحِبةِ، والَّذِي هُوَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، والَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وُجِدَ أَوْ هُوَ مَوْجُود، والَّذِي هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم، هو اللهُ رَبُّكُمْ المتَصَرِّفُ بِكُم بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً مُنْذُ أَوْجَدَكُمْ، والَّذِي يَتَصَرَّفُ بِكُمْ مَا دَامَ لَكُم وُجودٌ، فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِيما بَعْدَهَا.

• ﴿... لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴾ أي: لَا مَعْبُودَ في الْوُجودِ كُلِّهِ بِحَقٍّ إِلَّا هُوَ، وكلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ فإلَهِيَّتُهُ بَاطِلَةٌ، وعبادَتُهُ باطلة.

• ﴿... خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ...﴾: أَيْ: هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ يُوجَدُ مُسْتَقْبلاً، كَمَا خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وُجِدَ فِيمَا مَضَىٰ، فَلَا شَيْءَ قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ أو سَيَكُونُ أو سَوْفَ يَكُونُ إلَّا هُوَ خَلَقَهُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

• ﴿... فَٱعْبُدُوهُ ...﴾: أي: فاعْبُدُوه وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

العِبَادةُ: هي الخضوعُ، والطَّاعَة، والقيامُ بمَا يُرْضي المعبُودَ، وَتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيه، ورأْسُ العبادة الدُّعَاءُ بالْغَيب، لتحقيق مطالِبِ الدُّنيا

والآخرة. وهذه العبادة الاختياريَّة لَا تكُونَ إلَّا للرَّبِّ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُم سُلْطانه ـ فهو وَحْدَه الَّذِي يَسْتَحِقُّها.

والعبادة بتعبير آخر: هي السُّلُوكُ الإرَادِيُّ الواعي، المحقِّقُ لمطْلُوبِ الرَّبِّ مِنْ عَبْدِهِ، ولِمَا يُرْضِيهِ مِنْهُ عَلَىٰ مَا شَرَعَ، مع قَصْدِ عبادَتِهِ له وحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

• ﴿... **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴿١٠٢﴾﴾: أي: وهُــو ـ جَـلَّ جَلَالُهُ ـ مُهَيْمِنٌ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ في الْوُجُودِ كُلِّهِ هَيْمَنَةَ إمْدَادٍ بأسْبَابِ البقاء وشُرُوطه، وهَيْمَنَةَ حِفْظٍ وَرَقَابَةٍ دَائِمَيْنِ، عَلَىٰ وَفْقِ خُطَّةِ تَكْوِينِ كُلِّ شَيْءٍ، تَرْقِيَةً إلَىٰ كَمَالِ الشيءِ، أَوْ تنكِيساً له، حتَّىٰ إنْهَاءِ مَا قُدِّرَ لَهُ مِنْ دَرَجَاتٍ صَاعِدَاتٍ، أَوْ دَرَكَاتٍ نازِلَات، أَوْ مُرَاقَبَةِ سُلُوكِهِ الإرَادِيّ إنْ كَانَ مِنْ ذَوِي الإرادَاتِ الْحَرَّةِ الموضوعين في الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابتلاء، أَوْ مُراقَبَةِ تَأْدِيَةِ كُلِّ مُكَلَّفٍ وَظِيفَتَهُ الَّتِي كُلِّفَ القيامَ بِها، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تتطلّبُهُ وَكَالَةُ الْوَكِيلِ على الشيءِ وهيْمَنَتُهُ عَلَيه.

• ﴿... **لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ** ...﴾: أي: لَيْسَ لِأَبْصَارِ كُلِّ ذَوِي الأَبْصَارِ مِنَ المخْلُوقِينَ قُدْرَةٌ عَلَىٰ إدْراكِ ذَاتِهِ جلَّ جَلَالُه إدْرَاكَ إحَاطَةٍ.

إدْرَاكُ الْبَصَرِ لِشَيْءٍ مَا: هُوَ رُؤْيَتُهُ عَلَىٰ سَبِيلِ الإحَاطَةِ، أو دُونَ إحَاطَة.

فإنْ كانَ المَنْفِيُّ إدْرَاكَ الْأَبْصَارِ لِذَاتِ اللهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِحَاطَةِ، فالعِبَارَة شَامِلَةٌ لِأَحْوَالِ الدُّنيا والآخرة، لِأَنَّ رُؤْيَةَ ذاتِ اللهِ عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِحَاطَةِ لَا تَمْلِكُ الخلائقُ الْقُدْرَةَ عَلَيْهِ.

وإنْ كَانَ المَنْفِيُّ الإدْرَاكَ لَا عَلَىٰ سبيل الإحَاطةَ، فالعبارةُ خَاصَّةٌ بأحْوال الحياة الدنيا، أمَّا رُؤْيَةُ ذَاتِ اللهِ رُؤْيَةً ما لَا عَلَىٰ سَبيلِ الإحَاطَةِ في الآخِرة، فَهِيَ ثَابِتَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بالكِتَابِ والسُّنَّةِ المتواتِرَة الّتي لَا شَكَّ فِيها.

ومما جاء في السُّنَّةِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ صُهيبٍ، عن النبي ﷺ، قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قالَ يَقُولُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجنَا مِنَ النَّار؟ قالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عزَّ وجلَّ».

زاد في رِوَايَةٍ: ثم تَلَا هَـٰذِهِ الآيَـةِ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الآية/ ٢٦ من سورة (يونس/ ٥١ نزول).

وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ وغَيْرُهُما عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَال النَّاسُ: يا رسول الله، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ القيامَة؟. قال: «تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله. قال: «فَهَلْ تُضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟» قالوا: لَا يَا رَسُولَ الله. قال: «فإنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذلك».

تُضَارُونَ: أيْ: يُصِيبُكُم ضَرَرٌ.

ورَوى ٱبْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أنَسِ بْنِ مالِكٍ قَالَ: قالَ رَسُولَ الله ﷺ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قَال: «يَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ بِلَا كَيْفِيَّةٍ، وَلَا حُدُودٍ، وَلَا صِفَةٍ مَعْلُومَة».

إلى غيرها من أحَاديثَ وَرِوَايَاتٍ بَلَغَتْ عِنْدَ أَهْلِ الحديثِ مَبْلَغَ التواتر.

• ﴿... وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ...﴾: أي: وهُـو جَـلَّ جَلالُـهُ يُـدْرِكُ بِبَصَرِه كُلَّ أَبْصَارِ الْخَلائِقِ كُلِّها مِنْ أكْبَرِ مَخْلُوقٍ إلى أصغَرِ مَخْلُوقٍ ذي بَصَرٍ، وإِدْرَاكُ اللهِ لِلأَبْصارِ يَشْمَلُ الحاسَّةَ الناقِلَةَ لِصُوَرِ المرْئيّات، وهي الْعَيْن، والأعْصَابَ مِنْ وَرَائِهَا الْمُوصِلَةَ إلى الدِّمَاغ، ومَرْكَزَ الإحْسَاسِ الْبَصَرِيّ فيه، وكَيْفَ يَحْدُثُ الْإبصار لِلْمَرْئِيَّاتِ فيه، وهَـٰذَا مِنْ كَمَالاتِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه.

وظاهِرٌ أَنَّ بَيَانَ حَقِيقَةِ أَنَّ أَبْصَارَ الْخَلَائِقِ لَا تُدْرِكُهُ في الدُّنْيا، وَلَا تُحِيطُ بإِدْرَاكِ ذَاتِهِ في الآخرة، كَانَ مُنَاسَبَةً لِبَيَانِ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ بَصَرِهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وهُوَ أَنَّهُ يُدْرِكُ الْأَبْصَار، وهَـٰذَا مِنَ الْقَاعِدَة الإيمانيَّة المتعلِّقَةِ بذاتِ اللهِ وَصِفَاتِهِ.

• ﴿... وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾: هذان الوصْفَان يقتضِيهما ما جاء في الدرس قَبْلَهما.

اللَّطِيف: اسْمٌ مِنْ أسْمَاء اللهِ عزَّ وجلَّ، مأخُوذٌ من اللُّطْفِ، وهو يَدُور حَوْل مَعْنَىٰ الرِّفْقِ والرَّأْفَةِ، ومَعْنَىٰ الرِّقَةِ وإمْكَانِيَّةِ النُّفُوذِ في الْفَرَاغَاتِ الصُغْرَىٰ الَّتِي قَدْ لَا تُدْرَكُ بالْأَبْصَار. فالْهَوَاءُ جِسْمٌ لَطِيفٌ يَنفُذُ مِنْ أصْغَرِ الفراغات، وَضَوْءُ الشَّمْسِ جِسْمٌ لَطِيفٌ يَنْفُذُ في المسامَاتِ، والْأَشِعَّةُ أَجْسَامٌ لَطِيفَةٌ تَدْخُلُ بَلَطَافَتِهَا دَاخِلَ أجْسَام كثيفَةٍ وَتَنْفُذُ مِنْهَا، والملائكَة أَجْسَامٌ نُورَانيّة لَطِيفَةٌ لَا تَحْجُبُهَا عَنِ الدُّخُولِ إِلَىٰ الْأَمَاكِنِ الْجُدْرَانُ مَهْمَا كَانَتْ كَثِيفَة.

فَعَلَىٰ مَعْنَىٰ الرِّفْقِ والرَّأفة، نَفْهَمُ قَوْلَ اللهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾.

وعلى المعنىٰ الآخَر نَفْهَمُ أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بِصِفَاتِهِ يَنْفُذُ إِلَىٰ أَعْمَاقِ كُلِّ مَوْجُود، خَلْقاً، وإمْدَاداً، وعِلْماً، وتَصَارِيفَ، عَلَىٰ مَا يُقَدِّرُ ويَقْضِي، لَا يَمْنَعُه مَانِعٌ كثيفٌ صُلْبٌ مَهْمَا كانت كَثَافَتُهُ وصَلَابَتُه.

الْخَبير: اسْمٌ من أسماء الله الحسنى، وهو الْعَلِيمُ بكُلِّ شَيءٍ عِلْماً شَاملاً. والخبير في اللُّغَة هو العالم بالأمْر أو بالشَّيْء عَنْ تَجْرِبَةٍ ومُمَارَسَةٍ يَتَّسِعُ بهما عِلْمُهُ بالدَّقَائِق.

وبهذا تمَّ تدبر الدرس الثاني والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❊ ❊ ❊

(٢٧)
التدبر التحليلي للدَّرْس الثالث والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآية (١٠٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾:

تمهيد:

آيَةُ هَـٰذَا الدَّرسِ مِنْ فروع السَّاقِ الثّاني مِنْ سَاقَي شَجَرَةِ موضوع السُّورَةِ.

وفيها تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ بَيَاناً دَعَوِيًّا يَقُولُهُ لِقَوْمِهِ، وَلَا سيما المعْنِيُّونَ الْأَوَّلُونَ بالمعالَجَةِ، وهُمُ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ كُفْرِهِم، الَّذِينَ لم يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَتِهِ حتَّىٰ نُزُول هَـٰذِهِ السُّورَة.

التّدَبّر التحليلي:

- ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ﴾:
- ﴿بَصَآئِرُ﴾: جمع «بَصِيرَةُ» وهي الْحُجَّةُ الْبَيِّنَةُ، والْعِلْمُ، والْخِبْرَةُ، والعِبْرَةُ. وتُطْلَقُ عَلَىٰ الْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ الإدْراك.
- ﴿مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾: أي: مِنْ خَالِقِكُمْ الْمُهَيْمِن عَلَيْكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبيَّته.

فالمعنىٰ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحمَّد يَا مَنْ أَرسَلْنَاكَ رَسُولاً للعالمين، قَدْ جَاءَكُمْ فيما أُنْزِلَ عَلَيَّ عِلْمٌ حَقٌّ، مُقْتَرِنٌ بالْحُجَج الدَّامِغَة، والْبَرَاهِينِ السَّاطعة، وبالْعِبَرِ مِنْ قِصَصِ الْأُمَم السَّابِقَةِ، وَهَـٰذَا الَّذِي جَاءَكُمْ هو من رَبِّكُمْ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ. إِنَّ إِيجادَهُ إيَّاكُمْ وإمْدَادَه لَكُمْ

بالْبَقَاء، وتَصَاريفَهُ فِيكم، ومُرَاقَبَتَهُ لَكُمْ، مُصَاحِبَاتٌ لَكُمْ فِي كُلِّ الْوَحَداتِ الزَّمنيّة الصغرى الَّتِي تَمُرُّ عَلَيْكم، فَلَسْتُم خَارِجِينَ عَنْ مُحِيطِ رُبُوبيَّتِهِ لَكُمْ، النَّافِذَةِ آثَارُهَا إلَىٰ أعْمَاقِ كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِكُمْ.

فَمَنْ أَبْصَرَ مَا جَاءَكُم مِنْ رَبِّكُمْ، وآمَنَ به، وأَسْلَمَ للهِ قِيَادَهُ، فأَطَاعَهُ عَامِلاً بِمَا أمَرَ بفِعْلِهِ، وتَارِكاً مَا نَهَىٰ عَنْ فِعْلِهِ، فَلِمَصْلَحَةِ نَفْسِهِ وَنَجَاتِهِ وَفَوْزِهِ عِنْدَهُ يَوْمَ الدِّينِ قَدْ أَبْصَرَ.

ومَنْ عَمِيَ باختِيَارِهِ الْحرِّ، فَلَمْ يَعْبَأْ بما جَاءَكم مِن رَبِّكُمْ، ولَمْ يُبْصِرْهُ، ولَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ ليظْفَرَ بِنَجَاتِهِ وَفَوْزِهِ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ القيامة، فَعَلَىٰ نَفْسِهِ جَنَىٰ، إذْ دَفَعَ بِها إلَىٰ الْخُلُودِ يَوْمَ الدِّينِ فِي عَذَابِ السَّعِير، وبِئْسَ ذَلِكَ المصير.

اسْتُعْمِلَ الْفِعْلُ ﴿أَبْصَرَ﴾ بمَعْنَىٰ فَهِمَ وَتفَكَّرَ واسْتَجَابَ لدعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانيَّة، لأنَّ هَـٰذِهِ لوازم الإبصار السَّلِيم لدى أهل العقل والرشد، وهو استعارة.

واسْتُعْمِلَ الْفِعْل ﴿عَمِيَ﴾ بمَعْنَىٰ أعْرَضَ وأَدْبَرَ فَلَمْ يَتفَكَّرْ ولم يَفْهَمْ ولم يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِية، فَكَانَ بمَثَابَةِ الأَعْمَىٰ باختياره الحرّ، وهو استعارة.

وكلَّفَ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ لم يَسْتَجِيبُوا لِدعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانية: ﴿... وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾:

الْحَفِيظُ: الْحَارِسُ عَلَىٰ الشيء الْمُوَكَّلُ بحِفْظِهِ ممَّا قَدْ يَتَعَرَّضُ لَهُ مِن شرّ.

أي: أَرْسَلَنِي رَبِّي إلَيْكُمْ لِأُبَلِّغَكُمْ رِسَالَاتِه، ولَمْ يَرْسِلْنِي حَفِيظاً عليكم، حَتَّىٰ أُجْبِرَكُمْ عَلَىٰ سُلُوكِ صِراط اللهِ المستقيم، وأحْمِيَكُمْ مِنْ شُرُورِ أنْفُسِكُمْ، فَأَنْتُمْ مَوْضُوعُونَ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ،

ولَدَيكُمْ إرادَاتٌ حُرَّةٌ تختارُونَ بِهَا مَا تَشَاءُون، وعَلَيْكم أَنْ تَتَحَمَّلُوا عِنْدَ رَبِّكُمْ عِقَابَ اختِيَارِكُمُ الكُفْرَ والْعِصْيَان، إذا كَفَرْتم، وتمرَّدْتُمْ على طاعَتِهِ.

وبهذا تَم تدبر الدرس الثالث والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٢٨)

التدبر التحليلي للدَّرْس الرابع والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٠٥ ـ ١١٧)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾»:

القراءات:

(١٠٥) • قرأ ابنُ كثير، وأبو عَمْرو: **[دَارَسْتَ]**.

وقرأ بْنُ عامر، ويعقوب: **[دَرَسَتْ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[دَرَسْتَ]**.

(١٠٨) • قرأ يَعْقُوبُ: **[عُدُوًّا]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[عَدْواً]**. والقراءاتان بمعنى واحد.

(١٠٩) • قَرأ أَبُو عَمْرٍو: **[وَمَا يُشْعِرْكُمْ]** بإسْكان الراء، وله وجْهٌ آخر عَنِ الدُّوري، وهو اخْتِلَاسُ ضمّةِ الراء.

وقرأها بَاقي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[وَمَا يُشْعِرُكُمْ]** بالرَّفْع.

(١٠٩) • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وخلف، وهو وجْهٌ لشعبة: **[إِنَّهَا إِذَا]** بكَسْرِ هَمْزَة «إِنَّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَنَّهَا إِذَا]** بفَتْح هَمْزَةِ «أَنَّ». وهو الوجْهُ الثاني لشعبة.

(١٠٩) • وقرأ ابن عامر، وحمزة: **[لا تُؤْمِنُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بياء الغائبين: **[لَا يُؤْمِنُون]**.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني.

(١١١) • قرأ أبو عَمْرو: **[إِلَيْهِمِ الْمَلَائِكَةَ]** بِكَسْرِ هاء الضمير وميم الجمْع.

وقرأها حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [**إِلَيْهُمُ الْمَلَائِكَةَ**] بضمّ هاء الضميرِ ومِيمِ الجمع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِ هَاءِ الضمير وضمٍّ مِيمِ الجمع: [**إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ**]. وكُلُّها لغات عَرَبية.

(١١١) • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [**قِبَلاً**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**قُبُلاً**].

القراءتان لغتان بمعنى المقابلة، والمواجهة، والمعاينة.

(١١٢) • قرأ نافع: [**لِكُلِّ نَبِيءٍ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة [**لِكُلِّ نَبِيٍّ**].

وهما لُغَتَانِ عَرَبيَّتَان.

(١١٤) • قرأ ابن عامر، وحفص: [**مُنَزَّلٌ**] بفتح النون وتشديد الزّاي المفتوحة، من فعل «نَزَّل».

وقرأها باقي القرّاء الْعَشْرَة: [**مُنْزَلٌ**] مِنْ فِعل «أَنْزَل» والقراءتان مُتَكافِئَتَان، فالمضعف أخو المهْمُوز.

(١١٥) • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: [**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ**] بالإفراد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالجْمع: [**وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ**].

والمعنى فيهما واحد، لأنَّ المفَرَدَ المضَافَ إِلَىٰ المعرفَةِ بِحُكْمِ الْجَمْع.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْسِ مِن فُروع سَاقَيْ شَجَرَة مَوْضُوع السُّورَة.

ففيها بَيَانٌ مُبَاشِرٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ للرَّسُول ﷺ، وفي هذا البيان تعليم وتَرْبِيَةٌ، وومضةٌ دَعَوِيَّة يَقُولُها لطالِبِي الآيَاتِ الخوارق مِنْ قَوْمه.

وفيها بَيَانٌ لِكُلّ المؤمنين المسْلِمِينَ وَيَدْخُلُ الرَّسُول ﷺ في عمومهم، بشَأْنِ عَدَدٍ مِنَ القضايا ذوات الشَّأْنِ في المفهومَاتِ الدِّينيَّةِ حَوْلَ النَّاسِ، وسُنَّةِ اللهِ في كَوْنِهِ، وأسَالِيبِ الدَّعْوَةِ إلَىٰ الحقّ الرَّبَّانِي، وتوابعَ مَوْصُولَةٍ بها.

التّدبّر التحليلي:

- قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لِرَسُوله:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَـٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ ثلاثِ قَضَايا هِيَ مِنْ مَقَاصِدِ تَنْزِيلِ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، مُتَّصِفَةً بِتَنْوِيعٍ كَثِيرٍ مُحَاصِرٍ حِصَاراً شَامِلاً لِلْأَفْكار والنُّفُوس، هِدَايَةً لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَهْتَدِيَ، ويَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، وَكَشْفاً لِلْمُعَانِدِينِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وشَهَواتِهِم وَمَطَالِبَهُمْ مِنَ الحياة الدُّنيا، ويَتَعَلَّلُونَ لِرَفْضِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ بِتَعِلَّاتٍ باطِلَاتٍ يَعْلَمُونَ هُمْ بُطْلَانَهَا، ولَكِنْ يَتَخِذُونَهَا مَعَاذِيرَ لِسَتْرِ مَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ شَرٍّ وإثْم.

الْقَضِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَـٰتِ . . .﴾:

التَّصْرِيف: هُو التَّنْوِيعُ والتغييرُ واتِّخَاذُ مُخْتَلِفِ الْوُجُوه والْأَسَالِيبِ والْوَسَائِلِ الممْكِنَةِ لِلْوُصُولِ إلَىٰ الْغَايَة.

وَالمشَارُ إلَيْهِ باسْم الإشَارَةِ في عِبَارة: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ هُوَ مَا جَاء في السُّورَةِ مِنْ آيَاتٍ فِيها إقْنَاعَاتٌ، وجَدَلِيَّاتٌ مُبَاشِرَاتٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ للمعنيِّينَ بالْمُعَالَجة، وتَعْلِيمَاتٌ جَدَلِيَّةٌ وَدَعَوِيَّة مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ ولِكُلِّ حَامِلِ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ، فَفِيها تَصْرِيفٌ وَتَنْوِيع عجيبٌ مُحَاصِرٌ لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ سَلِيم

غَيْرِ مَحْجُوب بالْأهواء، والشَّهَواتِ، والتقالِيدِ الباطِلَة، والاتّباع الْأَعْمَىٰ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الآبَاءُ والأَجْداد.

وفي مَفْصِلٍ سَابق من هَـٰذِهِ السُّورَةِ قال اللهُ عزَّ وجلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ فلكُلِّ ذِي نَظَرٍ فِكْرِيٍّ سَلِيم: ﴿... ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

وفي مَفْصِلٍ آخَرَ أيْضاً قالَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿... ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّر هَـٰذِينِ الْبَيَانَيْنِ في السُّورَة.

الْقضِيَّةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿... وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ...﴾ أي: ولِنَكْشِف عِنادَهم وكُفْرَهُمْ بآياتِنا، وتَكْذِيبَهُمْ لَكَ يَا مُحَمَّد، حَتَّىٰ نُجْرِيَ عَدْلَنَا فِيهِمْ يَوْمَ الدِّين بِالْخُلُودِ فِي عَذَابِ السَّعِير، فإنَّهُمْ الآنَ في رِحْلَةِ ابْتِلَاءٍ، والغايَةُ مِنَ ابْتِلَاءِ إراداتِهِمْ كَشْفُ مَا يَخْتَارُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ إيمانٍ أَوْ كُفْرٍ، وطاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَة.

ومِنْ تَعْبِيرَاتِهِمُ الكُفْرِيَّةِ، الَّتِي يَتَّخِذُونَهَا تَعِلَّةً لتكْذِيبِكَ يَا مُحَمَّدُ، فيما تُبَلِّغُهُمْ مِنْ آياتِ رَبِّهِم المنزَّلَةِ عَلَيك، أَنْ يَقُولُوا لَكَ: إنَّ هَـٰذَا الَّذِي تَتْلُوهُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَيْهِمْ قَوْلٌ دَرَسْتَهُ مِنْ كُتُب الأَوَّلِينَ، وَلَسْتَ نَبِيًّا مُصْطَفًى لِلنُّبُوَّةِ، وَلَا رَسُولاً مُرْسلاً للنَّاسِ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّك.

وَجَاءَ في قِرَاءَة ابن كَثِيرِ، وأَبي عَمْرِو: [دَارَسْتَ] أي: افْتَرَيْتَهُ مِنْ عِنْدِكَ بَعْدَ أَنْ دَارَسْتَ بَعْضَ أَهْلِ الكِتَابِ مُتَعَلِّماً ما جَاءَ في كُتُبِهِمْ.

ونَفْهَمُ مِنْ هَاتَيْنِ القراءَتَيْنِ أَنَّ بَعْضَ مُكَذِّبِي الرَّسُول قالُوا: دَرَسَ مُحَمَّدٌ كُتُبَ أَهْلِ الكِتَاب، فَصَنَعَ ما يَتْلُوهُ عَلَيْنا، وزَعَمَ أَنَّ اللهِ يُوحِي بِهِ إِلَيْهِ، وَأَنَّ بَعْضَ مُكَذِّبِيهِ قَالُوا: دَارَسَ مُحَمَّدٌ بَعْضَ عُلَمَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ في كُتُبِهِمْ، فَصَنَعَ مَا يَتْلوهُ عَلَيْنَا، وزَعَمَ أَنَّ اللهَ يُوحِي به إليه.

وأمَّا قِراءَةُ ٱبن عامرٍ، ويَعْقُوب: [دَرَسَتْ] فأقْرَبُ الاحْتِمالاتِ فيما أَرَىٰ أَنَّهُ تَعْبيرٌ عَنْ قَوْلِ بَعْضِ مُكَذِّبي الرَّسُولِ، إِذْ قَالُوا: مَا يَتْلُوهُ مُحَمَّدٌ أَسَاطِيرُ قَدِيمَةٌ بَالِيَة، وأَقْوَالٌ دَرَسَتْ وَصَارَتْ كأَطْلالٍ دارِسَةٍ عَفَتْ آثارُها، بَعْدَ أَنْ هَجَرَ أَهْلُهَا مَبَانِيهَا، فَلَا نَعْبَأُ بها.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

أي: وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ آياتِ الْقُرْآنِ لِنُبَيِّنَ كُلِّيَّاتِ قَضَاياه الدِّينيَّةِ، تَبْييناً جَلِيًّا يَدْفَعُ كُلَّ الشُّكُوكِ الَّتِي قَدْ يَطْرَحُهَا الْمُشَكِّكُونَ، ويَقْطَعُ أَعْذَارَهُمْ، وَهَـٰذَا التَّبْيينُ يَسْتَفِيدُ مِنْهُ الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدادُ لِأَنْ يَعْلَمُوا الْحَقَّ بأَدِلَّتِهِ وَبَرَاهِينِهِ.

■ قول اللهِ عزَّ وجلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾:

في هَـٰذَا الخطاب من اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ بيان سِتِّ قضايا:

القضيَّة الأَوْلَىٰ: تَكْلِيفُ اللهِ رسُولَهُ أَنْ يَتَّبعَ مَا أُوحي إِلَيْهِ من رَبّه، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ القضيَّة قولُه تَعالَى له: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ...﴾: أي: وَلَا تَعْبَأْ باتِّهَام مُكَذِّبيك لَكَ، فبَلِّغْ مَا أُمِرْتَ بِتَبْلِيغِهِ للنَّاسِ، وأعْمَلْ بِمَا جَاءَ في آياتِ رَبّك من أوامِرَ وَنَوَاهِيَ وَوَصَايَا وَأَحكام.

والدَّاعِي لِهَـٰذَا التوجيهِ الرَّبَّاني مَا جَاءَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ مِنْ هَـٰذَا الدَّرْس، وَهو مَقَالَةُ المشْرِكِينَ لِلرَّسُولِ بِشَأْنِ آياتِ القرآن: [دَرَسْتَ] و[دَارَسْتَ] فَجئتَنَا بكلَامٍ مِنْ عِنْدِكَ وَزَعْمتَ أَنَّ اللهَ رَبَّ العالَمِينَ أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيْكَ.

ومَا جاءَ في الآية (٩١): ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴿٩١﴾﴾.

أي: فَلَا تُضْعِفْ عَزِيمَتَكَ هَـٰذِهِ المقالَاتُ عَنْ مُتَابَعَةِ تَأْدِيَةِ رِسَالَات رَبِّكَ، بل: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وَلَا تَتَأَثَّرْ بمزالِقِ أَئِمَّةِ الكفر.

الْقَضِيَّةُ الثَّانِية: مَا دَلَّ عَلَيْهِ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿... لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ...﴾: أي: لَا مَعْبُودَ فِي الْوُجُودِ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

والدَّاعِي لِإِيْرَادِ هَـٰذَا التوجيهِ للرَّسُولِ هُنَا الرَّغْبَةُ فِي تَرْقِيَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَىٰ كَمَالِ الْعُبُودِيَّةِ للهِ، الَّتِي لَا تَشُوبُهَا شَائِبَةُ التَّأَثُّرِ بِأَقْوَالِ أَهْلِ الكُفْرِ، وَلَوْ مِنْ جِهَةٍ خَفِيَّةٍ يَقْتَرِنُ بِهَا تَحْسِينٌ اجْتِهَادِيٌّ طَمَعاً في إيمَانِهِمْ وإِسْلَامِهِمْ.

إِنَّ كَمَالَ توحِيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ في إِلَهِيَّتِهِ يَقْتَضِي مِنَ الرَّسُول أَنْ يَتَّبِعَ مَا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْه، وَلَا يُفَكِّرَ باجْتِهَادَاتٍ خَاصَّةٍ وَلَوْ كَانَتْ لمصلَحَةِ نَشْرِ دِينِ اللهِ بِحَسَبِ تَصَوُّرِهِ، فاللهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، ولَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خافِيَةٌ مِنَ الوسَائِلِ والْأَسَالِيبِ النَّافِعَةِ ذَاتِ التَّأْثِير في نَشْرِ دِينِهِ، واسْتِجَابَةِ الْمُخَالِفِينَ لِدَعْوَتِهِ.

الْقَضِيَّةُ الثالِثة: مَا دَلَّ عَلَيهِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِه: ﴿... وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

الْمُرَادُ بالمشْرِكِينَ هُنَا المِشْرِكُونَ الْمُعَانِدُونَ الْمُكَابِرُونَ الْمُصِرُّونَ عَلَىٰ بَاطِلِهِم، الَّذِينَ لَمْ يَتَأَثَّرُوا بِسَوَابِقِ هَـٰذَا النَّصِّ نُزُولاً، المشتملَة على إقناعٍ بالْحَقِّ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ، وَمُجَادَلَةٍ بالَّتِي هِي أَحْسَنُ.

الإِعْرَاض: إِعْطَاءُ العارِضِ، وهو الجانب، وإِعْطاءُ العارض وَسَطٌ بَيْنَ الإِقْبَالِ والمواجَهَةِ، وَبَيْنَ الإِدْبَارِ والتَّوَلِّي.

أي: وأعْطِ جَانِبَكَ لِهَـٰؤلَاءِ المشْرِكِين المعانِدِين، غَيْرَ مُبالٍ وَلَا عَابِئٍ بهم، فَقَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ يَسْتَحِقُّونَ مَعَها أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُمْ، وتُوَجِّهَ طاقَاتِ مُجَاهِدَتِكَ لِآخَرِينَ مَطْمُوعٍ في اسْتِجَابَتِهِمْ، أَوْ لَمْ يَبْلُغُوا دَرَكَة الْيَأْسِ مِن اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِم الحرَّة.

القضيَّة الرابعة: مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْل اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ . . .﴾:

أي: وَلَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ لَا يُشْرِكُوا لَسَلَبَهُمْ إرَادَتِهِمُ الْحُرَّةِ، ولَجَعَلَهُمْ مَجْبُورين، وحِينَئِذٍ لَا يَخْتَارُ اللهُ لَهُمْ إلَّا أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنين مُوَحِّدِين، لِأَنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ لعِبَادِهِ الكُفْرَ، ولٰكِنَّ هَـٰذَا يُلْغِي كونَّهُمْ مُمْتَحَنِين في ظُروفِ الْحَياة الدُّنيا، فالْمَجْبُورُ لَا يَكُونُ ممتَحناً، والمُمْتَحَنُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ إرادةٌ حُرَّة يخْتَارُ بها مَا يَشَاءُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ خالِقاً لِمَا يَشَاء.

وَلَا تُفِيدُ عبارة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ أنَّ الله عزَّ وجلَّ شَاءَ أَنْ يُشْرِكُوا، كَمَا يَفْهَمُ بَعْضُ المُتَسَرِّعِين الَّذِينَ لَا أَنَاةَ لَهُمْ لَدَىٰ تَدَبُّرِ النُّصُوصِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَوْضُوعَ لَهُ ثَلَاثَةُ احْتِمَالَاتٍ لا احْتِمالَان اثنان.

الاحْتِمَالُ الأوّل: إجبارُهُم عَلَىٰ أنْ يَكُونوا مُؤْمِنِين مُوَحِّدِينَ، وهَـٰذَا احْتِمَالٌ لَمْ يَشَأْهُ اللهُ عزَّ وجلَّ.

الاحْتِمَالُ الثاني: إجْبارُهُم عَلَىٰ يكُونُوا مُشْرِكِينَ، وَهَـٰذَا احْتِمَالٌ لَمْ يَشَأْه اللهُ عزَّ وجلَّ أيْضاً.

الاحْتِمَالُ الثَّالِثُ: مَنْحُهُم الإرَادَةَ الْحُرَّةَ الَّتِي يَخْتَارُونَ بِهَا مَا يَشَاءُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتاهُمْ، وهَـٰذَا هو الاحْتِمَالُ الَّذِي شَاءَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لِكُلِّ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحان مِنْ الجنِّ والإنْسِ. ولَوْ شاءَ اللهُ إجْبَارَهُمْ لَجَعلَهُمْ مؤمنينَ بِالْجَبْرِ.

القضيّة الْخَامِسَةُ: مَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرسوله: ﴿. . . وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا . . .﴾:

سبق في السورة أَنْ عَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلْمُعَالَجِينَ: ﴿... وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾: وكانَ هَـٰذَا تَعْلِيماً دَعَوِيًّا.

وَلِلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ التَّعْلِيم الدَّعَوِيّ وَبَيَانِ وَظِيفَةِ الرَّسُولِ الَّتِي حَمَّلَهُ اللهُ مَسْؤُولِيَّاتِها، قالَ الله لَهُ هُنَا: ﴿... وَمَا جَعَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ...﴾ أي: لَمْ نُعْطِكَ الْقُدْرَة عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ حَفِيظاً مُسَلَّطاً عَلَيْهِمْ تَكُفُّهُمْ بِالْإِلْزَامِ والْإِكْرَاهِ عَنِ اتِّباعِ أَهْوَائِهِمْ وَضَلَالَاتِهِمْ، وَتَحْمِيهِمْ مِنْ شُرُور أَنْفُسِهِمْ، وَتَقْسِرُهُمْ عَلَىٰ سُلُوكِ الصِّرَاطِ المسْتَقِيم، والْإِيمَانِ بِالْحَقِّ الَّذِي جاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهم، بَلْ أَنْتَ مُبَلِّغُ رِسَالَاتِ رَبِّكَ الَّتِي يُوحِي بها إِلَيْك، ويُكَلِّفُكَ تَبْلِيغَها، فَلَا تَعْتَبِرْ نَفْسَكَ مُطَالِباً بِتَحْوِيلِهِمْ مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الْإِيمانِ، ومِنَ الْمَعْصِيَةِ إِلَىٰ الطَّاعَةِ، فَهُمْ في مَرْحَلَةِ امْتِحَانٍ لا فِي حَيَاةِ إِجْبَارٍ وَقَسْرٍ، والآخِرَةُ هِي دَارُ الجزاءِ الْجَبرِيّ.

القضيَّة السَّادِسة: ما دَلَّ عَلَيْهِ قول الله عزَّ وجلَّ لِرَسُوله: ﴿... وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾: سَبَقَ في السُّورَة أَنْ عَلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلْمُعَالَجِينَ: ﴿... لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾: وَكَانَ هَـٰذَا تَعْلِيماً دَعَوِيًّا.

وللمطابَقَةِ بَيْنَ التَّعْلِيم الدَّعَوِيّ وبَيْنَ بَيَانِ وَظِيفَةِ الرَّسُول الَّتِي حَمَّلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مَسْؤُولِيَّاتِها، قالَ لَهُ هُنَا: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾: أي: وَمَا أَنْتَ مُسَلَّطٌ عَلَيْهِمْ تَسْلِيط وَكِيلٍ عَنْ رَبِّكَ، إِنَّ كُلَّ أُمُورِهِمْ وُجُوداً، وبَقَاءً، وَتَكْلِيفاً، وَجَزَاءً، ورِزْقاً، وَحَيَاةً ومَوْتاً وسَائِرَ التَّصَارِيف، هِي تَحْتَ سُلْطَانِ إِرَادَتِنَا، وَقَضائِنَا، وَخَلْقِنا، لَمْ نُوَكِّل بِهَا أَحَداً مِنْ عِبَادِنا، فَلَا تَتَصَرَّفْ مَعَهُمْ تَصَرُّف الْوَكِيلِ عَنَّا، إِنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ مُكَلَّفٌ أَنْ تُؤَدِّيَ مَا نَأْمُرُكَ بِتَأْدِيَتِهِ.

■ قَولُ اللهِ عزَّ وجلَّ يُخَاطِبُ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً، وفيهم

إمَامُهُمْ وقائِدُهم الرَّسُول ﷺ وَلَوْ كَانَ متحقّقاً بالمطلوب في الخطاب:

• ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾:

• ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟﴾: أي: وَلَا تَشْتُمُوا يَا أَيُّهَا المؤْمِنُونَ شَتْماً خارِجاً عَنْ مُقْتَضَيَاتِ المناظَرَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِبَيَانِ الحقّ، وخارجاً عَنْ آدابها.

• ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: وَلَا تَسُبُّوا الآلِهَةَ الَّذِينَ يَعْبُدُوهُمُ المشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ. «**يَدْعونَ**»: أي: يَعْبُدُونهم.

﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ ـ في قراءة يَعْقُوب: [**عُدُوّاً**]. «عَدْواً، وعُدُوّاً» مَصْدَرَان لفعل «عَدَا» بمعنَىٰ ظَلَمَ وتجاوَزَ الْحَدَّ، يُقالُ لُغَةً: «عَدَا عَلَيْهِ، يَعْدُو، عَدْواً، وعُدُوّاً، وعَدَاءً، وعُدْواناً» أي: ظَلَمَهُ وتجاوز الحَدَّ.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾: أي: باندِفاع غضبيٍّ غَيْرِ وَاعٍ، لِرَدِّ الشَّتِيمَةِ بِمِثْلِهَا، وَقَدْ لَا يَفْعَلُونَ هَـٰذَا في غَيْرِ حَالَةِ الْغَضَب، لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بأنَّ اللهَ هُو الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ والأرض، ولَكِنْ يَجْعَلُونَ للهِ شُرَكاء في إلَهِيَّتِهِ، وفي بعض عَناصِرِ رُبُوبِيَّتِهِ[١].

وهذا الحكْمُ الرَّبَّانيُّ أصْلٌ عظيم لقاعِدةِ «سَدّ الذَّرَائِعِ» إذ يَكْتَسِبُ السَّبَبُ حُكْمَ مَا يُؤَدِّي إليه، فما يُؤدِّي إلى حَرَامٍ يكون حَراماً.

• ﴿. . . كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ . .﴾:

إنَّ الأعْمَالَ الَّتِي عَمِلَها المشْرِكُونَ، والَّتِي سَبَقَ بَيَانُ كثيرٍ مِنْهَا فِي هَـٰذِهِ السُّورَة، وفي السُّوَرِ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَها، أعْمَالٌ مُزَيَّنَةٌ فِي نُفُوسِهِمْ بِزِينَاتٍ دَفَعَتْهُمْ إلَىٰ مَا عَمِلُوهُ مِنْ أَعْمَالٍ ظَالِمَةٍ آثِمَةٍ إجْرَامِيَّةٍ.

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق تدبر سورة (فاطر/ ٤٣ نزول) حول «توحيد الربوبيَّة وتوحيد الإلَهيّة في الدلالات القرآنية».

وَهَـٰذَا التَّزْيِينُ خاضعٌ لِنَظَامٍ قَدَرِيٍّ رَبَّانِيّ عَامٍّ، مَشْرُوطٍ باتِّخَاذِ أسْبَابِهِ مِنْ قِبَلِ النَّاسِ بإرَادَاتِهِمُ الْحُرَّة.

فَمَنْ جَحَدَ رُبُوبيَّةَ اللهِ أَوْ جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبيَّتِهِ، أَوْ جَحَدَ إلَهِيَّةَ اللهِ، أَوْ جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِي إلَهِيَّتِهِ، زَيَّنَ اللهُ لَهُ ضِمْنَ نِظَامِهِ التَّكْوِينيّ الْعَامّ أَعْمَالَهُ الشِّرْكِيّة، فَصَارَ يَرَىٰ عِبَادَة مَنْ جَعَلَهُمْ شُرَكَاء للهِ أَمْراً حَسَناً.

ومَن اعْتَقَدَ أَنَّ النَّاسَ شُرَكَاءُ فِي الأَمْوَالِ وَفِي النِّسَاء، زَيَّنَ اللهُ لَه ضِمْنَ نِظَامِهِ التّكْوِينيّ الْعَامِّ أَنْ يَسْلُبَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ، وَأَنْ يُزَانِيَ مَنْ يَشَاءُ مِنَ النِّسَاءِ دُونَ ضَابِطٍ وَلَا رَادِعٍ، وأنْ يَعْتَبِرَ هَـٰذَا حقًّا مِنْ حُقُوقِهِ الشَّخْصِيَّة.

ولِكُلّ سُلُوكٍ إرادِيٍّ مُزَيَّنٍ لِلإنْسَانِ أَصْلٌ فِكْرِيٌّ، فَمَنْ اعْتَقَدَ هَـٰذَا الأَصْلَ الفِكْرِيَّ كَانَ السُّلُوكُ الإرادِيُّ المتفَرِّعُ عَنْهُ مُزَيَّناً له، ضِمْنَ النظام التكْوينيّ الرَّبَّانِيِّ الْعَام، وَقَدْ يَكُونَ هَـٰذَا الأَصْلُ الْفِكْرِيُّ بَاطلاً وَشرّاً، وَمُؤدِياً إلَىٰ فَسَادٍ عَرِيضٍ، وَإبادَةٍ لِلْأَحْيَاءِ، وتَدْمِيرٍ لِلْأَشْيَاء.

وَهَـٰذَا التَّزْيين من لَوَازِمِ وَضْعِ النَّاسِ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فَمَنْ صَحَّ إيمانُهُ باللهِ وباليَوْمِ الآخِرِ، زَيَّنَ اللهُ لَهُ عِبَادَة رَبِّهِ والْعَمَلَ بِمَرَاضِيهِ، لِيَظْفَرَ بالسَّعَادَةِ فِي جَنَّاتِ النعيم.

ومَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ الْحَياةَ الدُّنْيَا هِيَ كُلُّ شَيْءٍ فِي وُجُودِ الإنْسَانِ، زَيَّنَ اللهُ له أَنْ يَنْتَهِبَ اللَّذَاتِ انْتِهَاباً مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بِأَيَّةِ وَسِيلَةٍ، وَلَوْ كَانَ فِيها ظُلْمٌ وَعُدْوان، ومُخَالَفَةٌ وَمَعْصِيَةٌ لِأَوَامِرِ وَنَوَاهِي الرَّبِّ الْجَلِيلِ الْقَهَّارِ الدَّيَّانِ.

فَمَعْنَىٰ الْعِبَارَةِ: وَكَذَلِكَ التَّزْيِينِ الَّذِي حَصَلَ للمشْرِكِينَ، إذْ زَيَّنا لَهُم أعْمَالَهُمْ الباطِلَة الظَّالِمَةَ الْآثِمَة، ضِمْنَ نِظَامِنَا التكويني العام، زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ ذَاتِ عَقَائِدَ صَحِيحَةٍ، أَوْ بَاطِلَةٍ، أَعْمَالَهُمُ المتَفَرِّعَة عَمَّا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ جُذُور فِكْرِيَّةٍ اعْتِقَادِية، وبهذا يتحقَّقُ كمالُ الْحِكْمَةِ فِي حَيَاةِ الابْتِلَاءِ.

• ﴿... ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ ...﴾ أي: ثُمَّ إِلَىٰ اللهِ مَرْجِعُ كُلِّ أُمَّةٍ بَعْدَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ في الحَياةِ الأُخْرَىٰ، لِتَحْقِيقِ نَتَائِجِ الامْتِحَانِ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدنيا بالْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ، بِالثَّوَابِ، أَوْ بِالْعِقَابِ.

• ﴿... فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾: أي: فَيُعْلِمُهُمْ اللهُ فِي مَحْكَمَتِهِ يَوْمَ الدين، بمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الْحَيَاةِ الدُّنيا.

وقَدْ أَبَانَتْ هَـٰذِهِ العبارَةُ فِقَرَةً مِنْ فِقَرَاتِ المحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ القيامَةِ، كِنَايَةً عَنْ سَائِرِ الْفِقَرَاتِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا هَـٰذِهِ الْمَحْكَمَةُ، لِتَلازُمِها، إِذِ الْغَرَضُ مِنْها الْحُكْمُ بِالْعَدْلِ أَوْ بالْفَضلِ، وَمَا يَنْجُمُ عَنْهُ مِنْ تَنْفِيذِ الْجَزَاءِ.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ مُطالَبَةِ أئِمَّةِ المشْرِكِينَ بِأَنْ يَأْتِيهِمُ الرَّسُولُ بِآيَةٍ مِنَ الآيَاتِ المادّيّةِ الخوارِقِ كعَصَا مُوسَىٰ، وَنَاقَةِ صَالح، ومعجزاتِ عِيسَىٰ:

• ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩﴾:

• ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ ...﴾:

أي: وحَلَفُوا باللهِ مُؤَكِّدِينَ حَلِفَهُمْ بأوثَقِ الأيْمَانِ وَأَغْلَظِهَا، قَائِلِينَ بَعْدَ قَسَمِهِمْ: لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ خارقةٌ مِنَ الآياتِ الَّتِي طَلَبُوهَا لِيُؤْمِنُنَّ بأنَّ مُحَمّداً نَبيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ وبأَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، تَأَثُّراً بها، وَاقْتِنَاعاً بأَنَّهَا بُرْهَانٌ مِنَ اللهِ لِتَصْدِيقِ رَسُوله.

• ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: أي: غايَةَ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَيْمانٍ مُؤَكَّدَةٍ مُشَدَّدَة. جَهْدُ الشَّيْءِ يأتي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ نِهَايَتِهِ وَغايَتِهِ، وبِمَعْنَىٰ وُسْعِهِ وطَاقَتِهِ.

اللّام في ﴿لَئِن﴾ واقِعَةٌ في جواب الْقَسَم، وتُسَمَّىٰ الموطِّئَة لِلْقَسَم عند النحاة، لأنَّ المقْسَمَ بِهِ مَنْوِيٌّ غَيْرُ مَذْكُورٍ بلَفْظه.

روى الطَّبَرِيُّ وغَيْرُه عَنْ مُجَاهِدٍ وعَنْ محمّد بن كعْبٍ الْقُرَظي، وعَنِ الكَلْبِيّ، بألْفَاظٍ مُتَقارِبة: أنَّ قُرَيشاً سَأَلُوا رسُول اللهِ ﷺ آيَةً مِثْلَ آيَةِ مُوسَىٰ، أو مِثْلَ آيَةِ صالح، أو مِثْلَ آيَةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِمْ السَّلام، وأَقْسَمُوا أَنَّهُمْ إِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ كمَا سَأَلُوا لِيُوقِنُنَّ أَجْمَعُونَ. وأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَأَلَ اللهَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ كَمَا سَأَلُوا، حِرْصاً مِنْهُ على أنْ يُؤْمِنُوا.

﴿... قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ....﴾: أَي: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: إِنَّ الآيَاتِ الخارِقَاتَ الْمُعْجزَاتِ لَيْسَتْ عِنْدِي، وَلَا أَمْلِكُ إِجْرَاءَهَا، إِنّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه، إِنَّمَا القَادِرُ عَلى إِجْرَاءِ الآيَاتِ الْخَارقاتِ المعْجزَاتِ هُوَ اللهُ عزَّ وجلَّ، فإِجْرَاؤُهَا عِنْدَهُ، وفي مِلْكِ قُدْرَتِهِ، وهو عَلِيمٌ حَكِيمٌ لَا يُجْري الآيَاتِ الْخَارِقَاتِ لسُنَنِهِ الثَّابتَةِ إِلَّا إِذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُه ذَلِكَ، فَلَا تُطَالِبُونِي بشَيْءٍ لَيْسَ عِنْدِي ولا أَسْتَطِيعُ إجراءه، واللهُ عَلِيمٌ بِمَا في نُفُوسِكُمْ، فإنْ عَلِمَ أَنَّكُم بِحَاجَةٍ حَقِيقِيَّةٍ إِلَىٰ الاقتناع بالحقّ الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ أَجْرَاهَا لَكُمْ، وإِنْ عَلِمَ أنّكُمْ مُتَعَلِّلُونَ كاذِبُونَ لَمْ يُجْرِها لَكُمْ، وهُوَ أَحْكَمُ بتَصَارِيفِهِ مِنْ كُلِّ ذي تَصَوُّر.

- ﴿... وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾:

وفي قراءة أبي عمرو: ﴿وَمَا يُشْعِرْكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وكَسَرَ همزة [**إِنَّهَا**] عَدَدٌ مِنَ القُرّاء.

وقرأ ابْنُ عَامِرٍ، وَحَمْزَة: ﴿... لَا تُؤْمِنُونَ﴾ خِطَاباً للمشْرِكِين.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾: الشُّعُورُ بالشيء الْعِلْمُ بِهِ وَلَوْ مِنْ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الإِحْسَاسِ به، وَهُوَ أَوَّلُ مَرَاحِلِ إِدْرَاكِهِ، ولَعَلَّهُ مأخُوذٌ فِي اللُّغَةِ مِنَ الشَّيْءِ يُلامِسُ الشَّعَر، فَيُحِسُّ بِهِ الإِنْسَانُ إِحْسَاساً خَفِيفاً، ثُمَّ انْتَقَلَ تَوسُّعاً إلى الإِدْراكَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الأُولى.

الخطابُ في هَـٰذَا البيان مُوجَّهٌ لِعُموم المؤمِنِين، الَّذِينَ يَتَطَلَّعُونَ إلَىٰ أَنْ يُلَبِّيَ اللهُ عزَّ وجلَّ طَلَبَ أئِمَّةِ الشِّرْكِ مِنْ قُرَيشٍ آيَةً مِنَ الآياتِ الَّتِي طَلَبُوها، طَمَعاً في أَنْ يُؤْمِنُوا، هذا بِحَسَبِ قِرَاءَة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حَدِيثاً عَنِ المشْرِكِين.

لكِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ، وَأَنَّهُمْ غَيرُ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا، ولَوْ أجْرَىٰ اللهُ لَهُمْ آيَةً عُظْمَىٰ عَلَىٰ وَفْقِ طَلَبِهِمْ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أجْرَىٰ اللهُ آيَةَ إنْشِقَاقِ الْقَمَرِ فَقَالُوا بِشَأْنِهَا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ فأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ الآياتِ الْأُولَىٰ مِنْ سُورَة (القمر/ ٣٧ نزول) قائلاً:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾.

وقال عزَّ وجلَّ بِشَأْنِهِمْ في سُورَةِ (يس/ ٤١ نزول):

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾.

بيْدَ أَنَّ المؤمِنِينَ اغْتَرُّوا بالْأيْمَانِ الْمُغَلَّظَةِ الَّتِي حَلَفَهَا أَئِمَّة المشركين مِنْ قُرَيش، عَلَىٰ أَنَّهُمْ إنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ تأثُّراً واقتناعاً بها، ولَمْ يَقَعْ في شُعُورِ الْمُؤْمِنِينَ احْتِمَالُ كَذِبِهِمْ، بَعْدَ أَنْ أَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم.

وَبِناءً عَلَىٰ هَـٰذَا يَحْسُنُ أَنْ نَفْهَمَ عِبارَةَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩﴾ مع اسْتِخْرَاجِ المطْوِيَاتِ فيها.

أي: أَنْتُمْ تَرْغَبُونَ فِي تَلْبِيَةِ طَلَبِهِمْ، وَمَا يُشْعِرُكُمْ مُشْعِرٌ ما بِكَذِبِهِمْ، بَعْدَ أَنْ أقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمانِهِمْ، وما يخْطُرُ في بالِكُم أَنَّهُمْ إذَا جاءَتْهُمُ الآيَةُ عَلَىٰ وَفْقِ طَلَبِهِمْ لا يُؤْمِنُونَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ، فَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ نُلَبِّيَ طَلَبَهُمْ.

وَعَلَىٰ قِرَاءَةِ كَسْرِ هَمْزَةِ ﴿إِنَّهَا﴾ يَكُونُ تَحْلِيلُ الْعِبَارة: وَمَا يُشْعِرُكُمْ

مُشْعِرٌ مَا بِكَذِبهم، بَعْدَ أَنْ أقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ، وأقولُ لَكُم وأَنَا الْعَلِيمُ بِمَا في نُفُوسِهِمْ: إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ.

وعَلَىٰ قراءة ابن عامرٍ، وحَمْزَة: [**وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا تُؤْمِنُون**]خطاباً للمشرِكين طَالِبِي الآيَة، يَكُونُ تَحْلِيلُ العبارَةِ كَمَا يَلي:

ومَا يُشْعِرُكُمْ مُشْعِرٌ مَا بِصِدْقِكُمْ، أَنْتُمْ عَلَىٰ يَقِينٍ بأَنَّهَا إِذَا جَاءَتْكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ، لِأَنَّكُمْ تَطْلُبُونَ الخوارقَ طَلَباً جَدَلِيًّا تَعَلُّلِيًّا، لَا طَلَباً حَقِيقيًّا.

وأَمَّا قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرو: [**وَمَا يَشْعِرْكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ**] فأَرَىٰ أَنَّ «مَا» شَرْطِيَّةٌ، و﴿يُشْعِرْكُمْ﴾ فِعْلُ الشَّرْطِ مَجْزُوم، وفَاعِلُه وَجوابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفَان، والتَّقْدِيرُ: وَمَا يُشْعِرْكُمْ مُشْعِرٌ ما بصِدْقِهِمْ إِذْ أَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ، إلَّا هُوَ مُخالِفٌ لِوَاقِعِ حالهم. إِنَّهَا إذا جاءت لَا يُؤْمِنون، ونَحْنُ نَعْلَمُ هَـٰذَا مِنْ سَرَائِرِهم. أو الإِسْكَانُ تخفيفٌ لحركة الضم.

إِنَّ مُؤَدَّىٰ القراءاتِ في هَـٰذِهِ العبارَةِ واحد، وهِيَ من التفنُّنِ في التعبير، وبإِبْرَازِ المطويَّاتِ أَخْذاً مِن السِّبَاقِ والسِّيَاقِ وإيحاءَاتِ النَّصِّ تَنْجَلِي العبارة، وَتَذْهَبُ الإِشْكَالَاتُ، والحمْدُ للهِ علَىٰ فَتْحِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ بِشأْنِ المعنيّينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَة:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

يَعْمَهُون: يتَحيّرونَ ويَتَرَدَّدُون في مَسَالِكهم. **الْعَمَهُ**: التَّحَيُّرُ والتَّرَدُّدُ وانْطِمَاسُ البصيرة، وهو في البصيرة كالعَمَىٰ في البصر.

أي: ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ، وهِيَ مَرَاكِزُ التَّفْكِيرِ والْفَهْم لَدَيْهِمْ، عَلَىٰ مَوَاقِعَ فِكْرِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ لِيُدْرِكُوا بِهَا الأدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الْهَادِيَة، والْبَرَاهِينَ الْقَاطِعَة، عَلَىٰ صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ عَنْ رَبِّهِ، وصِدْقِ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ آياتِ القرآن

المجيد، ونُقَلِّبُ أَبْصارَهم في آفاقِ السَّماءِ والْأَرْضِ، لِيَرَوْا بِها مَظاهِرَ آيَاتِنَا فِي كَوْنِنَا، وَعَجائِبَ إتْقَانِنَا لِكلِّ شَيْءٍ خَلْقْنَاهُ، إِعَانَةً لَهُمْ حَتَّىٰ يَهْتَدُوا إِلَىٰ الْحَقِّ الّذِي جاءَهُمْ به رَسُولُنَا، اهْتِدَاءً مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ، دُونَ أَنْ تَمْنَعَهُمْ عَقَبَةُ الكِبْرِ الطَّبَقِيِّ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَةِ رَسُولنا، وأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَتَرْغِيبِهِ وَتَرْهِيبِه، والاهْتِدَاءُ الذَّاتِيُّ أَدْعَىٰ لِأَن يُؤْمِنُوا بالْحَقِّ.

لَكِنَّهُمْ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ وَمَعَ الاقْتِنَاع الذَّاتِي لَا يُؤْمِنُونَ، بَلْ يَسْتَمِرُّونَ عَلَىٰ مَوَاقِفِ كُفْرِهِمُ الْعِنَادِيّ، ويَبْقَوْنَ كَافِرِينَ بالْحَقِّ الَّذِي جاءَهُمْ بِهِ رَسُولُنَا كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، حينَما دَعَاهُمْ رَسُولُنَا إلى الإيمانِ والإِسْلَامِ، وتَلَا عَلَيْهِمْ آياتِ كِتَابِنَا الْمَنَزَّلِ.

ونَذَرُهُمْ حِينَئذٍ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ مُتَحَيِّرِينَ، مُتَرَدِّدِينَ، مُنْطَمِسِي الْبَصِيرَة.

الطُغْيَان: تجاوز الْحَدِّ المقبول، إلى مواقع الضَّرَر، والإِفْسَادِ، والظُّلْمِ، والجوْرِ، والْبَغْيِ والْعُدْوان.

الْعَمَهُ: هو في الْبَصِيرَةِ كالْعَمَىٰ في الْبَصَرِ، يقال لغة: «عَمِهَ، يَعْمَهُ، عَمَهاً، وَعَمَهَاناً، وعُمُوهَا، فَهُو أَعْمَهُ» أي: تَحَيَّرَ، وَتَرَدَّدَ، كالْأَعْمَىٰ في طَرِيقِهِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ شيئاً مِنْ مَعَالِمِهِ.

إنَّ الآيَةَ قَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ ثَلاثِ جُمَلٍ بَيْنَهَا مَطْوِيَّاتٌ.

الجملَةُ الأُوْلَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ ولَا يَسْتَقِيمُ عَقْلاً ولا مَع دَلَالاتِ النُّصوص القرآنيَّة الْأُخْرَىٰ، أَنْ يَكُونَ هَـٰذَا التَّقْلِيبُ إِضْلَالاً وَصَرْفاً عَنْ أدِلَّةِ الْحَقِّ، لِأَنَّ اللهَ لَا يَرْضىٰ لعباده الكُفر[١]، فَلَزِمَ عَقْلاً وانْسِجَاماً مع دَلَالَاتِ النُّصوص القرآنيَّة الأُخْرَىٰ، أنْ يَكُونَ المرادُ بهذَا التَّقْلِيبِ

(١) وقد أخْطأ من فَهِمَ هذا الْفَهْمَ إِذْ هُو من لوازم الْعَقِيدَةِ الْجَبْرِيَّة الْبَاطِلَة.

الْمُسَاعَدَةَ عَلَىٰ إِدْرَاكِ أَدِلَّةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيِّ إِدْرَاكاً ذَاتِيًّا لِيَتَخَطَّوْا عَقَبَةَ الْكِبْرِ الطَّبَقِيِّ في نُفُوسِهِمْ، ولِقَطْعِ كُلِّ مَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَعْتَذِرُوا بِهِ في مَوْقِفِ الْحِسَابِ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

الْجُمْلَةُ الثَّانِيَة: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هَـٰذِهِ الْجُمْلَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ مَحْذُوفٍ هُوَ المشَبَّهُ، وبالتَّأَمُّلِ نُدْرِكُ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بالحقِّ بَعْدَ تَقْلِيبِ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارِهِم عَلَىٰ أَدِلَّتِهِ الْقَاطِعَةِ لِيَفْهَمُوهَا فَهْماً ذَاتِيًّا، كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ حِينَمَا جَاءَهُمْ بَلَاغاً عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِ رَبِّهِمْ.

الْجُمْلَةُ الثَّالِثَة: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: أي: وَبَعْدَ أَنْ نَجِدَهُمْ مُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ اتِّبَاعاً لِأَهْوَائِهِمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَتَقْلِيدِهم الْأَعْمَىٰ، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنَ الْبَيَانَاتِ الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاهَا رَسُولُنَا، وَمُسَاعَدَتِهِمْ علىٰ إِدْرَاكِهُمُ الْحَقَّ إِدْرَاكاً ذَاتِيًّا، نَتْرُكُهُمْ وَشَأْنَهُمْ يَعْمَهُونَ في طُغْيَانهم.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ بشَأْنِ هَـٰؤُلَاءِ الْمُعَالَجِينَ أَنْفُسِهِمْ أيضاً ويُلْحَقُ بهم أَشْبَاهُمْ فِي كُلِّ المجتَمَعاتِ وكلِّ العصور:

• ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾:

جاء في أخبار السِّيرَة:

(١) رُوي عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ: أنّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَة، والعاصِيَ بْنَ وَائل، والأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ يَغُوث، والأَسْوَدَ بْنَ المطَّلب، والحَارِثَ بْنَ حَنْظَلَةَ، من أهْلِ مكة، أتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ في رَهْطٍ مِنْ أَهْلِ مكة، فقالوا: أَرِنَا الْمَلائِكَة يَشْهَدُونَ لك، أو ابْعَثْ لَنَا بَعْضَ مَوْتَانَا فَنَسْأَلَهُمْ أَحَقٌّ مَا تقول.

(٢) ورُوِيَ أَنَّ المشركين قالُوا للرسول ﷺ: لَا نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ يُحشَرَ قُصَيّ، فَيُخْبِرَنَا بِصِدْقِكَ، أَوِ ائْتِنَا باللهِ والملائكة قبيلاً. فَنَزَلَتْ الآية.

وسبَقَ في الآيات من (٩٠ ـ ٩٣) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) بَيَانُ عَدَدٍ مِنْ مَطَالِبِهِمْ التَّعَنُّتِيَّة الَّتِي لَا تَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنُونَ لَو اسْتَجابَ اللهُ لِمَطَالِبِهِمْ فيها.

فأبانَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هَـٰذِهِ الآيَةِ، أَنَّهُ لَوْ نَزَّلَ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَة، وَلَوْ كَلَّمَهُمُ الموْتَىٰ بخارِقَةٍ أجْرَاهَا لَهُمْ، وَلَوْ جَمَعَ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ طَلَبُوهُ مِنَ الخوارقِ والآيَاتِ الْمُعْجِزَاتِ، مَا كانُوا لِيُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِمْ الحرّة، لِأَنَّهُمْ مُعَانِدُونَ مُكابِرُونَ مُسْتَيْقِنُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّ مُحَمّداً رَسُولُ اللهِ حَقّاً وَصِدْقاً، وأَنَّ مَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّ العالمين، فَهُمْ لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إلى اقْتِنَاعٍ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا.

• ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾: أَيْ: وَجَمَعْنَا مُرْسِلِينَ عَلَيْهِم، ضُمِّنَ الفِعْلُ في: «وَحَشَرْنَا» مَعْنَىٰ الفِعْلِ فِي: «وَأَرْسَلْنَا» فَعُدِّيَ تَعْدِيَته بحرف الجرّ «علَىٰ».

• ﴿كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ وَفي القراءة الأخْرَىٰ ﴿قِبَلًا﴾ أي: كُلَّ شيءٍ مِمَّا طَلَبُوهُ مِنْ خوارِقَ وآياتِ حَالَةَ كَوْنِهِ مُقَابِلاً مُوَاجِهاً لَهُمْ، وَمُعَايَناً بأعْيُنِهِمْ. القراءتان لغتان بمعنى المقابلة والمواجهةِ والمعاينة.

• ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾ اللّامُ فِي: ﴿لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾ تُسَمَّىٰ لَامَ الجحود، إذْ جَاءَتْ بَعْدَ كَوْنٍ مَنْفِي. وفِعْلُ «كَانَ» هُنَا بِمَعْنَىٰ الاستقبال، وهو أحَدُ استعمالات هذا الفعل.

• ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: أي: إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إيمانَهُمْ، فإِنَّهُ يَسْلُبُهُمْ حِينَئِذٍ إراداتِهِم الحُرَّةُ، ويَجْعَلُهُمْ مَجْبُورِينَ غَيْرَ مُخَيَّرِينَ، ولَكِنْ يُلْغَىٰ حِينئِذٍ وَضْعُهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فالْجَبْرُ يُنَافِي الابتلاء.

• ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾: أي: ولكِنَّ أكْثَرَ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ هَـٰذِهِ الحقيقة عَنْهم، فيَتَطَلَّعُونَ إلى تَلْبِيَةِ بَعْضِ مَطَالِبِهِمْ من الآيات، طَمعاً في إيمانهم، وَنَحْنُ نَعْلَمُ حَقِيقَتَهُمْ، وَمَا تُكِنُّه صُدُورُهُمْ، فَلَا نَسْتَجِيب لمطالبِهِم التَّعَنُّتِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِ أَعْدَاءِ النبيِّينَ مِنَ الإنْسِ والجنّ:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

عِبَارَةُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ تُشِيرُ إِلَىٰ تَجَمُّعِ أَعْدَاءٍ لِلرَّسُولِ ﷺ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، من شَيَاطِينِ الإنْسِ والْجِنّ، وأَنَّ هَـٰذَا التَّجَمُّعَ حَدَثَ نَظِيرُهُ لِكُلِّ نَبِيٍّ سَبَقَ أَنْ نَبَّأَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ نَبِيًّا رَسُولاً فَأَمْرُهُ عِنْدَ الشَّيَاطِينِ أَعْظَمُ وأَخْطَرُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عداؤُهُمْ لَهُ أَبْلَغُ، وَتَدْبِيرُهُمْ المكايدَ ضِدَّهُ وضِدَّ دَعْوَتِهِ أَشدّ.

وَنِسْبَةُ جَعْلِ أَعْدَاءِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَىٰ اللهِ، هُوَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ جَعْلِ النِّظَامِ الْعَامّ لِمُجْتَمَعَاتِ الموضُوعِينَ فِي الحَياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ مِنَ الإِنْسِ والْجِنِّ، يَلْزَمُ عَنْهُ ظُهُورُ أَعْدَاءٍ كَفَرَةٍ مِنَ الإِنْسِ والْجِنِّ، يُعَادُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَوَرَثَةَ الْأَنْبِياء، لِأَنَّ دَعْوَةَ الْحَقِّ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا ويَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْها تُعَارِضُ مَصَالِحَ شَيَاطِينِ الإنْسِ والْجِنِّ الدُّنْيَوِيَّة.

وإِذْ وَضَعَ اللهُ الإِنْسَ والْجِنَّ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، فَلَا بُدَّ أَنْ يُعْطِيَهُمْ حُرِّيَّةَ اخْتِيَارِ مَا يَشَاءُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ، وأَنْ تَجْرِي فِيهِمْ سُنَنُهُ في تَحْقِيقِ اخْتِيَارَاتِهِمْ، مَا لَمْ يَتَعَارَضْ ذَلِكَ مَعَ قَوانِينِهِ الْعَامَّةِ وأَنْظِمَتِهِ الَّتِي لَا يَأْذَنُ بِتَغْيِيرِها.

فالمؤمِنُ يُؤْمِنُ باختياره الحرّ، والكافِرُ يَكْفُرُ باختياره الحرّ، والعاصِي يَعْصِي باختياره الحرّ، والمطيعُ يُطِيعُ باختيارِهِ الحرّ.

والمعادي يُعَادِي باختياره الحرّ، والموالي يُوالِي باختياره الْحَرّ، وكُلُّ ذَلِكَ خَاضِعٌ لِلْجَعْلِ الرَّبَّانِيِّ الْعَامِّ، الَّذِي وَضَعَ بِهِ نِظَامَ حَيَاةِ الابْتِلاء.

ولَيْسَ المرادُ أنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ شياطِينَ الْإِنْسِ والجِنِّ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ مُعَادَاةِ النَّبِيِّينَ، بَلْ جَعْلُهُمْ مُخْتَارِينَ ويَلْزَمُ عَنِ ذَلِكَ أنْ يَكُونُوا أعْداءً للنبيّين.

• ﴿عَدُوًّا﴾ **الْعَدُوُّ**: هُوَ الَّذِي يَعْدُو بالمكْرُوه ويظلِم. مأخُوذٌ مِنْ عَدَا عَليه، إذا أقْبَلَ إِلَيْهِ يَعْدُو لِيُنْزِلَ بِهِ مَكْرُوهاً، أَوْ لِيَظْلِمَهُ. **والْعَدُوُّ** هُو الذي وَصَلَ بِهِ الحالُ إلى إرادَة النِّكَايَةِ بِخَصْمِهِ وإنْزَال المكْرُوهِ فيه بأيِّ وَسِيلَة، ولَوْ بالقتالِ والْحَرْب. ويُطْلَقُ بالإفراد على المفرد والمثنىٰ والْجمع والمذكّر والمؤنث، ويُسْتَعْمَلُ أيضاً على الأصل فيُثَنَّىٰ ويجْمَعُ ويُذَكَّرُ وَيُؤَنَّث.

• ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾: **شياطين**: جمع «شَيطان» وهو اسْمُ جِنْسٍ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ مُتَمَرِّدٍ مُفْسِدٍ مِنَ الجِنِّ والإنْسِ، وإبْليسُ إِمَامُ الشَّيَاطِينِ وَرَئِيسُهم.

وَقُدِّمَ الإنْسُ عَلَىٰ الْجِنِّ هُنَا لِأَنَّهُمْ هُمُ الظَّاهِرُونَ بِعِدَاءِ النَّبِيِّين، وَحَمَلَةِ رِسَالَاتِهِمْ مِنَ المؤمِنينَ.

• ﴿... يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ...﴾ أي: يُوحِي شياطينُ الْجِنِّ إِلَىٰ شَيَاطِينِ الإنْسِ زُخْرُفَ الْقَوْلِ الَّذِي يَتَّخِذُونَهُ وسِيلَةً للإغْوَاءِ والإغْرَاء والْإِضْلَالِ عَنِ الحقِّ وَصِرَاطِ اللهِ المستقيم، لَدَىٰ مَنْ يُصْغِي إِلَيْهِمْ وَيَسْتَطِيعُونَ خِدَاعَهُ، وَهَـٰذَا الْقَوْلُ الذي يُضِلُّونَ بِهِ يَعْتَمِدُ على الكذِب والافتراء.

• ﴿غُرُورًا﴾: أي: خِدَاعاً وإطْمَاعاً بالْبَاطل. يُقالُ لغة: «غَرَّهُ، يَغُرُّهُ، غَرّاً، وَغُروراً، وَغِرَّةً» أي: خَدَعَهُ وَأطْمَعَهُ بالْبَاطِل: «غُروراً» مفعول لأجله.

• ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾: أي: الْقَوْلَ الْمُزَخْرَفَ الْمُزَيَّنَ، وهو مِنْ إضافَةِ الصِّفَةِ إِلَىٰ الْمَوْصُوف. **الزُّخْرُف**: الزِّينَة، وكَمَالُ حُسْنِ الشيء، يُقَالُ لُغَةً: «زَخْرَفَهُ» أي: زيَّنَهُ، وكَمَّلَ حُسْنَهُ.

ويُطْلَقُ الزُّخْرُف على الذَّهَب، لِأَنَّهُ يُتَزَيَّنُ به.

فالمعنى: يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَحْياً زُخْرُفَ الْقَوْلِ (فَهُوَ نائب مَفْعُول مُطْلَق): لِأَجْلِ التَّغْرِيرِ بِمَنْ يُصْغِي إِلَىٰ زُخْرُفِ الْقَول.

• ﴿... **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴿١١٢﴾﴾: أي: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ يا مُحَمَّدُ أَنْ يَمْنَعَهُمْ من أنْ يُوحِيَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرف الْقَوْلِ، للإغراء والإغواء والتضليل، لَمَنعَهُمْ فَمَا فَعَلُوه، لكنْ لم يَمْنَعْهُمْ إذْ حِكْمَةُ رَبِّكَ تَقْتَضِي أَنْ لَا يَمْنَعَهُمْ مَنْعاً جَبْرِيًّا، بَعْدَ أَنْ مَنَحَ حُرِّيَّةَ الْإِرادَةِ لِكُلِّ الموضُوعينَ في الْحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان مُؤْمِناً أَمْ كافراً، مُطِيعاً أَمْ عَاصِياً، ومِنْ مَوادِّ الامْتِحَانِ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا امْتِحَانُ الأنبياء وأتْبَاعِهِم من المؤمِنين، بِشَيَاطِينِ الإنْسِ والجنّ وأتْبَاعِهِمْ من الكافرين. فَدَعْهُمْ وَمَا يفْعلُونَ، فَلَا تَسْأَلْنِي أَنْ أَمْنَعَهُمْ مَنْعاً جَبْرِيًّا، ولَكِنْ لَا تُقَصِّرْ أَنْتَ ومَنْ مَعَكَ الدُّعَاةُ إِلَىٰ الحقِّ مِنْ أُمَّتِكَ فِي مُقَاوَمَةِ باطِلِهِم بالحقّ، ومُقَاوَمَةِ افْتِرَاءَاتِهِمْ بالصِّدْق، وَكَشْفِ أَوْهَام تَزْيِنَاتِ أَقْوَالهم الزُّخْرُفِيَّة، بِزِينَاتِ الحقِّ وَمَنَافِعِهِ الثَّابتَةِ الرَّاسِخَةِ، الَّتِي لَا يَزِيدُهَا التَّجْرِيبُ الْعَمَلِيُّ إِلَّا حُسْناً وَجَمَالاً، وبَهاءً وَنُوراً.

﴿**فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾: أي: فَدَعْهُمْ وَما يصْطَنِعُونَ مِنْ أكاذِيب.

وهُنَا مَوْقعٌ من مَواقِع قَوْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣):

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١٨﴾﴾.

وبَعْدَ الْبَيَانِ الاعْتِرَاضِيِّ الذي قال اللهُ عزَّ وجلَّ فيه: ﴿... **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴿١١٢﴾﴾ تابَعَ اللهُ بَيانَ خُطَّةِ شَيَاطِينِ الإنْسِ والْجِنِّ فِيما يَصْطَنِعُونَ مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ، لِتَرْويجِ بَاطلهم وضَلَالَاتِهِم بَيْنَ النَّاس.

فالْخُطْوَةُ الشَّيْطَانية الأُولى: جَاءَ بَيانُها بِكَلِمَة: ﴿غُرُورًا﴾ أي: لِلتَّغْرِيرِ

والْخِدَاعِ والإطْمَاعِ بالْبَاطِلِ، ويُعْتَبَرُ هٰذَا مُقَدِّمَاتِ الدِّعَايَةِ الإعْلَامِيَّة الزُّخْرُفِيَّةِ لِلْباطل، ولسُلُوك مَسَالِكِ الشَّرِّ والإثْمِ والعِصْيَان، والْفُجُور والظُّلْمِ والْعُدْوان.

والْخُطْوَةُ الشَّيْطَانِيَّةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ... ﴿١١٣﴾﴾:

أي: ولِتَمِيلَ إِلَىٰ قَوْلِ الشَّياطِينِ الْمُزَخْرَفِ أَعْمَاقُ قُلُوب الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخرَة، ولا بِمَا فيها مِنْ جزاءٍ بِالْعِقَاب في دار العذاب النار، ولا بما فيها مِنْ جَزَاءٍ بالثَّوابِ العظيم في دارِ النعيم الجنَّة، فَلَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا مَا يَرْجُونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنْيا، وَالشَّياطِينُ يُزيِّنُونَ لَهُمْ هٰذِهِ المتاعَات، ويُحَرِّضُونَهُمْ عَلَىٰ انْتِهَابِ لذَّاتِهِمْ مِنْها، لِيَتَّخِذُوهُمْ قُطْعَانَ مُمَارَسَةِ شَهَوَاتٍ، واتّبَاعِ أهْوَاءٍ، وَغَرْقَىٰ أَوْحَالِ مَبَاءَاتٍ فاسِدَاتٍ. وعِنْدَئِذٍ يَجْعَلُونَهُمْ جُنُوداً أغْبِيَاءَ عُمْيَاناً لهم.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾: أي: وَلِتَمِيل. يُقَال لُغَةً: «صَغِيَ، يَصْغَىٰ، صَغىً» أي: مَال. ويقال أيضاً: «صَغَا، يَصْغُو، صَغْواً» أي مالَ. ومَا جَاء في الآية هنا مِنَ الْيَائِي.

الْخُطْوَةُ الشيطانيّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿... وَلِيَرْضَوْهُ ...﴾:

أي: وَلِيَقَعَ زُخْرُفُ الْقَوْلِ الّذي يُلْقِيهِ شياطينُ الإنْسِ، مَوْقِعَ الرِّضَا من أَفْئِدَة الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُون بِالآخِرَة، ومَعْلُومٌ أَنَّهُ مَتَىٰ كَانَ سُلُوكٌ ما وَاقِعاً مَوْقِعَ الرِّضَا فِي فُؤادِ إِنْسَانٍ، إنْدَفَعَ هٰذَا الإنْسَانُ إِلَىٰ مُمارَسَتِهِ بِكُلِّ جُرْأَةٍ وَقُوَّةٍ، غَيْرَ عَابِئٍ بِنَقْدِ النَّاقِدِينَ، وَلَوْم اللّائِمِين.

الْخُطْوَةُ الشَّيْطَانِيَّةُ الرابعة: دَلَّ عليها قول اللهِ تعالى: ﴿... وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾: أي: وَلِيَكْتَسِبُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ والْجَرَائِمِ الَّتِي حلَّتْ مِنْ أَفْئِدَتِهِمْ مَحلَّ الاسْتِحْسَانِ والرّضَا ما هم مُكْتَسِبُون.

هٰذِهِ الْخُطْوَةُ تَأْتِي تِلْقَائِيَّةً بَعْدَ الْخُطْوَةِ الثالِثَةِ، وَقَدْ تَحْتَاجُ من الشياطين المغْوِينَ المضِلِّين شيئاً مِنْ الدَّفْعِ، أَوِ الْجَذْبِ، أو المصاحَبَةِ، أو تَهْيِئَةِ الْوَسائِلِ والأسْبَابِ، أَو وَضْعِ الصَّيْدِ الْجَدِيدِ في الْمَكَانِ الْمُهَيَّأِ لاقْتِرَافِ السَّيِّئَاتِ والجرائم الَّتِي حَلَّتْ مِن الْفُؤَادِ مَحَلَّ الاسْتِحْسَانِ والرِّضا، وبَعْدَ الاقْتِرَافِ الأوَّلِ تَكُونُ الأفعال التالِيَة عَادِيَّةً، ثُمَّ تكونُ عَادَةً مُتَمِكِّنَة.

الاقْتراف: الاكْتِسَابُ، يُقالُ لغة: «اقْتَرَفَ الذَّنْبَ» أي: افْتَعَلَهُ بإرَادَةٍ واعِيَة وتَكَلُّفٍ، ولم يَفْعَلْهُ عفواً كما يَذُبُّ الذُّبَابَ عَنْ وَجْهِهِ.

■ قول اللهِ عزَّ وجلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ أنْ يَقُول:

• ﴿**أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾**﴾:

يَرَىٰ المفَسِّرُون أَخْذاً مِنْ ظَوَاهِرِ سَوَابِقِ هٰذِهِ الآيَةِ أَنَّها مِنْ تَوابِعِ عِلَاجِ المشْرِكِين، والَّذِي ظَهر لي أَخْذاً مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَعْلِيم، أنَّهَا تَخُصُّ بعضَ الذينَ آمنُوا وأسلموا، الذينَ لم يَتَّضِحْ لهمْ بَعْدُ أَنَّ الإسْلَامَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ أَحْكَام الْفُرُوعِ، في المعامَلَاتِ والْعَلاقَات المالِيَّةِ والاجْتِمَاعِيَّةِ وغَيْرِها، ورُبَّمَا كَانُوا يَتَحاكَمُونَ إِلَىٰ مَنْ كَانُوا يَتَحاكَمُونَ إِلَيْهِمْ قَبْلَ الإسْلَام، وَلَمْ تَكُنْ أَحْكَامُ هٰذِهِ الْفُرُوع قَدْ نَزَلَتْ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ السَّابِقَة، فاقتضَتِ الْحِكْمَةُ الرَّبَّانِيَّة القائِمَةُ على التَّدَرُّج، التَّمْهِيدَ بِبَيانِ أَنَّ كِتَابَ اللهِ الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ مِنْهُ مَا أَنْزَلَ، وَسَيُنْزِلُ سَائِرَهُ، يَشْتَمِلُ عَلَىٰ تَفْصِيلٍ لِكُبْرَيَاتِ قَضَايَا الأحكام، وَأَحْكَامُهُ صَادِرَةٌ عَنْ أَحْكَمِ الحاكِمِينَ رَبِّ الْعَالَمِين.

• ﴿**أَبْتَغِي حَكَمًا**﴾: أي: أَطْلُبُ حَكَماً، **الْحَكَمُ**: هُوَ مَنْ يُخْتَارُ للقَضَاءِ، والْفَصْلِ بَيْنَ الْخُصَمَاءِ. «وَحَكَمَ فُلانٌ في الأَمْر» أي: قَضَىٰ فيه.

لفظ «**الْحَكَم**» أخصُّ من لَفْظِ «الحاكِم» أي: ذُو دَرَجَةٍ رَفِيعَةٍ فِي دِقَّةِ القضاءِ بالْحَقِّ والْعَدْل. ولفظ «الْحَكَمِ» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسنى.

وذكَرَ المخْتَصُّونَ بِعُلُوم القرآنِ أَنَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ مَدَنِيَّة، فإذَا صَحَّ أَنَّهَا مَدَنِيَّة فَمَضْمُونُهَا خَاصٌّ بالمؤمِنِينَ الْمُسْلِمِين حَتْماً، ويُوجَدُ في أَحْدَاثِ السِّيرَةِ الْمَدَنِيَّة مَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ سَبباً لِنُزُول هَـٰذِهِ الآيَة، وَقَدْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَدِينَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ تَفْصِيلٌ لِأَحْكَامِ الْفُرُوعِ في المعامَلات، فَيُلَائِمُهُمُ الْبَيَانُ في هَـٰذِهِ الآيَة تَمَاماً.

والاسْتِفْهَامُ في عبارة: ﴿**أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا**﴾ اسْتِفْهَامٌ إنكاريٌّ على مَنْ طَلَبَ من المسْلِمِينَ التَّحاكُمَ إِلَىٰ بَعْضِ حُكَّامِ أَهْلِ الجاهلية، وقَدْ يَكُونَ من المنافقين، أو من الذين في قُلُوبِهِم مَرَضٌ دون النفاق.

• ﴿... **وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا** ...﴾: أي: وهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إليكم الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ، مُشْتَمِلاً عَلَىٰ أُسُسِ أَحْكَام المعامَلاتِ، القائمَةِ على الْحَقِّ والْعَدْلِ، وفيها تَفْصِيلٌ كَافٍ عَنْ طَرِيقِ النُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ، أَوْ عَنْ طَرِيق الْقِيَاسِ الْجَلِيّ وغَيْرِه.

• ﴿... **وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ**﴾: أَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا الْبَيَانَ الرَّبَّانِيَّ، مُوَجَّهٌ لِمَنْ خَطَرَ لَهُ أَنْ يَتَحَاكَمَ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ لِغَيْرِ الرَّسُولِ مِنْ حُكَّامِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وقُضَاتِهِم، لِمَرَضٍ في قَلْبِهِ جَعَلَهُ يَشُكُّ في القرآن، فقال اللهُ له:

والَّذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ وَهُمْ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ وأَحْبَارُهُمْ في المدينَة، يَعْلَمُونَ أَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ حَالَة كَوْنِهِ مُتَّصِفاً بالْحَقِّ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِين، أي: فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِين في هَـٰذِهِ الحقيقة.

وَلَا أَرَىٰ أَنَّ هَـٰذَا الخطاب مُوَجَّهٌ للرَّسُول ﷺ.

والدَّاعِي لِوَضعِ هَـٰذِهِ الآية فِي سُورَةٍ هِيَ مِنَ التَّنْزِيلِ الْمَكِّيِّ، الإِشْعَارُ

بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ المؤمِنِينَ في مَكَّة، كانوا على عِلْم بأَنَّهم يجب عَلَيْهم أَنْ يَرْجِعُوا في كُلّ الأَحْكَام المتَعَلِّقَةِ بِمُعَامَلاتِهِمْ، إلى الرَّسُولِ ﷺ لِيَتلَقَّىٰ عن اللهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ مَا يَتعَلَّق بِمَا يَسْتَفْتُونَهُ فِيهِ، واللهُ أعلم.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ يُبَيِّنُ صِفَة كَلِمَاته:

● ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾: وَفي القراءة الأخرى: ﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وهُمَا متكافئتان لأنَّ المفرد المضاف إلى المعرفة بِحُكْمِ الْجمع، على أنّ الكَلِمَة قد يُقْصَدُ بها كَلِمَاتٌ كثيرات.

بنَظْرَةٍ تَحْلِيلِيَّةٍ مُتَعَمِّقَةٍ، يظْهَرُ لَنا أَنَّ كَلِماتِ اللهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطَانُهُ ـ تَرْجِعُ إِلَىٰ وَاحِدَةٍ مِنْ أَرْبَعَةِ أُصُول.

الأَصْلُ الأوّل: الكَلِمَاتُ الْخَبَرِيَّةُ عَنِ الأزليّات، الْوَاجِبَاتِ عَقْلاً والمسْتَحِيلَات عَقْلاً وَالجائِزَات عَقلاً، وعَنِ الحادثاتِ الَّتِي كانَتْ، والّتي هي كائِنَة، والَّتِي سَتَكُونُ أو سَوْفَ تكون.

وهذه كُلُّهَا كَلِمَاتُ صِدْقٍ، مُطَابِقَةٌ لِلْحَقِ والواقِعِ تَمَاماً.

ومعنَىٰ تَمَامِهَا أنَّها تَحَدَّثَتْ عَنْ كلِّ شَيْءٍ يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يُخبَر عَنْهُ بإيجابٍ أَوْ سَلْبٍ.

وهَٰذِهِ الْكَلِمَاتُ مُدَوَّنَاتٌ مُسَجَّلَاتٌ في اللَّوْحِ المحفوظ.

الأصل الثاني: الكَلِمَاتُ التَّكْوِينيَّة، وهِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها لِكُلِّ شيءٍ أرادَ أَنْ يَخْلُقَهُ: كُنْ، فَهُوَ بأمْرِ التكوينِ يَكُونُ عَلَىٰ وَفْقِ مَا أَمَرَ اللهُ تبارك وتَعَالَىٰ.

وهَٰذِهِ كُلُّهَا كَلِمَاتُ عَدْل، لِأَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَمَّا قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْكَائِنَاتِ الْمُرَكَّبَاتِ مِنْ عَنَاصِرَ وَأجْزَاء، جَعَل لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْها مِقْداراً مُحَدَّداً مِنِ

الذَّاتِ والصِّفَات، وَهَـٰذِهِ الأجْزَاءُ تَتَفَاضَلُ فيما بَيْنَها تَفَاضُلاً كَبِيراً جِدًّا، فَمِنْهَا مَثَلاً مَا يَحْتَاجُ مِلْيَارَ ذَرَّة، وِمِنْها ما يَحْتَاجُ ذَرَّةً وَاحِدَةِ.

والْعَدْلُ يَكُونُ بِأَنْ يَخْلُقَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ مِلْيَارَ ذَرَّةٍ لِمَا قَدَّرَ لَهُ في خُطَّةِ التَّكْوِينِ أَنْ يَتَكَوَّنَ مِنْ مِلْيَارِ ذَرَّة، وأَنْ يَخْلَق ذَرَّةً واحِدَةً لِمَا قَدَّرَ لَهُ في خُطَّةِ التَّكْوِينِ أَنْ يكُونَ ذَرَّةً واحِدَة.

ومَعْلُومٌ أَنَّ الْعَدْلَ هُو إعْطَاءُ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، والمساوَاةُ مع التفاضُلِ ظُلْمٌ لِلْحُقُوق.

وكَلِمَاتُ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيَّةُ تَخْلُقُ بالْعَدْلِ لِكُلِّ شيءٍ مقداراً مِنَ الذُّرَّاتِ بحَسَب مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّرَ لَهُ في خُطَّةِ التّكْوِينِ الحكيمة.

وتمامُها يكون بإيجاد المخلوقِ علَىٰ ما سَبَقَ به القضاءُ والْقَدَر.

الأصْلُ الثالث: الكلِماتُ التَّشْرِيعيَّة، وهِيَ الكلمات اللَّاتِي يُبَيِّنُ اللهُ عزَّ وجلَّ بِهَا أَحْكَامَ شَرَائِعِهِ لِلْمَوْضُوعِينَ في الحياة مَوْضع الامْتِحَان.

وهَـٰذِهِ الكَلِمَاتُ دَائِرَاتٌ بَيْنَ الصِّدْقِ والْعَدْلِ:

• فالصِّدْق يَكُونُ بالمطابَقَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مُرَادِ اللهِ في التَّشْرِيع، فَلَيْسَ مِنْ حَقِّ الْعِبَادِ أَنْ يُؤَوِّلُوا النُّصُوصَ التَّشْرِيعيَّةِ، تَأَوِيلَاتٍ يُخْرِجُها عَنْ دَلَالَاتِها في اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلْت بها، وإلّا كانُوا مُحَرِّفين، لِأَنَّهَا كَلِمَاتٌ صادقات.

• والْعَدْلُ يَكُونُ في أَنَّ اللهَ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يُكَلِّفُ نَفساً إلَّا وُسْعَها، وإلَّا مَا آتاها. ويكُونُ أَيْضاً بإنْزَال الْأَحْكَامِ الْعدليَّةِ الَّتِي يَجِبُ علَىٰ الْقُضَاةِ أَنْ يَتَقَيَّدُوا بها لَدَىٰ الْفَصْلِ بَيْنَ الْخُصَمَاءِ في الْقَضَاءِ.

والكلماتُ التَّشْرِيعيَّةُ تَامَّاتٌ غَيْرَ نَاقِصَات لِأَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أَكْمَلَ لِلنَّاسِ دينَهُمْ، وأتَمَّهُ لهم.

الأصل الرَّابع: الكَلِمَاتُ الجَزَائِيَّة، وهِي الَّتِي يَقْضِي اللهُ بِها الجزاءَ على عبادِهِ ثواباً أو عِقَاباً.

وهَٰذِهِ الْكَلِمَاتُ دائراتٌ بَيْنَ الصِّدْقِ والْعَدْلِ:

• فالصِّدْقُ يَكُونُ بِتَحْقِيقِ وَعْدِ اللهِ السَّابِقِ بأنْ يُضاعِفَ ثوابَ المحسنينَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ أضْعَافاً كَثِيرَة، وأنْ يَشْمَلَ بَعْضَ عِبادِه بِعَفْوِهِ وغُفْرَانِهِ علَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ.

• والْعَدْل يَكُونُ في الجزاء بالْعِقاب عَلَىٰ قَدْرِ الذَّنْبِ إذَا لَمْ يَعْفُ، فاللهُ لَا يَظْلِمُ أحداً مِثْقَالَ ذَرَّة.

• ﴿... لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ...﴾: أي: وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً حَالَةَ أَنَّهُ لَا مُبَدِّلَ لِأَيِّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِهِ كُلِّهَا.

• فَكَلِمَاتُهُ الْخَبَرِيَّةُ حَتَّىٰ مَا كانَ مِنْهَا وَعْداً أَوْ وَعِيداً كَلِمَاتٌ صادقات، لَا مُبَدِّلَ لَهَا مِنْ ذَاتِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ.

• وكَلِمَاتُهُ التكْوِينيَّةُ نَافِذَاتٌ حَتْماً، لَا مُبَدِّلَ لَهَا مِنْ ذاتِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ.

• وَكَلِمَاتُهُ التَّشْرِيعِيَّةُ لا مُبَدِّلَ لَهَا من ذَاتِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ، ضِمْنَ حُدُودِهَا الزَّمَنِيَّةِ المقَدَّرَةِ في خُطَّةِ التَّشْرِيعِ، وضِمْنَ حُدُودِ الْقَوْمِ الّذِينَ شُرِعَتْ لهم، أو الْفَرْدِ الّذِي شُرِعَتْ لَهُ، كَنَبِيٍّ أو رَسُول.

والنَّسْخُ لَيْسَ إبْطالاً لِحُكْم سَابِقٍ، وإنَّما هُوَ بَيانُ انْتِهاءِ وَقْتِ الْعَمَلِ بالْحُكْمِ السَّابِقِ، أَو التَّشْرِيعِ السَّابق، إذْ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ لَا مِنْ ذَاتِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ.

• وَكَلِمَاتُهُ الجزائِيَّةُ مَتَىٰ صَدَرَتْ فَلَا مُبَدِّلَ لها مِنْ ذَاتِهِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ نَفَاذِهَا ضِمْنَ حُدُودِ آجالِهَا المقَدَّرَةِ لَهَا فِي الْحُكْمِ

الْجَزَائِيِّ الرَّبَّانِيّ، الأبَدِيّ، أو الْمُؤَقَّتِ، أو المطْلَقِ الْقَابِلِ للتَّقْيِيد لَاحقاً.

ومَحْوَ اللهِ مَا يَشَاء، وإثباتُ ما يشاء يكُونُ فيما هو مَشْرُوطٌ باختياراتِ العباد، وفي صُحُفِ الملائكةِ لا في كَلِمَاتِهِ الأصول.

• ﴿... وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾: أي: وهُوَ السَّمِيعُ لِكُلِّ مَا هُوَ قَابِلٌ لِأَنْ يُسْمِعُ، وهو الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

وقَدْ جاء في سَوابق آيات هَـٰذَا الدَّرْسِ مَا يُنَاسِبُ ذِكْرَ هَـٰذِين الاسْمَيْنِ من أسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ، الَّتي هِيَ مِنْ عَنَاصِرِ القَاعِدَةِ الإيمانِيَّة.

■ قَول اللهِ عزَّ وجلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ صَالِحٍ للخِطَاب بأُسْلُوب الْخِطَابِ الإفْرَادِيّ:

• ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾:

أي: وإنْ تُطِعْ أيُّهَا الْحَرِيصُ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ مُهْتَدِياً فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكَ سَعِيداً في آخِرَتِكَ، أكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الإنْسِ والْجِنِّ، يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ بِأقْوَالِهِمُ الزُّخْرُفِيَّةِ الْبَاطِلَةِ، الَّتِي يُزَيِّنُونَ بِهَا مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، والسَّعْيَ لِنَيْلِ أعْظَم قَدْرٍ مِنْها، مَهْمَا كانَ فِيها ضَلَالٌ بَعِيدٌ عَنْ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم، ولَوْ كَانَتْ ذَوات عَاقِبَاتٍ وَخِيمات.

﴿وَإِن تُطِعْ﴾: أي: وَإنْ تَنْقَدْ وَتَسْتَجِبْ وَتَتَّبِعْ، يقال لغة: «أَطَاعَ فُلَانٌ فُلَاناً يُطِيعُهُ» أي: انْقَادَ لَهُ، وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَه بِهِ، أو دَعَاهُ إلَيه، ويقال أيضاً: «طَاعَهُ، يَطُوعُهُ، طَوْعاً» أي: انقادَ له.

هَـٰذِهِ قاعِدَةٌ ثَمِينَةٌ جدًّا لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَكُونَ عَاقِلاً رَشيداً، مِنْ قَوَاعِدِ الاجْتِماعِ الْبَشَرِيِّ، والنَّاسُ لا يَعْمَلُونَ بها وَلَا يَسْتَفِيدُونَ مِنها.

فالنّسْبَةُ الْعُظْمَىٰ مِنَ النَّاسِ في كُلِّ الْقُرُونِ الإنْسَانِيَّة، هُمْ ضَالُّون بَعِيدُونَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم، وكَثِيرٌ مِنْهُمْ مُضِلُّونَ، مُغْوُونَ، مُلْحَقُونَ بِقِسْمِ الشَّيَاطِينِ من الإنْسِ والْجِنِّ.

وقَدْ أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّ تَكرُّرَ هَـٰذِهِ الظَّاهِرَةِ مِنْ ظَوَاهِرِ الاجْتِماعِ الْبَشَرِيّ، لَهُ سَبَبَانِ رَئِيسَان:

السَّبَبُ الْأَوَّل: أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنِ، فَهُمْ لَا يَصْبِرُونَ حَتَّىٰ يَعْرِفُوا الْحَقَّ، أو الصَّوَاب، أو الأفْضَلَ، بِيَقِينٍ، بَلْ يَتَسَرَّعُون بِدَوافِعَ شَهْوِيَّة أو غَضَبِيَّة مِنْ نُفُوسِهِمْ، فَيَجْزِمُونَ بالْبَوَادِرِ الَّتِي تَخْطُرُ لَهُمْ، وَيَجْعَلُونَهَا حَقَائِقَ، وَهِيَ ظُنُونٌ، وأَكْثَرُهَا ظُنُونٌ كَوَاذِبُ لَا تَصْلُحُ للاعْتِمَادِ عَلَيْهَا، وهي كَوَاذِبُ قَطْعاً إذا تَعَارَضَتْ مع مَا جَاءَ في دين الله الحق لعباده.

وفي بيانِ هَـٰذَا السَّبَبِ قالَ اللهُ تَعَالى: ﴿... **إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ** ...﴾: أي: مَا يَتبِعُونَ في آرائِهِمُ الَّتِي يَجْزِمُونَ بِها إلَّا الظَّنّ.

الظَّنُّ: هُو مَا دُونَ الْيَقِينِ الْعِلْمِيّ، حَتَّىٰ أَضْعَفِ دَرَجَاتِ الظُّنُونِ التَّوَهُّمِيَّة، فَمَا تَجَاوَزَ مِنَ الظُّنُونِ الدَّرَجَةَ الْوُسْطَىٰ الَّتِي تَكُونُ فيها كِفَّتَا مِيزَان الاحْتِمَالَات الْمُتَضادَة مُتَسَاوِيَتَيْنِ، فَيَرْجَحُ أَحَدُ الاحْتِمَالَيْنِ على ضِدِّهِ يَكُونُ ظَنّاً رَاجِحاً، ويَكُونُ مُقَابِلُهُ ظَنًّا مَرْجُوحاً، وقَدْ يَصِلُ الظَّنُّ المرجُوحُ إلى دَرَجَةِ التَّوَهُّم. وأَكْثَرُ النَّاس يَكْتَفُونَ في أَحْكَامِهِمْ بالظُّنُونِ الْمَرْجُوحَة، لِتَبَادُرِهَا إِلَىٰ أَذْهَانِهِمْ، فَلَا يُكَلِّفُونَ أَنْفُسَهُمُ البحْثَ والتفكِيرَ والتَّأَمُّل، فَيَسْقُطُونَ في أَوْحَالِ أَخْطَاءٍ شَنِيعَةٍ جِدًّا، ذَاتِ مَصِيرٍ وَخِيمٍ لِمَنِ اعْتَمَدَ عَلَيْهَا وعَمِلَ بها، وَيغْتَرُّ مَنْ يَسْتَمْسِكُ بِهَا بِكَثْرَةِ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْتَبِرُونَهَا مِنَ الحقائق الَّتِي يَجِبُ الاسْتِمْسَاكُ بِهَا، والْعَمَلُ بِمَا تَدْعُو إِلَىٰ الْعَمَلِ به.

وأَكْثَرُ مَنْ فِي الأَرْضِ الموضُوعِينَ فيها مَوْضِعَ الامْتِحَانِ ضَالُّون عَنْ

سَبِيلِ اللهِ، فَمَنِ انْقَادَ لَهُمْ فِي عَقَائِدِهِمْ وَمَفْهُومَاتِهِمْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْأَكْثَرِيَّةِ الضَّالَّةِ عَنْ سَبِيلِ اللهِ قول اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُوله في سورة (يُوسف/ ٥٣ نزول):

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾:

والمرادُ بِكَوْنِ أَكْثَرِ النَّاسِ يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ، أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ الظُّنونَ الضَّعِيفَة الَّتِي لَا يَصِحُّ عَقْلاً الاحْتِجَاجُ بها، ولَا الاعْتِمَادُ عَلَيْها، في قَضَايَا العقائِدِ الإيمَانِيَّة، وقَضَايا السُّلُوكِ الْإِنْسَانِي الْمَقْرُونِ بِالْأَهْوَاء والشَّهَوَاتِ والمصَالِحِ الْخَاصَّةِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَقَيَّدُوا بِمَنْهجِ الإسْلَامِ في الْعَمَلِ بالظُّنُونِ الرَّاجِحَةِ، حينَما لَا يَتَوَافَرُ الْيَقِّينُ بالْأَدِلَةِ القَاطِعَة، أو البراهِينِ السَّاطِعَة.

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْلِمُونَ، وَلَا سِيمَا الْعُلَمَاءُ الْمُجْتَهِدُونَ مِنْهُمْ، فإِنَّهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَام، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ الظُّنُونِ الرَّاجِحَةِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ دَلِيلٌ يُفِيدُ يَقِيناً، وإِذَا لَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ ظَنٌّ أَقْوَىٰ مِمَّا اعْتَمَدُوا عَلَيْهِ، والمؤمِنُونَ المسْلِمُونَ لَيْسُوا مِنْ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ.

والاعْتِمَادُ عَلَىٰ الظَّنِّ الرَّاجِحِ في أَحْكَامِ الْفُرُوعِ، وفي الْمَفْهُومَاتِ الإسْلَامِيَّةِ المختَلِفَةِ، مَأْذُونٌ بِهِ شَرْعاً، بأدِلَّةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ القرآنِ والسُّنَّةِ وعَمَلِ الصَّحَابَةِ في عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ، وفي عَمَلِ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهُوَ مِمَّا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُؤَهَّلُونَ للإجماعِ من الْمُسْلِمِينَ، لَا يُخَالِفُ فِي هَـٰذَا مَنْ يُعْتَدُّ بخِلَافِهِ.

السَّبَبُ الثَّاني: أَنَّ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَخْرُصُونَ، أي: يَكْذِبُونَ، لِتَرْويج آرائِهِم وَمَذَاهِبِهِمْ، بِسَبَب أَنَّهُمْ كَافِرُونَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِر، لَا يَخَافُونَ عِقَابَ اللهِ وَعَذَابَهُ، عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَأَكَاذِيبِهِمْ وضَلَالَاتِهِم.

وفي بيان هَـٰذَا السَّبَبِ قالَ اللهُ تعَالَىٰ: ﴿... **وَإِنْ هُمْ إِلَّا**

يَخْرُصُونَ﴿١١٦﴾﴾: أي: يَكْذِبُونَ، فالْمُرَادُ بالخَرْصِ هُنَا الكَذِب، وهُوَ كَذلِكَ في كُلِّ القرآن. ويأتي الْخَرْصُ في اللُّغَةِ بِمَعَنَىٰ التقدير بالظَّنّ.

• ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾:

إنَّ الْحُكْمُ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ بأَنَّ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ ضَالُّون عَنْ سَبِيلِ اللهِ، فَمَنِ انْقَادَ إِلَيْهِمْ أضَلُّوه عَنْ سَبِيلِهِ، اسْتَدْعَىٰ أَنْ يُبَيِّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيمٍ بِكُلِّ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ، وأَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيمٍ بِكُلِّ الْمُهْتَدِين.

جاء في هَـٰذِهِ الآيَةِ عِبارَةَ ﴿أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ والمعروف عند عُلَماءِ العربيّة أَنَّ أفْعَلَ التَّفْضِيلِ لا يَتعدَّىٰ إلىٰ المفْعُولِ بِهِ مُبَاشَرة، وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ: أَعْلَمُ بِمَنْ يَضِلُّ. كما جاء في آخِرِ الآيَةِ: ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ ونظيره جاء في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول):

﴿... قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾:

هَـٰذانِ النَّصَّانِ في القرآن خَرَجَا عَنِ القياسِ العربي، وقد اجْتَهَدَ المفسرون من أئمة اللُّغَةِ في تخريج هَـٰذَا التعبير.

• فرأىٰ بَعْضُهُمْ أنَّ العبارة فيها حَذْفٌ، وأصْلُهَا: أعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيم، يَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدَىٰ، ويَعْلَمُ مَنْ هُوَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ.

• ورأىٰ بَعْضَهُم أنَّ النَّصْبَ جَاءَ بِنَزْعِ الخافض، وأصْلُ العبارة: أَعْلَمُ بِمَن.

• ورأىٰ بَعْضُهُمْ أَنَّ أفْعَلَ التَّفضِيلِ جَاءَ على غَيْرِ بَابِه، إذْ مَعْنَاهُ: يَعْلَم. إلَىٰ غَيْرِ هَـٰذِهِ مِنْ تَخْريجات.

وانْسِجَاماً مَعَ مَنْهَجِ الحذْفِ والطّيِّ في القرآن، وهُو كثير، يَتَرَجَّحُ لَدَيَّ التخريج الأول. على أنَّ النَّصْب بنَزْعِ الخافِضِ لَيْسَ مُسْتَبْعداً، لَكِنَّ الحذْفَ وَالطَّيَّ أَكْثَرُ إثْرَاءً للمعاني.

وَلَا يَخْفَىٰ مَا فِي عِبَارَة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ مِنْ قَصْرِ المسْنَد، وهُو «الْأَعْلِمِيَّة» علَىٰ المسند إلَيْه، وهو «اللهُ رَبُّك».

وجاءَ اسْتِعْمَال الفِعْلِ المضارِع: ﴿يَضِلُّ﴾ واسم الفاعل «الْمُهْتَدِين» المكافئ لِلْفِعْل المضارع، لِلدَّلَالَةَ عَلَىٰ مُتابَعَةِ عِلْم اللهِ الشَّامِلِ الْمُحِيطِ لِحَرَكَاتِ عِبَادِهِ مَعَ أَصْغَرِ الوحْدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي تَجْرِي فيها هَـٰذِهِ الحركات.

وبهذا تَمَّ تدبُّرَ الدرس الرابع والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٢٩)
التدبر التحليلي للدَّرْس الخامس والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١١٨ ـ ١٢١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

القراءات:

(١١٩) • قرأ نافع، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ**] وقرأها شعبة، وحمزة، والكِسَائي، وخلَف: [**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَقَدْ فُصِّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**].

وَمُؤَدَّى هَـٰذِهِ القراءات واحد، وهي من التَّفَنُّنِ في التعبير.

(١١٩) • قرأ عاصم، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [**لَيُضِلُّونَ**] أي: لِيُضِلُّونَ غَيْرَهم.

وقرأها باقي الْقُرَّاء العشرة: [**لَيَضِلُّونَ**].

وبَيْنَ القِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداء المعنى المراد، أي: هُمْ يَضِلُّونَ عَنْ صِرَاطِ الحق بِأَهْوَائهم، ويُضِلُّونَ غَيْرَهُمْ.

تمهيد:

آيات هَـٰذَا الدَّرْس من فروع السَّاق الأوّل من سَاقي شَجَرَةِ موضوع السّورة، وفيها بَيَانٌ للمؤمِنِينَ حَوْلَ بَعْضِ مَا يُؤْكَلُ من اللُّحُوم، عَلَىٰ خِلَافِ أَحْكَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فيها.

التّدبّر التحليلي:

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِلْمُؤْمِنِينَ المسلمين:

• ﴿**فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾**﴾:

بمناسَبَة بعض ما جاء في الدَّرْسَ السابق، ومنه: ﴿**أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا**﴾ - ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا**﴾ - ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ جاءَتْ عبارةُ ﴿**فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ**﴾ تَفْرِيعاً عَلَيْهِ بِبيان أحْكامٍ رَبَّانِيَّةٍ تَتَعلَّقُ بالمطاعِمِ مِنَ

اللُّحُومِ، وَهَـٰذِهِ في نُجُومِ التَّنْزِيل أُولَىٰ أحْكَامِ الْفُرُوع بَعْدَ الصَّلَاةِ، مع مُقَدِّمَاتٍ كُلِّيَّةٍ عَنِ الزكاة.

أي: واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ على ما تَذْبَحُونَ وَمَا تَصِيدُون، وكُلُوا مِنْهُ، ولَا تأْكُلُوا مِمَّا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللهِ، كالَّذِي يُذْبَحُ لِلْأَوْثَانِ ولِلْمَوْتَىٰ، لِأَنَّهُ شِرْكٌ بإلَهِيَّةِ اللهِ الَّذِي لا إلَهَ إلَّا هُوَ، وشركٌ بِحَقِّ رُبُوبِيّتِهِ، وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، فَرَبُّكُمْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ذلك، إذ هُوَ مِمَّا أَبَانَ لَكُمْ تَحْرِيمَ الأكْلِ منه في الآيَة (١٤٥) الَّتِي فَصَّلَتِ مَا حَرَّمَ اللهُ الْأَكْلَ مِنْهُ مِنَ الحَيوانات، وهو: «المَيْتَةُ ـ والدَّمُ المسْفُوحُ ـ ولَحْمُ الخِنْزِيرِ ـ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ».

والغرضُ من ذكر اسْم اللهِ عَلَىٰ مَا يُذْبَحُ من الحيواناتِ وعلَىٰ مَا يُصْطَادُ مِنْها، مُلَاحَظَةُ أَنَّ اللهَ الرَّبَّ خَالِقَهَا هُوَ الَّذِي أَباحَ ذَبْحَهَا والْأَكْلَ مِنْها، مع الاستعانَةِ بِهِ عِنْدَ ذَبْحِها أو صَيْدِها.

رَوَىٰ الترمِذِيُّ وغَيْرُهُ عن ابْنِ عَبّاس قال: أَتَىٰ أُنَاسٌ النَّبِيَّ ﷺ، فقالُوا: يا رَسُولَ الله، أَنَأْكُلُ مَا نَقْتُلُ، ولَا نَأْكُلُ مَا قَتَلَ الله؟ فأنزل الله تَعَالَىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ . . .﴾ وحتى غاية الآية (١٢١).

وحينَما نُلاحِظُ أنَّ النَّاسَ بافْتِرَاءَاتِهِمْ عَلَىٰ اللهِ يأكُلُونَ الموْتَىٰ مِنَ الحَيوانَات، ويَذْبَحُونَ ذَبائِحَهُمْ باسْمِ آلِهَتِهِمْ مِنَ الْأَوْثَان، وأَنَّ بَعْضَ النّاسِ يُحَرِّمُونَ عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ ذَبْحَ الحيوانَاتِ والْأَكْلَ مِنْ لُحُومِها، شَفَقَةً عليها، فَكَانَ مِنْ بَيَانِ أحْكَام الدِّينِ الّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ الرَّبُّ لِعِبادِه، أنْ يُعْلِمَ المؤمنين الْمُسْلِمِين بأنَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ أَبَاح لَهُمْ أَنْ يَذْبَحوا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ غَيْرِ الضَّارَةِ ولا المسْتَخْبَثَة، وأَنْ يَصِيدُوا مِنْ صَيْدِها، ذَاكِرِينَ اسْمَ اللهِ عِنْدَ ذَبْحِها أَوْ صَيْدِهَا، إذْ أباحَهَا لَهُمْ وَهُوَ رَبُّهَا وَرَبُّهُمْ، وكَانَ مِنْ بيانِ أَحْكام الدِّينِ أنْ يُحَرِّمَ أكْلَ الْمَيْتَةِ، وأَكْلَ الدَّمِ المسفوح، وأكْلَ لَحمِ الخِنْزِيرِ،

كما سَيأْتِي بَعْدَ خَمْسٍ وعشرين آيَة في السُّورَة، وأنْ لا يَنْسَاقُوا مَعَ أَوْهَامِ الَّذِينَ يَتَدَخَّلُونَ فِي رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِكَوْنِهِ، فَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ، فأمَرَهُمْ أَمْرَ إِبَاحَةٍ فَقَالَ لَهُمْ:

• ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ أيْ: فَكُلُوا مِنْ ذبائِحِ الحيواناتِ المأذُون بِذَبْحِها، ومن الصَّيْدِ المأذون بصَيْدِهِ، ذاكِرين اسم الله عليه، وَلَا تَتَّبِعُوا افتراءات المفْتَرِينَ علىٰ الرَّبِّ خالِقِهِمْ وَخَالِقِ كُلِّ ذِي حَيَاةٍ، والْمَالِكِ لحياةِ كُلِّ ذِي حَيَاة.

وإنِّي أُوَجِّهُ لَكُمْ هَـٰذَا الْحُكْمَ مِنْ أحْكَامِ فُرُوعِ الدِّينِ، إنْ كُنْتُمْ بآيَاتِ اللهِ الْبَيَانِيَّةِ فِي كِتَابِهِ مُؤْمِنِينَ، أي: تُتَابِعُونَ الإيمانَ بِكُلِّ مَا يُنَزَّلُ إليكُمْ مِنْ آيَاتٍ، وَتُسَلِّمُونَ إلَيْها قِيَادَ حَرَكَاتِ حَيَاتِكُمْ تَسْلِيماً كامِلاً.

ويظْهَرُ لِي أنَّ شَرْطَ ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ شَرْطٌ تَحْرِيضي لِلْمُؤْمِنِين على الْعَمَلِ بِمُقْتَضَىٰ إيمانِهِمْ، والتَّسْلِيم الْكَامِلِ لأَحْكَامِ رَبِّهِمْ وعَدَم الالْتِفَاتِ إلَىٰ وَسَاوِسِ الموسْوِسِينَ، وضَلَالَاتِ المضِلِّينِ، مِن شياطين الإنْسِ والجنّ، الّذِينَ يُوحِي بعضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غروراً.

وخَاطَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ الَّذِينَ يَتَحَرَّجُونَ مِنْ ذَبْحِ أَوْ صَيْدِ مَا أذِنَ اللهُ بذبْحِهِ أو صَيْدِه من الحيوانات، ويَتَحَرَّجُونَ مِنَ الأكْلِ مِنْ أجْسَادِهَا، بأسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ التَّلْوِيمي، فقال لهم:

• ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ . . . ﴿١١٩﴾﴾:

أي: وَمَا المانِعُ لَكُمْ الَّذِي يمْنَعُكُمْ يَا أيُّها المتَحَرِّجُونَ مِنْ أنْ تَذْبَحُوا أَوْ تَصِيدُوا ما أَذِنَ اللهُ لَكُمْ بِذَبْحِهِ أو أذِنَ لَكُمْ بِصَيْدِهِ؟؟ وَمَا الدَّافِعُ لَكُمْ الَّذِي يَدْفَعُكُمْ إلَىٰ أَنْ لا تَأْكُلُوا مِمَّا أباحَ اللهُ لَكُم وَذُكِرَ علَىٰ ذَبْحِهِ أَوْ

صَيْدِهِ اسْمُ اللهِ الرَّبِّ الَّذِي أَبَاحَ ذَلِكَ، وهُوَ الرَّبُّ ذُو الْحَقِّ الْأَوْحَدُ في التَّحْلِيلِ والتَّحْرِيم؟؟.

مَا هُو المانِعُ لَكُمْ، وَمَا هو الدافِعُ لَكُمْ، وقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ في هَـٰذِهِ السُّورةِ الَّتِي نَزَلَتْ جُمْلَةً واحِدَةً[1]، مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَكْلَهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ؟؟.

وهَـٰذَا التفصيل نَجِدُه في الآية (١٤٥) الآتية، والْإِحَالَةُ عَلَيْها لَا إِشْكَالَ فيه، وَلَوْ كانَ تَرْتيبها بَعْدَ نحو (٢٥) آيَةِ، لِأَنَّ السُّورَةِ نَزَلَتْ جُمْلَةً واحِدَة.

• ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾: أي: إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَىٰ الْأَكْلِ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ عليكم، فَلَكُمْ أنْ تَأْكُلُوا مِنْهُ بمقْدَارِ الضَّرُورَة، كالْجُوعِ الشَّدِيدِ الَّذِي يُخْشَىٰ مِنْهُ أذىً شَدِيد، ولا يُوجَدُ مَا يَدْفَعُهُ إِلَّا الأَكْلُ مِمَّا حَرَّمَ الله.

إِنَّهُ لَا يُوجَدُ مَا يَقْتَضِي أَلَّا تَأْكُلُوا ممّا أَبَاحَ اللهُ وذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليه، إِلَّا الافْتِرَاءَ عَلَىٰ اللهِ، أو أَوْهَامَ شَفَقَةٍ لَا وَزْنَ لَهَا فِي مَقَايِيس الحَقِّ والْعَدْلِ وفِعْلِ الْخَيْر، إنَّ اللهَ أَوْلَىٰ بِخَلْقِهِ جَمِيعاً مِن أَرْحَمِ الرُّحَماءِ بِهِمْ، وأَوْلَىٰ بِهِمْ مِنْ نفوسِهِمْ.

ولَمَّا كَانَ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِغَيْرِ أَحْكَامِ اللهِ في الْحَلَالِ والْحَرَام، إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ أَوْ عَوَاطِفَهُمْ أَوْ مَصَالِحَهُمْ بِغَيْرِ عِلْم حَقٍّ يَقْتَضِي ما حَكَمُوا بِه، فَهُمْ يَضِلُّونَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، ويُضِلُّونَ غَيْرَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ، قال الله تعالى:

• ﴿... وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿لَّيَضِلُّونَ﴾.

ولَمَّا كانت أحْكَامُ النّاسِ في الْحَلَالِ والْحَرَامِ عُدْواناً عَلَىٰ حَقِّ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وفي إِلَهِيَّتِهِ، وسَوْفَ يُجَازِيهِمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَىٰ عُدْوانِهِمْ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ:

---

(١) قيل باستثناء بعض آيات رُوي أنَّها مَدَنية، وليس منها الآية (١٤٥) الآتية.

• ﴿... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾: في ذِكْرِ أَنَّ اللهَ أَعْلَمُ بالْمُعْتَدِينَ كِنَايَةٌ عَلَىٰ أنَّ اللهَ سَوْفَ يُجَازِيهِمْ وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ عُدْوَانِهِمْ عَلَىٰ حَقِّ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وإلَهِيَّتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً للمؤمنين:

• ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾:

الإِثْم: هُو في اللُّغَةِ الذنْبُ، وباسْتِقراء لفظة الإثْم في القرآن الكريم، وَجَدْتُ أَنَّهَا تُسْتَعْمَلُ للدّلالَةِ على جَمِيعِ المعاصِي الَّتِي نَهَىٰ اللهُ عَنْها كَبَائِرِها، وَمُتَوَسِّطَاتِها، وصَغَائِرِها، ما هو ظاهِرٌ مِنْها كأكْلِ أمْوَالِ النَّاسِ بالْبَاطِلِ، وأقوالِ الكُفْرِ، وَمَا هُوَ بَاطِنٌ مِنْها، كَكِتْمَانِ الشَّهَادَةِ، فَهُوَ مِنَ الْإِثْمِ الباطِنِ لِأَنَّهُ سُكُوتٌ عَنِ الحقِّ، فَهُوَ مِنْ إِثْمِ الْقُلُوبِ.

فظاهر الإثم، مَا هُوَ مُعْلَنٌ مِنْه، وبَاطِن الإثْم مَا كَانَ مِنْهُ فِي السِّرّ، ويَدْخُلُ في عُمُومِ بَاطِنِ الإِثْم مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ أعْمَالِ الْقُلُوبَ والنفوسِ الإراديَّةِ، كالنفاقِ، وبَعْضِ أنواع الشِّرْكِ الخفِيّ الَّذِي يَكُونُ فِي الْقُلُوبِ والنفوس، والرِّيَاءِ المحْبِطِ لِلْعَمَلِ، والنِّيَّاتِ الفاسِدات من وراء الأعمال، والْعَزْم عَلَىٰ المعْصِيَةِ الَّتِي مَنَعَ مِنْ فِعْلِهَا مَانِعٌ خَارِجِيٌّ، والْحَسَدِ المنْهِيّ عَنْهُ شَرْعاً، وتَدْبِير الخُطَطِ لِلْإِضرار بأحكام الدّين، أو الإضرار بعباد اللهِ في أنْفُسِهم، أو أمْوالِهِم، أوْ أعْرَاضِهم.

والأثِيم: هو الْمُسْرِف الغالِي في ارْتِكَابِ الذُّنُوب، ويَخْتَصُّ بالْكَافِرِ الفاجر.

ومَا جاء في الأقْوَالِ المأثورةِ عَنْ قُدَمَاءِ الْمُفَسِّرِينَ أقوالٌ قَاصِرَةٌ عَنْ دَلَالَةِ هذا الاستقراء القرآنِيّ لاسْتِعْمَالِ مَادَّةِ الإثْمِ وَمُشْتَقَّاتها، ومَا دَلَّ عَلَيْهِ هذا الاستقراء هو الذي يَجِبُ اعْتمادُه.

فالمعْنَىٰ: واتْرُكُوا يا أَيُّهَا المؤمنُون كُلَّ مَا أَبَنَّا وَنُبَيِّنُ لَكُمْ أَنَّهُ إِثْمٌ، وكُلَّ مَا نَهَيْنَاكُمْ عَنْ فِعْلِهِ أَوْ عَن تَرْكِهِ نَهْيَ تَحْرِيم، مَا كَانَ مِنْهُ ظَاهِراً مُعْلَناً، وَمَا كَانَ مِنْهُ باطِناً غَيْرَ مُعْلَنٍ، ومِنْهُ أَعْمَالُ الْقُلُوبِ والنفوس.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ بِفِعْلِ مَا نُهُوا عَنْ فِعْلِهِ نَهْيَ تَحْرِيم، وتَرْكِ مَا أُمِرُوا بِفِعْلِهِ أَمْرَ إِيجَابٍ، سَيُجْزَوْنَ في الدُّنْيَا أَوْ في الآخِرَةِ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ، أَيْ: يَكْتَسِبُونَ مِنْ إِثْم عَنْ إِرادَةٍ جَازِمَةٍ لِلْمَعْصِيَة، وقَصْدٍ غَيْرِ عَفْوِيٍّ لارْتِكابها، أخذاً مِنْ صِيغَةِ «يَفْتَعِل» الدَّالَّة علَىٰ الْقَصْدِ المقْرُونِ بِبَذْلِ طَاقَةٍ مَجْلُوبَةٍ جَلْباً إراديًّا.

والباء في ﴿بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ﴾ سَبَبِيَّة، أي: بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْتَسِبُونَ.

ولَمَّا كَانَ مِنْ ظَاهِرِ الإِثْم أَكْلُ الميْتَةِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ الْأَكْلَ مِنْها، وَلَمَّا كانَ مِنْ بَاطِنِ الإِثْم أكْلُ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، كالَّذِي أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ، وهُوَ الموضُوع الَّذِي يَدُورُ حَوْلَهُ البَيَانُ في هَـٰذَا الدَّرْس، خَاطَبَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا في الآية الأخيرة مِنْهُ بِقَوْلِهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾:

جاءَ فِي الآيَة (١٤٥) الَّتِي فَصَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ المطاعِم مِنَ الْحَيَوَانَاتِ، قولُهُ تعَالَىٰ: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: أي: أعْلَنَ ذَابِحُه أَنَّهُ يَذْبَحُهُ قُرْباناً لِغَيْرِ اللهِ، كَوَثَنٍ يَعْبُدُه، أَوْ مَيِّتٍ يَتَقَرَّبُ بِذَبِيحَتِهِ إليه.

أَصْلُ مَعْنَىٰ إِهْلَالِ الذَّابِحِ بِذَبِيحَتِهِ، أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ ذاكراً اسْمَ مَنْ يُقَدِّمُ ذَبِيحَتَهُ قُرْبَاناً له.

ومن هَـٰذَا يَظْهَرُ أن الْمُرَادَ بما لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ بِرَفْعِ الصَّوْتِ عِنْدَ ذَبْحِهِ، ذاكراً ذَابِحُهُ اسْمَ مَنْ يُقَدِّمُ ذَبِيحَتَهُ قُرْبَاناً

لَهُ، وهُوَ غَيْرُ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهَـٰذَا مِنْ عباداتِ المشْرِكين، فَهُوَ مِنَ الشِّرْك، والأَكْلُ مِنْهُ بالنِّسْبَةِ إلى المؤمنينَ الْمُسْلِمينَ فِسْقٌ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مُذَكًّى ذَكاةً شَرْعِيَّةً، فَهُوَ بِحُكْم المَيْتَة.

الْفِسْقُ: الْمَعْصِيَةُ عَلَىٰ تَفَاوُتِ دَرَكَاتِهَا تَسَفُّلاً.

• ﴿... وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾:

أي: وإنَّ شَيَاطِينَ الْجِنِّ لِيُوحُونَ إلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ، وإنَّ شياطِينَ الإنْسِ لَيُوحُونَ إلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَتَأَثَّرُونَ بِهِمْ، مُوَالِينَ لَهُمْ ومُنَاصِرِين، ضَلَالاتٍ مُغَلَّفَاتٍ بأقْوَالٍ زُخْرُفِيَّةٍ خَادِعَةٍ بِزِينَاتِها، لِيُجَادِلُوكُمْ يا أَيُّهَا المؤمِنُونَ فِيمَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَفِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، كَأَنْ يَقُولُوا لَكُمْ بِشَأْنِ الْأَكْلِ مِنَ الحيوانات: مَا قَتَلْتُمُوهُ أَنْتُمْ بالذَّبحِ أَحَلَّهُ لَكُمْ دِينُكُمْ، وَمَا قَتَلَهُ اللهُ فَأَمَاتَهُ حَرَّمَهُ عَلَيْكُمْ دِينكُمْ، وَهَـٰذَا مُخَالِفٌ لِمَنْطِقِ الْعَقْلِ، وَكَذَلِكَ يُزَخْرِفُونَ أَقْوَالاً مُشَابِهَةً فِي كَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِ دِينِ اللهِ لَكُمْ.

فَلَا تَنْقَادُوا لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا تَتَأَثَّرُوا بِزُيُوفِ جَدَلِيَّاتِهِمْ، لِيُزْلِقُوكُمْ فِي مَزَالِقِ كُفْرِيَّاتِهِم.

وإنْ أَطَعْتُمُوهُمْ مُنْقَادِينَ لَهُمْ، ومُتَأَثِّرِينَ بِضَلَالَاتِهِمْ، أَخْرَجُوكُمْ عَنَّ طَاعَةِ اللهِ رَبِّكُمْ في أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَفِيمَا اصْطَفَىٰ لَكُمْ من الدِّينِ، الَّذِي جَعَلَهُ مَادَّةَ امْتِحَانِكُمْ في ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا.

وبِخُرُوجِكُمْ عَنْ طَاعَةِ اللهِ رَبِّكُمْ، تَكُونُونَ مُطِيعِينَ في الحقيقَةِ لإمَامِ الشَّيَاطِينِ إبْلِيسَ، الَّذِي أَوْحَىٰ إلَىٰ أَوْلِيائِهِ بِهَـٰذِهِ الضَّلَالاتِ، وطَاعَةُ إبْلِيسَ الشَّيْطَانِ الأَكْبر، وطَاعَةُ بَعْضِ جُنُدِهِ في أُمُورِ الدِّينِ، هِيَ مِنْ عِبَادَةِ الشَّيْطانِ.

وعِنْدَئِذٍ يَتحقَّقُ فِيكُمْ أَنَّكُم مُشْرِكُونَ اتَّخذْتُمُ الشَّيْطانَ مَعْبُوداً لَكُمْ، وَجَعَلْتُمُوهُ شَرِيكاً للهِ في إلَهِيَّتِهِ.

وَيقُولُ اللهُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ مَا جاء بَيانُهُ في سُورَةِ (يس/٤١ نزول):

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وبهذا تَمَّ تدبُّرَ الدرس الخامس والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.



(٣٠)
التدبر التحليلي للدَّرْس السادس والعشرين
من دُروس سورة (الأنعام)
الآيات من (١٢٢ ـ ١٢٥)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

القراءات:

(١٢٢) • قرأ نَافع، وأبو جَعْفَر، وَيَعْقُوب: **[أَوَ مَنْ كَانَ مَيِّتاً]** بتَشْدِيدِ الياء ـ وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً]** بإسْكانِ الياء.

«مَيْت» و«مَيِّت» لُغتَانِ بِمَعْنىً واحد.

(١٢٤) • قرأ ابن كثير، وحفص: **[يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ]** بالإفراد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالجمع: **[يَجْعَلُ رِسَالَاته]**.

والمعنى فيهما واحد، لأنّ المفرد المضاف إلى المعرفةِ بحُكْم الجمع، ويُضافُ إلى هذا أَنَّ بَعْضَ الرُّسُل أنزل الله عَلَيْهِمُ الرّسَالَةَ دُفْعَةً واحدة، وأنّ آخَرينَ أنْزَلَ عَلَيْهم رِسَالَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ نَجْماً بَعْدَ نَجْم، فهي باعتبار تجزئتها رِسالات.

(١٢٥) • قرأ ابن كثير: **[ضَيْقاً]**. وقرأها باقي القرّاء العشرة **[ضَيِّقاً]**.

الضَّيْقُ والضَّيِّقُ: مَصْدَرَان لفعل «ضاقَ، يَضِيقُ، ضَيْقاً، وضِيقاً» أي: لَمْ يَتَّسعْ لِمَا حَلَّ فِيهِ، ويُطْلَقُ عَلَىٰ الكَرْب، والألَم في النفس الضاغط عليها، مِنْ حُدُوثِ مَكْرُوه، أو تَخَوُّفِ حُدُوث مَكْرُوه. فهو «ضَائق، وضَيّقٌ».

فَمُؤَدَّىٰ القراءتَيْنِ واحدٌ، وقراءة ابْنِ كثير من إطْلَاقِ المَصْدَرِ وإرادة اسْمِ الفاعل على سبيل المُبالغة.

(١٢٥) • قرأ نافع، وشعبة، وأبُو جَعْفر: **[حَرِجاً]** بِكَسْرِ الرّاء.

وقرأها باقي القرّاء العَشَرة: **[حَرَجاً]** بفتح الرَّاء.

ومُؤَدَّى القراءتَيْن واحد، «حَرِج» صِفَة مُشبَّهَةٌ باسم الفاعل. وحَرَجٌ مَصْدَرٌ وُصِفَ بِهِ على سبيلِ المبَالغة.

(١٢٥) ● قرأ ابْنُ كثير: [**يَصْعَدُ**]. وقرأها شُعبة. [**يَصَّاعَدُ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**يَصَّعَّدُ**] أَصْلُها يَتَصَعَّد.

في قراءتي «يَصَّاعَدُ» و«يَصَّعَّدُ» مَعْنَىٰ التكَلُّفِ، فبينهما وبَيْنَ «يَصْعَدُ» تَكَامُلٌ رُوعِي فِيهِ أَحْوَالُ النَّاسِ الْمُخْتَلِفَةِ في حالَاتِ صُعُودِهم، فَمَنْهم مَنْ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ الشُّعُورَ بالاختناقِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ.

تمهيد:

آيات هذا الدَّرس من فروع السَّاقِ الأوَّلِ من سَاقَي شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة. وفيها بيانٌ عن الإيمان والكُفْر والمقارنَةِ بَيْنَهُمَا، وحَوْلَ الْكَافِرِينَ المعانِدِينَ الْمُصِرِّينَ على عنادِهم ومكْرِهِمْ وَتَعَنُّتِهم، وحُولَ سُنَّةٍ من سُنَنِ اللهِ فِي طَبِيعةِ النَّفْسِ الإنْسَانِيَّةِ وَسُلُوكِها الدَّاخِلِيّ.

التّدبّر التحليلي:

■ قولُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ الكافِرِ بالميّتِ، وَوَصْفِ المؤمِنِ بالْحَيِّ الذي أحْيَاهُ اللهُ، وَجَعَلَ لَهُ نُوراً يَمْشِي به في الناس، بخلافِ الكافِرِ التائِهِ في الظُلمات.

● ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ العجيبَةِ تَشْبِيهَانِ مُمْتَزِجَانِ للمؤْمِنِ، وآخَرَانِ مُمْتَزِجانِ لِلْكَافِرِ، تَعْقِيباً عَلَىٰ مَا جَاءَ في سَوَابِقِ الآيات في السّورَة الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنِ الْكَافِرِين والمؤمنين، وَطَالبت المؤمنين بالْتِزام أحكام الله والحذَر من طاعة الكافرين المضلّين من شياطين الإنس والجنّ.

فالكافِرُ كالميِّتِ وكالْأَعْمَىٰ المُحَاطِ بالظُّلُمَاتِ، والمؤمِنُ كالْحَيِّ

الْبَصِيرِ الذي يَحْمِلُ نُوراً يُنِيرُ لَهُ طَرِيقَهُ، ويَمْشِي بِهِ رَشِيداً فَخُوراً بِهِدَايَتِهِ في النَّاسِ، لَا يَتَعَثَّرُ في الوِهَادِ ولا الْمَهَاوِي، وَلَا يصْطَدِمُ بِالْعَقَبَات.

وَجَاءَتِ الْعِبَارَةُ بِأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ عَنِ التَّسَاوِي بَيْنَ هَـٰذَا وهَـٰذَا، مَوْصُوفاً كُلٌّ مِنْهُمَا بِالْوَصْفِ المطابِقِ لحالِهِ علَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، لانْتِزَاعِ الإجابَةِ مِنْ كُلِّ ذِي عَقْلٍ وَرُشْدٍ، وهِي عَدَمُ التَّسَاوي بَيْنَهُمَا وأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا كالْفَرْقِ بَيْنَ جَنَّاتِ النَّعِيم وَقَاعِ الجحيم.

- ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: أَوَ مَنْ كَانَ كالْمَيِّتِ قَبْلَ أَنْ يُؤْمِنَ وَيُسْلِمَ مُسْتجيباً لِدَعْوَةِ الحقّ، فَلَمَّا آمَنَ وأَسْلَمَ أَحْيَيْنَاهُ فَجعَلْنَاهُ كالْحَيِّ ذَا رُوحٍ وَفَهْمٍ وَرُشْدٍ وَتَصَرُّفَاتٍ واعِيَاتٍ، وَجَعَلْنَا لَهُ شَرَائِعَ الإسْلَام وَأَحْكَامَهُ كالنُّورِ فَهُوَ يَمْشِي بِهِ في النَّاسِ مَهْدِيًّا رَشِيداً سَعِيداً فَخُوراً بِهِدَايَتِهِ.

اسْتُعِيرَ لَفْظُ «مَيْتٍ» لمَنْ هُو في الْجَهْلِ وعَدَمِ الإيمانِ والإِسْلَامِ الَّتِي كانَ مُتَّصِفاً بها قَبْلَ أَنْ يُؤْمِنَ وَيُسْلِمِ.

واسْتُعِير «الْإِحْيَاءُ» لِمَا صَارَ إِلَيْهِ حَالُهُ بَعْدَ أَنْ آمَنَ وأَسْلَم، ومَعْلُومٌ أَنَّ الإِرَادَةَ مِنَ الْعَبْدِ الْمُمْتَحَنِ المخَيَّرِ بقضاء اللهِ وَقَدْرِهِ، وبالْخَلْقِ مِنَ اللهِ.

واسْتُعِيرَ لِشَرَائِعِ الإسْلَامِ وأَحْكَامِهِ عِبَارَةُ ﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾.

أَهَـٰذَا الْحَيُّ الرَّشِيدُ السَّعِيدُ ذُو النُّور الَّذِي يَهْدِيهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، كَمَنْ وَصْفُهُ أَنَّهُ كالْمَيِّتِ بِكُفْرِهِ، وَكَالأَعْمَىٰ بِجهلِهِ، إِذْ هُوَ غَارِقٌ في الظُّلُمَاتِ المتراكِبَاتِ الَّتِي يُحِيطُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَهُو لَا يَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ مِنْهَا مَا دَامَ عَلَىٰ كُفْرِهِ، رَافضاً الإيمان والإِسْلَام.

﴿مَّثَلُهُۥ﴾: أي: وصْفُهُ.

اسْتُعِير لفْظ «ميّت» المطْوِي في النصِّ بِدَلَالَةِ مقابِلِهِ، لِمَنْ هُوَ كَافِرٌ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ الحقّ فَلَمْ يُؤْمِنْ وَلَمْ يُسْلِم.

واسْتُعِيرَتِ الظُّلُمَاتُ لِلْجَهَالَاتِ والضَّلَالَاتِ والْعَمَايَاتِ الَّتِي يَكُونُ غارقاً فيها مَنْ لم يُؤْمِنْ وَلَمْ يُسْلِمْ، وَلَمْ يَهْتَدِ بأَنْوَارِ شرائِعِ الإِسْلام وأَحْكامه، ويَسْتَمِرُّ غارِقاً فيها مَا دَامَ رَافِضاً الإيمانَ والإسلام.

هَلْ يَسْتَوِي الحيُّ والميِّتُ، هَلْ يَسْتَوِي الْبَصِيرُ والْأَعْمَىٰ، هَلْ يَسْتَوِي الْمَهْدِيُّ بالنُّورِ، والغارِقُ التائِهِ الْحَيْرَانُ في الظُّلُمات؟؟؟.

أَجِبْ أَيُّهَا المتَفكّرُ الْعَاقِلُ الرَّشِيدُ، ذو الرأي السّليم، والْفَهْمِ المستقيم.

وإذا سَأَلْتَ: كَيْفَ يَرْضَىٰ إنْسَانٌ أَنْ يَكُونَ بمثابَةِ الميّت، والْأَعْمَىٰ، والْغَارِقِ في الظُّلُمَاتِ، وهُو في رِحْلَةِ امْتِحَانٍ في هَـٰذِهِ الْحَيَاة؟!

فإنَّنَا نَقُولُ لَكَ: ﴿... كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

أي: هَـٰؤُلَاءِ الكافِرُونَ الضَّالُّون، والْمُضِلُّونَ، قَدْ زُيِّنَتْ لَهُمْ أعْمَالُهُمْ بالأهواء والشهوات وَمَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا الْعَاجِلَات، وبالتقاليدِ الْبَاطِلاتِ والاتِّباعِ الْأَعْمَىٰ، وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِسَائِرِ الْكَافِرِينَ السَّابِقين مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

وقَدْ سَبَقَ تَحْلِيلُ مَعْنَىٰ تَزْيينِ أعْمَالِ كُلِّ أُمَّةٍ لَدَىٰ تَدبُّرِ الآية (١٠٨) مِنْ هَـٰذِهِ السُّورَةِ، فَلْيُرْجَعْ إِلَيْه، لِفَهْمِ هَـٰذِهِ العبارة فَهماً تَدبُّرِيًّا تَفْصِيلِيًّا.

■ قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ المجتمع الْبَشَرِي، وهِيَ تَسَلُّطُ أكابِرِ مُجْرِمِي الْقُرَىٰ عَلَىٰ الْجَمَاهِير فيها، بالْمَكْرِ الَّذِي يَمْكُرُونَهُ، بمناسَبَةِ سَوَابِقِ الْحديثِ عَنِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ المضِّلِّين في الآية (١١٢):

• ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

تَشْبِيهاً بواقع حَالِ أكابِر مُجْرِمِي مَكَّة الَّذِينَ اشْتَمَلَتِ السُّورَةِ عَلَىٰ مِقْدَارٍ كَبِيرٍ مِنْ مُعَالَجَتِهِمْ، أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِي، وأتْبَعَهَا بِبَيَان يَتَعَلَّقُ بأكابِرِ مُجْرِمِي مَكَّةَ وبَعْضِ مَطَالِبِهِم التَّعَنُّتِيَّة.

الْقَرْيَة: كُلُّ أَرْضٍ فيها بُيُوتٌ وَمَسَاكِنُ مُجْتَمِعَة صغيرةٍ أو كبيرةٍ ولَوْ بلَغَت مَدِينَةً عظيمةً.

أكابر: جمع «أكْبر» وهُو الأعظَم في قَوْمِهِ.

الْمُجْرِم: المتَعَدِّي بذَنْبٍ كبيرٍ، وخُصَّ في القرآنِ بالْكَافِرِ المسْتَحِقِّ الْخُلُودَ في عذاب النار يوم الدّين، لأنَّهُ مُرْتَكِبٌ مِنَ الذُّنُوبِ ما هو من مُسْتَوىٰ الكُفر.

الْمَكر: تَدْبيرُ أَمْرٍ في خَفَاءٍ ضِدَّ المَمْكُورِ به، وهو يَكُونُ في الخير، ويَكُونُ في الشَّرّ.

الصَّغَار: الذِّلَّةُ والْهَوَانُ، يقالُ لغة: «صَغُرَ، يَصْغُر، صَغَاراً» أي: رَضِي بِالذُّلِّ والضَّعَة، أو هو الواقِعُ في الذُّلِّ والضَّعَة.

إنَّ مِنْ سُنَنَ اللهِ فِي المجتَمَعَاتِ البَشَرِيَّةِ، أَنَّ المجْتَمَعَ الَّذِي لَا تَسُودُهُ وَلَا تحكُمُهُ شَرِيعَةُ اللهِ لِعِبادِهِ بإرادَة مُؤْمِنَةٍ مُسْلِمَةٍ، أن يَعْمَلَ أَكَابِرُ المجْرِمِينَ فيها حَتَّىٰ يَحْتَلُّوا مَرَاكِزَ الْقِيَادَةِ والتَّسَلُّط عَلَىٰ الْجَمَاهِير، وهَـٰذَا يُمَكِّنُهُمْ مِنْ تَحْقِيقِ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ كَثِيرةٍ لَهُمْ، بأنواع كثيرَةٍ من المكْرِ، فَإِذَا ظَهَرَتْ دَعْوَةُ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةُ في مُجْتَمَعِهِمْ، خَافُوا عَلَىٰ مَكَانَاتِهِمْ فِي مُجْتَمَعِهِمْ، وعَلَىٰ مَصَالِحِهِمِ الكَثِيرَةِ أَنْ تَتَفَلَّتَ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَيَمْكُرُونَ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ مَكْرٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ دَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، ومِنْ دُعَاتِها، ولِلْعَمَلِ عَلَىٰ إِطْفَاءِ نُورِ اللهِ بأفْوَاهِهم، أي: بِزُخْرُفِ أَقْوَالِهِم الزُّيوف، وهُمْ غافِلُونَ عَنْ عَدْلِ اللهِ الَّذِي يُعَاقِبُهُمْ عِقَاباً شَدِيداً على مَكْرِهِمْ، ويُحْبِطُ مَكْرَهُمْ، فَهُمْ في الحقيقة إنَّمَا يَمْكُرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ، في حِينِ أَنَّهُمْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ يَمْكُرُونَ بدَعْوَةِ الْحَقِّ وَبِالرَّسُولِ وبالمؤمِنين.

• ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا . . .﴾:

أي: وَكَذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ فِي مَكَّةَ مِنْ قِبَلِ أئِمَّةِ الْكُفْرِ والشِّرْكِ فيها، مِنْ مَكْرٍ ضِدَّ الرَّسُولِ، وضِدَّ دَعْوَةِ الْحَقِّ الَّتِي جَاءَ بِهَا مِنْ رَبِّ العالمين، وضِدَّ المؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ، جَعَلْنَا فِي النظام الْعَامِّ لِرِحْلَةِ الامْتِحَانِ في الْحَيَاةِ الدُّنيا، من خِلَالِ تَفَاضُلَ النَّاسِ فِي صِفَاتِهِمُ الْجَسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، وضِمْنَ الإرَادَةِ الْحُرَّةِ الْمَمْنُوحَةِ لِكُلِّ مُمْتَحَنٍ، أَنْ يَظْهَرَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مُجْرِمُونَ أَذْكِيَاءُ، يَسْتَخْدِمُونَ ذَكَاءَهُمْ لِلْوُصُولِ فِي مُجْتَمَعِهِمْ إِلَىٰ مَرَاكِزِ القيادَةِ والتَّسَلُّطِ، بغْيَةَ الاسْتِكْبَارِ إرضَاءً لِأَهْوَائهم، وبُغْيَةَ تَحْقِيقِ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّةٍ كَثِيرَةٍ لأَنْفُسِهِمْ عَنْ طَرِيقِ مَرَاكِزِهِمُ السُّلْطَوِيَّة، وَهؤُلَاءِ يَكُونُونَ ـ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ـ أَعْدَاءً لِرُسُلِ اللهِ، ولِدِينِ اللهِ لِعِبادِه، ولِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقين الَّذِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِدَعَوَاتِ الرُّسُل، وَيَتَّبِعُونَهُمْ جُنُوداً لهم.

فالْجَعْلُ هُنَا جَعْلٌ للنِّظَامِ الْعَامّ الَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ وُجُودُ مُجْرِمِين، يَعْمَلُونَ بِمَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ حِيلَةٍ وَذَكَاءٍ وَتَخْطِيطٍ لِيَمْكُرُوا فِي قَرْيَتِهِمْ، لاحْتِلَال مَرَاكِزِ القِيادَةِ فيها، ولتحقيق مَنَافِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ، ولِيَمْكُرُوا ضَدَّ رُسُلِ اللهِ، وبِمَا جَاؤُوا بِهِ مِن عِنْدِ اللهِ، وبالمُؤمنينَ الْمُسْلِمِينَ، خَوْفاً عَلَىٰ مَرَاكِزِهم الاجْتِماعِيَّةِ، وَمَنَافِعِهم، وَمَصَالِحهم الدُّنْيَوِيَّة.

• ﴿. . . وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

أي: وَبِمَا أَنَّ مَكْرَهُمْ بالرُّسُلِ وَبِأَتْبَاعِهِمْ، وَبِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة يُحْبِطُهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ ثُمَّ يَرُدُّهُ عَلَيْهِمْ ويُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ عِقَاباً شَدِيداً، فَهُمْ في الحقيقَةِ لَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ، إِنَّهُمْ في أَحْوَالِ كَدْحِهِمْ تَدْبيراً وَمَكْراً كُبَّاراً مُدْفُوعُونَ بِطَمَعٍ شَدِيدٍ أَنَّهُمْ غالِبُون، ولَا يَشْعُرُونَ أَدْنَىٰ شُعُورٍ بِأَنّ مَكْرَهُمْ مَرْدُودٌ عليهم.

ومِنْ مَظاهِرِ كِبْرِهِمُ الطّبَقِيّ، وانْتِفَاخِ صُدُورِهِم بِمُنْتِنَاتِ إعْجَابِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وعِنَادِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ على رَبِّهِمْ، أَنْ يُطَالِبُوا بِأَنْ يُوحَىٰ إلَيْهِم، وأَنْ يُؤْتَوا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ، فقال تَعَالَىٰ بِشَأْنِهِمْ:

- ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ . . . ﴿١٢٤﴾﴾:

الظَّاهِرُ أَنَّهُم إذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قُرْآنِيَّةٌ مُنَزَّلَةٌ من عِنْدِ اللهِ علَىٰ رَسُولِهِ، وتَلاهَا الرَّسُولُ عَلَيْهِم، وَدُعُوا إلَىٰ الإيمَانِ باللهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ، قَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِّ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ الله، أي: أَنْ نَكُونَ نَحْنُ رُسُلاً، أَوْ أَنْ نُبَلَّغَ مُبَاشَرَةً مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ وَبَلَّغُوهُ لِأَقْوامِهِم.

فأَبَانَ هَـٰذَا النَّصُّ أَنَّ كُلَّ أكابِرِ مُجْرِمِي الْقُرَىٰ جَعَلَهُمْ دَاء الكِبْرِ في نُفُوسِهِمْ يَقُولُونَ مِثْلَ مَقَالَةِ كُبَرَاءِ مُجْرِمِي مَكَّة.

ومِنْ أَمْثِلَةِ مَا رُوِيَ مِنْ أَقْوَالِ مُجْرِمِي مكّة ما يلي:

(١) رُوِيَ عَنِ ٱبْنِ جُرَيج أَنَّهُ قال: قَالُوا لمحمَّدٍ حِينَ دَعَاهُمْ إلَىٰ مَا دَعَاهُمْ إلَيْه مِنَ الْحَقّ: لَوْ كَانَ هَـٰذَا حَقًّا لَكَانَ فِينَا مَنْ هُو أَحَقُّ أَنْ يُؤْتَىٰ بِهِ مِنْ مُحَمّد.

(٢) وَرُوي أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ المغيرة قَالَ للنَّبِيّ ﷺ: أَنَا أولَىٰ مِنْكَ بالنُّبُوّةِ، لِأَنِّي أكْبَرُ مِنْكَ سِنًّا، وأَكْثَرُ مَالاً وَوَلَداً.

(٣) ورُوِيَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ (وهو مِنْ بَنِي مَخْزوم» قال: زاحَمَنَا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ فِي الشَّرَفِ، حَتَّىٰ إذَا صِرْنَا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ، قالوا: مِنَّا نَبِيٌّ يُوحَىٰ إلَيْه، واللهِ لَا نَرْضَىٰ بِهِ، ولا نَتَّبِعُهُ أبداً، إلَّا أَنْ يَأْتِينَا وَحْيٌ كما يَأْتِيه.

(٤) وسَبَقَ أَنْ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ بِشَأْنِهِمْ في سورة (المدّثر/ ٤ نزول):

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾:

وَقَدْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مُبَيِّناً حِكْمَتَهُ في اختياراتِهِ لِرُسُلِهِ، فقال تعالى:

• ﴿... ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ... ﴿١٢٤﴾﴾:

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بالِغُ الْحِكْمَةِ في اختيارَاتِهِ، وهُو أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيم بعِبَادِهِ، فَهُوَ أَعْلَمُ بالْمَكَانِ الَّذِي يَجْعَلُ فِيهِ رِسَالَتَهُ، وَهُوَ فُؤَادُ الرَّسُولِ المجتَبَىٰ الصَّالِحُ لِتَلَقِّي رِسَالَةِ رَبِّهِ، وَلِتَأْدِيَتِهَا كَمَا كَلَّفَهُ رَبُّهُ، وَلِلْعَمَلِ بِها، وَلَيْسَ كُلُّ إنْسَانٍ صَالحاً لِتَلَقِّي رِسالَةِ رَبِّهِ، وَحَمْلِهَا، وَتَأْدِيَتِها بَلَاغاً صَادِقاً، والْعَمَل بها كَمَا أَمَرَ اللهُ. فالنُّبُوَّةُ اصْطِفَاءٌ رَبَّانِيٌّ، والرِّسَالَةُ اصْطِفَاء رَبَّانِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ إنْسَانٍ صَالحاً لِهَذَا الاصْطِفَاء، أَمَّا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُوحَىٰ إلَيْهِمْ فَهُمْ مِنْ أَبْعَدِ خَلْقٍ عَنِ الاصْطِفَاءِ بِالنُّبُوَّةِ، إذْ هُمْ كَفَرَةٌ مُجْرِمُونَ شَيَاطِين، من أَهْلِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّار يَوْمَ الدِّين.

وتَوَعَدَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالصَّغَارِ والْعَذَابِ الشَّدِيدِ يَوْمَ الدِّينَ فقال تَعَالَىٰ:

• ﴿... سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

الإصَابَةُ: الضَّرْبَةُ الدَّاخِلَةُ آثَارُها إلَىٰ الْعُمْقِ لِتَكُونَ أَبْلَغَ فِي الإيلَام والتَّعْذِيب، كالسَّهْمِ الواصِلِ إلى الأَحْشَاءِ وَمَوَاطِنِ الألم في الْعُمْق.

والمعنىٰ: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أجْرَمُوا مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ وَكُفَّارِ سَائِرِ الْقُرَىٰ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمِنْ بَعْدِهِمْ، الْمُعَانِدين مِثْلَ عِنادِهِمْ، والمتعنِّتينَ مِثْلَ تَعَنُّتِهِمْ صَغَارٌ وَاصِلٌ إلَىٰ أَعْمَاقِ أفئِدتِهِمْ، وَعَذَابٌ شَدِيدٌ وَاصِلٌ إلَىٰ أكْثَر مَوَاقِع الإحْسَاس بالْأَلَم فيهم، بِسَبَبِ مَا كَانُوا في الحياة الدُّنيا يَمْكُرون بِدِينِ اللهِ، وبِرُسُلِهِ، وبالْمُؤْمِنِينَ.

■ قول الله تعالىٰ يُبَيِّنُ سُنَّتَهُ في مَعُونَتِهِ للمؤمنين بِشَرْح صُدُورِهِمْ لتَطْبِيقَاتِ شَرَائِعِ الإسْلام وأحْكَامِهِ في السُّلُوكِ، بِحَسَبِ قُوَّةِ إيمانهم، أَمَّا الكافِرُونَ الَّذِين لَمْ يُؤْمِنُوا فَيَجْعَلُ صُدُورَهُمْ ضَيِّقَةً حَرِجَةً كَارِهَةً تَطْبِيقَاتِ شَرَائِعِ الإسْلَام وأَحْكَامِهِ في السُّلُوك.

• ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾:

﴿حَرَجًا﴾ **الْحَرَجُ**: أضْيَقُ الضِّيق، قال ابن عباس: **الْحَرَجُ**: الموضِعُ الكَثِيرُ الشَّجَرِ الّذي لَا يَصِلُ إلَيْهِ الرَّاعِية، قال: وَكَذَلِكَ صَدْرُ الكافِرِ لا يَصِلُ إِلَيْهِ الْحِكْمَةُ. **الْحَرَج**: مَصْدَرُ «حَرِجَ الصَّدْرُ، يَحْرَجُ، حَرَجاً» أيْ: ضَاقَ، وَوُصِفَ بِهِ وَهُوَ مَصْدَرٌ على سَبِيلِ المبالغة.

وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[حَرِجاً]** صِفَةٌ مشبَّهَةٌ باسم الفاعل.

﴿ٱلرِّجْسَ﴾: الأصْلُ في «الرِّجْسِ» الْقَذَرُ والنَّجَسُ، ثُمَّ حَصَلَ تَوَسُّعٌ في إطْلَاقِ اللَّفظ، فَصَارَ يُطْلَقُ علىٰ جَمِيعِ الرَّذَائِلِ والقبائح المعنويَّة، مِن الأفكار، والعقائد، والنِّيَّات، والأعمال، ثُمَّ عَلَىٰ ما فيه، أَوْ تَجْتَمِعُ لَدَيْهِ هَٰذِهِ الرَّذَائِلُ والقبائح، من أشياء وأحياء، وصَارَ يُطْلَقُ أيْضاً عَلَىٰ الْعِقَابِ والْعَذَابِ.

بما أنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ الظاهِرَةَ والْبَاطِنَةَ الَّتِي يَخْتَارُونَها بإرادَاتِهِمْ الحرَّةِ المختَارةِ، إِنَّمَا تُوجَدُ بِخلْقِ اللهِ تَعالَىٰ، كانَ مِنْ مُقْتَضَىٰ التَّخْيير، أَنَّ مَنْ آمَنَ بإرَادَتِهِ الْحُرَّةِ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، أرَادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنْ يَهْدِيَهُ فِي مَسِيرَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ فِي حَيَاتِهِ، هِدَايَةَ مَعُونَةٍ وَتَوْفِيقٍ، لِيَحْكُمَ لَهُ بِالْهِدَايَةِ وَلِيُثِيبَهُ عَلَىٰ أَعْمَالِهِ الاختِيَارِيَّة بِفَضْلِهِ ثَوَاباً عظيماً وَجَزِيلاً يوم القيامة.

وكانَ مِنْ مُقْتَضَىٰ التَّخْيير، أَنَّ مَنْ كَفَرَ بإرادَتِهِ الْحُرَّةِ بِمَا يَجب أنْ يُؤْمَنَ بِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ أَرَادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أَنْ يُيَسِّرَهُ فِي مَسِيرَتِهِ الْعَمَلِيَّة في حَيَاتِهِ ضَالًّا كَمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ، لِيَحْكُمَ عَلَيْهِ بِالضَّلَالَة، وَلِيُعَاقِبَهُ عَلى أَعْمَالِهِ الاختِيَارِيَّةِ بِعَدْلِهِ دُونَ أَنْ يَظْلِمَهُ مِثْقَالَ ذَرَّة.

هَـٰذَا مَا دَلَّتْ عَلَيْه هَـٰذِهِ الآيَةُ بِإِيجَازِهَا، وطَرِيقِ تَعْبِيرِهَا الرَّائع، الَّذِي فِيه الدَّلَالَةُ عَلَىٰ حُرِّيَّةِ إرادَاتِ الْعِباد الموضوعين في الْحَياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ في كَوْنِ اللهِ إلَّا بِخَلْقِ اللهِ، فَمَنْ شَاءَ مِنَ الْعِبَادِ طَرِيقَ الْهُدَىٰ باختيارِهِ الْحُرّ، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقَ الْهُدَىٰ، وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ، وَيَسَّرَهُ لَه، وخَلَقَ لَهُ مَا أَرَادَ، ومَنْ شَاءَ مِنَ الْعِبَادِ طَرِيقَ الضَّلَالَةِ باخْتِيَارِهِ الْحُرّ، سَهَّل اللهُ لَهُ طَرِيقَ الضَّلَالَة، وَيَسَّرَهُ لَهُ، وخَلَقَ لَهُ مَا أَرَادَ.

ويَتِمُّ بِذَلِكَ امْتِحَانُ إِرَادَاتِ الْعِبَادِ عَلَىٰ أحْسَنِ وَجْهٍ وأَتَمِّهِ، وهي إرادات ذَوَاتُ حُرِّيَّةٍ تَامَّةٍ في اخْتِيَارَاتِها، وَلَا يَتَحَقَّقُ فِي كَوْنِ اللهِ إلَّا مَا يَخْلُقُ اللهُ بِمَشِيئَتِهِ، لِأَنَّ لَهُ الرُّبُوبِيَّةَ الْكَامِلَةَ التَّامَّة فِي كَوْنِهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيها أَحَدٌ، فَكُلُّ مَا فِيهِ خَلْقُهُ.

• ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾: أي: فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ هِدَايَةَ مَعُونَةٍ وَتَوْفِيقٍ، في مَسِيرَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَة، على صِراطِ اللهِ الْعَمَلِيّ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِه، لِأَنَّهُ آمَنَ إيماناً صحيحاً صَادِقاً، يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِتَطْبِيقَاتِ الإسْلَامِ في سُلُوكِهِ، عَلَىٰ مِقْدَارِ قُوَّةِ إيمانِهِ.

شَرْحُ الصَّدْرِ: هو بَسْطُهُ وَتَوْسِعَتُهُ. وشَرْحُ الصَّدْرِ لِلإسْلام يَكُون بانْفِراجِهِ وسُرُورِهِ، وذَهَابِ ضِيقِ الْغَمِّ والْهَمِّ والْحَزَنِ عنه، ويكون بِجَعْلِهِ قَادِراً عَلَىٰ تَحَمُّلِ المزْعِجَاتِ والمكارِهِ بِصَبْرٍ وحِلْم، والقيام بالأعْمَالِ الإسْلَامِيَّة بِرَغْبَةٍ وَهِمَّةٍ وَفَرَح وَمَسَرَّة، طَمعاً بِمَرْضَاةِ اللهِ واغْتِنَام ثَوَابِهِ الْعَظِيم فِي جَنَّاتِ النعيم، وكلُّ هَـٰذَا مِنْ ثَمَراتِ صِحَّةِ الإيمانِ في السُّلُوكِ.

• ﴿... وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾:

أي: وَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُيَسِّرَ لَهُ سُبُلَ الضَّلَالِ، لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا أَمَرَ اللهُ الْمَوْضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ أنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَلَمْ

يُؤْمِنْ بِجَدْوَىٰ الْأَعْمَالِ الإسْلَامِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، الَّتِي هِيَ صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيم، يَجْعلْ صَدْرَهُ ضَيّقاً شَدِيدَ الضّيقِ إذَا دُعِيَ إلَىٰ تَطْبِيقِ شَرَائِعِ الإسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، أَوْ أُمِرَ بِهَا، وإذَا وَجَدَ نَفْسَهُ مُلْزَماً بتَطْبِيقِها لِسَتْرِ نِفَاقِهِ بينَ الْمُؤْمِنِينَ المسْلِمين، أَصَابَهُ مِنَ القيام بِهَا مَا يُشْبِهُ الاخْتِنَاقَ التَّدْرِيجيّ الَّذِي يَحْصُلُ لِلّذي يَصْعَدُ، أَوْ يَتَصَعَّدُ، أَوْ يَتَصَاعَدُ، في السَّمَاءِ، ويَتَنَاقَصُ عَلَيْهِ أُكْسجِينُ الْهَواء. وهَـٰذَا تَشْبِيهٌ رَائِعٌ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً للنَّاسِ فِي عَصْرِ تَنْزِيلِ القرآن.

هَـٰذَا رِجْسٌ يُصَابُونَ بِهِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وعَدَم إيمانِهِمْ بالْحَقِّ الَّذِي أَمَرَهُمْ رَبُّ العالَمِينَ به، وَكَذَلِكَ الرِّجْسِ الَّذِي يَجْعَلُهُ اللهُ عَلَىٰ هَؤلَاءِ الكَفَرَةِ، يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَىٰ كُلِّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ في المسْتَقْبَلِ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةِ.

دَلَّ قَـوْلُـهُ تَـعَـالَـى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عَلَىٰ أنَّ الكُفْرَ هُوَ السَّبَبُ في إرَادَةِ اللهِ تَيْسِيرَ سُبُلِ الضَّلَالِ لِبَعْضِ عباده، وأَنَّ الْإِيمَانَ هو السَّبَبُ في إرادَةِ هِدَايَةِ اللهِ لِبَعْضِ عِبَادِهِ، إلَىٰ التطبيقات الإسلامِيَّةِ الْعَمَلِيَّة، بِشَرْحِ صَدْرِهِمْ لِلْإِسْلَام.

وبهذا تَمَّ تدبر الدرس السادس والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه المبين.



(٣١)
التدبر التحليلي للدّرس السابع والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٢٦ ـ ١٣٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾»:

القراءات:

(١٢٦) • قَرَأَ قُنبل، ورُوَيْس: **[سِرَاطُ]** بالسّين، وقرأَها خَلَفٌ عَنْ حَمْزَة بالإشْمَام.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالصَّادِ الخالِصَة: **[صِرَاطُ]**.

(١٢٨) • قرأ حفص، ورَوْح: **[وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ]** بياء المضارعَةِ، أي: يَحْشُرُهُمْ اللهُ عزَّ وجلَّ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ]** بضمير المتكلّم العظيم، ومؤدَّىٰ القراءتين واحد، وفي قراءة الجمهور إضافة تَرْبية المهابة.

(١٣٢) • قرأ ابن عامر: **[عَمَّا تَعْمَلُونَ]** بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[عَمَّا يَعْمَلُونَ]** بضمير الغائبين.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البياني.

(١٣٣) • قرأ أبو جعفر: **[إِنْ يَشَا]** بإبْدَالِ الْهَمْزَةِ ألِفاً في «يَشَا».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إِنْ يَشَأْ]** بالهمزة.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذَا الدَّرْس من فروع السَّاقِ الأوّل من ساقَيْ شجرة موضوع السّورة. وفيها بَيَانٌ عامٌّ عَنْ ثواب متَّبعي صراطِ اللهِ المُستقيم يوم الدّين. وفيها عَرْضُ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ مُحَاسَبَةِ الْكَافِرينَ مِنَ الإنْسِ والجنِّ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَبيَانُ عَدْلِ اللهِ في إِهْلَاكِ أَهْلِ الْقُرَىٰ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا شاملاً، وأَنَّهُ إنَّما يكون بِسَبَبِ ظُلْمِهِمُ الشّدِيدِ الَّذِي اقْتَضَىٰ إِهْلَاكَهم. وفِيها بَيَانٌ عَنْ جَزاءِ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ الْقَائِم عَلَىٰ التفاضُلِ في الدرجاتِ صُعُوداً، والتنازُلِ في الدَّرَكَاتِ هُبوطاً، بحَسَبِ الأعْمَالِ الَّتِي قَدَّمَهَا النَّاسُ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا.

وأخيراً فيها بيانٌ عَنْ صِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، هما صِفَتَا الغِنَىٰ والرَّحْمَة، مع إنذارِ الكافِرِينَ الظالِمينَ بأنّ رَبَّهُمْ إنْ يَشَأْ يُذْهِبْهُمْ من الحياة إذْهاباً جماعيًّا شاملاً، ويَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِهِم ما يَشَاءُ من أَحْيَاءٍ بَشَرِيَّةٍ وغَيْرِ بَشَرِيَّة كَمَا أَنْشَأَهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْم آخَرِين، ومَعَ تَوْكِيدِ أَنَّ مَا يُوعَدُونه مِنْ جَزَاءِ يَوْمَ الدِّينِ لآتٍ حَتماً، وأَنَّهُمْ غَيْرُ مُفْلِتِيْنَ مِنْ تَنْفِيذِ عَدْلِ اللهِ فيهم، فاللهُ عزَّ وجلَّ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ يُرِيدُه.

التّدبّر التحليلي:

■ قول الله تَعالَىٰ:

● ﴿وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

يُخَاطِبُ اللهُ كُلَّ مَوْضُوع في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بأسْلُوبِ الْخِطَاب الإفرادي، لِأَنَّهُ هُو رَبُّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَيَقُولُ له:

﴿وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾:

الْمُشَارُ إِلَيْهِ باسْمِ الإشَارَة «هَـٰذَا» مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مَا نَزَلَ من القرآنِ وَمَا سَيَنْزِلُ، مَعَ بَيَانَاتِ الرَّسُولِ الْقَوْلِية والعمَلِيّة، مِنَ العَقَائِدِ الإيمانِيَّة، والشَّرَائِع والأحْكَامِ الإسْلَامِيَّة، وأشِيرَ إِلَىٰ مَا لَمْ يَنْزِلْ مَعَ مَا نَزَلَ مِنْ ذَلِكَ باسْمِ الإِشَارَةِ الموضوع للمشارِ إِلَيْهِ الْقَرِيبِ، على سَبِيلِ التَّبَع، ولِأَنَّهُ مُقَدَّرٌ ومَقْضِيٌّ تَنْزِيلُهُ حَتْماً نَجْماً فَنَجْماً، وَنَظِيرُهُ قَوْلُ الْمُعَلِّم في أَوَّلِ الْعَامِ الدِّرَاسِيِّ لِطُلَابِهِ:

هَـٰذَا عِلْمٌ سَأَشْرَحُ عَلَيْكُمْ مَسَائِلَهُ طَوَالَ الْعَامِ، وأَخْتَبِرُ فِي النِّهَايَةِ مَدَىٰ اسْتِيعَابِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ لِمَسَائِلِهِ وَقَضَايَاهُ، فالمشَارُ إِلَيْهِ مَا هُوَ حَاضِرٌ قَرِيبٌ فِي ذِهْنِهِ مِنْ مَسَائِل وَقَضَايَا الْعِلْمِ الَّذِي ذَكَرَ لَهُمْ عُنْوَانَهُ.

﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾: أصْلُ مَعْنَى الصّراط الطَّرِيق الواضِحُ الْجَلِيُّ الْمُمَهَّدُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ تَعَرُّجَاتٌ وَلَا مُعْثِرَات. وأُطْلِقَ في الاصْطلاح الدِّيني عَلَىٰ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ الشَّامِلِ للعقائد والشرائِعِ والأحْكام والْوَصَايا الرَّبَّانِيّة والتَّعْلِيمَاتِ والسُّنَنِ النَّبَوِيَّة.

وأضِيفَ «صِرَاطُ» إلى «رَبِّكَ» لِأَنَّهُ هو الَّذِي اصْطَفَاهُ لِعِباده، كَيْ يَكُونَ مَادَّةَ امْتِحَانِهِمْ في رِحلَةِ الحياة الدُّنيا، وقد اصْطَفَاهُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّته، وخَاطَبَ اللهُ كُلَّ مُمْتَحَنٍ مُكَلَّفٍ، بأُسْلُوبِ الْخِطَاب الإفرادي، لِيُشْعِرَهُ بِمَسْؤُولِيَّتِهِ الفرديَّة تُجَاهَ رَبِّهِ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ، والْمُمِدِّ لَهُ دَوَاماً بِعَطَايَاه.

﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حَالٌ هو في المعْنَىٰ وَصْفٌ لِصِرَاطِ الله، والعامل فيه ما في اسْم الإِشَارَة من معنى «أُشِير». ولا يَخْفَى أَنَّ الْحَالَ وَصْفٌ لِصَاحِبِهَا قَيْدٌ لِعَامِلِها.

وفي هَـٰذَا الْمُشَارِ إِلَيْهِ الَّذِي سَبَقَ بيانُه: ﴿... قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾:

• ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ﴾: ء: قَدْ بَيَّنَا وَأَوْضَحْنَا الآياتِ المشْتَمِلَاتِ عَلَىٰ الْإِعْلَام بِعَنَاصِرِ الصّراط المستقيم.

تفْصِيلُ الْأَشياء: تَمْييزُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، لإبْرَازِ حُدُودِ كُلٍّ مِنْها، وإظْهَارِ مَا بَيْنَها مِن انْفِصَالٍ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَرْئِيًّا، وبهذا يَتَميَّزُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ في الْإِدْرَاكِ الْفِكْرِيّ.

• ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي: لِقَوْمٍ يَضَعُونَ حَقَائِقَ صِرَاطِ اللهِ في ذَاكِرَاتِهِمْ، وَيَسْتَدْعُونَ مِنْهَا عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بها.

وَالمرادُ بالتَّذَكُّرِ الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ لِحُضُورِ المعْلُومَةِ في الذاكِرَة، اسْتِدْعَاءً لَهَا مِنْ خَزَائِنِ المعْرِفَةِ، أَوْ وُرُوداً حَدِيثاً لَهَا مِنَ الخارِج، عَنْ طَرِيق بَيَانٍ وَارِدٍ، أَوْ تَأَمُّلٍ فِكْرِيّ ذَاتِيّ، أَوْ بتَأْثِيرِ حَدَثٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ كَوْنِيّةٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، لِلْعَمَلِ بِالمطْلُوبِ الدِّيني فِيما جَاءَ بِهِ التَّذَكُّر.

فالأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ والسُّلُوكِيّ هُوَ المطْلُوبُ الدِّينيُّ مِنَ التَّذَكُّر.

وَقَدْ أَبَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ بِإِجْمَالٍ ثَوَابَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَتذَكَّرُونَ فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

أَجْمَلَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ بَيَانَ قَضِيَّتَيْن كُلِّيّتَيْنِ مِنْ ثَواب الْقَوْمِ الَّذِينَ يَتذَكَّرُونَ، وَفْقَ المصْطَلَحِ القرآني للتَّذَكّر الّذِي سَبَقَ بَيَانُهُ آنِفاً.

الْقَضِيَّةُ الْأُولَىٰ: أَنَّ ثَوَابَهُمْ الْخُلُودُ في دَارِ السَّلَامِ يَوْمَ الدِّين، وهِيَ الْجَنَّة، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ مِنْ أَسْمَائِهَا أَنَّهَا دَارُ السَّلَام.

السَّلَامُ: الْبَرَاءَةُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوه، ومِنْ كُلِّ نَقْص، والعافية، والْأَمْن. فَفِي الْجَنَّةِ الْأَمْنُ الدَّائِم، والْعَافِيَةُ الدَّائِمة، والْخُلُوُّ مِنْ كُلِّ مَكْرُوه، ومِنْ كُلِّ أذىً، فَلَا نَصَبَ فِي الْجَنَّةِ وَلَا وَصَب، وَلَا كَدْحَ وَلَا تَعَب، وأَهْلُ

الجنَّةِ لَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتغوَّطون، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَتعرَّضُونَ لِقَذىً، وقَذَاراتٍ، وَمُكَدِّرَات.

ومن الْأَمْنِ الأمْنُ الْغِذَائِي، والْأَمْنُ النَّفْسِي بِتَحْقِيقِ مَطَالِبِ النَّفْسِ وَحَاجَاتِهَا المادّيَّةِ والمعنويَّةِ كُلِّها.

القضيَّة الثّانية: وِلَايَةُ اللهِ الدَّائِمَةُ لَهُم، ومَنْ كَانَ اللهُ عزَّ وجلَّ وَلِيَّهُ، كَانَ لَهُ حَامِياً وَمُعِيناً ومُسْعداً، وَمُلَبِّياً كُلَّ رَغَبَاتِهِ وَلَوْ كانَتْ خَاطِراتٍ لَمْ تَصِلْ إلَىٰ مُسْتَوىٰ الطَّلَب.

هَاتَانِ الْقَضِيَّتَانِ اللَّتَانِ جَعَلَهُمَا اللهُ ثَوَابَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ، أَبَانَ اللهُ أَنَّهُ يُثِيبُهُمْ بهما بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا مِنْ صَالِحَاتٍ، فَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿... **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١٢٧)﴾:

■ قول الله تَعالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ حِسَابِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَأَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإِنْسِ، رَبْطاً بِمَا جَاءَ في الآية (١١٢) من آيات الدرس (٢٤):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)﴾:

الْحَشْرُ: الجمْعُ والسَّوْق. **المعشر**: كُلُّ جَماعَةٍ أَمْرُهُمْ واحد.

أي: وَيَوْمَ يَحْشُرُ رَبُّكَ الإِنْسَ والْجِنَّ جَمِيعاً فِي الْمَحْشَر بَعْدَ الْبَعث، ويُوقِفُهُمْ مَوْقِفَ الْمُحَاسَبَةِ عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ الحياة الدنيا، يَقُولُ للشَّيَاطِين من الجنّ بِشَأْنِ أَوْلِيائِهم الشياطين من الإنس: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ الَّذِينَ كَفَرْتُمْ وَجَنَّدْتُمْ أَنْفُسَكُمْ للإغْواء والإِضْلَالِ عَنْ دِينِ رَبِّكُمْ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيم، قَد اسْتَكْثَرْتُمْ مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ أَوْلِيَاءَ لَكُمْ، تُوحُونَ إِلَيْهِمْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ التَّفْصِيلِيِّ، لِيَقُومُوا هُمْ بِتَضْلِيلِ مَنْ يَسْتَطِيعُونَ تَضْلِيلَهُمْ مِن

الإنْس، فَيَعْتَرِفُ شَيَاطِين الْجِنِّ بِجَرائِمِهِمْ، وقَالَ أَوْلِيَاؤُهم مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْس: رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، فَكَانَ شَيَاطِينُ الْجِنِّ يَأْتُونَنَا بِمَعْلُومَاتٍ تَنْفَعُنَا وَنَأْخُذُ أَثْمَانَهَا مِنَ الإنْسِ، وكُنَّا نُطِيعُهُمْ بِأَعْمَالٍ كُفْرِيَّةٍ شِرْكِيَّةٍ، فَيَرْضَىٰ بِهَا عَنْهُمْ إبْلِيسُ وَيَمْنَحُ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ إنْعَامَاتِهِ الَّتِي يَسْتَمْتِعُونَ بها بِحَسَبِ طَبَائِعِهم الْجِنِّيَّة.

جاءَ التعبير بالْفِعْل الماضِي ﴿وَقَالَ﴾ اسْتِقْطَاعاً مِنَ الْحَدَثِ المسْتَقْبَلِي، وللإشْعَارِ بأنَّهُ سَيتحقَّقُ حَتْماً، فكأنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِعلاً.

وتابَعَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإنْسِ قائِلِينَ: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ﴾ أي: وانْتَهَتْ رِحْلَةُ امْتِحَانِنَا في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالْمَوتِ، الَّذِي انْتَهَتْ بِهِ كُلُّ حَرَكَاتِنَا وَتَصَرُّفَاتِنَا الإرادِيَّة، وَصِرْنَا خاضِعِينَ بالْجَبْرِ لِلْجزاء، وَنَحْنُ الآنَ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ، لَا نَمْلِكُ لِأَنْفُسِنا شَيْئاً، وَلَا حُجَّةَ لَنا فِيما أَجْرَمْنَا، وَلَا عُذْرَ لَنَا، إذْ كُنَّا نَتَّبِعُ أَهْوَاءَنا وَشَهَوَاتِنا، لِنَحْصُلَ عَلَىٰ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا الضَّئِيلَةِ الْقَلِيلَةِ الْفَانِيَة، شَاكِّينَ بِوَعِيدِكَ الَّذِي قَدَّرْتَ وَقَضَيْتَ وأَخْبَرْتَ أَنَّهُ سَوْفَ يكونُ في هَـٰذَا الْيَوْم، وهُوَ يَوْمُ القيامَة.

وبَعْدَ أن انْقَطَعُوا وَلَمْ يَجِدُوا مَا يَعْتَذِرُونَ به ﴿قَالَ﴾ اللهُ عزَّ وجلَّ مُبَيِّناً حُكْمَهُ عَلَيْهِم: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾: أي: دَارُ الْعَذَاب النَّارُ هي مَكَانُ إقَامَتِكُمْ وَاسْتِقْرَارِكُمْ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾:

يُقَالُ لُغَةً: «ثَوَىٰ بِالْمَكَانِ يَثْوِي، ثَوَاءً، وَثُوِيًّا» أَيْ: أَقَامَ بِهِ واسْتَقَرَّ.

الْخُلُودُ: البقاء الدائم الذي لا نِهَايَةَ له في دلَالَات النصوص القرآنية.

عبارة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: بيانٌ اعْتِرَاضِي هو والآية(١٢٩) الآتي تَدَبُّرها.

والاستثناء في ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ سبَقَ نظيرُه في الآية (١٠٧) من

سورة (هود/ ٥٢ نزول) وسَبَق هُنَاكَ تَحْلِيلُ هذا الاستثناء لدَىٰ تَدَبُّرِ الآية.
والمعنى الذي ظهر لي هو ما يلي: إلَّا مَا شَاءَ اللهُ أنْ يَسْتَثْنِيَهُ بِحِكْمَتِهِ مِنْ عُمُومِ القضاءِ الْمُبْرَمِ بالْخُلُودِ، فيما لو يَشَاءُ أنْ يُقَدِّرَهُ ويَقْضِيَهُ مُسْتَقْبلاً، إذْ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ جَلاَلُهُ أَنَّهُ يَمْحُو مَا يَشَاءُ مَحْوَهُ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ إِثْبَاتَهُ، وعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ وهُوَ عِلْمُهُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَتَعَرَّضُ لِمَحْوٍ ولا تَغْيير، إذْ لا مُبَدِّل لكلماته، علىٰ أنّه أخْبَرَ جلَّ جَلاَلُهُ أنَّهُ لا يخْرُج الكافِرونَ من النار.

ولَيْسَ مِنَ التَّدَبُّرِ السَّلِيم أَنْ نُفكِّرَ في تَعْيينِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَثْنَيهُ مُسْتَقْبلاً، لأنَّ الاستثناءَ لَمْ يَتَنَاوَلْهُ بَعْدُ. وقَدِ احْتَفَظَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِنَفْسِهِ ضِمْنَ قَضَاءِ الْخُلُودِ بِأَنْ يَفْعَلَ مَا يُرِيدُ في مَدَى الآبَادِ، فيما لَوْ يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً يُخَالِفُ في ظاهِرِهِ دَلاَلَةَ عُمُومِ الْخُلُودِ، في كُلِّ الْأَجْزَاءِ الزَّمَنِيَّةِ المتوالِيَة بِغَيْرِ نِهَايَةٍ، وَلِكُلِّ الخالدين، فهذا الاستثناء هو من كلماته التي لا مُبَدِّلَ لها.

وبهَـٰذَا الْفَهْم أَسْتَبْعِدُ كُلَّ الْآرَاءِ الَّتِي طَرَحَهَا المفسِّرُونَ بِشَأْنِ تَعْيينِ المسْتَثْنَىٰ، إذ المعنى: خالِدِينَ فيها خُلُوداً بِقَضَاءٍ مِن اللهِ مُبْرَمٍ، لَا تَعْرُوهُ مَشِيئةٌ مُعَدِّلَةٌ مِنْ أَحدٍ، إلَّا مَشيئَةُ اللهِ، لِأَنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، وهُوَ حَكِيمٌ فيما يُرِيدُ ويَخْتَارُ، وَعَلِيمٌ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَظْهَرُ لَهُ شيْءٌ لَمْ يَكُنْ مَعْلُوماً له. جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُه.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ في بيانٍ اعْتِرَاضِي، أثْنَاءَ عَرْضِ مَشْهَدٍ مِنْ مَشَاهِدِ حِسَابِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَأَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإنْسِ يَوْمَ الدِّين:

● ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ بيانُ سُنَّةٍ عَامَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللهِ في المجْتَمَعِ الْبَشَرِي، يَقْتَضِيهَا النِّظَامُ الْعَامُّ الّذِي تُوجَدُ أَحْدَاثُهُ ومُفْرَادتُهُ بِخَلْقِ اللهِ عزَّ وجلَّ،

وَهِي أَنَّ مَنْ اخْتَارَ بإرَادَاتِهِ الْحُرَّةِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَجَدَ دَوافِعَ نَفْسِهِ مُتَّجِهَةً لِمُصَاحَبَةِ الظَّالِمِينَ وَمُوَالَاتِهِمْ، لِيَكُونَ بَعْضُهُمْ مُعِيناً لِبَعْض، وَنَاصِراً لِبَعْض، وَمُؤاخِياً لِبَعْضٍ، ومن الملاحظ في المجتمع البشريِّ أنَّ اللُّصُوصَ يُكَوِّنُونَ مُجْتَمَعَاتٍ يوالي بَعْضُهُمْ فيها بعضاً، وأَنَّ أَهْلَ الْفُحْشِ يُكَوِّنُونَ مُجْتَمَعَاتٍ يوالي بَعْضُهُمْ فيها بَعْضاً، وأنَّ أحْزَابَ الشِّرِّ والْجَرِيمَةِ والإِثْمِ وَمُحَارَبَةِ الدِّينِ وَصِرَاطِ اللهِ المستقيم، تَتَأَلَّفُ مِنْ أَفْرَادٍ يُوالي كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ أَفْرَادَ حِزْبِهِ، وقَدْ تَجتَمِعُ هَـٰذِهِ الأَحْزَابُ مُتَنَاصِرِينَ لِقَمْعِ حِزْبِ اللهِ وَاضطهاده ومُقَاتَلَةِ أفراده. وَتَحْصُلُ هَـٰذِهِ الْوَلَاءَاتُ فيما بَيْنَهُمْ بِسَبَبِ اتِّفَاقِهِمْ عَلَىٰ أَعْمَالٍ ومُكْتَسَبَاتٍ مِنْ جِنْسٍ واحد، أَوْ مِنْ نَوْعٍ واحد، أو من صِنْفٍ واحِدٍ، أَوْ مِنْ شُذُوذٍ واحد.

فَمَعْنَىٰ الآية: وَكَذَلِكَ الَّذِي تَحَدَّثْنَا عَنْهُ، مِنِ اتِّخَاذِ شياطِينِ الجنِّ أَوْلِياءَ لَهُمْ مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً فَهُمْ يَتَبادَلُونَ فيما بَيْنَهُمُ التَّنَاصُرَ عَلَىٰ الشَّرِّ والإثْم والتَّضْلِيل، ويَسْتَمْتِعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ كما سَبَقَ بَيَانُه، نُوَلِّي ضِمْنَ النَّظَام الْعامّ للمجْتَمَعِ الْبَشَرِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً مِنْ كُلِّ قَوْمٍ، وَكُلِّ أُمَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ مُجْتَمَعٍ في أيِّ مَوْقِعٍ مِنَ الْأَرْض، بِسَبَبِ مَا يَشْتَرِكُونَ بِهِ مِنْ كَسْبٍ ظَالِمٍ آثِم، ومن ابْتِغَاءِ الشَّرِّ والْفَسَادِ في الأرض.

هذه سُنَّةٌ عامَّةٌ مِنْ سُنَنِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِي.

■ قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ مُتَابِعاً بَيَانَ عَرْضِ المشْهَدِ مِنْ مَشَاهِدِ حِسَابِ شَيَاطِينِ الجنِّ وَأَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الإنْس، يَوْمَ الدِّين:

● ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾:

المَعْشَرُ: كُلُّ جَماعَةٍ أَمْرُهُمْ واحِد، والمخاطَبُون هنا من الجنِّ وأوليائهم من الإنْسِ كُفَرَةٌ وَدُعَاةٌ إِلَىٰ الكُفْر، فأمْرُهم واحد.

• ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾: أي: يُحَدِّثُونكُمْ بآيَاتِي مُتَتَبِعِينَ كُلَّ مَا أَنْزَلْتُ من آياتٍ بَيَانِيَّةٍ عَلَيْهِم، لِتَبْلِيغِكُمْ إيَّاهَا مع غَيْرِكُم من المبلِّغِينَ.

• ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾: أي: ويُخْبِرُونَكُمْ إذَا كَفَرْتُمْ بِعَذَابِي الشَّدِيدِ، يَوْمَ الدِّين، وبأَنَّكُمْ سَتُلاقُونَ يَوْمَكُم هَٰذَا بَعْدَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ، للحسابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء، عَلَىٰ ما تُقَدِّمُونَ في رِحْلَةِ الابْتِلاءِ باخْتِيَارِكُمْ الحرِّ.

الإنْذار: الإعْلَامُ بِمَا هُوَ مَخُوفٌ مِنه.

وقَدْ يُنْكِرُ مِنْهُمْ مِنْكِرُونَ، ويُخْتَمُ عَلَىٰ أفْوَاهِهِمْ، وتَشْهَدُ عَلَيهُمْ جوارِحُهُمْ، ويَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الشُّهُودُ الْعُدُولُ، وقَدْ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ شَرِيطُ تَسْجِيلِ حَيَاتِهِمْ في رِحْلَةِ الحياةِ الدُّنيا، بِالصَّوْتِ، والصُّورَة، والخواطِرِ والأفكارِ والنِّيَّاتِ وحَرَكَاتِ الإرادات.

عِنْدَئذٍ يَعْتَرِفُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ بأَنَّ الشَّرِيطَ الَّذِي عُرِضَ عَلَيْهِ خَاصٌّ بِهِ، واعْتِرَافُهُمْ شَهَادَةٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهم.

ويُسَأَلُونَ: لِمَ اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ هَٰذَا الّذِي عَرَضْنَاهُ عَلَيْكُمْ، وهُوَ سِجِلُّ حَيَاتِكُمْ؟!

فَيَقُولُون: غَرَّتْنَا الحياة الدُّنْيَا وَزِينَاتُهَا وَمَتَاعَاتها.

فَيُقَالُ لَهُمْ: أَلَمْ تَكُونُوا كَافِرِينَ بِرَبِّكُمْ، وبِرُسُلِ رَبِّكُمْ، وبآيَاتِ رَبِّكُمُ الْبَيَانِيَّة الَّتِي قَصُّوهَا عَلَيْكم؟!

فَيَقُولُون: بَلَىٰ، لقَدْ كُنَّا كَافِرِينَ، وهذا الاعْتِرَافُ شَهَادَةٌ مِنْهُمْ على أنفسهم.

هذا ما أَفْهَمُهُ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿... قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾:

فالشهادةُ الأولىٰ هِي شهادةٌ عَلَىٰ أَنَّ الأشْرِطَة المسَجَّلَةَ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَيْهِمْ، هِي أَشْرِطَةُ حَيَاتِهِم المطابِقَةُ تَماماً لِمَا سَبَقَ أن اكْتَسَبُوه فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهم، لِأَنَّ كُلَّ إِنْسانٍ يَتَذَكَّر يوم الدّين مَا سَبَقَ أن سَعَىٰ في الدُّنيا.

والشَّهَادَةُ الثانيةُ هِيَ اعْتِرَافُهُمْ بأَنَّهُمْ كَانُوا في الحياة الدُّنْيا كَافِرِينَ، فَهَٰذَا الاعْتِرَافُ شَهَادَةٌ مِنْهُمْ على أنْفُسِهِمْ.

ومن الإبداع الْبَيَانِيِّ في الآيَةِ التَّنْوِيعُ في عَرْضِ اعْتِرَافَاتِهِمْ، وبَيَانِ سَبَبِ اكْتِسَابِهِمْ جرائِمَهُمْ.

فاعْترافهم الأوّل: جَاءَ بأسْلُوب: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ﴾.

وبيانُهُم السَّبَبَ: جَاءَ بعِبَارَة: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾.

واعْتِرَافُهُمُ الثَّاني: جاء بعبارة: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾.

ودَلَّ خِطَابُ اللهِ الجنَّ والْإِنْسَ عَلَىٰ أَنَّهُ تَبَارَكَ وتعَالَىٰ قَدْ بَعَثَ إلى الجنِّ رُسُلاً مِنْهُمْ، إِذْ مِنْ المعلوم الثابت أنّ الجِنَّ مَخْلُوقُونَ قَبْلَ الإنْس، وأَنَّهُمْ كانُوا مَوْضوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، فَهُم بحاجَةٍ إلى رُسُلٍ يبيِّنُونَ لَهُم مَسْؤُليَّاتِهِمْ، وَمَطْلُوبَ اللهِ مِنْهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ الله عزَّ وجلَّ بَعْدَ خَلْقِ الْإِنْسِ، رُبَّمَا اخْتَارَ بَعْضَ رُسُلِهِ كَمُوسَىٰ وعيسَىٰ عليهما السلام أَنْ يَكُونُوا رُسُلاً لِلْجِنِّ، أَمَّا مُحمّدٌ ﷺ فَقَدْ ثَبَتَ قَطْعاً أَنَّهُ كَانَ رَسُولاً عَامّاً للإنَسِ والجنِّ، كما سَبَقَ بيانُهُ لَدَىٰ تَدَبُّرِ سُورَةِ (الْجِنّ/ ٤٠ نزول) وفي مَوَاضِعَ أُخْرَىٰ.

■ قول الله تَعالَىٰ في بَيانٍ اعْتِرَاضِيّ يَكْشِفُ فِيهِ مِنْ سُنَنِهِ أَنَّهُ لا يُهْلِكُ أَهْلَ الْقُرَىٰ الظَّالِمِينَ وهُمْ غَافِلُونَ عَنْ مَطْلُوب اللهِ منهم، بَلْ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ يُرْسِلَ لَهُمْ رُسُلاً، كما أرسَلَ رُسُلاً لِلْجِنِّ، ورُسُلاً للإِنْس، لِيَقْطَعَ أَعْذَارَهم:

• ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾:

أي: ذَلِكَ الَّذِي سَأَلْنا مَعْشَرَ الْجِنِّ والإِنْسِ عَنْهُ، وهُوَ قَوْلُنا لَهُمْ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا . . . ﴿١٣٠﴾﴾: وَالَّذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُنَا فِي عِبَادِنَا الموضوعين مَوْضِعَ الامْتِحَانِ أَنْ نُرْسِلَ لَهُمْ رُسُلاً، وأَنْ لَا نُهْلِكَ الظَّالِمِينَ وَهُمْ غافِلُونَ، لَمْ تُبَيَّنْ لَهُمُ الواجِبَاتُ الَّتِي أَوْ جَبْنَاهَا عَلَىٰ مَنْ نَضَعُهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَان.

فالشَّأْنُ الْعَظِيمُ أَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ أَهْلَ الْقُرَىٰ الظَّالِمِينَ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ مِنْ دَرَكَةِ الكُفر، والحالُ أَنَّهُمْ غافِلُونَ عَنْ عَقَائِدِ الدِّينِ وشرائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ، بَلْ يُرْسِلُ لَهُمْ رُسُلاً يُبَيِّنُونَ لَهُمْ وَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْ غَفَلَاتِهِمْ، فإذا عَانَدُوا وَكَفَرُوا عَلَىٰ الرُّغم مِنَ إدْرَاكِهِم الحقِّ فَقَدْ يُهْلِكُهُمْ إهْلاكاً عَامًّا.

ودَلَّ وَصْفُهُمْ بِالْغَفْلَةِ في قَوْلِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ عَلَىٰ أَنَّ حَقَائِقَ دِينِ اللهِ لِعِبَادِهِ مَوْجُودَةٌ فِي فِطَرِ النُّفُوسِ، إلَّا أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَكُونُونَ غافِلِينَ عَنْهَا، غَيْرَ مُهْتَمِينَ بالتَّفْكِيرِ فيها والتَّأَمُّلِ لإدْرَاكِها، لِأَنَّهُمْ مَشْغُولُونَ لَاهُونَ بأُمُور دُنْيَاهُمْ، وقَدْ تكونُ أهواؤهُمْ وشَهَوَاتُهُمْ حَاجِبَةً بَصَائِرَهُمْ بِحِجَاب شَدِيدِ الكَثَافَة.

الْغَفْلَةُ: انْصِرَافُ الذِّهْنِ عَنْ مُلَاحَظَةِ الشَّيْءِ مَعَ وُجُودِهِ في مجال الإدْرَاكِ، أَوْ وُجُودِ أدِلَّتِه، وإمْكَانِ إدْرَاكِهِ لَوْلَا وُجُودُ الصَّارِفِ أو السَّهْو.

■ قَول اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً حِكْمَتَهُ فِي الْجَزاءِ الَّذِي يَجْزِي بِهِ عِبادَهُ يَوْمَ الدِّينِ، الْقَائِمَةَ على التفاضُل في الدَّرَجاتِ، والتَّنَازُلِ في الدَّرَكَاتِ، بِحَسَبِ

مَا كَسَبُوا أو اكْتَسَبُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالٍ، وأَنَّهُ جلَّ جَلَالُهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ غَيْرُ غافِلٍ عَنْ شيءٍ مِنه كبيراً كَانَ أم صغيراً:

• ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

الدَّرَجَاتُ تُلَائِمُ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْصَالِحَاتِ، ويَكْسِبُونَ الْحَسَنَات.

وتُقَابِلُهَا الدَّرَكَات الَّتِي تُلَائِمُ الْعُصَاةَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ الْفَاسِدَاتِ، ويَكْتَسِبُونَ السّيِّئَات.

ومِنْ هَـٰذَا نُدْرِكَ أَنَّ فِي الآيَةِ مَطْوِيًّا يَسْهَلُ اسْتِخْرَاجُهُ، والتقدير:

وَلِكُلٍّ مَوْضُوعٍ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان أَعْمَالٌ يَعْمَلُهَا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ ذَوُو الطَّاعَةِ لِرَبِّهِمْ، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، ويَكْسِبُونَ الْحَسَنَاتِ، فَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ دَرَجاتٌ مِنَ الْأَجْرِ بِفَضْلِهِ عليه، عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا كَسَبَ مِنْ صَالحات وَحَسَنَات. وَأَمَّا الْعُصَاةُ مُرْتَكِبُو الآثَام، الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الفاسِدَات، وَيَكْتَسِبُونَ السَّيِّئَاتِ، فَلِكُلٍّ واحِدٍ مِنْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ دَرَكَاتٌ مِنَ الْعِقَابِ بِعَدْلِهِ، عَلى مِقْدَار مَا اكْتَسَبَ من فَاسِدَاتٍ وَسَيِّئَات.

﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ أيُّهَا الْمُتَلِّقي ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ بَلْ هُوَ عَلِيمٌ بِكُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مِمَّا يَعْمَلُونَ جَمِيعاً، إذْ رَقَابَةُ اللهِ وَعِلْمُهُ مُحِيطَانِ بِكُلِّ شَيْءٍ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه وسَمَتْ حِكْمَتُه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُحَذِّراً الْكَافِرِينَ وَمُنْذِراً بِجَزَائِهِ يَوْمِ الدِّين. مع احْتِمَالِ إهْلَاكِهِمْ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا في الدُّنيا قَبْلَ يَوْم الدِّين، إذا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذَلِكَ، وَوَصَلُوا إلَىٰ دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا مِنْ أنْ يَخْرُجَ مِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ يَعْمَلُونَ الصَّالحات:

• ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾:

خاطَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ كُلَّ فَرْدٍ من أفرادِ الْمُعَالَجِين في السُّورَة، وهُمْ أئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ، بأسْلُوب الخطاب الإفْرَادِيِّ، لِيَضَعَهُ بخِطَابِهِ أمَامَ المسؤولِيَّةِ التامَّة، فقَالَ له:

• ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ ...﴾: أي: الْغَنِيُّ عَنْ إيمانِ العباد، والْغَنِيُّ عَنْ طَاعَاتِهِمْ لَهُ، لَمْ يَأْمُرْهُمْ بالْإيمانِ به وبما أَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، ولَمْ يَأْمُرْهُمْ بِطَاعَتِهِ، لحاجَةٍ في نَفْسِهِ إلَىٰ ذَلِكَ، ولَكِنْ كَمَا خَلَقَهُمْ لِيَبْلُوهُمْ اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ تَكُونَ مَادَّة امْتِحَانِهِمْ تَدُورُ حَوْلَ الْإيمانِ بِهِ وبِسَائِرِ أَرْكَانِ الإيمانِ إيماناً إرَادِيًّا لَا إيماناً جَبْرِيًّا، وَحَوْلَ طَاعَتِهِ فِي أُمُورٍ هِيَ لِخَيْرِهِمْ وَمَصْلَحَتِهِمْ، وهذا هو الإسلام لهُ.

فَحِينَ يتابِعُ مُعَالَجَتَهُمْ، وإقْنَاعَهُمْ، وَمُنَاظَرَتَهُمْ، وتَرْغيبهم وتَرْهِيبَهُمْ، لِيُؤمِنُوا وَلِيُسْلِمُوا، وَيَصْبِرُ عَلَيْهِمْ، ويُمْهِلُهُمْ إمْهَالاً طَويلاً، فَبِرَحْمَتِهِ بِهِمْ يَفْعَلُ ذَلِك، لِأَنَّهُ ذُو الرَّحْمَةِ العُظْمَىٰ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ يُرِيدُ أَنْ يَأْوِيَ إِلَيْهَا وَيَسْتَدِرَّ عَطَاءَاتِها.

وَإِذْهَابُكُمْ مِنَ الْحَيَاةِ، وجَعْلُ غَيْرِكُمْ في أَرْضِكُمْ خُلَفَاءَ لَكُمْ فيها، أَمْرٌ يَسِيرٌ عَلَيْهِ، كَمَا أنْشَأَكُمْ أَنْتُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخرينَ، قَضَوْا آجَالَهُمْ في الحياةِ الدُّنيا، وكُنْتُمْ خُلَفَاءَهم، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذَا:

• ﴿... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

جَاءَ اسْتِعْمَالُ «مَا» في عبارة ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾ بَدَلَ «مَنْ» لِلْإشَارَةَ إلَىٰ أَنَّ إذْهَابَهُمْ يَكُونُ بإهْلَاكٍ جَمَاعِيٍّ عَام، يَهْلِكُونَ فِيهِ هُمْ وَكُلُّ الأَحْيَاءِ في

أَرْضِهِمْ مِنْ غَيْرِ الناسِ، وَحِينَ اسْتِخْلَافِ غَيْرِهِمْ، يأْتِي بأَحْيَاءٍ غير الأَحْيَاءِ الَّتِي أَهْلَكَهَا مَعَهُمْ، وتَغْلِيباً لِلأَحْيَاءِ الأُخْرَىٰ الَّتِي تَكُونُ أَكْثَرَ مِنَ الناس عَادَة جاء استعمال «مَا» الَّتِي تُسْتَعْمَلُ لِغَيْر ذُوي الْعِلْم والْعَقْل، فقالَ تَعالَىٰ: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ أي: مَن بَعْدِ إهْلاكِكُمْ.

وللدَّلَالَةِ عَلى أنَّ الإهْلَاكَ سَيكُونُ خَاصًّا بالْكَافِرِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيل، إنْ شَاءَ اللهُ ذَلِكَ، أبَانَ أَنَّ المسْتَخْلَفِينَ سَيكُونُونَ مِن الذُّرِّيَات الْبَشَرِيَّةِ الْمَوْجُودِينَ في الأَرْضِ، بِدَلَالَةِ التَّشْبيه في قولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿... كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

وخَتَمَ اللهُ الدَّرْسَ بِبَيَانِ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَة الإيمانية، وهُوَ الْيَوْمُ الآخر، وَمَا أَعَدَّ اللهُ فِيهِ، مِنْ حِسَابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وَتَنْفِيذِ جزاء، في النَّار دَارِ عَذَاب الْمُجْرِمِينَ خَالِدِينَ فيها، وفِي الْجَنَّةِ دَارِ نَعِيمِ المؤمنين المتّقِينَ، فَقَالَ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍۢ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾:

مَا تُوعَدُونَ: أي: الحياةُ الأُخْرَىٰ بَعْدَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ، وَكُلُّ مَا فِي هَـٰذِهِ مِمَّا سَبَقَ أَنْ أنبَأْنَاكُمْ وسَنُنْبِئُكُمْ به.

جاء تَوْكِيد الجملة، بـ «إنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ واللَّامُ المزحْلَقَة».

- ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: أي: وَمَا أَنْتُمْ بِقَادِرِينَ عَلَىٰ الإفْلَاتِ مِنْ عَذَابِ رَبِّكُمْ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْس السابع والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❊ ❊ ❊

(٣٢)
التدبر التحليلي للدّرس الثامن والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآية (١٣٥)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

القراءات:

قرأ شُعْبَة: [**عَلَىٰ مَكَانَاتِكُمْ**] بالجمع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**عَلَىٰ مَكَانَتَكُمْ**] بالإفراد.

ومؤدّىٰ القراءتين واحد، فالمفرد النكرة المضاف إلى معرفة بقوة الجمع.

- قرأ حمزة، والكسائي، وَخَلَف: [**مَنْ يَكُونُ**] بالياء.

وقرأها بَاقي القراء العشرة بالتاء [**مَنْ تكُونُ**].

والقراءتان وجهان جائِزَان عَرَبيًّا.

تمهيد:

آيَة هذا الدَّرْس مِنْ فُرُوعِ السَّاقِ الثَّانِي من ساقي شَجَرَة مَوْضوع السّورة، وفيها تَعْلِيمٌ دَعويٌّ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، بِشأْنِ أواخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعوِيَّة، الْمُتَعَلِّقَة بالْكَافِرِينَ الْمُعَانِدِينَ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِم، ومُقَاوَمتهم لدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة، الَّذِينَ صَارَت اسْتِجَابَتُهُمْ مَيْؤُوساً مِنْهَا عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِم الحرَّة، بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ الَّتِي تُثْبِتُهَا التجاربُ الْبَشَرِية المتكَرِّرَة.

التّدبّر التحليلي:

يُخَاطِبُ اللهُ عزَّ وجلَّ رَسُولَهُ فَكُلَّ حَامِلٍ لِرَسَالَتِهِ بِشأْنِ الَّذِين مَرَدُوا عَلَىٰ الكُفْرِ، وصَارُوا ميْؤُوساً مِن اسْتِجَابَتِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إراداتهم الْحُرَّة، فَيأْمُرُهُ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ الأَعْمَالِ الَّتِي يَقْتَضِيها كُفْرُكُمْ، عِبَادَةً لِغَيْرِ اللهِ، وفِسْقاً وفُجُوراً، وظُلْماً وعُدْواناً، وَبَغْياً في الأَرْضِ بِغَيرِ حَقٍّ، ثَابِتِينَ عَلَىٰ الْمَكَانَةِ الصَّغِيرة الحقيرَةِ الّتي أَنْتُمْ عليها، فَلَسْتُ أُجْبِرُكُمْ وَلَا أُكْرِهُكُمْ عَلَىٰ سُلُوك صِراط ربّي المستقيم.

الْمَكَانَةُ: مُؤَنَّثُ المكانِ، الموضِعُ الّذي يكون فيه الشيء، إذْ يَحْتَلُّ فِيهِ فراغاً على مِقْداره. وقد يُطْلَقُ المكَانُ والمكانَةُ على المنزلَة المعنويَّةِ الَّتِي يَكُونُ فيها الْكَائِنُ، مُرْتَقِيَةً رَفِيعةً، أو مُنْخَفِضَةً وضِيعَة.

إنِّي عَامِلٌ وَفْقَ ما يَقْتَضِيهِ مِنِّي إيمانِي وإسْلَامِي لِرَبِّي، ولَيْسَ مِنْ حَقِّكُمْ أنْ تُكْرِهُوني وَتُجْبِرُوني عَلَىٰ تَرْكِ صِرَاطِ رَبِّي المستقيمِ، وَسُلُوكِ مَسَالِكِكُمْ وَسُبُلِكُمْ الضَّالَّةِ الَّتِي تُزْلِقُ إلى عِقَابِ اللهِ وعَذَابه.

فَسَوف تَعْلَمُونَ يَوْمَ القيامَة مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ، وهِيَ الجنَّة الَّتِي أَعدَّهَا اللهُ للمؤمِنِيْنِ الْمُسْلِمِين، خَالِدِينَ فيها يَوْم الدِّين.

حيث وُجِدَ تَعْبِيرُ: «عَاقِبَة الدَّار» أو «عُقْبَىٰ الدَّارِ» فالمرادُ بِهِ الجَنَّةُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ للمتقين.

وبما أَنَّكُمْ ظَالِمُونَ فَلَنْ تَنْجُوا مِنْ عَذَاب اللهِ فِي النَّارِ، ولَنْ تَفُوزوا بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامة، لِأَنَّ ظُلْمَكُمْ مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ.

- ﴿... إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

الْفَلَاح: النجاة، والفوْزُ، والظَّفَر. وأصْل الْفَلَاحِ الْبَقَاءُ في النِّعِيم والخيرِ، قال الأزهري: وإنَّمَا قِيلَ لِأَهْلِ الجنة مُفْلِحُونَ، لِفَوْزِهِمْ بِبَقَاءِ الدَّهْرِ.

وبهذا تَمَّ تدبر الدرس الثامِنِ والعشرين من دروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

(٣٣)

التدبر التحليلي للدّرس التاسع والعشرين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٣٦ ـ ١٤٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

القراءات:

(١٣٦) • قرأ الكِسَائِيُّ: [**بِزُعْمِهِمْ**] بِضَمِّ الزَّاي.

وقرأَهَا باقي القرّاء العشرة [**بِزَعْمِهِمْ**] بفتح الزاي. وهُمَا لُغتَانِ عَرَبيّتَان.

(١٣٧) • قرأ ابْنُ عامر: [**وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلَادَهِمْ شُرَكَائِهِمْ**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المشْرِكِين قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ**].

وفي قراءة ابْنِ عامر إثْبَاتُ وَجْهٍ عَرَبِيٍّ جائز، إذْ فيها الْفَصْلُ بَيْنَ المضاف: «قَتْلُ» والمضاف إلَيْهِ «شُرَكَائِهِمْ» بِمَفْعُولِ «قَتْلِ» وهو «أَوْلَادَهُمْ» أي: زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِين أنْ يَقْتُلَ شُرَكَاؤهم أَوْلَادَهُمْ، إمَّا بِتَسْلِيمِهِمْ إلَىٰ سَدَنَةِ الأصْنَام لِقَتْلِهِمْ، وإمَّا بِقَبُولِ حُكْمِهِمُ الظالم الآثِم فِي أَنْ يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ. ولعَلَّهُمْ إذَا دَفَعُوا الْفِدْيَةَ للسَّدَنَةِ رَفَعُوا عَنْهُمْ حُكْمَ الْقَتْلِ. وفي إثْبَاتِ هذا الْوَجْهِ عَلَىٰ نُدْرَتِهِ إشعارٌ بأنَّ القرآن قد ضَرَبَ اللهُ لِلنَّاسِ فيه من كُلِّ مثل من أمهات لغات العرب.

(١٣٨) • قرأ الكِسائي: [بِزُعْمِهِمْ] بِضَمِّ الزّاي نظير قراءتِهِ في الآية (١٣٦).

وقرأها باقي القرّاء العشرة [بِزَعْمِهِمْ] بِفَتْحِ الزَّاي. والقراءتان لغتان عربيتان.

(١٣٨ و١٣٩) •قرأ يَعْقُوب: [سَيَجْزِيهُمْ] بِضَمّ هاء الضّمير في الموضعَيْن.

وقرأها باقِي القرَّاء العشرة [سَيَجْزِيهِمْ] بِكَسْرِ هاء الضمير في الموضِعَيْن.

(١٣٩) • قرأ ابْن عامر: [وَإِنْ تَكُنْ مَيْتَةٌ] أي: وإنْ تُوجَدْ مَيْتَةٌ.

وقرأها أبُو جَعْفَر: [وَإِنْ تَكُنْ مَيِّتَةٌ] بِتَشْدِيدِ الياء.

وقرأها شُعْبَةُ: [وَإِنْ تَكُنْ مَيْتَةً] أي: وإنْ تَكُنْ الَّتِي في بطُونِ الأنعام مَيْتَةً.

وقرأها ابْنُ كثير: [وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةٌ] بالياء في «يكن» وبرفع «مَيْتَةٌ».

وقرأها بَاقي القراء العشرة: [وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً] بِنَصْبِ «مَيْتَةً» وبالياء من «يكُن».

(١٤٠) • قرأ ابْنُ كثير، وابْنُ عَامر: [الَّذِينَ قَتَّلُوا] بِتَشْدِيد التاء.

وقرأها باقي القرَّاء العشرة: [الَّذِينَ قَتَلُوا] بتخفيف التاء.

رُوعي في التَّشْدِيد حَالُ الَّذِينَ أَكْثَرُوا القتل. ورُوعي في التخفيف حال الَّذِينَ كان مِنْهُمْ قَتْلٌ ما.

تَمْهيد:

آيات هَـٰذَا الدَّرس من فروع السّاق الأول من ساقَيْ شجرة موضوع السورة، وفيها بَعْضُ تَفصِيل الأحكام الجاهِلِيَّةِ في المآكِلِ مِنَ الْحَرْثِ والأَنْعَام افتراءً عَلَىٰ اللهِ. وفيها بَيَانُ كَيْفَ زَيَّنَ لَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ، فِيمَا عُرِفَ بالْوَأْدِ. وفيها بيانُ خَسَارَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ.

التّدَبّر التحليلي:

■ قَول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ بَعْضِ شِرِكيَّاتِ المشركين الدِّينيَّةِ الجاهِلِيَّةِ، عَطْفاً على سوابقِ مَا ذُكِرَ مِنْ شِرْكِياتِهِم وأحكامهم الجاهِلِيَّةِ في السُّورة:

• ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾:

﴿وَجَعَلُواْ﴾ استعمل في القرآن فعْل «جَعَلَ» في أربعة مَعَانٍ:

المعنى الأول: الخلْقُ والتكوين، وعليه معظم الآيات.

المعنى الثاني: الْحُكْمُ الديني الرَّبَّاني.

المعنى الثالث: الحكمُ الإنْسَانيُّ حَقًّا كَانَ أمْ باطلاً.

المعنى الرابع: الفعل ذو الأثر مِن أي كائن، سواءٌ أكان صادراً عن إرادة أم عن غَيْرِ إرادة.

والمعنى هنا في الآية يَدُورُ حول المعنى الثالث والرَّابع، فالمشْرِكُون جَعَلُوا مِنْ أحْكَامِهِمْ الشَّرْكِيَّة بِشأْنِ مَا يَبْذُلُونَ مِنْ أموالِ حَرْثِهِمْ وأنْعَامِهِمْ مِقْدَاراً للهِ وَمِقْدَاراً لآلِهَتِهِمْ الَّتِي جعَلُوها شُرَكَاءَ للهِ في إلَهِيَّتِهِ. وجَعَلُوا كَذَلِكَ بِتَطْبِيقَاتِهِمُ التَّعَبُّدِيَّة مَعَ عَدَمِ الالتزام بما جَعَلُوه للهِ، ومع الالتزام بما جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ مِن الأوثان، والمسْتَفِيدُ مِنْهُ سَدَنَتُهَا.

﴿ذَرَأَ﴾: تأتي بمعنى «خَلَقَ». وتأْتِي بمَعْنَىٰ «كَثَّرَ وَبَثَّ عَنْ طَرِيقِ الذُّرِّيَّة».

﴿الْحَرْثُ﴾: العمل في الأرض لاسْتِنْبَاتِ زَرْعِها، أو غَرْسِ شَجَرِها. ويُطْلَقُ أيْضاً على الزَّرْعِ النَّابت كما ذَكَرَ الزَّجاج. قال الأزهري: الحرْثُ قَذْفُكَ الحبَّ في الأرض لازْدِراعٍ، والحرثُ الزَّرْع، وشَقُّ تُراب الأرْضِ بالمحاريث.

﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾: هي الأموال الراعِيَةُ، الإبِلُ والْبَقَرُ والْغَنَم. ولفظ «الأنعام» يذكَّرُ وَيُؤَنَّث، فتقول: هي الأنعام، وتقول: هُو الأنْعام.

﴿نَصِيبًا﴾ **النّصِيبُ**: الْحَظُّ مِنْ كُلِّ شيء، يُسْتَعْمَلُ في الخير والشَّرِّ.

﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ **الزَّعْمُ**: أخو الكَذِب، ويأتي بمعنَىٰ الظَّنّ. وأكْثَر ما يُسْتَعْمَلُ الزَّعْمُ فيما كان باطلاً، أو فيه ارْتياب، ويأتي بمعنَىٰ الاعْتِقادِ الباطل.

وفيه ثلاث لغات: «زَعْم» و«زُعْم» و«زِعْم».

﴿لِشُرَكَآئِهِمْ﴾: أي: لآلِهَتهِم الَّتِي جعَلُوهَا شُرَكَاءَ للهِ افْتَرَاءً عَلَيْه.

فالمعنى: وجَعَل المشْرِكُونَ مِنْ أَحْكَامِهِمْ وأعْمَالِهِمُ الشِّرْكِيَّةِ التَّعَبُّدِيَّةِ، بَعْضَ مَا خَلَقَ اللهُ لَهُمْ مِنَ الزُّرُوع والثمرَاتِ، ومِنَ الْأَنْعَام، مِقْدَاراً يَبْذُلُونَهُ للهِ أي: في وُجُوهِ الخيرِ الّتِي يُتَقَرَّبُ بها إِلَىٰ اللهِ، ومِقْدَاراً يَبْذُلُونَهُ

لآلَهتِهِمْ، يَتَسَلَّمُهُ سَدَنَةُ أَوْثَانِهِمْ، ولَكِنَّهُمْ لَدَىٰ التَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ يَبْذُلُون مَا جَعَلُوهُ لآلِهَتَهِمْ غَيْرَ مَنْقُوص، ولَا يَبْذُلُونَ مَا جَعَلُوهُ للهِ فِي وُجُوه الخير الّتي يُتَقَرَّبُ بها إلى اللهِ، كالإنْفَاقِ على الفقراء والْمَسَاكِينِ والأيتام والضُّعَفَاءِ الْمَحْرُومِين، بَلْ يُوَجِّهُونَهُ أيْضاً لآلِهَتِهِمْ مِنَ الْأَوْثَانِ، لِتَمْنَحَهُم عَطَاءَاتِهَا، وتُيَسِّرَ لَهُمْ مَا يَطْلَبُونَ من شُؤون دُنْيَاهُمْ، فَهُمْ مُشْرِكُونَ وَيُؤْثِرُونَ عِبَادَةَ آلِهَتِهِم عَلَىٰ عبادةِ اللهِ، علَىٰ أنّ الله لا يَقبلُ مِنْهُمْ عباداتِهم لَهُ مَا دامُوا مُشْرِكِينَ، فهو أغْنَىٰ الشركاء عن الشرك.

• ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾: **سَاءَ**: فِعْلٌ يُقَالُ في إنْشَاءِ الذَّمّ على سبيل المبالَغَةِ، مثل «بِئْسَ» «مَا» نِكَرَةٌ في موضع نَصْبٍ على التّمييزِ، وهي موصوفة بالفِعْلِ بَعْدها، والمخْصُوصُ بالذّم محذوف تَقْدِيرُهُ: ذَلِكَ الْحُكْمُ الَّذِي يَحْكُمُونه والفِعْلُ الَّذِي يفْعَلُونه.

والمعنى: سَاءَ مَا يَحْكُمون حُكْمُهُمْ، وَسَاءَ مَا يَفْعَلُونَ فِعْلُهم، إذِ افْتَرَوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ فَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ في إلَهِيَّتِهِ، وجَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي بَعْضِ رُبُوبِيَّتِهِ.

■ قَوْلُ الله تَعالَىٰ يُبيِّنُ قَبيحَةً أُخْرَىٰ مِنْ قَبَائِحِ المشْرِكِين، وهِي قَتْلُهُمْ أَوْلَادَهُمْ بِتَزْيِينِ سَدَنَةِ آلِهَتِهِمْ ذَلِكَ لَهُمْ:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أي: وكَذَلِكَ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ في الآية (١٣٦) بِشأْنِ أحْكَامِ المشْرِكِينَ وأفْعَالِهِمْ الشِّرْكِيّة.

• ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾:

أي: حَسَّنَ آلِهَةُ المشْرِكِينَ الّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ شُرَكَاء للهِ في إلَهِيَّتِهِ، عَنْ

طَرِيقِ إيحاءاتِهِم، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الَّذِينَ أَغْرَوْهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ ومِنْهُمْ سَدَنَةُ الْأَوْثَانَ، لِكَثِير مِنَ المشْرِكِينَ أَنْ يَقْتُلُوا أَوْلَادَهُمْ، ومِنْ قَتْلِ الأَوْلَادِ وَأْدُهُمْ مِنَ الْفَقْرِ أَوْ مِنْ خَشْيَةِ حُدُوث الْفَقْرِ مُسْتَقْبلاً، ومِنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ وَأْدُ الْبَنَاتِ خَوْفَ الْعَارِ عِنْدَ الْغَزْوِ وَالسَّبْي.

التَّزيِينُ: التجميل والتَّحْسين، وهو جَعْلُ الشَّيْءِ مُلَائماً لِمَا تَسْتَحْسِنُهُ النُّفُوسُ أَوْ تُحِبُّهُ أَوْ تَشْتَهِيهِ، والإغراءُ بِحُسْنِ الشَّيْءِ، والتَّحْبِيبُ به، وإِثَارَةُ النَّفْسِ للتَّعَلُّقِ به بالوساوس والتسويلات القائِمَاتِ على الإطماع بالباطل، وهَـٰذَا مِنْ فِعْلِ شَيَاطِين الإِنْسِ والجنّ. وهذا المعْنَىٰ هو المُرَادُ هُنَا.

- ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾: أي: لِيُسْقِطُوهُمْ في أَوْدِيَةِ الآثَام والجرائم، حَتَّىٰ يَنَالُوا سخَطَ اللهِ وعِقَابَه، والخلودَ في عذاب النار.

- ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾: اللَّبْسُ خَلْطُ أَمْرٍ بأَمْر، أَوْ شَيْءٍ بشيءٍ، أو فِكْرَةٍ بِفِكْرَةٍ أو أفكار، وهَـٰذَا اللَّبْسُ يَنْجُمُ عَنْهُ جَهْلُ كُلٍّ مِنَ المخْتَلِطَيْنِ، أَوْ أَحَدِهما، وتَوَهُّمُ أَنَّهُ مِثْلُ الْمُخْتَلِطِ به، ومِنْهُ لَبْسُ الحقِّ بالْبَاطِلِ لْلإيهام بأَنَّ الْبَاطِلَ حَقٌّ، فَكَانَ دُعَاةُ الشِّرْكِ يَخْلِطُون أحْكَامَهُمْ بأحكام الدّين الموروث عن إسماعيل عليه السلام.

والمعروف مِنْ قتلِ الأوْلَادِ عِنْدِ مُشْرِكِي الْعَرَب قَبْلَ الإسْلام هُوَ هذا الْوَأْدِ، ولَمْ يَكُنْ عِنْدَ كُلِّ قبائِلهم، ولَا عِنْدَ كُلِّ أفرادِ الْقَبَائِلِ الَّتِي كانَتْ تَفعَلُ ذلِك، وربَّما كان عِنْدَ بَعْضِهِمْ نَذْرُ قَتْلِ بَعْضِ أولادِهِ تَقَرُّباً إِلَىٰ اللهِ إِذَا أَكْرَمَهُ اللهُ بأمْرٍ عظيم يُحِبُّهُ، كَمَا فَعَلَ عَبْدُ المطّلِب جَدُّ الرَّسُولِ ﷺ، فإنَّهُ نَذَرَ إِنْ رَزَقَهُ اللهُ عَشَرَة أَوْلادٍ ذُكُورٍ، ثُمَّ بَلَغُوا مَعَهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنْ عَدُوِّه، لَيَنحَرَنَّ أَحَدَهُمْ عِنْدَ الكَعْبَة، وَقَدْ رَزَقَهُ اللهُ الذُّكُورَ العشرة، وعَزَمَ على الوفاء بِنَذْرِهِ.

فقالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: لَا تَذْبَحْهُ حَتَّىٰ تُعْذرَ فِيه، فإنْ كانَ لَهُ فِداءٌ فَدَيْنَاهُ.

فَكَانَ يُقَدِّمُ عَشَرَةً مِنَ الْإِبْلِ فَعَشْرَةَ، ويَقْتَرِعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ قُرْعَةُ الذَّبْحِ، فَلَمَّا بَلَغَ الْفِدَاءُ مائةً مِنَ الْإِبل، وقعَتِ الْقُرْعَةُ عَلَىٰ الْإِبلِ، فَنحَرَهَا قُرْباناً للهِ، وأنْجىٰ اللهُ عَبْدِ اللهِ وَالِدَ الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ، فكَانَ ابْنَ الذَّبِيحَيْن، أَبِيهِ وَجَدِّهِ إسْماعِيلَ عَلَيْهِ السلام.

ورَوى البخاريُّ عَنْ أسْمَاءَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ، قالت: «كَانَ زَيْدُ بْنُ عَمْرو بْنِ نُفَيْلٍ يُحيي الْمَوْؤُودَة، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: لَا تَقْتُلْهَا، أَنَا أكْفِيكَ مَؤُونَتَهَا، فَيَأْخُذُها، فإذا تَرعْرَعَتْ قَال لِأَبيها: إنْ شِئْتَ دَفعْتُهَا إلَيْكَ، وإنْ شِئْت كَفَيْتُكَ مَؤُونَتَهَا».

وَكَانَ جَدُّ الْفَرَزْدَقِ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ فافْتَخَرَ بِشِعْرِهِ بما كان يَفْعَلُ جَدُّه.

• ﴿... وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾:

أي: ولَوْ شَاءَ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه ـ أَنْ لَا يَفْعَلَ الشَّيَاطِينُ الشُّرَكَاءُ مَا زَيَّنُوهُ، وأَنْ لَا يَفْعَلَ المشْرِكُونَ مَا زُيِّنَ لَهُمْ مِنْ قَتْلِ أَوْلَادِهِمْ، لَسَلَبَهُمْ إرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةَ ولَجَعَلَهُمْ مَجْبُورِين، أو لَمَنَعَهُمْ بالْإِكْرَاهِ فَمَا اسْتَطَاعُوا تَنْفِيذَ مَا أَرَادُوا تَنْفِيذَهُ، وَلَكِنْ تَنْعَدِمُ بهٰذَا الْحِكْمَةُ مِنْ وَضْعِ شَيَاطِينِهِم وَوَضْعِهِمْ في الحياة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، وَلَا يَكُونُ لِلْجَزَاءِ مُقْتَضٍ يَقْتَضِيهِ مِنْ إرَادَاتِهِم الحرَّة.

وأَمَّا مَنْ يَقْتُلُونَهُمْ مِنْ أَوْلَادِهِمْ، فَقَدْ سَبَقَ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ تَحْدِيدُ انتهاءِ آجالِهِمْ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي قُتِلُوا فِيهِ.

فَاتْرُكْهُمْ يَا مُحَمَّدُ ويَا حَامِلَ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ وَمَا يَفْتَرُونَ مِن الكَذِبِ ومن الأعْمَالِ الْمُبَايِنَةِ لِصِرَاطِ اللهِ المستقيم، مَا دَامُوا قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا من أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّةِ، وَلَمْ يخْضعُوا لِسُلْطَانِ حُكْمِ الْإِسْلَامِ، وسُلْطَانِ حَاكِمٍ مُسْلِمٍ مَأْمُورٍ بِتَطْبِيقِ أحْكَام الإسلام.

يَفْتَرُون: أي: يَخْتلقُونَ الْكَذِبَ ويَصْطَنِعُونَهُ عَنْ عَمْدٍ، ويَعْتَدُونَ عَلَىٰ حَقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ في رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إلٰهِيَّتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ يُتابعَ بَيانَ بَعْضِ قَبائِحِ المشْرِكِينَ، في افْتِرائِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ بِأَحْكَامٍ تَشْرِيعِيَّةٍ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطانٍ:

● ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾:

في هذا النَّصّ بيانُ أحكَامٍ جَاهِلِيَّةٍ حَلَّلَ فِيها المشْرِكُونَ وَحَرَّمُوا مَا لَمْ يأذَنْ بِهِ اللهُ صَاحِبُ الحقِّ فِي التَّحْرِيم والتَّحْلِيلِ، ولَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُشَارِكَ اللهَ تبارَكَ وَتَعالَىٰ في رُبُوبِيّتِهِ أَوْ فِي إِلَٰهِيَّتِهِ.

حِجْر: مَصْدَرُ «حَجَرَ الشَّيْءَ على نَفْسِهِ، يَحْجُرُهُ، حَجْراً» أي: مَنَعَ غَيْرَهُ مِنَ التَّصرُّفِ فِيه. و«حَجَرَ عَلَيْهِ الأَمْرَ، يَحْجُرُهُ حَجْراً» أي: مَنَعَهُ مِنه.

ولفظ «حِجْر» هُنَا بِمَعْنَىٰ اسْمِ المفْعُول، أي: مَحْجُور، بمعْنَىٰ «مَمْنُوع» وهُوَ يُسَاوِي كَلِمَة «حَرام».

فَحَرَّمُوا أَنْعَاماً، وَحَرَّمُوا حَرْثاً، وَجَعَلُوهَا لِأَصْنَامِهِمْ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِزَعْمِهِمْ إِلَّا مَنْ يَشَاءُون. ولَهُمْ في ذَلِكَ أَحْكَامٌ جاهِلِيَّةٌ كَانُوا يَفْتَرُونَها عَلَىٰ الله.

وَحَرَّمُوا رُكُوبَ بَعْضِ الْأَنْعَام، وكانُوا يَذْبَحُونَ لِأَوْثَانِهِمْ أَنْعاماً فَلا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْها، وإِنَّما يَذْكُرُونَ عَلَىٰ ذَبْحِها أَسْمَاءَ أَوْثَانِهِمُ الَّتِي يَعْبُدونَهَا مِنْ دُونِ الله.

وَجَعَلُوا بَعْضَ مَا فِي بُطُونِ الأَنْعَامِ مِنْ أَجِنَّةٍ قَبلَ أَنْ تُولَدَ حَلالاً لِلذُّكُور، وَحَراماً عَلَىٰ الإِنَاث، إِلَّا إِذَا كَانَ مَيْتَةً فَهُوَ حَلالٌ لِلذُّكُورِ والإِناث.

• ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾: أي: أنْعامٌ خالِصَةُ الْحِلِّ لِذُكُورِنَا، ومُحَرَّمٌ عَلَىٰ نِسَائِنا، لَفْظُ الأنعام يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، فَرُوعي في ﴿خَالِصَةٌ﴾ تَأْنِيثُهُ، ورُوعي في ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ تَذْكِيرُه.

• ﴿... سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾: : أي: سَيَجْزِيهُمُ اللهُ جَزَاءً عِقَابِيًّا بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ عَلَيْهِ، في أحْكامِ الحلالِ والحرامِ الَّتِي هِيَ حَقُّ رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ.

• ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾: أي: سَيَجْزِيهِم اللهُ جَزَاءً بِالْعَدْلِ، مُطَابِقاً لِوَصْفِهِمُ الَّذِي كانُوا فِيهِ مُفْتَرِينَ عَلَىٰ حَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ وَحَقِّ إِلَهِيَّتِهِ.

• ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾: أي: إنَّهُ بِحِكْمَتِهِ السَّامِيَةِ يَضَعُ الجزاءَ بِالْعَدْلِ في الموضِعِ الملائم تماماً لِوَضْعِهِ.

• ﴿عَلِيمٌ﴾: أي: كامِلُ الْعِلْمِ، مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، فَلَا يَظْلِمُ أَحْداً فِي أَحْكامِه، ولَا فِيما يُجازِيه به.

وحَرَّمَ المشْرِكُونَ في الجاهِلِيَّةِ قَبْلَ الإسْلَام بَعْضَ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ مِنْ أَنْعَامٍ افْتِرَاءً عَلَيه، وَقَدْ جَاءَ تَفْصِيلٌ لِلْأَنْعَام الَّتِي حَرَّمُوهَا في سُورَةِ (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) فَقَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ فِيها:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

الْبَحِيرَة:

هي مَشْقُوقَةُ الْأُذُن مِنَ الأنْعَام، فَعِيلَةٌ بِمَعْنَىٰ «مَفْعُولَة» **الْبَحْرُ عِنْدَ الْعَرَب:** شَقُّ الأُذُن.

وفي الْبَحِيرَة الْمُحَرَّمَةِ عِنْدَ الْعَرَب ثَلَاثَةُ أقوال:

القول الأول: قال الشَّافِعِيُّ: كان الْعَرَبُ إذَا نُتِجَتِ النَّاقَةُ عِنْدَهُمْ خَمْسَةَ أبْطُنٍ إنَاثاً، بَحَرُوا أُذنَها فحُرِّمَتْ.

الْقَوْلُ الثاني: كانُوا إذا نُتِجَتِ النَّاقَةُ خَمْسَةَ أبْطُن، فإنْ كانَ الْخَامِسُ ذَكَراً بَحَرُوا أُذُنَهُ، فَأَكَلَهُ الرِّجَالُ والنِّسَاء، وإنْ كانَ الخامِسُ أنْثَىٰ بَحَرُوا أُذُنها، وكانَتْ حَرَاماً عَلَىٰ النِّسَاءِ لَحْمُهَا وَلَبَنُها.

الْقَوْلُ الثَّالِث: كانُوا إذَا نُتِجَتِ النَّاقَةُ خَمْسَةَ أبْطُن، شَقُّوا أُذُنَهَا وَحَرَّمُوا رُكُوبَهَا وَحَرَّمُوا لَبَنها.

أقول: لَعَلَّ كُلَّ هَـٰذِهِ الصُّور كانَتْ عِنْدَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مِن الْعَرَب.

السَّائِبَة:

هي الناقَةُ أَو الْبَعِيرُ تُسَيَّبُ بِنَذْرٍ يَنْذُرُهُ مَالِكُها، فَلَا تُحْبَسُ عَنْ رَعْيٍ وَلَا مَاءٍ، وَلَا يرْكَبُها أَحَد.

وقِيلَ: هِيَ النَّاقَةُ الَّتِي تُسَيَّبُ للهِ فَلَا قَيْدَ عَلَيْها، وَلَا رَاعِيَ لَهَا.

وقيل: هِيَ الَّتِي تَابعَتْ بَيْنَ عَشْرِ إنَاثٍ لَيْس بَيْنَهُنَّ ذَكر، فَعِنْدَ ذَلِكَ تُسَيَّبُ، فَلَا يُرْكَبُ ظَهْرُهَا، وَلَا يُجزُّ وَبرُها، وَلَا يَشْرَبُ لَبنَهَا إلَّا ضَيْفٌ.

الْوَصِيلَة:

هي الناقَةُ إذَا وَلَدَتْ أنْثَىٰ بَعْدَ أنْثَىٰ. **وَقِيل**: هِيَ الشَّاةُ كَانَتْ إذَا وَلَدَتْ أنْثَىٰ فَهِيَ لَهُمْ، وَإنْ وَلَدَتْ ذَكراً فَهُوَ لآلِهَتِهِمْ، وإنْ وَلَدَتْ ذَكراً وَأنْثَىٰ قَالُوا: وَصَلَتْ أَخَاهَا فَلَمْ يَذْبَحُوا الذَّكَرَ لآلِهَتِهِم.

إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالٍ تَتَضَمَّنُ أحْكَاماً جاهِلِيَّةً مَا أَنْزَلَ اللهُ بها مِنْ سُلْطان.

الحامي:

هُوَ الْفَحْلُ إذا رَكِبَ وَلَدَ وَلَدِه. **وقِيلَ**: هو الّذِي يُنْتَجُ مِنْ صُلْبِهِ عَشرة أَبْطُن. قَالوا: قَدْ حَمَىٰ ظَهْرَهُ، فَلَا يُرْكَبُ، وَلَا يُمْنَعُ مِنْ كَلأ.

ومن هذا نُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ تَحْرِيم في المآكِلِ والمشَارِب والأَلْبِسَةِ والْمَسَاكِنِ دُونَ إذْنٍ شَرْعِيٍّ، وَلَيْسَ لِلْمُحَرِّمِ فِيه بُرْهَانٌ مِنَ اللهِ، هو افْتراءٌ عَلَىٰ اللهِ، وافتئاتٌ في الدِّين، والتَّذَرُّعُ بِبَعْضِ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَة، أو الَّتِي لَا تَقْوَىٰ على إثْبَاتِ حُكْمِ التَحْرِيم لَا يُغْنِي مِن الحقِّ شَيْئاً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ في الآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ هَـٰذَا الدَّرْس، تَعْقِيباً عَلَىٰ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِيهِ مِنْ أَحْكَامٍ وَأَعْمَالٍ جَاهِلِيَّةٍ مَا أَنْزَلَ اللهُ بها مِنْ سُلْطَانٍ:

• ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾:

الخاسر: يَأْتِي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ المغْبُونِ في تِجَارَتِه، وبِمَعْنَىٰ الْهَالِكِ، وبِمَعْنَىٰ الضَّالِّ، وهَـٰذِهِ المعاني كُلُّها تَنْطَبِقُ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ المذْكُورِينَ في الآية.

﴿سَفَهًا﴾: **السَّفَهُ**: نُقْصَانُ العقل، والخِفَّةُ، والطَّيْشُ، ومُجَانَبَةُ الرُّشْدِ فِي الْقَوْلِ أو الْعَمل. ومِمَّا لَا شَكَّ فيه أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتُلُونَ أولَادَهُمْ مِنْ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ عَلَىٰ مَا سَبَقَ بيَانُهُ قَدْ كَانُوا سُفَهاءَ، وَكَانَتْ تَصرُّفَاتُهُمْ غَيْرَ مَبْنِيَّةٍ علَىٰ عِلْم. وَكَذَلِكَ الَّذِينَ كانُوا يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ في الأحْكَامِ، فَيُحَرِّمُونَ بَعْضَ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا أَحْكامٌ إلَهِيَّة.

فَهُمْ خَاسِرُونَ إذْ عَرَّضُوا أَنْفُسَهُم لِعَذَابِ اللهِ، وَهُمْ سُفَهاءُ ناقِصُوا الْعَقْلِ مُجَانِبُوا مَنْهَجِ الرُّشْدِ، وهُمْ ضَالُّونَ عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾: أي: وَمَا كَانَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَهْتَدُوا مُسْتَقْبلاً، إذْ رَفَضُوا الحقّ مُعَانِدِين.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدِّرْس التاسع والعشرين من دروس سورة (الأنعام).
والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٣٤)
التدبر التحليلي للدّرْس الثلاثين مِنْ دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٤١ ـ ١٤٧)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤) قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾.

القراءات:

(١٤١) ● قرأ نافع، وابن كثير: **[أُكْلُهُ]** بإسْكان الكاف.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[أُكُلُهُ]** بضم الكاف.

وهما لغتان بمعنى الثمر.

(١٤١) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[مِنْ ثُمُرِهِ]** بضَمّ الثاء والميم.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[مِنْ ثَمَرِهِ] بفتح الثاء والميم.**

وهما لغتان عربيّتان، جمع «ثَمَرة».

(١٤١) • قرأ أبو عَمْرو، وابن عامر، وعَاصِم، ويَعْقُوب: **[حَصَادِهِ]** بفتح الحاء.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: **[حِصَادِهِ]** بكسر الحاء.

وهما لغتان عَربيّتان.

(١٤٢) • قرأ نافع، والْبَزّي، وأبو عَمْرو، وشعبة، وحمزة، وخلف: **[خُطْوَاتِ]** بإسْكان الطاء.

وقرأها باقي القراء العشرة بِضَمّ الطّاء: **[خُطُوَاتِ]**.

وهما لغتان عَرَبيَّتَان.

(١٤٣) • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: **[الضَّانِ]** بإبدال الهمزة ألفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[الضَّأْنِ]** بالهمزة الساكنة على الأصل.

(١٤٣) • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر: **[الْمَعَزِ]** بفتح الْعَيْن.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسكان العين: **[المَعْزِ]**.

وهما لغتان عَربِيَّتَان.

(١٤٣) • قرأ أبو جعفر: [**نَبُّونِي**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**نَبِّئُونِي**].

وهما نُطْقَانِ عَرَبيَّان.

(١٤٥) • قرأ ابن عامر: [**إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَيْتَةٌ**] على اعتبار فعل الكون تامًّا، وبتخفيف الياء مِنْ «مَيْتَة».

وقرأها أبو جَعْفَر: [**إِلَّا تَكُونَ مَيِّتَةٌ**] على اعتبار فعل الكون تامًّا، وبتَشْدِيد الياء من «مَيِّتَة».

وقرأها ابن كثير وَحَمْزة: [**إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَيْتَةً**] على اعتبار فعل الكون فعلاً ناقصاً، وبتخفف الياء من «مَيْتة».

وقرأها باقي القراء العشرة: [**إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً**] على اعتبار فعل الكون فعلاً ناقصاً، وبالياء بَدل التاء منه، وبتخفيف الياء من مَيْتَة. وهي وُجوه جائزة مُتَكَافِئَة.

(١٤٥) • قرأ أبو عَمْرو، وعاصم، وحمزة، ويَعْقُوب: [**فَمَنِ اضْطُرَّ**].

وقرأها أبو جَعفر: [**فَمَنُ اضْطِرَّ**].

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرة: [**فَمَنُ اضْطُرَّ**]. وهِي لُغَاتٌ عَربيَّة.

(١٤٧) • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: [**بَاسَهُ**] بإبدال الهمزة أَلِفاً. وكذلِكَ حَمْزَةُ في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**بَأْسَهُ**] بالهمزة السَّاكِنَة على الأصْل دُون إبْدَال.

تمهيد:

آيات هـٰذا الدَّرْس من فُروع السَّاقِ الْأَوَّلِ أيضاً مِنْ سَاقي شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورة. وفيها بيان أحكام اللهِ فيما أنْعَمَ بِهِ عَلَىٰ عبادِه ممَّا تُنْبِتُ الْأَرْض. وبيان مَا أَنْعَمَ عليهم من الأنعام.

وفيها التّحْذِيرُ من اتّباع خُطُواتِ الشَّيْطَانِ بِتَحْرِيم مَا أَحَلَّ اللهُ مِنْها، كما فَعَلَ أَهْلُ الجاهِلِيَّة الَّذِين سبَقَ الحَدِيثُ عَنْهُمْ في الدرس السَّابق.

وفيها تكْلِيفُ اللهِ رَسُولَهُ أَنْ يُبيّنَ للنَّاسِ مَا سَبَقَ أن أُوحِيَ إليه بِشَأْنِ المطاعم في رسالَتِهِ وما قَبْلَهَا من أحْكامٍ، وَمَا يَقُولُه لَهُمْ إِنْ كَذَّبَهُ الكافرون مِنْ إنْذارٍ بِعِقَابه.

التدبّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾:

قيل: إنَّ هـٰذِهِ الآيَةَ مَدَنِيَّة، وعلى هـٰذا يَكُونُ قولُهُ تَعَالَىٰ فِيها: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ دالّاً عَلَىٰ الزَّكَاةِ الَّتِي فُرِضَتْ في السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ.

والرَّاجِحُ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ أَنَّ هـٰذِهِ الآيَةَ مَكِّيَّةٌ إِذْ رُوِيَ أَنَّ سُورَة (الأنعام) نَزَلَتْ في مَكَّةَ جُمْلَةً واحِدَة، وَعلىٰ هَـٰذا يَكُونُ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فيها: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾: وآتُوا الْحَقَّ الْمُتَعَارَفَ لَدَيْكُمْ أَنْ تُؤَدُّوهُ لِلْمَسَاكِينَ والسَّائِلِينَ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ الْحَصَادَ يَوْمَ حَصادِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هـٰذا الْأَمْرُ أَمْرَ إيجابٍ قَبْلَ فَرْضِ الزَّكَاةِ ذَاتِ المقْدارِ الْمُحَدَّدِ، وأَنْ

يَكُونَ أَمْرَ نَدْبٍ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ اللهَ تَحَدَّثَ فِي الْعَهْدِ الْمَكِيِّ عَنِ الزَّكَاةِ في نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ سُوَرٍ مَكِّيَّةٍ، وَجعَلَهَا مُقَارِنَةً لِلصَّلاة، وهٰذَا يُرَجِّحُ أَنَّ الله عَزَّ وجَلَّ أَوْجَبَ عَلَىٰ المؤمِنِينَ المُسْلِمِينَ أَنْ يَبْذُلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ لِلْفُقَرَاءِ والْمَسَاكِين وَذَوِي الحاجات، مُنْذُ الْعَهْدِ المَكِّي، إِلَّا أَنَّ تَحْدِيدَ المقدار الَّذي يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُنْفِقُوهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ قَدْ تَأَخَّرَ إِلَىٰ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْعَهْدِ الْمَدَنِي، كَمَا أَنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ وَاجِبَةً عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ أوائِلِ الْعَهْدِ المَكي، حتَّىٰ فَرَضَ اللهُ عَدَدَهَا وأَوْقَاتَها في لَيْلَةِ الإِسْرَاء، وَنَزلَتْ بِشَأْنِهِ أوائِلُ سُورَةِ (الإِسْرَاء/ ٥٠ نزول).

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾:

الإِنْشاء: الإحْدَاثُ المصْحُوبُ بالتكامُلِ المتَدَرِّج غالباً.

جنّات: جَمْعُ «جَنَّة» وهي مَا يَحْتَوِي عَلَىٰ أَشْجَارٍ وثِمَارٍ وَزُرُوعٍ وَمِيَاهٍ، جَارِيَة.

مَعْرُوشَات: أي: قَدْ صُنِعَ لِأَغْصَانِ أَشْجَارِهَا عَرِيشٌ، تَمْتَدُّ عَلَيْهِ، فَتَكُونُ مُظَلِّلَةً لِمَا تحتها. يقال لغة: «عَرَشَ فُلاَنٌ، يَعْرُشُ، عَرْشاً» أي: بَنَىٰ عَرِيْشاً. **الْعَرِيشُ**: مَا يُسْتَظَلُّ به، ومَا عُرِشَ لِلْكَرْمِ، وَيقال لُغَةً: «عَرَشَ الْكَرْمَ يَعْرُشُهُ عَرْشاً، وَعُرُوشاً، فَهُو مَعْرُوشٌ» أي: رَفعَ أَغْصَانَهُ عَلَىٰ الْخَشَبِ، فَجعَلَهَا عَرِيشاً.

والمَعْنَىٰ: واللهُ هُوَ وَحْدَهُ الَّذي خَلَقَ ضِمْنَ نِظَامِ الإِنْشَاءِ المتدرِّجِ تَنَامِياً، بَسَاتِينَ للنَّاسِ، ذَوَاتِ أَشْجَارٍ مَعْرُوشاتٍ مُمْتَدَاتٍ عَلَىٰ الْعُرُشِ الَّتِي صُنِعَتْ لَهَا بِإِلْهَامِ اللهِ، وَغيْرَ مَعْرُوشَاتٍ لِأَنَّ سُوقَها قَادِرَةٌ عَلَىٰ رَفْعِ فُرُوعِها وَأَغْصَانِها المُمْتَدَّةِ في جَوِّ السَّماءِ، أَو لِأَنَّهَا تَمْتَدُّ فُرُوعها علىٰ الأَرْضِ كَالفصيلة القرعية.

• ﴿... وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ

مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾».

سبَقَ في الآية (٩٩) من هـٰذه السُّورَةِ بَيانٌ يُشْبِهُ مَا جَاءَ في هـٰذِه الآية، إلَّا أَنَّ الآية (٩٩) جاءَتْ للتَّنبِيهِ عَلَىٰ عَظِيم قُدْرَةِ اللهِ، وإتْقَانِ صُنْعِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ خَلَقَه، وَلِبَيَانِ أَنَّهُ هُو وَحْدَهُ الَّذِي لَا رَبَّ في الْوُجُودِ غَيْرُهُ، فَلَا إِلَهَ فِي الْوُجُودِ بِحَقٍّ إِلَّا هُو.

أمَّا مَا جاءَ فِي هـٰذِه الآيَة (١٤١) فَقَدْ جَاء للتَّنْبِيهِ على مِنَّةِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، فيما خَلَقَ لَهُمْ، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ مَائِدَةِ كَوْنِهِ فِيمَا أَنْشَأَ لَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ، لِيأْكُلُوا مِنْ ثَمَرَاتِ أَشْجَارِهَا وَزُرُوعِها، وأَمَرَهُمْ بِأَنْ يُؤْتُوا حَقَّ مَا أَخْرَجَ لَهُمْ يَوْمَ حَصادِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الإِسْرَافِ وَأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ ـ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِين.

• ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾: سَبَقَ الْحَدِيث عَنِ النَّخْلِ في تَدبُّرِ الآيَة (٩٩) من هـٰذِهِ السُّورةِ.

• ﴿وَٱلزَّرۡعَ﴾: هُوَ كُلُّ مَا يُزْرَعُ مِنَ الْحَبِّ ويُنْبِتُ خَضِراً وَحَبّاً، وقَدْ غَلَبَ اسم «الزَّرْع» على الْبُرِّ والشَّعِير، وجَمْعُهُ «الزُّرُوع» والمرَادُ هُنَا نَبَاتُ كُلِّ شيء، فَالنَّبَاتَاتُ كُلُّها فيما نَعْلَمُ ذَوَاتُ حَبّ يُزْرَع.

• ﴿مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾: أي: حَالَةَ كَون كُلٍّ مِنْهُمَا مُخْتَلِفاً مَا يُؤْكَلُ مِنْهُ شَكلاً ولَوْناً وطَعْماً وَخصَائص.

• ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾: سبَقَ الحديث عنهما في تَدبُّر الآية (٩٩) من السورة.

• ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾: أي: مُتقَارِبَ الصِّفاتِ دُونَ تَطابق، وغَيْرَ مُتَقَارِبِ الصِّفَات، فلَا يَلْتَبِسُ عَلَىٰ الناظر والمجرِّبِ الافْتِرَاقُ في الصِّفَات، ولَوْ كان من نَوْعٍ واحد.

يُقَال لغة: «تَشَابَهَ الشّيْئَانِ فَهُما مُتَشابِهَان» أي: أشْبَهَ كُلٌّ مِنْهُما الآخَرَ حَتَّىٰ الْتَبسَا عَلَىٰ مُدْرِكهما.

وبقيّة الْبَيانِ التَّدبُّرِيِّ يَجِدُهُ القارئ في تَدَبُّرِ الآية (٩٩) من السورة.

• ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾: دَعْوَةٌ تَكْرِيمِيَّةٌ مِنَ اللهِ الْجَوَادِ المنَّانِ، إلى الأَكْلِ مِنْ مَائِدَتِهِ الَّتِي نَشَرَهَا وَنَثَرَهَا في الْبَسَاتِين، أشجارِهَا وَزُرُوعها.

• ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾: أي: واعْلَمُوا أَنَّ عَلَيْكُمْ فِيمَا آتاكُمْ مِنَ الأَشْجَارِ والزُّرُوعِ الَّتِي أَنْشَأَهَا لَكُمْ، حَقّاً للْمَسَاكِينِ والفقراء وذَوِي الحَاجاتِ، ولِلْمُجْتَمِعِ الإسْلَامي وَلِنُصْرَةِ الإسلام والمسلمين، فَآتُوا هٰذا الْحَقَّ يَوْمَ حَصَادِ ذَلِكَ الَّذِي أَنْشَأَهُ لَكُمْ.

الْحَصَاد: بفتح الحاء وكَسْرِهَا، قَطعُ الزَّرْعِ والنباتِ بالمنجل، أو بأي آلَةٍ صَالِحَةٍ لِقَطْعِ الزُّرُوعِ.

• ﴿... وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾:

الإسْراف: تجاوز حَدِّ الحقِّ، أو الْحِكْمَةِ، أو الْعَقْلِ الراجح، وهو يكون في الأموال، وفِي الأعمال، مِنْهَا الأكْلُ والشُّرْبُ، والْقَوْلُ، والْقَتْلُ، وغَيْرُ ذلك.

أي: ولَا تُسْرِفُوا فيما أنْشَأَ لَكُمْ ربُّكُمْ من أشْجَارٍ وزُرُوعٍ وثِمَارٍ، بالأَكْلِ، أو الإنْفَاقِ أوِ الإتْلَافِ أوْ وَضْعِهِ فيما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ، فَالْإِسْرَافُ لَا يُحِبُّهُ اللهُ، فَهُو لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفين. ومَا لَا يُحِبُّهُ اللهُ لَا خَيْرَ فيه، وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللهُ يُبْعِدُهُ عن مَوَاطِنِ الْقُرْبِ مِنْه، ومَوَاضِعِ تَنَزُّلَاتِ عِنَايَاتِهِ بِعِبَادِهِ المحْبُوبِينَ لَدَيْه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَانَ بَعْضِ نِعَمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ مع ما يَتَعَلَّقُ بها مِنْ أَحْكَامٍ شَرْعِيَّة، ويَعْطِفُ على ما سَبَقَ بيانُهُ مِنْها:

• ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:

• ﴿حَمُولَةً﴾: الْحمُولَةُ: مَا أَطاقَ الْعَمَلَ والْحَمْلِ، كَالإبِلِ والْبَقَر.

• ﴿وَفَرْشًا﴾: **الْفَرْشُ**: مِنَ الأَنْعَامِ الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ الْحَمْلَ والْعَمَلَ، كَالضَّأْنِ والمَعْزِ، وصِغارِ الإبلِ والْبَقَرِ. ويُطْلَقُ الْفَرْشُ عَلَىٰ مَا يُتَّخذُ مِن الْأَنْعامِ مِنَ فَرْشٍ، كجُلُودِها، ومَا يُنْسَجُ مِنْ أَصْوافِها، وأَشْعارِها، وأَوْبَارِها.

في هٰذِهِ الآيات يمْتَنُّ الله على النَّاس بِالْأَنْعَامِ الَّتِي خَلَقَهَا لَهُمْ، فَمِنْهَا مَا يَكْدَحُ لَهُمْ بالْعَمَلِ كالْحَرْثِ والْجَرِّ، وبالْحَمْلِ رُكُوباً عَلَيْها، وَتَحْمِيلاً لِأَمْوَالِهِمُ الَّتِي يَنْقُلُونَهَا عَلَىٰ ظُهُورِها.

وَيَدْعُو اللهُ عَزَّ وجَلَّ النَّاسَ لِأَنْ يَأْكُلُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ مِنْ لُحُومِها ومِنْ شُحُومِها.

ويَنْهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ، فَيُحَرِّمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ الله، كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ، الَّذِينَ حَرَّمُوا مِنَ الأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ مَا لَمْ يُنَزِّلِ اللهُ بِهِ تَحْرِيماً، مُتَّبِعِينَ في ذَلِكَ خُطُوات الشيطان، وَمِنْهُ مَا سَبَقَ بَيانُهُ فِي الدَّرْسِ السَّابِقِ من دُرُوسِ السُّورَة.

إنَّ الشَّيْطَانَ لَهُ خُطُواتٌ فِي الإِضْلَالِ والإِغْوَاءِ، وهو يَنْقُلُ بِهَا فَرِيسَتَهُ دَرَكَةً فَدَرَكَةً، حَتَّىٰ يُوصِلَهُ إن اسْتَطَاعَ إِلَىٰ أَسْفَلِ سَافِلِينَ، ويَجْعَلَهُ مِنْ مُسْتَحِقِّي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

وَلَا يَسْتَطِيعُ الشَّيْطَانُ قَذْفَ فَرِيسَتِهِ دُفْعَةً واحِدَةً إلى أسْفَلِ سافِلِين، بَيْنُمَا هُو في دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجاتٍ مَرْتَبةِ المتقين.

ويُبَيِّنُ اللهُ فِيها للنَّاسِ أنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ لَهُمْ وَاضِحُ الْعَدَاوَةِ، من خِلَالِ دَعْوَتِهِ إلَىٰ الْخُرُوجِ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، الَّذِي تَدْعُوهُمْ إلى سُلُوكِهِ فِطَرُهُمْ، وَشَرَائِعُ رَبِّهِمْ لَهُمْ، إذَا كَانُوا سَالِكِينَ فِيهِ، أَوْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ سُلُوكِهِ والاقْتِرَابِ مِنْهُ، إذا لَمْ يَكُونُوا قَدْ سَلَكُوهُ بَعْدُ.

وَعَلَىٰ سَبِيلِ التَّفْصِيلِ فِي عَرْضِ اللهَ عزَّ وجَلَّ مِنَّتَهُ عَلَىٰ النَّاسِ، بِالْأَنْعَامِ، ذَكَرَ أَنَّهَا ثَمَانِيَةُ أَزْوَاجٍ.

الزَّوْجُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ واحِدٍ مِنِ اثْنَيْنِ مُقْتَرِنَيْنِ بِعَلَاقَةٍ مُشْتَرَكَةٍ بَيْنَهُما، كَالذَّكر والأنْثَىٰ مِنَ النَّوْعِ أو الصِّنْفِ الْوَاحِد.

فالْأَزْوَاجِ الثَّمانِيَةُ مِنَ الأنْعام هِيَ مَا يَلِي:

(١) ذكَرٌ وأُنْثَىٰ مِنَ الضَّأْن.

(٢) ذكَرٌ وأُنْثَىٰ مِنَ المَعْز.

(٣) ذكَرٌ وَأُنْثَىٰ مِنَ الإبِل.

(٤) ذكَرٌ وَأُنْثَىٰ مِنَ الْبَقر.

وقد فَصَلَ اللهُ لَدَىٰ ذِكْرِ هـٰذِهِ الْأَزْوَاجِ بِفَاصِلٍ أَمَرَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِأَهْلِ الضَّأْنِ والمَعْزِ:

﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؟! وَأَنْ يَقُولَ نَظِيرَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الإبِلِ وَالْبَقرِ.

والاسْتِفْهَامُ هُنَا اسْتِفْهَامُ تَلْوِيمٍ وَتَعْجِيبٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، إذْ لَا دَلِيلَ عِنْدَهُمْ يُثْبِتُ أَنَّ اللهَ الرَّبَّ الْخَالِقَ حَرَّمَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ، بِدَلِيلٍ عَقْلِيٍّ، أَوْ بِدَلِيلٍ شَرْعِيٍّ مُنَزَّلٍ مِنْ عِنْدِ الله، وَبَلَّغَهُ رَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ الْمُؤَيَّدِينَ مِنْهُ بِالْخَوارِقِ الْمُعْجِزَة، والآيَاتِ الْبَيِّنَة.

أي: أَأَلذَّكَرَيْنِ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعْزِ، أَوْ مِنَ الإِبِلِ والْبَقَرِ، أَم الْأُنْثَيَيْنِ مِنْ هَـٰذِهِ الأَصْنَافِ الْأَرْبَعَةِ، حَرَّمَ اللهُ الْخَالِقُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُوا مِنْ لُحُومِها أَوْ شُحُومِهَا. أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ؟!

فَمَا لَكُمْ تَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ بالتَّحْلِيلِ والتَّحْرِيمِ اتِّبَاعاً لِخُطواتِ الشَّيْطَانِ، وهِيَ أَحْكَامٌ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ؟!.

إِنَّكُمْ لَا تَمْلِكُونَ دَلِيلاً عَقْلِيّاً وَلَا دَلِيلاً شَرْعِيّاً يُثْبِتُ شَيْئاً مِنْ أَحْكَامِكُمْ الْجَاهِلِيَّة. نَبِّئُونِي نَبَأً مُؤَيّداً بِعِلْمٍ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين بِأَنَّ اللهَ حَرَّمَ شَيْئاً مِنْ ذَلِك.

وَتَتَبُّعاً لِنَفْيِ كُلِّ الاحْتِمَالَاتِ، ذَكَرَ اللهُ احْتِمَالاً وَاضِحَ السُّقُوطِ، وَهُوَ احْتِمَال أَنَّهُمْ كَانُوا شُهَدَاءَ حَاضِرِينَ وَصِيَّةَ اللهِ لِعِبَادِهِ بِشَأْنِ الْأَنْعَامِ الَّتِي خَلَقَهَا لَهُم، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

• ﴿... أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَاۚ ... ﴿١٤٤﴾﴾:

أي: بَلْ. أَكُنْتُمْ شُهَدَاءَ حَاضِرِينَ سَامِعِينَ، تَنْقُلُونَ عَنِ اللهِ مُبَاشَرَةً، حِينَ وَصَّىٰ اللهُ بِالْأَحْكَامِ الَّتِي زَعَمْتُمْ أَنَّهَا أَحْكَامٌ رَبَّانِيَّةٌ تَلْتَزِمُونَ بِهَا.

إِنَّكُمْ لا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَدَّعُوا هـٰذا، وإِلَّا افْتَضَحْتُمْ بِأَنَّكُمْ كَذَّابُونَ تَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ الكَذِبَ بِوَقَاحَةٍ وَشَنَاعَةٍ، وَلَا يُصَدِّقُكُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ أَتْبَاعِكُمْ.

• ﴿... فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ ... ﴿١٤٤﴾﴾؟

استِفْهام يُرَادُ بِهِ النَّفي، أي: لا يُوجَدُ أَشدُّ ظُلْماً مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِباً، لِيُضِلَّ النَّاسَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ يُضلُّونَ بالباطِلِ، مُزَيَّناً بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ.

قَدْ يُوجَدُ مَنْ يُسَاوِيهِ فِي الظُّلْم، وَلَكِنْ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِنْهُ إِضْلَالاً وَكُفْراً.

• ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾: أي: إنَّ اللهَ لَا يُجْبِرُ الظَّالِمِينَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونُوا مَهْدِيين، وَإِنَّ اللهَ لَا يَحْكُمُ للظَّالِمِينَ بِأَنَّهُمْ مَهْدِيُّون، بَلْ يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ ظالِمُون، وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ يَوْمَ الدِّين بِحَسَبِ دَرَكَةِ ظُلْمِهِمْ، فِي دَرَكَات جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ المُجْرِمِين.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَأْمُرُ رَسُولَهُ بِأَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ المعنِيِّينَ بالمُعالَجَةِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَةِ، وَهُوَ قَوْلٌ عَامٌّ لِكُلِّ النَّاس:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: لَا أَجِدُ فِي كُلِّ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً مِنَ مَطَاعِمِ اللُّحُومِ والشُّحُوم الحيوانِيَّةِ، فِي الْإِسْلَام، وَفِي الرِّسالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ السَّابِقَةِ لِهٰذِهِ الرِّسَالَةِ الَّتِي أَنَا مُكَلَّفٌ أَنْ أُبَلِّغَها لِلنَّاسِ، حَتَّىٰ إِنْزَالِ سورة (الأَنْعَام) إِلَّا مَا يَلِي:

(١) المِيْتَةُ الَّتِي تَمُوتُ حَتْفَ أَنْفِهَا أو بِحَدَثٍ يَحْدُثُ لَهَا غَيْرِ الذَّكَاةِ، بِالذَّبْح أَوْ بِالنَّحْرِ الْمَعْرُوفَيْنِ الَّذينَ يَخْرُجُ بِهِما دَمُ الْحَيَوَانِ مِنْ أَوْرِدَةِ رَقَبَتِهِ.

(٢) الدَّمُ الْمَسْفُوحُ السَّائِلُ، وَهُوَ غَيْرُ الْمُتَبَقِّي فِي لَحْمِ الْحَيَوَانِ بَعْدَ ذَبْحِهِ أَوْ نَحْرِهِ، وَغَيْر الْمُتَمَاسِكِ فِي الكَبِدِ والطِّحَال.

(٤) لَحْمُ الخَنْزِيرِ الشَّامِلُ لِشَحْمِهِ، فَهُوَ رِجْسٌ نَجِسٌ، وَلَا تُطَهِّرُهُ ذَكَاةٌ وَلَا وَسَائِلُ أُخْرَىٰ.

(٥) كُلُّ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ، وَهُوَ كُلُّ مَا أَعْلَنَ ذَابِحُهُ أو ناحِرُهُ أو صَائِدُهُ أَنَّهُ يُقَدِّمُهُ قُرْبَاناً لِغَيْرِ اللهِ.

أَصْلُ مَعْنَىٰ إِهْلَالِ الذَّابِحِ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ ذَاكِراً اسْمَ مَنْ يُقَدِّمُ ذَبِيحَتَهُ قُرْبَاناً لَه.

لِأَنَّ الذَّبْحَ لاسْمِ غَيرِ اسْمِ اللهِ فِسْقٌ مِنْ دَرَكَةِ الشِّرْكِ بِاللهِ، والذَّبِيحَةُ المَذْبُوحَةُ لِغَيْرِ اسْمِ اللهِ حُكْمُهَا كَحُكْمِ المَيْتَةِ، لِأَنَّ اللهَ الرَّبَ هَوَ مَالِكُ كُلِّ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ، وَهُوَ الَّذِي لَهُ الْحَقُّ فِي إِبَاحَةِ الْأَكْلِ مِنْها، وَقَدْ حَرَّمَ أَنْ يُذْبَحَ أَوْ يُقْتَلَ شَيْءٌ مِنْهَا لِاسْمٍ غَيْرِ اسْمِهِ، وَحَرَّمَ أَنْ يُؤْكَلَ مِمَّا ذُبِحَ لِغَيْرِ اسْمِهِ.

وَأَتْبَعَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بَيَانَ هـٰذِهِ الَّتِي حَرَّمَ أَنْ يُؤْكَلَ مِنْهَا بِقَوْلِهِ:

• ﴿... فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾:

المضْطَرّ: ذُو الحاجَةِ البالِغَةِ الشِّدَّةِ، أَصْلُ الفعل: «اضْتُرَّ» قُلِبَتِ التاء طاءً، وفق القاعدة الْعَرَبية في قَلْب تَاء «افْتعل» المزيد بالتاء.

• ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾: أي: فمن اضطرّ إلى أَنْ يَأْكُلَ مِنْ هـٰذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدُّ مَا يَدْفَعُ ضَرُورَتَهُ إِلَّا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا.

• ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِهِ غَيْرَ بَاغٍ. **البَاغِي**: هُوَ المتجاوِزُ لِلْحدِّ المَأْذُون بِهِ شَرْعاً في سُلُوكِهِ الإِرَادِي.

• ﴿وَلَا عَادٍ﴾: أي: وحَالَةَ كَوْنِهِ غَيْرَ عَادٍ. **الْعَادِي**: الظَّالِمُ مُتَجَاوِزُ الْحَدِّ المَأْذُونِ شَرْعاً فِي سُلُوكِهِ الإِرَادي.

ونَظَراً إلى التَّقَارُبِ الشَّدِيدِ بَيْنَ مَعْنَى «الباغي» ومعْنَىٰ «الْعَادِي» فالَّذِي

أَرَاهُ **أَنَّ الْبَاغِي** يُرَادُ بِهِ الواحِدُ مِنَ الْبُغَاةِ، وهُمْ الخارِجُونَ عَلَىٰ السُّلْطَةِ الإِدَارِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ لِسَلْبِ الْحُكْمِ مِنْ أَهْلِهِ، أو للسَّطْوِ عَلَىٰ النَّاسِ وَسَلْبِ أَمْوَالِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ. **أَمَّا العادي** فَيُرادُ بِهِ الَّذِي يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الله حِينَ يضطرّ أَنْ يَأْكُلَ مِمَّا حَرَّمَ الله، فَيَأْكُلُ بِنَهَمٍ وَإِسْرَافٍ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْفَعُ بِهِ ضَرُورَتَه.

فالْبَاغِي الخَارِجُ عَلَىٰ السُّلْطَةِ الإِدَارِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَالْقَائِمُ بِأَعْمَالِ السَّطْوِ الحَرَامِ، لَا يُبَاحُ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ الضَّرُورَة مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ المَطَاعِمِ، لِأَنَّهُ عَاصٍ في خُرُوجِهِ الَّذِي أَفْضَىٰ بِهِ إِلَىٰ ضَرُورَتِهِ.

وَمَنْ يُبَاحُ لَهُ عِنْدَ الضَّرُورةِ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ المَطَاعِمِ الْمُحَرَّمَةِ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَسْتَزِيدَ مِنَ الْأَكْلِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْفَعُ الضَّرُورَةَ الَّتِي يُقَدِّرُهَا، وَهُوَ مُنْقَطِعٌ عَنِ الْمُبَاحَاتِ مِنَ المَآكِلِ مَحْرُومٌ مِنْهَا.

- ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾: جَاءَتْ هٰذِهِ العِبَارَةُ فِي آخِرِ الآيَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْمُضْطَرَّ قَدْ يَسْتَزِيدُ مِمَّا يَأْكُلُ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْفَعُ بِهِ ضَرُورَتَهُ، لِأَنَّهُ يَعْسُرَ عَلَيْهِ ضَبْطُ مِقْدَارِ مَا يَدْفَعُ بِهِ ضَرُورَتَهُ، أَو يَعْسُرُ عَلَيْهِ ضَبْطُ شَهْوَةِ نَفْسِهِ عِنْدَ الْحَدِّ الْمَأْذُونِ بِهِ شَرْعاً، فَإِنَّ الله يَغْفِرُ لَهُ، لِأَنَّهُ غَفُورٌ، كَثِير الْغُفْرَانِ وَعَظِيمه، وَهٰذا مِنْ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ، عَلَىٰ أَنَّ أَصْلَ حُكْمِ الإِبَاحَةِ عِنْدَ الضَّرُورَة أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وأَمَّا مَا خَصَّ اللهُ بِهِ الْيَهُودَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ زِيَادَةً عَلَىٰ الْمُحَرَّمَاتِ الْخَمْسَةِ الَّتِي سَبَقَ بِيَانُهَا، فَقَدْ كَانَ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ وَظُلْمِهِمْ مَعَ أَنَّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي لَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنْ يُحَرِّمَهَا فِي كُلِّ رِسَالَاتِهِ لِلنَّاسِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿هَادُواْ﴾: أي: صَارُوا يَهُوداً.

وَأَبَانَ اللهُ عزَّ وجَلَّ في سُورةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) أَنَّهَا طَيِّبَاتٌ كَانَتْ حَلَالاً في أَصْلِ الشَّرِيعَةِ إِلَّا أَنَّ اللهَ حَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ جَرَائِمِهِم الكَثِيرَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾.

فأبانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في آيةِ (الْأَنْعَامِ) أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَىٰ الْيَهُودِ خَاصَّةً بِسَبَبِ بغْيِهِمْ، الَّذي جَاءَ تَفْصِيلُهُ في نَصّ سورة (النساء) ما يلي:

(١) كُلَّ ذِي ظُفر، وَهُو العظم الَّذِي يكُونُ في مُنْتَهَىٰ أَصَابِعِ الإنسانِ والحيوان، وَهُوَ يَشْمَلُ المخالِب. **الْمِخْلَبُ**: ظُفْرُ كُلِّ سَبُعٍ مِنَ الماشي، والطَّائر.

(٢) شُحُومُ الْبَقَرِ والْغَنَم، إِلَّا الشُّحُومَ الَّتِي عَلَىٰ ظُهُورِهما، والشُّحُومَ الَّتِي تَكُونُ حَوْلَ الْحَوَايا، وهِيَ الأَمْعَاء، مُفْرَدُهَا «حَاوِيَاء»، وإِلَّا الشُّحُومَ الَّتِي اخْتَلَطَتْ بِعَظْمٍ، أي: اسْتَدَارَتْ والْتَفَّتْ أوِ الْتَصَقَتْ بِعَظْم. فهٰذِهِ مُسْتَثْنَاةٌ مِنْ حُكْمِ تَحْرِيمِ الشُّحُومِ عَلَيْهِم.

• ﴿.. ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾: أي: ذَلِكَ التَّحْرِيمُ المشَدَّدُ عَلَيْهِمْ جَزَيْنَاهُمْ بِهِ جَزَاءً عِقَابِيّاً بِسَببِ بَغْيِهِمْ، وَهُوَ تَجَاوُزُهُمُ الْحُدُودَ الَّتِي أَمَرْنَاهُمْ أَنْ لَا يَعْتَدُوها، فاعْتَدَوْا وَبَغَوْا.

وَجَاءَ تَفْصِيلٌ لِبَغْيِهِمْ هَـٰذَا في النَّصّ الَّذِي جَاءَ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) وفيه ما يلي:

(١) صَدُّهُمُ الكثير عن سَبِيلِ الله، وهو صراط دِينِهِ المستقيم عَقِيدَةً وعَملاً وخُلُقاً، ظاهراً وباطناً.

(٢) أَخْذُهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نَهَاهُمُ اللهُ عَنْه.

(٣) أَكْلُهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بالْبَاطِل.

(٤) كُفْرُ فَرِيقٍ مِنْهُم بِمَا شَرَعَ اللهُ لَهُمْ، وأَنْزَلَ عَلَىٰ رُسُلِهِمْ.

وَأخيراً يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بِقَوْلِهِ:

• ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾:

أي: فإنْ كَذَّبَكَ الْمَعْنِيُّونَ بالْمُعَالَجَةِ وَغَيْرُهُمْ فأطْمِعْهُمْ بِرَحْمَتِنَا الْوَاسِعَةِ، إذا تابُوا واسْتَغْفَرُوا وَآمَنُوا وَأَسْلَمُوا، وأَنْذِرْهُمْ بِبَأْسِنَا الشَّدِيدِ إذَا أصَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ لَكَ، وأَنْتَ رَسُولُ رَبِّهِمْ تُبَلِّغُهُمْ مَا أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيْكَ، وَأَمَرَكَ بِأَنْ تُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهُ.

• ﴿.. رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ..﴾: أي: رَبُّكُمُ الْخَالِقُ لَكُمْ، والَّذِي يُمِدُّكُمْ دَوَاماً بِعَطَاءاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، والْمُهَيْمِنُ عَلَيْكُمْ دَوَاماً بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الكَثِيرَةِ، ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ، تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ أَوَىٰ إِلَىٰ ظِلِّها، وَتُغِيثُ كُلَّ مُؤْمِنٍ اسْتَغَاثَ بِهَا، واسْتَمْطَرَ مِنْهَا عَطَاءَاتِ الرَّحْمَة.

﴿.. وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾:

الْبَأْسُ: الْعَذَابُ الشَّدِيد.

أي: والْمُجْرِمُونَ يُعَذِّبُهُمُ رَبُّكُمْ عَذَاباً شَدِيداً، وَإِذَا قَضَىٰ تَعْذِيبَهُمْ فإِنَّ قَضَاءَهُ هٰذا لَا يَرُدُّهُ عَنْهُمْ رَادٌّ، إِذْ لا يُوجَدُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ مَنْ يَرُدُّ عَذَابَ الرَّبِّ الَّذِي يَقْضِيهِ بِعَدْلِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرس الثلاثينَ من دُرُوسِ سورة (الأنعام).

والْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوْفِيقهِ وفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

(٣٥)

التدبر التحليلي للدرس الحادي والثلاثين من دُرُوس سورة (الأنعام) الآيات من (١٤٨ ـ ١٥٣)

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

القراءات:

(١٤٨) • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: **[بَاسَنَا]** بإبْدَالِ الهمزة ألِفاً. وكذلِكَ قرأها حَمْزَةُ في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[بَأْسَنَا]** بالهمزة على الأصْلِ دُون إبدال.

(١٥٢) • قرأ حَفْص، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[تَذَكَّرُونَ]** بتخفيف الذَّال.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**تَذَّكَّرُونَ**] بِتَشْدِيد الذال، أَصْلُها تَتَذَكَّرُون.

والقراءَتَان متكافئتَان.

(١٥٣) • قرأ حَمْزة، والكِسَائي، وخلف: [**وَإِنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً**] بِكَسْر هَمْزَةِ «إِنَّ» وإِسْكان ياء المتكلم.

ولِخَلَفٍ عَنْ حمزة إِشْمَامُ الصَّادِ صَوْت الزاي.

وقرأها ابن عامر: [**وَأَنْ هَـٰذَا صِرَاطِيَ مُسْتَقِيماً**] بأنْ المخَفَّفَة من الثقيلة، وبفتح ياء المتكلّم في الوصل.

وقَرأَهَا رَوْح: [**وَأَنْ هَـٰذَا صِرَاطِيْ مُسْتَقِيماً**] بأنْ المخففة من الثقيلة، وبإسْكَان ياء المتكلّم.

وقرأها قُنْبُل مِثْل قراءة رَوْح ولكِنْ بإبدال صاد «صِرَاطِي» سِيناً.

وقرأها باقي الْقُرَّاء العشرة: [**وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً**] بفَتْحِ همزة «أَنَّ» وبإسْكَانِ ياء المتكلم.

وكُلُّها وُجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ مُتَكَافِئَة.

(١٥٣) • قرأ الْبَزِّي: [**فَتَّفَرَّقَ**] بِتَشْدِيد التاء، أَصْلُها «فَتَتَفَرَّق».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**فَتَفَرَّقَ**] بِحَذْفِ إِحْدَىٰ التَّاءَيْن.

تمهيد:

آياتُ هَـٰذا الدَّرْسِ من فُرُوع السَّاقِ الثَّاني من سَاقَي شَجَرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة.

وفيها تَعْلِيمٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ فَلِكُلّ داعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ فِقَرَاتٍ جِدالِيَّة، يُجَادِلُ بِهَا المُشْرِكينَ حَوْلَ بَعْضِ القضايا الَّتِي يُثِيرُونها،

وتَعْلِيمُ فِقَرَاتٍ دَعَوِيَّةٍ يُبيِّن فيها طائِفَةً مِنْ أَحْكام الله وشرائِعه، الَّتِي سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَها عَلَىٰ إِبْراهِيمَ وَإِسْمَاعيل عَلَيْهِمَا السَّلَام، وهي مِنَ الأحْكام الثابتة في الرِّسَالَة المحمَّدية.

وفيها خِتَامٌ بِبَيانِ أَنَّ هٰذا الدِّين الَّذِي يُبَلِّغُهُ الرَّسُول عَنْ رَبِّ العالَمِين، هُو صِرَاطُ اللهِ المستقيم، وأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتّبِعُوه، وَأَنْ لا يَتَّبِعُوا السُّبُلَ المُتَعَدِّدَةِ الأُخْرَىٰ، الَّتي تَجْعَلُهُمْ يَتَفَرَّقُون عَنْ سَبِيلِه.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِلْمُؤمنين المُسْلِمين، بِشَأْنِ مَا سَيَقُولُهُ المُشْرِكُونَ مُسْتَقْبلاً، مُتَعَلِّلِينَ بالرَّأْيِ الْجَبْرِيّ الَّذِي يَزْعُمُ فِيهِ الْجَبْرِيُّونَ أَنَّهُ لَا اخْتِيَارَ للنَّاسِ، بَلْ هُمْ مَجْبُورُونَ مِنْ قِبَلِ الرَّبّ جل جَلَالُهُ عَلَىٰ اخْتِيَارَاتِهِمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ إِرَادَاتٌ حُرَّةٌ، فالْمُشْرِكُونَ قَدْ أَشْرَكُوا بالْجَبْرِ الرَّبَّانِيِّ فَكَانُوا بِهِ مُشْرِكِين، وَعلى هٰذا فَهُمْ لَيْسُوا مَسْؤُولِينَ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ إِرَادَاتِهِم:

● ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾:

أَخْبَرَ اللهُ رَسُولَهُ والمؤمِنين، بأَنَّ المُشْرِكِينَ سَيَقُولُونَ مُسْتَقْبلاً أقْوالاً يُسَوِّغُونَ بِهَا شِرْكَهُمْ بالرَّأْيِ الْجَبْرِيّ، قَائِلِينَ:

﴿.. لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍۚ﴾:

أي: إِنّما أَشْرَكْنَا نَحْنُ وَآبَاؤنَا مِنْ قَبْلِنَا، وَحَرَّمْنَا مِنَ المطاعِم الْحَيَوَانِيَّةِ مَا حَرَّمْنَا بالْجَبْرِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي لَمْ تَكُنْ لَنا فِيهِ إرادَاتٌ حُرَّاتٌ مَسْؤُولَاتٌ عَن اختِيارَاتِها.

وقبل الإرْشَادِ إلى مُجادَلَتِهِمْ أَبَانَ اللهُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ في ادِّعَاءِ الْجَبْر، أي: بَلْ لَهُمْ إرادَاتٌ حُرَّاتٌ فِي اخْتِيارَاتِها، وهُمْ مَسْؤُولُون عَمَّا يَخْتَارُونَ في حَيَواتِهِم مَسْؤولِيَّةً تَامَّة. وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَىٰ إِطْلَاقِ مِثْلِ هـٰذا الكَذِب المُشْرِكُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ.

إنَّ مَقُولَتَهُمُ الْكَاذِبَةَ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ سَتْرِ الضّدِّ الثَّالِثِ الْوَسَطِ بَيْنَ ضِدَّيْنِ مُتَبَاعِدَين، سَتْراً فِيهِ مُغَالَطَةٌ يَكْتَشِفُهَا الْمُنَاظِرُ الْجَدَلِيُّ الْحَكِيم.

إنَّهُمْ جعَلُوا الْقَضِيَّةَ مُتَرَدِّدَةً بَيْنَ احْتِمَالَيْن:

الاحْتِمَالُ الْأَوَّل: أَنْ يَجْعَلَ اللهُ الإنسانَ مَجْبُوراً عَلَىٰ الكُفْرِ ومِنْهُ الشِّرْك، وَعَلَىٰ لَوَازِمِ الكُفْرِ في السُّلُوك.

الاحْتِمَالُ الثَّاني: أَنْ يَجْعَلَ اللهُ الإِنْسَانَ مَجْبُوراً على الإِيمانِ والإِسْلَام، ولَوَازِمِهِمَا في السُّلُوك.

فَقَالُوا: لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا أُشْرَكَ آباؤُنَا مِنْ قَبْلِنَا، وَلَوْ شَاءَ مَا حَرَّمْنَا مَا حَرَّمْنَاهُ مِنَ الْأَنْعَام.

وبما أَنَّ الْقَضِيَّةَ تَتَرَدَّدُ بَيْنَ احْتِمَالَيْنِ، فَيَلْزَمُ مِنْ هـٰذا عَقْلاً أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي شَاءَ أَنْ نَكُونَ مُشْرِكين، وأَنْ نُحَرِّمَ مَا حَرَّمْنَا مِنَ الْأَنْعَام، فَجَعَلَنَا بالْجبرِ كَذَلِكَ، فَإراداتُنا مَجْبُورَةٌ علىٰ أَنْ نَكُونَ عَلَىٰ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ عَقِيدَةً وَسُلُوكاً، وهَـٰذا يَقْتَضِي عَجزَنَا عَنْ تَغْيِيرِ واقِعِنَا الَّذِي نَحنَ عَلَيْهِ، فَلَا حِسَابَ عَلَيْنَا وَلَا جَزَاءَ فيما هو لَيْسَ مِن اخْتِيَارَاتِنا.

حُجّةٌ زُخْرُفِيَّةٌ باطِلَةٌ تَعْتَمِدُ عَلَىٰ المغالطة.

إنَّهم سَتَرُوا **الاحْتِمَالَ الثَّالث**: وَهو أَنْ يَجْعَلَ اللهُ الإِنْسَانَ ذَا إرادَةٍ حُرَّةٍ، يُخْتَارُ بِهَا مَا يَشَاءُ لِنَفْسِهِ مِنْ إيمانٍ أَوْ كُفر، وعَمَلٍ صَالِحٍ وَعَمَلٍ سَيِّئٍ، وَطَاعَةٍ لِلَّهِ أَوْ مَعْصِيَةٍ له، واللهُ يَخْلُقُ لَهُ مَا اخْتَارَ هُوَ لِنَفْسِهِ بِإرادَتِهِ الحرَّةِ غَيْرِ المجْبُورَة.

وهـٰذا الاحتِمَالُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللهُ النَّاسَ عَلى وَفْقِهِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ الكَثِيرة، فَلا جَبْرَ عَلَىٰ إيمانٍ أَوْ كُفْرٍ، ولا علىٰ طَاعَةٍ أو مَعْصِيَة، ولَا عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ أَوْ عَمَلٍ سَيِّئٍ.

فَقَوْلُهُمْ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ مُقَدِّمَةٌ صَحِيحَةٌ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، وهُو أَنَّ اللهَ قَدْ شَاءَ أَنْ يَكُونُوا مُشْرِكِينَ بِالْجَبْرِ، وَقَدْ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ هَـٰذا الْمُرَادَ كَذِبٌ كَذَبُوهُ، كَمَا كَذَبَ الكُفَّارُ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَهُ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ مَجْبُورُونَ عَلَىٰ الكُفْرِ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُه.

• ﴿.. كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ..﴾: أي: كَذَلِكَ الْكَذِبِ الّذِي سَيَقُولُهُ الْمُشْرِكُونَ الْمُعَالَجُونَ بِكَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ السُّورَةِ، كَذَّبَ الكُفَّارُ مِنَ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، واسْتَمَرُّوا في حَيَواتِهِمْ مُكَذِّبين حَتَّىٰ مَاتُوا وَذَاقَتْ نُفُوسُهُمْ عَذَابَنَا الشَّدِيدَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وَبَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَسَوْفَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ بَعْدَ الْبَعْثِ الْعَذَابَ الْأَشَدَّ الْخَالِدَ في نَارِ جَهَنَّمَ، أَخْذاً مِنْ دَلَالَاتِ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ كَثِيرة.

• ﴿.. قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ..﴾: أي: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ وَيَا حَامِلَ رِسَالَةِ دَعْوَتِهِ مِنْ أُمَّتِهِ لِهٰؤُلَاءِ الْمُغَالِطِينَ الْكَاذِبِينَ عَلَىٰ رَبّهِم: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ ذِي بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ، أَوْ عِلْمٍ ذي دَلِيلٍ نَصِّيٍّ مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، حَتَّىٰ يَكُونَ مِفْتَاحَ جِدَالٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ؟.

إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ دَلِيلاً نَصِّيّاً مِنْ كِتَابٍ رَبَّانِيٍّ صَحِيحٍ، فَلَيْسَ لَدَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يُقَدِّمُوا مُغَالَطَتَهُمُ الَّتِي سَبَقَ بَيانُها، وهـٰذِهِ الْمُغَالَطَةُ تَسْقُطُ أَرْكَانُهَا حِينَمَا يُكْشَفُ لَهُمُ الاحْتِمَالُ الثَّالِثُ الَّذِي سَتَرُوهُ بِالْمُغَالَطَةِ، وَتَدْمَغُهُمُ الْحُجَّةُ بِأَنَّ اللهَ قدْ خَلَقَهُمْ ذَوِي إِرَادَاتٍ لَهَا حُرِّيَّةٌ تَامَّةٌ يَخْتَارُونَ بها مَا يَشَاءُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَهُمْ لَيْسُوا مَجْبُورِينَ، وادِّعَاؤُهُمُ الْجَبْرَ كَذِبٌ عَلَىٰ الله.

• ﴿.. إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾:

أي: وَقُلْ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ تُقِيمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ الْقَاطِعَةَ لِجَدَلِهِم الْقَائِمِ على الْمُغَالَطِةِ، أَنْتُمْ بَيْنَ حَالَتَيْن:

الْأُولىٰ: اتِّبَاعُ الظَّنِّ الضَّعِيفِ الَّذِي لَا يُرَجِّحُ قَضِيَّةً فِكْرِيَّةً، فَهُوَ سَاقِطٌ لَا يَصِحُّ عَقْلاً الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، دَلَّ عَلَيْها: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: مَا تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ التَّوَهُّمِيَّ الضَّعِيفَ السَّاقِط.

الثانِية: اخْتِلَاقُ الكَذِبِ، دَلَّ عَلَيْها: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ. **الْخَرْصُ**: الكَذِبُ، في كُلِّ مَا جَاءَ في القرآنِ مِنْه.

- ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾:

أي: فإذا كَشَفْتَ مُغَالَطَتَهُمْ، وَأَبَنْتَ سُقُوط حُجَّتِهِمْ، وَدَمَغْتَهُمْ بِالْبُرْهَانِ السَّاطِعِ، فَقُلْ لَهُمْ: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَة، أي: الْبَالِغَةُ غَايَةَ إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِل.

أَمَّا قَوْلُكُمْ: لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا أَشْرَكَ مِنْ قَبْلِنَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَنْعَامِ والْحَرْثِ. تَعْنُونَ أَنَّ اللهَ هُو الَّذِي جَعَلَكُمْ مَجْبُورِين عَلَىٰ هَـٰذا، وَقَدْ أَبَنَّا لَكُمْ أَنَّكُم كَاذِبُونَ في هـٰذا الادّعاء، فإِنَّنا نَقُولُ لَكُمْ بِبَيَانٍ مِنْ رَبِّكُمْ:

لَوْ شَاءَ رَبُّكُمْ أَنْ يَجْعَلَكُمْ مَجْبُورِين، لَسَلَبَكُمْ إِرَادَاتِكُم الْحُرَّة، ولَمَا وَضَعَكُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَان، وَعِنْدَئِذٍ لَجعلَكُمْ بِالْفِطْرَةِ مُؤْمِنِين، مُسْلِمِينَ مَهْدِيِّينَ بِالْجَبْرِ أَجْمَعِينَ، وَلَرَفَعَ عَنْكُمُ المسؤولِيَّةَ والجزاء، وَلَجَعَلَكُمْ كَالْمَلَائِكَةِ، لَا تَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَكُمْ، بَلْ تَفْعَلُونَ مَا تُؤْمَرُونَ به.

فاللهُ رَبُّكُمْ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفْرَ والضَّلَال، فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ لَا يَخْلُقُ مَخْلُوقَاتٍ مَفْطُورَةً مَجْبُورَةً عَلَىٰ الكُفْرِ بِهِ، والضَّلَالِ عَنْ صِرَاطِهِ المستقيم.

أَمَّا الشَّياطِينُ مِنَ الْجِنِّ والإِنْسِ، فَهُمْ ذَوُو إرَاداتٍ حُرَّةٍ، وَمَوْضُوعُونَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، وَسَوْفَ يُبْعَثُونَ يَوْم الْقِيَامَةِ مَعَ سَائِرِ الْمَبْعُوثين، وَسَوف يُلاقُونَ رَبَّهُمْ في مَحْكَمَتِهِ لِلْحِسَاب، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، ثُمَّ يَكُونُ جَزَاؤُهُمْ عَلَىٰ وَفْقِ حُكْمِ اللهِ فيهم، فَيَنَالُ كُلُّ وَاحِدٍ عِقَابَهُ بالْعَدْلِ عَلَىٰ مِقْدَارِ إغْوَائِهِ وَإضْلَالِهِ.

وإبلِيسُ إمَامُ الشَّيَاطِين كَانَ مِنَ الْجِنِّ الْمَوْضُوعِين فِي الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَق عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ باخْتِيَارِه الْحُرّ، كَكُفَّارِ الإنْسِ.

والَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّ الشَّيَاطِينَ مَفْطُورُونَ مَجْبُورُونَ عَلَىٰ مَا هُمْ فِيهِ وَعَلَيْهِ واهِمُونَ، لَمْ يُتَابِعُوا دَلالاتِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ بِتَأَمُّلٍ وَإِمْعَانٍ، وهُمْ مُتَأَثِّرُونَ بِالْعَقِيدَةِ الْجَبْرِيَّة الَّتِي يَعْتَقِدُهَا الْجَبْرِيّون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً خِطَابَهُ لِرَسُولِهِ ويلحَقُ بِهِ كُلُّ داعٍ إلى اللهِ من أمَّته، بِشَأْنِ مُجَادَلةِ المَعْنِيِّينَ بالمُعَالَجَةِ مِنَ الْمُشْرِكِين:

• ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾:

• ﴿هَلُمَّ﴾: اسْمُ فعل أَمْرٍ بِمَعْنَىٰ أَحْضُرْ أو أَحْضِرْ، وهُو في لُغَةِ الحجاز يكُونُ للواحِدِ والاثْنَيْنِ والجماعَةِ.

• ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾: أي: أَحْضِرُوا شُهَدَاءَكم.

• ﴿ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾: أي: الَّذِينَ يَشْهَدُون لَكُمْ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هٰذَا الَّذِي حَرَّمْتُمُوهُ مِنَ الأَنْعَامِ والحَرْثِ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ في الآيتين: «١٣٨» و«١٣٩».

إنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُحْضِرُوا شُهَدَاءَ يَشْهَدُونَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بالكُتُبِ الرَّبَّانِيَّةِ السَّابِقَة، إذْ لَيْسَ فيها أحْكَامُ التَّحْرِيمِ الَّتِي افْتَرَوْها عَلَىٰ الله.

فإنْ أحْضَرُوا مِنَ الْيَهُودِ أَوِ النَّصَارَىٰ شُهَدَاءَ زُورٍ، ورأيْتَ أَنَّهُمْ مُسْتَعِدُّونَ أنْ يَكْذِبُوا انْتِصَاراً لِلْمُشْرِكِينَ ضِدَّكَ وضِدَّ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ، وَكَيْداً للدِّينِ الَّذِي بَعَثْنَاكَ به.

- ﴿.. فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ ..﴾: أي: فإنْ شَهِدُوا كاذِبينَ فَلَا تَقْبَلْ شَهَادَتَهُمْ، وبإمْكَانِكَ أَنْ تُطَالِبَهُمْ بِمَا يُثْبِتُ صِحَّةَ شَهَادَتِهِمْ مِنْ نُصُوصِ كُتُبِهِم، واعْلَمْ أَنَّهُمْ أصْحَابُ أهْواء، يَفْتَرُونَ عَلَىٰ الله.

- ﴿.. وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ..﴾ من المُشْرِكينَ والْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ، فكَفَرُوا بالْقُرْآنِ الَّذِي تَتْلُوهُ عَلَيْهِم.

- ﴿.. وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ... ﴿١٥٠﴾﴾: أي: وَلَا تَتَّبِعْ أهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، فَهُمْ لَا يَخافُونَ عَذَابَ الله، ولَا تَتَّبِعْ أهْوَاء الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون، أي: يُسَوُّونَ بِرَبِّهِمْ في الإلَهِيَّةِ وفي بَعْضِ صِفَاتِ الرُّبوبِيَّة،آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونها مِنْ دُون اللهِ، ويَجْعَلُونَها شُرَكَاءَ لِلَّهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ ﷺ بَعْضَ مَا يَقُولُ للنَّاسِ فِي بَيَانَاتِهِ الدَّعَوِيَّةِ مِنَ النَّوَاهِي والأَوَامِرِ والْوَصَايَا الرَّبَّانِيَّة.

- ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم

بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾:

• ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾: أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ للنَّاسِ ببِلَاغ عَامّ: تَعالَوْا أَتْلُ عَلَيْكُمْ بَيانَ رَبِّكُمْ المُشْتَمِلَ عَلَىٰ طائِفَةٍ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ فِعْلَهُ أَوْ تَرْكَهُ، وَهَذا يَعُمُّ مَا نَهَىٰ عَنْ فِعْلِهِ أَوْ أَمَرَ بِفِعْلِهِ.

التِّلَاوَة: تَتَبُّعُ النُّطْقِ بالْبَيانِ الْقَوْلِيّ المأمُورِ بِتِلاوَتِهِ عَلَىٰ وَفْقِ حُرُوفِهِ وَكَلِمَاتِهِ دُونَ زِيادَةٍ وَلَا نُقْصان.

فإذا كانَ المَنْطُوقُ تَتبُّعاً لِكلامٍ مَكْتُوب فَهُوَ قِرَاءَة.

ولمَّا كَانَ هـٰذا النَّصُّ مُشْتَمِلاً عَلَىٰ قَضايَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهَا نَهْيَ تَحْريم، وقَضَايَا أَمَرَ بِها أَمْرَ إيجاب، كَانَ مِنْ حُسْنِ التَّدَبُّرِ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ عِبارَةَ: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ يُرادُ بِهَا مَا حَرَّمَ فِعْلَهُ، ومَا حَرَّمَ تَرْكَهُ. ومِنَ المَعْلُومِ في الأُصُولِ الْعَقْلِيَّةِ، أنَّ النَّهْيَ عَنْ شَيْءٍ ما هُوَ أَمْرٌ بتَرْكِهِ، وأَنَّ الْأَمْرَ بِشَيْءٍ مَا هُوَ نَهْيٌ عَنْ تَرْكِهِ، هـٰذا التَّلَازُمُ مِنَ الْقَضَايَا الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تَكادُ تَكُونُ بَدهِيَّة، فَلَا حَاجَة لِأَنْ يُقَالَ: مَا حَرَّمَ وَأَوْجَبَ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ.

وَقَدْ اشْتَمَلَ هـٰذا النَّصُّ عَلَىٰ عَشْرَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ السُّلُوكِ الإِنْسَانِي، حَرَّمَ اللهُ فِعْلَها، أَوْ حَرَّمَ تَرْكَهَا، مَعَ تَعْقيبَاتٍ مُنَاسِبَاتٍ مُلَائِمَاتٍ لِلْأَوَامِرِ والنَّوَاهِي والْوَصَايَا الرَّبَّانِيَّة.

وفيما يَلِي بَيانُهَا مَعَ التَّدَبُّر:

الْمُحَرَّمُ الأول: الشِّرْكُ بِاللهِ، وهو مُحَرَّمٌ مُكفِّرٌ يُخْرِجُ من المِلَّةِ، وَهُو أَوَّلُ دَركَاتِ الكُفْر، دَلَّ عَلَيْهِ مِنَ النّصّ قول اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ في أُولَىٰ وَصَايَاه: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ لَا فِي رُبُوبيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَـٰهِيَّتِه، إِذْ لَا رَبَّ في الْوُجُودِ غَيْرُه، فَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ إِلَـٰهاً مَعْبوداً سِوَاهُ، جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

الْمُحَرَّمُ الثَّاني: عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، بِعَدَمِ الْقِيَامِ بِطَاعَتِهِمَا وَالإحْسَانِ إِلَيْهِمَا، ومِن حَقِّهِمَا أَنْ لَا يقُولَ الْوَلَدُ لَهُمَا أَوْ لِأَحَدِهِمَا إِذَا كَبِرَا وَكَثُرَتْ مَطَالِبُهُمَا أَوْ سَاءَتْ مُعَاملَتُهُمَا وقَبُحَتْ أَقْوَالُهُمَا: كَلِمَةَ «أُفٍّ» مُتَضَجِّراً مِنْهُما، وَأَنْ لَا يَنْهَرَهُما، فَضْلاً عَمَّا هُو أَشَدُّ وأقبح. وَقَدْ جَاءَ التَّعْبِيرُ عَنْ هٰذا الْمُحَرَّمِ بِعِبَارَةِ الْأَمْرِ بالإحْسَانِ إِلَيْهِما، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿.. وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ..﴾ أي: وأحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً، وقد جَعَلَ اللهُ الإحْسانَ بالوالِدَيْنِ أمراً واجباً. يُقَالُ لغة: «أَحْسَنَ بِهِ، وأَحْسَنَ إِلَيْهِ» أي: فَعَلَ مَا هُو حَسَن. وإِذْ جعل اللهُ الْإِحْسَانَ بالْوَالِدَيْنِ وَاجباً، فَتَرْكُ الإحْسَانِ إِلَيْهِما مُحَرَّمٌ مِنَ الْمُحَرَّمَات، وهُوَ مِنَ الْعُقُوق.

الْمُحَرَّمُ الثَّالِث: قَتْلُ الْأَوْلَادِ مِنَ الْفَقْرِ للتَّخَلُّصِ مِنَ النَّفَقَةِ عَلَيْهِم، دَلَّ عَلَىٰ هٰذا الْمُحَرَّمِ الشنِيع قولُ اللهِ تبَارَكَ وتَعَالَىٰ فِي النَّصّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾:

الإمْلَاقُ: الْفَقْر، يُقَالُ لُغَةً: «أَمْلَقَ فُلَانٌ إِمْلَاقاً» أي: افْتَقَر.

وَجَاءَ فِي سُورَةِ (الإِسْرَاءِ/ ٥٠ نزول) قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هٰذِهِ الآيَةِ في مَوْضِعِها من سُورَة (الإسْراء)، وَسَبَقَ بَيَانُ التَّكَامُلِ الْفِكْرِيّ بَيْنَ النَّصَّيْنِ، فآية (الإسْرَاء) دَلَّتْ عَلَىٰ خَشْيَةِ حُدُوث الْفَقْرِ في الْمُسْتَقبل، وآيَة (الأنْعَامِ) دلَّتْ على أنَّ الْفَقْرَ مَوْجُودٌ، ولهٰذا جَاءَ التَّعْقِيبُ في النَّصَّيْن مُخْتَلِفاً بالتقديم والتأخير.

الْمُحَرَّمُ الرَّابعُ: الاقْتِرَابُ مِنَ الْفَوَاحِش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، دَلَّ على هٰذا المحرَّم مِنَ النصّ قولُ اللهِ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾:

الْفَوَاحِش: جَمْع «الفاحِشَة» وهِي كلُّ قبيح تجاوز حَدَّ ما يُحْتَمَلُ ويُغْضَىٰ عَنْهُ عادةً مِنْ قَوْلٍ أو فعلٍ، وكلُّ خَصْلَةٍ قبيحة.

وقَدْ نَظَرْتُ فِي الاِسْتِعْمَالات القرآنِيَّةِ لهـٰذِهِ المادة، فَوَجَدْتُ أَنَّهَا تَدُورُ حَوْلَ الكَبَائِرِ المُتَعَلِّقَةِ بِشَهواتِ الفروج، وتَرَجَّحَ لَدَيَّ أنْ يُحْملَ مَا جَاءَ مِنْهَا مُطْلَقاً لَمْ تُبَيِّنْهُ القرائِنُ على ما جاءَ مِنْهَا مُبَيّناً بالقرائن، فهي في الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ مُخَصَّصَةٌ بهـٰذا الإطار مِنَ المعاصِي اصْطلاحاً واللهُ أعْلم.

والنَّهْيُ عَن الاقْتِرَابِ أَشدُّ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْفِعْلِ، والاقْتِرَابُ مِنَ الْفَوَاحِشِ يَكُونُ مَثلاً بالْخَلْوَةِ، وبِالملامَسَة، وبالتَّقْبِيلِ والمُعَانَقَة، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِشَهْوَةٍ لَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ عَنِ الْوُقُوعِ بالكَبِيرَة.

أمَّا مَا ظَهَرَ مِنْها فَهُوَ مَا يَكُونُ لَهُ بُيُوتٌ ذاتُ رَايَاتٍ خاصَّةٍ تُعْرَفُ بِبُيُوتِ الْبَغَايَا، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ فَواحِشَ مُعْلَنَةٍ.

وأمَّا مَا بَطَنَ مِنْها فَهُوَ مَا يَكُونُ سِرّاً مع الْخَلِيلَاتِ، والزِّنَا بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِ النَّاس، وعَنْ مَوَاطِنِ الظَّنِّ الْمُرِيب، ومِمَّا بَطَنَ مِنْهَا إتْيَانُ الذُّكُورِ، وهُو مِنْ قَبَائِحِ السَّدُومِيِّينَ قَوْمِ لُوط.

الْمُحَرَّمُ الْخَامِسُ: قَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهَا بِغَيْرِ حَقٍّ. دَلَّ على هـٰذا الْمُحَرَّمِ مِنَ النّصّ قولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿.. وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ..﴾.

قَتْلُ النَّفْسِ: هُوَ كُلُّ عَمَلٍ يُؤَدِّي إلى انْفِصَالِ الرُّوحِ عَنِ النَّفْسِ، الَّذِي تَذُوقُ بِهِ النَّفْسُ المَوْتَ.

أي: وَلَا تَقْتُلُوا أيَّ نَفْسٍ حَرَّمَ اللهُ قَتْلَها بِغَيْرِ حَقٍّ، فالنَّهْيُ مُسَلَّطٌ عَلَىٰ قَتْلِ نَفْسٍ جَعَلَ اللهُ قَتْلَهَا حَراماً بِغَيْرِ حَقٍّ، أمَّا النُّفُوسُ الَّتِي لَمْ يَجْعَلِ اللهُ قَتْلَهَا حَراماً فَلَيْسَتْ داخِلَةً ضِمْنَ الْمَنْهِيِّ عَنْه، كَنُفُوسِ أَفْرَادِ جَيْشٍ جَاءَ لِمُقَاتَلَةِ الْمُسْلِمِين.

﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾: أي: ولا تَقْتُلُوا أَيَّ نَفْسٍ حَرَّمَ اللهُ قَتْلَها فِي عُمُومِ الأَحْوَال، إلَّا حَالَةَ كَوْنِ قَتْلِها مُتَّصِفاً بِالْحَقِّ.

وَجَاءَ في النُّصُوصِ الموزَّعَةِ بَيَانُ الحقِّ الَّذِي تُقْتَلُ بِهِ النَّفْسُ، فَمِنَ الْقَتْلِ بالْحَقِّ ما يَلِي:

(١) الْقِصَاصُ الَّذِي لَا يَعْفُو عَنْهُ أحَدُ وَرَثَةِ الْقَتِيلِ، فالنَّفْسُ بالنَّفْس.

(٢) الزَّانِي المُحْصَنُ الَّذِي اعْتَرَفَ بِزِنَاه، أَوْ شَهِدَ بِزِنَاهُ بَعْدَ إحْصانِهِ أَرْبَعَةُ شُهُودٍ رَأَوْهُ وَهُوَ يَزْنِي، وليس لِهَـٰذا مِثَالٌ وَاحِدٌ في تاريخ المسلمين.

(٣) المُرْتَدُّ عَنِ الإِسْلَامِ بَعْدَ إعْلَانِهِ إسْلَامَهُ سَخْطَةً عَلَيْهِ، ومُفَارَقَةً لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمين، والْغَرَضُ مِنْ قَتْلِهِ حِمَايَةُ المُسْلِمين من المتلاعِبين ذوي الْكَيْدِ بالدُّخُولِ في الإسْلَامِ والْخُرُوجِ منه.

(٤) الّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فَسَاداً، كما جاء في الآية (٣٣) من سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول).

(٥) الخائِنُ لِلْمُسْلِمين الّذي يُعِينُ أَعْدَاءَهُمْ الْكَافِرين عَلَيْهِم، فَلِلسُّلْطَةِ الْمُسْلِمَةِ إذا ثَبَتَتْ لَدَيْهَا إدَانَتُهُ بِجَرِيمَتِهِ أَنْ تَقْتُلَه.

(٦) الصَّائِلُ الَّذِي يَأْتِي مُقَاتِلاً للسَّلْبِ والسَّطْو، فَلِلْمُعْتَدَىٰ عَلَيْهِ أن يُدَافِعَ عَن نَفْسِه، بالأَخَفِّ فالأَشَدِّ حَتَّىٰ الْقَتْل، إنْ لَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً أخَفَّ من الْقَتْلِ يَدْفَعُ بِهَا عَنْ نَفْسِه.

وَعَقَّبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ بَيَانِ الْمُحَرَّمَاتِ الْخَمْسَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

﴿.. ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾: أي: ذَلِكُمُ الْمَذْكُورُ مُفَصَّلاً في الآيةِ نَهاكُمْ اللهُ عَنْهُ وَفَرَضَهُ عَلَيْكُم، رَغْبَةً في أَنَّ تَعْقِلُوا عَقْلاً عِلْمِيّاً وَعَقْلاً إرادِيّاً.

يُقَالُ لغةً: «وصَّىٰ، وأَوْصَىٰ فُلاناً بِكَذَا» أي: أَمَرَهُ بِهِ وَفَرَضَهُ عَلَيْه.

لَعَلَّ: قَالُوا: مَعْنَاهَا التَّرَجِّي والتَّوَقُّع. **وأَقُول**: بما أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ بما كانَ وبما هُوَ كَائِنٌ وبِمَا سَيكُون، فالمرادُ لَازِمُ المَعْنَىٰ، وهُوَ الرَّغْبَة. أي: ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ رَبُّكُمْ بِهِ رَغْبَةً فِي أَنْ تَعْقِلوا.

﴿تَعۡقِلُونَ﴾: **الْعَقْلُ**: عَقْلَان: عَقْلٌ عِلْمِيٌّ، وعَقْلٌ إرادِي.

• **فَالْعَقْلُ الْعِلْمِي**: يَكُونُ بِتَقْيِيدِ الْمَعْلُومَةِ في الذَّاكِرَة، وحِفْظِهَا فِي مَكَانِ حِفْظِ المَعْلُومَاتِ في جهازِ المَعْرِفَةِ، واسْتِدْعَائِهَا عِنْدَ الْمُنَاسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ لِتَذَكُّرِها.

• **والْعَقْلُ الإرَادِي**: يَكُونُ بِضَبْطِ النَّفْسِ ضَبْطاً إرادِيّاً عن اتّباع الأهْواء، والشَّهواتِ، وعَنِ الْجُنُوحِ عَنْ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم في السُّلُوكِ.

هـٰذا التَّعْقِيبُ قدْ جَاءَ فاصِلاً جَمِيلاً مُخَفِّفاً مِنْ تَوَالِي ذِكْرِ الْمُحَرَّمَاتِ بالتَّتَابع. وجَاءَ في النصّ فاصِلٌ آخَرُ مُشَابِهٌ مَعَ تَغْيِيرٍ تَكَامُلِيٍّ نَفِيس، وفاصِلٌ ثالِثٌ مُشَابِهٌ أَيْضاً مَعْ تَغْيِيرِ تَكَامُلِيٍّ نَفِيسٍ أَيْضاً في آخِرِ الدَّرْسِ.

الْمُحَرَّمُ السَّادِسُ: الاقْتِرَابُ مِنْ مَالِ الْيَتِيم إلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَيُسَلَّمَ إِلَيْهِ مَالُهُ، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا الْمُحَرَّم مِنَ النَّصِّ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾:

أي: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيم بِتَصَرُّفٍ مَا أَوْ بِحَرَكَةٍ ما، إلَّا بالْحَرَكَةِ الَّتِي هِيَ أحْسَنُ مِنْ عَدَمِ الاقْتِرَابِ مِنْه، كَحِفْظِهِ، أَوْ تَنْمِيَتِهِ تَنْمِيَةً صَحِيحَةً، مَعْرُوفَةَ النَّتَائِجِ، كَتَأْجِيرِ عَقَارٍ، واسْتِغْلَالِ أَرْضٍ بالْمُزَارَعَةِ، وَشِرَاءِ ثَوَابِتَ لَا مُخَاطَرَةَ فِيها.

فالمَعْنَىٰ: ولا تَأْكُلُوا من مَالِ اليتيم الّذي أَنْتُمْ أَوْلِياءُ أَوْ أَوْصِيَاءُ عَلَيْهِ، شيئاً بغير حق.

وقد سبق بَيَانُ أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الاقْتِرَابِ أَبْلَغُ مِنَ النَّهْي عن الْفِعْلِ الْمُحَرَّم.

الْيَتِيم: هو الصغير الّذي مَاتَ أَبُوه من الناس، ويَبْقَىٰ يتيماً حَتَّىٰ يَبْلُغَ الحُلُم. ويُجْمَع لفظ «يَتِيم» على «أَيْتَام» و«يَتَامَىٰ».

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: حَتَّىٰ يَكُونَ قَادِراً على إِدَارَةِ أَمْوَالِهِ بِعَقْلٍ وَرُشْد، لَا بِسَفَهٍ وَتَبْذِير، فَبُلوغُ الْحُلْمِ لَا يَكْفِي وَحْدَهُ، بَلْ لا بُدَّ مِنْ إِينَاسِ الرُّشْدِ، لِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

أَشُدُّ الشَّيْء: اكْتِمَالُه. وأَشُدُّ كُلِّ شَيْءٍ اكْتِمَالُ تَنَامِيهِ بِحَسَبِ صِفَاتِهِ الْقَابِلَةِ للاكْتِمَال.

الْمُحَرَّمُ السَّابع: عَدَمُ إِيفَاءِ الكيلِ والمكْيَالِ وَالْوَزْنِ والميزانِ بالْقِسْطِ، دَلَّ على هٰذا الْمُحَرَّم مِنَ النَّصّ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿.. وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ .. ﴿١٥٢﴾﴾.

أي: واجْعَلُوا الكَيْلَ والمكْيَالَ والْوَزْنَ وَالْمِيزَانَ وافِيَةً تَامَّة غَيْر مَنْقُوصَةٍ، جَاءَ التعبير بالأمرِ بالْوَفَاءِ، للدّلَالةِ بِهِ على تَحْرِيم عَدَمِ الْوَفاء.

يُقَالُ لُغة: «أَوْفَىٰ الشَّيْءَ، يُوفِيهِ، إِيفَاءً» أي: أَتَمَّهُ وَافِياً كامِلاً غَيْر مَنْقُوص.

الكيلُ: التَّقْدِيرُ بالمِكْيالِ. **المِيزَانُ**: الْأَدَاةُ الَّتِي يُوزَنُ بها.

دَلَّ الكَيْلُ على الْوَزْن، ودَلَّ المِيزَانُ عَلَىٰ المِكْيَال، وباسْتِخْرَاجِ المطْوِيَّيْنِ تَكُونُ العِبَارَة: وَأَوْفُوا الكَيْلَ والمِكْيَال، والْوَزْنَ والْمِيزان، فهٰذِهِ كُلُّها يَجِبُ إيفاؤها.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: أي: مُتَّصِفاً بالْعَدْلِ كَيْلُكُمْ ومِكْيَالُكُمْ، وَوَزْنُكُمْ

ومِيزانُكُم، ويُقَاسُ على الكَيْلِ والوزنِ تَقْدِيرُ كُلِّ شَيْءٍ بأيَّةِ وَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائل، كَعَدِّ الْوَحْدَاتِ المتماثِلَاتِ بآلَةِ عَدٍّ أَلِكْتْرُونِيّة.

وَجَاءَتْ عِبَارَة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ مُشِيرَة إلَىٰ أَنَّ النَّاسَ قَدْ يَعْجِزُونَ عَنْ تَحْقِيقِ الْعَدْلِ الْكَامِلِ، بَيْنَ مَنْ يُكَالُ أو يُوزَنُ مِنْهُ، وَبَيْنَ مَنْ يُكالُ أَوْ يُوزَنُ لَهُ، فَمَا عَجَزُوا عَنْ تَحْقِيقِهِ فَلَا مَسْؤُولِيَّةَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، إِذْ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلَّا وُسْعَها، أي: إلَّا مِقْدَارَ طَاقَتِهَا واسْتِطَاعَتِها، وهذا احْتِرَاسٌ حَكيم، لَوْلَاه لَتَحَرَّجَ الْمُتَّقُونَ من الكَيْلِ والوزن، خَوْفاً مِنْ مُجَانَبة القِسْط في الحبَّاتِ والذّرّات.

الْمُحَرَّمُ الثامِنُ: عَدَمُ الْعَدْلِ بالْقَوْلِ، الَّذِي يَجْرِي بَيْنَ النَّاسِ في مُعَامَلَاتِهِم. دَلَّ على هٰذا الْمُحَرَّمِ مِنَ النَّصِّ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَبارَكَ: ﴿.. وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ .. ﴿١٥٢﴾﴾:

جاء التَّعْبير عَنْ تَحْرِيمِ عَدَمِ الْعَدْلِ في الْقَوْلِ بالأمْرِ الإلْزَامِي بالْعَدْلِ فيه.

إنَّ الْعَدْلَ في الْقَوْلِ يَتَطَلَّبُ طَرَفَيْنِ: طَرَفاً يَكُونُ الْقَوْلُ مُثْبِتاً لَهُ الْحَقّ، وَطَرَفاً يَكُونُ الْقَوْلُ مُثْبِتاً عَلَيْهِ الْحَقَّ لِلطَّرَفِ الْأَوَّلِ.

وَهٰذا الْقَوْلُ الّذِي يأمُرُ اللهُ بالْعَدْلِ فِيه ويُحَرِّمُ فِيهِ مُجَانَبَةَ الْعَدْلِ يَكُونُ في أُمُورٍ كثيرةٍ جدّاً، ومِنْها مَا يلي:

(١) الشَّهادَةُ إذْ قَدْ يَكُونُ فيها مَشْهُودٌ لَهُ، وَمَشْهُودٌ عَلَيْه، واللهُ قدْ أَمَرَ بأنْ تَكُونَ بالْعَدْلِ، فَلَا يُظْلَم المَشْهُودُ لَهُ، وَلَا يُظْلَمُ المَشْهُودُ عليه.

(٢) القَضَاءُ الَّذِي يَصْدُرُ بِهِ نُطْقُ الْقَاضِي بالْحُكْم، واللهُ قدْ أَمَرَ بِأن يَكُونَ بالْعَدْلِ، فَلَا يُظْلَمُ الْمَقْضِيُّ لَهُ بِشَيْءٍ، ولا يُظْلَمُ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ بِشَيْء، وَلَا يُظْلَمُ حَقُّ اللهِ وَهُوَ مَا يُسَمَّىٰ بِالْحَقِّ الْعَامّ بِشَيْء.

(٣) التَّعْدِيل والْجَرْحُ، والْعَدْلُ فيهما الْتِزَامُ الْحَقِّ في كُلٍّ مِنْهُما، فَلَا يُظْلَم الْمُعَدَّلُ أو المُجَرَّحُ، ولَا يُظْلَمَ حَقُّ اللهِ ذُو الأثر العامّ.

(٤) الفتوى، والْعَدْلُ فيها الْتِزَامُ الْحُكْم الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الدليلُ الحقُّ، دُونَ غُلُوٍّ فيه مُحَابَاةً لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ التَّشَدُّدَ في أَحْكامِ الدين، ودُونَ تَهَاوُنٍ وَتَفْرِيطٍ مُحَابَاةً لِلَّذين يُحِبُّونَ التَّهاوُنَ والتَّسَاهُلَ في أَحْكَامِ الدِّينِ إِرْضَاءً لِأَهْوَائِهِم وشَهَواتِهم.

إلى غير ذلِكَ مِنْ أُمُورٍ يَصْعُبُ حَصْرُها.

وبما أَنَّ أَحَدَ الطَّرَفَيْنِ قدْ يَكُونُ ذَا قُرْبَىٰ، كَأَبٍ وَابْنٍ وأَخٍ، ويَجِدُ صَاحِبُ الْقَوْلِ أَنَّ مُجَانَبَتَهُ لِلْعَدْلِ تَنْفَعُ قَرِيبَهُ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ في البيان أَنْ يَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ولَوْكَانَ الَّذِي تُجَانِبُونَ الْعَدْلَ مِنْ أَجْلِهِ ذَا قُرْبَىٰ لَكُمْ.

وَيُقاسُ عَلَىٰ ذِي الْقُربَىٰ صَدِيقٌ وَحَبِيبٌ وزَوْجٌ وَزَوْجَةٌ، وَكُلُّ مَنْ يُرِيدُ صَاحِبُ الْقَوْلِ مُجَانَبَةَ الْحَقِّ مِنْ أَجْلِهِ، وكذَلِكَ مَنْ كَانَ المَجْنُوفُ عَلَيْهِ مَكْرُوهاً مَبْغُوضاً، أَوْ عَدُوّاً لِصَاحِبِ الْقَوْلِ.

الْمُحَرَّمُ التَّاسِعُ: عَدَمُ الْوَفَاءِ بِعَهْدِ الله، دَلَّ على هَـٰذَا الْمُحَرَّمِ مِنَ النصّ قولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿.. وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ..﴾:

الْعَهْد: يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ به أَوْ نَهَىٰ عَنْه. ويُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا بَيْنَ الْعِبَادِ مِنْ مواثِيق وثَّقُوها بالْحَلِفِ باسْم من أَسْماءِ الله. ويُطْلَقُ عَلَىٰ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ الْعَبْدُ تُجاهَ رَبِّهِ وَيُبَايعُ عَلَيْهِ، كَالْأَعْمَالِ الَّتِي كَانَ الْمُسْلِمُونَ يُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ عَلَيْهَا، فَهِيَ عَهْدٌ مَعَ اللهِ، وَيَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهم.

وإِضَافَةُ الْعَهْدِ إلىٰ الله، هِيَ مِنْ إِضَافَة الْمَصْدَرِ إلى فاعِلِهِ، إذا كان بمَعْنَىٰ أَوَامِرِ اللهِ وَنواهِيه. وَمِنْ إِضَافةِ المَصْدَرِ إلى المَفْعُولِ به، إذا كان بمَعْنَىٰ الْتِزام الْعَبْدِ تُجاهَ رَبِّهِ بِعَمَلٍ مَا، كالْجِهادِ في سَبِيلِهِ، ونُصْرَةِ رَسُوله،

وَمِنْ هٰذِهِ الإضَافَةِ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْعِبَادِ من مَواثِيقَ وَثّقُوها بالْحَلِفِ باسْم من أسماء اللهِ تَعَالَىٰ، لِأَنَّ هٰذا التَّوْثِيقِ بِمَثَابَةِ عَهْدٍ يُعَاهِدُ بِهِ الْمُوثِّقُ اللهَ رَبَّهُ أَنْ يَفِي بِهِ لِمَنْ أَعْطَاهُ الْوَعْدَ من النّاس.

وَيُطْلَقُ الْعَهْدُ عَلَىٰ الْوَصِيَّةِ وَعَلَىٰ الشَّيْءِ الَّذِي يُودَعُ عِنْدَ الْمُسْتَأْمَنِ لِيُؤَدِّي به عَمَلاً مَا بإذْنِ الْمُودِعِ، إلى غير ذلك مِنْ مَعَانٍ.

(١) فقول اللهِ تَعَالَىٰ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿.. وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

هو بمَعْنَىٰ: أمَرْنَا، وكَلَّفْنَا.

(٢) وقول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المؤمِنين من أصحاب الرَّسُول ﷺ، في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

هو بمَعْنَىٰ الْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ، وصِدْقُهُمْ قَدْ كَانَ بِوَفَائِهِمْ به.

(٣) وقول الله تَعَالَىٰ بِشَأْن ما جَرَىٰ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ والمشركين من عَهْدٍ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

هو من الْعَهْدِ الّذِي يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ، وقَدْ يُوَثِّقُونَهَا بِالْحَلِف باسم من أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقَدْ جاءَ هٰذا الْمُحَرَّمُ بِصِيغَةِ الأمْرِ بِالْوَفاءِ بِعَهْدِ اللهِ، وإذْ يَقْتَضِي

الأمْرُ وجُوبَ الْوَفَاءِ بالْعَهْدِ، فإنَّ عَدَمَ الْوَفَاءِ بِهِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللهُ جَلَّ جَلالُه.

وَعقَّبَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ بيان الْمُحَرَّمَاتِ الأرْبَعةِ، من (٦ ـ ٩) بِقولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ وَهَٰذا نظير التّعْقيبِ السَّابِقِ، مع تَبْدِيل عِبارَةِ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بِعبارَة: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أي: رَغْبَةً فِي أَنْ تَضعُوا ذلِكَ الّذي وصَّاكُمْ بِهِ من المحرَّمَاتِ في ذَاكِرَاتِكُمْ ورَغْبَةً في أَنْ تَسْتَدْعُوا مِنْهَا في كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يَتَعَلَّقُ بها.

والمرادُ بالتَّذَكُّرِ الْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ لِحُضُورِ الْمَعْلُومَةِ في الذاكِرَة، اسْتِدْعَاءً لَهَا مِنْ خَزَائِنِ الْمَعْرِفَةِ في النفس، أَوْ وُرُوداً حَدِيثاً لَهَا مِنَ الخارج، عَنْ طَرِيقِ بيانٍ وارد، أَوْ تَأَمُّلٍ فِكْرِيٍّ ذَاتِيٍّ، أو بتَأْثِيرِ حَدَثٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ كَوْنِيَّةٍ، أو غير ذلك، لِلْعَمَلِ بالمَطْلُوبِ الدِّينيّ فيما جاء به التّذَكُّر.

فالْأَثَرُ النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ والسُّلُوكيُّ، هو المَطْلُوب الديني مِنَ التَّذَكُّر.

وهَٰذا التَّعْقِيبُ لِلْمُحَرَّمَاتِ الْأَرْبَعَةِ يَصْلُحُ تَعْقِيباً لِلْمُحَرَّمَاتِ الْخَمْسَةِ الأولىٰ وللأخير مِنْها، والتَّعْقِيبُ لِلْمُحَرَّمَاتِ الْخَمْسَةِ يَصْلُحُ تَعْقِيباً لِسَائِرِ الْمُحَرَّمَاتِ بَعْدَهَا. والتَّعْقِيبُ الْأَخِيرُ الآتِي في الدَّرْسِ يَصْلُحُ لِكُلِّ الْمُحَرَّمَات. فالتّعْقِيباتُ الثَّلَاثَة هِي بِمَثَابَةِ تَعْقِيبٍ لَهَا جَمِيعاً، وَهَٰذا مِنْ بَدَائِعِ الْفُنُونِ الْقُرْآنِيَّة، الْقَائِمَة عَلَىٰ التَّوْزِيعِ في النَّصّ والتعميم في المرادِ، لأنَّ الْمُحَرَّمَات تَصْلُحُ لَهَا جَمِيعاً كُلُّ هَٰذِهِ التَّعْقِيبَات.

الْمُحَرَّمُ الْعَاشِر: عَدَمُ مُجانَبَةِ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم، وَعَدَمُ اتِّبَاعِ السُّبُلِ الآخِذَة بَعِيداً عَنْهُ، إلى الْمَهَاوِي والمهالِكِ والضَّلالَاتِ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ وَمِنْ ذَاتِ الشِّمَال. دَلَّ عَلَىٰ هَٰذا الْمُحَرَّم قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في النصّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ .. ﴿١٥٣﴾﴾:

إنَّ صِرَاطَ اللهِ يَشْمَلُ مَطالِبَ الدِّينِ كُلَّها، عَقِيدَةً، وَعَمَلاً إرادِيّاً، نَفْسِيّاً أَوْ جَسدِيّاً، فَرْدِيّاً أَوْ اجْتِمَاعِيّاً.

فَمَنْ جَانَبَ صِرَاطَ اللهِ الْمُسْتَقِيمَ وَجَدَ أَمَامَهُ سُبُلاً عَدِيدَة مُتفَرِّقَةً لَا حَصْرَ لَهَا، وكُلُّ هـٰذِهِ السُّبُلِ الْمُتَفَرِّقَةِ تُوصِلُ إِلَىٰ نَكَدِ الْحَيَاةِ الدُّنيا وَضَنْكِها مَقْرُونَةً بِلَذَّاتٍ عَابِرَاتٍ مُغْرِيَاتٍ، لكِنَّ عَاقِبَتَهَا الْخُلُودُ فِي عَذَاب النّارِ يَوْمَ الدِّين.

هـٰذا الْمُحَرَّمُ الْعَاشِرُ شَامِلٌ لِكُلِّ ما فَرَضَ اللهُ على عِبَادِهِ، ولِكُلِّ مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ، فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم في الحياة الدّنيا، ولَوْ لَمْ يُذْكَرْ بِتَفْصِيلٍ في الْمُحَرَّماتِ التِّسْعِ الَّذِي جاء في النّصّ بيانها، حتَّىٰ الَّتِي لَمْ يَنْزِلْ في الْقُرْآنِ بَيَانٌ عَنْهَا فيما سَبَقَ أَنْ أنزلَ اللهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيل.

فالمشارُ إِلَيْهِ صِرَاطٌ مَوْضُوعٌ فِي الْخُطَّةِ، ويُبَيِّنُهُ اللهُ شَيْئاً فَشَيْئاً في نُجُومِ التَّنْزِيل، حَتَّىٰ إِتْمَامِ وَإِكْمَالِ الدِّينِ كُلِّه، الّذِي هُوَ نِعْمَةُ اللهِ الْعُظْمَىٰ عَلَىٰ عِبَادِه.

وَعَقّبَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ بيان هـٰذا الْمُحَرَّم الْعَاشِرِ بِقَوْلِهِ: ﴿.. ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾: أي: رَغْبَةً في أَنْ تَعْمَلُوا بِمَا جَاءَ في هـٰذِهِ الْوَصَايا، فَتَتَّقُوا عَذَابَ رَبِّكُمْ الَّذِي تَوَعَّدَ بِهِ مُرْتَكِبي مَا حَرَّمَ عَلَيهم.

وبهـٰذا تمَّ تَدَبُّر الدَّرس الحادي والثلاثين من دُروس سورة (الأنعام).

والحمد لله على معونتِهِ وَمَدَدِهِ وَتَوفِيقِه وَتَفْهِيمِهِ وَفَتْحِه.



(٣٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني والثلاثين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٥٤ ـ ١٦٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ

وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

القراءات:

(١٥٧) • قرأ حَمْزَة، والكسائي، وخَلَف، ورُوَيْس: **[يَصْدِفُونَ]** بإشْمَامِ الصَّاد زاياً، في المَوْضِعَيْن.

وقرأها بَاقي القرّاء الْعَشْرَةِ بالصادِ الْخَالِصَةِ.

(١٥٨) • قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[إلَّا أَنْ يَأْتِيهُمْ]** بياء المضارعة.

وقرأها رُوَيْس، والسُّوسي، وأبُو جَعْفَر: **[إلَّا أَنْ تَأتِيهُمْ]** بتاء المضارعة وبإبْدَال الهَمْزَةِ من «تَأْتِيهُمْ» ألِفاً مَدّيَّة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[إلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ]** بتاء المضارعة، وبالْهَمْزَةِ دُونَ إبْدال.

(١٥٩) • قرأ حَمْزَة، والكِسَائي: **[فَارَقُوا]** مِنَ المفارَقَة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَرَّقُوا]** مِنَ التَّفْريق.

وبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداءِ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ، فالَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً مُخْتَلِفَةً، قَدْ فَارَقُوا دِينَهُمْ الْحَقَّ.

(١٦٠) • قَرأ يَعْقُوب: **[فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالُهَا]** بتنوين عشر، ورَفْعِ «أَمْثالُها».

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ العشرة: **[فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِها]** بإضافة«عشر» إلى «أمْثالها».

ومؤدّىٰ القراءتَيْن واحد، وهما من التّفَنُّنِ في التعبير.

تمهيد:

آيات هذا الدَّرْس من فُرُوع السَّاقِ الأوّلِ مِنْ سَاقَي شَجرَةِ مَوْضُوعِ السُّورَة.

وفيها بيانٌ دَعَويٌّ مُبَاشِرٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّة، مع إنْذَارِ بِعَوَاقِبَ وَخِيمَةٍ إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ رَبّهم.

وَفيها بيانٌ للرَّسُولِ بِشَأْن الْكَافِرِينَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وفَارَقُوه، وكَانُوا شِيَعاً، فَيُبَيِّن اللهُ عَزَّ وَجلَّ لَهُ فِيه انْفِصَالَهُ التَّامَّ عَنْهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ، ولو كانوا عَشِيرَتَهُ الأقربين.

التَّدَبُّر التَّحْلِيلِي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

دلَّنِي الْعَطْفُ بِحَرْفِ الْعَطْفُ «ثُمَّ» الَّذِي هو بحَسْبِ أصْلِ الوضْع يَدُلُّ على الترتيب مع الْمُهْلَةِ المتراخِيَةِ في الزَّمنَ، علَىٰ أَنَّ مَا جاء في الآية

(١٤٥): ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ . . .﴾. ومَا جاء في الآيَات من (١٥١ ـ ١٥٣) قَدْ سَبَقَ أَنْ كَانَ مِنْ دِينِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ رَسُولاً لِلْعَرَبِ، وَوَرِثُوا عَنْهُ تعظيم البيت الحرام، وشعائرَ الحجّ والصَّلَاة، وغَيْرَهَا مِنَ العبادات وفَضَائِلِ السُّلُوكِ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ إِلَيْهِمُ الْوَثَنِيَّةُ، والانْحِرَافَات السُّلُوكِيّةِ الْمُخْتَلِفَة، وبَقِيَتْ مَعْمُولاً بِهَا مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ في الْبِيئَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهِيَ مِنْ شَرَائِعِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا في الرِّسَالَات السَّابقَات، إِذْ هِيَ مِنَ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِكُلِّ النَّاسِ فِي كُلّ الرّسَالَات.

ثُمَّ آتَىٰ اللهُ مُوسَىٰ كِتَابَ التَّوْرَاة، فَهُوَ بِحَسَبِ التَّرْتِيبِ الزَّمَنِي مُتَأَخِّرٌ عَمَّا جاء به إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام لِلْعَرب، واخْتِيرَ في النّصّ التَّعْبِيرُ بحرف العطف «ثم» لِلْإِشْعَارِ بهٰذا، وهو مِنْ أَدِلَّةِ وَحْدَةِ الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ للناسِ.

فحرف العطف «ثُمَّ» هُنَا لَا حَاجَةَ إِلَىٰ اعْتِبَارِ الترتيب والتراخِي فِيه تَرْتِيباً رُتْبِيّاً، وَلَا إِلَىٰ تَخْرِيجات أُخْرَىٰ يُخْرِجُ النَّصَّ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِه، فالْمُعَالَجَة تَدُور حَوْلَ فَسَادِ الأَحْكَام الجاهِلِيَّة الَّتِي افْتَرَاهَا الْمُشْرِكُونَ عَلَىٰ الله، وَبَيَانِ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنْذُ عَهْدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام قَدْ كَانَ وَفْقَ مَا جَاء في الآيات (١٤٥) و(١٥١) و(١٥٢) و(١٥٣) والْأَحْكَامُ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا هٰذِهِ الآيَاتُ مِنْ شَرَائِعِ اللهِ وأَحكَامِهِ فِي الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ الَّتِي بَعَثَ اللهُ مُحمّداً ﷺ بها للنَّاسِ أجْمَعِين.

• ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَمَا أَنْزَلْنَا فِي الرِّسَالَاتِ السَّابِقات أحْكَاماً وشرائع هي من الدِّين الذي اصْطَفَيْنَاهُ للنَّاس، وهي كافياتٌ ومُلَائمات للأقوام الّتي كُلّفَتْ أَنْ تَعْمَلَ بها، آتينا مُوسَىٰ كِتَابَ التَّوْرَاةَ حَالَةَ كَوْنِهِ تَمَاماً كامِلاً في أَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ، مَحْمُولاً بِتَمَامِهِ عَلَىٰ الَّذِي أحْسَنَ إيمَاناً وإسْلَاماً وَعَمَلاً، وَحَرَصَ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مُحْسِناً مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإِحْسَان.

• ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾: أي: وَتَبْييناً لِكُلِّ شيءٍ مُلائم لابْتِلاءِ بَنِي إِسْرَائِيل، ولِغَيْرِهِمْ مِنَ الأَقْوَام الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائيلَ في عُصُورِهِم، في رِحْلَة الحياةَ الدُّنيا.

• ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: أُطْلِقَ عَلَىٰ التوراة أَنَّهُ هُدىً، للدَّلالَة عَلَىٰ أنَّ ما فِيه يَهْدِي إلى الحقّ والخَيْر، وفَضَائِلِ الأَعْمَالِ الظاهِرَة والباطِنَة، فهو بمثابَةِ عَيْنِ الْهُدَىٰ. لفظ «الْهُدَى» مَصْدَرُ «هَدَاهُ يَهدِيه».

وأُطْلِقَ علىٰ التوراة أَنَّهُ رَحْمَةٌ لِأَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ، وهٰذا مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ الشيءِ علىٰ آثاره، فهُوَ مَجازٌ مُرْسَل.

﴿.. لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾: أي: رَغْبَةً في أَنْ يُؤْمِنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّين، لِلْحِسَاب، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وتَنْفِيذِ الْجزاء. فَقَدْ كَانَ الْجُمْهُورَ الأَعْظَمُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلِ إِبَّانَ تَنْزِيلِ التَّوْرَاة عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام غَيْرَ مُؤْمِنين إيماناً صَحِيحاً بِيَوْم الدِّين، وَهٰذا ما جعلَهُمْ يَعْبُدونَ الْعِجْلَ الذَّهَبِيّ الَّذي صَنَعَهُ لَهُمْ السَّامِرِيُّ، في الْمُدَّة التي ذَهَبَ فِيها مُوسَىٰ إلى مُنَاجَاةِ رَبِّهِ وَهُمْ فِي سِيناء، بَعْدَ اجْتِيَازِهِمْ بَحْرَ سُوف، بالمعجزَةِ الخارقة الَّتِي آتاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام.

وَحِينَ قَالَ اللهُ لَهُمْ خُذُوا الكِتَاب بِقُوَّةٍ، رَفَضُوا حَتَّىٰ رَفَعَ اللهُ جَبَلَ الطُّورِ فَوْقَهُمْ وأَنْذَرَهُمْ بالْهَلَاكِ، فَخَضَعُوا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ وَخِطَاباً لِلْمُشْرِكِين المعالَجِينَ فِي السُّورَة:

• ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

• ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ..﴾: أي: وهـٰذَا الْقُرْآنُ الَّذِي يَتْلُوهُ رَسُولُنَا عَلَيْكُمْ نَجماً فنَجماً، نَحْنُ الَّذِينَ أنْزَلْنَاهُ، وهُوَ ذُو بَرَكَةٍ عظِيمَةٍ لَا تَنْضَبُ فُيُوضُ مَعَانِيه، وذُو خيراتٍ كثيراتٍ جدّاً، فِكْرِيَّةٍ، ونَفْسِيَّةٍ، وشِفَائِيَّة، وَغَيْرِ ذلك.

• ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾: أي: فآمِنُوا بمَا جَاءَ فِيه، واطِيعُوا مَا جاء فيه مِنْ أوامِرَ وَنَوَاهِيَ وَوَصَايَا.

اتّبَاعُ إنْسَانٍ يَكُونُ باقْتِفَاء آثَارِه، والاقْتِدَاءِ بِه، واتّبَاعُ الْأَوامِرِ والنَّوَاهِي والْوَصَايَا يَكُونُ بالْعَمَلِ بها، واتّباعُ الْحَقِّ يَكُونُ بالْإِيمانِ بأَنَّهُ حقٌّ، وبالْعَمَل بِما يَقْتَضِيهِ مِنْ عَمْلٍ، وبِتَرْكِ مَا يَقْتَضِيهِ مِنْ تَرْك. واتِّبَاعُ الشَّيْطَان يَكُونُ بالاسْتِجَابَةِ لإغْوَاءَاتِه وإغْرَاءاته وَوَسَاوِسه وَتَسْوِيلَاتِه.

• ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: أَيْ: واتَّقُوا عَذَابَ رِبِّكُمْ الَّذِي أَبَانَهُ لَكُمْ فِي وَعِيدِه الْمُؤَجَّلَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّين، وَمَا قَدْ يَكُونُ مِنْهُ مُعَجّلاً فِي الدُّنيا.

• ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: رَاجِينَ أَنْ يَرْحَمَكُمْ رَبُّكُمْ، فَيَغْفَرَ لَكُمْ بالإيمَانِ وَالْإِسْلَام واتِّبَاعِ كِتَابِهِ، سَوَابِقَ خَطَاياكُم، وَجَرَائِمِكُمْ، وكُفْرِكُمْ بالْحَقِّ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولُ رَبِّكُمْ.

• ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾:

أي: نُوَجِّهُ لَكُمْ أيُّها الْمُشْرِكُونَ الْعَرَبُ، هـٰذا الأمْرَ باتِّبَاعِ الْقُرْآنِ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ الْمبينِ، مَنْعَ أَنْ تَقُولُوا مُعْتَذِرِينَ عَنْ كُفْرِكُمْ يَوْمَ الدِّين: إِنَّما أُنزِلَ الكِتَابُ الرَّبَّاني عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا هُمَا: الْيَهُودُ الّذِينَ أنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ التَّوْرَاة، والنَّصَارَىٰ الَّذِين أَنْزَلَ عَلَيْهُم الإنْجِيلَ. وإِنَّا كُنَّا عَنْ دِرَاسَةِ مَا عِنْدَ الْيَهُودِ والنَّصارَىٰ مِنْ كِتَابِ رَبَّانِيٍّ لَغَافِلِينَ، غَيْرَ شَاعِرِينَ بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتّبعَ ما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَاب.

الْغَفْلَة عَنِ الشيء: انْصِرَافُ الذِّهْنِ عَنْ مُلَاحَظَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ مَعَ وُجُودِهِ في مجال الإدْراك، أَوْ وُجودِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ في مَجَالِ الْإدْراك.

- ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ..﴾:

أي: أَوْ مَنْعَ أَنْ تَقُولُوا: لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ الَّذِي هُو هُدىً وَرَحْمَةٌ مِنْ رَبِّنَا، لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنَ الْيَهُودِ والنَّصارىٰ.

- ﴿.. فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ..﴾:

أي: فَهٰذِهِ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيّة بِلُغَتِكُمُ الْعَرَبِيَّة، جَاءَتْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وهُو كِتَابُهُ الْقُرْآن، الَّذِي هُو هُدىً يَهْدِيكُمْ إلى الحقّ، وإلى صِرَاط رَبِّكُمْ المُسْتَقِيم، وَهُو أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ لإنْقَاذِكُمْ مِنْ عذابِ رَبِّكُمْ، ولِفَوْزِكُمْ بِالْخُلُودِ يَوْمَ الدِّينِ فِي جَنَّاتِ النّعيم، سُعَدَاءَ تَنالُونَ كُلَّ مَا تُحِبُّونَ وَمَا تَشْتَهُونَ وَفَوْقَ مَا تَشْتَهُون.

- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا .. ﴿١٥٧﴾﴾؟!

صَدَفَ عَنْها: أي: أعْرَضَ وَمَالَ عَنْها وَلَمْ يَتَّبِعْ مَا جاء فيها.

والاستفهامُ يُرَادُ به النفي، أي: فلَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بآيات اللهِ وَمَالَ عَنْها مُعْرِضاً غَيْرَ عَابِئٍ بما فِيها مَنْ هُدىً وخَيْرٍ وَإسْعَادٍ للمؤمنين.

والمرادُ بآياتِ اللهِ هُنَا آيَاتُهُ الْبَيانِيَّة الْمُنَزَّلَةُ عَلَىٰ رَسُوله.

- ﴿.. سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

أي: سَنَجْزِي الَّذِينَ يُعْرِضُونَ مَائِلِينَ عَنْ آيَاتِنَا الْمُنَزَّلَاتِ عَلَىٰ رَسُولِنَا، غَيْرَ عابِئِينَ باتِّباعِها وَالْعَمَل بمَا تَقْتَضِيه مِنْهُمْ، شَدِيدَ الْعَذَابِ وَشَاقَّهُ وَمُؤْلِمَهُ.

سُوءَ العذاب: أي: شديدَ العذاب، وشَاقَّهُ، ومُؤْلِمَه، وهو من إضَافَة

الصِّفة إلى الموصوف، وأصل الكلام: الْعَذاب السُّوء، أي: الشّدِيد الشَّاقّ المؤلم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُحَذِّراً وَمُنْذِراً المعانِدِين من المشركين، وهو تَحْذِيرٌ دائِمٌ لِكُلِّ أَمْثَالهم:

• ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

أي؛ هَلْ يَنْتَظِرُونَ وهُمْ مُلازِمُونَ مَواقِعَهُمْ في الكُفْرِ إلَّا وَاحِدَةً مِنْ قَادِمَاتٍ ثَلاث:

القادِمَة الأولى: قادِمَةُ الْعَذَابِ عِنْدَ قَبْضِ أرْواحِهِمْ، إذْ تَأْتِيهِمْ مَلَائِكَةٌ يَضْرِبُونَ وُجوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، كما جاء بيانُهُ في الآيَة (٥٠) من سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول).

القادمة الثانية: قَادِمَةُ مَوْقِفِ الْحِسَاب بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكَ، كَما قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الْفَجْر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾.

القادِمَةُ الثالِثَة: قَادِمَةٌ كُبرىٰ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وآيَاتِها، كخُرُوجِ الدَّابَّةِ الَّتي تُكَلِّم الناسَ، وكَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبها، دَلَّ على هٰذِهِ القادمَة: ﴿.. أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا .. ﴿١٥٨﴾﴾:

ومن آياتِ رَبِّكَ إِنْزَالُ الْعَذَابِ الْمُعَجَّلِ الشَّامِلِ بِهِمْ لِإِهْلَاكِهِمْ.

وأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ، أَنَّهُ حِينَ يأتي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ الَّتي سَبَقَ

بَيَانَها، لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا إِذَا لَمْ تَكُن آمَنَتْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ، أَوْ لَا يَنْفَعُ نَفْساً خَيْرٌ تَكْسِبُهُ إِذَا لم تَكُنْ كَسَبَتْ خَيْراً مَعَ إِيمانِها قَبْلَ ذَلِك.

وكَسْبُ الْخَيْرِ في الْإِيمانِ، هُوَ عَمَلٌ مَا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ يَكُونُ تَعْبِيراً عن صِحَّةِ الْإِيمانِ وصِدْقِهِ في عُمْقِ الْقَلْبِ.

وَلَا يُشْتَرَطُ فِي نَفْعِ الإيمانِ إذَا جَاءَتْ بَعْضُ آياتِ اللهِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُها، اقْتِرَانُهُ بِكَسْبِ خَيْرٍ في الإيمَانِ، إِذْ لَوْ كَانَ هـٰذا شَرْطاً لَما جَاءَ العَطْفُ بحَرْفِ «أَوْ» بَلْ لَجَاءَ بِالواو. فَحَرْفُ «أَوْ» دَلَّنا عَلَىٰ أَنَّ مَا بَعْدَهَا تَعْبيرٌ عَنْ قَضِيَّةٍ ثَانِيَةٍ، هِي قَضِيَّةُ كَسْبِ خَيْرٍ في الإيمان بَعْدَ مَجِيءِ بَعْضِ آياتِ رَبِّكَ، فَهـٰذَا الكَسْبُ لَا يَنْفَعُ نَفْساً مُؤْمِنَةً، لَمْ تَكُنْ كَسَبَتْ فِي إيمانِها خَيراً قَبْلَ ذَلِك، إذ الباعِثُ عَلىٰ كَسْبِ الْخَيْرِ قَدْ كَانَ بَعْدَ إِقْفَالِ بَابِ التَّوْبَة، والآراء المخالفة لهذا الفهم مَنْقُوضَةٌ بالنصوص القطعيّة في القرآن والسنّة.

• ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ . . ﴿١٥٨﴾﴾: أي: قُلْ لَهُم يا مُحَمَّدُ: انْتَظِرُوا تَحْقِيقَ آمَالِكُمْ بِمَوْتِي والتَّخَلُّصِ مِنِّي، أَوْ بِحُدُوثِ حَدَثٍ يُوقِفُ مَسِيرَةَ دَعْوَتِي، فأَنَا وَالّذِينَ آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي مُنْتَظِرُونَ نَصْرَ اللهِ لَنَا، ومُنْتَظِرُونَ أَنْ يُظْهِرَ دِينَهُ على الدِّين كُلّه.

وهَـٰذَا ما حَصَلَ فِعْلاً بَعْدَ بِضْعِ سنين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خِطاباً لِرَسُولِهِ بشأن المشركين وغَيْرِهِمْ الَّذِينَ تَرَكُوا دينَ اللهِ الْوَاحِدِ، فَتَفَرَّقُوا أَدْيَاناً وَمَذَاهِبَ، وصَارُوا شيعاً وأَحْزَاباً كُلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهِمْ فَرِحُون:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾:

أي: إِنَّ الّذِينَ تَرَكُوا دينَ اللهِ وَصِرَاطَهُ المُسْتَقِيمَ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا

لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الَّتِي بَلَّغْتَهُمْ إيَّاهَا، لَا بُدَّ أَنْ يَتَّخِذُوا سُبُلاً مُتَفَرِّقَةً مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ الشِّمَال، وَهٰذِهِ السُّبُلُ تَسِيرُ في انْحِدَارٍ إلى الْحَضِيضِ وعَذَابٍ أَلِيمٍ خَالِدٍ يَوْمَ الدِّين، ولَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ دِينٌ بِحَسَبِ سَبِيلِهِ الانْحِدَارِيِّ الَّذِي اخْتَارَه، فَيَكُونُونَ بِذَلِكَ قَدْ فَرَّقُوا دِينَهُمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَعَصَّبَ كُلُّ فَرِيقٍ لِدِينِهِ مُشَايِعاً سَالِكِي سَبِيلِهِ الآخِذِينَ بِالدِّينِ المَلائِمِ لِهٰذِهِ السَّبِيلِ اعْتِقَاداً وَسُلُوكاً.

هَؤُلَاءِ لَسْتَ يَا مُحَمَّدُ فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ، ولَسْتَ فِي شَيْءٍ مِنْ مُشَايَعَتِهِمْ، وَلَسْتَ مَسْؤُولاً عَنْ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهم، فَلَا تَحْمِلْ هَمَّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَىٰ الله، هُو الَّذِي يُحْبِطُ أَعْمَالَهُمُ الكَيْدِيَّة، وَهُوَ الَّذِي سَيُظْهِرُ دِينَهُ، وسَيَنْصُرُكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ عَلَيْهِمْ، وَسَتَأْتِيهِمْ آجَالُهُمْ دُونَ تَحْقِيقِ آمَالِهِمْ الّتِي يَنْتَظِرُونَ تَحْقِيقَها، وَيَنَالُونَ قِسْطاً مِنْ عَذَابِهِمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وَفِي مُدَّةِ البرزخ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ لِيَقِفُوا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ للحسَابِ، وَفَصْلِ القضاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء، وحِينَ يُسَائِلُهُمْ رَبُّهُمْ يُنَبِّئُهُمْ بما كَانُوا يَفْعَلُونَ في الحياةِ الدُّنْيا حَيَاةِ الابْتِلاء، تَوْطِئَةً لِلْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بما يَسْتَحِقُّونَ مِنْ جَزَاءٍ بِالْعَدْلِ.

شِيعاً: جمعُ «شِيعَةٍ» وهم القوم والجماعة من الناس، الَّذِين يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ أمْرٍ ما، وكُلُّ قَوْمٍ أو جماعَةٍ لهم أَمْرٌ يَسِيرُونَ عليه، أو طَرِيقَةٌ واحِدَة يَتَّبِعُونها.

والشيعةُ في الغالب يُنَاصِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فيما اتَّفَقُوا عليه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في خِتَامِ هَـٰذا الدَّرْسِ مُبَيِّناً الْقَاعِدَةَ الْعَامَةِ لِلْجَزاءِ عِنْدَهُ يَوْم الدّين، إتْماماً لِلْحَدِيثِ عَنْ مَوْقِفِ حِسَابِ الّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شيعاً:

● ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾:

الْحَسَنَةُ: أي: المكْسُوبَةُ الحسَنَةُ بالاخْتِيَارِ الْحُرِّ مِنَ الموضوع في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

السَّيِّئةُ: أي: المكْسُوبَةُ السَّيِّئَةُ بالاخْتِيَارِ الْحُرِّ من الموضوع في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

وَقَدْ أبَانَتْ هـٰذِهِ الآيَةُ أَدْنَىٰ الْجَزَاءِ عَلَىٰ الأعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْحَسَنَةِ، وَهُوَ مُضَاعَفَةُ الثَّوَابِ عليها إلى عَشْرِ أمْثَالِها، وهـٰذه قابلَةٌ للزيادةِ بِفَضْلِ الله.

وأبانَتْ أَعْلَىٰ الجزاءِ عَلَىٰ الأعْمَالِ السَّيِّئَةِ، وهو الْعِقَابُ عَلَيْها بِمِثْلِهَا فَقط، فَمَهْمَا بَلَغَ عِقَابُ الْمُسِيءِ عَلَىٰ سَيِّئَتِهِ فإنَّهُ لا يُجْزَىٰ إلَّا مِثْلَهَا، والْمُسِيئُونَ لَا يُظْلَمُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَهـٰذا الجزاء قَابِلٌ للنَّقْصِ مِنْهُ بِعَفْوِ اللهِ وَغُفْرَانِهِ وَفَضْلِهِ علىٰ المسيئِينَ مِنْ عِبَادِه، ضِمْنَ مُقْتَضَيَاتِ حِكْمَتِه.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني والثلاثين من دُروس سورة (الأنعام).
والحمد لله في مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.



(٣٧)
التدبر التحليلي للدرس الثالث والثلاثين من دُروس سورة (الأنعام) الآيات من (١٦١ ـ ١٦٥) وهو الدرس الأخير

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم

مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

القراءات:

(١٦١) • فتح ياء المتكلّم من [رَبِّيَ إِلَىٰ] نافع، وأبُو عمرو، وأبو جعفر. وأسْكَنهَا باقِي القراء العشرة.

(١٦١) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جَعْفر، ويَعْقُوب: [دِيناً قَيِّماً].

وقرأها باقِي الْقُرّاء العشرة: [دِيناً قِيَماً].

وبين القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَداء المعنى المراد، فَمَعْنَى: «قَيِّم» مُسْتَقِيم استقامةً كاملَة، إذِ الصيغَةُ صيغَةُ مُبالَغةٍ لاسم الفاعل «قائم».

ويتَرَجَّحُ لَدَيَّ أنَّ الْمُرَادَ بِقِرَاءَةِ [دِيناً قِيَماً] دِيناً ذَا مَبَادِئَ عظيمةٍ تُقَوِّمُ بِهَا العقائِدُ وأَنْوَاعُ السُّلُوكِ الإنْسَاني، فاللَّفْظُ على هٰذا جَمْعُ قِيمَةٍ، وهو نظير: «دِيمَةٍ، ودِيَم»[١].

(١٦١) • قرأ هشام: [إِبْرَاهام].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [إِبْرَاهِيمَ].

(١٦٢) • قرأ قالُون، وأبو جَعْفَر: [وَمَحْيَايْ] بِإِسْكَان الياء الثانية وصْلاً ووقْفاً، وحينئذٍ يَمُدَّان مَدّاً مشبعاً لأجل الساكنَيْنِ، وهٰذا وجْهٌ لورش.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَمَحْيَايَ] وَهو الوجه الثاني لورش، وحِينئذٍ لَا مَدّ.

---

(١) قال السمين: هذا على رأي البصريين إلّا الأخفش (انظر الآية (٥) من سورة النساء).

وكلُّ مَن فَتَحَ الياءَ في الوصْلِ يجوز لَهُ في الوقف الأوْجُهُ الثلاثَةُ مِنْ السُّكُونِ العارض.

(١٦٣) • أثبت أَلِفَ «أَنَا» من: [**وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**]: في الوصل نافع، وأبو جَعْفر.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِحَذْفِ الْأَلِفِ وَصْلاً.

ولا خِلَافَ عِنْدَهُمْ في إثباتِ الألِفِ في الوقف.

تمهيد:

هذا الدَّرس من فروع السَّاقِ الثَّانِي من ساقَيْ شجرة موضوع السورة، وهُوَ الدَّرْس الأخير من دُروسها الْبَدِيعَة، وفي آياتِهِ يُكَلِّفُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ أَنْ يُعْلِنَ لِقَوْمِه كُبْرَيَاتِ كُلِّيَّاتِ الدِّينِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ عَقِيدَةً وسُلوكاً، ويَلْتَزِمُ الْعَمَلَ بِهِ في حَيَاتِهِ، وأَنَّهُ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ المُطِيعِينَ للهِ في أَحْكَامِ دِينِهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مَسْؤُولاً عَنْ كُفْرِ مَنْ يَكْفُرُ مِنْهُمْ، وأَنَّ مَرْجِعَهُمْ إلى اللهِ الَّذِي سَوْفَ يُجَازِيهِمْ على مَا كَسَبُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، الَّتِي خَلَقَهُمْ فيها، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتاهُمْ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُعَلّماً مَا يَقُولُهُ للنَّاس:

• ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ وفي القراء الأخرى: [**دِيناً قَيِّماً**]:

﴿هَدَىٰنِي﴾: أي: بَيَّنَ لي، وأوْضَحَ، وأرْشد، يقال لغة: «هَدَاهُ الطَّرِيقَ، وهَدَاهُ إلَيْهِ، وَهَدَاهُ له» أي: بيّنَهُ وأوضَحَهُ لَهُ، وأرْشدَهُ إلَيْه.

أي: قُلْ يا رَسُولَنَا، يا مَنْ جَعَلْنَاكَ خاتم المرْسَلِين، ورسُولاً للنَّاسِ

أجْمَعِين، إنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم لَا عِوجَ فِيهِ ولا الْتِوَاء، حَالَةَ كَوْنِهِ دِيناً مُشْتَمِلاً عَلَىٰ مَبادِئَ وحَقَائِقَ وَفضَائِلَ ومَحَاسِنَ وَضَوَابِطَ لِلسُّلُوكِ النَّفْسِيِّ والْجَسَدِيِّ قَيِّمَةٍ، أي: مُسْتَقِيمَةٍ اسْتِقَامَةً تَامَّةً، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا قِيمَةٌ فَذَّةٌ تُقَوَّمُ بِهَا مَا يَقْتَرِحُهُ النَّاسُ من بدائِلَ، فَتَكْشِفُ مَا فِيهَا مِنْ نَقْصٍ وعُيُوبٍ وَمُخَالَفَاتٍ لِمَا تَقْتَضِيهِ سعادةُ النَّاسِ العاجِلَةُ والآجِلَةُ، وَجَمِيعُها قِيَمٌ عَظِيمَةٌ مُتَّصِفَةٌ بالْحَقِّ والْخَيْرِ والْحُسْنِ والْجَمَالِ والكَمَالِ.

أُطْلِقَ الصِّرَاطُ فِي القرآنِ بالإفراد اصطلاحاً، علىٰ الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ، الشَّامِلِ لأُصُولِهِ وشَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ وبياناتِهِ وَتَعْلِيماتِهِ وَوَصَايَاه.

وَهٰذا مِنْ نَقْلِ مَا هُو في اللُّغَةِ لِلْمَادِيَّاتِ، إلى المعنويَّاتِ والْفِكْرِيَّاتِ والمُشَابِهَاتِ لَهَا، عَلَىٰ سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ أَوَّلاً، ثُمَّ يَجْرِي تَعْمِيمُهُ اصْطلاحاً، وهٰذَا كثيرٌ في القرآن المجيد.

- ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: أي: دِينَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ، وهو بَدَل من [**ديناً**].

المِلَّة: الدّين، والشّريعة.

وكَوْنُ مَا جاء بِهِ محمَّدٌ ﷺ مِلَّةَ إبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلام هُو باعْتِبَارِ أَنَّ دِينَ اللهِ لِعِبَادِهِ وَاحِدٌ في أصُولِهِ وَعَقَائِده وَكُلِّيَّاتِهِ السُّلُوكية. وفي بيانِ أَنَّهُ مِلَّةُ إبراهيمَ إعْلَامٌ لِلْعَرَب بأنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ قَبْلَ التحريفاتِ الشّركِيّةِ والجاهِلِيَّةِ هُوَ مَا تَلَقَّوْهُ عَنْ إسْمَاعِيلَ الَّذِي تَلَقَّاهُ عَنْ أَبِيهِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِما السَّلام وَجَعَلَهُ اللهُ بِهِ رَسُولاً لِلْعَرَب. وإعْلَامٌ لِلْيَهُودِ وللنَّصَارَىٰ بأنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ هُوَ مِلَّةُ إبراهيم، وجَاءَ تَجْدِيدُهُ تَنْزِيلاً عَلَىٰ مُوسَىٰ وعيسَىٰ عَلَيْهِما السَّلام، وهٰذا قَبْلَ التَّحْرِيفَاتِ الَّتِي دَخَلَتْ في الْيَهُودِيَّةِ والنَّصْرَانِيَّة.

﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام

مَائِلاً عَنْ كُلِّ عِوَجٍ في مِلَلِ الناسِ ومَذاهِبِهِمْ، وَهـٰذا إنَّما يَكُونُ بالاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ صِرَاطِ اللهِ المستقيم، فالمائِلُ عَنْ كُلِّ عوَجٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِيماً.

وَفي عبارة: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إسْقَاطٌ لانْتِمَاءِ الْعَرَبِ إلىٰ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام، بَانِي الكَعْبَةِ هُو وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيل، ومُعَلِّمِ الْعَرَبِ الحجَّ وَمَنَاسِكَهُ وَشَعَائِرَهُ.

وفي عبارة: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّىٓ﴾ توكيدٌ بِـ: «إنَّ ـ والْجُمْلةِ الاسْمِيَّةِ» والدَّاعِي للتوكيد أنَّ في المخاطَبِينَ مُنْكِرُونَ، وشَاكُونَ، وحَالُهُمْ تَحْتَاجُ تَوْكيداً.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في خِطَابٍ تَعْلِيمِيٍّ لِرَسُولِهِ ﷺ أيْضاً:

• ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾:

الصَّلَاة: هِي في الاصْطِلاحِ الدِّينِيِّ الْعِبادَةُ الْمَعْرُوفَةُ، ذَاتُ الْقِيَامِ والرُّكُوعِ والسُّجُودِ والجلوس، والتلاوات، والأذْكار والأدْعية.

النُّسُكُ والنُّسْكُ: الْعِبادَة، وكُلُّ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ إلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، مِنْ عَمَلٍ ظاهِرٍ أو بَاطِنٍ، نَفْسِيٍّ أَوْ ذِي حَرَكَاتٍ جسدِيَّة.

وَفي هَـٰذا يُعَلِّمُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: إنِّي أَدْعُوكُمْ إلَىٰ دِينٍ أَنَا أَوَّلُ الْمُلْتَزِمينَ بِهِ، إنَّ صَلاتِي الَّتِي هِيَ رَأْسُ أعْمَالِي التَّعَبُّدِيَّة، وسَائِرَ نُسُكِي الَّذِي أعْبُدُ بِهِ رَبِّي، مِنْ سُلُوكٍ نَفْسِيٍّ وَجسدِيٍّ ظَاهِرٍ وبَاطِنٍ، كُلُّ ذلِكَ بِإرَادَتِي الصَّادِقَةِ أجْعَلُهُ خَالِصاً للهِ رَبِّي، وَلَا أَجْعَلُ شيئاً مِنْهُ لِغَيْرِه، إذْ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ.

وَأُومِنُ إيماناً رَاسِخاً لَا يَتَزَلْزَلُ أَنَّ مَحْيَايَ وَمَمَاتِي مِلْكٌ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ بِكُلِّ شَيْءٍ هو مِنْ ذَاتِي في حَيَاتي،

وَبِكُلِّ شَيْءٍ هو مِنْ ذَاتِي فِي مَوْتِي، فَأَنَا أَجْعَلُ مَا هُوَ لِي بِإِرَادَتِي خالصاً لِلَّهِ رَبِّي، كَمَا أَنِّي فِي حَيَاتِي وَفِي مَوْتِي مِلْكٌ لِلَّهِ رَبِّي الَّذِي هُو رَبُّ العالَمِين، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَفِي إِلٰهِيَّتِه.

﴿.. وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ..﴾: كُلٌّ مِنْهُمَا مَصْدَرٌ مِيمِي، فَهُما بِمَعْنَىٰ: حَيَاتِي ومَوْتي.

وَاللَّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ لِلْمِلْكِ، أي: صَلَاتي، ونُسُكِي، وحَيَاتِي، ومَوْتِي، كُلُّهَا مِلْكٌ لِلَّهِ، فأنا أُوَجِّه صَلَاتِي وَنُسُكِي لِلَّهِ مَالِكِهما، وأومِنُ بأنَّ حَياتي ومَوْتي هُمَا مِلْكٌ لِلَّهِ جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

﴿.. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ..﴾: أي: وبِـذَلِـكَ الَّـذِي هُـوَ جَـعْـلُ صَـلاتـي وَنُسُكِي لِلَّهِ، وإيماني بأنَّ حَيَاتِي وَمَوْتِي لِلَّهِ أُمِرْتُ مِنَ اللهِ رَبِّي الَّذِي، هو رَبُّ العالَمِين.

﴿.. وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .. ﴿١٦٣﴾﴾: أي: وَبِـمـا أَنِّـي أَوَّلُ مُـتَـبَـلِّـغٍ مِـنْ هٰـذِهِ الْأُمَّةِ لِدِينِ اللهِ، فَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَسْلِمِينَ لِلَّهِ رَبِّي فيهم، الْمُلْتَزِمِينَ بِطَاعَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، فَلَا إعْفَاءَ لِي عَنْ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَظَراً إِلَىٰ أَنِّي رَسُولُ هٰذِهِ الْأُمَّةِ الْخَاتِمَةِ، وقَائِدُهَا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في خِطَابٍ تَعْلِيمِيٍّ أيضاً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾:

في هذ الختام الَّذِي خَتَمَ اللهُ به سورة (الأنْعام) يُكَلِّفُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ثَماني قَضَايَا:

الْقَضِيَّةُ الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لرسُوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ..﴾: اسْتِفْهَامُ إنْكَارِيٌّ تَعَجُّبِيٌّ مِنْ دَعْوَةِ الْمُشْرِكِينَ إلَىٰ عِبادَةِ آلِهَتِهِمْ مِنْ دُونِ اللهِ.

أي: قل يَا مُحَمَّدُ لِلْمُشْرِكِينَ وَاضِعاً نَفْسَكَ مَوْضِعَ الْبَاحِثِ الطَّالِبِ، الَّذِي يَطْلُبُ لِنَفْسِهِ رَبّاً في الْوُجُودِ: أغيْرَ اللهِ أَطْلُبُ لِنَفْسِي رَبّاً مَالِكاً مَحْيَايَ وَمَمَاتِي، حَتَّىٰ أَتَّخِذهُ إِلَهاً أَخُصُّهُ بِصَلاَتِي وسَائِرِ عِبَادَاتِي، وأَدْعُوهُ لِيُحَقِّقَ لِي مَا أرْغَبُ فِيهِ مِنْ جَلْبِ نَفْعٍ، ودَفْعِ ضُرٍّ، وَهُوَ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ في الْوُجُودِ كُلِّهِ، يُهَيْمِنُ عَلَيْهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، ويَتَصَرَّفُ فِيهِ بِهَا عَلَىٰ وَفْقِ اخْتِيَارِهِ الحكِيم.

إنَّ أَمْرَكُمْ يَا أَيُّها الْمُشْرِكُونَ، وَدَعْوَتَكُمْ إلى عبادة آلِهَتِكُم الَّتِي لَيْسَ لَهَا شيءٌ مِنَ الرُّبُوبِيَّة، لَمُسْتَنْكَرٌ جدّاً، ولَهُوَ أَمْرٌ عَجِيبٌ لاَ يَصْدُرُ عَنْ ذِي عَقْلٍ وفَهْمٍ صَحِيحٍ سَلِيمٍ.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً خِطَابَهُ لرسوله: ﴿.. وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ..﴾: أي: وَمِنْ حِكْمَتِهِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَنَّهُ خَلَقَ النَّاسَ بِصِفَاتِهِم الْمُتَمَيِّزَة، وجَعَلَ لَهُمْ إراداتٍ حُرَّة، لِيَضَعَهُمْ فِي الحياة الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فَمَنْ عَمِلَ صَالحاً فَقَدْ كَسَبَ لِنَفْسِهِ ثَوَاباً عَظِيماً، يَتَفَضَّلُ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ، في جَنَّاتِ النَّعِيم. وَمَنْ عَصَىٰ رَبَّهُ الَّذِي وَضَعَهُ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، فَقَدْ جَنَىٰ بِكَسْبِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ اسْتِحْقَاقَ عُقُوبَةٍ من رَبِّهِ بالْعَدْلِ عَلَىٰ مِقْدَارِ ذَنْبِهِ. وَلَا تَجْنِي نَفْسٌ بِمَا تَكْسِبُ مِنْ آثَامٍ، عُقُوبَاتٍ مِنْ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ إلَّا عُقُوبَاتٍ مُسَلَّطَاتٍ عَلَيْها فَقَط، لَا يُشَارِكُهَا فيها أَحَدٌ.

الْقَضِيَّة الثَّالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيِّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿.. وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ..﴾ أي: وَلَا تَحْمِلُ نَفْسٌ مِنْ

شَأْنِهَا أَنْ تَرْتَكِبَ وِزْراً بِمَعَاصِيها لِرَبِّها، وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَىٰ حَمَلَتْ بِكَسْبِهَا وِزْراً، وَلَوْ شَاءَتْ ذَلِكَ رَغْبَةً مِنْهَا فِي أَنْ تُخَفِّفَ عَنِ النَّفْسِ الوازِرَةِ الَّتِي تُحِبُّهَا شَيْئاً مِنْ أَوْزَارِها، فَعَدْلُ اللهِ يَأْبَىٰ تَشَارُكَ الْوَازِرِينَ في آثامِهِم، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ يَحْمِلُ مِنَ الوِزْرِ مَا كَسَبَ بإِرَادَتِهِ الْحُرَّةِ، وَلَا يَحْمِلُ أَحَدٌ مَعَهُ مِنْهُ شَيْئاً وَلَوْ طَلَبَ ذَلِكَ، ولَنْ يَطْلُبَ. وفي مُقَابِلِ هٰذا: مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ عَمِلَهُ، لا يُشارِكُهُ أَحَدٌ فِيه.

الوِزْر: الحمْلُ الثَّقِيلُ، وأُطْلِقَ عَلَىٰ الذَّنْب الّذِي يَرْتَكِبُهُ المُكَلَّفُ المختار، المَسْؤُولُ عَنْ أَعْمَالِهِ الإراديَّة.

القَضِيَّة الرَّابعة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ تَعالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿.. ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ أَيُّهَا النَّاسِ تَمُوتُونَ، وَتَمْضِي عَلَيْكُم مُدَّةُ الْبَرْزَخِ الْفَاصِلَةِ بَيْنَ حَيَاتِكُمُ الأُولىٰ، وحَيَاتِكُمْ الأُخْرَىٰ بالْبَعْثِ وَقِيامِكُمْ مِنْ أَجْدَاثِكُمْ، عِنْدَئِذٍ يَكُونُ رُجُوعُكُمْ إِلَىٰ مُلاقَاةِ رَبِّكُم في مَحْكَمَةِ يَوْمِ الدِّينِ، وفي هٰذِهِ الْمَحْكَمَةِ الرَّبانِيَّةِ تُسْأَلُونَ، وَتُحَاسبُونَ، وَيُنَبِّئُكُمْ رَبُّكُمْ بِكُلِّ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ مِنْ إيمَانٍ وَعَمَلٍ نَفْسِيٍّ وَجَسَدِيٍّ، ظاهِرٍ وَبَاطِنٍ.

فَمَنْ وَافَقَ اخْتِلَافُهُ دِينَ اللهِ رَبِّهِ، الَّذِي جَعَلَ الالْتِزَامَ بِهِ هُوَ مَطْلُوبَهُ مِنْ عِبَادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، نَجا وَكَانَ مِنَ السُّعَدَاءِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، دار جزاء المتَّقين.

ومَنْ كَانَ اخْتِلَافُهُ مُضَادّاً لِدِينِ اللهِ رَبِّهِ، كَانَ مِنَ الأَشْقِيَاءِ في الْجَحِيمِ، دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِين.

وَمَنْ كَانَ اخْتِلَافُهُ مُوَافِقاً لِدِينِ رَبِّهِ في الإِيمانِ، مَعَ ارْتِكَابِهِ مَعَاصِيَ لِلَّهِ في السُّلُوكِ، اسْتَحَقَّ مِنَ الْعِقَابِ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا اكْتَسَبَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ مِنْ أَوْزَارٍ وآثام، وَقَدْ يَغْفِرُ اللهُ لَهُ وَيَعْفُو عَنْهُ بِحِكْمَتِهِ مَا

اكْتَسَبَ أَوْ بَعْضَ مَا اكْتَسَبَ، بِحَسَبِ عِلْمِهِ بالظُّرُوفِ الَّتِي مَرَّ بِهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ أَحداً مِثْقَالَ ذَرَّة.

جاءَتْ عِبارَةُ: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كِنايَةً عَنْ كُلِّ مَا يَجْرِي في مَحْكَمَةِ اللهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، لِأَنَّ هٰذا الْإِنْباءَ فِقرَةٌ مِنْ فِقرَاتِ هٰذِهِ المَحْكَمَة، فَهِيَ تَدُلُّ بِاللُّزُومِ الْفِكْرِيِّ عَلَىٰ مَا يَكُونُ قَبْلَهَا، وَمَا يَكُونُ بَعْدَهَا، وَهٰذا مِنَ الكِنَايَاتِ عند البلاغيّين.

الْقَضِيَّةُ الخامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ..﴾:

خَلَائف: جَمْعُ «خَلِيفَة» يكون بمعنى: «فاعل» ويكون بمعْنَىٰ: «مَفْعُول» وهُو من يَخْلُفُ غَيْرَهُ فَيَحُلُّ مَحَلَّهُ، إذا كانَ بمعنى اسْمِ الْفَاعِلِ، ومَنْ يَخْلُفُهُ غَيْرُهُ فَيَحُلُّ مَحَلَّهُ إذَا كان بمعنى اسم المفعول.

أي: واللهُ هُو الَّذِي جعَلَكُمْ خلائِفَ في الْأَرْضِ، تَخْلُفُونَ مَنْ قَبْلَكُمْ وَيَخْلُفُكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، لِيَقْضِيَ الْخالِفُونَ رِحْلَةَ امْتِحَانِهِمْ، بِحَسَبِ آجالِهِمُ المُقَدَّرَةِ لَهُمْ.

الْقَضِيَّةُ السَّادِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُتَابعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿.. وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾:

أي: وجَعَلَكُمْ رَبُّكُمْ مُتَفَاضِلِينَ فِي هِبَاتِهِ وَعَطَايَاهُ لَكُمْ فِي ذَوَاتِكُمْ وفِيمَا مَلَّكَكُمْ إِيَّاهُ مِنْ أَشْيَاءَ، وفيما مَتَّعَكُمْ بِهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحيَاةِ الدُّنيا، وَفِيما مَكَّنَكُمْ مِنْ أَنْ تَتَصَرَّفُوا فِيه، وفيما وَهَبَكُمْ مِنْ زِينَاتٍ وسُلْطَانٍ وَمَجْدٍ وَثَناءٍ حَسَنٍ، وَعِزٍّ وذُلٍّ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِنْ مُتَفَاضِلَاتٍ صَاعِدَاتٍ أَوْ هَابِطَاتٍ.

ومِنْ حِكَمِ اللهِ في هٰذا التَّفاضُلِ أَنْ يَمْتَحِنَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِيمَا آتَاهُ، وجاء في نَصٍّ آخَرَ: أَنْ يَتَّخِذَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً بِحَسَب خصائصِ كُلٍّ منكم.

إنَّ مِنَ الظَّاهِرِ الْجَلِيِّ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، أَنَّ نِظَامَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْخَلْقِ قَائِمٌ عَلَىٰ التَّفاضُلِ مِنْ أَدْنَىٰ سُلَّمِ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَعْلاه، في الذَّكاء، في الجمال، في الْقُوّة، في المال، في الصِّحَّة، في الْمَرَضِ، في العزّ، في الذّلّ، في إتْقَانِ الصِّنَاعَاتِ وعَدَمِ اتْقَانِها، في كُلِّ شيء.

الْقَضِيَّةُ السّابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُتَابِعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيمِيَّ لِرَسُولِه ﷺ: ﴿.. **إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ** ..﴾:

أي: وقُلْ لِمَنْ تَرىٰ أَنَّ مِنَ المَصْلَحَةِ أَنْ تُرْهِبَهُ مِنْ عِقَاب رَبِّهِ بأسْلُوب الْخِطَابِ الإِفْرَادِي: إنَّ رَبَّكَ الَّذِي هُو رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، إِذَا قَضىٰ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُعَاقِبَ الْمُذْنِبَ مِنْ عِبَادِه، وَقَدَّرَ لِعِقَابِهِ زَمَناً، فإنَّهُ سَرِيعُ تَنْفِيذِ الْعِقَاب، لَا يَحْتَاجُ إلى إعْدَادِ وَسَائِلَ، وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابٍ، بَلْ يَقُولُ لِلشَّيْءِ الَّذِي قَدَّرَهُ وَقَضاه: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ عَقِبَ أَمْرِ التَّكْوِينِ مُبَاشَرَة.

لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ حَلِيمٌ صَبُورٌ يُمْهِلُ عِبَادَهُ حَتَّىٰ آخِرِ مِقْدَارٍ زَمَنِيٍّ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَمْنَحَهُمْ الإمْهَالَ إِلَيْه.

فَسُرْعَةُ الْعِقَابِ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ سُلْطَانِ قُدْرَتِهِ، في الزَّمَنِ الْمُقَدَّرِ لِتَنْفِيذِ قَضَائِه، أَمَّا حِلْمُهُ وَصَبْرُهُ فَهُمَا مَظْهَرانِ مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ بِعِبَادِه، رَغْبَةً في أَنْ يَتُوبُوا وَيَصْلُحُوا وَيُصْلِحُوا.

القَضِيَّة الثَّامِنَة: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً خِطَابَهُ التَّعْلِيميّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿.. **وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ** ﴿١٦٥﴾﴾:

أي: وَقُلْ مُطْمِعاً الْمُذْنِبينَ مَهْمَا عَظُمَتْ ذُنُوبُهُمْ بالتَّوْبَةِ والاسْتِغْفَارِ والإيمانِ والإسْلَام وَالاسْتِقَامَةِ عَلَىٰ صِرَاطِ رَبِّك المستقيم: إنّ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَرَبَّ كُلِّ شيءٍ سِوَاه، لَغفُورٌ رَحِيمُ:

غفُورُ: أي: كثيرُ الْغُفْرَانِ وَعَظِيمهُ. **غفُور**: صيغة مُبالَغةٍ لغافر.

رَحِيم: أي: واسِعُ الرَّحْمَةِ وَعظيمُها. **رَحِيم**: صِيغَة مبالَغَة لراحم.

ويلاحَظُ أَنَّ عِبَارَة الإطماع هـٰذه جَاءَتْ مُؤَكَّدَةً بما يلي: «إنَّ ـ الْجُمْلة الاسميَّة ـ اللَّامُ المُزَحْلَقَة».

أمّا عِبَارَة القضيَّة السَّابِعَة فَقَدْ جاءَت مُؤَكّدَةً بمؤكّدَيْنِ فقط، إذ لَيْسَ فيها لام الابتداء المُزَحْلَقَة إلى الخبر.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر سُورَةِ (الأنْعَام). والحَمْدُ للهِ على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفَتْحِه المبين.

❁ ❁ ❁

(٣٨)
مُلْحَق
مُستَخْرَجَات بلاَغِيَّة مِنَ السُّورة

يوجَدُ فِي سُورةِ (الأنعام) اختياراتٌ بلاغيَّة هي من عَنَاصِر إعجاز القرآن المجيد، ومنها المُسْتَخْرَجَاتُ التاليات الّتي لم أسْتَقْصِ فيها كُلَّ مَا يمكن اسْتِخْرَاجُهُ من هـٰذه السُّورَة العظيمة.

أولاً

من عناصر إعجازِ القرآن الحذْفُ من مَنْطُوقِ اللَّفْظ، والطَّيُّ في المثاني، مع الدَّلالَةِ عَلَىٰ المطْوِيّ فيها بإشَارَاتٍ لفظيّةٍ، أو لوازِمَ فِكْرِيَّة، أو دَلالَاتِ نُصُوصٍ أخرىٰ مُوَزَّعَاتٍ في القرآن المجيد.

ومن الأمثلة على هـٰذا في هـٰذِهِ السورة ما يلي:

المثال الأوَّل: قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿.. لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿١٢﴾﴾:

أي: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مَسُوقِين ﴿إِلَىٰ﴾ مَوْقف الْحِسَابِ وَفَصْلِ القضاءِ في ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾:

حُذِف من الأواخر لدلالة الأوائل. أي: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ فَلا رَافِعَ لَهُ إلَّا هو ﴿فَهُوَ﴾ الْحَفِيظُ النّافِعُ، وهُوَ الكاشف الرافع، وهو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿.. وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ .. ﴿١٩﴾﴾:

أي: لِأُنْذِرَكُمْ يا سَامِعِيَّ بمَا جاءَ فِيهِ مِنْ إنْذَارات بِعِقَابٍ عَاجِلٍ أو آجل، وَلِأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتي، ومَنْ بَلَغَهُ مَا جاءَ في القرآنِ من حقائق هـٰذا الدّين.

المثال الرابع: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وهم بِنَهْيِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْقُرآنِ وبِنَأْيِهِمْ عَنْهُ يَفْعَلُونَ أفْعَالاً مُهْلِكَةً، ومَا يُهْلِكُونَ بِهَا إلّا أَنْفُسَهُمْ، وما يَشْعُرُونَ، لِأَنَّ عِقَابَهُمْ لَيْسَ مُقَارِناً لِأَفْعَالِهِمْ، ولَا يَأْتِي عَقِبَ أفعالِهِمْ مُبَاشَرة، وإِنَّمَا يَأْتِي بَعْدَ مُدَّة بَغْتَةً وهُمْ لَا يَشْعُرُون.

وفي هـٰذه الآية قَصْرٌ أَيْضاً، وهو قَصْرُ إهلاكهم على أنفسهم.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: ولو ترى أيُّها الرائي أيّاً كُنْتَ إذْ وُقِفُوا على الْمَكَانِ الْمُشْرِف على هَاوِيَةِ النَّارِ، وهـٰذا يَكُونُ عِنْدَ أبْوَابِها.

المثال السادس: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: ولو تَرىٰ أيُّها الرائي أيّاً كُنْتَ الْمُكَذِّبِينَ بالْبَعْثِ وَيَوْم الدِّين، حِينَ وُقِفُوا علىٰ مَوْقِفِ مُحاكَمَةِ رَبِّهِمْ لهم، لرأيْتَ ذِلَّتَهُمْ وَاعْتِرَافَهُمْ بأنَّ ما كانُوا يُكَذِّبُونَ بِهِ في الدُّنْيَا حَقٌّ، فَيُصْدِرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ بِالْخُلُودِ في عَذَابِ النّار، وَيَقُولُ لهم: ادخلوا النار ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ جحوداً واسْتِكْباراً واتّباعاً للهوى.

المثال السابع: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لرسوله:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ .. ﴿٣٤﴾﴾:

أي: ولَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّد وَأُوذُوا فَصبروا علَىٰ مَا كُذِّبُوا به، وعلىٰ ما أُوذُوا بِهِ، حتَّىٰ أتَاهُمْ نَصْرُنَا، فاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ نَصْرُنا.

المثال الثامن: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسوله أيضاً:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ .. ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وإنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ الْهَمُّ والْحُزْنُ بِسَبَبِ إعراض مَنْ تحرِصُ

على إيمانِهِمْ وإسْلَامهم، وبِسَبَبِ عَدَم اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِك، فَثَقُلَ هٰذَا عَلَىٰ مَا لَدَيْكَ مِنْ احتِمَالٍ وَصَبْر، فإن اسْتَطَعْتَ أَنْ تَطْلُبَ حَفْرَ نَفَقٍ في الْأَرْضِ، أَوْ صُنْعَ سُلَّمٍ تَصْعَدُ بِهِ في السَّمَاءِ، فَتَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ تَجْعَلُهُمْ يَخْضَعُونَ لَهَا مُؤْمِنِينَ فَافْعَل.

ولَنْ يَفْعَلِ الرَّسُولُ شيئاً عَلَىٰ خِلَافِ حِكْمَةِ الله، ولَكِنْ يُبَيِّنُ اللهُ بهٰذا للمتعنِّتِينَ حُدُودَ وَظيفة الرسول فِيهم، وأَنَّ الإتيان بالآيَاتِ الخارقات المعجزات لَيْسَ مِنْ صَلَاحِيَّاته.

المثال التاسع: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ مُعَلِّماً:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ .. ﴿٤١﴾﴾:

أي: أرَأَيْتُم أَنْفُسَكُمْ إنْ أتَاكُمْ مَا يُنْزِل بِكُمْ عَذَابَ اللهِ من وسَائِلَ، أَوْ أتَتكُم مُقَدِّمَاتُ السَّاعَة، أَغيْرَ اللهِ تدْعُونَ لِيَصْرِفَ عَنْكُمْ مَا هُوَ مُقْبِلٌ نَحْوَكم، أَخبِرُونِي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقين.

فإنْ قَالُوا: نَدْعُوا آلِهَتَنا، فَقُلْ لهم: لَا تَكْذِبُوا، بَلْ تَخُصُّونَ اللهَ وَحْدَهُ بالدُّعاء، لِأَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغِيثُكُمْ ولا تنجيكم، بل الله هو وحده الذي يغيثكم ويُنْجيكم إن شَاءَ، لِأَنَّهُ هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيد.

المثال العاشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ مُعَلِّماً:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

جواب الشَّرْط في: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ مَحْذُوف، تَقْدِيرُه: فَلا إِلَٰهَ غَيْرُ اللهِ يَصْرِفُ عَنْكُمْ مَا أتاكُمْ مِنْ وَسَائِلِ تَعْذِيبكُمْ.

المثال الحادي عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾:

أي: وَمِثْلَ التفصيل الّذي سَبَقَ في الآيات، نُفَصِّلُ الآياتِ بِحَسَبِ مُقْتَضِيَاتِ الْحِكْمَة، لِيَسْتَبِينَ ويظْهَرَ صِراطُ الْحَقِّ المستقيم، صراط الذين أنْعَمْنَا عَلَيهم، ولِتَسْتَبِين وتَظْهَرَ سَبِيلُ المجرمينَ، الَّذين سَوْفَ يَكُونُونَ يوم القيامة خالدين في عذاب الجحيم.

المثال الثاني عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرسوله ﷺ:

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾:

أي: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ فَإنِّي إنْ اتَّبعْتُ أَهْواءَكُمْ أكُونُ ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

المثال الثالث عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠﴾.

أي: ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عِنْدَهُ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ وَتَعُودُ أَجْسَادُكُمْ تُراباً، ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ مِنْ مَوْتِكُمْ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لِتُلاقُوا حِسَابَكُمْ، وَفَصْلَ قَضَائِهِ في كُلِّ واحِدٍ مِنْكُم ﴿ثُمَّ﴾ في مَحْكَمتِهِ ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ في حَيَاةِ ابْتِلَائِكُمْ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ تَوْطِئَة لإصْدار أحْكَامِه.

المثال الرابع عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ مُعَلِّماً:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣﴾:

أي: قل مَنْ يُنْجيكُمْ مِنْ كُرُبَاتٍ تُحِيطُ بِكُمْ فِي ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

المثال الخامس عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لرسول الله ﷺ:

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ . . ﴿٦٥﴾﴾:

أي: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ فيجعلكُمْ ﴿شِيَعًا﴾ مُتضادَّةً مُتعادِيَةً مُتقاتِلَةً ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ﴾.

المثال السادس عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

أي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الَّذِي سَبقَ بَيانُهُ مِنْ جدالِ إبراهيم لقومه ﴿نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لِيَكُونَ ذَا حُجَجٍ بُرْهَانِيّة يُثْبِتُ بِهَا أَنَّهُ لا رُبُوبِيَّةَ فِي الْكَوْنِ إلَّا لَنَا، وَلا إلَهِيَّةَ بِحَقٍّ في الْكَوْنِ إلَّا لَنا ﴿وَلِيَكُونَ﴾ هُوَ في ذَاتِهِ ﴿مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ بذَلِكَ، العالِمِينَ به عِلْماً لَا يُخَالِطُهُ وَلَا يَمَسُّهُ شَكٌّ.

المثال السابع عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُوله:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ . . ﴿٩٢﴾﴾:

أي: ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ يا مُحَمَّدُ مَنْ يَسْكُنُ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَ﴾ كُلَّ ﴿مَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ من النَّاس حتَّىٰ آخِرِ سَاكِنٍ في الأَرْض، ويقومُ معك بالإنذار الدُّعاة من أمَّتِكَ على تتابعِ الأجيال.

المثال الثامن عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ . . ﴿٩٣﴾﴾:

جواب «لَوْ» مطويٌّ، تقديرُه: لَرَأَيْتَ شِدَّةَ مَا هم فيه من عَذابٍ عظيم.

المثال التاسع عشر: قولُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خطاباً للمشركين يَوْمَ الدِّين:

﴿.. لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

أي: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ﴾ الْوَاصِلُ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وَبَيْنَ آلِهَتِكُمْ مِنْ أَسْبَاب، فَلَمْ تَجِدُوا لَهَا أثراً.

المثال العشرون: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾:

أي: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أَوْ دَرَكَاتٌ ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾.

المثال الحادي والعشرون: قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿.. وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ .. ﴿١٥٢﴾﴾:

أي: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ والمِكْيَالَ، والْوَزْنَ ﴿وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ دَلَّ «الكيل» الذي هو مَصْدَر على «الوزن» المحذوف. ودَلَّ «الميزان» الذي هو آلَة عَلَىٰ المكْيَالِ المحذوف.

الكيل: التقدير بالمكيال.

الميزان: الأدَاة الَّتِي يُوزَنُ بها.

ثانياً

من منهج البيان القرآنيّ في الأقوالِ والأحْدَاثِ والْقِصَص استقطاع النُّصُوص مِنْ أَزْمَانها الماضِيَة أو المُسْتَقْبَلة وعَرْضُهَا بألْفَاظِهَا، دونَ الإشَارَةِ إِلَىٰ أَنَّهُ كَانَ كَذَا فيما مَضَىٰ، أو سَيَكُونُ فِيما سَيَأْتِي. وهـٰذا فنٌّ بَدِيعٌ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ الأُدَبَاءُ والْبُلَغاء، واكْتَشَفَهُ الإعْلاَمِيُّون حَدِيثاً.

ومن أمْثِلَة هـٰذا الْفَنِّ البديع في السورة ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ أَهْلِ جَهَنَّمَ وقد جاء في معرض الحديث عن المشركين:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: ولَوْ تَرَىٰ أَيُّها الرَّائي أَيّاً كُنْتَ، هـٰذا الْمَوْقِفَ الّذِي سَوْفَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيامَةِ، لَرَأَيْتَ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ عَظِيمَةٌ لِمَنْ يَعْتَبِر، ولَكِنْ لَا يُجْدِي يَوْمَئِذٍ الاعْتِبَارُ.

وقد جاءَ التَّعْبِيرُ هُنا عمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ يَوْمَ القيامَةِ بِصِيغَةِ الفِعْل الماضي في «وُقِفُوا» وفي «فَقَالُوا» اسْتِقْطاعاً من الْحَدَثِ الَّذِي سَوْفَ يكُونُ حَتْماً في المسْتَقْبلِ، وظاهرٌ أَنَّ التَّعْبيرَ عَمَّا سَوْفَ يَحْدُثُ بالْفِعْلِ الماضِي تَعْبيرٌ يُؤَكِّدُ أَنَّهُ سَوْفَ يَتَحقَّقُ حَتْماً، فَهُوَ بِمَثَابَةِ أَدَواتِ تَوْكِيد.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْن أهل جهنم أيضاً:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: ولَوْ تَرَىٰ أَيُّها الرَّائي أيّاً كُنْتَ، هـٰذا المَوْقِفَ الَّذِي سَوْفَ يكون يَوْمَ القيامَة، حِينَ يُوقَفُونَ عَلَىٰ مَوْقف حساب ربِّهِمْ لَهُمْ.

ومَا جاء في هـٰذِهِ الآيَةِ نظير ما جاء في الآيَة السابقة.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

هـٰذِهِ الآيَة شبيهَةٌ سَابِقَتَيْهَا في الاسْتِقْطَاع من المُسْتَقْبَلِ، وحِكَايَتِهِ بأسْلُوبِ حِكايَةِ حَدَثٍ مَضَىٰ لِتَوْكِيد أَنَّهُ سَوْفَ يَحْدُثُ حَتْماً.

ثالثاً

التقديمُ والتَّأْخِيرُ على خِلَاف الأصْلِ في تَرْتيب عَنَاصِرِ الْجُمْلَة الْعَرَبِيَّة، مِنْ الفُنُونِ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ لِدَاعٍ بَلَاغي، ومِنْهُ في السورة قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .. ﴿١٤﴾﴾.

في هٰذا النَّصّ قُدِّمَ المَعْمُول ﴿غَيْرَ اللهِ﴾ على الْعَامِلِ فيه ﴿أَتَّخِذُ﴾ وسُلِّطَ على الْمُقَدَّم الاسْتِفْهام، لِلْبَدْءِ بالإشْعَارِ بِمَنَاطِ الاسْتِنْكَارِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ الله مُتَّخَذاً مَعْبُوداً، ولَيْسَ الاسْتِنْكَارُ مُوَجَّهاً لاتِّخَاذِ الْوَلِيِّ المَعْبُودِ، فالْوَلِيُّ المعبودُ الحقُّ يجب اتخَاذُهُ وَلِيًّا.

رابعاً

من العناصر البلاغيّة المجدِّدَة لانْتِبَاه المتَلَقِّي ما يُسَمِّيه عُلَمَاءُ المعاني «الالْتِفَات» وهو التَّحْوِيلُ في التَّعْبِيرِ الْكَلامي من اتّجاه إلى آخَرَ مِنْ طُرُقِ الكلام الثلاث: «التكلُّم، والخطاب، والغيبة» مع أنَّ الظَّاهِرَ في مُتَابَعَةِ الكلامِ يَقْتَضِي الاستمرار علَىٰ ملازمَةِ التَّعْبِير، وَفْقَ الطَّرِيقة المختارَةِ أَوّلاً دونَ التحوُّل عَنْها.

وأَضافَ السَّكَّاكِيُّ التعبيرَ ابْتِدَاءً في أول الكَلَامِ بواحِدَةٍ من هٰذه الطُّرُق، إِذَا كَانَ عَلَىٰ خِلَافِ مُقْتَضَىٰ الظَّاهر.

وقد رأَيْتُ إضافَةَ التَّحوُّلِ مِنْ خطابِ مخاطَبٍ أو أكْثر، إلى مُخَاطَبٍ آخَرَ أوْ أَكْثَر، دُون تَصْرِيحٍ بما يَدُلُّ عَلَىٰ التَّحوُّلِ.

ومِنْ أَمْثِلَةِ الالْتِفَاتِ في السورة ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿.. ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ

قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حديثٌ بالْغَيْبَة. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ تحوُّلٌ إلى الْخِطَاب.

(١) قَوْلُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ..﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ حَديثٌ بالْغَيْبَةِ ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ تَحَوُّلٌ إلى التكلُّم.

خامساً

مِنْ عناصر الإيجازفي الْكَلام «التَّضْمِينُ» وهو تَضْمِينُ كَلِمَةٍ مَعْنَىٰ كَلِمَةٍ أُخْرىٰ، وجَعْلُ الْكَلامِ بَعْدَهَا مَبْنِيّاً عَلَىٰ الْكَلِمَةِ غَيْرِ المَذْكورَة، كالتَّعْدِيَةِ بِالْحَرْفِ المُنَاسِبِ لِمَعْنَاهَا، فتكُونُ الْجُمْلَةُ بِهٰذا التَّضْمِينِ بِقُوَّةِ جُمْلَتَيْن.

ومن أمْثِلَةِ التَّضْمِينِ فِي السُّورة مَا يَلِي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ .. ﴿٧٠﴾﴾.

ضُمِّنَ فِعْل ﴿وَذَكِّرْ﴾ معنى فِعْلِ «حَذِّرْ» أَوْ «أَنْذِرْ» فَعُدِّيَ تَعْدِيتَه، أي: وَذَكِّر مُحذِّراً مِنْ أَنْ تُبْسَلَ، (أي: من أن تُرْتَهَن وتُسَلَّمَ لِلْعَذَابِ).

وضُمِّنَ فِعْل في: ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ مَعْنَىٰ فعل «وَتُقَدِّمْ» فالمَعْنَىٰ: وإِنْ تَعْدِلْ مُقَدِّمَةً كُلَّ فِدَاءٍ لَا يُؤْخَذْ مِنها. على أنَّها لَنْ تَجِدَ مَا تُقَدِّمُهُ فداءً.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ضُمِّنَ الْفِعْلُ فِي: ﴿تَقُولُونَ﴾ معنَىٰ الْفِعْلِ في: «تَكْذِبُونَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحَرْف الجرّ «على». أَيْ: تَقُولُونَ كاذِبينَ على اللهِ.

وضُمّن الفِعْلُ فِي: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ معنَىٰ الفِعْلِ في: «تَمْتَنِعُونَ» أي: تَسْتَكْبِرُونَ مُمْتَنِعِينَ عن اتّباعِ آيات اللهِ.

سادساً

من نَفِيسِ الْبَيَانِ غَيْرِ الْمُبَاشِرِ للدَّلَالَةِ بِهِ علىٰ المعْنَىٰ الْمُرَادِ «الْكِنَايَة» وهي عِنْدَ علماء البيان:

اللَّفْظُ المستعملُ فيما وُضِعَ لَهُ في اصْطِلاح التخاطُب للدَّلالة بِهِ علىٰ معْنىٰ آخَرَ لَازِمٍ له، أو مُصَاحِبٍ لَهُ، مُرافِقٍ أو سابقٍ أو لَاحِقٍ، أو يُشَارُ بِهِ عَادَةً إِلَيْهِ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُلَابَسَةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه.

والكناية من أَبْدَعِ وأَجْمَلِ فُنُونِ الأَدَبِ، ومن أمْثِلَةِ الكنايَةِ في السُّورَة ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ .. ﴿١٢﴾﴾.

عبارة: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ ذاتُ لَوازِمَ دَلَّتْ عَلَيْهَا دَلالَةً بأسْلُوبِ الكِنَايَة.

أي: أَوْجَبَ اللهُ علىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَرْحَمَ عِبادَهُ، وكتَبَ هٰذا في اللَّوْحِ

المحفوظ، لِأَنَّ كُلَّ مَكْتُوبٍ مَسْبُوقٌ بِعِلْمٌ، وَهـٰذا الْعِلْمُ مَسْبُوقٌ بإرادةٍ وقضاء. فَدَلَّتْ عِبَارَة: ﴿كَتَبَ﴾ علَىٰ هـٰذِهِ اللَّوَازِمِ الْفِكْرِيَّةِ بأسْلُوبِ «الْكِنَايَة».

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لرسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ . . ﴿٣٤﴾﴾.

دلَّتْ عِبَارَةُ: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ﴾ عَنْ طَرِيقِ الكِنَايَةِ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ محمَّداً ﷺ كَمَا نَصَرَ الرُّسُلَ مِنْ قَبْله، لِأَنَّ سُنَّتَهُ في عِبَادِهِ وَاحِدَة.

أي: فاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا فَسَيأْتِيكَ نَصْرُنَا لَكَ وللمؤمنين مَعَكَ.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ إهْلَاكِهِ الظّالمِينَ من الأمم السَّالِفَة:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

الدَّابِرُ: التَّابِعُ في مُؤَخِّرَةِ الرَّكْب، وقَطْعُ الدَّابِر يُكَنَّىٰ بِهِ عن الاسْتِئْصَالِ، أي: أُهْلِكَ الْقَوْمُ إهْلاكاً شَامِلاً، حَتَّى قُطِعَ التَّابِعُ لَهُمْ واللَّاحِقُ بِهِمْ.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً للنَّاس:

﴿. . ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

عبارةُ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ دَلَّتْ بأسْلُوب الكِنَايَةِ علَىٰ سَوَابِقِ الإنْبَاءِ وَلَوَاحِقِهِ في مَحْكَمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الدِّين. وهـٰذِهِ من الكِنَايَات الّتي تكَرَّرَتْ نَظَائِرُهَا في القرآنِ المجيد.

وأُنَبِّهُ هُنَا عَلَىٰ أَنَّ أمْثِلَةَ الكِنَايَةِ في الْقُرْآنِ هي الْأَمْثِلَةِ الْغَالِبَةُ فِيه، عَلَىٰ سَائِرِ الْفُنُونِ الْبَلَاغِيَّة، لِمَا فِيها مِنَ التَّعْبِيرِ غَيْرِ المباشرِ عَنْ كامل الْمُرَادِ، ولِمَا فيها مِنَ الْإِيجازِ الَّذِي يَعْتَمِدُ على دَلَالاتِ اللَّوَازِمِ الفِكْرِيَّة.

سابعاً

من الفنون الجماليَّةِ اللَّفْظِيَّة «الجِنَاس»: وهُوَ أَنْ يَتَشَابَهَ اللَّفْظَانِ فِي النُّطْقِ وَيَخْتَلِفَا في المعْنَىٰ.

وهو فنٌّ بَدِيعٌ في اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُوهِمُ في الْبَدْءِ التَّكْرِيرَ، لَكِنَّهَا تُفَاجِئُ بِالتَّأْسِيسِ واخْتِلَافِ المعْنَىٰ.

ومن أمْثِلَةِ الجِنَاسِ في السُّورَةِ مَا يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا عِناداً واسْتِكْبَاراً إِذْ يَنْهَوْنَ أَتْبَاعَهُمْ عن الاسْتِمَاعِ إِلَىٰ تِلَاوَة الْقُرْآنِ مِنَ الرَّسول ﷺ، وهُمْ يَبْتَعِدُونَ عَنِ اتِّبَاعِهِ:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

بَيْنَ ﴿يَنْهَوْنَ﴾ و﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ جِنَاسٌ شبيهٌ بالتَّامّ، وهـٰذَا النَّوْعُ من الجناس يُسَمَّىٰ عِنْدَ علماء الْبَدِيع «الجناسَ المضارِعَ» أي: المشابه للجناسِ التَّامّ.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ عَقَائِدِ بَعْضِ المشركين:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

بَيْنَ «خَلَقَ» من: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ و«خَرَقَ» من ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ جناسٌ شبيهٌ بالتَّامّ، للتقارُب بَيْنَ اللَّام والرَّاء في النُّطْق، وهو أَيْضاً مِنْ نَوْعِ الجِنَاسِ المضارِعِ.

ثامناً

من الفنونِ الْإِبْداعِيَّةِ عِنْدَ عُلَمَاءِ المعانِي الْخُرُوجُ عن مُقْتَضَىٰ الظَّاهِرِ لِدَوَاعٍ بَلَاغِيَّة.

ومن الْخُرُوجِ عَنْ مُقْتَضَىٰ الظَّاهِرِ لِدَوَاعٍ بَلاغِيَّة، وضْعُ الاسْمِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الضَّمِير، ومن أمْثِلَة هٰذا في السُّورَةِ ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خطاباً لِرَسُوله ﷺ بِشَأْنِ مُكَذِّبيه:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

في هٰذه الآية وُضِعَ الاسْمُ الظّاهر في: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾بَدَلَ الضّمير من «وَلَكِنَّهُمْ» الَّذِي كَانَ يَقْتَضِيهِ الظَّاهِرُ في التعبير، لِبَيَان اتِّصَافِ مُكَذِّبي الرَّسُولِ بالظُّلْم الشَّنِيع، ومِنْ ظُلْمِهِم الشّنِيع جُحُودُهُمْ بآيَاتِ رَبِّهِم، مع عِلْمِهِم بأنَّها آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مُنَزَّلاتٌ مِنْ لَدُنْه، جَلَّ جَلاَلَهُ وَعَظُمَ سُلْطَانَهُ وهٰذا دَاعٍ بَلاَغِيٌّ فِكْرِيٌّ ذُو شَأْنٍ.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الْكَافِرينَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ من الأُمَم السَّابقة:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

في هٰذِهِ الآيَةِ وُضِعَ الاسْمُ الظَّاهِرُ في: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ﴾ بَدَلَ الضَّمِير مِنْ: «دَابِرُهُمْ» لبَيَانِ سَبَبِ إِهْلاَكِهِمْ بَعْدَ تَعْذِيبِهِمْ، وهُوَ ظُلْمُهُمُ العظيم مِنْ دَرَكَةٍ تَقْتَضِي إِهْلاَكَهُمْ باستِئْصَالٍ.

وهٰذا دَاعٍ بَلاَغِيٌّ فِكْرِيٌّ ذُو شَأْن.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في مَعْرِض الحديث عَنْ أَكَابِرِ مُجْرِمِي أَهْلِ الْقُرىٰ:

﴿.. سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وُضِعَ في هٰذا النَّصِّ الاسْمُ الظّاهِرُ: ﴿ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ مَوْضِعَ الضَّمِير

الَّذي يَقْتَضِيهِ الظّاهر، إِذْ يَقْتَضِي أَنْ يُقَالَ: «سَيُصِيبُهُمْ» والداعي الْبَلَاغي هُنَا أَمْران:

الأول: بَيَانُ سَبَبِ مُعَاقَبَتِهِمْ بالصَّغَارِ والْعَذَابِ الشَّدِيد.

الثاني: تَعْمِيمُ هَـٰذا العِقَاب عَلَىٰ سَائِرِ الـمُجْرِمِين أَمْثَالِ أكابِرِ الْمُجْرِمِين المذْكُورِينَ في سِيَاقِ النَّصّ.

تاسعاً

من الفنون الْبَلاغيَّة لَدَىٰ عُلَمَاءِ الْمَعَانِي من الْبَلاغيِّينَ، اخْتِيَارُ اسْمِ الإشَارَةِ الموضوعِ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ الْبَعِيد، والإشَارَةُ بِهِ إِلَىٰ المُشَارِ إِلَيْهِ الْقَرِيب لِأَحَدِ دَاعِيَيْنِ بَلاغِيَّيْنِ.

الداعي الأول: تَكْرِيمُ المشار إِلَيْهِ بِبَيَانِ ارْتِفَاعِ مَكَانَتِهِ ارْتِفَاعاً بَعِيداً سَامِياً.

الدَّاعي الثاني: إهَانَةُ المشارِ إِلَيْهِ بِبَيَان انْحِطَاطِ مَكَانَتِه انْحِطَاطاً بَعِيداً مُتَّجِهاً إِلَىٰ أسْفَلِ سَافِلِين.

ومِنَ الأَمْثِلَة علىٰ هـٰذا الْفَنّ في السُّورَة ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ مَا يَقُولُهُ فِي جِدَالِهِ للمشركين المعانِدِين:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

اسْتُعْمِلَ في هـٰذا النَّصّ اسْمُ الإشَارَةِ في: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذي يُشَارُ بِهِ إلىٰ الْبَعِيد، مع أنَّ الظَّاهِرَ أَنْ يُقَال: «وَهـٰذا» بمُقْتَضَىٰ السِّيَاق، لَدَاعٍ بَلاغي، وهو الدَّلاَلَةُ على ارْتِفَاعِ مَنْزِلَةِ الْفَوْزِ الَّذي يَنَالُهُ مَنْ يُصْرَفُ عَنْهُ عَذَابُ اللهِ يَوْمَ الْقِيامَة.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْمُرْتَهَنِينَ السُّجَنَاءِ في جَهَنَّمَ الَّذِينَ يَذُوقونَ عَذَابَ الْحَرِيقِ بنارِها بِسَبَبِ كُفْرِهم:

﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أُبْسِلُوا: أي: حُبِسُوا مُعَذَّبين في دَارِ العذاب.

وُضِعَ في هٰذا النَّصّ اسْم الْإشارَة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الَّذي يُشَارُ بِهِ إِلَىٰ المشَارِ إِلَيْهِمُ الْبَعِيدِينَ، وكانَ الظاهر أن يُقال: «هٰؤُلاء» للدلالة علَىٰ إهانَتِهِمْ، وبيان انْحِطَاطِ دَرَكَاتِهِمْ في اتّجاه الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ دار العذاب جهنَّم يَوْمَ الدين، فَهُمْ بُعَدَاءُ جدّاً عَنْ مَوَاطِنِ تَنَزُّلَاتِ رَحمَاتِ اللهِ.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المؤمنين:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

اخْتِيرَ فِي هَٰذِهِ الآيةِ اسْتِعْمَالِ اسم الإشارة في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوع للمشار إِلَيْهِم الْبَعيدين، بَدل «هَٰؤُلَاء» لداعٍ بلاغي، وهو الدَّلَالَةُ عَلَىٰ عُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ ورِفْعَةِ مَكَانَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهم.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ طَائِفَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ذُكِرُوا فِي الآيات السَّابقاتِ له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ .. ﴿٨٩﴾﴾.

اختير في هٰذا النَّصّ استعمال اسْم الإشارَة في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوع لِلْمُشَارِ إِلَيْهم الْبَعِيدين، بَدَلَ «هؤلاء» للدَّلَالَةِ على ارْتِفَاع مَنْزِلةِ الرُّسل المذْكُورِين في الآيات من (٨٣ ـ ٨٧) وعُلُوِّ مَكَانَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ جلَّ جَلَالُه.

(٥) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥)﴾.

اختير في هـٰذِهِ الآيَةِ اسْتِعْمَالُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الموضوعِ لِلْمُشارِ إِلَيْهِ الْبَعِيدِ مع قُرْبِ الحديثِ عَنْهُ وهو اللهُ فالِقُ الْحَبِّ والنوى.

أي: ذَلِكُمُ الْعَظِيمُ الجليلُ الْعَلِيُّ الأَعْلَىٰ الّذِي هو فَالِقُ الحبِّ والنوىٰ، والَّذِي يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الْمَيّتِ ومُخْرِجُ الميّتِ من الْحيّ، فأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ عَنِ الإيمان به.

ونظير هـٰذا النصّ قول الله تعالى:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)﴾.

عاشراً

مِنْ فُنُون البلاغَةِ في البيان: «الاسْتِعَارَة» وهي عند عُلَماءِ البيان: اسْتِعْمالُ لفْظٍ مَا فِي غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ في اصْطِلاحٍ بِهِ التَّخاطُب، لعلاقَة المشابهة، مع قَرِينَةٍ صارفَةٍ عَنْ إرَادَةِ المعْنَىٰ الموضُوعِ لَهُ في الاصْطِلَاحِ.

وفي الاستعارة تناسِي التشبيه، وادّعَاءُ أَنَّ المشَبَّهَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ المشَبَّهِ به، أو عَيْنُ المشَبَّهِ به.

ومِنْ أمْثِلَةِ الاسْتِعَارَةِ في السُّورَة ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِه فَلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّته ما يَقُولُهُ في بَعْضِ مَجالَاتِ دَعْوَتِهِ إلى اللهِ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيم:

﴿.. قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)﴾.

اسْتُعِيرَ في هـٰذا النّصّ لفْظُ ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ للدَّلَالَةِ بِهِ على الجاهل، لأَنَّ

الجاهل بحَقَائِقِ الدِّينِ الرَّبَّانِيَّةِ، وصِرَاطِ اللهِ المستقيم يُشْبِهُ الأَعْمَىٰ الَّذِي لا يَرَىٰ طُرُقَهُ وَمَسَالِكه.

واستُعِير لفظ ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ للدَّلاَلَة بِهِ على الْعَالِم، لأنَّ الْعَالِمَ بِحقَائِقِ الدِّينِ الرَّبَّانِيَّةِ، وصِرَاطِ اللهِ المُسْتَقِيمِ يُشْبِهُ الْبَصِير الَّذِي يَرَىٰ طُرُقَهُ وَمَسَالِكَهُ، وآفَاق الكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً للنَّاس، وتعليماً للرسول ما يَقُولُهُ في دَعْوَتِه:

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

استُعِير في هـٰذه الآيَةِ لفظ ﴿أَبْصَرَ﴾ للدَّلاَلَةِ بِهِ على معْنَىٰ: «تفكَّرَ وَفَهِمَ وَآمَنَ وأسْلَم».

واسْتُعِير فيها لفْظ ﴿عَمِىَ﴾ للدَّلاَلَةِ بِهِ علَىٰ معْنَىٰ «أدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ولم يَسْتَجِبْ لدَعْوَةِ رَبِّهِ كافراً بها».

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

في هـٰذِهِ الآيَةِ العجيبَةِ اسْتِعَارَتَانِ قائِمَتَانِ علَىٰ تَشْبِيهَيْنِ مُمْتَزِجَيْنِ للمؤمن، وفيها اسْتِعَارَتَان قائمَتَانِ علَىٰ تَشْبِيهَيْنِ مُمْتَزِجَيْنِ لِلْكَافِرِ.

فَقَدِ اسْتُعِيرَ فِيهَا لفظ «مَيِّتٍ» للدَّلاَلَةِ بِهِ على مَنْ هُو مُتَّصِفٌ بالْجَهْلِ وعَدَمِ الإيمانِ والإسلام، فالْكَافِرُ كالميّتِ وَكَالأَعْمَىٰ الْمُحَاطِ بالظُّلُماتِ.

واسْتُعِيرَ فِيها «الإحْيَاءُ» للدَّلاَلَة بِهِ عَلَىٰ مَا صَارَ إِلَيْهِ مَنْ آمَنَ وأسْلَم، فالمؤمِنُ كالْحَيِّ الْبَصِير، الَّذِي يَحْمِلُ نُوراً يُنِيرُ لَهُ طَرِيقَهُ، فَيَمْشِي فِيهِ مُسْتَقِيماً رَشِيداً.

واسْتُعِيرَ فيها «النُّورُ» في عِبارَة: ﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ للدَّلَالَةِ بِهِ عَلَىٰ قَضَايَا الْإِيمان وشرائع الإسلام وأحْكامه، الّتي جاء بَيَانُها في آياتِ كِتَابِ اللهِ وأقْوَالِ رسُولِهِ، فالبيانَات الدينيَّةُ كالنُّورِ الْهَادِي في ظُلُماتِ حَيَاةِ الامْتِحَان في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا.

ولا يَخْفَىٰ على ذي التَّدَبُّر الحَسَنِ، مَا في هٰذه الآيَةِ من المزْج العجيب بَيْنَ مُخْتَلِفِ الاسْتِعَارَات.

حادي عشر

ممَّا نَبَّهَ عَلَيْهِ عُلَماءُ المعاني من الْبَلَاغِيِّين، وكَشَفُوا أقْسَامَهُ، وأرْكَانَهُ، وطُرُقَهُ: «الْقَصْر»: وهُوَ تَخْصِيصُ شيْءٍ بشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلَامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ.

ومن أمْثِلَة الْقَصْرِ في هٰذه السورة مَا يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ جُمْلَتَانِ، وفي كُلٍّ مِنْهُما قَصْرٌ حقيقيٌّ، هُوَ مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف.

وأدَاة الْقَصْرِ في كُلٍّ مِنْهُمَا تَعْرِيف طَرَفَي الإسْنَادِ، المبتَدأ والخبر، أي: لَا أحَدَ يتّصِفُ بأنَّهُ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِ اللهِ غَيْرُ اللهِ جَلَّ جَلَالُه، ولَا أَحَدَ يَتَّصِفُ بأنَّهُ كامِلُ الْحِكْمَةِ في كُلِّ تَصرُّفَاتِهِ واخْتِيَارَاته، وبأنَّهُ كامِلُ الخِبْرَةِ بِكُلِّ شَيءٍ إلَّا اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ:

﴿.. قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: قُلْ: إنَّما الإلَٰهُ الْحَقُّ هو إلَٰهٌ واحِدٌ فَقَطْ. وفي هٰذه الْجُمْلَةِ قَصْرُ الإلَٰهِيَّة الحقّ عَلَىٰ إلَٰهٍ واحِدٍ هو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَهُو قَصْرٌ حقيقي، من قَصْرِ صِفَةِ الإلَهِيَّةِ الْحَقِّ على اللهِ جلَّ جَلالُهُ. وأدَاةُ الْقَصْرِ هُنَا «إِنَّما».

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ في مَكَّة إِبَّانَ التَّنْزِيل ونَهْيِهِمْ أتباعَهُمْ عَنِ القرآنِ ونَأْيِهِمْ هُمْ عَنْهُ:

﴿. . وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: وَمَا يُهْلِكُونَ بأَعْمَالِهِمْ الإِجْرَامِيَّةِ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ. ففي هٰذه العبارة قَصْرُ إِهْلَاكِهِمْ الَّذِي يَكُونُون هُمُ الْمُتَسَبِّبِينَ فِيه علَىٰ أنفسهم.

وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ، من قَصْرِ صِفَةٍ على مَوْصُوف، والأداةُ النَّفْيُ بحَرْف النفي «إنْ» والاسْتِثْنَاء.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في بيانِ بَعْضِ صِفَاتِه:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ أَرْبَعَةُ أَمْثِلَةٍ مِنْ أمْثِلَة الْقَصْر.

المثال الأول: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: وَعِنْدَ اللهِ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْب، وهو قَصْرٌ حَقِيقيٌّ، من قَصْرِ صِفَةِ وُجُودِ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ على كَوْنِها عِنْد اللهِ عَزَّ وَجلَّ. والأَدَاةُ الدَّالَّة عَلَيْهِ تَقْدِيمُ المُسْنَدِ عَلَىٰ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ في جُمْلَةٍ اسْمِيَّة.

المثال الثاني: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يَعْلَمُ مَفَاتِحَ الْغَيْبِ كُلِّهِ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ، مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف، والأدَاة الدَّالَّةُ عَلَيْهِ النَّفْيُ والاسْتِثْنَاء.

المثال الثالث: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾؛ وفي هٰذِهِ

العبارة قَصْرُ سُقُوطِ كُلِّ وَرَقَةٍ عَلَىٰ كَوْنِهِ مَعْلُوماً للهِ عَزَّ وَجلَّ، وهُوَ قَصْرٌ إضَافِيٌّ، أي: بالإضَافَةِ إلى فِكْرَةِ مَنْ يَدَّعِي أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ صَغَائِرَ الأَحْدَاثِ والْأَشْيَاء. وأدَاةُ الْقَصْرِ هُنَا النَّفْيُ والاسْتِثْنَاء.

المثال الرابع: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: وَلَا تُوجَدُ مِنْ حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرض، ولَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إلَّا هو مَعْلُومٌ للهِ عَزَّ وَجلَّ وَمُدَوَّنٌ في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ عنده بكلّ صِفَاتِهِ وتَحَرُّكاتِهِ. وهذا القصر كَسَابقِه.

(٥) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ يُعْلِّمُ رَسُولَهُ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الْجِدَالِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، لِلّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مَجْبُورُونَ بالْخَلْقِ الرَّبَّانِيِّ على الشِّرْكِ، وعلَىٰ تَحْرِيمِهِمْ مَا حَرَّمُوهُ مِنْ أشياءَ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِتَحْرِيمها مِنْ سُلْطان:

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ أي: مَا تَتَّبِعُونَ بِبَعْضِ مَقَالَاتِكُمُ الْبَاطِلَةِ إلَّا الظَّنَّ الضَّعِيفَ الَّذِي لَا يَصِحُّ عَقْلاً الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ، ومَا أَنْتُمْ فِي مَقَالَاتٍ أُخْرَىٰ إلَّا تَكْذِبُونَ.

في هاتَيْنِ الْجمْلَتَيْن قَصْران، هُما من الْقَصْرِ الإضَافِي، والأداة فيهما النَّفْيُ والاسْتِثْنَاءُ. ففي الجملة الأولى قَصْرُ قَوْلِهِمْ في بَعْضِ القضَايَا علَىٰ الظَّنّ التَّوَهُّمِي. وفي الجملة الثّانية قَصْرُ قَوْلِهِمْ في بَعْضِ الْقَضَايَا عَلَىٰ الكَذِب.

(٦) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِه:

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾: أي: قُلْ إنَّ هُدَىٰ اللهِ هُوَ وَحْدَهُ الْهُدَىٰ الْحَقُّ وكُلُّ مَا هُوَ مُضَادٌّ لَهُ بَاطِلٌ.

دَلَّ علَىٰ الْقَصْر تَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ في جُمْلَةٍ إسْمِيَّة، مَعَ التَّوْكِيدِ بِضَمِيرِ الْفَصْل. وهو من قَصْرِ صِفَةِ الْهُدَىٰ الْحَقِّ على هُدَىٰ الله، وهُو قَصْرٌ إضافِي، أي: بالإضَافَةِ إلَىٰ مَا ضَادَّهُ وَنَاقَضَهُ.

(٧) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مبيناً بَعْضَ صِفَاته:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ .. ﴿٩٩﴾﴾

في هٰذا البيان قَصْرُ إنْزَالِ الماء من السَّمَاءِ عَلَىٰ أنَّهُ فِعْلٌ مِنْ أفعال اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، وَهو قَصْرٌ حَقِيقيّ، مِنْ قَصْرِ صِفَةٍ عَلَىٰ مَوْصُوف، والأداة هُنَا تَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ في جُمْلَةٍ اسْمِيَّة «هو» و«الَّذِي أَنْزَل».

ثاني عشر

وجَّهَ عُلَمَاءُ المعاني من الْبَلاغِيينَ، تَأَمُّلاتِهِمْ في النُّصُوصِ الَّتِي فيها اسْتِفْهَام، فَرَأَوْا أَنَّ الاسْتِفْهَامَ كَثِيراً مَا يَخْرُجُ عَنْ أَصْلِ دَلالَتِهِ الَّتِي هِيَ طَلَبُ الإفْهَامِ، فَيُسْتَعْمَلُ للدَّلالَةِ بِهِ علَىٰ مَعَانٍ كثيرة أوْصَلُوهَا إلى أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِينَ مَعْنَىٰ، وهِي في الحقيقة لَا تَنْحَصِرُ فيما ذَكَرُوه.

ومِنْ أَمْثِلَة خُرُوج الاسْتِفْهام عَنْ أَصْلِ دَلاَلَتِهِ، والدَّلالَةِ بِهِ عَلَىٰ مَعَانٍ أُخْرَىٰ في السُّورَةِ مَا يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ في مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيل:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ .. ﴿٦﴾﴾.

الاسْتِفْهَام في هٰذا البيانِ يُرَادُ بِهِ التَّعْجِيبُ مِنْ أَمْرِهِم، ومِنْ مَبلَغِ انْحِرَافِهِم الإجْرَامِيّ، وسُقُوطِهِمْ في أَوْحَالِ الْحَمَاقَةِ والْجَهَالَةِ واتِّباع الْهَوَىٰ، علَىٰ نَقِيض مَا يَقْتَضِيهِ الرَّأْيُ السَّدِيد، والْعَقْلُ الْحَمِيد، والْعَمَلُ الرَّشيد.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ تَعْلِيماً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يُرادُ بالاسْتِفْهام في: ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ النَّفْي، أي: لَا يُهْلَكُ إهْلاكاً

جَمَاعِيَّاً عَامَّاً شَامِلاً، بِمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللهِ فِي عباده، إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ظُلْماً شَنِيعاً مِن دَرَكَةِ الكُفْرِ المقْتَرِنِ بِقَبَائِح وَجَرَائِم سُلُوكِيَّةٍ كثيرة.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فكُلَّ داعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِه، بشَأْنِ دَعْوَةِ الْمُصِرِّينَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ عناداً واسْتِكْبَاراً.

﴿.. قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

الاستفهامُ في ﴿هَلْ يَسْتَوِى ..﴾؟ يُرَادُ بِهِ تَلْوِيمُهُمْ وَتَأْنِيبُهُمْ علَىٰ جَهْلِهِم.

والاسْتفهام في ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾؟ يُرادُ بِهِ حَثُّهُمْ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ السَّلِيم لإدْرَاكِ الحَقِيقةِ إِنْ كَانُوا جَاهِلِينَ بِهَا حَقّاً، غَيْرَ مُرَاوِغِينَ وَلَا مُجَادِلِينَ بالْبَاطِل.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ اعْتِراضِ أئِمَّةِ المُشْرِكِينَ عَلَىٰ ضُعَفَاء المسلمين:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾؟؟

الاستفهام في عبارة أئمة الكُفْرِ عَنْ ضعفاء المؤمنين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾؟ اسْتِفْهَامُ اسْتِنْكَارِيٌّ مِنْهُمْ، واحْتِقَارِيٌّ لِضُعَفَاءِ المؤمنين المسلمين.

والاستفهام في عبارَة: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾؟! اسْتِفْهَامٌ إنْكَارِيٌّ عَلَىٰ اسْتِكْبَارِ أئِمَّةِ الكُفْر، وتَعْجِيبِيٌّ مِنْ بَالِغِ جَهْلِهِمْ بِحِكْمَتِهِ السَّامِيَّة، وإِحَاطَتِهِ بكُلِّ شيءٍ عِلْماً.

(٥) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِه، أسْلُوباً مِنْ أَسَالِيبِ مُجَادَلَةِ المشركين:

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا .. ﴿٧١﴾﴾؟!

الاستفهامُ في هٰذا التَّعْليم اسْتِفْهَامُ تَعجُّبٍ واسْتِنْكَارٍ.

(٦) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾؟!

الاستفهامُ في قَوْلِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلام لأبيه استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ إنْكارِيٌّ تَلْويمي.

(٧) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ .. ﴿٩٣﴾﴾؟!

الاستفهامُ في هٰذا النّصّ يُرَادُ به النفي، أي: لَا أَحدَ أظْلَمُ مِنْ هٰؤُلاءِ الَّذين جاءَ فيه بَيَانٌ عَنْهُم، إنَّهُ قَدْ يُوجَدُ مَنْ يُشارِكُهُمْ في دَرَكَةِ الظُّلْمِ، ولكِنْ لَا يُوجَدُ مَنْ هُوَ أَظْلَمُ مِنْهُمْ.

(٨) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾؟.

الاستفهام في عبارة ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؟ استفهامٌ إنكارِيٌّ تَلْويمِيٌّ تَعْجيبيٌّ مِنْهُمْ إذْ يُصْرَفُونَ عَنْ تَوْحِيدِ اللهِ في رُبُوبيَّتِهِ وفي إلٰهِيَّتِهِ، مَعَ كَوْنِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ دَالَّاتٍ عَلَيْهِما.

(٨) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

الاستِفْهَامُ في هـٰذه الآيَةِ استفهامٌ إنكارِيٌّ علَىٰ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ للهِ وَلداً، وَتَعْجِيبِيٌّ مِنْ أَمْرِهم.

(٩) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أسْلُوباً دَعَوِيّاً وَجَدَلِيّاً لِلْمُشْرِكين:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ .. ﴿١٦٤﴾﴾؟

الاستفهامُ في هـٰذا النّصّ اسْتِفْهامٌ تَعْجِيبيٌّ مِنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَىٰ الشِّرْكِ مِنَ المُشْرِكين.

ثالث عشر

من العناصر البلاغيَّة التَّوكيدُ بأدَاةٍ أَوْ أكْثَر من أدواتِ التوكيد، لِأَنَّ حَالةَ المَقْصُودِ بالْخِطَابِ تَحْتَاجُ تَوْكِيداً.

ومِنَ النُّصُوصِ الَّتِي فيها تَوْكِيدٌ لدَوَاعٍ بَلَاغِيَّة في السُّورَة مَا يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ المعانِدِينَ مِنْ أَئِمَّةِ المشركين:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾.

زِيدَتْ ﴿مِّن﴾ في الْفَاعِلِ لتَوْكيد عُمُومِ النَّفْي، لأنَّ المعنِيِّينَ مُعْرِضُونَ فِعلاً عَنْ كُلِّ آيَةٍ تَأْتِيهِمْ.

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ مَا يَقُولُهُ لِلْمُشْرِكين:

﴿.. قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

اشْتَمَلَتِ الجملة الثانية على تَوْكيد بـ «إنّ ـ والْجُمْلَة الاسمية» لحاجَةِ المخاطبين إلى التوكيد.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وصفاً لِلَقْطةٍ من أحداث محاسَبَتِه تَعالَىٰ لمنكري الْبَعْثِ يوم الدين:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ . . ﴿٣٠﴾﴾.

زيدَت الباء في خَبَرِ «لَيْسَ» لتوكيد إلزامِهِمْ بِجُرْمِهِم الكبير، إذْ كانُوا في الدُّنْيَا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ والدارَ الآخِرَة، ويُكَذِّبُونَ بالأنْبَاءِ الدَّالَةِ عليهما.

وفي عبارَتِهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ اعترافٌ مؤكّد بالْقَسَم، استِجْدَاءً للرَّحْمَة بهم.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

زِيدَ حرف الجرّ «مِنْ» على المبتدأ وما عُطِفَ عليه بَعْدَ النفي، لتوكيد عُمُومِ النفي، والتنْصِيصِ عليه، ودَفع تَوَهُّمِ أنْ يكُونَ المرادُ بالنَّفِي التكثير، لَا التعميم.

وكذَلِكَ زِيدَ حَرْف الجرّ «مِنْ» في عبارة ﴿مِن شَيْءٍ﴾.

(٥) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ اعْتِرَاضِ أَئِمَّةِ الكُفْرِ على تَفْضِيلِ اللهِ ضعفاءَ المؤمنين المسلمين وفُقَرَاءَهم عليهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

زيدَت الباء في خَبَرِ «لَيْسَ» للتوكيد، نظراً إلى أَنَّ أئِمَّةَ الكُفْرِ إبَّانَ التنزيلِ مُسْتَكْبِرُونَ، وشَاكُّون في حِكْمَةِ اللهِ في تفضيلِهِ الضُّعَفَاءَ والفقراء عليهم.

﴿فَتَنَّا﴾: أي: امتَحَنَّا وَاخْتَبَرْنا.

(٦) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

زيد حرف الجرّ «مِنْ» في عبارة: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لتوكيد عُمُومِ النفي والتَّنْصِيص عليه، ودَفْعِ تَوَهُّمِ خِلافِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ عُمُومُ النَّصّ.

(٧) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ مَا يَقُولُهُ للناسِ في دَعْوَتِهِ، وفي جَدَلِيَّاتِهِ للمخالِفِين:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

جاءَ في هـٰذا النصّ التوكِيدُ بِـ«إنَّ ـ والْجُمْلةِ الاسْمِيَّة» في موضِعَيْن، لغرضَيْن:

الغرض الأول: مُراعَاة بَعْضِ أحْوَالِ المخاطَبين الشَّاكِينَ بِصِدْقِ الرَّسُول في دَعْوَتِهِ.

الْغَرَضُ الثاني: إعْلَانُ ثَبَاتِهِ في مَوْقِفِهِ الْإِيمانيِّ الْإِسْلَاميّ، الّذي لَا تُزَحْزِحُهُ عَنْهُ مُرْهِبَاتُ النَّاسِ، ولَا اسْتِنْزَالَاتُهُمْ التَّرْغِيبِيَّة.

(٨) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في آخِرِ السُّورَة:

﴿.. إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

جَاءَ فِي هـٰذا النصِّ تَوْكِيدُ الجملة الأولَىٰ بـ«إنَّ ـ والْجُمْلةِ الاسْمِيَّة» فقط.

وتَوْكِيدُ الْجُمْلةِ الثَّانِيَة بـ«إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ ولَامِ الابتداء المزحْلَقَةِ إلى الْخَبَر» وقَدْ زِيدَ فيها التوكيد، لأنَّ رَحْمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَسْبَقُ مِنْ غَضَبِهِ وانْتِقَامِهِ ضِمْنَ مَجَارِي حِكْمَتِه.

وبهـٰذا تَمَّتْ مُسْتَخْرَجَاتي لِبَلَاغياتِ سُورَةِ (الأنعام) والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِه وفَتْحِهِ.

❀ ❀ ❀

سورة الصَّافَّات

٣٧ مصحف ٥٦ نزول

وهي مكيَّةٌ كلُّها



(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ

٦ ـ • قرأ شعبة: [بِزِينَةٍ الكَواكِبَ].
وقرأها حفص، وحمزة: [بِزِينَةٍ الكواكِبِ].
وقرأها باقي العشرة: [بِزِينَةِ الكواكِبِ].
والمؤدّىٰ في هذه القراءاتِ وَاحِد، وهي من التَّفَنُّنِ في التعبير.

٨ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [لَا يَسَّمَّعُونَ] بفتح السّن والميم مُشدَّدتين.
وقرأها باقي العشرة: [لَا يَسْمَعُون] بإسكان السِّين وفتح الميم دون تشدِيد.
أي: لَا يستطيعون أن يقتربوا ليتَسَمَّعُوا، وإذا اقتربَ بَعْضُهُمْ فَلا يُمَكَّنُونَ مِنَ السَّماع.

١١ ـ • قرأ رُوَيس: [فاسْتَفْتِهُمْ] بضَمّ هَاءِ الضّمِير.
وقرأها باقي العشرة: [فَاسْتَفْتِهِمْ] بِكَسْرِ هاء الضَّمِير.

عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ

١٢ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: **[عَجِبْتُ]** بتاء المتكلّم.
وقرأها باقي العشرة: **[عَجِبْتَ]** بتاء المخاطب، وبين القراءتَيْن تكامل في أداء المعنَىٰ المراد.

١٦ ـ • قرأ ابْنُ عَامِر: **[إذَا.... أئِنَّا]**.
وقرأها نافع، والكسائي وأبو جعفر، ويعقوب: **[أَئِذَا.... إِنَّا]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أَئِذَا... أَئِنَّا]**.
ومُؤَدَّىٰ هذه القراءات واحد.

١٦ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر، ويعقوب **[مُتْنَا]** بضم الميم.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[مِتْنَا]** بكَسْرِ الميم.

١٧ ـ • قرأ قالون، وأبو جعفر، وابن عامر: **[أَوْ آبَاؤُنَا]**.
وقرأها الباقون: **[أَوَ آبَاؤُنَا]**.

١٨ ـ • قرأ الكِسَائي: **[نَعِمْ]** بكسر العين.
وقرأها الباقون: **[نَعَمْ]** بفتح العين.

٢٥ ـ • قرأ الْبَزّي، وأبو جعفر: **[لَا تَّنَاصَرُونَ]** بِتَشْدِيد التاء، مع المدّ المشْبَع للسَّاكِنَيْن.
وقَرَأَهَا باقي القرَّاء العشرة: **[لَا تَنَاصَرُون]**.
والقراءتان وجْهَانِ مِنَ النطق العربي.

ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾

٤٠ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابنُ عامر، ويعقوب: [الْمُخْلِصِينَ] بكسر اللام اسم فاعل من: «أخلص».
وقرأها باقي القراء العشرة: [الْمُخْلَصِينَ] بفتح اللام اسْم مفعول.
وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أَدَاءِ المعنَىٰ المراد، أي: أَخْلَصُوا لِلَّهِ إيمانَهُمْ وإسْلاَمَهُمْ وعباداتهم فجعَلَهُمُ اللهُ مِنَ المُخْلَصِينَ عِنْده.

٤٧ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [يُنْزِفُونَ] من فعل: «أَنْزَفَ» بمعنى: سَكِرَ، أو ذَهَبَ عَقْلُه.
وَقرأها باقي القرّاء العشرة: [يُنْزَفُونَ] من فعل: «أنْزَفَهُ» بمعنَىٰ: أَسْكَرَهُ، أو أَذْهَبَ عَقْلَهُ.
فمُؤَدَّىٰ القراءتَيْن وَاحد.

كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا

٥٣ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [إِذَا... أَئِنَّا].
وقرأها نافع، والكسائي، ويعقوب: [أَئِذَا... إِنَّا].
وقرأها باقي القراء العشرة: [أَئِذَا... أَئِنَّا].
والمؤدّىٰ واحد.

٥٣ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر، وشُعْبَة، وأبو جعفر، ويعقوب: [مُتْنَا] والباقون: [مِتْنَا].
وهما لغتان عربيتان.

٥٦ ـ • قرأ ورش في الوصل، ويعقوب في الوصل والوقف: [لَتُرْدِينِي] بإثبات ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لَتُرْدِينِ] بحذف ياء المتكلّم وصلاً ووقفاً.

ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾

٧٤ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وابن عامر، ويعقوب: [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْرِ اللَّام اسم فاعل من فعل: «أخلص».

وقرأها باقي القراء العشرة بفتح اللام اسم مفعول.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، كما سَبَق في الآية (٤٠).

٩٤ ـ • قرأ حمزة: [**يُزِفُّونَ**] مِنْ فعل: «أزَفَّ» بمعْنَىٰ أسْرَع الخَطْو.

وقرأها باقي القُرّاء العشرة: [**يَزِفُّونَ**] من فعل: «زَفَّ، يَزِفُّ، زَفًّا» أي: أسْرَعَ الْخَطْو.

فالقراءتان لغتان لمعنى واحد.

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟

٩٩ - • قرأ يعقوب: [**سَيَهْدِينِي**] بإثباتِ ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف ياء المتكلم في الْحَالَيْنِ: [**سَيَهْدِينِ**].
وهذا الحذف مألوفٌ في العربيَّة مع ملاحظتِه ذهْناً.

١٠٢ - • قرأ حفص: [**يَا بُنَيَّ**] بِفتْح الياء مُشدَّدَة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بكَسْرِها مشدّدة: [**يَا بُنَيِّ**] وهُما نطقان عَربيان.

١٠٢ - • فتح ياء المتكلّم في الموضِعَيْن من: [**إِنِّيَ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّيَ أَذْبَحُكَ**] نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر.
وأسْكَنَها في الموضعين باقي القرّاء العشرة.

١٠٢ - • قرأ حَمْزَةُ، والكِسَائي، وخلَف: [**مَاذَا تُرِي**] أي: ماذا تُقدِّمُ مِنْ رأيٍ لِي.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**مَاذَا تَرَىٰ**] أي: أَنْتَ لِنَفْسِكَ.
وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداءِ المعنى المراد.

١٠٢ - • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [**يَا أَبَتَ**] بفتح التاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [**يَا أَبَتِ**] بِكَسْرِ التاء.
وهما لغتان عربيَّتان.

١٠٢ - • فتح ياء المتكلم من: [**سَتَجِدُنِيَ إِنْ شَاءَ اللهُ**] نافع، وأبو جعفر. وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

١٠٥ - • قرأ السُّوسي: [**الرُّويَا**].
وقرأها أبو جعفر: [**الرُّيَّا**].

=

ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا

= وقرأها بَاقي القراء العشَرَة: [الرُّؤْيَا].
ووقَفَ حَمْزَةُ كالسُّوسي وأبي جعفر.

١١٨ ـ • قرأ قُنْبُل، ورُوَيس: [السِّراط].
وقرأها خلفٌ عن حمزة بإشْمام الصّادِ صَوْتِ الزاي.
وقرأهَا بَاقي القراء العشرة: [الصِّرَاطَ].

١١٩ ـ • قرأ يعقوب: [عَلَيْهُمَا] بضمِّ هاء الضمير.
وقرأها باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير: [عَلَيْهِما].
وهما لغتان.

١٢٣ ـ • قرأ ابن ذَكْوان في إحْدَى قراءتين لَهُ: [وَإِنَّ لْيَاسَ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [وإِنَّ إِلْيَاسَ].
وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأٓخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأٓخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى

١٢٦ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائِي، ويعقوب، وخلَف: [اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ] على أنَّهُ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو اللَّهُ رَبّكم وربُّ.
والقراءتان وَجْهان عربيان جائزان.

١٢٨ ـ • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر، ويعقوب: [الْمُخْلِصِينَ] بكسر اللام، اسم فاعل.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بفتح اللام: [الْمُخْلَصِينَ] اسم مفعول.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، كما سبق بيانه في الآية (٤٠).

١٣٠ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب: [عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَلَىٰ إِلْيَاسِينَ].
وهُمَا نُطْقَانِ عند العرب.

١٤٢ ـ • أسْكَنَ الهاء من: [وَهْوَ] قالون، وأبو عمْرو، والكِسَائي، وأبو جعفر.
وقرَأها باقي القراء العشرة: [وَهُوَ] بضم الهاء.
وهما لغتان عربيتان.

بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا

١٤٧ ـ • قرأ أبو جعفر: [مِيَةِ]. وكذلكَ قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة [مِائَةِ].
وهما نطقان عربيان.

١٤٩ ـ • قرأ يعقوب: [فَاسْتَفْتِهُمْ] بضمّ هاء الضمير.
وقرأها باقي القراء العشرة بكَسْر هاء الضمير: [فاسْتَفْتِهِمْ].

١٥٢ ـ • ١٥٣ ـ • قرأ أبو جعْفر: [لَكَاذِبُونَ اصْطَفَىٰ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَىٰ] على الاستفهام.

١٥٥ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [تَذَكَرُونَ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تَذَّكَّرُونَ] بتَشْدِيد الذَّال.

١٦٣ ـ • قرأ يَعْقُوب: [صَالِي] في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة: [صَالِ] في الوصل والوقف.

لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

١٦٩ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابن عامر، ويعقوب: [**المُخْلِصِينَ**] بكسر اللام، اسم فاعل.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بفتح اللّام: [**المُخْلَصِينَ**] اسم مفعول.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، كما سبَق بيانه في الآية (٤٠).

(٢)

مما وَرَد بشأن سورة (الصَّافات)

(١) روى النسائي، والبيهقيُّ في سُنَنه، عن ابْنِ عُمر رضي الله عنهما، قال: «كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يأْمُرُنا بالتَّخْفِيف، ويَؤُمُّنا بالصَّافَّاتِ».

أي: كان يأمُرُنا بالتّخْفِيفِ في الصَّلَوات، وكان يَقْرأ الصَّافَّاتِ وهو إمَامٌ لَنا أَحْيَاناً.

(٢) ورُوي عن ابْن عباسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ يسٓ والصَّافَّات يوم الجمعة، ثم سأل الله أعْطَاهُ سُؤْلَهُ».

(٣) ورُوِيَ عن ابْن عباس: أنّ النبيّ ﷺ لَمَّا سَأَلَهُ مُلُوكُ حَضْرَموت عنْدَ قُدُومِهِمْ علَيْهِ أَنْ يَقْرأ عَلَيْهِم شَيْئاً مِمَّا أنزَلَ اللهُ، قرأ ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ حتَّىٰ بَلَغَ: ﴿.. وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾ ولهذا الحديث تتمة.

(٣)
موضوع سورة (الصّافّات)

تسير آياتُ سُورةِ (الصَّافات) مُوَزَّعَةً علىٰ فَرْعَيْن: أَحَدُهما لمعالَجةِ المشركين، بشأن شِرْكِهِمْ وَبَعْضِ عَقَائِدِهِمْ ومقالاتهم الباطلات. والآخَرُ لِتَرْبية رَسُولِ الله ﷺ والَّذِين آمنوا به واتَّبَعُوه، وطَمْأَنَتِهم بأنَّ نَصْرَ اللهِ لهم آتٍ لَا مَحالَة، على وَفْقِ سُنَّتِهِ السابقةِ الَّتي تَحَقَّقَتْ في الرُّسُلِ السّابقينَ، والَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبعوهم.

فالفرْعُ الأول: يشْتَمِلُ على معالجة المشركين حول عَددٍ من عقائدهم ومقالاتهم الباطلات، ومَواقفهم الّتي كانوا عليها إبَّانَ تنزيل السورة، وهي كما يلي:

(١) إثبات أَنَّ شِرْكَهُمْ باطلٌ، بإثبات أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا إِلَهٌ واحِدٌ، هو رَبُّ السَّمَاواتِ والأرضِ، ورَبُّ كُلّ شيءٍ فِي الكَوْنِ، وكُلِّ حَدَثٍ يَحْدُثُ فيه.

(٢) قضية اعتزازِهِمْ بِقواهم المادِيَّةِ على الرَّسُولِ ﷺ، وعلى الَّذِينَ آمنوا به واتَّبَعُوه، إبَّانَ تَنْزِيلِ السّورة، مع اسْتِكْبَارِهِم عن الإيمانِ بالحقّ، واتِّباع رَسُولِ رَبّهم.

(٣) قضيّةُ إِنْكَارِهِم الْبَعْثَ ويَوْمَ الدِّين، دُونَ أَنْ تكُونَ لَهُمْ حُجَّةٌ إِلَّا التَّعَجُّب من الإحياء بَعْدَ الموت، وتَحَوُّلِ الأجساد إلَىٰ ترابٍ مختَلِطٍ بتراب الأرض.

(٤) قضيَّة اعتقادهم بأنَّ الملائكة بناتُ اللهِ، واعتقادِهِمْ بأنَّ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ الجنِّ نَسَباً.

(٥) كَشْفُ كَذِبِهِمْ في قولهم الّذي كانوا يقولونَهُ قَبْلَ بِعْثَةِ محمد ﷺ: لَوْ أَنَّنَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَكُنَّا من المخلَصِينَ، وَمِنَ الْمُخْلِصِينَ.

(٦) وفي أثناء معالَجَةِ هذه القضايا جاء في السُّورة عَرْضُ صُوَرٍ من عذاب الله للكافِرين في الآخرة، مع تَقْدِيم لَقَطاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ عَذَابِهِمْ يَوْم الدّين.

الفرع الثاني: تَرْبِيَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ وللمؤمنين بعِدَّةِ عناصر تربويّة، وطَمْأَنَتُهُمْ بأنَّ اللهَ نَاصِرُهم كَمَا نَصَرَ الرُّسُلَ السَّابقين، والَّذِين كَانُوا مَعَهُمْ من المؤمنين.

وجاء في أثناء السّورَة لقطات مِنْ قِصَصِ سبْعَةِ رُسُلٍ نَصَرَهُمُ اللهُ علَىٰ كُفَّارِ أقوامِهِمْ، وَتَتَضَمَّنُ هـٰذِهِ اللَّقَطَاتُ إشعاراً للرسُول وللمؤمِنينَ بأنَّهُمْ مَنْصُورون، وهو من المبشّرات، وإعلاماً للكافِرِينَ بأنَّهُمْ سَيُغْلَبُونَ حتماً، وسَيَنْصُرُ اللهُ رَسُولَهُ والَّذِين آمَنُوا مَعَهُ، ضِمْنَ مَجَاري سُنَّتِهِ في عباده، وهو من المنْذِرات.

وجاءت فيها قِصَّةُ «يُونُس» بأنَّهُ لمَّا يَئِسَ من قومه، وتَرَكَهُمْ دُونَ إذْنٍ مِنْ رَبِّهِ عَاقَبَهُ اللهُ بأنِ الْتَقَمَهُ الْحُوتُ، ولوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَمَا نَجا مِنْ بَلْعِ الحوت لَهُ وهضْمِه. وفي عَرْضِ هـٰذه القصَّةِ تَلْوِيحٌ تَرْبَوِيٌّ، بأَنَّ حَامِلَ رِسَالَةِ رَبِّهِ المكلَّف لَيْسَ لَهُ أَنْ يَجْتَهِدَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، فَيَتْرُكَ وَظِيفَتَهُ الدَّعوِيَّة قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُ الأمْرُ أو الإذْنُ الرَّبَّانِيُّ بذلك.

(٤)
دروس سورة (الصّافات)

ظَهَرَ لي بَعْدَ تأمُّلٍ أَنْ أُقَسِّمَ السُّورَةَ إلى سَبْعَةِ دُروس ضِمْنَ وَحْدَةِ مَوْضُوعِهَا الَّذِي سَبَقَ بيانُهُ آنفاً:

الدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ١٠).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرس قَسَمٌ علَىٰ أنَّ الإلَـٰهَ الحقَّ في الوجُودِ كُلِّهِ واحِدٌ، هُو الرَّبّ جلّ جلالُه، مع بيان ظاهرة كَوْنِيَّة تَدُلُّ عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ لكُلِّ ما في الكَوْن، ويَلْزَمُ عَقْلاً عَنْ رُبُوبِيَّتِهِ هَـٰذِهِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الإلَـٰهَ الحقّ الذي لا إلَه سِواه.

الدَّرْسُ الثاني: الآيات من (١١ ـ ٧٤) وفي هذا الدّرْس ثلاثَةُ فصول:

الفصل الأول: الآيات من (١١ ـ ٣٩).

وفي آياتِ هـٰذا الفصل معالجة طائفة من المشركين بشأن اعْتزازِهِمْ بقُوَّتِهِمْ، وسُخْرِيَتِهِمْ من دَعْوَةِ الحقّ، وعنادهم، ومُبالَغَتِهِمْ بالسُّخْرِية إذَا رأَوْا آيَةً تَشْهَدُ للرَّسُول بأنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقّاً وصِدْقاً، ويقُولون هي من قبيلِ السّحر.

وفيها عِلَاجٌ مَا لإنكارهم الْبَعْثَ والدَّارَ الآخِرَة، ومنه عَرْضُ بَعْضِ مَشَاهِدَ مِنْ يَوْم الدّين لِعَذَابِهِمْ وعذاب سَائر الْمُجْرِمِين.

الفصل الثاني: الآيات من (٤٠ ـ ٦١).

وفي آيات هـٰذا الفصل عَرْضُ بَعْضِ مَشاهِدَ مِنْ نَعِيم المؤمِنين المتقين الْمُخْلِصِينَ الْمُخْلَصِين، في مُقَابِلِ عَرْضِ مَشاهد عَذَابِ الْمُجْرِمين.

الفصل الثالث: الآيات من (٦٢ ـ ٧٤).

وفيها عَوْدٌ لِبَيَانِ عَذَابِ الْمُجْرِمِينَ في الجحيم.

الدَّرْسُ الثالث: الآيات مِنْ (٧٥ ـ ١٤٨).

وفي آياتِ هـٰذا الدَّرْسِ لقطاتٌ من قِصَصِ سبعة رُسُلٍ هم: «نوح، وإبراهيم، ومُوسَىٰ، وهارون، وَإِلْيَاس، ولُوط، ويُونُس» عَلَيْهِمُ السّلام.

وَيَنْقَسِمُ هـٰذا الدَّرْسُ إِلَىٰ سِتَّةِ فُصُول:

الفصل الأول: الآيات من (٧٥ ـ ٨٢). وفيها لقطات من قصَّةِ نوح عليه السلام، ونَصْرِ الله لَهُ على قومه الكافرين.

الفصل الثاني: الآيات من (٨٣ ـ ١١٣) وفيها لقطات من قصة إبراهيم عليه السلام مع قَوْمه، ونَصْرِ الله له، وبيان بَعْضِ ما امْتَنَّ اللهُ بِهِ عليه.

الفصل الثالث: الآيات من (١١٤ ـ ١٢٢) وفيها بيان ما امْتَنَّ اللهُ بِهِ على مُوسَىٰ وهارُون، ونُصْرَتِهِمَا وَنُصْرَةِ بَنِي إسرائِيلَ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه وجُنُودِهم.

الفصل الرابع: الآياتُ من (١٢٣ ـ ١٣٢) وفيها بيانٌ مُوجَزٌ عن دَعْوَة إلْيَاس لِقَوْمِهِ، وَمَا امْتَنَّ اللهُ بِهِ عليه.

الفصل الخامس: الآيات من (١٣٣ ـ ١٣٨) وفيها بيانٌ مُوجَزٌ عن نَصْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لوطاً عَلَيْهِ السَّلام، وإهلاك كُفَّارِ قَوْمِهِ، وتدمِيرِ بلادِهم وقَلْبِها عليهم.

الفصل السادس: الآيات من (١٣٩ ـ ١٤٨) وفيها لقطات موجَزاتٌ من قصَّة يونس عليه السلام، مع بيان مَا تَعَرَّضَ لَهُ، إذ تَرَكَ قَوْمَهُ وانْصَرَفَ عَنْهُمْ باجْتِهادٍ مِنْهُ، دُونَ إذْنٍ لَهُ مِنْ رَبِّهِ بذَلِكَ، وفي عَرْضِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ تَلْوِيحٌ بأنّ على حَامِلِ رِسَالَةِ رَبِّهِ المكلّف أَنْ لَا يَتْرُكَ قَوْمَهُ مُهاجراً مَا لَمْ يَأْمُرْهُ الله بذَلِكَ أَوْ يَأْذَنْ لَهُ به.

الدَّرْس الرابع: الآيات من (١٤٩ ـ ١٦٣).

وفي آيات هذا الدَّرْس مناقشة المشركين حَوْلَ عَقِيدَتِهِمْ بأنَّ الملائكة بناتُ الله.

الدَّرْس الخامس: الآيات من (١٦٤ ـ ١٦٦).

وفي آيات هذا الدَّرْس تَوجِيهٌ للمؤمنين لأنْ يَقُولوا للمشْرِكين، مُعْلِنين مَوْقِفَهُمْ المضَادَّ لمواقف كلِّ الكافرين، وأنَّهُمْ هُم الصَّافُّونَ والمُسَبِّحُونَ.

الدرس السادس: الآيات من (١٦٧ ـ ١٧٠).

وفي آيات هذا الدَّرْسِ عَرْضُ مقالَةٍ مِنْ مَقَالَاتِ المشركين الّتِي كانُوا يَقُولُونها قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّد ﷺ: لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِثْلَ ذِكْرِ اليهود أَوْ ذِكْرِ النَّصارَىٰ، لَكُنَّا عِبادَ اللهِ المُخْلَصِين والمُخلِصِينَ. فَلَمَّا جاءَهُمُ الذِّكْرُ مُنَزَّلاً عَلَىٰ رَسُولِ الله مُحَمّد ﷺ كَفَرُوا، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ مَصِيرَهُمْ جزاءَ كُفْرِهِمْ يَوْمَ القيامة.

الدرس السّابع: الآيات من (١٧١ ـ ١٨٢) آخر السورة.

وفي آياتِ هذا الدَّرْس طَمْأَنَةٌ من الله لِرَسُولِهِ ولِلّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ بأَنَّهُمْ مَنْصُورون حتماً، ضِمْنَ سُنَّة الله الَّتِي سَبَقَتْ بها كلمته. مع توجيهٍ للرَّسول ﷺ بشَأْن ما يَنْبَغِي له من مَوْقفٍ مع المشركِين المُعانِدين المستكبرين، إبَّان تَنْزِيل السُّورة.

❃ ❃ ❃

(٥)
التدبُّر التَّحليليّ للدَّرسِ الأوّل من دُرُوسِ سورة (الصَّافّات) الآيات من (١ ـ ١٠)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ

ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

القراءات:

(٦) • قَرأ شعبة: [**بِزِينَةٍ الْكَواكِبَ**] بنصب الكواكب على تقدير. أعْنِي وأَخُصُّ.

وقرأها حفص وحمزة: [**بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ**] بجر الكواكبِ على أنها بَدَل.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ**] على إضافة زينة إلى الكواكب.

والمؤدَّىٰ في هٰذه القراءات واحد، وهي من التَّفَنُّنِ في التعبير.

(٨) • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي: [**لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَىٰ الْمَلأَ الأَعْلَىٰ**] بتَشْدِيد السّينِ والميمِ من «يَسَّمَّعُون» أصْلُها: «يَتَسَمَّعُون».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**لا يَسْمَعُونَ**] بإسكان السين، وفتح الميم دُونَ تَشْدِيد.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد، فقراءة [**يَسَّمَّعُونَ**] دَلَّت عَلَىٰ أَنَّ الشَّيَاطِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقْتَرِبُوا إلى الملأ الأعلىٰ ليَتَسَمَّعُوا، ودلَّت قراءة [**لَا يَسْمَعُونَ**] على أَنَّهُ إذا اقْتَرَبَ بَعْضُهُمْ لَا يُمَكَّنُونَ مِنَ السَّمَاعِ.

تَمْهيد:

يُقْسِمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلنَّاسِ، ولَا سيما المشركونَ مِنْهُمْ علَىٰ أنّ إلَٰهَهُمْ

لَوَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَه، وأنَّهُ هُو رَبُّ السَّمَاواتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما وَرَبُّ المشَارِقِ، ومَنْ كَانَ رَبَّ المشَارِقِ فَهُو رَبُّ المغارب، إِذْ لَا تُشْرِقُ الشَّمْسُ مِنْ جِهَةٍ، إِلَّا غَرَبَتْ في الوقْتِ نَفْسِهِ عَنِ الْجِهَةِ المقابلَةِ لَهَا في دَوْرَةِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِها.

ويَمْتَنُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ علىٰ النَّاسِ فِي الأَرْضِ، بأَنَّهُ زَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيا بالكواكب المضيئة، وأبَانَ أَنَّهَا ذَاتُ وَظِيفَةٍ أُخْرَىٰ وهِيَ حفظ السَّمَاءِ مِنْ كُلِّ شيطانٍ مَارِدٍ طَرْداً لَهُ عَنْ مَوَاطِنِ الْمَلأِ الأعْلَىٰ من الملائكَةِ، الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ أوامِرَ اللهِ لِلْمَلَائِكَةِ المكلَّفِين تَنْفِيذَ أَوامِرِ اللهِ في الأرض، وَوَسيلَةُ طَرْدِ الشَّيَاطِين الَّذِين يحاوِلُونَ تَلَقُّطَ أَخْبَارِ السَّمَاءِ، هِيَ مُلاحَقَتُهُمْ بالشُّهُبِ الَّتِي إِذَا أَصَابَتْهُمْ أَحْرَقَتْهُمْ، أو أنزلَتْ بِهِمْ عَذَاباً يَمْنَعُهُمْ من الْتِقَاطِ الأخبار.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ① فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ② فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ④ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ⑤﴾: الواو في: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ هي واو الْقَسمِ.

قِيلَ: إنّ الْمُقْسَمَ بِهِمْ أَصْنَافٌ مِنَ الملائكة، لكنّي لم أرَ أنَّ الْقَسم بأصْنَافٍ من الملائِكَةِ، وَهُمْ مَخْلُوقَاتٌ غَيْرُ مَشْهُودَة للنَّاس، يُؤَكِّدُ لَدَىٰ المُشْرِكِينَ أَنَّ إِلَهَهُمْ لَواحد، هو رَبُّ السَّمَاوات والأرض وما بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشَارِقِ.

إنَّ التَّوْحِيدَ دَلِيلُهُ عَقْلِيٌّ مُسْتَفَادٌ من آيات اللهِ الكونيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ الرَّبَّ واحدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، واللّازِمُ العقليُّ المُباشر لهَٰذا أنّ الْإِلَٰهَ الْمَعْبُودَ الْحَقَّ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبّ الواحد.

إنَّ الملائكة مَخْلُوقَاتٌ غيبيَّةٌ، لَمْ يُعْلَمْ وُجُودُهم، ولَمْ تُعْلَمْ صِفَاتُهُمْ، إلَّا عَنْ طَرِيقِ الْخَبَرِ الدِّيني، والمُشْرِكُون لَمْ يَقْبَلُوا الأخْبَارَ الدِّينِيَّةَ ابْتِدَاءً بِشَأْنِ التوحِيد، فَكَيْفَ يُؤَكِّدُ لَهُمُ الْقَسَمُ بالملائكَةِ الغائِبينَ عَنِ الحواسِّ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إلَّا اللهُ الواحد لا شَرِيكَ له.

وأعجَبَنِي قَوْلُ مَنْ قال: إنَّ المقْسَمَ بِهِمْ جماعَاتٌ من أهل الإيمانِ يُصَلُّونَ صُفُوفاً، ويجاهِدُونَ صُفُوفاً مُتَراصَّة.

أقول: إنَّ مِنْ عَادَةِ النَّاسِ أَنْ يُقْسِمُوا بِمَنْ يُعَظِّمُونَ، وبِمَنْ يُكَرِّمُونَ، وَبِمَنْ يُحِبُّونَ مِنْ أَزْواج، أو أولاد، أو أخِلَّاء، فيَكُونُ قَسَمُهُمْ في عُرْفِ النَّاسِ مُؤَكِّداً لِأَقْوالهم، والْقَسَمُ مُؤَكِّدٌ كسَائِرِ أَدَوَاتِ التَّوْكيد.

ومَعْلُومٌ أَنَّ الْمُحْسِنِين، والأبْرَارَ، وكامِلِي التَّقْوىٰ، من المؤمنين المُسْلِمِينَ، وهُمْ رُسُلُ اللهِ، وأَنْبِيَاؤُهُ، وأَتْبَاعُهُمْ بإحْسَانٍ، هُمْ مَحْبُوبُونَ لِلَّهِ، وأَصْحَابُ مَكَانَاتٍ رَفِيعَاتٍ عِنْدَهُ، وَهُمْ أَصْحَابُ مَكَانَاتٍ عَالِيَاتٍ فِي كُلِّ أُمَّةٍ لِمَا يَتَحَلَّوْنَ بِهِ مِنْ فَضَائِلِ الأخْلَاقِ، ومَحَاسِنِ السُّلُوكِ. فالْقَسَمُ بِهِمْ وَهُمْ مَشْهُودُونَ للنَّاسِ بفضائِلِهِمْ، يُشْعِرُ بأنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يُحِبُّهُمْ وَيَرْفَعُ عِنْدَهُ مَكَانَاتِهِمْ، فَيَأْتِي الْقَسَمُ بِهِمْ وَسِيلَةً من وَسَائِلِ التَّوْكِيدِ المألُوفَةِ بَيْنَ النّاس، مَعَ دَلَالَةِ الْقَسَمِ عَلَىٰ تَكْرِيمِهِمْ وَتَفْضِيلِهِمْ علَىٰ سَائِرِ النَّاس.

وأَبْرَزَ اللهُ مِنْ فَضَائِلِ هـٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمَ بِهِمْ من جَمَاعَاتِ الْأُمَمِ الرَّبَّانِيَّة ما يلي:

• ﴿وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ۝﴾: أي: أُقْسِمُ بِجَمَاعَاتِ الرَّبَّانيّين مِنْ عبادي المحسنين، والأبرار، وكامِلِي التَّقْوىٰ، الَّذِينَ هُمْ أحْبَابي من عبادي، وذَوُو مَكَانَاتٍ رَفِيعَاتٍ عِنْدِي، ومُقَرَّبُونَ مِنّي، الَّذِين مِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ يُصَلُّونَ صَافِّينَ صُفُوفاً مُسْتَوِيَةً مُتَرَاصَّة، ويجاهِدُونَ ويُقَاتِلُونَ في سَبِيلي صُفُوفاً مُسْتَوِيَةً مُتَرَاصَّة، لَا مُتَخَالِفَةً، وَلَا مُتَنَافِرَةً، وَلَا مُتَصَارِعَةً، وَلَا مُتَفَرِّقَةً شِيعاً وَأَحْزَاباً.

«**صَافَّات**»: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «صَافة» وهي الجماعَةُ الَّتي تَنْتَظِمُ مُسْتَقِيمَةً عَلَىٰ خَطٍّ، أو خُطُوطٍ بَعْضُهَا وَرَاءَ بَعْضٍ، مُؤْتَمَّةً بإمَامٍ واحِدٍ يَقُودُ حَرَكَاتها، في الصَّلاةِ، وفي جهاد الدَّعْوَةِ إلى اللهِ، وفي القتالِ في سَبيلِ الله، أو تَخْضَعُ لِنِظَامٍ صَفِّيٍّ مُنْضَبِطٍ وَلَوْ تفَرَّقُوا في المواقع.

فَالصَّافَّات وَصْفٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: الجماعَات الصَّافّات، واخْتِيرَ هٰذا الجمع المؤنَّثُ الدَّال على الجماعَاتِ لِيَشْمَلَ جَمَاعَاتِ الإيمانِ من المحسنين، والأبرار، وكامِلِي التَّقْوىٰ، من كلِّ أمَّةٍ، ومِنْ كُلِّ عَصْر، فَهُمُ السَّابِقُونَ الذين يُحِبُّهُمُ اللهُ ويُحِبُّونَه.

﴿صَفًّا﴾: مَفْعُول مُطْلَق يُؤَكّدُ الْتِزَامَهُمْ بِالانْضِبَاطِ الصَّفِّيِّ المطْلُوب مِنْهُمْ شَرْعاً.

وَيُؤَكِّدُ هٰذا الفَهْمَ مَا جَاءَ في الآيات من (١٦٤ ـ ١٦٦) الَّتِي أَرْشَدَ اللهُ المؤمنين أنْ يَقُولُوه في أَوَاخِرِ هٰذه السُّورَة، وهو قولُهُ تَعَالَىٰ مُعَلِّماً:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

وسيأتي تَدَبُّرُها إنْ شَاءَ الله تعالى.

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾﴾: «**الزَّجْرُ**»: هو في اللُّغَةِ المَنْعُ والنَّهْيُ والانْتِهَار، يُقَالُ لغة: «زَجرَهُ، يَزْجُرُه، زَجْراً» أي: منَعَهُ وَنَهَاهُ وانْتَهَرَهُ.

دلَّ هٰذَا الْوَصْفُ عَلَىٰ أَنَّ هٰذِهِ الْجمَاعَاتِ من الْمُحْسِنِينَ، والأبرار، وكامِلِي التَّقْوَىٰ، تَقُومُ بِرِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ ضِمْنَ الِمنْهَاجِ الرَّبَّانِيّ، وَتَنْصَحُ وَتُرْشِد، فَمَنْ أَعْلَنَ إيمانَهُ وَإِسْلاَمَهُ، عَلَّمَتْهُ شرائِعَ اللهِ وَأَحْكَامَ دِينِه، وطَالَبَتْهُ بالْتِزَامِهَا فِي حَيَاتِهِ، وَتابعَتْ رِسَالَتَهَا في المجْتَمَع المؤمِنِ الْمُسْلِم

تُرْشِدُ وَتَنْصَحُ، وتأمُرُ بالمعروف وَتَنْهَىٰ عَنِ المنكر، فَمَنْ أصَرَّ مِنَ المؤمِنِينَ المُسْلِمِينَ عَلَىٰ ارتِكَابِ كَبَائِرِ الْمَعَاصِي زَجرَتْهُ عن مَعَاصِيهِ بِشِدَّةٍ، فِيها شيءٌ مِنَ الْعُنْفِ والانْتِهَار، لِيَمْتَنِعَ عَنْ كَبَائِرِهِ، ويَسْتَقِيمَ على صراطِ الله.

فَدَلَّ التَّعْبِيرُ بالزَّجْرِ عَلَىٰ سَوَابِقِهِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا الحِكْمَةُ التَّرْبَوِيَّةُ في الإِسْلَام، عَنْ طَرِيق اللَّوَازِمِ الْفِكْرِية، مَعَ مُلَاحَظَةِ مِنْهَاج فِقْهِ الدَّعْوَةِ إلىٰ الله، وفِقْهِ النُّصْحِ والإِرْشَادِ، وَالْأَمْرِ بالْمَعْرُوف والنَّهْيِ عَنِ المنكر، إِذِ الزَّجْرُ يَكُونُ مُتَأَخِّراً فِي تَرْتِيبِ الْعِلَاجِ التَّرْبَوِيّ، وَلَا يَكُونُ في أوائِلِ الْعِلَاجِ وَلَا فِي أَوَاسِطِه، أمَّا التّعَازِيرُ الْعِقَابِيَّة فَهِيَ مِنْ وَظَائِفِ الإِدَارَةِ الحاكمة المسْلِمَةِ، لا من وظائِفِ حَمَلَةِ الرّسَالَةِ الآمِرِينَ بالمعْرُوفِ وَالنّاهِينَ عَنِ المنكر.

﴿زَجْرًا﴾: مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ يُؤَكِّدُ اتِّصَافَ هٰؤلَاءِ النُّخْبَةِ بِغَيْرَتِهِمْ على دِين الله، غَيْرَةً تَجعَلُهُمْ يَصِلُونَ إِلَىٰ مُسْتَوىٰ زَجْرِ مُرْتَكِبي الكبائر بِعُنْفٍ حَكِيمٍ، غَيْرِ مُنَفِّرٍ وَلَا مُشَهِّرٍ بالمسْتُورِين من أَهْلِ المعاصِي.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾: أي: فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، تعَلُّماً وَتَعْلِيماً، وطَلَباً لِثَوابِ اللهِ الَّذِي أَعَدَّهُ جلَّ جَلَالُهُ لتالي آياتِ كِتابِه، وتَبْلِيغاً لِكِتَابِ اللهِ مَا وَجدُوا له سبيلاً بِمُخْتَلِفِ وسائِلِ التَّبْلِيغ.

إنَّ من صفاتِ الجماعَاتِ الَّذِينَ أَقْسَمَ اللهُ بِهِمْ مِنَ الْمُحْسِنِين، والأبْرارِ، وكامِلِي التَّقْوىٰ، أنَّ مِنْ أَحْوَالِهِم الدَّائِمَةِ أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ اللهَ كثيراً، ويُسَبِّحُونَ بِحَمْدِهِ، ويَتْلُونَ كِتَابَهُ مُتَعَلِّمِينَ، وَمُعَلِّمِينَ، وَمُبَلِّغِين.

﴿ذِكْرًا﴾: مَفْعُولٌ بِهِ لِجَمْعِ اسم الفاعل: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾.

وجاء العطف بالفاء في: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢﴾ وفي ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ الدَّالَّة علىٰ التَّرْتِيب مع التَّعقيب، مُلائماً للتَّرْتِيب الطَّبِيعي،

فالصَّفُّ في الصَّلاةِ يكونُ أوّلاً، وبَعْدَهُ يكونُ الصَّفُّ في الجهاد الدَّعَوِيّ والقتال، وبَعْدَهُ تَتكَوَّنُ الْأُمَّةُ المُسْلِمَة، وعِنْدَئِذٍ يُوَجَّهُ لَهَا الْأَمْرُ والنَّهْيُ، فَالزَّجْر، فالمداومَةُ علىٰ تَلاوَةِ الذِّكْرِ تَبْلِيغاً، وتَعَلُّماً، وتَعْلِيماً.

هـٰذه صفات النُّخْبَةِ السَّابِقَةِ في الخيْرات من المؤمنين المسلمين، وهم المُحْسِنُونَ، والأبْرَارُ، وكامِلُو التقوى.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ خطاباً للنّاس ولا سيما المشركون:

• ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾: أي: إنَّ إلَٰهَكُمُ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ عليكم أَنْ تَعْبُدُوهُ، ولَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً، هُوَ واحِدٌ فَقَط، لَا شَرِيكَ لَهُ.

جاءَ تَوْكِيدُ هـٰذِهِ الجملة بِعِدَّة مُؤَكِّداتٍ هي: «الْقَسَمُ بالنُّخبة المُصْطَفَاة من المؤمنين الْمُسْلِمينَ ـ وإِنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ ولام الابتداء المزحلقة إلى الخبر».

﴿إِلَٰهَكُمْ﴾: أي: مَعْبُودَكُمُ الحق.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً وَصْفَ الإلَٰهِ الْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَعْبُدَهُ المُكَلَّفُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وأنْ لَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً، وَلَا شَيئاً:

• ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾:

أي: هو خالِقُ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاواتِ والْأَرْض، وخالِقُ المشَارِقِ والمغارِبِ، لأنَّ المشَارِقَ تَحْدُثُ مَعَهَا الْمَغَارِبُ دَواماً في الجهة المقابِلَةِ لَها، وهُو المتَصَرِّفُ والمُهَيْمِنُ عَلَيْها دَواماً بِصِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ الكَثِيْرَة.

السَّمَاوات: هي السَّماواتُ السَّبْعُ الَّتِي جَاء الحديث عَنْهَا في نُصُوصٍ قرآنِيَّةٍ كثيرة.

الأرض: هي هـٰذا الكوكَبُ ذُو السَّطْحِ البارد، الَّذِي يَسْكُنُ عَلَيْهِ

النَّاسُ، ويُلْحَقُ بهَا غِلَافُها الغازِيُّ المنْجَذِبُ إليها، وهذا الغِلَافُ هو سماءٌ قَرِيبةٌ بالنسبة إلى الأرض، وفق الوضع اللّغويّ للفظ «سماء».

وَمَا بَيْنَهُمَا: أي: وَمَا بَيْنَ السَّمَاواتِ والْأَرْض، وهِيَ الكائنات في الفضاءِ الخارج عَنْ جاذبيَّةِ الأرض، وجَاذِبيَّاتِ الكواكب والنجوم الكائِنَةِ فِي السَّمَاءِ الأُولَىٰ.

المشارق: تَدُور الأرض بِسُرْعَةٍ حَوْلَ مِحْوَرِهَا باتّجاه الشمس، وهذه الحركةُ الدَّوَرَانِيَّةُ السَّرِيعةُ تَجْعَلُ الشَّمْسَ في نظر سُكَّانِ الأرْضِ كأَنَّهَا هِي الّتي تَتَحَرَّكُ من الشَّرْقِ إِلَىٰ الْغَرْب مُسَبِّبَةً حُدُوثَ النهار واللَّيْلِ على الأرض، وجانِبُ النَّهارِ على الأرض هُوَ الجانب المواجِهُ للشَّمْس، وأمَّا اللَّيْلُ فَيكُونُ في الجانب الآخر الذي لا تكُونُ الشَّمْسُ مُواجهةً لَهُ.

وبِدَوَرَانِ الأرض حَوْلَ نَفْسِها باتّجَاهِ الشَّمْسِ، تَكُونُ الشَّمْسُ ذَاتَ مَشَارِقٍ على الأرض لحظَةً فَلَحْظَةً، وكلُّ سَاكِنٍ من الأرْضِ يَرَىٰ الشُّرُوقَ الّذِي يَكُونُ عَلَىٰ الأرْضِ الَّتِي يَسْكُنَها، ومَنْ يَسْكُنُ أَبْعَدَ مِنْهُ فِي اتّجاهِ الْغَرْب، يَرَىٰ على أَرْضِهِ شُرُوقاً آخر، ونَظِيرُه في المقابِل الغروب.

مَشَارِق: جَمْع «مَشْرِق» وهو يُطْلَقُ على مَكانِ شُرُوق الشمس، وزَمَانِ شُرُوقِ الشمس، ويُطْلَقُ على الشُّرُوق باعتباره مصدراً مِيمِيّاً، ومَعْلُومٌ في المفاهيم الدّينيَّةِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يُهَيْمِنُ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ خَلْقاً وتدبيراً وَتصاريف على الشُّرُوق، وعَلَىٰ أَمْكِنَةِ الشُّرُوق، وعَلَىٰ أَزْمِنَةِ الشُّرُوق، فَهُوَ رَبُّ كُلِّ المشارِقِ، وكُلّ المغارِبِ، ولَا أَحَدَ غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ مَا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِك.

وجاء التصريح بأنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ رَبُّ المغارِب أيضاً في قوله تعالى في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشأن بَعْضِ مِنَنِهِ على النّاس.

● ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾:

يتحدَّثُ رَبُّنا ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ بضمير المتكلّم العظيم مؤكّداً: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ وَقَدْ سَبَقَ بيانُ القِراءَاتِ وبَيَانُ الحِكْمَةِ فيها. وَلَمَّا كانَتْ ظَاهِرَةُ هـٰذا التَّزْيينِ مِنْ خَصَائِصِ أَفْعَالِ الرَّبِّ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُهَا في الْوُجُودِ أَحَدٌ سواه، كان من الحكْمَةِ التحدُّثُ عَنْهَا بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم.

﴿زَيَّنَّا﴾: أي: حَسَّنَّا وَجَمَّلْنا، وهـٰذا التَّزْيينُ بِالكَوَاكِبِ السَّمَاوِيَّةِ ظَاهِرٌ لكُلّ ذي نظرٍ يرَىٰ بِهِ السَّمَاء.

ومن المعلوم لَدَىٰ عُلَماء الكَوْنِ أَنَّ الكَواكِب والنُّجومَ لَا تَظْهَرُ زِينَتُهَا لِأَعْيُنِ النَّاظِرِين في الأرْضِ، إلَّا بِوَسَاطَةِ الْخَصَائِصِ الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الغِلَافِ الغازِي حَوْلَ الأرض، ولولاهُ لَمْ تَكُنْ زِينَةً للنَّاظِرِين، وهـٰذا التَّزْيينُ من مِنَنِ اللهِ على عبادِهِ من الناس، وهو من آيات رُبُوبيَّتِهِ لِكَوْنِه.

ولَمَّا كَانَ الْغِلَافُ الغازيُّ حَوْلَ الأرْضِ هو الوسِيطُ الَّذي تَظْهَرُ بِهِ زِينَةُ الكواكِب، ويُسَمَّىٰ في اللُّغَةِ «سَمَاءً» كانَ لَنَا أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ المرادَ بالسَّماءِ الدُّنْيا هُو هـٰذا الْغِلافُ الغازِيّ حَوْلَ الأَرْض، إِذْ هُو الذي تَظْهَرُ فِيهِ زِينَةُ الكَوَاكِب، ولولاه لَمْ تَكُنْ ذاتَ زِينة. لفظ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ مؤنَّثُ الأدْنى، أي: السَّماءُ الأقْرَبُ لَكُم أيها الناس.

وَلَا يَقْتَصِرُ أَمْرُ الكَوَاكِب علَىٰ كَوْنِها زِينَة، بَلْ هِي أيْضاً كما جاء في النَّصِّ، تحْفَظُ السَّماءَ مِنْ أَنْ يَسْتَرِقَ الشَّياطِينُ الْمَرَدَةُ السَّمْعَ مِنْ مَلَائِكَةِ

المَلأ الأعْلَىٰ، حِينَ يَنْزِلُونَ مُبَلِّغِينَ أوامِرَ اللهِ المُتَعَلِّقَةَ بتصاريفِ اللهِ في الأرضِ. لِذَوِي الوظائفِ الأرْضِيَّةِ من الملائكة، فقالَ تَعَالى:

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾: أي: وجَعَلْنَاهَا أدَوَاتِ حِفْظٍ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ، وهٰذِهِ وظيفَةٌ للكَوَاكِبِ من الوظائفِ التي جَعَلَها الله لَهَا في كونه.

شيطان: اسم جنْسٍ يُطْلَقُ عى كُلِّ مُعْوٍ مُضِلٍ مُتَمَرِّدٍ مُفْسِدٍ مِنَ الجنّ والإنس، وإبليسُ إمَامُ كُلِّ الشَّياطين ورَئِيسُهم. والَّذِينَ كانوا يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ مِنَ الشَّيَاطين، هم من شياطين الجنّ.

مَارِد: أي: بالغُ الْغَايَةَ فِي الْعُتُوِّ والإجْرَامِ والإفساد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾:

أي: فَشَيَاطِينُ الجنِّ الْمَرَدَةُ، بَعْدَ أَنْ حفِظَ اللهُ السَّمَاءَ مِنِ اقْتِرَابِهِمْ مِنْها بالشُّهُب، خَافُوا مِنْ أَنْ تُصِيبَهُمُ الشُّهُبُ الْمُحْرِقَةُ، فَصَارُوا لا يَتَسَمَّعُونَ إلَىٰ الْكَلام الَّذِي تنْزِلُ بِهِ مَلائِكَةُ الْمَلأ الأعْلَىٰ بالأوَامِرِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لِمَلائِكَةِ تَنْفِيذِ الْأَوَامِرِ في الأَرْضِ.

وَدلَّت القراءَةُ الأُخْرَى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾ علىٰ أَنَّهُ إِذَا غَامَرَ بَعْضُهُمْ وبَلَغَ مَكَاناً مَا يَتَسَمَّعُ وهُوَ فِيه تَنَصُّتاً، فإنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْمَعَ، إِذْ يَجِدُ قَذَائِفَ تُوَجَّهُ لِقَتْلِهِ أو إحْرَاقِهِ أَوْ مَسِّهِ بِضُرٍّ شَدِيدٍ مِنَ الشُّهُبِ، مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبه.

• ﴿دُحُورًا﴾: أي: لِأَجْلِ دَحْرِهِمْ وَطَرْدِهِمْ عَنْ مَوَاقِعِ التَّسَمُّعِ من مَلائِكَةِ الْمَلأ الأعْلَىٰ، النَّازِلِينَ لِتَبْلِيغِ مَلائِكَةِ التَّنْفِيذِ أَوَامِرَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ.

الدُّحُور: والدَّحْرُ: الطَّرْدُ والإِبْعَادُ المقتَرِنُ بدَفْعٍ عَنِيفٍ فيه إهانَةٌ وإذْلال.

• ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾: أي: ولَهُمْ إِذَا حَاوَلُوا التَّسَمُّعَ عَذَابٌ دَائِمٌ مُلازِمٌ، إذَا لَمْ تُحرِقْهُمُ الشُّهُب. أو: ولَهُمْ في الآخرة عذابٌ دائم.

• ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾:

اسْتِثْنَاءٌ مِنْ [**لَا يَسَّمَّعُوْنَ**] ومِن [**لَا يَسْمَعُونَ**] في القراءَة الأُخْرَىٰ، أي: إِلَّا شَيْطَاناً مَارِداً اسْتَرَقَ بَعْضَ الكَلَام مِنْ مَلَائِكَةِ الملأ الأَعْلَىٰ، بأسْلُوب الْخَطْفِ السَّرِيع، فإنَّهُ لَا يُتْرَكُ بَلْ يَتْبَعُهُ شِهَابٌ نَارِيٌّ فَيُحْرِقُهُ أَوْ يُنْزِلُ به عِلَّةً تَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَنْقُلَ إلى وَلِيِّهِ مِنْ شَيَاطِين الإنْسِ، مَا اخْتَطَفَهُ مِنْ كَلامٍ بتَسَمُّعِهِ.

﴿خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾: يقال لغة: «خَطِفَ الشّيْءَ، يَخْطَفُهُ، خَطْفاً» أي: جَذَبَهُ وأخَذَهُ بِسُرْعَةٍ.

• ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾: أي: فتَبِعَهُ بِسُرْعَةٍ وقُوَّةٍ.

• ﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: **الشِّهاب**: الشُّعْلَةُ السَّاطِعَةُ مِنَ النار، **والثاقب**: المتوقِّدُ لَهباً، فهو شِهَابٌ شَدِيدُ التَّوَهُّجِ الناري.

ويطْلَقُ الشهابُ على النجم المضِيءِ اللامع، ويطْلَق على جرمٍ سماويٍّ يَسْبَحُ في الفضاء، فإذا دَخَلَ إلى جوّ الأرْضِ انْجَذَبَ إليها بِشِدَّةٍ فاشْتَعَلَ وَصَارَ رَمَاداً غالباً.

أي: فتَبِعَهُ بِسُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ شِهابٌ مُتَوَقِّدٌ لَهباً، فقَتَلَهُ، أَوْ مَسَّهُ بحَرِيقٍ وَأَنْزَل بِهِ ضُرّاً، فَمَنَعَهُ من أَنْ يَنْقُلَ شيئاً إلى وَلِيِّهِ مِنْ شياطين الإنس.

وقد كان شياطين الجنّ يَسْتَرِقونَ بمَسَامِعِهِمْ مَا تتحادَثُ به الملائكةُ في السَّمَاء، أو مَا يُلْقَىٰ إليهم من أوامر رَبَّانِيَّة وأنْبَاء، ويُبَلِّغُونَ مَا اسْتَمَعُوهُ

إلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ شياطين الإنْس، الكَهَنَةِ والْعَرَّافِينَ، فَمُنِعُوا مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالشُّهُب، كما سبَقَ إيضاحُهُ لدَىٰ تَدَبُّر سورة (الجنّ/ ٤٠ نزول).

وحِكْمَةُ هٰذا المنْعِ حِمَايَةُ الرِّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ الَّتِي اصْطَفَىٰ اللهُ لَهَا محمّداً ﷺ، مِنْ أَنْ يَلْتَبِسَ الْوَحْيُ الرَّبَّانيُّ بمَا تُلْقِيهِ شياطِينُ الجنّ إلى أَولِيَائِهِمْ من شياطين الإنس، عَنْ طَرِيق اسْتِرَاقِ السَّمْعِ مِنْ مَلَائِكَةِ المَلأَ الأعْلَىٰ، وَكَانَ شياطِينُ الإنْسِ من الكَهَنَةِ والعَرَّافِينَ، يَكْذِبُونَ مَعَ الْخَبَرِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْهِمُ من قُرَنَائِهِمْ من الجنِّ مِئَةَ كَذْبة، وقدْ جاء هذا فيما صَحَّ عَنِ النبيّ ﷺ.

وبهٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدرس الأول من دُروس سورة (الصَّافَّات). والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفَتْحِه.



(٦)
التدبر التحليلي للدّرس الثاني من دروس سورة (الصافات) الآيات من (١١ ـ ٧٤) وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

الآيات من (١١ ـ ٣٩)

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ

﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

القراءات:

(١١) • قرأ رُوَيس: **[فَاسْتَفْتِهُمْ]** بضمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فاسْتَفْتِهِمْ]** بكسر هاء الضمير.

وهما لغتان عربيّتان.

(١٢) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[بَلْ عَجِبْتُ]** بتاء المتكلّم وهو الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[بَلْ عَجِبْتَ]** بتاء المخاطب وهو الرسول ﷺ.

وبين القراءَتَيْنِ تكاملٌ في أداء المعنى المراد، فالله عَجِبَ من اعتزازِهِمْ بقُوَّتِهم مع أنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّ اللهَ أشدُّ مِنْهُمْ قوةً، والرَّسُولُ ﷺ عجب أيضاً من أَمْرِهم هـٰذا، والْعَجَبُ من اللهِ مَعْنَاه الإنكارُ الشديد عَلَيْهِمْ لما هُمْ فيه من مكابَرَة حمقاء.

(١٦) • قرأ ابن عامر: [**إِذَا... أَئِنَّا**].

وقرأها نافع والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب: [**أَئِذَا... إِنَّا**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**أَئِذَا... أَئِنَّا**].

ومُؤَدّىٰ هـٰذه القراءات واحد، فَحَذْفُ هَمْزةِ الاستفهام هو عَلَىٰ أنَّها مُقَدَّرَةٌ ذهْناً. والاستفهام هنا تَعَجُّبِيٌّ إنكاري.

(١٦) • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامر، وشُعْبَة، وأبو جعفر، ويعقوب [**مُتْنَا**] بضَمّ الميم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِ الميم [**مِتْنَا**].

وهما وَجْهَانِ عَرَبيان، والقياسُ بضم الميم، لأنَّ الفعل «مَاتَ، يَمُوت».

(١٧) • قرأ قالُونُ، وأبُو جَعْفَر، وابن عامر: [**أَوْ آبَاؤُنَا**] بحَرف الْعَطفِ «أَوْ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**أَوَ آبَاؤُنَا**] بهمزة الاستفهام والْعَطْفِ بالواو.

ومؤدّىٰ القراءتَيْنِ واحد.

(١٨) • قرأ الكسائي: [**نَعِمْ**] بِكَسْر الْعَيْنِ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**نَعَمْ**] بفَتْحِ الْعَيْن.

فتح الْعَيْنِ وَكَسْرُها في «نَعَمْ» لغتان عَرَبِيَّتان.

(٢٥) • قرأ الْبَزِّي، وأبو جَعْفَر: [**لَا تَّنَاصَرُونَ**] بِتَشْديدِ التاء، مع المدّ المشْبَع للسَّاكِنَيْن، أصْلُها: «لَا تَتَنَاصَرُونَ» أُدْغِمَتِ التاء بالتاء.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**لَا تَنَاصَرُونَ**] بحذف إحْدىٰ التاءَيْنِ للتخفيف، وهذا مِنَ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيح.

تَمْهيد:

في هـٰذا الْفَصْلِ مُعَالَجَةٌ لِأَئِمَّة الكُفْرِ المعانِدِين إبَّانَ تنزيل السُّورة، بشأن سَبْعِ ظاهراتٍ بَارِزاتٍ فيهم:

الظَّاهِرَة الأولى: اعْتِزَازُهُمْ بِقُوَّتِهِم المادّيَّةِ علىٰ الرُّسُولِ وَعَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

الظَّاهِرَة الثانية: سُخْرِيتُهُمْ بالرَّسُول وبما جاء به عَنْ رَبّه، وسخريَتُهم بالمؤمنين.

الظَّاهِرَةُ الثالِثَة: عَدَمُ اسْتِجَابَتِهِمْ للتذكير مَهْمَا كانَ ذَا تَأْثير في العقول والنفوس، لِقَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ.

الظَّاهِرَة الرابعة: إمْعَانُهُمُ الْمُسْرِفُ بالسُّخْرِيَةِ من الآيَات الخارقَاتِ الدّالّاتِ على أَنَّ مُحَمّداً رَسُولُ اللهِ حَقّاً وَصِدْقاً، لِحَجْبِ أتْبَاعِهم عَنِ التَّأَثُّرِ بِهَا، وتَصْدِيق الرَّسُول، زَاعِمِينَ أَنّها مِنْ قَبِيلِ السِّحْر.

الظَّاهِرَةُ الْخَامِسَة: إنكارُهُمُ الْبَعْثَ الَّذِي سَوْفَ يكُونُ يَوْمَ القيامة، دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا دَلِيلاً إلّا الاستفهامَ التَّعَجُّبِيَّ الإنْكَارِيّ.

الظَّاهِرَة السَّادِسة: اسْتِكْبَارُهم عَنِ اتِّباع الحقّ، وإعْلَانِ كَلِمَةِ التوحِيد، وعَنْ تَرْكِهِمْ عِبَادَةَ آلِهَتِهِمْ الَّتِي وَرِثُوا الاعْتِقَادَ بِهَا عَنْ آبائهم.

الظَّاهِرَة السَّابعة: شَتْمُهُمُ الرَّسُولَ بأَنَّهُ شَاعِرٌ مَجْنُونٌ.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خطاباً لِرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

● ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾:

الاسْتِفْتَاءُ: طلبُ الإجابةِ علَىٰ المَسْؤُولِ عَنْهُ.

﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾: أي: من طِينٍ مُتَمَاسِكٍ فيهِ قُوَّةُ الالْتِصَاقِ بالْأشياء، يقال لغة: «لَزَبَ الطّينُ، يَلْزُبُ، لُزُوباً» أي: تماسَكَ وَلَزِقَ، ويُقَالُ: «لَزَبَ بِالشَّيءِ يَلْزُبُ، وَلَزِبَ يَلْزَبُ لَزَباً» أي: لَصِق، فهو لَازِب.

أفْهَمُ مِنْ هٰذِهِ الآيَة أَنَّ كُبَرَاءَ مُشْرِكِي مَكَّةَ، وعُتَاتَهُمْ إبَّانَ تَنْزِيلُ السُّورَةِ، كَانُوا يَعْتَزُّونَ بِقُوَّتِهِمْ الغَالِبَةِ وَيقِفُونَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، ومن الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه مَوْقِفَ الْمُعْتَزِّ بِقُوَّتِهِ الْقَادِرِ على الْبَطْشِ والتَّنْكِيلِ، وهٰذا مَا جَعلَهُم يَتَسَلَّطُونَ علَىٰ ضُعَفَاءِ المؤمنين، وَجَعَلَ بَعْضَ المؤمنين يُهَاجِرُونَ مِنْ مَكَّةَ طَلَباً لِسَلَامَةِ أَنْفُسِهِم مِنْ عُدْوانِ طُغَاةِ الكَفَرةِ، ومُضَايقاتِهِمْ لَهُمْ فِي أَرْزَاقِهِم.

فَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَسْأَلَ هٰؤُلَاءِ الأكابِرَ المجرمين، الْمُعْتَزِّينَ بِقُوَّتِهِم، وبِقُوَّةِ جُنُودِهم وَأَنْصَارِهِمْ، والمُتَحَدِّينَ بأجْسَادِهِمْ المتينَةِ، فيقولَ لَهُمْ: أأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً من الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، الَّتِي عَادَتْ رُسُلَ رَبِّها، وبَغَتْ على الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ. أَلَمْ يُهْلِكِ اللهُ عَاداً وقَدْ كانُوا أشَدَّ مِنْكُمْ خَلْقاً وقُوَّة؟. أَلَمْ يُهْلِكِ اللهُ ثموداً؟. أَلَمْ يُهْلِكِ اللهُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ وجُنُودَه؟.

إِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ عَقْلٍ فاحْذَرُوا نِقْمَةَ اللهِ مِنْكُمْ، وتداركُوا أَمْرَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ عليكُمْ غَضَبُ رَبِّكُمْ. وأَيْضاً أأَنْتُمْ أشدُّ خَلْقاً أمْ من خَلَقْنَا من ملائكة ذوي قوى تقلب البلاد عالِيَها سَافلها.

انْظُرُوا إلىٰ أصْلِ إنْشَاءِ اللهِ لَكُم، إنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أنَّ رَبَّكُمْ قَدْ خَلَقَ أباكُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ، وهي إحْدَىٰ مَراحِلِ خَلْقِ اللهِ لآدَم، وأَنْتُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، فأَنْتُمْ مِنْ سُلَالَةِ مَخْلُوقٍ مِنْ طِينٍ، ماءٍ مُمْتَزِجٍ بتُرَابٍ، وكمَا خَلَقَكُمْ في الْخَلْقِ الْأَوَّلِ هُو قادِرٌ على إعادَةِ خَلْقِكُمْ وبَعْثِكُم إلى الحياةِ يَوْمَ

القيامَةِ، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، وقَادِرٌ على إهْلاكِكُمْ كَمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ مُجْرِمي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، فَلَسْتُمْ أَكْرَمَ عِنْدَ اللهِ مِنْهُمْ، إِذْ كُلُّكُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، وعبيدٌ مِنْ عَبِيدِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشأن المعالجين أنفسهم:

● ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ وفي القراءة الْأُخْرَىٰ: [**بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ**] بتاء المتكلّم وهو اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

«**بَلْ**» للإضراب الانتقاليّ مِنْ بَيَانٍ إلى بيانٍ آخر.

أي: أنَا وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ عَجِبْنَا مِنْ أَمْرِ هٰؤُلَاءِ الجبَابِرَةِ الْعُتَاةِ الكَفَرَةِ، إِذْ يُعَانِدُونَ الحقَّ الْجَلِيَّ الَّذِي أَدْرَكُوهُ وفَهِمُوه، ويُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِعَذَابٍ شَدِيدٍ مع إِهْلَاكٍ مُهِينٍ مُخْزٍ في الحياة الدُّنيا، وعَذَاب شَدِيدٍ خالِدٍ في دَارِ الْعَذَاب النار يَوْمَ القيامَةِ، وهُمْ أَهْلُ فَطَانَةٍ وَذَكَاءٍ، ولٰكِنَّهُمْ يَسْتَجِيبون لأهوائِهِمْ وَعَوَامل كِبْرِهم في نُفُوسِهِمْ، والْتِزَامِهِمْ بتقاليدِهِم الّتي يُحَقِّقُونَ بِهَا مَصَالِحَ لَهُمْ في دُنْيَاهُمْ.

وَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنَ الإنْذَارَاتِ الَّتِي تُوَجَّهُ لَهُمْ الْعَاجِلَةِ والآجِلَةِ ظَانِّينَ ظنّاً تَوَهُّمِيّاً أَنَّهَا لَنْ تتحَقَّقَ.

أَنَا وأَنْتَ في مَوْقِفِ الْمُتَعَجِّبِ مِنْ أَمْرِهِمْ، المرْفُوضِ في مَقَايِيسِ الْعُقُولِ الْمَوْهُوبَةِ لهم. وهُمْ فِي مَوْقِفِ السَّاخِرِ من الْوَعِيدِ الَّذِي وُجِّهَ لَهُمْ من رَبِّهِمْ، عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ الَّذِي اسْتَيْقَنُوا صِدْقَه، وجَحَدُوا آيَاتِ اللهِ خَالِقِهِمْ الَّتِي بَلَّغَهُمْ إِيَّاها.

التَّعَجُّبُ الّذِي وَصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِ نَفْسَهُ هو صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَلِيقُ بِجَلَالِهِ، أو هُوَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الاسْتِنْكَارِ والتَّلْوِيمِ والتَّثْرِيب، لأَنَّ مَوْقِفَهُمْ مَوْقِفٌ مَذْمُومٌ مُسْتَنْكَرٌ، وَاضِحُ الانْحِرَاف عَنْ مَسَالِكِ ذوي العَقْلِ السّلِيم، والْفَهْمِ المستقيم.

وتَعَجُّبُ الرَّسُول ﷺ مِنْ أَمْرِهِمْ، فيه مَعْنَىٰ اسْتِنْكارِ مَوْقِفِهِمْ الّذي يُسْتَغْرَبُ حُصُولُهُ مِنْ أهْلِ فِطْنَةٍ وذكاء، يَرَوْنَ أنْفُسَهُمْ أَهْلَ عَقْلٍ وَرُشْد، وقَادَةً لجماهِيرَ كَثِيرَةٍ مِنْ قَوْمهم.

هٰذهِ الآيَة تَكْشِفُ مَوْقِفَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ بَيْنَ اللهِ والرَّسُول مِنْ جِهَةٍ وَبَيْنَ أَئِمَّةِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ فِي مَكَّةَ مِنْ جِهَةٍ أُخرىٰ، إبَّانَ تَنْزِيلِ سورة (الصَّافات).

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشأن المُعَالَجِينَ أنفسهم أيضاً.

• ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣﴾:

أي: وإذَا ذُكِّرُوا بِمَا سَبَقَ أَنْ أَبْلِغُوهُ وبُيِّنَ وَشُرِحَ لَهُمْ من حَقَائِقِ دِينِ اللهِ لَهُمْ، وأحْكَامِ شَرِيعَتِهِ الحكِيمَةِ الرَّشِيدَة، مُقْتَرِناً كُلُّ ذَلِكَ بالْبَرَاهِين القاطِعَةِ والحُجَجِ السَّاطِعَة، لَا يَذْكُرُونَ ذِكْراً ذَا أَثَرٍ يُغَيِّرُونَ بِهِ مَا هُمْ فِيه مِنْ تَمَسُّكٍ بالْبَاطِلِ عَقِيدةً وإيماناً، فَيُؤْمِنُونَ بِأَرْكَانِ الْعَقِيدَةِ الإيمَانِيَّةِ الحقّ، ويُغَيِّرُونَ به ما هُمْ فيه من سُلُوكٍ آثِم ظَالِم، ومُعَادَاةٍ للحَقِّ والْخَيْرِ والْفَضَائِلِ، وَلِأَهْلِهَا حَمْلَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهَا، فيَتَّبِعُونَ صِرَاطَ اللهِ المستقيمَ، الّذي أبانَتْهُ آياتُ كِتَابِ اللهِ الحكيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأن المعالَجِين أَنْفُسِهِمْ أيضاً:

• ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾:

﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾: أي: يَسْخَرُونَ بِشِدَّةٍ، مُظْهِرِينَ سُخْرِيَتَهُمُ الْعَنِيفَةَ أمَامَ جَمَاهِيرِهم، لِصَدِّهِمْ عَنِ التَّأَثُّرِ بِسُلْطَانِ الآيَةِ الخارِقَةِ الدَّالَّةِ على أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ حَقّاً وَصِدْقاً وفي هذه الصيغة معنى استدعاءِ جماهيرهم أن يَسْخَروا تقليداً لهم.

أي: وإذا رَأَوْا آيةً مِنَ الآيَاتِ الخارقاتِ الدَّالَّاتِ على أنَّ مُحَمّداً رسُولُ اللهِ حَقّاً وصِدْقاً، اشْتَدُّوا في إظْهَارِ سُخْرِيَتِهِمْ مِنْهَا، لِصَدِّ جَمَاهِيرِهِمْ عَنِ التَّأَثُّرِ بِسُلْطَانِها، ووَضْعِ غِشَاوَةٍ من السُّخْرِيَةِ الشَّدِيدَةِ علَىٰ عُقُولهم،

ويُكَرِّرُونَ هـٰذِهِ السُّخْرِيَةَ الشَّدِيدَةِ، أخْذاً من دَلاَلَةِ الفِعْلِ المضارع: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ الدّال على التكرار والتّجدُّد.

وإذا انْتَهَىٰ وَقْتُ جَرَيَانِ الآيَةِ الْخَارِقَةِ، وعَادَتِ الأُمُورُ إلَىٰ طَبِيعَتِها، قالُوا: إنْ هَـٰذَا إلَّا سِحْرٌ ظاهِرٌ مُبِينٌ من أعْمَالِ السَّحَرَة، فَمُحَمّدٌ ساحِرٌ من السَّحَرَةِ، ولَيْسَ رَسُولاً.

دَلَّنِي على هذا الّذِي فَهِمْتُهُ من النصّ، اسْتِعْمالُ الفعل الماضي في: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ بَعْدَ اسْتِعْمَال الفِعْلِ المضارعِ في ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المُعالَجِينَ أنْفُسِهِمْ أيضاً وإنكارهم للْبَعْثِ والدَّارِ الآخِرَة، حِكَايَةً لِقَوْلِهِم:

● ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾:

دَلَّ هـٰذا البيان في سورة (الصَّافّات) علَىٰ أَنَّهُمْ ما زَالُوا إبَّانَ نُزُولِها يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَيَوْمَ الدِّين، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يأتُوا بِدَلِيلٍ وَلَا بِشُبْهَةِ دَلِيلٍ، غَيْر مُجَرَّدِ الاسْتِغْرَابِ والاسْتِبْعَادِ بأسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الإنكاري، الَّذِي سَبَقَ أَنْ تَعَلَّلُوا بِهِ مُنْذُ بَدْءِ تَلَقِّيهِمْ لِنَبأ الْبَعْثِ، ويَوْمِ القِيامَةِ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ اسْتِغْراب أَمْرٍ مَا أَنْ يَكُونَ دَلِيلاً علَىٰ أنّه باطِلٌ، فكَمْ يَسْتَغْرِبُ النَّاسُ أشْيَاءَ أَوْ أَحْدَاثاً وَهِيَ من الحقائقِ الثَّابِتَةِ بِيَقِين.

وقَدْ سبَقَ أَنْ قَدَّمَ اللهُ لَهـُمُ الدَّلِيلَ الْبُرْهَانِيَّ الدَّافِعَ لاستِبْعَادِهِـمْ واسْتِغْرَابِهِمْ، فَلَمْ يَقْبَلُوهُ وَأصَرُّوا على إنْكارِهِم ومَوْقِفِهِمْ الّذِي لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيه، فكَانَ مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَقُولَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُوله: ﴿قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: نَعَمْ سَتُبْعَثُون يَوْمَ القيامَة، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القَضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، وأنتم أَذِلَّاءُ، صَاغِرُونَ، خاضِعُون.

الداخر: هو في اللُّغَةِ الذَّليلُ، الصَّاغِرُ، الخاضِع.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَعْرِضُ مَشْهداً مِنْ مَشَاهِدِ بَعْثِهِمْ يَوْم القيامة، مُقْتَطعاً مِن الأحْدَاثِ المستقْبَلِيَّةِ، ومُقَدَّماً بِصُورَةٍ كلامِيَّةٍ بَدِيعَةٍ مُرْهِبَة لأولي الْأَلْبَابِ، تَحْكِي قِصَّةَ مَا سَوْفَ يَجْرِي، كأنَّهُ يَجْرِي الآن.

● ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

● ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: فإنَّمَا قِصَّةُ بَعْثِهِمْ يَوْمَ القيامَةِ صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ يُحْدِثُهَا النَّفْخُ في الصُّور، الَّذِي يَنْفُخُ فيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ السَّلام.

والمراد بالزَّجْرِ هُنا الإثارةُ الصَّوْتِيَّة الّتي يُحْدِثُها النَّفْخُ في الصور يَوْمَ الْبَعْث إلى الحياة.

يُقَالُ لُغَةً: «زَجَرَ الشَّيْءَ، يَزْجُرُهُ، زَجْراً» أي: أثاره.

والزَّجْرَةُ: هي المرَّةُ مِنَ الزَّجْر، وَوُصِفَتْ بأنَّها واحِدَةٌ لِدَفْعِ تَوَهُّم تكْرَارِها، ولِتَوْكِيدِ عَدَمِ الحاجَةِ لدَىٰ بَعْثِ الموتَىٰ إلَىٰ أكْثَرَ مِنْ صَيْحَةٍ واحِدَةٍ فيها شِدَّةُ إثَارةٍ.

لفظ ﴿هِىَ﴾: ضَمِير القِصَّةِ، أو يقالُ ضَمِيرُ الشَّأْن، وهو لا يَعُودُ على شيءٍ سابقٍ له. إنَّما تُفَسِّرُهُ الْجُمْلَةُ الَّتي تَأْتِي بَعْدَه.

● ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾: أي: فَيُفَاجَأُ الْمَوْتَىٰ بِأَنَّهُمْ أحْيَاءٌ بأجْسَادٍ ذَاتِ حَيَاةٍ، يَنْظُرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ أحْدَاثَ يَوْمِ الدِّين.

قول الله تعالى:

• ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: وإذا شاهَدُوا بأعْيُنِهِمْ أَحْدَاثَ يَوْمِ الدّين، الَّتِي أَنْبَأَهُمْ بها رُسُل رَبِّهِم في الحياة الدنيا، قَالُوا: يَا وَيْلَنا هَـٰذَا يَوْمُ الدّين.

﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾: عبارةٌ يَنْدُبُ بها قَائِلُوهَا نُفُوسَهُمْ، تَحَسُّراً، وتَوَجُّعاً، وتَفَجُّعاً، خَوْفاً مِنَ المصير الوخيم الّذِي هُمْ إلَيْهِ صَائِرُون، ومن العذاب الأليم الذي يتَرَقَّبُونَ، بِمَا جَنَوْا علَىٰ نُفُوسِهِمْ في الحياة الدُّنيا، إذْ كانوا بِالْبَعْثِ ويَوْمِ الدِّينِ يُكَذِّبُونَ، وبالحقِّ الرَّبَّانِيّ يَجحَدُون، ولِلْجَرائم الكُبْرَىٰ يَرْتَكِبُونَ، وبِرَبِّهِمْ يَكْفُرُونَ، إذْ برُبُوبِيَّتِهِ وإلٰهِيَّتِهِ يُشْرِكُونَ، أو يَجْحَدون.

عندَئِذٍ يُقَالُ لَهُمْ مَا جَاءَ في الآيَةِ التَّالِيَة، أوْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْض:

• ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾:

﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾: أي: يَوْمُ فَصْلِ قَضَاءِ اللهِ بَيْنَ عِبادِهِ الَّذِينَ كَانُوا في الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَان، تَمْهِيداً لِتَنفِيذ مَا يَقْضِي اللهُ بِشَأْنِهِمْ مِنْ جَزاء.

وَهـٰذَا الْيَوْمُ الَّذِي أَنْتُمُ الآنَ فِيهِ هو الْيَوْمُ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ في حَيَاةِ الامْتِحَانِ تُكَذِّبُونَ، مَا جَاءَكُمْ بِشَأْنِهِ مِنْ أَنْبَاءٍ عَنْ رَبِّكُمْ، بَلَّغَكُمْ إيَّاها رُسُلُهُ الصَّادِقُونَ المؤَيَّدُون مِنْ لَدُنْهُ بالآياتِ الباهرات، والخوارِقِ الْمُعْجِزَات.

وَبَيْنَمَا يَكُونُونَ في مَوْقِفِهِمْ خَائِفِينَ أَذِلَّاءَ صَاغِرِينَ، لا يَجِدُونَ مَهْرَباً مِمَّا هُمْ فِيهِ، يَصْدُرُ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ لِلْمَلَائِكَةِ المكلَّفين جَمْعَهُمْ وَسَوْقَهُمْ، إذْ يَقُولُ اللهُ لهم:

• ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

الحَشْر: الْجَمْعُ والسَّوْقُ إلىٰ الْجِهَةِ الَّتِي يُرادُ السَّوْقُ إليها، وإلى المكانِ الَّذِي يُرَادُ إِيقَافُهُمْ فِيه.

أي: اجْمَعُوا وسُوقُوا يَا مَلائِكتِي المكلَّفِين، الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ دَرَكَةِ الكُفْرِ والتَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الدِّينَ، وأَزْوَاجَهُمُ اللَّوَاتِي كُنَّ ظالِمَاتٍ مِثْلَهُمْ، واجْمَعُوا وسُوقُوا أَشْبَاهَهُمْ ونُظَرَاءَهُمْ فِي دَرَكَةِ الظُّلْم من الْكَافِرِينَ، واجْمَعُوا وسُوقُوا مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ مَعْبُودَاتٍ تَعْلَمُ أَوْ لَا تَعْلَمُ، ودُلُّوهُمْ علىٰ الطَّرِيقِ الْوَاسِعِ الَّذِي يجبُ عَلَيْهِمْ أَن يَسْلُكُوهُ ولَوْ قَهْراً وإكْرَاهاً، وهو الصِّرَاطِ الْمُوصِلُ إِلَىٰ أبواب الْجَحِيم، وقِفُوهُمْ قَرِيباً مِنْ أَبْوَابِ الْجَحِيم، إِنَّهُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَبُّوا فيها من الباب الخاصِّ بِهِمْ بِحَسَبِ جرائمهم مَسْؤُولُونَ.

يأتي «هَدَاهُ» في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ: «دَلَّهُ» والدَّلالَةُ تَكُونُ إِلَىٰ بُسْتَانِ الرَّفَاهِيَةِ، وتَكُونُ إلى سِجْنِ العذاب.

الصِّرَاط: الطريق الواضح الواسع.

الْجَحِيم: اسْمٌ من أسماء النَّار، وكُلُّ نَارٍ عظيمة في مَهْواةٍ هيَ جَحِيم.

فإذَا وَصَلُوا إلى مَوْقِفِ سُؤَالِهِمْ قَبْلَ كَبْكَبَتِهِمْ إلى الْجَحِيم، سَأَلَهُمْ رَبُّهُمْ عَنْ جَرَائِمِهِمْ الَّتِي ارْتَكَبُوها في رِحْلَةِ امْتِحَانهم، وحَاسَبَهُمْ عَلَيْها، وَقَضَىٰ عَلَيْهِمْ بالْخُلودِ في عَذَابِ الْحَرِيق، وَسَأَلَهُمْ سُؤَالَ تَعْجِيزٍ وَإِهَانَةٍ وإِذْلَالٍ، قَائِلاً لَهُمْ:

• ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: أَيْنَ قُدْرَاتُكُم التَّنَاصُرِيَّةُ الَّتِي كُنْتُمْ تَسْتَخْدِمُونَهَا في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ، فَتقِفُونَ مُتَعَاوِنين مُتَنَاصِرِينَ، ضِدَّ رُسُلِ رَبِّكُمْ، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، إِذْ كُنَّا قَدْ مَنَحْنَاكُمْ حُرِّيَّةَ الاخْتِيَارِ، ومَكَّنَّاكُمْ مِنِ اتِّخَاذِ الوسَائِلِ لِتَنْفِيذِ مَا تَخْتَارُونَ؟؟

إِنَّكُمُ اليَوْمَ عَاجِزُونَ، لا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ عذاباً مَا، ولا أَنْ تُحَقِّقُوا لِأَنْفُسِكُمْ مَطْلُوباً ما، إِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَحْتَ سُلْطَانِ الْقَهْرِ وَالْجَبْرِ، ولَيْسَ لَكُمْ حُرِّيَّةُ اختيارٍ لِشَيْءٍ ما.

إنَّ وَاقِعَ حَالِهِمْ مُطابِقٌ لِمَا أَبَانَتْهُ الآيَةُ التَّالِيَة:

● ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦﴾:

أي: هُمْ لَا يُفَكِّرُونَ في التَّنَاصُر، لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ، بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ اسْتسلاماً تَامّاً، شُعُوراً مِنْهُمْ بأنّهُمْ مَسْلُوبُو كُلِّ قُوَّةٍ يُحَقِّقُونَ بِهَا مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ عَذَاباً، أَوْ يَجْلُبُ لَهُمْ نَفعاً.

حرف ﴿بَلْ﴾ هُنَا يَعْطِفُ علَىٰ مَحْذُوفٍ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ في الْفَهْمِ التَّدَبُّرِيِّ الَّذِي سبَق.

بَعْدَئِذٍ يُقَدِّمُ النَّصّ صُورَةَ حِوارٍ بَيْنَ الأتباع الضَّالِّين، والْقَادَةِ المضِلِّينَ، فقال اللهُ تَعالى:

● ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ۝٢٨ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ۝٣٠ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝٣٢﴾:

حِوَارٌ تَنَازُعِيٌّ بَيْنَ الضَّالِّينَ مِنْ أَهْلِ الشِّمَالِ، بَعْدَ الْحُكْمِ عَلَيْهِم بِأَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْجَحِيم، وبَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا في الدُّنْيَا أَئِمَّتَهُمْ، وَقَادَتَهُمْ، ومُغْوِيهِم، والسَّاعِينَ فِي إغْرَائِهِمْ حَتَّىٰ يكُونُوا جُنُودَ ضَلَالٍ وَغَوَايَةٍ لَهُم.

● ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ وَهُمُ الأتْبَاعُ في الدُّنيا ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وَهُمُ الأئِمَّة والْقَادَةُ الَّذِين كانُوا يُغْوُونَهُمْ في الدُّنيا ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يَتَحَاوَرُون تَحَاوُراً تَنَازُعِيّاً مُفْتَاحُهُ السُّؤَالُ يُوَجَّهُ مِنْ أَحَدِ الْفَرِيقينِ الْمُتَحَاوِرَيْنِ للآخر، فَيُجِيبُ الْفَرِيقُ الْآخَرُ، وَقَدْ يُتْبِعُ إجَابَتَهُ بِسُؤَالٍ يُوَجِّهُهُ لِلْفَرِيقِ الْأَوَّل، فَأُطْلِقَ عَلَىٰ التَّحَاوُرِ التَّنَازُعِيِّ: «التَّسَاؤُل».

الْفَرِيق الأوّل (الأتباعُ) لِلَّذِينَ كَانُوا قَادَتَهُمْ وأَئِمَّتَهُمْ في الدُّنْيَا:

أَلَسْتُمُ الَّذِينَ أَضْلَلْتُمُونَا، فَجَعَلْتُمُونَا نُكَذِّبُ رُسُلَ رَبِّنَا، ونَكْفُرُ بالْحَقِّ، وَلَا نُؤْمِنُ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ؟. أَلَا تَحْمِلُونَ عَنَّا قِسْطاً مِنْ عَذَابِ رَبِّنَا؟.

الفريق الثّاني (الْأَئِمَّةُ المَتْبُوعُونَ): قَالُوا: نَحْنُ لَمْ نُضِلَّكُمْ، ولا نَحْمِلُ عَنْكُمْ مِنْ عَذَاب اللهِ شيئاً، حَسْبُنَا مَا نَحْنُ فيه.

الفريق الأول (الأتباع): ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: إِنَّكُم كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا صَادِّينَ إِيَّانَا عَنِ الْإِيمَانِ الَّذِي مِنْ شأنِهِ أَنْ يَجْعَلَنَا الْيَوْمَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِين، لَا مِنْ أَصْحَاب الشِّمَال.

ضُمِّنَ الفِعْل في: ﴿تَأْتُونَنَا﴾ مَعْنَىٰ الفِعْلِ في «تَصُدُّوننا» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بحرف الجرّ «عَنْ». وطُوِي في الثاني بَيْنَ ﴿عَنِ﴾ و﴿ٱلْيَمِينِ﴾ مَا يَقْتَضِيهِ الحوارُ التَّنَازُعِيُّ يَوْمَ القيامَة، أي: تَصُدُّونَنَا عَنِ الْإيمانِ الَّذِي يَجْعَلُنَا الْيَوْمَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِين.

الْفَرِيقُ الثّاني (الائمَّةُ المتبُوعُون): ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: لَسْنَا الَّذِينَ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الإيمَانِ، بَلِ الواقِعُ أَنَّكُمْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ حِينَما اسْتَنْصَرْنَا بِكُمْ، ولَمْ تكُونُوا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ تُؤْمِنُوا.

لفظ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ بِمَنْزِلَةِ الْفِعْلِ المضارع هُنَا يَدُلُّ علَىٰ الْحَالِ والاستِقْبَال.

الفريق الْأَوّل (الأتباع): أَمَا تَذْكُرُونَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُحَاوِلُونَ إِقْنَاعَنَا بأَنَّ الرَّسُولَ كاهِنٌ، أو شَاعِرٌ، أَو مَجْنُون، وَبأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ نَبَأ الْبَعْثِ كَذِبٌ افْتِراه، وبأَنَّ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِين، وبأَنَّ الآيَاتِ الْخَارِقَاتِ الْمُعْجِزَاتِ اللَّاتِي أَجْرَاها اللهُ لَهُ سِحْرٌ مُبِين؟

الْفَرِيق الثاني (الأئِمَّةُ المتْبُوعُونَ): بَلَىٰ كُنَّا نَقُولُ لَكُمْ هٰذا، [وَ] لَكِنْ ﴿مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ أي: مِنْ قُوَّةٍ قاهِرَة تُجْبِرُكُمْ عَلَىٰ قَبُولِ أَقْوالِنَا واتِّبَاعِنَا ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِدِينَ مُفْسِدِين، ظالِمِينَ جَائِرين مُعْتَدِينَ، مُجْتَمِعِينَ علَىٰ إثْم وَشَرٍّ، فَأَعْجَبَتْكُمْ مسالِكُنَا الكُفْرِيَّةُ الإجْرَامِيَّةُ فَاتَّبَعْتُمُونَا، لِأَنَّكُمْ وَجَدْتُمُونَا صَالِحِينَ لِقِيَادَتِكُمْ فيما أنْتُم فِيه من إثْم وشَرّ.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ جمِيعاً نَحْنُ وَأَنْتُمْ ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾ الَّذِي أَصْدَرَ بِهِ الْحُكْمَ بِعَذَابِنَا فِي نَارِ جَهَنَّم، وبِمُقْتَضَىٰ حُكْمِهِ الْعَادِلِ عَلَيْنَا جَمِيعاً: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ عَذَابَ الْحَرِيقِ خَالِدِينَ فيه أَبداً، كَمَا أَنْبَأَنَا فِي الدُّنْيَا رُسُلُ رَبِّنا، وَكَمَا أنْبَأَتْنَا بِهِ آيَاتُ كِتَابِهِ.

عِبَارَة: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ وَأشباهُهَا في القرآن، هي بمعْنَىٰ: ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ نازِلاً عَلَيْنَا مَضْمُونُ قَوْلِ رَبِّنَا مَهْمَا يَكُنْ هٰذا المَضْمُون.

وَلا نَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَّا لَكُمْ إغْوَاءٌ بالتَّزْيِينِ والتَّحْسِينِ ومُحَاوَلاَتِ إقْنَاعِكُمْ بالْبَاطِلِ، لاسْتِتْبَاعِكُمْ والاسْتِنْصَارِ بِكُمْ، بَلْ كَانَ مِنَّا كُلُّ ذَلِكَ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَنَا عَلَيْكُمْ سُلْطَانٌ ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ بالتَّزيينِ والتَّحْسِينِ والإطْمَاعِ بالْبَاطِلِ، لتَنْضَمُّوا إلَيْنا ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ فأَنْتُم تَتَحَمَّلُونَ جَرِيمَةَ غَوَايَتِكُمْ، وَنَحْنُ نَتَحَمَّلُ جَرِيمَةَ غَوايتِنَا، وكُلٌّ مِنَّا يَتَحَمَّلُ مِنَ الْجُرْمِ عَلَىٰ مِقْدَار مَا اكْتَسَبَ في حَيَاةِ الامْتِحَانِ مِنْهُ.

الإغْوَاءُ: تَزْيِينُ وَتَحْسِينُ الضَّلاَلِ، وَالْبُعْدِ عَنْ صراط اللهِ، والانْغِمَاسِ في الشهواتِ والأهواءِ الفاسِدَةِ المفْسِدَة، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الإغْوَاءِ الإجبارُ والإكْرَاهُ والقَهر، بَلِ الْغَاوِي يَسْلُكُ مَسَالِكَ الْغَوَايَةِ باخْتِيَاره الحرّ.

▪ ويُعَلِّقُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على الحِوارِ بَيْنَ الأتباع والمتبوعين من أهل دار العذاب النار يوم الدِّينِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

■ قَوْلُهُ تَعالَىٰ:

• ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾: أي: فإنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ يَجْرِي الحوارُ الّذي سَبَقَ بيانُهُ بَيْنَهُمْ، وَهُوَ يَوْمَ الدِّين، وسَوْفَ يَكُونُونَ مُشْتَرِكِينَ في الْعَذَاب، ولَا يَقْتَضِي الاشْتِرَاكُ في الْعَذَابِ تَساوِيَ الأفْرَادِ الْمُعَذَّبينَ في نِسْبَةِ الْعَذَابِ الَّذِي يَذُوقُونه، بَلْ كُلُّ واحِدٍ يَذُوقُ مِنَ الْعَذَابِ عَلَىٰ مِقْدَارِ جَرَائِمِهِ الَّتِي ارْتَكَبَها فِي حَيَاةِ الامْتِحَانِ بالْعَدْلِ، مَعَ احْتِمَالِ عَفْوٍ عَنْ كَثِيرٍ من الجرَائم بالْفَضْلِ الرَّبَّانيّ.

■ قَوْلُهُ تَعالَىٰ:

• ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: لَا يَخْتَصُّ هٰذَا الإجْرَاءُ الجزائيّ بالْمُجْرِمِينَ مُكَذِّبِي رَسُولِنا مُحَمّد، بَلْ نَفْعَلُ نَظِيرَهُ بِسَائِرِ الْمُجْرِمِينَ من الإنْسِ والجنّ.

جاءت في هٰذه الجملة الإشَارَةُ إلى الْعَذَابِ الّذِي يَشْتَرِك فِيهِ المتَحاوِرُونَ أتباعاً وَمَتْبُوعِين، باسْمِ الإشارةِ «ذَٰلِكَ» الَّذِي يُشارُ بِهِ إلى الْبَعِيد، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ بُعْدِ دَرَكَتِهِ في جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ المجرمين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ جَرَائِمِهِمْ في حياة الابْتِلَاء، الَّتِي اقتضَتْ تَعْذِيبَهُمُ الْعَذَابَ الأليمَ فِي حَيَاةِ الجزاء:

• ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾:

أي: إنَّهُمْ كَانُوا في حَياةِ الابْتِلاءِ، وهي الحياة الدُّنْيا، إذا قِيلَ لَهُمْ: تَعالَوْا إلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، لَا تُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً، يَسْتَكْبِرُونَ، فَلَا يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَةِ الْحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، لِئَلَّا يَكُونُوا مَعَ المؤمِنِينَ أَتْبَاعِ رَسُولِ رَبِّهِمْ. وكانُوا يَقُولُونَ مُسْتَكْبِرِينَ وَشَاتِمِينَ رَسُولَ رَبِّهِمْ: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجۡنُونِۭ﴾.

الاستفهامُ هُنَا اسْتِفْهَامٌ اسْتِكْبَارِيٌّ إنكارِيٌّ، والتوكيد باللَّام في ﴿لَتَارِكُوٓاْ﴾ تَوْكِيدٌ للنَّفْيِ الَّذي دَلَّ عَلَيْهِ الاسْتِفْهَام، أي: إنَّنَا نُؤَكِّدُ أنَّنَا لَا نَتْرُكُ عبادَةَ آلِهَتِنَا الَّتِي وَرِثْنَا عِبادَتَها عَنْ آبَائِنَا اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ شَاعِرٍ مَجْنُونٍ يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ العالَمِين، للنَّاسِ أَجْمَعِين.

فجَعَلُوا القرآنَ المَجيدَ نَوْعاً مِنْ أنواعِ الشِّعْر، وشَتَمُوا الرَّسُول بأنَّهُ مَجْنُونَ.

■ فَرَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

● ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾: أي: لَيْسَ مُحَمَّدٌ كَمَا قُلْتُمْ كاذِبِينَ وشَاتِمِينَ: هُوَ شَاعِرٌ مَجْنُونٌ، بَلْ هُوَ رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، جَاءَكُمْ وجاءَ النَّاسَ جَمِيعاً بالْحَقِّ مِنْ لَدُنَّا، وصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ السَّابِقِينَ فِيمَا جَاؤوا بِهِ عَنَّا، لَا فيما افْتَرَاهُ المنتَمُونَ إلَيْهِمْ مُحَرِّفِين ومُغَيِّرِينَ وَمُتَلاعِبِينَ بِدِينِ رَبِّهم.

وبَعْدَ أَنْ رَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ خاطَبَهُمْ بِقَوْله:

● ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: إنَّكُمْ أَيُّها الْمُكَذِّبُونَ الْمُجْرِمُونَ لَذائِقُونَ في جَهَنَّمَ الْعَذَابَ الأَلِيمِ حَرِيقاً في النّارِ، وهٰذا أَشَدُّ أنواعِ العذابِ المادّيّ.

وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا جَزاءَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، فَيَذُوقُ كُلُّ مُعَذَّبٍ مِنْكُم جَزاءَ عَمَلِهِ، وَلَا يَذُوقُ مِنْ عَذَابِ عَمَلِ غَيْرِهِ شيئاً ما لَمْ يَكُنْ لَهُ كَسْبٌ آثِمٌ في عَمَلِ غَيْرِه، فَيَنَالُ كُلٌّ مِنْهُما علَىٰ مقدار كَسْبِهِ.

أُطْلِقَ الذَّوْقُ علَىٰ الْإِحْسَاسِ بِأَلَمِ الْعَذَاب، لأنَّ حَاسَّةَ الذَّوْقِ أكْثَرُ الحواسِّ إحْسَاساً بالأنْوَاعِ المختَلِفَةِ الَّتِي تُلَامِسُها، أو تَدْخَلُ تَحْتَ سَطْحِها.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الأول من الدرس الثاني من دُروس سورة (الصَّافات). والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني
من الدَّرس الثاني من دُرُوس سورة (الصَّافات)
الآيات من (٤٠ ـ ٦١)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

القراءات:

(٤٠) • قرأ ابن كثير، وأَبُو عَمْرو، وابْن عامر، ويعقوب: [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْرِ اللَّام، اسم فَاعل من فعل: «أَخْلَصَ».

وقرأَهَا بَاقِي القرّاء العشرة: [**المُخْلَصِينَ**] بفتح اللام، اسم مفعول.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاء المعنى المراد، أي: أَخْلَصُوا لِلَّهِ إيمانَهُمْ وإسْلَامَهُمْ وعباداتِهم، فجَعَلَهُمُ اللهُ من المُخْلَصِينَ عنْدَه.

(٤٧) • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [**يُنْزِفُونَ**] من فِعْل: «**أَنْزَفَ**» بمعنى: سَكِرَ، أو ذَهَبَ عَقْلُه.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**يُنْزَفُونَ**] من فعل: «**أَنْزَفَهُ**» بمعنى: أسْكَرَهُ، أَوْ أَذْهَبَ عقله.

فمُؤَدَّى القراءتين واحد.

(٥٣) • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [**إِذَا... أَئِنَّا**].

وقرأها نافع، والكسائي، ويعقوب: [**أَئِذَا... إِنَّا**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَئِذَا... أَئِنَّا**].

ومُؤَدَّىٰ هـٰذه القراءاتِ واحد.

(٥٣) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جَعْفر، ويعقوب: [**مُتْنَا**] بِضَمّ الميم.

وقرأها باقي القرَّاء العشرة [**مِتْنَا**] بِكَسْرِ الميم.

والقراءتان لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَانِ فَصِيحتَان، والقياسُ الضمّ.

(٥٦) • قرأ ورْشٌ في الوصْلِ فقط، ويعْقُوبُ في الوصْلِ والْوَقف: [**لَتُرْدِينِي**] بإثبات يَاءِ المتكلّم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**لَتُرْدِينِ**] بحَذْفِ ياء المتكلم.

وحَذْفُ ياء المتكلّم مع مُلَاحظَتِهَا ذِهْناً مَأْلُوفٌ في اللّسَانِ العربي.

تَمْهيد:

إذْ جاء في الْفَصْلِ الأوَّلِ من هـٰذا الدَّرس الثَّانِي، عَرْضُ لَقَطاتٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الدِّينِ المتعلّقَةِ بالكَفَرَةِ الْمُجْرِمين، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ التربويَّةِ الْمُلْتَزَمَةِ فِي القرآن، عَرْضُ لَقَطاتٍ مِن مَشَاهِدِ يَوْمِ الدّينِ الْمُتَعَلِّقَةِ بالْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ المتَّقِين، فجاء في هـٰذا الْفَصْل الثاني عَرْضُ هـٰذِهِ اللَّقَطاتِ، وبَيْنَها وَبَيْنَ اللَّقَطاتِ المُوَزَّعَاتِ في الْقُرآنِ تَكَامُلٌ، يَكْشِفُهُ حُسْنُ التَّدَبُّرِ في دِرَاسَاتٍ مُتَأَنِيَّاتٍ شَامِلات.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وَفي القراءة الأُخْرَىٰ [**الْمُخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللَّام، أي: أخْلَصُوا لِلَّهِ إيمانَهُمْ وإسْلاَمَهُمْ وعِبَادَاتهم، فَجعلَهُمُ اللهُ مِن المخْلَصِينَ عِنْده، ومِنْ أهْلِ وِلايتِه الّذين يتولَّاهُمْ بِعِنَايَتِهِ.

أي: لَكِنْ لَا يَقْتَصِرُ ثَوابُ عِبَادِ اللهِ المخْلِصِينَ المخْلَصِينَ علَىٰ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، بَلْ يُضَاعِفُ اللهُ ثَوَابَهُمْ بِفَضْلِهِ أضْعَافاً كَثِيرَةً جدّاً، كَمَا جَاءَ بيانُهُ مُفَصَّلاً في نُصُوصٍ كثيرة مِنَ القرآنِ والسُّنَّةِ، عَلَىٰ أنَّ مُجَازَاتِهِمْ بِدُخُولِ جَنَّاتِ النّعِيم هُوَ من مَحْضِ فَضْلِ اللهِ عليهم.

المُخْلِص: هو مَنْ أخْلَصَ عَمَلَهُ ونيّتَهُ مِنَ الشّوائب، وجَعَلَ قَصْدَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاة الله عَزَّ وَجلَّ، مع الْتِزَامِهِ بِما شَرَعَ الله وحَكَم.

المخْلَص: هو الْمُخْتَارُ، وهو المصَفَّىٰ المنَقَّىٰ مِنَ الشّوائب، والمرادُ الّذِي جَعَلَهُ اللهُ من المقْبُولِينَ عِنْدَه، لإِيمانه وإسْلامِهِ وصِدْقِهِ في ابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً بَعْضَ ثَوَابَ «المخْلِصِينَ المخْلَصِين» في جنَّاتِ النَّعِيم:

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾. وفي القراءة الأخرىٰ: [يُنْزِفُونَ] والمعْنَىٰ واحد. أي: ولا هُمْ بَعْدَ شُرْبِهِمْ لَهَا يُصَابُونَ بالسُّكْرِ وَذَهَاب العقل، إذْ لَيْسَ فيها غَوْلٌ (وَهُوَ مَا يُحْدِثُهُ شُرْبُ الْخَمْرِ مِنْ صُدَاعٍ وسُكْر).

■ قَوْلُهُ تَعالَىٰ:

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُۖ﴾: أي: أولَـئِكَ الـمـخْـلَـصُـونَ المخْلِصُونَ رَفِيعُو المَكَانَةِ عِنْدَنَا لَهُمْ رِزْقٌ مِنَ الْفَوَاكِهِ مَعْلُومٌ، أي: سَبَقَ أَنْ أَعْلَمْنَاكُمْ به. **فواكه:** جمع فَاكِهة.

في هذا البيان إحَالَةٌ عَلَىٰ مَا جَاءَ في سُورَةِ الواقِعَة بِشَأْنِ ثَوابِ أصْحَاب الْيَمِين فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، وأَنَّ لَهُمْ فيها فَاكِهَةً كَثيرَةً لا مَقْطُوعَةً وَلَا مَمْنُوعَة، فقد جاء في سورة (الواقعة/ ٤٦ نزول) قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾﴾:

فَالرِّزْقُ الَّذي سَبَقَ الْعِلْمُ بِهِ مِنَ الْفَوَاكِهِ هو أَنَّهُ لا مَقْطُوعٌ وَلَا ممنُوعٌ، وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هـٰذا النصّ لَدَىٰ تَدبُّرِ سورة (الواقعة).

وغابَ هـٰذا المعْنَىٰ عن مُلاحظَةِ المفسِّرين، لأَنَّهُمْ لَمْ يَضَعُوا في خُطَّة تَدَبُّرِهِمْ تَرْتِيبَ النُّزُول.

■ قَوْلُهُ تعَالَىٰ مُتَابعاً بيانَ بَعْضِ ثوابِ المخلَصِينَ المخْلِصِينَ:

• ﴿.. وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: والْحَالُ أَنَّهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جنَّاتِ النَّعِيم، مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ، مُتَقَابِلِينَ يُقَابِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً للتحادُثِ السَّارِّ، والأنْسِ والتنعُّم بالمواجهة.

مُكْرَمُونَ: أي: مُفَضَّلُونَ مَوْضُوعُونَ في أَمَاكِنِ تَعْظِيم، وَيُقَدَّمُ لَهُمْ فيها مَا يَسُرُّهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ التكْرِيمِ والتَّعْظِيم والحفَاوَةِ والبهجَةِ، إذْ هم مُلُوكُ قُصُورهم.

في جنّاتِ: تَشْتَمِلُ الجنَّةُ العظمىٰ يَوْمَ الدّينِ علَىٰ أقْسَامٍ كلُّ قِسْمٍ مِنْها هُوَ جَنَّةٌ كامِلَة.

النعيم: مصْدَرُ «نَعِمَ، يَنْعَمُ، نَعَماً، وَنَعْمَةً، ونَعِيماً» أي: طَابَ، وَرَفُهَ، وهَدَأَ بَالُهُ، واسْتَرَاحَ، وقَدْ جَاءَ في القرآن تَخْصِيصُ لذَّاتِ الآخرة، وما فيها من أنواعِ سَعَادَةٍ، بأنَّهَا «نَعِيمٌ» لبقائها وعِظَم قيمَتِها، وتخصيص لذات الحياة الدُّنيا ورَفاهياتِها بأنَّها «مَتَاع» لسُرْعَةِ زوَالها، ونَقْصِ قِيمَتِها مَهْما بَلَغَتْ.

السُّرُر: جمعٌ مفرده «السَّرير» وهو الْمُضْجَعُ ذو القوائِمِ الأرْبعة، ويُبْسَطُ عَلَيْهِ الفراشُ اللّيِّنُ علَىٰ قَدْرِ المسَطَّحِ منْه.

■ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ مُتَابعاً بَيَان بَعْضِ ثَوَاب المخْلَصِينَ المخْلَصِينَ:

• ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ و﴿يُنزِفُونَ﴾.

الطواف: تكرار المرُورِ على دَوائِرِهِمْ آناً فآناً بِحَسَبِ الحاجة.

أي: يَطُوفُ عليهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُون خدَماً لَهُمْ مَصْحُوبٌ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ بكأْسٍ من خَمْرٍ تَجْرِي بِهِ بَعْضُ أَنْهَارِ الجنَّةِ، فَهِيَ مَعِينَةٌ مَشْهُودَةُ الجرَيَان.

الكأسُ: قال أهل اللّغة: الكأس القدَحُ مَا دَامَ فِيهِ الْخَمْر، فإذا لم يكن فيه خَمْرٌ فَهُو «كُوب».

• ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: مِنْ نَهْرٍ مِنْ أنهار الجنَّةِ الْجَارِيَةِ، يَسْهُلُ الاغْتِرَافُ مِنْهُ.

• ﴿بَيْضَآءَ﴾ وَصْفٌ لِلْكأسِ، أي: الآنيَةُ وَمَا فيها مِنْ خَمْر، وهذا يُشْعِرُ بأنَّ الآنيَةَ شَفَّافَةٌ لَوْنُهَا مِنْ لَوْنِ مَا فيها، فهي مِنْ أنْفَسِ الجواهر، كالْألْمَاسِ مثلاً.

• ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: **اللَّذَّةُ**: إدْراكُ الْمُلَائِم لمطْلُوبِ النَّفْسِ مَعَ التَّنَعُّمِ أو الاسْتمتاعِ به.

فدَلَّ وَصْفُ الكأْسِ بالْبَيضَاء على أنَّها تَلَذُّ الأعْين، ودَلَّ وَصْفُهَا بأنَّهَا لَذَّةٌ للشاربين علَىٰ أَنَّ طَعْمَهَا يَجْعَلُ الشَّارِبِينَ يَتَلَذَّذُونَ بها. فَتَحَقَّقَ بهٰذَيْن الوصْفَيْنِ كَمَالُها، حُسْنُ مَنْظر، وطِيبُ طَعْم.

• ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾: **الْغَوْلُ**: مَا يُحْدثُهُ شُرْبُ خَمْرِ الدُّنْيا مِنْ صُدَاع وسُكْر. وحَسَّنَ تقديم المسْنَد إلَيْهِ ﴿فِيهَآ﴾ على المسْنَدِ ﴿غَوْلٌ﴾ إرادَةُ تَخْصِيصِ خَمْرِ الْجَنَّةِ بِسَلْبِ صِفةِ الْغَوْلِيَّةِ عَنْها.

• ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ و﴿يُنزَفُونَ﴾أي: ولَا هُمْ بَعْدَ شُرْبِ خَمْرِ الْجَنَّةِ مَهْمَا شَرِبُوا مِنْها يُصابُونَ بِصُدَاعٍ أوْ سُكْر، لأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ نَزَعَ مِنْ خَمْرِ الجنَّةِ على وجْهِ الْخُصُوصِ صِفَةَ الْغَوْلِيَّةِ، بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنيا.

دَلَّ تَقْديم المسند إلَيْهِ ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا﴾ على المسْنَدِ الْفِعْلِيِّ ﴿يُنزَفُونَ﴾ على تَخْصِيصِ خَمْرِ الجنَّةِ بهذا الوصْفِ.

ودَلَّنِي على أنَّ الطَّائِفينَ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الواقعة/٤٦ نزول) في أهْلِ الْجَنَّة السابقين:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ بَعْضِ ثَوَابِ المخْلِصِينَ المخْلَصِينَ:

• ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: وعِنْدَهُمْ دَواماً حُورِيَّاتٌ مِنْ نِسَاءِ الجنَّةِ اللَّوَاتِي أنْشَأَهُنَّ اللهُ فِيها إنْشَاءً لهُمْ، غَيْرُ أَزْواجِهِم المؤمِنَاتِ مِنْ نِسَاءِ الحياة الدُّنيا.

وقَدْ وَصَفهنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بثَلَاثِ صِفَاتٍ:

الصِّفَة الأُولى: أنَّهُنَّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أي: وعنْد المخْلِصين المخْلَصِينَ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ في الجنَّة، من نِسَاء الجنَّةِ زَوْجَاتٌ قَاصِراتُ الطَّرْفِ، لَا يَنْظُرْنَ إلى غَيْرِ أَزْوَاجِهِنَّ.

قاصِراتُ الطَّرْف: صفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوف، أي: زَوْجَاتٌ قَاصِراتُ الطَّرْف.

الطَّرْف: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على، تَحْرِيكِ الْجفْن، وعَلَىٰ الْعَيْنِ، وعَلَىٰ النظرِ.

وذاتُ الطَّرْفِ الْقَاصِر هِيَ الْعَفِيفَةُ الَّتِي لَا تَنْظُرُ إِلَىٰ غَيْرِ زَوْجِها.

والمعنى: أنَّهُنَّ عَفِيفَاتٌ لَا يَنْظُرْنَ إِلَىٰ غَيْرِ أَزْواجِهِنَّ فِي الْجَنَّةِ لِشِدَّةِ حُبِّ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ لِزَوْجِها، فَتَقْصُر طَرْفَهَا علىٰ النَّظَرِ إِلَيْهِ لَا تَتَعَدَّاه.

يُقَال لغة: «قَصَرَ الشَّيْءَ عَلَىٰ كَذَا» أي: لم يُجَاوِزْ بِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ. «وَقَصَرَ غَلَّةَ بُسْتَانِهِ عَلَىٰ عِيالِهِ» أي: جَعَلَها لَهُمْ خَاصَّة.

الصِّفَةُ الثَّانِية: أَنَّهُن ﴿عِينٌ﴾ لفْظُ «**عِينٍ**» هو جَمْعُ «عَيْنَاء» وهي ذاتُ الْعَيْنِ الحَسَنَةِ الْوَاسِعَة. ولا يَخْفَىٰ مَا لِحُسْنِ الْعُيُونِ الواسِعَةِ من تأثِيرٍ عميقٍ سَارٍّ للنُّفُوسِ حتَّىٰ عُمْقِ الْقُلوبِ والأفْئِدة.

الصِّفَةُ الثالِثة: أَنَّ لَوْنَ بَشَرَتِهِنَّ تُشْبِهُ بَيْضَ النَّعَام المكْنُون، فقال اللهُ تَعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾:

قالوا: الْبَيْضُ المكْنُونُ: هُو بيضُ النَّعام، إذِ النَّعَامُ يُكِنُّ بَيْضَهُ فِي حُفَرٍ في الرَّمْلِ، وَيَفْرُشُ لَهَا مِنْ دَقِيقِ رِيشِه، فيكُونُ الْبَيْضُ شَدِيدَ لَمَعَانِ اللَّوْنِ، وهو أبْيَضُ مَشُوبٌ بَيَاضُهُ بِصُفْرَة، وهـٰذا اللَّوْنُ أَحْسَنُ ألْوانِ النِّسَاءِ في عُيُونِ الرِّجال.

وَجَاءَ في وَصْفِ نِسَاءِ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبينَ الْمُتَفَوِّقِين نَعِيماً عَلَىٰ أَصْحَابِ اليمين المخْلَصِينَ المخْلِصِينَ، بأنَّهُنَّ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُوءِ المكْنُون، فَهُنَّ أكْمَلُ حُسْناً مِنَ اللَّواتي كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُون، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الواقعة/ ٤٦ نزول) بشأنِهنّ:

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُبَيِّناً مَشْهداً حِوارِيّاً بَيْنَ بَعْضِ أَهْلِ الْيَمِين المخلَصِينَ المخْلِصِينَ وهُو في الْجَنَّةِ، وبَيْنَ قَرِينٍ لَهُ كَانَ في الدنيا كافراً، فَهُوَ يَوْمَ الدِّينِ من المعذَّبين في النّار:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾:

مَجْلِسُ مؤانَسَةٍ ومُحادَثَةٍ بَيْنَ طَائِفَةٍ مِنْ أصْحَابِ الْيَمِينِ في جَنَّةٍ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدِّين، ممَّا سَوْفَ يَكُونُ حتماً عَلَىٰ مَا شَمَلَهُ عِلْمُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، ومَا جَاءَ في هـٰذِهِ الآيَات مُسْتَقْطَعٌ من أحْدَاثِ الْمُسْتَقْبَل، ومُقَدَّمٌ عَلَىٰ أَنَّهُ حَدَثٌ مَضَىٰ، لتوكيدِ أنّه سوْفَ يَحْدُثُ حتماً.

● ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

أي: فبيْنما كَانَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ في مَجْلِسٍ من مجالِسِ أُنْسِ بَعْضِهِمْ

ببَعْض، يَتَنَعَّمُونَ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ، أقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ ذِكْرَيَاتِ مَاضِيهِمْ في الحياةِ الدّنيا، وهُمْ يَحْمَدُونَ اللهَ عَلَىٰ أَنْ جَعَلَهُمْ بإيمانِهِم الخالِصِ الصادق، وإسْلَامِهِم الخالِصِ الصادق من أهْلِ جَنَّاتِ النعيم، فَذِكْرُ أهْلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ الحمْدُ.

• ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

الْقَرِين: المصاحِبُ الملَازِمُ، كأنَّهُ مَقْرُونٌ مَعَهُ بِقَرَنٍ، وهو الْحَبْلُ الّذِي يُشدُّ بِهِ الأَسِير.

• ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟: أي: أَئِنَّا لَمَجْزِيُّونَ عَلَىٰ أَعْمَالِنَا فِي الحياةِ الدُّنْيا، فِي حَيَاةٍ أُخْرَىٰ يكُونُ بِهَا الْبَعْثُ والْحِسَابُ وفَصْلُ القضاء، وتَنْفِيذُ الْجَزَاءِ، فِي دَارِ عَذَابٍ لِلْكَفَرَةِ والمجْرِمِينَ، ولِلْعُصَاةِ والمذْنِبِين، اسْمُها النار، وفي دارِ نَعِيمٍ يُنَعَّمُ فيها المؤمِنُونَ المتقون، والأبْرارُ والمحسنون.

اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ الإِنْكَارُ، وتَكْذِيبُ الأَخْبَارِ الواردة بِشَأْنِ الْيَوْمِ الآخِرِ، والحياة الأخْرَى.

هُمَا قَرِينانِ فِي الحياة الدُّنْيا، أَحَدُهُمَا مُؤْمِنٌ، والآخَرُ كافِرٌ، يَقُولُ الكافِرُ لِقَرِينهِ المؤمِنِ بأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الإنْكَارِيِّ، القائِمِ عَلَىٰ التَّعَجُّبِ والاستِبْعَادِ والاسْتِغْرَاب:

﴿.. أَءِنَّكَ﴾ يا قَرِينِي ﴿لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْت وهَلَاكِ الأجْسَادِ وَتَفَتُّتِهَا، وَأَنْتَ الصَّاحِبُ الْعَاقِلُ الذَّكِيُّ؟!

﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ وَوُضِعْنَا فِي قُبُورِنَا وَتَفَسَّخَتْ أَجْسَادُنَا ﴿وَكُنَّا﴾ أي: وصِرْنَا ﴿تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ نَخِرَةً ﴿أَءِنَّا﴾ لَمَبعُوثُونَ لِحَياة أخْرَىٰ غَيْرِ هٰذِهِ الحياة؟! و﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ في هـٰذه الحياة الأُخْرَىٰ، علَىٰ ما كَسَبْنَاهُ واكْتَسَبْنَاهُ في الْحَيَاةِ الأُولى؟!

هَلْ يُقْبَلُ هـٰذا عَقْلاً؟!. إنَّهُ لا يُقدِّمُ دَلِيلاً ما غَيْرَ الاستِفْهَامِ التَّعَجُّبِيِّ الاسْتِغْرَابِيِّ الَّذِي لَا يَتَضَمَّنُ إِلَّا إنْكارَ غَيْرِ المألُوفِ، مَعَ أَنَّ الحياة الأُخْرَىٰ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ القضاءِ، وَتَحْقِيقِ الجزاء، قَدْ قَامَ لإثباتِهَا دَلِيلُ الْعَقْلِ المستَنِدِ إِلَىٰ صِفَاتِ رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ الْعَلِيم الحكيم القدير، وإلى دَلِيلِ الْخَبَرِ الذي جَاءَ بِهِ رُسُلُ اللهِ بَلَاغاً عَنْهُ، وهو خَالِقُ الكَوْن، وَوَاضِعُ خُطَّةِ حَيَاةِ الابْتِلَاءِ وَحيَاةِ الجَزَاء بقضائِهِ وَقَدَرِهِ، قَبْلَ أَنْ يَبْرأ الأنفس، وقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الجِنَّ والْإِنْسَ وَيضَعَهُمْ فِي الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

وَإِذْ كانَ المؤْمِنُون فِي الجنَّةِ مُمَكَّنِينَ بوَسِيلَةٍ ما مِنْ أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَىٰ أَهْلِ النَّارِ، وهُمْ يُعَذَّبُونَ فيها، ومُمَكَّنِينَ مِنْ أن يُحَادِثُوهم، أفراداً أَوْ جَمَاعَات، فَقَدْ قَامَ فِي نَفْسِ الْقَرِينِ المؤمِنِ أَنْ يُطْلِعَ جُلَسَاءَ أُنْسِهِ فِي الْجَنَّةِ، عَلَىٰ قَرِينِهِ الَّذِي كَانَ فِي الدُّنيا يُحَرِّضُهُ عَلَىٰ التَّكْذِيبِ بِيَوْمِ الدِّين، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ عَرْضاً تَخْيِيرِيّاً:

- ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ عَلَىٰ قَرِينِي الْكَافِرِ الَّذِي سَأَطَّلِعُ عَلَيْه وَأُحَادِثُه؟

«**اطَّلَعَ يَطَّلِعُ على الشيءِ**» أي: أَشْرَفَ عَلَيْهِ نَاظِراً إِلَيْه.

قالُوا: نَعَمْ، أَعْمِلْ جِهَازَ الاطِّلَاعِ عَلَىٰ المعَذّبِينَ في الجحيم.

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾: أي: في وَسَطِ النَّارِ لأَنَّهُ كانَ كافراً وَمَاتَ كافراً، فَهُوَ يُعَذَّبُ بِالْحَرِيق بالنّار، فَحَادَثَهُ وَتَعَارَفا بِمُقْتَضَىٰ الصُّحْبَةِ الَّتِي كانَتْ بَيْنَهُمَا فِي الدُّنيا، وبالْوَسِيلَةِ الَّتِي يَرَىٰ وَيَسْمَعُ كُلٌّ مِنْهُمَا الآخر.

﴿قَالَ﴾ المؤمِنُ المنَعَّمُ فِي الْجَنَّةِ للكافِرِ الَّذِي كانَ قَرِيْنَهُ في الدُّنيا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي: أُقْسِمُ لَكَ بالْقَسَمِ العظيم إِنَّكَ كِدْتَ بإغْرَاءاتِكَ وإغْوَاءاتِكَ لَتُسْقِطُنِي مَعَكَ في هَاوِيَةِ عَذَابِ الْجَحِيم، إذْ كُنْتَ تُحَرِّضُنِي

عَلَىٰ التكذيب بِيَوْمِ الدِّينِ، لأنْطَلِقَ مَعَكَ فِي مَعْصِيَةِ رَبِّ العالمين، واتّباعِ خُطُوتِ الشَّيَاطِين.

يُقَال لغة: «أرْدَاهُ يُرْدِيه» أي: أسْقَطَهُ فِي هَاوِيَةٍ.

وَقال لَهُ أيْضاً: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: وَلَوْلَا مِنَّةُ اللهِ رَبِّي عَلَيَّ، بالتّثْبِيتِ علىٰ الإيمانِ بالْحَقِّ، الَّذِي اتّجَهَتْ إرادَتِي للإذْعَانِ لَهُ بِصِدْقٍ، لَاسْتَجَبْتُ لإغْوَائِكَ وَإغْرَائِكَ، فَكَفَرْتُ، فَكُنْتُ مِنَ المحْضَرِينَ الْمَسُوقين قَهْراً حَتَّىٰ أكُون معَكَ فِي الْجَحِيم حَاضِراً.

جاء في القرآن استعمال عبارَة «مُحْضَرُون ـ مُحْضَرِين» بِمَعْنَىٰ الإحْضَارِ في دار العذاب، وبمعنَىٰ الإحضار لمجْلِسِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، لَدَىٰ رَبّ العالَمين، والقرائن هي الَّتِي تُرْشِدُ إلى المراد بالإحضار. قال الماوردي: «أُحْضِر» لا يُسْتَعْمَلُ إلَّا في الشّر.

فَلْيَحْذَرْ مَنْ كَانَ ذَا رَأْيٍ سَدِيدٍ، وَعَمَلٍ رَشِيد، من قَرِينِ السُّوءِ الذي قَدْ يُغْرِيهِ فَيُغْوِيه، فَيُرْدِيه.

وأقْفَلَ المؤمِنُ وَسِيلَةَ الاطّلَاعِ عَلَىٰ أهْلِ النَّارِ، وَقَطَعَ حَدِيثَهُ مَعَ الْمُعَذَّبِ في الْجَحِيم الَّذِي كانَ قَرِينَهُ في الْحَيَاة الدُّنيا.

هُنَا مَلأَتِ الْفَرْحَةُ والْبَهْجَةُ والمَسَرَّةُ قَلْبَهُ ونَفْسَهُ وَكُلَّ مَشَاعِرِه، وَكَذَلِكَ حَصَلَ لِكُلِّ الَّذِينَ يُؤْنِسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً في مَجْلِسِهِ، وَأَخَذُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِحَمْدِ اللهِ والثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَجعَلَتْهُمُ الْفَرْحَةُ والمَسَرَّةُ يَقُولُونَ مِثْلَ مَا يَقُولُ الْعَاشِقُ حِينَما تُزَفُّ مَعْشُوقَتُهُ لَهُ في ليلةِ الْعُرْس: أأنْتِ حَقّاً زَوْجَتِي أَعْشِيقَتِي اللَّيْلَةَ زَوْجَتِي، أأنْتِ فِي مَخْدَعِي، أهـٰذِهِ اللَّيْلَةُ لَيْلَةُ سَعَادَتِي، يَا فَرْحَتِي.

فالاسْتِفْهَامَاتُ هُنَا اسْتِفْهَامَاتُ الْفَرَحِ بِمَا حَصَلَ وَوَقَعَ وَكَانَ أملاً مُسْتَبْعداً.

علَىٰ مِثْلِ هـٰذا يُنْشِدُ أصْحَابُ هـٰذا المجْلِسِ مُعَبِّرِين عَنْ فَرْحَتِهِمْ بالْخُلودِ الَّذِي لَا يَتَخَلَّلُهُ مَوْت، وفَرْحَتِهِمْ بِعَفْوِ اللهِ عَنْهُمْ، فَلَمْ يُعَذِّبْهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتي كَانُوا يَسْتَحِقُّونَ عليها العذاب، ويقولُونَ بأسْلُوب اسْتِفْهامِ الْفَرَحِ بِمَا هُوَ فيه، الذي يَحْمَدُ رَبَّهُ على مَا أَولَاه:

• ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

إنَّهُمْ يَحْمَدُونَ اللهَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِه، وعَلَىٰ مَا مَنَّ عَلَيْهِمْ مِنْ عَفْوٍ عَنْ سَيِّئَاتِهِم، مُعْلِنِينَ أَنَّ مَا هُمْ فِيهِ فَوْزٌ عَظِيمٌ لهم.

نَشِيدٌ بَدِيعٌ يُنْشِدُهُ أصْحَابُ الْيَمِين، المخْلِصُونَ الْمُخْلَصُونَ.

الفوز: يأتي بمعنَىٰ الظَّفرِ بخَيْر، والنَّجاة مِنَ الشّرّ.

وأبَانُوا انْحِصار الفوز العظيم بما هُمْ فِيه مِنْ نَعِيم، ولكنَّهُمْ لَمْ يَنْفُوا وُجودَ فَوْزٍ أعْظَمَ، وهو الفوزُ الَّذِي نَالَهُ مَثلاً أهْلُ جنَّاتِ عَدْن، أَوْ أَهْلُ الْفِردوسِ الأعلَىٰ، وكُلُّ الَّذِينَ ارْتَقَتْ دَرَجاتُهُمْ عَنْ دَرَجاتِ أصْحَابِ الْيَمين.

وَجاءَ التعْقِيبُ الرَّبَّانِيُّ علَىٰ هـٰذا بقول اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾:

هـٰذا خِطَابُ مُوجَّهٌ من اللهِ عَزَّ وَجلَّ، فيه إرْشَادٌ لِمَا هُو الْخَيْرُ للنَّاسِ الموضُوعِينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، يُبَيِّن لَهُمْ فيه أَنَّهُمْ إِذَا آمَنُوا وأسْلَمُوا وَعَمِلُوا صَالحاً، نَالُوا يَوْمَ الدّينِ بِفَضْلِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم الجواد الكريم فَوْزاً عظيماً.

والمعنى: لِمِثْلِ هـٰذَا الْفَوْزِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الدِّينِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ إيماناً وإسْلَاماً وَطَاعَةً لِرَبهم، حتَّىٰ ينالُوه.

وبهـٰذا انتهىٰ تدبُّر الفصل الثاني من فصول الدَّرْسِ الثاني من دُرُوس سورة (الصَّافات). والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❀ ❀ ❀

الفصل الثالث

من الدرس الثاني من دروس سورة (الصّافات)

الآيات من (٦٢ ـ ٧٤)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

القراءات:

(٧٤) • قرأ ابن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عَامر، ويعقوب: [**الْمُخْلِصِينَ**] بكسر اللام، اسم فاعل من فعل: «أَخْلَصَ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بفتح اللَّام، اسْم مفعول.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: أَخْلَصُوا لِلَّهِ إيمانهم وإسْلامَهُمْ وعباداتهم، فجعَلَهُمُ اللهُ من المخلَصِينَ عِنْدَه.

تمهيد:

اقتضىٰ ذِكْرُ لَقَطاتٍ مِنْ نَعِيمِ أَصْحاب الْيَمين الْمُخْلِصِينَ والمخْلَصِين

في جَنَّاتِ النَّعِيم، ومنها مطاعِمُهُمْ مِنَ الفواكه، ومشارِبُهُمُ النفيسَة، أَنْ تُقَابَلَ بِذِكْرِ لقَطَاتٍ مِنْ شَقَاءِ الكَفَرَةِ المكَذِّبينَ أصْحَابِ الشِّمالِ، في طَعَامِهِمْ وشَرَابِهِم، معَ التعقيبِ بِبَيَانِ السَّبَبِ الذي أوصَلَهُمْ إلى هٰذا العذاب الأليم، والشَّقَاءِ المسْتَدِيم، رَغبَةً في أنْ يتَّعظَ الناس بِبيَانَاتِ رَبِّهم، وتَحْذِيرَاتِهِ لهم.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾:

المشارُ إليه بعبارَة: ﴿أَذَٰلِكَ﴾؟ هو مَا جَاءَ بيانُه في الآيات من (٤١ ـ ٤٩) الّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْ طعام وشراب أصحاب اليمين، وبعض مَا هُوَ نُزُلُهُمْ (أي: ضِيَافَتُهُمْ في جَنَّاتِ النَّعِيم).

وطَرَحَتْ هٰذِهِ الآيَةُ سُؤَالاً عَمَّا هُو الأفْضَلُ بَيْنَ النُّزُلَيْنِ، أنُزُلُ أصْحَابِ الْيَمِين، أَمْ نُزُلُ أصْحَابِ الشِّمَالِ الآتي وصْفُه.

«خَيْرٌ» أي: أحْسَنُ وأفْضَلُ وأخْيَر، وهٰذا على سَبيلِ التَّنَزُّلِ في الْعَرْضِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ إمْلَاءً خَبَرِيّاً، مع أنَّ نُزُل أصْحَاب الشِّمَالِ لَا خَيْرَ فيه مُطْلقاً، بل هو مِنْ عناصِرِ الشَّقاء، والتَّعْذِيبِ، مَعَ مَا فيه مِن اسْتِهْزَاء بالذِين استهزَؤوا بشجَرَة الزّقوم، كأبي جهل.

النُّزُل: هو ما يُعِدُّهُ الرَّجُلُ لضَيْفِه، وَيُقَدِّمُهُ إليه إذا نَزَل به.

﴿.. أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾؟

جَاءَ بِشَأْن شجَرَةِ الزَّقوم في القرآن الكريم ثَلَاثَةُ نُصوص سبَقَ تَدَبُّرُها تَدَبُّراً تَكَامُلِيّاً في الملحق الثاني من مَلَاحِقِ تَدَبُّر سورة (الواقعة/ ٤٦ نزول)[١] وهي:

---

(١) انظر هذا الملحق في المجلد الثامن، الصفَحات من (٥٢٥ ـ ٥٤٠).

(١) الآيات من (٤٩ ـ ٥٦) من سورة الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول).

(٢) الآيات من (٦٢ ـ ٦٨) من سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

(٣) الآيات من (٤٣ ـ ٥٠) من سورة (الدّخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول).

إنَّ أهْلَ جَهَنَّمَ يُلْجَؤُونَ مِنْ شِدَّةِ جُوعِهِمْ، وشِدَّةِ آلامِهِمْ مِنْهُ، أنْ يَأكُلُوا مِنْ ثَمَرِ شَجَرٍ في جَهَنَّمَ، يُسَمَّىٰ «شَجَرَ الزَّقُّوم» أَوْ «شَجَرَ زَقُّوم».

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾:

أصْلُ معنى الفتنة الصَّهْرُ بالنار للمعْدِنِ، كالذَّهَبِ والفِضَّة، لتمييز رَدِيئِهِ مِنْ جَيِّدِه، وشاعَ اسْتِعْمَالُ اللّفظ بمعنى الاختبار والامْتحان. ويُطْلَقُ ويُرَادُ بِهِ التَّعْذِيبُ بالنَّار، أَوْ بِمَا يُشْبِهُ التَّعْذِيب بالنّار، وهـٰذا المعْنَىٰ الأخيرُ هُوَ المعنَىٰ الأكْثَرُ مُلاءَمَةً لِلْآيَةِ هُنَا، لِأَنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ فِي جَهَنَّمَ شَجَرَةٌ يُعَذَّبُ بالْأَكْلِ مِنْ ثَمَرِهَا الظَّالِمُونَ، وهُمْ يُلْجَؤُونَ إِلَىٰ الْأَكْلِ مِنْهُ، لِشِدَّةِ الْجُوعِ الّذِي يُحِسُّونَ بآلَامِهِ في بُطُونِهِم، ولا يَجِدُونَ غَيْرَ ثَمَرِهَا يَأْكُلُونَ مِنْهُ في الدَّرَكَاتِ الَّتِي هُمْ فِيها في جَهَنَّم.

﴿لِلظَّـٰلِمِينَ﴾: المرادُ بالظَّالِمِينَ هُنَا الظَّالِمُونَ مِنْ دَرَكاتِ الكُفر، لَا الظَّالِمُونَ لِنُفُوسِهِم بِكَثْرَةِ المعاصِي مِنَ المؤمنين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: إنَّهَا صِنْفُ شَجَرَةٍ تَنْبُتُ فِي قَعْرِ الْجَحِيم، دار عذاب المجرمين الكَفَرَةِ المكذِّبينَ بِيَوْمِ الدِّين عَذَاباً دائماً.

ولَا عَجَبَ أَنْ يُنْبِتَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أشجاراً في مواطِنِ النَّار، فَهُو جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، ويَجْعَلُ لِمَا يَخْلُقُ الْأَسْبَابَ الملائِمَةَ لِشُرُوطِ وَجُودِ المخْلُوقِ وبَقَائِه.

وطَلْعُ شَجَرَةِ الزَّقُّوم، أي: الثَّمرُ الَّذِي يُؤْكَلُ مِنْهُ وصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ يُشْبِهُ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ، وفي هٰذا إحَالَةٌ علَىٰ مُتَخَيَّلٍ في أَذْهَانِ الْمُخَاطَبِينَ لِرُؤُوسِ الشَّيَاطِين، إِذْ يَتَخَيَّلُونَها بأَقْبَحِ صُورَةٍ، وأشْنَعِ مَنْظَر، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ذَاتَ صُوَرٍ شَدِيدَةِ الْقُبْحِ، فَكَلَامُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ حَقٌّ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: إنَّ الظَّالِمِينَ المجرِمين سَوْفَ يَجِدُونَ نُفوسَهُمْ مُلْجَئِينَ إلى الأكْلِ مِنْ صِنْفِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم، لِشِدَّةِ الْجُوعِ الَّذِي تَشْتَدُّ آلَامُهُ فِي بُطُونهم، وَلَا يَجِدُونَ فِي الجحيمِ شيئاً آخَرَ يَأْكُلُونَهُ أَخَفَّ مِنْهُ أذىً وإيلَاماً.

وبما أَنَّهُ لَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ فَإِنَّهُمْ يَمْلَؤُون مِنْهُ بُطُونَهُم، عسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِلْؤُهَا سَبباً في إسْكَاتِ جُوعِ بُطُونهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ امْتِلَاءِ بُطُونِهِمْ مِنْ طَلْعِ شَجَرِ الزَّقُّوم، الَّذِي يَغْلِي في بطونهم كَغَلْيِ الحميم، كما جاء في نص سورة (الدخان) يَشْتَدُّ ظَمَؤُهُم شِدَّةً عظيمة، فَلا يَجِدُونَ مَاءً بارِداً وَلَا شَرَاباً حَسَناً يُرْوُون بِهِ ظَمَأَهم، بَلْ

يَجِدُونَ حَمِيماً، أي: مَاءاً شَدِيدَ الحرارة، قَدْ أُعِدَّ لَهُمْ لِيَشْرَبُوا مِنْه، فَيَشْرَبُونَ مِنْهُ مُلْجَئِينَ، لِتَخْفِيفِ لَهِيبِ ظَمَئِهِم، فَيَدْخُلُ هٰذا الْمَاءُ الحميم إلى بُطُونِهِمْ، فَيَخْتَلِطُ بِمَا أَكَلُوا مِنْ طَلْعِ شَجَرِ الزَّقُّوم.

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: الشَّوْبُ في اللُّغَةِ مَا اخْتَلَطَ بِغَيْرِه، أي: هُمْ يَشْرَبُونَ عَلَىٰ مَا أَكَلُوا مِنْ طَلْعِ شَجَرِ الزَّقُّوم مَاءً شَديدَ الْحَرَارَة، فَيَخْتَلِطَانِ في بُطُونهم. وهٰذا الْحَمِيمُ مع الزَّقُّوم الّذي يَغْلِي في الْبُطُونِ لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ شَيْئاً مِنَ الظَّمَأِ وحَرَارَتِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾:

دَلَّتْ هٰذِهِ الآيَة عَلَىٰ أَنَّ جُوعَهُمُ الشَّدِيدَ يَجْعَلُهُمْ يَرْحَلون مِنْ مَنَازِلِهِمْ فِي الجحيم، إِلَىٰ قَاعِهَا حَيْثُ مَنابِتُ شَجَرِ الزَّقُّوم، لِيَأْكُلُوا مِنْهُ، وَعَلَىٰ أَنَّ ظَمَأَهُمُ الشّديد يَجْعَلُهُمْ يَرْحَلُونَ إلى حَيْثُ يُوجَدُ الماء، فلَا يَجِدُونَ إِلَّا مَاءً حَمِيماً، فَيَشْرَبُون مِنْهُ شُرْبَ الْهِيم، وهي الإِبِلُ الْمُصَابَةُ بِدَاءِ الْهُيَام، إِذْ تَسْتَمِرُّ بِهِ ظَامِئَةً شَدِيدَةَ الظَّمأ مَهْمَا شَرِبَت، فَتَسِيرُ في الأَرْضِ هائِمةً كَئِيبَةً تُعَانِي مِنْ أَوْجَاعِها.

وَإِذْ يَجِدُونَ مَوَاقِعَ شَجَرِ الزَّقُّومِ، وَمَوَاقِعَ الماء الْحَمِيم، أشَدَّ من مَنَازِلِهِمْ فِي الدَّرَكاتِ الّتي هُمْ فِيها مِنَ الجحيم، فإِنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلىٰ دَرَكَاتِهِمْ فِيها، حتّىٰ تُلْجِئَهُمُ الضَّرُورَة إلى رِحْلَةٍ أُخْرَىٰ، لِلْأَكْلِ مِنْ شَجَرِ الزَّقُّوم، وللشُّرْبِ مِنَ الْحَميم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً ما جَعَلَهُمْ ظالِمينَ مُجْرِمينَ خَالِدينَ في الجحيم:

• ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

﴿أَلْفَوْا﴾: أي: وَجدُوا.

﴿يُهْرَعُونَ﴾: أي: يَمْشُونَ. أوْ يَعْدُونَ في اضْطِرَاب وسُرْعَة، يُقَالُ لُغَةً: «هُرِعَ الرَّجُلُ يُهْرَعُ» بالبناء على صيغَةِ المجهول، أي: مَشَىٰ، أَوْ عَدا في اضطرَابٍ وسُرْعَةٍ.

أي: إنَّهُمْ وَجدُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ، نَائِينَ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المستقيم، يَتَّبِعُونَ أهْوَاءَهُمْ وَشَهَوَاتِهم، فَهُمْ فِي حَرَكَاتِ حَيواتِهِمْ يَمْشُونَ علَىٰ آثارِ خُطُواتِ آبَائِهِمْ، وَبَعْضُهُمْ يُسْرِعُونَ الْخَطْوَ عَادِينَ في اضْطِرابِ، تُقْلِقُهُمْ دَوَافِعُ الأَهْوَاءِ والشَّهَواتِ وَرَغَبَاتِ النُّفُوس.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً حَالَ أَكْثَرِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ مُهْلِك:

• ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ وفي القراءة الأخرى [**الْمُخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللام، اسم فاعل من فعل «أَخْلَصَ» أي: جعلَ إيمانه وإسلامه وعباداتِه خالِصَةً لِلَّهِ تَعالَىٰ، يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَه ومَرْضاتَه وثوابَه.

أي: ونُؤَكِّد لَكَ أيُّها المتَلَقِّي في أيِّ مَكانٍ وزمَانٍ، أنَّهُ لَقَد ضَلَّ قبل الْمَعْنِيِّينَ بالمعَالَجَةِ إبَّانَ التنزيل أَكْثَرُ الْأَوَّلِين مِنَ الأُمَم، وهُمُ الَّذِينَ اجْتَازُوا رِحْلاتِ امْتِحَانِهِمْ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحمَّد، وكَانَ ضَلَالُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وعَنْ صِرَاطِنَا المستقيم، بإراداتِهم الحرَّة، إذ كانوا قد اتّبَعُوا أهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِم، وَوَسَاوِسَ الشَّيَاطِينِ وَتَسْوِيلاتهم مِنْ شَيَاطِين الإِنْسِ والْجِنّ، كما أَبنَّا لَكَ هٰذا في آيَاتٍ كثيراتٍ سَابِقَاتِ التنزيل.

ونُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّا أَرْسَلْنَا فيهم رُسُلاً مُبَلِّغين ومُبَيِّنِينَ وَمُبَشِّرِينَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ مَنْ آمَنَ وأطَاع، وَمُنْذِرِينَ مَنْ كَذَّبَ وكَفَرَ وعَصَىٰ بعذَابٍ خَالِدٍ يَوْمَ

الدِّين، ومُنْذِرِينَ بإِهْلَاكٍ مَصْحُوبٍ بِتَعْذِيبٍ عَامٍّ شَامِلٍ سَاحِقٍ مَاحِقٍ في الدُّنيا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَاب.

فَمَا كَانَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْمُعَالَجَاتِ الكَثِيراتِ لَهُمْ، مَعَ حِلْمٍ وصَبْرٍ عَلَيْهِمْ، وإمْهَالٍ طَوِيلٍ لهم، إلَّا الإصْرَارُ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ مُعَانِدِينَ، فَأَهْلَكْنَاهُمْ إهْلَاكاً جَمَاعِيّاً شَامِلاً، كَمَا سَبَقَ أنْ أَنْبَأَنَا بإِهْلَاكِ كُفَّارِ قَوْمِ نُوح، وكفَّار قَوْمِ هُودٍ، وكُفَّارِ قَوْم صالح، وكُفَّارِ قَوْمِ لُوطٍ، وكُفَّار قَوْم شُعَيب، وفِرْعَوْنَ ومَلَئِه، وجُنُودِهم، فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ السَّابِقَةِ لِسُوَرٍ من القرآن.

فانْظُرْ أيُّها المُتَلَقِّي المتَفَكِّرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنْذَرِينَ، وانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ دِيَارِهِمُ الَّتِي دَمَّرْنَاهَا عَلَيْهِمْ حِينَ أَهْلَكْنَاهم إهلاكاً عقابيّاً، لِيَكُونُوا عِبْرَةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْيَالِ النَّاس.

وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ المنْذَرِينَ قَدْ أُهْلِكُوا، بَلْ كَانَ مِنْ ضِمْنِهِمْ مَنْ آمَنَ وَأسْلَمَ وَعَمِلَ صَالِحاً، مُخْلِصاً في إيمانه وإسلامِهِ وعَمَلِهِ، فَجَعَلْنَاهُ مِنَ المخْلَصِينَ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَلم نُهْلِكْهُ مع المهْلَكِين.

خاطب اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ مَوْضُوعٍ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بأسْلُوبِ الْخِطَاب الإفراديّ، لِيُشْعِرَهُ بالمسؤولِيَّةِ الكامِلَةِ، مع تَكْرِيمه بالخطاب.

التوكيد جاء بِـ ﴿لَقَدْ﴾ مَرَّتين، فاللَّامُ يَرَىٰ المُعْرِبونَ أنَّها واقعةٌ في جواب قَسَمٍ منوي، و«قَدْ» للتحقيق، وفي التحقيق توكيد ظاهر.

وبهٰذا تمَّ تدبُّر الدرس الثاني بفصوله الثلاثة من دروس سورة (الصَّافَّات).

والحمد لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٧)

التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دروس سورة (الصّافّات) الآيات من (٧٥ ـ ١٤٨) وفيه ستة فصول

الفصل الأول

الآيات من (٧٥ ـ ٨٢)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

تمهيد:

هٰذا الْبَيَانُ المقْتَضَبُ المُوجَزُ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلام، ذو هَـٰدَفَيْنِ جَلِيَّيْنِ:

الْهَدف الأول: الإنْذَارُ من اللهِ لِلْمُعَالَجِينَ المكَذّبينَ بِعِنَادٍ وإصرارٍ على الكُفْرِ، من كُبراء مُشْرِكي مَكَّة، بأنَّ مُحمّداً إذَا دَعَانَا أَنْ نُهْلِكَ مُنَاوِئِيهِ الَّذِينَ يُؤْذُونَهُ، ويَضطَّهِدُونَ الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، فإنَّنَا نُجِيبُهُ ونُهْلِكُ أعْدَاءَهُ وَمُنَاوِئي دَعْوَته.

الْهَدَفُ الثاني: طَمْأَنَةُ اللهِ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وللّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، بِأَنَّهُ نَاصِرُهُمْ، ومُؤَيِّدُهُمْ، كَمَا نَصَرَ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلاَمُ وأَنْجاهُ وأهْلَهُ مِنَ الكَرْب العظيم، الّذي نزَلَ بِهِمْ مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِم، أي: فإنْ وَصَلْتَ يا مُحَمَّدُ مَعَ قَوْمِكَ إِلَىٰ حَالَةِ كَرْبٍ عَظِيمٍ فادْعُنَا نُجِبْكَ.

ودَلّ هـٰذا النَّصّ علىٰ آخِرِ مَسِيرَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام في دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ، الَّتي اسْتَمَرَّتْ أَلْفَ سَنَةٍ إلَّا خَمْسِينَ عاماً.

وَوَصَل حَالُ أجْيَالِ قَوْمِهِ أَنْ هَدَّدُوه وأهْلَهُ بالرَّجْم، فَنادَىٰ رَبَّهُ أَنْ يَنْصُرَهُ، فَنصَرَهُ، ونَجَّاهُ وأهْلَهُ مِمَّا نَزَل بهم من قومِهِمْ من كَرْبٍ عظيم.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ بضمِير المتكلّم العظيم وبما يُلائمه:

• ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

سَبَقَ في سُورَةِ (القمر/ ٣٧ نزول) بَيَانُ دُعَائِهِ لِرَبِّهِ بأنْ يَنْصُرَهُ، إذ جَاءَ فيها بِشَأْنِهِ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

وَجاء هنا في (الصَّافّات/ ٥٦ نزول) بيانُ أنَّهُ نَادَىٰ رَبَّه، أي: دَعَاهُ دُعَاءً فِيه شِدَّةُ النّداء وحُرْقَتُهُ، وَلَا يُشْرَطُ فيه أَنْ يَكُونَ بِرَفْعِ صَوْتٍ، لأنَّ الأدَبَ مع اللهِ في الدّعاء أَنْ يَكُونَ بِتضَرُّعٍ وَخُفْيَة، وتَخْتَلِفُ النِّسْبَةُ النَّفْسِيَّةُ بَيْنَ دُعَاءٍ بِرِفْقٍ ودُعَاءٍ بِشِدَّة.

﴿.. فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾: الفاء تَعْطِفُ عَلَىٰ جُمَلٍ مَحْذُوفَةٍ، وفيها معْنَىٰ التَّفْرِيع، والتقدير: فاسْتَمَعْنَا نِدَاءَهُ، وأجَبْنَا دُعَاءَهُ، وفَرَّجْنَا كَرْبَهُ، وَكَانَ نَصْرُنَا لَهُ عَظِيماً يسْتَحِقُّ الْمَدْحَ والثناء: فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ.

اللَّام في: «لَنِعْمَ» لام الابتداء للتأكيد، ولفظ «نِعْمَ» فِعْلٌ جامِدٌ لإنْشَاءِ الْمَدْح على سَبِيل المبالغة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتابعاً بَيَانَهُ بِشَأْنِ نُوح عليه السلام:

• ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: وخَلَّصْنَاهُ وَخَلَّصنَا أَهْلَهُ مِمَّا كَانُوا فيه من كَرْبٍ عَظِيم، من قِبَلِ مَلَإِ قَوْمِهِ إذْ تَوَعَّدُوهُمْ بالرَّجْم بالحِجَارة.

دلَّتْ هـٰذِهِ الآيَةُ علَىٰ أَنَّ سَائِر الَّذِين آمَنُوا بِهِ لَم يَتَعَرَّضُوا من قِبَلِ

قَوْمِهِمْ لِمِثْلِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ نوحٌ عليه السَّلامُ وأهلُه من كَرْبٍ عظيم، مَعَ أَنَّهُمْ رَكِبُوا معَهُ في الْفُلْكِ، وأنْجَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من الغرق.

الكَرْبُ: الحزْنُ والغَمُّ يأْخُذُ بالنَّفْسِ، كَأَنَّ حَبْلاً أُبْرِمَ عَلَيْها وَشُدَّ.

وطُوِيت قَبْلَ مَا جاءَ في هـٰذه الآية أحْدَاث، وطُوِيَتْ بَعْدَهُ أحداث، جاءَ بَيانُها في نُصُوصٍ أخرىٰ لتتكامل النُّصُوصُ فيما بَيْنَها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً خَبراً تَارِيخيّاً جاء لَاحِقاً، هو أَنَّ الّذِين كَانت لَهُمْ خَلَائِفُ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ مِنْ قَوْمِهِ، كَانُوا جَمِيعاً مِنْ ذُرِّيته:

● ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

أي: لَمْ يُنْجِبْ أَحَدٌ ذُرِّيَّةً مِنَ المؤمِنينَ الَّذِين رَكِبُوا مَعَهُ في السَّفِينَة ونَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ، غَيْرُ أَوْلَاده.

ويَذْكُرُ المؤرِّخُون أنَّ الشُّعُوب انْحَدَرَتْ مِنْ أبناء نوحٍ الثلاثة، «سَام ـ وحَام ـ ويَافِث».

قالوا: فـ«سَام» أبو العرب، وفارس، والرُّوم.

و«حام» أبو السُّودان.

و«يافث» أبو التُّرْك، والخزر «أي: التّتار» ويأجُوج ومأجُوج، وسَائِرِ شُعُوبِ الشَّرْقِ الأقْصَىٰ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُبَيِّناً ثواباً تَكْرِيمِيّاً مُعَجَّلاً في الدُّنيا لنوح عَلَيْهِ السّلام، إذْ شَرَعَ لِلْمُؤْمِنِينَ باللهِ وَرُسُلِه مِنْ بَعْدِ نوحٍ إلى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، أَنْ يُحَيُّوهُ بالسَّلَامِ كُلَّمَا ذُكِرَ اسْمُه:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾:

هـٰذا السّلام هو تحيَّةٌ مِنَ اللهِ يَدْعُو بها الْمُرْسَلُونَ وأتْباعُهُمْ، فَمَنْ

سَلّم على نوح، أو على أيِّ رسُولٍ أو نبيٍّ كُتِبَ لَهُ بذلِكَ أَجْرٌ، لِأَنَّهُ تَعْلِيمٌ مَشْرُوعٌ أَشْعَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالنَّدْبِ إلَيْه، بعبارة: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ دُونَ عِبارَةٍ فِيها مَعْنَىٰ الأَمْرِ أو الإلْزام. وجَاء عند المفسرين: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ ثَناءً حَسَناً ﴿فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: فالمفعول به محذوف.

لَكِنَّ التعبير القرآنِيّ يُشْعِرُ بأنَّ الْمَتْرُوكَ عَلَيْهِ في الآخِرِينَ هو هـٰذه التحيَّة المذكُورَةُ علىٰ الحكاية ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ وجاءت عبارة ﴿فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دَالَّةً علَىٰ أَنَّ أهل السَّماء والأرض مِمَّنْ يبْتَغُونَ رضوانَ الله، يُحَيُّونَهُ بهـٰذِهِ التَّحِيَّةُ، فيقولون: سَلَامٌ علَىٰ نوح، أو عبارة نحوها، ويُحَيُّونَ بِمِثْلِهَا كُلَّ الرُّسُلِ الَّذِينَ تَرَكَ اللهُ عَلَيْهم مِثْلَ هـٰذا السَّلام، ويَقِيسُون عليهم سائر الرُّسل، مُسْتَفِيدين مِنْ قول الله عَزَّ وَجَلَّ في آخِر السورة: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ فَعَمَّمَ جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ بالسَّلامِ عليهم، تَعْلِيماً لِجَمِيع المؤمنين.

وقد جاء في بَعْضِ أقوال الرَّسُول ﷺ هـٰذا التَّسليم، عند ذِكْرِ بَعْضِ المُرسلين. منها ما رواه البخاريُّ عَنِ ابْنِ عمر رضي اللهُ عنهما، عَنِ النبيّ ﷺ، أنَّهُ قَالَ حِينَ سُئِلَ عَنْ أَكْرَم الناس:

«الْكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيم ابْنِ الْكَرِيم ابْنِ الكريم، يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهُمُ السَّلام».

وهـٰذا من الرسُول ﷺ بَيَانٌ تَطبيقِيٌّ نَسْتَفِيدُ مِنْهُ كَيْفَ نُسَلِّمُ علَىٰ الرُّسُل.

السَّلَام: البَراءَةُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، ومِنْ كُلِّ نَقْصٍ، والعافية، والأَمْنُ، وقَدِ اختاره اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيكُونَ عِبارَةَ اللِّقاءِ بَيْنَ المسلمين، إخاءً، وتَكْرِيماً وَإِيناساً، ودُعَاءً بالسَّلَامَة من كلِّ مَكْرُوه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَحَدِّثاً بضمير المتكلّم العظيم:

• ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: إنَّ نُوحاً عليه السَّلام جَزَيْنَاه بالنَّجاةِ مِنَ الكَرْبِ العظيم الذي نَزَلَ بِهِ مِنْ قِبَلِ قَوْمِه، وتَرَكْنا عَلَيْهِ تَحِيَّةً طَيِّبَةً فِي الآخِرين، سَلامٌ علَىٰ نُوحٍ في العَالَمِين، لِأَنَّهُ كَانَ مُحْسِناً، وإنَّا كَذَلِكَ الجزاءِ الّذِي جزَيْنَاهُ نُوحاً نَجْزِي سَائِرَ المحسنين، فَلِكُلِّ مُحْسِنٍ عندنا جزاءٌ مُشَابِهٌ لِلْجَزاءِ الْمُعَجَّلِ الَّذِي جَزَيْنَاهُ نُوحاً.

الإِحْسَان: هُو المَرْتَبَةُ الْعُلْيَا مِنْ مَرَاتِب المُؤْمِنِين، ودُونها مَرْتَبَةُ الْبِرّ، ودُونَهَا مَرْتَبَةُ التقوى، ولكلٍّ من هـٰذه المراتب دَرَجَاتٌ كثيرات لَا يَعْلَمُها إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

ولَكِنْ لَا يَرْتَقِي إلى مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ أو مَرْتَبَةِ الْبِرِّ إِلَّا مَنْ كَانَ من المتّقِين المؤمنين حَقّاً وصِدْقاً، ولهـٰذا قال تعالَىٰ في وصْفِهِ: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ فَالْإِيمَانُ هو قَاعِدَةُ البناء الارتقائِيِّ في مَرَاتِبِ المُتَّقين، فالأَبْرار، فالمُحْسنين.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: وَبَعْدَ أَنْ أَنْجَيْنَا نُوحاً وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ العظيم، إذْ رَكِبُوا فِي السَّفِينَةِ، وَابْتَعَدُوا عَنْ أَرْضِ قَوْمِهِم، وَهِي تَجْرِي بِهِمْ مَحْفُوظَةً بِحِفْظِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، أخذَ الْمَاءُ يَتصَاعَدُ في أَرْضِ قَوْمِهِ، وَأَخَذَ كُفَّارُ قَوْمِهِ يَتَسلَّقُونَ الْمُرْتَفَعَاتِ، ويُتَابِعُهُم الماءُ المتصاعِدُ، تَفَجُّراً مِنْ عُيُونِ الْأَرْضِ، وانْهِمَاراً مِنْ السُّحُبِ فِي السَّمَاء، وسُيُولاً جَارِفَةً عَلَيْهِمْ مِنَ الْجِبَالِ، حَتَّىٰ تَمَّ إِغْرَاقُهُمْ جَمِيعاً، ولَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ إِتْمَامُ إغْرَاقِهِمْ، بَعْدَ جَرْيِ السَّفِينَةِ في الماءِ المتصاعِدِ بزَمِنٍ مُتَطَاوِلٍ يَحْسُنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِحَرْفِ العطف «ثُمَّ».

هـٰذا فَصْلٌ مُقْتَضَبٌ مُوجَزٌ جِدًّا، يَشْتَمِلُ على ثَماني آياتٍ قِصارٍ، لكِنَّهُ مَلِيءٌ ببيان قضايا ذاتِ شأنٍ في الفكْرِ الدّيني.

وكثيرٌ من آيات هـٰذا الْفَصْلِ تَصْلُحُ أمْثِلَةً لإيجازِ الْقِصَرِ، وبَعْضُها أمْثِلَةً لإيجاز الحذف.

وبهـٰذا انتهىٰ تَدَبُّرُ الفصل الْأَوَّلِ من الدَّرْسِ الثالث من دُروس سورة (الصَّافّات). والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتَوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

التدبّر التحليلي للفصل الثاني من الدرس الثالث من دُروس سورة (الصَّافات) الآيات من (٨٣ ـ ١١٣)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾

وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

القراءات:

(٩٤) • قرأ حمزة: [**يُزِفُّونَ**] مِنْ فعل «أَزَفَّ» بمعنى: أسْرَع الخطْوَ.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: [**يَزِفُّونَ**] من فعل: «زَفَّ، يَزِفُّ، زفّاً» بمعنى: أسْرَعَ الخطْوَ.

فالقراءتان لغتان لمعنىً واحد.

(٩٩) • قرأ يَعْقُوب: [**سَيَهْدِينِي**] بإثْبَاتِ يَاءِ المتكلّم في الوصْلِ والوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف ياء المتكلم في الحالَيْن: [**سَيَهْدِينِ**] وهذا الحذف مألُوفٌ في العربية مع مُلاحظتِه ذهناً.

(١٠٢) • قرأ حفْصٌ عن عاصم: [**يَا بُنَيَّ**] بفَتْحِ الياء مُشَدَّدَةً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِها مُشَدَّدَةً: [**يَا بُنَيِّ**].

والقراءتانِ نُطْقَانِ عَرَبِيَّانِ متكافئان.

(١٠٢) • فتح يَاءَ المتكلِّم في الموضِعَيْنِ مِنْ [**إِنِّيَ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّيَ أَذْبَحُكَ**] نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر.

وأسْكَنَها بَاقي القرّاء العشرة في الموضِعَيْنِ أيضاً.

(١٠٢) • قرأ حمزة، والكسائيّ، وخلف: [**مَاذَا تُرِي**]: أي مَاذَا تُقدِّمُ مِنْ رأيٍ بشَأْنِ هـٰذه الرُّؤيا.

وقَرأها بَاقِي الْقُرَّاءِ العشرة: [**مَاذَا تَرَىٰ**]: أي: مَاذا تَرَىٰ أنْتَ لِنَفْسِكَ بِشَأْنِ هـٰذه الرُّؤيا.

وبين هاتَيْنِ القِرَاءَتَيْنِ تَكَامُلٌ فِي أَدَاء المعنَىٰ المراد.

(١٠٢) • قرأ ابْن عامر، وأبو جَعْفر: [**يَا أَبَتَ**] بفتح التاء.

وقرأها باقي الْقُرَّاءِ العشرةِ: [**يَا أَبَتِ**] بِكَسْرِ التاء.

وهُما لُغَتَانِ عَرَبِيَّتَان.

(١٠٢) • فَتْحَ يَاءَ المتكلّم من: [**سَتَجِدُنِيَ إِنْ شَاءَ اللهُ**] نافع، وأبو جعفر.

وأسْكنها باقي القرّاء الْعَشَرَة.

(١٠٤) • قرأ السُّوسي: [**الرُّويَا**].

وقرأها أبو جعفر: [**الرُّيَّا**].

وقرأها باقي القُرَّاء العشرة: [**الرُّؤْيا**].

ووقف حمزة كالسُّوسي، وأَبي جعفر.

وهي وجُوهٌ من الأَداء باللِّسان الْعَرَبي.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الفصل لقطاتٌ من قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السلام، ومَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّةِ والجهادِيَّة، وهِيَ تَتَضَمَّنُ تَرْبِيَةً للرَّسُولِ محمّد ﷺ، وَطَمْأَنَةً لَهُ بأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ من ربّه، ومَنْصُورٌ لَا مَحَالَةَ، كَمَا نَصَرَ إبراهيم مِنْ قبل.

وفي طَمْأَنَتِهِ بِعَاقِبَةِ النَّصْرِ إِلْماحٌ لِأَئِمَّةِ الكُفْرِ في مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ بأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ هُمُ المَغْلُوبِين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾:

أي: وإِنَّ مِنْ شِيعَةِ نُوحٍ عَلَيهِ السّلامُ لَإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام.

الشّيعة: كلُّ قوم أو جماعَةٍ من النّاس لَهُمْ أَمْرٌ واحِدٌ هم متّفِقونَ عليه، أو لَهُمْ مَذْهَبٌ واحد يسيرون عليه، ولو لم يَكُونُوا في زمَنٍ واحِدٍ.

دلَّت هـٰذه الآيةُ على أنَّهُ مَا زَالَتْ بَقَايا من الدِّين الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ نوحٍ عليه السلام مَوْجُودَةً لَدَىٰ بَعْضِ النَّاس، ولَا سِيما عَقِيدَةُ التَّوْحِيد، وبَعْضُ الْعِبَادَاتِ كالصَّلاة، وبَعْضُ الأخْلَاقِ كالصّدْقِ والأمَانَة، وبَعْضُ أنواع السُّلُوك الاجتماعي والآداب، وقَدْ تَلَقَّاهَا إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ بها فآمَنَ بِها والْتَزَمَهَا، فَكَانَ بذلِكَ مِنْ شِيعَةِ نُوحٍ، وأَتْبَاعِ دِيَانَتِهِ.

وأَسَالِيبُهُ الْجَدَلِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ هِيَ من نَوعِ مُجَارَاةِ قَوْمِهِ مجاراةً ظَاهِرَةً، لِيَنْتَقِلَ مِنْها إلَىٰ نَقْضِ عَقَائِدِهِم الشِّرْكِيَّةِ بالحجج الدامِغَة، وإبطالِ اعْتِقَادِهم في رُبُوبِيَّةِ النجوم وإلَهِيَّتِهَا، وإبطالِ عِبَادَاتِهِمْ لِلْأَوْثَان.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ بشأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام:

• ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾:

أي: ضَعْ في ذاكِرَتِكَ ابْتِدَاءً أَيُّهَا المُتَلَقِّي أَنَّ إبْرَاهِيم جَاءَ رَبَّهُ بَعْدَ رِحْلَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا بِقَلْبٍ سَلِيم مِنْ كُلِّ مَرَضٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ المعنويَّة الَّتِي تُصِيبُ الْقُلُوب، كالشِّرْك، والشَّكِّ في اللهِ وصِفَاتِه، والْحَسَدِ، وإرادة السُّوء والشرّ والمعْصِيَة.

والمرادُ بالقلْبِ مَرْكَزُ الْعِلْم والمعْرِفَةِ وَالإرَادَةِ الحرَّة، والمكتَسَبَاتِ الإرَادِيَّة، ذَواتِ الآثَارِ النفسيَّة، والآثَارِ السُّلُوكِيَّةِ الظَّاهِرَة.

وهـٰذَا ثَنَاءٌ مِنَ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، علىٰ إِبْرَاهِيمَ بَعْدَ عُبُورِهِ رِحْلَةَ الامتحان، وهي رِحْلَةُ الحياةِ الدُّنيا، قَبْلَ الدُّخُول في ذِكْرِ اللَّقَطَاتِ المختارات مِنْ قِصَّتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ في هـٰذِهِ السُّورَة.

وقدْ رَجَّح لَدَيَّ هـٰذا الْفَهْمَ نَصَّانِ آخرانِ جاءَا بِشَأْنِ مجيء الْعَبْدِ إلىٰ رَبِّهِ بَعْدَ مَوْته.

النصّ الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (ق/ ٣٤ نزول):

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: وجَاءَ رَبَّهُ يَوْمَ الدِّينِ بِقَلْبٍ تَائِبٍ رَاجعٍ مُطِيعٍ له.

النصّ الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول) في حكايَةِ دُعاءِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِرَبّه:

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وقد سَبَقَ تَدَبُّرُ هـٰذيْنِ النّصَّيْنِ فِي مَوَاضِعهما، فَمِنَ الظَّاهِرِ أَنْ نفهم الآيَةَ من سُورةِ (الصَّافَّات) على الوَجْهِ الَّذي في سُورتَي (ق) و(الشعراء).

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ بِشَأْنِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام أيضاً:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

شُروعٌ في عَرْضِ اللَّقَطاتِ الْمُخْتَارَاتِ مِنْ قِصَّتِهِ عَلَيْهِ السّلام، لِهَـٰذِهِ السُّورةِ ومُقْتَضِيَاتِها إبَّانَ التَّنْزِيل.

سبق في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) بيان دَعْوَةِ إبْرَاهيم عَلَيْهِ السَّلام لِأَبِيهِ آزر، وسَبَقَ أيضاً بَيَانُ لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّتِهِ فِي نجوم التَّنْزِيلِ قَبْلَ

(الأنْعَام) سَبَقَ تَدَبُّرُهَا، وَسَتَأْتِي فِي سُوَرٍ كثيرةٍ لقَطَاتٌ مِنْ قِصَّتِهِ، وَهِيَ تَحْتَاجُ دِرَاسَةً تكَامُلِيَّةً تَدَبُّرِيَّة في مُلْحَقٍ أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنِي عَلَيْهِ، ليكُونَ مُلْحقاً مِنْ مَلَاحِقِ تَدَبُّر سُورةٍ من السُّور.

قولُهُ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾؟:

أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّهَا المُتَلَقِّي جِهَادَ إبْرَاهِيمَ الدَّعَوِيَّ، حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مُسْتَنْكِراً مُنْتَقِداً بِشِدَّةٍ عِبَادَتَهُمْ أوثَاناً هُمْ يَنْحِتُونها بِأَيْدِيهم، لا تَسْمَعُ وَلَا تُجِيبُ ولَا تَعْقِل، ولَا تنفَعُ ولَا تَضُرّ.

﴿مَاذَآ﴾؟ مُرَكَّبَةٌ من «مَا» الاستفهامية، و«ذا» الموصولة الَّتِي هِيَ بمعنى «الّذِي» أي: مَا الّذِي تَعْبُدون، والاستفهام استنكارِيٌّ تَلْويمي، مع ما فِيهِ مِنْ إظْهَارِ الْعَجَبِ الشَّدِيدِ مِنْ سَفَاهَتِهِمْ ونَقْصِ عُقُولهم.

وجوابُ سؤاله لَهُمْ، جاء بَيَانُهُ في سورة (الشُّعَرَاء/٤٧ نزول):

﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾.

فَرَدَّ عليهم بقوله:

﴿.. هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾.

فقالوا له: لَا ﴿.. بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

هُنَا يأتي قول اللهِ تَعَالَىٰ في (الصافات) التي نتدَبَّرُها، حِكَايَةً لِمَا رَدَّ بِهِ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السّلام:

• ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾؟:

الإفْكُ: الكَذِبُ قَوْلاً كَانَ أَوْ عَملاً، فَمَنْ صَنَعَ صَنماً وجَعَلَهُ إلَهاً يَعْبُدُهُ، فقد عَمِلَ كَذِباً، لأنَّهُ يَجْعَلُ مَا لَيْسَ لَه من الرُّبوبيَّة، ولا من الإلَهِيَّةِ شَيءٌ، إلَهاً يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

فالمعنى: أتَّخِذونَ أَصْنَاماً وتَجْعَلُونَهَا آلِهَةً تُعْبَدُ إفْكاً وكَذِباً عَلَىٰ اللهِ، الذِي لَهُ وَحْدَهُ في كُلِّ الْوُجُودِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَلَهُ وَحْدَهُ الإلَٰهِيَّة. وتُرِيدُونَ بِعِبَادَتِكُمْ لَهَا أَنْ تَجْلُبَ لَكُمْ نَفْعاً، أَوْ تَدْفَعَ عَنْكُمْ ضَرّاً.

وأصل العبارة على مَا أفهم: أَتُرِيدُونَ جَلْبَ نَفْعٍ أَوْ دَفْعَ ضَرٍّ، بِعِبَادَةِ أَصْنَامٍ مِنْ دُونِ اللهِ، تَتَّخِذُونَها آلِهَةً إفْكاً وَكَذِباً.

حُذِفَ الفِعل الناصِبُ لـ**[إفْكاً آلِهةً]**. وَحُذِفَ مَعْمُول: **[تُرِيدُونَ]** أي: جَلْبَ نَفْعٍ أَوْ دَفْعَ ضَرٍّ، ونَظِيرُ هٰذا الحذف مألوفٌ في القرآن.

إنَّ هٰذا الْعَمَلَ مِنْكُمْ سَفَاهَةٌ ونَقْصٌ في الْعَقْلِ، وكُفْرٌ بِحَقِّ رَبِّكُمْ عَلَيْكُم.

وقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِأَبيهِ وَقَوْمِهِ:

• ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: فَمَا ظَنُّكُمُ الَّذِي تَظُنُّونَهُ بِرَبِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، القادِرِ على الْإيجاد والإعْدَام، والجزاء والعقاب والانتقام، والذي هو مالِكُ كُلِّ شيء، والْقَدِيرُ عَلَىٰ مَا يَشَاء، وَالَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي إلَٰهِيَّتِهِ؟؟

أَتَظُنُّونَ أَنَّهُ سَيَغْفِرُ لَكُمْ عِبادَتَكُمْ لِغَيْرِهِ، وأنْ تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكاً مِمَّا خَلَقَ، فَهو مَخْلُوقٌ لَهُ، كَمَا أَنَّكُمْ مَخْلُوقُونَ لَهُ، وكذَلِكَ كُلُّ شيءٍ في الوجود سِوَىٰ اللهِ هو مخْلُوقٌ ومَرْبُوبٌ لِلَّه دَواماً؟؟.

أَتَظُنُّونَ أَنَّ رَبَّ العالَمِينَ غَيْرُ عَالِمٍ بِمَا تَصْنَعُونَ، وبما في نُفُوسِكُمْ تُضْمِرُونَ؟.

أَتَظُنُّونَ أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَا يُحْصِي عليكُمْ أَعْمَالَكُمُ الإرادِيَّة الظَّاهِرَةَ والْبَاطِنَةَ، وَلَا يُحَاسِبُكُمْ ويُجَازِيكُمْ عَلَيْها يَوْم الدين؟.

استعْمَل إبراهيمُ عَلَيه السَّلام التَّعْبيرَ بالظَّنِّ هُنَا، لِأَنَّ قومَهُ لَا يَمْلِكُون ظَنّاً مُؤيّداً بِدَلِيلٍ ما، يخالِفُ مَا يَدْعُوهم إليه من الحقّ، ونَبْذِ الشِّرْك، والْتِزَامِ صراط اللهِ المستقيم.

أمّا عِبَادَتُهُمْ لِآلِهَتِهِمْ فَهِي عَقَائِدُ خُرَافِيَّةٌ تَقْلِيديَّة، لا يَقْتَرِنُ بِهَا ظَنٌّ مَقْبُولٌ في أذْهَانِ الْعُقَلاءِ، بَلْ هي أَوْهَامٌ صَارَت عَقَائِدَ بِالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَىٰ.

وبَعْدَ أَنْ جَاهَدَهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ جهاداً دَعَوِيّاً لِيَنْبِذُوا شِرْكَهُمْ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، وَكَانَ فَتَىً مُكْتَمِلَ الْقُوَّة، ذَا عَزِيمَةٍ وَنَشَاط، وَتَرَقَّبَ يَوْماً مِنْ أَيَّامِ أَعْيَادِ قَوْمِهِ، إِذْ يَخْرُجُونَ مِنْ مَدِينَتِهِمْ إلى مَكَانٍ جامِعٍ يَلْتَقُونَ فيه، ويَلْهُونَ ويَلْعَبُونَ، فَدَعَوْهُ إِلَىٰ الْخُرُوجِ مَعَهُمْ غداً، فَأَرَادَ أَنْ يَكِيدَ في يَوْمِ عِيدِهِمْ أَصْنَامَهُمْ فِي مَعْبَدِهَا الْمُخَصَّصِ لَهَا، فَيُحَطِّمَهَا إِلَّا كَبِيرَهَا؛ فيلزمهم الحجةَ في أنَّها لا تستحقُّ العبادة.

• ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾:

حَرَكَةٌ ذَكِيَّةٌ بَارِعَةٌ، أَوْهَمَ بِهَا مَنْ حَوْلَهُ مِنْ عَشيرَتِهِ، أَنَّهُ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ في النَّظَرِ إِلَىٰ حَرَكَاتِ النُّجومِ، دُونَ أَنْ يَقُول لَهُمْ: إِنِّي أَسْتَطْلِعُ حَرَكَاتِهَا، وأَتْبَعَ هـٰذِهِ الْحَرَكَةَ بِقَوْلِهِ لهم: إِنِّي سَقِيمٌ، أي: مَرِيضٌ، ومَرَضِي يَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أَخْرُجَ مَعَكُمْ فِي يومِ عِيدِكُمْ.

فتَوَهَّمُوا أَنَّهُ اسْتَطْلَعَ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ النُّجُومِ أَنَّهُ سَيَكُونُ غداً سَقِيماً، يَمْنَعُهُ سَقَمُهُ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَهُمْ لِيَلْهُوا ويَلْعَبُوا في يَوْمِ عِيدِهِمْ.

قولُهُ عليه السّلام: «إِنِّي سَقِيم»، هي إِحْدَىٰ الكذبَاتِ الثَّلَاثِ اللَّاتي احتَسَبَهَا علىٰ نَفْسِه، كَمَا جاء في حديثِ الشفاعَةِ الّذِي رواه البخاري ومسلم[1]، مع أنَّ ثِنْتَيْنِ منها كانَتَا في ذَاتِ اللهِ، وهما قوله: «إِنِّي سَقِيم».

---

(١) انظر حديث الشفاعة في الصفحات من (٤١٤ ـ ٤١٦) من المجلد (٨) الملحق الثاني: «حول الشفاعة يوم الدِّين وأنواعها».

وقولُهُ: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذا». أمّا الثالِثَة فَقَوْلُهُ لِلْمَلِك حين أرادَ امْرأته «سَارَة»: هي أُخْتِي، يَعْنِي أَخْتَهُ في الإسلام، إذ من عادة هـٰذا الملك أَنْ يقتل أزْوَاجَ من تُعْجِبُهُ مِنَ النساء، كما سيأتي في ص٦٠٧.

فَقَبِلَتْ عَشِيرَتُهُ عُذْرَهُ، وَخَرَجُوا مع النّاسِ إلى عِيدِهم، وبقي إبْراهيم عَلَيْهِ السَّلام في المدينَةِ لا يُرَاقِبُهُ فِيها أَحَدٌ.

• ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

﴿فَتَوَلَّوْا﴾: أي: فَخَرَجَ أَهْلُهُ وعَشِيرَتُهُ نَائِينَ عَنِ المكان الَّذِي كَانَ هُو فيه في المدينة.

التولّي: يأتي بمَعْنَىٰ الإدْبار، وبمعْنَىٰ الابتعاد.

﴿مُدْبِرِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لمعنَىٰ الإدْبار، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَمْ يَقَعْ في ظَنِّهِمْ أَنَّهُ سيَفْعَلُ شيئاً في غِيابِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُونَ، بَلْ سَيَجْلِسُ جِلْسَةَ السَّقِيم في بَيْتِهِ، فلَمْ يَتْرُكُوا رَقيباً يُرَاقِبُهُ، بَلْ كَانُوا جَمِيعاً مُدْبِرِينَ.

أدْبَر: أي: جَعَلَ ظَهْرَهُ إلى جِهَةِ مَنْ أَدْبَرَ عَنْه.

فلَمَّا اطْمَأَنَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ إلَىٰ أَنَّ الْمَدينَةَ فَرَغَتْ مِنْ أَهْلها، وَلَا مُرَاقِبَ فِيهَا يُرَاقِبُه، أَسْرَعَ إلى تَنْفِيذِ خُطَّتِهِ الَّتِي رَسَمَها فأسْرع بِخِفَّةِ الْفَتَىٰ الْقَوِيّ إلَىٰ بَيْتِ أَصْنَامِهم:

• ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿فَرَاغَ﴾: أي: فأسْرَعَ بِخِفَّةٍ ونَشَاطٍ يَسِيرُ يميناً وَشمالاً، ويحْذَرُ أنْ يَرَاهُ أحدٌ، حتَّىٰ وصَلَ إلى بَيْتِ أَصْنَامهم.

فقَدَّمَ للأصْنَام طعاماً، فَقَالَ لَهُمْ: ألا تَأْكُلُونَ؟ خاطَبَها بخِطَابِ الجماعَةِ الذُّكور، إذْ هِيَ علَىٰ صُورِ ذكُور.

وحَادَثَ الأَصْنَامَ فَلَمْ تُجِبْهُ، فَقَال لهم: مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ؟ سُخْرِيَةً

بِهِمْ واحْتِقَاراً لهم، إذْ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّها حِجَارةٌ لَا حَيَاة لَهَا فَهِيَ لَا تَتكَلَّمُ، وإنَّمَا نَحتَها السُّفَهَاءُ عَلَىٰ صُوَرِ أَحْيَاء، وصَارُوا يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله.

وهُنَا ثَارَ غَضَبُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ رَبِّ الْعَالَمِين، فَعَزَمَ علىٰ تَحْطِيمِها بأدَاةٍ حَدِيدِيَّةٍ، أوْ كَانَ هو ذا قُوَّةٍ فَائِقَةٍ، وَكَانَتْ يَدُهُ ذَاتَ قُدْرَةٍ عَلَىٰ تكْسِيرِ الحجارَةِ دُونَ أداةٍ حَدِيديَّة.

• ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: فأَسْرَعَ بِخِفَّةٍ وحِدَّةٍ ونَشَاطٍ يَضْرِبُهَا ضَرْباً قَوِيّاً بِيَدِهِ الْيَمِينِ، فَهِيَ الْيَدُ الْأَقْوَىٰ عِنْدَهُ، وهِيَ الْيَد الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا في الأمُور الشّرِيفة، كالأكْلِ والشُّرْبِ والقِتَالِ، علَىٰ وَفْقِ الأدَبِ الإسْلَامي.

فكَسَّرَهَا إلَّا وَثَناً كبيراً فيها، فَجعَلَهَا جُذَاذاً، أي: قِطعاً مُكَسَّرَة، كَمَا قال اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشَأْن إبراهِيم عليه السَّلَام وتكْسِيره أصْنامَ قومه:

• ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

فَلَمَّا رَجعُوا مِنْ عِيدِهِمْ وَجَدُوا آلِهَتَهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ مُكَسَّرَةً، إلَّا الصَّنَمَ الكَبِيرَ مِنْها، واشْتَدَّ غَضَبُ الْقَوْمِ مِمَّنْ كَسَّرَ آلِهَتَهُمْ، فتَسَاءَلُوا: مَنْ فَعلَ هَـٰذَا بآلِهَتِنَا، وهُنَا يأتِي التَّكْمِيلُ في سورة الأنبياء/ ٧٣ نزول):

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن

كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

كُلُّ هـٰذَا الّذِي جاء في سُورَةِ (الأنبياء/ ٧٣ نُزول) قدِ اقْتُطِعَ من الْقِصَّة في سورة (الصَّافَّات) وَجيء مِنْهَا بمُخْتَزَلٍ، وفْقَ المنْهَجِ القرآني في التوزيع التكامُلِيِّ في السُّورِ لِعَرْضِ الْقِصَصِ فيه.

وَأتابعُ مَا جَاء في سُورَة (الصَّافَّات):

• ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾: أي: فَأَقْبَلَ قَوْمُهُ إلَيْهِ يُسْرِعُونَ. يقال لُغَةً: «زَفَّ، يَزِفُّ، زَفّاً، وزُفُوفاً، وَزَفِيفاً» أي: أَسْرَع. ويُقَالُ أيْضاً: «أَزَفَّ، يُزِفُّ» بمعْنى: أسْرَع، وعلى هـٰذا القراءة الأخرى: «يُزِفُّون».

لَقَدْ أَسْرَعُوا إِلَيهِ بَعْدَ أَنْ قَال قائِلُونَ مِنْهُمْ: سَمِعْنَا فتىً يَذْكُرُ آلِهَتَنا بِسُوء، فَهُو المتَّهَمُ بتكْسِيرِها.

وطُوِي هُنَا مَا جَاءَ مُفَصَّلاً في سُورَةِ (الأنبياء/ ٧٣ نزول) وقفَزَ النَّصُّ هنا إلَىٰ بَيَانِ مُنَاقَشَةِ إبْراهِيم عليه السلام لِقَوْمِهِ بِشَأْنِ آلِهَتِهِمْ مِن الأصْنَام:

• ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾؟!:

أي: قَالَ لِقَوْمِهِ مُجَاهِداً جهاداً دَعَوِيّاً بشَجَاعَةٍ تَامَّةٍ، وبأسْلُوبِ الاسْتِفْهَام الاستِنْكارِيِّ التّلْويميّ الّذِي فيه تَسْفِيهٌ لِعُقُولهم: أتعْبُدُونَ حجارَةً وصُخُوراً أَنْتُمْ تَنْحِتُونَهَا وَتُصَوِّرُونها علَىٰ صُورِ أَحْيَاءٍ، وتَجْعَلُونَهَا شَرِيكَةً لِلَّهِ في إلَهِيَّتِهِ، مَعَ أَنَّهُ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ كُلَّ مَا تَعْمَلُونَ، ومِمَّا تَعْمَلُونَ أصْنَامُكُمُ الَّتِي تَنْحِتُونَها، أفَتَعْبُدُونَ المخْلُوقَ الَّذِي لَا إلَهِيَّةَ لَهُ وَتَجْعَلُونَهُ شَرِيكاً لِلْخَالِقِ في إلَهِيَّتِه؟؟.

إنَّ عِبَادَتَكُمْ لِأَصْنَامِكُمْ سَفَاهَةٌ مَا دُونَها سَفَاهَة.

فَلَمَّا غَلَبَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ بالحجَّةِ، ولَمْ يَجِدُوا لِأَنْفُسِهِمْ حُجَّةً مقْبُولَةً فِي الْعُقُولِ يَحتجُّونَ بِها، رَأَوْا أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْهُ بالتَّحْرِيق الْعَلَنِيّ نُصْرَةً لآلِهَتِهِمْ، وَهُنَا يأتي مَا جَاءَ في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

• ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

وَتَشَاوَرَ مَلَأُ قَوْمِهِ عَنِ الكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُحَرِّقُونَهُ بِهَا، وهُنَا يأتي مَا جاء في سورة (الصافات/ ٥٦ نزول):

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾:

أي: اسْتَقَرَّ رأيُهُمْ بَعْدَ التَّشَاوُرِ عَلَىٰ أَنْ يَبْنُوا بُنْيَاناً، كَجِدَارٍ دَائِرِيٍّ، يُرَىٰ مِنْ أَعْلاهُ كَبِئْرٍ مَطْوِيَّةٍ، ويَمْلَؤُوه حَطَباً، ويُوقِدُوا هـٰذا الْحَطَبَ حَتَّىٰ يَكُونَ جَمْراً وَنَاراً مُلْتَهِبَةً، وَأَنْ يُلْقُوهُ فِيهَا بحُضُورِ جماهِيرِ قَوْمِهِمْ، لِيَكُونَ عِبْرَة لِمَنْ يَعْتَبر، فَفَعَلُوا.

الجحيم: كُلُّ نَارٍ عَظِيمَةٍ فِي مَهْوَاةٍ فَهِيَ جَحِيم.

وهُنَا يأتِي قَوْلُ اللهِ الَّذِي جاء في سورة (الأنبياء/ ٧٣ نزول):

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: وأرادُوا بِدَعْوة إبْرَاهِيم مَا يُلْغِيها بتَحْرِيقِهِ ويَمْنَعُ انْتِشَارَها، فَلَمَّا جَعَلْنَا النَّارَ بَارِدَةً عَلَيْهِ، وخَرَجَ مِنْهَا سَالماً لَمْ يَمَسَّهُ من حَرَارَةِ النَّارِ شَيْء، كَانَ مَنْ دَبَّرُوا لَهُ كَيْدَ التَّحْرِيقِ هُمُ الأَخْسَرِينَ، إِذْ أَخَذَتْ مَشَاعِرُ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِ تَعْتَقِدُ بُطْلَانَ الشِّرْكِ، وفَسَادَ عِبَادَةِ الأوثان، وإِنْ بَقِي سُلْطَانُ الدَّوْلَةِ القَائِمَةِ يَوْمَئِذٍ وَثَنِيّاً.

وَجاء في سُورَة (الصَّافَّات/ ٥٦ نزول):

• ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾:

أي: فَجعلْنَاهُمُ المغلوبِين الَّذِينَ سَقَطُوا إِلَىٰ الْأَسْفَلِ في الصراع بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطل، والسَّاقِطُ إِلَىٰ الْأَسْفَلِ بَيْنَ المتصَارِعَيْنِ هو المغْلُوبُ الْخَاسِرُ المخزِيُّ الذَّلِيلُ المحتقر.

وَإِذْ بَقِيَ سُلْطَانُ الدَّوْلَةِ الْكَافِرَةِ في الْحُكْم، وأَدَّىٰ إبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ وَظيفَتَهُ الدَّعَوِيَّةَ عَلَىٰ مَا يُرْضِي الله، وأَمَرَهُ الله أو أذن لَهُ بأَنْ يُهَاجِرَ، قَالَ: اللَّهُمَّ قَدْ بَلَّغْتُ الرِّسَالَةَ، ونَصَحْتُ الأُمَّة، إِذْ جَاء العطف التالي بالواو على مطويّ، وهذا أولى ما يقوله.

- ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾:

أيْ: وَقَالَ لِعَشيرَتِهِ الأَقْرَبِينَ: إنّي ذَاهِبٌ إلَىٰ أرْضٍ غَيْرِ أرْضِكُمْ أَهَاجِرُ إلَيْها، يَخْتَارُهَا لي رَبِّي.

قالُوا: هَلْ تَعْرِفُهَا؟. قَالَ: سَيَهْدِينِي رَبِّي الذي أمرني بالْهِجْرَةِ أو أذِنَ لي بها.

فهاجَرَ عَلَيْهِ السّلام هو وَبَعْضُ أَهْلِهِ، ومِمَّنْ هاجَرَ مَعَهُ ابْنُ أخيه «لُوط» عَلَيْهِ السَّلام، فإِنَّهُ كَانَ قَدْ آمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ، وانْتَهَتْ بِهِ هِجْرَتُهُ بَعْدَ مَرَاحِلَ إلَىٰ الأرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فِيها لِلْعَالَمِين، وهِي أَرْضُ فِلَسْطِينَ، ونَجَّاهُ ونَجَّىٰ لُوطاً مَعَهُ مِن شُرُور قَوْمِهِ ومَكَايِدِهم.

وهُنَا يأتي قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ في سورة (الْأَنبياء/ ٧٣ نزول):

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وكانت «سَارَة» زَوْجَةُ «إبراهيم» عليه السّلام عَقِيماً لَا تُنْجِبُ ذُرِّيَّةً، فَرَغِبَ أَنْ تَكُونَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ، فَدَعا رَبَّهُ قَائِلاً، كما في (الصَّافّات):

- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: رَبِّ هَبْ لِي وَلَداً مِنْ ذُرِّيَّتِي يَكُونُ صَالِحاً مِنَ الصَّالِحِينَ.

فجَرَتْ أَحْدَاثٌ فِي رِحْلَاتِهِ، ومِنْهَا أَنَّهُ مَرَّ علَىٰ أرْضٍ فِيهَا مَلِكٌ جَبَّارٌ، إِذَا أَبْلَغَهُ جُنُودُه بِامْرأةٍ حَسْنَاءَ اصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ، فإذا كَانَ لها زَوْجٌ قَتَلَهُ واصْطَفاها لِنَفسه، فأبْلَغَهُ جُنُودُه، بِوُجُودِ امْرَأة حَسْنَاءَ هِي «سَارَة» زَوْجَةُ إِبْراهيم عَلَيْهِ السَّلام، فاسْتَدْعَاهُما الْمَلِكُ الجبَّارُ إِلَىٰ قَصْرِهِ، فَقَالَ إبراهيم: إِذَا سَأَلَكِ عَنِّي فَقُولِي هو أَخِي، وأنَا أيضاً أقُول: إذا سَأَلَنِي أنْتِ أُخْتِي، فلَمَّا الْتَقاهُما قالَ: هي أختي وقَالَتْ: هو أخِي، فَأَدْخَلَهَا الْمَلِكُ إلى حَيْثُ يَبْتَغِي بِهَا الفاحِشَة، وقام إبراهيم عليه السلام يُصَلِّي، ويَدْعُو رَبَّهُ أَنْ يَعْصِمَهَا مِنْهُ، فلَمَّا أراد الْمَلِكُ أَنْ يَمَسَّهَا عَصَمَها اللهُ ثَلَاثَ مَرَّات بِعِلَلٍ نَزَلَتْ بِهِ كادَتْ تَقْتُلُهُ، فَسَأَلَهَا أَنْ تَدْعُوَ لَهُ وَهُو يَكُفُّ عَنْهَا، فَدَعَتْ له، فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُ مَا نَزَلَ بِهِ، فأهْدَاهَا هدَايَا، وَصَرَفَها، وَكَانَ مِنْ هداياهُ لها أَنْ أَعْطَاهَا «هَاجَرَ» المصريَّةَ خَادِمَةً، فأهْدَتْهَا هِيَ لِزَوْجها لِيُنْجِبَ مِنْها.

فَدَخَلَ بها إبراهيم عليه السّلام، وهُنَا يأْتي مَوْقِعُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ في (الصَّافَّات) عطفاً بالفاء الّتِي تَدُلُّ علَىٰ الترتِيبِ مَعَ التعقيب:

• ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾: فحقق اللهُ البشرى، فولدت هَاجرُ الْغُلَامَ الْحَلِيمَ فَسَمَّاهُ «إسْمَاعِيل» وهو اسْم عِبْرِيٌّ مَعْنَاهُ «يَسْمَعُ اللهُ» وكانَ أوَّلَ ذُرِّيَّةٍ وَهَبَها اللهُ لإبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام.

وهُنَا جَرَتْ أحْدَاثُ نَقْلِهِ مَع أُمِّهِ «هَاجر» إلَى أرْضِ مكَّة، وكانَتْ وادِياً لَا زَرْعَ فِيهِ، وَبأمْرِ اللهِ تَرَكَ الطِّفْلَ وأُمَّهُ عِنْدَ مَكَانِ بَيْتِ اللهِ الحَرام، وَقَدْ مَضَىٰ فِي تَدَبُّراتٍ سَابِقَاتٍ بيانُ مُوجَزٍ مِنْ قِصَّةِ الأُمِّ «هَاجَرَ» وابْنِهَا «إسْمَاعِيل» وسَتَأْتِي إنْ شاءَ اللهُ تفصِيلات أَوسع.

الْغُلَام: هو في اللُّغَةِ الصَّبِيُّ مُنْذُ وِلَادَتِهِ وحَتَّىٰ سِنِّ الْبُلُوغ.

الْحَلِيمُ: هو ذُو الأَنَاةِ، القادر على ضَبْطِ نَفْسِهِ عِنْدَ الْغَضَبِ، أَوْ عِنْدَ

حُلُولِ مَكْرُوه، وهو الَّذِي يَعْقِلُ بإرَادَةٍ قَوِيَّةٍ نَوازِعَ نَفْسِه، وَهُو الَّذِي يَعْفُو وَيَصْفَح.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢)﴾:

أي: فَوَهَبْنَاهُ الْغُلَامَ الْحَلِيمَ الَّذِي بَشَّرْنَاهُ بِهِ، وَنَشَأَ الْغُلَامُ إسماعيلُ نَشْأَةً صَالِحَةً فِي وَادِي مَكَّةَ، عِنْدَ بَيْتِ اللهِ المحَرَّم، وكَانَ أَبُوهُ يَتَعَهَّدُ زِيَارَتَهُ حِيناً فَحِيناً، وَلَمَّا بَلَغَ «إسْمَاعيلُ» السِّنَّ الَّتِي يَسْتَطِيعُ أنْ يَسْعَىٰ فِيهَا مَعَ إبْرَاهيم مُجَاهِدَيْنِ في الدَّعْوَةِ إلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، وَتَعْلِيم النَّاسِ في الْأَرْضِ الَّتِي نَشَأَ فيها إسْمَاعِيلُ أُسُسَ الإيمَانِ وأحْكَامَ السُّلُوكِ وفَضَائِلَ الْأَخْلَاقِ والْآداب.

أَصْلُ السَّعْي: الْعَدْوُ، وهو فَوْقَ المشْيِ الْعَادِي، ويُفِيدُ مَعْنَىٰ الْهِمَّةِ في الْعَمَل بِجِدٍّ ونَشَاطٍ.

لَمَّا بَلَغَ «إِسْمَاعِيل» عليه السَّلام هٰذه السِّنَّ، وكَانَ أَبُوهُ عِنْدَهُ في مَكَّةَ في إحْدَىٰ زِيَارَاتِهِ لَهُ قَالَ لَهُ: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾: أي: يَا بُنَيَّ إنَّ رُؤيَا تَتَكَرَّرُ عَلَيَّ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّنِي مَأْمُورٌ مِنَ اللهِ بأنْ أَذْبَحكَ.

دَلَّ على تَكْرار الرُّؤيَا اسْتِعْمَالُ الْفِعْل المضارع ﴿أَرَىٰ﴾ ولَوْ كَانَتْ رُؤيَا وَاحِدَةً لَقَال: إنِّي رَأيْتُ.

• ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ وفِي القراءةِ الْأُخْرَى: **[فَانْظُرْ مَاذَا تُرِي]** أي: فانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ أنْتَ لِنَفْسِكَ، وأنْظُرْ مَاذَا تُقَدِّمُ لِي مِنْ رَأْي: فَأَسْرَعَ إسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبَيّناً لِأَبِيهِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَام مَا رَأَىٰ.

• ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

فَهِمَ «إسماعيل» عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّ الرُّؤْيا تَتضَمَّنُ تَكْلِيفاً رَبَّانِيّاً يأمُرُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ إسْماعِيلَ الّذي صَارَ قَادِراً على أَنْ يَسْعَىٰ مُجاهِداً مَعَ أَبِيهِ للدَّعْوَةِ إلى اللهِ وتَبْلِيغ الدِّينِ الَّذي اصْطَفَاهُ لِعِبَادِهِ، فَقَالَ لَهُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ وَطَمْأَنَ الابْنُ أَبَاهُ بأَنَّهُ سَيَكُونُ طَائِعاً مُسْتَسْلِماً مُسْتَجِيباً لِأَمْرِ اللهِ، وبِأَنَّهُ سَيَكُونَ صَابِراً من أَهْلِ الإحْسَانِ الصَّابِرِينَ، إذْ كَانَ قَدْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ الاسْتِعْدَادَ لِلاسْتِسْلَامِ التَّامّ، وَلَكِنْ عَلَّقَ أَمْرَ صَبْرِهِ علَىٰ مَشِيئَةِ اللهِ، الْتِزَاماً بالْوَاجِبِ الدِّينِي فِي الوعْدِ بِعَمَلٍ مُسْتَقْبَلِيّ، واسْتِعَانَةً باللهِ وَتَوكُّلاً عَلَيْهِ، حَتَّىٰ يُمِدَّهُ بالصَّبْر، فقالَ لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وَقَدَّمَ التَّعْلِيقَ عَلَىٰ مَشيئَةِ اللهِ عَلَىٰ الوعْدِ بالصَّبْرِ، لِأَنَّ التَّعْلِيقَ علَىٰ مَشيئَةِ اللهِ مُرْتَبِطٌ مُبَاشَرَةً بالإيمان، أمّا الصَّبْرُ فَهُوَ مَطْلُوبٌ فِي السُّلُوكِ مِنْ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ.

وحِينَ اطْمَأَنَّ الْأَبُ «إبْرَاهِيمُ» إلى أَنَّ الابْنَ «إسْمَاعِيل» سَيَكُونُ مُسْتَسْلِماً كَامِلَ الاسْتِسْلَام لِقَيام أَبِيهِ بِذَبْحِهِ طَاعَةً لِأَمْرِ الله، وأَسْلَم «إبْرَاهِيم» أمْرَهُ لِرَبِّهِ كابحاً كُلَّ عَوَاطِفِهِ نَحْوَ وَلَدِهِ، حينئذٍ أَقدَمَ الأبُ لِلْقِيَامِ بِذَبْحِ وَلَدِه، واسْتَجَابَ الابْنُ لِلْأَمْر:

- ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: فَلَمَّا أَسْلَمَ الأبُ والابْنُ أَمرَهُمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، طَاعَةً لَهُ، وامْتِثَالاً لِأَمْره الَّذي جَاءَ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ في رُؤيَا مَنَامِيَّة، فَرُؤْيا الرُّسُلِ حَقٌّ.

وَتَلَّهُ لِلْجَبِينَ: أي: أَلْقَىٰ الْأَبُ «إبراهيمُ» الابْن «إسْمَاعِيلَ» عليهما السلام عَلَىٰ عُنُقِهِ وَخَدِّهِ، وجعَلَ جَبِينَهُ أَيْ: أَحَدَ جَانِبَيْ جَبْهَتِهِ عَلَىٰ الْأَرْض، وقَبَضَ عَلَىٰ مِقْبَضِ سِكِّينِهِ لِيُنَفِّذَ الْأَمْرَ الرَّبَّانِيَّ. وفِي «التَّلِّ» مَعْنَىٰ الشِّدَّةِ، كَمَا يَتُلُّ المصارع نِدَّه.

وكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ إذْ أَسْلَمَا وأَطَاعَا، وأتَمَّا امْتِحَانَهُمَا بِنَجَاحٍ بَاهِرٍ، أَنْ يُوقِفَ اللهُ التَّنْفِيذ، إذْ لَمْ يَكُنْ فِي تَقْدِيرِه وقَضَائِهِ أَنْ يَذْبَحَ الوالِدُ الرَّحِيمُ ولَدَهُ الْحَلِيمَ، إنَّمَا كَانَ الغَرَضُ امْتِحَانَهُمَا، وَقَدْ نَجَحَا فِيهِ نجاحاً عَظيماً، أوقَفَ اللهُ تَنْفِيذَ الذَّبْحِ، وهٰذا فيما أَرَىٰ جَوابُ «لَمَّا» المطويّ في المثاني.

■ قَالَ اللهُ تَعالَىٰ:

• ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧﴾:

إنَّ إيقَافَ تَنْفِيذِ الذَّبْحِ بأمْرٍ رَبَّانِيٍّ، رُبَّما كَانَ مُوجَّهاً مِنْ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السّلام، تَبِعَهُ نِدَاءٌ، تَفْسِيرُهُ: يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، أَيْ: إنَّ التَّكْلِيفَ فِي الرُّؤْيَا كَانَ ذَا حَدٍّ يَقِفُ قَبْلَ تَنْفِيذِ الذَّبْحِ بإدْخَالِ حَدِّ السِّكِّين فِي الْمَذْبَحِ مِنَ الرَّقَبَةِ، وَقَدْ طَابَقَ مَا فَعَلَهُ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا جَاءَ في الرُّؤْيَا التَّكْلِيفِيَّةِ فَصَدَّقَهُ، وبهٰذَا انْتَهَتْ حُدُودُ التكليفِ، وَقَدْ كَانَ هو وابْنُهُ مِنَ الْمُحْسِنينَ تَسْلِيماً لِلَّهِ، فالأَبُ قَدْ قَهَرَ أَعْظَمَ عَواطِفِهِ طاعَةً لِأَمْرِ رَبِّه، والابْنُ قَدْ قَهَرَ حُبَّهُ لِلْحَياة، فأَسْلَمَ نَفْسَهُ لِلذَّبْحِ كَمَا تُذْبَحُ الشَّاةُ، طاعَةً لأمْرِ رَبِّهِ، وانْتَهَتْ بِمَا فعَلَا حُدُودُ التكْلِيفِ.

• ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: أَيْ: قَدَّرْنَا وَأَمَرْنَا بإيقَافِ عَمَلِيَّةِ الذبْحِ جزَاءً مُرْضِياً لَهُمَا وَسَارّاً لِقُلُوبِهِما، وكذلِكَ الجزَاءِ السَّامِي الذي أَنْعَمْنَا به عَلَيْهِمَا نَجْزِي سَائِرَ الْمُحْسِنِينَ، الَّذِينَ يُحْسِنُونَ مِثْلَ إحْسَانِهِمَا.

• ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦﴾: أي: إنَّ هٰذا الامتحان الذي امْتَحَنَّا بِهِ إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ، لَهُوَ الامْتِحَان الْجَلِيُّ الظَّاهر، الَّذِي اجْتَازَهُ كُلٌّ مِنْهُمَا بنجاحٍ بَاهِرٍ، ووصف البلاء بأَنَّهُ مُبِينٌ للدَّلَالَة علىٰ أَنَّهُ لَا يخفَىٰ على أحد.

وجَاءَ تَوكيد هٰذه الجملة بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية، ولام الابتداء المزحْلَقة لِلْخبر».

• ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾: أي: وفدَيْنا إسْمَاعِيلَ إذْ أوْقَفْنَا الذَّبْحَ عِنْدَ بِدَايَتِهِ بِذَبْحٍ عَظِيم. أي: بِمَذْبُوحٍ عَظِيم، رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رضي اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَال: بِكَبْشٍ أَبْيَض أعْيَنَ أقْرَنَ، قَدْ رُبِط بِسَمُرَةٍ، أي: بشَجَرَةٍ مِنْ أشْجَارِ السَّمُر.

ويَظْهَرُ أَنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ أَنْ يَذْبَحَ هـٰذا الذِّبْحَ الكَبِيرَ، بَعْدَ أَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ قَدْ صَدَّقَ الرُّؤيَا، وأُمِرَ بأَنْ لَا يُتِمَّ ذَبْحَ وَلَدِه، وأخَذَ الكَبْشَ مِنْ مَرْبَطِهِ فَذَبَحَهُ، وَكَانَ فِدَاءً مِنَ اللهِ لِوَلَدِهِ إسماعيل عليهما السَّلام.

• ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾:

هـٰذا السّلام على إبْراهيم هو تحيَّةٌ يَدْعُو بها المرسَلُونَ وأتْبَاعُهُمْ، فَمَنْ سَلَّمَ على إبراهيم، أو على أيّ رسُولٍ كُتِبَ لَهُ بذلك أجْرٌ، لأنَّهُ تعليمٌ مَشْرُوع أشْعَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالنَّدْب إلَيْهِ، بعِبارة: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾.

ومثل هـٰذا الجزاء يَجْزي اللهُ بِهِ سَائِرَ الْمُحْسِنِين، الَّذِين ارْتَقَوْا بأعْمَالِهِمْ وَنِيّاتِهِمْ إلى مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، وهي أعْلَىٰ مَرَاتب المؤمنين، كما سَبَقَ بيانه.

ووصف الله عَزَّ وَجَلَّ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السّلام بأنَّهُ مِنْ أهْلِ كمال الإيمان، فقال تعالى بضمير المتكلّم العظيم: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ ومثل هـٰذا الثَّناء بعد الإشعار بأنَّهُ مِن المحسنين يَدُلُّ على أنّ (ال) في لفظ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هي للكمال، أي: المؤمنينَ الكامِلين في إيمانهم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾:

أي: وبَشَّرْنَاهُ بِوَلَدٍ مِنْهُ ومِنْ زَوْجَتِهِ «سَارة» يَكُونُ نَبِيًّا من أنْبِيَاء اللهِ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، ويَكُونُ مِنَ الصَّالِحِينَ الذين هُمْ مِنْ أَهْلِ كمالِ الْإِيمَانِ والْعَمَل الصّالح.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾:

الْبَرَكَةُ: الكَثْرَةُ مِنْ كُلّ خَيْر.

أي: وأَنْعَمْنَا علَىٰ إبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ وَلَدِه إسْحَاقِ بخَيْرَاتٍ كثيراتٍ مِنَ المادّيَّاتِ والْمَعْنَويات.

ووصَفَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَا تَنَاسَلَ مِن ذُرِّيَّاتِهِما بأَنَّهُمْ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ أو دَرَكات، فأَفْضَلُهُمْ مُحْسِنٌ، أَيْ: مِنْ أهْلِ دَرَجَةِ الإحْسَان. وأَحَطُّهُمْ دَرَكَةً ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ، واضِحٌ في انْحِطَاطِهِ إلى أسْفَلِ سَافِلِينَ، وسَائِرُهُمْ عَلَىٰ دَرَجاتٍ أَوْ دَرَكَاتٍ بَيْنَ دَرَجَةِ الْمُحْسِنِ، ودَرَكَةِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ المبين.

وبهٰذا انتهى تَدَبُّر الفصل الثاني من الدَّرس الثالث مِن دروس سورة (الصَّافَّات). والحمد لله على معونته ومدده وتوفيقه وفَتْحه.



التدبُّر التحليلي للفصل الثالث من الدرس الثالث من دروس سورة (الصَّافات) الآيات من (١١٤ ـ ١٢٢)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ

مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

القراءات:

(١١٨) • قرأ قُنْبل، ورُوَيْس: [**السِّراط**] بالسّين.

وقرأها خَلَفٌ عن حمزة بإشْمَام الصّادِ صَوْتَ الزاي.

وقرأها باقي القرّاء العشرة [**الصِّرَاطَ**] بالصّاد الخالصة.

(١١٩) • قرأ يعقوب: [**عَلَيْهُمَا**] بِضَمّ هاء الضّمِير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِكَسْرِ هاء الضّمِير: [**عَلَيْهِمَا**].

تمهيد:

في هٰذا الْفَصْلِ بَيَانُ ما امْتَنَّ اللهُ بِهِ على مُوسَىٰ وأخِيهِ هارونَ عَلَيْهِمَا السلام، ونُصْرَتِهِمَا وَنُصْرَةِ بَنِي إسْرَائيلَ على فرعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهِمْ، وأَنَّ اللهَ آتاهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبِينَ، وهو التوراة، وَتَرَكَ عَلَيْهِما مثْلَمَا تَرَكَ على سائِرِ المرسَلِينَ مِنْ سَلامٍ، وأثْنَىٰ عليهما بالإحْسَان، وبأنهما من عباده المؤمنين.

التَّدَبُّر التَّحْلِيلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾:

في هٰذه الآياتِ تَنْبيهٌ عَلَىٰ مِنَنِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ الكَثِيرَةِ الَّتِي امْتَنَّ عَلَيْهِما بها، مُتَحَدِّثاً بِضَمِير المتكَلِّمِ الْعَظِيم، وقد سَبَقَ تَفْصِيلُ بَعْضِ هٰذِه الْمِنَنِ في نجوم التنزيل.

• ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾: أي: ونُؤكّدُ للمتلَقِّي أنَّنا أنْعَمْنا وأَحْسَنَّا.

الْمَنُّ: الإنْعامُ والإحْسَان، يقال لغةً: «مَنَّ عَلَيْهِ، يَمُنُّ، مَنّاً» أي: أَنْعَمَ عَلَيْهِ نِعْمَةً طَيِّبَةً، وأَحْسَنَ إلَيْهِ بِعَطَاءٍ، ويظهر أنّ المنَّ يُسْتَعْملُ في الإنعام العظيم بالنِّسبَةِ إلى المنْعَم عليه.

• ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾: أي: علَىٰ الأخوَيْنِ النَّبِيَّيْنِ الرَّسُولَيْنِ، مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وهَارُون عَلَيْهِ السَّلام.

وقَدْ كانَتْ مِنَنُ اللهِ عَلَيْهِمَا كَثِيرَةً وجَلِيلَة، مِنْها أَنَّهُ تَبارَكَ وتَعالَىٰ اصْطَفَاهُما بِالنُّبُوَّةِ والرّسَالَة، وآتاهُمَا الآياتِ التِّسْعَ شهادة مِنْهُ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ علَىٰ أَنَّهُما نَبِيَّانِ ورسُولَانِ صَادِقانِ حقّاً، يُبَلّغَانِ رِسَالَاتِ رَبِّ العالَمين. إلى مِنَنٍ كَثِيرَة جاء تَفْصِيلُ بَعْضِها فِي نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ أُخْرَىٰ.

• ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾: أي: وخَلَّصْنا مُوسَىٰ وهَارُونَ وقَوْمَهُما بَنِي إسْرَائِيل.

• ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾: أي: من الشِّدَّةِ الضّاغِطَةِ عَلَيْهِمْ المنْزِلَةِ بهم حزْناً وغَمّاً، وهي الشدّة الّتي كان فِرْعَوْنُ وآلُهُ وجنودُهُ يُعامِلُونَ بني إسْرَائيل بها، إذْ يَعْتَبِرُونَهُمْ في مِصْرَ بمَثابَةِ الْعَبيد.

الكَرْب: هو في اللّغة الحزْنُ والغمّ يأخُذُ بِالنفس، كأنَّ حبلاً أُبْرِمَ عَلَيْها وشُدَّ. وَيَظْهَرُ أنّ أصْلَ الاسْتِعمالِ مأْخوذٌ من كرْبِ الْحَبْلِ، وهو شَدُّهُ وفَتْلُهُ، ومَعْلُومٌ أنَّ الْفَتْلَ يَجْعَل الأجْزَاءَ تتضاغَطُ فَتُؤلِمُ ذا الإحْسَاس بالألم.

• ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾: أي: ونَصرْنَا مُوسَىٰ وهَارُونَ وبني إسْرَائيلَ مَعَهُما، بِتَنْجِيَتِهِمْ بِفَلْقِ الْبَحْرِ لَهُمْ، وجَعْلِهِمْ يمُرُّون على اليابسَةِ في قاع مَكَان الْفَلْقِ بِسَلام، وَبإغرَاقِ فِرْعَوْنَ وجَيْشِهِ الّذِي خَرجَ مَعَهُ وراءَ بني إسرائيل، فكانُوا هُمُ الْغَالِبين لأعدائهم بتَدَخُّلِ الخارِقِ الرَّبَّانِيِّ الْعَجِيب، دونَ أَنْ يكُونَ مِنْ بَنِي إسْرَائيل قِتَالٌ لأعْدَائهم، ولا مُواجَهَةٌ لَهُمْ بحَرْبٍ أوْ دِفَاع.

• ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾: أي: وآتينا مُوسَىٰ وهارونَ عليهما السَّلامُ التوراةَ الّذي هو كِتَابٌ مُسْتَبِينٌ.

المُسْتَبِينُ: أي: الظَّاهِرُ الْوَاضِحُ وُضُوحاً شَدِيداً، فَلَا غُمُوضَ فِيه، ولَا غَبَشَ عَلَيْه.

• ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾: أي: وهَدَيْنَا مُوسَىٰ وهَارُونَ بِمَا أنْزَلْنَا عَلَيْهِما الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ الّذِي لا عوجَ فيه، وهو الصِّرَاطُ الَّذي رَسَمْنَاهُ وَبيَّنَّاهُ لِعِبَادِنا المُحْسِنِينَ والأبرارِ والمتَّقِين، لِيَتَّبِعوه في مَسِيرَة حَيَاةِ الامْتِحَانِ، ضِمْنَ ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

أصل الصراط: الطريقُ الواضِحُ الجلِيُّ، وأُطْلِقَ في الاصْطلاح الدينيّ على تعليمات الحقّ والْعَدْل والخير، والبرّ والإحسان والتقوى، وفضائل السُّلُوكِ، ومَكارِمِ الأخلاق.

يقال لغة: «هدَاهُ الطَّرِيقَ، وهَدَاهُ إلَيْه، وهدَاهُ لَهُ» أي: دلَّهُ عَلَيْه، وبَيَّنَهُ له، وأرشَدَهُ إلَيْه، وعرَّفَهُ به.

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

هٰذه الآيات مُشَابِهَاتٌ لِمَا جَاءَ في السُّورَةِ قَرِيباً بشَأْنِ نوحٍ عليه السلام، فَبِشَأْنِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام.

فلا دَاعِي للتدبُّر التحليليّ لهٰذه الآيات، إذْ يُغْنِي عَنْهُ التحليل الّذي سَبَقَ آنِفاً بشأنِ نوحٍ وإبْرَاهِيمَ عليهما السلام.

ويُلاحظُ أنَّهُ قد جاءت بشأن نوح ومُوسَىٰ وهارون عليهم السلام عبارة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أمَّا مَا جاء بشأن إبراهيم عليْهِ

السّلام، ففِي شَأْنِ الفداء: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ وفي شأن تَرْكِ السَّلام عَلَيْهِ في الآخِرينَ، فَقَدْ جَاءَتِ العبارة فيه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ويَبْدُو لي أَنَّ زِيادَة التوكيد في: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ لُوحِظَ فيها مَزِيدُ العِنَايَة بشَأْنِ مَنْ كَانَ ذَا إحْسَانٍ زائِدٍ في جِهاده وصَبْرِه، وبشأن الحالَة الّتي يكونُ فيها ذا إحْسَانٍ زائد.

وبهٰذا انتهىٰ تدبر الفصل الثالث من الدرس الثالث من دروس سورة (الصافات). والحمد لله على معونته ومَدِه وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

التدبر التحليلي للفصل الرابع من الدرس الثالث من دروس سورة (الصّافات) الآيات من (١٢٣ ـ ١٣٢)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

القراءات:

(١٢٣) • قرأ ابن ذَكْوانَ في إحدى قراءتَيْنِ لَهُ: **[وَإِنَّ لْيَاسَ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وإِنَّ إلْيَاسَ]** وهو الوجْهُ الثاني لابْنِ ذَكْوان.

«لْيَاس» و«إلْيَاس» نُطْقَانِ لاسم هـٰذا الرسُول عليه السلام.

(١٢٦) • قرأ حفْص، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف: **[اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ]** بالنَّصْب.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[اللَّهُ رَبُّكُم وَرَبُّ]** بالرفع، على أنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدأ محذوف، تقديرُهُ: هو اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ.

والقراءتان وجْهانِ عَرَبِيّان جائِزَان.

(١٢٨) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامر، ويعقوب: **[الْمُخْلِصِينَ]** بكسر اللام اسم فاعل.

وقرأها باقي القراء العشرة بفتح اللّام: **[الْمُخْلَصِينَ]** اسم مفعول.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، كما سَبَقَ بيانُهُ في الآية (٤٠).

(١٣٠) • قرأ نافع، وابْن عامر، ويعقوب: **[عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[عَلَىٰ إلْيَاسِينَ]**.

وهما نطقان عند العرب.

تمهيد:

في هـٰذا الفصل بيان مُوجَزٌ عَنْ دَعْوَةِ إلْياس علَيْهِ السّلام لِقَوْمِهِ، وما امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ.

تعريف بالرسول إلياس عليه السلام:

سبق ذكر إلياس في الآية (٨٥) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول)، وسبق بيانٌ مُوجز عَنْه، وأَبان اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنّه من المرسلين.

لم يتفق المُؤَرِّخون على نَسَبٍ مُنْضَبِطٍ له، وذَكَر الطبريُّ له النَّسَبَ التالي:

«هو إلْيَاسُ، بْنُ يَاسِينَ، بْنِ فِنْحاص، بنِ العِيزَار، بن هارون» فهو على هـٰذا من ذُرِّيَّةِ هارون عليه السلام، فهو من بني إسرائيل، ويُسَمَّىٰ عنْد الإسْرَائيلِيِّينَ: «إِيليَّا» وهو اسم عِبْرِيٌّ مَعْنَاهُ: «إِلَٰهي يَهْوه». واسْمُهُ في الْيُونانِيَّةِ والعربيَّة: «إِلْيَاس» ولَهُ عند الإسْرَائِيلِيّين عِدَّةُ أخْبَار.

ومن أخباره عند الإسرائيليّين:

(١) عاشَ في جَلْعَاد، وكان عادةً يَلْبَسُ ثوباً من الشعر «=مُسُوحاً» ويَلْبَسُ مِنْطَقَةً مِنَ الْجِلْد.

(٢) كان يقضي كثيراً مِنْ وَقْتِهِ في الْبَرِّيَّة.

(٣) وقَدْ عَبَدَ شَعْبُ بني إسرائيل «الْبَعْل» وهو إلَٰه كَنْعَانِيٌّ ولَهُ وَثَنٌ مَعْروف، اكْتُشِفَ في «أوغاريت» بسُورية، وكانت عبادة «الْبَعْلِ» مُنْتَشِرَةً بين أهالي المشرق في الزمان القديم، وكان لِلْبَعْلِ كَهَنَةٌ كَثِيرونَ يَخْدَعُونَ الناس بِسِحْرِهِم وشَعْوَذَتِهِم وأعْمَالٍ كَثِيرَةٍ يَنْسُبُونَها لإلَٰهِهِم.

ولمَّا عَبَدَ شَعْبُ بني إسْرَائيل الْبَعْلَ، تنبّأ إيليَّا بأنّ الله سيَمْنَعُ المطَرَ عَنْ بَنِي إسرائيل، واعْتَزَلَهُمْ، وذَهَبَ إلى نَهْرِ كريت، وكانت الْغِرْبَان تأتيهِ بالطعام.

(٤) أجرى اللهُ لَهُ عِدَّةَ خَوارِقَ عَلَىٰ ما ذكَرُوا[1].

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾:

---

(١) أخذاً من «قاموس الكتاب المقدس».

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهـٰذِه الآيَة أَنَّ «إِلْيَاسَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولٌ مِنَ الْمُرْسَلِين، أي: فَهُوَ نَبِيٌّ أَيْضاً لِأَنَّ كُلَّ رسُولٍ هُوَ نَبِيٌّ. والتوكيد جاء بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة».

والمؤَكَّدُ لهم بِهـٰذِهِ المؤكداتِ الّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُ نَبيٌّ لَا رسُول، أمّا المؤمِنُون المسْلِمُون فإنَّهم يُؤْمِنُونَ بِخَبَرِ اللهِ ولو كان خالياً مِنْ أيّ تَوْكيد.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾:

أي: ضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّها المُتَلَقِّي لِهـٰذَا البيان دَعْوَةَ إلياسَ لِقَوْمِهِ حِينَ قَال لَهُمْ بأسْلُوبِ الْعَرْضِ الرَّفيق مع الإلحاح.

● ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: أي: ألَا تَتَّقُونَ عَذَابَ اللهِ الَّذِي أَنْذَرَ بِهِ الْمُشْرِكين.

«أَلَا» هُنَا لِلْعَرْضِ، وقَدْ تَدلُّ على مَعْنَىٰ التَّحْضِيضِ.

● ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾: أي: أَتَعْبُدُونَ إلَـهاً باطلاً تَتَّخِذُونَ لَهُ وثناً، وتُسَمُّونَهُ «بَعْلاً». أُطْلِقَ الدُّعَاء في القرآن كثيراً عَلَىٰ معْنَىٰ العبادة، لأنَّ الدُّعَاءَ أوّلُ عبادات المعبود.

● ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: أي: وتتركُونَ عِبَادَةَ اللهِ أَحْسَنِ الْخَالِقِينَ، والْمُرادُ بِالْخَالِقِينَ هُنَا الْمُقَدّرُونَ، الَّذِينَ يُعْطُونَ أجْزَاءَ الشَّيْءِ مَقاديرَها بالنِّسْبَةِ إلَىٰ جُمْلَتِهِ الْكُلِّيَّة. واللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهـٰذا المعنَىٰ أَحْسَنُ المقدّرين.

أمّا الْخَلْقُ بمَعْنَىٰ ابْتداعِ الشيء من الْعَدَم، فَهُو ممَّا انْفَرَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، فلَا أَحَدَ غَيْرُ اللهِ يَبْتَدِعُ من الْعَدَم.

ويَظْهَرُ أَنَّ عَابِدي الْبَعْلِ يَرَوْنَهُ ذَا تَقْدِيراتٍ حَسَنَةٍ في شُؤُونٍ كثيرة من شُؤُونِ الحياة الدُّنيا، فَبَيَّنَ لَهُمْ إلياسُ عَلَيْهِ السلام أنَّ اللهَ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ جَمِيعاً، فَهُو الَّذي تَجبُ عبادَتُهُ وَحْدَه.

• ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٢٦﴾:

أي: وَتَتْرُكُونَ اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، فَلَا تَعْبُدُونَه، هذه العبارة بَدَلٌ من عِبَارَةِ: ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ على قراءة النَّصْبِ، فَالاسْتِفْهام الإنْكَارِيُّ عليهم، والتعجيبيُّ من أمْرِهِمْ مُنْسَحِبٌ عَلَيْها.

تَذْكِيرُهُمْ بِرُبُوبيَّةِ اللهِ لَهُمْ ولآبَائِهِمُ الأوَّلِينَ حتَّىٰ جَدِّهِمْ آدمَ عَلَيْهِ السَّلام، يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ إلْيَاسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أبَانَ لَهُمْ أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ المتَصَرِّفُ بكُلِّ أمُورِهِمْ، بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ الشَّامِلَةِ لِمُعْظَم أسمائِه الحسنَىٰ، فَلَا شيءَ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ إلَّا هُوَ خَاضِعٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ، إيجاداً وإعْداماً إلَىٰ سَائِرِ التصاريفِ، وأنَّهُ لَا أَحَدَ في الوجود كُلِّهِ يُشَارِكُ اللهَ فِي رُبُوبِيّتِهِ لِلْكَوْنِ، فالْإلَهِيَّةُ حَقُّهُ وَحْدَهُ، فَمَنْ عَبَدَ مع اللهِ إلَهاً آخَرَ كَانَ مُشْرِكاً ظَالِماً لِحَقِّ رَبِّهِ عَلَيه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨﴾:

أي: فَكَذَّبَهُ مُعْظَمُ قَوْمِهِ، ولم يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ، في نَبْذِ عبادَةِ «الْبَعْلِ» وفي وجُوبِ الْتِزامِ عبادَةِ اللهِ وحْدَهُ لا شريكَ له.

فإنَّهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ رَبِّهِمْ لَمُحْضَرُونَ في عَذَابِ نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين.

كَلِمَةُ: «مُحْضَرُونَ» جاءَت في القرآن المجيد غالباً بمعنى الإحضار في دار العذاب يَوْم الدّين أو الإحضار لموقف الحساب وفصل القضاء.

أصْلُ معْنَىٰ الإحضار السَّوْقُ قهراً، وهـٰذا يكونُ في الغالِبِ لمسُوقٍ ظالمٍ آثم، لتعذيبه، أو لمحاسَبَتِهِ والحكم عليه بجرائمه.

إلَّا عِبَادَ اللهِ المُخلَصِينَ بفتح اللَّام، والمخْلِصِينَ بِكَسْرِ اللَّام فإنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنَ المُحْضَرِينَ قَهْراً لِتَعْذيبِهِمْ، بَلْ يُسَاقُونَ مُكَرَّمِينَ لِجَعْلِهِمْ مِنْ أَهْلِ دَار النعيم.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾:

هـٰذه الآياتِ مُمَاثِلَات لما جاء في السورة بشأن نوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، ولما جاء بشأن موسَىٰ وهارون علَيْهِما السَّلام، وقَدْ سبَق تَدَبُّرها فلا حاجَةَ إلَىٰ الإعادة.

أمَّا لفظ: **[إل يَاسِين]** وفي القراءة الأُخْرَىٰ: **[آلِ يَاسِينَ]** فقد يكونُ من الألْفَاظِ الَّتِي اشْتَهَرَتْ في قَوْمِهِ عَنِ اسْمِ «إلْيَاسَ» علَيْهِ السلام، وقَدْ يَكُونُ من الألْفَاظِ الّتِي اشْتَهَرَتْ فِي قَوْمِهِ عَنْهُ وَعَمَّنْ نَاصَرَهُ للتَّخَلُّص مِنْ سَدَنَةِ «بَعْلٍ» بِقَتْلِهِمْ، وَكانَ فيهم «آلٌ» لَهُ ومُؤَيِّدُون لَهُمْ.

وقد جاء بَيَانٌ عَنْ سَعْيِهِ لِقَتْلِهِمْ عِنْدَ الإسْرَائيليّين.

والسَّلامُ علَىٰ آلِ يَاسِينَ المؤمنين بِهِ الّذِينَ نَصَرُوه يَسْتَلْزِمُ السَّلامَ على «إلياس» عقلاً من بَابٍ أوْلَىٰ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الرابع من فصول الدرس الثالث من دُروس سورة الصافات.

والحمد لله علىٰ مَدَدِهِ ومَعُونَتِهِ وتوفيقِه وفتحه.

❊ ❊ ❊

التدبر التحليلي للفصل الخامس من الدرس الثالث من دروس سورة (الصافات) الآيات من (١٣٣ ـ ١٣٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

تمهيد:

في هٰذه الآياتِ بيانٌ مُوجَزٌ جدّاً عَنْ نَصْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلام، وأهْلَهُ إلَّا امْرَأتَهُ الْعَجُوز الَّتِي كانت كافِرَةً مع قَوْمِها، وعَنْ تَدْمِيرِهِ كُفَّارَ قَوْمِهِ أهْلِ سَدُوم، مَعَ تَذْكِيرِ كُفَّارِ مَكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيل بأنَّهُمْ يَمُرُّونَ في أسْفَارِهِمْ على مَكَانِ إهْلاكِهِمْ عِنْدَ الصَّباحِ أَوْ في اللَّيل، وهو الْبَحْرُ الميّتُ.

وقد سبقت دِراسَةٌ تَكَامُلِيَّةٌ للنُّصُوص القرآنية المتعلّقَةِ بِشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام وقومه، في المَلْحَقِ الخامس من ملاحق تَدَبُّر سُورَة الْأَعْرَاف، فأقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَحْلِيلِ آيات هٰذا الفصل.

التدبُّر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

يؤكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحْلَقَة» أنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلام قد كَانَ نَبِيّاً وَرَسُولاً.

وقد سبَقَ بيان أنَّ اللهَ قَدْ أَرْسَلَهُ إلَىٰ سُكَّان أَرْضِ سَدُوم، الذينَ

كانت لَهُمْ قبائح كثيرة، ومِنْهَا أَنَّهُمْ كانُوا يأتُونَ الذُّكْرَانَ من الْعَالَمِين، وكانُوا يُجاهِرُونَ بذلك بوقَاحَةٍ، وكانُوا مُسْرِفِينَ في قَبَاحَاتِهِمْ إسْرَافاً لَمْ يَبْلُغْ إلى مِثْلِهَا أَحَدٌ من أَهْلِ الْفُجُورِ والطُّغْيان، والْفِسْقِ والْعِصْيان.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾:

أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المُتَلَقِّي الحدَثَ وعِبْرَتَهُ حِينَ نَجَّيْنَا لُوطاً وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إلَّا عَجُوزاً هِي زَوْجَتُهُ الكافِرَةُ الَّتِي كانَتْ علَىٰ هَوَىٰ قَوْمِها، كائِنَةً فِي الغابِرِينَ الْهَالِكِين.

الغابر: يأتي في اللُّغَة بِمَعْنَىٰ الماكِثِ الَّذِي لَا يَتَحَوَّل، ويأْتي بمَعْنَىٰ الماضِي الذَّاهِب الّذي لم يَبْقَ لَهُ وجُود. ويَصْلُحُ هُنَا المعْنيَان، فَقَدْ كانت امْرأة لوطٍ الْعَجُوزُ في الماكِثِينَ فِي أَرْضِ قَوْمِهَا بإهْلَاكِهَا فيها، وفي الماضِين الذَّاهِبِينَ الْمُهْلَكِينَ الَّذِين لَمْ يَبْقَ لَهُمْ وُجُودٌ فِي الحياةِ الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾:

أي: وبَعْدَ أَنْ نَجَّيْنَا لُوطاً وَأَهْلَهُ إلَّا امْرَأتَهُ، وأوصَلْنَاهُم إِلَىٰ أَرْضٍ آمِنَةٍ لَا تَنْزِلُ عَلَيْها المهْلِكات المدمِّرات، ومَنَحْنَاهُمْ مُهْلَةً زَمَنِيَّةً للاستقرار الآمِنِ، دَمَّرْنَا الآخَرِينَ وهُمْ كُفَّارُ قَوْمِهِ.

التَّدْمِير: هو الإهْلَاكُ بِاسْتِئصال، مع مَحْوِ المبانِي وآثارِهَا حتَّىٰ لَا يُرَىٰ مِنْها شيء. وأصْلُ التَّدْمِير: تَحطِيمُ الشيْءِ المُدَمَّرِ على وَجْهٍ لَا يُرجَىٰ بَعْدَهُ صَلَاحُهُ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً لِكُفَّارِ مَكَّةَ إبَّان التَّنْزِيل:

• ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

أي: وَإِنَّكُمْ أَيُّها الكُفَّارُ المعانِدُونَ الْمُصِرُّون على كُفْرِكُم، والمكَذِّبُونَ رَسُولَ رَبِّكُمْ فِيما يُبَلِّغُكُمْ مِنْ إنْذارِنا لَكُمْ بإهْلَاكٍ كَمَا أهْلَكْنا مُكَذِّبِي رُسُلِ رَبِّهِمْ مِنْ قَبْلِكُمْ، لَتَمُرُّونَ فِي أَسْفارِكم فِي تِجارَاتِكُمْ إِلَىٰ أَرْضِ الشَّام، عَلَىٰ الأرضِ المشْرِفَةِ علَىٰ الْبَحْرِ الميِّتِ، حَيْثُ جَعلْنا قُرىٰ قَوْمِ لُوطٍ مَدْفُونَةً فِي قَاعِ هَـٰذا الْبَحْرِ بَعْدَ أَنْ عذَّبْنا وَأهْلَكْنا كُفَّارَهَا فِيها.

ويَكُونُ مُرُورُكُمْ هَـٰذا عَلَيْها فِي أسْفَارِكُمْ حالَةَ كَوْنِكُمْ مُصْبِحِين، أي: دَاخِلِينَ في الصَّباحِ، أو حَالَة كَوْنِكُمْ بِاللَّيْل قَبْلَ طُلُوع الْفَجْر.

وَيَظْهَرُ أَنَّ مَسِيرَهُمْ فِي أَسْفَارِهِمُ التِّجاريَّةِ إِلَىٰ أَرْضِ الشَّام، قَدْ كَانَ مُقَدَّراً تَقْدِيراً يَجْعَلُهُمْ يَصِلُونَ إِلَىٰ جوار الْبَحْرِ الميّتِ في الصَّبَاحِ أَوْ باللَّيْلِ، بِحَسَبِ المراحِلِ والمنَازِلِ الَّتِي يَحُطُّونَ فِيها وَيَرْحَلُونَ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! اسْتِفْهَامٌ إنكارِيٌّ وَتَعْجِيبِيٌّ، عَنْ عَدَمِ تَعقُّلِهِمْ، بِعَدَمِ إدْرَاكِ العِبْرَة، وَعَدَمِ ضَبْطِ أَهْوَائِهِمْ وشَهَوَاتِهِم بإرادَةٍ واعِيَةٍ عَاقِلَةٍ.

وَيَتَضَمَّنُ هـٰذا الاسْتِفْهامُ حَثَّهُمْ على أَنْ يَعْقِلُوا عَقْلَ إدْرَاكٍ لِلْعِبْرَة، وعَقْلَ إرادَةٍ حَازِمَة.

العقل هُنَا: يَتَناوَلُ الْعَقْلَ الْعِلْمِيَّ الْفِكْرِيَّ، والْعَقْلَ الإرادِيَّ الَّذي يَجب أَنْ يَعْقِلُوا به أهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ وَنَزَعَاتِهِمْ ونزَغَاتِ شياطِينِهِم عَنِ الشُّرُودِ إلى مَهَاوِي هَلَاكِهِمْ.

وبهـٰذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الخامس من الدرس الثالث من دُروس سورة (الصّافات). والحمد لله على مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتَوْفيقه، وفَتْحِه.

❁ ❁ ❁

التدبر التحليلي للفصل السادس من الدرس الثالث
من دروس سورة (الصَّافات)
الآيات من (١٣٩ ـ ١٤٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

القراءات:

(١٤٢) • أسْكَنَ الْهَاء مِن [وَهْوَ] قالُون، وأَبُو عَمْرٍو، والكِسَائي، وأبو جَعْفر.

وقرأها باقي القراء العشرة بِضَمّ الهاء: [وَهُوَ].

وهُمَا لغتان عَرَبِيّتان.

(١٤٧) • قرأ أبُو جَعْفر: [مِيَةِ] وَكَذَلِكَ قرأَهَا حَمْزَةُ في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مِائَةِ].

وهما نطقان عَرَبيان.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الفصل لقطاتٌ مُوجَزَاتٌ مِنْ قِصَّةِ يُونُس عَلَيْهِ السّلام، مع بَيَانِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ، إِذْ تَرَكَ قَوْمَهُ مُغَاضِباً وانْصَرَفَ عَنْهُمْ باجْتِهَادٍ مِنْهُ، دُونَ إِذْنٍ لَهُ مِنْ رَبِّهِ بذلِكَ، وظاهِرٌ أَنَّ في ذِكْرِ مَا تَعَرَّضَ لَهُ تَلْوِيحاً بِأَنَّ

عَلَىٰ حَامِلِ رِسَالَةِ رَبِّهِ المكلَّفِ، أَنْ لَا يَتْرُكَ قَوْمَهُ مُهَاجِراً ما لَمْ يأمُرُهُ اللهُ بذلِكَ، أو يأذَنْ لَهُ به.

مقدمة عامة حَوْلَ يونس عليه السلام وقومه:

(١) يونُسُ هو ابْنُ متَّى، قالوا: «متَّىٰ» هِيَ أُمُّه ولم يُنْسَبْ إلى أمِّهِ من الرُّسُل غَيْرُهُ وغيْرُ عِيسى عليهما السلام.

(٢) ويُسَمَّىٰ عند أهل الكتاب: «يُونَان بن أَمْتاي» قالوا: ويونُس علَيْهِ السّلام مِنْ بَنِي إسرائِيل، ويتَّصل نسبُهُ بشَقِيق يوسف عليه السلام «بَنْيامِين». وعند أهل الكتاب أنه من سِبْطِ «زبُولُون» أحد أولاد يعقوب عليه السلام، وهو مِن أهالِي «جت حافر» على بُعْدِ ثلاثة أميال من الناصرة.

(٣) أرْسَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى أهْلِ «نِينوى» وكانَتْ مَدِينَةً كبيرة تقع على نَهْرِ دَجْلَة أو قريباً مِنْهُ تجاه مَدِينة «الموصل» من أرض آشور، وجاء في «قَامُوس الكتاب المُقَدَّس» أنَّ «نِينَوىٰ» كانت عَاصِمَةَ الإمْبَرَاطُورِيَّةِ الآشُورِيَّة.

(٤) كان عَدَدُ أَهْل «نِينَوَىٰ» زائداً على مِائَةِ أَلْفٍ، بِعَدَدٍ اختلَفَتْ فيه الآثار.

(٥) يظهر أنّ رِسَالَتَهُ علَيْهِ السّلام كانت خلال الْقَرْن الثامن قبل ميلاد المسيح عَلَيْهِ السلام.

(٦) أمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السلام بأنْ يَذْهَبَ إلى أَهْلِ «نينَوَىٰ»، لِيَرُدَّهُمْ إلى عبادة اللهِ وَحْدَه، وذَلِكَ بَعْدَ أَنِ انْحَرَفُوا عَنْ دين اللهِ الحقّ وعَبَدُوا الأوثان من دُون الله.

قال المؤرخون: وكانَ لأَهْلِ «نِينَوَىٰ» صَنَمٌ يَعْبُدونَهُ اسْمهُ «عَشْتَار».

(٦) ذَهَبَ يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ مَوْطِنِهِ فِي بِلَادِ الشَّامِ إِلَىٰ «نِينَوىٰ»

فدَعَا أَهْلَهَا إلى عبادة اللهِ وَحْدَهُ بِمِثْلِ دَعْوَةِ سَائِرِ الرُّسُلِ كما أَمْرُهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ، ونَهاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ وعبادَةِ الأَوْثَانِ، فلَمْ يَسْتَجيبُوا له، كشأْنِ أكْثَرِ أهْلِ الْقُرىٰ، فأوْعَدَهُمْ بالْعَذابِ في يَوْم مَعْلُوم إنْ لَمْ يَتُوبُوا، وظَنَّ أنَّه قد أَدَّىٰ رِسَالَةَ رَبّه، وقام بِكَامِلِ الوظيفة الَّتِي أمَرَهُ اللهُ بها، وخَرَجَ عَنْهُمْ مُغَاضِباً، وكان غَضَبُهُ لِلَّهِ مِنْ إعراضِهِمْ وعَدَم اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الحقِّ غَضَباً شَدِيداً، لَكِنَّهُ خَرَجَ باجْتِهَادٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِه دُونَ أَنْ يَتَلَقَّىٰ مِنْ رَبِّهِ أَمْراً أَوْ إِذْناً بالْخُرُوج، ظانَّاً أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ لَا يُؤَاخِذُهُ على هـٰذا الْخرُوجِ ولا يُضَيِّقُ عليه.

(٧) فلَمَّا تَرَكَ يُونُسُ عليْهِ السَّلامُ أهْلَ «نِينَوىٰ» وجاء مَوْعِدُ العذاب، وظَهَرَتْ نُذُرُهُ، عَرَفُوا صِدْقَ رَسُولِهِمْ «يُونس» وخَرَجُوا إلَىٰ ظَاهِرِ المدِينَةِ، وأَخْرَجُوا دَوَابَّهُمْ وَأَنْعَامَهُمْ خَائِفِينَ مُلْتَجِئِينَ إلى اللهِ رَبِّهم، تَائِبين مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وأَخَذُوا يَبْحَثُونَ عَنْ رَسُولِهِمْ «يُونُسَ» عَلَيْهِ السّلام، لِيُعْلِنُوا لَهُ الْإيمانَ والتوبَةَ، ولِيَسْأَلُوهُ أَنْ يَكُفَّ اللهُ عَنْهُمُ العذابَ فَلَمْ يَجِدُوه.

ولمَّا ظَهرَتْ مِنْهُمُ التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ، وَعلِمَ اللهُ صِدْقَهُمْ فِيها، كَفَّ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، فَعَادُوا إلَىٰ مَدِينتهم مُؤْمِنِينَ باللهِ، مُوَحِّدِينَ لَهُ، هاجِرِينَ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ.

(٨) أمّا «يُونُس» عَلَيْهِ السلام، فَإنَّهُ سَارَ حتَّىٰ وَصَلَ إلَىٰ شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَوَجَدَ سَفِينَةً علَىٰ سَفر، فَطَلَبَ مِنْ أَهْلِهَا أَنْ يُرْكِبُوهُ مَعَهُمْ، فَتَوَسَّمُوا فِيه خيراً فأرْكَبُوه.

وَلَمَّا تَوَسَّطُوا الْبَحْرَ هَاجَ الْبَحْرُ بِهِمْ واضْطَّرَبَ، فقالوا: إنَّ فينا صَاحِبَ ذَنْبٍ، فاسْتَهَمُوا فيما بَيْنَهُمْ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ السَّهْمُ أَلْقَوْهُ فِي الْبَحْر، فَوَقَعَ السَّهْمُ على «يونس» فَسَأَلُوهُ عَنْ شَأْنِهِ وَعَجِبُوا مِنْ أَمْرِهِ وهُوَ التَّقِيُّ الصَّالح، فَحَدَّثَهُمْ بِقِصَّتِهِ، فأشْفَقُوا أَنْ يُلْقُوهُ في الْبَحْر، وأرَادُوا

الرُّجُوعَ بِهِ إلى السَّاحِل فَلَمْ يَقْدِرُوا، فأشَارَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُلْقُوهُ في الْبَحْرِ لِيَسْكُنَ عَنْهُمْ غَضَبُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَلْقَوْه.

فَلَمَّا أَلْقَوْهُ الْتَقَمَهُ بأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حُوتٌ عَظِيمٌ، وسَارَ بِهِ في الظُّلُمَاتِ في حِفظ اللهِ وَتَأْدِيبِهِ، وتَمَّتِ الخارِقَةُ الرَّبَّانِيَّة.

وقَدْ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ الْحُوتِ أَنْ لَا يُصِيبَ مِنْ «يونُسَ» عَلَيْهِ السلام لَحماً، وَلَا يَهْشِمَ لَهُ عَظْماً، فَحَمَلَهُ الحوتُ الْعَظِيم وَسَارَ بِهِ على سَطْح الْبَحْرِ، ويُونُس فِي فَمِهِ حَيٌّ يُسَبِّحُ اللهَ ويَسْتَغْفِرُهُ، ويُنَادِي في الظُّلُمَاتِ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ، ونَجَّاهُ مِنَ الْغَمّ، وأَوْحَىٰ إِلَىٰ الْحُوتِ أَنْ يَقْذِفَ بِهِ في الْعَرَاءِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْر، فَأَلْقَىٰ بِهِ وَهُو سَقِيمٌ.

قالُوا: وَقَدْ لَبِثَ فِي جَوْفَ فَمِ الحوتِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَاليها، واللهُ أعلم.

(٩) وَجَدَ «يونُس» عليه السَّلام نَفْسَهُ في الْعَراء سَقِيماً هَزِيلاً، فَحَمِدَ اللهَ عَلَىٰ النجاة، وأَنْبَتَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ، فَأَكَلَ مِنْها واسْتَظَلَّ بِظِلِّها، وعَافَاهُ اللهُ مِنْ سَقَمِهِ، وتَابَ عَلَيْه.

وعَلِمَ «يُونُسُ» عَلَيْهِ السَّلام أَنَّ مَا أَصَابَهُ تَأْدِيبٌ رَبَّانِيٌّ مَحْفُوفٌ بأَلْطَافِ اللهِ في مُعْجِزَةٍ مِنْ لَطَائِفِ خوارِقِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه ـ وَعَلِمَ أَنَّ مَا حَصَلَ لَهُ قَدْ كانَ بِسَبَب اسْتِعْجَالِهِ وخُرُوجِهِ مُغَاضِباً لِقَوْمِهِمْ مِنْ «نِينوى» دُونَ إِذْنٍ صَرِيحٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِالْخُرُوج، وَإِنْ كانَ لَهُ فِيه اجْتِهَادٌ مَقْبُول، إِلَّا أَنَّ مِثْلَ هـٰذا الاجْتِهَادِ إِنْ قُبِلَ مِنَ الصَّالِحِينَ الْعَادِيِّين، فإِنَّهُ لا يُقْبَلُ مِنَ الرُّسُلِ الْمُقرَّبِينَ الَّذِينَ يُوحَىٰ إليهم، فَهُو بِخُرُوجِهِ واسْتِعْجَالِهِ قَدْ فَعَلَ مَا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ اللَّوْمَ والتَّأْدِيبَ الرَّبَّانِيَّ.

(١٠) ولمّا استطاعَ «يُونُسُ» عَلَيْهِ السَّلام أَنْ يَسِيرَ، عَادَ إِلَىٰ قَوْمِهِ

فَوَجَدَ أَنَّهُمْ قَدْ آمَنُوا وأَسْلَمُوا، وتَابُوا إلى بارِئِهم، مُنْتَظِرِينَ عَوْدَةَ رَسُولِهِمْ لِيَأْتَمِرُوا بأَمْرِهِ وَيَتَّبِعُوه، فَلَبِثَ فيهم يُعَلِّمُهم ويَهْدِيهم، ويُرَشِدُهُمْ إلى صراطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم.

(١١) ومَتَّعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَ «نِينَوىٰ» في مَدِينَتِهِمْ مُدَّةَ إقامَةِ «يونُسَ» عَلَيْهِ السلام فيهم، ومَتَّعَهُمْ بَعْدَه فيها آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ حَتَّىٰ حِين، إذْ أَفْسَدُوا وَضَلُّوا فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَنْ دَمَّرَ لَهُمْ مَدِينَتَهُمْ، فكانَتْ أَحاديثَ يَرْويها المؤرخون، ويَعْتَبِرُ بها المعتبرون.

وجاء عند المؤرخين أنّ «نِينَوىٰ» دُمِّرَتْ علَىٰ أَيْدِي «سِيَاكْرِيس» مَلِكِ «مِيدْيا» و«نَابُويُولْصَار» مَلِكِ «بَابل» في سنة (٦١٢ق م) والله أعلم.

وقد جاء بشأن «يونس» عليه السَّلامُ في القرآن المجيد سِتَّةُ نصوص:

أمّا الأول منها، فَمَا جاء في سُورَة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نُزُول) وهو قول الله عَزَّ وَجَلَّ فيها لرسوله محمّد ﷺ:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

وقد سَبَقَ تدبُّر هـٰذا النّصّ في مَوْضعه من سورة (القلم/ ٤ نزول).

وأمَّا اثنان مِنْها فقد جاء ذِكْرُ «يونس» عليه السلام فيهما على أنه رَسُولٌ مِنَ المرسَلِينَ.

الأول: مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الأنْعَام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) في الآية (٨٦) مِنْها، فَقَدْ جَاءَ ذِكْرُهُ فِيها ضِمْنَ طَائِفَةٍ مِنَ المرسَلِينَ ذكَرَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الآيات من (٨٣ ـ ٨٧) وقد سَبَقَ تدبُّر هـٰذا النصّ.

الثاني: مَا جاءَ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) في الآيات

من (١٦٣ ـ ١٦٥) ضِمْنَ طَائِفَةٍ من المرْسَلِين ذُكِرُوا فيها مَعَ بيانِ الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مِنْ إرْسالهم مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِين.

وَأمّا ثَلاثَةٌ مِنْها، فَهِيَ:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هَـٰذَا النَّصِّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَة (يُونس).

(٢) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) وهُو الآيات من (١٣٩ ـ ١٤٨) وَهي آيات هـٰذا الْفَصْل الّذِي أسْتَعِينُ باللهِ على تَدَبُّرِه.

(٣) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

هـٰذِهِ النُّصُوصُ تَحْتَاجُ دِراسَةً تكامُلِيَّةً تَحْلِيلِيَّةً أَسْتَعِينُ باللهِ العظيم الوهَّابِ عَلَىٰ تَدبُّرِها هُنا، إذْ لِقِلَّتِها لَا تَحْتَاجُ فَرْزاً فِي مُلْحَقٍ خَاصٍّ بِالنَّبِيِّ الرَّسُولِ «يُونُسَ» عَلَيْهِ السَّلام.

أولاً: أَثْبَتَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُؤَكداً أَنَّ «يُونُسَ» عَلَيْهِ السَّلام مِنَ الْمُرْسَلِينَ، أي: فَهُو نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إلَىٰ قَوْمِهِ، فقال تعالى في سورة (الصافَّات/ ٥٦ نزول):

• ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾﴾:

جاء في هـٰذه الآية التوكيد بـ«إنَّ ـ والجملَةِ الاسميَّة ـ واللَّام

المزحلقة» للرَّدِّ على الذينَ يَعْتَبِرُونَهُ نبيّاً فَقَطْ، ولَيْسَ رَسُولاً مُرْسلاً من اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِقَوْمٍ بَعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إليهم.

ثانياً: طَوَتِ النُّصُوصُ ذِكْرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِم، وعِنْدَ المؤرّخين أَنَّهم أَهْلُ نِينَوىٰ كَمَا سَبَقَ بيانُهُ في المقَدِّمَةِ العامَّة.

وطَوَتِ النُّصُوصُ ذِكْرَ ذَهَابِهِ إِلَىٰ قَوْمِهِ، ودَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقِّ، وتَحْذِيرِهِمْ مِنَ الشِّرْك الَّذِي كانُوا فِيه، حتَّىٰ يَئِسَ مِن استجابَتِهِمْ، فَغَضِبَ لِلَّهِ مِنْهُمْ، وأَنْذَرَهُمْ بِعَذَابٍ من الله.

ثالثاً: لَمَّا غَضِبَ لِلَّهِ مِنْ قَوْمِهِ، وأَنْذَرَهُمْ بعذاب مِنْ رَبِّهِمْ، انْصَرَفَ عَنْهُمْ مُغَاضِباً لَهُمْ، دُونَ إِذْنٍ مِنَ اللهِ لَهُ بالانْصِرَاف عنهم، وقَدْ جاء في بيان هٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

● ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ .. ﴿٨٧﴾﴾:

النّون: اسْمٌ من أَسْمَاءِ الْحُوت، ولعَلَّهُ صِنْفٌ خاصٌّ من أصناف الحيتان العظمىٰ.

أي: وَضَعْ فِي ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي قِصَّةَ «يُونُس» صَاحِبِ الْحُوتِ، الّذي الْتَقَمَهُ حِينَ انْصَرَفَ عَنْ قَوْمِهِ مُغَاضِباً لهم مِنْ أجْلِ دِينِ رَبِّهِ، دونَ إِذْنٍ لَهُ مِنَ اللهِ بأَنْ يَنْصَرِف عَنْهُمْ.

وعَقِبَ تَحَرُّكِهِ ذَاهِباً عَنْهُمْ ومُغَاضِباً لَهُمْ بانْفِعَالٍ شَدِيد، ظَنَّ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِسُلْطَانِهِ الْعَظِيم ورَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، لَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ، ولَنْ يَجْعَلَهُ مُؤَاخَذاً عَلَىٰ ذَهَابِهِ عَنْ قَوْمِهِ بِغَيْرِ إِذْن صَرِيح مِنْهُ، وَظَنَّ أَنَّ لَهُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي مِثْلِ هٰذا الْمَوْضُوع، لَكِنَّهُ كانَ ظَنّاً فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ المقبولِ بالنِّسْبَةِ إِلَيْه بِوَصْفِهِ رَسُولاً.

﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾: أي: لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ في الاجْتِهَادِ، فَنَجْعَلَهُ مُلْزَماً بالْأَمْرِ أَوِ الإِذْنِ الصَّرِيح، باعْتِبَارِهِ نَبِيّاً رَسُولاً يُوحَىٰ إِلَيْه.

رَابعاً: وَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ قَوْمِهِ مُغَاضِباً لَهُمْ تَوَجَّهَ جِهَةَ سَاحِلِ الْبَحْرِ، لِيَنْتَقِلَ إِلَىٰ بَلَدِهِ في فِلَسْطِينَ عَلَىٰ مَرْكَبَةٍ بَحْرِيَّةٍ تُقَرِّبُهُ إلى مَنَازِلِ أَهْلِه، فَوَجَدَ فُلْكاً مُنَاسِباً، فَتَفَاوَضَ مع أَصْحَابِهِ عَلَىٰ أَنْ يُرْكِبُوهُ معهم، فَقَبِلُوا ذَلِكَ مِنْهُ فَأَرْكَبُوه، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾:

وَصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في هَـٰذِهِ الآيَةِ بِأَنَّهُ عَبْدٌ آبِقٌ، إِذْ ذَهَبَ عَنْ قَوْمِهِ دُونَ إِذْنٍ مِنْ رَبِّهِ.

الْعَبْدُ الآبِقُ: هُو الّذِي يَهْرُبُ مِنْ سَيِّدِهِ مَالِكِ رَقَبَتِهِ، لِئَلّا يَقُومَ بِمَا كَلَّفَهُ إِيَّاه، يُقَالُ لغةً: «أَبَقَ، يَأْبِقُ، أَبْقاً، وإِبَاقاً» أي: هَرَبَ، فَهو «آبِقٌ» و«أَبُوق».

الْفُلْك: مَرْكَبُ البحر، يُطْلَقُ على الواحد وغيره، يُذَكَّر، ويُؤَنَّث.

المشْحُون: أي: المملوء، يُقَالُ لغة: «شَحَنَ السَّفِينَةَ يَشْحَنُها» أي: مَلأَهَا أحْمالاً وَرُكَّاباً.

أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المُتَلَقِّي، أَنَّ النبيَّ الرَّسُول «يُونُسَ» أبَقَ مِنَ المكان الّذِي لم يَأْذَنْ لَهُ رَبُّهُ بِأَنْ يَنْصَرِفَ عَنْهُ إِذْناً صَرِيحاً، وَذَهَب رَاغِباً في الْعَوْدَةِ إلى مَنَازِلِ أَهْلِهِ فِي فِلَسْطِينَ، فَاخْتَارَ أَنْ يَرْكَبَ مَرْكَبَةً بَحْرِيَّةً تُقَرِّبُهُ، فَوَجَدَ فُلْكاً مَشْحُوناً، فَفَاوَضَ أَصْحَابَهُ على أَنْ يَحْمِلُوهُ مَعَهُمْ فَوَافَقُوا علىٰ طَلَبِهِ فَحَمَلُوه.

خامساً: وَطَوَتِ النُّصُوصُ بَيَانَ أَنَّ الْبَحْرَ هَاجَ وَمَاجَ وَخَافَ أَهْلُ الْفُلْكِ ورُكّابُها عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْغَرَقِ، فَقَرَّرُوا أَنْ يُجْرُوا قُرْعَةً لإِسْقَاطِ مَنْ تَقَعُ الْقُرْعَةُ عَلَيْهِ فِي الْبَحْر، وَيَظْهَرُ أَنَّ هَـٰذا الإِجْرَاءَ كَانَ مِنْ عَادَةِ رُكَّابِ الْبَحْرِ في زَمَانِهِمْ.

وقَدْ جَاءَ بَيَانُ هـٰذه الْقُرْعَةِ في سُورَةِ (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) وهو كِنَايَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ مُقْتَضِيَاتِهَا، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾:

الْمُسَاهَمَةُ: المشَارَكَةُ فِي الْقُرْعَةِ بالسِّهَام الَّتِي يُعَيَّنُ كُلُّ واحِدٍ مِنْها بِوَاحِدٍ مِنَ الْمُتَسَاهِمِينَ، فَمَنْ خَرَجَ سَهْمُهُ وَقَعَ عَلَيْهِ النَّصِيبُ، خَيْراً كَانَ أَمْ شرّاً.

فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ: أي: فَكَانَ يُونُس عليه السلام مِنَ الْمُزْلَقِينَ عَنِ الْفُلْكِ بمُقْتَضَىٰ الْقُرْعَةِ الّتِي أَجْرَوْهَا بإجَالَةِ السِّهَام.

يُقَال لغة: «أَدْحَضَهُ» أي: دَفَعَهُ وَزَحْزَحَهُ، وأَزْلَقَه.

أي: فألْقَوْهُ في الْبَحرِ بَعْدَ أنْ كَانَ بِمُقْتَضَىٰ الْقُرْعَةِ مِنَ الْمُزْلَقِينَ.

ولعَلَّ وَسِيلَتَهُمْ للإلْقَاءِ في البَحْر، كانت أَنْ يَضَعُوا الْمُلْقَىٰ فيه على لَوْحٍ مُثبَّتِ الوسَطِ على الْفُلْكِ، وقابِلٍ للتحرُّك، إذا رفَعُوه من جهة الفلكِ انزلق منْ وضع عليه إلى جهة الْبَحْر فأُلْقي فيه.

سَادِساً: وَعقِبَ أَنْ أَلْقَىٰ أصْحَابُ الْفُلْكِ «يُونس» عَلَيْهِ السَّلامُ فِي الْبَحْرِ أَرْسَلَ اللهُ حُوتاً عَظِيماً فَالْتَقَمَهُ، أَيْ: جَعَلَهُ كَلُقْمَةٍ فِي جَوْفِ فَمِهِ، وَقَدْ جَاءَ بَيَان هـٰذا في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

• ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾:

فَالْتَقَمَهُ: أي: فَوَضَعَهُ فِي جَوْفِ فَمِهِ كأَنَّهُ لُقْمَةٌ مِنْ طَعَام.

الْحُوت: أي: الْحُوتُ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيْهِ لِيَلْتَقِمَهُ، فَهُوَ حُوتٌ مُكَلَّفٌ بِوَحْيٍ من اللهِ خَاصٍّ بِغَيْرِ أَهْلِ العلم. فـ«ال» فيها معنى التَّعْرِيف بأَنَّهُ حُوتٌ مُعَيَّنٌ بإلْهَامٍ من الله.

وهُوَ مُلِيمٌ: أي: و«يُونُس» عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَتَىٰ بِمَا يُلامُ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ جلَّ جَلَالُه، يُقَالُ لغة: «أَلامَ فُلانٌ فَهُوَ مُلِيمٌ» أي: فَعَلَ مَا يُلامُ عَلَيْه.

والَّذِي جَعَلَ «يُونُسَ» عَلَيْهِ السَّلامُ وَاقعاً فيما يُلامُ عليه أَنَّهُ تَرَكَ قَوْمَهُ دُونَ إِذْن لَهُ بذلِكَ مِنْ رَبّه وهُوَ رَسُولٌ يُوحَىٰ إِلَيْهِ.

سابعاً: وَجَدَ «يُونُسُ» عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّهُ بِمَثَابَةِ لُقْمَةٍ فِي فَم حُوتٍ عظيم، وَوَجَدَ أَنَّهُ قَادِرٌ علَىٰ أَنْ يَذْكُرَ اللهَ ويُسَبِّحَهُ وَيَدْعُوه، فاسْتَغَلَّ قُدْرَتَهُ علَىٰ ذَلِكَ بِالتَّسْبِيحِ والذِّكْرِ والدُّعَاء والاعترافِ بِذَنْبِهِ.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿.. فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: فَنَادَىٰ رَبَّهُ وهُوَ فِي جَوْفِ فَم الْحُوتِ مُحَاطٌ بِظُلْمَةِ هـٰذا الْجَوْفِ، وظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وظُلْمَةِ الْغَيْمِ فَوْقَ سَطْحِ الْبَحْرِ، بالنِّدَاء ذي المضمون التالي:

(١) ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾: أي: رَبّ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ في الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا أَنْتَ، فَأَنْتَ وَحْدَكَ الرَّبُّ الَّذِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ.

(٢) ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾: أي: تَنَزَّهْتَ عَنْ كُلِّ شَرِيكٍ، وَتَنَزَّهْتَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِرُبُوبِيَّتِكَ، وَإِلَهِيَّتِك، وتَنَزَّهْتَ عَنْ أَنْ تُجْرِيَ مَقَادِيرَكَ دُوْنَ أَنْ تَكُونَ مُتَّصِفَةً بِكَمَالِ الْحِكْمَةِ.

(٣) ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾: أي: أُأَكِّدُ مُعْتَرِفاً بِذَنْبِي إِذْ ذَهَبْتُ مُغَاضِباً قَوْمِي بَعْدَ أَنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لي، دُونَ أَنْ أَتَلَقَّىٰ أَمْراً أَوْ إِذْناً مِنْكَ بانْصِرَافِي عَنْهُمْ، وقدْ اخْتَرْتَنِي رَسُولاً لهم يُوحَىٰ إليّ.

ثامناً: فَقَبِلَ اللهُ تَوْبَتَهُ، واسْتَجابَ دُعَاءَهُ، فأَوْحَىٰ إلَىٰ الْحُوتِ أَنْ يَلْفِظَهُ فِي الْعَرَاءِ قَرِيباً مِنْ شَاطِئِ الْبَحْر.

دَلَّ على هٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

• ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾:

أي: فَلَوْلَا أَنَّ «يُونُسَ» عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ فِي جَوْفِ فَمِ الْحُوتِ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، إذْ قالَ في دُعَائِهِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأَكَلَهُ الْحُوتُ وَهَضَمَهُ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَىٰ الْحَياةِ إِلَّا يَوْمَ يُبْعَثُ النَّاس للحِسَابِ، وفَصْلِ القضاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء.

ودَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الله اسْتَجابَ دُعَاءَهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في سُورَةِ (الْأَنْبِياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

أي: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ دُعَاءَه، وخَلَّصْناهُ مِنَ الْغَمّ الَّذِي كَانَ فيه كَلُقْمَةٍ في جَوْفِ فَمِ الْحُوتِ. ومِثْلِ هٰذا التخلِيصِ مِنَ الْغَمِّ نُخَلِّصُ سَائِرَ المؤمنينَ الصَّادِقِينَ كامِلِي الإيمان.

الغَمُّ: الكَرْبُ المحيط بالقَلْب.

فقَدَّرْنَا أَنْ يَلْفِظَهُ الْحُوتُ علَىٰ الْيَابِسَةِ قَرِيباً مِنْ شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَلَفَظَهُ، فَنَبَذْنَاهُ بالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ.

النَّبْذُ: طَرْحُ الشيءِ بِسُرْعَةٍ.

الْعَرَاء: الْفَضَاءُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شيءٌ يُسْتَتَرُ بِهِ.

السَّقِيمُ: الْمَرِيضُ الَّذِي اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَرَض.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾: أي: وأَنْبَتْنا شَجَرَة مِنْ يَقْطِينٍ بِجواره، فَامْتَدَّتْ عُرُوقُها عَلَيْهِ وَظَلَّلَتْهُ أَوْرَاقُها.

مِنْ يَقْطِين: أي: مِنْ نَوْعِ شَجَرِ الْيَقْطِين، وهو الدُّبَاءُ وَكُلُّ مَا يَنْتَمِي إلى هـٰذا النوع.

وَلَعَلَّهُ عَلَيْهِ السَّلامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِها، أَوْ هَيَّأَ اللهُ لَهُ مَا يَتَغَذَّىٰ بِهِ، حتَّىٰ أبَلَّ مِنْ سَقَمِهِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ، بِسَبَبِ وُجُودِهِ فِي جَوْفِ فَمِ الْحُوتِ ذِي اللُّعَابِ المسْقِمِ.

تاسعاً: أمَّا أَهْلُ «نِينَوىٰ» فإنَّهُمْ لَمَّا رأوْا بَوادِرَ نُذُرِ الْعَذَابِ اقْتَرَبَتْ مِنْهُمْ، وَرَأَوْا أَنَّ رَسُولَ رَبِّهِمْ «يُونُس» عَلَيْهِ السَّلامَ قَدْ فَارَقَهُمْ مُغَاضِباً لَهُمْ إِذْ لَمْ يَسْتَجِيبوا لَهُ، تَابُوا، وآمَنُوا بِرَبِّهم، ونَبَذُوا شِرْكِيَّاتِهِمْ، فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ العذاب.

دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورةِ (يُونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾.

وَقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هذا النَّصِّ في مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَة (يونس/ ٥١ نزول) فلا حاجَةَ إلى التكرار.

عَاشراً: ولَمَّا أَبَلَّ «يُونُس» عَلَيْه السّلام مِنْ سَقَمِهِ، وتابَ اللهُ عَلَيْهِ واجْتَبَاهُ، وَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، أرْسَلَهُ إرْسَالاً جَدِيداً إلَىٰ قَوْمِهِ أَهْلِ «نِينَوَىٰ» الّذِينَ تَابُوا إلَىٰ بَارِئِهِمْ، وَبَحَثُوا عَنْ رَسُولِهِمْ فَلَمْ يَجِدُوه، فَلَمَّا وَصلَ إِلَيْهِمْ أَعْلَنُوا إيمانَهُمْ بِهِ، واتِّبَاعَهُمْ لِمَا يُبَلِّغُهُمْ عن رَبّه.

دَلَّ علَىٰ هـٰذِهِ الفِقْرَةِ مِنْ قِصَّتِهِ، قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الْقَلَم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾:

أي: فاصْطَفَاهُ رَبُّهُ اصْطِفَاءً جَدِيداً بَعْدَ حَادِثَةِ الْحُوتِ التَّأْدِيبِيَّةِ لَهُ، وبَعْدَ الّذِي كانَ مِنْهُ وَهُوَ سَجِينٌ مَغْمُومٌ مَكْرُوبٌ في جَوْفِ فَمِ الحوتِ، فجَعَلَهُ بِحُكْمِهِ من الأنبياء والرُّسُلِ الصَّالِحِينَ.

وقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾:

أي: وَأَرْسَلْنَاهُ إرْسَالاً جَدِيداً بَعْدَ أَنِ اجْتَبَيْنَاهُ وَجعَلْنَاهُ مِنَ الصَّالِحِين، إِلَىٰ أَهْلِ «نِينَوَىٰ» وَكَانُوا يَزِيدونَ على مِئَةِ أَلْفٍ مِنَ النَاس.

ولَمْ يَرِدْ خَبَرٌ صَحِيحٌ عَنِ الرَّسُولِ المعْصُومِ ﷺ مقدارُ زِيادَتِهِمْ علىٰ مِئَةِ أَلْفٍ، فَلَا داعِي للاشْتِغَالِ بِتَحْدِيدِ هـٰذه الزِّيادَةِ بروايات وآثارٍ لَمْ تَبْلُغْ مَبْلَغَ الصِّحَّة.

وفي قوله تَعالى: ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إشَارَةٌ إلَىٰ أنَّ أَهْلَ «نِينَوَىٰ» فَسَدُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ مُهْلِكَاتٍ أَهْلَكَتْهُمْ وَدَمَّرَتْ مَدِينتهم.

حادي عشر: وحذَّرَ اللهُ الدُّعَاةَ الصَّادِقِينَ مِنْ أمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِأُسْلُوب خِطَاب الرَّسُولِ قائِدِهِمْ وَقُدْوَتِهِمْ، مِنْ التَّضَجُّرِ مِنْ عَدَمِ اسْتِجَابَةِ مَنْ يَدْعُونَهُمْ إِلَىٰ اللهِ وإلى صِرَاطِهِ المستقيم، وحذَّرَهُمْ مِنَ التَّخَلِّي عَنْ مُتَابَعَةِ تَأْدِيَةِ وَظَائِفِ رِسَالَتِهِم، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ في آياتٍ مَدَنِيَّة التَّنْزيلِ مَضْمُومَةٍ إلى سُورَة (الْقَلَم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) الَّتِي هي من أَوَائِلِ التَّنْزِيلِ المكّيّ:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾.

مَكْظُومٌ: أي: مَمْلُوءٌ غمّاً وَكَرْباً، مَعَ ضَبْطِ نَفْسِهِ بإيمانٍ قَوِيٍّ، إذْ كَانَ مُعْتَرِفاً بأنَّهُ كَانَ بِعَمَلِهِ مِنَ الظَّالِمِينَ الَّذِين يَسْتَحِقُّونَ التَّأْدِيبَ.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾: أي: إنَّهُ نُبذَ بالْعَرَاء ولَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَذْمُوماً، بَلْ كَانَ مِنَ الأَوَّابِينَ التَّائِبِينَ، فاسْتَحَقَّ أَنْ يَجْتَبِيَهُ رَبُّهُ، وَأَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِأَنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَمَا كَانَ مِنْهُ قدْ كَانَ اجْتِهَاداً أخْطَأَ فِيه، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَجْتَهِدَ في الأَمْرِ الَّذِي اجْتَهَدَ فيه وَهُوَ نبيٌّ رَسُولٌ يُوحَىٰ إلَيه.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّر هَـٰذَا النَّصِّ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ سُورَةِ (القلم/ ٤ نزول) فَلْيَرْجَعْ إليه.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر هـٰذا الْفَصْلِ السَّادس، وانْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثالث مِنْ دُرُوس سورة (الصَّافات) بِفُصُولِها السِّتَّة. والْحَمْدُ لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وتَوفيقه وفتحه.

❀ ❀ ❀

(٨)
التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (الصَّافات) وهو الآيات من (١٤٩ ـ ١٦٣)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

القراءات:

(١٤٩) • قرأ يعقوب: [**فَاسْتَفْتِهُمْ**] بضَمِّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة بكَسْرِ هَاء الضّمِير: [**فَاسْتَفْتِهِمْ**].

وهما لغتان عَرَبيَّتان.

(١٥٢ ـ ١٥٣) • قرأ أبو جعفر: [**لَكَاذِبُونَ اصْطَفَىٰ**] بهمزة وصْلٍ في «اصْطَفَىٰ».

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: [**لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَىٰ**] بِهَمْزَةِ اسْتِفْهَام.

(١٥٥) • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائِي، وخَلَف: [**تَذَكَّرُونَ**].

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [**تَذَّكَّرُونَ**] بِتَشْدِيد الذَّال.

(١٦٣) • قرأ يَعْقُوب: [**صَالِي**] فِي الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**صَالِ**] في الوقفِ والوصل.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدرس تَعْلِيمُ مُنَاقَشَةٍ للمشركين، بشأن عقيدتهم بأنَّ الملائكَةَ بَنَاتُ اللهِ.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ الّذِين يَقُولون: الملائكَةُ بَنَاتُ الله، والـذيـنَ يَقُـولُـونَ: تَزَوَّجَ اللهُ مِنْ سَرَوَاتِ الْجِنِّ فَوَلَدْنَ لَـهُ الـمـلائـكـةَ، وهـو تَعْلِيمٌ لكلِّ مُنَاظِرٍ لَهُمْ مُؤمِنٍ باللهِ إيماناً حقّاً.

• ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾: **الاستفتاء:** طَلَبُ الإجابَةِ على المسْؤُول عَنْه.

أما السُّؤَال الَّذِي يَحْسُنُ أَنْ يُطْرَحَ عَلَيْهِم بِصُورَةٍ إِفْرَادِيَّة لتكونَ

المناظَرَةُ بَيْنَ سَائِلٍ ومَسْؤُولٍ، فِي مُحَاجَّةٍ حاصِرة لَهُمْ بثَلاثةِ أسْئِلَة:

السؤالُ الأول: لماذا تَجْعَلُونَ أَوْلَادَ اللهِ من صِنْفِ الْبنَاتِ لَا مِنْ صِنْفِ الذُّكور، وأنْتُمْ تَكْرَهُونَ الْإناثَ لِأَنْفُسِكُمْ وتُحِبُّونَ أَنْ يُولَدَ لَكُمُ الذُّكُور؟!

هَلْ لدَيْكُمْ دَافِعٌ نَفْسِيٌّ؟!. هَلْ لَدَيْكُمْ بُرْهَانٌ عِلْمِيٌّ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ قدِ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ذُرِّيَّةً من الإناث؟!

دلَّ على هـٰذا الاحْتِمال قول اللهِ في تَعْلِيمِ طَرْحِ الاستفتاء على المناظِرِ عَنْ أَصْحَابِ هـٰذِهِ الفرية:

﴿.. أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾:

أي: مِنْ أَيْنَ لَكَ أيُّها المناظِرُ عَنْ قَبِيلِكَ هـٰذا الافْتِرَاءُ عَلَىٰ رَبِّكَ إذْ جَعَلْتُمْ لَهُ أولَاداً، وَجَعَلْتُمْ هـٰؤلَاءِ الأولَادَ مِنْ صِنْفِ الْبَنَاتِ لَا مِنْ صِنْفِ الذُّكُور، وَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ أَنْ تُولَدَ لَكُمُ الْبَنَاتُ، وتُحِبُّون أَنْ يُولَدَ لَكُمُ الذُّكور؟!

هـٰذا السؤال يفتح الطريق لِطَرْحِ أَسْئِلَةٍ كثيرة، حَوْل الرَّبِّ الواحد الأحد، من الأزَلِ إلى الأبَدِ، وتَنَزُّهِهِ عَنِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَد.

ويفتح مجالاً لبيان سَفَاهَتِهِمْ ونَقْصِ عُقُولِهِمْ إذْ يَنْسُبُونَ إلى ربِّهِمْ مَا يَكْرَهُونَهُ لِنُفُوسهم.

إنّ الأزَلِيَّ الْأَبَدِيَّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ صَمَداً، لَا يَلِدُ وَلَا يُولدُ وَلَا يَكُونُ لَهُ كُفُؤاً أَحَدٌ، وبُرْهَانُ الْعَقْلِ قَائِمٌ علَىٰ هـٰذِهِ الحقيقة، وسؤال المناظَرِ مِنْهم: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ سُؤَالٌ فيه الْبَدْءُ بتَسْفِيهِ عَقُولِهِمْ، لِيَكُونَ مِفْتَاحاً لإقَامَةِ الْحُجَّةِ الْبُرْهَانِيَّةِ عَلَيْه.

السؤالُ الثاني: هَلْ شَهِدْتُمُ الملائِكَةَ عُرَاةً، وعَلِمْتُمْ مِنْ شُهُودِكُمْ

بِأَعْيُنِكُمْ أَنَّهُمْ إِنَاثٌ، ذَوَاتُ فُرُوجٍ كإِنَاثِ الإنس، حَتَّىٰ قُلْتُمْ مَا افْتَرَيْتُمْ بِشَأْنِهِمْ.

دَلَّ عَلَىٰ تَعْلِيمِ طَرْحِ هٰذا السؤال قولُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في هٰذا الدَّرس:

• ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾:

أي: قُلْ أَيُّها المُناظِرُ المؤمِنُ لِمَنْ تُنَاظِرُهُ مِنْهُمْ:

أَكَانَ قَبِيلُكَ الَّذِينَ يَزْعُمونَ أَنَّ الْمَلاَئِكَةَ بناتُ اللهِ حَاضِرِينَ يُشَاهِدُونَ بأَعْيُنِهِمْ، حِينَ خَلَقَ اللهُ الْمَلاَئِكَةَ، فَرَأَوْا أَنَّهُمْ إِنَاثٌ؟!.

إِنَّ أحداً لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزْعُمَ هٰذا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هٰذا السُّؤالُ مُفْحِماً لِلْمُنَاظِرِ، وَكَاشِفاً افْتِرَاءَ جَمَاعَتِه.

«أَمْ» هي بِمَعْنَىٰ «بَل» الإضرابيَّة، مع هَمْزَة الاسْتِفْهام.

لَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَأْتِيَ في التَّعْلِيم: أَشَهِدُوا وِلَادَة الملائِكَةِ مِنْ زَوْجَاتِ الله؟! لِئَلَّا يَكُونَ في الكلام ما يُشْعِرُ بقَبُول أَصْلِ الادّعاء، ولو قبولاً جَدَلِيّاً، إذِ الفِرْيَةُ مَرْفُوضَةٌ ولَوْ في مُنَاظَرَةٍ جَدَلِيَّة، ومتَىٰ سَقَطَ احْتِمَالُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ شَهِدُوا أَنَّهُمْ إِنَاثٌ عِنْدَ خَلْقِهِمْ، سَقَطَ أَصْلُ الادِّعَاءِ الّذي زَعَمُوا فيه أنَّ الملائكَةَ بَنَاتُ الله.

وجاء في تَعْلِيمِ المناظَرَةِ لِلْمُنَاظِرِ المجادِلِ المؤمِن، بناءً على السؤالَيْنِ الأوّل والثاني، قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾:

﴿أَلَآ﴾: أَدَاةُ استِفْتَاحٍ وَتَنْبِيهٍ وتَحْقِيق.

أي: انْتَبِهْ وَتَحَقَّقْ أَيُّها المؤْمِنُ الْمُنَاظِرُ لِهٰؤُلَاءِ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ في

ادّعَائِهِمْ «وَلَدَ اللهُ» فاللهُ الأَزَلِيُّ الْأَبَدِيُّ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَبُرْهَانُ الْعَقْلِ يَقْضِي حَتْماً، بأنّ الْأَزَلِيَّ الأَبديَّ لَا يَتغيَّرُ، فَلَا هُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ شَيْءٍ، وَلَا يُشْتَقُّ مِنْهُ شَيْءٌ، وَكُلُّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ فإنَّما يَصْدُرُ عَنْهُ خَلْقٌ بأمْرِ التَّكْوِينِ، «كُنْ» فالْمُرَادُ لِلَّهِ يَكُونُ، دُونَ أَنْ يَنْفَصِلَ عَنْ ذَاتِهِ الأَزَلِيَّةِ الْأَبَدِيَّةِ شَيْء.

الْإفْكُ: الكلام الكذب، ولَوْ لَمْ يَقْصِدْ قَائِلَهُ أَنْ يَكُونَ كاذباً، يقالُ لغة: «أَفَكَ، يَأْفِكُ، أَفْكاً، وَإِفْكاً، وأُفُوكاً» ويُقال: «أفِكَ، يَأْفَكُ إِفْكاً» أي: قالَ قَوْلاً كَذِباً.

وأصْلُ «الْإفْكِ» صَرْفُ الشيء عَنْ وَجْهِهِ الَّذي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ.

وعلى احْتِمَالِ ادِّعَائِهِم أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ، وجَعَلَهُنَّ بَنَاتِه بالتَّبَنِّي، يُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾؟!!

أي: إنَّ مَنْطِقَ الْعَقْلِ يَقْضِي بِأَنْ لَا يَصْطَفِيَ الرَّبُّ الأزلِيُّ الأبَدِيُّ الْعَلِيمُ الحكيمُ، لَوْ شَاءَ أَنْ يَتبَنَّىٰ بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ، الْبَنَاتِ ويُفَضِّلَهُنَّ بالتَّبَنِّي عَلَىٰ الْبَنِينَ.

هٰذه مُحَاجَّةٌ جَدَلِيَّةٌ لِإِسْقَاطِ ادِّعَائِهِمْ، مَعَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا تَقْتَضِي حِكْمَتَهُ بِأَنْ يَتَبَنَّىٰ خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ، لِأَنَّهُ غَنِيٌّ بذاتِهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَوْلَادٌ، إِنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ فِي الْأَكْوَانِ مِنْ آثَارِ خَلْقِهِ بِأَمْرِ التَّكْوين.

وَجاء في تَعْلِيمِ المحاجَّةِ الْجَدَلَّيَةِ لِلْمُنَاظِرِ المؤمِنِ الداعي إلى الله، قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾؟!!:

مَا لَكُمْ: أَيْ: أَيُّ شيءٍ هُوَ حُجَّةٌ لَكُمْ تَحْتَجُّونَ بِهِ مِنْ دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ، يُسَوِّغُ لَكُمْ أَنْ تَزْعُمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ أَنْجبَ وَلَداً مِنْ نَسْلِهِ، أَوْ تبَنَّىٰ وَلَداً؟!!.

كَيْفَ تَحْكُمونَ؟!: أي: كَيْفَ تَصَاغَرَتْ عُقُولُكُمْ وَتَضَاءَلَتْ، حَتَّىٰ

صَدَرَ عَنْكُمْ هـٰذا الْحُكْمُ الْبَاطِلُ، وَقَدْ مَنَحكُمْ رَبُّكُمْ في أصْلِ فِطَرِكُمْ عُقُولاً ذَاتَ مَوَازِينَ تُفَرِّقُونَ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ والْبَاطل؟!!.

إنَّ هـٰذا لأمرٌ مُسْتَنْكَرٌ مِنْكُمْ جدّاً، ويَسْتَحِقُّ أَنْ يَتَعَجَّبَ مِنْهُ الْعُقَلَاءُ، ويَلُومُونَكُمْ عَلَيْهِ، وَيُسَفِّهُونَ بِهِ أَحْلَامَكُمْ.

الاستفهامَانِ في ﴿مَا لَكُمْ﴾؟! وَفي ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟! للتعجيب من أمْرِهِمْ، والإنْكارِ الشديدِ عليهم، مع التَّلْوِيمِ والتَّثْرِيب.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟: أي: أفَتَسْتَمِرُّونَ عَلَىٰ الْتِزَام مَا أنْتُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِهِ مِنْ بَاطِلٍ، فَلَا تَضَعُونَ مَوَازِينَ الْحَقِّ في سَاحَةِ تَذَكُّرِكُمُ الحاضِر، لِتَهْدِيَكُمْ إلى الإيمان بالحقّ الْمُتَعَلِّقِ باللهِ رَبِّكم، ونَبْذِ الْخُرَافَاتِ الباطِلَاتِ الَّتِي وَرِثْتُمُوهَا بالتقليد الأعْمَىٰ عَنْ أسْلَافِكُمْ.

وفي هـٰذا الاسْتِفْهَام حَثٌّ شديدٌ لَهُمْ علَىٰ تَرْكِ الْبَاطِلِ الَّذِي هُمْ فِيه، والاسْتِمْسَاكِ بالْحَقِّ الَّذِي يدْعُوهُمُ الدَّاعِي المؤمِنُ المناظِرُ لهم، فيَنْزِعُوا مِنْ تَصَوُّرَاتِهِمْ أَوْهَامَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ الله.

السؤال الثالث: إذَا قَامَتْ عَلَيْكُمُ البراهينُ الَّتِي وُجِّهَتْ لَكُمْ، اشْتِقَاقاً من السؤال الأوّل والثاني، فإنَّهُ يُوجَدُ احْتِمَالٌ ثَالِثٌ قَدْ تَدَّعُونَ فِيهِ مَا يُسَوِّغُ مَا زَعَمْتُمُوهُ، لِنُعْطِيكُمْ آخِرَ جَوْلَةٍ مِنْ جَوْلَاتِ المناظَرَة، وَهُوَ احْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ لَدَيْكُمْ بَيَانٌ عَنْ رَبِّكُمْ جَاءَ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولٍ صَادِقٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ، وفِيهِ أَنَّ الملائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ نَسَباً أَوْ بِالتَّبَنِّي.

وقَدْ جَاءَ التَّعْلِيمُ بِطَرْحِ سُؤَالٍ حَوْلَ هـٰذا الاحْتِمَالِ في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ:

• ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾:

الْمُرَادُ بِالسُّلْطَانِ الْمُبين هُنَا الْحُجَّةُ الْبَيَانِيَّةُ الرَّبَّانِية، الَّتِي أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بِهَا آيَاتٍ فِي كِتَابٍ مُنَزَّلٍ عَلَىٰ رَسُولٍ مِنْ رُسُله.

أي: بَلْ. أَلَكُمْ حُجَّةٌ وَاضِحَةٌ، جَاءَتْ في آيَاتِ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبِّكُمْ، وفِيها إثْبَاتُ أَنَّ الملائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ بِالنَّسَبِ أَوْ بالتَّبَنِّي؟؟

فإنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ حُجَّةٍ نَصِّيَّةٍ مُنَزَّلَةٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ وَأَرُونا بَيَانَ رَبِّكُمْ فِي هٰذا، إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي هٰذا الادِّعَاء.

لَكِنَّهُمْ فِي الحقيقَةِ لَيْسَ لَدَيْهِمْ بَيَانٌ ما مِنْ رَبِّهِمْ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ في إثْبَاتِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ.

وبإفْحَامِهِمْ فِي حُدُودِ هٰذه الأسْئِلَةِ الْمُحَاصِرَةِ لَهُمْ مِنْ كُلِّ الجهات، لَا تَبْقَىٰ لهم ذَرِيعةٌ يَمْكِنُ أَنْ يَتَعَلَّلُوا بها، ويُغْلَبُونَ في المناظَرَة، فإنْ أَصَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيه مِنْ باطِلٍ، فإنَّهُمْ مُكَابِرُونَ مُعَانِدُون جَاحِدُونَ لِلْحَقِّ، ساقِطُونَ سُفَهَاءُ لَدَىٰ جَمِيعِ الْعُقَلاء.

ويتَّصِلُ بادّعائِهِمْ أَنَّ الملائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ افْتِرَاؤُهُم أَنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ عَمَّا يَصِفُونَ ـ قَدْ تَزَوَّجَ نِسَاءً مِنْ سَرَوَاتِ الْجِنِّ، فأَنْجَبَ مِنْهُنَّ الْمَلَائِكَةَ، فالْمَلَائِكَةُ ذَوُو نَسَبٍ مُتَّصِلٍ باللَّهِ نَاتِجٍ عَنْ مُصَاهَرَةِ اللهِ لِأَشْرَافٍ مِنَ الْجِنّ.

أي: زَعَمَ بَعْضُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ أَنَّ اللهَ صَاهَرَ أَشْرَافَ الجِنِّ، فَنَتَجَ عَنْ هٰذِهِ الْمُصَاهَرَةِ أَوْلَادٌ هُمُ الْمَلَائِكَةُ، فَالْمَلَائِكَةُ ذَوُو نَسَبٍ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الْجِنّ، إذْ هُمْ أَوْلَادُ اللهِ مِنْ جِهَةِ أَبِيهِمْ، وأولَادُ نِسَاءِ الْجِنِّ مِنْ جِهَةِ أَمَّهَاتِهِمْ.

أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذِهِ الْفِرْيَةَ مِنْ إفْكِ الْمُشركينَ بِقَوْلِهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

هٰذه الفِرْيَةُ مُضَافَةٌ إلى فِرْيَتِهِمْ في أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بنَاتُ الله، وإلى كَذِبِهِمْ في قَوْلِهِمْ: ولد الله إذْ هُمْ يَقُولُون فيها: إنَّ اللهَ تَزَوَّجَ مِنْ نِساء

سَرَوَاتِ الْجِنِّ، فَأَنْجَبْنَ لَهُ، فَكَانَ أَوْلَادُهُ مِنْهُنَّ لَهُنَّ صِلَاتٌ بِهِ نَسَباً، وَلَهُنَّ صِلَاتٌ بالْجِنَّةِ نَسَباً، والتَّعْبِيرُ عَنْ هٰذا جاء بعِبَارَةِ: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ وَلَا يَقْتَضِي هٰذا أَنْ يَكُونَ الْجِنُّ أَوْ بَعْضُهُمْ مِنْ ذَراري الله، بل الأولاد مِنَ الله ومن نِسَاءِ الجِنِّ هُمْ صِلَةٌ ذَاتُ ارتباطٍ نَسَبِيّ بَيْنَهُمَا.

الجِنَّة: لفظٌ يُطْلَقُ علىٰ الجِنّ.

والرَّدُّ على هٰذِهِ الفِرْيَةِ مُنَاظِرٌ للرَّدِّ الْعَقْلِيّ، ولِلرُّدود الّتِي سَبَقَتْ مُحَاصَرَتُهُمْ بالْأَسْئِلَة الثَّلاثَةِ حَوْلَ افْتِرَاءَاتِهِمْ السابِقَةِ في هٰذا الدَّرْس.

ويُضَافُ إِلَيْهَا الإعْلَامُ بأَنَّ الْجِنَّ يُكَذِّبُونَهُمْ في افْتِرَائِهِمْ هٰذا، إِذْ أَشْرَافُ الْجِنَّ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ عِبادٌ لِلَّهِ، وأَنَّهُمْ مَوْضُوعُونَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ قَبْلَ الإنْسِ، وأَنَّهُمْ سَيُبْعَثُونَ يَوْمَ القيامَةِ، وسَيُحْضَرُونَ مَسُوقِينَ إِلَىٰ مَحْكَمَةِ رَبِّهِم لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، ثُمَّ لِتَنْفِيذِ الجزاء، على مَا قَدَّمُوا فِي حياةِ الابْتِلَاء، فَمَنْ عَمِلَ صَالحاً فَلِنَفْسِهِ، ومَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْها.

دَلَّ عَلَىٰ هٰذا قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في الآيَةِ:

﴿.. وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ عَلِمَ الْجِنُّ أَنَّهُمْ عَبِيدٌ لِلَّهِ مُمْتَحَنُونَ في ظُروف الْحَيَاةِ الدُّنيا، وأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ يَوْمَ القِيامَةِ إلى المحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّة، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ ذَرارِيهِمْ أَوْلَاداً لِلَّهِ، إذْ لَوْ كَانَ بَعْضُ ذَرارِيهِمْ مِنْ نَسْلِ اللهِ، لكانَ فِيهِمْ جُزْءٌ مِنْ رُبُوبِيَّةِ اللهِ، وَمَنْ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ مَا لَا يَخْضَعُ لحِسَابٍ، وَفَصْلِ قَضَاءٍ، وتَنْفِيذِ جَزاء.

هٰذا الاحْتِجَاجُ هو مِنْ قَبِيلِ نَفْيِ اللَّازِمِ لِنَفْيِ الملْزُوم، أَوْ مِنْ إِثْبَاتِ نَقِيضِ اللَّازِمِ لِنَفْيِ الْمَلْزُومِ، لِأَنَّ إِثْبَاتَ نَقِيضِ اللَّازِمِ هُوَ في مَضْمُونِهِ نَفْيٌ لِلَّازِمِ.

والْمُرَادُ بالإحْضَارِ هُنَا: الإحْضَارُ لِلْحِسَاب، وفَصْل القضاء، وبَعْدَهُ يَجْرِي تَنْفِيذُ الجزاءِ على وفْقِ فَصْلِ القضاء.

وَخَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هـٰذا التَّعْلِيمَ الْجِدَالِيّ للمؤْمِنِ الداعي إلى اللهِ بِقَوْلِهِ:

• ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾:

أي: تَنَزَّهَ اللهُ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ عَنْ كُلِّ مَا يَصِفُهُ بِهِ الْوَاصِفُونَ بآرَائِهِمْ، وأَوْهَامِهِمْ، وتَخَيُّلَاتِهِمْ، مِنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ إِذْ لَمْ يأتِ بِهِ نَبِيٌّ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، ولَمْ يَنْزِلْ بِهِ بَيَانٌ من عند اللهِ في كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ، باسْتِثْنَاءِ عِبَادِ اللهِ المخْلَصِينَ الَّذِينَ حَكَمَ اللهُ بأَنَّهُمْ بَرِيئُونَ مِنْ وَصْفِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بمَا لَا يَلِيقُ به، وهُمُ الْمُرْسَلُونَ، والنَّبِيُّونَ، والمؤمِنُونَ الْمُلْتَزِمُونَ فِي عَقِيدَتِهِمْ بما جَاءَ به رُسُلُ رَبِّهم، فَهَـٰؤُلَاءِ لَا يَصِفُونَ اللهَ إلَّا بِالصِّفَاتِ الْحَقِّ، الَّتِي جاءَ بِهَا بَيَانٌ عَنْهُ، والَّتِي لَهُمْ فيها بُرْهَان من الله.

وَأخيراً خاطَبَ اللهُ المشْرِكين خطاباً مُباشراً بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجلَّ لَهُم:

• ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾:

أي: فإنَّكُمْ أيُّها المشْرِكُونَ مَعَ مَا تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ رَبِّكُمْ، مَهْمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ وَسَائِلِ إغْرَاءٍ وَإِغْوَاء، لِفِتْنَةِ أَحدٍ وَجَعْلِهِ يَعْتَقِدُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ شرَكِيَّاتِكُمْ، ومعْتَقَداتِكُمُ الْبَاطِلَاتِ، فإنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَيْه، لِأَنَّ الْمَوْضُوعِينَ موضِعَ الابْتِلاءِ في الْحَيَاةِ الدُّنيا أَصْحَابُ إِرَادَاتٍ حُرَّةٍ لا يُمْكِنُ إكْرَاهُهَا.

فَمَا أَنْتُمْ بِفَاتِنينَ فِتْنَةَ إكْرَاهٍ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحداً، لَكِنْ مَنِ اسْتَجَابَ لَكُمْ بإرادَتِهِ الْحُرَّة، اتّباعاً لِأَهْوَائِهِ وشَهَوَاتِهِ وإيثاراً لمتاعَاتِهِ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فإنَّهُ باخْتِيارِه الْحُرِّ صَائِرٌ إِلَىٰ عَذَابِ الْحَرِيقِ فِي الْجَحِيم.

• ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾: أي: ما أَنْتُمْ حالَة كونِكُم ثابتِينَ عَلَىٰ شِرْكِكُمْ بِفَاتِنينَ أحداً، فِتْنَةَ تَسَلُّطٍ وإِكْرَاه، لِيَعْتَقِدَ مُعْتَقَداتِكُمْ، وَيَسْلُكَ طَرَائِقَكُمْ.

المراد بالفِتْنَةِ هُنَا الإضْلَالُ بالإغْوَاءِ والإغْرَاءِ والوساوس والتَّسْويلات.

• ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾: أي: لَكِنْ مَنْ هُوَ سَالِكٌ باختيارِه الْحُرّ، مَسَالِكَ تُوصِلُهُ إلىٰ أَنْ يَكُونَ مُعَذَّباً يَوْمَ الدِّينِ بالْحَرِيقِ في الْجَحِيم، فإنَّهُ يَجِدُ فِيمَا تَدْعُونَهُ إِلَيْهِ مَا يَهْوَىٰ، فَيَسْتَجِيبُ لإغْوَائِكُمْ وَتَضْلِيلَاتِكُمْ، ومَصِيرُهُ، باخْتِيَارِهِ الْحُرِّ أَنَّهُ صَالِي الْجَحِيم.

صَالي: اسْم فاعِل من «صَلِيَ النَّارَ، وصَلِيَ بها» أي: احْتَرَقَ فيها، أو عُذِّبَ فيها عذابَ الْحَرِيق.

وبهذا تمّ تدبر الدَّرْسَ الرابع من دُروس سورة (الصَّافات). والحمد لله على مَعُونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.



(٩)
التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دُروس سورة (الصّافّات) وهو الآيات من (١٦٤ ـ ١٦٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

تمهيد:

فِي آيَاتِ هٰذا الدَّرْسِ تَوجيهٌ لِلْمُؤْمِنين أَنْ يَقُولُوا للمشْرِكِينَ، مُعْلِنِينَ مَوْقِفَهُمُ المضادَّ لِمَوَاقِفِ كُلِّ الكافِرين، وأنْ يقولُوا: إِنَّهُمْ هُمُ الصَّافُونَ فِي

صَلَواتِهِمْ وَفِي دَعْوَتِهِمْ إلَىٰ دِينِ رَبِّهِمْ، وَفِي جِهَادِهِمْ وَقِتَالِهِمْ إذَا دَعَا الواجِبُ لِذَلك، وَإِنَّهُمْ هُمُ المسَبِّحُونَ الَّذِينَ يُنَزِّهُون رَبَّهُمْ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بذاتِهِ وَصِفَاتِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه.

مُقَدِّمَة عَامَّة:

جَاءَ فِي أَوَّل سُورة (الصَّافَّات) تَمْجِيدُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِجَمَاعَاتِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّة الْوَاحِدَةِ، مُنْذُ بَدْءِ التَّارِيخ الْبَشَرِي حَتَّىٰ آخِرِ جَمَاعَةٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بأسْلُوبِ الْقَسَمِ بها فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾.

وَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ قُبَيْلَ أَوَاخِرِ السُّورَةِ، أَنْ يُعَلِّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُعْلِنُوا للنَّاسِ أَجْمَعِينَ مِنْ دُونِهِمْ، أَنَّهُمْ مُنْفَصِلُون مُتَمَيِّزُونَ عَنِ النَّاسِ فِي مَقَامِهِم الإيمانِيِّ الإسْلَامِيِّ، الَّذِي يُلازِمُونَهُ وَلَا يُفَارِقُونَهُ، فَلَا يَتَعَدَّوْنَهُ إلَىٰ أيِّ مَقَامٍ آخَرَ يَقُومُ عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ والْأَدْيانِ والمذاهِبِ المخالِفَةِ لِدِينِ اللهِ الحقِّ، الَّذِي أَدَّىٰ رِسَالَاتِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله ﷺ.

وَأَنْ يُعْلِنُوا أَنَّهُمْ هُمْ مِنْ دُونِ النَّاسِ الصَّافُّون في صَلَوَاتِهِمْ، وفِي أَنْواعِ جِهَادِهِمْ، وَفِي سَائِرِ شُؤُونِ حَيَاتِهِمْ، بِصُفُوفٍ مُتَراصَّةٍ مُنْتَظِمَة، غَيْرِ مُتَفَرِّقَةٍ وَلَا مُتَشَاقَّة، ولَا مُتَنَافِرَة.

وَأَنْ يُعْلِنُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْمُسَبِّحُونَ لِرَبِّهِمْ، الْمُنَزِّهُونَ لَهُ مِنْ كلِّ مَا لَا يَلِيقِ بِذَاتِهِ وَلَا بِصِفَاتِه.

فَتَمَيُّزُهُمْ بِمَقَامٍ خَاصٍّ بِهِمْ مُنْفَصِلٍ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ يُبْرِزُ أَنَّهُمْ أَمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ، وَهُمْ سَائِرُونَ عَلَىٰ طَرِيقِ الأمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْوَاحِدَةِ، الْمُتَتَابِعَةِ المواكِبِ بقِيَادَاتِ رُسُلِ اللهِ وأنبيائِهِ مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ،

حَتّىٰ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الْمُؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) خِطَاباً لِلرُّسُلِ جَمِيعاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾.

وأمَّا الْتِزامُ المؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمَاعَتِهِمْ الانْضِبَاطَ بِالصَّفِّ الْوَاحِدِ، في صَلَوَاتِهِمْ وَعِبَادَاتِهِم الأخرى، وَجِهَادِهِمْ وَقِتَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَسَائِرِ شُؤُونِ حَيَاتِهِمْ، فَهُوَ يَمْنَحُهُمْ قُوَّةً لَا تُغْلَبُ، وَعِزَّةً وَمَنَعَةً بَيْنَ النَّاسِ، مَحْمِيَّةً بِحِمَايَةِ اللهِ وَمَحْفُوظَةً بِحِفْظِهِ.

وقَدْ عَلَّمَنَا اللهُ فِي الإِسْلَامِ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَة مَعَ الْجَمَاعَةِ فِي صُفُوفٍ مُنْتَظِمَةٍ مُنْضَبِطَةٍ، تُتَابِعُ إِمَاماً فِي قِيَامِهِ وَرُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ وَجُلُوسِهِ.

وَأَبانَ لَنَا في سُورَةِ (الصَّفّ/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول) أنّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً، فَقَالَ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

وَأَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ آمَنُوا بأَنْ يَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْبِرِّ والتَّقْوَىٰ، ومَعْلُومٌ أَنَّ مِثْلَ هٰذا التعاوُن هُو مِنْ ثَمَرَاتِ اجْتِمَاع المؤمنين المسْلِمِينَ صَفّاً وَاحِداً، ولا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّفِّيَّ لَا يَلْزَمُ فِيه أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ سَطْرٍ أُفُقِيٍّ أَوْ سَطْرٍ طُولِي، بَلِ الْعَمَلُ الصَّفِّيُّ هُو الّذِي يَخْضَعُ لِنِظَام وَاحِدٍ تُحَرِّكُهُ قِيَادَةٌ وَاعِيَةٌ ذَاتُ إِمَامَةٍ، وَهٰذا يَخْتَلِفُ باخْتِلَافِ الْعَمَلِ الَّذي يَقْتَضِي الْعَمَلَ التَّعَاوُنِيَّ التَّكامُلِيّ.

فَالْعَمَلُ الصَّفِّيُّ في الْحَرْبِ يَرْسُمُ للطائراتِ نِظَامَ عَمَلٍ مُتَعَاوِنٍ مَعَ الآلِيَّاتِ الْحَرْبِيَّةَ الَّتِي تَمْشِي علَىٰ الْأَرْضِ، وَمَعَ الْجُنُودِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ، وَمَعَ الأَسْلِحَةِ الْخَفِيفَةِ والثَّقِيلَة، كالمدافِع، والصواريخ، والبنادِقِ والقنابل الْيَدَوِيَّة وَغَيْرِها.

وهَـٰذا الْعَمَلُ المتَعَاونُ يَرْسُمُ لِكُلِّ مَجْمُوعَةٍ أَوْ فَرْدٍ مَوْقِعاً مُحَدَّداً في سَاحَةِ مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ أَوْ سَاحَاتِها، ضِمْنَ نِظَام تَكَامُلِيّ، سَواءٌ أكان هـٰذا الموقِعُ مُتَقَدِّماً أَمْ مُتَوَسِّطاً أَمْ مُتَأَخِّراً، وَفِي أَيِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ أَوْ سَاحَاتِها.

فَعُنْوانُ الصَّفِّ يَشْمَلُ كُلَّ نِظَامٍ عَامٍّ تَكَامُلِيٍّ تَقْتَضِيهِ المَصْلَحَةُ، ذَاتُ النَّتَائِجِ الَّتِي يُرْجَىٰ نجاحُهَا وَإِعْطَاؤُهَا أَفْضَلَ الثَّمَرَاتِ.

وَأَمَّا كَوْنُ المؤمِنين المسْلِمِينَ هُمُ المُسَبِّحُونَ، فَهُو بَيَانٌ لِلْوَاجِبِ الإيمانيِّ الاعْتِقَادِي، الّذِي يُمَيِّزُ المؤمِنينَ عَنْ جَمِيعِ الْكَافِرين، إذِ الْكَافِرُونَ لَا يُسَبِّحُونَ اللهَ وَلَا يُنَزِّهُونَهُ، بَلْ يَكْفُرُونَ بِهِ مِنْ أَخَفِّ أَنْوَاعِ الكُفْرِ وَهُوَ الشِّرْكُ، إلَىٰ أشَدِّ أَنْوَاعِ الكُفْرِ وهُوَ جُحُودُ وُجُودِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، واعْتِقَادُ أَنَّهُ لَا رَبَّ، وأَنَّ الْكَوْنَ مَادَّة.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ يُرْشِدُ المؤمنينَ المُسْلِمِينَ أَنْ يُعْلِنُوا للنَّاس أَجْمَعِينَ ما يلي:

• ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾:

مَقَامٌ: أي: مَكَانُ قِيام مَعْنَوِيٍّ يَخْتَارُه القَائِمُ فيه، فالموضُوعُ يَتَعَلَّقُ بالمُعْتَقَدَاتِ ولوَازِمِها من السُّلُوكِيَّات، ومَا تَقْتَضِيهِ مِنَ المفهوماتِ حَوْل مُخْتَلِفِ شُؤُونِ الْحَيَاة.

والمعنى: وَمَا مِنَّا نَحْنُ الْبَشَرَ فَرِيقٌ إلَّا لَهُ مَقَامٌ اعْتِقَادِيٌّ وسُلُوكِيٌّ اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ ثَابِتاً عَلَيْهِ، ومُلَازِماً له.

فَمَقَامُنَا الّذِي اخْتَرْنَا لُزُومَهُ والثَّبَاتَ عَلَيْهِ، هُوَ مَقَامُ الإيمَانِ الصَّحِيحِ بِرَبِّنا، المقْتَرِنِ بالبراهين القواطِعِ، والإسْلامِ لَهُ بإعْلَانِ الطَّاعَةِ والانقياد

لِأَوَامِرِهِ ونَواهِيهِ، الَّتِي بلَّغَهَا رَسُولُهُ المؤيَّدُ بالمعجزاتِ الباهرات الدَّالاَتِ بيقين على صِدْقِهِ فيما يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّه.

فَنَحْنُ ثَابِتُونَ على هـٰذا المقام، وَمُلازِمُونَ لَهُ، وَمقامُنَا هـٰذا مَعْلُومٌ واضِحٌ لَا غُمُوضَ فيه، ولَيْسَ عَلَيْهِ غِشَاوات، فَلَا تُجْهِدُوا أَيُّهَا المخالِفُونَ لَنَا أَنْفُسَكُمْ فِي فِتْنَتِنَا، لِزَحْزَحَتِنَا عَنْ إيمانِنَا وإسْلامِنَا بإغْرَاءَاتِكُمْ، وإغْوَاءَاتِكُمْ، وزُخْرُفِ أَقْوَالِكُمْ، وَوَسَاوِسِكُمْ، وَإِطْمَاعَاتِكُمْ لَنَا بِالْبَاطِلِ، وَتَزْيِينَاتِكُمْ مَسَالِكَ الْأَهْوَاءِ والشهوات.

وكُلُّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ لَهُ مَقَامٌ مِنْ مَقَامَاتِ الكُفْرِ بما آمَنَّا نَحْنُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ، تُجَاهَ رَبِّنَا، وَنَشْأَتِنَا، وَمَصِيرِنَا، والْغَايَةِ مِنْ خَلْقِنا، وَوَظِيفَتِنَا في هـٰذِهِ الحياة الدُّنيا.

فالمشْرِكُونَ مِنْكُمْ لَهُمْ مَقَامٌ شِرْكِيٌّ قَدِ اخْتَارُوا أَنْ يُلازِمُوه، إذْ وَجَدُوهُ مُرْضِياً لِأَهْوَائِهِمْ، وَشَهَواتِهِمْ، وَنَزَعَاتِهِمْ، ونَزَغَاتِ شياطِينِهِمْ.

وَجَاحِدُوا وُجُودِ الرَّبِّ الْخَالِقِ لَهُمْ مَقَامٌ جُحُودِيٌّ قَدِ اخْتَارُوا أَنْ يُلازِمُوه، إذْ وَجَدُوه مُرْضِياً لِكِبْرِهِمْ، وانْطِلَاقِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا فَاجِرِينَ مُجْرِمِين، لَا يَرْدَعُهُمْ عَنْ شُرُورِهِمْ رَادِعٌ، ولَا يُخِيفُهُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُخِيفٌ يَضَعُونَ احْتِمَالَ وُجُودِه في تَصَوُّراتِهِم.

وهَكَذا كُلُّ فَرِيقٍ لَهُ اعْتِقادٌ مَا، هُوَ مُعْجَبٌ بِهِ وَمُلازِمٌ له، لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ لَهُ، فإذا كانَ عَلَىٰ غَيْرِ إيماننا وإسْلَامِنَا، دَعَوْنَاهُ إلى نَبْذِهِ والانتِقَالِ إلى مَقَامِنَا، فإنْ أبَىٰ تَرَكْنَاهُ وَمَقَامَهُ، وَسَوْف يُلاقي مَصِيرَهُ الَّذِي هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ عِنْدَ رَبِّه، عَذَاباً بالْحَرِيقِ بالنَّار في الجحيم يَوْمَ الدِّين، ولْيَعْلَمْ أَنَّهُ صَائِرٌ إِلَيْهِ باخْتِيَارِه الْحُرّ، لَمْ يُجْبِرْهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَقَدْ مَنَحَهُ رَبُّهُ إرادَةً حُرَّةً غَيْرَ مَجْبُورَة، وَأَدَاة تَفْكِيرِ وفَهْمٍ يُفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ والْبَاطِلِ، والْخَيْرِ والشَّرِّ، وعَقْلاً قادِراً على إدْرَاكِ المعارِف، وعَقْلاً إرَادِياً يَقْدِرُ بِهِ أَنْ يَضْبِطَ

أَهْوَاءَ نَفْسِهِ وَشَهَواتِها، وَلَوْ فِي حُدُودِ الإيمانِ باللهِ رَبِّهِ، وإِعْلانِ الإسْلَامِ بأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُو، لِيَنْجُو مِنَ الْخُلُودِ في عَذَابِ النَّار.

وعبارَةُ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ تُشْبِهُ التَّعْلِيمَ الرَّبَّانِيَّ الذي أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ بِهِ، فِي قولِهِ لَهُ في سُورَةِ (الأنعَام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

الْمَكَانَة: مُؤَنَّثُ المكان، وهِيَ المقامُ الاعْتِقَادِيُّ والسُّلُوكي، الَّذِي يَخْتَارُهُ لِنَفْسِهِ الْمَوْضُوعُ في الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان.

أي: اعْمَلُوا علَىٰ المقَامِ الاعْتِقَادِيّ والسُّلُوكِيِّ الَّذِي اخْتَرْتُمُوهُ لِنُفُوسِكُمْ، وأصْرَرْتُمْ علَىٰ مُلازَمَتِهِ وَعَدَمِ مُفَارَقَتِهِ إلى مَقَامِ الْحَقِّ والرُّشْد، إِنِّي عَامِلٌ وَأنَا علَىٰ مَقَامِي الاعْتِقَادِيّ والسُّلُوكي مِنَ الإيمانِ الكامل الصَّحِيح بِرَبِّي، والإسْلَامِ لَهُ، ولَنْ تُزَحْزِحُوني عَنْ مَقَامِي مَهْمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ وَسَائِل.

فالْأَمْر الَّذِي أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ رَسُولَهُ، أَرْشَدَ اللهُ عَامَّةَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقُولُوا نَظِيرَهُ لِغَيْرِ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمين، من أصْحَابِ الْمِلَلِ والنِّحَلِ والمذاهِب، المضَادَّةِ لِمَا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ رُسُلَهُ دَاعِينَ وَهَادِينَ، ومُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِين.

ولَسْتُ أَرَىٰ أَنَّ هَـٰذا خَاصٌّ بِمَوْضُوعِ التّعْلِيم الجدَلِيِّ الّذِي جاء في الدرس الرابع السابق، بَلْ هُو عَامٌّ في كُلِّ قضايا الدِّينِ ومَسَائِلِهِ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُتَابِعاً إِرْشَادَ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُعْلِنُوهُ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، علَىٰ اخْتِلَافِ فِرَقِهِمْ وَمَذاهِبِهِمْ:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾:

أي: وَإِنَّا لَنَحْنُ وَحْدَنَا مِنْ دُونِ النَّاسِ جَمِيعاً، المطالَبُونَ بِأَنْ نَكُونَ فِي حَيَاتِنَا، وَعِبَادَاتِنَا لِرَبِّنَا مُنْضَبِطِينَ بالنِّظَامِ الصَّفِّيِّ، فِي وَحْدَةٍ إيمَانِيَّةٍ إسْلَامِيَّةٍ جَمَاعِيَّة عَلَىٰ الْحَقِّ الَّذِي جاء به دِينُنَا عَنْ رَبِّنَا.

والنِّظَامُ الصَّفِّيُّ يَقْتَضِي قِيَادَةً وَإِمَامَةً تُتَّبَعُ، كالإمَامِ فِي الصَّلَاةِ.

اسْتُفِيدَ الْحَصْرُ والْقَصْرُ مِنْ تَعْرِيفِ طَرَفَي الإسْنَادِ، مَعَ التوكيد بـ«إنَّ ـ والْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة ـ واللَّامُ المُزَحْلَقَة» في كُلٍّ مِنَ الآيَتَيْنِ (١٦٥) و(١٦٦).

أمَّا أصْحَابُ الْمِلَلِ والنِّحَلِ والْمَذَاهِبِ الأُخْرَىٰ، فَتَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ، تُفَرِّقُ بَيْنَها المنافِعُ والْمَصَالِحُ مِنَ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، ويُلْقي فِيهَا العداوةَ والبَغْضَاءَ، التَّحَاسُدُ علَىٰ مَا يَنَالُ الأفرادُ، أو تَنَالُ الْعِصَابَاتُ مِنْهُمْ، مِنْ مَغَانِمَ وَمَكَاسِبَ مَادِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّة، عَنْ طَرِيقِ الْمِلَّةِ أَوْ النِّحْلَةِ أو المذهَب.

بِخِلَافِ المؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ الصَّادِقِينَ فإنَّ مَطامِعَهُمُ العظْمَىٰ تَتَعلَّقُ بمَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ فِي جَنَّاتِ النّعيم يَوْمَ الدِّينَ، فَيُكْسِبُهُمْ ذَلِكَ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، فتَتَضاءَلُ عِنْدَهُمْ مَشَاعِرُ الْحَسَدِ، وَتَقْوىٰ لَدَيْهِمْ مَشَاعِرُ الأُمَّةِ الْوَاحِدَة، بِنِظَامِ الانْضِبَاطِ الصَّفِّي، علَىٰ مَا سَبَقَ بيانُهُ فِي المقدِّمَةِ العامَّة.

وَلَمَّا كَانَ تَسْبِيحُ اللهِ بِمَعْنَىٰ تَنْزِيهِهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بذاتِهِ، وَصِفَاتِهِ، وعَظِيم سُلْطَانِهِ، لَا يُوجَدُ إلَّا فِي عَقِيدَةِ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِين، لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُلْتَزِمُونَ وَحْدَهُمْ مِنْ دُونِ النَّاسِ، بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، علَىٰ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ وَبَلَاغَاتِهِ عَنْ رَبِّهِ، كَانَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ يُعْلِنُوا للنَّاسِ جَمِيعاً، أَنَّهُمْ وَحْدَهُمْ هُمُ المُسبِّحُونَ لِربِّهِمْ، كَمَا عَلَّمَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ:

- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

أَصْلُ مَعْنَىٰ تَسْبِيحِ اللهِ تَنْزِيهُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِذَاتِهِ وصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، ويُحْمَلُ غَالِباً عَلَىٰ نَفْي الصِّفَاتِ الّتِي يَصِفُهُ بِهَا الْوَثَنِيُّونَ والمُشْرِكونَ،

كَالإشْرَاك فِي رُبُوبِيَّتِهِ، والإشْرَاكِ فِي إلَهِيَّته، وجَعْلِهِ أباً لِأَوْلَادٍ مِنْ نَسْلِهِ، أَوْ بِالتَّبَنِّي، أَوْ أَنَّ لَهُ صَاحِبَةً، أَوْ أَنَّ لَهُ صِفَاتٍ كَصِفَاتِ خَلْقِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء، إِلَىٰ نَحْوِ هَـٰذِهِ الضَّلَالَات.

لَكِنَّ الْمُرَادَ مِنَ التَّسْبِيحِ هُنَا عَلَىٰ مَا أَرَىٰ، يَشْمَلُ إِثْبَات صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ، مَعَ تَنْزِيهِهِ عَنِ الصِّفَاتِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِهِ، لِأَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ مُنَزَّهٌ أَيْضاً عَنْ عَدَمِ اتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الكَمَالِ الَّتِي هِيَ لَهُ، كَالْعِلْم، والْقُدْرَةِ، وَالسَّمْعِ، والْبَصرِ، والْحِكْمَةِ، والرَّحْمَةِ، إِلَىٰ سَائِرِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَىٰ، وَصِفاتُهُ الْعُلْيَا.

وَهَـٰذَا التَّسْبِيحُ الْحَقِيقِيُّ الشَّامِلُ لَا يُوجَدُ إِلَّا عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ حَقّاً وَصِدْقاً.

وَمِنَ التَّسْبِيحِ الَّذِي تَشْمَلُهُ هَـٰذه العبارة أَيْضاً، التَّسْبِيحُ الْعَمَلِيُّ، وهَـٰذَا يَكُونُ باجْتِنَابِ الْأَعْمَالِ الشِّرْكِيَّة الَّتِي يَفْعَلُهَا الْمُشْرِكُونَ، ويَكُونُ أَيْضاً بإخْلَاصِ الْعِبَادَاتِ والطَّاعَاتِ والْقُرُبَاتِ من الواجباتِ والمَنْدُوبَاتِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، خَالِصَةً مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الخفِيّ، وخالِيَةٌ من الرِّيَاءِ لِكَسْبِ مَنَافِعَ دُنْيَوِيَّة.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرس الخامِسِ من دُروس سورة(الصَّافات). والحَمْدُ لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وتَوْفِيقه وفَتْحِه.



(١٠)
التدبّر التحليلي للدّرس السّادس من سورة (الصَّافّات) وهو الآيات من (١٦٧ ـ ١٧٠)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

القراءات:

(١٦٩) • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرُو، وابْنُ عامر، ويَعْقُوبُ: [الْمُخْلِصِينَ] بِكَسْرِ اللام، اسْم فاعل من فعل «أَخْلَصَ».

وقرأها باقي القراء العشرة بِفَتْحِ اللَّام: [الْمُخْلَصِينَ] اسْم مَفْعُول مِنْ فِعْل «أخلص».

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد، أي: أخْلَصُوا لِلَّهِ إيمانَهُمْ وَإسْلامَهُمْ، فجعَلَهُمُ اللهُ عِنْدَهُ من المخْلَصِينَ.

تَمْهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضُ مَقَالَةٍ مِنْ مَقَالَاتِ الْمُشْرِكِينَ، الَّتِي كَانُوا يَقُولُونَهَا قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَقَدْ كانوا يَقُولون: لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا كِتَاباً هُوَ ذِكْرٌ لَنَا مِثْلَ كتابِ الْيَهُودِ التَّوْرَاة، أو مِثْلَ كِتَابِ النَّصَارَىٰ الإنْجِيل، لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلِصِينَ والمُخْلَصِينَ.

فلَمَّا جاءَهُمُ الْقُرْآنُ ذِكْراً عَظِيماً أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَىٰ رَسُولٍ عَرَبِيٍّ هُوَ مِنْهُمْ كَفَرُوا بِهِ، وَكَذَّبُوا رسُولَ رَبِّهِمْ بهِ.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ مَصِيرَهُمُ الَّذِي هُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ، حَرِيقاً في نَارِ جَهَنَّمَ جَزَاءَ كُفْرِهِمْ بالْحَقِّ الّذِي جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهم.

مقدمة عامّة:

سبَقَ في سُورة (يس/ ٤١ نزول) لَدَىٰ تَدَبُّر الآية (٦) مِنْها. وفي سُورَة (القصص/ ٤٩ نزول) لدَىٰ تدبُّر الآيات من (٤٦ ـ ٥١) بَيانُ مَا تَرَجَّح لَدَيَّ، مِنْ أَنَّ الْعَرَبَ قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا مَسْؤُولِينَ عَنِ اتِّبَاعِ الدِّين الْحَقِّ، الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسَىٰ فَرُسُلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِهِ

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وبَلَغَهُمْ هـٰذا الدِّينِ عَنْ طَرِيقِ أَتْبَاعِه، مَعَ الآيَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الَّتِي آتاهَا اللهُ عَزَّ وَجلَّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَعِيسَىٰ عَلَيْهِم السَّلَام، فَهُمْ لَيْسُوا مَعْفِيِّينَ باعْتِبَارِهِمْ أَهْلَ فَتْرَةٍ كما يَقُولُ بَعْضُ عُلَماءِ التَّوحِيد، والأدِلَّةُ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ تَدُلُّ على مَا تَرَجَّحَ لَدَيّ.

وقَدْ سَبَقَ لَدى تَدبُّر الآية (٦) من سورة (يٓس/ ٤١ نزول) عَرْضُ طَائِفَةٍ مِنْ هـٰذِهِ الأدِلَّة، مَعَ تَدَبُّر دَلَالَاتها، وكذلِكَ لَدَىٰ تَدَبُّرِ الآيات من (٤٦ ـ ٥١) من سورة (القصص/ ٤٩ نزول) فأحِيلُ الْقَارِئَ على مَا سَبَقَ بَيَانُهُ وشَرْحُه.

وآيات هـٰذا الدَّرس السادِس من سورة (الصَّافَّات/ ٥٦ نزول) ذَاتُ صِلَةٍ مَا بما سَبَقَ فِي سُورَتَيْ (يٓس/ ٤١ نزول) و(القصص/ ٤٩ نزول).

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ وَفِي الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَىٰ: [**المخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللَّام.

أي: وَقَدْ كَانَ أَئِمَّةُ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّةَ الْمُعَاصِرُونَ للرسُول يَقُولُونَ قَبْلَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا كِتاباً رَبَّانِيّاً وَرِثْنَاهُ مِنَ الرُّسُلِ الْأَوَّلِينَ إسْمَاعِيلَ وإبْرَاهِيم أو غَيْرِهما، وَبَقِي لَدَيْنَا ذِكْراً نَرْجِعُ إلَيْهِ في عَقَائِدنا وَمَنَاهِجِ سُلُوكِنَا فِي حَيَاتِنَا، لَاتَّبَعْنَا آيَاتِهِ، وتَعْلِيمَاتِهِ، ومَا فِيهِ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهِي، وَلَكُنَّا بهـٰذا الاتّبَاعِ مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُخْلِصِينَ لَهُ في إيمانِنَا وَأَعْمَالِنَا، وَبِإخْلَاصِنَا لَهُ نَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الْمُخْلَصِينَ، إِذْ يَحْكُمُ لَنَا بِأَنْ نَكُونَ عِنْدَهُ خالِصِينَ مِنْ شَوائِبِ الْخُرُوجِ عَنِ الإيمانِ الحقّ، والطَّاعَةِ والانقيادِ لِأَوَامِره ونَوَاهِيهِ في الذِّكْرِ الَّذِي هو عِنْدَنا، والّذِي وَرِثْنَاهُ عن الرُّسُلِ الأَوَّلين.

لَقَدْ كانَ هـٰذا تَمَنِّياً دفَعَ إلَيْهِ غَيْرَتُهُمْ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ لدَيْهِمْ كِتَابُ التَّوْرَاةِ ذِكْراً لَهُمْ، وغَيْرَتُهم مِنَ النَّصارَىٰ الَّذِينَ لَدَيْهِمْ كِتَابُ الإنْجِيلِ، مَعَ كُتُبِ الْعَهْدِ الْقَدِيم عِنْدَ بَنِي إسْرَائيل.

[إِنْ] مِنْ ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ هِيَ المخفَّفَةِ مِنَ الثقيلَة، وتُفِيدُ التوكيد والتحقيق، وجَاءَت لَامُ الابْتِدَاء في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ فَارِقَةً لها عَنْ «إنْ» النّافِية.

• ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾:

«لَوْ» شَرْطِيَّة، «وأنَّ» وما بَعْدَها سدَّ مَسَدَّ فِعْلِ الشَّرْط.

﴿ذِكْرًا﴾: أي: كتَاباً رَبَّانِيَّاً مُنَزَّلاً يَكُونُ ذِكْراً لَنا نَرْجِعُ إلَيْهِ.

﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: مَوْرُوثاً مِن الرُّسُلِ الْأَوَّلِين.

• ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ و«المخلِصِينَ» في القراءة الأُخرى، جَوَابُ الشَّرْط الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ «لَوْ».

لَكِنَّهُمْ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولٍ عَرَبِيٍّ مِنْهُمْ كِتَاباً هُوَ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ جَمِيعاً الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ كَفَرُوا به، دَلَّ عَلَىٰ هـٰذا الّذي كانَ مِنْهُمْ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ..﴾: أيْ: فَأَبَوْا أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وَكَذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِم محمّداً ﷺ، وظَهَرَ أَنَّ مَقُولَتَهُمْ قَبْلَ بِعْثَتِهِ قَدْ كَانَتْ تَعِلَّةً كاذِبَةً، واعْتِذَاراً ظاهِرِيّاً عَنْ عَدَمِ إيمانِهِمْ بمُوسَىٰ وكتابِهِ، وعِيسَىٰ وَكِتَابِهِ الحقّ.

وَأَنْذَرَهم اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بقوله في آخِرِ هذا الدَّرس.

• ﴿.. فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾: أي: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عِنْدَ مَوْتِهِمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، أنَّ كُلَّ مَا أنْذِرُوا بِهِ حَقٌّ، وأَنَّهُمْ بإصْرَارِهِمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ بالْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُم بِهِ رَسُولُ رَبِّهِمْ، وبِعِنَادِهِمْ، ومُكَابَرَتِهِمْ، وجُحُودِهِمْ، قَدْ جَلَبُوا لِأَنْفُسِهِمْ عَذَاباً أبَدِيّاً، وهُوَ عَذَابُ حَرِيقٍ فِي الْجحيم، مَعَ مَا يُرَافِقُهُ مِنْ أَنْوَاعٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْعَذَابِ الأَلِيم.

لَمْ يُصَرَّحْ في الْعِبَارَةِ هٰـذِهِ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي سَوْفَ يَعْلَمُونَهَا، عِنْدَ الموتِ، وبَعْدَ المَوْتِ، وَيوْمَ الْقِيَامَةِ، إذْ قَدْ جاءَتْ بِهَا نُصُوصٌ مُتَعَدِّدَةٌ كَثِيرَة، نَزَلَتْ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ إنْزَالِ سُورَةِ (الصَّافَّات/ ٥٦ نزول).

ومَعْلُومٌ مَا فِي هٰـذِهِ الْعِبَارَةِ مِنْ إنْذَارٍ شَدِيدٍ بالْعَوَاقِبِ الوخيمَةِ جدّاً، لَهُمْ وَلِكُلِّ أَمْثَالِهِم الْكَافِرِينَ بالحقِّ الرَّبَّاني، والمُكَذِّبِينَ رُسُلَ رَبِّهِمْ، فِي نُبُوَّاتِهِمْ ورِسَالَاتِهِمْ، وَمَا جَاؤوا بِهِ بَلَاغاً عَنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

وبهٰـذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْسِ السَّادِسِ من دُرُوس سورة(الصَّافَّات). والحَمْدُ لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِه.



(١١)
التدبّر التحليلي للدّرْسِ السّابع من سورة (الصَّافَّات) وهو الآيات من (١٧١ ـ ١٨٢) آخر السورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

تمهيد:

في آيَات هٰـذا الدَّرس السابع من دُروس سورة (الصَّافَّات) طَمْأَنَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ، ولِلّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، بأنَّهُمْ

مَنْصُورُونَ حَتْماً فِي المستقْبَلِ غَيْرِ الْبَعِيدِ، ضِمْنَ سُنَّتِهِ - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه - الَّتِي سَبقَتْ بِهَا كَلِمَتُه.

وفيها تَوجِيهٌ مِن اللهِ لِرَسُولِهِ بِشَأْنِ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ مع المشْرِكِينَ المعانِدِينَ المسْتَكْبِرِينَ، إِبَّانَ تَنْزِيل السُّورة.

التدبُّر التَّحْلِيلِيّ:

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَتَحَدَّثُ بِضَمِيرِ المتكلّم العظيم طَمْأَنَةً لِرَسُولِهِ ولِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه:

• ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾:

العطف في أوّل هـٰذا البيان هُوَ مِنْ عَطْفِ مَوْضُوعٍ علَىٰ موضوع، وأَكَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَضْمُونَهُ بعبارَة: [لَقَدْ].

والْمَعْنَىٰ: لَقَدْ سَبقَتْ كَلِمَتُنَا المعَبِّرةُ عَنْ تقديرِنَا وقَضَائِنَا، لِأَجْلِ عِبَادِنَا المرسَلِينَ، ولِأَجْلِ جُنْدِنَا مِنَ المؤمِنِينَ الَّذِينَ يُجَاهِدُونَ لِنُصْرَةِ دِينِنَا وإِعْلَاءِ كَلِمَتِنَا، هٰذِهِ الْكَلِمَةُ الْمُشْتَمِلَةُ على بَيَانَيْنِ مِنْ عِدَّة كَلِمَاتٍ مُفْرَدَات:

(١) إِنَّ رُسُلَنَا لَهُمُ المَنْصُورُون.

(٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ.

أي: إِنَّ رُسُلَنَا لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ بِنَصْرٍ مِنَّا فِي آخِرِ صِرَاعَاتِهِمْ لأَقْوَامِهِمْ، مَهْمَا نَالَهُمْ في مَسِيراتِهِمْ مَعَهُمْ مِنْ أذىً وهزائِمَ جُزْئِيَّةٍ مُؤَقَّتةٍ.

وقَدْ أَكَّدَتْ شَوَاهِدُ تَارِيخِ الرُّسُلِ جَمِيعاً هـٰذِهِ الحقيقة، وَلَا يَتَضَمَّنُ الْوَعْدُ بِالنَّصْرِ أَنْ يَتَفَوَّقَ الرُّسُلُ علَىٰ أَعْدَائِهِمْ فِي الْحَرْبِ والْقُوَىٰ الْعَسْكَرِيَّة، وَيَغْلِبُوهم، بَلْ يَكْفِي في تَحْقِيقِ الْوَعْدِ بالنَّصْرِ أَنْ يَنْتَقِمَ اللهُ بالخوارِقِ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، كَمَا أَهْلَكَ اللهُ قَوْمَ نوح، وَقَوْمَ هود وقومَ صالح، وقومَ لُوط،

وقومَ شُعَيْب، وفِرْعَوْنَ وَجَيْشَهُ الذي خَرجَ مَعَهُ لِقِتَالِ بَنِي إِسْرَائِيل، أَوْ يَنْصُر مَا جَاؤوا بِهِ نَصْرَ عُلُوٍّ وانْتِشَارٍ وإِظْهَارٍ.

وإِنَّ جُنْدَنَا الَّذِينَ يُقَاتِلونَ أحْزَابَ الكُفْرِ صَادِقِينَ، ضِمْنَ وَصَايَانَا وتَعْلِيماتِنَا، والَّتِي مِنْهَا أَخْذُهُمْ بِالْأَسْبَابِ الماديَّةِ والمعْنويَّةِ، دُونَ تَفْرِيطٍ وَلَا تَقْصِيرٍ بها، لَهُمُ الْغَالِبُونَ أَخِيراً في مَعَارِكِ الْقِتَالِ، مَهْمَا كَانَ بَيْنَ الْبِدَايَاتِ والنِّهَايَاتِ مِنْ فَرٍّ وَكَرٍّ، وبَعْضِ هزائِمَ لِجُنْدِ اللهِ.

وَمَا قالَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَلِمَتِهِ بِشَأْنِ رُسُلِهِ، كَتَبَهُ عِنْدَهُ فِي اللَّوْح المَحْفوظ حقيقَةً عِلْمِيَّةً عَمَّا سَيَكُونُ فِي المُسْتَقْبَلِ تَنْفِيذاً لِتَقْدِيره وَقَضَائِهِ السَّابِقَيْنِ، دَلَّ على هٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الْمُجَادَلَة/٥٨ مصحف/١٠٥ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾: أي: يَعْصُونَهُما وَيُغْضِبُونَهُما بِكُفْرِهِمْ، ومُقَاوَمَةِ دِينِ رَبِّهِمْ، وَمُقَارِعَةِ أَوْلِيَائِهِ المؤمنين.

وَبَشَّرَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ رَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِأَنَّهُمْ مَنْصُورونَ، وبأَنَّ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ سَيُقَاتِلُونَهُمْ مَغْلُوبُون، وقَدْ تَحقَّقَتْ هٰذِهِ الْبِشَارَة في غَزْوَةِ بَدْرِ الكُبْرَىٰ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (الْأَنفَالِ/٨ مصحف/٨٨ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ، أَنْ يَقُولَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: سَتُغْلَبُونَ، أيْ: مَهْمَا أَعْدَدتُمْ مِنْ وَسَائِلَ، لِيُضْعِفَ مِنْ عَزَائِمِهِمْ، وَيُنَبِّهَهُمْ عَلَىٰ ضَلَالِهِمْ وفَسَادِ مَا هُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) خِطَاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

أي: سَتُغْلَبُونَ فِي مَعَارِكِ القِتَالِ الدُّنْيَوِيَّة بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم، وسَوْفَ تُسَاقُونَ وَتُجْمَعُونَ، وَيَكُونُ سَوْقُكُمْ وجَمْعُكُمْ إِلَىٰ جَهَنَّم دَارِ عَذَابِكُمْ، الَّتِي سَتَكُون مَكَاناً مُعَدّاً لَكُم تَسْتَقِرُّونَ فيه.

الْمِهَادُ: المكَانُ الْمُمَهَّدُ الْمَوَطَّأُ، أُطْلِقَ عَلَىٰ مَكَانِ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّم عَلَىٰ سَبِيلِ التهَكُّم بِهِمْ والسُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ، بِسَبَبِ كُفْرِهِم الْعِنَادِيِّ الْجُحُودِيِّ لِلْحَقِّ.

وَأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ رَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه هُمْ حِزْبُ اللهِ، وأَنَّهُمْ هُمُ الْغَالِبُونَ، أي: إِذَا عَمِلُوا بِوَصَايَاهُ السَّبَبِيَّةِ وَكَانُوا صَادِقِين مُخْلِصِينَ، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: وَمَنْ يَجْعَلِ اللهَ وَرَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا أَوْلِيَاءَه، يُؤَيِّدُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ وَيُجَاهِدُ جِهَادَهُمْ، فَهُو مِنْ حِزْبِ اللهِ، وَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ.

ومَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ حِزْبِ اللهِ فَهُوَ مِنْ جُنْدِ اللهِ، فَهُوَ يَدْخُلُ في وَعْدِ اللهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يُوصِي رَسُولَهُ مُحمّداً ﷺ، بِشَأْنِ المعانِدِينَ الميؤُوسِ مِنِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَةِ الْحقّ، وهُمْ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّةَ إِبَّانَ تَنْزِيلِ سُورَةِ (الصَّافات/ ٥٦ نزول):

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: أَيْ: فَابْتَعِدْ عَنْهُمْ، ولاَ تَشْغَلْ وَقْتَكَ وَطَاقَاتِكَ بِمُعَالَجَتِهِمْ لِيُؤْمِنُوا، فَقَدْ أَثْبَتَتْ تَجْرِبَتُكَ الطَّوِيلَةُ مَعَهُمْ أَنَّهُمْ مَيؤُوسٌ مِنْ إِصْلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّة، وَوَجِّهْ جُهُودَكَ وَطَاقَاتِكَ لِلْمَطْمُوعِ بِاسْتِجَابَتِهِمْ وَلَوْ طَمَعاً يَسِيراً، وَهَـٰؤُلاَءِ كَثِيرُونَ.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾: أي: حتَّىٰ وَقْتٍ تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ أَنْ تُوَاجِهَهُمْ فِيهِ بِقِتَالٍ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين، وعِنْدَئِذٍ نَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ، ويُظْفِرُكُمْ بِهِمْ.

وَقَدْ تَحقَّقَ فيما بَعْدُ مَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ هـٰذِهِ العبارة، فَنَصَرَ اللهُ جُنْدَهُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، وَأَوْقَعَ بِأَئِمَّةِ الْكُفْرِ والْعِنَادِ في مَكَّةَ خِزْياً وَعَاراً، وَنَكَبَاتٍ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَتَوَقَّعُها، وَأَمَدَّ اللهُ جُنْدَهُ بِمَلائِكَةٍ يُقَاتِلُون مَعَهُمْ فَيَضْرِبُونَ فَوْقَ أَعْنَاقِ الْكَافِرِينَ، وَيَقْطَعُونَ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ.

• ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾: أي: فإذا تَوَلَّيْتَ يَا مُحَمَّدُ عَنِ الاشْتِغَالِ بِدَعْوَتِهِمْ، وَمُعَالَجَتِهِمْ لِيُؤْمِنُوا، إِذْ وَصَلُوا إلى حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا من أَنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الحرَّةِ، فَلَا تَكُنْ غَافِلاً عَنْهُمْ، بَلْ ضَعْهُمْ تَحت مُلَاحَظَتِكَ الدَّائِمَةِ بِبَصَرِكَ، لتَكُونَ عَلَىٰ عِلْمٍ بِمَا يُدَبِّرُونَ ضِدَّكَ، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وَاتَّبَعُوك، فَهُمْ أَعْدَاءٌ لَا يَدَعُونَ مَكِيدَةً يَكِيدُونَها إِلَّا جَعَلُوها ضِمْنَ تَدْبِيراتهم، وبهـٰذِهِ المتابَعَةِ الدَّائِمَةِ لَهُمْ بِبَصَرِكَ تَكُونَ عَلَىٰ حَذَرٍ مِنْ مَكَايِدِهِمْ، فَلَا تَدَعْهُمْ يُنَفِّذُونَ شَيْئاً مِنْهَا، بِتَدَابِيرَ مُضَادَّةٍ تَتَّخِذُهَا أَنْتَ والَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ، وَرَبُّكَ مَعَكَ مُلْهِمٌ وَمُسَاعِدٌ وَمُعِين.

﴿.. فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾: أي: فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَاقِبَتَهُمُ الْوَخِيمَةَ، وهِيَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بالْحَرِيقِ فِي نَارِ الجحيم، خالِدِينَ فيها أَبَداً.

وَسَوْفَ يُبْصِرُونَ فِي زَمَنٍ قَدْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً، كَيْفَ نَنْصُرُكَ والَّذِين آمَنُوا مَعَكَ عَلَيْهِمْ، وَهـٰذَا مَا تَحقَّقَ بَعْدَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ هـٰؤُلَاءِ الأَئِمَّةِ الْمَيْؤُوس مِنْ إيمانِهِم عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ، وَبِشَأْنِ مَقَالَاتِهِمْ السَّاخِرَاتِ حَوْلَ إِنْذَارَاتِ الرَّسُولِ لَهُمْ بِعَذابِ اللهِ، إِذْ صَدَرَتْ مِنْهُمْ مَقَالَاتٌ تُشْعِرُ بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ فِي إِنْذَارَاتِهِ لَهُمْ، وَظَاهِرُهَا يُشْعِرُ بِاسْتِعْجَالِهِمْ لَهَا:

• ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.

دَلَّتْ عِبَارَةُ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ عَلَىٰ أَنَّهُمْ صَارُوا يُوَجِّهُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ أَقْوَالاً فِيها اسْتِهْزَاءٌ بِإنْذَارَاتِهِ لَهُمْ بِعَذَابِ اللهِ، مِثْل:

- أَيْنَ الْعَذَابُ الَّذِي كُنْتَ وَمَا زِلْتَ تُنْذِرُنا بِهِ؟!

- لَوْ كُنْتَ رَسُولاً حَقّاً قَدْ أَرْسَلَكَ اللهُ إِلَيْنَا لَأَنْزَلَ بِنَا مَا كُنْتَ وَمَا زِلْتَ تُنْذِرُنَا به مِنْ عَذَاب.

- وسَبَقَ في سُورَةِ (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) بَيَانُ أَنَّهُمْ قَالُوا لِلرَّسُول ﷺ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً، أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً، إِلَىٰ غَيْرِ هٰذه مِنْ مَطَالِب جَاءَ بَيَانُها في الآيات من (٩٠ ـ ٩٣) مِن (الإسراء).

فَهمْ فِي ظَاهِرِ بَعْضِ عِبَارَاتِهِمْ يَسْتَعْجِلُونَ عَذَابَ اللهِ، مَعَ أَنَّهُمْ فِي الحَقِيقَةِ لَا يُرِيدُونَ إِنْزَالَ عَذَابِ الله بِهِمْ، لَكِنَّهُمْ يُشْعِرُونَ بِأَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ فِي إِنْذَارَاتِهِ لَهُمْ بِعَذَابِ الله، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ مُحمّداً لَيْسَ رَسُولاً صادِقاً يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّه.

وَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ الْعِلَاجِيَّةُ أَنْ يُعَامِلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ أَقْوَالُهُمْ.

فأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَا يلي:

إِنْ كَانُوا يَطْلُبُونَ حَقِيقَةً أَنْ نُعَجِّلَ تَعْذِيبَهُمْ، قَبْلَ الْوَقْتِ الَّتِي قَضَتْ حِكْمَتُنَا أَنْ نُعَذِّبَهُمْ فِيه، فَلْيَعْلَمُوا أَنَّ عَذَابَنَا إِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ، مُحِيطاً بِهِمْ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهِمْ، وَغامِراً لَهُمْ، فَهُوَ عَذَابٌ شَدِيدٌ جِدّاً، وَسَيَأْتِيهِمْ صَبَاحاً أو بَيَاتاً، وزَمَنُ الصَّباحِ الَّذِي يُحِيطُ بِكُلِّ جُزْءٍ مِنْهُمْ يُقالُ بِشَأْنِهِ: «سَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ».

«سَاءَ» فِعْلٌ يُقَالُ فِي إنْشَاءِ الذّمّ على سَبيلِ الْمُبَالَغَة، مِثْل: «بِئْسَ».

أي: إذا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ عَذَابُ اللهِ الشَّامِلُ الْمُحِيطُ بِهِمْ، بَيَاتاً أَوْ في الصَّبَاح، فَصَبَاحُهُمْ مَصْحُوبٌ بِعَذَابٍ شَدِيد الإيلام والْخِزْي لهم، وأبْلَغُ وصْفٍ لَهُ أَنْ يُقَالَ: سَاءَ صَبَاحُهُمْ.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ تَعْقِيباً على اسْتِعْجَالِهِمْ عَذَابَ الله، بِحَسَبِ مَا يَظْهَرُ مِنْ أَقْوَالِهِم:

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾:

هٰذِهِ الْوَصِيَّةُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ هِيَ عَيْنُ الْوَصِيَّةِ في الآيَتَيْنِ (١٧٤) و(١٧٥).

إلَّا أَنَّ مَا جَاءَ في الآيَتَيْن (١٧٨) و(١٧٩) قَدْ جَاءَ مَبْنِيّاً عَلَىٰ أَقْوَالِ أئِمَّةِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ الاسْتِهْزَائِيَّةِ بالرَّسُول، والَّتِي يَدُلُّ ظاهِرُهَا على أَنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ مَا أَنْذَرَهُمْ به مِنْ عَذَابِ الله.

فيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: لَازِم الْمَوْقِفَ الَّذِي أَوْصَيْنَاكَ بِهِ آنِفاً، وَتَابِعْ تَوَلِّيَكَ عَنْهُمْ، وَوَجِّهْ طَاقَاتِكَ لِدَعْوَةِ غَيْرِ الـمَيْؤُوسِ مِن اسْتِجَابَتِهِم، مَعَ شِدَّةِ مُرَاقَبَتِكَ لَهُمْ بِبَصَرِك، فَسَوفَ يُبْصِرُونَ عَاقِبَتَهُمُ الْوَخِيمَةَ آجِلاً وَعَاجِلاً.

هٰذِهِ الْوَصِيَّةُ لَيْسَتْ تَأْكِيداً لِنَظِيرَتِها السَّابِقَة، بَلْ هِي تأسِيسٌ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ مَوْقِفٍ آخَرَ غَيْرِ الْمَوْقِفِ الَّذِي سَبَقَ في الآيَتَيْن (١٧٤) و(١٧٥).

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خِتَامِ سُورَةِ (الصَّافَّاتِ) مُبَيِّناً وَمُعَلِّماً مَا يَحْسُنُ أَنْ نَخْتِمَ مَقَالَاتِنا وَمَجَالِسَنَا الإيمانيَّة به:

• ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾:

• ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾: أي: أُنَزِّهُ رَبَّكَ مِنْ كُلِّ مَا لا يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفَ بِهِ، تَنْزِيهَهُ لِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وأفْعَالِهِ، وكُلِّ تصاريفه.

وكَلِمَةُ «سُبْحَانَ» اسْمُ عَلَمٌ لِمَعْنَىٰ البراءةِ والتَّنْزِيه، في مَوْضِعِ المَصْدَر. وهو مُضاف ولفظ «رَبِّ» مضافٌ إِلَيْهِ.

• ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾: أي: رَبّ الْقُوَّةِ الْغَالِبَة، فَكُلُّ قُوَّةٍ في الكَوْنِ هو خَالِقُهَا وَمَالِكُها والمُتَصرِّفُ فيها بِحِكْمَتِه تَصَرُّفَ كمالٍ.

• ﴿.. عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾: أَيْ: تَنَزَّهَ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ عَمَّا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ مِمَّا لَا يَلِيقُ بذَاتِهِ، وصِفَاتِهِ، وأفْعَالِهِ، وَتَدْبِيراتِهِ، وقَضَائِهِ وقَدَرِهِ.

والتَّنْزِيهُ هُنَا يَشْمَلُ إِثْبَاتَ كُلِّ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ مِن أَسْمَىٰ عُلُوٍّ لَهَا، لِأَنَّ النَّقْصَ بِشَيْءٍ ما مِنْها هُوَ مُبَرّأٌ عَنْهُ وَمُنَزَّهٌ مِنْهُ، وبهٰذا كانَتْ عبارة «سُبْحَانَ الله» دَالَّةً عَلَىٰ إِثْبَاتِ كُلِّ كَمَالٍ لَهُ، وعَلَىٰ تَنْزِيهِهِ مِنْ كُلِّ صِفَةِ نَقْصٍ مُنَافِيَةٍ لِكَمَالِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ، وَتَبارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَبِيهٌ أَوْ نِدٌّ أو كُفُؤ.

• ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾: أي: وَتَحِيَّةُ احْتِرَام وَتَوْقِيرٍ وتَكْرِيم عَلَىٰ الْأَنْبِياء الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ للنَّاس، لِيُؤَدُّوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، فَأَدَّوْا رِسَالَاتِهِ كَمَا أَمرَهُمْ، وَنَصَحُوا أقوامَهُمْ، وجَاهَدُوا في اللهِ حَقَّ جِهَادِهِمْ، عَلَىٰ تَفَاضُلٍ في دَرَجَاتِهِمْ السَّامِياتِ مِنْ مَرْتَبَةِ الإحسان، وَسَلَامُ دُعَاءٍ لَهُم بِأَنْ يُسَلِّمَهُمُ اللهُ مِنْ كُلِّ مَا لَا يُحِبُّونَ مِنْ نَقْصٍ فِي دَرَجَاتِ سَعَادَاتِهِم في الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَىٰ مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيم.

وَهٰذا السَّلَامُ يَنْفَعُ الدَّاعِيَ بِهِ عِنْدَ رَبِّه بِأَنْ يَجْزِيَهُ اللهُ أَضْعَاف مَا دَعَىٰ به، فَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ: «مَنْ صَلَّىٰ عليَّ مَرَّةً صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً».

• ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾: أي: وَكُلُّ الْحَمْدِ الَّذِي لَا تُتَصَوَّرُ لَهُ غَايَةٌ، وَلَا نِهَايَةٌ، هُوَ مِنِ اسْتِحْقَاقِ اللهِ رَبِّ كُلِّ الْعَالَمين.

ولفظ العالَمِين هُنَا يَشْمَلُ كُلَّ مَا سِوَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وقَدْ سَبَقَ تَحْلِيل هذه العبارَة في تَدَبُّر سورة (الفاتحة).

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس السَّابع مِنْ دُرُوس سورة (الصَّافات) وبه ختم الله عَزَّ وَجَلَّ السورة. والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه.

❀ ❀ ❀

(١٢)
ملحق مستخرجات بلاغيّة من سورة (الصافات)

يوجد في سورة (الصَّافَّات) اختيارات بلاغيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، هِي من عناصر إعجاز القرآن المجيد، وفيها المستخرجات التاليات:

أولاً

مِنْ منهج البيان القرآني في الأقوال، والأحداث، والقصص، استقطاع النصوص من أزمانها الماضية، أو المستقبلة، وعرضها بألفاظها، دون الإشارة إلى أنَّهُ كان كذا فيما مَضَىٰ، أَو سَيَكُونُ كذَا فيما سيَأْتي، وهٰذا فَنٌّ بَديعٌ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ الْأُدَباء والْبُلغاء من قَبْل، واكْتَشَفَهُ الإعلاميُّون حديثاً.

ومن أمْثِلَة هٰذا الفنّ البديع في السورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حِكَايَة لِقَوْلِ مُنْكِرِي الْبَعْثِ حينما يُبْعَثُونَ يَوْمَ القيامة، ومَا يُقالُ لَهُمْ، وما يُقَالُ بِشَأْنهم:

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ .... وحتى الآية ﴿٣٢﴾﴾.

المثال الثاني: مَا جاء في الآيات من (٥١ ـ ٥٧).

ثانياً

ومِنَ البلاغِياتِ في السورة «التشبيه».

ومن أمْثِلَةِ التشبيه في السُّورة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في وصف الحور العين اللائي أنْشَأَهُنَّ اللهُ في الجنَّةِ لأَصْحَاب اليمين:

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: يُشْبِهُ لَوْنُ بَشَرَةِ أجْسَادِهِنَّ، لَوْنَ قِشْرَةِ بَيْضِ النَّعَام المَكْنُونِ المَحْفُوظ بنَاعِمٍ مِنْ رِيشِ النَّعَامِ، فَهُو أَبْيَضُ مُشْرَبٌ بِصُفْرَةٍ قَلِيلَة.

قَالُوا: وَهٰذا مِنْ أَجْمَلِ أَلْوانِ بَشَرَاتِ النِّسَاء، وأَحْسَنُ مِنْهُ مَا كَانَ كاللُّؤْلُؤِ المَكْنُون، وهو وَصْفُ نِسَاءِ أَصْحَابِ المراتب الرّفِيعَةِ في الجنَّة مِنَ الحور العين، والغرضُ مِنَ التَّشْبِيهِ تَقْرِيبُ صُورَةِ جُلودِهِنَّ للمُتَلَقِّي.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ في وَصْفِ ثَمرِ شَجَرِ الزَّقُّومِ الَّذِي يَأْكُل مِنْهُ أَصْحَابُ الجحيم:

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾:

جاءَ فِي هٰذا النّصّ تَشْبِيهُ طَلْعِ شَجَرِ الزَّقُّوم بِرُؤوسِ الشياطِين، وهو تَشْبِيهٌ بِشَيْءٍ مُنْتزَعٍ مِنْ خَيالِ المُتَلَقِّينَ عَنْ رُؤوس الشَّيَاطِينِ، إذْ لَا يَعْرِفُونَ

هـٰذه الرُّؤوس، لكِنْ يُوجَدُ في خيالِهم أَنَّ الشَّيَاطِينَ لَهُمْ رؤوسٌ قَبِيحَةٌ جدّاً مُنَفِّرَةٌ وَمُخِيفَة، فالصُّورَة الَّتِي يَتَخَيَّلُها الناسُ لَهَا أَقْبَحُ وأَخْبَثُ صُورَة. فالتَّشبيه برُؤوس الشياطين تَشْبيهٌ مُنْتَزَعٌ مِنْ خَيَالِ النَّاسِ لها، وَقَدْ يَكُونُ وَاقِعُ رُؤوس الشياطِين شَدِيدَ الْقُبْحِ والتنفير.

ثالثاً

من الفنون البلاغيَّة الكِنَايَة، وقد سَبَقَ تَعْرِيفها في مُسْتَخْرَجات بَلَاغِيَّاتٍ سَابقات.

ومن أمثلة الكِنايَة في هـٰذه السورة ما يلي:

المثال الأوّل: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾:

إنَّ عبارة: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ تَدُلُّ بأسْلُوب الكِنَايَةِ على أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أجابَ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا نَادَاهُ به.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ يُونُس عليه السلام:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾:

أي: لَأَكَلَهُ الحوتُ وهَضَمَهُ، ولَمْ يَعُدْ إلَى الحياة إلَّا يَوْمَ الْبَعْث.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ إبْراهِيمَ وإسْحَاقَ عَلَيْهِما السّلام:

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾:

جاء في هـٰذِهِ الآيَةِ الاكْتِفَاءُ بِذِكْرِ الصِّنْفِ الْأَعْلَىٰ وَذِكْرِ الصِّنْفِ الْأَدْنَىٰ، إذْ يَلْزَمُ عَقْلاً وُجُودُ أصْنَافٍ عَلَىٰ دَرَجاتٍ بَيْنَ الأعْلَىٰ الَّذِي هو مُحْسِنٌ، وبَيْنَ الأدْنَىٰ الّذي هو ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِين، فَدَلَّ الْأَعْلَىٰ والْأَدْنَىٰ بأسْلُوبِ الكِنَايَةِ على اللَّازِمِ الْفِكْرِي بَيْنَهما، وهُمْ ذَوُو الدَّرجات بَيْنَهُما.

رابعاً

إطْلَاقُ اللَّفْظِ بِمَعْنَيَيْهِ اللُّغَوِيِّيْن، وهـٰذا مِنَ الْإِيجاز البليغ، ومن أمْثِلَتِهِ في السُّورة، قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ امرأةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَام، إذْ كانَتْ كافِرَةً مَعَ هَوَىٰ قَوْمِها أَهْلِ سَدُوم:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١٣٥)﴾:

الغَابر: يأتي في اللُّغَةِ بِمَعْنَىٰ الباقي، ويأْتِي بِمَعْنَىٰ الماضِي الذَّاهب. وهـٰذانِ المَعْنَيَانِ يَنْطَبِقَانِ عَلَىٰ امْرأةِ لُوطٍ عليه السلام. فَقَدْ كانت مِنَ الْبَاقِينَ في أَرْضِ قَوْمِها إذْ أُهْلِكَتْ وهِيَ فِيها، وكانت مِنَ الماضِينَ الذَّاهِبِينَ بالْإِهْلَاكِ مَعَ قَوْمِها.

خامساً

مِنَ الفنون البلاغيَّة الإيجاز، وهو قِسْمَان:

- **إيجَاز الْقِصَر**: وهو الإيجاز الَّذِي لَا يُعْتَمَدُ فِيهِ على اسْتِخْدَام الحذف.

- **إيجاز الحذف**: وهُو الإيجاز الّذي يكُونُ قِصَرُ الكَلَامِ فِيه بِسَبَبِ اسْتِخْدَامِ حَذْفِ بَعْضِ الْكَلام، اكْتِفَاءً بِدَلَالَة القرائن.

والْأَمْثِلَةُ على إيجاز الحذْفِ فِي السُّورَةِ كَثِيرَةٌ، يُدْرِكُها مَنْ تَدَبَّر السُّورَةَ بإمْعَان.

وَأَقْتَصِرُ هُنَا على ذِكْرِ مثالَيْنِ لإيجاز الْقِصَرِ، فالأوّلُ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها بِشأنِ الْبَعْثِ بِزَجْرَةٍ وَاحِدة:

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (٢٠)﴾.

والثاني بَعْضُ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلَام:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

أمّا التَّوكيدُ لدواعٍ بَلاغيَّة، فقد تَرَكْتُ اسْتِخْرَاجَ أمْثِلَةٍ مِنْهُ، لِوُضُوحِهَا مِنَ النَّظائِرِ الَّتي اسْتَخْرَجْتُهَا من السُّوَر السابقة.

وَكَذَلِكَ خُروجِ الاسْتِفْهَامِ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ فَقَدْ سَبَقَ اسْتِخْرَاج نَظَائِرَ فِي المُسْتَخْرَجَاتِ البَلَاغِيَّةِ مِنَ السُّوَرِ السَّابِقَة.

وأَكْتَفِي في هٰذا المُلحق بهٰذهِ المُسْتَخْرَجَات. والحمدُ لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه.



سورة لقمان

٣١ مصحف ٥٧ نزول

وهي سورة مكيَّة

إلّا الآيات (٢٧ و٢٨ و٢٩)

فيما رُوي عن ابن عبّاس
ورُويَ عَنْهُ أنَّها مَكِّيَّةٌ كُلُّها



(١)

نصُّ السُّورَة وَمَا فيها مِنْ فَرْشِ القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ

---

١ ـ • سَكت أبو جعفر على: «ألف» و«لَامْ» و«ميم».

٣ ـ • قرأ حمزة: [**وَرَحْمَةٌ**] بالرفع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالنصب: [**وَرَحْمَةً**].

والقراءتان وجهان عربيان جائزان.

٦ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمرو: [**لِيَضِلَّ**] من فعل: «ضَلَّ».

وقرأها باقي القراء العشرة: [**لِيُضِلَّ**] من فعل: «أَضَلَّ».

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد.

٦ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة، وأبو جعفر: [**وَيَتَّخِذُهَا**] برفع الفعل عطفاً على «يشتري».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بنصب الفعل: [**وَيَتَّخِذَها**] أي: وَلِيَتَّخِذَها.

٦ ـ • لفظ: [**هُزُواً**] فيه قراءات «هُزْءاً، هُزاً، هُزْواً، هُزُؤاً» وهي لهجات عربية.

٧ ـ • قرأ نافع: [**أُذْنَيْهِ**] بإسكان الذال. =

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ

= وقرأها باقي القرّاء العشرة: [أُذُنَيْهِ] بضمّ الذال.
وهما نطقان عربيان.

١٢ و١٤ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة ويعقوب: [أَنِ ٱشْكُرْ] في الآيتَيْن، بكَسْر النون.
وقرأها باقي القراء العشرة بضَمِّ النون: [أَنُ اشْكُرْ].

١٣ ـ • قرأ حفص: [يَا بُنَيَّ] بفتح الياء المشدّدة.
وقرأها ابْنُ كثير: [يَا بُنَيْ] بإسْكانِ الياء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَا بُنَيِّ] بكَسْر الياء المشدّدة.
وهي وجوهٌ في النطق العربي.

إِلَىَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

١٦ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [مِثْقَالُ] بالرَّفع.
وقرأها باقي القراء العشرة: [مِثْقَالَ] بالنصب.
وهماوجهان نحويان جائزان.

١٦ ـ • قرأ حفص: [يَا بُنَيَّ].
وقرأها الباقون: [يَا بُنَيِّ].

١٧ ـ • قرأ البزّي، وحفص: [يَا بُنَيَّ].
وقرأها قنبل: [يَا بُنَيْ].
وَقرأها باقي القراء العشرة: [يَا بُنَيِّ].
وهي وجوه عربيَّة من الأداء.

١٨ ـ • قرأ ابن كَثير، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [وَلَا تُصَعِّرْ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلَا تُصاعِرْ].
وهما لغتان بمعنى إمَالَةِ الْعُنُقِ من الكِبْرِ واحْتِقَارِ الناسِ.

٢٠ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر: [نِعَمَهُ] جمع «نِعْمة».
وقرأها باقي القراء العشرة: [نِعْمَةً] بالإفراد والتنكير، وهي اسْمُ جنس، والمؤدّى واحد.

يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي

٢٢ ـ • قرأ قالون، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر: **[وهْوَ]** بإسكان الهاء.
وقرأها الباقون بالضمّ: **[وهُوَ]**.

٢٣ ـ • قرأ نافع: **[فَلَا يُحْزِنْكَ]** من فعل: «أحْزَنَهُ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة من فِعل: «حَزَنَهُ»: **[فَلَا يَحْزُنْكَ]**.
وهما لغتان عَرَبيتان.

٢٧ ـ • قرأ أبو عمْرو، ويعقوب: **[والْبَحْرَ]** بالنصب.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالرَّفْع: **[والْبَحْرُ]**.
وهما وجهان عَرَبيان جائزان.

ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾

---

٣٠ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وابنُ عَامر، وشعبة، وأبو جعفر: [**وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ**] بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بياء الغائبينَ: [**وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ**].

وبين القراءتَيْنِ تكامل في الأداء البياني.

٣٤ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو جَعْفر: [**وَيُنَزِّلُ**] من فعل: «نَزَّل».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَيُنْزِلُ**] من فعل: «أنزل].

والقراءتان متكافئتَان، فالفِعْل المهموز أخو الفعل المضعف.

(٢)
مما ورَدَ بشأن سورة (لقمان)

رَوَىٰ النسائي، وابْنُ مَاجهْ عن الْبَراءِ، قال: «كُنَّا نُصَلِّي خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ الظُّهْرَ، نَسْمَعُ مِنْهُ الآية بَعْدَ الآية من سورة لُقْمَان، والذَّارِيَات».

(٣)
سَبَبُ نزول سورة (لقمان)

قال أبو حيَّان: سَبَبُ نُزولِ هٰذه السُّورة: أنَّ قُرَيشاً سَأَلُوا رسول اللهِ ﷺ عَنْ قِصَّةِ لُقْمَانَ مَعَ ابْنِهِ، فأنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هٰذه السّورة.

ويَظْهَرُ أَنَّ بَعْضَ وَصَايَا لُقْمَانَ وَمَوَاعِظِهِ لابْنِهِ، كَانت متداولَةَ الذِّكْرِ بَيْنَ الملأ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فِي مَجَالِسِهِمْ، ويَسْتَشْهِدُونَ بها، ويُثْنُونَ على حِكْمَتِهِ فيها، وتُوجَدُ في المأثوراتِ العربية حِكَمٌ كَثِيرَةٌ مَنْسُوبَةٌ إلَيْه.

(٤)
موضوع سورة (لقمان)

يَظْهَرُ لي أنَّ مَوْضوعَها يدُور حَوْل الثَّناءِ على لُقْمَانَ الْحَكِيم، بِشَأْنِ وَصَايَاهُ ومَواعِظِهِ لابْنِهِ، الَّتِي جَاءَ في السُّورَةِ عَرْضُ طَائِفَةٍ مِنْهَا مع إقرار لها، إذْ هِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ كَلَامِ النُّبُوّاتِ السَّابِقَاتِ، وَجَاءَ فِي السُّورةِ ذِكْرُ وَصَايَا وَبيَانَاتٍ رَبَّانِيَّة سَابقَةٍ لها في آياتِ السُّورَةِ، وَآتِيَةٍ بَعْدَهَا، وأُخْرَىٰ واردَةٍ أثْنَاءَها، للإشْعَارِ بأنَّ وَصَايا وَمَوَاعِظَ لُقْمَانَ لابنِهِ هِيَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ الرُّسُلِ السَّابقين، فَكُلُّ ما جاء في السُّورَةِ ومِنْهَا مَوَاعِظُ لُقْمَانَ لابْنِهِ، تَعْلِيمَاتٌ وَوَصَايَا ومَوَاعِظُ رَبَّانِيَّة.

وَمَا جَاءَ في السُّورَةِ من وَصَايا وَمَوَاعِظَ وتَعْلِيمَاتٍ ربَّانيَّة، هي مُكَمِّلَاتٌ، ودَاعِمَاتٌ لِمَا جَاءَ فيها مِنْ مَوَاعِظِ لُقْمَانَ لابنِهِ، وهي تَتَعَلَّقُ

بمفرداتٍ سُلُوكيّة إسْلامِيَّة، وعَنَاصِرَ اعْتِقَادِيَّةٍ، وآيَاتٍ كَوْنِيَّة دَالَّاتٍ علَىٰ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وَإِلَٰهِيَّته، وبيَانَاتٍ عَنْ بَعْضِ صفات اللهِ، مَعَ تَرْبِيَةٍ لِلرَّسُول ﷺ والدُّعَاةِ إلى اللهِ من أُمَّته.

وفيها تَرْغِيب وَتَرْهِيب، على وفْقِ مَنْهَجِ القرآن في التَّبْشِير والإنْذَار.

(٥)
دُرُوس سورة (لقمان)

تكاد تَكُونُ السُّورَةُ بَيَانَاتٍ وَوَصَايَا ومَوَاعِظَ من دَرْسٍ واحدٍ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ (٣٤) آيَة.

وَتَسْهِيلاً للتَّدَبُّر أُقَسِّمُهَا إلى أحد عشر دَرْساً.

الدَّرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٥).

وفي آيات هٰذا الدَّرْس بيانٌ يَتَعَلَّقُ بالقرآن وهدايته.

الدرس الثاني: الآيتان (٦) و(٧).

وفيهما بيانٌ عمَّنْ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِلَهْوِ الحديث، وإذَا تُتْلَىٰ عليه آيات اللهِ وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً، وفيهما إنْذَارُه بعذابٍ أليم.

الدرس الثالث: الآيتان (٨) و(٩).

وفيها وعْدٌ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ للَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات بأنَّ لهم جنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدين.

الدرس الرابع: الآيتان (١٠) و(١١).

وفيهما عَرْضُ بَعْضِ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّةِ على أَنَّهُ واحِدٌ في رُبوبيَّتِهِ، وَهَٰذَا يلْزَمُ عَنْهُ عقْلاً أنَّهُ وَاحِدٌ في إلَٰهيَّتِهِ.

الدرس الخامس: الآيات من (١٢ ـ ١٩).

وفي آيات هـٰذا الدَّرْسِ ما جاء في السُّورة بشَأْنِ «لُقْمانَ» الحكيم، وَمَوَاعِظِهِ لابْنِهِ، تَعْلِيماً لِلْمُؤْمِنِين كَيْفَ يُوصُونَ أبْنَاءَهم ويَعِظُونَهُمْ فيما فيه طِيبُ مَعِيشَتِهِمْ في دُنْياهم، وَسَعَادَتُهُمْ في آخِرَتهم مَعَ إدْخَال وصايا من الله في أثنائها.

الدرس السادس: الآيات من (٢٠ ـ ٢٤).

وفيها بَيَانٌ عَنْ نِعَم اللهِ على النّاس، الَّتِي تَسْتَدْعِي شُكْرَهُمْ لَه، إلَّا أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَشْكُرونَ رَبَّهُمْ على نِعَمِهِ، ويُجادِلُونَ بالباطل، مع إنذارِهم بعذاب السَّعِير، وبِشَارَةِ المؤمِنِ الذي يُسْلِمُ وجْهَهُ لِلَّهِ وهُو مُحْسِنٌ بالعاقِبَةِ الحُسْنَىٰ يَوْمَ الدِّين، وتوصية الرَّسُول وكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ بأَنْ لَا يَحْزُنَهُ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ، وأنَّ مَصِيرَهم إلَىٰ عذابٍ غليظ.

الدرس السابع: الآيتان (٢٥) و(٢٦).

وفيهما تَعْلِيم جَوْلَةٍ جَدَلِيَّةٍ للمشركين بِشَأْنِ مَنْ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرض.

الدرس الثامن: الآية (٢٧).

وفيها بَيَانُ سَعَةِ عِلْمِ اللهِ، وبيانُ أَنَّ كَلِمَاتِهِ مُسَايراتٌ لواسِعِ علمه.

الدرس التاسع: الآية (٢٨).

وفي هـٰذه الآية بَيَانُ قُدْرَةِ اللهِ العظيمَة، من خِلَال بَيَانِ أنّ خَلْقَ النَّاسِ وَبَعْثَهُمْ كخَلْقِ نَفْسٍ واحدة، وفيها بيانُ أنّ الله سميعٌ بصيرٌ، للإشْعَارِ بأَنَّ حِسَابَهُمْ وفَصْلَ القضاء بينهم مَسْبُوقٌ بِعِلْمِهِ بكُلّ أحْوَالهم وأعْمَالِهِم الظاهرة والباطنة.

الدرس العاشر: الآيات من (٢٩ ـ ٣٢).

وفيها عَرْضُ بَعْضِ آيات اللهِ في كَوْنِهِ، وَنِعَمِهِ على عِبادِه، مَعَ عَرْضِ

بَعْضِ أحْوَالِ النَّاسِ تُجَاهُ الْأَحْدَاثِ المخيفَةِ مِنْ ظاهِرَاتِ تَصارِيفِ اللهِ في كَوْنِه.

الدرس الحادي عشر: الآيتان (٣٣) و(٣٤) آخر السورة.

وفيها نداء للناس جميعاً بأنْ يَتَّقُوا رَبَّهُمْ، ويَخْشَوْا عَذَابَهُ المعَدَّ لِلْعُصَاةِ والكافِرينَ يَوْمَ الدِّين، مع بيانِ أَنَّ عِنْدَهُ وحْدَهُ عِلْمَ السَّاعَةِ، وأنَّهُ يُنَزِّلُ الْغَيْث، وأنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ مَا فِي الأرْحَام، وَأَنَّهُ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غداً، وما تَدْرِي نَفْسٌ بأيِّ أَرْضٍ تَمُوت.

لَكِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِكُلِّ شيءٍ.

❀ ❀ ❀

(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيات من (١ ـ ٥)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:



﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

القراءات:

(١) • سَكَتَ أبو جعفر على: «ألف» و«لَام» و«ميم».

ولم يَسْكُتْ باقي القرّاء العشرة.

(٣) • قرأ حمزة: [وَرَحْمَةٌ] بالرَّفع، على أنَّ «هدىً» خَبَرُ مبتدأ محذوف، تَقْدِيره: «هُو».

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالنَّصْبِ: [**وَرَحْمَةً**] علىٰ أنّ هُدىً حَالٌ، أي: حَالَةَ كَوْن الكتاب الحكيم هُدىً ورحْمَةً.

فالقراءتان وجهان نحويّان جائزان.

تَمْهيد:

في هـٰذه الآيات بَيَانٌ عَنِ القرآن كتاب اللهِ للنَّاسِ في هـٰذا الدّين الخاتم، وأَنَّهُ هُدىً لِلْمُحْسِنينَ، كَمَا هُوَ هُدىً لِلْمُتَّقِين، والْأَبْرَار.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾: هـٰذه من الحروف المقطّعَة التي بدأ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بها بعض سُوَر القرآن، وقد سبَقَ بيان ما يَكْفِي بشأنِها في تدبّر أول سورة (القلم/ ٤ نزول):

• ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾:

جاءت الإشارة إلى آيات القرآن باسم الإشارة في: [**تلك**] الموضوعة للمشارة إليها البعيدة مع قُرْبها لِغَرَضِ الدَّلَالَةِ على ارْتِفَاعِ مَكَانَتِها في بلاغتها، وفي المعاني السَّامِيَةِ الّتي اشْتَمَلَتْ عَلَيْها دَلَالَاتُ جُمَلِها، وارتفاعُ مكانَتِها يدُلُّ على أنّها تَنْزِيلٌ من رَبّ العالَمِين، وأنَّ مَنْ سِوَىٰ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُون أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِها، وهو ما جاء مُصَرَّحاً به في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ.

وسُمِّيتْ أجْزَاءُ السُّورَةِ الَّتِي تَنْتَهِي بفاصِلَاتها «آيات» لأنَّ فيها علاماتٍ دَالّاتٍ على كَوْنِهَا مُنَزَّلَاتٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ رَبّ الْعَالَمِين، وَلَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ إِنْسٍ وَلَا جِنٍّ وَلَا غَيْرِهِما مِنْ خَلْقِ الله.

الآية: هي في اللُّغَةِ العلامَةُ الدَّالَّةُ على شيءٍ ما، مُدْرَكٍ بالحواسِّ الظَّاهِرَة، أو غَيْرِ مُدْرَكٍ بها، كَالْفِكْرِيَّاتِ والْوِجْدَانِيَّات.

وأُطْلِقَ على مَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَيَانٍ كَلامِيٍّ لفظ «الكِتَاب» للدَّلَالَةِ علَىٰ وُجُوبِ تَدْوينِهِ بالكتابة، وَجَعْلِهِ بَيْنَ النَّاسِ كِتَاباً مُحَرَّراً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، مَحْمِيّاً مِنَ التَّحْرِيف، والتغيير، بالزِّيَادة، أو بالنقص، أو بالتَّبْدِيل.

و«ال» في لفظ «الكِتَاب» لِلْكَمَال.

وَجاء وصْفُ القرآن هُنَا بأَنَّهُ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: الْمُحْكَمُ إذْ أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مُحْكماً. أو ذُو الْحِكْمَة في أَلْفاظِهِ ومَعَانِيهِ، فلفظ «الحكيم» إمَّا بمعنىٰ اسم المفْعُول، أو بمعنَىٰ اسم الْفَاعل، أو هو مُحْكَمٌ وَذُو حِكْمَةٍ، وهٰذا هو الذي عَلَيْهِ كتاب اللهِ الْقُرْآن، فَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحْكماً فَهُوَ ذُو حِكْمة.

الحكمة: هي وضْعُ الأشياء في مواضِعِها، فكراً، أو مَعْرفةً، أو اعْتِقَاداً، أو عملاً، أو حُكْماً وقضاءً، وتكُونُ الحِكْمَةُ باختيار أفْضَلِ الأشْيَاءِ وأتْقَنِها وَأحْسَنِهَا مِنْ كُلِّ البدائل لِمَا تُخْتَارُ له.

والْقُرآنُ بكُلِّ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مُتَّصِفٌ بالْحِكْمَة، إذْ هُو تَنْزِيلُ الْعَلِيم الحكيم رَبِّ العالَمِين.

وقد جاء في القرآن وصْفُ القرآن بأنَّهُ حَكِيمٌ، وبأنَّهُ مُبينٌ (أي: هُو ظاهِرٌ، وهو مُظْهِرٌ لِمَا اشْتَمَلَ عَليه من دَلَالَات). وبأنَّهُ مُبارَكٌ (أي: كَثِيرُ الدَّلَالَاتِ ثَرُّ المعاني الَّتِي فيها هدايَةٌ وخَيْرٌ عَظِيم للناس).

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾:

هُدىً: مَصْدَرُ «هَداهُ، يَهْدِيهِ، هُدىً» أي: بَيَّنَ لَهُ وأرشَدَه. وَوُصِفَ القرآنُ بأنَّهُ هُدىً، وهو وصفٌ بالمصْدَرِ، لأنَّ كُلَّ جُمْلَةٍ فِيه تَشْتَمِلُ على بَيَانٍ أو دَلاَلَةٍ علَىٰ حَقٍّ أو رُشْدٍ، أو ما فِيه خَيْرٌ للموضُوعِينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، فَمِنَ الحقِّ أَنْ يُوصَفَ كُلُّهُ بأنَّهُ هدىً، إذْ كُلُّ جُزْءٍ فِيهِ جزْءٌ هَادٍ إلَىٰ حَقٍّ أَوْ رُشْدٍ أَوْ خَيْر، وهـٰذا من دواعي وَصْفِ الشيءِ بالمَصْدَرِ، وهُوَ أَبْلَغُ مِنْ وَصْفِهِ باسم الفاعل.

وَرَحْمَةً: الرَّحْمَةُ صفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الجليلة، وهي صفة نُثْبِتُها لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ على مَا يَلِيقُ بِجَلاَلِه وَعظِيم سُلْطانه، ومن آثَارِهَا الْعَطَاءُ، والمعونة، والتوفيق، وإزالةُ البؤس، والإمداد بِمَا يَسُرُّ، ويُسَكِّنُ النَّفْسَ، ويُطَمْئِنُ القلب، إلى غير ذلك من خَيْرات.

وَوُصِفَ القرآنُ بأنَّهُ رَحْمَةٌ لِأَنَّ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ من هِدَاية، هُو أَثَرٌ مِنْ آثارِ رَحمَةِ اللهِ بعباده الموضوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلاء.

لِلْمُحْسِنِينَ: أي: القرآنُ هدىً ورَحْمَةٌ لِأَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، وهي أعْلَىٰ مَرَاتِبِ المؤمِنِين، فَهُمْ يتعلَّقُون به استماعاً، وتلاوة، وتدبُّراً، وعملاً بما جَاء فيهِ من هَدْي.

وَعَلَىٰ مَنْهَجِ القرآنِ فِي التَّفْصِيلِ، لِتَتَكَامَلَ المفَصَّلاَتُ فِيمَا بَيْنَهَا، وَيَأْخُذَ كُلُّ جُزْءٍ حَظَّهُ مِنَ البيان، جَاءَ في القرآن وَصْفُ القرآن بِمَا يلي:

(١) بأنَّهُ هُدىً للمتّقين. (الآية ٢ من سورة البقرة).

(٢) وبأنَّهُ هُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤمِنِينَ. (الآية ٩٧ من سورة البقرة).

(٣) وبأنَّهُ هُدىً للنّاس. (الآية ١٨٥ من سورة البقرة).

(٤) وبأنَّهُ هُدىً ورحمة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون، أي: لَدَيهم القابليَّةُ لأنْ يُؤْمِنُوا بإراداتهم الحرَّة. (الآية ٢٠٣ من سورة الأعراف).

(٥) وَبأَنَّهُ هُدىً وَبُشْرَىٰ للمؤمنين. (الآية ٢ من سورة النمل).

(٦) وبأنَّهُ هدىً ورَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُون. (الآية ٢٠ من سورة الجاثية).

(٧) وَبأَنَّهُ هُدىً وَبُشْرَىٰ للمسْلِمينَ. (الآية ١٠٢ من سورة النَّحْل).

ولدى تَدَبُّر هٰذه النصوص معاً نُلاحِظُ التكامُلَ فيما بَيْنَها.

أمَّا بالنسبة إلى مَراتب المؤمنين الثلاثة: (مَرْتَبَةِ المتَّقِين، ومَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ، وَمَرْتَبَةِ المحسنين) فَنُلَاحِظُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ذَكَرَ في سورة (لقمان/ ٥٧ نزول) أنَّهُ هدىً ورَحْمَةٌ للمحْسِنين. وذكَرَ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أنَّهُ هُدىً لِلْمُتَّقِين. وَلَمَّا كانت مَرْتَبَةُ المتقين هِيَ المرتَبَةَ الدُّنيا، ومَرْتَبَةُ المحْسِنين هِيَ الْمَرْتَبَةَ العليا، فإنَّنَا نَفْهَمُ باللُّزُومِ الْعَقْلِيّ أَنَّهُ هُدىً لِلأَبْرَار، إذْ مَرْتَبَةُ الأبْرار هي الوسْطَىٰ بَيْنَ المحْسِنينَ والمتَّقين.

وَإذا كان القرآن هدىً وَرَحْمَةً للمحسنين، فَهُو هدىً وَرَحْمَةٌ للأبْرَارِ وللمتَّقين حَتْماً، لأنَّ أصْحَابَ المَرَاتِبِ الأدْنىٰ أَحْوَجُ إلَىٰ الرَّحْمَةِ لِيَرْتَقُوا بِها إِلَىٰ الدَّرَجاتِ الأعْلَىٰ.

■ ووصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المحسنين في هٰذا الدَّرْسِ بِصِفَاتٍ مُعْظَمُها مِنْ صِفَاتِ أهْلِ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، لِأَنَّ صِفَاتِ أهْلِ المراتِبِ الأدْنَىٰ هِي من صِفَاتِ أهْلِ المراتب الأعْلَىٰ مَعَ زِيادَةٍ عَلَيْها، فقال تَعالى:

• ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾:

﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: يُؤَدُّونَ الصَّلواتِ المفروضَةَ الَّتي سَبَقَ إلْزَامُ المؤمنين المسْلِمينَ بِها، في لَيْلَةِ الإسْرَاء، والَّتي سَبَقَ بَيَانُها وَالتَّنْوِيهُ بِشَأْنِهَا لَدَىٰ تَدَبُّر سورة (الإسْرَاء/ ٥٠ نزول).

والمراد بإقَامَةِ الصَّلاة: المداوَمَةُ والمواظَبَةُ على أدائها في أوقاتها،

وأدَاؤُها على الوجْهِ الشَّرْعِيِّ المطلوبِ فيها، وجَعْلُها مستقِيمَةً خالِصةً لِوَجْهِ اللهِ، لا عِوَجَ فيها ولَا رِيَاءَ، ولَا زيادَةَ، ولَا نَقصاً.

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي: وَيُنْفِقُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بالإنْفَاقِ فيها، وَفِي مُقَدِّمَتِها إعْطَاءُ الفقراء وَذوي الحاجات من المؤمنين المسلمين.

وَهـٰذا التكليفُ قَدْ كَانَ مُنَزَّلاً في الْعَهْدِ المَكِّيِّ دُونَ تَحْدِيدٍ للمقادِيرِ الواجِبَةِ من الزَّكاة، ثُمَّ جَاءَ فِي الْعَهْدِ المَدَنِيِّ تَحْدِيدُ أَنْصِبَةِ الزَّكاةِ وَمَا يَجِبُ فيها.

الزكاة: هي في اللُّغَة الطَّهَارَة مِنَ النجاسَاتِ والْأَرْجَاس، وتأتي بمَعْنَىٰ النَّماء.

وأُطْلِقَتْ فِي الاصطلاح الدِّيني على ما يَجِبُ على المسْلِمِ أَنْ يُنْفِقَهُ من أمْواله، للفقراءِ والمساكِين وسائر الأصناف الثمانية، إذْ هو بهـٰذا الإنفاق يُطَهِّرُ أَمْوَالَهُ، وَيَجْعَلُهَا مُؤَهَّلَةً للنَّمَاءِ بفَضْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾:

الْيَقِينُ: هو الْعِلْمُ الَّذِي لَا شَكَّ فيه، وأدنَىٰ مَرَاتِبِهِ ما اعْتَمَدَ على أدِلَّةٍ نَظَرِيَّةٍ أَوْ خَبَرِيَّةٍ صَادِقَةٍ لَا شَكَّ فيها.

فَمنْ صِفَاتِ الْمُحْسِنِينَ الذين يكونُ القرآنُ هُدىً وَرَحْمَةً لَهُم، أَنَّهُمْ يُوقِنُونَ بِأَنَّ الحياةَ الآخِرَةِ، والدَّارَ الآخِرَةِ حَقٌّ لَا شَكَّ فيه.

وَجاء في العبارة التَّوْكِيدُ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ فِي: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْيَقِينَ الْكَامِلَ مِنْ دَرَجَاتِهِ ومَرَاتِبِهِ الْعُلْيا هو مِنْ خَصَائِصِ الْمُحْسِنِين، إذْ جَعَلَ هـٰذا الضَّمِيرُ الْجُمْلَةَ بِقُوَّةِ الْجُمْلةِ الاسميَّةِ الَّتِي جاء فيها المسْنَدُ والمسنَدُ إِلَيْهِ مُعَرَّفَيْن، فهي تُفِيدُ الْقَصْر.

وبهٰذا الْفَهْمِ يَكُونُ الْيَقِينُ بالآخِرَةِ مِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِ المحسنين، أَمَّا المتَّقُونَ أَهْلُ مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ فيَكْفِيهِمْ أَن يَكُونُوا مُؤْمِنِين بالآخِرَةِ إيمان تَصْدِيق، وَعَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول):

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

■ وَأَثْنَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ الْمُحْسِنين بِقَوْلِهِ فِي آخِرِ هٰذا الدَّرْس الأول:

● ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾:

أشار اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ باسم الإشارَةِ الموضوع للبعيدينَ، للدَّلالَةِ على ارْتِفَاعِ دَرَجاتِهِمْ عِنْدَهُ إذْ هُمْ مُحْسِنُونَ، فجاءَت الإشارة إليهم بِعِبارة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مَرَّتَيْن.

﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾: أي: أُولَئِكَ سَائِرُون علَىٰ صِرَاطٍ وَطَرِيقِ حَقٍّ وَرُشْدٍ، مُبَيَّنٍ مِنْ رَبِّهِمْ.

يُسْتَعْمَلُ «الْهُدَىٰ» بمعنى الصِّراطِ وهو طَرِيقُ الحقِّ والرُّشْدِ والخيرِ، وهذا هُوَ الملائم هنا.

● ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: أي: وَأولَئِكَ هُمْ وَحْدَهُمْ هُمُ الظَّافِرُون الْفَائِزُونَ فَوْزاً لَا يُدَانِيهِ فَوْز.

يقال لُغَة: «أَفْلَحَ، يُفْلِحُ» أي: ظفِرَ بما يُرِيدُ، وفَازَ بالنعيم العظيم يوم الدين.

وبهٰذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الأول من دُروس سورة (لقمان).

والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقِهِ، وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (لقمان) وهو الآيتان (٦) و(٧)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٧﴾.

القراءات:

(٦) • قرأ ابن كثير، وأَبُو عَمْرو: **[لِيَضِلَّ]** من فعل: «ضلَّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[لِيُضِلَّ]** من فعل: «أَضلَّ».

وَبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في أَدَاء المعْنَىٰ المراد، إِذْ مَنْ يَشْتَري لَهْوَ الحديثِ يَضِلُّ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ يُضِلُّ غَيْرَه.

(٦) • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وابْنُ عامر، وشُعبة، وأبو جعفر: **[وَيَتَّخِذُهَا]** برَفع الفعل عطفاً على «يَشْتَرِي».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[وَيَتَّخِذَهَا]** بالنَّصْبِ، أي: ولِيَتَّخِذَهَا.

(٦) • في لفظ: **[هُزُواً]** عدَّةُ قراءات هي من اللهجات العربية: «هُزْءاً» و«هُزاً» و«هُزْوَاً» و«هُزُؤاً».

(٧) • قرأ نافع: **[أُذْنَيْهِ]** بإسكان الذال.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[أُذُنَيْهِ]** بضمّ الذّال.

وهُمَا نُطْقَانِ عَربيان.

تمهيد:

في هاتَيْن الآيتَيْن بَيَانٌ لحالِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَة، إذَا تُلِي عليهم القرآن المجيد، فَهُمْ يُعْجِبُهم في الحياة الدّنيا الاشتغال بالمُلْهِيَات، وَمِنْها لَهْوُ الحديث، ولو بَذَلُوا مالاً للاستمتاعِ بِها، ضالّين مُضِلِّين، أَوْ ضالين فقط.

ويَنْفِرُونَ من الاسْتِماع إلى آيات القرآن المجيد، وما تُوضِحُهُ من سبيل اللهِ الموصل إلى جنَّاتِ النّعيم يَوْمَ الدِّين، ويَسْتَهْزِئونَ بها، إذْ لَا يَجِدُونَ فيها مَنْفَعَةً دُنْيَوِيَّةً عاجلَة، ولَا مُتْعَةَ تَسْلِيَةٍ بحكايَاتها، فهم لا يؤمِنُون بالآخرة.

وإذا تُتْلَىٰ عليهم آيَات اللهِ أدارُوا ظُهُورَهُمْ وَنَأَوْا، لئلَّا يسمَعُوها، واسْتَكْبَرُوا عَنْ سَمَاعِها، شُعوراً مِنْهُمْ بأنَّهَا دُونَ مَا يَهْتَمُّون بِهِ لمصالحهم الدُّنيويَّة، أَوْ لمتْعَتِهِم، فحالُهُمْ مَعَها كأنَّهُمْ لم يَسْمَعُوها، كأنَّ فِي آذَانِهِمْ صَمَماً، أَوْ شِبْهَ صَمَم.

هـٰذا الْفَرِيق من النَّاسِ وَاقفٌ عَلَىٰ الطرفِ الأقْصَىٰ المضاد للْمُحْسِنين، الَّذِين جاء البيان عَنْهُم في آيات الدَّرْس الأول.

إنَّ المحسنين يَرَوْنَ كِتَابَ اللهِ هُدىً وَرَحْمَةً لَهُمْ مِنْ رَبِّهِم، فَهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ سَماعاً، وتِلَاوَةً، وتَدَبُّراً، وعَمَلاً بِهَدْيه، فهم بذلِكَ يَكُونُونَ عَلَىٰ هُدىً من رَبّهم، وتكونُ عَاقِبَتُهُمْ أَنَّهُمْ هم المفْلِحُونَ فَلَاحاً مِنَ الدَّرَجاتِ السَّاميات عند رَبّهم.

أَمَّا الفريق الواقف على الطرفِ الأقْصَىٰ المقابل لِلْمُحْسِنِين، فَهُمْ يَرَونَ دَلَالَاتِ آياتِ كتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ دُون مُسْتَوىٰ اهْتِمَامَاتِهم في الحياة الدُّنْيَا، فَيَسْتَكْبِرُون عَنْ سَمَاعِهَا، ويَنْفِرُونَ مِنْها إذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ وَيُصِمُّونَ آذانَهُمْ.

إنَّ هٰـؤلاء ضالُّونَ في أنفُسِهِم، أو هم ضَالُّونَ مُضِلُّون، ولهم يَوْمَ الدِّينِ عِنْدَ رَبِّهِمْ عَذَابٌ أَلِيم، فَبَشِّرْهم أيُّها الداعِي إلى اللهِ بهـٰذا الْعَذَابِ الأليم الذي سَوْفَ يُعَذَّبُونَهُ.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦﴾:

وَفي القراءة الأخرىٰ: **[لِيَضِلَّ]** و**[يَتَّخِذُهَا هُزُواً]**.

أي: وفي مُقَابِلِ المحْسِنِين الَّذِينَ تَكُونُ آيَاتُ القرآنِ هُدىً ورَحْمَةً لَهُمْ، فيتعَلَّقُونَ بها سماعاً، وَتِلاوَةً، وَتَدَبُّراً، وَاهْتِدَاءً بِهَدْيِها، يُوْجَدُ ضَالُّونَ وَمُضِلُّونَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَة، فتَتَعَلَّقُ نُفُوسهم وقُلُوبُهُمْ بِمُلْهِيَاتٍ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، ومِنْهَا لَهْوُ الْحَدِيثِ، الَّذِي يَشْغَلُونَ بِهِ أَوْقَاتاً كَثِيرَةً مِنْ حَيَاتِهِمْ، وَلَوْ بَذَلُوا للاسْتِمْتَاعِ بِهِ أمْوالاً، وَهـٰذا اللَّهْوُ يَجْعَلُهُمْ ضَالِّينَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَقَدْ يَجْعَلُهُمْ مُضِلِّينَ غَيْرَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مِنَ الَّذِينَ يُقَلِّدُونَهُمْ، أَوْ يَسْتَجِيبُونَ لإغْرَاءَاتِهِم بالملاهي الَّتِي لَا فَائِدَةَ حَقِيقِيَّةً تُرْجَىٰ مِنْهَا.

وهـٰذا الضَّلالُ أَوِ الإضْلَالُ لَا يَقْتَرِنُ بِعِلْمٍ يُسَوِّغُهُ، بَلْ هُوَ مِنْ قَبِيلِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ وَالشَّهَوَاتِ، ومُغْرِيَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنياً، ومِنْ قَبِيلِ الاسْتِمْتَاعِ بِمَا يُلْهِي عَنِ الْأَشْيَاءِ النَّافِعَةِ المفيدةِ في العاجِلَةِ والْآجِلَة.

• ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: أي: وَبَعْضُ النّاس.

• ﴿مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾: أي: مَنْ يَبْذُلُ مَالاً ليسْتَمْتِعَ بالْحَدِيثِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ لَهْواً عمَّا هُوَ نَافِعٌ وَمُفِيدٌ في عاجِلِ حَيَاةِ الإنْسَانِ وَآجِلِها يَوْم الدين، ومَعْلُومٌ أنّ كُلَّ المَلْهِيَاتِ تُبْذَل فيها أموالٌ كثيرة.

اللَّهْوُ: كُلُّ أَمْرٍ غَيْرِ ذي قِيمَةٍ صَحِيحَةٍ يَشْغَلُ عمَّا يَجِبُ تَوْجِيهُ الْجَهْدِ والْعَمَلِ لَهُ. وإضافة «لَهْو» إلى «الحديث» من إضافة الصّفة إلى الموصوف، أي: الحدِيثَ الموصوف بِأَنَّهُ لَهْوٌ.

ولَهْوُ الحديثِ يَدْخُلُ فِيهِ: قِراءَةُ الْقِصَصِ والحكاياتِ وسَمَاعُها مِنَ الْقَصَّاصِين، وأغْلَبُهَا مَوْضُوعٌ للتَّلَهِي، وَشَغْلِ الأوْقَاتِ بها. والتَّمثيليَّاتُ الَّتِي تَلْتَهِمُ أَوْقَاتَ النَّاسِ كَمَا تَلْتَهِمُ النَّارُ الحَطَبَ الجافَّ، والنِّفْطَ السَّرِيعَ الاشْتِعَال، ودَوَاوِينُ الشِّعْرِ القائمةُ على المدْحِ والْهَجْوِ والغزلِيَّات وخُرَافِيَّاتِ الأَفْكَارِ.

وأَقْبَحُ مِنْ لَهْوِ الْحَدِيثِ التَّلَهِّي بآلَاتِ الطَّرَبِ والأغَانِي الساقِطَةِ المُنْحَطَّةِ، المثيرَةِ للشَّهَوَاتِ، والمحَرِّضَةِ على الْمعَاصِي وارْتِكَابِ كَبَائِرِ الإِثْم.

ومن الْمُلْهِيَاتِ المضيعَاتِ للأوقاتِ بِغَيْرِ فَائدةٍ تُرْجى، إنْفَاقُ الأوقاتِ الطَّوِيلَةِ في مُشَاهَدَاتِ مُبَارَيَاتِ الألْعَابِ المختَلِفَةِ، الَّتي لا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا المشاهِدُونَ شَيْئاً لِأَجْسَادِهِمْ أَوْ عُقُولِهِمْ أَوْ نُفُوسهم.

ومنَ المُلْهِيَات: الجُلوسُ في المقاهِي وإضَاعَةُ الْأَوْقَاتِ بألعاب طاولاتِ الزَّهْر، وَأَلْعَابِ الأوراقِ، وامْتِصَاصِ الدُّخَانِ إلى الرِّئَاتِ وَدَفْعِهِ مِنْهَا، ومَا يَجْرِي في مَجَالِسِ الْأُنْسِ والسَّمَرِ ممَّا لَا خَيْرَ فِيهِ لِدِينٍ أَوْ دُنيا.

وَالملْهِياتُ في الحياة الدُّنْيَا كَثِيراتٌ، وَجَاءَ ذِكْرُ لَهْوِ الْحَدِيثِ فِي الْآيَةِ مِثَالاً مِنْ أَمْثِلَتِها ليقاس عليه.

وَجاء في بيانَاتِ سَبَبِ النُّزُول: أَنَّ النَّضْرَ بْنَ الحارث كَانَ يُسَافِرُ في تجارةٍ إِلَىٰ بلَادِ فَارِس، فيتَلَقَّىٰ أَكَاذِيبَ الأخْبَارِ عَنْ أبْطالِ الْفُرسِ في الْحُروبِ المَمْلُوءَةِ بالْخُرَافَاتِ المُسْتَمْلَحَة، والأَكاذِيبِ الّتي تُعْجِبُ السَّامِعِينَ، فَيَقُصُّهَا علَىٰ قُرِيشٍ فِي أسْمَارِهِمْ، ويقول: إن كَانَ مُحَمَّدٌ

يُحَدِّثُكُمْ بأحاديث عادٍ وثَمُود، فأنَا أُحَدِّثُكُمْ بأَحَادِيثِ رُسْتمْ، واسفِنْدِيار، وبَهْرَام. وَكَانَ يَشْتَرِي مِنْ بِلادِ فَارِسٍ كُتُبَ أَخْبَارِ مُلُوكِهِمْ، فَيُحَدِّثُ بِهَا قُرَيشاً.

أقول: إنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ القرآني، لَا بِخُصُوصِ سَبَبِ النُّزُول وإِنْ صَحَّ.

• ﴿لِيُضِلَّ﴾ غَيْرَهُ و[**لِيَضِلَّ**] هو نَفْسُه ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: لِتَكُونَ عَاقِبَةُ شَغْلِ الأوقَاتِ بِالْمُلهِيَاتِ ضَلَالاً عَنْ سَبِيلِ الله المسْتَقِيم، الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَسْلُكَهُ الموضُوعُونَ فِي الحياة الدنيا موضِعَ الامْتِحَانِ، وقَدْ يَحْصُلُ هـٰذا الضَّلَالُ والْإِضْلَالُ وهُمْ لَا يَعْلَمُونَ سُوءَ العاقِبَة.

وَقَدْ أَدْرَكَ هـٰذا التَّأْثِيرَ في النَّاسِ شَيَاطِينُ الْجِنِّ وَالإِنْسِ، فابْتَدَعُوا مِنَ الملْهِيَاتِ مَا لَا حَصْرَ لَهُ، لاتِّخَاذِهَا وَسَائِلَ إِضْلَالٍ عَنْ سَبِيلِ اللهِ المسْتَقِيم، وإِبْعَادٍ عَنْهُ إلى مَتَاهَاتٍ وَمَهَالِكَ تَسْتَنْزِلُ سَالِكِيهَا إِلَىٰ الْوَهَدَاتِ والدَّرَكَات، حَتَّىٰ يكُونوا كُفَّاراً مِنْ أصْحَابِ النَّارِ الْخَالِدِينَ فِيها يَوْمَ الدِّين.

ونُلَاحِظُ تَوَالِيَ المبتَكَرَاتِ مِنَ الْمُلْهِيَاتِ، الّتِي يَدْفَعُ بِهَا الشياطين من تُجَّارِ المبتَكَرَاتِ الصِّنَاعِيَّةِ إِلَىٰ أَجْيَالِ الشُّعُوب، لِقَتْلِ أَوْقَاتِهِمْ فيما لَا خَيْرَ فِيهِ، وفيما يُبْعِدُهُمْ وَيُضِلُّهُمْ عَنْ سُلُوكِ صِرَاطِ اللهِ المستقيم، ويَبْتَزُّونَ بِهَا أَمْوَالاً كَثِيرَةً، كانَ يَجِبُ أَنْ تُوَفَّرَ لِحَاجَاتِ النَّاسِ وَضَرُوراتِ مَعَايِشِهِمْ وَأُمُورِ آخِرَتِهم.

• ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾: أي: ويَتَّخِذَ سَبِيلَ اللهِ الموصِلَةَ إِلَىٰ السَّعَادَة الأبَدِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ شيْئاً مَهْزُوءاً بِهِ.

الْهُزْءُ: السُّخْرِية، أُطْلِقَ المصْدَرُ فِي مَوْضِعِ اسْمِ المفْعُولِ للدَّلَالة على أنَّ كُلَّ عَنَاصِرِ سَبِيلِ اللهِ قد تكُونُ عِنْدَ هـٰؤُلَاء أَشْيَاءَ يَسْتَهْزِئُونَ بها.

إِنَّ مِنَ المَعْرُوفِ في طَبَائِعِ النَّاسِ، أَنَّهُمْ إذَا تَعَلَّقُوا بشيءٍ اسْتَهواهُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا، وَجَدُوا كُلَّ صَارِفٍ لَهُمْ عَنْهُ شَيْئاً لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَعْبَؤُوا به، أو يَكْتَرِثُوا لَهُ، فإذا دُعُوا إِلَيْهِ اسْتَهْزَؤُوا بِهِ وسَخِرُوا، وسَفَّهُوا دَاعِيَهُمْ إِلَيْه.

ومن الأمْثِلَة على هٰذا، مَا هُو مُلَاحَظٌ لَدَىٰ المستغرقين في مَلْهَاتِهِم، أَنَّهُ إذا دَخَلَ وَقْتُ الصَّلَاةِ وَدَعَاهُمُ الدَّاعِي إلى تَأْدِيَةِ الْفَرِيضَةِ وَهِيَ مِنْ سَبِيلِ اللهِ، اسْتَنْكَرُوا دَعْوَتَهُ لَهُمْ وَهُمْ يَرْمُونَ بأحْجَارِ الزَّهْرِ مَثلاً، لِيَعْرِفُوا حُظُوظَهُمْ مِنْ أَعْدَادِ نِقَاطِهَا، ووَجَّهُوا عِبَارَاتِ السُّخْرِيَةِ بِهِ، والاسْتِهْزَاءِ مِنْهُ، ورُبَّما اسْتَهْزَؤوا بِالصَّلَاةِ وَحَرَكَاتِهَا، إِذَا لَمْ يَكُونُوا مؤمِنِين مُسْلِمِينَ، وهٰذا مِنَ الهزْءِ بِسَبِيلِ الله.

فَمَا بَالُكَ بالمقامِرينَ، والسُّكارَىٰ، والمُسْتَغْرِقِينَ بالاسْتِمْتَاعِ بِشَهَوَاتِهِمْ من النِّسَاء.

وَنَجِدُ قَرِيباً مِنْ هٰذا لَدَى الشَّغُوفِينَ بمُشَاهَدَةِ الأَلْعَابِ الرِّيَاضِيَّةِ، الَّتِي هِيَ الملهَاةُ الْعُظْمَىٰ، لِجَمَاهِيرِ النَّاسِ في هٰذا العصر الذي نَعِيشه.

وَقَد أبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَصِيرَ الَّذِينَ يَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ضَلَالاً مُكَفِّراً، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

• ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾:

أي: أولَئِكَ الْبُعَدَاءُ المنْحَدِرُونَ في اتِّجَاهِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ، أُعِدَّ لَهُمْ يَوْمَ الدِّين عَذَابٌ مُهِينٌ.

مُهِين: أي: مُذِلٌّ مَخْزٍ. وَهٰذَا الإِذْلَالُ والاحْتِقَارُ لَهُ يَكُونُ فِي مُقَابِلِ اسْتِهْزَائِهِ بِعَنَاصِرِ سَبِيلِ الله، واحْتِقَارِه لَهَا في الحياة الدُّنيا، إِذْ كانَتْ تَشْغَلُهُ عَنْهَا المُلْهِيَاتُ الَّتِي كَانَ يَجِدُ فِيهَا مُتْعَاتٍ تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بها، فَصَارَ يَحْتَقِرُ مِنْ أَجْلِهَا عَنَاصِرَ سَبِيلِ اللهِ الْمُوصِلِ إلى السَّعَادَة الأَبَدِيَّةِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم، إِذْ هُو غَيْرُ مُؤْمِنٍ بالآخِرَة.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُتَابِعاً وَصْفَ الَّذِي يَشْتَرِي لَهْوَ الحديثِ لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله، وهُو لَا يُؤْمِنُ بالآخِرَة:

● ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾.

دَلَّتْ هٰذِه الآيَةُ علَىٰ أَنَّ هٰذا الْفَرِيقَ مِنَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُ بالآخِرَةِ، فِي مُقَابِلِ الْفَرِيقِ الَّذِينَ جاء بيانٌ عَنْهُمْ في الدّرْس الْأَوَّلِ، الَّذِينَ هُمْ بالآخِرَةِ هُمْ مُوقِنُون.

وبما أَنَّ الْفَرِيقَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بالْآخِرَةِ لَا يَجِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا يُمَتِّعُهُ فِي دُنْيَاهُ، فإنَّ مِنْ آثارِ كُفْرِهِ بِيَوْم الدِّينِ أَنْ يَجِدَ مَا يَدْعُوهُ إلى سُلُوكِ سَبِيلِ اللهِ أمْراً بَاطِلاً، وَأَنْ يَرَىٰ إِضَاعَةَ الْوَقْتِ فِي اسْتِمَاعِ مَا يُبَيِّنُ عَنَاصِرَ سَبِيلِ اللهِ خَسَارَةً مِنْ عُمْرِهِ، وَأَنَّ مِنْ مَصْلَحَتِهِ أَنْ لا يَخْسَرَ شَيْئاً مِنْ عُمْرِهِ فِيمَا لا فَائِدَةَ لَهُ بِهِ، وَلَا سيَّما إذَا كَانَ يَدْعُوهُ إِلَىٰ تَرْكِ مَا هُو فِيهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي هو مُتَعَلِّقٌ بِها.

إنَّ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ فيما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ هِدَايَةٍ، مُنَفِّرَةٌ بالنِّسْبَةِ إلى نَفْسِهِ، وَمَا تُؤْمِنُ بِهِ وَمَا تَكْفُرُ به، فَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ أدَارَ ظَهْرَهُ وابْتَعَدَ عَمَّنْ يَتْلُوها عَلَيْهِ، مُسْتَنْكِراً وَمُسْتَكْبِراً.

دَلَّ عَلَىٰ اسْتِنْكَارِهِ تَوَلِّيهِ وابْتِعَادُه، وَدَلَّ عَلَىٰ اسْتِكْبَارِه قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: هُوَ يَرَاهَا دُونَ مَعَالِي الْأُمُور الَّتِي يَهْتَمُّ بها.

إِنَّهُ لَا يَخْطُرُ في بَالِهِ أَنْ يَقْرَأَ شَيْئاً مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ فِي كِتَابِهِ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مُؤْمِنٍ بالْقُرْآن ولا بِجَدْوَىٰ قِرَاءَتِهِ لَهُ، لَكِنْ قَدْ يَتْلُو عَلَيْهِ دَاعٍ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ شَيْئاً مِنْ آياتِ الْقُرْآنِ، فإذَا سَمِعَها اشْمأَزَّتْ نَفْسُهُ وَنَفَرَتْ مِنْ سَمَاعِهَا، لِأَنَّهَا تَتَحدَّثُ عَنْ أشْيَاءَ هُو كافِرٌ بِها، ويَرَىٰ الحديث عَنْها مِنَ السَّفَاهَةِ.

وَيُعَبِّرُ عَنْ نُفُورِ نَفْسِهِ مِنْ سَمَاعِهَا، بانْصِرَافِهِ عَنْ مَكَانِ التِّلَاوَةِ

جَسَدِيّاً، أَوْ بانْصِرَافِ حَوَاسِّهِ عَنِ الاسْتِمَاعِ لَهَا، حتَّىٰ كَأَنَّهُ أصَمُّ، أَوْ قَرِيبٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ أصَمَّ.

• ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾: أي: وَإِذَا تَلَا عَلَيْهِ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ داعٍ إلى اللهِ آياتٍ مِنْ آياتِنَا في الكِتَاب الحكيم القرآن.

• ﴿وَلَّىٰ﴾: أي أَدْبَرَ وَنَأَىٰ عَنْ مَكَانِ التِّلَاوَةِ جَسَدِيّاً، أَوْ نَفْسِيّاً. يُقَالُ لغة: «وَلَّىٰ عَنِ الشيءِ يُوَلِّي» أي: أَدْبَرَ عَنْهُ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الإدْبَارِ نَأْيٌ وابْتعاد، فيكُونَ المعنى: أَدْبَرَ ونَأَىٰ.

والمدْبِرُ النَّائي عَن الشيءِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَنْكِراً لَهُ وَنَافراً مِنْه.

• ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾: أي: مُتَرَفِّعاً عَنْهُ بِشِدَّةٍ، لِأَنَّهُ يَرَاهُ شيْئاً لَا فَائِدَةَ مِنْهُ، فَهُوَ يَحْتَقِرُهُ، وَلَا يَعْبَأُ بِهِ، وَلَا يَجِدُهُ أَهْلاً لِأَنْ يَنْزِلَ إِلَىٰ مَكَانِهِ المنْخَفِضِ عَنِ المعالِي الَّتِي تُهِمُّهُ، ويرَىٰ أَنَّها جَدِيرَةٌ بِتَوْجِيهِ عِنَايَتِهِ.

الاسْتِكْبَار: الشِّدَّةُ والْغُلُوّ فِي مَشَاعِرِ الكِبْر.

• ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: أي: إنَّ حَالَةَ نُفُورِه النَّفْسِيِّ عَنْ آياتِ اللهِ تَجعَلُهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا، فإذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا قَالَ: لَا أَدْرِي.

• ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾: أي: كأنَّ في أُذنَيْه صَمماً، أَوْ ضَعْفاً شديداً في السَّمع قَريباً من الصَّمَم.

الْوَقْرُ: صَمَمٌ، أَوْ ثِقَلٌ شَدِيدٌ في السَّمْعِ قَرِيبٌ مِنَ الصَّمَم.

وفي خِتَام هٰذا الدَّرسِ عَلَّمَ اللهُ المؤمِنَ الْمُسْلِمَ أَنْ يَقُولَ لِهٰذَا الإنْسانِ مِنْ هٰذا الْفَرِيقِ: أَبْشِرْ بعَذَابٍ أليم عنْدَ رَبِّكَ إذَا لَمْ تَفِئْ إلَىٰ رُشْدِك، بتَدَبُّرِ آيات كِتَابِ رَبِّك، فقال اللهُ عَزَّ وَجلَّ له: ﴿.. فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾. الأصْل في الْبِشَارَةِ أَنْ تكونَ إخباراً بِمَا يَسُرُّ، وقَدْ تُسْتَعْمَلُ في الإخْبَارِ بما يَسُوءُ، لُغَةً أو على سبيل التهكُّمَ.

وبهٰذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُروس سورة (لقمان).

والحمدُ لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

(٨)
التدبر التحليلي للدَّرْسِ الثالث من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيتان (٨) و(٩)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

تَمْهيد:

في مُقَابِلِ الْعَذاب الْمُهِين والْأَلِيم الَّذِي جاء بَيَانُ إعْدَادِه لِلْكَفَرَةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ، وَيَتَّخِذُونَ آيات اللهِ هُزُواً، وَيَسْتَكْبِرُون عَنْ سَمَاعِها، في الدَّرْس الثاني السَّابق. جَاءَ في آيَتَيْ هٰذا الدَّرْسِ الثالِثِ التبْشِيرُ بِالْخُلُودِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ، لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحات.

التدبُّر التحليلي:

- قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾:

أبانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في هٰذِهِ الآية، أَنَّ الظَّفَرَ باسْتِحْقاق جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين يَكُونُ لِلَّذِينَ تَحقَّقَ فِيهِمْ شَرْطَانِ:

الشَّرْط الأول: أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا أَوْجَبَ اللهُ على الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِع الامْتِحَان أَنْ يُؤْمِنُوا به، وهي أَرْكَانُ الإيمان السِّتَّةُ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِها مِنْ تَفْصِيلات.

الإيمان: تَصْدِيقٌ إرادِيٌّ واعْتِرافٌ قَلْبِيٌّ بِعَنَاصِرِ القاعِدَةِ الإيمانيَّةِ في الْإسلام، ولَيْسَ مُجَرَّدَ عِلْم بِهٰذِهِ العناصِر، فالْعِلْمُ غَيْرُ المصْحُوبِ بِتَصْدِيقٍ إراديٍّ في الْقَلْب لَيْسَ إيماناً، بَلْ قَدْ يَكُونُ مصحوباً بِجُحُودٍ، وهو من أَشَدِّ دَرَكَاتِ الكُفر.

ويَتْبَعُ التَّصْدِيقَ الإرَادِيَّ عَاطِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مُلائمةٌ لَهُ، ثمّ تَأْتي الإرَادَاتُ السُّلُوكِيَّةُ مُوَجَّهَةً مِنْ عَامِلَيْن: الإيمان، والعاطفة النفسيّة.

الشَّرْطُ الثاني: أَنْ يَعْمَلُوا الصَّالِحَات، أي: أَنْ يَعْمَلُوا أَعْمَالاً صَالِحَاتٍ تُرْضِي اللهَ عَنْهُم، كإعْلَانِ الشهادَتَيْنِ، وإعْلَانِ الاسْتِسْلَامِ لله وَلِأَوَامِره، والدُّعَاءِ للهِ وحْدَهُ دُونَ إشراكٍ بِهِ، وأَدَاءِ بَعْضِ الْفُرُوضِ والواجبات، وَبَذْلِ المالِ ابتغاء مَرْضَاةِ الله، والابْتِعَادِ عَنْ بَعْضِ المحرَّمَاتِ طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

هذا الشَّرْطُ يُمَثِّلُ تَعْبِيراً عَمَلِيّاً عَنْ صِحَّةِ الإيمانِ الإرَادِيِّ الاعتقاديِّ.

﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ اللّام في ﴿لَهُمْ﴾ هي لَام الاستحقاق، أي: هُمْ يَسْتَحِقُّونَ بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ جَنَّاتِ النّعِيم يَوْمَ الدِّين.

جاء لفظ «جَنَّات» جمعاً، لِأَنَّ دَارَ نَعِيم المؤمنين في الآخِرَةِ ذَاتُ أَقْسَامٍ كَثِيرَةٍ جِدّاً، كُلُّ قِسْمٍ مِنْهَا هو جَنَّةٌ فِيها كُلُّ مَا يُحَقِّقُ كُلَّ نَعِيمِ المقيمِينَ فِيه، فَهِيَ جَنَّاتٌ كَثِيراتٌ في دَارٍ عُظْمَىٰ وَاحِدَةٍ تُسَمَّىٰ «جَنَّة».

النَّعِيم: خَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَذَّاتِ الجنَّةِ والسَّعَادَاتِ الَّتِي تكُونُ فيها بلَفْظِ «نعيم ـ وَالنَّعِيم».

وخَصَّ لذَّاتِ الحياة الدُّنيا بلفظ «متاع» لسُرْعَةِ زَوَالِها وقِلَّةِ قِيمَتِها.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّاًۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾:

أي: لَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ جَنَّاتُ النَّعِيمِ حَالَةَ كَوْنِهِمْ خَالِدِين فِيها خُلُوداً أبدِيّاً بِلَا نِهَايَةٍ.

ومثل هـٰذه الحال تُسَمَّىٰ عِنْدَ النُّحاة حَالاً مُقَدَّرة، أي: حالَةَ كَوْنِ خُلُودِهِم فيها أَمْراً مُقَدّراً بِتَقْدِير اللهِ وَقَضائه.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾:

الْوَعْدُ: الْإِخْبَارُ بِمَا تَمَّتْ بِتَحْقِيقِهِ إِرَادَةُ المخْبِرِ في المستقبل، مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، يقالُ لغة: «وعَدَهُ بخير، وَوعَدَهُ بِشَرّ».

أمّا الْوَعِيد والإيعَادُ فَهُمَا في الشّرِّ خَاصَّة.

وَعْدَ اللهِ: «وَعْدَ» مَنْصُوبٌ علىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ نَائِبٌ عَنْ فِعْلِه، وأصْلُ الكَلَام: وَعَدهُمُ اللهُ بِدُخُولِ جنَّاتِ النَّعِيم وَعْداً مُؤَكَّداً لا خُلْفَ فِيهِ.

حَقّاً: أَيْ: حَالَةَ كَوْنِ وَعْدِ اللهِ حَقّاً، مُراداً بِهِ تَحْقِيقُهُ في الْوَاقِع مُسْتقبلاً، ومَعْلُومٌ مِنْ عَنَاصِرِ القاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ أَنَّ اللهَ لَا يَخْلِفُ الميعاد، إِذْ هُوَ الْعَلِيمُ الحِكيمُ فيما يُقَدِّرُهُ ويَقْضِي به، والقدير على تَنْفِيذِ مَا يَعِدُ بِهِ، لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَهُو يَكُون.

• ﴿.. وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾: خَتَمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ هـٰذا الدَّرْسَ باسْمَيْنِ جَلِيلَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ، مُنَاسِبَيْن لمضْمُونِ وَعْدِهِ الَّذي وَعَدَهُ عبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات.

الْعَزِيز: أي: القويُّ الغالِبُ الَّذي لَا يُغْلَبُ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ تَحْقِيق مَا يَشَاءُ مَهْمَا كَانَ عظيماً وَدَقِيقاً، وَيَحْتَاجُ أعْظَمَ وَأجَلَّ إِتْقَان، فهو بعِزَّته يخْلُقُ ما يُريد.

الْحَكيم: أي: الّذِي يَضَعُ كُلَّ شيءٍ في الموضع الملائم بإتقانٍ كامل، ويَخْتَارُ أفضل الأشياء وأتْقَنَها وَأَحْسَنَها في الْأُمُورِ المختَلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أحْسَنَ الأعمال وأحْسَنَ النَّتَائِج، فهو بِحِكْمَتِهِ يُقدِّرُ وَيَقْضِي عَلَىٰ أكْمَلِ وَجْهٍ وَأحْسَنِهِ وَأتْقَنِه.

وبهـٰذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثالث من دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفَتْحِه.

❀ ❀ ❀

(٩)
التدبّر التّحليلي للدرس الرابع من دروس سورة (لقمان) وهو الآيتان (١٠) و(١١)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾﴾.

تمهيد:

مِنْ عِنَايَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ الّذِينَ يَتوَلَّونَ نَافِرِينَ عَنْ آياتِ اللهِ فِي كِتَابِهِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ هُدىً وَرَحْمَةً، لِيُبَيِّنَ للنّاسِ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ سَبِيلَهُ المسْتَقِيمَ، الْمُوصل لِمَنْ سَلَكَهُ إلى السَّعَادَةِ فِي جَنَّاتِ النعيم خالِدِينَ فيها يَوْمَ الدّينِ، قَدَّمَ لَهُمْ فِي آيَتَيْ هٰذا الدّرْسِ تَنْبِيهاً علَىٰ بَعْضِ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّاتِ علَىٰ قُدْرَتِهِ العظيمة، وَحِكْمَتِهِ البالِغَةِ، وإتْقَانِهِ لِكُلِّ شيءٍ، وكَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ لِكَوْنِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ هٰذَا الكَوْنَ عَبَثاً، وأَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يكونَ قَدْ خلَق الناسَ لِيَبْلُوَهُمْ ويَخْتَبِرَهُمْ في ظروفِ الحياة الدُّنيا، أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، وأَيُّهُمُ الْمُسِيءُ الَّذِي يَقْتَضِي الْعَدْلُ أنْ يُجازَىٰ بِحسَبِ عَمَلِهِ، كَمَا يَقْتَضِي الْفَضْل أَنْ يُثَابَ الْمُحْسِنُ علَىٰ إحْسَانِهِ، في حَيَاةٍ أُخْرَىٰ غَيْر هٰذه الْحَيَاةِ الدّنيا.

فَالْحَيَاةُ الأُخْرَىٰ، والدَّارُ الآخِرَةُ، من الحقائق الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْها بُرْهَانُ الْعَقْلِ، إذَا تَفَكَّرَ مَنْ وَهَبَهُ اللهُ أَدَاةَ التَّفْكِيرِ والْفَهْم فِي الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّةِ الدَّالَّاتِ علَىٰ اللهِ الخالِقِ الرَّبِّ الْعَلِيم الحكيم القدير، الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

وَالظّاهرات الكَوْنِيَّةُ تَدُلُّ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ، الَّتِي يَلْزَمُ عَنْها عَقْلاً وَحْدَانِيَّتُه في إلٰهِيَّتِه، فَمَن اعْتَقَدَ غَيْرَ هٰذا كَانَ ظَالِماً وَفي ضَلَالٍ مُبِين.

التدبُّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾.

فِي هٰذِهِ الْآيَةِ يُنَبِّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ أَرْبَع آياتٍ ظاهِراتٍ مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنِهِ، وَهِيَ دَالّاتٌ على طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ لِكَوْنه، الّتي يَلْزَمُ عَنْهَا عَقْلاً أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقِ النَّاسَ في الحياةِ الدُّنْيَا عَبَثاً، بَلْ هُمْ مُمْتَحَنُونَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا، وسَوْف يُحْيِيهِمْ حَيَاةً أُخْرَىٰ يُحَاسِبُهُمْ فِيها عَلَىٰ ما قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَيَفْصِلُ الْقَضَاءَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يُجَازِيهِمْ بِمُقْتَضَىٰ حُكْمِهِ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ.

الآيَة الأولَىٰ مِنَ الظَّاهِرات الكَوْنِيَّة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٖ تَرَوْنَهَاۖ﴾: فَاعِل: ﴿خَلَقَ﴾ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ يَعُودُ عَلَىٰ لفظ الجلالَة في ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ من الآية (٩).

السَّمَاوَاتُ: هي مَجْمُوعَاتُ النُّجُوم المنْبَثَّةِ في الكَوْنِ مِنْ حَوْلِ الأرض، والتي يُقَدِّرُهَا عُلَمَاءُ الْفَلَكِ بِبَلَايِين المجرَّاتِ، دُونَ أَنْ يَتَوَصَّلُوا إلى مَعْرِفةِ عَدَدِ المجرَّاتِ الموجودَةِ في الكَوْن.

المجَرَّةُ: نظامٌ مِنَ النُّجُوم والْغُبَارِ والغازاتِ المتماسِكَةِ معاً بوساطَةِ الجاذِبِية، وَتَنْتَشِرُ المجرَّاتُ فِي الكَوْن. وقُطْرُ بَعْضِ المجرَّاتِ نِصْفُ مَلْيُون

سَنَة ضَوْئية. والسَّنَةُ الضَّوْئيَّة هِي المسافة التي يَقْطَعُها الضوء في سنة، وَهي نحو (٩,٥ ترليونات كم). ويُوجَدُ في المجرَّاتِ الكبيرَة أكْثَرُ من ترلْيُون نَجْمَة، أمّا المجرَّات الصغيرة فيوجَدُ فيها ما يُقَارِب بَلْيُون نَجْمَة.

وجاء في البيانِ القرآنيّ أَنَّ السَّمَاوَاتِ سَبْعٌ، أيْ: فَهٰذِهِ المجرّات تَنْقَسِمُ إلَىٰ سَبْعَةِ أقْسَام، كُلُّ قِسْم مِنْها سَمَاءٌ، وهِيَ مُتَتَابِعَةٌ في المدَىٰ الكَوْنِيِّ الْبَعِيدِ الّذِي لَا تَسْتَطِيعُ مَدارِكُ الْخَلَائِقِ تَصَوُّرَ أبْعَادِه.

وَهٰذِهِ السَّمَاوَاتُ مَوْجُودَةٌ فِي مَوَاقِعِهَا مِنَ الكَوْنِ، مَعَ تَحَرُّكِ نُجُومِها، بِنِظَامِ الجاذِبِيَّةِ الْعَجِيبِ الَّتِي جَعَلَ اللهُ بِهِ لِكُلّ سَمَاءٍ، وَكُلِّ نَجْمٍ وَكَوْكَبٍ فيها، وَلِكُلِّ مَجَرَّةٍ فيها، مَوْقِعاً لَا يَخْرُجُ عَنْهُ إلَّا ضِمْنَ إرَادَةِ اللهِ الْمُسَيِّرَةِ لِكُلِّ شَيْءٍ في هٰذا الكَوْنِ، من الذَّرَّةِ إلَىٰ أكْبَرِ مَجَرَّة. ولَفْظ «السَّمَاءِ» في اللُّغَةِ يُطْلَقُ عَلَىٰ كُلِّ مَا عَلَا فأظلّ.

والْجَاذِبيَّة الَّتِي يُمْسِكُ اللهُ بِهَا السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيها هي بمَثَابَةِ عَمَدٍ غَيْرِ مَرْئِيَّةٍ بالْعُيُونِ، ولَكِنْ تُدْرَكُ آثارُها بِضَبْطِ كُلِّ نجم، وكُلِّ كَوْكَبٍ، وَكُلِّ مَجرَّةٍ، وكُلِّ سَمَاءٍ مِنَ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ، في مَوْقِعِهِ أَوْ مَدارِه أَوْ خَطِّ حَرَكَةِ سَيْرِهِ، ضَبْطاً عجيباً مُتْقَناً، ضِمْنَ نِظَامٍ عَامٍّ شَامِلٍ لِكُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ.

وبناء على هٰذا نَفْهَمُ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أَيْ: بِغَيْر عَمَدٍ تَرَاهَا الْعُيُون، لَكِنَّهَا جَاذِبِيَّاتٌ هِيَ بِمَثَابَةِ عَمَدٍ غَيْر أَنَّها لَا تَرَاهَا الْعُيُون، وَهٰذه الْجَاذِبيَّاتُ الَّتِي هي مِنْ خَلْقِ اللهِ العجيب فِي كَوْنِهِ، هِيَ قُوىً غَيْرُ مَنْظُورَةٍ ذَاتُ قُدْراتٍ تُحَدِّدُ مَوَاقِعَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَكُلِّ شيءٍ فِيها، فَلَا تَتَحَرَّكُ إلَّا بنظامٍ رَبَّانِيٍّ يَمْنَعُها مِنَ التَّصَادُم مَا لَمْ يَقْضِ اللهُ بشيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

الْعَمَد: جَمْعُ مُفْرَدُهُ «الْعَمُود» ويُجْمَعُ أيْضاً عَلَىٰ «عُمُدٍ» و«أَعْمِدَة».

الآية الثانِيةُ من الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: أي: وَأَلْقَىٰ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فِي الْأَرْضِ جِبَالاً رَوَاسِيَ مَنْعَ أَنْ تَمِيدَ الْأَرْضُ بِكُمْ.

رَوَاسِيَ: أي: ثَوَابِتَ، وهو صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ هِيَ الجبالُ، إذِ الواقع المشهود في الأرْضِ أَنَّ الجبالَ هِيَ الملْقَاةُ الغائِصَاتُ أسافِلُهَا فِي الْأَرْض، وهي المثبِّتَاتُ لِلْمُنْبسطَاتِ مِنَ الْأَرْضِ مَانِعَةً لَهَا عَنْ أَنْ تَمِيدَ بالنَّاسِ السَّاكِنِينَ عَلَيْهَا.

يُقَالُ لُغَةً: «مَادَ الشَّيْءُ، يَمِيدُ، مَيْداً، ومَيَدَاناً» أي: تَحَرَّكَ واضْطَرَبَ، فالجِبَالُ مُثَبِّتَاتٌ لِلْمُنْبَسِطَاتِ مِنَ الْأَرْض، ومَانِعَةٌ لَهَا مِنْ أَنْ تَتَحَرَّكَ وَتَضْطَّرِبَ، بِالضَّوَاغِطِ عَلَيْهَا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ، بما فِيهَا مِنْ غَازَاتٍ تَمْتَدَّ لِتَخْرُج، وَتَحْدُثُ عَنْهَا فِي مَوَاطِنَ عَدِيدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ بَرَاكِينُ تَتَفَجَّرُ بالْحُمَم، وبالصّخُورِ والأتْربَةِ الذَّائِبَةِ السَّائِلَةِ مِنْ شِدَّةِ الحَرَارَةِ والْغَلَيَانِ فيها، إذْ باطِنُ الأرض كُتْلَةٌ نَارِيَّةٌ مُلْتَهِبَة.

فاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُنَبِّهُ علَىٰ هـٰذِهِ الآيَةِ مِنْ آيَاتِهِ في كَوْنِهِ، وَهِيَ مِنْ نِعَمِ اللهِ علَىٰ عِبَادِه سُكَّانِ الْأَرْض.

الآيَةُ الثالِثَةُ مِنَ الظَّاهِرَات الْكَوْنِيَّة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

- ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾: أي: وَنَشَرَ فِي الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ، وَنَوْعٍ، وصِنْفٍ مِمَّا خَلَقَ مِنَ الدَّوَاب.

الْبَثُّ: النَّشْرُ والتَّفْرِيقُ فِي مُخْتَلِفِ الجهات، يقال لغة: «بَثَّ الشَّيْءَ، يَبُثُّه، بَثّاً» أي: فَرَّقَهُ، ونَشَرَهُ في مُخْتَلِفِ الْجِهَات.

دَابَّة: هـٰذا اللّفظ يُطْلَقُ لُغَةً على كُلِّ مَا يَدِبُّ علَىٰ الأرْضِ مِنْ حَيَوانٍ. يقالُ لغة: «دَبَّ، يَدِبُّ، دَبّاً، وَدَبِيباً» أي: مَشَىٰ على هيئَتِهِ. فكُلُّ حيوانٍ يَمْشِي على الأرض أَوْ في دَاخِلِها هو دَابَّةٌ، سَوَاءٌ مَشَى علَىٰ قوائم، أَوْ مَشَىٰ عَلَىٰ بَطْنِهِ كالثعابين والدِّيدان وغيرها.

ومِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ مَا بَثَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في الأرْضِ مِنْ دَوَابَّ خَلَقَهَا بِقُدْرَتِهِ، وأتْقَنَ صُنْعَها بِحِكْمَتِه، مِنَ الأدلَّةِ الْكُبْرَىٰ عَلَىٰ طائِفَةٍ جَلِيلَةٍ مِنْ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِه لِكَوْنِهِ، وكثِيرٌ مِنْ هٰذِهِ الدَّوَابِّ فيه مَنَافِعُ للنَّاسِ، إِذَا تَوَصَّلُوا إلى مَعْرِفَةِ خَصَائِصِها وَوَسِيلَةِ الاسْتِفَادَةِ مِنْهَا لِمَعَايِشِهِمْ، وأَدْوِيَتِهِم وغَيْرِ ذَلِكَ.

الآيَةُ الرابعَةُ من الظَّاهرات الكونية: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾:

الْتَفَتَ البيانُ مِنَ الْغَيْبَةِ إلى التَّكَلُّم، مَعَ اسْتِعْمَالِ ضَمِير المتكلّم العظيم، لِمَا فِي الآيَةِ المبيَّنَةِ هُنَا مِنْ دَلَالَةٍ عَلَىٰ عَظَمَةِ سُلْطَانِ اللهِ، وَعَظِيمِ مِنَّتِهِ عَلَىٰ عِبَادِه بأَرْزَاقِهِم الَّتِي هِيَ مَادَّةُ بَقَاءِ حَيَوَاتِهِمْ إلى آجالها، وبالثَّمراتِ المتَنَوِّعَاتِ اللَّاتي هِيَ مِنْ أَجَلِّ وَسَائِلِ مَتَاعَاتِهِمْ في الحياة الدنيا.

• فنظام تَبَخُّرِ المياهِ وتَكَوُّنِهَا سُحُباً، وَتَخْلِيصِهَا مَنْ كثير مِنَ الشَّوَائِبِ والأمْلَاحِ التي اخْتَلَطَتْ بِها في الأرْضِ، مِنْ عجائب إتْقَانِ صُنْعِ اللهِ في كَوْنِهِ، عِنَايَةً بِسُكان الْأَرْضِ من الناس والأحْياءِ الْأُخْرَىٰ.

• وَإنْزَالُ الْمَاءِ الطَّهُورِ مِنَ السَّمَاءِ بِتَقْدِيرِ اللهِ الحكيم، من الدَّلَائِلِ الْكُبْرَىٰ عَلَىٰ حِكْمَتِهِ، وعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَحُسْنِ تَصَارِيفِهِ.

• وَإنْبَاتُ الزُّرُوعِ والْأَشْجَارِ، وإِخْرَاجُ الثَّمراتِ الطَّيِّبَاتِ النَّافِعَاتِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ كَرِيم، مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ تَفَضُّلِهِ عَلَىٰ عِبَاده، وَنِعَمِهِ الْجَلِيلَةِ، وَمِنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ إحْصَاءَها، مع ما فِيها من أَدِلَّةٍ على عظيم قُدْرَتِهِ، وَإتْقَانِهِ لمخْلُوقاتِهِ، وعِلْمِهِ المحيط بكلّ شيء.

مِنْ كُلِّ زَوْجٍ: أي: مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أصْنَافِ الزُّرُوع والْأَشْجَارِ والثمرات.

كَرِيم: أي: جَامِعٍ للصّفَاتِ المحْمُودَةِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ صِنْفِه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ:

● ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ⑪﴾:

لمَّا كانَتِ الآيَةُ السَّابِقَةُ (١٠) مُوجَّهَةً إبَّانَ التَّنْزِيلِ للمشْركين، مَعَ صَلاحِيَّةِ تَوْجِيهِهَا لِكُلِّ الكافِرِينَ حتَّىٰ الدَّهْرِيّين، أَتْبَعَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهٰذِهِ الآيَةِ (١١) مُوَجَّهَةً لِمُعَالَجَةِ المشْرِكين، الَّذِين يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُه وعَظُمَ سُلْطَانه ـ فَقَالَ لهم:

● ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾: المشَارُ إلَيْهِ بـ﴿هَٰذَا﴾ الآيَاتُ الْأَرْبَعُ مِنَ الظَّاهِراتِ الكَوْنِيَّةِ الَّتِي سَبَقَ شَرْحُها في الآية (١٠).

أي: هَٰذَا الَّذِي نَبَّهْنَا عَلَيْهِ في الظَّاهِرَاتِ الكَوْنِيَّة الْأَرْبَعِ مِنْ آثَارِ خَلْقِ اللهِ.

لفظ «خَلْقٍ» هُنَا مَصْدَرُ «خَلَقَ» أُطْلِقَ بمَعْنَىٰ اسْمِ المَفْعُولِ، أي: مَخْلُوقُ الله، أي: مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

● ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: أي: فأَرُونِي أيُّها المشركون، الّذِينَ تَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُون اللهِ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ لَهَا رُبُوبِيَّةً ما في الكَوْنِ، مَاذَا خَلَقَ مِنَ الكَوْنِ آلِهَتُكُمُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ الله رَبّكُمْ، تَلْتَمِسُونَ مِنْهُمْ جَلْبَ نَفْعٍ لكم، أَوْ دَفْعَ ضُرٍّ عَنْكُمْ، أو جَلْبَ ضُرٍّ لِأَعْدَائِكُمْ وَخُصُومِكُمْ.

إنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ مِنَ المشْرِكِينَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ شيئاً مِنَ الكَوْنِ وَأَحْدَاثِهِ، هُوَ مِنْ خَلْقِ آلِهَتِهِ الَّتِي يَعْبُدُهَا مِنْ دُونِ اللهِ، وإذا عَجزَ المشْرِكُونَ عَنْ إثباتِ ذَلِكَ فإنَّ آلِهَتَهُمْ لا رُبُوبيَّةَ لَهَا، وَحِينَ تَسْقُطُ رُبوبيَّتُها

لِشَيْءٍ مِنْ أَحْدَاثِ الكَوْن، تَسْقُطُ إِلَهِيَّتُها باللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ، لِأَنَّ الإِلَهِيَّةَ حَقّ مَنْ لَهُ رُبُوبِيَّةٌ مَا، وَلَا رُبُوبِيَّةَ فِي الكَوْنِ لِغَيْرِ اللهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه.

• ﴿.. بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١١﴾: لَفْظُ «بَلْ» في هٰذهِ العبارة يَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف يَسْهَلُ اسْتِخْرَاجُهُ ذِهْناً، إذِ التَّقْدِيرُ: إنَّ المخاطَبِينَ المعالَجِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ شيئاً من الكَوْنِ أو أَحْداثِهِ مِنْ خَلْقِ آلِهَتِهِمْ، بَلْ هُمْ في ضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ جَلِيٍّ وَوَاضِحٍ. وضِعَ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بَدَلَ الضمير «هُمْ» لبيانِ أَنّهم ظالمون في شركهم.

وبهٰذا انتهىٰ تدبُّر الدرس الرابع من دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١٠)

التدبّر التحليلي للدّرس الخامِس من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيات من (١٢ ـ ١٩)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝١٢ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۝١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ

بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

القراءات:

(١٢) و(١٤) • قرأ أبو عمْرو، وعاصم، وحَمْزَة، ويعقوب: **[أَنِ اشْكُرْ]** بِكَسْرِ النون في الآيتَيْن.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِضَمّ النُّون: **[أَنُ اشْكُرْ]** في الآيتَيْن.

وَهُما نُطْقَانِ عَرَبيان.

(١٣) • قرأ حفص: **[يَا بُنَيَّ]** بفَتْحِ الياءِ المشدّدَة.

وقرأها ابن كثير: **[يَا بُنَيْ]** بإسْكانِ الياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَا بُنَيِّ]** بكَسْرِ الياء المشددة.

وهي وُجُوهٌ في النطق العربي.

(١٦) • قرأ حفْصٌ: **[يَا بُنَيَّ]** بفَتْحِ الياء المشَدَّدَة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَا بُنَيِّ]** بكسر الياء المشدَّدة.

(١٦) • قرأ نافع، وأبو جَعْفر: **[مِثْقَالُ]** بالرَّفْع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[مِثْقَالَ]** بالنَّصب.

والقراءتان وجْهَانِ نَحوِيَّانِ جائزَان.

(١٧) • قرأ الْبَزّي، وحفص: **[يَا بُنَيَّ]** بفتح الياء المشدَّدة.

وقرأها قُنْبُل: **[يَا بُنَيْ]** بإسْكان الياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَا بُنَيِّ] بِكَسْرِ الياء المشدّدة.

(١٨) • قرأ ابن كثير، وابْنُ عامر، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: [وَلَا تُصَعِّرْ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلَا تُصَاعِرْ].

«تُصَعِّر، وتُصَاعِر»: لُغَتان بمَعْنَىٰ إمَالَة الْعُنُقِ مِنَ الكِبْرِ واحْتِقَارِ الناس.

تَمهيد:

في آياتِ هٰذا الدَّرْسِ ثَنَاءٌ عَلَىٰ لُقْمَانَ الحكِيم، من خِلَالِ عَرْضِ وَصَايَاهُ الدّينيَّةِ لابْنِهِ، وَمَوَاعِظِهِ لَه، وَتَتَضَمَّنُ تَوْجِيهاً لِلْآبَاءِ بِأَنْ يُوصُوا وَيَعِظُوا أبْنَاءَهُمْ بِمِثْلِهَا.

وَجَاءَ فِي أَثْنَائِهَا عَرْضُ وَصِيَّةِ اللهِ الإنْسَانَ بوالِدَيْهِ، للإشعار بأنَّ وَصَايا لُقْمَانَ وَمَوَاعِظَهُ لابْنِهِ هِي مِمَّا تَلَقَّاهُ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوّاتِ السَّابِقَةِ لَهُ، فَهِي جُزْءٌ مِنَ التَّعْلِيمَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ للنَّاس، وَهٰذا الأسْلُوبُ قَدْ تَكَرَّرَ في القرآن، وهو من الْأَسَالِيبِ الَّتِي يُدْرِكُها الْفُطَنَاءُ، وَقَدْ يَسْتَعْمِلُها بَعْضُ أَذْكِيَاءِ الشُّيُوخِ لإقْرَار مَا يَقُولُهُ وَيَشْرَحُهُ بَعْضُ تَلَامِيذِهِمْ في مَجْلِسِهِمْ، فَيُضِيفُونَ إلَىٰ مَا يَقُولُونَ أقوالاً مِنْ عِنْدِهِم.

تعريفٌ بلُقْمَان:

(١) لَمْ يَأْتِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ «لُقْمَانَ» كان نَبِيّاً، فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ حَكِيمٌ، دَاعٍ إلى اللهِ بالْحِكْمَةِ والموعِظةِ الحسَنَة، وهٰذا ما عَلَيْهِ جُمْهُورُ أهْلِ الْعِلْمِ والمؤرّخون.

(٢) أكْثَرُ الرِّوَايَاتِ تُفِيدُ أنَّهُ كَانَ أَسْوَدَ الْجِسْم، فقِيلَ: هُوَ مِنْ بِلَادِ النُّوبَة، وقيل: مِنَ الْحَبَشَة.

(٣) قالُوا: وَكَانَ في زَمَنِ دَاوُد عَلَيْهِ السلام.

(٤) قال ابن إسْحاق في السِّيرَة: قدِمَ سُوَيْدُ بْن الصَّامتِ أَخُو بَنِي عَمْرو بن عَوْفٍ مَكَّةَ حَاجّاً أَوْ مُعْتَمِراً، فتَصَدَّىٰ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَدَعَاهُ إِلَىٰ الإسْلَام، فقال له سُوَيد: فَلَعَلَّ الَّذِي مَعَكَ مِثْلُ الَّذِي مَعِي، فقال لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟». قال: مَجَلَّةُ لُقْمَان. فقالَ لَهُ رَسُول الله ﷺ: «اعْرِضْهَا عَلَيّ»، فَعَرَضَهَا عَلَيْه، فَقَالَ: إِنَّ هٰذا الكلامَ حَسَنٌ، والَّذِي مَعِي أَفْضَلُ مِنْ هٰذا، قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ الله.

(٥) كَانَ لُقْمَانُ الحكيم مَعْرُوفاً عِنْدَ الْعَرَبِ، وهٰذا مَا جَعَلَ قُرَيشاً يَسْأَلُونَ الرَّسُولَ ﷺ عَنْهُ، كَمَا جاء في سبب نُزُولِ هٰذِهِ السُّورَة.

التدبُّر التَّحْلِيلِي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

● ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

العطف بالواو في أوّلِ هٰذا الدّرْسِ هو مِنْ عَطْفِ مَوْضوع عَلَىٰ مَوْضُوع، وقصَّةٍ على قِصَّة.

■ وَيُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بالْقَسَم المنويّ الَّذِي دَلَّتْ عليه اللام، وبحرف «قَدْ» الدّالّ علَىٰ التحقيق، أنَّهُ تبارَكَ وَتعالَىٰ آتىٰ لُقْمَانَ الْحِكْمَة، فقال تعالى بضمير المتكلّم العظيم إشعاراً بِمِنَّتِهِ الْعَظِيمَةِ عَلَىٰ لُقْمان.

● ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾:

سبَق شَرْحُ الْحِكْمَةِ في مَوَاضع كَثِيرَةٍ، وأُضِيف هُنَا أَنَّ الْحِكْمَةَ تَرْجِعُ إلى جَذْرَيْن:

الجذْرُ الأَوّل: الْحِكْمَةُ في المعرفة، وتكُونُ بمُطَابَقَةِ الْعِلْمِ للواقِع، أَوْ

لِأَحْسَنِ وَأَقْوم صُورَةٍ مُمْكِنَةٍ تَقْتَرِبُ مِنْ مُطَابَقَةِ الكَمالِ في الشيء.

الجذْرُ الثاني: الْحِكْمَةُ في السُّلُوكِ، سواءٌ أكانَ خُلُقاً، أَمْ عملاً جَسدِيّاً، أَمْ تَصَرُّفاً في قَوْلٍ، أَوْ إفْتَاءٍ، أَوْ حُكْمٍ، أو سياسَةٍ، أَوْ إِدَارَة، أَوْ تَرْبيَةٍ، أَوْ غَيْرِ ذلِكَ مِمَّا يَصْعُبُ اسْتِقْصَاؤه.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿.. أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

دَلَّ هـٰذا الْبَيَانُ عَلَىٰ الْعُنْصُرِ الْأَوَّلِ مِنْ عَنَاصِرِ الْحِكْمَةِ الَّتِي آتاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لُقْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْه.

أي قُلْنَا لَهُ فِيما تَلَقَّىٰ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ السَّابِقَةِ: اشْكُرْ لِلَّهِ، حَتَّىٰ آخِرِ مَا جَاءَ في البيانِ، فَكَانَ مِنَ الشَّاكِرِين، فَتَدَفَّقَتْ عَلَيْهِ بِفَتْحٍ مِنْ رَبِّهِ فُيُوضُ حِكَمٍ جَلِيلَةٍ.

• ﴿أَنِ﴾ تَفْسِيرِيَّة، تُفَسِّرُ الْعُنْصُرَ الْأَوَّلَ مِنْ عَنَاصِرِ الْحِكْمَةِ الَّتِي آتَاهَا اللهُ لَه.

• ﴿ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾: الشُّكْرُ مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ الْحَسَنِ، وإنْعَامِ المنْعِمِ، بما يُرْضِيه، وقد يَشْمَلُ الْقَوْلُ الذي فِيهِ مَا يُرْضي المنعم.

يُقَال لغة: «شَكَرَهُ، وَشَكَرَ لَهُ» وأكثر ما اسْتُعْمِلَ في القُرْآن التَّعْدِية باللَّام.

• ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ﴾: أي: وَمَنْ يَشْكُرِ الله بالإيمان والْحَمْدِ والطَّاعَةِ والْعَمَلِ بمَرَاضِيهِ، فإنَّما يَشْكُرُ لمصلحة نفْسهِ وَفَائِدَتِها مِنَ الشُّكْرِ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ يَجْزِيهِ على شُكْرِهِ ثَوَاباً عَظِيماً يَوْمَ الدِّينِ في جَنَّات النّعيم، خالداً فيها مُخَلَّداً سَعِيداً.

أَمَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يَزِيدُ شُكْرُ الشَّاكِرِينَ لَهُ فِي مُلْكِهِ شَيْئاً، وَكَذَلِكَ لَا يَنْقُصُ كُفْرُ الْكَافِرِين به مِنْ مُلْكِهِ شَيْئاً.

• ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾: أي: وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ بالإيمانِ، والحَمْدِ والطَّاعَةِ والعَمَلِ بِمَرَاضِيهِ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ، لا يَزِيدُ في مُلْكِهِ شُكْرُ كُلِّ عبادِهِ له، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ مُلْكِهِ كُفْرُ كُلِّ عِبَادِهِ بِهِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَحْمُودٌ دَوَاماً مِنْ قِبَلِ مَلَائِكَتِهِ، وَمَحْمُودٌ مِنْ قِبَلِ كُلِّ شَيْءٍ وَكُلِّ ذَرَّةٍ خَلَقَهَا فِي كَوْنِهِ، بِلِسَانِ الْحَالِ، وبِنُطْقٍ خاصٍّ بِكُلِّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ في الْوُجُود لَا نَفْقَهُهُ نَحْن، وهو ما أَبَانَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ في سورة (الإِسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾:

لفظ «حَمِيد» من قول الله تعالى: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ هو بمعنى مَحْمُود، أَيْ: هو مَحْمُودٌ من كُلِّ شَيْءٍ في الْوُجود، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هـٰذا إِلَّا إِرَادَةُ الْكَافِرِ بِرَبِّهِ، أَمَّا كُلُّ ذَرَّةٍ فِي ذَاتِهِ فَهِيَ مُسَبِّحَةٌ بِحَمْدِه دَوَاماً، إِذْ هِيَ تَدْخُلُ في عُمُومِ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾:

أي: وَضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّها المُتَلَقِّي آياتِ كِتَابِ اللهِ الحكيم، هـٰذا الْحَدَثَ الّذي جَرَىٰ حِينَ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ باللهِ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

تَلَطَّفَ لُقْمانُ فِي مُخَاطَبَتِهِ لابْنِهِ مُوصِياً وواعِظاً، فَقَالَ لَهُ: ﴿يَا بُنَيَّ﴾

بالنداء بـ[يا] للتَّنْبيهِ على جلالَةِ الموضوع، وبِصيغةِ التَّصْغِيرِ للتَّقْرِيبِ والتحبُّب، كأنَّهُ قَالَ لَهُ، يا ابْنِيَ الْقَرِيبَ مِنْ قَلْبِي، والْحَبِيبَ لي. أَمَّا الْوَصِيَّةُ المقْتَرِنَةُ بالْمَوْعِظَةِ في هـٰذِهِ العبارة، فهي قولُه له: ﴿.. لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾.

لَا تُشْرِكْ بالله: هـٰذِهِ هي الوصِيَّة، يُقَالُ لغة: «وَصَّىٰ، وَأَوْصَىٰ، فُلَانٌ فُلَاناً بالشَّيْءِ» أي: أَمَرَهُ بِهِ وفَرَضَهُ عليه، إذَا كَانَ ممَّا يُطْلَبُ فِعْلُهُ، وَنَهَاهُ عَنْهُ وَحَرَّمَهُ عَلَيْهِ إذا كَانَ مِمَّا يُطْلَبُ تركُهُ.

والوصِيَّةُ: بَيَانٌ مَقْرُونٌ بِنُصْحٍ مُؤَكَّدٍ بِعَهْد، ولَيْسَ مُجَرَّدَ بَيَانٍ عابِر، أَوْ نُصْحٍ فَاترٍ، بل هي نُصْحٌ مُشَدَّدٌ مُؤَكَّدٌ بِعَهْد.

﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾: **الوعْظُ**: هو النُّصْحُ بالْفِعْل أو بالتَّرْكِ المقرونُ بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أَوِ الرَّهْبَة في النَّفْسِ، للانْتِفَاعِ بالنُّصْح، واتِّبَاع ما هَدَىٰ إِلَيْهِ فِعلاً أَوْ تَرْكاً، قال ابْنُ سِيدَه: **الوعْظُ**: تَذْكِيرُكَ للإنْسَانِ بِمَا يُلَيِّنُ قَلْبَهُ مِنْ ثوابٍ وعقاب. **والموعظة**: ما يَكُونُ بِهِ الوعْظُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.

وَمَعْنَىٰ: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾: لَا تَجْعَلْ لِلَّهِ في اعتقادِكَ أَوْ عَمَلِكَ شَرِيكاً لِلَّهِ في رُبُوبيَّتِهِ لِكَوْنِهِ، أَوْ في إلَهِيَّتِهِ، إذْ لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ أَنْ يُعْبَدَ في الْوُجُودِ كُلِّهِ إِلَّا اللهُ الرَّبُّ الواحِدُ الأَحَد.

هـٰذا النَّهْيُ وَصِيَّةٌ مُؤَكَّدَة مُشَدَّدَةٌ بِعَهْدٍ، أَوْصَىٰ بها لُقْمَانُ ابْنَهُ.

• ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾: أي: إنَّ اتِّخَاذَ شَرِيكٍ للهِ الرَّبّ جَلَّ جَلَالُهُ، فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ في آلِهِيَّتِهِ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ فِي جانب حَقِّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ على عِبَادِه، ويَلْزَمُ عَقْلاً وخَبَراً عَنْ هـٰذا الظُّلْمِ العظيم أَنْ يَسْتَحِقَّ الظَّالِمُ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِ عَذَاباً أَلِيماً، خالِداً بِهِ في نَارِ جَهَنم.

ويَغْلَطُ بَعْضُ النَّاسِ فَيَرَىٰ أَنَّ الشِّرْكَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الظُّلْم، مَعَ أَنَّهُ أَوَّلُ دَرَكَاتِ الكُفْرِ المنْحَدِرَةِ إِلَىٰ قَاعِ جَهَنَّم، إذْ أَشَدُّ مِنَ الشِّرْكِ باللهِ ظُلْماً

جُحُود وُجُودِ اللهِ، وَاعْتِبَارُ أَنَّ الكَوْنَ مَادَّةٌ، وأنَّهُ لَا يُوجدُ رَبٌّ يُهَيْمِنُ عَلَىٰ الكَوْنِ بِصِفَاتِ رُبُوبيّتِهِ، هُو الّذِي خَلَقَهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شيئاً مَذْكُوراً، وَمِنْ هـٰؤلَاءِ الدَّهْرِيُّونَ قدِيماً، ومَلاحِدَةُ الشُّيُوعِيينَ الَّذِينَ ظَهرُوا في الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ الميلادي وقَبْلَهُ، وأمثالُهم في الْقُرُونِ السَّالِفَة والقادِمَة.

وَيَسْبِقُ إِلَىٰ أَذْهَانِ هـٰؤلَاءِ الّذِينَ يَغْلَطُونَ هـٰذا الْغَلَط، أَنَّ العبارة القرآنيَّة تُفِيدُ أَنَّ الشِّرْكَ أَظْلَمُ الظُّلْم، مع أنَّها تُفِيدُ أَنَّ الشِّرْكَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ، وَهِيَ لَا تَنْفِي أَنْ يُوجَدَ مَا هُوَ أَظْلَمُ مِنْه، وَهوَ إنْكارُ وُجُودِ خالِقٍ لِهـٰذَا الكَوْن، يُهَيْمِنُ عَلَيْهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، وعُرِفَ هـٰؤُلَاءِ المنْكِرُونَ في عَصْرِنا باسْمِ الْمُلْحِدِينَ، وَكانُوا يُعْرَفُونَ باسْمِ الزَّنَادِقَةِ، وقَبْلَ ذَلِكَ أُطْلِقَ عليهم أنَّهم الدَّهْرِيُّون.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ في بَيَانٍ صَادِرٍ عَنْهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ أَثْنَاءَ عَرْضِ وَصَايَا لُقْمَانَ لابْنِهِ، لِلْإِشْعَارِ بأَنَّ وَصَايَا لُقْمَانَ لابْنِهِ مِنْ وَصَايَا اللهِ الَّتِي أَنْزَلَ بِهَا بَيَانَاتٍ عَلَىٰ رُسُلٍ سَابِقِينَ لِلُقْمَانَ الْحَكِيم:

• ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: إنَّ مَا وَعَظَ بِهِ لُقْمَانُ ابْنَهُ هُوَ مِنْ وَصَايَانَا السابقَةِ فِي رِسَالَاتِ الْمُرْسَلِينَ لِلإنْسَان، وهـٰذا يُشْعِرُ بأَنَّ هـٰذِهِ الْوَصَايا مُوَجَّهَةٌ لِلْإِنْسَانِ مُنْذُ عَهْدِ آدَمَ عليه السَّلام، أخذاً من ذكر لفظ الإنسان.

وقد سبَقَ قَرِيباً شَرْحُ مَعْنَىٰ الوصِيَّةِ، وفي هَـٰذا بيانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وصَّىٰ الْإِنْسَانَ مِنْذُ تَارِيخِ الإنْسَانِ الْأَوَّلِ، بَعْدَ آدَمَ وزَوْجِهِ بوالِدَيْهِ أَبِيهِ وأُمِّهِ.

• ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾:

جاءَ فِي هـٰذا الْبَيانِ التَّذْكِيرُ بِسَبَبِ الْوَصِيَّةِ بِالْوَالِدَيْنِ قبْلَ ذِكْرِ مَا أوصَىٰ اللهُ بِهِ الإنْسانَ الابْنَ بوالِدَيْه، وَجاءَ تَخْصِيصُ مَا تُعانِيهِ الْأُمُّ في حَمْلِ وَلَدِهَا فِي بَطْنِهَا وَتَرْبِيَتِهِ حَتَّىٰ فِطَامِهِ بالذِّكْرِ، لِأَنَّهَا الْأَكْثَرُ مُعَانَاةً وخَدَماتٍ في هَـٰذِه المدَّة، ولهـٰذا فَهِي تَسْتَحِقُّ ثَلاثَةَ أَرْبَاعِ الْبِرِّ مِنْ وَلَدِها، في جَانِبِ اسْتِحْقَاقِ الْأَبِ نِسْبَةَ الرُّبعِ، علَىٰ أَنَّ خَدَمَاتِ الأب وإنْفَاقَهُ مُسْتَمِرَّةُ الْعَطاءِ، مَا دَامَ مَسْؤُولاً شَرْعاً عَنْ تَرْبِيَتِهِ والإنْفاقِ عَلَيْهِ، مَعَ مَالَهُ مِنْ عَاطِفَةٍ صَادِقَةٍ تُجاهُ وَلَدِه، يُشَارِكُهُ بِهَا في آلَامِهِ وَمَسَرَّاتِه.

الْوَهْنُ: والْوَهَنُ: الضَّعْفُ وَذُبُولُ الْحَيَوِيَّة.

• ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾: أي: حَمَلَتْهُ أُمَّهُ حَمْلَ ضَعْفٍ فِي حالَتِها النَّفْسِيَّةِ، عَلَىٰ ضَعْفٍ فِي قُواها الْجَسَدِيَّة، إِذْ تَحْدُثُ فيها بِسَبَبِ الْحَمْلِ تَغَيُّراتٌ دَاخِلِيَّةٌ يَكُونُ الْجَنِين فِيهَا مُشَارِكاً لِأُمِّهِ فِي غِذَائِها مِنْ دَمِها، مَعَ مَا يَعْتَرِيها مِنْ تَغْيِيراتٍ في حَالَتِها النَّفْسِيَّة تُصَابُ مَعَها بالْغَثَيَانِ، والرَّغْبَةِ في التَّقَيُّؤ إِلَىٰ بَعْضِ آلَامٍ كَصُدَاعٍ في الرأس، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وتَتَعَرَّضُ بَعْدَ نِهَايَةِ الْحَمْلِ إِلَىٰ آلَامِ الْوَضْعِ، وَمَتَاعِبِ النِّفَاسِ.

ثُمَّ بَعْدَ الْوَضْعِ تُعَانِي الْأُمُّ مِنْ مَتَاعِبِ الإِرْضَاعِ والتَّرْبِيَةِ وخَدَمَاتِها، فقال تعالى:

• ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾: أي: ويَكُونُ فِطَامُهُ عَنِ الرَّضَاعِ فِي مُدَّةٍ غَايَتُهَا الْفُضْلَىٰ نِهَايَةُ عَامَيْنِ، لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ الْفُضْلَىٰ.

الْفِصَالُ: فِطَامُ الطِّفْلِ الرَّضِيعِ عَنِ الرَّضَاعَة.

وفي هـٰذِهِ المدَّةِ تُعَانِي الْأُمُّ في العادة مَا تُعَانِي مِنْ مَتَاعِبَ شاقَّةٍ على جَسدِها وَعَلَىٰ نَفْسِها.

وَسَكَتَ النَّصُّ عَمَّا يُعَانِيهِ الْأَبُ أَيْضاً في العادَةِ مِنْ مَتَاعِبِ نَفَقَةٍ وَمُشَارَكَةٍ لِلْأُمّ في تَرْبِيَةِ الطِّفل، اكْتِفَاءً بإِشَارَةِ تَوْصِيَةِ الْوَلَدِ بأَنْ يَشْكُرَ لِرَبِّهِ وَلِوَالِدَيْهِ، فَقَالَ تَعالَىٰ في بَيَانِ الوصَّية.

• ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾: فَجَعَلَ الْأَمْرَ بِشُكْرِ الوالِدَيْنِ عَقِبَ الْأَمْرِ بِشُكْرِهِ تبارَكَ وَتَعالَىٰ مُباشَرَةً.

اللهُ هُو الرَّبُّ الخالِقُ الْمُمِدُّ بِنِعَمِهِ دَواماً، والْوالِدَانِ كَانَا سَبَباً فِي وُجُودِ الْوَلد، مَعَ مَا قَدَّمَاهُ مِنْ خَدَمَاتٍ كثِيراتٍ لَهُ، حَمْلاً، وَوِلَادَةً، وإِرْضاعاً، وتَرْبِيَةً، وَنفَقَاتٍ، ومُشَارَكَاتٍ لَهُ بِعَوَاطِفِ الوالِدِيَّةِ الَّتِي فَطَرَهُمَا اللهُ عَلَيْها.

وَلَمَّا كَانَ شُكْرُ اللهِ وَالْوَالِدَيْنِ بِبِرِّهِمَا، مَأْجُوراً عِنْدَ اللهِ بِثَوابٍ عظيم يَوْمَ الدِّين، وَكَانَ الْكُفْرَانُ والْعُقُوقُ مُعَاقَباً عَلَيْهما عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بالْعَدْلِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ تَأْتِيَ الإِشَارَةُ إِلَيْهِمَا في آخِرِ الْآيَةِ بِقَوْلِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿.. إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾: أي: إِلَيَّ المكَانُ الَّذِي يَصِيرُ إِلَيْهِ النَّاسُ يَوْمَ القيامة، وَفِيهِ يَجرِي حِسَابُهُمْ، وَفَصْلُ القَضَاءِ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ تَكُونُ مُجَازَاتُهُمْ بِحَسَبِ الأَحْكَامِ الَّتِي تَصْدُرُ بِشَأْنِهِمْ، فَضْلاً أَوْ عَدْلاً من رَبِّهِمْ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً وَصِيَّتَهُ للإِنسان بشَأْنِ وَالِدَيْه:

• ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أبانت هـٰذه الآية أنَّ حَقَّ اللهِ عَزَّ وَجلَّ مُقدَّمٌ على حَقِّ الوالِدَيْنِ، ولمَّا كَانَ مِنْ شُكْرِهِمَا طَاعَتُهُمَا فِي أُمُورِهِمَا الدُّنْيَوِيَّة، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ في البيانِ الاحْتِرَاسُ بِتَقْيِيدِ طَاعَتِهما بما لَيْسَ فِيهِ مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، وَعُدْوَانٌ على حَقٍّ مِنْ حُقُوقِه، إِذْ لَا طَاعَةَ لمَخْلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الخالِقِ.

وَضَرَبَ اللهَ مَثَلاً لِوُجُوبِ عَدَم طَاعَتِهما فِي مَعْصِيةِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ، أن يُجاهِدَا وَلَدَهُمَا عَلَىٰ أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ علم، رغبة فِي أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ دِينِهِمَا عَقِيدَةً ومَنْهَجَ حَيَاة.

• ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾: أي: وَإِن اشْتَدَّا عَلَيْكَ في الطَّلْبِ إلى حَدِّ الإلْزَامِ بالإكْراه والضَّرْبِ. أصْلُ المجاهَدَةِ الْمُغَالَبَةُ بِبَذْلِ كُلٍّ مِنَ الْفَرِيقين طَاقتَهُ، لِيَغْلِبَ الْفَرِيقَ الآخَرَ الْمُغَالِبَ لَهُ، وَأَقْصَاهَا المقاتَلة. وقد تَدُلُّ عَلَىٰ بَذْلِ غايَةِ الطاقة، كَمَا لَوْ كَانَ الصِّراعُ بَيْنَ مُتَقَاتِلَيْن.

• ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: أي: وإِنْ جَاهَدَاكَ مُكْرِهَيْنِ لَكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي شَرِيكاً مَا، لَيْسَ لَكَ عِلْمٌ بأَنَّهُ شَرِيكٌ لي.

يُلاحَظُ في هٰـذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَيِّنُ أَنَّ الْعِلْمَ أَسَاسٌ لِلْقَضَايا الْإيمانيةِ، فَمَا يُثْبِتُهُ الْعِلْمُ بأدِلَّتِهِ الصَّحِيحَةِ فَمِنْ حَقِّ الإنسانِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ.

فَعَلَىٰ الرُّغم مِنْ أَنَّ الشِّرْكَ بِرُبُوبيَّةِ اللهِ أو بإلَهِيَّتِهِ، لَا يُوجَدُ لَهُ دَلِيلٌ عِلْمِيٌّ يُعْطِي بِشَأْنِهِ يَقِيناً وَلَا ظَنّاً، بَلِ الأدِلَّة العلميَّةُ تَكْشِفُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَخُرَافَةٌ شَيْطَانِيَّةٌ مَصْنُوعَةٌ، أعْطَىٰ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِهِ مَجَالاً للتفكير الْعِلْمِيِّ، فإذَا وَجَدَ الإنْسَانُ دَلِيلاً عِلْمِيّاً يَسْمَحُ لَهُ عَقْلاً بأَنْ يُؤْمِنَ بِوُجُودِ شَرِيكٍ للهِ فَلْيُؤْمِنْ بِهِ، لَكِنَّهُ لَنْ يَجِدَ مَهْمَا بَذَلَ مِنْ جَهْد.

إنَّ قَضَايَا الْإيمانِ فِي الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِهِ قَضَايَا عَقْلِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ، تُثْبِتُها أَدِلَّةٌ يَقِينِيَّةٌ قَطْعِيَّة، لَا يُخَالِطُها خَلَلٌ وَلَا شَكٌّ.

• ﴿فَلَا تُطِعْهُمَاۖ﴾: أي: فَلَا تَسْتَجِبْ لَهُمَا، ولَا تَكُنْ مُتَّبِعاً لَهُما فِي ذلك. **الطَّاعَةُ**: هِي في اللُّغَةِ الانْقِيَادُ، والامْتِثَالُ، والمتَابَعَة.

في هٰـذا نَهْيٌ مُشَدَّدٌ مِنَ اللهِ عَنْ طَاعَةِ الإنْسَانِ لِوَالِدَيْهِ، إنْ جَاهَدَاهُ يُلْزِمَانِهِ عَلَىٰ أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٍ، وَيُقَاسُ عَلَىٰ قَضِيَّةِ الشِّرْكِ

كُلُّ قَضِيَّةٍ فيها مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَحَقُّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ في طَاعَتِهِ، مُقَدَّمٌ عَلَىٰ حُقُوقِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ في الطَّاعَةِ.

ويَقَعُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ في جَهَالَةٍ عُظْمَىٰ حِينَما يَرَوْنَ وُجُوبَ طَاعَةِ أُولي الْأَمْرِ، وَلَوْ أَمَرُوا بِمَعْصِيَةِ اللهِ، إنَّ هَـٰذِهِ الْفِكْرَةَ مُسْتَوْرَدَةٌ مِنْ أَنْظِمَةِ الْحُكْمِ غَيْرِ الإسْلَامِيَّة، الَّتِي يُمَجَّدُ فِيهَا الْقَانُونَ الَّذِي يُلْزِمُ بِطَاعَةِ ذِي السُّلْطَانِ، وَلو أمَرَ بِقَتْلِ الْبُرَءَاء، أَوْ أَمَرَ بالكُفْرِ بِاللهِ، أو بالْفِسْقِ والْفُجُور وَإِبَاحَةِ الْفوَاحِشِ عَلَناً.

• ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾: **الْمُصَاحَبَة:** الْمُرَافَقَةُ الَّتِي تَقْتَضِي حُسْنَ المعَاشَرَة والخِدْمَةِ والْمَعُونَةِ.

مَعْرُوفاً: صِفَةٌ لِمَوْصُوفٌ مَحْذُوفٍ هُو مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ مِنَ الفِعْل في: ﴿وَصَاحِبْهُمَا﴾ أي: وَصَاحِبْهُمَا صِحَاباً مَعْرُوفاً.

يُقَالُ لغة: «صَاحَبَهُ، مُصَاحَبَةً، وَصِحَاباً».

والمُرَادُ بِكَوْنِهِ مَعْرُوفاً، مَا تَعَارَفَ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ مُصَاحَبَةِ الْوَلَدِ لِوَالِدَيه، بالْبِرِّ والْخَدَمَاتِ والطَّاعَةِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَأنواع الإكرامِ، والْخُضُوعِ تَذَلُّلاً لَهُما، والتَّقَرُّبِ إلَيْهِمَا بِمَحَابِّهِمَا.

وقَدْ جَاءَ في القرآن بَيَانُ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بالإحْسَانِ إلى الوالدين، وَخَفْضِ جَنَاح الذُّلِّ لَهُمَا مِنَ الرَّحْمَة والدُّعَاءِ لَهُما، وَنَفْهَمُ أَنَّ هـٰذا مَطْلُوبٌ بالنِّسْبَةِ إلى الوالِدَيْنِ المسْلِمَيْن.

وجاء فيه بَيَانُ أن اللهَ أَمرَ بمُعَامَلَةِ الوالِدَيْنِ بالْحُسْنى، ونَفْهَمُ أَنَّ هـٰذا مَطْلُوبٌ بالنِّسْبَةِ إلى الوالِدَيْنِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، لأنّ الْحُسْنَ هُنَا دُونَ الإحْسَانَ الذي جاء بشأنِ الْوَلَدَيْنِ المُسْلِمَيْن.

وَجاءَت عبارَة ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ لِتَقْيِيد المصَاحَبَةِ بالْمَعْرُوفِ في أُمُورِ

الدُّنيا، وَلِلْإشَارَةِ إلَىٰ مَنْع تَقْدِيم شَيْءٍ لَهُمَا يَتعلَّقُ بأمُورِ الآخِرَةِ، كالاسْتِغْفَارِ لَهُمَا، والدُّعَاءِ لَهُمَا بالرَّحْمَةِ، والصَّدَقَةِ عَنْهُما، إذَا كانا مُشْرِكَيْن كَافِرَيْنِ، لِأَنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاء، وَلَمْ يَأْذَنِ اللهُ لِمُؤْمِنٍ بأنْ يَسْأَلَ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ الْكَافِرين.

وَقَدْ سَبَقَ فِي الآيَةِ مَا يَدُلُّ علَىٰ أَنَّ الْوَالِدَيْنِ المعْنِيَّيْنِ فِي النَّصّ مُشْرِكان، غَيْرُ مُؤْمِنَيْنِ مُسْلِمَيْن.

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: أيْ: لَا تُطِعْ وَالِدَيْكَ المشركَيْنِ فِي مُجَاهَدَتِهِمَا إِيَّاكَ لِتُشْرِكَ بِرَبّك، واتَّبِعْ في مَسِيرَتِكَ في حَيَاتِكَ مَا بَيْنَ حَدَيَّ صِرَاطِ رَبِّكَ المسْتَقِيم، الَّذِي يَسِيرُ بَيْنَ حَدَّيْهِ مِنْ ذَاتِ الْيَمِينِ ومِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ الَّذِينَ أَنَابُوا راجِعِينَ إلَىٰ سُلُوكِ صِرَاطِي، وَتَارِكِينَ كُلَّ السُّبُلِ الَّتِي تُفَرِّقُ عَنْ صِرَاطِي، وتُبْعِدُ عَنْهُ، مَنْ يَسْتَجِيبُونَ بِأَهْوَائِهِمْ وشَهَواتِهِمْ، لِدَعَوَاتِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ والإنس.

أَنَاب: أي: رَجع، يُقَالُ لُغَةً: «أَنَابَ فُلَانٌ إلَىٰ الشَّيْءِ يُنِيبُ» أي: رَجَعَ إلَيْه مَرَّة، فَمَرَّة. ويُقَالُ أيْضاً: «نَابَ إلَىٰ الشَّيْء» أي: رَجَعَ إلَيْهِ واعْتَادَه.

والْمُنِيبُونَ إلى اللهِ: هُمُ الرُّسُلُ، وَأَتْبَاعُ الرُّسُلِ المؤمِنُونَ.

• ﴿.. ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أيْ: ثُمَّ بَعْدَ رِحْلَةِ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا، وبَعْدَ مَوْتِكُمْ، أَبْعَثُكُمْ إلى الحياة الأُخْرَىٰ، الَّتِي يَكُونُ مَرْجِعُكُمْ فِيهَا إلَىٰ حِسَابي وفَصْلِ قَضَائي، وتَنْفِيذِ جَزَائي.

إنَّ الحياة الدُّنْيَا حَيَاةُ الابْتِلَاءِ، وإنَّ الْحَياة الْأُخْرَىٰ هِي حَيَاةُ الجزاء.

وحِينَ تَقِفُونَ في مَحْكَمَتِي يَوْمَ الدِّين لِمُحَاسَبَتِكُمْ على ما قَدَّمْتُمْ في

رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِي الحياة الدُّنيا تَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مِنْ طاعَةٍ لي أَوْ مَعْصِيَة.

مَرْجِعُكُم: الْمَرْجِعُ في هـٰذه العبارة: اسْمُ مَكَانٍ، واسْمُ زَمَان، وَمَصْدَرٌ مِيميٌّ. أي: ثُمَّ إليَّ رُجُوعُكُمْ، وَمَكَانُ رُجُوعِكُمْ، وزَمَانُه.

جَاءَت عبارة: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كِنَايَةً عَنْ مَوْقِفِ المحَكَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّين، وعَنْ كُلِّ مَا يَجْرِي فيها، إِذِ الإنْبَاءُ الَّذِي جَاءَ بَيَانُهُ فِي هـٰذِهِ الْعِبَارَةِ أَحَدُ الْعَنَاصِرِ الَّتِي تَجْرِي في المحكَمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّين.

وَبَعْدَ هـٰذا الفاصِلِ الْبَيَاني الْمُبَاشِر، الْمُوَجَّهِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْحِكْمَة الَّتِي سَبَقَ بَيَانُها. يُتَابِعُ البيانُ الرَّبَّانِيُّ فِي الدَّرْسِ حِكَايَةَ وَصَايَا وَمَوَاعِظِ لُقْمَانَ لابْنِهِ، الَّتِي هِيَ مُسْتَفَادَةٌ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ قَبْلَ لُقْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنه.

فَقَالَ اللهُ تَعَالَى حِكَايَةً لِمَا قَالَهُ لُقْمَانُ الحَكِيمِ لابْنِهِ:

- ﴿يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾:

أَرَادَ لُقْمَانُ الحكيم أَنْ يُفْهِمَ ابْنَهُ شُمولَ عِلْمِ الله كُلَّ شيء، وعَظِيمَ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ مَا يراهُ النَّاسُ عَسِيراً وصَعْباً، فَضَرَبَ لَهُ مَثلاً بأصْغَرِ الصَّغِيراتِ الَّتِي يَعْرِفُهَا مِنَ الْحُبُوب النباتِيَّة، والَّتِي يُشَبِّهُ النَّاسُ الصَّغِيراتِ جدّاً بها، وهي حَبَّةُ الْخَرْدَل.

فأبَانَ لَهُ أَنَّ الكائنَةَ الصَّغِيرَة في الْوُجُودِ وَلَوْ كَانَتْ مِقْدَارَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ، وَكانت هـٰذِهِ الكائنَةُ في باطِنِ صَخْرَةٍ مَهْمَا كانت شَدِيدَة الْقَسَاوَة، أَوْ كانت في مَكَانٍ مَا مِنَ السَّمَاوَاتِ، أو في مَكَانٍ ما مِنْ بَاطِنِ الأَرْضِ، فإنَّ اللهَ عَلِيمٌ بها، خبير بكُلِّ أَحْوالِهَا، وَإذَا شَاءَ أَنْ يأتي بِهَا أتَىٰ بِهَا مِنْ مَكَانِ وُجُودِها بأَلْطَفِ وَسِيلَةٍ، لأنّ اللهَ لَطِيفٌ خبير.

• ﴿يَٰبُنَيَّ﴾: سبقَ بيانُ مَا فِي هٰذِهِ العبارة من اهْتِمام شديد بالنداء بحرف النداء «يا» مَعَ مَا في التَّصْغِيرِ مِنْ تَقْرِيبٍ وتَحَبُّب.

• ﴿إِنَّهَآ﴾ قال النَّحويّون الضَّمِير في هٰذا وَنَحْوِهِ ضَمِيرُ الْقِصَّة.

وأقول: هٰذا الضَّمِيرُ يُفَسَّرُ فِي كُلِّ بَيَانٍ بما يُلَائِمُ مَوْضُوعَهُ. وأرىٰ أَنَّ المرادَ هُنَا: أنَّ الْغَائِبَةَ عَنِ الْخَلَائِقِ مَهْمَا كانَتْ خافِيَةً عَلَيْهِمْ، فإنَّ الله عَلِيمٌ بِهَا، خَبِيرٌ بأحْوَالِها، وهُوَ قَدِيرٌ عَلَىٰ أَنْ يَأْتِي بِهَا إِذَا شَاءَ، دُونَ أَنْ يَتَغَيَّرَ شَيْءٌ آخَرُ عَنْ وَضْعِهِ وصِفَاتِهِ، لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَطِيفٌ لِفِعْلِ مَا يَشاء.

• ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾: ﴿تَكُ﴾ أصْلُها «تكُنْ» وَهٰذا مِنَ المواضِعِ الَّتِي يَجُوزُ فيها حَذْفُ نُونِ مُضَارِعِ «كَانَ».

أيْ: إنْ تَكُنِ الْغَائِبَةُ الخفيَّةُ عَلَىٰ الْخَلَائِقِ.

مِثْقَالَ: مِثْقَالُ الشَّيْءِ مِثْلُهُ فِي وَزْنِهِ وَمِقْدَارِه، وقرأ نافِعٌ، وأبو جعفر: [**مِثْقَالُ**] بالرَّفع على اعتبار أَنَّ فِعْلَ ﴿تَكُ﴾ فِعْلٌ تَامٌّ غيرُ ناقص، ولفظ «مِثْقَال» فاعل. وبقِيَ الفِعْلُ بتاء التأنيث لِأَن لفظ «مِثْقَال» مُضَافٌ إلى «حَبَّةٍ» وهيَ مُوءَنَّثَةُ اللّفظ.

• ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾: **الْخَرْدَل**: اسْمُ فَصِيلَةٍ مِنَ النباتَاتِ الموسِمِيَّةِ المورقة الّتِي تَنْمُو في المناطِقِ المعْتَدِلَةِ. ولهٰذا النبات بزور على شكل حُبُوبٍ صَغِيرَةٍ جدّاً، يُشَبِّهُ النَّاسُ الأشياءَ الصَّغِيرَةَ بحَبَّةٍ مِنها، لِصِغَرِها الشَّدِيد بالنِّسْبَةِ إلى مَا يَسْتَعْمِلُ النَّاسُ مِنْ حُبُوب النباتات، وَحَبُّ الْخَرْدَلِ يَسْتَعْمِلُهُ النَّاسُ فِي التَّوابل.

وصَارَ النّاسُ يَسْتَخْرِجُونَ مِنَ الْخَرْدَلِ غَازَاتٍ سَامَّاتٍ قَاتلاتٍ، يَسْتَعْمِلُونها فِي الْحُرُوبِ.

• ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾: أي: فَتَكُنْ هٰذِهِ الغائِبَةُ الخفيَّةُ على الْخَلَائِقِ، في دَاخِلِ صَخْرَةٍ مَا، مَهْمَا كَانَتْ عَظِيمَةً وَشَدِيدَةَ الْقَسَاوَة.

• ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي: أو في مَكَانٍ مَا مِنَ السَّمَاواتِ الَّتِي فيها بَلايِينُ المجرَّات، كما سبق بيانُه في تَدَبُّر الدرس الرابع من هـٰذه السورة.

• ﴿أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: أو في مكانٍ مَا مِنْ باطِنِ الأرض حتّىٰ المركَزِ مِنها.

• ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾: أي: يَأْتِ بها اللهُ مِنْ مَكانِهَا الَّتِي هِي فِيهِ، إلَىٰ المكان الّذي تَقتضِي الْحِكْمَةُ بِأَنْ يَأْتِيَ بها إلَيه، إذَا شَاءَ أَنْ يَأْتِي بها.

وَمَعْلُومٌ ذِهْناً أَنَّهُ لَا يَأْتِي بِها إلَّا إذَا كَانَ ذَا عِلْم بمكانِهَا لِأَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَذَا خِبْرَةٍ بِأَحْوالِهَا وَتَغيُّرَاتِها مَعْ تَتَابُعِ الوَحْدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ الصُّغْرَىٰ، وَلَا يَأْتِي بِها مِنْ مَكَانِهَا إلَّا إذا كَانَ ذَا قُدْرَةٍ وَاصِلَةٍ إلَىٰ حَيْثُ وُجُودُها، وَلَا يَسْتَخْرِجُهَا مِنْ مَكَانِهَا دُونَ تَغْيِيرِ شَيْءٍ عَنْ صِفَاتِهِ مِنْ حَوْلِها، إلَّا إذَا كَانَ لَطِيفاً بِقُدْرَتِهِ لُطْفاً يَجْعَلُ الْأَشْيَاءَ مِنْ حَوْلِهَا لَا تَتَأَثَّرُ باسْتِخْرَاجِهَا مِنه، وَنَحْنُ نَعْلَمُ مِنَ الأشياءِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي هِي مِنْ خَلْقِ اللهِ الأنوارَ، والجاذِبياتِ، والْأَرْوَاحَ.

• ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦﴾: في هـٰذا رَبْطٌ لِلْبَيَانِ السَّابِقِ بِالْجَذْرِ الاعْتِقَادِيِّ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ بِقُدْرَتِهِ العُظْمَىٰ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ يَشاؤُهُ فِي كَوْنِهِ، بَلْ يَفْعَلُهُ بِلُطْفٍ بالِغِ الغايَة، وَأَنَّهُ بِشُمُولِ عِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيء لَا يَعْزُبُ عَنْهُ أَصْغَرُ صَغِيرٍ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ وَلَا أَكْبَرُ كَبِيرٍ مِنْهَا، بَلْ هُوَ خَبِيرٌ بِكُلِّ صِفَاتِهِ وَتَغَيُّرَاتِهِ الَّتِي تَجْرِي لَهُ أو فِيهِ مَعَ أَقَلِّ الوحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتي لَا تَسْتَطِيعُ مَدَارِكُ الْخَلَائِقِ إدْرَاكها.

اللّطيف اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ، ومَعْنَاهُ: الَّذِي يُجْرِي تدابِيرَهُ وَأَعْمَالَهُ وَأَفْعَالَهُ بِرِفْقٍ تَامٍّ لَا عُنْفَ فِيه وَلَا خُشُونَة.

واللّطيف: الَّذِي يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ بِرِقَّةٍ دُونَ أَنْ يُحَسَّ بِدُخُولِهِ وَخُرُوجه، ومِنَ الكائنات اللّطِيفَةِ الملائكة، والنسيم، وَالْأَشِعَّةِ، والْأَرْواح.

الخبيرُ: اسْمٌ من أسْماء اللهِ الحُسْنى، **مَعْنَىٰ الخبير في اللُّغَة**: الْعَلِيمُ بالشَّيْء عَنْ تَجْرِبَةٍ وَمُمَارَسَةٍ مَعَ شُهُودٍ وحُضُورٍ مُصَاحِبٍ لِكُلِّ أجْزَاءِ الْعَمَلِ الَّذِي يَعْمَلُهُ ظَوَاهِرِهِ وَبَوَاطِنِهِ.

واللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ عِلْماً كامِلاً شَامِلاً، لِكُلِّ ظَوَاهِرِ الأشياء وبَواطِنها، عِلْمَ حُضُورٍ وشُهُودٍ وَتَدْبِيرٍ وخَلْقٍ وَتَصارِيفَ، إذْ كُلُّ مَا يَجْرِي في الكَوْنِ كُلِّهِ خَلْقُهُ وَفِعْلُهُ، ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه ـ فهو به خَبِيرٌ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُتَابِعاً بَيَانَ وَصَايَا وَمَوَاعِظِ لُقْمَانَ لابْنِه:

● ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

فِي هٰذِهِ الآيَاتِ بيَانُ ثَمَانِي وَصَايَا أَوْصَىٰ بِهَا لُقْمَانُ ابْنَهُ، وَبِضَمِّهَا إلى الْوَصِيَّةِ السَّابِقَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الآية (١٣) تَكُونُ وَصَايَاهُ لَهُ تِسْعاً.

أمّا الوصايا الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْها هٰذه الآيات (١٧) و(١٨) و(١٩) فَهِيَ:

الْوَصِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

● ﴿يا بُنَيَّ﴾: سَبَقَ بَيَانُ مَا فِي هٰذِهِ العبارة الرفيقةِ الرَّشيقة من تَقَرُّبٍ وَتَحَبُّبٍ مِنْ لُقْمَانَ لِوَلَدِه.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أَدِّ الصَّلاَةَ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللهُ عَلَىٰ عِبَاده الَّذِينَ وَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا.

دَلَّتْ هٰذِهِ الْوَصِيَّةُ عَلَىٰ أَنَّ أُولَىٰ الْفَرَائِضِ بَعْدَ الإيمَانِ إقَامَةُ الصَّلاةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ، فِي الدّين الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعِبَادِه الَّذِينَ خَلَقَهُمْ

لِيَبْلُوَهُمْ أيُّهُمْ أَحْسَنُ عملاً، وهـٰذا يُشْعِرُ بأنَّ فَرِيضَةَ الصَّلَاةِ مِنَ الفرائِضِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ عَلَىٰ آدَمَ وَكُلِّ بَنِيهِ مِنْ بَعْدِه، وَهـٰذا المَعْنَىٰ مُؤَيَّدٌ بِنُصُوصٍ كَثِيرةٍ في القرآنِ، وَمِنْهَا مَا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام بقوله لَهُ كما جاء في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿.. وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

والمرادُ بإقَامَةِ الصَّلَاةِ الْمُدَاوَمَةُ والمواظَبَةُ علَىٰ أدائِها في أوْقَاتِها، وأَدَاؤهَا على الوجْهِ الشَّرْعِيِّ المطْلُوبِ فيها، وَجَعْلُها مُسْتَقِيمةً خالِصَةً لِوَجْهِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، لَا عِوَجٍ فيها، وَلَا رِيَاءَ ولا سُمْعَةً، وَلَا زِيَادَةً، وَلَا نَقْصاً.

الْوَصِيَّةُ الثانية: دَلَّ عليها قولُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

الْوَصِيَّةُ الثالثة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

دَلَّت هاتَانِ الْوَصِيَّتانِ على أن مُجْتَمَعَ لُقْمَانَ الحكيم رضي الله عَنْهُ مُجْتَمَعٌ مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ، لَدَيْهِ عِلْمٌ بِمَا أَمَرَ اللهُ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمين به، فَهُو مَعْرُوفٌ لَدَيهم، ولَدَيْهِ عِلْمٌ بما نَهَىٰ اللهُ عَزَّ وَجلَّ المؤمنين المسْلِمِينَ عَنْهُ، فَهُوَ مُنْكَرٌ لَدَيْهِمْ، فَمَنْ تَرَكَ المعْرُوفَ وهو الَّذِي أمَرَ اللهُ بِهِ مَنْ دخَلَ في الإسلام، وهو دِينُ اللهِ للنّاسِ أَجْمَعِينَ في رِسَالَاتِهِ للنَّاسِ الَّتِي بَلَّغَها جَمِيعُ الْمُرْسَلِينَ، أو فَعَلَ المنكر وهُو الذي نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ مَنْ دَخَلَ في الْإسلام، فَقَدْ عَصَىٰ رَبَّهُ، وَعَلَىٰ حُمَاةِ المجتمَعِ الْإسْلَامِيِّ مِنْ تَفَاقُمِ مَعَاصِي أفْرَادِه، أَنْ يَقُومُوا بِوَظِيفَةِ الْأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ دَواماً، والتَّحْذِيرِ مِنْ عَوَاقِبِ مَعْصِيَةِ اللهِ الَّتِي قَدْ تَنْتَشِرُ فِيهِمْ، ثُمَّ لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّخَلُّصَ مِنْهَا وَلَا كَبْحهَا، مَتَىٰ تَفاقَمَتْ وَانْتَشَرَتْ.

وَيَظْهَرُ أَنَّ لُقْمَانَ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ ابْنَهُ الَّذِي وَجَّهَ لَهُ هـٰذِهِ الوَصَايَا، مِنْ أُمَّةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المنْكَرِ في مُجْتَمَعِهِ الْمُؤْمِنِ الْمُسْلِمِ،

فأَوْصَاهُ بأَنْ يَقُومَ بِوَظِيفَةِ الأمْرِ بالمعروف، والنَّهْيِ عَنِ المنْكَرِ دَاخِلَ مُجْتَمعِه، فَمَنْهَجُ اللهِ في رِسَالاَتِهِ، وفي تَكْوِينِ الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الملْتَزِمَةِ بِوَجْهٍ عَامٍّ أَحْكَامَ شَرِيعَتِهِ، بِفِعْلِ الواجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ مَنْهَجٌ وَاحِدٌ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمَنْهَجُ الْأَحْكَمُ.

وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّهُ لمَّا ضَعُفَتْ أُمَّةُ الأمْرِ بالمعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكر، وقَلَّتْ أَعْدَادُهَا عَمَّا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ في الْأُمَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، انْتَشَرَتْ فيها المعاصِي، وكَثُرَ في أَفْرَادِها تَرْكُ فُرُوضِ الإسلام، وكَثُرَ فيها ارْتِكابُ المحرَّمَاتِ من الكَبَائِر، وصَارَتْ هٰذه المعَاصِي من الكبائِرِ أُمُوراً مَأْلُوفَةً، لا تُقَابَلُ بالاسْتِنْكَار مِنْ مُعْظَم أفْرَادِ المجْتَمَع، لِوقُوعِ أَكْثَرِهِمْ بِهَا أَوْ بِمِثْلِها، فَسَلَبَهُمُ اللهُ عِزَّتَهُمْ وَقُوَاهُمُ المنتصرة الَّتِي كَانَتْ لهم، وَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَعْدَاءَهُمْ مِن الْكَافِرِين، ثُمَّ مِنَ الْيَهُودِ شَرِّ الْبَرِيَّة.

الوصِيَّةُ الرابعة: دلَّ عليها قولُ الله تَعالى: ﴿.. وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾:

لَقَدْ عَلِمَ لُقْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِحِكْمَتِهِ الَّتِي آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، وتَجَارِبِهِ المتكَرِّرَةِ، أَنَّ مَنْ يَقُومُ بوَظِيفَةِ الْأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكرِ، لا بُدَّ أَنْ يَلْقَىٰ أذىً مِنَ الَّذِين يُوَجِّهُ لَهُمْ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، فأَوصَىٰ ابْنَهُ بأَنْ يُتَابِعَ القيامَ بِهٰذِهِ الْوَظِيفَةِ وَلَا يَضْعُفَ عَنْ أدائها، وأَنْ يَصْبِرَ عَلَىٰ مَا يُصِيبُهُ مِنْ أَذىً.

وَجَاءَت عِبَارَةُ: ﴿مَآ أَصَابَكَۖ﴾ باسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ الماضِي، دُونَ عِبَارة: «مَا يُصِيبُكَ» باسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ المضارع، للدَّلالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: وَسَيُصِيبُكَ أَذىً مِنَ الَّذِينَ تَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوف، أو تَنْهَاهُمْ عن المنكرِ، أَوْ مِنْ أَنْصَارِهِمْ وَجُنُودِهِمْ، وَسَيَنَالُكَ مِنْهُمْ مَا تَكْرَهُ فِي نَفْسِكَ أَوْ في جَسَدِك، فاعْتَبِرْ أَنَّ هٰذَا قَدْ وَقَعَ فِعْلاً، فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَك.

وَأبَانَ لُقْمَانُ لابْنِهِ أَنَّ دَرَجَةَ الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا يُصِيبُ حَامِلَ وظيفَةِ الْأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكر دَرَجَةٌ رَفِيعَةٌ جِدّاً، فأَشَارَ إلى هـٰذا الصَّبْرِ باسْمِ الإشَارَة الموضُوعِ لِلْبَعِيد بعِبَارَة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مَعَ التَّأْكِيدِ بحَرْفِ التّأكيد: «إِنَّ».

عبارة: ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ تَدلُّ عَلَىٰ أنَّ الصَّبْرَ عى مَا يُصِيبُ حَامِلَ وَظِيفَةِ الأمْرِ بالمعْرُوف والنهي عَنِ الْمُنْكَرِ، ابْتِغَاءَ الْخيْرِ لِمَنْ يَأْمُرهُمْ وَيَنْهَاهُمْ، يَحْتَاجُ إرَادَةً قَوِيَّةً مِنْ مُسْتَوَىٰ «الْعَزْم» إذ العزْمُ أعْلَىٰ مُسْتويَاتِ قُوَّةِ الإرَادَةِ، ووصَفَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ طائفَةً مُفَضَّلةً مِنْ رُسُلِهِ بأَنَّهُمْ أُولُو الْعَزْمِ، إذْ تَحَمَّلُوا مَتَاعِبَ وَأذىً كثيراً مِنْ أقْوَامِهِمْ بِصَبْرٍ عَظِيمٍ[1].

فمَعْنَىٰ: ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ عَلَىٰ مَا أَفْهَمُ: مِنْ إرادَةِ الْأُمُور إرادَةً قَوِيَّةً رَفِيعَةً هِيَ مِنْ مُسْتَوَى الْعَزْمِ. فالإضافَةُ مِنْ إضَافَةِ الْمَصْدَرِ إلى مَفْعُوله.

يُقَالُ لُغَةً: «عَزَمَ فُلَانٌ الْأَمْرَ، وَعَزَمَ عَلَيْهِ» أي: جَدَّ، وَصَبَر. وَالجدُّ وَالصَّبْرُ يَحْتاجَانِ إرادَةً قَوِيَّةً مِن مُسْتَوىٰ الْعَزْمِ.

ونَفْهَمُ مِنْ هـٰذا أَنَّ لُقْمَانَ يُحَرِّضُ ابْنَهُ علَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنْ أصْحَابِ الْعَزْمِ (أي: مِنْ أصْحَابِ الإرَادَةِ الْقَوِيَّةِ ذَاتِ المسْتَوىٰ الرفيع) بالصَّبْرِ علَىٰ مَا يُصِيبُهُ ممَّا يَكْرَهُ بِسَبَبِ أَمْرِهِ بِالْمَعْرُوفِ ونَهْيِهِ عن المنكرِ في بِيئَتِهِ.

الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعالَىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾:

تَصْعِير الْخَدّ: إمَالَتُهُ بإمَالَةِ الْعُنُقِ عُجباً وَكِبْراً. وَكانَ هـٰذا التَّصْعِيرُ

---

(١) انظر شَرْح الْعَزم في الجزء الأول، صفحة من (١١٣ ـ ١١٦) من كتاب «الأخْلَاق الإسْلَامِيَّة وأسسها» للمؤلف.

مِنْ عَادَةِ الجبابرَةِ وبَعْضِ الملُوكِ لِلإشْعَارِ باسْتِعْلَائِهِمْ عَلَىٰ النَّاس، واحْتِقَارِهِمْ لهم، إذْ هُمْ أَوْفَرُ حَظّاً مِنْهُم في الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّة، وفي الْقُوَّةِ والسُّلْطَانِ، والْقُدْرَةِ عَلَىٰ تَنْفِيذِ مَا يُرِيدون.

ولمَّا كانَتْ وَظِيفَةُ الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ فِي الجماهِير، قَدْ تُوَلِّدُ لَدَىٰ بَعْضِ صِغَارِ النُّفُوسِ، ومُرِيدِي الاسْتِعْلَاءِ بَيْنَ النَّاسِ عُجْباً بأَنْفُسِهِمْ، وكِبْراً عَلَىٰ الْعَامَّةِ، وهـٰذا قد يَجْعَلُهُمْ يُمِيلُونَ رِقَابَهُمْ مِنَ الْعُجْبِ بأنْفُسِهِمْ وَمِنَ الاسْتِعْلَاءِ عَلَىٰ النَّاسِ، أَوْ يَتَصَرَّفُونَ تَصَرُّفَاتٍ أُخْرَىٰ تُشْعِرُ بما تَسَلَّلَ إلىٰ نُفُوسِهِمْ مِنْ دَاءِ الْعُجْبِ بالنَّفْس والكِبْرِ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُوصِيَ لُقْمَانُ ابْنَهُ بأنْ لَا يُعْجَبَ بِنَفْسِهِ وَلَا يَسْتَكْبِرَ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ، إذَا وَجَدَ أَنَّ الجماهِيرَ أَعْطَتْهُ احْتِرَاماً وَتَوْقِيراً، إذْ تَصَدَّىٰ لِأَمْرِهِمْ وَنَهْيِهِمْ.

وَجَاءَ النَّهْيُ عَنْ بَعْضِ مَظَاهِرِ هـٰذِهِ الْحَالَة النَّفْسِيَّةِ فِي السُّلُوك، والَّتِي يُقَاسُ عَلَيْهَا أشْبَاهُهَا، لِأَنَّ ضَبْطَ السُّلُوكِ عَنِ الظَّواهِرِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ مَا فِي النُّفُوس، يُسَاعِدُ الإنْسَانَ عَلَىٰ مُعَالَجَةِ نَفْسِهِ بِشِفَائِها مِمَّا تَسَلَّلَ إلَيْهَا مِنْ دَاءٍ نَفْسِيٍّ، أمَّا تَرْكُ الإنْسَانِ إرادَتَهُ تُعَبِّرُ عَمَّا فِي نَفْسِهِ بظَاهِرَاتٍ سُلُوكِيَّةٍ، فَإنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَزِيدَ فِي نِسْبَةِ الدَّاءِ الَّذِي تَسَلَّلَ إلَيْها.

الوصِيَّةُ السادسة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾.

الْمَرَحُ: الاخْتِيَالُ، والتَّبَخْتُر في الْمَشْي، وأَصْلُهُ شِدَّةُ الْفَرَحِ والنَّشَاطِ، وتجاوُزُ الْحَدِّ المُعْتَادِ مِنْ حَرَكَاتِ الْعُقَلَاءِ وأَهْلِ الرُّشْدِ عِنْدَ فَرَحِهِم وَسُرُورهم.

فِي هـٰذِهِ الْوَصِيَّة يُتَابعُ لُقْمَانُ نَهْيَ ابْنِهِ عَنْ ظَاهِرَةٍ أُخْرَىٰ مِنْ ظَوَاهِرِ الكِبْرِ، والْعُجْبِ بالنَّفْسِ، وهِيَ ظَاهِرَةُ الاخْتِيَالِ والتَّبَخْتُر في الْمَشْي.

هـٰذِهِ الظَّاهِرَةُ أَقْبَحُ مِنْ ظَاهِرَةِ تَصْعِيرِ الْخَدّ، لِأَنَّها تَدُلُّ عَلَىٰ خِفَّةٍ في

الْعَقْلِ، وَرُعُونَةٍ في الحركات، فالعاقِلُ الرَّزِين، وَذُو الرأي الرشيد، لَا يَسْتَخِفُّهُ الْكِبْرُ فِي نَفْسِهِ حَتَّىٰ يمْشِي في الْأَرْضِ مُخْتَالاً مُتَكَبِّراً مُتبَخْتِراً، إذْ يَشْعُرُ أَنَّ مِثْلَ هَـٰذِهِ الحركاتِ تَدُلُّ عَلَىٰ رُعُونَتِهِ وَخِفَّةِ عَقْلِه.

وحذَّرَ لُقْمَانُ ابْنَهُ مِنْ عَاقِبَةِ هَـٰذا السُّلُوكِ بقولِهِ لَهُ: ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾: أَيْ: وَمَنْ لَا يُحِبُّهُ اللهُ لِقِيَامِهِ بِما نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ نَهْيَ إِلْزَامٍ، فإِنَّهُ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِعِقَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

إنَّ مَنْ يَحْمِلُ وَظِيفَةَ الأمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عن المنكر بين الجماهير، يَقْبُحُ بِهِ جِدّاً أَنْ يَمْشِيَ في الْأَرْضِ مَرِحاً، مُخْتَالاً مُتَبَخْتِراً، وَسُلُوكُهُ هـٰذا يُنَفِّرُ النَّاسَ مِنْه، فَلَا يَتَأَثَّرُونَ بما يأْمُرُهُمْ به، وَلَا بِمَا يَنْهَاهُمْ عَنْهُ، مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ، إذْ يَرَوْنَهُ في سُلُوكِهِ مُخَالِفاً لِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ حَامِلِي رِسَالَةِ الرَّسُولِ ﷺ وبما أمَرَ به رسُولُه، أَخْذاً مِمَّا قالَ لَهُ في سورة (الحِجْر/ ٥٤ نزول):

﴿.. وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

الوصِيَّة السَّابعة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾:

القَصْدُ: هو الاعتدالُ في الأمْرِ، دُون إفراطٍ ولَا تَفْرِيط. **والْقَصْدُ في المشي**: هو التوسُّط بَيْنَ الإسْراع الّذي يَدُلُّ عَلَىٰ الْخِفَّةِ والطَّيْش، وبين الإبطاء الذي يَدُلُّ على الكَسَلِ والضَّعْفِ وانْعِدَام النَّشَاطِ لِلْحَرَكة.

إنَّ الْقَصْدَ في المشْيِ يَدُلُّ علىٰ الرَّزَانَةِ والرَّصَانَةِ، والْعَقْلِ والْحِكْمَةِ فِي التَّنَقُّل، وهُو مِنَ الْمُرَشِّحَاتِ لِأنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مِنْ عِبَادِ الرَّحْمٰنِ، الَّذِينَ هُمْ أئِمَّةٌ يَقْتَدِي بِهِمُ الْمُتَّقُونَ، كما جاء في بَيَانِ الصِّفَات الَّتِي يَتَحَلَّىٰ بها عِبَادُ الرَّحْمٰن، في أواخِرِ سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) الَّتي سَبَقَ تَدَبُّرُهَا، وَشَرْحٌ مُوَسَّعٌ فِيها لِصفَاتِ عباد الرَّحْمٰن.

الوصِيَّة الثامِنَة: دلَّ عليها قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ: ﴿.. وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾:

غَضُّ الصَّوْت: خَفْضُهُ وعَدَمُ رَفْعِهِ، فَرَفْعُ الصَّوْتِ في الأحاديثِ الْعَادِيَّةِ مُنَافٍ لسُلُوك الْعَاقِلِ الرَّصِينِ الرَّشيد.

أصْلُ الْغَضِّ مِنَ الشَّيْءِ النَّقْصُ مِنْهُ، والمَطْلوب في الصَّوْتِ عِنْدَ المُحَادَثَةِ أَنْ يَكُونَ بِمِقْدَار مَا يُسْمَعُ دُونَ زِيادَةٍ ولَا نَقْصٍ.

إنّ الزّيادة في رَفْع الصَّوْتِ عَنِ المَطْلُوبِ رُعُونَةٌ لَا تَلِيقُ بالْعَاقِلِ الحكيم الرَّشِيد، وَإِنَّ خَفْضَهُ عَنِ المَطْلُوبِ للإسْمَاع مُنَافٍ لِلْحِكْمَة، ودَلِيلٌ على أنَّ الْمُحَدِّثَ لَا يَمْلِكُ الْحِسَّ اللَّازِمَ لِتَقْدِيرِ الْأُمُور قَدْرَهَا بِحَسَبِ الحاجَةِ.

إنَّ رَفْعَ الْأَصْوَاتِ مِنْ أعْمَالِ الْبَاعَةِ الْمُتَجوِّلين، الَّذِين يُرِيدونَ إسْمَاع النَّاسِ في بُيُوتِهِمْ وَمَنازِلِهِمْ عَمَّا جَلَبُوهُ لِيَبِيعُوه، وَهَـٰؤُلَاءِ لَا يَعْنِيهِمُ الالْتِزَامُ بالآدَابِ الْعَامَّة، إنَّمَا يَعْنِيهِمْ بَيْعُ بَضَائِعِهِمُ الَّتِي جَلَبُوهَا، لكَسْبِ أَرْزَاقِهِمْ، والنَّاسُ يَعْذُرُونَهُمْ في هـٰذا، لَكِنَّهُمْ لَا يَعْذُرُونَ الْمُحَدِّثِينَ فِي الْمَجَالِسِ، أَوْ المُتَحادِثِينَ في أُمُورٍ خَاصَّةٍ أَوْ عَامَّةٍ، إذا رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ عَنْ مِقْدَارِ حَاجَةِ الإسْماع، ويَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ عَمَلاً مُزْعِجاً لِآذانِ النَّاسِ الَّذِينَ لَا مَصْلَحَةَ لَهُمْ فِي سَمَاعِ الحديث، وَمُخَالِفاً لِلْآدَابِ الْعَامَّة.

وللتَّنْفِيرِ مِنْ رَفْعِ الصَّوْتِ دُونَ الحاجَةِ إِلَيْهِ قال لُقْمَانُ لابْنِهِ:

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾: أي: إنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ دُونَ حاجَةٍ إلىٰ رَفْعِهِ مِنْ صِفَاتِ الْحَمِير، فَلَا تَكُنْ يا بُنَيَّ مُتَّصِفاً بِصِفَةٍ هِيَ مِنْ صِفَاتِ الْحَمِير الَّتِي تَنْهَقُ فَتَرْفَعُ أَصْوَاتَها الْمُنْكَرَةَ لحاجَةٍ فِي أَنْفُسِها.

أنْكَرُ الْأَصْوَات: أي: أقْبَحُها وَأكْثَرُهَا تَنْفِيراً لِلْأَسْمَاع.

وجاء في هـٰذه العبارة التوكيد بـ«إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللّام المزحْلَقَة» والْغَرَضُ مِن التوكيد بهـٰذِهِ المؤكِّدَاتِ الْمُبَالَغَةُ في التَّنْفِير من رَفْعِ الصَّوْتِ دُون حَاجَةٍ إلىٰ رَفْعِهِ.

مأثوراتٌ مِنْ وَصَايا لُقْمان:

أَنْقُلُ هُنَا طَائِفَةً مِنْ وَصَايا لُقْمَانَ المَنْثُورَةِ في الكُتُب، وهـٰذِهِ الطَّائِفَةُ قَدْ جَمَعَها «الشَّيْخُ مُحَمَّد الطاهر بن عَاشور» في تَفْسِيره: «التَّحريرُ والتَّنْوِير» بَعْدَ أَنْ فَسَّرَ الآيات الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِوصَاياه لابنه:

(١) • أي بُنَيَّ، إنَّ الدُّنيا بَحْرٌ عَمِيقٌ، وقَدْ غَرِق فيها أُنَاسٌ كثير، فاجْعَلْ سَفِينَتَكَ فيها تَقْوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وحَشْوَهَا الإيمانَ، وشِرَاعَهَا التَّوَكُّلَ عَلَىٰ الله تَعَالَىٰ، لَعَلَّكَ أَنْ تَنْجُو، ولَا أَرَاكَ ناجياً.

(٢) • مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ، كَانَ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجلَّ حَافِظ، ومَنْ أنْصَفَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِه زَادَهُ اللهُ بِذَلِكَ عِزّاً، والذُّلُّ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعالَىٰ أَقْرَبُ مِنَ التَّعَزُّزِ بالْمَعْصِيَة.

(٣) • ضَرْبُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ كالسَّمَادِ للزَّرْعِ.

(٤) • يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ والدَّيْنَ، فإِنَّهُ ذُلُّ النَّهارِ، وهَمُّ اللَّيْل.

(٥) • يَا بُنَيَّ ارْجُ اللهَ عَزَّ وَجلَّ رَجاءً لَا يُجَرِّئُكَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ تَعَالَى، وخَفِ اللهَ سُبْحَانَهُ خَوْفاً لَا يُؤْيِسُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَىٰ شَأْنُهُ.

(٦) • مَنْ كَذَبَ ذَهَبَ مَاءُ وَجْهِهِ، وَمَنْ سَاءَ خُلُقُه كَثُرَ غَمُّهُ، وَنَقْلُ الصُّخُورِ مِنْ مَوَاضِعِهَا أيْسَرُ مِنْ إفْهَامِ مَنْ لَا يَفْهَمُ.

(٧) • يَا بُنَيَّ، حَمَلْتُ الْجَنْدَلَ والْحَدِيدَ وَكُلَّ شَيْءٍ ثَقِيلٍ، فَلَمْ أحْمِلْ شيئاً هُوَ أَثْقَلُ مِنْ جَارِ السُّوءِ. وَذُقْتُ الْمِرَارَ فَلَمْ أَذُقْ شيئاً هُوَ أَمَرُّ مِنَ الْفَقْرِ.

(٨) • يَا بُنَيَّ، لَا تُرْسِلْ رَسُولَكَ جَاهِلاً، فإنْ لَمْ تَجِدْ حَكِيماً فَكُنْ رَسُولَ نَفْسِكَ.

(٩) • يَا بُنَيَّ، احْضُرِ الجَنَائِزَ، وَلَا تَحْضُرِ الْعُرسَ، فإنَّ الجنائِز تُذَكِّرُكَ بالْآخِرَة، والْعُرس يُشَهِّيكَ الدُّنيا.

(١٠) • يَا بُنَيَّ، لَا تَأْكُلْ شِبَعاً عَلَىٰ شِبَعٍ، فَإِنَّ إِلْقَاءَكَ إِيَّاهُ لِلْكَلْبِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَأْكُلَهُ.

(١١) • لَا تَكُنْ حُلْواً فَتُبْلَعَ، ولَا تَكُنْ مُرّاً فَتُلْفَظَ.

(١٢) • لَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا الأَتْقِيَاء، وشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ الْعُلَماء.

(١٣) • لَا خَيْرَ لَكَ في أَنْ تَتَعَلَّمَ مَا لَمْ تَعْلَمْ، ولَمَّا تَعْمَلْ بما قَدْ عَلِمْتَ، فإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ احْتَطَبَ حَطَباً، فَحَمَلَ حُزْمَةً، وذَهَبَ يَحْمِلُها، فَعَجَزَ عَنْها، فَضَمَّ إِلَيْهَا أُخْرَىٰ.

(١٤) • يَا بُنَيَّ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُؤَاخِي رَجُلاً، فأَغْضِبْهُ قَبْلَ ذَلِكَ، فإِنْ أَنْصَفَكَ عِنْدَ غَضَبِهِ فآخِه، وإِلَّا فَاحْذَرْه.

(١٥) • لِتَكُنْ كَلِمَتُكَ طَيِّبَةً، ولْيَكُنْ وَجْهُكَ بَسْطاً تَكُنْ أَحَبَّ إِلىٰ النَّاسِ مِمَّنْ يُعْطِيهِمُ العطاء.

(١٦) • يَا بُنَيَّ، أَنْزِلْ نَفْسَكَ مِنْ صَاحِبِكَ مَنْزِلَةَ مَنْ لا حَاجَةَ لَهُ بِكَ، وَلَا بُدَّ لَكَ مِنْهُ.

(١٧) • يَا بُنَيَّ، كُنْ كَمَنْ لَا يَبْتَغِي مَحْمَدَةَ النَّاسِ، ولَا يَكْسَبُ ذَمَّهُمْ، فَنَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاء، والنَّاسُ مِنْهُ في راحَة.

(١٨) • يَا بُنَيَّ، امْتَنِعْ بما يَخْرُجُ مِنْ فِيكَ، فإِنَّكَ مَا سَكَتَّ سَالِمٌ، وإِنَّمَا يَنْبَغِي لَكَ مِنَ الْقَوْلِ مَا يَنْفَعُكَ.

(١٩) • يَا بُنَيَّ، جَالِسِ الْعُلَمَاءَ، وزَاحِمْهُمْ بِرُكْبَتَيْكَ، فإِنَّ اللهَ يُحْيِي الْقُلُوبَ بنُورِ الْعِلْمِ، كَمَا يُحْيِي الأَرْضَ الْمَيْتَةَ بوابل السَّماء.

(٢٠) • قيل لِلُقْمان: مَا بَلَغَ بِكَ مَا نَرَىٰ؟ فقال: صِدْقُ الْحَدِيث، وأَدَاءُ الأَمَانَةِ، وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِينِي.

(٢١) • يَا بُنَيَّ، لِيَكُنْ أَوَّلَ مَا تُفِيدُ مِنَ الدُّنْيَا بَعْدَ خَلِيلٍ صَالِحٍ، امرأَةً صَالِحَةً.

(٢٢) • يَا بُنَيَّ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ تَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ مَا يُوعَدُونَ، وهُمْ إِلَىٰ الآخِرَةِ سِرَاعاً يَذْهَبُون، وإِنَّكَ قدِ اسْتَدْبَرْتَ الدُّنْيا مُنْذُ كُنْتَ، واسْتَقْبَلْتَ الْآخِرَة. وَإِنَّ دَاراً تَسِيرُ إِلَيْهَا أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ دَارٍ تَخْرُجُ عَنْها.

(٢٣) • لَيْسَ غِنىً كَصِحَّة، وَلَا نِعْمَةٌ كَطِيبِ نَفْسٍ.

(٢٤) • يَا بُنَيَّ، لَا تُجَالِسِ الْفُجَّارَ، وَلَا تُمَاشِهِمْ، اتَّقِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيُصِيبَكَ مَعَهُمْ.

(٢٥) • يَا بُنَيَّ، جَالِسِ الْعُلَمَاءَ وَمَاشِهِمْ، عَسَىٰ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ رَحْمَةٌ فَتُصِيبَكَ مَعَهُمْ.

(٢٦) • قَالَ لِرَجُلٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ: إِنْ كُنْتَ تَرَانِي غَلِيظ الشَّفَتَيْنِ، فإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهِمَا كَلَامٌ رَقِيقٌ، وإِنْ كُنْتَ تَرَانِي أَسْودَ فَقَلْبِي أَبْيَض.

(٢٧) • أَمَرَهُ مَوْلَاهُ بِذَبْحِ شَاةٍ وَأَنْ يَأْتِيَهُ بِأَطْيَبِ مُضْغَتَيْن، فأَتَاهُ باللِّسَانِ والْقَلْب.

ثُمَّ أَمَرَهُ بِذَبْحِ أُخْرَىٰ، وقَالَ لَهُ أَلْقِ مِنْها أَخْبَثَ مُضْغَتَيْن، فَأَلْقَىٰ اللِّسَانَ والْقَلْبَ.

فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَال: هُمَا أَطْيَبُ مَا فِيها إذا طَابَا، وأَخْبَثُ مَا فِيها إِذَا خَبُثَا.

(٢٨) • قيل: دَخَلَ لُقْمَانُ عَلَىٰ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَهو يَسْرُدُ الدُّرُوع، فأَرَادَ أَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّاذَا يَصْنَعُ، فأدْرَكَتْهُ الْحِكْمَةُ فَسَكَتَ. فَلَمَّا أَتَمَّها دَاوُدُ عَلَيْهِ السّلام، لِبسَها وقال: نِعْمَ لَبُوسُ الْحَرْبِ أَنْتِ. فقالَ لُقْمان: الصَّبْرُ حِكْمَةٌ، وَقَلِيلٌ فَاعله.

(٢٩) • قيل لِلُقْمان: أَيُّ النّاسِ شَرّ، فقال: الَّذِي لَا يُبَالِي أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ سَيِّئاً، أَوْ مُسِيئاً.

(٣٠) • إِنَّ الْحاكِمَ بِأَشدِّ الْمَنازِلِ وَكَدِرِها، يَغْشَاهُ المظْلُومُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، إِنْ يُصِبْ فَبِالْحَرِيّ أَنْ يَنْجُو، وَإِنْ أَخْطَأَ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْجَنَّة.

(٣١) • مَنْ يَكُنْ في الدُّنْيَا ذَلِيلاً خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ شَرِيفاً.

(٣٢) • مَنْ يَخْتَرِ الدُّنْيَا عَلَىٰ الآخِرَة تَفُتْهُ الدُّنْيَا وَلَا يُصِبِ الآخِرَة.

(٣٣) • قيل: إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ سَأَلَ لُقْمَانَ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فقال: أَصْبَحْتُ فِي يدَيْ غَيْرِي.

(٣٤) • قال لُقْمَانُ لابْنِهِ: إِنَّ اللهَ رَضِيَنِي لَكَ فَلَمْ يُوصِنِي بِكَ، ولَمْ يَرْضَكَ لِي فَأَوْصَاكَ بِي.

(٣٥) • يَا بُنَيَّ، إِذَا امْتَلأَتِ الْمَعِدَةُ نَامَتِ الْفِكْرَةُ، وَخَرِسَتِ الْحِكْمَةُ، وَقَعَدَتِ الْأَعْضاءُ عَنِ الْعِبَادَة.

(٣٦) • يَا بُنَيَّ، إِنَّ مَثَلَ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ، كَمَثَلِ الدُّهْنِ في الرَّأْسِ، يُلَيِّنُ الْعُرُوقِ، ويُحَسِّنُ الشَّعَر، وَمَثَلَها كَمَثَلِ التَّاج عَلَىٰ رَأسِ الْمَلِك، وَمَثَلَها كَمَثَلِ اللُّؤْلُؤِ والْجَوْهر لا يَدْرِي أَحَدٌ مَا قِيمَتُه، وَمَثَلُ المرأةِ السُّوءِ كَمَثَلِ السَّيْلِ، لَا يَنْتَهِي حَتَّىٰ يَبْلُغَ مُنْتَهَاهُ، إذَا تَكَلَّمَتْ أَسْمَعَتْ، وَإِذَا مَشَتْ أَسْرَعَتْ، وإِذا قَعَدَتْ رَفَعَتْ، وَكُلُّ دَاءٍ يَبْرأُ إِلَّا دَاءُ امْرَأَةِ السُّوء، تَبْكِي وَهِيَ الظَّالِمَة، وتَحْكُمُ وَهِيَ الجائِرَة، وتَنْطِقُ وَهِي الجاهِلَة، وهِي أَفْعَى بِلَدْغِها.

(٣٧) • يَا بُنَيَّ، سَافِرْ بِسَيْفِكَ، وخُفِّكَ، وعِمَامَتِكَ، وخِبائِكَ، وسِقَائِكَ، وخُيُوطِكَ، ومِخْرَزِكَ، وَتَزَوَّدْ مَعَكَ من الأَدْوِيَة مَا تَنْتَفِعُ به أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، وكُنْ لِأَصْحَابِكَ مُوافِقاً إِلَّا في مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

يَا بُنَيَّ، إِذَا سَافَرْتَ مَعَ قَوْم فَأَكْثِرِ اسْتِشَارَتَهُمْ في أَمْرِكَ وَأُمُورِهِم، وأَكْثِرِ التَّبَسُّمَ فِي وُجُوهِهِم، وَكُنْ كَرِيماً عَلَىٰ زَادِكَ بَيْنَهُمْ، فإِذَا دَعَوْكَ

فأَجِبْهُمْ، وَإِذَا اسْتَعَانُوا بِكَ فَأَعِنْهُمْ، واسْتَعْمِلْ طُولَ الصَّمْتِ، وَكَثْرَةَ الصّلاَة، وسَخَاءَ النَّفْس بما مَعَكَ مِنْ دابَّةٍ أَوْ مَاءٍ، أو زاد، وإِذَا اسْتَشْهَدُوكَ علَىٰ الحقِّ فاشْهَدْ لهم، واجْتَهِدْ رَأْيَكَ لَهُمْ إذا اسْتَشَارُوكَ، ثُمَّ لَا تَعْزِمْ حَتَّىٰ تَتَثَبَّتَ وتَنْظُرَ، ولاَ تُجِبْ فِي مَشُورَةٍ حَتَّىٰ تَقُومَ فيها وتَقْعُدَ وتَنَامَ وَتَأْكُلَ وتُصَلِّي وأنْتَ مُسْتَعْمِلٌ فِكْرَتَكَ وَحِكْمَتَكَ في مَشُورَتِك، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَمْحَضِ النَّصِيحَةَ مَنِ اسْتَشَارَهُ سَلَبَهُ اللهُ رأيَهُ.

وَإِذَا رَأَيْتَ أَصْحَابَكَ يَمْشُونَ فَامْشِ مَعَهُمْ، فإذا رأَيْتَهُمْ يَعْمَلُونَ فَاعْمَلْ مَعَهُمْ، واسْمَعْ لِمَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْكَ سِنّاً، وإِذَا أَمَرُوكَ بِأَمْرٍ وَسَأَلُوكَ شَيْئاً فَقُلْ: «نَعَمْ» ولا تَقُلْ: «لَا». فَإِنَّ «لَا» عِيٌّ وَلُؤْمٌ.

وإِذَا تَحَيَّرْتُمْ في الطَّرِيقِ فانْزِلُوا، وَإِذَا شَكَكْتُمْ في الْقَصْدِ فَقِفُوا وَتَآمَرُوا، وإِذَا رَأَيْتُمْ شَخْصاً وَاحِداً فَلَا تَسْأَلُوهُ عَنْ طَرِيقِكُمْ وَلَا تَسْتَرْشِدُوه، فإِنَّ الشَّخْصَ الواحِدَ في الْفَلَاةِ مُرِيبٌ، لَعَلَّهُ يَكُونُ عَيْنَ اللُّصُوصِ، أَوْ يَكُونُ هُو الشَّيْطَانُ الَّذِي حَيَّرَكُمْ، واحْذَرُوا الشَّخْصَيْنِ أيضاً، إِلَّا أَنْ تَرَوْا مَا لَا أَرَىٰ، لِأَنَّ الْعَاقِلَ إِذَا أَبْصَرَ بِعَيْنِهِ شَيْئاً عَرَفَ الحقَّ مِنْهُ، والشَّاهِدُ يَرَىٰ مَا لَا يَرَىٰ الْغَائِب.

يَا بُنَيَّ، إِذَا جَاءَ وَقْتُ الصَّلَاةِ فَلَا تُؤَخِّرْهَا لِشَيءٍ، صَلِّهَا واسْتَرِحْ مِنْهَا، فإِنَّهَا دَيْنٌ، وَصَلِّ في جَمَاعَةٍ وَلَوْ على رَأْسِ زُجٍّ[1]، وإِذَا أَرَدْتُمُ النُّزُول فَعَلَيْكُمْ مِنْ بِقَاعِ الْأَرْضِ بأَحْسَنِهَا لَوْناً، وَأَلْيَنِهَا تُرْبَةً، وأَكْثَرِهَا عُشْباً.

وَإِذَا نَزَلْتَ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ تَجْلِسَ، وإِذَا أَرَدْتَ قَضَاءَ حَاجَتِكَ فَأَبْعِدِ المذْهَبَ فِي الْأَرْضِ.

---

(١) **الزُّجّ**: الحَدِيدَة في أَسْفَلِ الرُّمحِ، وهذا على سَبِيلِ المبالَغَةِ، والمرادُ ولَوْ فِي مَكانٍ شدِيدِ الضِّيق.

وإذَا ارْتَحلْتَ فَصلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ وَدِّعِ الأَرْضَ الَّتي حَلَلْتَ بها، وسَلِّمْ عَلَىٰ أَهْلِها، فإنَّ لِكُلِّ بُقْعَةٍ أَهْلاً مِنَ الملائكة.

وإنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَأْكُلَ طَعاماً حتَّىٰ تَبْتَدِئَ فَتَتَصدَّقَ مِنْهُ فَافْعَلْ.

وعَلَيْكَ بقراءَةِ كِتَابِ اللهِ مَا دُمْتَ رَاكِباً، وعَلَيْكَ بالتَّسْبيح مَا دُمْتَ عَامِلاً عَمَلاً، وَعَلَيْكَ بالدُّعَاءِ مَا دُمْتَ خَالِياً، وإيَّاكَ والسَّيْرَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إلَىٰ آخِرِه، وَإيَّاكَ وَرَفْعَ الصَّوْتِ في مَسِيرِك.

وبهٰذا أنْتَهي من تدبُّر الدرس الخامس من دروس سورة (لُقْمان).

والْحَمْدُ لِلَّهِ على مَعُونَتِهِ، وَمَدَدِهِ، وتَوْفِيقِه، وفَتْحِه.

❁ ❁ ❁

(١١)

التدبُّر التحليليّ للدَّرسِ السادس من دُرُوس سورة (لقمان) وهو الآيات من (٢٠ ـ ٢٤)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

القراءات:

(٢٠) • قرأ نافع، وأبُو عَمْرو، وحَفْص، وأَبُو جَعْفر: [نِعَمَهُ] جمع «نِعْمَةٍ».

وقرأَهَا باقي القرّاء العشرة: [نِعْمَةً] بالإفْراد، والتَّنْكِير، وهِي اسْمُ جِنس، والمؤدّىٰ واحد.

(٢٢) • قرأ قَالُون، وأَبُو عَمْرو، والكِسَائي: [وَهْوَ] بإسْكَانِ الهاء.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء الْعَشَرَة: [وَهُوَ] بضمّ الهاء.

وهُمَا نُطْقَانِ عَربيان.

(٢٣) • قرأ نافع: [فَلَا يُحْزِنْكَ] مِنْ فِعْل «أَحْزَنَهُ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَلَا يَحْزُنْكَ] من فِعْلِ «حَزَنَهُ».

قال الجوهريّ: «حَزَنَهُ» لغة قريش، و«أحْزَنَهُ» لُغَةُ تَمِيم.

تمهيد:

في آياتِ هـٰذا الدَّرْس بَيَانٌ تَذْكِيرِيٌّ للنَّاسِ بِنِعَمِ اللهِ الكَثِيرَة عَلَيْهِم، الَّتِي تَسْتَدْعِي أَنْ يَشْكُرُوهُ عَلَيْها.

ولَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ بالْبَاطِل، علَىٰ الرُّغْمِ مِنْ إنْذَارِهِمْ بِعَذَابِ السَّعِير.

وفيها بِشَارَةٌ لِلْمُؤمِنِ الَّذِي يُسْلِمُ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ في عِبَادَتِهِ لِرَبِّه، بالعاقِبَةِ الحسْنَىٰ يَوْمَ الدين.

وفيها تَوْصِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ بِأَنْ لَا يَحْزُنَهُ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ، فالْكَافِرُونَ مَصِيرُهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظ، وهُمْ باخْتِيارِهِمُ الْحُرِّ يَجْنُونَ علَىٰ نُفُوسِهِمْ إذْ يَدْفَعُونَ بِها إلَىٰ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين.

التدبّر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ خِطاباً للنَّاسِ جَمِيعاً، والْمَقْصُودُون بالمعالَجَةِ الَّذِينَ لَا يُؤَدُّونَ وَاجِبَ شُكْرِ اللهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ الكَثِيرَة عَلَيْهِمْ، بَلْ يُشْرِكُون بِهِ مَا لَا يَجْلُبُ لَهُمْ نَفْعاً، ولَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضرّاً:

• ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ .. ﴿٢٠﴾﴾:

التَّسْخِير: التَّذْلِيل لِعَمَلٍ ما، أَوْ لِأَمْرٍ ما، وجَعْلُ الشَّيْءِ مُطاوعاً لِمَا يُرَادُ مِنْهُ، ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيرِه، وهـٰذِهِ المطاوعَةِ قَدْ تَكُونَ بِالطَّبْعِ كَتَسْخِير الأَشْيَاء، وقَدْ تَكُونُ بِالْقُوَّةِ، كَتَسْخِيرِ الْعَجْمَاوَاتِ، وقَدْ تَكُونُ بالاختيار الْحُرّ لِمَا فِي المطَاوَعَةِ مِنْ مَصْلَحَةٍ لِلْمُطَاوع.

الإِسْبَاغُ: الإِتْمَامُ، والتوسِعةُ، وإِطَالَة الشيء، يُقَالُ لُغَةً: «أَسْبَغَ الثَّوْبَ» أي: وَسَّعَهُ، ويُقَالُ: «أَسْبَغَ لَهُ في النَّفَقَةِ» أي: وَسَّعَ عَلَيْهِ فيها، ويُقَالُ: «أَسْبَغَ اللهُ عَلَيْكَ النِّعْمَة» أي: أَكْمَلَهَا وَأَتَمَّهَا.

• ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟﴾: اسْتِفْهَامٌ يُحْمَلُ بالنِّسْبَةِ إلى بَعْضِ الْمُخَاطَبِينَ عَلَىٰ التَّقْرِير، ويُحْمَلُ بالنِّسْبَةِ إلى بَعْضِهِمْ علَىٰ التَّلْوِيم والتَّثْرِيب والتَّعْنِيفِ، ويُحْمَلُ بالنِّسْبَةِ إلى بَعْضِهِمْ عَلَىٰ الْحَثِّ والْحَضِّ حَتَّىٰ يَرَوْا رُؤْيَةً شَامِلَةً للرُّؤْيَةِ الْفِكْرِيَّةِ والرُّؤيَةِ الْعَيْنِيَّةِ المشَاهَدِيَّة.

• ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أيْ: سَخَّرَ بِتَقْدِيرِهِ وَقَضَائِهِ مُسَخَّرَاتٍ لَكُمْ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ.

• الشَّمْسُ مُسَخَّرَةٌ بِتَقْدِيرِ اللهِ وقَضَائِهِ وخَلْقِهِ وَمُتَابعَتِهِ الدائِمَةِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، لِمَنَافِعِ النَّاسِ والْأَحْيَاءِ الْأُخْرَىٰ في الْأَرض.

• والْقَمَرُ مُسَخَّرٌ بتقدير الله وقَضَائِهِ وَخَلْقِهِ وَمُتَابَعَتِهِ الدائِمَةِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ، لِمَنَافِعِ النَّاسِ في الأرض، وكُلُّ مَا فِي الأرض مُسَخَّرٌ للناسِ.

• والرّياحُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ اللهِ للناسِ في الْأَرْض.

• والنُّجُومُ الْقَرِيبَةُ والْبَعِيدَةُ مُسَخَّرَاتٌ كَذَلِكَ.

• إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا نُدْرِكُ كَوْنَهُ مُسَخّراً، وَلَا نُدْرِكُ فِينَا آثَارَ هـٰذا

التَّسْخِير، ومِنَ التَّسْخِيرِ نِظَامُ الجاذِبياتِ الضَّابِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ في الْكَوْنِ مِنْ أَدْنَاهُ إِلَيْنا، إِلَىٰ أَقْصَاهُ عَنَّا.

• ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: أي: وَأَتَمَّ وأَكْمَلَ وَوَسَّعَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ نِعَمَهُ الكَثِيرةَ، الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَها، حَالَةَ كَوْنِ هٰذِهِ النِّعَمِ ظَاهِرَةً مَشْهُودَةً لَكُمْ، وَبَاطِنَةً لَا تُشَاهِدُونَها بأَبْصَارِكُمْ، فَنِعَمُ اللهِ عَلَيْكُمْ قِسْمَان:

• قِسْمٌ ظَاهِرٌ مَشْهُودٌ لَكُمْ.

• وقِسْمٌ بَاطِنٌ لَا تَرَوْنه، ولدى الْبَحْثِ والتَّتَبُّعِ نُدْرِكَ أَنَّ نِعَمَ اللهِ الْبَاطِنَة أَكْثَرُ مِنْ نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ، وبَعْضُهَا أَجَلُّ وأَعْظَمُ مِنْ نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ المنْظُورَة، ومِنَ النِّعَمِ الْبَاطِنَةِ الْجَلِيلَة قُدْرَاتُ الْفَهْمِ والتَّفْكِير، والرُّوحِ، والمشاعِرِ والْعَوَاطِف النَّفْسِيَّة.

ومِنَ النِّعَمِ الْبَاطِنَةِ مَا خَلَقَ اللهُ فِي كَوْنِهِ مِنْ كَائِنَاتٍ مُسَخَّرَاتٍ لِحِمَايَةِ النَّاسِ وحِفْظِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً جُحُودَ الْكَافِرِينَ بِرَبِّهِمْ، الَّذِينَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وفي إِلَهِيَّتِهِ بالْبَاطِلِ، وَيُجَادِلُونَ لِتَزْيِين بَاطِلِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدَىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ:

﴿.. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾:

أيْ: وَيُوجَدُ مِنَ النَّاسِ كُفَّارٌ بِرَبِّهِمْ عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ كُلِّ البراهِينِ والْأَدِلَّة الْعَقْلِيَّةِ والْآيَاتِ الْكَوْنِيَّة، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ رُبُوبِيَّة اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ فِيها، وأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَلْزَمُ عَنْ هٰذا عَقْلاً أَنَّهُ واحِدٌ في إِلَهِيَّتِهِ، وهٰؤُلَاءِ لا يُؤَدُّونَ واجِبَ الشُّكْرِ لَهُ، بَلْ يَلْتَمِسُونَ عِنْدَ آلِهَتِهِمْ الَّتِي افْتَرَوْهَا

جَلْبَ مَنَافِعَ لَهُمْ، وَدَفْعَ مَضَارَّ عَنْهُمْ، وَيَسْتَمْسِكُونَ بِعَقَائِدَ باطِلَةٍ واضِحَةِ الْبُطْلَانِ، مُضَادَّةٍ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، وواجِبِ شُكْرِهِ بإفرادِه في الْعِبادة، واتِّباعِ صراطِه المسْتَقِيم.

وَهَـٰؤُلَاءِ الكَفَرَةُ مِنَ النَّاسِ يُجادِلُونَ فِي اللهِ لِتَزْيين عَقَائِدهم الْبَاطِلَةِ، بِغَيْرِ عِلْم وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِير.

إنَّ وسائِلَ اكْتِسَاب الْمَعْرِفَةِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ النَّاسِ تَرْجِعُ إلى ثَلَاثَةِ جُذُور:

الجذْر الْأَوَّلُ: مَا يُكتَسَبُ بِهِ عِلْمٌ جليٌّ، وَلَهُ طَرِيقَانِ: طَرِيقُ الإِدْرَاكِ الْحِسيِّ، وَطَرِيقُ الْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ، المُستَنِد إلى مُقَدِّماتٍ عَقْلِيَّةٍ ذَوَاتِ دَلَالَاتٍ قَطْعِيَّةٍ، كالْحِسابِيَّاتِ، والْهَندَسِيَّاتِ، والنَّتَائِجِ الْعَقْلِيَّةِ المبْنِيَّةِ علَىٰ الْبَدِهِيَّاتِ، ومِنْهَا الواجباتُ الْعَقْلِيَّة، والمسْتَحِيلاتُ الْعَقْلِيَّةِ، والجائِزَاتُ الْعَقْلِيَّة.

وَيَظْهَرُ لي أَنَّ هَـٰذَا الَّذِي أَطْلَقَ اللهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ «عِلْمٌ» في هـٰذِه الآيَةِ، وفي نَظِيرِهَا في سورَة (الحج/ ٢٢ مصحف/١٠٣ نزول) في الآية (٨) مِنْها. هُوَ لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَ وَسَائِلِ المعرفة، وَلَيْسَ هـٰذا في كُلِّ ما أَطْلَقَ اللهُ عَلَيْهِ فِي القرآنِ أَنَّهُ عِلْمٌ.

الجذْرُ الثاني: مَا يُكْتَسَبُ بِهِ عِلْمٌ تَجرِيبِيٌّ، نَاتِجٌ عَنْ تَجَارِبَ مُتَكَرِّرة، كالطبيَّاتِ، والْغِذائِيَّات، والزِّرَاعِيَّاتِ، والصِّنَاعِيَّاتِ، والإدَارِيَّاتِ، والْحَرْبِيَّاتِ، والتَّرْبَوِيَّاتِ، ونَحْوها.

وَيَظْهَرُ لي أَنَّ هـٰذا هو الذي أَطْلَقَ اللهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ «هُدًى» في الآيَتَيْنِ، للتَّفْريق بَيْنَ وَسَائِلِ اكْتِسَابِ الْمَعْرِفَةِ، لِأَنَّ أَصْحَابَ التَّجَارِبِ يَهْتَدُونَ إِلَىٰ الأَفْضَلَ وَالْأَكْثَرِ صَوَاباً مِنْ خِلَالِ تَجرِبَاتِهِمْ الْمُتَكَرِّرَاتِ والمتَنَوِّعَاتِ، وبالتَّنْويعِ والتَّكْرِيرِ يَهْتَدُونَ إِلَىٰ الْأَفْضَلِ، والْأَكْثَرِ صَوَاباً واقْتِرَاباً مِنَ الكَمَالِ المطَابِقِ لِلْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ الْجَلِيّ.

الجذْر الثالث: مَا يُكتَسَبُ بِهِ عِلْمٌ خَبَرِيٌّ، آتٍ عَنْ طَرِيقِ كِتَابٍ مُنِيرِ الدَّلالَاتِ، صَحِيحِ الثُّبُوتِ لِمَصْدَرٍ يُحْتَجُّ بأَقْوَالِهِ وَبيَانَاتِهِ عقلاً.

وَالكِتَابُ الَّذِي يُحْتَجُّ بِهِ عَقْلاً فِيمَا يَتعَلَّقُ باللهِ وَصِفَاتِهِ ورُبُوبيّتِهِ وإلَهيَّتِهِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَنْقُولاً نَقْلاً صَحِيحاً عَنْ رَسُولٍ مِنْ رُسُلِ اللهِ الصَّادِقِينَ المؤَيَّدِينَ بآيَاتِ اللهِ الباهِرَاتِ، والْمُبَلِّغِينَ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ مِنْ رِسَالَاتٍ.

وَيَظْهَرُ لي أنَّ هـٰذا هو الَّذِي أطْلَقَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ عَلَيْهِ في الآيَتَيْن، «أنَّهُ كِتَابٌ مُنِيرٌ» للتفريق بَيْنَ وَسَائِلِ اكْتِسَاب المعرفة.

والكَفَرَةُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ مِنْ مُشْرِكِينَ وغَيْرِهِم يُجادِلُونَ بالْبَاطِلِ، مُسْتَخْدِمِينَ زُخْرُفاً مِنَ الْقَوْلِ قَائِماً عَلَىٰ المغالَطَاتِ، والْأَكَاذِيب، واسْتِرْضَاءِ الْأَهواء والشَّهَوَاتِ، ومَطَالِبِ النُّفُوسِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، فَلَا يُقَدِّمُونَ أدِلَّةً حِسِّيَّة، ولَا بَرَاهِينَ عَقْلِيَّة، وَلَا تَجرِبَاتٍ مَقْرُونَاتٍ بِنَتَائِجَ صَحِيحَةٍ صَادِقَة، وَلَا خَبَراً صَادِقاً عَنْ رَسُولٍ مَعْصُومٍ فِي كِتَابٍ مُنِير.

وَهَـٰؤُلَاءِ يُكَابِرُونَ فِي جَدَلِيَّاتِهِمْ، وَيَسْتَخْدِمُونَ مُخْتَلَفَ الْوَسَائِلِ الإغْرَائِيَّة الإغْوَائِيَّة الْخِدَاعِيَّة، لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ من آمَنَ بِهِ واتَّبَعَهُ، وَلِيَصُدُّوا عَنْهُ الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِلْإيمانِ به واتِّبَاعِهِ، وَلِيُجَنِّدُوا الْأَشْرَارَ مِنْ خَلْقِ اللهِ في جَيْشِ شَيَاطِينِ الإنْسِ.

وَمِنْ حُجَجِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ هَـٰؤُلَاءِ، الَّتِي لَا تَعْتَمِدُ عَلَىٰ دَلِيلٍ مَقْبُولٍ عقلاً، مِنْ مَسْلَكٍ مِنْ مَسَالِكِ اكْتِسَابِ المَعْرِفَةِ الصَّحِيحَة، قَوْلُهُمْ: إنَّا نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، فَقَالَ اللهُ تَعالَىٰ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ . . ﴿٢١﴾﴾.

أي: وإذا قيل لهَـٰؤُلَاءِ الكَفَرَةِ المشْرِكينَ المقَلِّدين لِآبَائِهِم: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ حقَائِقَ إيمانِيَّةٍ، وشَرَائِعَ وأَحْكَامِ سُلُوكٍ نَافِعٍ فِي الْحَيَاةِ،

ومُسْعِدٍ لَكُمْ بَعْدَ الْمَمَات، قالوا: لَا نَتَّبعُ مَا تَدْعُونَنَا إلَيْهِ، بَلْ نَتَّبعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا مِنْ عَقَائِدَ شِرْكِيَّةٍ، وسُلُوكٍ تَعَبُّدِيٍّ لِأَوْثَانِنَا، وسائِرِ أنواعِ السُّلُوكِ في الحياة.

مِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ هَـٰذَا رِدٌّ عِنَادِيٌّ، لَا يَعْتَمِدُ عَلَىٰ مِيزَانٍ عَقْلِيٍّ يَقْتَضِيه، وَلِهَـٰذَا جَاءَ في الآيَةِ تَعْلِيمُ الرَّدِّ المفْحِمِ لَهُمْ، يَرُدُّ به عَلَيْهِمُ الدَّاعِي إلَىٰ اللهِ مُفَصِّلاً وَشَارِحاً، وهُمْ يَسْمَعُونَهُ مِنْ تِلَاوَةِ الْبَيَانِ القرآنِيِّ عَلَيْهِم، فقال اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿.. أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾:

أي: أيُعانِدُونَ مُصِرِّينَ على اتِّبَاعِ آبائِهِمْ وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يدْعُوهُمْ بالإصْرَارِ على هـٰذا الاتِّبَاعِ إلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ في النَّارِ الموقَدَةِ يَوْمَ الدِّين.

الاتّباعُ: سَيْرُ التَّابعِ في أَثَر مَتْبُوعِهِ، وتقْلِيدُ المقتدي إمَامَهُ فِي أقوالِهِ وأفْعَالِه، وَطَاعَتُهُ في أوَامِرِهِ ونواهِيهِ، والاسْتِجَابَةُ لَهُ في دَعْوَتِهِ، والاجْتِهَادُ فِي تَطْبِيقِ وَصَايَاه.

وَجَاءَ فِي سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قولُ اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ المقَلِّدِينَ أيْضاً تَقْلِيداً أعْمَىٰ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾: أَيْ: وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنا.

وَبَيْنَ هـٰذِهِ الآيَةِ، وآيَةِ سُورَةِ (لُقْمان) تَكَامُلٌ فِي تَعْلِيم الرَّدِّ على الْمُقَلِّدِينَ تَقْلِيداً أعْمَىٰ، فآيَةُ سورة (الْبَقَرَة) تَكْشِفُ وَصْفاً يَتَعَلَّقُ بالآباءِ، وهُو احْتِمَالُ أَنْ يَكُونَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شيئاً مِنْ حَقَائِقِ العِلْم، وَلَا يَهْتَدُونَ عَنْ طَرِيقِ التجارب المتَكَرِّرَةِ إلَىٰ مَا هُوَ الأَفْضَلُ وَالْأَكْثَرُ صَوَاباً،

إذْ كُلُّ هَمِّهِمْ مُنْصَرِفٌ إلَىٰ إرْضَاءِ غَرائِزِهِم وأَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَائِهِم وما يَسْتَنْزِلُهُمْ إلَىٰ الآثام مِنْ مُغْرِيَاتِ الْحَيَاة الدُّنْيا.

وَكَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَأْخِيرُ هَـٰذا الرَّدِّ إلَىٰ أَوَائِلِ الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ، وإنْزَالُهُ في سُورَةِ (البقرة) أَوَّلِ سُورَة مَدَنِيَّة، لِئَلَّا يُثِيرَ عَصَبِيَّةَ مُشْرِكي مَكَّةَ لِآبَائِهِمْ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْقُوَّةِ وَالسُّلْطَانِ فيها، وَكَانَ المسْلِمُونَ حِينَئِذٍ مضطَّهدِينَ فِيها، فَيَزِيدُوا فِي اضطهادِهِمْ لهم، أَوْ يُعْلِنُوا الْحَرْبَ ضِدَّهُمْ وَضِدَّ الرَّسُولِ ﷺ، ولَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ قُدْرَةٌ علىٰ مُقَاتَلَتِهِمْ ضِمْنَ الْأَنْظِمَة السَّبَبِيَّةِ لِلْمُوَاجَهاتِ الْحَرْبِيَّة، وَلَيْسَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ حِينَئِذٍ أَنْ يَتَدَخَّلَ بالمعجزَاتِ لِنَصْرِ الْمُؤْمِنين علَىٰ الْكَافِرِين.

«الواو» بَعْدَ هَمْزَةِ الاسْتِفْهَام فِي ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ في آيَتي سُورَةِ «لُقْمَان» وسُورَة «الْبَقَرَة» تَعْطِفُ على مَحْذُوفٍ، من السَّهْلِ اسْتِخْرَاجُهُ ذِهْناً. وهو: أَيُعَانِدُونَ مُصِرِّينَ على اتِّبَاعِ آبَائِهِمْ ولَوْ كانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلَىٰ عَذَابِ السَّعِير، ولَوْ كان آباؤهم لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً حَالَةَ مَنْ يُسْلِمُ وَجْهَهُ إلَىٰ اللهِ وهُوَ مُحْسِنٌ، مَعَ الإلْمَاحِ إلَىٰ ثَوَابِهِ الْعَظِيم عِنْدَ رَبِّهِ، في مُقَابل الكافِرِ المعاند المجادل بالباطل:

● ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾:

اسْتَمْسَكَ: أي: أَمْسَك بِشِدَّةٍ وقُوَّةٍ قابضاً.

الْعُرْوَة: مَدْخَلُ الزِّرّ في الثَّوْب، ودَائِرَةٌ مِنَ الْحَبْلِ تُعْقَدُ فِي وَسَطِهِ لِربْطِ شيءٍ ما بِهَا أَوْ تَعْلِيقِهِ. وعُرْوَةُ الكُوزِ أَوِ الإبْرِيقِ أَو الْكَأْسِ مَا يُوضَعُ عِنْدَ صُنْعِهِ في جَانِبِهِ وَيُقْبَضُ عَلَيْهِ مِنْهُ، ويُحْملُ به.

وتُطْلَقُ الْعُرْوَةُ بِطَرِيقِ الاسْتِعَارَةِ علَىٰ مَا يُسْتَمْسَكُ بِهِ مِنْ عَقَائِدَ وَمَفْهُومَاتٍ وقُوىً غَيْبِيَّةٍ، وعَلَىٰ مَا يُعْتَصَمُ به.

الْوُثْقَى: مُؤَنَّثُ «الْأَوْثَق» أي: الْعُرْوَةُ الْأَشَدُّ إِحْكَاماً وَتَوْثِيقاً.

إِسْلَامُ الْوَجْهِ لِلَّهِ: كِنَايَةٌ عَنِ انقيادِ الإنْسَانِ صَاحِبِ الْوَجْهِ، مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ في مَسِيرَتِهِ فِي رِحْلةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدُّنيا، لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَوَامِرِه وَنَوَاهِيه.

فالإنْسَانُ يَسِيرُ في حَيَاتِهِ في الاتِّجَاه الَّذِي يُوَجِّهُ لَهُ وَجْهَهُ، ولَا يَسِيرُ إِلَىٰ جِهَةِ دُبُرِهِ تَرَاجُعاً، وَلَا إِلَىٰ جِهَةِ يَمِينِهِ أَوْ يَسَارِهِ مَعَ بَقَاءِ وَجْهِهِ مُتَّجِهاً إِلَىٰ جِهَةٍ أُخْرَىٰ، فَمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ انْقَادَ لِأَوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ انْقِيَاداً تَامّاً، في مَسِيرَتِهِ الابْتِلَائِيَّةِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِه.

• ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: وَمَنْ يَكُنْ مُنْقَاداً فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ لِأَوامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ طَائِعاً مُخْتَاراً.

«مَنْ» شَرْطِيَّة «يُسْلِمْ» فَعْلُ الشَّرْطِ مجزوم.

• ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ جُمْلَةٌ حَالِيَّة، أي: والْحَالُ أَنَّهُ مُحْسِنٌ عِبَادَتَهُ وَطَاعَتَهُ لِرَبِّهِ، مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، وهُمُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ، ومَرْتَبَةُ الإحْسَانِ أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ المؤمنين.

• ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: أي: فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بأَوْثَقِ الْعُرَىٰ، الْمُوصِلَةِ إِلَىٰ الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

• ﴿.. وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾: أي: وَبَعْدَ حَيَاةِ الابتلاء الَّتِي يَمْنَحُ اللهُ فِيها الْمَوْضُوعِينَ مِنَ الخلائق مَوْضِعَ الامْتِحَانِ حُرِّيَّاتِ اخْتِيَارِ أَعْمَالِهِمْ، وَيَخْلُقُ لَهُمْ مَا يُرِيدُونَ مِنْهَا، مَا لَمْ تَتَعَارَضْ مَعَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ السَّابِقَيْنَ، يَسْلُبُهُمُ اللهُ حُرِّيَّاتِهِمْ، وَمَا كَانُوا يَرَوْنَ لِنُفُوسِهِمْ مِنْ قُدْرَاتٍ عَلَىٰ التَّصَرُّفِ فِيما كَانَ مُسَخَّراً لَهُمْ، وَتَكُونُ إِلَىٰ اللهِ وَحْدَهُ في كُلِّ الْأُمُورِ عَاقِبَتُهَا.

هُوَ الَّذي يُحَاسِب، وهُوَ الَّذي يَحْكُمُ ويَقْضِي، وهُوَ الّذِي يُجَازِي، ولَيْسَ لِأَحَدٍ في الْوُجُودِ كُلِّهِ تَصَرُّفٌ إِلَّا بأمْرِ اللهِ.

عاقبة كل شيء أو أَمْرٍ: هُو مَا يَأْتِي عَقِبَهُ، مُبَاشَرَةً، أَوْ بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ.

هٰذا المعنَىٰ الّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ هٰذِهِ الآية (٢٢) من سورة (لُقْمَان) بِشَأْنِ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ، جَاءَ بَيَانُهُ في نَصَّيْنِ آخَرَيْن، وهُمَا نَصَّانِ مَدَنيا التَّنْزِيل.

(١) • فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بِشَأْنِ مَقَالَةٍ قالَهَا الْيَهُود، وقالَهَا النَّصَارَىٰ:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

هُوداً: هُمُ الْيَهُود. وهو جَمْعُ «هَائِدٍ» بِمَعْنَىٰ التائِبِ الراجِعِ إِلَىٰ الحق.

﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾: أي: فَلَهُ أَجْرُهُ الملائم بِفَضْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِإحْسَانِهِ فِي عِبَادَتِهِ لَهُ.

(٢) • وقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

فجاء في الآيةِ (١٢٤) مِنْ هٰذا النّصّ بَيَانٌ عَنِ المؤْمِنِ الّذي لم يَرْتَقِ إلى مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنِينَ بأنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، ويُمْنَحُ مِنَ الثَّوَابِ بِفَضْلِ اللهِ

فيها شيئاً عظيماً. ولَا يُظْلَمُ قَبلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ بَعْدَ الموت إِذَا حُوسِبَ وُجُوزِي علَىٰ مَعَاصِيهِ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ مِقْدارَ نَقِير.

النَّقِير: نُقْرَةٌ في خَشَبَةٍ، أَوْ حَجرٍ أَو نَحوِ ذَلِكَ، تُنْقَرُ بأَدَاةٍ مَا مِنْ حَدِيدٍ أَوْ غَيْرِه، مَهْمَا كانَتْ صَغيرَةً لَا تَتَّسِعُ لِنَمْلَةٍ صَغِيرَة.

وَالمرادُ: لا يُظْلَمُونَ شيْئاً مَهْمَا كانَ هـٰذا الشَّيْءُ صَغِيراً، كَنَقِيرٍ أَحْدَثَهُ فِي سَطْحٍ مَا، مِنْقَارُ كَرَأْسِ مِنْقَارِ عُصْفُورٍ صَغِير، أَوْ غَيْرِهِ مِنْ ذِي أَدَاةٍ نَاقِرَة من الحيوانات الصُّغْرَىٰ.

وَجَاءَ في الآية (١٢٥) مِنْ هـٰذا النَّصِّ بيانُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ. فَدلَّتْ هـٰذِهِ الآيَة عَلَىٰ أَنَّ لفظَةَ «مُحْسِن» مُرادٌ بِهَا مَنْ بَلَغَ دَرَجَةَ الإِحْسَانِ، وهي أَعْلَىٰ مَراتِب المؤمنين، الّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ كَأَنَّهُمْ يرَوْنَهُ.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خِطاباً لِرَسُولِهِ مُربِّياً، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ وَإِلَىٰ سَبِيلِهِ مِنْ أمَّتِهِ ﷺ، بِشَأْنِ الّذِينَ يَكْفُرُونَ وَلَا يَسْتَجِيبُونَ للدَّعْوَة:

● ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾:

تَكَرَّرَ فِي القرآنِ الْمَجيدِ التوجيهُ التَّرْبَوِيُّ للرَّسُولِ، ويُلْحَقُ به الدُّعَاة إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَجَمِيعُ المؤمِنِينَ بِأَنْ لا يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِ كُفْرِ الّذِينَ يَكْفُرُون، فِي مُنَاسَبَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ.

فَفِي مُنَاسَبَةِ مَشَاعِرِ حُزْنِه مِنْ أَجْلِ الّذِينَ يُحِبُّهُمْ مِنْ عَشِيرَتِهِم الأَقْرَبِينَ أَوْصَاهُ اللهُ بأَنْ لَا يَحْزَنَ مِنْ أَجْلِهِم، إِذْ هُمْ مَوْضُوعُونَ فِي الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ امْتِحَانِ إِرَادَاتِهِمْ الْحُرَّةِ، واللهُ عَلِيمٌ بما فِي قُلُوبهم.

وفي مُنَاسَبَةِ مَشَاعِرِ حُزْنِهِ لِأَنّ جُمْهُور قَوْمِهِ فِي مَكَّة لَمْ يَسْتَجِيبوا

لِدَعْوَته، وهُمْ يَعْمَلُونَ على اضْطِّهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، أَوْصَاهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بأنْ لَا يَحْزَنَ، وألْمَحَ إلَيْهِ بأَنَّ اللهَ نَاصِرُهُ ونَاصِرُ المؤمنين معه.

وفي مُنَاسَبَةِ حُزْنِهِ لِأَنّ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ اتَّهَمُوهُ بأَنَّهُ كَاذِب، أَوْ شَاعِرٌ، أو مَجْنُونٌ، أَوْ نَحْو ذلِكَ، أَوْصَاهُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بأَنْ لَا يَحْزُنَهُ قَوْلُهُم، وأبانَ لَهُ أَنَّهُ سَيُخْزِيهِم ويَنْصُرُهُ عَلَيْهِمْ، وَيُذِلُّهُم.

إلَىٰ غير ذلك مِنْ مُنَاسِبَات.

وَفي هـٰذا النصّ مِنْ سُورَةِ (لُقْمَان) أَوْصَاهُ اللهُ بأَنْ لَا يَحْزُنَهُ كُفْرُ الَّذِينَ يُمَتِّعُهُمْ بأنْواعٍ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، في حِينِ أَنَّ أَكْثَرَ المؤمنينَ مِنْ أَصْحَابِهِ يُعَانُونَ مِنَ الفَقْرِ والحاجَةِ والضعف، وَبَشَّرَهُ بأَنَّ هـٰؤُلَاءِ الكَفَرَةِ سَيُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً بمَتَاعَاتٍ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، لَكِنَّ مَصِيرَهُمْ إلَىٰ عذابٍ غَلِيظٍ يَوْمَ الدِّين، بخِلَافِ أحْوَالِ المؤمنين على مَرَاتِبِهِمْ وَدَرَجاتِهِمْ فيها.

• ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ وفي القراءة الأُخْرَى: [**فَلَا يُحْزِنْكَ**]: أي: وَمَنْ كَفَرَ مِنْ قَوْمِكَ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِكَ، وكَذَّبَكَ فِيمَا تُبَلِّغُ عَنْ رَبِّكَ، مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ سَعَةٍ في مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا، بِخِلَافِ حَالِ الّذين آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوكَ فِي هـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ المكيَّة فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُه.

الْحُزْن: مَشَاعِرُ أَلَمٍ في النَّفْسِ بِسَبَبِ فواتِ مَحْبُوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه، أَوْ بِسَبَبِ مَكْرُوهٍ نَازِلٍ أَوْ مُتَوَقَّعِ النُّزُول قَرِيباً، ورُبَّما يَكُونُ بَعِيداً.

• ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: أي: إلَىٰ حِسَابِنَا، وَفَصْلِ قَضَائِنا، وَتَنْفِيذِ جَزَائِنَا مَرْجِعُهُمْ، حِينَ نَبْعَثُهُمْ يَوْمَ القيامَةِ بَعْدَ مُدَّة البرْزَخ، لِيُلاقُوا الْحَيَاةَ الآخِرَةَ الَّتِي لَا مَوْتَ فِيها، وَلَا يكُونُ لَهُمْ فيها حَوْلٌ وَلَا قُوَّةٌ، بَلْ يَكُونُونَ مَجْبُورِينَ، مَدْفُوعِينَ بالاضْطِرارِ إلَىٰ مَصَائِرِهم، الَّتِي تَقْتَضِيهَا مُكْتَسَبَاتُهُمُ الَّتِي قدَّمُوهَا فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا. يَتَحَدَّثُ اللهُ عَزَّ وَجلَّ بضمير المتكلّم العظيم.

● ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾: أي: فَنُخْبِرُهُمْ بِمَا عَمِلُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الَّتي نُقِيمُهَا لَهُمْ، هـٰذا الإنْبَاءُ أَحَدُ فِقَراتِ الْمُحاكَمَةِ الَّتي يُجْرِيهَا اللهُ لَهُمْ، وَذِكْرُهَا يُعْتَبَرُ كِنَايَةً عَنْ سَائِرِ فِقَراتِ الْمُحاكَمَة.

● ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾: أي: وَنَكْشِفُ مَا كَانُوا يُضْمِرُونَ ويَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ مِنْ سَرَائِرَ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُونُوا بِهَا خَالِدِينَ فِي عَذَابِ الجحيم.

ذَاتُ الصُّدُور: هي صاحِبَةُ الصُّدُور، وهي السَّرَائِر.

وَقَدْ جَاءَ مُصَرَّحاً بِهِ في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الطّارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴿١٠﴾﴾.

السَّرَائِر: جمع «السَّرِيرَة» وهِيَ مَا يَكْتُمُهُ الإنْسَانُ ويُخْفِيه، ومِنَ السَّرَائِرِ النِّيَّاتُ مِنْ وَرَاءِ الأَعْمَال.

● ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾: أي: نُعْطِيهِمْ مِمَّا يُحِبُّونَ مِنْ مَتَاعَاتِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَتَاعاً قَلِيلاً فِي مِقْدَارِهِ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ نَعِيم الآخِرَةِ، وقَلِيلاً فِي زَمَنِهِ، بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الْخُلُودِ الأَبدِيِّ يَوْمَ الدِّين.

إنَّها رِحْلَةُ امْتِحَانٍ، ومن الْحِكْمَةِ أَنْ يَنَالَ المُمْتَحَنُ حُظُوظَهُ المَقْسُومَةَ لَهُ مُدَّةَ امْتِحَانِهِ.

● ﴿.. ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿نَضۡطَرُّهُمۡ﴾: أي: نُلْجِئُهُم بالْجَبْرِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ اختيار، ودُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَىٰ دَفْعِ شَيْءٍ مِمَّا يُلْجَؤُونَ إِلَيْهِ.

﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾: أي: شدِيدُ الإيلَام. **الْغَلِيظُ في اللُّغَة:** خِلَافُ الرَّقيقِ في المادِّيَّاتِ، **والْعَصَا الْغَلِيظَةُ:** هِيَ العظِيمَة الْقَوِيَّةُ الموجِعَةُ في

الضَّرْب. واسْتُعْمِلَ اللَّفْظُ في المعنويات، فيقال: أَمْرٌ غَلِيظٌ، أي: شَدِيدٌ صَعْبٌ، وَعَذَابٌ غَلِيظٌ: أي: شَدِيدُ الإيلام.

فالمعنى: ثُمَّ بَعْدَ الْبَعْثِ، والْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضَاءِ، نُلْجِئُهُمْ بالْجَبْرِ والإكْرَاه، إلَىٰ جَهَنَّمَ لِيَنَالُوا فيها عَذَاباً غَلِيظاً شَدِيدَ الإيلام.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدبُّرُ الدّرْس السادس من دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على معونَتِهِ ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١٢)
التدبّر التحليليُّ للدَّرسِ السَّابع من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيتَان (٢٥) و(٢٦)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

تمهيد:

لمَّا كانَتِ السُّورَةُ تَشْتَمِلُ فِيمَا تَشْتَمِلُ علَيْهِ علَىٰ مُعَالَجَةِ المشْركين إبَّانَ التَّنْزِيل، وَكَانَ هَـٰؤُلَاءِ يَعْتَقِدُونَ أنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أنَّ آلِهَتَهُمْ لَهَا رُبُوبِيَّةٌ مَا فِي الأرْضِيَّاتِ، كَقَضَايا الرِّزْقِ، والتوفيق في الأسفار، والحمايَةِ وَالنَّصْرِ لِعَابِدِيهَا عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ، كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ تَقْرِيرُهم بِشَأْنِ عَقِيدَتَهِمْ فِي خَلْقِ اللهِ للسَّمَاوَاتِ والْأَرْض، والانْطِلَاقِ مِنْهَا إلَىٰ إثْبَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ في الكَوْنِ مِنْ أَقْصَاهُ إلَىٰ أقصاه، وَمِنْ ذَلِكَ رُبُوبِيَّتُهُ لِأَرْزَاقِهِمْ، ومَرَضِهِمْ، وَصِحَّتِهِمْ،

وَنَصْرِهِمْ وهَزِيمَتِهِمْ، وكُلِّ التَّصارِيفِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهِمْ، مِمَّا فِيه نَفْعُهُمْ أَوْ ضَرُّهم.

فالمَنْهَجُ الجَدَلِيُّ يَجِبُ أَنْ يَبْدَأَ مِنْ قَاعِدَةٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهَا لَدَىٰ المُتحاوِرَيْنِ المُتَنَاظِرَيْنِ، وَالانْطِلاقِ مِنْهَا إِلَىٰ مَا بَعْدَهَا مُباشَرَةً مِمَّا هُمَا مُخْتَلِفَانِ فِيه، وهٰذا مِنْ أُسُسِ الحِوَارِ السَّوِيِّ المُجْدِي، نَزَلَ بِهِ تَعْلِيمٌ رَبَّانِيٌّ.

التدبر التحليلي:

■ قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ مُعَلِّماً حِواراً جَدَلِيّاً للمشْرِكين:

• ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . . ﴿٢٥﴾﴾:

أي: نُؤَكِّدُ لَكَ أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ وإِلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ في رُبُوبِيَّتِهِ وفِي إِلٰهِيَّتِه، أَنَّ المعانِدِينَ من المشركينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ على أَنْ يَتَّبِعُوا مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ آباءَهُمْ مِنْ شِرْكٍ وَلَوازِمِهِ فِي السُّلُوكِ، إِنْ سَأَلْتَهُمْ فِي حِوارٍ جَدَلِيٍّ؛ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ بِتِلْقَائِيَّةٍ حَاضِرَةٍ فِي أَذْهَانِهِمْ دُونَ إِبْطَاءٍ: اللهُ هُو الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ.

فَإِذَا أَقَرُّوا بِهٰذِهِ الحَقِيقَةِ فَأَعْلِنْ مَعَهُمُ الاتِّفَاقَ عَلَيْها، وقُلْ: الحَمْدُ لِلَّهِ، أَيْ: كُلُّ الثَّنَاءِ في الوُجُودِ كُلِّهِ هُوَ لِلَّهِ وَحْدَه.

وَاعْتِرَافُهُمْ بِهٰذِهِ الحَقِيقَةِ ذُو لَوازِمَ فِكْرِيَّةٍ تَهْدِي إِلَىٰ أَنَّ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، هُو المُتَصَرِّفُ دَواماً بالسَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَكُلِّ مَا فِيهِما وَكُلِّ مَنْ فِيهما، فَلَا يَجري شَيْءٌ فيهما وَلَا في أيّ كائِنٍ فيهما إِلَّا هُوَ خَاضِعٌ لِتَصارِيفِ رُبُوبِيَّتِهِ وَحْدَه.

﴿. . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾: أي: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَسْتَعْمِلُونَ مَا وَهَبَهُمْ رَبُّهُمْ مِن مَوازِينَ عَقْلِيَّةٍ وَفِكْرِيَّةٍ، لِإِدْرَاكِ أَنَّ الخَالِقَ الرَّبَّ لَا

يُمْكِنُ أَنْ يُشَارِكَهُ أَحَدٌ فِي رُبُوبِيَّتِهِ لِمَا خَلَقَ، فِي تَصَارِيفِهِ وهَيْمَنَتِهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا هُوَ خَلْقُهُ وَمِلْكُهُ.

فَعَلَىٰ الدَّاعِي إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَكْشِفَ لَهُم فِي حِوَارِهِ ومُنَاظَرَتِهِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ عَقْلاً أَنْ يَتْرُكَ اللهُ لِأَحَدٍ مِمَّا هُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ، أَنْ يَتَصَرَّفَ بِمَرْبُوبِيهِ تَصَرُّفاً يُشَارِكُهُ فِيها بِرُبُوبِيَّتِهِ لَهُ، وَبِسُقُوط كُلِّ رُبُوبِيَّةٍ لِغَيْرِ اللهِ تَسْقُطُ بِاللُّزُومِ الْعَقْلِيِّ كُلُّ إِلَهِيَّةٍ لِغَيْرِهِ، فلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الأَحَد.

• ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ بَيَانُ قَضِيَّتَيْنِ تَشْتَمِلَانِ عَلَىٰ مَفَاتِيحَ فِكْرِيَّةٍ تُعَلِّمَ المناظِرَ المحاوِرَ الدَّاعِيَ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَنَبْذِ الشِّرْكِ، مَا يُقْنِعُ بِهِ المشركين بِبُطْلَانِ عَقِيدَتِهِم الشِّرْكِيَّةِ، وبُطْلَانِ كُلِّ لوازِمِهَا في سُلُوكِهِمْ في حَيَواتِهِمْ، سَوَاءٌ أكانَتْ مِن العباداتِ المحضَةِ لِلْأَوْثَانِ، أم كانت مِنْ أحْكَامِ الْمُعَامَلاتِ، وأَنْظِمَةِ الْعَلاقَاتِ الإنْسَانِيَّة.

الْقَضِيَّةُ الْأُولى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

أي: بِمَا أَنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هُو خَالِقُ السَّمَاواتِ والْأَرْض، فَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ الْأَشْيَاءِ والْأَحْيَاءِ فيهما، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَلْقِهِ تَبَعاً لَهُما. وَإِذَا كانَتْ كُلُّهَا خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ فَهِيَ مِلْكُهُ بِلَا شَكٍّ، فَلَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي مِلْكِيَّتِهِ لَهَا، وَادِّعَاءُ أَنَّ لِغَيْرِهِ تَأْثِيراً فِيهَا بِنَفْعٍ أَوْ ضَرٍّ بَعِيداً عَنْ إرَادَةِ مَالِكِهَا، مُنَاقِضٌ لِمَوَازِينِ الْعَقْلِ السَّلِيمَةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ الْعُقَلَاءُ فِيها.

وَلَمْ يَأْتِ عَنِ اللهِ الْمَالِكِ، مَا يُثْبِتُ أَنَّهُ مَنَحَ شَيْئاً مِنْ رُبُوبِيَّتِهِ أَوْ إِلَهِيَّتِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فِي كَوْنِهِ.

فادّعَاءُ أَنَّ لِغَيْرِ اللهِ تَأْثِيراً مَا بِنَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ يَسْتَحِقُّ بِهِ إِلَهِيَّةً مَا ادِّعَاءٌ تَوَهُّمِيٌّ كاذِبٌ، أَوْحَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ بِوَسَاوِسِهَا وَدَسَائِسِهَا، لِدَفْعِ النَّاسِ إِلَىٰ عَذَابِ السّعِير.

القضية الثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

أي: إنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ غَنِيٌّ بِذَاتِهِ وصِفَاتِهِ الْأَزَلِيَّة الْأَبَدِيَّة، عَنْ أَنْ يَتَّخِذ شُرَكَاءَ لَهُ يُعِينُونَهُ في تَدْبِيرِ أُمُورِ كَوْنِهِ، وخَلْقِ مَا يَشَاءُ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ، ولَهُ غايَاتُ صِفَاتِ الكَمَالِ، وهُو مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ النُّقْصَانِ، وَهُوَ بِذَلِكَ مَحْمُودٌ، يَنْطِقُ بِحَمْدِهِ كُلُّ شَيْءٍ في كَوْنِهِ، فإِنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ مِنْ أَقْصَىٰ الكَوْنِ إِلَىٰ أقْصَاه، وَلَا يَشِذُّ عَنْ هٰذا إِلَّا إِرَادَاتُ الْكَفَرَةِ الْجَاحِدِينَ، الْمَوْضُوعِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَوْضِعَ الامْتِحَان، أَمَّا ذَرَّاتُ ذَوَاتِهِمْ فَهِيَ مُسَبِّحَةٌ بِحَمْدِهِ أيْضاً، بِنُطْقٍ خاصٍّ بِهَا أَنْطَقَهَا اللهُ بِهِ، لَا تَصِلُ مَدَارِكُ النَّاسِ إِلَىٰ فِقْهِهِ.

الْحَمِيد: أي: الْمَحْمُودُ مِنْ كُلِّ شيءٍ في الوجوه، فعيل بمعنى مَفْعول. ويصْلُحُ أيْضاً أَنْ يَكُونَ بمَعْنَىٰ «حَامِد» لِأَنَّهُ تَعَالى يَحْمُدُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ مِنْ عِبَادِهِ، وقَدْ أَثْنَىٰ عَلَىٰ كثيرٍ مِنهم.

وبهٰذا تمّ تَدَبُّر الدرس السابع من دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على مَعُونته، ومدده، وتوفيقه، وفتحه.



(١٣)
التّدبُّر التحليليُّ للدَّرسِ الثامِنِ مِنْ دُروس سورة (لقمان) وهو الآية (٢٧)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

القراءات:

(٢٧) • قرأ أَبُو عَمْرو، ويَعْقُوب: [**وَالْبَحْرَ**] بالنّصْب عَطْفاً على اسْم «أنَّ» في: [**أَنَّمَا**].

وقرأَهَا بَاقي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**وَالْبَحْرُ**] بالرَّفْعِ علىٰ أَنَّهُ مُبْتَدأ، وجُمْلَتُهُ حَالِيَّة.

تَمْهيد:

مضْمُونُ هـٰذِهِ الآيَةِ مُرْتَبِطٌ ارْتِبَاطاً تَكَامُلِيّاً بِمَا جَاءَ فِي السُّورَةِ بِشَأْن شُمُولِ عِلْمِ اللهِ، وإحَاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فهو مُرْتَبِطٌ بما جاء في الآية (١٦) وَبِمَا جاء في الآية (٢٣). ومُرْتَبِطٌ بِمَا جَاءَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بِشَأْنِ شُمُولِ عِلْمِ اللهِ قَبْلَ سُورَةِ (لُقمان) ثُمَّ بِما في القرآن كُلِّه.

التّدبُّر التحليلي:

(١) اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً إحَاطَةً لِكُلِّ مَا هُوَ ظَاهِرٌ فِيه، ولِكُلِّ مَا هُوَ بَاطِنٌ فِيهِ.

فالذَّرَّةُ مَثَلاً فِي مُدْرَكَاتِ عُلَمَاءِ الكِيمياءِ والْفِيزِيَاء، ذَات نَوَاةٍ في عُمْقِها، وَذَاتُ مُصَغَّرَاتٍ جِدّاً تدورُ في فَلَكٍ أَوْ أكْثَرَ حَوْلَ نَوَاتِها. ونواةُ الذَّرَّةِ والْمُصَغَّرَاتُ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَها، ذَوَاتُ ظَوَاهِرَ وَأَعْمَاق.

وعِلْمُ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَسَمَتْ صِفَاتُهُ ـ مُحِيطٌ بالظَّوَاهِرِ، وَمُحِيطٌ بالْأَعْمَاقِ حتَّىٰ عُمْقِ الْعَدَم.

(٢) وكُلُّ مَعْلُوم مَهْمَا دَقَّ وصَغُرَ، لَهُ عِنْدَ اللهِ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُمَيِّزُهُ عَمَّا سِوَاهُ تَمْيِيزاً تَاماً بِحُدُودِهِ، وصِفَاتِهِ.

(٣) وكُلُّ كَلام لَهُ رُمُوزُ كِتَابَةٍ عِنْدَ اللهِ، حَتَّىٰ تَتَمَيَّزَ كُلُّ كَلِمَةٍ عَمَّا سِوَاها، لَدَىٰ كِتَابَتِهَا، بِحُدُودٍ فَاصِلَةٍ، وحَتَّىٰ لَا تَتَدَاخَلَ كَلِمَةٌ بأخرىٰ شَبِيهَةٍ بها.

وَهُنا يَضْرِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هٰذِهِ الآيَةِ افْتِراضاً تَمْثِيلِيّاً لِكَلِماتِ اللهِ الدّالّاتِ عَلَىٰ وَحَداتِ مَعْلُوماتِهِ، الْمُحِيطَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَوْ كانَ مُسْتَحِيلَ الْوُجُودِ، أَوْ مُمْكِنَ الْوُجُودِ إِلّا أَنَّهُ لَيْسَ بِمَوْجُود، وهُوَ افْتِراضٌ لِتَقْرِيبِ المعْنَىٰ إِلَىٰ ما يُدْرِكُ النّاسُ، إِذْ ما عِنْدَ اللهُ أَكْثَرُ مِنْهُ وأَوْسَعُ، بِما لا تَصِلُ إِلَىٰ إِدْراكِهِ أَوْهامُ الْخَلائق.

والافْتِراضُ التمثِيلِيُّ التَّقْرِيبِيُّ لِأَفْهامِ النّاس هو كما يلي:

• افْتَرِضُوا أيُّها الْمُتَلَقُّونَ لِهٰذا الْبَيان، لَوْ أَنَّ كُلَّ ما فِي الْأَرْضِ من شَجَرٍ قُطِّعَ أَقْلاماً بِمِقْدارِ ما يَصْنَعُ النّاسُ مِنْ أَقْلامٍ يَكْتُبُونَ بِها.

• وَافْتَرِضُوا أَنَّ الْبَحْرَ الْغامِرَ لِمُعْظَم سَطْح الْأَرْضِ كانَ مِداداً لِكِتابَةِ كَلِماتِ اللهِ، وهٰذا الْبَحْرُ يَمُدُّهُ بَعْدَ نَفادِه سَبْعَةُ أَبْحُرٍ.

• وَافْتَرِضُوا أَنَّ خَلْقاً مِنْ خَلْقِ اللهِ أَعْطاهُمُ اللهُ قُدْرَةً عَلَىٰ الكِتابَةِ بِالْأَقْلامِ مُسْتَمِدِّينَ مِدادَ أَقْلامِهِمْ مِنَ الْبُحُورِ الثَّمانِيَة، وشَرَعُوا يَكْتُبُونَ كَلِماتِ اللهِ الَّتِي يُمْلِيها عَلَيْهِمْ دُونَ تَكْرار.

• وافْتَرِضوا أَنَّ اللهَ أَحْياهُمْ أَزْماناً طَوِيلَةً جِدّاً لِإِنْجازِ كِتابَةِ كَلِماتِ اللهِ الَّتِي لا تَكْرِيرَ فيها.

فَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَقْلامَ تَذُوبُ وتَفْنَىٰ، وأَنَّ الْبُحُورَ المفْتَرَضَ أَنْ تَكُونَ مِداداً تُدَوَّنُ بِهِ الْكِتابَةُ تَنْفَدُ، لَكِنَّ كَلِماتِ اللهِ لا تَنْفَدُ.

ما أَرْوَعَ هٰذِهِ الصُّورَةَ الدّالَّةَ عَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِ اللهِ وإِحاطَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَشُمُولِ كَلِماتِ اللهِ الدّالّاتِ عَلَىٰ كُلِّ مَعْلُومَةٍ مِنْ مَعْلُوماتِهِ مَهْما صغُرَتْ ودَقَّتْ، بِحُدُودٍ وصِفاتٍ تُمَيِّزُ كُلَّ كَلِمَةٍ عَنْ سائِرِ كَلِماتِهِ تَمْيِيزاً يَمْنَعُ التَّداخُلَ والاشْتِباه.

• ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾:

هٰذا خِتَامٌ يَرْبِطُ ظَوَاهِرَ كَلِماتِ اللهِ بِعَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإيمانية، فاللهُ عَزَّ وَجَلَّ ذُو الْقُدْرَةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ قُوَّةٍ، وَالمذَلِّلَةِ لِكُلِّ عَسِيرٍ، فَهوَ يَخْتَارُ مِنَ الاحْتِمَالَاتِ الَّتِي لَا تَتَنَاهَىٰ مِنَ الْكَلِمَاتِ، لِكُلِّ مَعْلُومَةٍ مَهْمَا دَقَّتْ وَصَغُرَت كَلِمَةً خَاصَّةً بِهَا لِتَدُلَّ عَلَيْها وحْدَهَا ضِمْنَ حُدُودِها وصِفَاتها، وَهُو - جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - حَكِيمٌ فِي اخْتِيَارَاتِهِ كُلِّها، ومِنْهَا حِكْمَتُهُ فِي اختيار الكَلِمَاتِ الدَّالَّاتِ علَىٰ الْوَحَدَاتِ الصُّغْرَىٰ لِمَعْلُومَاته، فَلَا تَخْتَلِطُ مَعْلُومَةٌ بأُخرىٰ، ولَا تَشْتَبِهُ مَعْلُومَةٌ بأُخْرَىٰ عِنْدَهُ، لَا في العلم ولَا في التعبير بالكلام عنه.

﴿مِن شَجَرَةٍ﴾: بيانٌ لاسم الموصول «مَا» في: ﴿أَنَّمَا﴾.

هٰذا الْبَيَانُ الّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ هٰذه الآيَة، قَدْ عَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ فَكُلّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ في حِوارِهِ للنَّاسِ ومُنَاظَرَتِهِ لَهُمْ، أَنْ يَقُولَ لَهُمْ نَظِيرَه، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في سُورَةِ (الكَهْفِ/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نُزُول):

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾:

مِنْ هٰذِهِ الآيَةِ نَفْهَمُ أَنَّ التعبيرَ بِسَبْعَةِ أبْحُرٍ في آية سورة (لُقْمَان) لَيْسَ الْغَرَضُ مِنْهُ تَحْدِيدَ السَّبْعَةِ وإِنَّمَا الغَرَضُ مِنْهُ التَّكْثِيرَ، مَعَ مَا فِي كَلِمَة «سَبْعَة» مِن انْسِجَامٍ مع السَّمَاوات السّبع، وَغَيْرِها مِنِ اختيار عَدَدِ السبْعَةِ لِكَثِيرٍ من الأشْيَاءِ.

النَّفَادُ: فَنَاءُ الشَّيْءِ وانْتِهَاؤُه عَنْ آخِرِه، يُقالُ لغَةً: «نَفِدَ الشَّيْءُ، يَنْفَدُ، نَفَداً، وَنَفَاداً» أي: فَنِيَ وَذَهَبَ وانْتَهَىٰ عَنْ آخِره.

جاء في أسْبَاب نزول آيَةِ سُورة (لُقْمَان) روايات، مِنْها ما يلي:

(١) أنّ الْيَهودَ قَالُوا لِلرَّسُولِ أَوْ أَغْرَوْا بَعْضَ الْقُرَشِيِّينَ أَنْ يَقُولُوا لَه، لَمَّا سَمِعُوا أَنَّهُ ﷺ قَالَ بِشَأْنِهم مَا جَاءَ بيانُهُ في سُورَةِ (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾:

قالُوا: كَيْفَ وَأَنْتَ تَتْلُو فِيمَا جَاءَكَ أَنَّا قَدْ أُوتِينَا التَّوْرَاةَ، وفيها تبيان كُلِّ شيءٍ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هِيَ فِي عِلْمِ اللهِ قَلِيلٌ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ الآية (٢٧) من سُورَة (لُقمان).

(٢) أنَّ قُرَيشاً قَالَت: «مَا أَكْثَرَ كَلَامَ مُحَمّد!» فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الآية.

إلى غير ذَلِكَ مِنْ رِوايَاتٍ، واللهُ أَعْلَمُ، علَىٰ أَنَّ الْعِبْرَةِ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَب.

وبهٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الثامن مِنْ دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على مَعُونَتِه، ومَدَدِه، وتَوفيقه، وفتحه.



(١٤)
التدبر التّحليلي للدّرسِ التاسع من دُروس سورة (لقمان) وهو الآية (٢٨)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

تمْهِيد:

بما أَنَّ المشركين المُعَالَجِين في السُّورَةِ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، ولَا يُقَدِّمُون دَليلاً غَيْرَ التَّعَجُّب، وَيظْهَرُ أَنَّ قَائِلِينَ مِنْهُمْ قَالُوا: كَيْفَ يَبْعَثُ اللهُ الْأُمَمَ كُلَّها يَوْمَ الْبَعْثِ في وَقْتٍ وَاحِدٍ، وقَدْ خُلِقُوا في أَطْوارٍ عَبْرَ أَحْقَابٍ وَقُرُونٍ كثيرَةٍ جدّاً؟!

فأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قُدْرَتَهُ الْعَظِيمَةَ قَادِرَةٌ عَلَىٰ خَلْقِ النَّاسِ جَمِيعاً بِأَمْرِ التَّكْوينِ، فِي وَقْتٍ واحِدٍ، كَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ خَلْقِ نَفْسٍ واحِدَةٍ في الوقْتِ نَفْسِهِ.

التدبُّر التحليلي:

يخاطِبُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ النّاسَ جَمِيعاً، والمقْصُودُونَ الْأَوَّلُونَ مُنْكِرُو الْبَعْثِ، اسْتِغْراباً مِنْ أَنْ يَبْعَثَ اللهُ النَّاسَ جَمِيعاً إِلَىٰ الحياةِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ يَوْمَ الْقِيَامَة.

فأَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَـٰذِهِ الْآيَةِ لِدَفْعِ تَعَجُّبِ الْمُتَعَجِّبِينَ مِنْ هـٰذا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، أَنَّ خَلْقَ النَّاسِ جَمِيعاً في وَقْتٍ وَاحِدٍ، وخَلْقَ نَفْسٍ واحِدَةٍ مِنْهُمُ ابْتِدَاءً، وأَنَّ بَعْثَ النَّاسِ جَمِيعاً في وَقْتٍ واحِدٍ، وبَعْثَ نَفْسٍ واحِدَةٍ مِنْهُم إلى الْحَيَاة بَعْدَ مَوْتِهِمْ، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُدْرَتِهِ كَخَلْقِ نَفْسٍ واحِدَة، وكَبَعْثِ نَفْسٍ وَاحِدَة.

وفي الْعِبَارَةِ مَطْوِيَّاتٌ مِنَ السَّهْلِ على المتَدَبِّرِ إِبْرَازُهَا.

أي: مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَىٰ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ أَيُّهَا النَّاسُ جَمِيعاً، إِلَّا مِثْلُ خَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَة، وبَعْثِ نَفْسٍ وَاحِدَة.

فَخَلْقُ النَّاسِ جَمِيعاً كخَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُدْرَتِهِ، وَبَعْثُ النَّاسِ جَمِيعاً إِلَىٰ الْحَيَاةِ كَبَعْثِ نَفْسٍ واحِدَةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُدْرَتِهِ.

• ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾: أي: فَلَا يَتَصَوَّرْ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مَجْزِيٍّ عَلَىٰ ما اكْتَسَبَ بإرَادَتِهِ الْحُرَّةِ في الحياة الدُّنْيَا، حِينَما يَرْجِعُ إِلَىٰ حِسَابِ رَبِّهِ، وفَصْلِ قَضَائِهِ، وتَنْفِيذِ جزائِه، يَوْمَ القيامَةِ، وأَنَّ مَا اكْتَسَبَهُ بإرادتِهِ الْحُرَّةِ غَيْرُ مَعْلُوم لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاعْلَمُوا جَمِيعاً أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ كُلَّ أَقْوَالِكُمْ، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَقْوَالِكُمْ خَافِيَةٌ ما. واعْلَمُوا جَمِيعاً أَنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِكُلِّ أَعْمَالِكُمُ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنهَا خافِيَةٌ مَا.

وقَدْ سَبَقَ في نُجُومِ التَّنْزِيلِ بَيَانُ أَنَّ الملائِكَةَ الْمُلازمِينَ الرُّقَبَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ، يُسَجِّلُونَ فِي أَدَوَاتِ التَّسْجِيلِ الَّتِي خَلَقَهَا لَهُمْ كُلَّ مُكْتَسَبَاتِهِم الإرادِيَّةِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، وأَنَّ النَّاسَ يَطَّلِعُونَ عَلَيْهَا في صُحُفِ أعْمَالِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ.

وسَبَقَ بَيَانُ أَنَّ جَوَارِحَهُمْ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا قَدَّمُوا إذا جَحَدُوا وأَنْكَرُوا ما فِي صُحُفِهِمْ، ومَا يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِهِ الشُّهُودُ مِنَ الملائكة وغَيْرِهم.

وَيُدْرِكُ المتَدَبِّرُ بأنَاةٍ أَنَّ بَيَانَ كَوْنِ خَلْقِ الناسِ جَمِيعاً كَخَلْقِ نَفْسٍ واحِدَةٍ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ، وأَنَّ بَيَانَ كَوْنِ بَعْثِ النَّاسِ أَنَّ عَمَلِيَّاتِ الْإيجَادِ والْإعْدَام بِالنِّسْبَةِ إلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجلَّ، يَكْفِي فِيها أَنْ يَقُولَ لِلشَّيْءِ: «كُنْ» فَالمقْضِيُّ بِقَضَاءِ اللهِ يَكُونُ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ، فيكُون.

وسُلْطَانُ اللهِ الْمُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ ذَرَّةٍ فِي هٰذا الكَوْنِ العظيم الممتَدِّ يَدُلُّ عَلَىٰ هٰذه الحقيقة.

وبهٰذا انتهىٰ تَدَبُّر هٰذا الدَّرْسِ من دُروس سورة (لقمان). والحمد لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه وفتحه.



(١٥)
التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيات من (٢٩ ـ ٣٢)

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ

بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

القراءات:

(٣٠) • قرأ نَافِعٌ، وابْن كثير، وابْنُ عَامرٍ، وشُعْبَة، وأبو جعفر: [**وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ**] بتاء المخاطبين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ**] بياء الْغَائِبين.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في الأداءِ البياني، إحداهُمَا فِيها مُوَاجَهَةٌ للمشرِكينَ بالخطاب، والأُخْرىٰ فيها الحديثُ عَنْهُمْ لِغَيْرِهِم.

تمهيد:

في آيات هـٰذا الدَّرْسِ عَرْضٌ لِبَعْضِ آيات اللهِ في كَوْنِهِ، الدَّالَّاتِ عَلَىٰ عَدَدٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وأَسْمَائِهِ الحُسْنىٰ، وعَلَىٰ إتْقَانِهِ لِكُلِّ مَا خَلَقَ فِي كَوْنِهِ، وعَلَىٰ نِعَمِهِ الكثيرَةِ عَلَىٰ عِبَادِه.

وفيها بَيَانُ حَالِ النَّاسِ تُجاهُ مَا يَتَفَضَّلُ اللهُ بِهِ عَلَيْهِم حِينَما يُنَجِّيهِمْ مِنَ الشَّدَائِدِ العظْمَىٰ الَّتِي لَا يُنَجِّيهِمْ مِنْها سِوَاه.

التَّدبُّر التحليلي:

فِي آيَات هـٰذا الدَّرسِ التَّنْبِيهُ علَىٰ أَرْبَعِ آيَاتٍ كُبْرَىٰ مِنْ آيَات اللهِ فِي كَوْنِهِ، مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَىٰ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ عَقَائِدَ إيمانِيَّة.

الآيَةُ الكَوْنِيَّةُ الأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ .. ﴿٢٩﴾﴾:

سَبَقَ في سُورَة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) بَيَانُ هـٰذِهِ الآيَةِ مِنْ آيَاتِ اللهِ الكَوْنِيَّة بقول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ .. ﴿١٣﴾﴾.

وَكانَ هـٰذا فيها بَياناً رَبَّانِيّاً عَنْ هـٰذِه الظَّاهِرَةِ مِنْ ظَوَاهِرِ آياتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ.

وَجَاءَ هُنَا فِي سُورَةِ (لقمان/ ٥٧ نزول) خِطَابٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوَجَّهٌ لِكُلِّ مُتَلَقٍّ بِأُسْلُوبِ الخِطَابِ الإفْرَادِيِّ، وبصِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ الَّذِي فِيهِ مَعْنَىٰ التَّلْوِيم لِمَنْ لَمْ يَسْتَفِدْ مِنَ الْبَيَانِ الَّذِي جَاءَ فِي سُورَةِ (فاطر/ ٤٣ نزول) الآية: ١٣ فَقَالَ تَعالَىٰ لَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ..﴾.

وَلَدَى تَدَبُّر النَّصّ الذي جاء في سُورَة (فَاطر/ ٤٣ نزول) أَوْرَدْتُ النُّصُوصَ القرآنِيَّة الْخَمْسَةَ الَّتِي جَاءَت فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ بِشَأْنِ هَـٰذِهِ الظَّاهِرَة، مَعَ بَيَانِ مَا ظَهَرَ لِي مِنْ حِكْمَةِ إيرادِها فِي خَمْسَةِ سُورٍ، اثْنَانِ مِنْهَا مَكِّيَّانِ، وثَلاثَة مِنْها مَدَنِيَّة.

وَأَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّر النَّصِّ الَّذِي جاءَ في سُورَةِ (لقمان) مُسْتَفِيداً مِمَّا سَبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّر النَّصِّ الذي جاء في سورة (فاطِر/ ٤٣ نزول).

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدْخِلُ، يُقَالُ لغة: «أَوْلَجَ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ» أي: أَدْخَلَهُ فِيه. وَيقال: «وَلَجَ، يَلِجُ، وُلُوجاً، ولِجَةً شَيْءٌ فِي شَيْءٍ» أي: دَخَلَ فيه.

وإيلاجُ شَيْءٍ فِي شَيْءٍ آخَرَ يَكُونُ بِإِدْخَالِهِ فِيهِ شيئاً فَشَيْئاً بالتَّتَابعُ، لَا علَىٰ طَرِيقَةِ دَفْعِهِ بمَرَّةٍ واحِدَةٍ، أو إلْقَائِه وَقَذْفِهِ فِيه.

إنّ الظاهِرَةَ الَّتِي عَبَّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا بإِيْلاجِ اللَّيْلِ في النَّهَارِ، وإيلَاجِ النَّهَارِ في اللّيل، تَدُلُّنَا علىٰ آيَةٍ بَاهِرَةٍ مِنْ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ، ونَحْنُ

نُشَاهِدُ مِنْهَا عَلَىٰ سَطْحِ الْأَرْضِ تَتَابُعَ اللَّيْلِ والنَّهارِ دَائِرَيْن، فَكُلَّمَا امْتَدَّ أَحَدُهُمَا مِنْ جِهَةٍ تَقَلَّصَ الآخَرِ مِن الجِهَةِ نَفْسِهَا، وَكُلَّمَا اخْتَفَى أَحَدُهُمَا مِنْ جِهَةٍ ظَهَرَ الْآخَرُ مِنَ الْجِهَةِ نَفْسِها، وهكَذا دَوَالَيْكَ مَعَ تَوَالِي الْأَيَّامِ.

واكْتَشَفَ عُلَمَاءُ الكَوْنِيَّاتِ بالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، أَنَّ حَرَكَةَ دَوَرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا باتِّجَاهِ الشَّمْسِ، ضِمْنَ نِظَام مُتْقَنٍ عَجِيب، يَجْعَلُ اللَّيْلَ يَخْتَفِي شَيْئاً فَشَيئاً عَنْ سَطْحِ الأرْض، كُلَّمَا امْتَدَّتْ بالتَّدَرُّجِ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ صَباحاً، عَلَىٰ مَسَافَاتٍ مِنَ الْأَرْضِ بِتَتَابُعِ الشُّرُوقِ.

هٰذِهِ الظَّاهِرَةُ تُشْبِهُ إِيلاجَ شَيْءٍ فِي شَيْءٍ آخَرَ، إِذْ يَخْتَفِي مِنَ الْوَالجِ مَا يَدْخُلُ مِنْهُ فِي الْمَوْلُوجِ فِيهِ، فكَأَنَّ اللَّيْلَ مَعَ تَتَابُعِ الشُّرُوقِ عَلَىٰ مَسَافَةٍ فَمَسَافَةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَلِجُ في النَّهارِ الذي يُخْفِيهِ.

وَهٰذِهِ الحركَةُ نَفْسُها إِذَا شَاهَدَهَا النَّاظِرُ، وهُوَ مُرْتَفِعٌ في الطّائِرَةِ، ويَنْظُرُ مِنَ الْجُوِّ، عِنْدَ تَتَابُعِ غُرُوبِ الشَّمْسِ، عَلَىٰ مَسَافَةٍ فَمَسَافَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فإِنَّهُ يرَىٰ اخْتِفَاءَ النَّهَارِ شَيْئاً فَشَيْئاً، كَمَا يَخْتَفِي مِنَ الْوَالِجِ بِمِقْدَارِ مَا يَدْخُلُ مِنْهُ فِي الْمَوْلُوجِ فِيه، فَكَأَنَّ النَّهارَ مَعَ تَتَابُعِ الْغُرُوبِ يَلِجُ في اللَّيْلِ الَّذِي يُخْفِيهِ.

فجاء في النّصِّ تَشْبِيهُ تَتَابُعِ ذَهَابِ اللَّيْلِ، عِنْدَ تَتَابُعِ أَحْوَالِ الشُّرُوق، وَتَشْبِيهُ ذَهَابِ النَّهَارِ عِنْدَ تَتَابُعِ أَحْوَالِ الْغُرُوبِ بِوُلُوج شَيْءٍ في شَيْءٍ آخَرَ.

وجاء في النُّصُوصِ إِيثَارُ الْبَدْءِ باخْتِفَاءِ اللَّيْلِ عِنْدَ الشُّرُوق، لِأَنَّ اللَّيْلَ ظَلَامٌ ولِأَنَّ النَّهَارَ ضِيَاءٌ، وَبَدْءُ الكَلَامِ بِحُدُوثِ الضِّيَاءِ أَوْلَىٰ مِنْ بَدْءِ الْكَلَامِ بِحُدُوثِ الظّلام.

ولَكِنْ طُوِيَ في النُّصُوصِ التَّصْرِيحُ بِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ التَّشْبِيهِ، واسْتُعِيرَ مِنْهُ لفظ «يُولِجُ» للدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، ففي التَّعْبِير اسْتِعَارَة واضِحَةٌ بِحَسَبِ مُصْطَلَح الْبَلَاغِيِّين.

وَلَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ المتَدَبِّرِ الْحَصِيفِ مَا فِي هٰذِهِ الاسْتِعَارَةِ الْقَائِمَةِ على التَّشْبِيه، مِنْ إبْدَاعٍ رَائِعٍ فِي عَرْضِ الصُّورَةِ، مَعَ مَا فِيها مِنْ دِقَّةٍ بَالِغَةِ الْغَايَةِ فِي تَوْصِيلِ المعْنَىٰ المرادِ بيانُه.

إنَّ التَّشْبِيهَ الَّذِي اعْتَمَدَتْ عَلَيْهِ هٰذِهِ الاسْتِعَارَةُ، يَدُلُّ بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ عَلَىٰ حَرَكَةِ شَيْئَيْنِ، مُتَلاصِقَي الرَّأْسَيْنِ عَلَىٰ شِبْهِ دَائِرة، أَحَدُهُمَا يَخْتَفِي والْآخَرُ يَظْهَرُ، واخْتِفَاءُ اللَّيْلِ يَكُونُ عِنْدَ الشُّرُوقِ مِنْ جِهَةِ مطلع الشَّمْس، واخْتِفَاءُ النهار يكُونُ عِنْدَ الْغُرُوبِ مِنْ جِهَةِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ، وهٰذا الاخْتِفَاءُ مِنْ كِلَيْهِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْحَرَكَةَ حَرَكَةٌ دَائِرِيَّةٌ، إذْ يَدْخُلُ كُلُّ طَرَفٍ مِنْ طَرَفَيْ أَحَدِهِمَا، فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ مِنَ الآخِرِ مِنْهُما، وهَكَذَا دَوَالَيْكَ مَعَ تَتَابُعِ الأَيَّام.

وَعَرْضُ هٰذِهِ الآيَةِ بِعِنايَةٍ في خَمْسةِ نُصُوصٍ قُرْآنِيَّة، مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، يَحُثُّ المشْتَغِلِينَ بالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ فِي الكَوْنِيَّاتِ، عَلَىٰ الْبَحْثِ الْجَادِّ عَنْ سَبَبِهَا التَّكْوِيني، وَحِينَ يَتَوَصَّلُونَ إلى مَعْرِفَةِ السَّبَبِ، ويَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَرْجِعُ إلَىٰ التَّنْظِيم الْبَدِيعِ، والإتْقَانِ الْمُدْهِشِ الْعَجِيب، فِي وَضْعِ كُلٍّ مِنَ الشَّمْسِ والْأَرْضِ في مَجْمُوعَةِ نُجُوم مَجَرَّتِنَا وَكَوَاكِبِهَا، وَفِي حَرَكَةِ دَوَرَانِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا في اتّجاهِ الشَّمْسِ، مَعَ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْمَسَافَةِ وَمِقْدَارِ الحركة، طَوَالَ مِئَاتِ الْمَلَايينِ مِنَ الْقُرُونِ، فإنَّ ذَوِي الْأَلْبَابِ المنصِفِينَ مِنْهُمْ، لَا بُدَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بالْخَالِقِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ إتْقَانُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُه، ولا بُدَّ أَنْ يُذْعِنُوا لَهُ، ويَخْضَعُوا، وأَنْ يَتَوَجَّهُوا لَهُ وَحْدَهُ بالْعِبَادَة، وأَنَّ لَا يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً.

ومَعَ مَا فِي هٰذه الآيَةِ الكَوْنِيَّة مِنْ دَلَالَاتٍ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ، وشُمُولِ عِلْمِهِ، وعَظِيم إتْقَانِهِ، وجَلِيلِ حِكْمَتِه، فَفِيها أيضاً دَلَالَةٌ عَلَىٰ عِنَايَةِ اللهِ بِعِبَادِهِ فِي الْأَرْضِ، وَعَلَىٰ وَاسِعِ رَحْمَتِهِ، وفُيُوضِ إنْعَامِهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ الَّذِينَ لَهُمْ مَنَافِعُ جَلِيلَة وَكَثِيرَة مِنْ تَتَابُعِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ علَىٰ سَطْحِ الْأَرْض.

الآية الكَوْنِيَّة الثَّانية: دَلَّ عَلَيْهَا في هـٰذا الدَّرْسِ قَوْلُ الله تعالى: ﴿.. وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٢٩﴾﴾:

أي: أَوَ لَمْ تَرَ أَيُّهَا المتلَقِّي أَنَّ اللهَ سَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إلى أَجَلٍ مَعْلُومٍ مُعَيَّنٍ مُسَمًّى باسْمِهِ الْخَاصِّ به.

وقد سبَقَ في الآية (١٣) من سُورَة (فاطر/٥٣ نزول) بَيَانُ هـٰذِهِ الآيَةِ مِنْ آيات اللهِ الكونِيَّةِ. إلَّا أَنَّ مَا جاء هُنَا في سورة (لقمان/ ٥٧ نزول) قَدْ جَاءَ بأُسْلُوبِ خِطَابٍ إفراديّ، وبِصِيغَةِ اسْتِفْهَامٍ فِيهِ مَعْنَىٰ التَّلْوِيم لِمَنْ لَمْ يَسْتَفِدْ مِنَ البيانِ الَّذِي جاء في سورة (فاطر) وجاء في سورة (لقمان) استعمال: ﴿إِلَىٰٓ﴾ في عبارة: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بَيْنَمَا جاء في سور «فاطر، ويٓس، والزُّمَر، والرَّعْد» استعمال حَرْف اللام.

وإذْ سَبَقَ في تدبُّر الآية (١٣) من سُورَةِ (فاطر) شَرحٌ تَحْلِيلِيٌّ مُطَوَّلٌ لِهـٰذِهِ الآيَةِ الكَونِيّة، فإنَّنِي أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ بَيَانٍ فِيهِ إيجازٌ ما.

التَّسْخِير: يَأْتِي بِمَعْنَىٰ تَطْوِيعِ الْمَخْلُوقِ بالْجَبْرِ الرَّبَّانِيِّ، لِلْعَمَلِ والتَّحَرُّكِ عَلَىٰ وفْقِ إرَادَتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

ويأتي بمَعْنَىٰ تَذْلِيلِ الْمَخْلُوقِ لِعَمَلٍ ما أو أَمْرٍ ما، وجَعْلِهِ مُطَاوِعاً لِمَا يُرادُ بِهِ أَوْ يُرَادُ مِنْهُ ضِمْنَ قَانُونِ تَسْخِيرِهِ.

وقَدْ دَلَّ التَّنْبِيهُ علَىٰ هـٰذِهِ الآيَةِ علَىٰ أَنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كَوْنِهِ، وَنِعَمِهِ الْجَلِيلةِ الْوَفِيرَةِ على الناسِ في الأَرْض، تَسْخِيرَهُ الشَّمْسَ والقَمَرَ لِتَحْقِيقِ كثيرٍ من مَنَافِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، وَضَرُورِيَّاتِ حَيَاتِهِمْ.

فبِالشّمْسِ يَكُونُ ضِيَاءُ النَّهار، ومِنْهَا يأْتِي الدّفْءُ والحرارَةُ الضَّرُورِيَّةُ لِكُلِّ ذِي حَيَاةٍ عَلَىٰ الْأَرْض، وبِدُون الضَّوْءِ وَامْتِدَادِ أَشِعَّتِهِ، وبدُونِ الحرارَةِ لَا تَنْبُتُ النَّبَاتَاتُ الَّتِي هِي المادَّةُ الأُولَىٰ لِغذَاءِ الْأَحْيَاءِ، وإِمْدَادِهَا بِقُوتِ بَقَائِهَا إِلَىٰ آجَالِهَا المقَدَّرَةِ لها.

وَبِتَسْخِيرِ الْقَمَرِ تَحْصُلُ مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ لِلنَّاسِ في الْأَرْضِ، مِنْهَا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَاب، ومِنْها مَا كَشَفَهُ مُتَتَبِّعُو الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ فِي الْكَوْنِيَّاتِ بِشَأْنِ عَلَاقَةِ الْقَمَرِ بالشَّمْسِ مِنْ جِهَةٍ وَبالْأَرْضِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ.

وَظَاهِرٌ لِكُلِّ نَاظِرٍ مِنَ النَّاسِ مَا لِلْقَمَرِ مِنْ نُورٍ في اللَّيْلِ نَافِعٍ وَمُمْتِعٍ.

وقَدْ أَثْبَتَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ جَرَيَانَ كُلٍّ مِنَ الشَّمْسِ والْقَمَرِ في السَّمَاءِ، وأَنَّ كُلّاً مِنْهُمَا يَسْبَحُ فِي فَلَكٍ خاصٍّ به.

وخَصَّ اللهُ الشَّمْسَ بالتَّعْبِيرِ عَنْ جَرَيَانِها بِعِبَارَةٍ صَرِيحَةٍ، فِي قولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سُورَة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول):

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾:

وقَدْ كَانَ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ الميلادي حَتَّىٰ أواسِطِهِ، يُدَرَّسُ فِي مَادَّةِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّة، المأخُوذَةِ مِنْ مُقَرَّرَاتِ الْعُلُوم الْغَرْبِيَّةِ، أَنَّ الشَّمْسَ ثَابِتَةٌ لَا تَجْرِي، وَأَنَّ الأَرْضَ والْكَوَاكِبَ مِنْ حَوْلِ الشَّمْسِ التَّابِعَةِ لِلْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ هِي الَّتِي تَجْرِي حَوْلَهَا.

وَانْطَلَقَتِ الْأَسْئِلَةُ حِينَئِذٍ تَدُورُ مِنْ قِبَلِ دَارِسِي هٰذِهِ الْعُلُوم الطَّبِيعِيَّةِ الإنْسانِيَّة عَنِ الْكَوْنِيَّاتِ، بِشَأْنِ الاخْتِلَافِ بَيْنَ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ عَنِ الشَّمْسِ وجَرَيَانِها، وبَيْنَ مَا هُوَ مُقَرَّرٌ في الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ مِنْ أَنَّها ثَابِتَةٌ.

وأخَذَ المشَكِّكُونَ حِينَئِذٍ يُوَجِّهُونَ المغامِزَ والمطاعِنَ لِلْبَيَان القرآني.

وقَامَتْ جَدَلِيَّاتٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بالْقُرْآنِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ، وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَقَالَاتِ الْعُلُومِ الطّبِيعِيَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ دُونَ تَحَفُّظ.

فالْمُؤْمِنُونَ يَبْنُونَ أَقْوالَهُمْ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وأَنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ كَوْنُهُ وَخَلْقُهُ، فَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ به، ولَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْبِرَنَا اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ إِلَّا بالْحَقِّ والصِّدْق، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُنْزِلَ فِي كِتَابِهِ إِلَّا حَقّاً وَصِدْقاً.

أَمَّا مُقَرَّرَاتُ عُلَمَاءِ الْعُلُومِ الْكَوْنِيَّةِ، الْمُسْتَنِدَة إلى مُلاحَظَاتِهِمْ، وَتَأَمُّلاَتِهِمْ وَتَجْرِبَاتِهِمْ، فَكَثِيرٌ مِنْهَا قَدْ كَانَ مَبْنِيّاً عَلَىٰ الْحَدْسِ والظَّنّ وَالرُّؤَىٰ النَّاقِصَةِ، مَعَ إعْطَائِهَا قَرَارَاتٍ عَامَّاتٍ، تتناوَلُ مَا لَمْ تَصِلْ بَعْدُ إِلَيْهَا عُلُومُهُمُ المحَقَّقَةُ، وكَانَ هَـٰذا الكَثِيرُ مِنْ مُقَرَّرَاتِهِمْ غَيْرَ مَبْنِيٍّ علىٰ الْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ والْيَقِين.

وَكَانَ أَهْلُ الْعَقْلِ والْعِلْم والإنْصَافِ مِنْ علَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، ذَوِي التَّمَكُّنِ فِي مُخْتَلِفِ الْعُلُوم الإسْلامِيَّةِ، يُقَرِّرُونَ أَنَّهُ إذَا تَنَاقَضَتْ مُقَرَّرَاتُ الْعُلُومِ الكَوْنِيَّةِ الإنْسَانِيَّة، الَّتِي لَمْ تَبْلُغْ مَبْلَغَ اليقينِ الّذِي لا يَقْبَلُ التَّعْدِيلَ والتَّبْدِيلَ والنَّقْضَ، مَعَ مَفاهِيم النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ الصَّحِيحَة الثَّابِتَةِ، دُونَ إمْكَانِ التَّأْوِيلِ الَّذِي تَسْمَحُ بِهِ قَوَاعِدُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَواعِدُ اسْتِنْبَاطِ المعاني والأَحْكَامِ لَدَىٰ عُلَمَاءِ المسْلِمِينَ الْمَوْثُوقِينَ، فَالْحَقُّ مَا جَاءَ فِي القرآنِ، أَوْ فِي السُّنَّةِ الْقَطْعِيَّةِ الثُّبُوتِ، والْقَطْعِيَّةِ الدَّلالَة، لَا مَا قَرَّرتْهُ النَّظَرَاتُ الظَّنِّيَّةُ الإنسانِيَّة النَّاقِصةُ في الْعُلُومِ الكَوْنِيَّة.

ثُمَّ تَقَدَّمَتِ الْبُحُوثُ الْعِلْمِيَّةُ الْفَلَكِيَّةُ، وأَثْبَتَتْ دِراساتُ عُلَمَاءِ الْفُلْكِ، أَنَّ الشَّمْسَ بِالنِّسْبَةِ إلَىٰ مَجْمُوعَتِهَا الدَّائِرَةِ حَوْلَهَا، والَّتِي هِيَ أُسْرَتُها، ذاتُ وَضْعٍ ثَابِتٍ، لَكِنَّهَا مَعَ كُلِّ أُسْرَتِهَا تَجْرِي بِحَرَكَةٍ خَاصَّةٍ فِي فَلَكٍ أَكْبَرَ ضِمْنَ الْمَجَرَّةِ، فَهِيَ بالنِّسْبَةِ إلَىٰ وَضْعِهَا مَعَ أُسْرَتِهَا فِي الْمَجَرَّةِ جَارِيَةٌ غَيْرُ ثَابِتَةٍ.

وَظَهَرَ بهـٰذا صِدْقُ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ، ومُطَابَقَتُهُ لِلْوَاقِعِ، وظَهَرَ نَقْصُ الدِّراسَاتِ الإنْسَانِيَّةِ السَّابِقَةِ، بِشَأْنِ هـٰذا الموضوع عَنْ مُطَابَقَتِهِ لِلْوَاقِعِ.

أَمّا اسْتِعْمَالُ: ﴿إِلَىٰ﴾ فِي عِبَارَةِ: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ في سُورَةِ (لُقْمَانَ/ ٥٧ نزول) بخِلَافِ اسْتِعْمَالِ حَرْفِ اللَّام في النُّصُوصِ الْأُخْرَىٰ، فَقَدْ قَالَ بِشَأْنِهِ كثيرٌ مِنَ المُفَسِّرِينَ: إنَّ اللَّامَ بِمَعْنَىٰ «إِلَىٰ» الدَّالَّةِ عَلَىٰ الْغَايَةِ، فَهُمَا يَصْلُحَانِ فِي مَوْضِعٍ واحِدٍ والْمُخَالَفَةُ تَفَنُّنٌ فِي النظم.

لَكِنَّ الزَّمَخْشَرِيَّ رَفَضَ هـٰذا بِشِدَّةٍ، واعْتَبَرَهُ مِنْ ضِيقِ مَوْقِعِ المتَدَبِّر في فَهْمِ الْفُرُوقِ اللُّغَوِيَّةِ، وفَهْمِ النُّصُوصِ.

وَقَدْ فَهِمَ الزَّمَخْشَرِيُّ أَنَّ اللَّامَ في النُّصُوصِ الَّتِي جَاءَ فيها: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هِيَ بِمَعْنَىٰ «التَّعْلِيلِ» أي: لتحقيق الوظيفةِ المسَخَّرَيْنِ لَهَا طَوَالَ مُدَّةِ الْأَجَلِ.

أَمَّا حَرْف «إِلَىٰ» فَهوَ بِمَعْنَىٰ بُلُوغِ الْغَايَةِ.

أقُول: مِنْ مَعَانِي «الْأَجَلِ» الْمُدَّةُ الْمُحَدَّدَةُ للشَّيْءِ، والمحصُورَةُ بَيْنَ أَوَّلٍ وَآخِرٍ، وَهـٰذَا المعْنَىٰ يُنَاسِبُهُ وَيُلَائِمُهُ اسْتِعْمَالُ حَرْف «اللّام» للإشَارَةِ إِلَىٰ قِيَام كُلٍّ مِنَ الشَّمْسِ والْقَمَرِ بِوَظَائِفِهِمَا الَّتِي سَخَّرَهُمَا اللهُ لَها طَوَالَ هَـٰذَا الْأَجَلِ مِنْ بِدَايَتِهِ وَحَتَّىٰ نِهَايَتِهِ.

ومِنْ مَعَانِي «الْأَجل» غايَةُ الزَّمَنِ الْمُحَدَّدِ لِشَيْءٍ مَا، وهـٰذا المَعْنَىٰ يُلَائِمُهُ وَيُنَاسِبُهُ اسْتِعْمَالُ حَرْفِ «إِلَىٰ» أي: كُلٌّ مِنَ الشَّمْسِ والْقَمَرِ يَجْرِي إِلَىٰ بُلُوغِ غايَةِ الزَّمَنِ المحَدَّدِ، إِذْ يَتَوَقَّفُ عِنْدَهُ جريَانهما، أمّا مَاذَا يَحْدُثُ لَهُمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ في عِلْم اللهِ، وقد جَاءَ فِي الْقُرآنِ بَيَانُ أَنَّ الشَّمْسَ والْقَمَرَ سَوْفَ يُجْمَعَانِ، وهـٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْقَمَرَ يَقْتَرِبُ مِنَ الشَّمْسِ، فتَجْذِبُهُ الشَّمْسُ إِلَيْهَا بِجاذِبِيَّتِها الْقَوِيَّةِ فَتَبْتَلِعُه.

﴿مُّسَمًّى﴾: أي: مُعَيَّنٌ باسْمِهِ المحَدَّدِ لَهُ فِي عِلْمِ اللهِ، وفي الكِتَابِ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ فِيهِ قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ.

وَهـٰذا يدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ زَمَنٍ لَهُ عِنْدَ اللهِ اسْمٌ مِنَ أَسْمَاءِ الْعَدَدِ، يُمَيِّزُهُ عَنْ سَائِرِ الْأَزْمَان.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا فِي هـٰذَا الدَّرْسِ قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: أَوَلَمْ تَرَ أَيُّهَا الْمُتَلَقِّي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُ النَّاس، فالاسْتِفْهَام الَّذِي جَاءَ في أَوَّلِ الآيَةِ، والَّذِي فِيهِ مَعْنَىٰ تَلْوِيم مَنْ لَمْ يَسْتَفِدْ مِمَّا جَاءَ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ السَّابِقَةِ مِنْ كَشْفٍ لِمَا فِي نُفُوسِ النَّاسِ، وَلِمَا يُدَبِّرُ أَعْدَاءُ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ مِن مَكَايِدَ ضِدَّهُ وَضِدَّ دَعْوَتِهِ، وَلِمَا يَقُولُونَ بَيْنَهُمْ سِرّاً، ومِنْهَا ما يلي:

(١) مَا جَاءَ فِي سُورَةِ (الْقَمَر/ ٣٧ نزول) وهو قول اللهِ تعالى فيها:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾: أي: نَحْنُ إذا اجْتَمَعْنَا وَدَبَّرْنَا أَمْرَ مَقَاتَلَةِ الرَّسُول والَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فإنَّنَا سَنَكُونُ مُنْتَصِرين، وبهٰذا نَتَخَلَّصَ مِنْ هَـٰذِهِ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَة، وكَانَ هـٰذا سِرّاً بَيْنَ كُبَرائِهِمْ، فَفَضَحَهُمُ اللهُ بِهِ، وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ، وَهـٰذا مِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّاتِ على أَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

(٢) وَمَا جاء في سُورَة (صٓ/ ٣٨ نزول) وهُوَ قوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فيها:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾: وَكَانَ كُبَرَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ يَأْتَمِرُون سِرّاً بِأَنْ يُعِدُّوا قُواهُمُ الْحَرْبِيَّة، ويُعْلِنُوا مَوْقِفَهُمُ الْحَرْبِيَّ الْمُشَاقَّ لِلرَّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، لِقِتَالِهِمْ، والتَّخَلُّصِ مِنْ دَعْوَتِهِمْ، فَفَضَحَ اللهُ مَا كَانَ كُبَرَاءُ مُشْرِكي مَكَّةَ يَأْتَمِرُونَ به، وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَبِيرٌ بما يَعْمَلُونَ سِرّاً، وَبِما يُدَبِّرُونَ مِنْ مَكْرٍ وكَيْدٍ، وَهَـٰذَا مِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّات عَلَىٰ أَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

بهـٰذَا الْفَهْمِ نُدْرِكُ كَيْفَ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خِبْرَتَهُ بِمَا يَعْمَلُ النَّاسُ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ فِي كَوْنه، مَعَ مَا جَاءَ في سَوَابِقِ نُجُومِ التَّنْزِيلِ مِنْ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم، وأَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً، وَأَنَّهُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْض.

وأَضَافَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدِ ذِكْرِهِ الآيَاتِ الثَّلَاثِ الَّتِي سَبَقَ شَرْحُهَا

بَيَاناً يَكْشِفُ بِهِ فَسَادَ عَقِيدَةِ المشْرِكِينَ، وَفَسَادَ عِبَادَتِهِمْ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُونِ الله، وَيُثْبِتُ فِيهِ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الحقُّ وأَنَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الكَبِيرُ في الْوُجُودِ كُلِّه، فقال اللهُ تَعَالَىٰ:

• ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ وَفِي القراءة الأخرىٰ: [**وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ**] خِطَاباً لِلْمُشْرِكين.

• ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي الآيَاتِ السَّابِقَاتِ، ذَكَرْنَاهُ بَيَاناً إِقْنَاعِيّاً بُرْهَانِيّاً لِلْمُشْرِكِينَ، بِسَبَبِ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ وَحْدَهُ فِي مُقَابِلِ مَا يَعْتَقِدُهُ الْمُشْرِكُونَ فِي آلِهَتِهِم الَّتِي يَعْبُدونَهَا مِنْ دُونِهِ.

فالْقَصْرُ في عبارة: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ قَصْرٌ إِضَافِي، أي: بالإِضَافَةِ إِلَىٰ مَا يَعْتَقِدُهُ المشْرِكُونَ فِي آلِهَتِهِمْ.

وَبِسَبَبِ أَنَّ مَا يَدْعُونَ (أي: يَعْبُدُونَ) مِن دُون اللهِ هُوَ الْبَاطِلُ فِي مُقَابِلِ كَوْنِ اللهِ هُو الْحَقّ. وبِسَبَبِ أَنَّ مَا تَعْبُدُونَ أَيُّهَا المشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هُو الباطل.

وبِسَبَبِ أَنَّ اللهَ هُوَ وَحْدَهُ الْعَلِيُّ الَّذِي لا يَقْرُبُ مِنْ عُلُوِّه ذُو عُلُوّ، وأَنَّهُ وَحْدَهُ في الْوُجُودِ كُلِّهِ الْكَبِيرُ الَّذِي لَيْسَ كمثْلِهِ شيءٌ.

الآيَة الكونِيَّةُ الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا في هَـٰذا الدَّرْسِ قول اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾:

• ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الخطابُ هُنَا كالْخِطَابِ الّذِي جَاءَ في الآيَةِ (٢٩) السَّابِقَة، مُوَجَّهٌ لِكُلِّ مُتَلَقٍّ بأُسْلُوب الْخِطَابِ الإِفْرَادِي، وبِصِيغَةِ الاسْتِفْهَام الَّذِي فِيهِ حَضٌّ عَلَىٰ التَّفَكُّرِ في هـٰذِهِ الآيَةِ الكَوْنِيَّة الرَّبَّانِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، الْواحِدِ في رُبُوبِيَّتِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ في الكَوْن،

مِنْها إِحاطَةُ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْهَا قُدْرَتُهُ علَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاء، ومِنْهَا إِتْقَانُهُ صُنْعَ كُلِّ شَيْءٍ، ومِنْهَا عِنَايَتُهُ بِعِبَادِه، وَرَحْمَتُهُ بِهِمْ، وَمِنْهَا حِكْمَتُهُ فِي تَصَارِيفِهِ، مُبْتَلِياً، ومُذَكِّراً، ومُنْذِراً.

• ﴿.. أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ..﴾:

الْفُلْك: مَرْكَبُ الْبَحْر، يُطْلَقُ عَلَىٰ الواحِدِ وغَيْرِهِ، ويُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، وجَاءَ في العبارة هُنَا تَأْنِيثُهُ بِفِعْلِ: ﴿تَجْرِى﴾.

والنِّعْمَة: هِيَ المِنَّةُ والْعَطِيَّةُ مِمَّا يُحِبُّ مَنْ أُعْطِيَهَا، ونِعْمَةُ اللهِ أَثَرٌ مِنْ آثار رحْمَتِهِ، الَّتي هِيَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ نَفْسِهِ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه، ونِعَمُ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ كَثِيرةٌ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِحْصاءَها.

أي: أَلَمْ تُفَكِّرْ حَتَّىٰ تَرَىٰ رُؤْيَةً عِلْمِيَّةً، أَيُّهَا المتَلَقِّي لِخِطَابِ رَبِّكَ لَكَ خِطاباً إِفْرَادِيّاً، عِنَايَةً بِكَ، ولِتَحْمِيلِكَ مَسْؤُولِيَّةَ مَعْرِفَةِ آيَاتِ رَبِّكَ فِي كَوْنِهِ، حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِهِ وَاحِداً فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وواحِداً فِي إِلَٰهِيَّتِهِ، وحَتَّىٰ تَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ أَحَداً.

أَلَمْ تُفَكِّرْ في ظَاهِرَةِ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ تفْكِيراً سَلِيماً بِوَعْيٍ وَتَأَمُّل، لِتَرَىٰ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْر، إِنَّمَا تَجْرِي مَصْحُوبَةً ومحْمِيَّةً ومُسَيَّرَةً بِنِعْمَةِ اللهِ على النَّاسِ، ضِمْنَ عَطَاءَاتِهِ وَإِنْعَامَاتِهِ الكثيرات اللَّاتِي لَا يَسْتَطِيعُونَ إِحْصَاءَها؟!.

إِذَا كُنْتَ لَمْ تُفَكِّرْ فَاجْتَهِدْ في أَنْ تُفَكِّرَ لِتَرَىٰ كَيْفَ تَجْرِي الْفُلْكُ فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ.

هَٰذا الْحَضُّ علَىٰ التَّفَكُّرِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ رُؤيَةٍ عِلْمِيَّةٍ صَحِيحَةٍ شَامِلَةٍ للدَّقَائِقِ التَّكْوِينِيَّةِ، الدَّالَّةِ عَلَىٰ إِتْقَانِ اللهِ الْمُدْهِش، وَعِلْمِهِ الْمُحِيطِ بكُلِّ شيء، وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مَا يَشَاءُ، وحِكْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ فِي اخْتِيَارَاتِهِ، يَتَطَلَّبُ دِرَاسَةَ خَصَائِصِ الْمَاءِ، وَخَصَائِصِ نِظَامِ الطَّفْوِ، وَكَيْفَ يَكُونُ

الْجَرَيَانُ السَّلِيمُ لِلْفُلْكِ، لِبُلُوغِ الأمَاكِنِ والْبُلْدَانِ الْبَعِيدَةِ عُبُوراً في الْبِحَارِ وَجَرْياً عَلَىٰ سُطُوحِهَا، إلَىٰ كُلِّ مَا تَحْتَاجُهُ الْأَسْفَارُ الْبَحْرِيَّة.

هٰذِهِ الدِّرَاسَةُ ذَاتُ هَدَفَيْنِ، دُنْيَوِيٍّ، ودِينِي أُخْرَوِي:

الْهَدَف الدُّنْيَوِيُّ: هُو الّذِي يُوصِلُ إلَىٰ مَعْرِفَةِ أفْضَلِ الْأَسْبَابِ الصِّنَاعِيَّةِ، والشُّرُوطِ المطْلُوبَةِ لِتَسْيِيرِ الْفُلْكِ تَسْيِيراً يَغْلِبُ فِيهِ الْأَمْنُ مِنْ عَوارِضِ الْهَلَاكِ بالْغَرَقِ، حِينَما تَأْتِي الرِّيَاحُ الْعَاصِفَةُ وَالْقَاصِفَة، وَتَرْفَعُ أَمْوَاجَ الْبَحْرِ فَتَجْعَلُهَا كالْجِبَالِ، وَتَضْرِبُ الْفُلْكَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتَرْفَعُهَا وَتَخْفِضُهَا حَتَّىٰ تَمْتَلِئَ قُلُوبُ رُكَّابِهَا خَوْفاً مِنَ الْغَرَقِ، الَّذِي لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ إلَّا أَنْ تُدْرِكَهُمْ رَحْمَةُ اللهِ بِنِعْمَتِه، فَيُسْكِنَ الرِّيَاحَ بِقُدْرَتِهِ.

هٰذا الْهَدَفُ الْعِلْمِيُّ لَا يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إلَىٰ المطْلُوبِ الْغَائِيِّ مِنْهُ، إلَّا كُلُّ صَبَّارٍ في بُحُوثِهِ الْعِلْمِيَّةِ، الَّتِي يَتَّبِعُ فِيهَا الدَّقَائِقَ بالتَّجَارُبِ الكَثِيرَة، والْمُلَاحَظَاتِ الْقَائِمَاتِ عَلَىٰ التَّأمُّلِ وَالنَّظَر السَّلِيم، وتَدْوِينِ هٰذِهِ الْمُلَاحظاتِ، وَوَضْعِهَا مَوْضِعَ التَّنْفِيذِ لِمَعْرِفَةِ مَدَىٰ الانْتِفَاعِ بها، وَمُتَابَعَتِهَا بالتَّطْوِيرِ والتَّحْسِين والتَّجْوِيدِ، كُلَّمَا أَدْرَكَ الْبَاحِثُونَ الْعِلْمِيُّونَ شَيْئاً أفْضل وأحْسَنَ مِمَّا سَبَقَ أَنْ تَوَصَّلُوا إلَيْهِ، وَنَفَّذُوهُ فِيمَا سَبَقَ أَنْ صَنَعُوه.

الْهَدَفُ الدِّينِيُّ الْأُخْرَوِي: هُو الَّذِي يَجْعَلُ الْمُتَفَكِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَحْثِ الْعِلْمِي يُدْرِكُونَ عَظَمَةَ إتْقَانِ اللهِ الْجَلِيلِ لِكُلِّ مَا خَلَقَ وَصَنَعَ فِي كَوْنِهِ، وَيُدْرِكُونَ وَافِرَ إنْعَامِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وواسِعَ رَحْمَتِهِ بِهِمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الْمَنَازِلَ العالِيَةَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ، إنَّمَا تَكُونُ لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَه، فَيَحْرِصُونَ عَلَىٰ بُلُوغِ هٰذه المنازِلِ العالِيَةِ في جَنَّاتِ النَّعِيم، فَيَزِيدُونَ مِنْ نَوَافِلِ الْعِبادَاتِ والْقُرُبَاتِ، فَوْقَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ والْوَاجِبَاتِ، شُكْراً لِلَّهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ، رَغْبَةً في أَنْ يَكُونُوا شَكُورِينَ.

• ﴿.. لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ..﴾: جَاءَ الْخِطَابُ فِي هٰذِهِ الْعِبَارَةِ

لِلنَّاسِ جَمِيعاً بأسْلُوبِ خِطَابِ الْجَمَاعَةِ علَىٰ سَبِيلِ الالْتِفَاتِ، لِلإشْعَارِ بأَنَّ الإرَاءَةَ مُوَجَّهَةٌ لِلْجَمِيعِ، وأَنَّ الْحِكْمَةَ اقْتَضَتْ تَحْمِيلَ كُلِّ فَرْدٍ مَسْؤُولِيَّتَهُ تُجاهَ مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أفْرَادِ الناس حِينَ يُوَجَّهُ لَهُمُ التَّكْلِيفُ الْجَماعِيّ.

أي: لِيُرِيَكُمْ أَيُّها النَّاسُ بَعْضَ آيَاتِهِ، لِأَنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَتَوَصَّلُوا إلى رُؤيَةِ كُلِّ آياتِهِ، ولَوْ عَلَىٰ سَبِيلِ الرُّؤْيَةِ الْعِلْمِيَّة، فَفِي الْكَوْنِ دَقَائِقُ هِي مِنْ آيَاتِ اللهِ في كَوْنِهِ، ولَكِنْ لَا تَسْتَطِيعُونَ الوصُولَ إلى إدْرَاكِها ومَعْرِفَتِها.

- ﴿.. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾:

أي: إنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ ظَاهِرَةُ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي في الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ، لآيَاتٍ كَثِيراتٍ، وَعَلَامَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ، ذَوَاتِ هَدَفَيْنِ:

- فَالْهَدَفُ الدُّنْيَوِيُّ الْعِلْمِيُّ يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ كُلُّ صَبَّارٍ في الْبَحْثِ الْعِلْمِيّ.
- والْهَدَفُ الدِّينِيُّ الْأُخْرَوِيُّ يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ وَيَسْتَفِيدُ مِنْهُ كُلُّ شَكُور.

صَبَّار: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لِصَابِر، أي: هو صابِرٌ صَبْراً شَدِيداً.

شَكُور: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لِشَاكِرٍ، أي: هُوَ شَاكِرٌ شُكْراً كَثِيراً بَلَغَ إلى مَرْتَبَةِ الْأَبْرَارِ، أَوِ الْمُحْسِنِين.

■ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ يُبَيِّنُ أَقْسَامَ النَّاسِ تُجَاهَ الْمَخَاوِفِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ وَمِنْ أمْثِلَتِها مَخاوِفُ الْغَرَقِ فِي الْبَحْرِ، حِينَما يَكُونُونَ في الْفُلْكِ وَتَأْتِيهِمُ الْأَمْوَاجِ كالظُّلَلِ، الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يَتَرَقَّبُونَ الْغَرَقَ لَحْظَةً فَلَحْظة.

- ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾:

غَشِيَهِمْ مَوْجٌ: أي: ارْتَفَعَ مَوْجٌ منْ جِهَتَي الْفُلْكِ أَوْ من إحْدَاهُمَا حَتَّىٰ سَتَرَتْهُمْ فَصَارَتِ الْفُلْكُ كالْغَارِقَةِ بَيْنَ الْمَوْجِ، فَلَا يَرَوْن وَلَا يُرَوْن.

يُقَالُ لغة: «غَشِيَ الشَّيْءُ شَيْئاً» أَيْ: غَطَّاهُ وَجَلَّلَهُ فَحَجَبَهُ.

كالظُّلَلِ: الظُّلَلُ جَمْعُ «الظُّلَّةِ» وهِيَ مَا أَظَلَّ مِنْ شَجَرٍ وغَيْره.

إنَّ رُكَّاب السُّفُنِ في الْبِحَارِ، قَدْ يَتَعَرَّضُونَ بِقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِه لِأَحْدَاثٍ مُرْهِبَةٍ، تُنْزِلُ بِهِمْ ذُعْراً شَدِيداً، يَتَرَقَّبُونَ مَعَهُ الْغَرَقَ لَحْظَةً فَلَحْظَةً.

فَقَدْ يَبْعَثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رِيَاحاً عَاتِيَةً، تَضْرِبُ مِيَاهَ البَحْرِ، فَتَجْعَلُ أَمْوَاجَهُ تَرْتَفِعُ كالْجِبَالِ، وَقَدْ يَصِلُ ارْتِفَاعُهَا إِلَىٰ أَكْثَرَ مِنِ ارْتِفَاعِ جُدْرَانِ السَّفِينَةِ فَوْقَ سَطْحِ الماء، فَتَكُونُ سَاتِرَةً لَهَا.

فإذَا يَئِسُوا مِنِ اتِّخاذِ أَسْبَابٍ تُنْجِيهم:

• ﴿.. دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ..﴾: أي: تَوَجَّهُوا لِلَّهِ يَدْعُونَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِدُعَائِهِ أحَداً وَلَا شَيْئاً.

إِخْلَاصُ الدِّينِ لِلَّهِ فِي الدُّعَاء، دُعَاءُ الدَّاعِينَ لَهُ مُؤْمِنِينَ بأَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي لَا رَبَّ في الْوُجُودِ غَيْرُهُ، فَلَا خَلْقَ إِلَّا خَلْقُهُ، وَلَا أَحَدَ يُنْجِي مِنَ الْهَلَاكِ والْكَرْبِ سِوَاه، وَمُؤْمِنِين بأَنَّهُ لَا إِلَهَ بِحَقٍّ فِي الْوُجُودِ غَيْرُهُ، وَلَا عِبَادَةَ بالدُّعَاءِ وغَيْرِهِ إِلَّا لَهُ.

• ﴿.. فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ ..﴾: أي: فَلَمَّا أسْكَنَ اللهُ الْبَحْرَ، وهَيَّأَ لَهُمْ وَسَائِلَ النَّجاة، ونَجَّاهُمْ مِنْ أهْوالِ الْبَحْرِ، وأَوْصَلَهُمْ إِلَىٰ الْبَرِّ آمِنِينَ، وَوَجَدُوا نُفُوسَهُمْ علَىٰ الْيَابِسَةِ.

• ﴿.. فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾:

الْخَتَّارُ: الْغَدَّارُ بأقْبَحِ الْغَدْرِ، يُقَالُ لغة: «خترَ فُلَانٌ فُلاناً، يَخْتُرُه» أي: غَدَرَ بِهِ أَقْبَحَ الْغَدْر. ولفظ «خَتَّار» صيغة مبالغة لاسم الفاعِلِ «خاتِر».

الكَفُور: صِيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل «كَافِر» فالكَفُور هو ذُو الكُفْرِ الشَّدِيدِ بِالْحَقّ، والكُفْرِ الشَّدِيدِ لإنْعَامِ المنْعِم.

دَلَّ هـٰذا البيانُ بصَرِيح اللَّفْظِ والمطويات فيهِ علَىٰ أَنَّ النَّاسَ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين، يَنْقَسِمُونَ بَعْدَ أَنْ يُنجِيَهُمُ اللهُ مِنَ الشِّدَّةِ الَّتِي كانُوا فِيها إلَىٰ الأَقْسَام الَّتِي يَنْقَسِمُ إِلَيْهَا النَّاسُ جَمِيعاً، قَبْلَ أَنْ يَتَعَرَّضُوا إلَىٰ أَحْدَاثٍ مُرْهِبَةٍ تَخْلَعُ قُلُوبَهُمْ بِالذُّعْرِ مِن الْهَلَاكِ.

وَجاءَ في النَّصِّ التَّصْرِيحُ بِقِسْمَيْنِ، مَعَ طَيِّ سَائِرِ الأَقْسَامِ، الَّتِي يَسْتَخْرِجُها الْمُتَدبِّر المتأنِّي بالتفكير المتَعمِّقِ مع دَلالاتِ نُصُوصٍ أخْرَىٰ جَاءَتْ فِي سوَابِقِ نُجُوم التَّنْزِيل.

إنَّ النَّاسَ فَرِيقان: فَرِيقٌ مُؤْمِنٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمِين أَصْحَابِ الجنّة، وَفَرِيق كافِرٌ مِنْ أصْحَابِ الشِّمَالِ أَهْلِ النار.

- **أَمَّا الْفَرِيقُ الأَوَّلُ** المؤمِنُونَ أهلُ الْيَمِينِ، فَهُمْ أَقْسَامٌ ثَلاثَة.

(١) مُقْتَصِدُونَ.

(٢) وَأَحْسَنُ حَالاً مِنَ المقْتَصِدِين، وهُمُ السَّابِقُون بِفِعْل الخيراتِ بإذْنِ الله.

(٣) وأسْوَأُ حالاً من المقْتَصِدينَ، وهُمُ الظَّالِمُونَ لِنُفُوسِهِمْ بِكَثْرَةِ مَعَاصِيهِمْ مَعَ إيمانهم.

وقَدْ سَبَقَ في سُورةِ (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) بَيَانُ هـٰذِهِ الأَقْسَامِ الثَّلاثَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ المؤمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ أَتّباعِ الرِّسَالَةِ المحمَّدِيَّة:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ .. ﴿٣٢﴾﴾.

فالْقِسْمُ الأَدْنَىٰ وهُمُ الأَكْثَرُ عَدداً: هُمُ المؤمِنُونَ الظَّالِمُونَ لِنُفُوسِهِمْ بِكَثْرَةِ المعاصِي والْمُخَالَفَاتِ وارْتِكَابِ الكَبَائِرِ مِنَ الذُّنوب والآثام.

وكُلُّ فَرْدٍ مِنْ أفرادِ هـٰذا الْقِسْمِ صَحَّ إيمانُهُ وإسْلَامُهُ، لَكِنَّهُ ظَلَمَ نَفْسَه، وأسْرَفَ عَلَيْهَا وجَنَىٰ باقْتِرَافِ المعاصِي والآثام، وارْتِكَابِ الكَبَائِرِ الَّتِي نَهَىٰ اللهُ عَنْهَا نَهْياً مَقْرُوناً بِتَحْذِيرٍ شدِيدٍ، ورَتَّبَ عَلَيْهَا عِقَاباً أليماً.

وهؤلَاءِ علَىٰ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ تَحْتَ سَقْفِ مَرْتَبَةِ التقوى، بِحَسَبِ نِسْبَةِ مَعَاصِيهِمْ وَجِنَايَاتِهِمْ وإسْرَافِهِمْ علَىٰ نُفُوسهم.

والْقِسْمُ الْأَوْسَطُ: هُمُ المقْتَصِدُون، وهُمُ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ حُقُوق مَرْتَبَةِ التَّقْوىٰ، بِتَأْدِيَةِ الْوَاجِبَاتِ، واجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَات، وَقَدْ يُجْبَرُ الْخَلَلُ فِيهَا بالاسْتِغْفَارِ والتَّوْبةِ، وبِتَأْدِيَةِ بَعْضِ نَوَافِلِ الْقُرُبَاتِ مِنْ غَيْرِ فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ.

والْقِسْمُ الْأَعْلَىٰ: وَهُمُ الأَقَلُّ عَدَداً، هُمْ قِسْمُ السَّابِقِينَ بِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللهِ.

وأَفْرَادُ هـٰذا الْقِسْمِ هُمُ الَّذِينَ يتَقَرَّبُونَ إِلىٰ اللهِ بالنَّوَافِلِ مِمَّا يُحِبُّهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَوْقَ أَدَائِهِمْ لِلْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكِهِمْ للمحرّمات، وَهُمْ يَسْتَزِيدُون مِنْ نَوَافِلِ الْقُرُبَاتِ طلباً لِمَرْضَاةِ اللهِ، والثواب الْجَزِيلِ عِنْدَه.

وأفرَادُ هـٰذا الْقِسْمِ علَىٰ دَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ كثيرات، بِمِقْدَارِ سَبْقِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِفِعْلِ الخيرات.

ويدْخُلُ في هـٰذا الْقَسَمِ الْأَبْرَارُ، والْمُحْسِنُون، وجَاءَ التعبير عَنْهُمْ بِأَنَّهُمُ الْمُقَرَّبُون.

فَدَلَّتْ عِبَارَة: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ في آيَةِ سُورَة (لقمان/ ٥٧ نزول) عَلَىٰ الْقِسْمِ الْأَوْسَطِ، من أقْسَامِ الْمُؤْمِنِين أَهْلِ الْيَمِينِ، أَصْحَابِ الْجَنَّة، بِصَرِيحِ اللَّفْظِ.

وَدَلَّتْ عَنْ طَرِيقِ اللُّزُومِ الفكْرِي علَىٰ الْقِسْمَيْنِ الآخَرين اللَّذَيْنِ سَبَقَ بَيَانُهُما فِي سُورَةِ (فاطر/ ٤٣ نزول).

إنَّ عِبَارَةَ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۚ﴾ هِي على تَقْدِيرِ: فَقِسْمٌ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، ومَعْلُومٌ أَنَّ ذِكْرَ قِسْمٍ مِنْ أقْسَامِ جَمَاعَةٍ ذَاتِ عُنْوَانٍ واحِدٍ، يَسْتَدْعِي ذِهْناً سَائِرَ الأَقْسَامِ الْمَعْلُومَةِ.

• **وأَمَّا الْفَرِيقُ الثَّانِي**: الْكَافِرُونَ أصْحَابُ الشِّمَال، فَهُمْ أيضاً أقْسَامٌ ثَلَاثَة، فِي مُقَابِلِ أقْسَامِ الْفَرِيقِ الأَوّل.

(١) أصْحَابُ الدَّرَكَاتِ الْأُولَىٰ مِنَ النَّار، وهُمُ المُشْرِكُونَ على تنازُلِ دَرَكَاتِهِمْ، فِي نِسْبَةِ الشِّرْكِ وارْتِكَابِ الجرائِمِ الْكُبْرَىٰ.

(٢) أصْحَابُ الدَّرَكَاتِ الْوُسْطَىٰ فِي الْجَحِيم، وَهُمُ الْكَافِرُونَ المعانِدُونَ، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ إقناعِهِمْ بالْأَدِلَّةِ والبراهِينَ، مَعَ إسْرَافٍ في ارْتِكَابِ بَعْضِ الجرائِمِ الكُبْرَىٰ.

(٣) أصْحَابُ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من النَّارِ، وهُمْ أَئِمَّةُ الكُفْرِ الْجَبَّارُون، الضّالّون الْمُضِلُّون، الجاحِدُونَ الكَفُورون، ومِنْهُمُ الْمُنَافِقُونَ، لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ رَذِيلَتَيْن خَسيسَتَيْنِ هُمَا الكُفْرُ والنِّفَاق.

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ أصْحَابِ الدَّرَكَاتِ الْوُسْطَىٰ، مَا سَبَقَ أَنْ جَاءَ في سُورَة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نُزول) بِشَأْنِ المكَذِّبِ بِيَوْمِ الدِّينِ، وقَرِينِهِ المؤمِنِ الَّذِي دَخَلَ الجَنَّة، وَطَلَبَ مِنْ جُلَسَائِهِ فيها أَنْ يَطَّلِعُوا عَلَىٰ قَرِينِهِ الَّذِي كَانَ يُحَاوِلُ إقْنَاعَهُ بأنْ يَكْفُرَ بِيَوْمِ الدّين، وهو قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥﴾: أي: في وَسَطِهَا لَا في أدْنَاها، ولَا فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ فيها.

ودَلَّتْ سَوَابِقُ النُّصُوصِ في سَوَابِقِ نُجُومِ التَّنْزِيلِ علَىٰ أَنَّ عَذَابَ أَهْلِ النَّارِ مُتَفَاوِتُ النِّسَبِ بِحَسَبِ مَقَادِيرِ الكُفْرِ والْجَرَائِمِ، ومِنْهَا مَا جَاءَ فِي الآية (٣٨) مِنْ سُورَة (الأعراف/ ٣٨ نزول) ومَا جَاء في الآيَتَيْن (٦٠) و(٦١) مِنْ سُورَة (صٓ/ ٣٨ نزول).

والتَّقَابُلُ بَيْنَ أَقْسَام الْمُؤْمِنِينَ أَهْلِ الْيَمِين، وأَقْسَام الْكَافِرِينَ أَصْحَاب الشِّمَالِ، مَعَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَاقِعِ أَحْوَالِ الناسِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ أَقْسَامٌ رَئِيسَةٌ ثَلَاثَة، وهُمْ علَىٰ دَرَكَاتٍ مُتَنَازِلَاتٍ إِلَىٰ قَرَارِ الجحيم.

وَقَدْ دَلَّتْ عِبَارَة: ﴿.. وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ في سُورَة (لُقمان/ ٥٧ نزول) عَلَىٰ الْقِسْمِ الأَخَسِّ مِنَ الْكَافِرِين، لِأَنَّهُ الْتَجأَ إِلَىٰ رَبِّهِ دَاعِياً مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ فِي سَاعَةِ الشِّدَّةِ، فَلَمَّا أَنْجَاهُ اللهُ جَلَّ جَلَالَهُ بِرَحْمَتِهِ كَانَ غَدّاراً نَاقِضاً عَهْدَهُ، وَكَانَ كَفُوراً شَدِيدَ الكُفْرِ عِناداً وَكِبْراً وَفُجُوراً.

وهـٰذا الجاحِدُ الغَدَّارُ الكَفُورُ، يُشَارِكُ فِي الدَّرَكَاتِ السُّفْلَىٰ مِنَ النَّارِ، أئِمَّةَ الكُفْرِ والإضْلَالِ، والْمُنَافِقِين، والطُّغَاة الْجَبَّارِين، وَلِكُلٍّ مِنْهُمْ دَرَكَةٌ تُلَائِمُ مُسْتَوَىٰ جرائِمه.

وبهـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ العاشر من دُروس سورة (لقمان). والْحَمْدُ لِلَّهِ علىٰ مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوْفِيقِه وفَتْحه.

❁ ❁ ❁

(١٦)

التدبّر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (لقمان) وهو الآيتان (٣٣) و(٣٤) آخِر السّورة

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

القراءات:

(٣٤) • قرأ نافعٌ، وابْنُ عامر، وعاصم، وأبُو جعفر: **[وَيُنَزِّلُ]** مِنْ فعل: «نَزَّلَ» المضعّف.

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: **[وَيُنْزِلُ]** من فعل: «أَنْزَلَ» الْمَهْمُوز.

والقراءتان مُتَكافئتان، فالفعل المهموز أخو الفعل المضعَّف.

تمهيد:

في آيَتَيْ هـٰذا الدَّرْسِ الْأَخِيرِ مِنْ دُروس السورة نداء للنَّاسِ جَمِيعاً بأنْ يَتَّقُوا اللهَ رَبَّهُم، وَبأنْ يَخْشَوْا عَذَابَهُ الْمُعَدَّ لِلْعُصَاةِ والكافِرِينَ يَوْمَ الدِّين.

وَفيهما بَيَانُ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هو الَّذِي يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَة، لَمْ يُعْطِ اللهُ بَيَانَ وَقْتِ قيامِهَا لِأَحدٍ مِنْ خَلْقِه.

وفيهما بَيَانُ أنَّه يُنَزِّلُ الْغَيْثَ بِحِكْمَتِه. وأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ مَا فِي الأرْحَام، وبَيَانُ أَنَّهُ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبَ غداً، وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوت. لَكِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شيءٍ خبير.

التدبر التحليلي:

▪ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي نِدَاءٍ مُوَجَّهٍ لِلنَّاسِ جَمِيعاً:

• ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾:

فِي هـٰذِهِ الآيَةِ مَوْعِظَةٌ تَحْذِيرِيَّة تَرْهِيبيَّةٌ، مِنْ عِقَابِ اللهِ عَلَىٰ الكُفْرِ بِمَا أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وعَلَىٰ مُخَالَفَةِ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ اللَّاتي رَتَّبَ علَىٰ مَخَالَفَتِهَا عِقَاباً.

وَهَـٰذا الْعِقَابُ مِنْهُ مَا هُوَ مُعَجَّلٌ فِي الحياة الدنيا، ومِنْهُ مَا هُوَ مُؤَجَّلٌ إِلَىٰ يَوْم الدِّين، الَّذِي يَكُونُ الجَزاءُ فِيهِ شَخْصِيّاً، فَلَا يَكْفِي ولا يُغْنِي والدٌ عَنْ وَلَدِهِ ولَا مَوْلُودٌ عَنْ والِدِهِ شيئاً.

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ..﴾: أي: اتَّقُوا جزاءَ رَبِّكُمُ الْعِقَابِيَّ كُلَّهُ عَاجلَهُ وآجِلَهُ.

واتِّقَاءُ عِقَابِ اللهِ يَكُونُ بالْإيمانِ بِمَا أَمَرَ بالإيمانِ بِهِ، فيما أَنْزَلَ علَىٰ رسُوله، وإعْلَانِ الإسْلَام لَهُ وأنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هو، وَطَاعَتِهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِفِعْلِهِ أَمْرَ إيجابٍ، واجْتِنَاب ما نَهَىٰ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيم.

واخْتِيرَ هُنَا مِنْ صِفَاتِ الله صِفَةُ «الرَّبِّ» لِأَنَّ الصِّفَاتِ الَّتِي تَدْخُلُ تَحْتَ عُنْوَانِ «رُبُوبِيَّةِ اللهِ لِعِبَاده» هِي الصِّفَاتُ ذَوَاتُ الْعَلَاقَةِ بإيجادِهِمْ، وإمْدَادِهم، وَتكليفِهِمْ، وَحِسَابِهِمْ، وَمُجَازَاتِهِ لَهُمْ، ومَوْتِهِمْ، وَبَعْثِهِمْ، وكُلِّ تَصَارِيفِهِ فِي ذواتِهم وصِفَاتِهم، فَمِنْ حَقِّ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمُ الشَّامِلَةِ لِكُلِّ شَيْءٍ فِيهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، ويُسْلِمُوا لَهُ، ويُطِيعُوه، ومِنْ سَعْيِهِمْ لِمَا يَنْفَعُهُمْ، وحِمَايَةِ نُفُوسِهِمْ مِمَّا يَكْرَهُونَ مِنْ جَزاءٍ عِقَابِي، الْتِزامُهُمُ الْعَمَلَ بِمَا يُحِبُّ جَلَّ جلَالُهُ مِنْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوهُ، واجْتِنَابُهُمُ اقْتِرَافَ مَا لَا يُحِبُّ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْهُمْ أَنْ يَقْتَرِفُوه.

• ﴿.. وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ..﴾:

أي: وَخافُوا وَقَائِعَ يَوْمٍ يَكُونُ فِيهِ الْحِسَابُ وفَصْلُ الْقَضَاءِ وتنفيذُ الْجَزاءِ، هُو يَوْمُ الدِّينِ بَعْدَ الْبَعْث.

وَمِنْ أَوْصَافِ وَقَائِعِ هَـٰذا الْيَوْم، أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ مَوْضُوعاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، يأتِي فِيهِ فَرْداً لِمُلَاقَاةِ حِسَاب رَبِّهِ وفَصْلِ قَضَائِهِ بِشَأْنِهِ وَتَنْفِيذِ مُجَازَاتِهِ لَهُ، وَيَفِرُّ فِيهِ الْمَرْءُ مِنْ أخِيهِ، وأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وصَاحِبَتِهِ وبَنِيهِ، إِذْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه.

فَلَا يَكْفِي وَلَا يُغْنِي فِيه وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ شيئاً، إِذْ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ أَنْ يُسَاعِدَ أحداً أَوْ يَنْصُرَ أحداً.

ولَا يَكْفِي وَلَا يُغْنِي فيه مولودٌ عَنْ والدِهِ شيئاً، إِذْ لَا يَمْلِكَ أَحَدٌ أَنْ يُسَاعِدَ أحداً أَوْ يَنْصُرَ أحداً يومَئِذٍ.

إِنَّ الْأَمْرَ يَوْمَئِذٍ كُلَّهُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، لَهُ الْمُلْكُ كُلُّهُ وَحْدَهُ، لَا يُشَارِكُهُ فِي سُلْطَانِهِ مُشَارِكٌ، وَمَلَائِكَتُهُ يُنَفِّذُونَ أَوَامِرَه.

﴿لَّا يَجۡزِى﴾: أي: لَا يَكْفِي وَلَا يُغْنِي. يُقَالُ لغة: «جَزَىٰ الشَّيْءُ يَجْزِي، جَزَاءً» أي: كَفَىٰ، وأغْنَىٰ.

• ﴿. . إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ . .﴾: أي: كُلُّ وَعْدٍ وَعدَهُ اللهُ ممَّا سَيكُونُ أَوْ سَوْفَ يَكُونُ هُوَ وَعْدٌ حَقٌّ، لِأَنَّهُ صِدْقٌ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ لِأَنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الميعَادَ، إِذْ هُو قَدِيرٌ علَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاء، بأمْرِ التكْوِين، ولَهُ كُلُّ صِفَاتِ الكمال.

والمقْصُودُ الْأَوَّلُ بالْوَعْدِ هُنَا هُوَ الْبَعْثُ وَيَوْمُ الدّين، وكُلُّ الأحْدَاثِ الَّتِي جَاءَ فِي النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ أَنَّهَا سَوْفَ تَجْرِي فيه.

• ﴿. . فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا . .﴾: أي: فَلَا تَخْدَعَنَّكُمْ زِينَاتُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَفَاتِنُهَا، وَلَا تَصْرِفَنَّكُمْ عَنِ الْبَصِيرَةِ الْمُدْرِكَةِ لِلْحَقِّ.

يقال لُغَةً: «غَرَّهُ، يَغُرُّه، غَرّاً، وَغُرُوراً، وغِرَّة» أي: خَدَعَهُ وأَطْمَعَهُ بالْبَاطل.

والْمُرَادُ بالحياة الدُّنيا مَا فِيهَا مِنْ شَهوَاتٍ، ولَذَّاتٍ، وزِينَاتٍ وأَهْوَاءٍ» مِمَّا يَخْدَعُ نُفُوسَ النَّاسِ بالْبَاطِل، وَيَصْرِفُهُمْ عَنِ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ الْخَالِدَةِ، ونَعِيمِها المقِيمِ فِي جَنَّاتِ النعيم.

• ﴿. . وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٣٣﴾:

الْغَرُورُ: مِنْ صِيَغِ المبالغة، أي: شَدِيدُ الْخَدْعِ بالْبَاطِلِ، وَيَنْطَبِقُ هٰذا اللَّفْظُ علَىٰ كُلِّ خَدَّاعٍ يُطْمِعُ بالْبَاطِلِ.

ويُطْلَقُ غَالِباً عَلَىٰ الشَّيْطانِ وَمَنْ كَانَ مِثْلَهُ.

والتَّعْدِيَةُ بالْبَاءِ فِي: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ هِي فِيمَا أَرَىٰ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: وَلَا يَخْدَعَنَّكُمْ بِتَزْيِينِ مَعْصِيَةِ اللهِ لِنُفُوسِكُم، وَبإقْنَاعِكُمْ بِأَنَّهُ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ وَلَا جزَاءَ، وَأَنَّ يَوْم الدِّينِ خُرَافَةٌ، الْغَرُورُ بِوَسَاوِسِهِ وَدَسَائِسِهِ وَتَسْوِيلَاتِهِ وَتَزْيِيفَاتِهِ وَزُخْرُفِ الْقَوْلِ الَّذِي يَصْطَنِعُهُ لِيَخْدَعَ بِهِ بالباطل.

إنّ كُلَّ مَا يُقَدِّمُهُ الكافِرُونَ، الَّذِينَ يُنْكِرُونَ مَا جاء مِنْ عِنْدِ اللهِ عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِه ﷺ، هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْأَكَاذِيب، وزُيُوفِ الْأَقْوَالِ، وأباطِيلِها، مُزَيَّناً بِزُخْرُفٍ مِنَ الْقَوْل.

وَرَبُّ النَّاسِ يُحَذِّرُهم مِمَّا يَتَّخِذُهُ المضِلُّون مِنْ وَسَائِلَ وأَسْباب، لإغْواءِ النَّاس، وإضْلَالِهِم، وصَدِّهِمْ عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم، وجَعْلِهِمْ يَكْفُرُونَ بالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ رَبُّهُمْ لِهِدَايَتِهِمْ وخَيْرهم وسَعَادَتِهِم الْأَبَدِيَّة.

■ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ آيَاتِ السُّورَة:

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

فِي هٰذِهِ الْآيَةِ بَيَانُ سِتِّ قَضَايَا يَجِبُ عَلَىٰ الْإنْسَانِ الْعَاقِلِ السَّوِيِّ، أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ عِلْمٍ بِهَا، وَأَنْ يَجْعَلَها فِي سَاحَةِ تَصَوُّرِهِ الحاضِرِ، أَوْ قَرِيبَةَ الْحُضُورِ فيه، دُونَ إجْهَادٍ نَفْسِيٍّ في الاسْتِذْكَار.

الْقَضِيَّةُ الْأُولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ . . .﴾.

السَّاعَة: أُطلِقَ لفظ «السَّاعَةِ» في القرآن على عدّةِ مَعانٍ سبق بيانُها

لدىٰ تَدَبّر الآيَةِ (١٨٧) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) ومِنْ هـٰذِهِ المعاني: وقْتُ إنْهَاءِ ظُرُوفِ الحياة الدُّنْيَا وأحْدَاثها. وهٰذا الْمَعْنَىٰ هو المراد هُنَا.

وَفي عِبَارَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إشْعَارٌ بأنَّ الْعِلْمَ بِوَقْتِ إنْهَاءِ ظُرُوفِ الْحَيَاةِ الدُّنيا وأَحْدَاثِهَا لَا يُوجَدُ إلَّا عِنْدَ الله، أخْذاً مِنْ تَقْدِيم الظَّرْف «عِنْدَهُ» على عامِلِهِ في: «عِلْمُ السَّاعَة» ولَيْسَتْ هـٰذِهِ الدَّلَالَةُ قَطْعِيَّةً.

وَلَكِنْ جَاءَ فِي الآيَةِ (١٨٧) من سُورَةِ (الأعْرَاف/ ٣٩ نزول) مَا يَدُلُّ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ لَمْ يُعْلِمْ أَحداً بِوَقْتِ قِيامِ السَّاعَةِ وَأَنَّهَا لَا تَأْتِي إلَّا بَغْتَةً، فقالَ اللهُ تَعالَىٰ فيها:

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ بَيانٌ تَدَبُّرِيٌّ مُوَسَّعُ لَدَىٰ تَدبُّرِ هـٰذِهِ الآيَةِ فِي مَوْضِعِها مِنْ سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول) ولَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ هُنَا تَكْرِيرُ مَا سَبَقَ شَرْحُهُ حَوْلَ هـٰذِهِ الْقَضِيَّة.

ويَظْهَرُ لِي أَنَّ مَا جَاءَ في سورة (لُقْمان/ ٥٧ نزول) اسْتُغْنِيَ فِيه عَنْ إيرادِ نَصٍّ قَطْعِيِّ الدَّلَالَةِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ لَمْ يُعْلِمْ أَحداً مِنْ خَلْقِهِ بِوَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، اعْتِمَاداً عَلَىٰ مَا جَاءَ في آيَة سورة (الأَعْرَافِ/ ٣٩) السَّابِقَةِ نُزُولاً.

القضيَّةُ الثانِيَةُ: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿.. وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ ..﴾: أي: واللهُ عَزَّ وَجلَّ باخْتِيَارِهِ الْحَكِيم، يُنَزِّلُ الْغَيْثَ الَّذِي يَرْزُقُ بِه عِبادَهُ، وهُوَ مِنْ نِعَمِه عَلَيْهِم.

الغيث المَطَرُ، وقيلَ: هُو الْخَاصُّ بالْخَيْرِ مِنَ المطَرِ.

أقول: وتَشْهَدُ الاستِعْمالاتُ بتَرْجيحِ هـٰذا الْقَوْلِ.

إنَّ اللهَ عَزَّ وَجلَّ هُو الَّذِي يَرْزُقُ عِبادَه، فَيَقْضِي لِبَعْضِهِمْ بالسَّعَةِ فِي الرِّزْق، ويَقْضِي لِبَعْضِهِمْ بِجَعْلِ رِزْقِهِمْ غَيْرَ ذي سَعَةٍ، لِيَبْلُوَ كُلّاً فيما آتاهُ بِحَسَبِ خَصَائِصِ نَفْسِهِ الّتِي فَطَرَهُ اللهُ عَلَيْها.

وَقَدْ يُكافِئُ اللهُ بَعْضَ عِبادِهِ المتَّقينَ أوِ الْأَبْرارِ بِرِزْقٍ خَاصٍّ بِهِمْ، دُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا وَسَائِلَ مَادِّيَّةً ظَاهِرَةً يُنْسَبُ إِلَيْهَا هـٰذا الرِّزْق.

ومِنْ أَمْثِلَةِ هـٰذا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِه، والإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أبي هُرَيْرَة، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال:

«بَيْنَا رَجُلٌ بفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتاً فِي سَحَابَةٍ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانَ، فَتَنَحَّىٰ ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ[1]، فإذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ[2] قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الماءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ في حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاء بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ، مَا اسْمُكَ؟ قال: فُلان، للاسْمِ الَّذِي سَمِعَ في السَّحابَة. فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ، لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟. قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتاً فِي السَّحَابِ الَّذِي هـٰذا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَان لاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فيها؟. قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هـٰذَا فإِنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ مَا يَخْرُجُ مِنْها، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثاً، وأَرُدُّ فِيها ثُلُثاً».

أقُولُ: وَبِسَبَبِ أَنَّهُ كَانَ فِي صَدَقَتِهِ مِنَ الْأَبْرَارِ، رَزَقَهُ اللهُ بالْغَيْثِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب، كما قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ في سُورَة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول):

---

(١) **الْحَرَّة**: أرْضُ ذَاتُ حِجارَة سُودٍ كأَنَّهَا أُحرِقَتْ.

(٢) **الشَّرْجَة**: مَجْرَىٰ مَاءٍ يَسِيلُ مِن الهضابِ إِلَىٰ ما دُونها من الأرض.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾.

الْقَضِيَّةُ الثَّالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿.. وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ..﴾: أي: وَيَعْلَمُ كُلّ مَا فِي أَرْحَامِ الإناثِ مِنْ كُلِّ ذِي حَياةٍ، حَتَّىٰ الْبَعُوضَةِ فَمَا دُونها مِنَ الْكَائِنَات الْحَيَّة، عِلْماً يَشْمَلُ كُلَّ الدَّقَائِقِ ويُحِيط بها.

هـٰذَا الشُّمُولُ الْعِلْمِيُّ لِكُلِّ أَرْحَام الْإِنَاثِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ الْخَاصَّةِ به، إذْ هوَ جَلَّ جَلَالُهُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

أَمَّا عِلْمُ مَا فِي بَعْضِ أَرْحَامِ الإِنَاثِ، بِآلَاتٍ وَأَدَوَاتٍ كاشِفَاتٍ، فَقَدْ أَعْطَىٰ اللهُ النَّاسَ إمْكَانَ أَنْ يَعْلَمُوا مِنْهُ بَعْضَ الظَّوَاهِرِ، وهـٰذا مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ الْمُخْتَصُّونَ، وهُوَ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْفَهْمِ السَّلِيم للنُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ الصَّحِيحَةِ في الإِسْلَام، الواردَة بِشَأْنِ هـٰذا الموضُوع.

علَىٰ أَنَّ العبارَةَ القرآنِيَّةَ هُنَا عَنْ هـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ لَيْسَ فيها قَصْرٌ ولَا حَصْرٌ.

القضيَّة الرَّابعة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعالَى: ﴿.. وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ..﴾: أي: وَمَا تَدْرِي نَفْسُ مَخْلُوقٍ ما أيّ مَخْلُوقٍ مَهْما سَمَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ مَا الَّذِي تَكْسِبُهُ في الْيَوْمِ التالِي لِيَوْمِها الَّتِي هِيَ فِيه.

- ﴿مَاذَا﴾ مَوْصُول بمَعْنَىٰ الَّذِي. أي: وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ الشّيْءَ الَّذِي تَكْسِبُهُ غداً.

- ﴿تَكْسِبُ﴾: أي: تَفْعَلُ.

إنَّ الإنْسَانَ قَدْ يُقَرِّرُ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلاً ما في الْيَوْم التَّالِي لِيَوْمِهِ، وَكثيراً مَا يَفْعَلُهُ، لكنْ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ مَشِيئَةٌ فِي أَنْ يَفْعَلَهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يفْعلَهُ، فَقَدْ تَأْتِيهِ مَنِيَّتُه، أَوْ يَمْرَضُ، أَوْ تقُومُ عَوَائق تعُوقُهُ، فَيَعْجِزُ عَنْ فِعْلِ مَا كَانَ قَرَّرَهُ.

وَلِـٰذَا خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المؤْمِنَ بِقَوْلِهِ لَهُ فِي سُورَةِ (الكَهْف/١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

لفظ «فاعل» بمَنزلَةِ الْفِعْلِ المضارع، يَدُلُّ هنا على الاسْتِقبال.

وَالمُرَادُ الْجَزْمُ بأَنَّهُ سَيَفْعَلُهُ قَطْعاً، لا مُجَرَّدُ الْعَزْمِ عَلَىٰ فِعْلِه، فَالْجَزْمُ يُعَارِضُهُ احْتِمَالُ وُجُودِ مَشيئَةٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُضَادَّةٍ لِفِعْلِهِ، ولِذَلِكَ يَعِدُ وَيَقُول مَعَ وَعْدِهِ: إِنْ شَاءَ الله، أيْ: وَإِنْ لَمْ يَشأ اللهُ فإنّي لَا أَفْعَلُهُ.

وَمَا يَنْطَبِقُ علىٰ الْغَدِ يَنْطَبِقُ علَىٰ كُلِّ أَزْمَانِ المسْتَقْبَلِ الذي يَبْدأُ عَقِبَ لحظَةِ التَّكَلُّم، أَمّا مَا بَعْدَ الْغَدِ فَهُو مِثْلُ الْغَدِ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ. وأَمَّا مَا دُونَ الْغَدِ مِنْ بَعْدِ لحظَةِ التَّكَلُّم، فالأَمْرُ فِيهِ احْتِمالان.

الاحْتِمَال الأَوَّل: أَنْ يَكُونَ دَاخِلاً تَحْتَ عِبارة ﴿غَدًا﴾ عَلَىٰ اعْتِبَارِ أَنَّ الْمُرَادَ بالْغَدِ كُلُّ أَزْمَانِ المسْتَقْبَلِ الَّذِي لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ فِيهِ، لاحْتِمَالِ وُجُودِ مَانِعٍ أو أَكْثَرَ سَبقَتْ بإِرَادتِهِ مَشِيئَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الاحْتِمَالُ الثّاني: أَنْ يَكُونَ فُسْحَةً مَنَحَهَا اللهُ لِلْمُؤمِنِ لِرَفْعِ الْحَرَجِ عَنْهُ، إذَا لَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، في أمْرٍ عَزَمَ أَنْ يَفْعَلَهُ الْيَوْمَ، لِصُعُوبَةِ مُلَاحَظَةِ هَـٰذا دَواماً، علىٰ أَنَّ الأَفْضَلَ لَهُ أَنْ يَقُولَ أَيضاً: إِنْ شَاءَ الله في كُلِّ أَمْرٍ أَنْ يَفْعَلَه، ولَوْ فِي سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ يَوْمِهِ.

الْقَضِيَّةُ الْخَامِسَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ ..﴾: أي: وَمَا تَدْرِي نَفْسُ مَخْلُوقٍ مَا أيِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوت.

إنَّ هَـٰذَا الْعِلْمَ مِمَّا حَجَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ النُّفُوسِ، فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ حَيَّةٌ مَا الأَرْضَ الَّتِي سَيكُونُ مَوْتُهَا فِيها.

لَقَدْ سَبَقَ فِي تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ، تَعْيِينُ الْمَكَانِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ مَوْتُ النَّفْسِ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ، مَعَ تَعْيِينِ الزَّمَانِ الَّذِي يَكُون مَوْتُهَا فِيهِ وَلَئِنْ أَعْلَمَ اللهُ نَفْساً بِأَجلِها الَّذِي سَتَمُوتُ فيه، فإنَّهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَخْفَىٰ عَنْهَا المكانَ الّذِي سَتَمُوتُ فِيه.

وَلِلَّهِ حِكَمٌ جَلِيلَةٌ فِي كُلِّ تَصْرِيفٍ مِنْ تَصَارِيفِهِ لِخَلْقِهِ، وفي كُلِّ تَقْدِيرٍ مِنْ تَقَادِيرِهِ، وفِي كُلِّ قَضَاءٍ مِنْ أَقْضِيَتِه.

فَاضِلٌ مِنَ الْفُضَلَاءِ يَعِيشُ بِنَحْوِ عُشْرِ قَلْبِهِ الْمَرِيض، الَّذِي أُجْرِيَتْ لَهُ فِيهِ عِدَّةُ عَمَلِيَّاتٍ، وَعَاشَ سِنِينَ عَدِيدَةً زِيَادَةً عَلَىٰ مَا قَدَّرَ الْأَطِبَّاءُ لَهُ أَنْ يَعِيش.

عَزَمَ عَلَىٰ أَنْ يُسَافِرَ إِلَىٰ الرِّبَاطِ مِنَ المملَكَةِ الْمَغْرِبية، وكَانَ مُقِيماً فِي مَكَّةَ هُو وَأَهْلُه، ولَهُ فِي مَدِينَةِ الرِّبَاطِ سَكَنٌ وبَعْضُ مَصَالِح.

وَرَجَاهُ إخوانُهُ ومُحِبُّوهُ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ أَطِبَّاءُ بأَنْ لَا يُسَافِرَ، لِأَنَّ حَالَتَهُ الصِّحِّيَّةَ لَا يُنَاسِبُهَا هٰذا السَّفَرُ الطَّوِيل، وقَدْ يَكُونُ هٰذا السَّفَرُ خطراً عَلَيْه، وأَلَحُّوا عَلَيْهِ إِلْحَاحاً شَدِيداً بأَنْ لا يُسَافِر.

لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لِرَجَاءَاتِهِمْ وَإِلْحَاحَاتِهِمْ، وَسَافَرَ إِلَىٰ الرِّبَاطِ، وبَعْدَ مُدَّةٍ غَيْرِ طَوِيلَةٍ جَاءَتْهُ مَنِيَّتُهُ فِيها، وَدُفِنَ هُنَاكَ، رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَة.

سَبَقَ في تَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ أَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي سَيَكُونُ مَوْتُهُ فيها، هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي مَاتَ عَلَيْها بالرِّبَاط، فَحَرَّكَ اللهُ قَلْبَهُ بأَنْ يُسَافِرَ إليها، وَلَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ نَصَائِحُ إِخْوَانِهِ ومُحِبِّيهِ، فَقَدْ كَانَ قَضَاءُ اللهِ غالِباً، فَجَعَلَ حِرْصَهُ عَلَىٰ السَّفَرِ إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي سَيَكُونُ مَوْتُهُ بِها نَابعاً مِنْ عُمْقِ قَلْبِهِ[1].

وَكَانَ قَدْ وَقَعَ فِي ظَنِّي أَنَّ حِرْصَهُ عَلَىٰ هٰذا السَّفَرِ مَدْفُوعٌ بِقَضَاءٍ رَبَّانِيّ، لِأَمْرٍ سَبَقَ بِهِ تَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤه.

---

(١) إِنَّهُ الدكتور «محمد خير عرقسوسي» تغمَّدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ، وأَسْكَنَهُ فَسِيح جنَّتِهِ.

والْقِصَصُ الْمُشَابِهَةُ فِي تَارِيخِ النَّاسِ كثيرةٌ، ومِنْهَا غَرَائِبُ تَدْخُلُ فِي أَمْثِلَةِ خَوارِقِ الْعَادَات.

الْقَضِيَّةُ السَّادِسة: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾:

في هٰذهِ الْقَضِيَّةِ تَذْكِيرٌ بِبَعْضِ عَنَاصِرِ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّةِ، ذَاتِ الصِّلَةِ بِما جاء في هٰذا الدَّرْسِ الْأَخِير مِنْ دُروسِ السّورة، وبما جَاءَ أيْضاً في أثناء السّورة.

عَلِيمٌ: صِيغَة مُبالَغَةٍ لاسم الفاعل «عالم» وَهُوَ يَدُلُّ بِمُسَاعَدَةِ نُصُوصٍ قُرْآنِيّةٍ أخْرَىٰ عَلَىٰ أَنَّهُ مُحِيطٌ بِكُلٍّ عِلْماً لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَعْلُومَةٌ ما، مَهْمَا كَانَتْ دَقِيقَةً تَتَعَلَّقُ بأصْغَرِ صَغِيرَة.

خبير: صِيغَةُ مُبالَغَةٍ أيضاً، إلَّا أَنَّ الْخِبْرَةَ أَخَصُّ مِنْ عُمُومِ الْعِلْم، إذْ هي تَتَعَلَّقُ بِعِلْمِ الأشْياءِ النَّاتِجِ عَنْ مُمَارَسَةِ صُنْعِ كُلِّ صَغِيرٍ وكَبيرٍ فيها.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الْأَخِيرِ مِنْ دُرُوس السُّورَة. والحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدِهِ وتوفيقه وفَتْحِه.



(١٧)
مُلْحق: مُسْتَخْرَجات بَلاَغيَّة مِنَ السُّورَة

توجد في سورة (لقمان) اختيارات بَلَاغِيَّة عَدِيدَة، وقَد اسْتَخْرَجْتُ منها بِعَوْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في هٰذا المَلْحق الاختيارات الْبَلَاغِية التالية:

أوّلاً

من الفنون البلاغيّة القرآنيَّة الّتي لم يتعَرَّضْ لها عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ ولَمْ يُنَبِّهُوا عَلَيْهَا.

الاعْتِرَاضُ بِكَلَام مُبَاشِرٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مُوجَّهٍ لِلنَّاسِ، ضِمْنَ حِكَايَتِهِ كَلَاماً لِغَيْرِه، للإشْعَارِ بِتَصْدِيقِ المَحْكِيِّ عَنْ غَيْرِه، وأَنَّهُ مُسْتَفَادٌ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي رِسَالَاتِهِ السَّابِقَةِ للنَّاس.

لقد ذَكَرَ الْبَلاغِيّون الاعْتِرَاضَ بِوَجْهٍ عَامٍّ، ولكِنْ لَمْ يُنَبِّهُوا عَلَىٰ هٰذا الْغَرَضِ الَّذِي ذَكَرْتُه.

ومِنْ أمْثِلَةِ هٰذا الْفَنِّ الرَّفيع الاعْتِرَاض بالْآيَتَيْن (١٤) و(١٥) أثْنَاءَ حِكَايَةِ وَصَايَا لُقْمَان الحكيم لابْنِه، تَأَمَّلْ قول اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فيها:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾.

ثانياً

مِنَ الْفُنون البلاغيّة «الاسْتِعَارَة» وهي استعمال لفظٍ مَا فِي غَيْرِ ما وُضِعَ له في اصطلاحٍ بِهِ التَّخاطب، لِعَلَاقَةِ المشابَهَةِ، مَعَ قَرِينَةٍ صارِفَةٍ عن إرادَة المعنى الموضوع له في اصطلاح به التخاطب.

ومن أمثلة الاستعارة في السورة ما يلي:

المثال الأول: قول الله عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾:

(١) في هـٰذِهِ الآيَةِ شُبِّهَ الانْقِيَادُ لِأَوَامِرِ اللهِ ونَوَاهِيهِ بِمَنْ يُسْلِمُ وَجْهَهُ لِقَائِدٍ يقُودُهُ مِن جِهَةِ وَجْهِهِ، واسْتُعِير لَفْظُ: ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ للدَّلَالَةِ على مَعْنَىٰ: «يَنْقَادُ لَهُ».

وهـٰذه استعَارَةٌ دَقِيقَةُ الدَّلَالَةِ علَىٰ مَعْنَىٰ الانقياد الْكامِلِ لِلَّهِ تَعالَىٰ، كما تَنْقَادُ النَّاقَةُ مَثلاً مِنْ قِبَلِ وَجْهِها لِقَائدها مُطَاوِعَة.

وَلَيْسَ في هـٰذا التّشبيهِ الّذِي بُنِيَتْ عَلَيْه الاسْتِعَارَة إهَانَةٌ لِلْمُنْقَادِ، بَلْ فِيه تَكْرِيمٌ لَهُ، لِأَنَّ الْقَائِدَ لَهُ رَبُّ الْعَالَمِين.

(٢) وفي هـٰذِهِ الآيَةِ شُبِّهَ الانْقِيَادُ المتَتَابعُ مَعَ الْأَزْمَانِ المتَتَابِعَةِ، باسْتِمْسَاكِ مُرَافِقِ قَافِلَةٍ يَخْشَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنَ الانْفِرَادِ والضَّيَاع بِعُرْوَةٍ وُثْقَىٰ مِنْ عُرَىٰ أَحْمَالِ رَوَاحِلِها، واسْتُعِير هـٰذا الاسْتِمْسَاكُ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ شِدَّةِ حِرْصِ المؤمِنِ المنْقَادِ لِأوامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَمِرَّ مُتَابِعاً مُنْقَاداً خَوْفاً عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنَ الضَّيَاعِ والْهَلَاك، ورَغْبَةً فِي الْوصُولِ سالماً آمِناً نَاجِياً، سَعِيدَ الْعَاقِبَةِ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ الْكَافِرِين:

- ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾:

شُبّهَ فِي هـٰذِهِ الآيَةِ الْأَلَمُ الشَّدِيدُ بالشَّيْءِ الْغَلِيظ، أَخْذاً مِنْ أَنَّ الْعَصَا الْغَلِيظَةَ يَكُونُ الضَّرْبُ بِهَا في الْعَادَةِ أَشَدَّ إيلاماً مِنَ الْعَصَا الَّتِي هِي مِنْ نَوعِهَا وَصِنْفِها، إذَا كَانَتْ غَيْرَ غَلِيظَة وضُرِبَ بها.

وَوُصِفَ الْعَذَابُ الشّدِيدُ الْأَلِيمُ بأَنَّهُ غَلِيظٌ على سَبِيلِ الاسْتِعَارَة، وَلَا تَخْفَىٰ الْمُلَاءَمَةُ بَيْنَ الْأَلَمِ الشّدِيدِ وَالضَّرْبِ بِالْعَصا الْغَلِيظَةِ.

ثالثاً

مِنَ الْفُنُونِ الْبَلَاغِيَّةِ الَّتِي يَحْلُو لِلْمُرَبِّي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا للتَّقَرُّبِ والتَّحَبُّبِ إلَىٰ مَنْ يُرَبِّيهِ «التّصْغِير».

وَمِنْ هـٰذا الْفَنِّ مَا جاءَ فِي حِكَايَةِ أَقْوَالِ لُقْمَانَ الحكيمِ لابْنِهِ، إذْ قَالَ لَهُ: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ بَدَلَ: «يا ابْنِي» في الآيات «١٣ و١٦ و١٧».

رابعاً

من الفنون الْبَلاَغِيَّة الَّتِي يُعَبَّرُ فيها عَنِ المرادِ بِتَعْبِيرٍ دلاَلَتُهُ غَيْرُ مُبَاشِرَة «الكناية».

وهي عِنْد عُلَمَاءُ البيان: اللفظ المسْتَعْمَلُ فيما وُضِعَ لَهُ فِي اصْطِلاحِ التَّخاطُبِ للدَّلاَلَةِ بِهِ عَلَىٰ مَعْنَىً آخر لازمٍ له، أو مُصَاحِبٍ لَهُ، أَوْ يُشَارُ بِهِ عَادةً إلَيه، لِمَا بَيْنَهُمَا مِن الملابَسَةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه.

والكنايات في سورة (لقمان) كثيرة، ومِنْ أمْثِلَتِها مَا يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿.. وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾:

أي: فإنَّهُ لَا يَضُرُّ اللهَ شيئاً، ولَا يَنْقُصُ من مُلْكِ الله شيئاً، فُهِمَ هـٰذا مِنْ لَازِمِ مَعْنَىٰ العِبَارَة لَا مِنْ صريحِها، فهي كنايَة.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

- ﴿.. ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: ثُمَّ إليَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُحَاسِبُكُمْ وأفْصِلُ الْقَضَاء بَيْنَكُمْ وأجَازِيكم على أعْمَالِكُمْ بِحَسَبِهَا.

جَاءَتِ الكِنَايَةُ عَنْ هـٰذا بِذِكْرِ ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ لِأَنَّ هـٰذا مُصَاحِبٌ لِمَا يَجْرِي فِي مَحْكَمَةِ اللهِ يَوْمَ الدِّين.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي حِكَايَةِ مَا أَوْصَىٰ بِهِ «لقمان» ابْنَهُ:

• ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾:

(١) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: أَيْ: ولَا تَتَكَبَّرْ، لِأَنَّ إمالَةَ الْخَدّ لِلنَّاسِ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الكِبْرِ.

(٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾: أَيْ: لَا تَكُنْ مُخْتَالاً فخُوراً، لِئَلَّا تُعَرِّضَ نَفْسَكَ لِسَخَطِ اللهِ وعِقَابه.

(٣) ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾: أي: فَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ رَفعاً مُزْعِجاً كَمَا تَرْفَعُ الْحَمِيرُ أصْواتها، فَإِنَّ هٰذا يَخْفِضُ مَنْزِلَتَكَ فِي نَظَرِ النّاس، وَيُخْرِجُكَ عَنْ دَائِرَةِ فُضَلَاءِ النَّاس، الَّذِينَ يَلْتَزِمُونَ بِالآدَابِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الرَّاقِيةِ.

أَمْثِلَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ يَجِدُهَا الْبَلَاغِيُّ فِي خَوَاتِيم الآيات (٢٢ و٢٣ و٢٦ و٢٧ و٢٨).

خامساً

ومن الاختيارات البلاغيَّةِ الرّفيعة في السّورة (الإيجاز بالحذف) ومِنْ أمثلَتِه فيها ما يلي:

المثال الأوّل: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأن المعانِدِينَ مِنَ المشْركين:

• ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾:

(١) أي: قَالُوا: لَا نَتَّبِعُ مَا أَنْزَلَ اللهُ، بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا.

(٢) ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾: أَيَتَّبِعُونَ مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ آبَاءَكم وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إلَىٰ عَذَابِ السَّعِير.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿.. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: وَفَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في وَحدانِيَّةِ اللهِ في رُبُوبِيَّته وإِلَهِيَّتِهِ وعَظِيم قُدْرَتِهِ وَسَامِي حِكْمَتِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدىً ولا كِتَابٍ مُنِير.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا .. ﴿٣٣﴾﴾:

أي: اتَّقُوا عِقَابَ رَبِّكُمُ بِالإيمانِ بِه، وبِفِعْلِ مَا أَمَرَ به، وتَرْكِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ، واخْشَوْا عَذَابَهُ في يَوْمٍ....

سادساً

من دواعي اختيارِ اسْمِ الإشارَةِ الموضوع للمشار إِلَيْهِ البعيد، مع أنّ المشار إليه في البيان قَرِيبٌ، تَكْرِيمُهُ، وبَيَانُ ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِه وعُلُوّ شَأْنِه.

ومن الأَمْثِلَةِ على هٰذا في السُّورَة ما يلي:

المثال الأول: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾:

جاءت الإشَارَة بعبارة: ﴿تِلۡكَ﴾ إِلَىٰ الآياتِ القريبة المتْلُوَّةِ المسْمُوعَة، للدَّلاَلَة على ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِها، وعُلُوّ شَأنِها.

المثال الثاني: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْمُحْسِنِين:

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾﴾:

جَاءَتِ الإشارة إليهم باسْم الإشَارة الموضوع لِلْبَعِيدينَ في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للدَّلاَلَة عَلَىٰ ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وعُلُوّ شَأْنِهِم.

المثال الثالث: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حكايَةً لِبَعْضِ أقوال لقمان لابْنِهِ:

• ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾:

أي: إنَّ ذَلِكَ المقامَ الرَّفِيعَ فِي جِهَادِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ والأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المنكر، وَهُوَ أَنْ تَصْبِرَ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ وَأَنْتَ تُجاهِدُ هـٰذا الْجِهَادَ، هُوَ مِنْ عَزْمِ الأُمور.

سابعاً

مِنَ الفنون البلاغِيّةِ الّتِي يَدْعُو إِلَيْها الإيجازُ والاقتصادُ في التعبير مع مَا فيه مِنْ حَرِكَةٍ فِكْرِيَّة مُعْجبة «الالْتِفَات» وهو التَّحوُّل في التعبير الكَلامِي بَيْنَ التكلُّم، والخطاب، والْغَيْبَة، ومِنْ مُخَاطَبٍ إِلَىٰ مُخَاطَبٍ آخَرَ فيما ظَهَرَ لي.

ومِنْ أمْثِلَتِهِ في السُّورة قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

• ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾:

كانَ الكَلامُ مُوَجّهاً بأسْلُوب خِطاب النَّاسِ جَمِيعاً، والْتَفَتَ إِلَىٰ التَّكَلُّمِ بضمير المتَكَلِّم العظيم: ﴿وَأَنزَلْنَا ..﴾ والْتَفَتَ أيْضاً بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ خِطَابِ المشْرِكين: ﴿فَأَرُونِى ..﴾ وأخيراً توجَّهَ الخِطَابُ لِلْمُؤْمِنين: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ما أَعْجَبَ هـٰذَا الأَسْلُوبَ الرَّفِيعَ وَأَلْطَفَهُ مَعَ إيجازٍ رائع.

ثامناً

من الفنون البلاغيَّةِ اسْتِخْدَامُ اللَّفْظَةِ في المعْنَىٰ المضَادِّ لمعناها لدواع بَلاغِيَّة. ومِنْ أمْثِلَتِهِ في السُّورَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ بِشَأْنِ المسْتَكْبِرِ الَّذِي يَتوَلَّىٰ عَنْ آيَاتِ رَبِّه:

• ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⁽⁷⁾﴾:

أَصْلُ التَّبْشِيرِ الإخْبَارُ بِمَا يُفْرِحُ وَيَسُرُّ، ومِنْ دَوَاعِي اسْتِعْمَالِهِ في الإنْذَارِ بِمَا يَسُوءُ وَيَضُرُّ، إرَادَةُ التّهكُّمِ بِمَنْ يُوَجَّهُ لَهُ الْقَوْل.

تاسعاً

ومِنَ الْفُنُون البلاغية التي ذكَرَهَا البلاغيّون «القصر» وهو: تَخْصِيصُ شَيْءٍ بشَيْءٍ بِعِبَارَةٍ كَلامِيَّةٍ تَدُلُّ عَلَيْه.

ومِنَ الْقَصْرِ في السُّورة: قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الْمُحْسِنِينَ من المؤمنين:

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⁽⁵⁾﴾:

ففي عبارة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قَصْرٌ بِتَعْرِيف طَرَفي الإسْنَادِ مع ضمير الفصل أيضاً، فالْفَلاحُ العظيم مقْصُورٌ عَلَيْهِمْ يومَ الدّين.

عاشراً

من الفنون البلاغيَّةِ خُرُوجُ الاسْتِفْهَام عَنْ أَصْلِ دَلاَلَتِهِ الّتِي هي طَلَبُ الإفْهام، للدَّلاَلَةِ علىٰ معانٍ أُخْرَىٰ، ومِنْ أمْثِلَةِ هـٰذا الخروج، ما يلي:

(١) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجلَّ خِطَاباً للنَّاس:

• ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ .. ⁽²⁰⁾﴾:

الاسْتِفْهَامُ فِي ﴿أَلَمْ تَرَوْا ..﴾ يُرَادُ بِهِ هُنَا حَثُّ مَنْ لم يرَ عَلَىٰ أَنْ يَرَىٰ. وتَلْوِيمُ وَتَثْرِيبُ مَنْ رَأَىٰ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَىٰ دَلَالَةِ مَا رَأَىٰ.

(٢) وقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بأَسْلُوب الْخِطَابِ الإفْرَادِي:

• ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾:

وقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أيضاً:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾:

الاسْتِفْهَام بعِبَارَة: ﴿أَلَمْ تَرَ ..﴾ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْن، نَظِير الاسْتِفْهام في الآية (٢٠) الآنِفَةِ الذِّكْر.

حادي عشر

من الفنون البلاغية «التَّشْبِيهُ» وهو الدَّلَالَةُ عَلَىٰ مُشَارِكَةِ شيءٍ لِشَيْءٍ فِي مَعْنًى من المعاني أَوْ أَكْثَرَ علَىٰ سَبِيلِ التَّطَابُقِ أو التّقارُبِ لِغَرَضٍ مَا.

ومِنَ التَّشْبِيهِ الْحَكِيم قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَأْنِ الّذي يَتَوَلَّىٰ عَنْ آياتِ اللهِ مُسْتَكْبِراً:

• ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾:

جاءَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ تَشْبِيهَانِ لِلَّذِي يَتَوَلَّىٰ عَنْ سَمَاعِ آياتِ اللهِ مُسْتَكْبِراً، دُوْن حَرْفِ عَطْفٍ بَيْنهما لِلدَّلَالَةِ على أَحْوَالٍ بِهـٰذا المتوَلِّي، أَوْ أَحْوَالٍ لِأَفراد الْمُتوَلِّين.

فَمِنْهُمْ يُشْبِهُ حَالُهُ حَالَ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ مَا تُلِيَ عَلَيْهِ من آياتِ اللهِ، فَهُوَ

كَالأَصَمّ، لأَنّ شِدَّةَ عِنَادِهِ في كُفْرِه أغْلَقَتْ عَلَيْهِ كُلَّ الْأَبْوَاب الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُوصِلَ إِلَىٰ مَرَاكِزِ سَمْعِهِ في دِمَاغِهِ مَا تُلِيَ بِحُضُورِهِ.

ومِنْهُمْ يُشْبِهُ حَالَهُ مِنْ حَالَ في سَمْعِهِ ثِقَلٌ شَدِيدٌ، فَهُوَ يَسْمَعُ وَلَكِنَّ سَمْعَهُ بَاهِتٌ وضَعِيفٌ جدّاً.

الْوَقْر: ضَعْفٌ شَدِيدٌ في السَّمع، وَقَدْ يُطْلَقُ على الصَّمَمِ.

وأَكْتَفِي بِهٰذِهِ المسْتَخْرجَاتِ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ السّورة من اختيارات بلَاغِيَّةٍ حَكِيمة.

والحمْدُ لِلَّهِ على معونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِه، وفَتْحِه.



خاتمة المجلّد الحادي عشر

هـٰذا مَا فتح اللهُ بِهِ عليّ في تَدَبُّر المجلَّدِ الحادي عشر من كتاب «مَعَارج التفكُّر وَدَقَائِق التدبّر» المشتمل على تدبّر ما يلي:

(١) سورة (الحجر/ ٥٤ نزول) وَملحق مستخرجات بلاغيّة مِنْها.

(٢) سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) ومُلحق مستخرجات بلاغيّة منها.

(٣) سُورَة (الصَّافات/ ٥٦ نزول) وَملحق مستخرجات بلاغيّة منها.

(٤) سورة (لقمان/ ٥٧ نزول) وملحق مستخرجات بلاغيّة منها.

وقد انتهيتُ مِنْ تَسْطِير هـٰذا المجلّد في يوم الخميس ٢ ربيع الآخر من سنة ١٤٢٣ هجرية الموافق لـ١٣ حزيران من سنة ٢٠٠٢ ميلادية.

وأسأل اللهَ العليم الحكيم الجواد الوهّابَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ الْقَبُولَ الحسَنَ، وأَنْ يَنْفَعَ بِهِ نفعاً كثيراً واسعاً، وأنْ يَجْعَلَ عَمَلِي فِيهِ خالصاً لِوَجْهِهِ الكريم.

وَعَلَىٰ طَرِيقتي في المجلَّداتِ السَّابِقات، فقد اجْتَهَدْت في الالْتِزامِ بالقواعِدِ الْأَرْبَعِينَ الَّتِي اشْتَمَلَ عَلَيْها كتابي «قواعد التدبّر الأمثل لِكِتَاب اللهِ عَزَّ وَجلَّ».

رَبِّ لَكَ الحَمْدُ علَىٰ مَا تَفَضَّلْتَ بِهِ عَلَيَّ مِنْ عَطَايَاكَ وَمِنَنِك ومَعُونَتِكَ ومَدَدِكَ، وفَتْحِكَ الْمُبِين، إِنَّكَ الجوادُ الوهَّابُ المنَّان.

رَبِّ أَوْزِعْنِي ووفّقْنِي وَاقْضِ لِي أَنْ أكُونَ لَكَ عَبْداً شَكُوراً، ما أبقيتني فِي هـٰذِهِ الحياة الدُّنيا، حتَّىٰ آخِرِ نَفَسٍ من أنفاسِي فيها.

وأسْأَلُكَ رَبِّي أَنْ أكُونَ عِنْدَكَ يَوْمَ الدِّينَ مِن الْمُحْسِنِين الأَبْرَارِ المتقين، إنَّكَ أنْتَ ذُو الْفَضْلِ العظيم.

وآخر دَعْوانا أنِ الحمد لله ربِّ الْعَالَمِين، وسَلَامٌ على المرسلين، وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وآلِهِ وَصَحْبه أجْمَعِين، ومَنْ تَبِعَهمْ بإحْسَانٍ إلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

مكة المكرمة في ٢/٤/١٤٢٣هـ
و١٣/٦/٢٠٠٢م

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

الفهرس

الموضوع | الصفحة

سورة الحِجْر
١٥ مصحف ٥٤ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

سُورَة الأنعام

٦ مصحف ٥٥ نزول

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

سورة الصَّافَّات

٣٧ مصحف ٥٦ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

سُورة لُقْمان
٣١ مصحف ٥٧ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

والحمد لله ربّ العالمين..